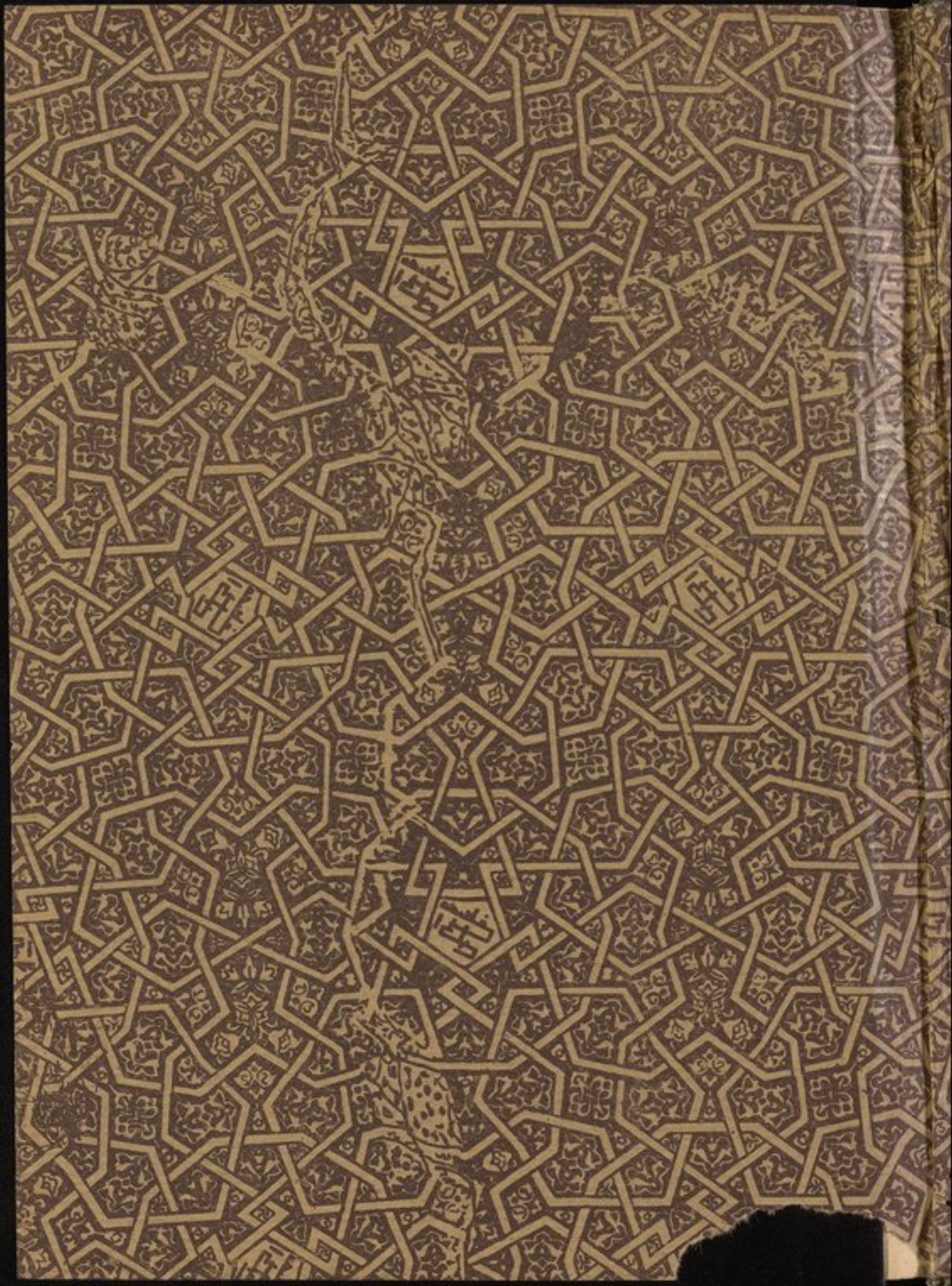
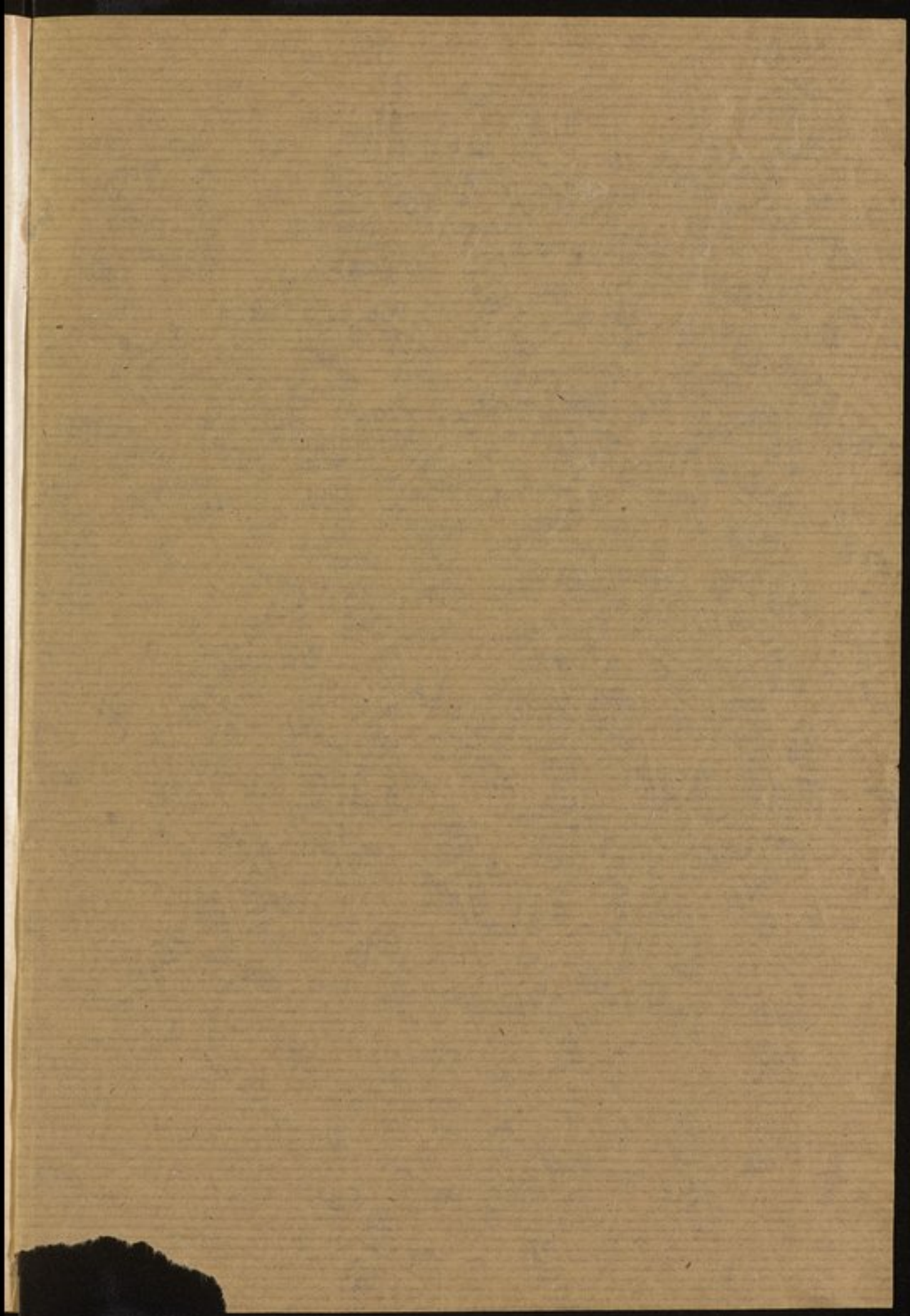




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY





الجواهر

في تفسير الفرائد الكثر

الشمس على عجائب بئع الماكرونات وغرائب الألباب الباهرات

تأليف

الأستاذ المحقق الشيخ طنطاوي جوهرى

للمدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الخامس عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة
مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر
مباشرة محمد امين عمران

BP
130.4
J27
V-15-16

« وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(تفسير سورة الروم)

(وهي مكية إلا قوله تعالى « وله الحمد في السموات والأرض وعشيا

وحين تظهرون » فمدنية

(وآياتها ستون - نزلت بعد الانشقاق)

(مقدمة)

(مناسبة هذه السورة لما قبلها)

اعلم أن السورة المتقدمة قد بدئت بالجهاد وختمت به فرد عجزها على صدرها : بدأها بأن الناس لم يخلقوا في الأرض ليناموا على بساط الراحة وإنما خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم وأنهم يلاقون مصاعب ومصائب من الأهل والأصحاب والأمم التي يكونون فيها ، وأخذ يقص ماجرى لنوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح وموسى وما كان من صبر الأنبياء وخذلان الكافرين وضرب لهم مثلا بالعنكبوت وبيتها وبين لهم أن المدار على العقل والحكمة والفهم في القرآن الخ ، وزهدهم في الدنيا وأمرهم بالصبر والتوكل فان الرزق على الله كما رزق الدواب .

فأما (سورة الروم) فقد بدأها بأن محمدا صلى الله عليه وسلم تابع للأنبيا فانه محسن كما أحسنوا ، فإذا كان الأنبياء قد جاهدوا، وصبروا ثم نصروا فان محمدا صلى الله عليه وسلم قد جاهد وصبر ففاز ، فإذا كان آخر السورة هو ملخص ما فيها : أى إن قوله تعالى «والذين جاهدوا فينا» الخ هو ملخص ماجاء في السورة فان أول الروم يفيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم مثلهم ، ألا ترى أنه أخبر بأن الروم سيغلبون بعد أن غلبهم الفرس ، وأيضا أمته ستغلب الفرس في تلك الجهة . فهذان (نصران) نصر نبوى علمى ونصر حربى بالفتح ،

فأصبحت هذه السورة متممة لما قبلها . ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم أخذ بقرره ويفصل ما ذكره إبراهيم في سورة العنكبوت « فانظروا كيف بدأ الخلق » الخ فهنا أخذ يبين ذلك فقال « أو لم يسيروا في الأرض » الخ ، وقال « الله يبدأ الخلق ثم يعيده » الخ . وفصل ذلك أبهج وأجمل تفصيل فقال « ومن آياته أن خلقكم من تراب » الخ . إذن سورة الروم مفصلة لبعض ما أجمل في سورة العنكبوت تارة ومكلمة لتاريخ الأنبياء بذكر خاتمهم ونصره تارة أخرى اه .

﴿ تقسيم السورة إلى أربعة أقسام ﴾

(القسم الأول) في تفسير البسملة .

(القسم الثاني) في بعض سر «الم» .

(القسم الثالث) في إثبات النبوة بالإخبار بالغيب وفي العجائب الدالة على الوحدانية من أول السورة إلى

قوله تعالى « وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

(القسم الرابع) في تذكير الناس بالنعم وبالنعم ليشكروا الله على الأولى ويخافوه على الثانية وآيات أخرى

لهاجة الجاهدين من قوله « ضرب لكم مثلا من أنفسكم » إلى آخر السورة .

﴿ القسم الأول: في تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » ﴾

استيقظت قبيل الفجر ليلة الجمعة (٦) من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ ونظرت بهجة النجوم وجمالها وهن عوانس أوانس يقلن لأرواح أهل الأرض (هلم إلينا) وفيهن الثريا ونجوم الجبار والجوساكن والدنيا هادئة فأعجبنى منظرها وبهرنى حسنها وأدهشنى جمالها وصرت أقول في نفسى إن الناظر الجميلة تسأمها النفس إذا طال أمدها واعتيد نظرها . ولكن هذه الأوانس العوانس والخنس الجوارى الكنس بهجات الطلعة لنا ظرين وإن كثرتناظرين ووافق البتداء الخبر . إن كل مبذول متروك وكل ممتنع محبوب . ولكن هذه الحور للقصورات في السماء تعرض كل ليلة على الناظرين وتتجلى للعاقلين وهم منها لا يسأمون ، وكلما ازدادوا لها نظرا ازدادوا لها حبا .

إن حجرة نوى فوق الدور العلوى من المنزل وأمامها فناء لاسقف له وقد اعتدت في زمن الصيف أن أنام في هذا الفناء لأقابل الهواء الجوى الخالص ولأشاهد الكواكب الجميلة البديعة ، ففي هذه الليالي كلما استيقظت قبيل الفجر شاهدت أربع مجموعات منها تسير من الشرق إلى الغرب . ولا جرم أن للنجوم أسماء اصطلاحية ذكرتها في الأجزاء السابقة وهذه الأسماء تختلف باختلاف الأمم من أهل الصين والهند والبابليين والعرب بحسب ماتخيله كل أمة من شئونها وما يغلب على خيالها مما لا محل للافاضة فيه كما تسمى عندنا النجوم المجتمعة كعقود العنب بالثريا ويسميتها قوم (الدجاجة وأقراخها) كما تقدم ، فلما كان الأمر كذلك ظهرت لى هذه الكواكب فى هذه الليالي بهيئة صحائف كتاب أمسك به صاحبه وطواه فى يده وأنا وأهل الأرض فى داخل ذلك المظوى وهو يدبره حوالينا من الشرق إلى المغرب فأولا تمر الثريا ، ويتبعها من جهة الشرق مجموعة كواكب كونت ما يشبه الزاوية الحادة وملتقى الخطين جهة الغرب وسطح الزاوية جهة الشرق ثم بلى هذه الزاوية مجموعة جميلة من النجوم تظهر بهيئة خط منحني ظريف بديع كقلادة الحسناء أكثر نجومه تشبه (كوكب السها) فى قلة ضوئه ، ويتبع هذا الخط من جهة الشرق على بعد يساوى المسافة التى بينه وبين الثريا نجوم شديدة اللمعان من القدر الأول من نجوم الجبار ويسميتها العامة فى بلادنا بالميزان . ذلك لأنها مكونة من ثلاث نجوم على هيئة خط مستقيم وثلاث أخرى تكون خطا مستقيما مائلا على الأول ، فهذان الخطان يعطيان للخيال صورة ميزان الباعة فى بلادنا ، فهو مكون من قضيب يسكبه البائع بيده (فى داخله لسان الميزان) وقد علق فيه قضيب آخر

من وسطه يحمل السكتين ، فهذه أربع مجموعات متتابعات أراها كل ليلة تمر فوق رأسي من الشرق إلى الغرب وأنا ألاحظها وكما استيقظت كنت أراقب الثريا التي هي قائمتها جميعا فكنت أعرف الوقت تقريبا بها وإن كانت كل ليلة تتقدم جهة الغرب قليلا وكنت ألاحظ نهر الهجرة بقرب هذه المجموعات في أكناف السماء ، فهؤلاء وهؤلاء جميعا يظهرن كل ليلة ويسرن فوق رأسي من الشرق إلى الغرب ، قلت ياسبحان الله هذا كتاب كأنه يشير إلى آية « والسعوات مطويات بيمينه » فهذه السماء من السموات مكونة من عوالم الأثير التي لا ترى وعدم رؤيتها لا يحرمها اسم الوجود . فهذه العوالم السماوية للوجود فعلا بحسب ما اتفق عليه الناس قد برزت فيها اللواعق والبدايع السماة مجوما وهي متلائمة منتظمة وهنا يعجب الانسان من سقف مرفوع بديع أزرق رصع بالجواهر ولم ير الناس سقفا مرصعا إلا إذا كان من مادة جامدة صلبة . أما السقف الذي لا تراه العيون ولا تتخيله الأفهام وإنما هو أمر أشبه بالخيال فكيف رصع بالجواهر وكيف ثبتت مئات الملايين من السنين . إن سقوف منازلنا كلها تتداعى إلى السقوط (وهي متينة البناء قوية للسادة) فكيف رأينا هذا السقف الذي هو أرق من الهواء وألطف من الضياء لا يعتره السقوط ولا يحوم حوله الانحلال . إن هذه من معجزات الطبيعة وآياتها البديعة . إن من شأن السقوف أن تثبت وتساكن من يوم وضعها إلى يوم سقوطها . أما هذا السقف فهو فضلا عن دوامه آمادا وآمادا لا يهدأ ليلا ولا نهارا فهو معجز من (وجهين) ثباته مع لطف مادته ودورانته حولنا، وهناك آية نائلة وهو أنه لوح منقوش بسطور من نور فهو رق منشور ومن أبدع البدائع أن الورق عادة أبيض اللون والكتابة بالمداد الأسود، فالصحائف بيض والسطور سود أما هذه الصحيفة فهي زرقاء ونقوشها بيضاء زاهرة، إذن هذه الصحائف أبدع وعلما مكتوب بقطع من الألماس ومنظرها أبدع من منظر الحجر، وأي نسبة بين جمال الجواهر وسواد الحجر . فأين الثريا وأين الثريا ذلك يحاكي الحقيقة لأن ماتعها الكتب إنغامي نقوش دالة على ألفاظ دالة على معان يتخيلها الناس من خلال ذلك السواد الذي يتخلل بياض الورق، ولذلك ترى علوم الناس فيها الحقيقة والخيال والقطوع به والمظنون . أما مناظر هذه الصحائف السماوية فإن جمالها يحكي حقائقها من حيث الهجة والجمال ويشير إلى ما وراءه من أقدار عظيمة وأبعاد هائلة . فهذه الكواكب التي رأيتها الليلة كلها ثابتة، ثم إنى فكرت في دورانها حولي كل ليلة وقلت إنى أصبحت موقنا بأن كل جسم أو وصف أو حركة في هذه الدنيا الجلية له غاية . فإذا كان جمال الزهرات وروائحها العطرية لم تخلق إلا لغاية وهي أن تجلب الحشرات بحسن منظرها وعاطر رائحتها لتشرب الرحيق الخنوم والعمل الخنثي في أسفل الزهرات، ومتى نالت بغيتها فقد آتت عملها وهو الإلقاح الإناث بواسطة ذرات الإلقاح من الذكور ويكون ذلك العمل مفيدا لنفس النبات ولنفس الحشرات . فإذا كان هذا شأن هذه الدنيا فلا حركة ولا جوهر ولا عرض إلا لفائدة وغاية حميدة ، فما غاية مرور هذه الصحائف الزرقاء المرصعة بالجواهر الثمينة المختلفة الأشكال كل ليلة فوق رأسي في فناء حجرتي ؟ لم يضع في هذا السكون منظر ولا حركة لغير فائدة فكيف تضيع تمرات هذه الحركات حولي ولم أكد أم هذا الحاطر حتى وقع في نفسي أن الصحائف على (قسمين) صحائف صغيرة يحركها الناس بأيديهم ليقروها و صحائف كبيرة وهي هذه السموات المطويات بيمين كاتبها القدير الذي يعلم أن الناس لا يقدرون على تحريكها كما قدروا هم على تحريك صحائفهم ليقروها وتحركها بيده هو فدارت حولهم فلذلك تمر على كل ليلة تجدير بنا أن نقرأها . إن الانسان لضعفه لا يدري إلا ما يكتبه آدمي مثله ، أما كتاب السموات فهو (وإن كان مبذولا) لم يدرسه إلا قليل هم صفوة الانسان في الأرض ولهذا الكتاب منزلة أخرى وهو أنه منبع الهدى ومصدر الرزق؛ أما تأليف الناس فهو هدى ومصدر الرزق آت من غيره فتأليف الله جمع غذاء العقل وغذاء الجسم وهذا من أبدع الاقتصاد في العمل والأحكام

اللهم إني أخجل أن أرى كتابك مبذولا لي وأنت تديره فوق رأسي كل ليلة وأنا عنه معرض ، كتابك المسطر بالحروف الكبيرة تلك الحروف التي يعجز عن درسها صغار العقول ويفرح بها المفكرون ، هذا الكتاب الذي تشرق سطوره ليلا وتضي نهارا فإذا قلبته أمامي وأنا عنه ساه في الويل كل الويل .

فويل لمن نشر الله له صحائفه فأعرض عنها وهو يقول « والسما بنيناها بأيدينا وإنما لموسعون » ويقول « وجعلنا السما سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » ويقول « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة » الخ وكيف تفتح أبواب السماء لمن تمرصحاتها عليه كل ليلة وهو معرض عن جمالها غارق في بحار الأحوال المادية لا شعور له بما وراءه ولا لذة له فيها يلقاه ، حبس في المسائل الجزئية والأعمال الحيوية فهو نائم والدهر يقظان ، وما هذه الكواكب إلا حدائق تشاهد الأرواح بعد الموت جمالها وتبهج بمنظرها ، وليست كل روح أهلا لمرآها ، ولا كل نفس بقادرة على الابتهاج بمنظر حلالها كلا فأكثر النفوس الأرضية عنها لاهية ساهية ولا ترى النفوس بعد الموت إلا ما عشتته في الحياة .
* إن الطيور على أشكالها تقع * « قل كل يعمل على شاكلته - ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

هذه نظراتي في تلك الليلة ، ثم إن الفكر عارضه ما قطعته وأخذت النفس تذكر شئونا أخرى فنظرت للنجوم كرة أخرى فلم ألحظ ذلك الجمال ولم أشعر بذلك السكال فعدلت أن هذه حال جميع الغافلين . إن هذه النجوم لا يظهر جمالها وبهجتها إلا لنفوس صفت وعقول خلقت ، أما النفوس التي لم تعرف ماهو الجمال ولم تدرك ذلك السكال واختص عشقتها بظواهر الشهوات فهذه نفوس محبوسة وقيل في أمثالها « فما بكت عليهم السماء والأرض » ويقال لهم على سبيل الاعتبار « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة » الخ . فمن أراد أن تفتح له أبواب السماء في الآخرة فليعلم أن مفتاحها اليوم معه فليقرأ قوله تعالى : « وزيناهما للناظرين » ولينظر اليوم هذا الجمال . وهل شعر بالحسن والجمال وفكر في هذه العجائب واشتاق إلى معرفة الحقائق وبحث في هذا الوجود وأصله وما للقصور منه وكيف نظامه وهل الرحمة عامة فيه ؟ ولم كان العذاب في الدنيا والآخرة حتم على قوم ؟ وإذا كان الله مبدع الأكوان هو الذي خلق هذه العوالم الجميلة ونسقتها وأبدعها وجعلها غاية في الإبداع والحسن والاشراق . فكيف يعقل أنه هو نفسه يذيق نفوسنا العدم ويوقعنا في الندم ويقدر علينا الحسرات تتلوها الحسرات . أفليس هو الفاعل المختار . هذه الخواطر تلها خواطر ثم أخذتني سنة من النوم غييل لي كأنني في روضة فيحاء جميلة المنظر بهجة فيها من كل فاكهة زوجان ، وبينما أنا أمتع بمنظرها في النوم كما كنت أتهيج بمنظر النجوم في اليقظة ، إذ تمثل لي شخصان من نور أحدهما أكبر من الآخر منظرهما بديع بهيج وهما على هيئة الإنسان فأخذت أفكر في هذا المنظر ونسيت جمال الحديقة الغناء ، وأخذت أفكر في أمرها ولم ظهرا لي ؟ وما القصد من هذا ؟ فأخذت أصفي لها لعلني أسمع لها قولاً فأصيب منه حكمة ، فما خطر لي هذا الخاطر حتى سمعت الأصغر يقول لصاحبه : سيدي علمني مما علمك الله ، فقال سل ما بدا لك ، فقال إننا ونحن على هذه الأرض مع الناس كنا نسمعهم يذكرون الله بالرحمة والرأفة اللذين لاحد لها ، ولكن لماذا نرى الموت والمرض والآلام المختلفة تعترى هذه النفوس الأرضية ، القرآن مبدوء في كل سورة « بسم الله الرحمن الرحيم » وهكذا الفاتحة فيها « الرحمن الرحيم » . إن الرحمة مكررة في جميع ركعات الصلاة وفي أول كل سورة والله تعالى يقول « ورحمق وسعت كل شيء » . أليس الأطفال الذين يمرضون ولا ذنب لهم والبهائم التي ترعى في مراعيها تمرض ، أليس هؤلاء من جملة الأشياء فإذا كانت الرحمة وسعت كل شيء فكيف لم تسع هؤلاء ؟ بل مارأينا أحدا في الأرض إلا شكوا وبكى وأن وقال (ابن الرحمة ؟) ولذلك قال النبي شاعرهم :

كل من في الكون يشكودهره ليت شعري هذه الدنيا لمن

إني لو أردت ياسيدي أن أوفى للمقام حقّه لأعوزني لبيانه أيام وليال، لأن الرحمة وضدها قصتهما قصة الوجود كله، فإذا استوعبت القول فيهما وجب على أن أستوعب علوم الأمم والأفلاك والأرضين فلا كتف بهذا الإيجاز وأنت العالم، ولقد أوجب الله على الجهلاء أن يسألوا كما أوجب على العلماء أن يعلموا وأنا الجاهل وأنت العالم. فما أناذا إليك مصغ والله لا يضيع أجر المحسنين.

فلما سمعت هذا القول دهشت من حسن الصادقة وصرت أقول في نفسي يا عجبا أنا الساعة أفكر في معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول (سورة الروم) ولم تكررت في سور القرآن، ولم ملأ الله السموات بالجمال وهكذا الأرضين، ولكن الألم والنصب منصبان على كل حي في هذه الأرض، فهذا السؤال يواتي فكرتي ويقرب من مطلبي، « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » فأصغى لقولهما ومق رأيت في القول حكمة حفظته وتلوت « وهل أنك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آتيت نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » فمسي أن أقبس من هذا القول حكمة تفهمني معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) التي حرت في تفسيرها لما تأملت نجوم السماء. هنالك أخذ العالم يفيض من علمه على فناء فقال له اسمع يا بني أنت تعلم أن الرحمة مبذولة لكل شيء ولولاها لم يكن موجود لأن الرحمة بها الوجود وضد الرحمة به العدم وكثرة البذل توجب الغفلة. فالناس لما عمتهم الرحمة من كل جانب حتى غمرتهم أصبحوا لا يشعرون بها. ألم ترى إلى الناس والأنعام وإلى السمك فهؤلاء في الهواء وهؤلاء في الماء ولا يخطر لأحد منهم أنه يعيش في مادة تحيط به إلا للتعلمين. إن الجهال من بني آدم لا يعقلون أن الهواء جسم من الأجسام مع أن حياتهم متوقفة عليه ولا يعرف الهواء غالبا إلا بلفت النظر وتوجيه الفكر. فأما العامة فلا يكادون يعرفون أن أنفاسهم التي تصل رئتهم من جسم موجود، بل هي عادة اعتادوها، بل هذه الأرواح التي تعلقت بهذه الأشباح في الأرض وعقلت وأدركت بعض المتعلمين من بني آدم لا يرون لها وجودا مستقلا عن الجسم بل يزعمون أنها صفة من الصفات الملحقات به تنفي بفنائها فلا وجود لها مستقل. الرحمة عمت الهواء والماء والأرض والأثير والكواكب. الرحمة أحاطت بالناس في داخلهم وخارجهم فنسيها أكثر الناس. وليس يعقل الرحمة الحقيقية إلا الحكما. وحدهم وأكثر الناس جاهلون، فقال الفقي ولم لم يعقلها أكثر الناس. قال الأستاذ أنا أبين لك السبب، إن الرحيم الجاهل تكون رحمته خطرا. فالرحمة إن لم تكن مصحوبة بعلم لم تفد إلا الضرر. ألا ترى رعاك الله أن المرأة تود أن تكون ابنتها متمتعة بأنواع اللذات والشهوات وعن تحب وهي من شدة رحمها بابنها تود لو تركت المدرس والطرس وأرخت لنفسه العنان في باحات اللعب والسرور، أما العلم والمدرسة فانهما في نظرها القصير أمران ثانويان، وكل مؤدب أو ملك أو أمير ترك حبل الأمور على غاربها ولم يضع الأمور مواضعها اختل نظام رحمته وأصبحت تلك الرحمة عذابا واصبا، ألا ترى إلى ماقرره العلماء أن الناس إذا غمرتهم النعم ولم تؤدبهم التوازل أصبحت تلك الرحمت عارا عليهم وخزيا مبينا وانحطت قواهم وملكتهم البطنة وأصبحوا فريسة لغيرهم.

فعلى هذا لامناس لصاحب الرحمة من أن يكون عليا بمن يرحمهم حتى لا تكون الرحمة سببا للخسران والهلاك إذا لم تكن بحساب والحساب لا يكون إلا بالعلم. فالرحيم العالم هو الذي لا يعطى إلا بحساب ليكون عدلا في عطائه عدلا في منعه ويكون العطاء إذ ذاك مع المنع أشبه بالنهار مع الليل، النهار والليل والضيف والشتاء لولا الحساب لكان نظام الأرض خطلا وخطرا؛ ولكن تعاقب الضياء والظلمة والحر والبرد جعل

أحوال أهل الأرض مساعدة على بقاء الحياة ، فلو لم يكن نهار لم تسكن حياة ، ولو لم يكن ليل لاختل نظام الحياة وهلكت النفوس . إذن الرحمة لاتم إلا بعلم والعلم به يكون البذل والنع وهناك يكون العدل . إن هذا العدل هو الميزان الذي توزن به الموجودات ، والرحمة إذا انفردت بنفسها عن العدل الذي يوجبه العلم كانت لاخير فيها وانقلبت عذابا ألجيا وهلاكاً مبيناً قال تعالى «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً» فانظر لهذا العطف العجيب .

فقال الفتي وهل معرفة العدل يعوزها شد الرجال واقتحام الأهوال وتبحم الأخطار حتى لا يعرفه إلا الفضلاء الأخيار ، فقلت إى وربى إنه لحق كما تقول وإليك البيان :

قد علمت أن الرحمة شاملة لكل شيء . ولكنها محجوبة عن أكثر النفوس ، ولا ظهور لهذه الرحمة ظهوراً حقيقياً إلا للعالم الحكيم وأنه لا بد لها من العدل ، ورحمة بلا عدل كجسم بلا روح . وإذن لا يعقل الناس الرحمة إلا إذا عقلوا العدل والعدل حارت فيه العقول وتاهت الأذهان . ألم تر إلى ما جاء في جمهورية أفلاطون وقد تباحت (سقراط) مع تلاميذه وأدلى كل منهم بحجته في معنى العدل . فمن قائل (إن العدل أن تعطى كل ذي حق حقه) فرد عليه قائل (وهل يعطى السيف لصاحبه الذي لا يعقل) ومن قائل (إن العدل هو ما اتفق عليه ذوو القوة والجاه وأرباب النفوذ فهؤلاء كل ما قالوه ينفذ والناس لهم مطيعون) فرد عليه قائل (ليس الحاكم الذي يسخر الجمهور لمصلحته ويتلاعب بهم أميراً بل هو لص) وهكذا ، ولو أن جماعة اللصوص لم يستعملوا نوعاً من العدل لا يفرط جمعهم ويفرقوا شذر مذر وهم خاسرون .

وهنا ذكر له ما تقدم في (سورة النحل) في تفسير قوله تعالى «إن الله يأمر بالعدل والاحسان» فقد جاء هناك ذكر العدل وأنه لا يكون باعطاء الإنسان حقه فر بما أضربه ، وليس يجوز للإنسان أن يعطى السيف للمالك الذي اختل عقله ولا أن يقول للذي أشرف على الملاك الحق لئلا يكون هلاكه . وهنا ذكر أن حاكم الجمهور إذا لم يعدل فهم وظلم فلسنا نسميه أميراً بل هولاء ، واللذة التي كان يتوهمها في ذلك لا ينالها لأن سعادة كل مخلوق بما اختص به واختصاص الإنسان أن تكون نفسه قائمة بما يجب عليها مقومة لجميع صفاتها الخ . ثم ختم المقال بأن العدل في الأمة بأن تكون كل طائفة قائمة بما وجب عليها فالصناع والزراع يخضعون للجند ، والجند يخضعون لرجال السياسة ، وهكذا الفرد الواحد تكون قواه العقلية محفوظة بنسب خاصة فلا تظنى إحداها على الأخرى فيكون عفيفاً شجاعاً مفكراً وهناك يكون العدل ، فالعدل هو الأثران الذي يكون بين أفراد الأمة وبين قوى الفرد الواحد فكما أن القوة الشهوية لا تظنى على الغضبية بل تخضع لها والقوة الغضبية تخضع للقوة العاقلة في الفرد هكذا يخضع الزراع والصناع للجند والجند يخضعون لرجال السياسة وهم الفلاسفة .

هذا ما جاء في كلام أفلاطون يابى وكل هذا في تعريف العدل الذي لاتكون الرحمة بدونه إلا وبالأقل أن ماء النيل فاض على أرض مصر ولم يحط بالجسور والقناطر لأغرق البلاد فهو نعمة انقلبت تقمة لعدم الحواجز والنظام ، وما للنظام إلا العدل ، فإذا كان العدل قد استحق هذا الاهتمام من الفلاسفة وقد شغل عقلاء الأمم جميعاً في الأرض وإلى الآن لم يتموا دراسته ، فما بالك بالعدل الإلهي (وبعبارة أخرى) إذا كان أهل الأرض قاطبة لا يزالون يبدأون في البحث عن العدل حتى تنتظم الأمور السياسية فيها وهم إلى الآن لم يهتدوا فكيف تصل العقول إلى العدل الإلهي الذي به تعرف الرحمة وتستقر في العقول ، إن أهل الأرض قد صرفوا كل قوى عقول عظمائهم إلى تعرف العدل ولم ينجحوا إلى الآن تمام النجاح والأرض ذرة صغيرة طائفة في الجو من عوالم عظيمة لأحصر فهؤلاء أنفسهم أي الذين فوق هذه الكرة الصغيرة وهي الأرض لم تسكف مدارسهم

ولاحكوماتهم لمعرفة العدل الآن في هذه الأرض الصغيرة إذا رأوه معقدا صعبا للنال كثير القيود كثير المسائل
 فما بالك بالعدل العام في السموات والأرض ، أفلا يكون أشد تعقيدا وأكثر صعوبة في الفهم . وهل أتاك نبأ
 الحرب الكبرى ؟ ألم تقم بعدها أمم أوروبا كلها فقالوا بإبطال الحرب ومع ذلك تجدد الأمة الإنجليزية أعطت
 اليهود وطننا قوميًا في بيت المقدس إذلالا للعرب وإزاحة لهم فهذا عندهم هو العدل ، وفي هذه الأيام قام اليهود
 فبدوا بالمهجوم على العرب فلما قاوموهم وعاملوهم بالمثل أخذوا يعاقبونهم فهذا عدل عند أمة في أوروبا ، لأن
 هذا رأى القوى والقوى لا يراد لما يقضيه عند أهل الأرض وهذا أحد الآراء التي ردها (سقراط) في محاوراته
 الأفلاطونية ، فرد الفتي على أستاذه قائلا ياسيدي إنني أعلم أن هذه الأمم الإسلامية لم تقم بما يجب عليها في
 استخراج ثمرات أرضها وثمرات عقولها ، فمن العدل أن يعمر الأقوياء تلك الأرضين ، فقال الأستاذ ولكن
 استعمار الأرضين ليس موقوفا على إهلاك أهل البلاد فلا بد من إقامة العدل بأن يرقى أهل تونس والجزائر
 ومراكش وسوريا وفلسطين لا أن يقف المستعمرون لهم بالمرصاد وينعمهم العلم . على أننا الآن لسنا في مقام
 شرح مسألة العدل في الأمم الأرضية ، فإذا كنت أنا وأنت قد تناقشنا في عدل أهل الأرض وكل مناله غرض
 يرمى إليه ، فهم إذن من باب أولى ، وهذا إثبات لقولي إن أهل الأرض إلى الآن لم يتمموا أمر العدل ولم تقو
 عقولهم على استكناه كنهه ، بل نحن أخذنا نتجادل لأجلهم فكيف إذن يصل عقل الإنسان وعقول كثير
 من الملائكة والأرواح الشريفة إلى حل مشكلة العدل في العوالم كلها وهو عدل الله ، وإذا رأينا الطبيب يقطع
 ضرص للمريض ويؤلمه أشد الألم ويقطع عضوا من أعضائه والناس والمريض وذووه راضون مستبشرون .
 وإذا رأينا الأمم يحارب بعضها بعضا فيموت الألوف وألوف الألوف فلماذا هذا ؟ لأن سفير إحدى الدولتين
 أهين بكلمة فتقول دولته لا بد أني أغسل العار وكيف تغسل العار ؟ تغسله بإرسال آلاف من الجيوش يقتل
 منهم مئات ومن العدمومات فيقول المهاجمون نحن عادلون لأن سفيرنا أهين لخياتنا وهي من الرحمة لابقاء لها
 إلا بأن يجندل في ساحات الحرب منها رجال ويقول أعداؤهم هؤلاء ظلمونا فلندافع عن أنفسنا والدفاع عدل ،
 إذن الحياة التي لا وجود لها إلا بالرحمة توقفت على قتل بعض الرجال كما توقفت حياة المريض على قطع عضو
 من أعضائه ، إذن قطع بعض أعضاء الجسم عند ظهور سببه وقيام الحرب عند حصول سببها وقتل بعض الرجال
 من تمام الرحمة في نظر هذا النوع الانساني سواء أخطأ القواد والأطباء أم أصابوا فالجروح إذن ونفس اللوت
 من تمام الرحمة والرحمة بغير هذين ضارة مؤلمة كما يضر النيل إذا لم يحفظ بالقناطر وبالجزور .
 هذه كلها آراء الناس في العدل . وبما يدل على أن آراء الناس في العدل تتغير من وقت لآخر ومن حال
 إلى أخرى أمران : (أولا) معاملة أهل القرب لأهل الشرق التي سنذكرها قريبا . (ثانيا) ما ظهر من
 الليل إلى ترك الحرب في هذه السنين بعد الحرب الكبرى ففي هذا الشهر (٥) سبتمبر سنة ١٩٢٩ ألقى المسيو
 (بريان) خطبا طويلا في الساعة ١١ والدقيقة ٥ صباحا في جمعية الأمم قوبل بالهتاف والاستحسان ، فمما قاله :
 (إن جمعية الأمم قد قامت بالواجب عليها وإنما جاهدت سنة فسنة لإزالة الحوائل العتية التي كانت قائمة في
 وجهها فالיום لا يحتقرها العالم ولكنه يعطف عليها على أننا نتساءل ماذا عساها تعمل بهذه الثقة التي وضعها
 العالم فيها ، إن هناك مسائل كبيرة ذات أهمية عظيمة لا يمكن التغاضي عنها دون أن نتمس الجمعية مسا أديا
 شديدا ، وإنه ليسرني كممثل للحكومة الفرنسية أن أتعاون مع زملائي الألمان . ولقد توصلنا الآن إلى أن
 نعتبر الحرب جريمة تستحق الاستنكار من جميع الأمم والشعوب . فإذا لم تتوصل جمعية الأمم إلى التذرع بالوسائل
 التي تمنح الحروب لا تكون قد قامت بما يجب عليها القيام به ، والذي يجب أن نتساءل عنه ماذا نحن فاعلون
 إذا أفضى التحرش والتمسك إلى اشتعال الحرب . إن مأم في (مؤتمر لهي) كان دليل الإرادة الصادقة في
 صيانة السلم .

ثم انتقل إلى الكلام عن نزع السلاح فقال: (إنا قد خطونا في هذا السبيل خطوة واسعة ولا أظننا نتوصل إلى الاتفاق والوثام بتحرير الرسائل التلغرافية بل الواجب أن ننظر إلى المسائل وجها لوجه لنجد مخرجا لنا من كل مأزق وإذا أردنا نزع السلاح فلا نستكتفي من ذلك بالنظر إلى المسائل الفنية بل يجب أن نعمل جميع المسائل السياسية بحسن الإرادة للتبادلة بين جميع الدول والواجب فوق ما تقدم أن نلقن الشبيبة كره الحرب وقظائمه، وإني لأتجه بنوع خاص إلى النساء فأقول للأراذل دافعن عن منازلكن وأسركن والواجب على النساء عامة أن يروبن ميدان السلام بدموعهن لا ميدان القتال ، علن أبناءكن حب السلام وعلن أبناءكن احترام الأمم الأخرى غير أمتهن هو ذلك الواجب الذي يؤدي في تعليم الناشئة) .

وذكر الخطيب (مؤتمرا لاهاي) فقال (إنا كما نضع فبكرة للصالحة فوق المسائل المالية ، ثم تكلم عن الاتحاد الاقتصادي الأدنى فقال إن هذه المسألة السياسية لانتم إلا تحت رعاية جمعية الأمم حتى يكون بين جميع الأمم والشعوب الأوروبية صلات وروابط تسهل اتخاذ القرارات الحاسمة بالإجماع إزاء الحوادث الخطيرة على أن هذه الروابط لا تعس بسيادة أمة من الأمم وإني أطلب من زملائي أن يعرضوا هذه المسألة على حكوماتهم حتى يصل الجميع إلى حلها في الجمعية القادمة) .

ثم ذكر حادثة الباخرة (لوتس) في الأستانة فقال (إن فرنسا لم تجد على نفسها غضاضة في عرض هذه المسألة على محكمة (لاهاي) فعلى الأمم أن تقيم لأنفسها قضاة لتتفادى عن معارك القتال وعلى الأمم أن توجه أنظارها إلى حل كل مسألة حلا سلميا) .

وختم كلامه بقوله (إنا يوم نعلم الناشئة حب السلام نوحده بين الأمم ولا نبقى وجها للتفريق والانقسام وفي ذلك اليوم تسود المحبة ويسود الأمان بين الأمم جميعا) وبعد هذا الخطاب وقف جميع من في القاعة يهتفون للمسيو (بريان) وبخيوته .

وقد خطب (السترمكسوالد) اليوم في مأدبة الغذاء التي أديها الصحفيون لأعضاء مجلس جمعية الأمم فأشار إلى المفاوضات بشأن نزع السلاح البحري بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، فقال (لا ريب أن هناك مصاعب في سبيلنا وأماننا مسائل من أشد المسائل تعقيدا يجب أن نحلها ولكن مشيئة الشعوب هي القادرة على كل شيء وهي التي يجب أن تقول السكامة الأخيرة . وعلى كل حال فان مسألة السلم الخطيرة ينظر فيها رجال من رجال السياسة المخلصين) .

وبعد أن تم ما تقدم أخذ يقول (يابني هذه هي آراء أهل الأرض الساكنين فهام أولاء عاشوا آلاف السنين ومئات الآلاف وهم يرون الحرب عدلا وهام الآن يقولون « إن الحرب ليست عدلا » فالحياء لا تتوقف على الحرب . إذن أمر العدل عند بني آدم أمر مشكل لا تزال العقول في أشد الحرج في حله والعقل الانساني لا بد أنه سيجد كل الجهد في هذه القضية العظيمة عقدة العقد مشككة المشاكل . إذن العدل عند الناس دخل فيه الحرب والسلم على حسد سواء . فالقتل عدل وإبقاء الأرواح عدل عند أهل الأرض . هكذا الجراحات والآلام في الحروب عدل في موطن وسلامة الأعضاء وعدم الجروح عدل في موطن آخر ، إذن العقول الإنسانية قضت أن الحياة يعوزها آلام يتناهاها إذ لولا الحروب لم تحفظ الدول (وبعبارة أخرى) إن رحمة الأمم ببقاء حياتها قد تتوقف على موت أو جرح آلاف منها فأصبحت الآلام إذن من شروط الرحمة إذن الرحمة قد تتناول الآلام فنقول : إن ألم الصناع والعمال من حبس الجنود لهم عند العقاب وأخذ الضرائب منهم لأجل الجباية وكظم غيظ العاقل وضبط نفسه عند احتدام الغيظ فشكل هذه الآلام وجبت في السياسة نارة وفي علم الأخلاق نارة أخرى وهذه كلها آلام) ثم قال (فإذا كان هذا كله معروفا عند الناس مع قلة نلهم وقصور

إدراكهم لأن عقولهم لاتصل إلا إلى مرافقها المناسب للسكوكب الذي تعيش عليه فإياك بالعدل العام والرحمة العامة . فقال الفقيه إذن أنت تقول إن الله جعل نفس الألام رحمة مستدلاً بأن الناس مع قصر عقولهم بالنسبة للعوالم الأخرى استحسبوا في مواطن كثيرة العذاب والآلام ، فهي إذن جزء من الرحمة) . فقال الأستاذ نعم فقال أريد أن تشرح لي هذا القام شرحاً مستفيضاً لأجل أن أجمع بين قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) وبين آلام بني آدم والحيوان بحيث تستبصر بصيرتي ولا يكفيني أن أقيس رحمة الله على رحمة أهل الأرض فقال الأستاذ اعلم يا بني أن هذه الأرواح التي خلقت في هذه الأجسام شريفة في أنفسها عزيزة وقد أنزلت إلى هذه الأجسام لتنمو فيها وتقوى وهذه الأجسام من الهيولي والهولي ناقصة ليست كعالم الأنوار والأرواح فكان لزاماً لهذه الأرواح أن تقاس تلك الآلام . فقال الفقيه ولماذا لم تبق تلك الأرواح في برازخها لتستبعد عن تلك الشرور ؟ فقال له لو لم تنزل في هذه الأجسام ولم تقاس تلك الشاق لبقيت جاهلة ، فالآلام هنا لترقيها فهذه دروس ترقى الأرواح ، فقال الفقيه فاذا ذكر لي هذه الآلام التي تعترى أنواع الحيوان . فقال هي ثلاثة أنواع : (الأول) الجوع والعطش عند حاجة الأجساد إلى المسادة والغذاء (الثاني) ألم الضرب والصدم والكسر المضر بأجسادها التلف لهيأكلها . (الثالث) الأمراض والأسقام المفسدة لمزاج أجسادها وأخلط أبدانها .

﴿ الفصل الأول : في الكلام على الآلام التي تعرض لأبدان الحيوان ﴾

قد قدمنا أن هذه الآلام تنتابها كالجوع والعطش ، وتقول الآن: إن هذه الأجسام الحيوانية مركبات من جسم وروح والجسم مركب من أخلاط كثيرة وتلك الأخلاط سريعة الدوبان والسيلان فلا بد في بقائها من حصولها على المادة والغذاء ، لذلك جعلت لنفوسها آلام عند حاجتها إلى الغذاء والمادة لتكون تلك الآلام باعثة لنفوسها لتنهض بأجسامها في طلب الغذاء ولو أن الجوع لم يسلط عليها ولا العطش وأخذنا بظاهر الآراء وقلنا إن الآلام ضد الرحمة وليست منها وعليه لا حاجة إلى آلام الجوع وآلام العطش للزم ذلك أن لا يتغذى الحيوان فيهلك فيكون عدم الألم في هذا القام سبباً في الهلاك وهو ضد الرحمة فثبت إذن أن الرحمة تتوقف على الألم وبزواله تنقلب قسوة وإهلاكا . وإذن تبقى هذه إما بلا أجساد تتشكل فيها فتبقى ناقصة وإما بأجسام ناقصة مريضة إلى أجل مآثم يعترىها الفناء ، ثم إذا تناول الحيوان الغذاء فلا بد له من لذة كما أنه لا بد له من آلام الجوع السابقة وهذه اللذة مقصودة ليأكل ما يلائم مآدم اللذة فإذا أخذ ما يكفيه هنالك تقول له تلك اللذة أنا أغادرك وأفارقك . هنالك يترك الطعام وعدم اللذة هو الذي نسعيه الشبع فالألم أولاً بالجوع لطلب الطعام واللذة ثانياً لتكون كالمستشار لتعاطى أنواع الطعام ثم ذهب اللذة بالشبع وذلك لإيقاف الأكل عن أكلمه لئلا يستضر بازدياد تعاطى الطعام .

﴿ الفصل الثاني: في الكلام على الضرب والكسر والصدم والجرح والحرق والبرد والأمراض

والأسقام وكل ما يضر الجسد ويفسده ﴾

قال : اعلم أن هذه وضعت في الأجسام لتحنها تلك الآلام على حفظ أجسادها . إن الأجساد فاقدة الحيلة فهي والحجر والمدر سواء عاجزة عن جلب المنافع ودفع المضار . فإذا رأينا الحجر والمدر راغبة في أمأكلها ساكنة خاضعة لما يعترىها من الكسر والتفتيت وحوادث الأيام والليالي فإنا نرى هذه الأجسام الحيوانية تستيقظ من حال الغفلة ونحس وتشعر بما يضر بأجسادها وتتوقاه تارة بالفرار والانتحابس وأخرى بالمجاهدة أو الحيلة ولو لم تفعل ذلك لهلكت الأجساد في أقرب زمان وإنما فعلت ذلك النفوس لأجسادها وحافظت عليها لمسا ركز فيها من حب البقاء والوجود على آتم ما يكون لأن هذا هو الخير ومن كراهية الفناء الذي يترتب على

هذا النقص والفناء شر . ومعلوم أنه لا عدم للأجسام ولا للنفوس مادام هذا العالم موجودا ثبت إذن أن الحكمة قضت أن الألم مخلوق في الحيوان لقصده وحكمة «وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون» .

ومن لطف الحكمة العجيبة ما تقدم في (سورة المؤمنين) من رسم يدا الانسان وأن لها (١٢) طبقة في كل ناحية (٦) طبقات، فالطبقة التي تلامس الهواء من الجانبين هي الجلد وهذا الجلد لإحساس له وقد كثر أعداؤه من الخارج ، فالنار تحرقه والسكين تقطعه والحرق والبرد يهلكانه هناك قيضت له طبقة تليه من الجانبين تحته وهذه الطبقة عبارة عن شبكة من الأعصاب فهؤلاء هم الجواسيس والعيون والبرد ، فتمسك نار الجلد أو كسر أو ضرب تسلمت ذلك الإحساس تلك الأعصاب ووصلتها إلى المخ فأمر في أسرع من لمح البصر أعضاء الحركة بالمسارعة إلى دفع هذا الأذى .

فلما سمع الفقى ذلك من أستاذه قال هذه علوم عجيبة وآيات غريبة عجبت كيف أصبح الإحساس بالضرب والكسر والمرض والجوع والعطش سواء في أنها رحمة كلها .

وإذا ثبت هذا ثبوتنا يقينيا فإننا نصبح سعداء سعادة لا حد لها وأي سعادة للحي أكبر وأجل وأعظم من سعادة امرئ! أيقن بأن حياته في بدرجيم أعطاء الخيرات وجعل الشرور مكملات لها ولولاها لم يكن للخير بقاء والسكنى أريد أن أسألك عما دار بيننا في أمر أهل الغرب وأهل الشرق . إنك يا سيدى حكمت على أهل أوروبا بأنهم ظلموا المسلمين باحتلال ديارهم في شمال أفريقيا وإدخال اليهود بلادهم في فلسطين وأنا أجبته بأن المسلمين أهملوا فإذا أفهمتنى ذلك كنت أنا من الموقنين حقا ، فقال له يابنى احتلال البلاد المختل نظامها عدل على شرط أن تقوم عقول أهل البلاد كما تقوم أرضها (وبعبارة أخرى) يجب أن يرقوا أهل البلاد ليكونوا إخوانهم ويصلحوهم ويصلحوا أرضهم وهؤلاء قوم معظنون لأنهم يعملون الانسان أشبه بالحيوان المسخر ، فقال الفقى لقد حكمت أن الضرب والكسر والجرح والمرض أمور اقتضتها صفات هذا العالم الذى نحن فيه والإحساس بها عدل من الله ولولا هذا الإحساس لهلكت ، فقال إن المقام ذو وجهين . (الوجه الأول) فعل الله وهذا عدل فإنه إذا ساق أمة قوية لتحتل البلاد الضعيفة فعناء أنه فعل فيهم ما فعله بالحيوان من جوع وعطش وكسر وضرب فهؤلاء يجب عليهم أن يستيقظوا بهذا والله عز وجل إذا لم يرسل لهم تلك الأمم نزلوا إلى الحضيض فهذا كالسكر والجوع ، فهذا الإيلام باذلال الأمم لهم يراد به جمع كلمتهم (الوجه الثانى) معاملة هذه الأمم لمن دخلوا بلادهم ، فهذه الأمم الأرضية أكثرها ظالمة فظلمها لأنها ظنت أن هذه غنيمة لهم . إذن الله عدل في إذلال الأمم الضعيفة والأمم القوية ظالمة لأنهم بمن قال الله فيهم « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» .

قال الفقى فهمت ، وما أحسن العلم ، وقد بقى لى سؤال واحد وهو هل الفرنجة الذين احتلوا بلاد الشام وشمال أفريقيا وغيرها من بلاد الإسلام يطول أمدهم ، فقال كلاً ثم كلا . إن الله عز وجل قد أيقظ المسلمين وهذا الإيقاظ سيظهر أثره قريبا ، فقال الفقى لقد تبين لى الآن أن من الناس من سعدوا سعادة دائمة بسبب هذا الإيقان ، وإذا انتابهم توائب غشت على عقولهم زمنا ما فأنهم يتذكرون هذه السعادة الدائمة التي لانفارقهم أمد الحياة بل هم في حياتهم الدنيا كأنهم في جنة عرضها السموات والأرض ، فقال الأستاذ: الحمد لله رب العالمين لقد فهمت يابنى بسم الله الرحمن الرحيم لم كررت في أول كل سورة من القرآن والحمد لله رب العالمين .

وما كاد التلميذ يقبل يد أستاذه النورية حتى استيقظت وكتبت ما رأيت ، انتهى صباح يوم الأحد (٨) شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ وبهذا تم الكلام على القسم الأول .

﴿ القسم الثاني : في تفسير «الم» ﴾

لقد تقدم في سور كثيرة مبدوءة بهذه الحروف ذكر بعض الأسرار التي أبرزها الله في هذا التفسير لأمم الإسلام تلك الأمم التي حملت أمانة كتابنا المقدس وحفظته حفظا حتى وصلت بها إلينا سالمة فرعى الله هذه الأمم هؤلاء الذين قاموا بحفظ الأمانة وأكثرهم كانوا في العصور التأخرة في ضحك مشين .

وصلت إلينا الأمانة فقرأنا القرآن فسمعنا الله يقول في أول البقرة «الم» فلم يفتح على كاتب هذا بشيء في ذلك وما كان ليخيل لي أني أكتب حرفا واحدا في أسرار هذه الحروف لأن هناك اتفاقا بل إجماعا عاما أنه لا يعرف هذه الأسرار إلا أناس مختصون وهؤلاء إذا ذكروها للناس فالناس لا يعقلون ما يقولون لعلوها على الأذهان ، وما كاد تفسير (البقرة) ينتشر بين الأمم الإسلامية حتى رأيت إقبالا عظيما فانشرح صدرى وأيقنت أن الله عز وجل يريد بالأمم الإسلامية مقاما أعلى ومكانا أسمى فأخذت أجمع ما ذكره العلماء في سر الحروف ونظمته في [ثلاثة أسماط] :

(١) الأول ماقاله الصحابة كابن عباس رضي الله عنهما وذلك راجع إلى العبادة بأن يجعل هذه الحروف مذكرات بأسماء الله تعالى ونحو ذلك ، فإذن هذا الرأي وجه هذه الحروف إلى وجهة الله كره فهو راجع إلى العبادة .

(٢) وجاء قوم بعدهم فقالوا إن هذه الحروف من حيث صفاتها وأحوالها قد تظهر للعلماء أنها ذات أمر عجيب ، ذلك أنها هي نصف الحروف الهجائية . ولقد وجدنا أنها قد اشتملت على أنصاف الصفات والأحوال وهذا عجب ، فإذا رأينا أن الحروف منها مبهورة ومهموسة مثلا فإنا نجد نصف المهموسة في هذه الحروف تماما وهكذا بقية الصفات ، ألا ترى أن المبهورة في الحروف كلها (١٨) وقد وجدنا نصفها وهو (٩) في هذه الحروف ، ومعلوم أن الحروف كلها (٢٨) وهذه الحروف التي في أوائل السور (١٤) إذن هذه الأربعة عشر قد أخذت قسطها تماما من الحروف المبهورة والحروف الشديدة ثمانية منها (٤) في فوائج السور وهكذا الرخوة واللطيفة .

وبالجملة فهذه الحروف في أوائل السور وجدنا أنها أخذت النصف من كل قسم من أقسام صفات الحروف وهذا أمر فوق طاقة البشر ، فكيف يكون هذا التنصيف في أحوال كثيرة لو لم تكن هناك عناية خاصة فهذا يعد معجزة فوق ما يتصوره العقلاء .

(٣) وهناك قوم ارتقوا عن هؤلاء فقالوا إن هذه الحروف فيها أسرار فوق ما تقدم فإنا نرى أن مفصلات اليمين فيها (٢٨) مفصلا وكل يد فيها (١٤) مفصلا وهكذا أخذوا يذكرون تشريح الحيوان ويطبقون عليه مثل فقرات الظهر ونحوها ، وهكذا ذكروا أن لغة العرب فيها (٢٨) حرفا منها (١٤) تدغم في اللام و(١٤) لا تدغم وهي الهجاء (الحروف القمرية والشمسية) وهي معروفة عند القراء وهكذا منازل القمر (٢٨) منها (١٤) فوق الأفق و (١٤) تحت الأفق إلى آخر ما سبق لك هنالك .

هذا نموذج (الأنواع الثلاثة) من الآراء التي تقدمت في أول (سورة آل عمران) وهناك أقوام ذكروا حجاب الجمل وأخذوا يستنتجون أمورا لا سبيل لها كرها الآن .

فلما كتبت هذا في أول (سورة آل عمران) فاجأني فسر لم يسعني كتابته فكنته فان الدم ذكرت في أول «الم» تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب الخ ومعلوم أن هذه الآيات جاءت لمسألة اليهود فهم اتسكوا على شفاعة آبائهم وعلى أن الله لا يعذب أبناء يعقوب إلا تحلة القسم وعلى أنهم لن تمسهم النار إلا أربعين يوما

وعلى أن آباؤهم يشفعون لهم فأوعدهم الله عز وجل وسجل عليهم الحزى والعار والبوار وقال فيهم (وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون) ثم انتزع الملك منهم وأسلمه إلى الأمم الإسلامية فسكان «الم» في أول السورة مذكرة لنا الآن نحن المسلمين بألا تتكل إلا على الله ونجد نحن بأنفسنا في العلم والعمل والرقى وإلا وقعنا فيما وقع فيه اليهود إذ ظنوا أن هذه الأمانى تنفعهم بلا عمل وهم نائمون ، ومعنى هذا كله أن (الم) جاءت في أول السورة مذكرة بأمر اليهود وذهاب مجدهم السبب عن التواني والسكسل وعدم العمل . فالمسلمون إذا بقوا على ما هم عليه من الجهالة فليعلموا أن الله لا يبالي بالقوم الجاهلين الناعمين . هذا ملخص ما تقدم هناك فاقراءه فإنه أوضح وأبين . ولما فكرت في (سورة البقرة) وجدت أنها كلها جهاد لأن أولها محاجة مع اليهود وتقرير لهم وتوبيخ وفيها الصلاة والسيام والحج وتحريم الخمر واليسر وأحكام الزواج والطلاق وهكذا فهذه السورة فيها أهم علوم الفقه الإسلامى وفيها آية « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » وآية « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » الخ .

ولا جرم أن الجهاد إما يبذل النفس . وإما يبذل المال . وإما بالعلم ، وإما بالعبادات وهكذا ، فالمدكور فى حيز (الم) جهاد الأعداء والجهاد بالعلم ، فانظر هناك تجد مسألة العزير وحمارة وكيف يقول الله له « وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » .

فلما رأيت ذلك هالتي الأمر وعجبت وقلت لقد تبين لى أن هذه الفوائغ أشبه بالمفاتيح فإذا أدر الفتاح فى القفل فتح الباب بدليل أننا نجد الآيات التى فى حيز (الم) هى التى نام عنها المسلمون فى القرون المتأخرة وكل هذه الآراء لم أكن لأفكر فيها ولا لأجد أو أبحث لأنها أمور ميثوس منها كما قدمت ولكنها كانت تنقدح فى نفسى ولا تفارقها بلا عناية منى ولا سابقة طلب ووجدت هذه المفاتيح تشير إلى العلوم التى نام عنها المسلمون فالمسلمون اليوم يعوزهم الجدى فى معرفة التشرىح وغيره كما فى قصة العزيز وإبراهيم فاقراءه هناك ويعوزهم أن يتركوا الاتسكال على الشيوخ وعلى أنهم مسلمون ثم ينامون وذلك فى (سورة آل عمران) ثم فتح الله بأكثر فواتح السور بعد ذلك فاقراءه فى أول (هود) و (يونس) و (الزهد) و (إبراهيم) و (الحجر) ولم يكن لى عند طبع (سورة مريم) علم بما تشير إليه حروف « كهيعص » وكان الفتوح بها فى سورة أخرى فكنتبها فيها ثم ترى الطاء والهاء فى (طه) وما تشيران إليه من العلوم التى تحتاج إليها هذه الأمة المسكينة وهكذا (طسم) و (طس) فأرجع إليها فى (الشعراء) و (النمل) و (القصص) فهناك ترى مثلاً الطاء والسين فى (النمل) تشيران إلى الطائر وسلطان وهناك ترى الطيور وأشكالها وعجائبها وما ناسبها لهذا المقام ثم تقرأ (الم) فى سورة العنكبوت فتراها تعرض على معرفة كيف يبدى الله الخالق ثم يعيده ، فنظرنا فى بدء الخلق فرأينا مدهشاً لأننا وجدنا العناصر بينها نسب عجيبة فى الجدول المرسوم فيما تقدم فى السورة وقد كشفه (مندليف) الروسى ولقد وضع هناك قريبا غاية الإيضاح فوقنا على سير تقطع دونه الأعناق ، وهانحن الآن فى (سورة الروم) فوجدناها مبدوءة بنفس (الم) فى المعجب (الم) و (الر) كرر كل منهما فى سور وعند البحث وجدنا المعانى تختلف باختلاف السور فكل سورة فيها معان غير المعانى التى فى السورة الأخرى حتى إن الطاء والسين فى الشعراء وفى النمل وفى القصص تختلف إشاراتهما باختلاف السور فاقراءها هناك وهاهنا نجد آية « أو لم يتفكروا فى أنفسهم » الخ وآية « أو لم يسبوا فى الأرض » وآية « أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » .

حروف (الم) تذكرنا بأن نبحت فى حقائق الخلوقات وأسبابها ونتائجها ونظامها كالمبحث المذكور فى تفسير البسملة آنفاً فإنك تجد ألم تضرب وألم الجوع وألم المرض لم تخفق لاذلالنا بل خلقت لمنفعتنا ورحمتنا لأن

الله خلق السموات والأرض بالحق ولو كان خلق هذه العوالم لمجرد إيلاء المخلوقات ولم تكن هذه الآلام موصلة إلى سعادات التأمين لسكان هذا العالم مخلوقا بالباطل لا بالحق لأن خلق الحيوان لقصد الإيلاء لا يتوجه إليه العناية ومن عجب أن يكون تفسير البسملة هنا قد كفانا مؤنة شرحه مرة أخرى وذكرنا أيضا بالتفكير في أحوال الانسان من قفر وغنى ففى دالة على حكمة الحكيم . ومقصود هذا أن يكون للناس في أحوال أنفسهم عبرة كما لهم عبرة فيما حولهم وستقرأ في (سورة لقمان) آية « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » وآية « ألم تر أن الله يولج » الخ ، وآية « ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر » وإشارة (ألم) ترجع إلى التفكير فى النعم من حيث وصولها إلينا وكثرتها وتخصيص طائفة منها بالذكر وهى الشمس والقمر والليل والنهار وتعاقبها ونظيرها الفلك فى البحر ، فهذه نعم عامة ذكرنا الله بها اندوسها وتنفع بها نفعاً جسيماً وعقلياً لقوله فى أول السورة « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ولا جرم أن هذه هى العلوم المفقودة فى بلاد الاسلام وهامى ذه اليوم تحيا حياة جديدة فى نفس الزمان الذى ظهرت فيه معانى هذه الفوائج بل المفاتيح كما قدمنا سابقاً . وأما (ألم) فى أول (سورة السجدة) فقد أشارت إلى (علمين) علم التاريخ القديم ودراسة الأمم التى ملك أرضها المسلمون فأننا نجد أهل مصر والشام والعراق واليمن ونجد وشمال أفريقيا وأهل السودان المسلمين كل هؤلاء يجهلون الأمم التى سكنوا بلادها ، فأننا فى هذه الأيام لانعرف فى علوم قدماء المصريين إلا بتعليم الأوروبيين ومعلوم أن (شامبليون) العالم الفرنسى هو الذى كشف حروف لغة قدماء المصريين إذن أهل مصر بلادى لم يعرفوا تاريخ قدماء المصريين إلا من أهل أوروبا معرفة ضئيلة ولكن الله يقول « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قباهم من القرون يمشون فى مساكنهم » فنحن نمشى فى مساكن الفراعنة ونجهل علومهم إلا النزر اليسير ، وهكذا أهل اليمن لا علم لهم بعلوم سبأ والنباطة والأمم التى سكنت تلك البلاد وهكذا أهل الشام وأهل نجد وغيرهم فكل هذه الأمم واجب عليها وجوباً كفاثياً أن يدرسوا تاريخ الأمم التى كانت فى بلادها لتتنفع بما جربت تلك الأمم ولتحترس مما وقع لها وإلا فلماذا يعيش الناس على الأرض .

إن الجهل أكبر العار « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » فهذه الاشارة فى (سورة السجدة) جاءت لأجل قوله تعالى « أو لم يهد لهم » الخ ، وهناك إشارة أخرى وهى الاعتبار بسوق الماء الى الأرض الجرز وهذا الاعتبار لا يتم الانتفاع به إلا بدراسة علم النبات وسائر علوم الطبيعة ومنها الماء وهكذا علم الكيمياء العضوية لأنها تبحث عن العناصر التى دخلت فى تركيب الأحياء النباتية والحيوانية .

هذا ما فتح الله به الليلة مساء (١٠) سبتمبر سنة ١٩٢٩ وأنا على شاطئ النيل بجوار مصر القديمة والحدقة رب العالمين .

﴿ اعتراض على المؤلف وجوابه ﴾

لما اطلع على هذا أخى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير قال هذه الفوائج فى هذا التفسير قد ظهر بعض عجائبها ولقد جاء اليوم ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولكن ماوقمت عيني على صفحة من صفحات هذا التفسير فى أى جزء أو سورة إلا وجدت الكلام فى العلوم والعارف وحث المسلمين عليها فهذا نوع من التكرار حتى إن بعض الناس قال لى إن هذا الكتاب كله ماهو إلا تكرار فقلت حياك الله إن هذا الاعتراض جعلته أنت سلماً لفهم الجهال فأما أنت فلا . قال هذا مقصدى . فقلت إن الناس على قسمين جهال وعلماء فأما الجهال فانهم لا يجدون لهذه الأقوال لذة ولا طعماً بل يأتفون أن يقرءوها وذلك لأنها ليست من طباعهم ولا توافق أذواقهم فإذا قرءوا موضوعاً ثم اطلعوا على نظائره فى الكتاب قالوا إن الكتاب مكرر :

(١) ولو كان الأمر كما زعموا لسكان النخل والعنب والرمان والتين والبرتقال والنفاح والشمش والبرقوق

وأمثالها مخلوقة عشا وهكذا القمح والذرة والعدس والبقول. وبالجملة إن الفواكه والحبوب والخضراوات كثيرة وكل نوع يستغنى به قوم عن البقية فاذن البقية مكررة لقيمة لها .

(٢) ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن كله مكررا فإنا نجد فيه (٧٥٠) آية كلها في الكلام على خلق العوالم العلوية والسفلية . فيقول الله تعالى في (سورة البقرة) «إن في خلق السموات والأرض» الخ وفي سورة (آل عمران) كذلك مع تنوع في التعبير وهذه القصص القرآنية مكررة كثيرا منها فلو كان الأمر كما قالوا لم يسحر القرآن عقول الأمم ولم يعجزهم ولم يكن هو العجزة الحقيقية في العالمين .

(٣) ولو كان الأمر كما زعموا لكانت جميع الأمم شرقا وغربا هازئة في جرائمها ومجالاتها فان الأمة المصرية الآن تطلب من انكثرتا استقلالها وهام أولاء منذ نحو (٢٠) سنة يكتبون كل يوم في الجرائد المختلفة والمجلات التي تعد بالعشرات (الاحتلال . الجلاء . السودان . نحن والانجليز . المعاهدة بيننا وبين الانجليز وهكذا ويكتب الموضوع الواحد في عشرات الجرائد سنين وسنين والناس يقرءون ويفهمون ، ولم يقل عاقل إن هذا تكرار . كلامهم كلا وإنما هذه فكرة عليها الجهل ويحقرها العلم لأن البلاغة تقتضي القدرة على إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة كالإطناب تارة والإيجاز أخرى والمساواة آونة فاقرا قوله تعالى «لم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ونوحا الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فسب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد .

فها أنت ذا تراء تعالي ذكر قصة عاد ونوح وفرعون في آيات قليلة وبموازنة هذا بما تقدم في سورة القصص نجد قصص موسى وفرعون جاء على سبيل الإطناب أما هنا جاء على سبيل الإيجاز وكلاهما جميل فالإطناب للفهم والإيجاز للاعتبار والتذكير كأنه يقول أتم عرقم هذه القصص فاعتبروا بها فاني فعلت بهم كذا وكذا ، ثم قلت : واعلم أيها الأخ أن هذه الأساليب القرآنية لا يدر كنها إلا أولئك الذين درسوا علوم البلاغة وقرءوا كلام العرب ومارسوا النظم والنثر .

ما الناس سوى قوم عرفوا وسوام همج المممج

غيره :

على نحت القوافي من معادنها وما على إذا لم تفهم البقر

ولا جرم أن الكلام يختصر ليحفظ ويطلب ليفهم ، ولقد قالوا إن الخطب يستعمل فيها الإطناب بحيث يكون الأسلوب مقبولا محبوبا فيشوق السامعين وانظر إلى قصص الأنبياء كيف ترى كل واحدة منها لم تخل من ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر . ذلك لتصل مقاصد الدين من طرق مختلفة لترسخ في الأذهان وكما كانت الطرق أكثر عددا كان ثبات المعنى في النفس أطول وأقوى وأرسخ . ويقرب من هذا الدعاية في الأمم ونشر التجارة أو السياسة فيها فلا شيء من هذا يتم إلا بنشره وتكراره بطرق مختلفة حتى يظهر أثره . وانظر إلى ذكر خلق السموات والأرض فانه مذكور في مواضع كثيرة جدا وله في كل موضع مقام غير ما في الآخر . وانظر إلى فوائح السور والمعاني التي انكشفت سرها اليوم على قدر طاقتنا وما احتمله فطرنا من المعاني . أليس ذلك أسلوبا جديدا لترقية العلوم في الأمم الإسلامية .

علم الله عز وجل أن أمم الإسلام ستقام عن العلوم أجيالا وأجيالا وتحقر علوم الجمال والسكال في السماء والأرض وتنبت العلماء القائلين بها كابن رشد والغزالي أو تعلمهم ولسكنها لا تقرأ علومهم فألهم أمم الغرب أن يحتلوا بلادهم تارة ويحاربهم أخرى وأظهر لهم في هذا التفسير هذا الأسلوب العجيب أسلوب فوائح السور

المشركه أو أكثره إلى علوم الكائنات وعلوم الأمم فهذا أسلوب رمزي والرمز له شأن ليس للتصريح بالحقيقة لأن الرمز مشوق للموزله . ومتى اطلع المسلمون على هذه المعاني التي ظهرت في هذه الفوائج لا يستقر لهم قرار ولا يصبرون على العار والجهل والذل الخيم في بقاع الاسلام ويقولون إن الله جعل هذه الرموز التي ظهرت لنا الآن مفتاحا لعلوم الأمم فلنفتح بها ولندخل من بابها ولندرسها ولم يبق بعد هذا للمسلمين من عذر إذا جهلوا ولا من سلوة إذا كسلوا . وإني أقول إنهم سيكونون خير أمة أخرجت للناس .

وهذا الرمز مألوف عند الأمم قديما كما قدمته لك في سورة (آل عمران) وقلت لك ماملخصه :
إن النصرانية لما انتشرت في (مدينة الاسكندرية) كانت باللغة اليونانية وهي اللغة الرسمية والسحكة في تلك اللغة اسمها (اكثيث) وهذه الحروف رمز لحس كلمات يونانية يتركب منها جملة (يسوع المسيح ابن الله المخلص) .

اللفظ اليوناني	الترجمة بالعربية
اكثيث	سمكة
(١) ايسوس	يسوع
(٢) (كريستوس)	مسيح
(٣) ثيو	إله
(٤) يوث	ابن
(٥) ثوتير	مخلص

فكلمة (اكثيث) أي سمكة مركبة من خمسة أحرف يونانية ، فحرفها الأول من كلمة (ايسوس) أي يسوع ، وحرفها الثاني (كريستوس) أي المسيح ، وحرفها الثالث هو الحرف الأول من كلمة (ثيو) أي الله وحرفها الرابع هو الحرف الأول من كلمة (يوث) أي ابن وحرفها الخامس هو الحرف الأول من كلمة (ثوتير) أي المخلص فكانت كلمة السمكة باليونانية تذكارا عندهم ليسوع المسيح ابن الله المخلص وكان المسيحيون يحملون صور السمك الصغير المصنوع من الخشب والعظم للتعرف فيما بينهم خوفا من الوثنيين الذين كانوا يضطهدونهم ويقتلونهم) انتهى ماملخص من كتاب (الأدب والدين عند قدماء المصريين) .

اللهم إنك أنت النعم المعلم اللهم ، اللهم إنك أنت ألهمت الأمم قبلنا أن يكون الرمز أسلوبا من أسلوب العلم ورمزت بهذه الفوائج وألهمت أمثال ابن عباس رضي الله عنهما أن يجعل هذه الحروف رموزا لأسماء الله تعالى بحيث يكون كل حرف رمزا لاسم ، إذن الرمز مقبول عند الأمم قديما وحديثا . إذن ماجاء في هذا التفسير من بعض أسرار هذه الفوائج له نظائر في الأمم القديمة وأمم الاسلام . اللهم لك الحمد على نعمة العلم وعلى نعمة التوفيق . فقال صاحبي ياسبحان الله « إن من البيان لسحرا » .

وإن هذا البيان قد سرنى وعرفت أن من يظنون هذا تكرارا فانهم قوم ليس لهم في هذه العلوم نصيب فهم إما فقهاء جامدون أو نحويون وأدباء قاصرون وهذا الكتاب إنما يعقله أولوا الألباب ، وقيل : ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا واللاحن يفهمه أولوا الألباب
فقلت الحمد لله الذي وفقني لتبيان هذا المقام وأفتحتك بما ذكرته فيه والحمد لله رب العالمين وبهتدا تم الكلام على القسم الثاني من السورة .

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الْم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ
 سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ *
 وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *
 يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أُولَئِكَ يَتَفَكَّرُونَ
 فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا
 مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا
 وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ
 عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَايَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَبْدَأُ
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَدِّلُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
 مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ
 فَمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِيهِمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ * فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
 تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
 الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْبِئُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ
 خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *
 وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتِ لِلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فِيخْبِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

اعلم أن فارسا غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى أو بالجزيرة وهي أدنى أى أقرب أرض الروم من
الفرس فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشتموا بالمسلمين وقالوا أتمم والنصارى أهل كتاب ونحن
وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن عليكم فنزلت . فقال أبو بكر رضى الله عنه لا يقرب
الله عينكم فوالله لنظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبى بن خلف كذبت اجعل بيننا الأجل
إلى ثلاث سنين فأخبر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع مابين اثلاث إلى التسع فزايده في
الخطر وماده في الأجل فجعلها مائة قلووس إلى تسع سنين ومات أبى من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعد قفوله من أحد وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية في السنة السابعة من نزول الآية فأخذ (أبو بكر)
الخطر من ورثة أبى وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به ، وقد استدلت الحنفية على جواز
العقود الفاسدة في دار الحرب وأجاب غيرهم بأنه كان قبل تحريم القمار ، ويقال إن سبب غلب الروم فارس
إذ ذلك أن (شهرمان) وهو القائد الفارسى كان قد أئمن في الروم قتلا وإهلاكا ، وبينما أخوه (فرحان) يوما
يشرب إذ قال لأصحابه رأيت كأنى على سرير كسرى فبلغ الخبر كسرى فكتب إلى (شهرمان) أن يقتل أخاه
فأبى وراجعته ثلاثا فعزله وجعل الأمر لأخيه (فرحان) وأمره بقتل أخيه (شهرمان) فلما قدمه للقتل قال له
اصبر وأراه كتب كسرى اليه ومراجعته إياه فتنازل عن الملك وأرجعه إلى أخيه (شهرمان) وأرسل إذن
(شهرمان) إلى ملك الروم فتقابلوا سرا وحاربا معا كسرى فغلبت الروم في تلك البلاد وانكسرت فارس
ثم إن الروم كانت تملك ريف الشام فعزاهم المسلمون وقتلوا بعض بلادهم في السنة التاسعة من نزول الآية .

﴿ ملخص هذا التاريخ ﴾

إن الروم غلبتها فارس في أقرب الأرض إليها ثم غلبتها الروم بعد ذلك بعد سبع سنين وأن الروم المالكه
لتلك البلاد قد غلبها المسلمون بعد نزول الآية بتسع سنين ، ولا جرم أن الأمرين معجزة ولا ينافى أحدهما الآخر
فإن الروم غلبوا الفرس وغلبهم المسلمون ولذلك قرئت الآية بوجهين .

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) سيأتى أن «الم» تشير إلى التحقق من علم الحكمة وذلك لأن قوله تعالى « واختلاف ألسنتكم
وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » فهذه الحروف مفرقة تارة ومجتمعمة أخرى ، انظر فيما سيأتى وفيما سبق
آتفا (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد عليهم سيغلبون في بضع سنين) فعلى الأول يقرأ الفعل الأول

بالبناء للمجهول والثاني للعلوم وعلى الثاني بالعكس ولا منافاة بين القراءتين والقرآن أنزل على سبعة أحرف فهنا حرفان كل منهما معنى لا ينافي الآخر ثم إن في ذكر الروم وعدم التعرض لفارس حكمة بالغة وهي أن دولة الروم لا تزال قائمة للآن تناوى الإسلام فسمى الله هذه السورة باسمها ليكون تذكراً للمسلمين بأنهم لا يزالون يقاتلونكم ويذكرهم بأعمالهم وهام أولاء الآن رجعوا إلى الشام كره أخرى وإلى العراق التي هي أقرب الأرض إلى فارس وعسى الله أن يخرجهم منها كما أخرجهم سابقاً ، هذا ما تشير له الآية (تعالى الأمر من قبل ومن بعد) من قبل غلب دولة الروم على فارس ومن بعدها فمن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه وقدره أو من قبل أن يغلب المسلمون الروم ومن بعد أن يغلبهم يأخذ بعض مدائنهم لأن الله عز وجل يداول الأيام بين الناس (ويومئذ) أي ويوم تغلب الروم النرس أو يوم يغلب المسلمون الروم (يفرح المؤمنون بنصر الله) من له كتاب على من لا كتاب له أو ينصر المسلمين على أهل الكتاب من الروم ومن النصر ظهور المعجزة النبوية بتحقيق هذا الخبر وزيادة اليقين (ينصر من يشاء) نصره على مقتضى الحكمة والنواميس التي سنها الله في نظام الخليقة (وهو العزيز) ينتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم (الرحيم) بالمؤمنين رحمة خاصة وإن كانت رحمته تعم كل مخلوق (وعد الله) أي وعد الله وعداً بظهور الروم على فارس أو بظهور المسلمين على الروم (لا يخلف الله وعده) ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله لا يخلف وعده وإنما كان الناس لا يعلمون أن الله لا يخلف الوعد لأن ذلك من الأمور التي تحتاج إلى دقة نظر وبحث وعلم وهذه بواطن الحياة الدنيا إن الحياة وأن يأكل الناس ويلبسوا وما أشبه ذلك من الأمور الجزئية أما القواعد العامة التي يسير عليها نظام العالم فإن الناس لا يعرفونه لأن حواسهم لا تدرك أمثال ذلك وإنما تدرك العقول والبصائر ومن القواعد العامة أن الله لا يخلف وعده ومنها أنه مامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها وهكذا أما القاعدة الأولى فهي ظاهرة جلية واضحة في أن النبات والحيوان كل منهما يخرج منه شيء إذا وضع وضعا مخصوصا خلق منه نظيره لا يخطئ. البتة فالورد والنخل والحنظل يخرج منها حب ونوى متى وضعت في الأرض خرج منها نظير أصلها ولم يحصل خطأ في ذلك البتة ولو اختل هذا النظام لسكان العالم الذي نحن فيه لانطاق سكناه ، وأما القاعدة الثانية فهي داخلية في الأولى لأنه لما خلق الحيوان في الأرض كان له رزق ولا فلامعنى للخلق ، فيجد الحيوان عند ظهوره في الأرض وخروجه من بيضته أو من الرحم لبنا معداً لغذائه أو أغذية مناسبة له ثم يترقى بالتدريج في هذه الدنيا حالاً بعد حال ولم يخلف الله وعده مع حيوانه ، فكما سلط عليه الجوع والعطش خلق له الطعام والماء ، وإذا لم يكن في الأرض ماء في نهر أو بركة خلق له نبات يقوم مقامهما معا كما جاء في إحدى جرائدنا المصرية بتاريخ (٥) مارس سنة ١٩٢٥ م . الموافق (١٠) شعبان سنة ١٣٤٣ هـ . تحت العنوان التالي :

(بقر لا يشرب)

في جزر (هاواي) قطعان عظيمة من البقر والثيران يصدر جانب كبير منها إلى الخارج أو يرسل لهما مثلجا إلى البلدان التي تستورد اللحم ، غير أن هذه المواشي لم تعتد شرب الماء لعدم وجود أنهر أو برك تلك الجزر فهي تعيش على ما تأكل من السكّال الأخضر وتعاض عن الماء بأكل نبات الصبير وهو كثير السوائل شديد الرطوبة اه .

هذه البهائم لما خلقت في تلك الجزيرة التي لا ماء فيها كان نفس خلقها على هذا النمط وعدا من الله لها بأنه يغذيها ويسقيها ، ولما لم يخلق لها أنهرها هناك خلق لها شجر الصبير وشجر الصبير يعيش على الندى وهو

موجود في بلادنا المصرية ولكن أكثر الناس يجهلون أنه هو الذي يستخرج منه الصبر المشهور في علم الطب وهو مهمل عندنا يزرعونه على المقابر ويكتفي في أكثر حياته بالندى والهواء ، ولكن في تلك الجزيرة جعله الله قائما مقام الأنهار والبرك وأرشد البقر إليه ليم وعده الذي وعده لأن غريزة الحيوان تطلب حياة والحياة تطلب قوتا وماء فأتم الوعد بذلك للبقر لذكور ، ولعلك تقول إن كل امرئ منا يود أن يبقى إلى الأبد وإذا كان الله في وعده لبقر تلك الجزيرة . فلماذا لم يوف وعده لتلك البقر ولنا أن نعيش إلى الأبد وأن تكون حياتنا دائمة ؟ وهلا جعلها دائمة ؟ أقول . هذا هو قوله تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) لأن الآخرة هي باطن الحياة الدنيا فالناس يعرفون مآلهم من أمور الحياة الدنيا أما أن نفوسهم لها بقاء بعد الموت وأنهم هناك لا يموتون فهذا غائب عنهم مع أنه باطن الحياة الدنيا ، فهذه الحياة لو لم تكن وراءها حياة أخرى لم تكن لها فائدة بل عدمها خير من وجودها وترى الناس عاكفين عليها وهم لا يحسون بالأخرى لأنها لاتقع تحت حواسهم ولذلك وغنهم فقال (أو لم يتفكروا في أنفسهم) أي أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم فليعلموا (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) تنتهي عنده ولا تبقى بعده (وإن كثيرا من الناس يلقاء ربهم لساكفرون) لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم وارتفكروا فيها ودرسوا عجائبها لأدركوا أنها غير الجسم . وأن هذا الجسم سيزول وأنها باقية وهكذا السموات والأرض وجميع الأجسام إنما هي ظواهر تزول ويبقى باطنها وسرها وهي العوالم للدبرة لها كما تدير أجسامنا بأرواحنا ، فكفر الناس بقاء ربهم ناشئ من جهلهم أنفسهم ، فإذا علموا أنفسهم وحقا فها يقنوا بقاءه تعالى والعلم إما بطريق تصفية النفس وإما بطريق الفلسفة وإما بطريق تحضير الأرواح ، وقد مر في هذا التفسير كثير من ذلك ومنه الذي ذكر في سورة البقرة عند ذكر حمار العزير وطير الخليل ، ولكن لا بد أن أريك صورة من نفوسنا فيما يلي :

(لطيفة : في قوله تعالى «أو لم يتفكروا في أنفسهم»)

لقد مضى ذكر تحضير الأرواح في سورة البقرة كما قدمنا وقد قلت لك هناك أن هذا العلم فيه الحق والباطل والصدق والكذب وقلت إن المسلمين مقصرون لأنهم أولى بهذا العلم ، فلأدع هذا ولأذكر ماجاء في جرائدنا المصرية من علم الأرواح لتعجب من الحكمة والعلم وكيف تظهر الحقائق اليوم وتأتي الأرواح وتسلم الناس وهذا ماجاء في جريدة السياسة يوم الأحد ٦ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هـ و ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م تحت العنوان التالي :

علم الأرواح

(مقدمة)

لا يخفى على الإنسان أنه مكون من (عنصرين) الجسد والروح ، والأول فان والثاني باق ، وقد اهتم العلماء بالروح وجسدوا لكشف أسرارها واجتهدوا لمناجاتها في عالمها الثاني فلاقوا معاناة كثيرة في ذلك ومنهم من نجح ومنهم من أخفق ، ولكنهم توصلوا أخيرا إلى غرضهم ، وإني لمورد شيئا عن الأرواح وعلمها واكتشافها .

(تاريخها)

أول من اكتشف سر الأرواح هو الدكتور (هايسلوب) وقد قال في كتابه ماياتي (إنه في سنة ١٨٤٨ كان يعيش في مدينة روكستر في إنجلترا رجل يسمى الدكتور فوكس وكان له ستة أولاد أكبرهم ابنتان

تسمى إحداهما (كيت) والثانية (مارجریت) وفي صيف ذلك العام خرج هو وزوجه وأطفاله وترك في المنزل البنيتين المذكورتين ، ففي الساعة الثامنة مساء سمع هاتان البنيتان صوت أوان تنكسر وأمتعة تنقلب فاستولى عليهما الدرع وأخذت الكبرى سدس والدها من تحت وسادة فراشه وأخذت في البحث عن مصدر هذا الصوت المزعج فرأت في الدور الأعلى أواني المطبخ مكسرة وكذلك بعض الكراسي . ولكن أدهش الأختين أنهما وجدا بعض الأثاث ناقصا وفي الصباح وجدوه في الدور الأعلى ، ولما كان مساء الغد زاد الصوت وتمتم بعض زجاج المنزل فاضطرت هذه العائلة إلى مغادرة مسكنهم ، وبعد بضعة أيام سمع (السير فوكس) أن هذا المنزل كان مقرا لعصابة لصوص وكثيرا ما قتل فيه رجال ونساء . ولكنه لم يدرك السر في حدوث هذه الأصوات .

(عملية تحضيرها)

من أكبر علماء هذا العلم (السير أوليفر لودج) الذي اخترع الطريقة التي بها تحضر أرواح الأموات (بينما كان جالسا في (اسكوتلنده) مع صديقين له حول مائدة خشبية وكان يتكلم في علم الأرواح ارتفعت إحدى أرجل المائدة فجأة فلم يهتموا بالأمر ثم أخذت ترتفع وتعود إلى مكانها محدثة صوتا كصوت آلة التلغراف فقطن (السير أوليفر) إلى أن الأرواح هي السبب في رفعها فأخذ يخاطبها بإشارة مخصوصة عليها لها وكانت ترد عليه بإجابات صحيحة ، وفي سنة ١٨٥٠ اخترع طريقة أخرى لمحادثة الأرواح وهي عبارة عن صحيفة من الورق مكتوبة عليها الحروف الأبجدية على شكل نصف دائرة ونحتها أعداد من واحد إلى عشرة وفوقها مثلث خشبي محمول على ثلاثة أرجل (مائدة صغيرة) وأخذ يعلم الأرواح طريقة استعمال اختراعه هذا فنجح نجاحا باهرا مع العلم بأن المائتين الكبيرة والصغيرة خاليتان من السامير) .

(تحضيرها في فرنسا)

يوجد الآن في فرنسا في مدينة ايون امرأة عجوز اشتهرت في جميع أنحاء البلاد بتحضير الأرواح والتكلم معها ، وكثيرا ما كتبت الجرائد الفرنسية وسردت بعض حقايقها ، وإليك واحدة منها :
في يوم ١٤ يولييه (عبد الجمهورية الفرنسية) سنة ١٩١٦ أتى لزيارتها جم غفير من وجهاء القوم من مدينتي (ليل وباريس) واحتفت بهم احتفاء عظيما وقدمت لهم فواكه فصل الشتاء فسألها بعضهم من أين الفاكهة ؟ فأجابته من جنوب أفريقيا ، فقال لا يمكنني تصديق ذلك لأن طول المسافة كاف لإتلافها . فقالت إنني أحضرتها في مدة ثانية أو أقل . فقال هذا محال . عند ذلك قامت ودعت ضيوفها إلى غرفة ذات نافذة واحدة خالية من الأثاث سوى بعض كراسي خشبية في أركانها وأحضرت روحا من الأرواح وطلبت منها إحضار فاكهة من جنوب أفريقيا كالتي أحضرتها في الصباح وكان الحاضرون فقط يسمعون صوت العجوز ولا يسمعون الرد عليه ، ففي الحال وجدوا أمامهم على المائدة فاكهة على أغصانها ، ولكي يصدقوا أنهم ليسوا في حلم قدمت لهم بعضها وأكلوا منها فخرجوا معجبين بمهارة العجوز دهشين بما رأوه . وأسرد أيضا بمناسبة ذكرها ما يأتي :

إنه في سنة ١٩١١ زارها أحد وزرائنا السابقين هو وقريب له فطلب منها تحضير روح قريب له مات منذ زمن ليس بعيد وكان يقصد في الحقيقة تحضير روح النبي صلى الله عليه وسلم فبدأت عملية التحضير إلا أنها وجدت صعوبة كبيرة وعجزت أخيرا عن إحضارها بعد زمن يزيد عن نصف ساعة وقالت لمعاليه (إن الروح التي تطلبها ليست بروح رجل عادي بل هي روح علوية قد يتعذر على أعظم عالم روحاني تحضيرها ، فلتطلب روحا أخرى ففعلت أحضرها لك) ولما كان هذا الوزير وللأسف يشك في نبوة سيدنا محمد ﷺ صمم على إحضارها فحاولت ثانية وثالثة أخيرا وقالت (يغلب على ظني أن الروح التي تطلبها عالية جدا فلا يمكنني أبدا إحضارها وفي

الغالب أنها روح رجل مقرب من الله جدا أوتى أرسل في جزيرة العرب فاطلب غيرها) فتبسم وأخبرها بالحقيقة وطلب إحضار روح والده ، ومن تاريخ تلك الحادثة آمن ذلك الوزير وحسن إيمانه .
(تحضيرها في أمريكا)

نشرت (جريدة الأهرام) في ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٣ قصة وسيطة تعيش في نيويورك وقد تناقلتها أيضا التناغرافات اللاسلكية في أنحاء المعمورة فقالت مانسه :

اشتهرت (مسز تومسون) في أمريكا كلها بأنها وسيطة لمناجاة الأرواح وقد أقبل عليها الناس من كل فج و صوب فأوا منها العجائب وآخر ماجرى لها وتناقلته الأسلاك البرقية أنها وعدت (الستر جلاجر) بأن تظهر له روح والدته فحضر في اليوم الذي عينته له ومعه ثلاثون من أصدقائه رجالا ونساء وكان أول مفعولهم أنهم فتشوا الوسيطة فتفتشا دقيقا وكفوها بأن تنزع ثيابها وترتدى رداء بسيطا لا يجب فيه ، ولما تحققوا أنها فعلت ذلك ساروا إلى الغرفة للعدة لمناجاة الأرواح ولم يلبثوا إلا قليلا حتى ظهر أمامهم شيخ وساروا إلى (الستر جلاجر) الذي استولى عليه الرعب ولم يعد يقوى على دفعه عنه ، ودارت حينئذ معركة شديدة بين الشيخ والستر جلاجر فخاف الحاضرون العاقبة فأثاروا الصايح الكهربائية ، وما كان أشد دهشهم لما رأوا في قمم الستر جلاجر قطعة من قماش أحمر تنبعث عنها رائحة طيبة أما الوسيطة فقد جعلت تصيح بملء فيها ثم أسرعتم إلى ترك الغرفة .

تبين لنا من هذه القصة مقدره الأرواح وعدم استحالة رؤيتها ولا تعجب أيها القارىء من رؤية الأرواح بالنظر المجرد مع أنها ليست بمادة بل هي خلقه من نور كما وصفها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم .
ولكن لسكى تظهر الروح لك قدرتها تتخذ شكلها الأول الذي يعلق بمخيلة الطالب حضورها وذلك لتثبت وجودها وحضورها أمام المحضر والتفرجين وقد حدث ويحدث مرارا وقوع مثل هذه الحادثة .

وقد وقعت في مدينة (بارمن) الحادثة الآتية (إنه في سنة ١٨٩٥ حدث في تلك المدينة أن رجلا من أثرياء القوم يدعى المسيو (فكتور كشارل) كانت له ابنة جميلة توفيت فجأة يوم قرانها وبعد وفاتها بثلاثة أيام سمع والدها دقا على الباب الخارجى لعرفة لاستقبال ففتح فاذا بطفلة صغيرة تحمل خطابا له رائحة جميلة فتناولها منها وانصرفت فدخل غرفة مكتبه وفض الظرف وقرأ الكتاب وما كان أشد تعجبه لما وجد الخط خط ابنته المتوفاة وإمضاءها ، والكتاب يحتوي على تحياتها القلبية له ولأمها وتوصيتها لهما بالصبر والسلوان ووصف حالتها بعد موتها والتعيم الحال بها وقد ذهب (المسيو شارل) في اليوم الثانى إلى المجمع العلمى الفرنسى وعرض على أعضائه الكتاب وسرد لهم الحكاية فقال البعض إنه مجنون والبعض الآخر داخله الريب والشك في صدق هذه الرواية . أما الآن وقد تعددت مثل هذه القصة فلا يبعد وقوعها وستظهر في القريب العاجل أشياء تختص بهذا العلم مما يدهش العقول ويغير الأبواب انتهى ماجاء في الجريدة المذكورة .

هذا أقل من كل مما جاء في العصر الحاضر من علم الأرواح الذى امتلات به الدنيا إلا بلاد الاسلام فانها هي وحدها العاقلة النائمة الساهية . وإن أردت المزيد فاقرأ [كتاب الأرواح] تأليفى فهو يوضح هذا العلم إيضاحا تاما ويبين ما في هذا القام من النقص .

فهذا العلم نوع من التفكير فى الأتفس بل هو أهم فكر فيها ، ومق عرف الناس ذلك وأيقنوا بأن لهم حياة بعد الموت عرفوا سر هذا الوجود وعلموا أن هذه العوالم مخلوقة لمقاصد سامية ونهايات شريفة وحكمة حقة ، وأن الأرواح بعد هذه الدار تكون على ما كانت عليه فى هذه الدنيا شرفا وضعة وعلمها وجهلا وصدقا وكذبا فيكون الجزاء على مقتضى سابق العمل ، فان لم يفقهوا هذه الحقائق أفلا ينظرون آثار الأمم التى

قبلهم كيف هلكوا لما كذبوا رسلهم ، فليعتبروا بما يرون من عواقب الأمم المكذبة فاننا اهلكناهم لما كذبوا .

فها هنا (دليلان) دليل تعرفه العقول بالتفكير في النفس ، ودليل أقرب منه وهو التفكير في عواقب الأمم المكذبة ، فهذا لا يحتاج إلى علم النفس ولا إلى تحضير الأرواح ولا إلى الفلسفة وإنما يعوزه النظر في عواقب الأمم المكذبة فمن عجز عن الأول فكيف يعجز عن الثاني ودلائله مشاهدة في خرائب الأمم الهالكة رآه الأحياء وهم غافلون وهذا هو قوله تعالى (أولم يسيرا في الأرض) إذا عجزوا عن السير في علم النفس (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) هذا تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد ونمود وغيرهم من الأمم القاهرة الغالبة . ثم وصفهم فقال (كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض) وحرثوها (وعمروها أي المدمرون عمارة) (أكثر مما عمروها) أي أكثر من عمارة عمرها أهل مكة (وجاءهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات الواضحات فلم يؤمنوا واهلكوا (فما كان الله ليظلمهم) فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إذ عملوا ما أدى إلى تدميرهم في الدنيا (ثم كان عاقبة الذين أساءوا) أعمالهم في الدنيا الحصلة (السوآى) أي العاقبة التي هي أسوأ العواقب في الآخرة هي النار التي أعدت للكافرين ، والمعنى ثم كان عاقبتهم إلى آخرة ولكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن الجزء من جنس العمل ولم يجلب للانسان شيء آخر من خارج نفسه وإلا كان ظلما فهؤلاء عاقبتهم الحصلة السوآى (أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) أي ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها فملخص ما تقدم برهانان : برهان علم النفس ومنه تحضير الأرواح . وبرهان النظر في آثار الأمم ونتيجة البرهانين قوله تعالى (الله يبدؤا الخلق ثم يعيده) أي ينشئهم ثم يحييهم بعد الموت (ثم إليه ترجعون) للجزاء والعدل . ولقد تقدم في (سورة العنكبوت) عجائب خلق العوالم في قوله « قل سيرا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة » أي ليستدلوا بالنشأة الأولى على الآخرة وقد سار الناس في الأرض وقرأوا العلوم وفهموها واطلعوا على علم الأرواح وفهموا منه بصيصا من عالم الآخرة ، فاقران النشأة الآخرة بالنشأة الأولى لتلاحقهما واتصال كل منهما بالآخرى وقد علم الناس في الدنيا أن الوعد لا يخلف كما تقدم . فمواعيد الأيام والشهور والسنين والحسوف والكسوف صارت مفهومة عند علماء الفلك بحيث يمكن الانسان أن يعرف أول السنة وأول الشهر وموعد كسوف الشمس وخسوف القمر بعد مئات الملايين من السنين وهكذا عرف الناس كما أوضحناه في (سورة العنكبوت) كيف نظمت العناصر ورتبت في جداول بحسب ذراتها وكان بين كل عنصر ما فوقه وما تحته وما وراءه وما أمامه نسب هندسية ونسب عددية كالنسب التي في علم الشعر وفي علم الموسيقى وصفات مشتركة مع الصف الرأسي وأخرى مع الصف الأفقي كما أرتبته في الجدول هناك بحيث يعرف علماء الكيمياء العنصر المفقود قبل وجوده ويعرفون مكانه من الجدول المذكور . إنه لا فرق بين الأزمنة المستقبلية وبين الأمور المفقودة في أن كلا يعرف قبل وجوده وذلك لحسن النظام والابداع . وإذا كان هذا العالم بهذا الاتقان والنسق فهو منظم له نتائج صادقة معلومة قبل حصولها ومن النتائج رجوعنا بعد موتنا على حسب المقدمات في هذه الحياة وهو قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يناس الجرمون) ينأسون ويتحجرون كما تقول ناظرته فأبلس إذا لم ينبس ويثس من أن يحتج (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) أي ممن أشركوهم بالله شافعين يجبرونهم من عذاب الله (وكانوا بشركائهم كافرين) يكفرون بألهم حين يشسوا منهم أو كانوا في الدنيا كافرين بسببهم . واعلم أنه قد كتب في المصحف شفعوا وعلووا بنى إسرائيل بالواو والسوآى بالألف قبل الياء إثباتا للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها ، ثم فصل حال الطائفتين المؤمنين والكافرين

فقال سبحانه (ويوم تقوم الساعة يومئذ يفرقون) أى المؤمنون والكافرون (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) أى فى أرض ذات أزهار وأنهار يسرون سرورا تهللت له وجوههم وينعمون ويكرمون بالتحف (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) مدخلون لا يغيثون عنه ولا يخفف عنهم ، واعلم أن ملخص ما تقدم أن الأمم يغلب بعضها بعضا ولكل وقت محدود على نظام القانون العام وهو أن لا يخلف الميعاد ، ومن القانون العام المذكور أن الحياة الآخرة تعقب الحياة الدنيا . ثم أعقبه (بدليلين) دليل الأتقى والبحث فيها ، ودليل التأمل فى أحوال الأمم . وهاهنا رجع إلى مسألة إن الله لا يخلف الميعاد فذكر ذلك فى [ثلاثة مواضع] تعاقب الليل والنهار وأنه لا يخلف الوعد فى ذلك . وإخراج الحى من الميت والميت من الحى وأن الأرض تحيا بالنبات بعد موتها باليبس والقحط . وهذه الأدلة الثلاثة ترجع لعدم الإخلاف فى وعد الله . فكما يستدل الناس بأنفسهم وبآثار الأمم على الآخرة يستدلون عليها بعدم إخلاف الميعاد وذلك بهذه الأمور الثلاثة الآتية وقد قدمت لك فى (سورة الأنعام) أن هذا الدليل هو الذى ذكره سقراط لتلاميذه عند الموت إذ استدل على الآخرة أن الضد يعقبه ضده فالمرض والجهل والفقر والذل يعقبها الصحة والعلم والغنى والعز فهكذا يكون بعد الموت حياة فذكرها الله سبحانه هنا فى مقام إثبات الطريق الموصلة إلى النجاة فى الآخرة بالعبادة فى الأوقات الآتية مع الفسك فى تلك الأوقات وتعاقبها . فهأنا ضرب الطيرين بحجر ، فالآية فيها التسبيح والصلاة ومع ذلك يفكر المؤمن فى تعاقب هذه الأشياء وهذا هو قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) أى فسبحوا الله والتسبيح تنزيه الله من السوء والشاء عليه بالخير فى الصلاة وغيرها . وقد سأل نافع بن الأزرق ابن عباس قائلا «هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن؟ قال نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعت الصلوات الخمس ومواقيتها» قال العلماء وذلك أن قوله «تمسون» صلاة المغرب والعشاء وقوله «تصبحون» صلاة الفجر «وعشيا» صلاة العصر «وحين تظهرون» صلاة الظهر وهذه الأوقات تتبدل فيها أحوال النور ، فمن عدمه بالظلمة وقت المغرب والعشاء إلى ظهوره بالفجر إلى نهاية إشرافه وقت الظهر إلى قرب اضمحلاله وقت العصر ليكون الإنسان متذكرا ربه فى كل ظاهرة من ظواهر الحركات الفلكية ليرى عدم اختلاف الميعاد فيستدل على الآخرة ، وإنما جعلت الركعات سبعة عشر ليكون لكل ساعة من ساعات الليل والنهار ركعة فكأنه يسبح الله فى كل ساعة وبقية سبع ساعات هى متوسط ما يناله الإنسان كل (٢٤) ساعة ، وإنما قرنت الصلاة بأحوال الأنوار الشمسية لأن هذه الأنوار مبدأ كل حياة على الأرض . فالرياح تهب بحرارتها والبخار يشور بإثارتها من البحار والسحاب تساق فى الجو بهذين العاملين الناجمين من الحرارة والنبات والحيوان والإنسان كلها نواتج لذلك . والألوان التى يفرح بها الناس ويمزونها بنفس الضوء ، فلا فلك تجرى فى البحر ولا سحاب فى البر ولا حب تأكله ولا فاكهة تنفكه بها ولا ثوب تلبسه ولا حشيرة تزين به إلا وحرارة الشمس كانت سببه ولا هداية للطريق إلا بضوء الشمس ولا نظام للطرق فى البحار وفى البر إلا بملاحظة السكواكب المحيطة بكرتنا ، إن عبادة أمتنا الإسلامية عبادة تأنسها الفلسفة نتائجها الحكمة .

فانظر كيف استبان فى السورة للتقدمة أن ملخص الأدعية الحث على جميع العلوم وانظر كيف كانت أوقات الصلوات مفتاحا لأصولها ومبدأ لأوائلها ونبراسا لطرفها ومهيما لعجايبها تلك وحدة ثابتة . الشمس واحدة والحرارة والنور منها انبعثا ومنهما تشعبت أنواع الحيوان والنبات مع نظام العناصر السابق بحيث دارت الأفلاك وأرسلت الأشعة إلى هذه العناصر ، وما أشبه الحرارة والنور بالنفس الإنسانية والعقل الإنسانى . فلنا نفوس بها نشتهى وبها نحس وبها نتحرك . فالنفس مبدأ الحس والحركة . ولنا عقول بها ندرك الكليات

هكذا للشمس حرارة بها هذه الحركات ، وبها ضوء به يهتدى الناس في الطرقات ويعرفون الصور والأشكال ولذلك تسمع قول الفلاسفة (النفس والعقل) فقالوا : إن العالم المدبر لنا فيه نفوس وعقول ، فالعقول مدبرة والنفوس محركة أشبه بما رأينا في الشمس وفي نفوسنا . فما أجمل الحكمة وما أبداع العلم وذلك بلسان الشريعة الملائكة وهم درجات بعضها فوق بعض . ومنهم الأرضيون والسمويون . وقد ذكر بعض هذا في (سورة البقرة) وهذا كله مستفاد من هذه الآية « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » أى تدخلون في الظهيرة . وقوله « وعشيا » معطوف على قوله « حين تمسون » وأما قوله « وله الحمد في السموات والأرض » فهي جملة اعتراضية . ومعناه بحمده أهل السموات والأرض ولقد علمت أن أمتنا الإسلامية هي التي اختص نبيها صلى الله عليه وسلم بأن له مقام الحمد وأنه رافع لواء الحمد وقد أمر بالحمد وبشر بأن أمته ستعرف آيات الله كما تقدم في (سورة النمل) ولا معنى للحمد إلا بعد معرفة الحمود عليه ، فتكون نتيجة ذلك أن أمة الإسلام سيربها الله آياته فتعرفها والآيات هي سائر العلوم . انظر كيف جعل الصلوات تتبع الإضاءة والإظلام وكان يمكن أن تكون تلك الأوقات مطلقة يصلى الإنسان كما يشاء فلما قيدها علم أن الضوء والظلمة لهما مزية ، وما مزيتها إلا أنهما مبادئ الحوادث ومبادئ العلوم وبهما يعرف أنهما تابعان للشمس وحركتها فيعرف وحدانية الله وحسن نظامه في خلقه ، ويعرف أيضا أنه لا يخلف الميعاد لا في الأنوار والظلمات ولا في نسق العناصر المتقدمة في الجدول المذكور في (سورة العنكبوت) « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فلا تفاوت بين حوادث الأنوار والظلمات من حيث تناسبها وصدق موعدها ولا في نظام العناصر من حيث وضعها المنتظم الذي اخترعه (مندلييف الروسي) وإن كان لم يزل نظامه غير تام لقصور الناس عن الإحاطة به ومع ذلك أمكن أن يعرف ماغاب من العناصر بما حضر منها كما تقدم ، وقوله تعالى (يخرج الحي من الميت) كالإنسان من النطفة (ويخرج الميت من الحي) كالنطفة والبيضة (ويحيى الأرض بعد موتها) يبسها وهذا يدل كما تقدم عن سقراط دلالة إقناعية على الحياة الأخرى ولذلك قال : (وكذلك يخرجون) من قبوركم على قاعدة أن الضد يتبع ضده . ولما ذكر سبحانه أنه يحيى الأرض بالنبات ويحيى الناس والحيوان ، وأن الضد يعقب ضده ناسب أن يشرح [أحوال الإنسان الأربعة] وهي حال نشوته وتنوعه إلى ذكور وإناث بينهما محبة ووثام وإلى أمم مختلفة اللغات والأحوال كلها من لون وغيره وإلى تنوع أحوال الأرواح مع الأجسام من حيث اليقظة والنوم . ثم أتبعه بذكر ما يحيط به وهما [حالان : الأول] أحوال الجو من مطر وبرد وثلج وصحو وحر وبرد ، وأشار لها بالبرق وإزال المطر . الثانى أحوال العالم كله فإنه كجسم واحد منظم يخدم بعضه بعضا . يفهم ذلك من نظر إلى أحوال الجو وأحوال الأنفس في نشوتها وتناسلها ونومها ويقظتها واختلاف لغاتها وألوانها . فالخمس التي قبل السادس لمعرفة سبحانه وتعالى ، ثم أعقبه بالسادس وهو أن من في السموات والأرض متقادون له ، لأن هذا الاتقياد لا يفهم إلا بفهم المباحث السابقة عند التحقق منها وهذا قوله تعالى :

- (١) (ومن آياته أن خلقكم من تراب) في أصل الانشاء ، أوفى هذه الحلال بتغذيتكم من النبات ، والنبات يتغذى من التراب والهواء والماء ، وأكثر المواد المركبة فيكم مخلوط مركب من التراب والماء وعناصر أخرى (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) تنبسطون في الأرض أى ثم فاجأكم وقت كونكم بشرا تنتشرون في الأرض .
- (٢) (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) لأن النساء خلقن من جنس الرجال أى من شكل أنفسكم وجنسها (لتنسكنوا إليها) يقال سكن إليه إذا مال إليه وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر (وجعل بينكم مودة ورحمة) أى جعل بينكم التواد بسبب

الزواج فيحصل الإلف بين الزوجين ويكون الشبق في حال القوة مدعاة لميل كل منهما إلى الآخر سواء كان ذلك وقت إرادة النسل أو في غيره لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام . ولما كان الشباب يتوارى تدريجاً والجمال يتبعه تحقيقاً كان كلما ولي الشباب توارى معه الجمال . فلا يزال الشباب في إدبار والجمال في تغير حتى تجيء الشيخوخة وقد نفذت القوة في الرجال والجمال في النساء واستبدل الضعف وتجدد الوجه بهما . أقول لما كان ذلك قانوناً مسنوناً خلق الله منهما الذرية ذكورا وإناثاً ليحصل بينهما التفاهم والتحاب والمودة للأمر الأشرف وهو التربية والحفاظة على الذرية وحينئذ تظهر أنوار الرحمة التي كانت متوارية وراء ظلمة الشبق والشهوة فلا تزال الرحمة تظهر والشهوة تختفي حتى تظهر شمس الحقيقة الواضحة وهي الرحمة الخالصة بين الزوجين بعد زوال ذلك الظلام الخالك الذي غشى عليهما . وإيضاحه أن محبة الزوج لزوجته أولاً تكون لمجرد الشهوة، ألا ترى أنهما يقتلان إذا لم يبيداها ويتخاصمان ويفترقان فإذا وجدها مريضة أو قبيحة أو راته هو كذلك حصل النفور بدل المودة، فأما إذا كبرا لاسياً إذا كان لهما ذرية فانه يحبها وتحبه ولو كان بهما مرض وقد تحقق كل منهما أن صاحبه لا جمال فيه ولا قوة ، فهذا هو الحكمة في التعبير بالرحمة بعد اللودة . إن هذه الحياة جعلت لتمريننا على الأخلاق العالية . ومن أحسن الطرق أن يحس الرجل بحاجة إلى المرأة تحسه هو وتقضى وطره فليس في أكثر الناس من يتزوج امرأة إلا لقضاء وطره وقليل منهم من يكون أول مقاصده الولد أو المساعدة المنزلية ، فالشهوة إذن كالحب يوضع للطير فيصاديه هكذا هذه الشهوات توضع للذكور والإناث ليجتمعوا فتكون الذرية والنظام المنزلي فالنتيجة الحقيقية هي الذرية وبهذه الذرية يتعلمون علم الرحمة والشفقة فلا يكون لهما مقصد إلا تربية هؤلاء الذكور وهؤلاء الإناث وهذا ليس فيه شيء يرجع إلى نظام أجسامهما كما لم يكن للحيوان منفعة من ذريته . إن نظام هذا العالم راجع في نهايته إلى أن تتعلم علم الرحمة أي أن تكون نتائج أعمالنا للنفعة العامة وأول المنفعة العامة تربية الذرية . ولقد أودع في عقول الآباء أن أبناءهم يتفهمونهم في كبرهم . وهذا أثر من آثار الضعف الإنساني . فنحن ملزمون أن نربي الأبناء سواء أكانوا ذكراً لنا في الكبر أم لا . والسائق الذي جعل في نفوسنا هي الرحمة بهذه الذرية، وضعها الله في الآباء لتسوقهم إلى تربية أبنائهم وهذه مزية شريفة وضعها الله في الأرض ، فقد تدرج الإنسان من طفل يكفله أبواه إلى قوام على امرأة لمجرد شهوانته لأنه ليس أهلاً أن يتصف بأن يكون قواماً على غيره لأنه لا يزال حديث عهد بالحضانة والتربية فمال إلى من يقضى معه شهوته النفسية ثم ارتقى إلى تربية غيره وكفالاته بلا أجر إلا ما تخيله في نفسه من أن الولد ذكر له أو يقوم بما يحتاج إليه في الكبر .

إن دراسة هذه النظم مرقية لنوع الإنسان ، فليدرس المسلمون نظام الله في أرضه فهم مخلوقون في عالم كله جمال ونظام وحكمة فان لم يفكروا فلا آخرة ولا دنيا . ولذلك ترى أن الأنبياء والحكماء الذين جاءوا إلى هذه الأرض لإصلاح أهلها قليلون جدا وإنما قلوا لأن هذه الأرض من العوالم التأخرة فلانآتي إليها بالأرواح جاهلة غيبية لا تعرف إلا أنفسها وقد غفلت عن نظام العالم العام . فهذه الأرواح الأرضية لما وردت هذا العالم جرت على طباعها وأخذت الله يعلمها الرحمة العامة والمحبة الكلية تارة بنفس النظام الذي يعيشون فيه بأن يظهر للإنسان أنه لا سعادة له بدون أمته وأن أمته لا سعادة لها إلا بالأمم ولا سعادة للأمم إلا بالعوالم كلها التي تراها والتي لا تراها وتارة بكلام الأنبياء والحكماء وطلبهم محبة الجميع والاحسان للجميع والتوجه لله الذي هو فوق الجميع ليكون نظره إلى سائر الناس والحيوان ونظر حكمة ورحمة عامة . فعلى هذا يكون الأنبياء والحكماء أشرف هذا النوع الإنساني لأنهم عاشوا فيها لاسعاد الجميع واكتفوا من الدنيا بما هو ضروري فهؤلاء يرون في أنفسهم عطفاً على جميع النوع الإنساني وعلى الحيوان كما يرى الأب والأم حبا لأبنائهما

ولذلك يقول الله تعالى «الذي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم» فالأنبياء آباء والأمم أبناء . هذا هو إيضاح معنى الرحمة في قوله «مودة ورحمة» فكنن أيها الله كي أبا عليا ولا تقف عند الأبوة الجسمية . كن تابعا للأنبياء والحكماء ولا تقف عند الدرجة الدنيا .

واعلم أن أمة الإسلام يعوزها مرشدون وأنت لم تقرأ هذا التفسير إلا لما في نفسك من حكمة وعلم وشرف وإلا لسدت عنه وكرهته لأن الانسان لا يعشق إلا ما كان من طباعه ، وإذا كان ذلك كذلك فإني أسألك بالله الذي أبدع هذا النظام وسواك وعلمك أن تكون رحمة لهذه الأمة المسكينة الأمة الاسلامية التي تألبت عليها أم أوروبا وأن تهديها وأن ترشدتها فان مثل هذا التفسير لا يقرؤه إلا أكابرها وهؤلاء الأكابر يحرم عليهم أن يتألموا فشمع عن ساعد الجهد وانشر الحكمة بينهم على قدر عقولهم ، فخذ نبذا من هذا التفسير أو من غيره أو مما تعرف أنت وانشرها بينهم وجيبهم في العلم والصناعات ، ولتعلم أني قابلت العلماء من سائر أقطار الإسلام فألفتهم جميعا ليكون على هذه الأمة فإن القائلين بأمر الدين منعوا العلم وجميع الأمم حولها يقرءون بعض نظام الله في الأرض وفي السماء .

إن أعداء هذه الأمة ومرشديها قد انفقوا على إذلالها فأعداؤها بالحرب ومرشدها بصد الناس عن العلوم . واعلم أن الله أذن للإسلام بالارتقاء والسعادة ، ومن بوادر ذلك نشر هذا التفسير ، وأنا بذلك موقن وسيكون في هذه الأمة حكاء وعلماء وعارفون .

ولتعلم أن الله لم يرسل إلى هذه الأرض من الأرواح العالية إلا قليلا ليوفظوها لا يريدون جزاء ولا شكورا كما أن الشمس ترسل أشعتها بلا جزاء من الأرض لها ، هكذا الأنبياء والصديقون قليل ، وإنما قلل الله منهم لأنهم يخلقون في الأرض فينصبوا ويتعبوا ، لأن نظامها مبني على الشهوات وهم أقرب إلى البراءة منها فلذلك يكونون في ألم وتعب مدة حياتهم ليؤدوا الأمانة التي حملوها قبل مغادرتهم عالم الأرواح وهم في عالم الدر ، وليس يفهم هذا إلا بأحد أمرين : إما بصفاة النفس ، وإما بقراءة علم الأرواح ودراسته دراسة تامة .

(٣) (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وأجناس نطقكم وأشكاله (والوانكم) كالسواد في السودان والصفرة في الصين واليابان والبياض في أوروبا وأكثر بلاد الشرق واللون النحاسي كأهل أمريكا الأصليين وذلك في العموم ، والحقيقة التي لا مرية فيها أنه لا رجل ولا امرأة في الشرق والغرب يشبه لونه لون الآخر ولا نطقه نطق الآخر ، فترى اللغة واحدة واللون واحدا كالعربية والبياض ولكن لا ترى وجهين يتحدان بيضا ، ولا لسانين يتحدان منطقا . هكذا سمعة الوجوه وشكل الأعضاء كلها كما سيأتي إيضاحه .

(٤) (إن في ذلك لآيات للعالمين) جمع عالم بكسر اللام ولقد نبغ العلماء في فن علم اللغات ومعرفة الحيوان وأصناف الانسان ، ولن يدرك عجائب ذلك ونتائجه حق إدراكه ومعرفة إلا العلماء به وبالاستنتاج منه بحيث يذوقون جمال هذه النظم وتتأثر به نفوسهم فيرون وراء هذا الجمال والنظام والابداع إشراقا به أبدعت هذه العجائب ورون مادة واحدة أصلها الأثير تنوعت بحركات فكانت هذه المواليد ثم اختص كل مخلوق بصفات بحيث يمتاز عن سواه ثم يدهشون ، إذ يرون هذا التمايز والتغاير الجزئي جعل لأجل أن تميز الأفراد بعضها من بعض ، فالاختلاف إنما جاء لهدايتنا للمعرفة وفصل الأشياء بعضها من بعض ، فالنتيجة من ذلك هداية عقولنا لمعرفة الأشياء وكذلك الحيوان .

(٥) (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله) في النهار بمزاولة أسباب العاش غالبا فيها (ن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) مسماع تفهم واستبصار .

(٦) (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً) أى إرءاءتكم البرق كما يقولون: تسمع بالمعبدى، أى سماعك خوفاً من الصاعقة وطمعاً فى الغيث أى حال كونكم خائفين طامعين (وينزل من السماء ماء) مطراً (فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) يتفكرون بعقولهم (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أى تثبت بلا عمد بأقامته وتديره وحكمته لأن عوالمنا التى نسكنها ليست فى مكان واحد بل هى تجرى فى الفضاء فالأرض جارية والسحاب يجرى حولها والهواء تبع لها والشجر دائماً حولها، وهى والقمر والسيارات التى تاملها يجربن حول الشمس والشمس ولو احقها تجرى حول كوكب آخر يظن أنه هو نجم فى الجانى على ركبتيه وهو وأمثاله يجربن حول كواكب أخرى وهكذا إلى حيث تنقطع الفكر ونحن على الأرض لاندري إلا هذه الآثار العلية الضئيلة، فإسألك هذه العوالم وإقامتها وتديرها وإحكامها من الآيات الدالة على إله دبرها (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) معطوف على قوله «أن تقوم» أى ومن آياته قيام السموات والأرض ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة فيقول أيها الموتى اخرجوا وذلك كقوله تعالى: «كن فيكون» .

(٧) (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) . نقادون لفعله فهم لا يمتنعون عنه . ولما كانت هذه العلوم السبعة توضح «كيف بدأ الله الخلق» وهكذا يعيده وحيى بها كالأيضاح أو الاستدلال على قوله تعالى قبلها بقليل «الله يبدأ الخلق ثم يعيده» الخ أتبعها بما هو كالنتيجة لها فقال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت وهو هين عليه أو هو أيسر عليه على حسب ما يرسخ فى عقول المخاطبين أن من فعل شيئاً مرة كان أسهل عليه إعادته (وله المثل) أى الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة (الأعلى) الذى لا يساويه فيه غيره ولا يدانيه (فى السموات والأرض وهو) فى ملكه (العزى الحكيم) أى فى خلقه . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة . وههنا (خمس لطائف) :

- (١) فى قوله تعالى «ومن آياته أن خلقكم من تراب» الخ .
 - (٢) فى قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم» .
 - (٣) فى قوله تعالى «ومن آياته منامكم بالليل والنهار» الخ .
 - (٤) فى قوله تعالى (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً) .
 - (٥) فى قوله تعالى «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده» الخ .
- أما (اللطيفة الرابعة) فلتقرأها فى (سورة الرعد) فهناك شرح الرعد والبرق وهذه الحوادث الطبيعية .

﴿ اللطيفة الأولى: فى قوله تعالى «ومن آياته أن خلقكم من تراب» الخ ﴾

لقد تقدم فى (سورة القصص) ذكر منشأ العالم ومنشأ الإنسان وبيان الثواب والمعاقب التى ظنه حكاء اليونان بعقولهم وأن ذلك معجزة للقرآن لأنهم طابقوا القرآن قبل نزوله وغاية الأمر أنهم أخطأوا المرعى فى بعض التفاصيل كقولهم [إن المجرم من الناس يكون حيواناً ويكون هذا عذاباً له] ذلك لأنهم ليسوا أنبياء وقد أقرروا بأنهم عاجزون عن إحقاق الحق فى مثل هذه المسائل وذلك فى المحاوراة التى ذكرها أفلاطون على لسان (طيباوس) من أتباع فيثاغورس مع سقراط أستاذ أفلاطون وسيأتى ملخص أكثرها فى قوله تعالى «فطرة الله التى فطر الناس عليها» فأريد أن أذكر هنا ماقاله ذلك الفيلسوف فى أمر الإنسان وخلقته وصحته ومرضه ذلك لأن مثل هذه الآراء تورث القارىء لهذا التفسير يقيناً لا يشوبه شك لأن القرآن بهذه الآراء يصبح مطابقاً لآراء أكابر حكاء الأمم كسقراط وأفلاطون . وقد تقدم أنى نقلت لك عن علماء أوروبا فى عصرنا

أن أهم علوم الفلسفة وهي الأمور العامة كالمادة والنفس واثق ، وهكذا لم يصل فيه الأوروبيون الحاليون إلى مرتبة علماء اليونان هذا هو نص كلام سبنسر الفيلسوف الإنجليزي الذي ذكرته في رسالتي السبحة [حرارة الفلسفة] فإنه أعلن على رؤوس الأشهاد أن علماء أوروبا جميعهم عالة على علماء اليونان في هذه المباحث وأن علماء أوروبا لم يرتفوا إلا في العلوم الجزئية . ويقول الفيلسوف (سنتلانه) المعاصر لنا [إن الدهريين من أوروبا في زماننا لم يزالوا في رتبة ديمقراطيس من فلاسفة اليونان] وأقول وهو في مرتبة وسطى لم يصل لدرجة أفلاطون المحترم رأيه عند فلاسفة أوروبا وعند النصارى والمسلمين وعلماء الاسكندرية الأقدمين قبل الاسلام .

فلا تسمعك إذن ماقاله (طليماوس) المذكور لسقراط في خالق الانسان . ابتداء فذكر أن الأرض والماء والهواء والنار يستحيل بعضها إلى بعض ، وأنت تعلم أن هذه هي العناصر القديمة ، ومن عجب أن تكون العناصر التي عرفت في عصرنا ووصلت إلى (٨١) عنصرا أصبحت اليوم يرجع بعضها إلى بعض بعد كشف عنصر الراديوم ، فاعجب لنظام هذا العالم ولتطابق العلوم قديما وحديثا ، ثم قال إن المادة لها صور كثيرة فلا يصح أن نعتبر هذه الصور لأننا إذا أخذنا قطعة من ذهب مصورة أشكالا مختلفة لا يصح لنا أن نقول هي ماثث أو مربع عند الاجابة عمّن سأل عنها . كلا . بل نقول هي ذهب ، فأما الاجابة بشكل من الأشكال فليست حقا هكذا المادة فهي لا تستقر على حال ولا شكل فلتنقل هي مادة وهي أصل الوجودات وهذه الأشكال صور موجودات أزلية وهذه مصورة على صورتها والمادة لا صورة لها وهي نوع من الوجود عديم الصورة غير مدرك بالبصر مستعد لأن يقبل كل شيء له نسبة ما إلى الوجود المعقول وهي نسبة مبهجة عديمة الإدراك . انتهى كلام أفلاطون .

ثم قال (سنتلانه) ناقلا عن (طليماوس) إنه جعل تكوينها من أجزاء مختلفة مثلثة مفرطة ومن تركيب للثلاث بعضها ببعض نشأ المكعب ومن تركيب هذه الأجسام نشأت العناصر الأربعة . قال (سنتلانه) قلت وهذا القول يطابق بما عليه الطبيعيون في عصرنا هذا وهو أن أول ما تتركب عليه المادة من بلور وما يشاكله يتركب على أشكال هندسية بسيطة يختص كل جسم بشكل معين وهي أصل يجتمع منها الأجسام الأخرى من معدن ونبات ، ثم ذكر الإحساس وكيف ينشأ عن تأثير تلك المثلثات وغيرها في أجسامنا وشرح اختلاف الإحساس من خشن ولين وبارد وحار ومؤلم وملذ وقال إن الاختلاف في شكل الأجسام هو سبب اختلاف التأثير في أجسامنا . وقال : إن الألم إنما ينشأ إذا كان التأثير مفرط القوة ووجدت ممانعة من جهة الآلة وكان التأثير مضادا لطبيعتها فمن اجتماع هذه الأحوال يحصل الألم ، وإذا كان التأثير ملائما للطبيعة تحصل منه لذة ثم قال : ثم الإحساس إذا وقع بسهولة فهو إذن ليس بملذ ولا مؤلم ، وتكلم عن الحواس بعد ذلك .

ثم تكلم بعد ذلك في تصوير الإنسان على يد الملائكة فقال إنهم تسلموا النفس الأزلية التي خلقها الله للإنسان وألحقوا بها نفسا مائتة جعلوا مركزها في الصدر ، أما الجزء الغضبي منها ففي أعلى الصدر وأما الجزء الشهوي ففي أسفل البطن [يقول مؤلف التفسير : ومن عجب أني منذ (٣٠ سنة) ألقت كتاب (جواهر العلوم) وفيه مقالة في تصوير الإنسان وشرح عقله وجسمه وأنه ملك في الدماغ له جنود في القلب وعمال في البطن ولم أكن اطلعت على أمثال هذا وعسى أن أضعها يوما ما في هذا التفسير] ولهذا الكلام بقية تقدمت في هذا التفسير مثل الكلام على الأمراض والأدوية ، ومثل أن أمراض النفس تتبع أمراض الجسم وأن الرياضة البدنية والنفسية يورثان الصحة .

وقد ذكر أن الحيوانات كانوا آدميين نزلوا إلى مراتبهم بسبب شهواتهم ، وأن النساء كانوا رجالا جاروا

وظلموا أو جبنوا فأخطوا إلى مرتبة النساء ، فان هذه الأقوال معذرون فيها لأنهم لم يكن عندهم أنبياء فذكروها بخيالهم فإلئين إن أصحاب الشهوات يصيرون بهائم وأصحاب القسوة أو الحور يصيرون نساء ليقسموا العذاب على الأخلاق فهذا ليس إلا ضرب أمثال وظنون ، وهم يصرحون بذلك وما عدا هذا فهذا المقال في تفسير الآية نعمة عظيمة وآية من الله لنا ودلائل على الجمال الإلهي وعلى الاتقان في الصنع .

اللهم إنك أنعمت علينا بالعلم والفهم ، وإني أحمدهم كثيرا على هذه النعمة وعلى أن شرحت صدرى ووقفتي وأبرزت هذه العلوم التي كانت محبوبة في بطون الكتب وسيقف عليها المسلمون وسيكون هناك أجيال وأجيال يرتقون ويرقون العلوم والأمم الإسلامية .

أيها التركي . إني أرى بقلبي كثيرا من شبان الأمم الشرقية ستكون لهم صولة في العلم وقدم صدق وسيكون في الشرق وفي الإسلام حركة لا يعرف مداها إلا الله وعظماء المسلمين بعد الآن قوم إلهيون حكماء نابغون في العلوم والفنون يرقون شعوبهم ماديا وأديبا ، فمن ذا الذي يقرأ هذا الموضوع ثم يترك جسمه بلا حركة ورياضة أو يترك عقله بلا تهذيب ولا تعليم . اللهم إنك أنت المنعم وظني فيك جميل أن ترقى هذه الأمم الآن ولك الحمد في الأولى والآخرة ولك المرجع واللاب . انتهى صباح يوم آخر رمضان للعظم سنة ١٣٤٧ هـ .

﴿ نظرة: في موازنة محاورة طيباوس وسقراط مع ماورد في الصلاة في دين الإسلام ﴾

قد ابتدأ المحاورة بالكلام على السموات ومبدأ العالم ثم تسكما عن الروح الانسانية وما معها من الحيوانات إجمالا ثم أشار إلى علم الأخلاق وإلى جزاء الناس على التفريط فيها وجعل العقاب بالتناسخ الذي يأباه العلامة (ابن سينا) عقلا والإسلام نقلا ، ولكن هذا ماوصل إليه علم القوم إذ ذاك كما تقدم ، إنما الذي يهمني الآن أن أنظر نظرة في الصلاة .

يبتدىء المسلم صلاته قائلا « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيقا وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . ثم يقول بعد الركوع « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجند منك الجند) هذه هي الأدعية التي يقولها المسلم قبل قراءة الفاتحة وبعد الركوع ، كل ذلك وهو واقف .

يقف المسلم فيوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض الخ ، ثم إنه بعد الركوع يقول: إن حمدي لك بلا العالم العلوي والسفلي ، فالمسلم إذن في وقوفه في الصلاة يفعل [أمرين] توجهها للذي فطر العالم العلوي والسفلي وبعد التوجه يكون الحمد ، فهو لما توجه فهم أي درس هذا الوجود كما درسه (سقراط) و (طيباوس) ولما درسه علمه والعلم ينتج الحب والحب ينتج تسخير الجوارح بالطاعة واللسان بالثناء . لذلك نراه بعد التوجه في أول الصلاة يقول (لك الحمد الخ) وهذا الحمد تابع للعلم والعلم تابع للمعلوم والمعلوم هو ما في السموات وما في الأرض الخ ، فهو يحمد الله على ما علمه من عظمته لا على ما وصل إليه وحده . كلا لأن الحمد يكون على نعمة وصلت للحامد ولغير الحامد ولذلك كان الحمد ملء السموات وملء الأرض .

فقال صاحبي : المصلي يحمد ربه على العوالم كلها لأنه علمها وعلمها أوجب الحب وتسخير الجوارح ولكن ليس كل مسلم يعلم ما علمه (طيباوس وسقراط) فكيف يكون ذلك ؟ فقلت إن الصلاة نوع من العلم لأن فيها تذكرة والتذكرة أشبه بالتنويم ، فالإنسان بكثرة التكرار ترسخ العاني في نفسه ورسوخها تنقلب إلى عواطف فيكون الحمد إذن على معان في النفس أشبه بالعواطف التي اتصفت بها النفس . إذن المصلون [قسبان]

قسم علم كما يعلم سقراط فهذا حمده حمد حقيقي . وقسم لا يعلم ولكنه حصلت له حال من تكرار هذه الأدعية فهذا حمده شبه الحقيقي وهذا قوله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » فالعلم بهذه المعاني الموقن بها يكون من الصديقين والصديقون يتبعون الأنبياء ، والأنبياء عابثوا وهؤلاء أيقنوا لأنهم درسوا . أما الآخرون وهم العامة فهم آخر الأقسام فكفاهم الايمان ، فهؤلاء الصديقون هم الذين قال الله فيهم « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » إلى قوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فهؤلاء هم العلماء للذكورون في الآية ، وهؤلاء سيكثررون في أمة الاسلام بعد انتشار هذا التفسير ، وسيقوم فهم شبان أذكيا ويقولون إنه من الجبن والعار والجهل أن نرى (طباوس) و (سقراط) يهجمان على الحقائق العلوية والسفلية هجوما ولم يسمعوا ماسمعنا من قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها » ولا قوله تعالى « وزيناها للناظرين » ويقولون أيضا (عجبا كيف يقول طباوس) إن العين إنما خلقت لنظر الكواكب ونعرف الليل والنهار ، وتزيد علما وتدرس الفلسفة وهي أجل نعمة أنعم الله بها على الناس ، فنحن أخرى وأحق بدرس هذا العالم ، ولا بد من نبد طرق آباءنا للتأخرين العقيمة ، والسير في الطرق القويمة « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا ما يقوله المسلم في صلاته وهو في حال وقوفه ، فإذا جلس المسلم بين السجدين فماذا يقول ؟ نسمعه يقول « رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني وعافني » هذا قول المسلم بين السجدين ومعلوم أن الجلوس بعد الوقوف . يطلب المسلم الغفران ، أي غفران الذنوب ، ولا جرم أن هذا راجع للتقصير في الأخلاق وذلك بعد أن أكل الأمور العلوية وهو واقف ، فهو في حال وقوفه يدرس العوالم العلوية والسفلية كما أنه يدرس السموات والأرض ، فلما أن أتم الدراسة ترك عالم السموات ورجع إلى نفسه كما أن الله خلق العوالم العلوية والسفلية ثم خلق الانسان ، فدعاء الجلوس بين السجدين راجع لأحوال الانسان خاصة بعد الفراغ من دروس العوالم كلها . هذا هو الذي جاء في المحاورة . فهما ابتداء بدراسة العوالم ، ثم ختاً للموضوع بالبحث في أخلاق الانسان وعقابه وثوابه ، إذن ما يقوله المسلم في الوقوف ، وما يقوله في الجلوس هو ملخص العلوم العلوية والعلوم العملية .

أليس من عجب أن تكون صلاة المسلم هي ملخص علم الفلسفة ، أليس من عجب أن تكون الفاتحة في أولها هي نفس ماجاء في أول هذه المحاورة من الكلام على السموات والأرض ونفس ماجاء في قول الصلي قبل قراءة الفاتحة وهو (وجهت وجهي للنج) وأن يكون آخر الفاتحة هو العبادة والاستعانة والهداية وهو أقرب إلى ماجاء في الجلوس بين السجدين من طلب الغفرة على التقصير في تلك العبادة وفي الانحراف عن صراط الدين أنعم عليهم ، والاقتراب من صراط غير المنعم عليهم والضالين ؟ إذن هذا الدين الاسلامي إنما تظهر ثمراته في أمة بعدنا وهذا يكون بأحد أمرين : إما أن يرتقى أبناء المسلمين متى قرءوا أمثال هذا التفسير ، وإما أن ينشر في أمة أرقى من هذه الأمم ، فدين الاسلام لن يبقى كما هو الآن ، وإنما هو دين أمة ذوى عقول غير هذه العقول ، هو دين أمة مجلون الحكمة وبفروحون بالعلم وتكون هذه الدنيا كلها كتابا يقرءونه .

هذا ما فهمته في صلاة العصر يوم الأربعاء ثاني يوم من شهر شوال سنة ١٣٤٧ هـ الموافق (١٣) مارس سنة ١٩٢٩ م وكتبته عقب الصلاة وقد جاء في (مجلة الجديد) مانصه :

الانسان آلة ميكانيكية عجيبة (إحصاء حركة أجزاء الجسم)

ليس في الأمر غلو ولا مبالغة فإن هذه البيانات التي تقدمها هنا لك ستدلك على القوة الهائلة التي ينطوي عليها الجسم البشري فحجم الانسان يحتوي على (٥٠٠) عضل وهذه العضلات تقوم بتسيير ١٥ كيلو جراما من الدم لتغذية هذه الآلة ومحركها الرئيسي أي (القلب) .

والقلب وقطره لا يزيد على (١٥) سنتيمترا ، ينبض في الدقيقة الواحدة (٧٠) مرة و (٤٢٠٠) مرة في الساعة و (٣٦٧٩٢٠٠٠) مرة في السنة: وفي كل مرة من هذه المرات يقذف القلب في الشرايين الصغيرة (٤٤) جراما من الدم أي ما يبلغ في اليوم الواحد (٤٤٣٥) كيلو جراما ، ومجموع هذا الدم يمر (٣) مرات في الدقيقة . وتحتوي الرئة في الحالة العادية على خمسة لترات من الماء ، ويتنفس الانسان بها (١٢٠٠) مرة في الساعة وهي تنقى في أثناء هذه الفترة (٦٠٠٠) لتر من الهواء فتغذي بها السكريات الحمراء الموجودة في الدم وتعدم بالفيتامين . أما البشرة أو الجلد الذي يغطي اللحم والعضلات والأعضاء الخارجية فتتألف من ثلاث طبقات يتراوح سمكها بين (٣) و (٦) مليمترات وكل سنتيمتر مربع منها يحتوي على (١٢٠٠٠) من المسام التي تفرز العرق الناشئ عن تأثير حرارة الجو . ثم الكلام على اللطيفة الأولى .

﴿ اللطيفة الثانية: في قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك آيات للعالمين ﴾

جاء في هذه الآية خلق السموات والأرض ثم تخصيص [أمرين] الألسنة والألوان بالذكر ، إن الذي يسمع هذه الآية لأول وهلة يقول لا حاجة في معرفة اختلاف الألسن والألوان إلى علم ، فما الداعي إذن لتخصيص العلماء ؟ مع أن ظواهر الألوان معروفة للجاهل والعالم بل الدواب تعرف اختلاف الألوان وتميز الأشجار والزرور بعضها من بعض ، فهذه المعرفة إذن ليست خاصة بالعلماء بل هي عامة لجميع المخلوقات فهي آيات للعالمين بفتح اللام وليست خاصة بالعالمين بكسرها .

هذا ما يتبادر للذهن ولسكن عند النظر والفهم يرى الانسان أن العامة في نظرم إلى هذه الألوان لا يجدون فيها حكمة ولا علما فهم ينظرون لاختلاف الألوان نظرم لاختلاف مذاق الأغذية من حلوة ومرة وحارة وباردة ، وهذه وتلك لا تهيج فيهم هم ولا علماءهم معرفة الله ولا حب العالم الأعلى . إن معرفة الجاهل باختلاف الألوان معرفة جاهلة بدليل أنها لا أثر فيها للتذكرة ولا العبرة ولا الحكمة فإن الجهلاء في كل أمة يعيشون ويموتون ولهم ألوان وزرورهم ولأمتهم وهم يرون نور الكواكب ساطعا عليهم ونور الشمس والأقمار وهم أموات في نهر الحياة عمى أمام أبهج الجمال ، صم أمام أجمل النغمات هؤلاء هم الجهلاء وصغار العلماء في الأمم كلها مسلمين وغير مسلمين . نبحت إذن عن سر هذه الآية من باب آخر عسى أن نجد مخرجا ونعرف بعض سرها ، وههنا أذكرك أيها اللدكي بما مر في (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى «وما كنا عن الخلق غافلين» فانظر هناك عجائب اختلاف الألوان وأنها موضوعة بحكمة والذي عرف الحكمة هم علماء خلقهم الله في أرضنا صرفوا أعمارهم في بحث هذه الألوان هل هي مخلوقة لمجرد المصادفة العمياء أم هي موضوعة لعنايات محققة ؟ فهناك ترى :

(١) الحيوان الذي رآه بعض العلماء الغربيين في حديثه لما أخذ يسقطه بالمبراة في جرة مملوءة ماء وملحا

وأخذت تلك الحشرات تتساقط وتقبض وتتقلص بشكل يضاوى وتصيح أشبه بالحسوات المتبلة وكلما تقلصت واحدة منها صارت في أقرب من ملح البصر كحصاة سوداء من الصوان منشقة نصفين صفراء من الداخل كالحسوات هناك فصار هذا العالم لا يفرق بين الحسوات في حديقته وبين تلك الحشرات إلا بشق الأنف بحيث يحتاج إلى أن يجربها بطريقة اللس ، أما حاسة النظر فإنها لا تميز وإنما اللس بالمبرة هو الذى كان الطريق الموصل لتمييز الحشرات من الحسوات فأخذ يبحث فما كان ليعثر في تلك الحسوات إلا على القليل من تلك الحشرات فهناك وثق ذلك العالم بأن هذه الألوان مقصودة لإضلال الطيور الآكلة لهذه الحشرات لأنها إذا قدرت أن تغشه هو ففى على غش الطيور الآكلات لها أفدر .

(٢) ثم انظر هناك (حشرة العصا) ففى بتشبهها بالعصا أمنت من الخطر .

(٣) وهكذا (السوس) الذى أعطى قوة الانسكاش عند مسه فلا يفرق الانسان بينه وبين كتل الطين

والحجارة فى الأرض .

(٤) وهكذا الحنافس التى تشبه حب نبات خاص .

(٥) وهكذا الفراش الذى يقع على الشجر وقد نشر جناحيه الأسمرين الكبيرين الذين يشبهان الورق

الجاف فى شكله ولونه (انظر شكل ١٣) من صور المجلد الحادى عشر .

(٦) وهكذا تلك الحشرة التى تقبض أجنحتها حينما تقع على الشجرة فترى كأنها هى نفسها قطعة من

عصا مكسورة وفى نهاية الجناحين رقعة صفراء مشابهة لطرف عصا مكسورة حديثا (انظر شكل ١٤) من

صور المجلد المذكور .

(٧) وهكذا ترى فى (شكل ١٥) من تلك الأشكال هناك فى نفس السورة صورة دود الفراش الذى

خلق مزوقا بزويق غير جميل وهو ظاهر ممتاز تتبينه الطيور الآكلة لادود ولسكها لا تأكله ؛ ذلك لأن الذى

معناها عن أكله إنما هو كراهة طعمه فهو لما كان طعمه مكروها حفظ من الهلاك واستبان وظهر بهيته لأعداء

الدود وماحفظه لإعلاها بأن طعمه غير مقبول فلو كان طعمه غير كرهه لاقتضت الحكمة أن يحفظ بحافظ آخر

وهكذا من الأمثلة المذكورة هناك التى بلغت (٣٠) عدا وآخرها صورة حشرة أبى دقيق التى تقع على شجرة

البقدونس (انظر شكل ١٦) هناك فانك لا تجد فرقا بين ظواهر شجر البقدونس وبين تلك الحشرات هذا

ما تقدم هناك فاقراء لتفهم قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وتفهم ما هنا وهو قوله « إن فى ذلك لآيات

للعالمين » بكسر اللام ومن هذا يستبين لك أيها الدكى أن هذه الآيات لا يقلها ولا يتأثر بها بحيث تصبح يقينا

عنده إلا العلماء الدارسون لها أما غيرهم فانه لا يكون دليلا عنده لأنه لم يدرس الحقائق ولا تظن أيها الدكى أنى

أقف بك عندما كتبته هناك منقولا عن الكتب الإنجليزية . كلا . وإنما ذكرت ما تقدم لأجعله كالمقدمة لما

ستره هنا من العجب العجيب والسحر الخلال والجمال والنور والعرفان والبهجة .

وستشعر بعدما أسمعت ما أكتبه الآن بأن العلم لاحد له وأن هذه العجائب هى مقصود القرآن الشريف

وستعجب من القرآن وكيف يذكر الله فيه العلماء ويخصهم بمعرفة الآيات فى الألوان ثم لا يظهر ذلك إلا فى زماننا

هذا وسيتبين كما انتهجت أنا وينشرح صدرك بالعلم والمعرفة التى لا لدة تفوقها فى هذه الحياة . إن كل مخلوق

لا كمال له إلا فيما هو خاص به وكالفرس فى الجرى والسكر والفرو كال سيف أن يكون مرهفا فان زلا عن

مستواها استعمال الأول استعمال الأنان فى حمل الأثقال واستعمل الثانى استعمال السكين ، هكذا الإنسان

لا كمال له إلا بالعلم وفيه لذته الخاصة به ، ومتى علم أدرك جمال نفسه وهناك يرى قبل الموت أنه هو عالم جميل

مشرق وأن هذه الدنيا نفسها ليست هى تلك الدار الملوثة بالأكدار والأحزان بل يرى الحكمة متجلية

في الجليل منها والحقير وتتوارى أمامه أنواع النحوس ويشرق هذا الكون له وتبسم له الكواكب والشمس والقمر ، وهناك يرى في كل ورقة وزهرة وحشرة جمالا ونورا ويصبح هذا الوجود في نظره جنة عرفان ونور وبهاء ، إذ تحس نفسه بحمال يجمله الناس حوله وهم غافلون وهذا قوله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

وهاهنا حضر صديق العالم الذي اعتاد أن يسألني في أمثال هذا المقام فقال . ماذا أعددت لهذا المقام غير ماتقدم في (سورة المؤمنين) ولم أجد لك إلا مقالا أشبه بالفزل وإظهار السرور بالعلم فما الذي عندك فوق ما تقدم هناك ! لقد ازداد شتيابي لسماعه وهل فيه صور أجمل وأبهى مما تقدم ؟ فقلت إني وربي إنه لحق . فقال أسرع برد جواب ما أنا باحث عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت لقد علمت فيما تقدم أن الحيوانات حفظت من الهلاك بمشابهتها لما حولها من ورق وزهر قال نعم ؟ قلت فهاهنا سترى أعجب وأبدع ما عرفه العقلاء في حسن مخلص الحيوان من الهلاك بنفس الألوان ، فهاهنا تقرأ كلام العلامة (الفرد رسل ولاس) في مقاله المذكور في المجلد الثاني في كتاب [علوم للجميع] .

فقد أخذ يبحث في حيوانات الأقطار الاستوائية فدلته اختباره أن في ألوان الحيوان عجيبة لم يكن ليخطر ببال العقلاء . ذلك أن منها ماله صفة تلازمه وبها تتحاماها للهلكات ويتخطاه الردى ويعيش قير العيون في الغابات وفي نفس الأمكنة التي يعيش فيها ذلك الحيوان يعيش معه حيوان آخر لا يتصف بصفته التي بها تهايه الحيوانات الآكلة ولكنه يكون محفوظا من الهلاك مثله لأنه يخلق مشاكلا له في ظواهر الشكل واللون وبهذا يحصل انتصاد في هذه المخلوقات وهذه تسمى [الحماية بالتقليد] .

فقال ظهر من هذا القول أن الحيوان من حيث التقليد على (قسمين) : حيوان له سلاح يحميه ، وحيوان آخر لا سلاح له يعيش معه ولكنه يشبهه في اللون أو غيره ويحمى من الهلاك بهذه المشابهة . فقلت نعم هذا ماخصه . فقال تريد أن تعرف نوع الحيوان الذي له سلاح والحيوان الذي حمي بمشابهته له . فقلت الحيوان الذي يحفظ من الهلاك بسلاحه وغيره يحفظ بسبب مشابهة له في الصورة أهمه حشرة (أبي دقيق) وقد يكون ذلك في (الحنافس) وحشرات أخرى وفي الزواحف والطيور . فلنبدا بالكلام على حشرة (أبي دقيق) .

﴿ حشرة أبي دقيق ﴾

يقول الكاتب : إن في غابات خط الاستواء كثيرا من حشرة (أبي دقيق) وهي مختلفات أشد الاختلاف في الحجم والصورة واللون وفي طريق الطيران ، فبعضها يطير بسرعة مدهشة وبعضها يطير على طريق التعرج والتلوي ، إذ رسم في طيرانه في الهواء خطوطا متكررة وكثير منها قد ظهر بألوان بهجة بديعة تسر الناظرين وجمهور كبير منها يكون دائما قريبا من الأرض ولا يعلو في الجو وهو بطيء الطيران ومنها أنواع مزينة بزينة الألوان البديعة في غير ظاهرها وقد لون ظاهرها بلون الرخام الأسود بحيث لا يميزها من رآها وقعت على ورقة أو غصن من أغصان الأشجار ، ثم خص أنواعا ثلاثا بالذكر من حشرة أبي دقيق وهي : (دانيدا) و (هيليكونيدا) و (أكريدا) ولترمز لهذه الثلاثة بهذه الحروف (د) و (هـ) و (ك) فهذه الأنواع المسماة بهذه الأسماء تظهر في مكان فتظهر أنواعها وأصنافها لا تخفى وهي ظاهرة الجمال واضحة فلا لونها خفي لتحتفظ من الهلاك ولا طيراتها سريع حتى ينجبها من الخطر ؟ بل جمالها الباهر ولونها ظاهر يصحبها الكسل في الطيران وعدم الارتفاع إلى الجو وعدم السرعة ولم يظهر لها أي صفة من الصفات التي تخفي به الحيوانات عن العيون وألوان أجنحتها السفلى مشابهة تمام المشابهة لألوان أجنحتها العليا ، وبالجملة لم يظهر فيها أي دليل يدل على قصد الاختفاء وهذه الأنواع الثلاثة كأن بينها تحالفا عجيبا أو كأنها أصناف لنوع واحد من حيث الصفات وأهم صفاتها التي سقنا

السكلام لأجله هي رانحتها التي تسلطها على أعدائها ، فهذه الرانحة مطردة في هذه الأصناف الثلاثة ومتى وقع واحد منها بين أصابع صائده يلتقي عليه حالا سائلا أصفر قدرا له ريح كريهة حادة حريفة فتلوث جلد صائده بأقبح المستقذرات . ، وهذه الحال قد علمت فيما عاش منها في جنوب أمريكا وهو الذي رمزنا له بحرف (هـ) وفيما عاش منها في أفريقيا وهو الرموز له بحرف (ك) وفيما عاش منها في قارة آسيا وأستراليا وهو الرموز له بحرف (د) فيما تقدم .

فهذه الأنواع الثلاثة في هذه القارات الأمريكية والأفريقية والآسيوية والأسترالية كلها ذات صفة واحدة فلذلك سميناها متحالفة ، فهذا السائل الأصفر الحريف الحاد كريبه ومؤذ للطيور والسكل حيوان يصيد الحشرات وعلى ذلك تكون هذه الأنواع الثلاثة من حشرة (أبي دقيق) في مأمن من هجوم الملهكات عليها بخلاف غيرها من سائر أصناف حشرة (أبي دقيق) الأخرى .

ومن العجيب أن هذا السائل الحريف الكريبه الرانحة لا يختص بالحشرة التامة بل يكون في دودها الصغير فلا يقربه قانس كما لا يقربها . إذن هذه الأنواع الثلاثة في أمان وقد أصبحت معلومة لسكل ماحولها من الحيوان فأمنت المهاجمة وظهر لها علم براه من بعيد ما يريد مهاجمتها فلا يقدم عليها وذلك العلم هو صورتها الظاهرة ولونها البهيج ونوع طيرانها الذي يدل على عدم الاكتراث بما حولها ولذلك تزدحم بها الغابات ويقل من حشرات أبي دقيق الأخرى .

ثم إن النوع المعنون له بحرف (هـ) في جنوب أمريكا والمعنون له بحرف (د) في جزائر الملايو نراه في كل مكان هناك ويندر سواه من حشرات (أبي دقيق) وفي بعض الجهات لا يكون سواه ، ومن أعجب العجب أن هذه الأنواع في تلك القارات لما أصبحت حشرة طليقة عملاً الأمكنة لا يخلو منها مكان اتخذت العناية الإلهية تلك الأسلحة التي تستعملها تلك ذريعة لحفظ حشرات من أنواع أخرى من (أبي دقيق) بأن تجعلها على هيئتها فتتعامها الملهكات وتتوارى عنها اللزججات وتخافها المهاجمات .

قد قلنا فيما تقدم إن (هـ) تكثر في قارة أمريكا وقد كان الذي علم من أصنافها سنة ١٨٧١ م (٤٠٠) صنف وبعدها بسنين بلغ ما عرف منها (٥٠٠) وهذا كما قلنا آمنة من المهاجم فكثرت جدا وهي مختلفات في اللون، فمنها الأسود ، ومنها الأزرق ، ومنها المحلى بالصفرة والبياض ، ومنها مازوق بحمرة وصفرة ، ومنها ماهو أصغر منقط بالصفرة وهكذا من بدائع الألوان، ولكن الأمر الذي يدهش اللب أن يرى العلماء أن صنفا من حشرة أبي دقيق يسمى (ليبتيليز) ورمز له (ل) يرى في مظهره أشبه بما رمزنا له بحرف (هـ) ولا يشابه من هذا الصنف إلا ما كان معه في مكان واحد بحيث يتشابهان وهما طائران تشابهان تاما وذلك عند نهر (تبايوس) (انظر شكل ١) في الصحيفة التالية .



(شكل ١ حشرة أبي دقيق المسماة «ليبتيلا» التي عند (نهر تبايوس) الأعلى هو الوزير
لا سلاح له ، والأسفل هو الأمير ذو سلاح)

وهذه بخلاف الحشرة الرموز لها بحرف (ل) التي عند أعلى (وادي الأمزون) فان الحشرة (هـ) ذات
الخطوط والنقط الحجر البرتقالية قد اتصفت بنفس وصفها الحشرة التابعة لها الرموز لها بحرف (ل) وفي أعلى
الأمزون ترى الحشرة الرموز لها بحرف (هـ) التي تحمل السائل الأصفر ذات لون أسود بسمرة مع خطوط صفر
تبعها نوع من الحشرة الرموز لها بحرف (ل) الحالية من تلك المادة وقد تشابها في الحجم واللون والخطوط
(انظر شكل ٢) .



(شكل ٢ - حشرة أبي دقيق التي تعيش في أعلى (الأمزون) لا سلاح له والأعلى هو الوزير
والأسفل هو الأمير ذو سلاح)

فهذان الشكلان الطائر الأسفل في كل منهما نلقبه باسم التبوع أو الأمير أو الأعلى منهما نلقبه باسم التابع أو الوزير ، فالأول يملك السلاح في كل منهما والثاني لا يملك ولكن بالمشابهة حفظ من الهلاك ، ثم إن الحشرة الرموز لها بحرف (هـ) وهو التبوع أو الملك الكبير الحجم الملون بالسواد والصفرة مع بهجة الجمال في الظهر يصحبه في الهيئة المذكورة واللون الحشرة الرموز لها بحرف (ل) أيضا وفي كل من اللقامين يتبع الوزير أميره في مظاهره بلا فرق (انظر شكل ٣) .



(شكل ٣ - حشرة أبي دقيق في بلاد أمريكا أيضا الأمير أسفل والوزير أعلى)

هذا ما علم في بلاد أمريكا ، أما بلاد أفريقيا فان فيها النوع الرموز له بحرف (ك) فيما تقدم بكثرة أصنافا وأفرادا والنوع الآخر أفرادا ولكن أصنافه قليلة . فهذا النوع قام في أفريقيا مقام الرموز له بحرف (هـ) في جنوب أمريكا ، فتم وضعت أحد أفراد هذا النوع بين أصابعك سلاح تلك المادة الصفراء الحادة الحريفة المنتنة فلوث الجلد قترميه حالا من يدك وعلى ذلك يكثر في تلك الأقطار وله تابع أو وزير كالذي حصل في الرموز له بحرف (هـ) في أمريكا وهذه صورته (شكل ٤) :



(شكل ٤ - حشرة أبي دقيق التي تعيش في أفريقيا وهي تكثر بحجارة السائل الأصفر الذي يتلوث به من يحسبها فالأعلى هو الوزير والأسفل هو الأمير)

فالأول من أسفل هو الأمير والثاني من أعلى هو الوزير أو ما التبوع ، والتابع والتبوع هنا هو الرموز له بحرف (ك) كما تقدم وهذا النوع يعيش في شرق أفريقيا . وأعجب ما علم في أفريقيا حشرة تسمى (بيليو) إذا قلدت الحشرة السامة (دائز) (انظر شكل ٥) :



(شكل ٥ - حشرة (بيليو) التي قلدت الحشرة (دائز) بقارة أفريقيا)

فترى الجناحين مستطيلين مسودين فيهما نقط كثيرة إما زيتية وإما بيضاء في مقدم الجناحين ، أما مؤخرها فقد زين بنطاقين عريضين زيتيين . ورى في جنوب أفريقيا نوعا آخر شديد السواد يعيش في أماكن مختلفة هناك (انظر شكل ٦) .

وهذا أكبر شكلا وأبهى وأبهر وأشد سوادا محلى يفتعنين كبيرتين جدا شديدتي البياض تشغلان أكثر من نصفى الجناحين والأعلى هو الأمير أو التبوع والأسفل هو التابع الذى لا يكلف حمل السلاح والأمير يملك تلك المسادة الصفراء القذرة الرائحة الخ وهنا أمر أعجب وذلك أنك سترى في الشكل السابع والشكل الثامن أمرا عجبا ، فأما الشكل السابع فإن الأعلى منه الذكر والأسفل هو الأنثى من الحشرة السهام بابليو (انظر شكل ٧) :



(شكل ٦ - حشرة أبى دقيق شديدة السواد بأفريقيا)

ومتى تأملت شكل الذكر وشكل الأنثى وجدت في مقدم جناحي الذكر بهجة اللون الأزرق اللامع المعدنى المحلى بالنقط البيض الضاربة للزرقة . أما مؤخر جناحيه فأنهما سوداوان يضربان إلى السمرة أما الأنثى فأنها تخالف الذكر كثيرا فانك ترى مؤخر جناحيها محلى بخطوط بيض ضيقة لامعة من الجسم ويقاطعها صف منظم من النقط البيض اه هذا وصف الذكر والأنثى في هذا الشكل اللذين عريا من السلاح الذى يطردان به ما يريد إهلاهما وقد أشبهنا في ذلك ماله سلاح يطرد به الأعداء . وذلك هو السائل الحاد الأصفر ذو الرائحة الكريهة كالتقدم وهو ما فى هذا الشكل الثامن (انظر شكل ٨) .



(شكل ٧ - الأعلى هو الذكر والأسفل هي الأنثى وهما في صفاتهما عجميان بمشابهتهما للذكر والأنثى في (شكل ٨) الأعلى هو الذكر والأسفل هي الأنثى يعيشان في ملقا وفي بورنيو)

فهذا ذكر وأنثى في الشكل الثامن منعا هذا السائل القدر فأخافا كل حيوان يريد بهما سوءا فأعطى الذكر والأنثى في الشكل السابع كل الصفات الظاهرة في الذكر وفي الأنثى هنا حتى يكون ذلك سينا في بقائهما تبعا لماله سلاح وهذا عجب عجاب أن يكون شأن الألوان والأشكال محكما بهذه العناية البديعة العجيبة .

الذكر والأنثى فى الشكل السابع لا قوة لهما على دفع الأعداء أو الهرب فلذلك أعطيا معا هذه المشابهة اللونية ليفرا من الهلاك . كل ذلك كنت أكتبه وصاحبي العالم ينظر



(شكل ٨)

إليه ؛ فلما قرأ هذا قال أتقول بلا دليل ، أفرأيت إذا كان في المخلوقات ذكر ذو قوة وبطش وله قدرة على الحرب ولكن أثناء ضعيفة لاقدرة لها على الحرب من الأعداء فهل كانت هذه للشابهة تختص بها دون الذكر ؟ إذا رأينا ذلك أيقنا أن العناية التي نظمت هذه الأجسام ترى دقائق الأمور كما ترى جلالها ويتساوى عندها العظيم والحقير . نعم إن في مشابهة الزوجين في الشكل السابغ للزوجين في الشكل الثامن دليلا ظاهرا وبها عاشا قريري العين كثيرى النسل سعيدين في (بورنيو) و (ملقا) وغيرها ولكن مخالفة هذه القاعدة في المشابهة وقصرها على ما يحتاج إليها يكون أوفى وأتم وإذ ذلك نعرف معنى كون هذه العجائب آيات للعلماء بها لمعرفة الصانع وبدائع حكمته . فقلت له قد كان ماقلته حاصلًا . قال وكيف ذلك . قلت (انظر الشكل التاسع) :



(شكل ٩ - الأعلى هو الذكر والأوسط هي الأنثى وتحت الأنثى (حشرة دانيز) وهي ذات السلاح وبمشابهة الوسطى لها صارت محمية من الفتك بها)

فانظر إلى صورة الذكر فهي سوداء محلاة بأربع بقع يضاوية الشكل بيضاء واضحة محلاة حاشيتها بزرقه زجاجية تسر الناظرين ، أما الأنثى فهي مخالفة له من حيث إنها ملونة بالسمره البرتقالية المحلاة في حواشيتها بالسواد والبياض وبخزام أبيض يعترض القمة السوداء من داخل الجناح ، فهذه الأنثى خالفت الذكر من نوعها

وواقفت في لونها حشرة أخرى من غير صنفها والسبب في ذلك أن الذكر سريع الطيران وهو دائما يعلو في الهواء مرتفعا. أما الأنثى فأنها بطيئة الطيران، بل هي في أكثر الأوقات لا تبرح مكانها من الأرض إلى الهواء. ولما كانت هذه الأصناف تعيش في الأرض العراء بعيدا عن الغابات وكانت الأنثى منها لا بد لها من أن تضع بيضها على ورق الأشجار كان ذلك مع تقدم معرضها للخطر. لذلك اقتضت الحكمة أن تلون الأنثى بلون الحشرة الثالثة التي أعطيت السلاح الخفيف فصار ذلك السلاح حماية لحامله وهيبة لما يشاكله « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فقال صديق العالم : إن هذا العجب عجاب : لقد أقتنى هذا البيان وأنا به من المعجبين . وبهذا انتهى الكلام على حشرة أبي دقيق ، فلنشرع في الكلام على الزواحف فنقول (انظر شكل ١٠) :



فهذا الشكل يحوي (ثعبانين) أحدهما وهو الرموز له بعدد (١) ثعبان من ثعبانين بلاد أمريكا السامة والثاني هو (٢) مقلده ولاسم له فنجاء بالمشابهة وهذه الثعبانين رءوسها يضاوية الشكل أهليجية وأجسامها محلاة بخواتم أو حلقات تحيط بها من رأسها إلى ذيلها . وهذه الحلقات منها السود ومنها الحمرة أو الصفرة وبها يكون الثعبان يديعا بهجا ويمتاز عن غيره من الثعبانين وهذا أشبه بعلم يحمله الثعبان منذرا كل حيوان يهاجمه أن ارجع فاني أنا صاحب السم وإذن تكون تلك الزينة حافظة لنفس هذا الثعبان ولما يريد قصده بسوء ويتبع ذلك أن مقلده في ذلك وهو الثعبان رقم (٢) صار حركته كحكمة فلا يهاجم مهاجم وهو بأمن الهلاك . فتمرة (١) هو الملك وتمرة (٢) هو الوزير وهذا الثعبان الذي سميتاه وزيرا لاسم له في فكته، فأما تمرة واحد فهو صاحب السم القاتل يحفظه من الهلاك وحفظه مشابهة في تلك الهيئة العجيبة « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

يقول الكاتب الإنجليزي . وكان أن حشرة (أبي دقيق) التي خلت من سلاح المقاومة وهو السائل القذر ذو الزائحة الحادة بمشابهتها في شكلها لما أعطى هذا السلاح نجت، هكذا نجا هذا الثعبان الذي لاسم له بمشابهته للثعبان الذي عرف بأنه سام . إن في (أمريكا) نوعين أو ثلاثة أنواع من الثعبانين التي لاسم لها وقد نجت بمشابهتها بماله سم منها وتلك المشابهة لها طرق مختلفة وقد عرف منها نحو ثمانية أنواع بها تقلد اللاتي خلت من السم الثعبان الذي له سم .

وهذا الذي في (شكل ١٠) المتقدم نوع منها ، فالثعبان تمرة (١) يعيش في بلاد المكسيك محلي بمناطق عريضة سود فوق لون الحمرة وكل منطقة منها مقسمة إلى ثلاثة أقسام بخواتم صفر ضيقة وهذه الأوصاف كلها قد تحلى بها الثعبان الذي لاسم له تمرة (٢) .

ثم قال [نحن ليس في قدرتنا أن نورد ما هو أكثر غرابة وعجبا « من حيث الألوان المنذرة للأعداء بظهورها ودلالها على الخطر الذي يجانبها وحمايتها ما يقلدها مما لاسلاح له » من الذي أوردناه من الكلام على الثعبانين الأمريكية في هذا المقام] وبهذا انتهى الكلام على الزواحف وتقليدها انقاء الخطر .

﴿ الكلام على الطيور المقلدات لتتق الحظر وهي خاتمة الأقسام ﴾

(انظر شكل ١١) فالطير الأعلى على صورة الطير الأسفل وهذا الأخير ويسمى (فيليدن) عادة له جماعة كثيرة العدد قوية البأس فإذا اعتدى على واحد منها معتد اجتمعت تلك الجموع العظيمة وأوردته المهالك ولو كان المهاجم هو الصقر فما بالك بالغراب (انظر شكل ١١) .



هذا ما أردت تلخيصه من كتاب (علوم للجميع) المؤلف باللغة الإنجليزية في تفسير قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف السنك وألوانك ، إن في ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام .

ها هو ذا أيها السلمون هو السر الذي ظهر اليوم في الأرض ، وعرفه الناس في اختلاف الألوان .

﴿ خطاب للمسلمين ﴾

(شكل ١١ - الطير الأعلى هو الوزير والأسفل هو الأمير ، الذي سلاحه أن له جماعة عظيمة تفك بمن يقصده بأذى حفظ الأعلى بمشاكلته)

أيها السلمون ، هذه الطيور وهذه الزواحف وهذه الحشرات التي رأيتم الأعاجيب فيها قد نقشها الله وزوقها تزويقا يظنه الجاهل لجرد الزخرف والزينة ولكن العلماء هم الذين بحثوا حتى عرفوا أن الأنواع الثلاثة الممتازة من

حشرة (أبي دقيق) قد وهب الله لها هذا السائل القدر الكريه الرائحة لتعمر الغابات في أفريقيا وآسيا وإستراليا وأمريكا ، وقال لها تمتعي برياضى وارتمى في جناتى أيها المخلوقات . ثم خلق أصنافا أخرى وجعلها في كنفها وتحت حمايتها ، ولكنها هي لاتعلم أنها حامية ولا الأخرى تعلم أنها تحت حمايتها . ههنا يعرف العقلاء تخصيص الذكر بالعلماء .

هنالك قال لى صديقى العالم : ههنا حق لى أن أناقشك ، أولا : كيف ضاقت الأرض بما رحبت فلم نجد في تفسير الآية إلا كلام الفرنجة ؟ ، ثانيا : ما الفارق بين عجائب الألوان في (سورة المؤمنين) عند آية «وما كنا عن الخاق غافلين» وبين عجائبها هنا ؟ ، ثالثا : ما الفوائد العملية المترتبة على فهم هذه العجائب ؟ ، رابعا : ما الفوائد العملية للمسلمين ؟ .

قلت له : هذه الأسئلة التي أوردتها يظهر لى أنك أردت بذلك إيضاح المقام لأهل العلم في الإسلام وإلا فما معنى قولك في السؤال الأول « كيف ضاقت الأرض بما رحبت الخ » إني موقن أنك عالم أن العلم أمر مشاع بين الأمم ، فأنه الذى عمهم بالماء والهواء وضوء الشمس والغذاء ، ورحمهم جميعاً هو الذى علم من يشاء العلم منهم ولم يقل أحد من علماء الإسلام أن العلماء مختصون بالمسلمين ، وأنت تعلم أن المسلم أبيض له الغنائم من مال ومن نساء وغيرهما ، ولا جرم أن مال الكتابى حلال إذا جاءنا في الغنائم ، ومثل المال التمتع بملك اليين من هذه الطائفة لاخلاف بين المسلمين في ذلك . فقال هذا حق . قلت : فهل يبيح الله لنا الأموال والأعراض في الغنائم من القوم ويحرم علينا العلم ، العلم علو للنفس وشرف لها ، والمال واللذات من مال إليها وفتنته

ذل وهلك ، والقرآن كله يذم ذلك ، أما العلم فهو مرغوب ممدوح ، فكيف نستبيح المال ونحرم العلم والنبي صلى الله عليه وسلم حذرنا من الفتنة والوقوع في المهالك من أجل الغنائم والافتنان بها كما تقدم في سور كثيرة فاقراءه في (سورة النمل) عند آية « إن الملوك » الخ ونحوها . إن هذه العلوم قد استثارها آباؤنا في القرون الأولى ومنهم أخذ أهل أوروبا ، فإذا رأينا القوم قد كسوا تلك الأمانة بخمل ، جميلة وأمكننا أن نرجعها جازلنا ذلك بل وجب علينا ونقول هذه بضاعتنا ردت إلينا - ها نحن أولاء في القرن العشرين نظرنا فوجدنا أننا الإسلامية في مجموعها قد انحرفت مئات السنين ونامت ، أفلا يجب على أنا وعلى جميع من هم مغرمون بأمثال مانسكتب الآن أن يبينوا للناس مزايا ديننا ؟ . فقال لي : أهذا واجب عليك وجوبا عينيا ؟ قلت نعم . قال وما البرهان له ؟ قلت إن هذه العلوم كلها واجبة وجوبا كفاثيا والأمة إذا لم يكن فيها أناس يكفونها ما تحتاج اليه وجب عليها أن تربي من تحتاج اليه بمقدار ما تحتاجه ، ومتى قصرت نزل بها الدل والهوان ، وهذا هو الحاصل الآن ، فالدل يحق بالأهم التي أهملت أي علم أو أي صناعة تحتاج إليها ، والمسلمون حاق بهم الهوان لإهمالهم ذلك . ولقد قال علماؤنا « من وجد في نفسه استعدادا لعلم كعلم الفقه وجب عليه أن يتقنه » يريدون وجوبا عينيا ، فالعينية هنا جاءت من الاستعداد ، فكل من عرفوا ما أكتبته في هذا التفسير ، وكانوا قادرين على أي علم أو أي صناعة ثم ناموا عن ذلك عوقبوا لأنهم يعلمون . فقال : إذن صار ذلك كاللحج قلت : كلا . الحج واجب عيني على كل من استطاع اليه سبيلا ، أما هذه العلوم والصناعات فالأمة مكلفة أن تعين جماعة تراهم أهلا لها وإلا عوقبت الأمة كلها ، ولذلك قال إمام الحرمين كما قلناه مرارا ﴿ إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين لعموم نفعه إذا كان وعموم ضرره إذا لم يكن ﴾ وعلى ذلك يجب على المسلمين أن يقرؤا علوم الأمم كلها . إن الله عز وجل قد أحاط المسلمين بالمنذرات من جهة ، وبالعلوم من جهة أخرى وسهل لهم سبلها فإذا أعرضوا عنها فهم غير شاكرين وهذا هو كفر النعمة وكافر النعمة ممقوت . إن الله فتح أبواب العلم للمسلمين اليوم فليلجوها . وأما قولك « ما الفارق بين عجائب الألوان في سورة المؤمنيين وبين عجائبها هنا ؟ » فأقول العجائب هناك قد أشرت لها في أول هذا المقال ترجع إلى أن الحيوان يشاكل ما حوله من شجرة أو ورقة أو زهرة أو يكون كعصا مكسورة ، فالحيوان بهذه المشاكلة يفتش ما يفتسه فيعيش بهذا الإيهام ، أما الذي هنا فإن الحيوان يشاكل حيوانا آخر لا نباتا ولا ورقا ، هذا هو الفرق بينهما وكلاهما إبداع في التصوير ، وإغراب في الإبداع ، وإحسان في النقش ، وتفان في ضروب الجمال والسحر الحلال « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

أما السؤال الثالث وهو « ما الفوائد العملية المترتبة على ذلك ؟ » فهذه الفوائد غير خافية عليك ، فانظر رعاك الله إلى علم لم يكن عند الأمم فأصبحنا ندرس علم التوحيد دراسة لم يحلم بها السابقون . الله أكبر . هل يبقى عند أحد شك في أحسن الإبداع والنظام فما هذا التفنن والتصنيف والإغراب في الخلق وضروب الحكم . هل يبقى بعد هذا زيادة لمستزيد ؟ ألم تر نقوشا سودا وحمرا وصفرا في الثعبان ، وقد شاكل الأعزل من السلاح صاحب السلاح فنجنا من الهلاك ، ألم تر الطير الذي لا أقارب له تساعد على القتال قد لون بلون ماله أولئك الأقارب فنجنا بنفس هذه المشاكلة ، ثم كيف تلون الأنتى من حشرة (أبي دقيق) بتلك الألوان البديعة التي تشبه أوتاب أغنى الغايات في بلادنا المصرية من حيث التطريز والإتقان؟ أما ذكرها فلا لأن هذا اللون وضع لها ليحفظها بمشاكلتها لما له سلاح وهو السائل السكرية الرائحة ، ثم كيف رأينا الذكور والأنتى اللذين لا قوة لهما على قهر عدوهما من تلك الحشرات قد شابهها الذكر والأنتى بما له سلاح وقد حفظا بتلك المشابهة ، وهل يعرف المسلمون معنى قوله تعالى « أفمن يعلم أن ما أُنزل إليك

من ربك الحق كمن هو أعمى « إلا بأمثال هذا ، لم يقل الله أفمن يؤمن بل قال « أفمن يعلم » أليس هذا هو العلم ؟ نعم العلم أفضل من الإيمان وأعلى ، يقول الله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان » الخ ، وقال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » وهذا هو الزمان الذي يتحتم فيه العلم .

إن المسلمين الذين يكتنفون بالإيمان مغرورون ، أليس هذا هو العلم ؟ نعم بمثل هذا يوقن المسلم إيقانا لا يتوره شك .

أما قولك « ما الفوائد العملية ؟ » فأقول : إن العلم دائماً يعد العمل ، والأمة التي لا علم عندها لا عمل لها . اعلم أن الله عز وجل جعل هذه الأرض من العوالم التي ليست متقدمة ، ومع هذا قد جعل فيها نفوساً من عالم أعلى فهذه النفوس في الأرض أشبه بضوء الشمس يختلط بالتراب فهو إذن بين « عاملين » عامل الشرف وعامل الحسة ، ولكن لما كان الله حكيماً ورحيماً كان من الحكمة أن يزرع هذه النفوس بعظام الأمور وهذا الإزعاج جاء لها على مقدار نقصها ، والدليل على نقصها إرساؤها لهذه الأرض ، فالناس يحسون بالآلام من الحر والبرد والصواعق والزلازل والحشرات الآكلات لزرعنا ، والشاربات دماءنا في فراشنا والأمراض الظاهرة والباطنة . ولما كانت هذه كلها يتلقاها الناس كانوا تارة يحزنون ، وتارة يصبرون وألقى بينهم العداوة والبغضاء وأثار بعضهم على بعض أهما وأفراداً وأقارب في النسب وأشباها في الصناعات والأعمال والصفات والمساكن . وإنما فعل ذلك لتسكون العداوة الموجبة لغليان الدم ، فلا يهدأ لهم بال مع أن المصائب الطبيعية أكثر من هذه ، كل ذلك ليبلو بعضهم ببعض . وهذا الابتلاء ليستخرج قوالم ويستفهم من الأرض ليعرفوا الحقائق ، ولو كانوا أعلى من ذلك أخلاقاً لقل البلاء ولكن البلاء والاختبار عظيم على مقدار نقص هذه النفوس . وإنما جاءت هذه المزعجات ليرتقوا إلى العالم الأعلى ، فإنهم منه جاؤا وإليه يرجعون .

فلما كانت هذه حال هذا الإنسان خلق في هذه الأرض التي جعلت الحيوانات فيها على هذا النمط ، فإن أرضنا من طبعها أن ما عليها من الحيوان ألقى بينها العداوة والبغضاء ، فمنها الآكل ومنها للأكل ، كل ذلك لحكم تقدمت في هذا التفسير . إذن هذا الإنسان عنصره شريف وقد أثبت عزائمهم بالزعجات مشاكلة لأنواع الحيوان . وههنا للإنسان « منهجان » منهج شريف ومنهج خسيس ، فأما المنهج الخسيس فهو أن يبقى كالحيوان الذي وجد في الأرض معه قاتل ومقتول وحاسد ومحسود وهكذا . وهذه المرتبة قال الله له فيها « وخذوا حذرکم » ومعنى هذا أن النوع الإنساني اليوم لا يزال طفلاً غراً ، فلن ترى دولة من دول الشرق أو الغرب إلا والنفاق هو المنهج السارى بينهم ، فالوزيران يجلسان معا وتضرب لهما الموسيقى وهناك الجواسيس تبحث عن الحقائق ، فما من أمة إلا ولها جواسيس تنزياً بزي الأمم وتأتي بأخبارها ، فهذه الأمم الآن لم تزد قيد شعرة عن الحيوان في أخلاقه وعاداته ، فما هي ذه أنواع الطيور والزواحف والحشرات قد رسمت أمامك ورأيت أن الضعيف نجما بسبب مشاكلة للقوى ، وقد كثر هذا جدا والإنسان لم يزد عن هذه قيد شبر ، فأعظم دولة ترسل من لديها أناساً مخبرين يتربون بزي غيرهم ملبسا ولغة وأخلاقا ويتم لهم ما يريدون .

وقد ذكرت في هذا التفسير ، أن اليابان في حرب الروس لونوا السفن بلون ماء البحر فلم يهتد إليها الروس فكانوا من المهالكين . إذن الإنسان في أعلى مراتبه اليوم لم يعمل في سياسته أكثر مما صنع للزواحف وللطيور والحشرات ، فهؤلاء قوم قلدوا الحيوان فيما منح من هذه الصفات المنجية له . أما المنهج الأعلى فذلك

أن هذا الإنسان يعلو عن الحيوانية، ويرتقي إلى عادات وأخلاق أرقى فيسكون الناس كلهم عاملين في الأرض مجدين في منفعة المجموع ، بحيث لا تندر أمة من الأمم فردا من أفرادها بلا عمل ولا أرضا بلا زرع وتصبح الإنسانية أرقى من سابقتها . فقال صاحبي : وهل الله ذكر ذلك في القرآن ثم إنك تكتب هذا للمسلمين ، وهل المسلمون في يدهم ذلك ؟ فقلت : إن الله يقول « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » فالإنسانية كلها اليوم في الدركات السفلى وكلهم متحاسدون مناققون ، كل دولة تناقق للأخرى وتظهر غير ما تخفي . والله عامل الأمم بهذه المزعجات لعلهم يرجعون عن هذه الأخلاق ، أي في هذه الحياة الدنيا وهذا دليل على أن هذه إنسانية لها يوم في نفس الأرض تسكون أرقى منها الآن ويكونون أقرب إلى الإصلاح وذلك هو الزمن الذي ينزل فيه المسيح ، وذلك بالصفاء ويزول الدجالون من هذه الدنيا ، والدجالون اليوم في كل الأمم . فقال ولكن يقول الله تعالى « خذوا حذركم » . فقلت : هذا الحذر لا مفر منه في الأمم الحالية . فقال ولكن المسلمون لا يباليون بأولئك الجواسيس غالبا . فقلت إن الأمة الإسلامية التي لا تفقه أحوال الأمم حولها تكون عاصية ، فلا بد من معرفتها كل علم وكل صناعة وكل سياسة وتلبس لكل حال لبوسها . والأمة للسائلة النائمة لا بد من هلاكها سريرا ، فليشاكلوا الأمم حولهم في العلوم والسياسات وليقفوا على أخلاق العفة والشرف وحينئذ يرتقون .

فليكن حذرهم في كل زمان بحسبه ، والجواسيس اليوم يكونون قوما من المتنازبين في العلم والأخلاق فهم يحذرون ويكونون النتائج إلى الله بعد أن يحترسوا من كل صغيرة وكبيرة كما تفعل الأمم ، وكما هي حال هذه الطيور والحشرات والزاواحف فوافق القرآن الطبيعة والشرع الوضع .

فأما ارتقاء الأمم كلها فهذا له يوم معلوم عند الله ، فليستعد له المسلمون من الآن والله هو الولي الحميد . فقال صاحبي : بقي لي سؤال واحد . فقلت ماهو ؟ فقال أراك تستنتج من نفس المناظر الحيوانية والنباتية وتستخرج منها قواعد وعلماء وهذا العلم يرجع موافقا للقرآن . فقلت حقا لأن هذه أعمال الله وهذا كلام الله والأمم الإسلامية التي تظن أن فهم ألفاظ القرآن كافية لحياتها تموت بعد قليل ولا تعيش إلا بالعصية كما قرره ابن خلدون والعصية تنحل بعد قليل وتذهب . قال نعم . قلت فلا بد من قراءة هذا الوجود كله فإن دراسته ترقى العقول وهذه الدراسة نفسها دراسة للقرآن ،

إن كل ما نراه إن هو إلا شعائر الله . إن شعائر الله على (قسمين) شعائر للعامة والخاصة وهي كشعائر الحج وشعائر لا يعقلها إلا الخاصة وهي أمثال ما نلوته عليك الآن . أفلمت ترى هذه الشعائر العجبية تسحر العقول وتدهش الألباب وسيكون في هذه الأمم الإسلامية حكام عاشقون مربون لها منظمون لشؤونها لما يرون من هذه الشعائر ، فكأن الأرض كلها مساجد لنا هكذا كل الأرض شعائر لنا ولكن هذه الشعائر لا يعقلها إلا قليل « وقليل من عبادي الشكور » .

وهذه الطائفة هي التي تفهم قوله تعالى « فأبنا تولوا فتم وجه الله إن الله واسع عليم » إن الأمم اليوم آخذة في الرقي السريع وقد ركبوا الطائرات وتقاربا وهم يقولون بالسلام العام فلامناس للمسلمين من الإسراع في ذلك فإن وحدة الأمم هي التي أشار الله لها هنا فقال « فطرة الله التي فطر الناس عليها » وهذه الفطرة هي التي أذاعها نبينا صلى الله عليه وسلم بأن أمر بلال أن يؤذن في السكبة بين رجالات قريش وهو القائل « لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » وهو القائل « اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي » ويقول الله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم « الخ فهذا يوم سيأتي وكل آت قريب والفضل فيه للإسلام فليعلم ذلك المسلمون . انتهى مساء الإثنين (٢٤) يونيو سنة ١٩٢٩ .

﴿ بهجة العلم في حشرة أبي دقيق التي تقدم ذكرها ﴾

اللهم إنك قد أودعت في عقول الأمم والأفراد بذور العلوم وأبدعت في استخراجها من الأرض والعوالم حولها ، فها أنا ذا اليوم قصصت قصص حشرة (أبي دقيق) فيما تقدم وأن منها طوائف وطوائف متعاهدات متفقات في إفريقيا وأمريكا وآسيا ، هذه الطوائف تشابهت في أن لها سلاحاً تحمله وذلك السلاح هو السائل الأصفر اللقذر للملابس وأجسام ما يقصدها بسوء من إنسان وحيوان ، وأن هناك أصنافاً من الحشرات تحفظ من الهلاك بسبب المشابهة والمماثلة في الشكل واللون فتهاجمها المهاجمات وتخافها وتحماتها فتكون هي من الباقين المحفوظين من الدمار والموت الزؤام . فهذه قد أدكرتني بما سمعته في قريتنا وأنا تلميذ بالجامع الأزهر أيام العظلة الصيفية إذ سمعت الفلاحين يقولون إن فلانا (من أقاربي) مد يده إلى حشرة (أبي دقيق) فألقت عليه مادة صفراء قدرت يده وثوبه لما أسرع أن أطلقها من يده ففرت فرحة بالنجاة وسعيدة بما لها من السلاح ، فلما أن وفقني بحبيب الدعاء وعرفت هذا أيقنت أن بذور العلم مبثوثة في العالم كله ، فمن الناس من يجيب داعي الوجدان المنبث في النفوس من الله ومنهم من يتولى بركنه وهم من الباحثين عن الحقائق ساخرون مستكبرون فهذه الحشرة التي ألقت سائلها الأصفر اللقذر على ذلك الفلاح في قريتنا فتحت باباً للبحث في الحشرات ودراساتها ولكن لمن فتحته ؟ فتحته في بلدة لا علم فيها ولا علماء ، لا يابيهون بمثل هذه المفاجآت ولا يشاقون لبحث ما يشاهدون ، ولكن العلم في الأمم الحية أظهر في هذه العصور أن هذه الحشرة فرد واحد من طوائف وطوائف في إفريقيا وأمريكا وغيرها وأنها يعوزها البحث والتنقيب ، ولكن الله عز وجل لم يذر الإنسان بلا تذكير فهو قد ذكر أهل بلدي وغيرهم بهذا فكانوا معرضين لأنهم ليس عندهم لذلك استعداد ، وهكذا نرى الناس يشاهدون شروق الكواكب وغروبها وجمال النجوم فلا يفكرون فيها ، ولكن هناك أناس يخشون فرحوا ؛ ويشاهدون أنواع الحيوان فلا يفكرون فيها والفكرون قوم مصطفون ويرى الرجل رؤيا فتقع كما رآها فلا يفكر في ذلك مع أن هذا مبدأ من مبادئ علم النفس ومفتاح علم بقاء الأرواح ومفتاح معرفة عموم علم الله ولكن لا يفتن لهذه الباحث إلا قليل ، فأنه جعل بذور العلوم عامة في جميع الأقطار ، وعند جميع الناس ولا يفتن لها إلا المفكرون . انتهى والحمد لله رب العالمين .

(درجات العقول وبيان فهمها في هذه العجائب)

اعلم أيها الدكي أن الله لما أبدع هذا العالم وأبرزه للعقول الإنسانية وللغرائز الحيوانية لم يسوي بين العقلاء في درجات الآراء . ذلك لأنه متكبر متعال . إنه تدرى بالكبرياء وأثر بالعظمة فليس الجمال البديع معرضاً لكل ناظر ولا مطعماً لكل باحث ، وإذا أردت بياناً لذلك فأرجع إلى ما ذكرته لك في (سورة الفاتحة) من المثل الذي ضربته قري هناك رجلاً وابنه ودابته في الحقل وكل من الثلاثة له غرض يريد ومقصد يتوخاه فلا مقصد للدابة من الحقل إلا أن تأكل البرسيم ولا غرض للصبي إلا أن ينظر بهجة الزرع وجماله الخ وللأفلاح رأى أعلى ثم المهندس فالعالم الطبيعي فالعالم الرباني . هذا المثل قد استوفيت السلام عليه في (سورة الفاتحة) . ثم انظر إلى مثل آخر ضربته في (سورة المؤمنين) عند قوله تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون » وهو مثل العميان الست الذين أخذوا يبحثون في حقيقة الفيل وكل منهم رأى فيه رأياً لا يعدو مالمسه بيديه من خرطوم أو ذيل أو ظهر الخ فهذان المثلان في (سورة الفاتحة) وفي (سورة المؤمنين) يظهران لك أيها الدكي أن هذه الدنيا معرض لكل عقل والعقول مختلفة والصور والعروضات فيها تتجلى لكل عقل بحسب درجته وهيئة

تربيته فكما أن العميان الست في مثال القيل الذي جاء في كتب الإنجليز عن أهل الهند وذكره الغزالي أيضا من علماء الإسلام حكم كل منهم على القيل بما أحست به يده ، هكذا الكتاب في الشرق والغرب كل يحكم على المحسوسات بما وصل اليه علمه ولا يتعدى طوره ، وكما أن السليم البصر إذا رأى القيل حكم حكما أعلى من حكم هؤلاء العميان وقال إن كل ما قالوه في القيل حق ولكنها آراء جزئية لا كلية هكذا أوثك الكتاب والفقرون الذين يقرأ الناس كتبهم في عصرنا الذين أشبهوا هؤلاء العميان الست فوقهم طائفة هم أولو العلم الذين وقفوا على الحقائق وإذا قرءوا كلامهم يعرفون منه درجتهم في العلم ويحكمون عليهم بما كتبوا وكما أن الله عز وجل قال في أهل الجنة والنار « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » هكذا الناس في الأرض فيهم اليوم طائفة امتازت بسمو العقل وسداد الفكر ، فهذه الطائفة اليوم هي التي تعرف « كلا بسيماهم » وهؤلاء أنفسهم يكونون من أصحاب الأعراف يوم القيامة ، فأصحاب الأعراف يوم القيامة يكونون في مكان عال مشرق على الطائفتين وهم الآن في الدنيا علوا في منزلة عالية من سمو الفكر وبهذا يميزون الكتاب ويعرفون درجاتهم . هذا ما أردت أن أجعله مقدمة لما ستره من عجائب الحكمة وبدائع العلم ولتكون أنت من أصحاب الأعراف في هذه الدنيا وتكون موثلا ومرجعا ترجع إليك الأمم الإسلامية في ظلامها الحالك فهدبها إلى سبيل الرشاد .

فهاك (ثلاث مراتب) من مراتب الكتاب في عصرنا (المرتبة الأولى) اقرأ ما كتبت في (سورة الكهف) عند قوله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها - وكيف قال العلامة (وليم) الذي ترجمت آراءه في الألوان « إن دراسة الألوان في الحيوان ليست سهلة النخ » وهناك ظهر العجب العجيب ، ثم انظر ما كتبت في (سورة المؤمنين) عند قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وتأمل الصور والأشكال هناك وكيف استدل أوثك العلماء الغربيون بهذه الصور على أن كل ألوان الحيوان إنما جرى بها لحمايتها وليس ذلك تابعا للوسط ، ثم انظر ما كتبت لك هنا وهي الصور المتقدمة مع شرحها وبها عرفنا أن الحيوان قد يشاكل حيوانا آخر أشد بأسا منه فينجو من الهلاك ، فإذا رأى أصحاب الأعراف من النوع الإنساني هذه الآراء أيقنوا بأن هذه الدرجة من الكتاب طبقة ممتازة لأنهم رجعوا إلى الحكمة العامة في الوجود ودرسوه بعض الدراسة (المرتبة الثانية) أن يجعل الكاتب هذه المشاهدات مجرد عجائب وقد غض النظر عن الحكمة العامة وهذه المرتبة تظهر في أمثال ما كتبه صاحب كتاب [عجائب الخلق في الحيوان] وهو الرحوم جورجى زيدان فإنك حين تقرأ ما سأقصه عليك من الكلام على الحشرات الزهرية تجد أنه قد توسط في الأمر فلم يبحث البحث العلمى الذى بحثه علماء العرب وأن هذه الألوان إنما خلقت لحماية الحيوان ولم يهتد إلى تعليل فهذا يدل على عدم كمال الاطلاع وهذا بيان ما قاله .

(الحشرات الزهرية)

وفق بعض الباحثين في طبائع الحيوان إلى اكتشاف حشرة من قبيل الجنادب اسمها العلمى فاسومانتس كارولينا تفتت بالذباب ونحوه وتحتال في اقتناص فريستها حيلة غريبة (انظر شكل ١٢) وذلك أن لها يدين مستطيلتين تثنيهما ثنى السجود ومنها اسمها عند الإفرنج (الجندب الصلى) وكذلك يسميها أهل الترانسفال ويسميها غيرهم (فرس الشيطان) وهو الاسم اللائق بها إذ ليس فيها من ظواهر الصلاة غير السجود وفيما خلا ذلك فهي دويبة مفترسة ولها قدرة على الاحتيال بما يدهش العقل ومدار حياتها اقتدارها



(شكل : ١٢ صورة الجندب المصلي بشكل زهرة)



(شكل : ١٣ صورة الجندب المصلي وفريسته في قبضته)

هذه الطبائع في هذا النوع من الحشرات اه
هذا ما جاء في كتاب (عجائب الحيوان) وأنت ترى أنه لم يرتق إلى درجة كتاب الأورويين الذين
بحثوا في الحقائق واهتدوا إلى أن هذه الألوان لم تكن إلا لأجل حماية نفس الحيوان . ولا جرم أن مثل
هذه المباحث لا خير فيها إلا بمثل هذا الاستنتاج فإذا عريت عنه فقد أصبحت جسما خاويا فارغا ولا فائدة منها
إلا ما يستفيد الطفل من أعواد الكبريت بوقدها ويفرح بمنظر نارها وما يستفيدة من الطيارة التي يرسلها
في الجو وما ذلك إلا مجرد التسلية أما العلم وأما الحكمة فلا والناس في كل أمة تابعون لآراء كتابهم مشغوفون
بتقليدهم فمثل هذا القول الذي انتشر في مصر وسوريا وبلاد العرب يخرج منه القارىء وهو لم يزد حكمة
ولا علما ولا كتابا منيرا وإنما تكون عنده معارف شتى لا يجمعها حكمة عامة تكون هدى للمهتدى ، نعم
ملا يدرك كله لا يترك كله ولكن المتنبي يقول :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنعق القادرين على التمام

(المرتبة الثالثة)

ما جاء في مجلة « كل شيء » تحت العنوان التالي :

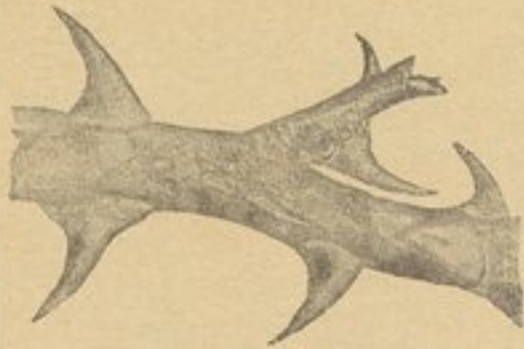
على التظاهر بأى لون أرادته فتقف على الزهرة الحمراء
وتتلون بلونها حتى تظنها جزءا منها ، وإذا وقفت
على الورق الأخضر تلونت باللون الأخضر ، وإذا
كانت الزهرة من عدة ألوان تلونت بها جميعاً (انظر
شكل ١٢) .

وقد تقف على العفن بين الأوراق فتتكيف بما
يشبه الزهرة ببتلها وسبلها وأسدبها فتخفي يديها وتدخل
رأسها بين الأوراق وتبسط أجنحتها للخارج حتى تشبه
الزهرة مشابة كلية فتخدع الناس فضلا عن الحشرات
والذباب فتقع الدبابة عليها أو يجانبها طمعا في امتصاص
الزهرة فتنب هي عليها وتلتقطها يديها بين ثنيق السجود
كما ترى في الشكل الثالث عشر) .

ومن غريب طبائع هذه الجنادب أنها تمسك على
الأغصان أو بين الأوراق ساعات أو أياما متشكلة
بشكل الزهرة لا تبدي حركة تدل على الحياة الحيوانية
كأنها تجعل نفسها جزءا من النبات الذي تقف عليه
وتتحرك معه بحركة الريح كما تتحرك الزهور ولو
كانت في مكانها بحيث يستحيل على غير التأمل أن
يبرها عن زهور النبات ومنها نباتات عديدة
تختلف طبائعها باختلاف الأقاليم أشهرها ما وجدوه
أخيرا في (سنغافوره) و (بورنيو) من جزائر
الهيظ واسمه عندهم دربولاتيس وهو الذي نبههم إلى

(خداع الحيوان . أمثلة غريبة)

لو حاول أحد الفلاسفة أن يجد أصلا للآداب في الطبيعة يجعله أساسا للأخلاق العليا لأعجزه ذلك فإن في الطبيعة من الخداع والسكر والغش ما يدهش له الإنسان ، فبين السمك مثلا سمكة تعيش وكأن على رأسها (طاقية الإخفاء) إذ هي شفافة لا تظهر في الماء إلا خيالا ضعيفا ، وهي تستعمل هذه الشفوفة في الاقتراب من فريستها وقتلها ثم النمامها ، والأخطبوط يخدع فريسته بأن يفرز في الماء سائلا أسود حتى لا تراه ثم يلتف حولها وهي في عمائها فيقتلها ويأكلها ، وبعض طيور الماء يبيض على الشاطئ فلا يبني عشا لبيضه وإنما يلقيه بين مدر الشاطئ وحصاه فيمتزج لون البيض بهما بحيث إذا مر إنسان أو حيوان لما استطاع تمييز البيض مما حوله ، ومن ضروب الغش التي تتبعها الحشرات مع العصافير وتحتمى بها أنها في طورها الثاني عندما تخرج من البيض وتصير (دعموصة) تشبه الدودة تكون عندئذ طرية مملوءة بالدهن ليس فيها عظمة والطيور عندئذ تشبهها لقمة سائفة ولكن هذه الدعاميص تثبت لأنفسها قرونا زائفة ووجها مخيفا وأحيانا تشبه الثعابين فتخشها الطيور وتندفع عنها حاسبة أنها شيء آخر غير تلك اللقمة الدسمة من الدهن (انظر شكل ١٤) و (شكل ١٥) .



(شكل ١٥ - على هذا العن حشرات تبدو كأنها غصون شائكة)



(شكل ١٤ - دعموص حشرة واقف بين العننين الكبيرين كأنه غصن آخر)

والفراش الذي يتطاير في الربيع حول الزهر يكون أحيانا كثيرة زاهي اللون فتراه العصافير فتحط عليه ولكنه سرعان ما يرى ظلها ويحط على زهرة فيندغم لونه في لونها فتروح العصفورة ونجى ، وهي كالبهاء لا تراه ووقت حصيد القمح ترى آلافا من الجنادب تنفر وتقفز فإذا حطت على الأرض اختفت لأنها غبراء مثل الأرض وأحيانا تعيش الحشرات على الأشجار فتراه للناظر كأنها أوراق حرسفية تغطي البراعم ، وبعض الحشرات يشبه غصنا جافا مكسورا ، وأخيرا يعرف كل منا أن الحرياء تتلون بلون الوسط الذي تعيش فيه كي تخفي عن أعين أعدائها فهي خضراء بين أوراق الشجر غبراء على الرمل ، وكل هذا غش وخداع يقصد منه خداع العدو والفريسية معا (انظر شكل ١٦) و (شكل ١٧) .



(شكل ١٦ - حشرة تتراعى كأنها ورقة) (فراشة قد أتقنت محاكاة الورقة حتى في العروق)



(شكل ١٧ - حشرات تحاكي الزهر)

فهذه المرتبة الثالثة من الكتاب جاءت بتعليل لهذه الأشكال والصور والعجائب للقراء وإن أكثر القراء في بلاد الشرق اليوم قد فشا بينهم الإلحاد، وقد نسبوا ذلك الإلحاد إلى علماء أوروبا فصارت هذه فكرة عامة فلذلك تجد هذا الكاتب في المجلة بدل أن يسمو بالقراء إلى آراء كتاب أوروبا ويذكر ما وصلوا إليه من سمو الفكر والعلم ويبين أن هذه الألوان خلقت لحياة الحيوان وليست مصادفة أو رمية من غير رام . يقول إن هذه الألوان في الحيوان أو المشابهات ما هي إلا غش وخداع ، وإذا أراد الإنسان أن يقلد عجائب الطبيعة في الأخلاق لم يجد إلا الغش والخداع وتكون النتيجة إذن أنه لا كمال في الأرض إلا لرجال السياسة والمنافقين والخادعين والكاذبين وأهل الضلال .

فانظر أيها التركي لأهل الشرق وأهل الغرب الآن واعجب لهذه المراتب الثلاث مرتبة في الغرب تقرب من نهاية الحكمة ومرتبتيان في الشرق . إحداهما لا تثبت ولا تنفي . والثانية قلبت العلم جهلا والسكالم تقصا وألبست الطبيعة ثوب النقيصة وتركت قراءها حيارى في الوجود لا يرون إلا ضروب الاختلاس وأفانين الأكاذيب تبعا لما تعلموا من الطبقة السكاذبة الخاطئة وهذه الطائفة يحق لها أن تقول إن المرأة التي ترضع ولدها ابتغاء نفعه لها في المستقبل ثم فقدته فإن هذه العاطفة فيها خائفة كاذبة غاشة . فانظر كيف يسمي كتاب الإفرينج هذه العجائب حمالة للحيوان وكيف يسميها كتاب الشرق غشا وخديعة . هذا ما أردت أن أبينه الآن في مراتب الكتاب في الشرق والغرب . ومن هذا تعرف أيها التركي لماذا تباطأ الشرقيون في الشرق الأدنى في درجات الرقي إلى العلا ولماذا أسرع الغربيون . فالشرق اليوم قامت عنده فكرة خاطئة جاهلة وهي أن هذا الوجود كله خبط عشواء وأن هذه الفكرة فكرة الغربيين ويكذب ما تراه في هذا التفسير من آراء القوم « إن الله

لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال .
فانظر أيها الذكي في هذه المراتب الثلاث ووازن بينها وبين أعمال القراء ، فالذين يقرءون المرتبة الأولى
تجدهم قوما جادين في أعمالهم مرقين لمذنبهم لأنهم يعتقدون أن هذا الوجود مبنى على حكمة ونور ، فأما
الآخرون فإنهم لا يرون في هذا الوجود إلا لهوا ولعبا لا عقل فيه يزنه ولا كمال ، فهؤلاء تجدهم في مصر
وسوريا والعراق وكثير من بلاد الشرق لا يعملون عملا نافعا ويضيعون أوقانهم بلا عمل ويجلسون في مشارب
القهوات ومحل الفرجة، وهذا هو الذي قعد بالشرقيين ، فكن أيها الذكي نورا لأمتك معلما لها ناشرا للحكمة
« لمثل هذا فليعمل العاملون - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

أتدري أيها الذكي مم أخذت هذه المراتب الثلاث ؟ أخذتها من قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات
والأرض واختلاف ألوانكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام ، فجعل الله اختلاف الألوان
آيات للعلماء الذين يقربون من المرتبة الأولى ، ومعنى هذا أنه ليس آيات لغيرهم من الطبقة التي لم تفكر وهي
الثانية ومن الطبقة التي جعلت هذه الأشكال والألوان غشا وخديعة ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ نور على نور في آية « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألوانكم وألوانكم

إن في ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام ﴾

من القواعد الحكيمة في النبات أن اختلاف لونه بصاحب دائما اختلاف شكله وورقه وثمره وزمانه
ومكانه وجميع أحواله . إذن ليس العجب والابتداء في الاختلاف خاصا باللون فإن كل اختلاف فيه ابداع وجمال
فانظر رعاك الله كيف جعل الله ذكرا وأنثى وجعل آكلا وما كولا كالنمل والأسد وكالثور والغزال والعنز ،
ومن عجب أن هذا التقسيم الأخير لا يختص بنوع ما من الحيوان فهو في الهواء وعلى اليابسة وفي البحر وكما
يكون في ذوات الأربع والسمك ونحوها يكون في الحشرات ، ولست أريد الآن أن أذكر إلا ما جملت حكمه
وظهر جماله في الإبداع وهو ما جاء في جريدة الأهرام في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

الذئب في عالم الحشرات

أنشأ حديثا في إنجلترا مفرخ غريب للحشرات تحت اشراف بعض موظفي الحكومة الذين يقضون
أوقاتهم فيه يعنون بجيوش من الجنود الصغيرة ذوات الست الأرجل، هي حشرات تفتك بالحشرات التي تناف
للزروعات ، وترسل هذه الحشرات المقاتلة إلى مختلف أنحاء الأمبراطورية البريطانية لمساعدة المزارعين على
التخلص من شر الآفات . وتجري تجارب من هذا القبيل في ولاية كليفلورنيا بأمریکا حيث يقوم الدكتور
(ستانلي) أستاذ علم الحشرات في جامعة (كليفلورنيا) في مهجة تفريخ ملايين الملايين من بيض الذبابات السابحة
بحجم البعوضة وهي من فصيلة الزنبار ويقال الزنبر والزنبور وتضع بيضها في بيض الحشرات الأخرى المؤذبة
ومتى تقف فرخها بيضتهما في البيضة الأخرى وقتك بفرخ الحشرة الأصلية ، وقد اضطر الدكتور (ستانلي)
من مدة قريبة أن يرسل مئة ألف بيضة من بيض هذه الحشرات تلبية لطلب مستعجل في البريد الجوي ضمن
علبة صغيرة ، ومن جملة أعداء الحشرات المؤذبة للزراعة حشرة تعد من أشرس الحشرات وأبرعها في ضروب
القتال وهي أشبه بقنبلة صغيرة ذات أجنحة لونها كلون الفولاذ الأزرق المصقول يتخلله بقع برتقالية اللون
وتعرف بالزنبار الحفار ، ومعروف عن هذه الحشرة أنها تهاجم حشرة أخرى أكبر منها نحو عشر مرات وكثيرا
ما تقتحم العنكبوت الكبيرة العروقة باسم (ترانتولا) في الولايات الجنوبية الغربية وهذا سبب تلقيها بصقر
الترانتولا ويبلغ طول جسم هذا الزنبار (بوسة) وله خصر نحيف في دقة الحيط هو في الحقيقة الصديق الصدوق

للفلاح لأن معظم الحشرات التي يهاجمها هي من الديدان المضرّة بالزراعة، وقد كتب الستر (وارد) الإنكليزي العالم بطبائع الحشرات يقول إنه وجد في أحد أجزاء مقاطعة (ديفونشير) ألوفا من (الزنبار الحفار) ولم يعثر بدودة واحدة وقد استدل من ذلك على أن الزناير أفنت الديدان كلها في العام الماضي وأثنى الزنبار الحفار هي التي تقوم بحفر الوكر وهي التي تقاتل الديدان وتفتك بها وتقع العارك عادة بحوار الوكر وتبدأ العمل في شهر يوليو عند اشتداد الحر إذ تظل طائفة حتى تهبط على صفة جدول أو جانب طريق حيث تكون الأرض صلبة قاسية وتشرع في الحفر كأنحفر الثعالب أو جارها أي أنها تنحت التراب بيديها الأماميتين وتقذفه بعيدا بأرجلها الخلفية ويستغرق حفر الوكر الذي يمتد غالبا إلى مدى ثلاثة بوصات طول النهار تقريبا ويكون عادة متسعامن الداخل ضيق المدخل . ومتى انتهت من عملها تبحث عن حصوة تصلح سدادة لباب الوكر وقد تضي ساعة تأتي بحصوة تلو أخرى إلى أن تعثر بالحصوة الملائمة لسد باب الوكر سدا محكما ، وعند ما تنوفق إلى غايتها هذه تجول هذه الصيادة البارعة باحثة عن طرائدها وحينما تشعر الدودة بدنو الزنبار منها تضطرب وتحاول المقاومة فتتقوس وتتفرد وتسرع الزحف لتلوذ بالفرار ولكن أنى لها ذلك والزنبارة تنقض عليها بسرعة البرق الحافظ وتقبض عليها بأرجلها فتكبلها وتداورها إلى أن تتمكن من إدخال سمها بين مفصلين وهو مركز جهازها العصبي وتلقحها بمادة مخدرة فتشل حركة الدودة ، وقد تلقحها بأربتها هذه في عدة مواضع لتتأكد من بقائها حيث غير قادرة على الحركة مدة أسبوع أو أكثر وقبلما تشرع في جرها إلى الوكر تقلبها على ظهرها لكيلا تستعمل أرجلها للمقاومة ، ومتى وصلت إلى باب الوكر تضع بيضة أو أكثر في جانب الدودة قبلما تجرها إلى داخل الوكر حيث تدخرها مؤنة حية لقراخها عندما تنفخ بيضها ثم تنطلق لتأتي بدودة أخرى وهكذا حتى يفرغ بيضها ويمتلئ الوكر وحينئذ تشرع في سد باب الوكر بدقائق التراب التي تحيلها بمادة رطبة من جسمها وبعد ختم الوكر بيومين أو ثلاثة أيام يقفس البيض وتخرج منه الفراخ فتأكل من جسم الديدان إلى أن تبلغ أشدها ثم تنسج لنفسها شرفة تبقى فيها حتى شهر يونيو التالي إذ تخرج من الوكر زنبارا كاملا قويا لتحل محل آباءها التي يقتلها صقيع الشتاء اه .

هذا ماظهر أثناء طبع هذه السورة من العلم فياليت شعري ماذا يريد الله بهذه الأساليب من الحكمة ؟ وماذا نفهم من هذه العجائب ؟ نفهم أنه يقول لنا : أيها الناس . أيها المسلمون إما أن تتعلموا وإما أن ترحلوا من أرضي ، هل عميتم عن النظر إلى حكمتي أفلا تعقلون ! سلطت الدود على زرعكم وقلت لكم « وإن من شيء إلى عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » فهل سلطت الحشرات على زرعكم لإهانتكم كلا . وحق حكمتي ورحمتي التي وسعت كل شيء فكيف تسع رحمتي كل شيء . وتتعدى أشرف خلقي فأسلط عليهم كل هوام الأرض والحشرات كلا كلا . وعزتي وجلالي إنما سلطتها عليكم لتدرسوا والدرس يرق عقولكم ويجعلكم اليوم في جنة العرفان العالية ويرفع نفوسكم عن الدنيا . وقد جاء في الأخبار « تداووا عباد الله فان لكل داء دواء » فكما جعلت لأمرضكم أدوية جعلت لأمرض نباتكم أدوية ملائمة وما هذا وذلك إلا لإشراق نفوسكم فهي المقصودة

إذا كان هذا الدمع يجري صبابة على غير ليلي فهو دمع مضج

اللهم إنا نحمدك على نعمة العلم وعلى بهجة الحكمة فقد علمتنا ما لم نعلم إنك أنت العليم الحكيم

(الكلام على اللطيفة الثانية المناسبة للطفيفة الخامسة)

في هاتين اللطيفتين (ثلاثة مقاصد : المقصد الأول) تنوع المادة إلى صور كثيرة (للمقصد الثاني) تنوع الصوت إلى لغات كثيرة وكيف كان الثاني نموذجا للأول (المقصد الثالث) كيف كان الترتيب في الآية يشعر بأحسن النظم في المدارس الشرقية والغربية التي هي قائمة الآن .

﴿ المقصد الأول : تنوع المادة ﴾

اعلم أن هذا المقام وهو مقام العناصر والمقام الثاني وهو الحروف قد ذكرتهما في (سورة البقرة) بطريق إجمالي ، فلنعد الكرة الآن لنرى كيف كانت المادة أصلها علم رقيق لطيف هو الأثير وهذا العالم لم يره الناس وإنما استدلوا عليه بأدلة طبيعية وكيمائية لانطيل بها ، فرأوا أن هذه المادة منه تفرعت فهذا العالم المشاهد الذي يضيء والذي يستضيء كلاهما يرجعان لمبدأ واحد وهو الأثير . وهذا الأثير نتجت منه المادة الأصلية والمادة الأصلية هي كل شيء بل أرجعها بعضهم إلى حركات فيه ، وهذه المادة منها ما ينبعث الضوء منه وهي الشموس ومنها شمسا ومنها ما يقبل الضوء كأرضنا . والضوء ماهو إلا حركات منتظمة وبها يكون الحر والبرد الخ ، وتنوع الحوادث على الأرض . والأرض والهواء والماء ماهي إلا عناصر قد شرحناها في الجدول السابق في (سورة العنكبوت) وقد علمت أن له حسابا ونظاما كما أن سير الكواكب له حساب فالأنوار تأتي إلى الأرض بحساب والعناصر لم تكن إلا بحركات المادة وتنوعاتها ، فتنوع المادة كانت منه العناصر ولا معنى لتنوعها إلا تحرك ذراتها ، فلتعجب من الأمرين ليل ونهار بحساب . عناصر منتظمة من حيث جداولها بحساب قبالت شعري من كان يظن أن هذا العالم على هذا النظام ، من ذا الذي كان يظن أن عناصر المادة بينها هذه النسب ، تلك النسب التي أوضحها هناك ، تلك النسب التي قرنت بين عنصر وعنصر بل بين كل عنصر وسائر العناصر . إن العنصر الواحد له نسبة إلى ما فوقه وما تحته في الجدول . وكل صف منسوب إلى ما فوقه وما تحته . نعم هذا العلم وهو علم النسبة بين العناصر حديث ، ولكن ظهرت ثمرته في معرفة ثلاثة عناصر كانت مفقودة وخواصها التي بلغت (١٨) ومن ذا كان يظن في هذه المادة اللينة أن حركاتها منتظمة انتظاما أدق من انتظام كل ما نراه من الأوقات ومن قطع الشطرنج كالبيدق والشاه والوزير وأمثالها . إن الدقة هنا أحكم وأبعد . فهناك حركات الكواكب وخواص العناصر ومن بينها نشأت هذه الحوادث . ولا جرم أن من يعلم خواص هذين يعرف نتائجهما إلى الأبد . إن أدوار الفلك محسوبة معروفة وصفات العناصر معلومة عند مبدعها فتأنيها معلومة كلياتها وجزئياتها . بمثل هذا كان العلماء يقربون إلى الناس علم الله بكل ما كان وكل ما سيكون .

﴿ نتائج العناصر المركبة ﴾

أما نتائج العناصر المركبة فهي واضحة ظاهرة كما تقدم في أنواع النبات والحيوان ، وهناك ماهو دقيق لا يعرفه إلا الذين برعوا في علوم الكيمياء وغيرها . ولأقتصر لك على مقال واحد وهو ماجاء في الأخبار اليوم بجريدة الأهرام في يوم الخميس (٢) ديسمبر سنة ١٩٢٦ م - (٢٧) جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ هـ تحت العنوان التالي وهذا نصه :

كشف علمي جديد

(استخراج البترول من الفحم)

أثارت الصحف الألمانية ضوضاء شديدة حول الخطبة التي ألقاها الدكتور (فريدريك برجيوس) في مؤتمر الفحم الدولي في (بتسبرج) وبسط فيها طريقته الجديدة للسماء (تحويل الفحم إلى سائل) وملخص هذه الطريقة أن الفحم مؤلف من جزء من الهيدروجين و (١٦) جزء من الكربون في مقابل جزء من الهيدروجين و (١٨) جزء من الكربون في البترول فيكفي لتحويل الأول إلى الثاني أن تزداد نسبة الهيدروجين إلى الكربون في الفحم (ضعفين بحيث تصبح (٢) إلى (١٦) ليتحول إلى بترول) ولما كان الفحم ليس من

السهل تحويله إلى سائل عماد الأستاذ (برجيوس) إلى تعريض الفحم لضغط يعادل مائة ضعف للضغط الجوي في حرارة تختلف بين (٣٠٠) و (٣٥٠) بميزان سلسليون، وقد حصل حينئذ على مادة كالعجين صوب إليها الهيدروجين بواسطة طلمبة خاصة بعد رفع الحرارة إلى (٤٥٠) درجة فرأى أن الهيدروجين قد زاد مقداره بالنسبة إلى الكربون، وأن الفحم بدأ يتحول إلى سائل، فمن كل طن من الفحم يستخرج بهذه الطريقة (١٥٠) كيلو غراما من الفازولين و ٢٠٠ كيلو غراما من البترول الثقيل و (٦٠) كيلو غراما من الدهون و (٨٠) كيلو غراما من البترول الصافي كما أن هناك سوائل أخرى أقل شأنًا فاذن يكون نصف الفحم الذي يعالج بهذه الطريقة يتحول إلى سوائل، ويقال إن هذه الطريقة إذعمت ألمانيا فإن مناجم ألمانيا تزيد قيمتها ثلاثة أضعافها الآن وتستغنى عن كل ما تأخذه من الأمم فإذا عممت هذه الطريقة ألمانيا تقتصد خمسمائة مليون جنيه (نصف مليار) ويقال إن المستقبل للسوائل القابلة للاحتراق، وهذه الطريقة ستحدث انقلابًا عظيمًا في أوروبا بحيث يمكن تدفئة المدن وتوزيع الماء الساخن على المنازل من العامل التي تحول الفحم إلى بترول بطريقة الأستاذ برجيوس « اه .

هذا ملخص ما جاء في الجريدة للذكورة، وأنت ترى أني ذكرته هنا في التفسير وربما تعجب من هذه المفارقة فأقول لك . كلا . والله ما هي مفارقة بل هي موافقة أشد للواقعة وإلا فلماذا يظهر هذا الكشف اليوم سواء أتم أم لم يتم، كيف ظهر هذا وأنا أحضر التفسير للطبع، أليس هذا أيها القطن عين ما ذكرته؟ الله أكبر إنه مثل ضربه الله نفسه لما نطقت به هذه السور، إنه من أسرار أوائل السور، أوائل السور فيها الحروف مقطعة وقلنا هنا وفي السورة قبلها أن ذلك يقصد به الرجوع إلى أصول العلوم، فسكنا أن الكلام مرجعه الحروف المقطعة هكذا هذه العوالم مرجعها العناصر المختلفة . الله أكبر، ظهر السر المكنون في القرآن في آخر الزمان وظهر أن المقصد من هذه الحروف في أوائل السور أن ندرس هذا العالم ونحلله إلى عناصره، بل الله يشير بهذا القرآن إلى ما حصل فعلا في الدنيا، فأنه رب العالمين والعالمون منهم قوم في الأرض وهام أولاء في ألمانيا وفي غير ألمانيا حللوا المركبات فأرجعوها إلى عناصرها ولما أرجعوها إلى عناصرها استخرجوا منها منافع لهم ولنا، إن الله خلق عباده وأنزل لهم آخر الأديان وجاء صاحب التشرع صلى الله عليه وسلم أميا لا يقرأ ولا يكتب فنطق بهذه الحروف وبمجاهات في أوائله من القرآن هذه السور (العنكبوت والروم والقيامة) (الم) في هذه السور كما كررناه مرارا تشير إلى آيات في السورة اشتملت على الحكمة والبحث في هذا الوجود كما أوضحته لك فهذه الحروف للحكمة التامة التي ترجع الأشياء إلى أصولها الطبيعية، والأمم اليوم لا ينتظم لها زرع ولا طب ولا حرب إلا بحساب العناصر كما يعرفه الأطباء وغيرهم . وهذه مسألة الفحم أنظر إليها تجد الفحم هو نفس البترول كلاهما مركب من هيدروجين وكربون واختلفت النسبة . ثم إن ما قدمناه نقلناه عن الجرائد فالظاهر أنه يحتاج إلى تصحيح بعض الأرقام وهذا لا يضر أصل الموضوع فالقحم والبترول يرجعان لعنصرين اختلفت نسبتتهما، ومثي أرجعت النسبة كالمطلوب حول الفحم إلى بترول . وإذا صح هذا أصبح الناس في رخاء وسعادة، لماذا هذا؟ لأن المركبات رجعت لأصلها وهذا هو زمان النور والعرفان الذي تشير له الحروف في أوائل السور . إن من أجل معجزات القرآن أن يظهر قوم يحللون المركبات إلى عناصرها ويعرفون نسبتها ويتصرفون . وهذا هو سر القرآن . أما المسلمون الحقيقيون الذين وعدهم الله بالنصر فهم أولئك الذين يأتون بعدنا ويقروون ما كتبته الآن ونحوه فيعلمون حق العلم أن دين الإسلام أفضل وأشرف مما عليه المسلمون الآن وأن هذا الدين يراد به أن يكون المسلم فوق كل علم وكل حكمة .

اللهم إن ديننا هو الدين الذي به تحول أرضك إلى جنات ونعيم باجتهاد علماء هذه الأمة في علومك التي

خبأتها لهم في أرضك وإذن تعود الأرض جنة للمسلمين ولغير المسلمين ويكون السلام العام في الأرض ويكون هذا السلام سببه المسلمون .

هذا هو التنوع في العناصر . أما التنوع في غيرها فلقد تبين لك فيما تقدم في هذا التفسير عند قوله تعالى « وأنبأنا فيها من كل شيء موزون » وكيف كان تنوع الزهرات في مختلف الأشجار وقد رتبوا النبات على مقتضاه إلى (٢٤) رتبة كل رتبة تحتها أجناس والأجناس تنقسم إلى أجناس أقل منها وهكذا حتى بلغت مئات الألوف من الأنواع . كل ذلك بالتنوع في الزهر ولا تنوع في الزهر إلا بتنوع في الشجر ولا تنوع في الشجر إلا بما دخله من العناصر في مواد التغذية التي لا سبيل لها إلا تلك الأنايب الشعرية التي في عروق الشجرة والفتحات التي في الوراق ، فتتوزع الفتحات في الوراق وفي العروق بتنوع بحسبه الغذاء الداخل في النبات ويمقتضى هذا الغذاء يكون النبات وهذا من أعجب العجيب دقة في الصنع وإبداعا في الشكل ، وترى أوراق النبات وأشكالها وألوانه وفروعه وطعمه ورائحته ، وطوله ومدة مكثه في الأرض ومنافعه والأرض التي يصلح فيها ، وما يناسبه من السجاد وما يلائمه من الحيوان وما يكون منه من النافع كالدواء والغذاء واللباس والعطر والزيت واللبان (كما تقدم ذلك) وما أشبه ذلك مما لا يحصى ، كل ذلك قد اختلف فيه النبات اختلافا عظيما وترى أن ألوان النبات على وجه العموم الخضرة ، ولكن الدهش أن خضرة كل نبات لا تشابه خضرة الآخر وانظر إلى نوع الحيوان قد اختلف ذلك الاختلاف وأكثر . ناهيك ما ترى من أن الصنف الأبيض اللون لا ترى منه اثنين يتشابه لونهما ولا شكل وجههما ولا بقية الأعضاء ومسألة خطوط الإبهام معلومة فلا تشابه بين إبهامين وهكذا الكرات الدموية ، ولأكتف بما جاء في بعض المجالات العلمية بمصر تحت العنوان الآتي:

(تحقيق شخصية المجرم)

تعددت وسائل تحقيق الشخصية التي يستعملها المحققون في اكتشاف أسرار الجرائم العويصة حتى صار من الصعب جدا على مجرم أن يفر من يد البوليس الذي يقبض أثره . فدور السوابق لهم الآن سجلات متقنة فيها طوابع أصابعهم وطوابع مسام جلدهم . وبما هو جدير بالذكر عن طابع الأصابع أنه لا يتغير ، ولو شيط الجلد بالنار . وقد حاول بعض المجرمين أن يفعل ذلك فلم يمكنه إضاعة معالم أصبعه الثابتة في السجل . أمامامام الجلد فقد كثر اعتماد المحققين عليها هذه الأيام لأنها أسهل في المراجعة . ويمكن أخذها من أي مكان من الكف وطريقة المراجعة أن تكبر صورة الطابع بالفوتوغرافية ثم تطابق الخطوط أو السام على الأصل ولا يوجد اثنان في العالم يتفقان في خطوط الأصبع أو مسام الجلد ، مع أن الصورة الفوتوغرافية للوجه كثيرا ما تختلط بصورة أخرى حتى يصعب تمييز الأصل وذلك لأن الوجوه كثيرا ما تشابه أمانظام السام والخطوط فلا تشابه مطلقا عند شخصين . والأوروبيون لعنايتهم بالكلاب يحققون شخصيتها الآن بطبع أنفها . فلكل كلب أنف خاص له خطوط ممتازة وكذلك الحال في سائر الماشية . ومن وسائل التحقيق فحص الدم فإن دم الإنسان يختلف عن سائر دماء الحيوان اختلافا عظيما عند التحليل ولا يتفق إلا مع دم القردة العليا ، فإذا وجدت لطخة دم مهما كان صغر حجمها على ثياب منتهم وادعى أنها ليست دم الشخص الذي جنى عليه أمكن عند فحصها معرفة حقيقتها وهل هي دم إنسان أو دم حيوان ؟ وأقرب الدماء إلى الإنسان في التحليل الكيمائي هي دماء (القردة العليا) وبوليس (نيوبورك) يستعمل الآن جملة طرق في تحقيق شخصية المقتول فإن بعض المجرمين إذا قتلوا أحد الناس أزالوا اللحم عن الوجه وهشموا العظام حتى لا تعرف شخصية المجرم عليه فيفضل المحققون في الاهتمام إلى القائل ، ولكن في بوليس (نيوبورك) اختصاصيين يضعون على العظم نوعا من اللصيص اللين ويدهنونه

بألوان البشرة الطبيعية فيعود الشخص إلى هيئته الأولى ويمكن بذلك معرفته . أما الاهتداء إلى التزوير فقد كثرت الآن وسائله ، فمن ذلك أنه يوضع تحت السكرسكوب فيعرف اختلاف الحبر أو قوة ضغط القلم أو مقدار خدشه للورق ، ثم تؤخذ صورة الحظ بالفوتوغرافية وتكبر فيعرف عندئذ اختلاف الطريقة في الكتابة لأنه مهما قلد الإنسان خط أحد الناس فإن طريقته لا تزال ظاهرة في الكتابة المقلدة . وأيضا يمكن فحص الحبر بتسليط الأحماض عليه فالحبر القديم لا يؤثر فيه الحمض كالحبر الجديد وهلم جرا انتهى ولاكتف بهذا القدر في العناصر .

(عجيبة)

انظر اختلافا لاجدله في الإشخاص من الانسان ومن كل حيوان وكيف أصبحنا نرى أن كل إنسان مثلا يستحيل أن يشارك غيره في صفاته الجسمية فتصور بني آدم من مبدأ الخليفة إلى يوم فناء العالم كيف اختلفوا في هذه الصفات والحطوط والأشكال ، وقس على ذلك علومهم وعقائدهم وإيمانهم وكفرهم وسعدهم ونحسهم فإذا كل امرئ يكون علمه منوعا تنوع جسمه كما تنوع لونه وصوته ومسامه . ههنا تجلت وحدانية الله إذ جعل الوحدة سارية في سائر المخلوقات . فكل منا واحد في نفسه جسا وصوتا ولونا وعلمنا وخلقا . فإذا أنا كنت واحدا أفلا يكون خالق العالم واحدا ؟ انتهى المقصد الأول .

(المقصد الثاني ، الكلام على الحروف)

الحروف الهجائية عبارة عن تنوعات الصوت في الهواء والصوت إنما حدث من التنفس والتنفس لغرض التغذية فهو في النبات لمجرد الغذاء وفي الحيوان له وبعض الأغراض بتنوعه . وفي الإنسان تكون لغات شتى على مقتضى الأمم وهنا وصل الصوت إلى أقصى منتهاه . فمنه الشعر والنثر في اللغات المختلفة المنفرعة من اللغات (السامية والطورانية والسنسكريتية) وهذه لها فروع في الشرق والغرب مثل السريانية والعبرية والحبشية والعربية والآرامية في اللغة السامية وغير ذلك . فانظر كيف تنوع الصوت الذي لم يدخل في الرتبة إلا لإصلاح الدم إلى ما لا يعد من الكلمات باللغات المختلفة . وهذه الكلمات بإزاء الموجودات وفي نظيرها صور في النفوس الإنسانية لمعانها . فانظر وتعجب من صوت في الشهيق والزفير يوم مقام المادة في أحدث صور الموجودات فالمادة قبلت صور الأشياء في ذاتها ، والصوت أحدث هذه الصور في نفوسنا ، إن الصوت قام مقام المادة فكان منه الشعر اللطيف والغزل الرقيق والحطب الأثيرة والقصائد المحررة والأقوال الشارحة والكتب المصنفة والديانات المنزلة والفلسفة الرائعة وكان به نظام الدولة وإقامة العدل والمدن ومحاسن الآداب وتاريخ الأمم وحفظ الدم وصيانة الحقوق وتعليم الجاهلين وشكر العالمين .

وكما أن المادة مروجا واسعات وفتور زهر باسمات وحدائق وجنات وأثمارا بهجات هكذا للصوت من القصائد حدائق ومن النثر شقائق ومن الحطب قصور ومن الشعر زهور ومن الحكم ثمار ومن الأمثال فاكهة ورمان ومن الغزل مروج ومن الآيات البينات بروج ، في المادة شعر رقيق وفي الصوت زهر أنيق . « فهما من كل فاكهة زوجان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منها اللؤلؤ والمرجان » وللناس في حدائقها مقاعد « وجنا الجنتين دان »

واعلم أن الله عز وجل جعل العالم (المادى واللعنوى واللفظى) بينها تناسب واشتقاق وتفرع وانتظام في ذلك كله ، فإذا رأينا أن الجسم ينقسم إلى نام وغير نام ، والنامى إلى ماله حس وحركة وإلى ما ليس كذلك والذى له حس وحركة إما ناطق وإما غير ناطق ، فغير النامى هو المعدن وماله حس وحركة هو الحيوان وما ليس كذلك هو النبات والناطق هو الإنسان فيكون هكذا (جسم نام حساس ناطق) فهكذا ترى العلم

والحكمة معرفة الشيء على ما هو عليه بقدر الطاقة البشرية ، والشيء يقسم إلى العلوم كلها ويتبعها الصناعات فيقال هكذا (الشيء إما علمي وإما عملي) فالعلمي إما علم أعلى كعرفة الله والأرواح وتقسيم العلوم . وإما علم طبيعي ورياضي فالرياضي يشمل الأرقام تطبيقي والمهندسة والفلك والموسيقى . والأرقام تطبيقي من هذه الأربعة يشمل الحساب المفتوح وحساب الخطأين والجبر والمقابلة والتخت والليل والدرهم والدينار . والطبيعي يشمل سماع السكبان والسكون والفساد والسماء والعالم والآثار العلوية والعدن والنبات والحيوان والإنسان . هذا هو القسم العلمي .

أما القسم العملي فهو سياسة النفس وسياسة المنزل وسياسة المدينة . وسيأتي إيضاح ذلك كله وشرحه في (سورة لقمان) مفصلاً تفصيلاً تاماً

فانظر كيف ترى أن الإنسان والحيوان والنبات والمعادن كأنها شجرة لها أصل واحد هكذا العلوم أيضاً هي شجرة أصلها الشيء أي الوجود المنقسم إلى علم وعمل . وهكذا ترى العلماء في علم ما وراء الطبيعة يقولون «إن الوجود ينقسم إلى جوهر وعرض . والعرض يكون صفة ومقداراً كالبياض والكلطول ويكون نسبة كالأبوة والنبوة الخ» وفرعوا فروعاً شملت كل العلوم فهي من حيث النتيجة كالنتقسيم للتقدم بشكل يخالفه وكل الوجود تلازمه الوحدة . فالوجود كله واحد وكل كثرة أوقلة منه يقال لها واحد . فالوحدة تسير مع كل موجود ويوصفها قليلاً أو كثيراً . العالم كله واحد والوحدة ملازمة لكثرتيه وقلته . أنظر إلى الألوان فهي مثل السواد والصفرة والبياض والنحاسية مثلاً كأهل السودان والصين وأوروبا وأمريكا الأصليين حمر الوجوه . انظر كيف ترى أن النوع الأبيض من هذا الإنسان يتفقون جميعاً في اللون ولكن يستحيل أن يكون بياض زيد كبياض عمرو وهذا هو العجب بل هذا هو الآية الإلهية . يسع البياض مثلاً مئيات آلاف الآلاف من الناس ولكن لكل واحد في لونه هيئة تخالف لون الآخر . هذا معنى قوله تعالى «واختلاف ألسنتكم وألوانكم» فهذا هو اختلاف الألوان ومثله اختلاف العلوم واختلاف الأنواع والأجناس كما تقدم

وكما رأيت اختلاف الألوان واختلاف العالم هكذا ترى اختلاف اللغات كاختلاف الأصوات . ليس أحد من الناس يشبه صوته صوت الآخر ولا كلامه ولهجته كلام الآخر ولهجته . يمتاز كل امرئ في لونه وصوته وهيئة كلامه كما يمتاز في لونه وإن شارك الناس في البياض والصوت والكلام

هذه هي الحكمة المثقنة التي جاءت في هذه الآية ولولا هذا الجمال لم يميز الأشخاص . فبالألوان الخاصة وأصواتهم الخاصة ولهجات حديثهم يختلفون فميزهم لعيش معهم ، فجعل الله الذي أنقن كل شيء وهو الذي أحسن كل شيء ، خلقه ثم هدى والمهداية هنا باختلاف المخلوقات فهو قد حسنها وهدى إليها مع جمالها «فتبارك الله أحسن الخالقين» وبهذا تم الكلام على الاختلاف في الألوان ونحوها .

﴿الاختلاف في اللسان﴾

الاختلاف في اللسان (قسمان) قسم قد تقدم وهو الأمور للتعارفة وقسم شرحه العلماء وهو (قسمان) قسم لفظي وقسم خطي . فالقسم اللفظي قالوا فيه : إن اللغات تفرعت من أصل واحد إلى لغات مرتقية وغير مرتقية . وغير المرتقية هي (أولاً) الرنجية (١) وهي في الأرخبيل الهندي (٢) وفي أواسط أفريقيا (ثانياً) الأمريكية التي يتكلم بها أهل أمريكا الأصليين (ثالثاً) اللغة المستعملة في البلاد الشرقية الشمالية الآسيوية في جزائر (سفالين) ونحوها (رابعاً) اللغة الصينية وهي أحادية المقطع لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف أما المرتقية فهي إما غير متصرفة وإما متصرفة ، فغير المتصرفة هي اللغات الطورانية كالتركية والقولوية والتففقاسية والإغرافية . واللغة المتصرفة تنقسم إلى (قسمين) الآرية والسامية ، فالآرية هي (أولاً)

الجرمانية وفروعها (١) الايسلاندى (٢) والنرويجى (٣) والسويدى (٤) والدانماركى (٥) والابجلىزى (٦) والهولندى (وثانيا) الصقلالية مثل (١) السرية (٢) والبلغارية (٣) والبوهيمية (٤) والبولونية (٥) والروسية (وثالثا) الهندية (ورابعا) الفارسية (وخامسا) الأرمنية (سادسا) اليونانية (وسابعا) اللاتينية السكية .

(فروع اللغة الفارسية ثلاثة)

لغة الماديين ولغة بنى ساسان ، والفارسى الجديد .

(فروع اللغة اللاتينية)

هى (١) الفرنسية (٢) والاسبانية (٣) والبرتغالية (٤) ولغة رومانيا المعروفة الآن فى البلقان . وبهذا انتهى الكلام على اللغات الآرية .

أما اللغة السامية فهى (١) اللغة المصرية القديمة وقد قيل إنها أصل اللغات السامية ، وأقول قد قال لنا معاشر مدرسى اللغة العربية للرحوم كمال بك مؤلف قاموس اللغة المصرية القديمة مانصه :

إن اللغة العربية بحالها اليوم ناقصة ولا يكملها إلا لغة قدماء المصريين التى تزيد عليها كثيرا فأتى وجدت العربية مع الحذف والإبدال والتحريف بعض تلك اللغة . وشرح هذا شرحا وافيا رحمه الله .

(٢) واللغة البابلية والآشورية (٣) والحبشية (٤) والحيرية (٥) والسريانية أو الآرامية (٦) والفينيقية (٧) والعربية .

فبجانك اللهم وبمحمدك ، سبحانك ربنا قد علمت وألممت وأحكمت ونوعت . قلت فى كتابك «ومن آياته خالق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» اللهم إنك جعلت هذا العالم واحدا . لماذا؟ لأنك واحد وهذه الوحدة جرت مع العالم كله كما جرت مع كل فرد فلقد رأينا امتياز الأشخاص فى كل نبات وحيوان ورأينا امتياز الأصوات والألوان واللغات . جعلت اللهم لكل علم من علوم الحكمة حدودا مخصوصة بحيث ميزنا علوم الطبيعيات وعلوم الرياضيات وفرعنا العلوم الجزيئية كما فرعت أنت الجسم الواحد إلى أعضاء والأعضاء إلى أجزاء والأجزاء إلى ذرات صغيرة هكذا رأينا العلوم تختلف فيكون الرياضى كالحساب والطبيعى كالنبات ثم نرى صناعات تفرع على تلك العلوم كالزراعة والبزرة للنبات وكالطب والبيطرة للإنسان والحيوان وكالحدادة والتجارة للمعدن والنبات وهكذا مما قدمناه فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» وأصل هذه العلوم كلها التى . هكذا فى اللغات فقد رأينا نوع الإنسان كما اختلف فى ألوانه وجميع أحواله اختلف فى لغاته وجرت اللغات شوطا كجبرى الألوان حتى وصلت إلى نحو خمسة آلاف لغة تقريبا . فى أوروبا نحو (٥٨٧) وفى آسيا (٩٣٧) وفى أفريقيا (٢٧٦) وفى أمريكا (١٦٢٤) لغة والانجليزية وحدها (٢٥) ألف كلمة ولغة غالاثمانية آلاف كلمة والعربية (٨٠) ألف كلمة . ويقال إن المستعمل منها عشرة آلاف كلمة والإيطالية (٢٥) ألف كلمة والفرنسية (٣٠) ألف كلمة والإسبانية (٢٠) ألف كلمة : واللغة المستحدثة المسماة (الاسبرانتو) (٣٢٠٠) مادة مقتبسة من اليونانية واللاتينية والجرمانية وقد ألحقوا بها (٣٠) لفظة تركيب مع ألفاظها لتدل على نوع المعانى الوضعية وهكذا (١٧) زيادة فى الصيغة لتقوم مقام التصريف فى اللغات الأخرى فتراكيها ربما تبلغ عشرة ملايين كلمة وإذن تكون أوسع اللغات ثروة .

(حكمتان فى تقارب اللغات . الحكمة الأولى فيما يعم اللغات كلها)

انتشر العلم وتعددت العاهد العلمية وأصبح من مميزات القرن العشرين تشعب اللغات وكثرتها حتى إنه يمكن أن يتاح لنا أن نصف هيئة المجتمع بحالته الراهنة من تعدد الألسن المتداولة ، بأنه قريب الاتصال

برج بابل . ومن العلوم أن كثيرا من هذه اللغات يرجع منشؤها إلى لغة أصلية واحدة ، مثلا اللغة اللاتينية تفرعت منها اللغات الإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإيطالية والرومانية وتسمى اللغات اللاتينية . وأما الإنكليزية والألمانية والنمساوية والهولندية ولغات شبه جزيرة اسكندناوه والدانماركة ، فترجع كل هذه اللغات إلى الأصل الجرمانى .

واللغات التي ذكرت ترجع مع اللغة الروسية واليونانية والفارسية إلى أصل واحد هو مجموعة اللغات الآرية التي تفرع منها بعض لغات في الهندوتسمى (الهندية الأوروبية) وبجانب هذه المجموعات توجد مجموعات لغوية أخرى وان لم يكن لها في عصرنا هذا من الأهمية ما لغيرها من اللغات سالفة الذكر إلا أنها مع ذلك كانت من اللغات الحية في الأزمنة العاربة وبعضها للآن مازالت متداولة الأمر الذي يجعلنا نقدر حق قدرها بالرغم من تقدم العهد عليها ونختار منها مجموعة اللغات السامية التي نزلت بعض الكتب السماوية بها وهي لغات بنى سام وأغنى بها اللغات العربية والعبرانية والسريانية والآشورية والآرامية والسكندانية والحميرية والأبهرية الحبشية واللغة المصرية القديمة والقبطية الحديثة وكل هذه يرجع أصلها إلى بنى سام ، وبالنسبة لقدم عهد تلك اللغات أصبح من التعذر تحديد وقت انسلاخها من بعضها إذ كانت قبل التاريخ بألاف من السنين بيد أنه قد لوحظ بعض التشابه بين هذه اللغات وبعضها في النطق والمعنى ورسم الأحرف . وأن جل اهتمامنا في مصر يتجه لى اللغة العربية التي هي لغة القطر واللغة الرسمية للبلاد ، ولا يخفى أن مصر لغة وشعبا هي جزء من بنى سام إلى أن انسلاخها من الساميين كان قبل التاريخ ، انتهى واقه أعلم .

الحكمة الثانية فيما يختص ببعض اللغات وبعض الأمم

قد جاء في كتاب (المد والجزر) ما يأتي :

قال جماعة من المؤرخين: إن التمدن العربي كان تمدنا إسلاميا صرفا والقرآن مصدر جميع العلوم التي عني بها المسلمون في أوج حضارتهم . فلتفسير آياته وسوره وجدت علوم الكلام وعلوم المنطق ولتفهم ما فيه من نظام وتشريع وجدت علوم الشرع والفقه ولم تكن غاية المؤرخين الأولين من العرب إلا تحديد وقت نزوله وتدوين الأحاديث النبوية . ثم أليس الجغرافيون الأول أو علماء السالك والأمصايرم الذين مضوا من أقصى أفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج ثم عادوا يصفون رحلتهم وما رأوه في البلاد البعيدة من الجديد غير المؤلف . ألم يكن غرض علماء اللغة إيضاح ما غمض من آي القرآن وتطبيق قواعد الصرف والنحو على نصوصه ألم تتطلب أرواد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعيد الحج والصوم . ألم تستدع مسائل الوقاية الصحية والنظافة اهتمام الأطباء كما ظلت بعد تحمهم على البحث والتنقيب ، نعم لم يهتم العرب في ذلك الدور بعلم من العلوم إلا لأن آيات القرآن قضت بمعرفته لاجتلاء معنى غامض أو شرح قول مستغلق ومذاهب علماء الكلام هي التي نهت أبحاث الفلاسفة ومناظراتهم فكانوا بما نقلوا وما أوجدوا أساندة الفلاسفة الحديثة . سبق القول أن قد اشترك مع العربية لغتان أخريان بكونهما قوميتين نشرتا عقيدة دينية ومذهبا سياسيا بين شعوب مختلفة أي اليونانية واللاتينية فقد كانت اللاتينية مستعملة من كيبانيا في ايطاليا الجنوبية إلى الجزائر البريطانية ومن نهر الرين إلى جبل الأطلس . واستعملت اليونانية من أقصى صقلية إلى شاطئ دجلة والفرات ومن البحر الأسود إلى تخوم الحبشة ، لكن ما أضيقه انتشارا إذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدت إلى أسبانيا وأفريقيا حتى خط الاستواء وجنوب آسيا وشمالها إلى ما وراء بلاد (التر) .

أما اللغة الفصحى فقد استولت على جميع أنحاء الشرق الإسلامي وإن لم تكن لها الغلبة كلغة كلامية على بعض اللغات في الشرق والشمال فقد أوجدت تبديلا محسوسا في الفارسية والهندية والهندستانية والتركية

ولغات أفريقيا ولهجات التتر ، كذلك في اللغات الحديثة المشتقة من اللاتينية أو القتبسات منها كلمات كثيرة أصلها عربي ، لقد عدت اليونانية واللاتينية في صف اللغات الميتة منذ سقوط مدينتيهما، فما الذي حفظ العربية حية بعد زوال مدينية العرب بقرون سبعة ؟ إن الذي كان باعثا على تكوين المدينة العربية وهو الذي مازال حافظها إلى اليوم هو القرآن ، لذلك ستظل اللغة العربية حية مادام الإسلام حيا ومادام في أنحاء المسكونة ثلثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون . انتهى ما أردته من الكتاب المذكور .

أقول . أليس من العجب أن الهواء الخارج من الرئتين الذي لم تكن وظيفته إلا إدخال الصالح للحياة وإخراج الضار لها قد نال وظيفة شريفة عالية غالية وهي الإفهام وحمل جميع العلوم وتنوع إلى نحو خمسة آلاف لغة وبعض اللغات قد تبلغ عشرات الألوف من الكلمات، ياسبحان الله قد تنوعت اللغات كما تنوعت المادة لأن اللغات دالة والمادة مدلول عليها فتنوع الدال وتنوع المدلول ولولا حركة هذه الكائنات لم يتنوع الدال ولم يتنوع المدلول .

فياليت شعري ألا يعلم المسلمون أن هذا هو اختلاف الألسنة والألوان ، أفليس من الهجول المحزن أن نرى أن الباحثين عن اختلاف اللغات هم الأوروبيون ، وأما اختلاف الألوان وتنوع العلوم فقد دون في كتب أسلافنا ولكن التأخرون من المسلمين جهلوا النوعين . اللهم إنك جعلت اختلاف اللغات واختلاف الألوان من آياتك وللمسلمون ملزمون أن تقوم طائفة منهم بدراسة اللغات وبدرس العلوم وتفرعها والصناعات المرتبة عليها ، وكيف يعرفون أنها دالة على جمال صنعك إلا بعد معرفتها ، اللهم إنك قد بينت على لسان رسولك ولكن للمسلمين لا يفكرون ، وهذا التفسير قد وضع فيه كثير مما تركه المسلمون من علم أو عمل والله هو الولي الحميد . انتهى يوم السبت ١٦ من شهر مايو سنة ١٩٢٧ م

﴿ المقصد الثالث في نظام المدارس المفهوم من هذه الآية ﴾

إذا تأملت فيما كتبناه ألفت أني قدمت السادة والكلام عليها على أقسام الحروف ولكن في الآية قدم الله الألسنة على الألوان . أما تقديمي لذلك فلأن المادة أصل والصوت فرع ، فأما في القرآن فاسمع ما ألقى عليك : اعلم أن الله عز وجل علم أننا معاشر النوع الإنساني لا قبل لنا بجميع الحقائق إلا بالتعلم والتدريج فأعطانا الحروف الهجائية الناجمة من المقاطع الصوتية لنحللها ونركبها أولا حتى ندرج أنفسنا على تحليلها وتركيبها ترا ونظما وكتابة وفهما وليس يمكن لأحد أن يعرف اللغة حق العلم إلا إذا حلل الكلمات إلى حروفها ورفع ونصب وركب الجمل وعرف نسبتها والموازنة بينها .

هذا هو الصراط المستقيم في تعليم جميع الأمم . يتدثون بالقراءة والكتابة ولا يشرعون فهم العلوم حتى يتموا اللغة، والعلوم التي عليها مدار الحياة ترجع إلى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية وهذه لا تعرف إلا بتحليل الأشياء وإرجاعها لأصلها ولذلك نجد الناس كما أرجعوا الكلمات إلى حروف ليعرفوا اللغة أرجعوا للركبات جميعها إلى عناصر تبلغ (٨٦) فهذا التحليل بدونه لا تعرف حقائق الأشياء والذي سهل ذلك على الناس أنهم حللوا الألفاظ أولا فتعودوا على تحليلها فان الأسهل وهو تحليل الألفاظ مقدم على الأصعب وهو تحليل المادة في العلوم الطبيعية وحركاتها في العلوم الرياضية وهكذا يتتدى الناس بالعلوم الأدبية وفيها النثر والنظم والروايات وهكذا الحرفات التي تمثل فيها الحقائق بصور خيالية وكل ذلك باللغة ثم يشرعون في العلوم الطبيعية فتسقل العقل صقلا .

هذا هو نظام المدارس وهذا هو الذي ظهر في هذه الآية فانه قال سبحانه وتعالى « واختلاف ألسنتكم وألوانكم » قدم الألسنة ليفيد تقديمها في التعليم المدرسي على التعليم الطبيعي النوه عنه بلفظ « ألوانكم »

وليكون التحليل اللفظي مقدما على التحليل السادي وهذا التحليل مرموز له في أول السورة بلفظ «الم» فكأنه يقول إن اللغة مركبة من حروف هجائية هي هذه (الم) وتحليلها تدرسونها ولقد قدم سورة العنكبوت إذ ذكر (الم) وجاء فيها «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» وفي هذه السورة ذكر بدء الخلق وإعادته مرتين فقال «الله يبدأ الخلق ثم يعيده» وقال «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده» وفي الآيات التي بين هاتين الجملتين ذكر اختلاف الألسنة والألوان وأنها آيات للعلاء، وليس يعرف بدء الخلق إلا بالتحليل المرموز له بالحروف المذكورة في أول (سورة العنكبوت) وأول (الروم) فأما الألسنة المدلول عليها باللغات فأمرها ظاهر، وأما المادة فلا تعلم إلا بذلك وهذه مما يشير إليها (الم).

ابتدأ الله السورتين بالتحليل ليطلب من الناس تحليل العلوم وتحليل اللغات في الألسنة والألوان (وبعبارة أخرى) جميع العلوم وهكذا إذا سار الناس في الأرض فلا سبيل لعلمهم كيف بدأ الله الخلق إلا بالتحليل المدلول عليه بذلك، وقد بينت لك تحليل المادة هناك كما أشار لك بلفظ (الم).

فأما السير الظاهري فإنه يستوى فيه الجاهل والعالم، فكأن الله يقول قبل أن تنطق بحرف من هذه السورة (اسمع التحليل وحلل) فحلل الجمل وحلل الكلمات لتعرف معانيها وتراكيبها وحلل معانيها فلا علم إلا بالوقوف على التفاصيل فذكر الألوان بعد الألسنة ترتيبا مدرسي، فأما الذين يقرءون اللغات وهم خلو من العلوم فأنهم يكونون قوما خياليين كأهل الأندلس نبغوا في الشعر واللغة وجهلوا العلوم فأخذتهم (أسبانيا) وأذاقهم سوء العذاب وهكذا أمة الإسلام اليوم لا علم عندها إلا قليلا وهم خياليون «إلا من رحم ربك» فعلمهم أن يدرسوا العلوم الرياضية والطبيعية، ولعلك تقول هل الترتيب هنا يفيد ما ذكرت؟ إن هذا أمر بعيد، أقول على رسلك. أين أنت من ذكر خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة. ألم يقل للأتباع (نحن المهاجرون وأول الناس إسلاما وأحسنهم وجوها وأكثرهم ولادة في العرب وأمسهم رحما رسول الله صلى الله عليه وسلم. أسلنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فقال تعالى «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار») واستنتج من ذلك قوله (فنحن الأمراء وأتم الوزراء. إن هذا الأمر لا يصلح إلا لهذا الحى من مضر فإن نعلق ناعق منكم وقع بين فسكى الأسد يجرحه للمهاجر ويعارضه الأنصاري).

فانظر كيف استنتج من تقديم المهاجرين على الأنصار أن الخلافة فيهم دون الأنصار. فانظر هذا الأمر الجليل العظيم كيف حرمت منه أمم وأمم من الأنصار في أجيال متعاقبة وحظي بها أبناء قريش. لماذا؟ لتقديم وتأخير، فلنقل هنا كذلك وإن العلاء هم الذين يدرسون الألسنة والألوان (وبعبارة أخرى) إن العالم الإسلامي هو من يدرس اللغة تمام الدراسة بعلمها المشهورة ويدرس العلوم الطبيعية بسائر ملحقاتها على ما تقتضيه سنة الدراسة في الأجيال المتعاقبة لأن الحكمة هي معرفة الأشياء بقدر الطاقة البشرية، فإذا استنتج الصديق من كلين خلافة أعظم أمة في العالم فلنستنتج من نظريتهما دراسة أعظم أمة في المستقبل إن شاء الله تعالى، وهي الأمة التي يظهر دينها على الدين كله وهي «خير أمة أخرجت للناس» وعلاؤها هم الذين يدرسون اللغات وسائر العلوم الطبيعية والفلكية.

فإذا قال الله «ومن آياته خلق السموات والأرض» الخ فذلك ابتداء بذكر مأمته الأضواء ثم ما منه العناصر وبإشراق الضوء على عناصر الأرض تظهر المواليد الثلاثة ودراستها بتحليلها إلى عناصرها كالكلمات، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية المناسبة للخامسة.

﴿ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » ﴾

اعلم أن الإنسان له [حالان] حال يقظة وحال نوم ففي حال النوم يرى مزارع وطرفا ومدارس ومساجد وأناسا ويأكل ويشرب ويحارب فإذا استيقظ لم يجد شيئا من ذلك ، فالنوم بالليل ربنا العوالم التي لاحقيقة لها بالنهار فمتى استيقظ الانسان أدرك الأ كاذب الليلية ولا تظن إنى فى مقام الرؤيا الكاذبة أو الصادقة كلا بل كل ما تخيلناه فى المنام فإننا نعدده حقيقة ونحن فى تلك الحال ولا يخطر بأفئسنا إذ ذاك غير ذلك ولنا فى المنام تعقل وجهل كما لنا فى اليقظة كذلك . ألا ترى أننا كثيرا ما ترى أننا نكلم أصحابنا فى مسائل علمية عقلية عويصة ألم ترى أن (ابن سينا) كان يحل أغلب العضلات العلمية فى حال النوم ، فنحن فى اليقظة نفكر وفى النوم نفكر وفيهما أيضا نأتى بالحيال الكاذب ونسكذب فى الحالين ، فحال النوم هى حالنا وحال اليقظة حالنا ونحن نحن فى الحالين ، ثم إن حال النوم تنسخ حال اليقظة كما نسخ النهار الليل فأزال ظلامه ، إن ذلك من آيات الله لأن نفوسنا فى المنام اخترعت أرضا وسما ، وعوالم وكل من الناس يخترع هذا الاختراع وهذا أمر عجيب جدا ، نحن فى المنام لانكذب العالم الذى نككون فيه ، نحن نخترع عالما ونعيش فيه ، نسر ونفرح ونحزن فإذا استيقظنا لم نجد . عجبا أفليس هذا مما يذكرنا أن حياتنا بالنهار ربما كانت على هذا النوال وأن حواسنا اخترعت هذه العوالم فإذا متنا وجدنا هذه العوالم لا أصل لها وأن ما نسميه أرضا وسما وثمنا وقمرنا ونباتنا وحيوانا ونهرا وجبلا ما أكسبها هذه الصفات إلا حواسنا فاستبعدتنا فإذا متنا كانت لنا حواس أخرى فأدرت هذه العوالم بحال أصدق من هذه . أو ليس هذا هو الذى ظهر فى العلم الحديث فى (نظرية اينشتاين) التى قدما ذكرها فى هذا التفسير ، فهذا العالم قد نشر نظريته فى أوروبا وقال كما قال غيره قديما وحديثا إن هذا العالم لا شئ فيه مما نراه وأن هذه الدنيا ما هى إلا حركات فى الأثير باختلاف الحركات كما وكيفما ظهر لحواسنا ما نحن ، فيه وإلا فالضوء والحرارة والثقل والحفة والصلابة وأمثالها هى خواص كسبتها المادة بالنسبة لحواسنا لا لها فى نفسها . أو ليس هذا يفهمنا ما روى (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) .

إن الله يقول هنا « ومن آياته منامكم بالليل والنهار » فإذا أخذ على ظاهر اللفظ عد معجزة لأن هذه هى النظرية الحديثة فإننا بالليل نيام وبالنهار فى يقظتنا نيام لأن حواسنا اخترعت نهارا كما اخترعت محيلتنا ليلا وهذا يعرفنا قوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ولماذا لانعد هذا معجزة مع أن ظاهر اللفظ يقتضيه ولو على سبيل الرمز الذى هو من أقسام السكناية فنحن ننام بالليل وننام بالنهار مع ملاحظة السكناية فى معنى النوم مادام العلم قد كشفه فهذه معجزة . ومن تأمل قوله تعالى « السنك وألوانكم » والعالمين جمع عالم (بكسر اللام) رأى أن هذه فيها (الم) على الترتيب مفرقة فى الأولين مجموعة فى الأخير وهكذا (سورة العنكبوت) جاء فيها « أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق » فيها (الم) وكأنه لما قيل فى أول السورتين (الم) يوقظنا الله لبحث العالم بهذه الإشارة لنكون علماء ونحلل العوالم لنكون حكماء . وهذا من أسرار القرآن التى ظهرت فى آخر الزمان وأعدت الوجهة والمعنى والرمز فى السورتين معا والله أعلم . وههنا ثلاث عجائب :

(العجبة الأولى)

ماجاء فى بعض الصحف المصرية تحت العنوان الآتى وهذا نصه :

(الانتقال الفكرى - التلياتيا - النظر المضاعف)

(١) جاء فى كتاب (أشباح الأحياء) ما يأتى :

كتب لنا المحترم (نومان) من خدمة البروتستانت فى (ديفنبورت) قال « فى شهر إدار سنة ١٨٥٤ كنت

مقياً (بأ كسفورد) فاعتراى ذات ليلة ألم شديد فى رأسى اضطجعت على أثره فى فراشى دون خلع ثيابى وكانت الساعة التاسعة ليلاً فبعد أن غفوت حملت بنفسى جالساً فى بيت من زوجت بها فيما بعد ولما انتهينا من الحديث ذهب كل إلى الرقاد فودعهم وحملت بيدي الشمعة وانصرفت . ولما بلغت الدهليز لحت خطيى صاعدة السلم وحدها وقد بلغت أعلاه فهرعت إليها بلح البصر وطوقت خصرها بذراعى وعندنا استيقظت وجرس الساعة يدق العاشرة فتأثرت لهذا الحلم إذا كان غاية فى الوضوح وكتبت لخطيى أعلمها به وقبل وصول رسالى إليها جاءنى كتاب منها تقول لى فيه « هل كنت الليلة البارحة مفتسكراً فى بحدة نحو الساعة العاشرة فانى عند صعودى السلم للرقاد سمعت همس خطواتك ورأى راحست بذراعىك طوقاً خصرى » وقد ذكرتها اليوم الحادث فلم تنسه بعد السنين الطوال اه

(٢) وجاء فيه أيضاً مانصه . ررى لنا (المستر موتون) سكرتير شركة البسيكولوجية ماياتى :

توليت إدارة المدرسة الكبيرة سنة ١٨٧٢م وهناك صادفت لأول مرة الأنسة التى صارت فيما بعد امرأتى وعند ما برحت منصبها أُرصيتها لأسباب صوابية بعد مفانحتها إحدى رفيقاتها فى المدرسة بأمر زواجنا وأن تتجنب مكاتبهن لهذه الغاية ، وبعد مضى ستة أشهر على زواجنا كنت إحدى الليالى على عادتى قاعدافى فراشى أقرأ وإذا بامرأتى هبت من رقادها قائلة حملت أنى ذهبت إلى المدرسة ودخلت غرفة أعرفها فى الطابق الأسفل فرأيت فيها أربع نسوة اثنتان من رفيقاتى والاثنتان الأخرى لا أعرفهما ولكن يتحدثن ويضحكن وقد هممن بالذهاب للرقاد فتبعتهن ورأيت صديقتى (بيسى) قد دخلت غرفة النوم مع اثنتين من رفيقاتها ثم خامت ثيابها واضطجعت فدنوت منها وأخذت بيدها قائلة « دوى على صداقتنا يا بيسى » ثم استيقظت وأنا متأكدة أنى كنت حقيقة فى مخادع المدرسة ، فقلت لها هذا علم بسيط وربما كان أوضح من غيره وبعدها ذهبت امرأتى لزيارة والديها فأطلعتها هذه على رسالة جاءها من إحدى صديقاتها فى المدرسة تلمس أن تجررها هل الأنسة ابنتها (وهى امرأتى) حية بعدأم ميتة ؟ فظفر لى أن أذهب بنفسى عند صاحبة التحرير استوضحها عن داعى هذا التحرير ؛ فقلت لى إن الليلة الفلانية كانت راقدة فى غرفة واحدة مع صديقتها (بيسى) وأن هذه صرخت فجأة من الذعر فهرعت إليها لتسألها عن السبب فقالت رأيت الآن أمامى الأنسة (ك) وهى امرأتى قد أخذت بيدي رقلت « دوى على صداقتنا يا بيسى » وغابت ، وفى ثانى يوم سرى الخبر بين الرقيقات ، فقال بعضهن هذا علم بسيط حملت به (بيسى) فى نومها وقالت أخرى . كلا . هذه رؤيا فى اليقظة تدل على موت صديقتنا وهذا ما حملهن على إرسال الكتاب لتحقيق الأمر ، ثم إستنطقها عن وجود الرقيقتين اللتين كانتا مع (بيسى) وامرأتى لا تعرفهما وعن موقع سريرهما فى غرفة النوم فكان ذلك كله مطابقاً لما رأته امرأتى فى الحلم اه

(٣) ذكر العلامة الروسى (أكسكوف) من مستشارى حكومة القيصر سابقاً الحادث الآتى فى كتاب له

فى هذا الموضوع ذائع الشهرة . قال مانصه :

(كانت أسرة (ك) مقيمة فى مصيف لها فى (بافلوسك) فى ضواحي (بطر سبورج) وهى مؤلفة من الرجل وامرأته وابنة صبية تدعى (فيرا) وغلالم فى ريعان الشباب برتبة ضابط بحرى وكان للأخوين تعلق شديد ببعضهما منذ نعومة أظفارها ، فاتفق للشاب وهو فى الصيف مع أبويه وأخته أن صدر الأمر إليه بالسفر شهراً فى عرض البحار فراقه آله إلى المرقأ وهناك تعاهد الأخوان على مداومة الذكرى مدة الفراق ومررت الأسابيع والرسائل تتوارد من الشاب تعرب عن سلامته وحنينه إلى اللقاء إلى أن تغير الجو يوماً وعصفت الرياح وهطل المطر كأفواه القرب فقلقت (فيرا) وثارت أعصابها وأخذت تتسائل كل لحظة عما حل بأخيها حتى انحرفت

عند المساء صحبها وأزوت في غرفتها لتستريح . ولما كانت الساعة العاشرة سمع صوت مروع من غرفة الفتاة فأسرعوا إليها فأروها تتخبط وتصيح متشنجة وقد أصابها نوبة عصبية ولم يتمكنوا من تسكينها إلا بعد الجهد الجهد . ولما أفقت أخبرتهم قائلة « رأيت نفسي وأنا يقظ في وسط ضباب كثيف والعاصفة تعصف حولي بما يصم الآذان وإذا بوميض برق أراني البحر يعج بأواجه الزبدة ثم تلا ذلك لمعان نور أحمر رأيت على ضيائه أضي يتخبط في وسط الأمواج ثم عادت الظلمة وعقبها بعد هنيهة وميض برق آخر رأيت في خلاله أضي ممددا على صخرة وقد تضرع رأسه بالدم . باللهول » وفي ثالث يوم نقلت الجرائد خبر غرق الباخرة التي كان عليها الضابط الشاب بالقرب من (كرونستاد) فأسرع السيو (ك) إلى هذا المرفأ فوجد ابنه حيا يتألم من جرح في رأسه فأخبره أنه كان في إبان اشتداد العاصفة على ظهر الباخرة بهجس بيته وآله وقد وجه فكره خاصة إلى شقيقته يسألها أن تصلى لأجله وإذا بالباخرة ارتطمت بصخرة فارتجحت رجة هائلة سقطت على أثرها في البحر وأخذ يعارك الأمواج لعله يتوصل إلى العودة للمركب ، وبعد هنيهة رأى وميض نور أحمر يصحبه صوت طلق مدفع من الباخرة فلم أن لاسبيل له إليها فسلم أمره إلى الله وأيقن بالهلاك ، وإذا بضباة لاحته من بعد وقد تجلى من خلالها شيخ أخته (فيرا) تتبسم له وتعد إليه ذراعها فأخذ يعوم نحو الشبح ولا يعلم كم دام ذلك إلى أن شعر بلطمة في رأسه وغاب عن الحس ، وفي ثاني يوم رآه بعض الصيادين متمددا على الشط مغمى عليه وفي رأسه جرح بليغ « اه .

(٤) هذا الخبر نشرته (مجلة الأخبار النفسية) في أحد أعداد سنة ١٨٩١ تقلا عن كتاب أنها من السيو (ويلموت) أحد أصحاب العامل في مدينة (بريد جيورت) قال ماملخصه :

(أبحرت على الباخرة (سبتي أوف ليمريك) إلى مدينة (نيويورك) في (٣) تشرين الأول سنة ١٨٦٣ وفي مساء ثاني يوم ثارت عاصفة هائلة دامت تسعة أيام لم ترفي خلالها شمسا ولا نجما ولا مركبا وفي الليلة الثامنة هدا البحر قليلا فتمكنت من الرقاد لأول مرة من ركوبى الباخرة حطمت عند بزوغ الفجر بأمرأتى التي كنت غادرتها في (نيويورك) واقفة بباب غرفتي بقميص النوم وقد لحظت وجود شخص أجنبي معى في العرفة فترددت هنيهة ثم انسلت نحوى وقلبتى وبعد أن كلتني لحظة عادت بهدوء من حيث أتت ، ثم استيقظت حالا فوجدت رفيقى محمدا يصيره إلى وهو يقول ما أسعدك تزورك سيدة وتقبلك وأنت نائم ، فاستغربت قوله واستنطقته بإلحاح فأخبرنى أنه كان على أمه اليقظة وقد رأى عيانا مارأيته أنا في الحلم بكل عوارضه واسم هذا الرفيق (ويليام تيت) وهو رجل رصين صادق الشهادة ومن أهل التقى لا يحب الهزل . ولما بلغنا نيويورك بالسلامة اجتمعت بأمرأتى فكان أول سؤالها لى : هل تذكر زيارتى لك يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضى قلت زيارتك لى ؟ كيف يكون ذلك وأنا بعيد عنك مسافة ألف ميل وأكثر في عرض البحر : قالت لا أجهل ذلك إنما يلوح لى أنى رأيتك في الباخرة ، قلت هذا مستحيل ومع ذلك أخبرينى عما حملك على هذا الظن قالت استحوذ على قلقي شديد وقت هبوب العواصف وكنت أفكر دائما فيك وفي الخطر المهدق بك إلى أن كانت ليلة الثلاثاء وقد سكنت العاصفة قليلا فلاح لى الساعة الرابعة أنى سرت إلى لقائك وقد جزت البحر الهائج حتى بلغت مركبا وطيبا أسود تتجاذبه المياه فصعدت ظهره وتفقدت العرف إلى أن بلغت حجرتك وكان فى معيتك شخص آخر متكئا على التخت الثانى الذى فوق تختك أخذ ينظر إلى بتحديق فترددت برهة فى بادى الأمر ثم دنوت منك وضممتك إلى صدرى وانصرفت . ثم استرسلت امرأتى فى وصف الباخرة وما عليها فكان ذلك مطابقا للحقيقة مع أنها لم تقع عينها عليها بتانا اه .

(٥) جاء فى كتاب (فلاماريون) مانصه :

كتب إلى من (غاليسيا) المحامي الشهير الدكتور (رونيلا مابكي) يقول (قرأت من بضع سنين في مجلة انجليزية عن صديق لجون فرنسكلان (وهو أشهر رجالة حاول اكتشاف القطب الشمالي وهلك في رحلته) يدعى (والترسنو) أنه رأى ليلة في حلمه الصقع المجهول الذي هلك فيه الرحالة الشهير (فرنسكلان) ولما استيقظ صور البقعة التي رآها في حلمه بكل عوارضها مع القوارب وقطع الجليد والجثث المتجمدة وما جاورها ثم نشر هذه الصورة في جريدة أمريكية من باب العرائب ، ولما اكتشفت بعد سنين آثار فرنسكلان ورفاقه في الأستقاع المتجمدة ورسم للصورون مكان الفاجعة جاءت رسومهم مطابقة بالتام لما كان قد صوره والترسنو .
اتمنى والله أعلم .

(العجيب الثانية)

جاء في إحدى جرائدنا المصرية في شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ مانصه :
اكتشاف جريمة غريبة بعد عشر سنين

روى مكاتب (الدبلي كرونسكل) في برلين أن مزارعا ألمانيا يدعى (فردريك ديكرت) اختفى فجأة منذ عشر سنوات وكان جيرانه يعلمون أنه كان دائما في نزاع مع زوجته وأولاده وهم ثلاثة فقبض عليهم بتهمة قتل أبيهم ولكن أطلق سراحهم لما لم يجد رجال البوليس بعد البحث والتحري دليلا يثبت إدانتهم وكان في القرية تجار قضى السنوات العشر في البحث عن جثة المزارع دون جدوى إلى أن صرح أخيرا بأنه رأى (فردريك) في المنام فأخبره أن جثته مدفونة في مكان معين في مزرعته . ويقول التجار إن هذه الرؤيا تكررت ثلاث ليال متوالية فلم يسع الرجل إزاء ذلك إلا أن ينهض من فراشه وسط الليل الهيم وأخذ يحفر في النقطة التي أرشده إليها حتى عثر على هيكل عظمي على عمق أربع أقدام ، ثم واصل رجال البوليس بحفهم بعد ذلك فوجدوا ساعة فضية عتيقة مطمورة بجانب الجثة شهد ساعتي القرية أنه أصلحها مرة لفردريك ديكرت فألقى القبض مرة أخرى على الزوجة والأولاد الثلاثة فاغترف أحدهم بأنه قتل والده دفاعا عن أمه وهي في خطر عظيم من جراء اعتداء أبيه وبعد أن قتله دفنه في هذا المكان مع أمه اه .

(العجيب الثالثة)

جاء في مجلة (كل شيء) مانصه :

تشتية الحيوان وهل هي ممكنة للإنسان ؟

(حيوان يبق (٣١) سنة بلا طعام أو هواء ويظل حيا)

في هذا العام منذ بضعة أشهر كان العمال في (تكساس) بأمريكا يكسرون حجرا فوجدوا في قلبه ضبا صغيرا حسبوه ميتا ولكنه تحرك وسمى وكان هذا الحجر في بناء مضى على بنائه (٣١) سنة وقد بعثوا به إلى حديقة الحيوانات في (فيلادلفيا) وهو لا يزال حيا الآن . والمشهور عند الأورويين أن الضفادع والملاجيم تبقى حية عدة سنوات وهي محبوسة وأن بعض الأحجار إذا كبرت خرجت منها هذه الأحياء وهي ضامرة الجسم مهزولة اللحم ولكنها حية ، وهذه القصة عن الضب الأميركي لا تزال مثارا للشك بعضهم يصدقها وبعضهم يستبعد بقاء حيوان بلا طعام أو هواء (٣١) سنة . ولكن التشتية حقيقة لا يشك فيها أحد فهناك حيوانات كثيرة إذا أحست البرد عند هجوم الشتاء وقل الغذاء واكتست الأرض بالثلج انكفأت إلى جحورها وبقيت طول الشتاء أي نحو خمسة أشهر أو ستة أو سبعة وهي رابضة لا تتحرك ولا تأكل وكلنا يعرف أن الثعابين لانسى في الشتاء بل تتحوى في جحورها وتبقى كذلك إلى أن نحس الدفء فتخرج . ومشهور عن الدب

في القطب الشمالي أنه يفعل ذلك وكذلك السنجاب والوطواط والغراب ولكن التشقية ليست عامة بين اللبونات أي تلك التي ترضع أولادها ولكنها تكاد تكون عامة بين الزواحف والحشرات ، وقد حُصت بعض الحيوانات مدة تشقيتها فوجد أن السنجاب الذي يتنفس عادة مدة الصيف نحو (٢٠٠) مرة في الدقيقة في وقت التشقيه لا يتنفس سوى ثلاث مرات أو أربع في الدقيقة بل أحيانا لا يتنفس سوى مرة واحدة كل دقيقتين ، ومعنى هذا أن الجسم لا يحترق منه إلا جزء قليل جدا بحيث أن مائة يوم من أيام التشقية لا تساوي سوى يومين أو ثلاثة من مدة الصيف حين ينشط الحيوان ويسعى . وفي هذه المدة أي مدة التشقية يأكل الحيوان نفسه فإذا كان آخر الشتاء نزل وزنه إلى النصف ، وكما يحدث هذا البطء في التنفس تنزل حرارة الحيوان إلى نحو (١٠) أو (١٢) فوق الصفر ، وتزول الحرارة يحمل الحيوان مستغنيا عن الغذاء إلا أقله ، والمعروف أننا جميعا ننام في الشتاء أكثر مما ننام في الصيف وأتانا نزع أنفسنا من الفراش في الصباح نزعاً لأننا نستقيم إلى الدفء ونكره السعي في البرد ولكننا في الصيف نبادر بالاستيقاظ ونستطيع كذلك السهر ، ويقال إن الإنسان الذي يعيش قريبا من القطب الشمالي يكتر من النوم في الشتاء بما يشبه هذه الحيوانات التي ألفت التشقية فالإسكيمويون والبوريات وهم المغول الروس يقضون معظم الشتاء في بيوتهم نائمين لا يستيقظون إلا ريثما يتناولون مزعة من شحم الفقمة أو لحم السمك ثم يعودون إلى نومهم ، فالتشقية تكون طبيعية في الإنسان والحيوان وهي وقوف أو بطء في الوظائف الفسيولوجية للجسم بل يمكننا من هذه الوجهة أن نقول إن النبات نفسه يعرف التشقية فإنه يتجرد من أوراقه التي هي سبيل غذائه من الهواء ، وإذا كانت (٣١) سنة كثيرة على الضب فإنه مما لا يمكن الشك فيه أن الحيوان يمكنه أن يعيش بضع سنوات إذا أحبط بالبرد الشديد وهو نائم نوم التشقية بدون أن يهلك (أنظر شكل ١٨) .



(شكل ١٨ - ضب أميركي يقال إنه قضى (٣١) سنة وهو حي لا يأكل ولا يشرب)

والأسماك التي تعيش حول القطب الشمالي يدركها الثلج أحيانا فتجمد فيه فإذا ذاب عادت إليها الحياة . وفي النيل سمكة مشهورة تدعى (سمكة الطين) إذا انحسر الماء عنها اندست في الطين فيجف عليها وتبقى كذلك جامدة كأن لا حياة بها فإذا جاء الفيضان استيقظت وسبحت .

انظر شكل ١٩ في الصفحة التالية .



(شكل ١٩ - سمكة متجمدة في الثلج إذا
ذاب عنها عادت إليها الحياة)

لقد علمت أيها الذكي كيف يكون نوم الإنسان نوما طبيعيا أو صناعيا مما يجعله هائما في عوالم أخرى تعطيه أخبارا ورؤيا صادقة وأخرى كاذبة، ثم كيف ينام السمك في الثلج أياما وأياما وأنت إذا قرأت ماجاء في (إخوان الصفاء) في هذا المقام وما قصه (اليعسوب) وهو رئيس النحل وملسكه (وهو يخطب في حضرة ملك الجن في تلك الرواية الخيالية البديعة التي جمعت أوصاف جميع الحيوان وأبانت أصنافه وأشكاله وأخلاقه وعواطفه وتربيته لأولاده وتعنته ورأفته وذكاه وتصريفه لأمر الحياة) لا عتراك الدهش ولرايت العجب من (يعسوب النحل) الذي ناب عن الحشرات في تلك الحضرة وأخذ يبين أن النحل ينام أيام الشتاء وأن النمل تجمع القوت ولكن لم يقل إنها تنام كالنحل، وأن أن الجراد في زمن الشتاء يموت. وأن دود القز ينام أياما ثم يستيقظ والزناير (الجر والصفور والسود) تنام أيام الشتاء كالنحل ولكنها لا تجمع لأنفسها قوتها مثلها كما تقدم في السمك النائم في الثلج ثم تستيقظ في فصل الربيع، وأما البراغيث والبق والديدان فإنها عند تغير الزمان لاتنام بل تموت كما تقدم في الجراد، في هذا كله يفسر قوله تعالى هنا «ومن آياته منامكم بالليل والنهار» وذلك لأن النوم يقدر بقدر الحاجة فيكون للإنسان ساعات ولشرنفة النحل ودود القز ودود سائر الحشرات أياما معدودات كما تقدم في (سورة طه) وغيرها إذ رأيت أيها الذكي هناك أن جميع الحشرات تنام وهي شرنة أياما وتنسج على أنفسها كرة تناسبها لافرق في ذلك بين دود القز والذباب وغيرها من ميات الألوف منها ثم تستيقظ كما يستيقظ دود القز وهذا مشروح شرحا تاما بالصور والأشكال. وعند الاستيقاظ تصبح طائرا يطير في الجو، ويكون ذلك النوم لنفس النحل ولنفس الزناير بأنواعها شهور فصل الشتاء وهذا الأخير هو الذي أوضحه كتاب (إخوان الصفاء).

هنالك حضر صاحبي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير ولما اطلع على هذا قال: هذا القول حسن في تفسير الآية، ولكن لو ذكرت لنا نص ما قاله (إخوان الصفاء) في هذا المقام لكان أتم للفائدة. فقلت: قال ثم تكلم النحل وقام خطيبا مذكرا مسبحا، وقال الحمد لله الواحد فاطر السموات وخالق المخلوقات ومدبر الأوقات ومنزّل القطرات والبركات ومنبت العشب في الفسوات ومخرج الزهر في النبات وقاسم الأرزاق والأفوات نسبحه في صباحنا بالقدوات ونحمده في رواحنا بالعشبات بما علمنا من الصلوات والتحيات كما قال الله تعالى «وإن من شيء إلا يسبح بحمده وإنك لا تعلمون تسبيحهم».

أما بعد أيها الملك العادل . يزعم هذا الإنسى بأن لهم علوما ومعارف وفكرا وروية وتدييرا وسياسة تدل على أنهم أرباب لنا ونحن عبيدهم فلو أنهم فكروا في أوامرنا واعتبروا أيضا أحوالنا لبان لهم من أمرنا وعرفوا من تصاريف أحوالنا وتعاوننا في إصلاح شأننا أن لنا أيضا علما وفهما ومعرفة وتميزا وفكرا وروية وسياسة وتدييرا أدق والأطف وأحكم وأقن مما لهم . فمن ذلك اجتماع جماعة النحل في قراها وتعليقها عليها رئيسا واحدا واتخاذ ذلك الرئيس أعوانا وجنودا ورعية وكيفية مراعاتها وسياساتها وكيفية اتخاذها للنازل والبيوتات للسدسات التجاورات المسكنات من غير بركار ومعرفة هندسية كأنها أنابيب مجوفة مسددة ثم كيفية ترتيبها البوابين والحجاب والحراس والمحتسبين وكيف تذهب في الرعي أيام الربيع والبالى القمر في الصيف وكيف تجمع الشمع بأرجلها من ورق الأشجار والعسل بمشاقيرها من زهر النبات ثم كيف تخزنها في بعض البيوت وكيف تشد رأسها كأنها رءوس البراني مشدودة بالقراطيس وكيف تبيض في بعض البيوت ونحس وتفرخ وكيف تأوى في بعض البيوت وتنام فيها أيام الشتاء والصيف والبرد والرياح والأمطار وكيف يتقوتون من ذلك العسل الخزون هي وأولادها يوما بيوم لا إسرافا ولا تقتيرا إلى أن تنقضى أيام الشتاء ونجى أيام الربيع وينبت العشب ويطيب الزمان ويخرج الثبت والزهر والنور وكيف ترعى كما كانت عام الأول وذلك دأبها من غير تعليم من الأستاذين ولا تأديب من المعلمين ولا تلقين من الآباء والأمهات بل تعلمها من الله تعالى ووحيا وإلهاما وانعاما وتكروما وتفضلا علينا ، وأنتم يامعشر الإنسى تدعون علينا بالزفة وأنتم مواليينا فلم ترغبون في فضالتنا وتفرحون عند وجدانها وتستشفون عند تناولها فمن كان ملكا كيف يحرص ويرغب في فضالة الخدم والحول ونحن مستغنون عنكم ؟ فليس لكم سبيل إلى هذه الدعوات إذ الدعوى زور وهتان . وأيضا أيها الملك لو علم الإنسى من حال النمل فإيها كيف تتخذ القرية تحت الأرض منازل وبيوتا وأزقة ودهاليز وغرفا وطبقات منعطبات وكيف تملأ بعضها حبوبا وذخائر وقوتها ل الشتاء وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضة مصنونا كيلا تجرى إليها المياه وبعضها مرتفعا وتخزن الحب والقوت في بيوت منعطبات إلى فوق حذرا عليها من المطر وإذا ابتل منها شيء كيف تنشره أيام الصحو وكيف تقطع حب الحنطة نصفين وكيف تنشر الشعير والباقلا والعدس لعلها بأنه لا يبت مع التقشير ؛ وتراها كيف تعمل أيام الصيف ليلا ونهارا باتخاذ البيوت وجمع الذخائر وكيف تنصرف في الطلب يوما بيوم وبوما يسرة في القرية كأنها قوافل ذاهبين وجائين وأنها إذا ذهبت واحدة منها فوجدت شيئا لا تندر على حملة أخذت منه قدرا ما وذهبت راجعة مخبرة للباقيين وكلا استقبالها واحدة شامتها مما فيها لتدله على ذلك الشيء ثم ترى السكيفية كل واحدة منها على ذلك الطريق الذي جاءته من هناك ثم كيف تجمع على ذلك الشيء جماعة منها وكيف يحملونه ومخترزونه بجهد وعناء في العاونة وإذا علمت أن واحدة منها توانت في العمل أو تسكسلت في التعاون اجتمعت على قتلها ورمت بها عبرة لغيرها . فلو تفكر الإنسى في أمرها واعتبر أحوالها لعل أن لها علما وفهما وتميزا ومعرفة ودراية وتدييرا وسياسة مثل ما لهم ولما اقتنخ علينا بما ذكر .

وأیضا أيها الملك لو تفكر الإنسى في أمر (الجراد) إنها إذا سمحت أيام الربيع من الرعي كيف تطلب أرضا طيبة التربة رخوة الحفرة وكيف نزلت هناك وحفرت بأرجلها محاليها وأدخلت أذنانها في تلك الحفرة وطرحت بيضا فيها ودفته وطاررت وعاشت أياما وأكلتها الطيور وماتت من بقي وهلك من حر أو برد وفنت ثم إذا دار عليها الحول وجاءت أيام الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء فكيف ينشر من ذلك البيض المدفون مثل الدييب الصغار على وجه الأرض وأكلت من ورق الشجر وسمت وباضت مثل عام أول وهذا دأبها وذلك تقدير العزيز العليم ، فليعلم هذا الإنسى أن لنا علما ومعرفة وهكذا أيضا أيها الملك دود القز التي تكون على

رؤس الأشجار والجبال فأنها إذا شبت من الرعى في أيام الربيع وسمنت أخذت تنسج على نفسها من لعابها في رؤس الجبال شبه العنق والسكن ثم تنام أياما معلومة فإذا انتهت طرحت بيضها في داخل ذلك السكن الذي نسجته على أنفها ثم تقبها وخرجت منها وسدت تلك الثقب وخرجت لها أجنحة وطارت فبأكلها الطير أوماتت من الحر والبرد والريح والطر وبقى ذلك البيض في تلك الجوزات محروزة أيام الصيف والحريف والشتاء من الحر والبرد والرياح والأمطار إلى أن يحول الحول وتجيء أيام الربيع ويحضن ذلك البيض في الجوزات ويخرج من ذلك الثقب مثل الدبيب الصغار وتدب على ورق الشجر أياما معلومة فإذا شبت وسمنت نسجت على نفسها من لعابها مثل العام الأول وذلك دأبها أبدا (وذلك تقدير العزيز العليم، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) إلى أمور مصالحها ومنافعها، وكذلك أيضا أيها الملك حال الزناير الصفر والحمر والسود فأنها تبنى أيضا منازل في السقوف والحيطان ومن بين أعصاب الأشجار مثل ما يفعل النحل وتحضن وتبيض وتنسج وتسبح وتسبحها لتجمع القوت للشتاء ولا تدخر للغد شيئا ولكن تنقوت يوما بيوم ما طاب لها الوقت، فإذا أحست بتغير الزمان وجمى الشتاء ذهبت إلى الأغوار والمواقع السكنينة الدفئة ومنها ما يدخل في ثقب الحيطان والمواقع السكنينة الحصينة وتنام فيها أياما طول الشتاء، وإذا جاء الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء نفع الله تعالى فيها سلم من تلك الجث روح الحياة فعاثت وبنيت البيوت وباضت وحضنت أولادها مثل عام الأول فهذا دأبها (ذلك تقدير العزيز العليم) وكل هذه الأنواع من الحشرات والموام تبيض وتحضن وتربي أولادها بعلم ومعرفة ودراية وشفقة ورحمة ورأفة وتحسن ولطف ورفق ولا تطالب من أولادها البر والمكافأة والجزاء، فأما أكثر الإنس فيريدون من أولادهم براصلة وجزاء ومكافأة ويمنون عليها في تربيتهم إياهم وأبن هذا من البرومة والفضل والكرم والجود والسخاء الذي هو من شيم الأحرار الكرام من أرباب الفضل، وبماذا يفتخر الإنس علينا إذ الله ما كولاتهم فضالتنا وأحسن ملبوساتهم فضالة دود القز، فهم في ما كولاتهم وملبوساتهم تحت متناولنا أيدي النعمة عليهم فكيف يدعون أنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم، ثم قال النحل أما البراغيث والبق ولديدان وما شاكلها من أبناء جنسها فأنها لا تحضن ولا تلد ولا ترضع ولا تربي أولادها ولا تبنى البيوت ولا تدخر العشب ولا تتخذ السكن بل تقطع أيام حياتها مرفهة ومستريحة بما يقاسى غيرها من برد الشتاء والرياح والأمطار وحوادث الزمان، وإذا تغير عليها الزمان واضطرب السكبان وتغلبت طبائع الأركان أسلت نفسها للنوائب والحدثان وانقادت للحمات لعلها يقينا بالمعاد وتعلم أن الله تعالى منشئها ومعيدها في العام القابل للسكون كما أنشأها أول مرة ولا تقول ولا تنكرك كما أنكرت الإنس وقالت (أنا لم دودون في الحافرة، أنذا كنا عظاما نحرة، قالوا تلك إذن كرة خاسرة) فلواعتر هذا الإنس أيها الملك فيما ذكرت من هذه الأشياء من تصريف أمور هذه الحشرات والموام لعلم وتبين له بأن لها علما وفهما ومعرفة وتمييزا ودراية وفكرا وروية وسياسة وتديرا. كل ذلك عناية من البارئ تعالى، ولما افتخر علينا فيما ذكر أنهم أرباب ونحن عبيد لهم (أقول قولي هذا وأستغفر الله إنه هو الغفور الرحيم

فلما فرغ النحل من كلامه قال له الملك بارك الله فيك من حكيم ما أعلمك ومن خطيب ما أفصحك ومن مين ما أبلغك. انتهى

هذا ما أردت نقله من كتاب (إخوان الصفاء) للدلالة على نوم بعض الحيوان في الشتاء شهورا كما نام بعض دودة أسابيع كما نام الإنسان ساعات، فهل لك أن ترى أوجب مما تقدم، لقد علمت فيما مضى في هذا التفسير في مواضع مختلفة أن النبات له حياة وله إحساس وهو أيضا ينام وذلك ظاهر في زهره للشروح شرحا وافيا فيما تقدم، إنما الذي يجر له العملاء سجدا أن يقال أن الحبوب كالقمح والشعير والذرة وهكذا مما لا عد

له تنفس كما يتنفس النبات وكما يتنفس الحيوان وإذا كانت الحبوب تنفس فعندها نوع من الحياة إذن هي حية ولسكنها نائمة ، إذن هي كالجنين في بطن أمة وكأصول الفرخ في البيضة ، كل هذه عندها نوع من الحياة إذن الحبوب نائمة ، فهل لك أن تسمع ماجاء في إحدى المجالات العلمية وهذا نصه :

الحياة حتى للحب

(كيف يمكنك أن تفسر ماأراه في كل يوم من الظواهر الكيميائية)

(كائن حي يعيش ١٠٠٠ سنة)

رى أن البقول والحبوب تحيط بها أغلفة صلبة ويقرر العلماء أن في داخل كل حبة منها كائن حي كامن في نواتها ، فهل تعتقد أن هذا الكائن الحي يمكنه أن يتنفس من وراء هذا الغلاف الصلب ؟ ولأريب في أن يتنفس الكائن الحي الموجود في داخل الحبة مثل ومثلك ولكن بأسلوبه الخاص ، فهو يستمد الأوكسجين من الهواء وبعد أن يتمثل في جسمه يرسله في الجو ثانياً أو كسيد الفحم أى مثل الإنسان بالضغط ويستمر بفطرته على هذه الظاهرة طالما يبقى في الحبة ولو أقل جزء من قوتها الحيوية أى أن لم تعطها بعض الجراثيم أو الحشرات أو تحرق بالنار ، وقد يمتد أجل الكائن الحي الموجود في الحبة إلى (٨٠٠) سنة ولا ينقطع تنفسه الذي تقدم شرحه ، فإذا وضعت الحبة في تربة صالحة إستمد منها مايلزم من الغذاء وظهر في الوجود شجرة نضرة اه

﴿زيادة إيضاح قوله تعالى «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله»﴾

يقول بعض علماء العصر اليوم إن الحبوب تنفس ولاعجب في ذلك فإنها تخالف الأحجار والطين . فتلك لاتنفس لها لأنها جماد أماهذه فهي أصل النبات وجرثومته . وهل يكون الحي وهو النبات من غير حي وهو الحب كلا . بل الحب له حياة ضئيلة كحياة النائم . ولما كان نوم الإنسان هو المذكور في الآية وإنه من آيات الله كان من حقنا أن نقول لافرق بين نوم ونوم في كونها كلها من آيات الله بل من أعجب آيات الله أن أصبحنا نرى حب القمح الذي نأكله له حياة وقد جعلناه من العوالم النائمة ، إذ من الحسب وعجائب العلم مايفعله هذا الإنسان ، إنه قد نظرفرأى الزناير (الصفير والحمر والسود) تنامزمن الشتاء كما تقدم ، ورأى بعض الحيوان ينام يبرد الثلج شهورا ثمأذا فعل ؟ قل في نفسه . أفلا يمكنني أن أفعل مايفعله الحيوان والحشرات ، ولماذا لا أنام شهورا ؟ هنا لك قام البوزية والبراهمة بهذه التجربة فناموا ستة أشهر ، وقد طاعت على كيفية ذلك في كتاب (زجايقا) المترجم من الهندية إلى الإنجليزية وتقلت عنه كثيرا في هذا التفسير ، ثمأذا يفعل هؤلاء القوم ؟ يحبسون النفس داخلأ تارة وخارجا أخرى بالتدريج أطول فأطول حتى تقدر النفس أن تتحكم في التنفس وهناك تصير الدورة الدموية تحت إدارة الإنسان ، هنا لك متى أراد النوم نام ويبقى نائما ستة أشهر كما قلت لك وهذه قوة من هذا الإنسان قدر بها أن يغير عاداته بنفس النوم ، وهذا قول سبق بعرضه في سورة الإسراء وفيها ذكر التجارب التي ظهرت في مصر من هذا النوع .

هذه تجارب أهل الهند قديما ولكن الإنسان الحالي نظر نظرة أخرى فقال الطير يطير والأرض والجو مسخرات لي فلماذا لا يطير في الجو ؟ ولماذا لا أفعل في المادة ماأشاء ؟ ولا أفق مكتوف اليدين أمام الطبيعة فلاغير كل شيء .

هذا ولما كان نوم الإنسان يعقبه العمل قال الله تعالى « وابتغواكم من فضله » وهذا فتح باب للسلام على الحركة . فهنا (حالان) نوم بعدم الحركة وبقطة بالحركة . وإذن يجب أن نذكر شذرة من كلام الأطباء

في النوم وفي اليقظة تسهلا لقراء هذا التفسير في علم الصحة وتذكرة لمن يتفكرون . فلنذكر أولا ساعات النوم ثم تتبعها بما جاء في الحركات المختلفة النافعة لصحة الإنسان .

﴿ الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه ﴾

جاء في كتاب (التدبيرات الصحية) الذي ألفه طبيبان مصريان في علم الصحة للدارس المصرية مانصه :

﴿ النوم ﴾

الإنسان في حاجة شديدة إلى النوم لأنه من ضروريات الحياة فلا يحيا بدونها كما دلت على ذلك التجارب في الحيوانات . فالكلب مثلا لا يعيش أكثر من خمسة أيام بدون نوم . والإنسان لا يمكنه أن يعيش زمنا طويلا من غير أن يأخذ حظه من النوم إذ يتغير لونه ويحصل له آلام في الرأس وضعف عن مواصلة أعماله لاضمحلال جسمه . وإذا استمر على عدم النوم انصرم جبل حياته .

﴿ أوقات النوم وعدد ساعاته ﴾

يختلف احتياج الجسم إلى النوم باختلاف السن . فالطفل يحتاج إلى النوم مدة أطول مما يحتاج إليها الشاب كما يظهر ذلك من البيان الآتي :

الذين سنهم من (٤) إلى (٨) سنوات ينامون من (١٠) إلى (١٣) ساعة .

الذين سنهم من (٩) إلى (١٢) سنة ينامون من (٩) إلى (١٠) ساعات .

الذين سنهم من (١٣) إلى (١٦) سنة ينامون مقدار (١٠) ساعات .

الذين سنهم من (١٦) إلى (٢٥) سنة ينامون مقدار (٩) ساعات .

يقول المؤلف ومعلوم أن الكلام خاص بتلاميذ المدارس ومعلوم أن كبار السن تنقص مدة نومهم ساعة أو ساعتين على حسب السن والأحوال .

فلسكى يتمكن الإنسان من نومه للمدة اللازمة له يجب أن يجعل النوم حتى يستيقظ من نومه مبكرا فيذهب إلى المدرسة في الصباح المحدد لها فإذا أطلت السهر ولم تنم المدة الكافية لسنتك ضعف جسمك وعقلك فلا يمكنك فهم دروسك أو القيام بعملك . وإذا أصبت بأرق فاستشر الطبيب ليرشدك إلى ما يجب اتباعه كما أنه يجب ألا تسكر من ساعات النوم لأن ذلك يجلب الكسل وضعف الجسم وآلام الرأس وضعف شهوة الأكل فتصبح متأخرا عن اخوانك في الدراسة لتأخر في الذهاب إلى المدرسة وصعوبة فهمك فلا ينتظر منك حينئذ أن تكون نشيطا في مستقبل حياتك بل تعيش نكدًا ، لانهم عقب تناول العشاء لأن ذلك يسبب الأحلام المزعجة وربما أرققت وقد عرفت مضار الأرق فلا تذهب إلى فراشك إلا بعد مضي ساعتين على الأقل من تناول عشاءك وإياك أن تمام عقب الانتهاء من مذاكرتك أو لعبك لأن ذلك ينجم عنه عدم راحتك في نومك ، فإذا استرحمت قليلا نمت نوما هادئا واستيقظت قويا نشيطا ، اغسل وجهك وبديك وقمك وأسنانك وقدميك قبل النوم لسكى تمام نظيفا مسترخيا وغير ملابسك بسواها من الملابس الخاصة بالنوم ، ويجب أن تنام على جنبك الأيمن .

يجب أن تكون حجرة نومك بحيث يسهل تجديد هوائها بعيدة عن كل محل تنبعث منه رائحة كريهة وأن تنفذ إليها أشعة الشمس نحو ساعتين كل يوم ولا تستعمل مصابيح الغاز أو الزيت أو الشمع في حجرة نومك وأترك إحدى نوافذها البعيدة عن مرقدك مفتوحة طول الليل ، ولا تخش البرد مادام جسمك مغطى بغطاء كاف للدفء .

﴿ فراش النوم ﴾

يوضع الفراش على شيء مرتفع عن الأرض مثل السرير ليكون الجسم بعيدا عن رطوبة الأرض ويتكون الفراش من حشية (مرتبة) وعحسن أن تكون من القطن فوقها ظهارة (ملاءة) من التيل أو القطن لتحفظها من الاتساخ وعليها وسادة مغطاة وحاف أو قبطية (بطانية) للغطاء وينصب على السرير كله (ناموسية) للوقاية من الأمراض التي تنتقل بالبعوض .

﴿ تجديد الهواء في قاعات النوم والفراش ﴾

بعد النهوض من النوم صباحا تفتح نوافذ الغرفة جميعها وتزج جميع أجزاء الفراش وتنتشر على النوافذ وتترك القاعة على هذه الحالة نحو ساعتين يكون الفراش فيها معرضا لأشعة الشمس ثم يفض الفراش من الأتربة وينقى من الحشرات وغيرها . وبعد تنظيف القاعة جيدا يوضع الفراش على السرير وتغفل النوافذ إلا جزء من نافذة يترك طول النهار مفتوحا ، وقبل ميعاد النوم بساعة تفتح النوافذ ليتجدد الهواء ، ويجب غسل خشب السرير الذي توضع عليه الحشية (المرتبة) كل أسبوع وتمريضها للشمس لتنتقى من بيضات بعض الحشرات كالبق المنتشر في كثير من المنازل . انتهى الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه .

﴿ الكلام على الحركات المختلفة النافعة لصحة الإنسان تفسيرا لقوله تعالى «وابتغواكم من فضله» ﴾

معلوم أن هذا الابتغاء إنما يكون بالحركة فليكن الكلام في أنواعها فنقول جاء في كتاب (قانون الصحة المنزلية) تأليف الأستاذ (جون سايكس) مانصه :

﴿ الرياضة البدنية ﴾

من الحكم الماثورة ماورد (العقل السليم في الجسم السليم) ولذلك يلزم حفظ وظائف الجسم في حالة جيدة باستعمال الرياضة ، حفظ العقل يكون باستمرار رياضة الجسم ، العضلات غير الارادية تنقبض وتنبسط بنظام خاص وذلك لحفظ وظائفها الطبيعية ، وتفيد الرياضة البدنية جميع الأشخاص مهما اختلفت سنهم إلا أنها تفيد أكثر في سن الطفولية ولذلك يلزم أن تكون الرياضة البدنية جزءا مهما من الدراسة للبنين والبنات

﴿ فوائد الرياضة البدنية هي ﴾

- (١) جعل العضلات أشد صلابة ومتانة .
- (٢) زيادة التنفس وبذلك يزيد فعل الرئتين فتريد تهوية الدم .
- (٣) تقوى القلب وتزيد سرعة الدورة الدموية فتعتدل الحرارة في جميع الجسم .
- (٤) تزيد فعل الجلد فيكثر التبخر من سطحه .
- (٥) سرعة الهضم وتحريض أعضاء الإفراز والأمعاء والسكى على العمل وبذلك تخرج جميع الإفرازات التي لا تفيد الجسم .
- (٦) وأخيرا تنشيط القوى العقلية .

وإذا عمادى الإنسان في الرياضة البدنية وتحمل منها أكثر من طاقته أضر بنفسه كثيرا بدل الفائدة التي كان ينتظرها ولذلك يلزم الإنسان التدرج في التمرينات البدنية حتى يصل إلى الدرجة التي تفيد منها لأن إجهاد الجسم فيها ينجم عنه أضرار عديدة ولاسيما الاجهاد الذي يقوم به المتسابقون في الحفلات ، ولذلك يجب عدم الترخيص بالنسابق إلا لأقوياء البنية والذين تمرنوا على الألعاب تدريجيا حتى وصلوا لدرجة الدخول في المسابقة وكلما تنوعت أنواع التمرينات كانت النتيجة مرضية .

﴿ أنواع الرياضة البدنية المختلفة ﴾

يمكن عمل الرياضة البدنية داخل المنازل أو خارجها، ويمتاز الرياضة خارج المنازل عن التي داخلها بتغيير المناظر وتقاوة الهواء إلا أنه في فصل الشتاء يفضل عملها داخل المنازل، ولكن يمكن الجمع بين الاثنين بأن يمضي الإنسان مدة من الزمن قدر ساعة يومياً خارج المنزل ويقوم ببعض الألعاب الرياضية داخله كالربيع وهو اللعب بالرباطع وهي أنفال التمرينات البدنية مدة عشر دقائق بعد حمام الصباح وذلك يفيد سكان المدن على الخصوص لحرماتهم من الهواء النقي. والرياضة البدنية على أنواع كثيرة، فمنها ما يقصد منه التسكيب كالنجارة والحرق والحفر وغيرها. يقول المؤلف وهذا قوله تعالى « وابتغواكم من فضله »، ومنها ما يقصد منه التسلية والصحة كالتمرينات البدنية.

﴿ العوم والتجديف ﴾

تتحرك أغلب عضلات الجسم في الحركات التي يقوم بها الجسم أثناء العوم، والعوم يفيد لأنه يقوى البنية ويزيد في نظافة الجسم ويعلم الأطفال الشجاعة والاعتماد على النفس واغائة العرقى، والذين يعرفون العوم يسرون من التجديف وهو رياضة بدنية صحية تقوى عضلات الأطراف والجذع.

﴿ ركوب الدراجات ﴾

لا يفيد الصدر كالتجديف إلا أنه يفيد الإنسان من حيث التمتع بالهواء الطلق ويلتزم الاحتراس من إجهاد الجسم في هذا التمرين فإنه ربما أضر القلب، ويجب الامتناع عن صعود الجبال على الدراجات، ولها ضرر آخر وهو الضغط على الأجزاء المرغوبة من جسم الإنسان.

﴿ المشى ﴾

المشى أكثر أنواع الرياضة البدنية استعمالاً وفيه تتحرك كثير من العضلات زيادة عن عضلات السائرين ويمتاز عن غيره من التمرينات بالتمتع بالمناظر التي لا يمكن الوصول إليها راكباً.

﴿ الجباز والتمرينات الحربية ﴾

تسكب الجسم صحة وتعلم الإنسان النظام وتغرس في نفسه الميل للعمل بنظام خاص وتعلمه حب الاجتماع بين جنسه.

﴿ ركوب الخيل ﴾

ركوب الخيل من أحسن أنواع الرياضة البدنية وأصحها لمن استطاع ذلك ويمكن معه الصيد باستعمال الأسلحة النارية، ومن الرياضة البدنية كرة القدم والكرة والصولجان والكرة والمضرب والشيش.

﴿ الصلاة ﴾

الصلاة مع كونها فريضة دينية لا بد من القيام بها فهي رياضة صحية تسكب الجسم نشاطاً وهمة بحركات الركوع والسجود والتسليم اه.

هذا وإنى أذكرك أيها الحكيم بما ذكرته في علم الصحة في سورة (طه) وفي سورة (الشعراء) فإنك تجد كلاماً أوفى وأتم في الرياضة البدنية التي تشعر بها هذه الآية في قوله تعالى « وابتغواكم من فضله » انتهى الكلام على القسم الثالث من السورة والمحمد لله رب العالمين.

(القِسْمُ الرَّابِعُ)

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ
 فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا
 لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
 لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّا أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ
 وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا
 شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ
 إِذَا أَدَّاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا
 أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ *
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *
 فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ
 وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ
 مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
 النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقِيمِ مِنْ قَبْلِ
 أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ * مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ
 صَالِحًا فَلَا نُقْسِمُ بِعَمَلِهِمْ يَوْمَئِذٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْكَافِرِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ
 بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ
 فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ * اللَّهُ الَّذِي
 يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُنْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ
 مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ
 أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَأَنْظِرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْبِي الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخْبِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا
 لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ * فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا
 مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ *
 اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا
 وَشِبْهَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ *
 مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أَتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ
 فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ
 لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ
 كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ
 يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ
 الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ *

(التفسير اللفظي)

قال تعالى (ضرب لكم مثلا) منزعا (من أنفسكم) أي من أحوالها ، ولا جرم أنها أقرب الأمور
 إليكم (هل لكم) يا معاشر الأحرار (مما ملكت أيمانكم) من ممالككم (من شركاء فيما رزقناكم) من
 العقار والمنقول والنقد فتكونون أنتم وهم فيه مستويين يتصرفون فيه كتصرفكم وهذا قوله (فأنتم فيه سواء
 تخافونهم) أن يستبدوا بالتصرف فيه (كخيفتكم أنفسكم) كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض ، المعنى هل
 أنتم أيها الأحرار تشركون معكم عبيدكم في أموالكم فيساوونكم في التصرف فيها ولا تصرفون فيها إلا بأذنهم

خوفا من لائمة تلحقكم منهم كما يخاف بعضكم بعضا ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم وأنتم وهم عبيد فكيف ترضون لرب الأرباب أن تجعلوا عبيده له شركاء (كذلك) مثل ذلك التفصيل (فصل الآيات) نبيها بالتمثيل الكاشف للمعاني (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال (بل اتبع الذين ظلموا) بكفرهم وإشراكهم (أهواءهم بغير علم) جاهلين ولا علم بردهم ، فأما العالم فربما رده علمه إلى الصواب يوما ما (فمن يهدي من أضل الله) أى لا أحد يقدر على هدايته (وما لهم من ناصرين) يخلصونهم من الضلالة والعذاب (فأقم وجهك للدين) فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا ، وهذا استعارة تمثيلية للتوجه التام وعدم الميل عن الدين والاهتمام به اهتماما مصحوبا بحمد (حنيفا) أى حال كونك غير ملتفت عنه وهذا من بقية التمثيل لإزمو (فطرت الله التي فطر الناس عليها) خلقهم قائلين للتوحيد والإسلام غير منكرين له ولذلك قال : (لا تبديل لخلق الله) أى أن الله خلقهم قائلين للتوحيد والإسلام غير منكرين له لسكونه مساوقا للنظر الصحيح فمن غوى منهم فإن الشياطين هم الغوون . وفي الحديث « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه إما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء أى مستوية لم يذهب من بدنها شيء هل تحسون فيها من جدعاء ، أى هل تشعرون أو تعلمون بهامن مقطوعة الأذن أو الأنف » وهذا الحديث رواية البخارى ومسلم وعجزها للبخارى وحده ، واعلم أن الإيمان ﴿ إيمانان ﴾ إيمان فطرى وقد علمته ، فالعقل الإنسانى كصحيفة بيضاء قابلة لنقش ما يراد فيها فهو أشبه بالمادة التي خلقنا منها وكل ما يغرس فيه من حسن أو قبيح أو شريف أو وضيع ينبت كما تنبت الأرض حنظلا وفاكهة ودواء وسما ، فالأرض نوعت الزروع فيها وهى قابلة لها والنفوس تزرع فيها الديانات والعلوم فتقبلها ، ولكن من صفات الفطرة والحلقة السكونية أن يكون الحبر عليها أغلب ، ألا ترى أن نبات الأرض كله يصلح للمراعى فما لا يصلح لأكثر الحيوان يصلح لأقله فالسم قليل والنفع أكثر من الضر هكذا عقول بني آدم وقد خلقوا كجميع خلق الله فهم تامو بنية الجسم بيض الصحائف فى القاب فتقوله عليه الصلاة والسلام « كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء » معناه أن البهيمة تكون كاملة الأعضاء أيام ولادتها هكذا العقل صحيفة بيضاء لم ينقش فيها نقش علمى يغيرها وكما أن البهيمة لا تجدد إلا بما يجدها من الخارج هكذا صحيفة العقل لاتدلس بالأراء الفاسدة إلا بمن يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين والنصرانيين ولو ترك الطفل وشأنه لعرف وحدانية الله . فهذا الاستعداد الفطرى والإيمان الفطرى لا اعتبار بهما فى أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعى للمأمور به . ويروى أنه قيل يارسول الله أفرايت من يموت صغيرا قال الله أعلم بما كانوا عاملين ومعنى (لا تبديل لخلق الله) أى ما ينبغى أن تبدل فطرة الله أو تغير أى لا تبدلوا دين الله بالشرك ولا تخصوا البهائم فذلك تغير لخلقها ولا يغير ربك ما جيل عليه الإنسان من شقاوة أو سعادة بل كل ميسر لما خلق له (ذلك) هو (الدين القيم) الحق السقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن دين الله هو الإسلام وقوله (منيبين إليه) حال من فاعل أقم أى أقم وجهك يا محمد وأمتك معك راجعين إليه من أناب إذ ارجع مرة بعد أخرى أو منقطعين إليه (واتقوه وأقيموا الصلاة) أدها فى أوقاتها (ولا تكونوا من المشركين) ممن يشرك به غيره فى العبادة ثم أبدل من قوله « من المشركين » قوله (من الذين فرقوا دينهم فجعلوه) أديانا مختلفة لا اختلاف أهوائهم وقلة عقولهم وقصور إدراكهم إذ سوات لهم أنفسهم أن الاختلاف فى بعض الفروع يوجب الاختلاف فى الأصول (وكانوا شيعا) فرقا مختلفة كأهل البدع فى هذه الأمة (كل حزب بما لديهم فرحون) راضون لأنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه واطمأنوا لما علموا ككثير من رؤساء الطوائف فى الأمة الاسلامية اليوم ؛ يقول الأستاذ لتلاميذه لتكن وجهتكم كذا من أعمال البر ويفهمهم أن من عدام جهالة غير واصلين لله فتختلف الوجهة ويعفرون غيرهم من أهل دينهم فتفرق الأمة ولات حين مناص ، واعلم أنه لا دواء للفرق المتشعبة فى الأمة الاسلامية إلا بنشر العلوم الطبيعية والرياضية لأن هذه متى امتلأت بها

العقول أدركت جمال الله فكل ما جاء بعد ذلك لا يؤثر فيها ولا يفرق وحدة الأمة ، فأما مادامت العقول خاوية والنفوس جاهلة فإن أقل تعليم يعول الإنسان عن بقية الأمة ، فإذا أمر بذكر خاص كسور يتلوها أو عبادة يتجه إليها فإنه يغرم بها ويظن أن كل علم أو عبادة غير ذلك لا يدفع عارا ولا يذكي نارا ولا ينفع جاراً فلا وسيلة لاتحاد الأمم الإسلامية إلا بنشر جمال النجوم وجمال النبات وبدائع المعادن ونظام هذا العالم في مدارس المسلمين فهذه هي « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » فأن خلق هذه العوالم ومق عرفها الناس صارت معرفتهم متحدة فلا تغير وجهة عقولهم العامة كما لا تغير وجهة السنن التي سننها الله في خلق العوالم . إن الله هو الذي زين هذه الدنيا وهو الذي خلقها وهو الذي خلقنا ، فعلينا أن ننظر فيما خلق ونفرح بما أبدع ونسر بما أنشأ فلا تغير لسنة الله في الخلق فإن القانون العام في نمو النبات وسير السكاكب لا تغير فيه فالعلم به ثابت والدين يعرفونه تثبت عقيدتهم بربهم ويفرحون به فلا يلوبهم عن وجهة الأمة العامة صارف لأنهم ثبتوا على الحقائق التي لا تغير وجهتها والله أسأله أن يقيض لهذه الأمة من يرشدهم إلى هذه السبيل إنه لسميع الدعاء (وإذا مس الناس ضر) شدة وبلاء (دعوا ربهم منيبين إليه) راجعين إليه (ثم إذا أذاتهم منه رحمة) خلاصاً من تلك الشدة (إذا فريق منهم برهم يشركون) أي فاجأ فريق منهم بالاشراك برهم لما عافاهم (ليكفروا بما آتيناهم) أمر للتهديد ثم التفت للمبالغة فقال (فتمتعوا فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم (أم أنزلنا عليهم سلطاناً) حجة وعذر أي بل أنزلنا عليهم (فهو يتكلم) تكلم دلالة (بما كانوا به يشركون) أي بشركهم ويأمرهم به (وإذا أذقنا الناس رحمة) كالنعمة والصحة والثروة والقوة (فرحوا بها) بطروا بسببها (وإن تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت أيديهم) بشؤم معاصيهم وجهلهم لسنن الحياة وعصيانهم أوامر الدين والحكمة (إذا هم يقنطون) أي فاجؤ القنوط من رحمته (أولم يرو أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر) إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فمالهم لم يشكروا في السراء ومحتسبوا في الضراء كالمؤمنين فإن من فطر هذا العالم على وجه الكمال لا ينزل الشدة بعباده إلا لما يعود عليهم بالخير كالتأديب والتذكير وابتلائهم وامتحانهم وتربيتهم فانه يريهم بالرحمة ويربهم بالتعذيب فلو أنهم شكروه عند السراء وتضرعوا له واحتسبوا عند الضراء لكان خيراً لهم ولكانوا منيبين لربهم في حال الضراء والسراء إن هؤلاء الذين يضرعون إلى ربهم عند الشدة فإذا أزالها عنهم أشركوا به وهؤلاء الذين يبطرون بالنعمة ويقنطون عند الشدة ليسوا منيبين لربهم وليسوا ملازمين الفطرة ، فلينبؤوا له في الرخاء والشدة فلا يعوقهم عن الإنابة نعمة تبطرهم بعد شدة ولا شدة تحدث في قلوبهم اليأس بعد رحمة بل عليهم أن يكونوا له في السراء والضراء منيبين ، إذا تقرر ما تقدم من أنه نجب الإنابة لله بحيث لا ييأس الإنسان إذا مسه شدة بعد رحمة ولا يبطر إذا زال عنه الضر وتمتع بالرحمة بل يجب أن يكون منيباً في الحالين أمر أن يكون واصلاً للرحم محسناً لغيره إذا أنعم الله عليه كما قال تعالى (فات ذا القربى حق) كصلة الرحم ، وقد أوجب أبو حنيفة رضي الله عنه النفقة للمحارم من هذه الآية (والمسكين وابن السبيل) أي المسافر والضيف (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) يطلبون ثواب الله بأعمالهم (وأولئك هم المفلحون ، وما آتيتهم) أعطيتهم (من ربا) من عطية تتوقعون بها مزيد مكافأة (ليربوا في أموال الناس) بأن يعطى الرجل غيره عطية ليثيبه أكثر منها فهذا جائز لا حرمة فيها ولكن لا ثواب له يوم القيامة وهذا معنى قوله تعالى (فلا يربوا عند الله) فلا يكثر عند الله بالتضعيف ولا يقبله فان ذلك ليس خالصاً لله ويلحق بذلك الرجل يلترق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله لا لتمام عونه لا لوجه الله تعالى فهذا لا ثواب له (وما آتيتهم من زكاة) أي أعطيتهم من صدقة (تريدون وجه الله) بتلك الصدقة (فأولئك هم المضعفون) أي يضاعف لهم الثواب فيعطون بالחסنة عشر أمثالها ، والمضعفون ذوو الأضعاف من الثواب كالمقوي والموسر

لدى القوة واليسار (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون) وهذا ظاهر ، واعلم أن الآيات المتقدمة دلت على عدم ثبات الناس وأنهم يبطرون في النعماء ويأسون في الشدة بعدها ويتفقون المال لحطام الدنيا وكثير منهم لا يصلون الرحم وإنما يبذلون المال لشهواتهم فناسب أن يذكر بعدها أن أهل هذه الأرض مصابون اعترافهم النقص المشين كيف لا وقد (ظهر الفساد في البر) بالحرب والغارات والجيوش والطيارات (والبجر) بالسفن الحربية والطوربيد والغواصات الحارقة للسفن وقطع الأسلاك البرقية أيام الحرب (بما كسبت أيدي الناس) أي بكسبهم إياه نارة كما تقدم أو بشؤم نقصهم وطبيعة أرضهم وأنهم هكذا خلقوا في الأرض ليكون ذلك لهم ابتلاء وذلك كالطاعون وأنواع الحمى وتلك الحيوانات الدقيقة التي تسمى بالميكروب فإنها تملأ السهل والجبل وتحدث الأمراض والجذرى والحصباء وهذا ينزل الطاعون في نوع أو أنواع من الحيوان وكذا النبات فإن ما ينفع الناس منه يصاب بأفات تعرض له كما يصاب قطن مصر وعنب فرنسا وسائر الأشجار النافعة بالجوائح المهلكة والفائسكات كل ذلك لأن هذا الانسان أودع هذه الأرض وقد استحق هذا لنقصه وذلك لتدريسه وتهذيبه وإلا فلماذا يكون النبات الذى ينتفع به تسطو عليه عاديات الدهر والمدمرات المهلكات من الجوائح ويخلق بجانبها نبات آخر يسطو على غذائه فيهلكه ولا يهلك هو ، ذلك لنقص هذا الانسان ويراد به كآله ، وملخص ما تقدم أن ظهور الفساد في البر والبحر إما بعمل الانسان وإما بعمل طبيعي خلق لمناسبة نقص الانسان ابتلاء له وامتحانا وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) أى بعض جزائه وذلك لأن تمامه في الآخرة وهذا راجع لأحد القسمين وهو ما كان يفعل الإنسان (لعلهم يرجعون) عما هم عليه (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية وكيف هلكوا بذنوبهم (كان أكثرهم مشركين) فذلك أهلكتهم بكفرهم (فأقم وجهك للدين القيم) البليغ الاستقامة وهو الإسلام (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له) لا يقدر أن يرد أحد (من الله) متعلق بمراد أن لا يرد الله لأنه أراداه (بومئذ يصدعون) يتصدعون أى يفرقون فريق في الجنة وفريق في النار (من كفر فعليه كفره) أى وبال كفره وهو النار المؤبدة (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) يسوون منزلا في الجنة ، ثم علل قوله «ببهدون» فقال (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين) أثبت المحبة للمؤمنين والبغض للكافرين (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) بالمطر أى ومن آياته إرسال الرياح لتبشركم بالمطر (وليذيقكم من رحمته) بالمطر والحصب (ولتجرى الفلك) بهذه الرياح (بأمره ولتبتغوا من فضله) يعنى تجارة البحر (ولعلكم تشكرون) أى ولتشكروا نعمة الله فيها (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فاتقننا من الذين أجزموا) بتدميرهم (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) مع إنجائهم من العذاب ، وفي ذلك بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنهم منصورون وقد تم ذلك فعلا ، وهكذا كل من قام بأمر عام لخدمة الأمة وإسعادها فإن الله معه وناصره وإن حقا على الله أن ينصره (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه) متصلا تارة (في السماء) في سمها (كيف يشاء) سائرا أو واقفا ، مطبقا وغير مطبق ، مسيرة يوم أو أقل أو أكثر (ويجمعه كسفا) قطعاً تارة أخرى (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) من وسطه (فاذا أصاب به) بالودق (من يشاء من عباده) إذا هم يستبشرون) يفرحون بالمطر (وإن كانوا) أى وقد كانوا (من قبل أن ينزل عليهم) المطر (من قبله) تسكروا للتأكد والدلالة على تناول عهدهم بالمطر (لمبلسين) لآيسين (فانظر إلى آثار رحمة الله) أثر الغيث من النبات والأشجار وأنواع الخمار (كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك) الذى قدر على إحياء الأرض (لحى الموتى) لقادر على إحيائهم (وهو على كل شيء قدير ، ولئن أرسلنا ريحا) حارة أو باردة على الزرع

(فأروه) أى الزرع (مصفرا) متغير اللون بعد الخضرة (لظلوا من بعده) أى من بعد اصفرار الزرع (يكفرون) يمجدون ماسلف من النعمة وهذا كإيضاح للآية المتقدمة «وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون» فهأنا أذاقهم الرحمة بالمطر وبه حبيت الأرض فلما أرسل الريح على الزرع فاصفر كفروا (فإنك لا تسمع الموتى) وهؤلاء مثلهم لأنهم لا يسمعون الوعظ (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وهذا القيد إشارة إلى شدة إعراضهم لأن الأصم إذا أقبل ربما فهم بالإشارة وهؤلاء لا يفهمون بأى طريق (وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم) أى عمى القلوب (إن تسمع) أى ما تسمع (إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) متقادون لأوامر الله (الله الذى خلقكم من ضعف) أى ابتداءكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم (ثم جعل من بعد ضعف قوة) إذا بلغت الحلم (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) وهو تمام النقصان (يخلق ما يشاء) أى من الضعف والقوة والشباب والشيبة (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدير) على ما يشاء (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) يخلف للشركون (ما لبثوا) فى القبور (غير ساعة) وهذا استقلال لمدة لبثهم فى البرزخ مع طولها ، فهأهم أولاء صرفوا فى الآخرة عن حقيقة مدة مكثهم فى البرزخ (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون فى الدنيا عن الحق (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) أى قال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله والإيمان بالله للشكرين لقد لبثتم إلى يوم البعث فى قبوركم (فهذا يوم البعث) الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا (ولكنكم كنتم لا تعلمون) وقوعه فى الدنيا فلا ينفعكم علمكم به الآن (فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) أى ولا هم يدعون إلى ما يقتضى إزالة عتبتهم من التوبة والطاعة يقال استعتبى فلان فأعتبته أى استرضانى فأرضيته. أى لا تطلب منهم التوبة التى تزيل الجرمية لأنها لا تقبل منهم (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) يشير بذلك إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار أى ولقد وصفناهم كل صفة كأنها مثل فى غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة البعوثين يوم القيامة وقصصهم المخ (ولئن جنتهم بآية) من آيات القرآن (ليقولن الذين كفروا) من فرط عنادهم (إنا أنتم) أى ما أنتم يا محمد ومن معك (الإمبطلون) مزورون (كذلك) مثل ذلك الطبع (يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) لا يطلبون العلم ويتمسكون بعقائد اعتقدوها والجهل المركب يمنع العلم (فاصبر) يا محمد على أذامهم (إن وعد الله) بنصرتك وإظهار دينك (حق) لا بد من إنجازه (ولا يستخفك) لا يحملتك على الخفة والقلق (الذين لا يؤقنون) بالبعث والحساب . انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى « فطرت الله التى فطر الناس عليها » ﴾
(فى هذه الجوهرة أربع لطائف)

- (١) فى فطرة البحث عن أصل العالم والإذعان لحالقه .
- (٢) وفى فطرة العلوم الرياضية .
- (٣) وفى فطرة العلوم المنطقية .
- (٤) وفى فطرة مظاهر الخلوقات .

﴿ الماطيفة الأولى فى البحث عن خالق العالم والإذعان للربوبية ﴾

اعلم أن من فطرة الله تعالى الإذعان للربوبية ، فهذه فطرة لاتفارق الناس مركوزة فى النفوس سارية فيها سريان الماء فى العود الأخضر والكهرباء فى كل جسم جامد وغاز وسائل ، ومن عجب ما أذكره لك الآن لتدهش كما دهشت أنا حتى أنى لما اطلمت على ذلك هذه الليلة وهى ليلة الاثنين آخر شهر رمضان العظم

قبل نصف الليل لم أجد بدا من كتابتها فرحا بنعمة العلم وتبيننا لجمال الحكمة الإلهية ، ذلك أن الله يقول « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » وهذه الآية قد فسرها العلماء (بأحد طريقين) إما بأن هذا تم فعلا وقد نسي الناس ذلك ، وإما بأن هذا مجاز يعرب عن الحقيقة ، وما الحقيقة إلا أن عقل الانسان يشهد بذلك لأن الأدلة في هذه الكائنات شاهدة بذلك ، فانظر ماذا جرى ؟ رأيت الليلة المحاورة بين أفلاطون وطمباوس ، وطمباوس اسم حكيم من حكماء الفيشاغورسيين جعله أفلاطون للتكلم في محاوراته ، شرع طمباوس يتكلم في أنه ينتهل إلى الله أن يلهمه الصواب من القول وأن يساعده هو ومن يسمعه في حسن الإلقاء منه وإجادة الفهم عنه والقبول ، ثم قال ماملخصه (إن الموجود (قسان) : قسم دائم وليس يحدث وهذا يعرفه العقل لثباته على حال واحدة ، وقسم لا يدرك إلا بتخمين الوهم المشارك بالحس لأنه يحدث ثم يفتى وليس له وجود حقيقي ، فهذا لا بدله من علة ثم إن الصانع إذا جعل نصب عينيه ما لا يتغير قط ، وحاول أن يحاكي صورته وقوته فلا بد أن يبلغ مصنوعه درجة عالية من الجمال بخلاف ما إذا جعل نصب عينيه مثلا فانما فان مصنوعه يبقى دون مرتبة الجمال ، فإذا تقرر هذا فإن أول ما ينبغي التروع في البحث عن السماء أو العالم أو كيف ما شئتم أن تدعى هو المسألة التي يجب دائما الابتداء بها وهي هذه أعنى هل كان العالم دائما ولم يكن له حدوث أم هو حادث وله مبدأ فأقول إنه حادث ، ومصداقه أن العالم مرئي ومدروس ومادى وكل ماله هذه الصفات فهو محسوس ، وكل ماهو محسوس فهو مدرك بالوهم والحس فهو إذن حادث ، ثم أقول إن كل حادث لا بد له من علة ، فإذا سئل من هو صانع العالم وأبوه ؟ أقول إنه يصعب الوجدان ثم إذا وجدناه فإعلام الجمهور به ضرب من المحال ، ثم ينبغي بعد ذلك أن نبحث عن المثال الذي اتخذ صانع العالم عند صنعه إياه هل هو المثال الدائم الغير المتغير أم هذا المثال الحادث فأقول إذا كان العالم جميلا وصانعه أكمل للموجودات فلا شك أنه جعل نصب عينيه للمثال الدائم الأفضل ، وإذا كان كلاهما مالا أتجاسر أن أقوله فهو قد اتخذ للمثال الأسفل إلى أن قال « إن ما بين الوجود والحدوث نسبة ما بين الحق والظن ، فلا يعجبك ياسقراط أنى غير قادر على أن أشرح لك الإله ومنشأ الموجودات شرحا شافيا متصلا في جميع أجزائه ، والأولى أن تقع بكلامي إذا كان مشبها وألا تنس أن كلامنا للتكلم والمستمع من أبناء البشر فلا بد لنا أن تقع في مثل هذا الموضوع بما هو أشبه ولا نطلب مافوق ذلك ، ثم شرع يبين أن صانع العالم صنعه لأنه جواد وقد أراد أن يجعله خيرا على قدر الامكان ولا يكون فيه شر على قدر الامكان ، فهو أخذ الأشياء للضرورية فنظمها ثم أبدع العقل في النفس والنفس في الجسد ونظم العالم على أفضل صورة وأجمل شكل فترم من ذلك أن تقول إن هذا العالم موجود متنفس وعاقل أوجدته الحكمة الالهية : وقد اتخذ الله لهذا العالم صورة الحيوان المطاق للشتعل على صور جميع الحيوانات ، فالعالم حيوان عاقل مرئي يتناول سائر الحيوانات ، ثم ذكر تكوين هذا الحيوان من العناصر الأربعة باعتبار ما كانوا يعرفون وقد جعله بشكل كرى ، إذ هو أكمل الأشكال وأفضلها ، ثم ذكر تكوين نفس العالم من العقل والمادة وشيء مشترك بينهما ، ثم أوجد الأيام والليالي عند تربيته السماء وما هي إلا أجزاء الزمان للماضي والحال والمستقبل ، وقد توهم لجهلنا أن مثل هذه الأجزاء لها نسبة إلى الموجود الأزلى كلا . فهو موجود أزلى لاغير لأن ماله تعلق بالزمان للماضي والمستقبل لايناسب إلا ما يتغير في الزمان ويمر فيه ومنشؤه الحركة ، لكن الموجود الأزلى الذي لا يتغير فيه ولا حركة لا يمكن أن يذكر فيه ذلك ثم تكوير الأفلاك السيارة وقال إنها أجرام حية ذوات نفوس وبين حركاتها وتقدير الزمان بها وتقسيم الزمان على نسبة هذه الحركات على الأيام والليالي والأشهر والسنين ، ثم تكوين الكواكب ثم لما تم تركيبها جمعها الصانع وخطبها بهذه الخطبة ، ومما قال فيها (أنتم قد أحدثتم ومع ذلك أنتم غير مائتين لأن إرادتي أقوى لكم من أن تكونوا قدماء من أصل نشأتكم والآن فانصتوا لى واعلموا ما أريده منكم ، أنه قد بقي أنواع من

الحيوان لم تخلق بعدولوا لم تخلق لبقى العالم ناقصا، إذ لم يحتو على جميع أصناف الحيوان وهو لا يتم إلا بذلك فلو منحتم أنا الوجود والحياة لأصبحوا مثلكم لا يموتون ، فاجتهدوا أنتم في تصوير هذه الحيوانات على حذو ما فعلته في إيجادكم حتى يكونوا قابلين للموت ولا ينقص من العالم شيء ، أما من لهم جزء إلهي من الحيوانات (يريد الإنسان) فهو قادر على الأمر بالحير إذا اتبع وأنا أعطيتكم بذره وأصله وعليكم بعد ذلك تأليف الجزء الميت بالجزء الذي لا يموت وجعلهما حيوانات وتنميتهم بالغذاء اللازم وتلقيهم عند موتهم ، ثم ذكر بعد ذلك خلق الأرواح البشرية وأن الإله ركبها من العناصر التي ركب منها نفس العالم السكية إلا أنها دون ذلك صنعا وكالا ، ثم جعل الأرواح في السكواكب . فمنها ما جعله في الأرض ، ومنها ما جعله في القمر . ومنها ما هو في السكواكب الأخرى فأوقفها على نظام العالم وعلى الترتيب الذي اقتضته حكمته وبين لها أن لجميعها أصلا واحدا لا فرق بين روح وروح ولكن لا تنظم من عدم المساواة بينها . ثم شرح لها أنها عند اقترانها بالأبدان إنما يلحقها التأثير من الخواص وما يتبعه من شهوة وغضب وخوف . فمن قهرها عاش مستقيما . ومن يذعن لها يكن عديم العدالة . ومن انتفع بحياته لإصلاح ضميره إنما يرجع كوكبه المختص به فيبقى فيه سعيدا . ومن قصر في ذلك فقد يصير أنثى في حياة ثانية . فإذا دام على الشر يصير حيوانا على شكل ما اعتاده في حياته من أنواع الخطأ ، فلا يزال يموت وينتقل من بدن إلى بدن إلى أن يرجع إلى الصلاح ويسخر مافيه من العناصر ويجعلها منقادا لرئاسة عقله ثم ذكر تصوير بدن الانسان على يد الله وتصوير الآلات المختلفة فيه من البصر والسمع وغيره الخ . انتهى المقصود منه .

ولما اطلع على هذا أحد الاخوان قال ما مناسبة هذه القصة المخالفة للدين لهذه الآية ؟ قلت المناسبة أن الله عز وجل لهم أفلاطون وهو رجل ليس بنبي ولكنه مفكر بعقله . أو لعله أخذ هذا القول عن نبي آخر فقد ذكر أن الله خلق أرواح الناس في السكواكب المختلفة وألقى عليها نضائح وحذرهما من الخضوع للشهوات فهذا وإن لم يكن عليه دليل هو من دلائل النبوة . كيف يلتقي الله على قلب رجل قبل الاسلام بنحو (٩) قرون فخوى آية « وإذا أخذ ربك من بنى آدم » الخ .

أفليس هذا من العجب . فأما قولك أنه مخالف للدين فهذا لا يضرنا نقله ، بل هو يفيدنا فوائد عظيمة ويبين لنا مناهج أمم قبلنا نقل آباؤنا عنها وأخطؤا في النقل ، فانظر العجب كيف يقول (إن هذا العالم حادث) في هذه الجملة . أليس هذا من العجب أن يكون هذا الرأي منقولاً بالنص عن نفس أفلاطون وهو عمدة فلاسفة اليونان ثم نسمع آباءنا ينقلون عن صفار علماء اليونان أن العالم قديم . أليس نقل الفلاسفة اليونانية إلى العربية أيام عز الدول الاسلامية كان فيه مصائب ومصائب ، فأين القدم إذن ؟ أليس ترا يذكر أن الزمان لا يصدق إلا علينا نحن ، وهذا معقول لأن الله هو الذي خلق الزمان ، إذن من أين جاء آباؤنا ما بهزأ به أبو العلاء المعري بالديانات فيقول في معنى آيات .

﴿ إذا كان الإله لازمان له ولا مكان فعناه ليست لنا عقول ﴾

فأما المخالفة للدين فهي في أمور منها (أنه جعل السكواكب غير ميتة مع أنها حادثه) فأقول السكواكب عنده تدبرها الملائكة وقد صرح هو بأن العالم كله حيوان حي . وعندهم أن كل كوكب عاقل كأنه انسان فأما ديننا فانه يقول (إن الملائكة تدبر هذه السكواكب) ومن المعقول أن الخطاب لا يكون لنفس الأجرام ، بل هو للملائكة وهذا لا يناقض ديننا والملائكة كما يقول هو حادثون ولسكنهم لا يموتون . وبما ذكره أيضا أن الرجل الفاسق مثلا يرجع امرأة أو حيوانا ، فهذا ليس يقينا عنده ، بل هو يقول نحن نسكن في بما هو الأشبه فالقوم ليس عندهم نبي فقالوا باعتبار ما تخيلوه ، والاسلام أتى لنا بأمر مجمل بعد ذلك فذكر جهنم ثم هو ذكر

العقل والنفس والمادة وهذا حسن أيضا . إن سكان الكواكب أى اللائكة المدبرين يستقبلون الأرواح عند موتها وهذا هو نفس ديننا . وهذه الأرواح إن أحسنت رجعت إلى الكوكب الذى خلقت فيه وإن أساءت رجعت إلى حياة تعسة . ولا جرم أن هذا لم يجزم به وإنما قال لنا إنه هو الأشبه لأمثالنا نحن بنى آدم فى الأرض والله ذكر الجنة وأتانا نكون فى قصورها إذا صلحت أعمالنا .

وبالجملة إن ذكر هذا القول فى مبدأ العالم وخلق الأرواح والأجسام وتعليم الأرواح قبل خلقها ثم مجازاتها بعد موتها جمع ماخص الكتب السماوية وهذا أمر عجب أن يصدر مثل هذا بالعقل قبل القرآن بنحو (٩) قرون . إن أمثال هذا أعده معجزة للقرآن قبل نزوله بل هو ماخص الآيات السابقة فى هذه السورة . فانظر كيف يذكر الله أنه خالقنا من تراب وخلق لنا الأرواح والليل والنهار ونومنا فيها واستيقاظنا وخلق السموات والأرض والبعث ، فهذه المقالة ترجع فى خواها إلى هذه الآيات . ولعل هذا القول منقول عن أنبياء كانوا قبله والقرآن مصدق لما قبله من الديانات الحققة اه .

(تذكرة)

هذه المقالة كلها تفسير لقوله تعالى « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » إن تفسير الآية اللفظى لايفيد هذه العجائب . فأما ما كتبناه هنا فإنه قد ابتدئ فيه بذكر العالم الإجمالى أولا منذ خلقته ، وذكرت العناصر وعوالم السماء وعوالم الحيوان وعالم الإنسان وماعلاقة الإنسان بربه وماعلاقته بالأرواح المدبرة للكواكب ومم يتركب الإنسان وأنه مركب من مواد مائة أرضية وأمر إلهى دائم وباتحادها صار هناك أعضاء حس وأعضاء حركة ومكان هو مقر الشهوة وآخر هو مقر الغضب ومنافع حجة فى أعضاء الجسم من فرقه إلى قدمه . ثم ذكر المرض والصحة . فهذا المقال جمع ما بين التراب الذى نشأ منه الانسان وبين روحه ثم انتشاره فى الأرض . وبهذا وأمثلة تنشر العقول الحامدة فى الشرق بعد موتها وتبعث من مرقدها ولا تنف عند حد فى العلم والتعليم وارتقاء المدينة . ثم انظر إلى قول أفلاطون على لسان بطيماوس : إن المادة لاصورة لها وهى نوع من الوجود عديم الصورة غير مدرك بالبصر مستعد لأن يقبل كل شئ له نسبة ما إلى الوجود العقول وهى نسبة مهمة عديمة الإدراك ووازن هذا القول رعاك الله بما يقوله علماء العصر الحاضر (إن المادة ماهى إلا نقط كهربائية يدور سالها حول موجها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية فى العناصر المعروفة تقريبا وفى النور الشمسى مثلا من (٤٠٠) إلى (٧٠٠) مليون مليون مرة فى الثانية) فهذا الدوران السريع يجعلها دوائر ضوئية وهذه الدوائر اللوهومة بكثرتها واختلاف حركاتها تكون منها العناصر المختلفة ثم تكون هذه العوالم العلوية والسفلية فانظره فى (سورة التور) عند آية «الله نور السموات والأرض» فى مقال تحت عنوان (قطرة ماء) فإنك تجد أن العلماء أجمعوا اليوم أن المادة هى ذلك الذى ذكرناه وأن التدرجات بينها خلاء كالحلاء بين الأرض وبين الشمس والقمر . إذن المادة أصبحت أخت العدم قديما وحديثا . وهذا معنى قوله تعالى « كل شئ هالك إلا وجهه له الحسب وإليه ترجعون » ومن عجب أن يتفق العلماء قديما وحديثا على أن المادة معدومة . ويقول علماء العصر الحاضر (إن الأصل هو عالم يسمى الأثير لايرى ولا يحس) إذن لا فرق بين المحدثين والقديما . فالحمد لله على نعمة العلم والحكمة . انتهى عصر يوم الاثنين (١٩) من شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ هـ .

﴿ اللطيفة الثانية في العلوم الرياضية ﴾

هذا ما خطر لي يوم عيد الأضحى سنة ١٣٤٧ هجرية

يقول الله تعالى « الحمد لله فاطر السموات والأرض » فالسماء مغطورة والأرض مغطورة والحيوان مغطور والإنسان مغطور ولكل مخلوق حال خاصة جاءت له من أصل فطرته . وهذه الحيوانات مغطورة على أعمال بفرأئها التي فطرها الله عليها كما ترى الطيور مغطورة على الطيران وعلى بناء الأعشاش وتربية الذرية وبعضها مغطور على التفريد ، وبعض الحشرات مغطورات على الهندسة كالنحل والعنكبوت كما تقدم في هذا التفسير والإنسان له فطرة أوسع من فطرة الحيوان . إنه مغطور على القياس والاستنتاج والتفكير بحيث يستنتج الأصعب من الأسهل ، والبعيد من القريب ، والغائب من الحاضر ، وعظام الأمور وجلالها من أقلها وأضعفها .

ألا ترى رعاك الله أنه استنتج علم الهندسة من أمور معروفة تسهل على عامة الناس وجهلائهم ورعايمهم فتراه يستنتج من هذه القضايا الأولية الآتية أفانين الهندسة وبدائع النظم ، والقضايا الأولية الآتية وهي :

- (١) الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية .
- (٢) إن زيد على المتساوية متساوية صارت كلها متساوية .
- (٣) وإن نقص من المتساوية متساوية صارت الباقية متساوية .
- (٤) وإن زيد على غير المتساوية متساوية صارت كلها غير متساوية .
- (٥) وإن نقص من غير المتساوية متساوية صارت الباقية غير متساوية .
- (٦) والتي كل واحدة منها مثلان لشيء واحد بعينه فهي متساوية .
- (٧) والتي كل واحدة منها نصف لشيء واحد فهي متساوية .
- (٨) والسكل أعظم من الجزء .
- (٩) وإذا كان شيئان كل واحد منهما أعظم من كل ما الآخر أعظم منه وأصغر من جميع ما الآخر أصغر منه فهما متساويان .
- (١٠) والنفي والإثبات لا يجتمعان .

هذه هي القضايا الأولية التي استنتج العلماء منها الأشكال الهندسية في المقالة الأولى وهكذا فعلوا في الثانية والثالثة إلى المقالة الثامنة في الهندسة حتى أنهم بلغوا شأوا عظيما فيها ونظموا المدن وانملاك ، كل ذلك من نفس الفطرة . فالفطرة التي بها انبعث النحل والنمل والعنكبوت والأرضة إلى نظم أعمالها وهندستها وسياسة جماعاتها هي التي خلقت في الإنسان ففتحت له أبواب العلم على مصراعيه مما يشاهده في غدوه ورواحه مما يعتاده ؛ غاية الأمر أن الفطرة على [قسمين] فطرة جامدة . وفطرة قوية كاملة . فالفطرة الجامدة هي السكاسة الجامدة التي لا تفكر فيها حولها ، والفطرة القوية الكاملة هي التي تفكر وتستنتج وتستخرج العلوم والمعارف مما حولها . والفطر كلها من الله وقد أرسل الأنبياء ليوقظوا الناس لهذه الفطرة . فإذا سمع السلم قوله تعالى « فطرت الله التي فطر الناس عليها » اندفع إلى العمل والجد بالتشمير . إذن الله ياتنا لسوق الفطرة وإيقاظها لا لكسائها وإنامتها . فهذه القضايا التي في أوائل الهندسة بها استخرج القوم علومهم ونظموا دولهم . هكذا فعل علماء الطبيعة بطرق أخرى غير طرق علماء الهندسة فاستخرجوا من صفات الأمور عظامها ، فانظر رعاك الله إلى بعض ما فطر عليه هذا الانسان .

- (١) يقيس محيط الدائرة وقطرها ويعرف النسبة بينهما .
- (٢) يقيس المربع ويستنتج قانونه .
- (٣) يقيس المستطيل ويستنتج قانونه .
- (٤) يقيس متوازي الأضلاع ويستنتج قانونه .
- (٥) يقيس المثلث ويستنتج قانونه .
- (٦) يقيس الأشكال المنظمة المضلعة من مربعة ومخمسة ومسدسة وهكذا .
- (٧) يمسخ الدائرة ويستنتج قانونها .
- (٨) يمسخ القطاع ويستنتج قانونه .
- (٩) يمسخ المضلعات غير المنتظمة ويستنتج قانونها .
- (١٠) يمسخ السطح الجانبي للاسطوانة القائمة ويستخرج قانونها .
- (١١) ثم يمسخ السطح الجانبي للمخروط القائم ويستخرج قانونه .
- (١٢) ثم يمسخ الكرة ويستخرج قانونها .
- (١٣) ثم يمسخ حجم المكعب ويستخرج قانونه .
- (١٤) ثم يمسخ حجم متوازي المستطيلات والمنشور القائم والاسطوانة القائمة والاسطوانة المائلة .

هذه المساحات في علم الطبيعة مركب بعضها على بعض كأنها سلام ، وهذه درجات بعضها فوق بعض لا يعرف الناس أعلاها إلا إذا توصلوا لها بأدناها ، فلا نعرف مساحة الأحجام إلا بمساحات السطوح وكل درجة مرتبة على ما قبلها كما في أطوار الانسان طفلا ومراهقا وشابا الخ ، وكما في أحوال الأمم في رقيها ، وكما في انتقال الإنسان من حال إلى حال في أمور الدنيا والدين ، فلا شرح لك أيها الحكيم بعض ما تقدم لتتأمل فطرة الإنسان وكيف سارت في السبيل التي سنها الله فيه ، وكيف جاء القرآن مؤيدا لهذه الفطرة وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما أرسلهم الله ليوقظوا هذه الفطرة لا ليخمدوها فيقارظها كما حصل في العصور الأولى من الإسلام وأما الممجد فهو في العصور التأخرة . ومعلوم أن الله خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، ومن شأن هذا العالم أن الضد يكون بعد ضده . فإذا كان المسلمون الآن في حال ضعف فيكون من بعد ضعفهم قوة . وأى مسلم يقرأ ما نسكتبه الآن في هذا التفسير ثم هو لا يبذل نفسه وماله في رقي نفسه والمسلمين . وكيف لا يفعل ذلك وقد علم من هذا التفسير بالبرهان العقلي والنقلي أن حب الله عز وجل ورضاه مرتبطان بالتفوق في البحث والتنقيب والدراسة والنظر في آيات الله وعجائبه ، ومن أحب أحدا أكثر من البحث في آثاره وأعماله . وهذه أجسامنا وأجسام العوالم حولنا كلها من آثار رحمة الله . فالمسلم بدراستها يقترب من الله في كل لحظة ونفس . والتقرب المذكور من (جهتين) جهة العلم الذي انصف به وجهة العمل وهو انتفاع أمته بعلومه ومباحثه إذ يستخرج لهم من صغيرات الأمور كبيراتها ، ويقول المفسرون في قوله تعالى «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» إن الربانيين هم الذين يعلمون الناس واضحات المسائل من العلم قبل دقيقتها كما ترى في علم الطبيعة فعلماء هذا الفن يبتدئون أولا بقياس محيط الدائرة وقياس قطرها فيجدون أن النسبة التقريبية بينهما $(\frac{3}{7})$ ثلاثة وسبع 22 على 7 أو 14 3 أي ثلاثة و 14 من مائة وهذه النسبة يرمزون لها بحرف (ط) إذن طول المحيط يساوي القطر مضروبا في (ط) ومعنى هذا أن طول المحيط بمقدار قطره (٣) مرات وسبع مرة إلى آخر ما تقدم . أو طول المحيط يساوي (٢ ط) في نصف القطر ويرمز لنصف القطر (نق) إذن مساحة المحيط

تساوى (٢ ط) مضروبا في (نق) . (ثانيا) مساحة المربع . أولا يرسمون مربعا (ابجد) بحيث يكون كل ضلع من أضلاعه (٥) سنتيمترات والسنتيمتر جزء من مائة من المتر ثم يقسمون (بج) خمسة أقسام متساوية فيكون كل جزء منها سنتيمترا واحدا . ثم يقيمون من نقط التقسيم أعمدة على الضلع المذكور ، ثم يقسمون الضلع (جد) إلى (٥) سنتيمترات أيضا ويقسمون من نقط التقسيم أعمدة عليه فيرون إذن أن المربع الذي تراه أمامك وها هوذا :



مثلا انقسم إلى (٢٥) مربعا صغيرا طول كل ضلع منها سنتيمترا واحدا فشكل منها (سم) سنتيمتر مربع . إذن تكون مساحة المربع المذكور تساوى (٢٥) سنتيمترا مربعا (٥ في ٥) سم ، فتكون النتيجة أن مساحة المربع تساوى حاصل ضرب طوله في نفسه أى مربع طول ضلعه . (ثالثا) مساحة المستطيل وهو مالم يتساو طوله وعرضه وزواياه قائمة مثل مساحة سطح الباب والشباك ومؤخر الكرسي ويقعون به ما فعلوه في المربع فينتج أن مساحة المستطيل تساوى حاصل ضرب قاعدته في ارتفاعه (رابعا) مساحة متوازي الأضلاع فبعد أعمال يجرونها مثل ما تقدم يجدون أن مساحته تساوى حاصل ضرب قاعدته في ارتفاعه ولا يتم ذلك لهم إلا بعد موازنته بالمستطيل المذكور قبله فهو مبنى عليه فلا حاجة إلى الإطالة في ذلك ، ومتوازي الأضلاع المذكور لاتكون أضلاعه صانعة زاوية قائمة مع بعضها ويكون كل ضلعين متقابلين متوازيين (خامسا) مساحة المثلث ومساحة المثلث بنوها على مساحة متوازي الأضلاع فيقسمون ذلك التوازي ويجدون له قطرا يقسمه إلى مثلثين وكل مثلث مساحته نصف مساحة متوازي الأضلاع التي قدمه في القاعدة والارتفاع فتكون النتيجة أن مساحة المثلث تساوى القاعدة في نصف الارتفاع فهو مبنى على متوازي الأضلاع ومتوازي الأضلاع مبنى على المستطيل (سادسا) مساحة المضلعات المنتظمة فيقسمون مسدسا مثلا منتظما كمسدسات بيوت النحل ويقسمونه إلى ستة مثلثات متساوية ويستنتجون من ذلك مساحة المسدس المنتظم كله وهو ضرب نصف القطر في نصف طول المحيط وهذا واضح لأنه إذا كان المثلث يساوى ارتفاعه في نصف قاعدته وكان عندنا ست أنصاف قواعد ف ضرب هذه الأنصاف في نصف القطر وهو الارتفاع المشترك بينها يكون هو مساحة المسدس المنتظم ومثله مساحة جميع المضلعات المنتظمة . ولا جرم أن هذا البرهان منطبق تمام الانطباق على جميع المضلعات المنتظمة فالخمس ينقسم إلى خمس مثلثات والسبع إلى سبع مثلثات والقاعدة واحدة وهي ضرب نصف القطر في نصف طول المحيط (سابعا) مساحة الدائرة ، أنت ترى أن المضلع المنتظم قد عرفنا قانون مساحته ، ولا فرق بين ذى الأضلاع القليلة والأضلاع الكثيرة ، وما الدائرة إلا مضلع كثير الأضلاع لانهاية لعدد أضلاعه . إذن فنقل إن مساحة الدائرة تساوى ضرب نصف القطر في نصف المحيط كما قلنا في الأشكال المنتظمة إن مساحتها تساوى

نصف القطر في نصف أضلاعها أو مساحة الدائرة تساوي نصف حاصل ضرب نصف قطرها في طول محيطها .
 ومعلوم أن طول المحيط ٣ ط مضروبا في نصف القطر فيكون هكذا ، مساحة الدائرة تساوي نصف القطر
 مضروبا في ٣ ط مضروبا في نصف القطر على اثنين أو مساحة الدائرة تساوي (ط نق ٣) أي تساوي (ط) في نصف
 القطر مربعا فهذا نحن أولاء احتجنا في مساحة الدائرة إلى مساحة الأشكال المنظمة وفي مساحة الأشكال المنظمة
 إلى مساحة الثلث وفي مساحة الثلث إلى مساحة متوازي الأضلاع وفي مساحة متوازي الأضلاع إلى مساحة
 المستطيل . هذا من جهة ومن جهة أخرى استعملنا أول نظرية وهي مساحة محيط الدائرة وبوضع هذا مع
 ذلك حدث عندنا نصف القطر المربع فقلنا (ط نق ٣) فهذه درجات بعضها فوق بعض كدرجات العلوم ودرجات
 الارتقاء في جميع أعمال الحياة كما قال تعالى « لتركبن طبقات من طبقات » وكما قال تعالى أيضا « فليرتقوا في
 الأسباب » فهذه أمور مرتبة منظمة أعلاها متوقف على أدناها كما تتوقف آراء الإنسان وعلومه بعضها على
 بعض . ولا جرم أن الله عز وجل أعطى كل إنسان في الأرض فطرة مشتركة مع الفطر العامة ولها اختصاص ما
 فإذا لم يعطها وفتح الله لها أبواب المعارف ولم يمنعهما تقليد أو كسل نالت درجات العلم درجة فدرجة منظمة
 انتظام هذه الأشكال بعضها على بعض . ولا ينال الإنسان العلم الأعلى إلا بعد معرفة الأدنى كما لم يعرف مساحة
 الدائرة إلا بعد مساحات الأشكال قبلها من محيط الدائرة والمستطيل والمتوازي الأضلاع والثلث والشكل
 المنتظم الخ . فاعلم ذلك وأيقن بأنك لا تنال علما إلا بعد أن تعرف ما قبله ولن تنال الأعلى إلا بعد أن تنال الأدنى
 وإلا خر أعلاها على أدناها وذهب العلم أدرج الرياح . (ثامنا) مساحة القطاع فإذا وجدنا أن مساحة الدائرة تساوي
 نصف حاصل ضرب نصف القطر في المحيط فليكن الجزء من الدائرة وهو القطاع يساوي نصف حاصل ضرب
 نصف القطر في طول القوس لأن القوس جزء من المحيط وهذا واضح (تاسعا) مساحة الضلع غير المنظمة وهذه
 مبنية على مساحة المثلثات كما نبى ما تقدم عليها فيقسم ذلك الشكل الذي لم ينظم إلى مثلثات وبجمعها تكون
 مساحة ذلك الشكل . (عاشرا) مساحة السطح الجانبي للأسطوانة القائمة كالأعمدة التي ترى في المنازل
 والمساجد ، ولا جرم أننا لو لفنا حول الاسطوانة ورقة ثم بسطناها لم نجد لها إلا مستطيلا قاعدته تساوي محيط
 قاعدة الاسطوانة وارتفاعه يساوي ارتفاعها ومعلوم أن مساحة محيط الدائرة [٣ ط نق] ولم يزدنا إلا الارتفاع
 (ع) فتكون مساحة السطح الجانبي للأسطوانة القائمة تساوي [٣ ط نق في ع] .

(١١) مساحة السطح الجانبي للمخروط القائم لما كان المخروط القائم في الحقيقة يرجع إلى قطاع دائرة
 قوسه يساوي محيط قاعدة المخروط ونصف قطره يساوي راسمه وكانت مساحة قطاع الدائرة تساوي نصف حاصل
 ضرب قوسه في نصف قطره كانت مساحة السطح الجانبي للمخروط تساوي نصف حاصل ضرب محيط قاعدته
 في راسمه أي أن مساحة السطح الجانبي للمخروط تساوي نصف محيط القاعدة في الراسم أو (٣ ط نق) على (٣)
 في الراسم أو (ط نق) في الراسم وصورة المخروط أشبه بقمع السكر .

(١٢) ثم تمدى القوم في البراهين فعرفوا أن مساحة سطح الكرة (١٢) تساوي (٤ ط نق ٢)
 و (نق ٢) معناه نصف القطر مربعا .

(١٣) وحجم متوازي المستطيلات والمنشور القائم والأسطوانة القائمة يساوي في جميعها ضرب مساحة
 القاعدة في الارتفاع .

(١٤) وحجم المنشور المائل والأسطوانة المائلة يساوي كل منهما ضرب مساحة القاعدة في الارتفاع .

(١٥) وحجم الهرم القائم يساوي (١ من ٣) من مساحة القاعدة في الارتفاع ومثله حجم الهرم المائل

(١٦) وحجم المخروط يساوي (١ من ٣) من مساحة القاعدة في الارتفاع أو (١ من ٣ ط نق ٢) (ع)

(١٧) وحجم الكرة يساوي (١ من ٣) من مساحة السطح في نصف القطر أو (٤ على ٣ طنق ٢ في نق)

أو (٤ على ٣) طنق ٣

هذه هي أم المقاييس في هذه الدنيا عرفها الناس بالبراهين فاستدلوا بالأقل على الأكثر وبالأسهل على الأصعب وانتقلوا من السطوح المستوية إلى السطوح المنحنية ثم إلى الأحجام المستوية والمنحنية . فبعد أن كانوا يقيسون الباب والشباك أخذوا يقيسون سطوح الهرم وأحجام الكرات العظيمة . وبهذا عرفوا مساحات الكرة الأرضية ومساحات الشمس سطحها وحجمها ومساحات الكواكب العظيمة حتى عرفوا أن بعض الكواكب الصغيرة التي نراها بأعيننا تقدر بحجم الشمس (٢٥) مليون مرة .

هذه هي فطرة الله التي فطر الناس عليها . فطرة وثابة لا تستقر على حال حتى تصل إلى النهايات . يجاس أحدنا في حجرته مفكرا فيجد روحه تطوف أرجاء العالم برا وبحرا وجوا وسماء وأرضا في لحظة . فما هذه القدرة ؟ هذه الروح لوخلت وشأنها ولم تقيد بالقيود الأرضية لطارت إلى عوالم أجمل ولكنها قيدت وأوقفت حتى تربى في هذه الأرض وتدرس هذه الأمور لتسكون عوننا لها في مستقبل سفرها « وأن إلى ربك المنتهى » انتهى في صباح يوم الأربعاء ٢٢ مايو سنة ١٩٢٩

(بهجة العلم في مساحات هذه الأشكال)

هذا هو النظام الإلهي الجميل الذي يمر عليه أكثر الناس وهم غافلون . يا الله ما أجمل فطرنا وأبهجها . هذه « فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » فطر الله أرواحنا على البحث والجد . فماذا نظرت ؟ العوالم فوجدتها ذات سطوح مستوية وأخرى منحنية أخذت تنظر فوجدت السطوح المستوية يمكن الاستغناء عن مساحتها بمساحات خطوطها المستقيمة . فما عليهم إلا أن يربعوا ضلع الشكل الربيع فيعرفون المساحة ، ثم نظروا في محيط الدائرة فوجدوا أنهم إذا داروا حولها كان ذلك نصبا لهم فاكتفوا بقطرها بل بنصف قطرها وضربوه في اثنين مع الضرب في النسبة أيضا وقالوا محيط الدائرة يساوي (٢ نق في ط) بدل أن يقيسوا طول القطر كله ويضربوه في النسبة التقريبية (ط) فما عليهم إلا أن يضربوا نصف القطر في (٢) ثم يضربون ذلك في (ط) واستعملوا هذا الاختصار في مساحة الدائرة فقالوا (طنق ٢) وفي مساحة سطح الكرة فقالوا (٤ ط نق ٢) فاذا لا مساحة في محيط الدائرة ولا في الدائرة ولا في سطح الكرة إلا لنصف القطر ، غاية الأمر أنهم إما أن يضربوا تلك المساحة في (٢) ثم في (ط) وإما أن يربعوا تلك المساحة ثم يضربونها في (ط) أو في (٤ ط) ولما وصلوا إلى حجم الكرة لم يصنعوا شيئا أكثر من مساحة نصف القطر أيضا وقالوا إن حجم الكرة (٤ من ٣ طنق ٣) ومعنى هذا أنهم لم يحتاجوا في محيط الدائرة ولا في الدائرة ولا في سطح الكرة ولا في حجم الكرة إلا إلى مساحة نصف القطر وحده وهذا يضرب في أعداد تقل في مساحة الخطوط المنحنية وتزيد في مساحة السطوح وتسكون أكثر في مقادير الأحجام ، ففي حجم الكرة يكعبون نصف القطر ويضربون ذلك المكعب في النسبة للتقدمة (ط) ويأخذون (٤ على ٣) من ذلك كله فيتم المقصود .

هذه فطرنا الوثابة التي لا تهدأ ولا تنفد تنتقل من حال إلى حال (وأن إلى ربك المنتهى) (اللهم إن فطرنا أنوار أرسلتها إلى الأرض ونورها مرسل منك فهي تختصر الطريق للوصول إليك .

ها هي ذه وجدت الأحجام حولها محكومة بقوانين فعرقتها وتصرفت فيها وحكمتها . ها هي ذه عقولنا رأيت الأرض والسماء والكواكب فحكمتها بالقوانين وجعلت لها وحدة ، وأصبح أحدنا يرى هذه العوالم على (قسمين) : عوالم في أنفسنا وعوالم حولنا ، أما العوالم التي في أنفسنا فانما هي قوانا الحيوية من الشهوة والغضب وما معها من العواطف والأخلاق والذائل والفضائل ، وأما العوالم التي هي حولنا فهي تلك الأشكال

المنظمة وغير المنظمة ، ثم يرى كل منا أن له (قوتين) : قوة عقلية وقوة إرادية ، فقوة الإرادة نحكم على شهواتنا وعواطفنا ونهذب أخلاقنا ، وبالنفوس العقلية نحكم على المادة ، فإرجاع المساحات المتنوعة إلى مساحة الخطوط المستقيمة بحكم قوانا العاقلة وإرجاع قوة الشهوة والغضب إلى حكم العقل إنما يكون بقوة عزيمتنا وإرادتنا ، إذن الذي حكم العالم الداخلى فى أنفسنا والخارجى فى عوالمنا هما أمران : العلم والإرادة ، والعلم والإرادة فينا من المواهب الإلهية المنبثقة من العالم الإلهى الأعلى والله هو الولى الحميد .

(نظرة أعلى فى فطرتنا)

هذا عمل الفطرة فى عواطفنا وفى عوالمنا حكمتهما ولجئهما بالهذيب فى الأولى والقوانين فى الثانية . إذن هذه الأجسام الإنسانية وهذه العوالم الجسمية ألواح جعلت لتقرأها أرواحنا بدليل أننا نرى هذه العوالم وهذه الأجسام فى تغيير مستمر كما أن الألواح للأطفال تمنحى كتباً بها ثم تكتب ، فما دام الطفل فى المكتب يدوم الإبتات والمحو فدوام التبدل فى أجسامنا وفى عوالمنا ماهو إلا علوم تظهر لنا وترسم فى أذهاننا ثم تتلوها أخرى ونفوسنا هى الباقية ، ألا ترى رعاك الله أننا نتذكر صوراً وأشكالاً كما اطلعنا عليها فى الصغر فتراها الآن كما هى فى أنفسنا ولا وجود لها فى المادة .

سبحانك اللهم وبمحمدك أرىتنا وعلمتنا ولا سعادة لنا والله إلا بما فى نفوسنا ، أما هذه المادة فما هى إلا ألواحنا وهذه الألواح كما تقدم (فى سورة النور عند آية « الله نور السموات والأرض ») ما هى إلا نقط ضوئية يجرى سالبها حول موجبها باختلافها تكونت العناصر ومن العناصر كانت المركبات ، إذن هذه المادة أشبه بالصور المتحركة السماة (السينما) قد صار هذا الخيال عند حواسنا حقائق ثابتة رحمة من الله لنا ليعلمنا حتى نلتحق بالعالم الأعلى عالم السكالم والجمال ، لقد أجمع القدماء من علماء الفلسفة والمحدثون ألا وجود للمادة وكل ما أراه ماهو إلا صفات وظواهر كما يعرف هذا من قرأ فن المقولات فى الفلسفة القديمة أو أضواء وكهرباء تكافئة فى الفلسفة الحديثة والكهرباء والأضواء ترجع إلى حركات والحركات إنما تكون فى الأثير والأثير عالم أقرب إلى عالم الأرواح لا يرى ولا يلمس ولا يحس هذه هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها . فطرح أن يرتقوا فى الأسباب حتى تصل النفوس إلى عالمها فتكون هناك سعادتها وما مثل سعادة الأتس فى الأرض بالمآكل والملابس والملك والعز والغلبة والقهر بالنسبة للسعادة الروحية إلا كنسبة الجهل إلى العلم أو نسبة العدم إلى الوجود أو نسبة الوجود المادى للوهم إلى الوجود الروحى المحقق ، وماتنوع اللذات فى عالم المادة إلا ضرب مثل لتنوعها هناك فى عالم الأرواح .

أيها التكى متى عرفت هذا وأيقنت به فهمت قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) فليس ماأرونه من التبدل والتغير المستمر محوا وإثباتاً لعباً ولهوياً بل ذلك تعليم وتدريب لكم وليس تبدل الحوادث عليكم وتعاقبها إذلالاً لكم واتقائاً بل تهذيباً وتعلماً ، ولم أخلق هذه الفطر الوثابة فىكم إلا لغاية نافعة لكم ، أفلا ترون النحل وكثيراً من الحشرات ها أنا ذا قد كونت لها الأزهار بالألوان الجميلة لغاية حقيقية وهى أن تمشقها تلك الحشرات فتأقن إليها سرعاً ثم تترب منها العسل (لغائتين) : غاية منفعة النحلة ونحوها بحياتها ، وغاية إلقاح النبات بفعل الحشرات فإذا كان هذا فعلى بالفطرة الحيوانية ولا أعطى لها فطرة إلا لغاية نافعة لها ، فهل أعطى الإنسان هذه الفطرة الشريفة التى هى أرقى من فطرة الحشرات إلا لغاية عالية ؟ فإذا طارت النحلة للزهرة الملوحة باللون الجميل فنالت العسل بهذه الطريقة أفلا يكون حبكم وغرامكم بالاطلاع على العوالم العلوية والسفلية والهبجة بكشف الكواكب الجديدة فى العصر وعدم وقوف نفوسكم على حال من تلك الأحوال الكثيرة دليلاً على أنكم متجهون

إلى حال عالية شريفة تلتزمكم ومقام سام شريف ، وهل يكون هذا إلا بالعلم . هذا بعض سر قوله تعالى «ولكن أكثرهم لا يعلمون» لأن من يجهل أمر الحشرات ، وإفحامها كأغلب أمم الإسلام اليوم فهو حري أن يجهل أن خلق السموات والأرض مبنى على النظام وأن خلق الإنسان لغاية سامية شريفة عالية وسعادة باقية .

فقد بعلم تعيش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء

﴿ اللطيفة الثالثة في العلوم المنطقية ﴾

اعلم أن الله عز وجل أعطى كل شيء خلقه فهدي ، فشكل حيوان فطرته الخاصة به بحيث كانت تلك الفطرة كافة بشئونه العامة والخاصة ، فللنحل فطرة بها بنى بيوته وملاها بالعسل وربى ذريته ، وللعنكبوت نسجها الخاص بها الذي يكون فيه مأواه وبه يصطاد الذباب وغيره من الحشرات وهكذا مما ظهر في هذا التفسير في مواضع كثيرة . هكذا الانسان له فطرة بها يهتدى لئدى أمه ويمسك ويمتصه ويبكى عند الجوع ويضحك عند الفرح . وهكذا تسوقه غريزته وفطرته إلى قيامه بشئونه وأعماله جميعها فيستعمل سمعه وبصره وشمه وذوقه ولسه ، كل ذلك بفطرته بلا معلم يعلمه ولا مرشد يرشده ، وقد وجد الناس في عصرنا أنهم عثروا في الآثار التنوغة في القدم أن الأمم جميعها لها معابد وعبادات وصلوات وتوجهات إلى العبود ، واختلافهم إنما هو في أوصافه وعدده ولكنهم جميعا متفقون على وجوده ، إذن الاتجاه إلى موجود له سمو وعسلى مسلم به في الفطرة وهذا معنى قوله تعالى «فطرت الله التي فطر الناس عليها» فإن هذا النوع الانساني قد انفق تاريخ أمه على أنهم جميعا كانوا يتسابقون إلى الاستعانة بالوجود الأسمى ، وفطرة الناس منحصرة في (أمرين اثنين) لا ثالث لهما (الأمر الأول) إنماء الجسم والمحافظة على النسل ، فلا رجل ولا امرأة إلا دأبهما المحافظة على بقاء أجسامهما وتربية ذريتهما ، هذه فطرة فيهما ولولاها لخلت الأرض من نوع الإنسان وهكذا كل حيوان (الأمر الثاني) المحافظة على إسماعاد الروح وآية ذلك ما تراه من حفظ العرض والخوف من الشئمة والعار والحزى والنذل وما أشبه ذلك وهكذا ما ذكرناه من توجهها لمبدع السكون واعترافها به وعموم ذلك في كل زمان ومكان قديما وحديثا حتى إن الحيوانات عند حدوث اللدات ترفع وجوهها إلى أعلى دلالة على أنها عرفت أن هناك مصدر لوجودها تستغيب به ليس في هذه الأرض ، إذن الفطرة تشمل أعمال الروح وأعمال الجسم إجمالا ، هذه الفطرة كما ألهمت الصبي التمام ثدى أمه حفزت المراهق والشاب والشيخ أن يتعاطوا الطعام والشراب والزرع والتجارة وجميع أعمال الحياة ، فالناس عاملون في الدنيا لطلب الرزق بفطرتهم كما تعمل الطير سواء بسواء ، ولقد نجد أمة كالأمة المصرية والعراقية نهرا يجرى كالنيل والقرات فيستعملونه بأن يسقوا أرضهم ويزرعوها وهنا يساعد تلك الفطرة مدبرون ومعلمون فيعلم الكبار الصغار كيف يحرقون الأرض وكيف يبذرون البذر وهذا بعينه فطرة بعض الطير تساعد أولادها في غدوها ورواحها وتكون قدوة لها ، وهذه الفطرة كافية للأمم في حال بداوتها وفي حال طفوليتها فتكون أعمالهم قليلة وطرق كسبهم أقرب إلى البساطة وكما أكثر عددهم وازداد جمعهم سميت فيهم ملكات التفكير وازدادت طرق الأعمال فاحتاجوا إلى إبراز ما كمن في فطرتهم من فنون العلوم كالفنندسة والحساب والجبر ورصدوا النجوم ليعرفوا طرق البر والبحر ، هنالك يستخرجون من الأرض والعوالم المحيطة بهم كنوزا كانت مخبوءة فيها على مقدار استخراج القوى الكامنة في فطرتهم إلى حين الوجود وذلك بالعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها (وبيانه) أن الإنسان يسمع ويصير السموعات والبصرات ولكل حاسة محسوسات خاصة؛ فالألوان والبعد والقرب والشكل والقدر والسطح وما أشبه ذلك تعرف بالبصر وأنواع الأصوات تعرف بالسمع ، فإذا كان المحسوس لا يعرف إلا بحاسة واحدة

وكانت الحاسة سليمة من الآفات فهذه الحاسة صادقة في حكمها عليه ، ألا ترى أن الصوت إنما يعرف بالسمع أما اللون والشكل مثلا فالسمع لا يدركهما هكذا الصوت لا يدركه البصر ، إذن هذان كل واحد منهما مختص بحاسة لا يشاركها سواها في إدراكه . إذن يصدق السمع في السموع والبصر فيما اختص به من الألوان ونحوها .

﴿ التفاحة واللبن ﴾

فأما أمثال التفاح واللبن فإنهما لا يختصان بحاسة واحدة . فإذن لا يصدق العين في حكمها على التفاحة ولا في حكمها على اللبن ، وبيانه أن الإنسان يشاهد التفاحة فيحكم عادة بأنها تفاحة ، وقد يكون مخطئا لأننا لو صنعنا تفاحة من الكافور ولونها بلون التفاح ورأيناها ثم شمناها لحكمتنا في أول الأمر خطأ أنها تفاحة مع أن هناك حاستين آخرين يجب أن تشهدا وهما حاسة الذوق وحاسة اللمس فإن حكمتنا فيها وإلا فلا . هكذا إذا صنعنا ما يشبه اللبن كالدقيق المخلوط بالماء فالعين تراه ويخيل للعقل أنه لبن فلا بد من حكم القوة الذائقة مع العين ، فهنا ثلاث مراتب في الحكم : حكم بحاسة واحدة وحكم بحاستين وحكم بثلاث حواس . فإذا خالفنا هذه القواعد فإن العقل قد يحكم خطأ . ألا ترى أنه يرى السراب في وسط النهار فيحكم بأنه ماء والعين صادقة في أنها رأت لون الماء وهيأته بحكم العقل إذن بأنه ماء خطأ لأن الماء لا يعرف بحاسة البصر وحده فلا بد من انضمام حاسة اللمس إليه ليعرف أنه سائل وحاسة الذوق ليعرف أنه ماء وما دام ذلك متعذرا على من بالصحراء حكمه معرض للخطأ . هذا مجمل الأدلة وهي في أحكام الحواس في محسوساتها .

﴿ مقاييس العقول التي تقيس بها المعاني فتعرف صادقها وكاذبها ﴾

للعقول الإنسانية النبعثة من الفطرة مقاييس خمسة : مقياس يحكم حكما قاطعا . ومقياس يحكم حكما ظنيا ، ومقياس يقيس ويصكون أضعف حكما مما قبله . ومقياس يكون أقرب إلى الوهم . ومقياس قصد أن يكون حكمه خطأ . فأما القياس الأول فهو البرهان ، وأما الثاني فهو الجدل . وأما الثالث فهو الخطابة . وأما الرابع فهو الشعر . وأما الخامس فهو السفسطة . أما البرهان فذلك هو المبني على ما شهدت به الفطرة في مبادئ أمرها بحيث لا يختلف فيها ولا يشبهه جميع الناس من جهال وعلماء وأغبياء وأذكياء مثل .

- (١) إن الواحد نصف الإثنين والكل أعظم من الجزء .
 - (٢) والشيطان للساويان شيء واحد متساويان .
 - (٣) والنفي والإثبات لا يجتمعان .
 - (٤) وإذا أضفنا شيئين متساويين لشيئين متساويين كان المجموعان متساويين .
 - (٥) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين متساويين كان الباقيان متساويين .
 - (٦) وإذا أضفنا شيئين متساويين إلى شيئين غير متساويين كان المجموعان غير متساويين .
 - (٧) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين غير متساويين كان الباقيان غير متساويين .
 - (٨) وإذا ساوى شيئين نصف الشيء كانا متساويين .
 - (٩) وإذا ملأ شيئين حيزا واحدا على التعاقب كانا متساويين .
- وهكذا كما ذكره (أقليدس) في أوائل الهندسة ، وهذه وأمثالها هي المسميات أوليات لأنها تعرف في أوائل العقول ومثلها المحسوسات المقدمة على شرط سلامة الحواس واستيفاء الشرائط التي أشرنا إليها . وهكذا

ما تصدقه التجربة مثل العقاقير الطبية المسهلة والمخدرة والنومة والمعطية حرارة أو برودة للجسم ، فهذه متى صدقت تجربتها عدت من المقطوع بها . وهذا للتواتر الذي شهد به جموع يحكم العقل قطعاً بصدقهم كما نقول في مصر إن في الأرض بلاداً تسمى الصين أو اليابان أو فرنسا أو ألمانيا أو أستراليا ومكة والمدينة واليمن فهذه تقطع بوجودها وإن لم نرها . وهكذا ما لا حفظناه مراراً وعقلناه مثل أن نرى أن القمر إذا كان مقابلاً للشمس امتلاً ضوءاً وكما اقترب منها قل ضوءه ، ومتى كان مقارناً لها لم يكن له ضوء ، فهذا دلنا على أنه استمد نوره منها لأنه لما قابلها أشرق نورها عليه فلما صار بيننا وبينها فعلا كان وجهه للشرق في جهة الشمس لافي جهتنا ثم تكرر هذا لحسبنا حكماً يقينياً كما حكمتنا في المهربات سابقاً . وهكذا نلاحظ أن في باطننا آلاماً نسميها جوعاً وآلاماً نسميها عطشاً وأخرى نسميها شبقاً وأخرى نسميها مرضاً وهي كثيرة لا حد لها ، ونجد لنا غضباً وحسداً وحقدًا ورغبة ورهبة وحباً وكراهة فهذه يقينيات .

فهذه كلها إذا جمعت مقدمات في أدلتنا اليقينية كانت معينة على صدق النتيجة . هذا هو المسمى بالبرهان وبليته في القوة الجدل .

﴿ الجدل والحطابة والسفسطة والشعر ﴾

أما الجدل فهو ما يستعمله المناظران بحيث يورد كل منهما ما يسلم الخصم به كالمسلمات والشهورات كرجال الدين والذاهب المختلفة في كل أمة فهؤلاء يكفهم في أدلتهم ما يوجب الظن والترجيح لا غير . وأقل من الجدل الحطابة ، فالخطيب يشوق المستمعين بما يوجب عقولهم فيستعين بالأمثال المشهورة مثلاً ويجيبهم فيما يريد بالطرق المتوسطة بين الصدق والكذب كالألوان الشعرى وهناك ما يقصد به التحسين والتقييح . ولقد تكفل بهذا فن البيان بأمثال المجاز والسكناية والتشبيه والاستعارة التمثيلية وما أشبه ذلك . فهذه كلها يقصد بها جذب المخاطبين بالصور الجذابة ولا يراعى فيها الحقائق والسامع لها قد يعرف كذبها ولكن لها أثر في النفس وأدناها كلها المغالطة وهي السفسطة التي يستعملها رجال السياسة وأمثالهم بأن يأتوا بأدلة تشبه الحق وقد أرادوا بها باطلاً وقد شبهوها بالدينار ، فإن كان ذهباً خالصاً فهو مثال للبرهان الذي لا يخطر ضده بالبال ، وإن كان فيه زغل لا يعرفه إلا الحاذقون كان مثلاً للجدل ، وإن كان زغله يعرف بسهولة كان مثلاً للحطابة وإن كان نحاساً كله كان مثلاً للمغالطة . وأما الشعر فهو يقصد به التحسين والتقييح لا البرهان .

فهذا كله ملخص من علم المنطق وعلم المنطق ملح العلوم كلها وما ذكرناه هو أحد قسميه المسمى بالتصديق . واعلم أن المطلوب علمه :

- (١) إن كان أمثال هذه الشجرة أو هذه الدواة فهذا لا يبرهن عليه ولكن سبيل العلم إليه إنما يكون بالتحليل والتحليل قام به علم الكيمياء ، فرى علم الكيمياء قام بتحليل المواد فعرفت فيحللون الماء والهواء ويفصلون العناصر التي حواها كلاهما فيحكون حكماً قاطعاً .
- (٢) وإن كان نوعاً كالإنسان فلا سبيل للحكم عليه بالتحليل ولا بالبرهان ولكن بالتعريف وذلك بالحد أو الرسم المعروفين في المنطق وذلك بالجنس والفصل القريب في الأول بأن يقال هو حيوان ناطق أو بالجنس وحده أو بالجنس والفصل البعيد في الثاني .
- (٣) وإن كان المطلوب جنساً فلا حكم عليه بحد ولا بتحليل بل بالقياس كحدوث العالم وكنعف العقاقير وضرها وهكذا فهذه لا بد فيها من القياس .
- (٤) وإن كان المطلوب إنما هو تمييز الكلليات بعضها من بعض فلا سبيل لها إلا بالتقسيم كعرفة الفرق

بين المادة ومقاديرها وأعراضها المحسوسة من أوصافها المنظورة والسموعة والمذوقة والمفوسة ومن نسبتها إلى غيرها كالأبوة والبنوة ومكانها وزمانها وفعلها في غيرها وانفعالها لغيرها . فهذا كله لا يتم إلا بالتقسيم وله فن يسمى (فن القولات) من علم المنطق وهو أيضا من الفلسفة العامة . واعلم أن المتعلمين في مدارس العالم قاطبة يستعملون التحليل كما تقدم في علم الكيمياء بسائر فروعها فهذا يورثهم يقينا فيما يزاولونه وبه استنتجوا منافع للنوع الإنساني وهذا من فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فإذا رأينا الله فطر الطفل على التقام ثدي أمه وعلى إغماض عينه سريعا إذا أحس باقتراب جسم غريب إليها ، نرى الذين يحللون المواد يعرفون حقائقها بفطرتهم غاية الأمر أن الفطرة في الأول لا تحتاج إلى تعلم لاستخراج ما كمن في أنفسنا، وهم أيضا يقسمون الكلمة إلى (ثلاثة أقسام) اسم وفعل وحرف وهو من أنواع المنطق المتقدمة ، ونراهم أيضا يقرءون الهندسة وكلها براهين والبراهين أشرف أنواع القياس ، إذن العلوم التي يدرسها الناس مشحونة بعلم المنطق الذي به استخراج الناس المجهول بواسطة المعلوم وهذا الاستخراج سببه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فإذا فطر الله الناس على استعمال الفاكهة التي يرونها في الجبال بلا زرع هكذا فطرهم على أن يستخرجوا من الأرض بالجد والبحث ما يوازي ما استعملوه بلا جد ولا نصب ، وإذا رأيناهم أجابوا الأنبياء كنبينا صلى الله عليه وسلم إذا أممهم دين الفطرة وقرأ لهم القرآن هكذا نراهم استخراجوا بقولهم وفطرتهم من هذا السموع ومن المعقول الموافق له علوما استبحر بها العمران وارتقت الأمم ، فشجر البادية استعملناه بفطرتنا وشجر حدائقنا استعملناه بعد الجد والنصب بمساعدة فطرتنا والقرآن عرفنا منه حرمة وأد البنات بمجرد سماعه ولكن لا ننظم الأمم ولا الجماعات على طريق القرآن إلا بجد ونصب وإعمال ففكر بمساعدة فطرتنا .

(مراتب الناس في الاستدلال)

- (١) « مرتبة الصبي » إن الصبيان مطبوعون على القياس والاستدلال وتكون نتائجهم ما بين صادقة وكاذبة لعدم اختبارهم ، فإذا رأى الصبي نظيره في مكتب أو طريق حكم بأن له والدين وهذا الحكم صحيح لأنه استدلال بالمعلول على العلة لأن المعلول لا بد له من علة .
- (٢) إذا رأى زوجا وزوجة قال لها أين ولدكما وهذا الحكم يصدق ويكذب لجواز ألا يكون لها ولد لأن العلة لا تنتج للمعلول إلا إذا استوفت جميع شرائطها والزوجان لا يلزم من وجودها وجود الولد لأنهما يصلحان علة بشرائط خاصة ومتى فقدت لم يصلحا أن يكونا علة .
- (٣) وهكذا كما رأى ولدا ظن أن له إخوة كإخوته ودارا ودابة وجوعا وشبعا على حسب ما يقوم بنفسه هو في وقت الاتصاف بذلك ، فإن جاع ظن جميع الأولاد جياعا وهكذا إن عطش وعلى ذلك قفس ولا يقلع عن ذلك إلا بعد أن يعقل ويدرك خطأه .
- (٤) متى كبر وأدرك خطأ تلك القضايا وجد في نفسه بقيتها مثل أن يعتقد أن المطر في كل بلد حين يكون يبلده وهكذا الحر والبرد والصيف والشتاء وهكذا كله خطأ ، ففي الأرض شتاء أيام صيف بلاده وبالعكس وعلى ذلك قفس وذلك بمنعه التعلم .
- (٥) إن كل نتيجة لا بد لها من مقدمتين فأكثر في كل استدلال منطقي أو هندسي أو غيرها وقد تكون المقدمات كثيرة جدا مثل قولهم زوايا المثلث تساوي قائمتين لم تكن إلا بعد اثنتين وثلاثين شكلا وقولهم مربع وتر الزاوية القائمة مساو لمربع مجموع الضلعين الآخرين لم يتم إلا بعد (٤٧) شكلا وهذا الشكل عندهم يسمى شكل العروس .
- (٦) وقد يكتفي في البرهان بالقليل من المقدمات . مثال ذلك الاستدلال على النفس فيقال (كل جسم

فهو ذو جهات) ولا جرم أن هذه مقدمة صادقة لا عوج فيها (وليس يمكن الجسم أن يتحرك إلى جميع جهاته دفعة واحدة) وهذه مقدمة أيضا صادقة في أولية العقول (وكل جسم يتحرك إلى جهة دون جهة فلعلة ما تحرك) وهذا إثبات للنفس ، ويراد بعد ذلك إثبات أنها جوهر لا عرض فيقال (وكل علة محرّكة للجسم لا تخلو من أن تكون حركتها على وتيرة واحدة في جهة واحدة مثل حركة التقييل إلى أسفل والخفيف إلى فوق ، فهذه تسمى علة طبيعية ، وإما أن تكون حركتها إلى جهات مختلفة وعلى فنون شتى بإرادة واختبار مثل حركة الحيوان فتسمى نفسانية) وهذه قسمة عقلية مدركة حسا (وكل علة محرّكة للجسم بإرادة واختبار فهو جوهر) فالنفس إذن جوهر لأن العرض لا فعل له .

هذا ملخص ما ذكره [إخوان الصفا] هنا ، وأنا أقول أيها الذكي هذه الألفاظ غريبة على هذا الكتاب وقد طال أمدها ولكن الأمر سهل ، فمعى هذا كله أن الإنسان قد يستدل بمقدمات طويلة وكل مقدمة تحتاج لما قبلها وذلك كأدلة المهندسة فهي متصل بعضها ببعض حتى تبلغ المثات ولكنها في آخر أمرها ترجع إلى ما يعرف في أوائل العقول مثل ما تقدم وقد تكون المقدمات قليلة كأن يقال في الاستدلال على النفس إن الجسم له جهات ست فلماذا يتحرك إلى جهة دون جهة فلا بد من سبب ، فإن رأيتاه يتحرك إلى جهة واحدة على وتيرة واحدة سميناها علة طبيعية ، ومعنى هذا أن الذى حرك هذا الجسم ليس جسما بل هو أمر معنوى وإن رأيتاه يتحرك إلى جهات مختلفات بإرادته واختياره سمينا ذلك المحرك نفسا وذلك كالحويوان والإنسان ولكن هذه القوة التي سميناها نفسا ربما كانت عرضا أعنى شيئا كاللون والخفة والثقيل وإذن يكون تابعا للجسم لأنه من أوصافه فنقول « كل شيء يحرك الجسم بالإرادة والاختيار لا بد أن يصكون جوهر » أى إنه ليس عرضا لأن العرض لا فعل له وإلا لجاز أن يكون اللون يعقل ويفهم وهكذا الثقيل والخفة وهذا تأباه الفطر الإنسانية .

هذا كله من فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فالاستدلال بالبرهان والمعرفة بالمنطق وتحرى الصدق في النظريات ، كل هذا من موجبات الفطرة فإذا رأينا قوما يعيشون في الأكوخ ويكتفون بالصيد ولا يعرفون الحرث ولا القناطر ولا الجسور قلنا هكذا رأينا في الحيوان أمثال الناس تربي ذريتها بغير وجود آبائها أى إن الحيوانية هناك ناقصة . هكذا الإنسانية هنا ناقصة لم تستحكم . وإذا رأينا أناسا شقوا الأرض وزرعوها وارتقوا قلنا هكذا رأينا الطير تحضن بيضها وتربي ولدها وهذا كله سميناها فطرة ، فالطير تربي وتحضن بيضها بالفطرة كما أن الجراد ترك بيضه وقص وحده بالفطرة . هكذا هنا عاش الناس في الأكوخ بالفطرة مع نقصهم وآخرون عاشوا بالعلم فخرثوا الأرض وزرعوها وشقوا الأنهار ونظموها كما حضنت الطيور البيض وربت أفراسها بالفطرة غاية الأمر أن الفطرة في الطير والإنسان الدنى أكمل من الفطرة في الإنسان الممجى كما أن الفطرة في الطير أكل منها في الجراد والناموس والذباب . ونسبة الطير إلى الآساد والوحوش أبعد جسدا من النسبة بين الإنسان المتوحش وذى المدنية في عصرنا الحاضر . إذن هذا الدين الاسلامى « فطرت الله التي فطر الناس عليها » فهو دين للتوحشين لأن الوحشية من الفطرة ودين أصحاب المدن العظيمة لأن المدنية من الفطرة ولا يخرجها عن الفطرة ارتقاؤها كما لم يخرج السباع عن الفطرة ارتقاؤها عن الطيور لأنها تحمل ذريتها وترضعها فضلا عن أمثال الجراد والذباب والناموس التي لا ترى ذريتها أصلا ، فهذه الأنعام والسباع من فطرة الله وأهل المدن العظيمة لم يخرجهم عن الفطرة ارتقاؤهم عن الوحشين ، وهذا الدين فيه المواعظ للعامة وفيه البراهين للخاصة إيماء إلى ما قلناه ، وفيه عرش بلقيس وملك سليمان كما أن فيه مدح المؤثرين على أنفسهم والقائمين والفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا اه .

هذا ما فتح الله به يوم الاثنين الخامس من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٨ م والحمد لله رب العالمين .

﴿ اللطيفة الرابعة : بيان فطرة الإنسان في مظاهر الخلوقات ﴾

(بهجة العلم . يوم شم النسيم — ٦ مايو سنة ١٩٢٩ م)

في هذا اليوم تبدت لي أعمال في مزرعتنا التي هي بالقرب من القاهرة وقد ذكرتها مرارا في هذا التفسير يا سبحان الله ، سبحانك اللهم وبحمدك لا تنفد عجائب صنعك ، لقد توجهت لهذا الحقل مرارا وفي كل مرة أشاهد في طريق عجائب تخالف ما قبلها مع أن الطريق لم تتغير وإنما الذي يتجلى في كل مرة يكون على حسب الفكرة التي تشغل العقل ، فمرة كنت أفكر في العنكبوت التي ضربت خيامها في تلك الفيافي وقد مر ذلك في هذا التفسير . ومرة تفكرت في أمر الحشرات التي تقتل الأشجار . وقد قابلني هناك بعض عمال الحكومة لإبادتها وقد تقدم هذا في أول (سورة الأنفال) والحشرة تسمى (الهبكس) فراجعها هناك .

أما في هذه المرة فإني أخذت أفكر في الفطرة الإنسانية . إن الفطرة الإنسانية جعلت معيارا لهذه العوالم وبيانه أن الانسان لو فكر في العوالم وكيف تخلق وعلى أي أسلوب توجد ؟ لم يفضل حالا عن حال (وبعبارة أخرى) إن العوالم الحيوانية والنباتية لو خير الانسان في خلقها وقيل له أيها الانسان أتريد أن تكون كل الحيوانات صغيرة الأحجام أم متوسطة أم كبيرة وهكذا النباتات . وبالنظر إلى ألوانها هل تحب أن تكون كلها بيضاء أم صفراء وهكذا مساكنها أتكون في الجو أم في البحر أم فوق اليابسة . وفي أصواتها أتكون غليظة أم دقيقة لطيفة أم متوسطة . لو سئل الانسان هذه الأسئلة لم تكن له وسيلة في الإجابة إلا يعلم للنطق إذ يقول إذا سألتوني عن اختياري فأنا أفضل ألا يدع خالق العالم حالا إلا أعد لها خلقا فلا يدع الصور الصغيرة ولا الكبيرة ولا المتوسطة في النبات والحيوان وتشغل هذه الخلائق الهواء والماء واليابسة . إن فطرتي تميل للعدل والعدل يقضى أن تعطى كل مرتبة ما يليق لها . فلا السواد من الألوان مثلا يترك ولا الخضرة ولا غيرها ولا يحرم الماء ولا الهواء من هذه العوالم ويعطى كل مقدارا من الصور الصغيرة والمتوسطة وحظه ولتكن جميع الأصوات في الوجود . فليكن صوت دقيق جدا وليكن متوسط وليكن عال ثم يقول الإنسان بحسب فطرته .

أما من جهة النشوء والارتقاء فأنا أهتم بأني أرى في كل مرتبة الخلق المناسب لها . فأرى كل معدن وكل نبات وكل حيوان ، وهمي أن أرى جميع الدرجات بعضها فوق بعض لأن فطرتي تشهد أنه لا يصبح خلود درجة من درجات الوجود من عوالم تخلق فيها فأرى سلسلة المعادن والحلقة للمتوسطة بينها وبين النبات وهكذا النبات يهمني أن أرى كل درجة من الدرجات السفلى والوسطى والعليا وهكذا الحلقة المفقودة بين النبات والحيوان وهكذا الحيوان أحب أن أرى درجاته متناسبة صاعدة من أسفل إلى أعلى حتى أصل إلى الإنسان وهناك يهمني أن أرى هناك حلقة بين الحيوان والإنسان .

هذا هو الذي تشهد به الفطرة ومعنى هذا أن مذهب النشوء والارتقاء الذي شرحه (طبياوس الحكيم) في حديثه مع (سقراط) هو الذي تشهد به الفطرة وهو الذي قال به (داروين) وليس هذا المذهب له بل هو قديم ولكن الفكرة في حد ذاتها يشهد بها النظام غاية الأمر أن بعض الجهال ظنوا أن القصد من هذا المذهب نفي الألوهية وأنه مذهب حديث ولكنهم لجهلهم الفطرة الإنسانية خاب فألهم وضل سعيهم .

إن الفطرة شاهدة بهذه السلسلة التي يقول الله تعالى فيها « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فليقل

(داروين) و (لامارك) ذلك فهما لم يقولا شيئا جديدا وهذا تشهد به الفطرة فالعوالم متناسبة أعلاها مرتبط بأدناها ، هذا أول الأمر وهذا آخره ، وما هذه الدرجات إلا كدرجات الإحساس في الإنسان التي تبتدىء بالأقل وهو اللس وترتقى بالدوق فالسمع فالبصر ، هذه درجات بعضها فوق بعض شهدت بها الفطرة وشهد بها العقل أما كون أعلاها مشتقا من أدناها فأمر يفرح به صغار العلم الذين لا يعقلون ، وإنما ذكرت هذا في هذه السياحة لأنني ماكدت أتوسط تلك الأرض التي بعد بلدة المرج وأنا أمشي في الخلوات حتى رأيت الجاموس والبقر والعز والغنم دائبة في رعيها ساعة في جلب رزقها من تلك الحشائش الطالعات في الأرض ، وبينما أنا أرى تلك الأنعام في مراتعها إذ شاهدت الحطاطيف طائرات في الهواء ذات العيون وذات النعال ، وهكذا أنواع العصافير والقنابر والعصافير الغنية والمهداهد ثم الغربان والظائر المسمى بالعز وهكذا أبو قردان . فهذه كلها كنت أشاهدها وهي فرحات طربات مغردات مبهجات ترتع في نعيم الحرية والسعادة . ولعمري كيف كنت أرى الغراب الأسود وأبا قردان الأبيض بطيران وهما مقتربان ولا يبغي أحدهما على الآخر كما يبغي البيض في أمريكا بالولايات المتحدة على السود فيها ازدراء بهم واحتقارا لشأنهم ، «حقا إن الانسان لظلوم كفار» شاهدت الظائر المسمى بالعز كبير الجنة طويل الأجنحة التي ابيضت من الأمام واسودت من الخلف ولم أراه طعى على أبي قردان ولا الغربان ولا العصافير احتقارا لشأنها بل يسمى لاصطياد الحشرات التي خلقت له فلم يتعد مارسمته له الفطرة «إن الانسان لظلوم كفار» .

﴿ هذه سطور الكائنات ﴾

كنت أقرأ هذه السطور المكتوبات التي كتبها الله لي ، كتبها لي وقال أقرأها فتقبلت الهدية من الله وقرأت ماسطره لي سبحانه ، وإنما قلت إن الله سطره لي لأني نظرت الحيوانات التي أمامي إذا كل واحد منها مهمته بشأنه عاكف على عمله ، ولم أر على حسب ما ظهر لي أحدا منها مهمتها بما اهتمت به فأنا أقول إن الله سطر هذا لي على حسب ما طبعت عليه نفسي * وللناس فيما يعشقون مذاهب * فمن كان من الناس على شاكلتي فيحس له أن يقول إن الكتابة له أيضا ، فالسور المكتوبة والقراء يقرءون منها ما يواي عقولهم ، فها أنا ذا أسمع أصوات الغناء من العصافير الغنية كما أسمع تقيق الضفادع في الماء وتقيق الغراب فأرى الاختلاف اقتضاء العدل الذي هو شأن الفطرة ، ففي الفطرة وجود جمال الأصوات وقبحها وصغر الأشكال وكبرها وتباين الألوان والأشكال والمعادن والأخلاق حتى يتم التوازن ويكون النظام ، فلئن ظهر على الأرض الفيل العظيم الجنة والجمال ذو السنمين ليظهرن النمل الذي رقى جسمه ودق صنعه وحسن وضعه وجمت هندسته ، وبينما أنا سائر في الطريق أنظر هذه العوالم وكأني في جنة عرضها السموات والأرض وقد فهمت قوله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » إذ رأيت النمل غاديات رائحات (وقد كنت إذ ذاك أكتب في تفسير سورة النمل عجائب صنعها وبديع إتقانها) فأخذت أتبعها فوجدت لها منفذين تدخل فيها تحت نخلة هناك والنملات يسرن في طريق ذاهبات كأنهن صف الجنود متوجهات إلى ساحات الحرب فأخذت أتبعها وعدت خطواتي إذا هي خمسون خطوة وفي أثناء تلك الخطوات كانت جماعات النمل تسير في طريق واحدة لاتعداها وهن قد ملائها من أولها إلى آخرها . وبعد هذه المسافة رأيتهن متفرقات يحملن القوت من هنا ومن هناك ويقبلن على هذه الجماعات في طريقها ويسرن معها على حسب نظامها فوقفت إذ ذاك أفكر في هذه الجماعات وأقول لقد نقلت في هذا التفسير في (سورة النمل) أن أعظم جماعات النمل ما وصل عددها إلى (٥٠٠) مليون نملة أما جماعات الانسان فإن أعظمها لم تصل إلى هذا العدد ، ولقد تقدم في هذا التفسير هناك أن للنمل حربا وأسرى وهذه الأسرى تخدم السادات وتطعمها وهذه السادات

تصبح عائلة على هؤلاء الأسرى وعليه يصبح السادة عاطلين ويحيق بهم النكال والوبال كما حاق بالإنسان إذا كان من المترفين فتشابه في الإنسان وفي النمل وسائل الهلاك وأبواب العطب وأدلة الحسران .
 فظلم جماعات النمل لغيرها واستعمارها مهلك كما يكون ذلك أيضا مفسدة للإنسان كما دل عليه حال آباءنا العرب إذ تنعموا فهلكوا وهكذا دولة الرومان ، هنالك نظرت نظرة في حال هذا الإنسان وقلت قولا حقا يا بني آدم . إن الأرض صنع الله والله متقن الصنع ، أعطى كل شيء خلقه ثم هده . ليس في قدرة النمل مدينة أعظم من هذه . إن مدينة النمل محدودة ، ليس في نمل الشرق قدرة على معرفة نمل الغرب والانتفاع بأعماله بل جماعات النمل المختلفة في بلدة واحدة لا قدرة لها على منفعة الجماعات الأخرى وليس بين الجماعتين صلة ولا مخاطبة لأنها ليس في فطرتها ما هو فوق ذلك . أما هذا الإنسان فيظهر لي أنه إلى الآن طفل صغير هو جهول ، إنه أعطى عقلا ولكنه إلى الآن لا يزال في حال التجربة ، أليس من العار أنه لا يزيد في مدنيته عن مدينة النمل فهو ذو حرب وأسرى وظلم ثم ترف ثم هلاك ، إني أشهد الله وأشهد الناس جميعا وأبرأ من هذه الإنسانية الجاهلة الظالمة الإنسانية الفاسقة الغشومة الغرة الجاهلة . وأقول ليس من العقول أن تنفي هذه الأرض قبل أن يرتقي هذا الإنسان ويصل إلى منتهى درجات الإدراك ولا يكون ذلك إلا إذا أصبحت كل الأمم يساعد بعضها بعضا شرقا وغربا لأن هذا هو الفارق بينها وبين النمل وأمثالها . ليس عند النمل طرق حديدية ولا بريد ولا طيارات ولا مدارس ولا علوم ومع ذلك ترى لها مدينة لم يرتفع عنها هذا الإنسان . إن هذا الإنسان لا يزال في حال الطفولية وجدير بالكتاب والحكاه أن يهدوه إلى فطرته .

هذا ما فهمته يوم شم النسيم . ولما وصلت إلى اللزعة وجلست تحت الأثلث بين المزارع والحقول تذكرت أني منذ أسابيع كنت قد أتيت إلى هذه المزارع وقد مررت بمزرعة نخيل في الطريق ضحى :

والريح تعبت بالعصون وقد جرى ذهب الضحى في الروضة الفيحاء
 فأرى الزهور عوانسا ووجوه ههن أوانسا في الحلة الخضراء
 وغصونهن موانسا متعانقات كل حين في صفاء ووفاء

فحرك مني هذا المنظر ماسكن وأخذت أفكر في أمر الرياح ومصدرها وأنها آتية بسبب حرارة الشمس التي سلطها الله على الهواء والأرض فجرت الرياح عند خط الاستواء شمالا وجنوبا إلى (٣٠) درجة في الجانبين وهناك تفرعت كل ربيع منهما إلى (فروعين) فرع يرجع إلى جهة خط الاستواء وهي الرياح التجارية وفرع أتجه إلى الجهة القطبية وهي الرياح العكسية أو الضدية . وهناك رياح أخرى تسمى القطبية تهب من جهة القطبين كما أن هناك رياحا تهب من البر إلى البحر ليلا ومن البحر إلى البرنهارا وهناك أخرى تهب من البحر إلى البر صيفا وبالعكس شتاء وهي الرياح الموسمية . فأصل هذا الاختلاف في الرياح جنوبا وشمالا وشرقاً وغرباً أمر واحد هو الحرارة فبالحرارة واختلاف طباع الماء والهواء اختلف اتجاه الرياح فكان السحاب والمطر والزرع والشجر وغنت الأطيار وبهرت الأزهار في سائر الأقطار .

علم الله أن الناس في هذه الأرض لا يحفظون الفطر التي خلقوا عليها لأن طبيعة هذه الأرض والبيئات والأحوال العامة تقتضى أن يغيروا تلك الفطرة . وما هي الفطرة . هي أن يكون الناس مسلمين ولامعنى للإسلام إلا الاتقياد لله ولأوامر الله والله أرسل رسلا كوسى وعيسى ومحمد وأتباع الأنبياء يعلمون أن كل نبي جاء لمنفعة الناس ولم شعنته فأبت نفوسهم للتحرف أن تتبع الفطر فقال قوم لا تؤمن بمحمد ولا بعيسى الخ وقال قوم لا تؤمن بمحمد ولكن تؤمن بعيسى وموسى الخ والنبي آمنوا بحمد صلى الله عليه وسلم قالت طائفة منهم نحن نسكركم الطائفة الأخرى لأنها تخالفنا في بعض فروع الشريعة وهؤلاء وهؤلاء مثلهم في الدين كمثلهم في أحوالهم العادية

إذ ينعم الله عليهم ثم بصيهم الضر فيكون اليأس أو يكونون في شدة فينالون الرحمة فيطروا وهذا معناه عدم الثبات فخير لهم أن يكونوا مع الله في الشدة واللين والعسر واليسر فإن كان خيرا حمدوه أو شرا التجثوا إليه ودعوه هكذا في الدين فإن اليهود آمنوا بموسى وكفروا بمن بعده إذ لم يوافق أهواءهم والنصارى آمنوا بيسى . وكفروا بمحمد لأنه لم يكن على هوى من يعاشرونهم وهكذا أهل كل مذهب من أهل البدع الإسلامية . إن أهل الأرض يتبعون أهواءهم وأخلاقهم وما اعتادوه لا الحقائق ، كيف لا ونحن نرى أبناء كل أمة يتبعون آباءهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة إن خيرا فخير وإن شرا فشر والإسلام لله والخضوع له أن يمدد كل من نفع الأمم قديما وحديثا وألا تجعل الفروق القليلة سببا في الاقتراق وإلا فكيف افرقت طوائف المسلمين أحزابا وأحزابا وكيف كفر أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم إن ذلك دلالة على عدم الاتقياء لله والطاعة له وإلا فإن الناس يقرءون علوم العلماء وأشعار الشعراء وحكم الحكماء في مختلف الأمم فكيف جعلوا الديانات مفرقة للناس وأصحاب الديانات يحبون الناس كلهم ونصائحهم تنفع الناس قاطبة غالبا بل كيف افرق أتباع الدين الإسلامي فرقا ، أليس ذلك لجهلهم أنهم قد أهدوا في القرآن وفي الصلاة وغيرها وفي أكثر الفروع وإنما يختلفون في أمور جزئية فكيف يفرقون بها إن ذلك كله للجهل الذي طمس على القلوب ومخالفة الفطرة تقتضى النظر الصحيح ، فأهل الأرض إذا اختلفوا في الدين فأعما ذلك الاختلاف ناجم من تقلبهم واتباعهم أهواءهم وعدم نظرهم الصحيح فعلمهم أن يسلموا الله وينقادوا له ويكونوا كالمسلمين فهم يؤمنون بكل نبي ، هكذا فلننقل سائر الأمم ، هذا هو دين الفطرة . ولعلم أرباب المذاهب في الإسلام أن اختلافهم لا يوجب التفرقة بل هم أمة واحدة . وما دام النوع الانساني هكذا فإنه كفور بنعم ربه غير شكور يتبع الأهواء . وسيكون له عواقب في عالم البرزخ والعوالم المتتابعة وهناك يتدرج في معرفة الحقائق ويعذب الجاحدون ، وينعم الصالحون .

ولا سبيل لسلامة الأمة الإسلامية إلا أن تعمم التعليم وتدرس سمات هذه العجائب الأرضية والسموية ليرسخ في الأذهان جمال الطبيعة والعجائب الإلهية فتشرق النفوس وتقرب العقول كما قدمناه في هذا التفسير انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

﴿ جوهرتان ﴾

(الجوهرة الأولى : في قوله تعالى « ظهر الفساد في البر والبحر » الخ)

جاء في بعض المجالات العلمية ما نصه :

(نكبة العالم من الأسنان الدقيقة)

ترى القارئ فزدر به بل قد تراه غير جدير باحتقارك . ولكن هذا المخلوق الضئيل تعده أقوى دول العالم أروع عدو للجنس البشري وتشن عليه الحرب العوان في كل مكان لما ينشأ عنه من الأضرار العظيمة فهذا « السير وليام بول » يقدر ما تحدثه الفيران من الخسائر في إنكلترا بمبلغ ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ جنيه ولذلك أصدر البرلمان الانجليزي قرارات شديدة في هذا الشأن . وإذا بلغت الحكومة عن أي شخص بأنه يوجد في ملكه فيران أرسلت له مندوبا يكلفه باستئصالها فإذا لم ينفذ ذلك أرسلت أشخاصا يقومون بإعدامها وتتخذ هذه الاجراءات القانونية الزاجرة . وقد وضعت الحكومات الأمريكية جوائز لمن بصطادون الفيران وبلغ ما قتلته فتاة في ولاية « تكساس » في سنة أسابع ٧٣٩٨ فأرا وقد أرنى على ذلك ما اصطاده غلام على

مقربة من هذه لولاية حيث قتل في نفس المدة ١٥٥٥٠ فأرا . ويقدر ما يتلقه الفأر في السنة بنحو ١٠ شلنات على الأقل وإذا تناسل فأران لمدة ثلاث سنوات نشأ عنهما ١٨ جيلا ويبلغ عدد أفرادها ٤٨٢ ر ٣٥٩ ر ٨٠٩ فأرا . وإذا كانت نسكبة العالم من الفيران في غاية الفداحة من الوجهة الاقتصادية فإن ماتلقه بالجنس البشري من الوجهة الصحية يعد من أكبر السكوارث لأن الفيران تعيش في أقدر الأما كن فتخرج من جحورها الملوثة إلى حيث توجد الأغذية فتترك جراثيمها في مواد الغذاء وتنتشرها في غرف الدور ، ويقرر الطب أن الجراثيم التي تحملها الفيران في فراشها أفضح أنواع الميكروبات فإن منها جراثيم الطاعون وغيره من محدثات الأمراض ، وتعد ضحايا الجنس البشري من جراثيم الفيران أكثر عددا من ضحايا الحروب التي ذكرها التاريخ ، فإن الطواعين والأوبئة التي كانت تخلى أوروبا من سكانها في القرون الماضية لم تنشأ إلا من الفيران التي كانت تنقل العدوى ، وقدر ضحايا أحد هذه الطواعين في يوم واحد (١٠٠٠٠) نسمة في مدينة القسطنطينية في سنة (٤٠٥) بعد الميلاد ، وكمن مرة حصدت الطواعين أهالي إيطاليا ، ولقد طاف الطاعون أرجاء أوروبا في القرن الرابع عشر وحصد أهلها حصدا وسمى بالموت الأسود وبلغت ضحاياه (٢٥٠٠٠٠٠٠) نسمة وكان من ضحاياه في الهند وحدها في سنة ١٨٩٦ نحو (٩٠٠٠٠٠٠) نسمة .

ويذهب بعض العلماء إلى أن ما يحدثه الفأر من النسكبات يرجع على ما يقع من الأسود والخنزير والذئب إلى آخر ما يوجد في العالم من وحش .

ويرى ساسة الدول وعلمائها أن مشكلة استئصال الفيران من البلاد يجب أن يعنى بها مهندسو المدن فإنهم إذا كانوا قد عالجوا البيوت الحديثة بأن بنوا سقفها بطراز مخصوص لا يسمح بمعيشة الفأر يجب أن يصنعوا علاجا آخر لأرض المدن بحيث لا يمكن أن تتخذ فيها الفيران جحورا لها . وليس واجب الطبيب في هذا الشأن بأقل من واجب المهندس ، فقد ظهر أن المدن التي يعنى فيها بالأمور الصحية توجد فيها كميات قليلة من الفيران بخلاف القرى والمدن التي تهمل فيها الشؤون الصحية ، ولذلك فالتأني في أنظار كل صاحب أسرة إلى استئصال ما في داره من هذا الحيوان للربيع لأنه لا يختلف في الحقيقة عن اللص القاتل بيد أنه يقوم بهذين الوظيفتين في وقت واحد .

﴿ بسبب الفأر أيضا ﴾

يقرر معهد طبي في انكلترا أن زوجا من الفيران يتناسل في السنة الواحدة هو وأولاده وأولاد أولاده إلى أن يصيروا في نهاية العام (١٠٠٠٠) فأر ، وتبلغ قيمة ما يتلقه ألف فأر في السنة (١٥٠٠) جنيه وتقدر خسائر انكلترا من الفيران التي فيها (٧٠٠٠٠٠٠٠) جنيه كل سنة . انتهى ماجاء في تلك الصحيفة . ولما كان الفساد في البر والبحر ليس مقتصرًا على ما جاء هنا بل يتعداه إلى أمور كثيرة وجب أن أذكر لك ماجاء في كتاب [قانون الصحة المنزلية] ثم أتبعه بجمال العلم والحكمة والإبداع والعجب العجيب ،

الأمراض المعدية

تنتقل هذه الأمراض بالماء والغذاء والهواء والتلقيح ، فمن الأمراض التي تنتقل عادة بواسطة الماء والأغذية: الدوسنتاريا والإسهال والسكوليرا والحمى التيفودية وغيرها ، وأحيانا تنتقل باللبن كالفقرمزية والدفتريا . ومن الأمراض التي تنتقل بواسطة الهواء أو اللامسة: الحمى التيفوسية والتهاب الرئة وجدري الدجاج والحصبة والانتانوزا والسعال الديكي والدفتريا والجدري وغير ذلك ، وهناك بعض أمراض تنتقل بواسطة الناموس

أو البق والبراغيث كحصى اللاريا والحمى الراجعة ، وينتقل الطاعون بواسطة البراغيث من الجرذان . ومن الأمراض التي تنتقل بالتلقيح : الحمرة وحمى النفاس وتسمم الدم وجدري البقر وداء السكاب والنتيتوس والدرن والجذام وغيرها ، وتقى الإصابة الأولى ببعض الأمراض المعدية من إصابة أخرى بها إما لأجل مسمى أو غير مسمى وذلك لوجود مضادات للميكروبات المسببة للعرض في الدم ونشأت من الإصابة السابقة وهذا ما يسمونه بالوقاية الطبيعية وعلى نسقها استنبطت الوقاية الصناعية بالتلقيح كما يفعل في طريقة الوقاية من الجدري بتطعيم المادة الجدرية نفسها المحتوية على ميكروباته فتولد في الجسم مضادات تقيه شر الجدري لو أصابه .

﴿ الأمراض المعدية الخطرة ﴾

هذه الأمراض هي : (الجدري . والقرمزية . والدفتريا . والحمى التيفوسية . والحمى التيفودية . وحمى النفاس . والحصبة . والسعال الديكي . والجدري . والنكاف . والأرصاد المعدية . والسل . والسكولرا) .

﴿ الجدري ﴾

هو أشد الأمراض عدوى وميكروباته توجد في قشور بثراته ، وينتقل بالملامسة والثيراب والفرش وأدواته والهواء وذلك على الخصوص مدة التقاص أو التقشر ، ويسبق الإصابة عادة حمى شديدة مدتها من يومين إلى ثلاثة وفي آلام شديدة في الظهر وفي الغالب تظهر البثور في اليوم الرابع ابتداء على الوجه والجبهة ، ثم على الأجزاء الأخرى من الجسم ، ثم تجف وتتقلص ثم يتبدى في السقوط وذلك من اليوم الرابع عشر من ابتداء الإصابة أو شهر من ابتداء العدوى وجميع مدة الإصابة تكون الحرارة مرتفعة وقد يظهر هذا المرض عند اللقاحين أيضا ولكن بحالة خفيفة جدا .

﴿ القرمزية ﴾

مرض معد جدا وتنتشر العدوى على الأخص بالتشور التي تتساقط من الجلد على الملابس أو غيرها من الأشياء التي تمسها . ويظهر المرض بعد العدوى بيومين أو ثلاثة عادة وعلاماته : البرودة والحمى وقيء أحيانا وطفح أحمر وآلام في الحلق ، وقد تخف الحمى والطفح في الثلاثة أو الأربعة الأيام التالية وفي الأحوال الخفيفة يظهر للمريض كأنه شفي تماما ولكن يلزم الاحتراس وبالأخص من البرد خوفا من إصابته بمرض في السكلى ويتبدى . تقاص أو تقشر البثرات من اليوم العاشر إلى اليوم الرابع عشر وربما تأخر للأسبوع الثالث أو أكثر ، ويستمر هذا التقشر من أسبوع إلى ثلاثة أو أربعة ويلزم الاحتراس من العدوى في دور التقشر .

﴿ الدفتريا ﴾

هذا المرض يعدى بافرازات الفم أو الأغشية التي تتكون في الحلق والأنف ، ووسائل العدوى هي التقبيل وأواني الشرب والثيراب وأدوات الفرش ، والسعال يكون سببا في العدوى بالتقاص بعض المفرزات والأغشية المعدية في غرفة المريض ثم جفافها على الأثاث والأرض وحيث تنتشر في الهواء بالسكنس وبذلك تكون سببا للعدوى مدة طويلة من الزمن ، ولذا يجب تطهير غرفة المريض وأثاثها ، ومن المهم جدا أن تجمع كل المفرزات لإعدامها أولا فأولا ، وتحرق أيضا الأقمشة التي كانت تستعمل لمسح الفم والأنف مدة المرض . وتظهر (الدفتريا) بعد العدوى بغاية السرعة فقد تتكون الأغشية بعد مضي أربع وعشرين ساعة من الإصابة والذين يشكون من ألم في الحلق معرضون للإصابة أكثر من غيرهم ، وبعد الشفاء يصاب المريض أحيانا بمرض في السكلى أو بشلل موضعي أو عمومي أو بغير ذلك . وأهم الوسائل لمعرفة المرض بحيث المفرزات بالميكروسكوب (منظار معظم) للتحقق من وجود الميكروب الخاص .

﴿ الحمى التيفوسية ﴾

مرض معد جدا ، ويساعد على انتشاره ازدحام المساكن وإهمال التهوية والنظافة ، ومدة هذا المرض أسبوعان عادة ، ويظهر فيه من اليوم الرابع على الجلد بقع حمراء مستديرة ، وفي نهاية الأسبوع الثاني ينحط المرض بسرعة وينتهي النقع في آخر الأسبوع الثالث .

﴿ الحمى التيفودية ﴾

يعدى هذا المرض بيراز وبول المصاب ، ولذلك يلزم أن يضاف إلى هذه المفرزات مطهر قوى كحامض الفينيك أو محلول السلماني لإعدام ميكروبها قبل إلقتها ، وينقل العدوى الماء واللين إذا اختلط بهما شيء من المفرزات السائلة الذكر ولذلك يجب تطهير ملاءات الفرش أولا فأولا بالقائها في محلول مطهر ثم إغلائها ، ومدة هذا المرض عادة ثلاثة أسابيع ، ومن الصعب معرفته في دور التفريخ وهو من الأمراض الخطيرة بالنسبة لارتفاع الحرارة وبالنسبة لما يحصل أحيانا من انتقاب الأمعاء من تفرحها ولذلك يجب ألا تعطى أغذية صلبة ، ويجب ألا يتحرك المريض إلى أن يدخل في دور النقع الذي يمكن أن يكون من (٥) إلى (١٠) أسابيع .

﴿ حمى النفاس ﴾

هي مرض خطر تصاب به النساء بعد الوضع ويتجنب حصوله بالاعتناء بالنظافة الشخصية النامة وتعقيم جميع ما يستعمل للولادة ، وينشأ هذا المرض من تسمم الدم بميكروبات خصوصية .

﴿ الحصبة ﴾

الحصبة مرض من أمراض الطفولية وأكثر حصولها من السنة الثانية إلى الخامسة وتظهر بعد العدوى بأربعة عشر يوما فيحصل ألم في الرأس وحمى ثم تظهر في اليوم الرابع من الإصابة بقع حمراء على الوجه والجسم وتزول في اليوم السابع أو الثامن بالتدرج وينتهي المرض بسقوط قشور نخالية من الجلد وربما استمر ذلك إلى الأسبوع الثاني أو الثالث وهي تعدي قبل ظهور الطفح وتستمر العدوى على الأقل إلى نهاية الأسبوع الثالث .

﴿ السعال الديكي ﴾

هو مرض شديد العدوى ودور تفرغته من عشرة إلى أربعة عشر يوما، ويمتاز بشهيق شديد يشبه في بعض الأحيان صوت الديك وهو معد بواسطة النفس وضرره كالحصبة في مضاعفات الرئتين ومدة المرض من ثلاثة إلى ستة أسابيع غالبا في الأحوال العادية .

﴿ الجدري ﴾

لا يعتبر من الأمراض الخطيرة ولكنه من الأمراض الشديدة العدوى، وعدواه تحصل بواسطة الملابس وغيرها ومدة المرض ثلاثة أسابيع على الأقل .

﴿ النكاف ﴾

مرض معد غير خطر، علاماته ورم في مقابلة زاوية الفك السفلى في الغدة النكفية، ومدته من ثلاث إلى أربع أسابيع .

﴿ الأرماد المعدي ﴾

تنتشر عدوى الرمد الصديدي والرمد الغشائي (الدفتيريا) والرمد الجببي بأصولها المعدي التي في إفرازاتها إذا تلوثت بها الأصابع والمناديل أو أوراق التجفيف أو المناشف أو الخدات وغير ذلك فيجب الاحتراس من ذلك في المدارس .

﴿ السل ﴾

السل وعلى الأخص السل الرئوي يعدي وينتشر بواسطة البصاق ولذلك يلزم الاحتراس من بصاق المسلولين ، فحتى جف يكون معديا بمروره في المسالك الهوائية . ولاجتنب العدوى يلزم للمريض أن يبصق في إناء خاص محتو على محلول مطهر قوى ، وإذا بصق المسلول في منديل يجب إغلاؤه في الماء أو إحراقه ، ولا يجوز نوم السليم مع مسلول أبدا .

﴿ الكولرا ﴾

تحصل العدوى في هذا المرض من انتقال ميكروباته التي في براز وقيء المصابين . فلا يجوز لمس المواد المذكورة وكذلك ماتوث منها . وعلاماتها الإسهال والقيء والغص وتشنج العضلات مع برودة وزرقة في الوجه واليدين والقدمين ، ويلزم عند ظهور الوباء اتخاذ الاحتياطات الشخصية الآتية .

- (١) إغلاء ماء الشرب ومنع استعمال المياه الثلوجة .
- (٢) تجنب أكل الخضر والفواكه غير المطبوخة .
- (٣) غمر الخضر والأثمار واللحوم في ماء مغلي مدة نصف دقيقة وقت إحضارها من الخارج ثم طبخها بأسرع ما يمكن وأن يوضع الحبز في الفرن ثلاث دقائق .
- (٤) إغلاء اللبن جيدا .
- (٥) غسل أواني الطعام في ماء مغلي وتنشيفها جيدا بقماش جاف نظيف ، وكذلك تغمر أدوات المائدة من ملاعق وشوك وسكاكين وغير ذلك في الماء المغلي قبل استعمالها مباشرة .
- (٦) تغطى جميع الأطعمة لمنع تلوثها وبالأخص من التواب .
- (٧) تغسل الأيدي جيدا وتنشف بكل اعتناء قبل الأكل .
- (٨) يجتنب أكل الأطعمة العسرة المضم .
- (٩) تطهر مراحيض المنزل كل يوم مرة مع الاعتناء بتطهير مقاعدها .
- (١٠) يجب تهوية المنزل جيدا كل يوم والاعتناء بنظافته .
- (١١) غسل الأيدي جيدا عقب الخروج من المراحيض حالا وتطهيرها اه .

ولما اطلع على هذا أحد الأصحاب من أهل العلم . قال هذا حسن ولكن التفسير بهذا انقلب إلى علوم والعلوم لها كتب خاصة ، فأما أنك تعتمد إلى مقالات عامة في أمثال هذا المقام وتذكر مايقوله الأطباء وإن كان منتقى مصطفى فإنه ليس مما يلائم التفسير فقلت له : حياك الله أيها الأئمة ، أنا أكتب في التفسير زهرات من العلوم ونحرات من الحكمة وهذه الزهرات والنحرات هي المناسبات لتفسير القرآن بل لا يتضح المعنى إلا بها إن لله (كتابين) كتابا كتبه بيده ، وكتابا أملاه علينا بالوحي . والكتاب الذي أملاه علينا بالوحي تتلقاه بأسماعنا، والكتاب الذي كتبه بيده نراه بأبصارنا، ومن عجب أن الذي كتبه بيده مجسم ظاهر واضح ومع ذلك الوضوح أصبح عندنا في غاية الخفاء ، فالذي كشفته أبصارنا مجسما هو الشديد الخفاء والذي سمعته آذاننا تتلقاه ونفهمه ولكن هذا الفهم فهم ضئيل ، نسبح الله يقول إن الفساد ملاء البر والبحر وما السبب ؟ فيقول « بما كسبت أيدي الناس » فالمسلم العادي الجاهل بل كثير من صغار العلماء إذا سمعوها يفهمون المعنى اللغوي والمعنى اللغوي يكتب في القاموس ويكتب في الرجل البدوي الذي يعرف اللغة العربية في جزيرة العرب ولكن أين الحقائق ؟ إن حقائق أمثال هذه الآية في الكتاب الموحى به الذي فهمناه فهما ضئيلا لأن نعرفها

ولن نعقلها إلا بدراسة الكتاب الذى كتبه بيده وهى هذه الأجسام والصور والأشكال والألوان والأحوال
 إذن فلندرس هذا الكتاب الذى كتبه الله بيده فنقول : الله أكبر جل الله وجل العلم . هانحن أولاء يا الله
 نظرنا فى تلك للشاهد ففرحنا بملك وسعدنا بالنظر إلى حكمتك . وجدناك يا الله بنيت هذه الطبيعة على
 صراط مستقيم لا عوج فيه ولا خلل . أنت أيها الحكيم قارىء هذا التفسير قد قرأت قريبا الأشكال الهندسية
 التى يستعملها علماء الطبيعة فإذا وجدت ؟ أقول إنك وجدت فيها صراطا مستقيما . إذن الذى يصنع الله يكون
 على صراط مستقيم . ألم تر أن مساحة محيط الدائرة ومساحة سطح الكرة ومساحة الكرة ، كل هذه قد
 رجعت إلى أمر واحد وهو نصف القطر فمضى مسحناء فقدمسحنا ما بعده ؛ فلو أنك أيها الحكيم عمدت إلى قطعة
 أرض ورسمت فيها دائرة ثم عمدت إلى المحيط ووصلت بين نقطتين منه بخط فهذا الخط هو القطر ونفرضه
 (٦) أمتار وهذا القطر نصفان كل نصف يصل إلى مركز تلك الدائرة ، ذلك للمركز الذى يكون على بعد واحد
 من ذلك المحيط وهذا القطر وجدنا أن المحيط قدره ثلاث مرات وسبعاء ، وبناء عليه قلنا إن طول هذا المحيط
 يساوى نصف هذا القطر مرتين مضروبا فى ثلاثة وسبع وهو الذى عبرنا عنه بحرف (ط) فيما تقدم ، فإذا
 أردنا مساحة سطح الدائرة فإننا نربع نصف هذا القطر فيكون (٩) ونضربه فى (٣) وسبع فإذا أردنا
 مساحة سطح الكرة ضربنا هذا المربع فى (٤) فيكون (٣٦) ثم نضرب هذا كله فى ثلاث وسبع ، فإذا
 أردنا مساحة حجم الكرة كتبنا (٣) ومعنى هذا أننا نضرب (٩) فى (٣) فيكون (٢٧) وهذا العدد يسمى
 مكعب عدد (٣) ثم نضربه فى (٣) وسبع فيكون (٨٤) وستة أسباع ونضرب هذا كله فى (٤ على ٣) أى فى
 واحد وثلاث فيكون ذلك مساحة حجم تلك الكرة .

فتبين من هذا كله أن نصف القطر هو الذى يسمح فى الأحوال الأربعة والنسبة باقية وهى ثلاث وسبع
 وإنما اختلف الأمر فى الترييع والتكعب ، فترى نصف القطر يسمح بلا ترييع فى مساحة ذلك الخط المنحنى
 ويربع فى مساحة الدائرة وسطح الكرة ويكعب فى مساحة حجم الكرة .

تباركت يا الله هذا هو صراطك المستقيم ، أنت خلقت المادة ، وماهى المادة ؟ ماهى إلا حركات فى شئ .
 ياربنا سميناها (الأثير) وما الأثير الذى تخيلناه إلا أمر نشبهه بخيالنا ، وهذه الحركات صارت ضووا وكهرباء
 والكهرباء بسميها من اللوجبة والسالبة تنوعت فصارت عناصر ، وبالاعجب هذه العناصر التى زادت على
 ثمانين مشروحة فى (سورة العنكبوت) صلحت لأن تكون مواد غازية كالهواء وكالهيدروجين وكالكسوجين
 وغيرها ؛ فهذه كلها لأشكال لها بل هى ذرات متجاورة سميها غازا وهكذا السوائل بجميع أنواعها من
 ماء وزيت وعسل وهكذا ، ولا جرم أن أكثر المواد الجامدة الآن يمكن جعلها سائلة وجعلها غازية بأعمال خاصة
 إذن المادة قابلة لتنوعات لاحصر لها ، فأنواع الغاز خفة وثقلا كثيرة وأنواع السوائل كثيرة ، هكذا أشكال
 المواد الجامدة فهى لاحصر لها . فأنت يا الله لما خلقت هذه المادة وعلمت أن أشكالها التى لانهايه لها فى
 نظرنا ليس منها ما هو أقرب إلى منفعتنا من الأشكال المنتظمة كالخط المذكور والدائرة وسطح الكرة وحجم
 الكرة أفضت على عقولنا معرفتها وألهمتنا استعمالها فى جميع مرافق الحياة ، وجعلت مساحتها كلها من واد
 واحد فتعجبنا كيف يكون نصف القطر فى هذه الأحوال الأربعة كافيها فى المساحة وكيف يشترك الخط
 والسطح والحجم فى مساحة نصف القطر غاية الأمر أنه يكون لا ترييع فيه فى مساحة الخط ويربع فى
 السطح ويكعب فى الحجم . الله أكبر . هذا هو الصراط المستقيم . صراطك الذى أبدعته فى المادة . وهذا
 سر مصون . نعم هو مصون عن أكثر هذا النوع الإنسانى . إن المهندس وعالم (الليكانيك) أى فن الحيل
 وعالم الطبيعة كل هؤلاء يعرفون هذه المساحات وغيرها ولكنهم ينظرون إليها نظر العامة إلى الأواني التى

ينتفعون بها فلا سر فيها ولا حكمة ولكنها أمور طبيعية ، فلا يقولون إن هذه الأشكال مصطفاة مما لا يتناهى من أشكال الطبيعة التي هي غير منظمة واستخلصت منها وأخرجت لنا وعلى منوالها رسمنا وصورنا، ولا يعجب أكثر هذا النوع الإنساني من أن نصف القطر قد كان سببا في معرفة الخط والسطح والحجم مع أن هذه أمور مختلفة في طبيعتها .

فيا سبحان الله . إن المناسبة بين السطوح والأحجام والخطوط وأعماقها في تقديرها بمساحة نصف القطر كالمناسبة بين النبات والحيوان والإنسان . هذه كلها اشتركت في التغذية والتناسل والنمو والحس والحركة ولكن الحس والحركة في الحيوان أرقى والغضب يظهر في الحيوان والعقل يكون أظهر وأكمل في الإنسان فلهذا الاشتراك والتكامل في هذه المواهب إلا كالأشتراك بين الخط والسطح والحجم في مساحة نصف القطر ويزداد مضاعفة في السطح ثم في الحجم كما ازداد الحس في الحيوان عن الإنسان وازداد الإنسان عقلا ، فعقل الإنسان أرقى من غريزة الحيوان وغريزة الحيوان أرقى من إحساس النبات (للتسروح في هذا التفسير سابقا) فإحساس النبات بسيط وإحساس الحيوان كأنه مربع له وعقل الإنسان كأنه مكعب . فصرط الله واحد في الطبيعة الجمادية وفي الطبيعة الحية . فالترتيب في السطوح نظير الغريزة في الحيوان والتكعيب في الأحجام نظير العقل في الإنسان . هذا خلق الله وصرطه . إذن صراط الله واحد .

(الناس خلفاء الله في الأرض)

ولما كان الناس خلفاء في الأرض كان عليهم أن يهتدوا بهديه ويسيروا على منواله في أحكامه . فهناك مافعله الإنسان وما عاقبه الله به في الحياة الدنيا . انظر ماذا جرى ، خلقه في الأرض وقال لهم « ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » . نظر الله عمل الإنسان فيها ، فماذا فعل هذا الإنسان ؟ أخذ يستخرج المنافع من الأرض وارتقى في الأسباب فظهر أقوام في الشرق وفي الغرب وكان منهم بدو وحضر وكما اجتمعت أمة وكان لها دولة عظيمة نسوا المبادئ الأولى وظنوا أن المدار في الحياة على التمتع بلا عمل وأخذ الملوك والأمراء والعظماء يستكثرون من السلاح والكرام ويستعمرون الأمم ، وما نتيجة ذلك إلا أن يخرج خلق جديد لاهم له إلا الشهوات وحشد المال وهناك تكون اللذات مقصدهم ، فلا يزالون يتزولون حتى يرسل لهم من يزيل ملكهم ، والذي يزيل ملك هؤلاء أقوام آخرون أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة (مثال ذلك) دولة الرومان فقد أهلكها البطنة والجشع ولم يهلكها إلا أمة بربرية وحشية ودولة الإسلام فإنها لما استفحلت وعظمت وأمنت ونامت أرسل الله لها أمة وحشية وهم (التتار) فأزالوا ملكهم ، وهكذا أهل الأندلس أزال الله ملكهم بقوم أقرب إلى الوحشية منهم وهؤلاء في سكرهم وخمرهم وغزلهم يعمهون .

فبينما ترى هذا الإنسان في بداوته مجدا في عمله قائما بقوته معتدا بنفسه شهما كريما إذ هو نفسه قد انقض على أهل الترف والنعيم الذين أصبحوا لا يصلحون للحياة فاستحوذ على ما عندهم ثم انعمس هو في النعيم . وقد أعد الله له قوما آخرين متوحشين فانقضوا عليه فسلبوه ملكه . إن الأمم العربية كانت في بداوتها همجية فلما أسلمت استحوذت على ملك الرومان والفرس الذين انعمسوا في الشهوات ولما صار هؤلاء منغمسين فيها كسابقهم سلط الله عليهم من هم متوحشون . إذن الأمم البربرية في أوروبا أزالوا دولة الرومان وعرب الحجاز واليمن عموا مافعله برابرة أوروبا فأزالوا دولة الرومان من الشرق مع دولة الفرس . وهؤلاء العرب لما أصبحوا كالفرس وكالروم السابقين اجتاحتهم التتار المتوحشون في الشرق والاسبانيون في الغرب . وهاهي ذه أوروبا اليوم أصبحت منغمسة في الترف والنعيم وقد جاء يوم حسابها وهاهي ذه مستعدة لتلك القانون .

وترى أهل الشرق جميعا قاموا بتملصون من عذابها وخرجون من حكمها دولة دولة لأن أهل الشرق الأدنى اليوم يريدون أن يأخذوا دورهم .

هذا هو تاريخ هذا الإنسان عامة والمسلمين خاصة ومنهم دولة بني عثمان في بلاد الترك ، فهذه لما أخذت الدول الإسلامية (التي جاءت بعد الأمم العربية تضمحل كالسلاجوقية وبعض الدول الفارسية) تنحل بسبب التخمعة والترف دخل هؤلاء في الإسلام وهم على فطرتهم الوحشية في الجبال ووضعوا يدهم على الأمم الإسلامية وأذلوا الأمم العربية وحاربوا العجم ولم تقم لهذه الأمم قاعة والتعليم اضمحل وبقي الناس قرونا على ذلك وانتهى الأمر بأن للوك الذين سمو أنفسهم خلفاء صاروا مترفين منغمسين في الشهوات فظلموا أمتهم وظلموا الأمم الإسلامية جمعا ، فانقضت أوروبا على المسلمين في الحرب الكبرى وزالت الخلافة عقبها .

وإنى لأعجب كل العجب أن يكون هذا كله مصداق حديث رواه البخارى في باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب من كتاب الجهاد والسير وفي باب ما يحذر من زهرة الدنيا من كتاب الرقاق وفي كتاب [رياض الصالحين] للإمام النووي وقد عزاه إلى البخارى ومسلم في صحيحهما وهذا نصه :

« عن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأبى بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له فنبسب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ، فقالوا أجل يا رسول الله ، فقال أبشروا وأملوا ما يسركم فواقع ما الفقير أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكنهم » .

أقول فهل يعرف هذا الحديث إلا من درس التاريخ على النحو الذى نسير به في هذا التفسير . أو ليس هذا الحديث قد جمع كل تاريخ الأمم ، ماتاريخ أم الأرض ؟ هو تاريخ واحد ، استقلال في البداية ، وشظف عيش ، ثم ميل إلى الحضارة والترف ، ثم ذل وهكذا دواليك ، إن هذا هو تاريخ الأمم وهذا الحديث قد جمعه كله ، إذن ماذا فعله هذا الانسان ؟ خلقت له المواهب وأعطيت له الأرض وقيل له أنت خليفة لربك في أرضه فنى المهذ وجهل المقصود من الحياة وجهل اللذات غاية ، فكل هذا الإنسان يسعى لأن يكون كالزناير يأكل عسل النحل أو كالبراغيث والقمل والبقي لاتعيش إلا على أجسام الناس والحيوان . الإنسان نسى عقله فهو لايسعى إلا إلى أن يكون مصاصا للدماء . لافرق بين عباد الوثن وأتباع الأنبياء الذين طال عليهم الأمد فقتت قلوبهم . وقصارى الأمر وحماداه أن هذا الإنسان يسعى جهلا أن يكون كالحشرات يعيش من كد غيره بل الحشرات أفضل من هذه الوجوه لأن البرغوث لايعيش على جسم البرغوث بل على جسم نوع آخر كالإنسان : أما الإنسان فحق عليه قول الله «قتل الإنسان ما أكفره» .

أنا اليوم أكتب في تفسير القرآن فكلما يكون عاما للمسلمين وغير المسلمين لأن القرآن للناس قاطبة لا للمسلمين وحدهم فى الحق إذن أن أقول قولاً عاما منطبقاً على الأمم كلها ، فأقول تبين من هذا كله أيها الناس أنكم لم تقوموا بالخلافة حق القيام لأن خليفة الله الذى هو قائم بالقسط فى خلق الكرات والسطوح والحطوط ومساحتها المنظمة والذى فعل ذلك النظام نفسه فى المخلوقات النامية ونسقه واحد فى الجميع لاتفسير لسنته لا يصلح لخلافته من يرجع إلى أخلاق الحشرات فى حياته ويكون بعيداً عن الصراط المستقيم . أتدرون ماذا فعل الله بكم ؟ سلط عليكم الآفات فى الزراعة وفى حياتكم وأحوالكم جميعها فأمر أنواع البق والبراغيث والقمل أن ترعى أجسامكم والجراد والددود وأنواعاً أخرى سلطت على زرعكم لأنى فعلت معكم ما هو أليق بكم وأنتم أهل

له ، فأنتم تسعون لأن تأكلوا مال غيركم . هذا هو تاريخكم ، إذن أنتم حشرات كالجراد والقمل فسلمت عليكم هذه المزعجات ظاهرة وباطنة والباطنة هي أنواع الحيوانات التدرية (الميكروبات) التي تولد فيكم الطاعون والحمى التيفوسية والجدرى والقرمزية والدفتريا والحصبة والسعال الديكي والنكاف والكوليرا الخ .
ها أناذا سلطت عليكم هذه المهلكات وأمرت الرياح والماء والفيضان وغيرها فنشرت ذلك بينكم ، أفلا تفقهون من عملي هذا فيكم أني أقول لكم بخطاب مفتوح : (إن لم تتحدوا جميعا بأهل الأرض على هذه المهلكات المتحدة عليكم فأنتم المقصرون الجاهلون ، وإن أعدتم جميعا في الشرق والغرب وتركتم ما كنتم في فطركم سعدتم سعادة لم يحلم بها الأولون) .

ألا ترون أن هذه كلها سلطها عليكم لتفعل معكم مثل فعلكم ، ولو أنكم رجعتن عن هذه الأعمال لرفعت عنكم الضنك . ألا ترون أن الحيات والثعابين السامة لا أخلقها إلا في اللواضع القسرة ، فأما الأماكن التي ليست ملوثة بالقاذورات ولا هي برك ولا مستنقعات فاني أجعل حياتها لاسم فيها ولا أذى . فمن أين يأتي السم والأرض صالحة نقيه ؟ فهكذا أنتم يا بني آدم لو أنكم وجهتم عقولكم لاصلاح النوع الانساني كله فبدل أن يطرده الانجليز من يكون أسود اللون من أهل أمريكا من مطاعمهم وأما كن لهموم ولعهم احتقاراً لهم ويترك النوع الإنساني المتعلم تعليم التوحشين من السودانيين وغيرهم . يتحدون جميعا على ترقية أرضهم وجعلها جنة دنيوية فبدل هذا كله أخذ كل من وجد في نفسه قوة منكم يذل غيره ، لذلك انتقل الملك من أمة إلى أمة ومن دولة إلى دولة ولا سعادة لهذا الإنسان إلا أن يكون كل رجل وكل امرأة في الكرة الأرضية عاملاً أي عمل كان وهناك تظهر مخبات هذه العقول ومخبات هذه الأرض والهواء والماء ، فأما مادام الناس على هذا النوال فإن الماء والهواء - كما تقدم - وجميع ما على الأرض تتعاون على إذلالكم ، فترون الهواء ينقل الأمراض ، ومثله الماء والتباب والبق والفيضان والقمل وأنواع الطيور الداجنة . هذه كلها جعلتها عذاباً لكم حتى ترجعوا فتتعاونوا جميعاً على تطهير أرضكم من أدرانها وعقولكم من جهلها وإلا فلا كرامة لكم عندي ، وأقول لكم (لما جهلتم كتابي الذي كتبته بيدي ولم تفهموا لماذا خلقت الزلازل والحشرات المهلكات والوباء والطاعون وأنواع الأمراض والآفات العارضة) أنزلت عليكم كتاباً مسموعاً أوحيته إلى رجل منكم فقلت فيه « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس لينذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » فما أناذا فتحت لكم الباب ووعدتكم بالسعادة العلمية والجسمية في الدنيا إذا رجعتن ، فما أنا ذا استخلفتكم في الأرض لأنظر كيف تعملون فأحوالكم يأهل الأرض اليوم وفيما مضى تنطبق على أحوال الحشرات تارة وعلى أحوال الطيور تارة أخرى ، ففي حال البداوة يكون لكم بعض الشبه بالطيور تأكل بسعيها وفي حال التمتع والحضارة تكونون كالوحوش كالخشرات تعيشون من كسب غيركم وتتركون مواهبكم وأنا ما خلقت خلقاً عبثاً فأعمالى كلها لحكمة « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق » والحق هنا أن تشغل كل أمة فيما استعدت له وكل فرد فيما خلق له وتكون الأمم كلها متعاونة تعاون أعضاء الجسم الواحد ، وهذا هو العدل الذي رأيتموه في مساحات الخطوط والسطوح والأحجام ، هنالك تعيش الأمم والأفراد ولا تقتلهم البطنة والبطر ويكون الناس كلهم أمة واحدة كل لكل مساعد وتزول الفوارق السكاذبة التي أزالها الإسلام فأذن بلال على السكبة بمحضر من قريش يشير صلى الله عليه وسلم بذلك إلى زمان ارتقاء الأمم بعد زماننا إذ يجبل الأمريكيون والانجليز من احتقارهم للسود لمجرد لونهم ، إذن دين الاسلام جاء لترقية الإنسانية وإزالة الوحشية من نوع الإنسان ، هناك تمتد آجال الأمم إذ الترية عامة ولا كسل ولا ترف ولا تنعم وإنما هو العلم والعمل وهنالك يكون لكل امرئ عمله ومن خالف قتل فلا أمة تسكون عالة على أمة بل تشترك جميع الأفراد والأمم بقوانين صارمة حازمة وهنالك

يكون السلام العام ولا أحد إذ ذاك يقبل الصدقة لأن كل فرد عامل وعنى بعمله وهذا مصداق الحديث الشريف الذي جاء فيه ما ملخصه : إن الصدقة يطاف بها على الناس فلا يقبها أحد لأن المال يفيض فيضا ، وإذن يكون الناس في عملهم خلفاء الله في الأرض حقا على صراط مستقيم كصراطه في مساحة السطح والخط والحجم هيئة منتظمة لا تتغير . وهنا لا تغير لأحوال الناس من همجية إلى حضارة ، بل يستمر النظام على وتيرة واحدة نظامية كنظام المقادير الساحية فيما ذكرناه . انتهى صباح يوم الاثنين (٢٨) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م .

(الجوهرة الثانية : في قوله تعالى « فاصبر إن وعد الله حق » الخ)

اعلم أيها المطالع على هذا التفسير أن هذا الكلام لي ولك أيضا فإنك تجدنا ناسا نقص عنهم الطبيعي والرياضي فظنوا أنهم عرفوا كل شيء فينكرون هذا القرآن ويقصون عليك بعض ما عرفوه فإياك أن تركز إليهم واحذر أن يستخفوك فإن قرأنا نطلب منا كل العلوم ، ومتى تحققت العلوم إجمالا وأحكمتها فأنت حكيم وهناك لا يخاف عليك من الاستخفاف . إن التعلم في هذا الزمان عرضة لهذا الاستخفاف فإن الذين يتبعون دين الإسلام غالبا جهلاء بهذا الوجود في عصرنا ، فمق أدركوا شيئا من العلم ظنوا أنهم عرفوا ماجهله الأنبياء وفاتهم أن القرآن يطلب كل شيء ، فأصبح لكل من تعرض له هذه الفكرة أن يقرأ هذا التفسير ويتأمله ويصبر عليه وحينئذ يستحيل أن يستخفه الذين لا يوقنون . إن هذا التفسير به اليقين لشبان المسلمين الذين يعيشون بعدنا وهو الذي كنت أسمى له من مبدأ حياتي .

واعلم أن في هذا النوع الإنساني أناسا خلقوا مفكرين وفطروا على عشق الحكمة والعلم فهؤلاء تحذتهم أنفسهم في اليقظة أوفى المنام بأن يكونوا نورا لأمتهم وأهم منصورون فهؤلاء يحتاجون للصبر حتى ينالوا ما يناسب عقولهم من النفع العام . واعلم أنه كما أن في الشجر زهرا ينتج ثمرا هكذا في شجرات الأمم أناس خصصوا بالفطرة لنفعها وهؤلاء تحت نظر الله وفي كنفه ومساعدتهم حتى لازم قضتها الحكمة الإلهية لأنهم أشبه بالملائكة وبالشمس والقمر . خلقوا لنفع الناس وهم لا محالة نائلون ما أملوا إذا صبروا على ما يمتحنون في هذا العالم وهذه السورة فيها هذا المعنى لأنه سبحانه وعد نبينا صلى الله عليه وسلم أن الروم ستغلب القرس ليكون ذلك من دلائل النبوة وهو وعد من الله كما يعدك ويعد المستعدين لنفع الأمم فقال في آخر السورة (فاصبر إن وعد الله حق) سواء أكان لك أو لغيرك ممن فطروا على نفع الأمم العام . وإذا كان وعد الله حقا فالصبر لا بد منه حتى يأتي حينه فاحذر أن يستخفك الذين لا يقين عندهم . ولما كان اليقين لا يتم إلا بالحكمة وهي تمام العلم أتبعه بسورة تسمى باسم حكيم وهو لقمان عليه السلام ، وفي كلمة لقمان (الم) وفي كلمة « الحكمة » كذلك فالأولى غير مرتبة والثانية مرتبة فلذلك ولغيره مما يأتي ابتدأها بحروف (الم) انتهى تفسير سورة الروم في (٨) فبراير سنة ١٩٢٥ والحمد لله رب العالمين .

﴿ استدرارك ﴾

قلنا فيما تقدم في صحيفة (٥٦) من هذا المجلد إن اللغات على (قسمين) قسم لعطى وهو ما كان نهايته
السطر السابع عشر من صحيفة (٥٩) وقد فائنا أن نضع القسم الخطى منها فرأينا أن نضعه في آخر تفسير
السورة إنعاما للفائدة وهاهو ذا هذا الجدول (انظر شكل ٢٠) .

(جدول رسم الأحرف العربية والبريائية والافرنجية القديم منها والحادث)
(مأخوذ من أحد النشرات العلمية لبروكش باشا)

الرقم	الكتابة القديمة	الكتابة الحديثة	الكتابة الحديثة	الكتابة الحديثة	الكتابة الحديثة	الكتابة الحديثة	الكتابة الحديثة
١	ا	ا	ا	ا	ا	ا	ا
٢	ب	ب	ب	ب	ب	ب	ب
٣	ج	ج	ج	ج	ج	ج	ج
٤	د	د	د	د	د	د	د
٥	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
٦	و	و	و	و	و	و	و
٧	ز	ز	ز	ز	ز	ز	ز
٨	ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح
٩	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط
١٠	ي	ي	ي	ي	ي	ي	ي
١١	ك	ك	ك	ك	ك	ك	ك
١٢	ل	ل	ل	ل	ل	ل	ل
١٣	م	م	م	م	م	م	م
١٤	ن	ن	ن	ن	ن	ن	ن
١٥	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
١٦	و	و	و	و	و	و	و
١٧	ز	ز	ز	ز	ز	ز	ز
١٨	ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح
١٩	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط
٢٠	ي	ي	ي	ي	ي	ي	ي
٢١	ك	ك	ك	ك	ك	ك	ك
٢٢	ل	ل	ل	ل	ل	ل	ل
٢٣	م	م	م	م	م	م	م
٢٤	ن	ن	ن	ن	ن	ن	ن
٢٥	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
٢٦	و	و	و	و	و	و	و
٢٧	ز	ز	ز	ز	ز	ز	ز
٢٨	ح	ح	ح	ح	ح	ح	ح
٢٩	ط	ط	ط	ط	ط	ط	ط
٣٠	ي	ي	ي	ي	ي	ي	ي

(شكل ٢٠)

(تبييه) الصواب أن خانة (١) هي لكتابة الأحجار وخانة (٢) هي لكتابة الورق لا كما ذكر أعلاه

تفسير سورة لقمان

(هي مكية)

(إلا من قوله تعالى « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير » إلى قوله تعالى « وأن الله هو العلي الكبير » مُدنية)
(آياتها أربع وثلاثون - نزلت بعد الصفات)
(وهي أربعة أقسام)

(القسم الأول) في تفسير البسملة .

(القسم الثاني) في معنى « ألم » .

(القسم الثالث) في المقدمة وحكم لقمان عليه الصلاة والسلام من أول السورة إلى قوله تعالى « إن أنكر الأصوات لصوت الحجر » .

(القسم الرابع) من قوله تعالى « ألم ترأ أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » إلى آخر السورة .

(القسم الأول : في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم)

اعلم أيها الدكي أني رأيت في هذا التفسير عجا . هذه البسملة قد فسرت في (سورة الفاتحة) وفي سورة (هود) من الربع الثاني من أرباع القرآن جاء في تفسيرها الأحاديث الدالة على الرحمة للحيوان وهناك قد فصل الكلام تفصيلا في تلك الرحمة وما يجب على المسلمين من حفظ الحيوان ورحمته والرأفة به ، وجاء في (سورة الروم) السابقة أمر آخر وهو أن آلام الحيوان من المرض والجوع والكسر وغيرها لم تجعل إلا لرحمتها وذلك تبيان أن تلك الآلام جند من جنود الرحمت الواسعة التي انصف الله بها . وفي هذه السورة ستسمع في تفسير البسملة معاني أخرى ، ولماذا هذا ؟ لأن الله عز وجل يريد أن يجعل المعاني متفرقة على أوائل سور كثيرة لتلايل السلم من قراءة كلام طويل في سورة واحدة لتفسير آية واحدة . وبهذا يعرف بعض السر في تكرار هذه الآية في أول كل سورة ، فلا تجعل تفسير البسملة هنا مقسما إلى (ثلاثة أقسام : القسم الأول) في ذكر أسماء الله الحسنى التي منها اصطفي الله ثلاثة أسماء (القسم الثاني) في أن معاني أسماء الله الحسنى كلها ترجع إلى ذاته تعالى وصفاته ، وآيات القرآن مفصلات لتلك المعاني التي تضمنتها الأسماء (القسم الثالث) في معنى (الله الرحمن الرحيم) وهي الأسماء التي في البسملة .

(القسم الأول : في ذكر أسماء الله الحسنى التي اصطفي الله ثلاثة أسماء منها في البسملة)

روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا إنه وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرفع العزيز اللذل السميع البصير الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ اللقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المحيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل

القوى المتين الولي الجيد المحصي للبديء العيد المحيي للميت الحى القيوم الواجد الماجد الأحد الصمد القادر القادر
للقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعال البر التواب المنتقم العفو الرؤوف ممالك الملك
ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع العنى للغنى اللانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد
الصبور» انتهى القسم الأول .

﴿ القسم الثانى والثالث فى أن معانى أسماء الله الحسنى كلها ترجع إلى صفاته تعالى
وفى معنى الله الرحمن الرحيم ﴾

ولأقدم مقدمة فأقول : لقد تقدم فى (سورة الروم) عند قوله تعالى « واختلاف ألسنتكم وألوانكم »
أن اللغات كلها ترجع إلى ثلاثة أقسام : سامية وطورانية وآرية. ومن الأخيرة اشتقت أكثر اللغات الأوروبية
والإيرانية، ومن الطورانية اشتقت لغات الترك والقازان ونحوهما . ومن اللغة السامية كانت الحبشية والعربية
وغيرهما ، وبناء عليه تكون اللغة العربية التى نزل بها القرآن وجاءت فيها هذه الأسماء الإلهية من اللغات
التي وضعها الناس لما يحتاجون إليه . إذن اللغات موضوعة وضعا أوليا لنوع الإنسان ، وغاية الأمر أنهم لما
فكروا بمقولهم ونظروا بهمهمم وجدوا أن هذه العوالم صائرة إلى الزوال بل هى اليوم مذبذبة متغيرة حكوا
بأن لها صنعا وساعدهم على ذلك أنبيأؤهم ومنهم نبينا صلى الله عليه وسلم وقال لنا إن هذه أسماء الله تعالى فلما
نظرنا إليها وجدنا هذه المعانى التى تطابق علينا لا يجوز أن تطلق على الله تعالى لأنه ليس كمثل شئ وهو
السميع العليم ، فهو سميع عليم ولكن ليس علمه وسمعه كعلمنا وسمعنا لأن علمنا مبدوء بحواسنا وسمعنا
أصله بأذاننا والأعضاء المفصلة فى داخلها وهكذا لا نسمع إلا إلى أمد محدود ، ولا جرم أن الأعضاء المذكورة
وحصر السموع كلاهما مستحيل على الله فهو ليس جسا كما أن سمعه ليس بمحدود لأنه ليس كمثل شئ ،
وهكذا وجدنا أن الرحمة عندنا عبارة عن رقة فى القلب تقتضى التفضل والإحسان ، ولا جرم أن هذه
الرأفة نقص ، إن الحيوان ناقص ومنه الإنسان ولهذا النقص وضع فى جبينه الألم لما يراه من ضعف طفله
أو جروه أو فلوله فلا دافع لذلك الألم عن نفسه إلا بأن يهيمن على طفله وجروه وفلوله وفضيله ويرضه اللبن
ويشمله بكل رعاية . إذن مبدأ الرحمة عندنا ضعف فينا وهذا الضعف بسببه أنعمنا على ذريتنا فبقيت إلى
ما شاء الله بسبب ذلك الإنعام . بل بسبب هذا الضعف الذى نسميه رقة فى قلوبنا قائلنا الأعداء فأخرجناهم
من بلادنا مرحة بالضعفاء فيها وقدمنا أنفسنا للهلاك وأسلمناها للعدون . وبسببه أيضا قدمنا أموالنا للضعفاء
والمساكين إذا رأيناهم فى حالة يرثى لها فلا سبيل لدفع هذا العذاب عن نفوسنا إلا بأن نعلم على هؤلاء
المساكين فنحس بفرح وفوز ونصر وانسراح صدر . إذن أكثر رحمت هذا الانسان والحيوان راجعة
لقصور الفطرة الحيوانية عن الرحمة الحقيقية، لأن كمال الرحمة عقلا أن تعطى بلا فائدة لك وههنا الفائدة عائدة
عليك وهذه الفائدة إما أن تكون فطرية كما تقدم، وإما أن تكون شرعية جاءت بها الشرائع الإلهية وهى
ثواب الآخرة ، فإذا أغدقت النعم على الناس وقصدت ثواب الآخرة وأن الله يعطيك فى الآخرة بدل ما
أعطيت للفقر فى الدنيا ، فهذه وإن كانت شرعية جاءت بها جميع الشرائع وأعظمها الاسلام، فهى لا تزال
ناقصة بالنسبة للرحمة التامة التى لا جزاء فيها ولا شكورا وهذه قد قصد فيها الجزاء وربما يتبعه الشكر فى الدنيا
من الناس . إذن الرحمة الفطرية الغروسة فى هذا الانسان وفى الحيوان ناقصة لا يتصف بها الله . إذن الرحمة بالنسبة
لله تعالى ترجع إلى إفاضة الاحسان وإسباغ النعم على جميع الخلق برا وفاجرا . إذن هذا مجاز لأن حقيقة الرحمة

راجعة لما فطرت عليه نفوسنا ، وهي مفطورة على النقص والله هو النصف بالكمال . إذن الرحمة بالنسبة لله راجعة إلى الإنعام وإفاضة الخير مطلقا .

فيا سبحان الله . إنك يا الله قد أريقنا هذه العاني في مخلوقاتك . إنك يا ربنا لما اتصفت برحمة لم ندر كما من نفوسنا أردت أن تظهر لنا آثار هذه الصفة في المخلوقات وفصلتها لنا تفصيلا . إنك قد أودعت الرقة في قلوب الأمهات من الانسان والحيوان من ذوات الأربع والطيور وقلت لها أيها الحيوانات إياك أن تفرطى في ذريتك أو في بيضك . فإياك ثم إياك وإلا أنزلت عليك عذابا ألما يستقر في باطنك وضربك بمقامع من حديد تجدينها في باطنك ، أيها المخلوقات إن رحمى سبقت غضبى ، فعليك أن تعطفى على ذريتك ، وإلا أنزلت عليك غضبى بالحزن والألم في أنفسك وأخذت تدينين حظك وتبكين على ما فرطت في تلك التدبيرة .

إن هذه الرحمة لم أخص بها آكلة الحشائش من الحيوانات ، كالألم تروا أن الصقور والشواهين والأسود والنور ، تلك الحيوانات التي انتزعت من قلوبها الرحمة على الحيوانات للأكولة وألهمتها أكلها ، وما نزلت الرحمة من قلوبها في ذلك الأكل عبثا وباطلا لأنها لو رحمتها فلم تأكلها لضاعت (مزيتان : المزبة الأولى) أن الحيوانات الكاسرة تموت عن آخرها (المزبة الثانية) أن الحيوانات التي تأكل الحشائش كالغزلان والبقر الوحشى وغيرها لو لم تأكل بعضها السباع لملاأت السهل والجبل وعند ذلك لانكشفها حشائش الأرض ونباتها وأشجارها ، فمن حكمتى أن خلقت تلك الحيوانات الجريئة التي لاتعيش إلا بالجمان هذه الحيوانات لتكون رحمة لأنفسها بالبقاء ولما كولات بحفظ الموازنة لبقاء ذرياتها متهتة بسعادتها في القلوات ، ولو أن الأرض كلها صلحت للزراعة ولم تقم فيها موانع ، وكفى الماء لريها لأبدعت للحياة أسلوبا غير هذا الأسلوب) كلها قد فطرت على رحمة ذرياتها كما فطرت عليها آكلات الحشائش ، ففي هذه الحيوانات المفترسة اجتمع الضدان رحمة وغضب ، ولكن الرحمة سبقت غضبى ، فالأم تعطف على أولادها وبهذا العطف تحضرهن الغزاة والغزال بقوتها الغضبية ولكن هذا الغضب ليس بالغضب المطلق لأنه لرحمة (اللبؤة) مثلا ورحمة ذريتها ورحمة نوع الغزال بتقليل عددها لتكفيهم حشائش البرية ولتكون اللحوم للأكولة متخالفة أجزاء (اللبؤة) وأولادها فيجتمع فساد الجو بما يموت من تلك الحيوانات .

وملخص ما تقدم أن الرحمة في الحيوان رقة والرقة ألم والإنعام على التدبيرة وعلى المساكين ونحوهم دافع لهذا الألم فهي رحمة ناقصة والرحمة الكاملة تخلو من ذلك كله وهذه ليست في الأرض وإحسان أكثر المسلمين وغير المسلمين رحمة ولكنها لمقابل في الآخرة ، وهذا أيضا نقص ولكنه كمال بوجه ما في نوع الانسان والرحمة في قلوب الحيوانات الكاسرة والمفترسة لأولادها كرحمة الحيوانات للأكولة لأولادها سواء بسواء والحيوانات الآكلة تجتمع في قلوبها الرحمة على ذريتها والغضب على الحيوانات للأكولة والرحمة سبقت الغضب في الجميع . إذن الرحمة في الأرض واحدة وتنوعت أنواعا شتى ، ففي المرأة والناقة والغزاة وفي الحمامة والدجاجة وأنتى الصقور حمل وإرضاع وغيرها ، ومحافظه على البيض وعلى الفرخ عند خروجه من البيضة وترى الديك لا يبالي بالبيضة ولا بالفرخ الخارج منها وذلك لأنه مشغول بالقوة الشهوية أما الرحمة فلا لأنها لا حاجة إليها إذ الفرخ قوى عليه وريشه ولكننا نرى ذكر الحمام يساعد أنثاه ، لماذا ؟ لأنه رأى فرخه خرج ضعيفا لا يقدر على إحضار قوته فركز في نفسه مساعدة أنثاه فساعدتها ، إذن الرحمة في الأرض قد وضعت بقدر « إنناكل شئ » خلقناه بقدر » .

إن هذه المسألة وحدها تكفى العاقل للفكر أن يعتقد اعتقادا جازما أن الحياة كلها سعادة لأنها مبنية على الحكمة وإذا أصابنا شر أو خير فهو بحكمة ، وإلا فلماذا نرى هذا النظام المتقن ، رحمة نزلت من قلب

الديك لماذا؟ لأنها لا حاجة لها وإذا وجدت كانت حملا ثقيلا لا فائدة منها، فهذه وحدها كافية لسعادة القلوب في هذه الأرض. إن العلم اليوم صار شارحا لمعاني أسماء الله الحسنى لأنها معبرات عن صفاته تعالى كالوجود والحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام.

هذا معنى كون الرحمة واحدة وقد تنوعت، ثم انظر إلى ما بعد هذا من أنواع الرحمات المذكورات في هذا التفسير؛ انظر إلى السمك لترسوم الشروح في (سورة طه) فإنك ترى أن السمك لا يساعد ذكره أثناء كلاله. ولا تعطف الأم على ولدها. كلا. إذن رقة القلب هناك على الدرية وألم الآباء لآلام الأبناء معدومة لماذا؟ لأن الله تسكفل بالأجنة، فماذا فعل؟ قال لأنني السمك (أيها الأثنى اذهب إلى قرب الشاطئ. وضعي بيضك بقدر وأنت أيها الذكر اذهب إلى ذلك البيض وضع عليه مادتك الشهوية وعيشا أيها الذكر والأثنى في البحر فلا مغازلة ولا خطبة ولا زواج ولا نفقة ولا عدة ولا حيز ولا نفاس ولا أتعاب ولا قضاة ولا عمالين ولا تعب ولا نصب ولا سوء معاشرة ولا خيانة بالزنا ولا سفاح ولا ذل مما أوجعت به قلوب بني آدم وأحرقت قلوبهم لحكمة علمتها وعبرة أنزلتها، ثم أنت أيها الجنين في البيض. أنت الذي جمعت فيك سر الذكر وسر الأثنى قم بإسلام ومعك كيس مملوء من الأغذية فكل منه حتى تكبر ثم بعد ذلك استقل استقلال تاما وكل من أعشاب البحار وأنا البر الرحيم بك، فإن أكلت غيرك فأنت بنعمتي تربيت وإن أكلت غيرك فهي نعمتي عليك وعلى كل حيوان في البر والبحر).

فهذه الرحمة التي تراها في صور السمك المذكورة في (سورة طه) قد دخلت من المؤلمات التي أودعت في الحيوانات العليا، لأن الأعلى يكلف بما لا يكلف به الأدنى، كما أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون بما لم يؤمر به من دونهم.

وهناك رحمات أخرى في الجراد وفراش الفز ودوده إن الجراد تعيش في الأرض ويقال لها: أيها الجراد كلي واشربني هنيئا ولا تدخرى كما يدخر الخمل والنحل لأنك لا تعيشين إلى العام القادم، أما ذريتك فأنا المتكفل بها فضعي بيضك حيث شئت في أماكن أعددتها لك، فإذا جاء أجلك فأنا للتكفل بها أحفظها حتى ترزأ بني آدم في زرعهم وهم مجتمعون ويحاربونك ولكن هيات فأنت لا تزالين في الوجود مهما فعل الإنسان، فهذه الحشرات وأمثالها كالبق والبرغوث والذباب وأمثالها لا تحفظ أولادها ولا رقة لها عليها ولا ألم.

فاته عز وجل لما أرانا الرحمة في قلوبنا وفي قلوب الحيوان وعلم قصورنا حين وضعت اللغات وعلم أننا يوما سنتكلم في رحمته تعالى قال: هاؤم اقرءوا رحمتي في سطور الكائنات، ألم تروا أنها ألم في قلوب الحيوانات العليا ولكن أمثال السمك والجراد والبق قد وجدت الرحمة على أولادها ولكن من عالم آخر غير عالمكم ويتدبر محكم غير تدبيركم، فإذا كنتم علم اليقين أن الإعطاء قد ظهر في الأرض بلا ألم يصحبه فاعلموا أن ذلك يفهمكم رحمتي، فرحمي أسبقها على العالم وليست كرحمتكم. إذن ظهر سر قول علمائنا رحمهم الله «إن الرحمة تطلق على الله مجازا بحسب وضع اللغة فهي لله بحسب نتائجها لامبادتها». إذن وضع اللغات السامية والطورانية والآرية وما تفرع منها لم يكن إلا لأحوال هذا الإنسان لا لموجود فوق مداركه والله لما أراد أن يعرفنا ذلك وأن أسماءه تعالى لها معان باعتبار الغايات لا باعتبار ما وضعت له اللغة أرانا ذلك في تنوع الخلوقات أمامنا، وقال لنا هذه رحمتي شملت بها أمثال الناموس الذي تروونه في مائسكم الآسن الذي تحقرونه وأنا الذي شملت البيض الذي يضعه ذلك الناموس برحمي ولا ألم يصحب تلك الرحمة كالألم الذي تحسونه ليحسبكم على الإنعام على الدرية وعلى الضعفاء. إذن أقول إن المعاني التي عرفها العلماء في عقولهم أظهرها الله اليوم في هذا

في هذا التفسير، والحق يقال أن معاني أسماء الله تعالى المعبرة عن صفاته الوجودية التي اتصفت بها ذاته العلية قد أصبحت تظهر آثارها في العلوم المنشورة اليوم في الأرض، فانظر يصيرك أولا ثم يصيرتك ثانيا أيها الذكي واقرا أسماء الله في الشجر والحجر والبر والبحر والسماك والجراد والنمر والغزال، انظر بعقلك فسترى بصيرتك أن الشجر والحجر والشمس والقمر كلها سطور مكتوبات بحجرات بمعاني الأسماء الحسنى والأسماء الحسنى معبرات عن القدرة والارادة والعلم والحياة الخ.

﴿ الرحمة لاحد لها ولا حجر عليها ﴾

لقد عرفت أيها الذكي كيف كانت الرحمة لاملزمة بين إنعامها وبين الألم السبب لها وقرأت ذلك مجسما في الجراد وفي السمك المذكورين في الحديث «أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والسكيد والطحال» وهاتان الميتتان قد جاءت فهما الرحمة بلا ألم، ولقد أحلا لنا ليكون من آثارها ماجاء في هذا المقام إذ يتذكر السلم نعمة العلم التي جاءت مصاحبة لحل الأكل ولا جرم أن السكيد والطحال لهما سر عظيم في الدورة الدموية التي بها الحياة والحياة تلازمها الرحمة ورقة القلب فسكانه جمع في هذا الحديث الحيوانات التي فيها بعض الرحمة بلا ألم، والحيوانات التي رحمتها ملازمة للألم ليكون الحديث مذكرا بكل ما كتبتناه هنا وإذن هذا الحديث الذي لم يخطر لي في هذا المقام إلا الآن فيه سر هذا الموضوع كله. إذن هذه المعاني كلها أدمجت فيه، فإذا كانت الرحمة في الحيوانات العلية ملازمة لرقعة القلب، فالرحمة في الحيوانات الدنيا تأتي من الله مباشرة وبلقيها إلى ملائكته ولا يجعلها مصحوبة بألم. إذن لاحجر في الرحمة وطرقها مختلفات، وهذا اتضح في هذا المقام وضوح الشمس في رابعة النهار وهذا كله في الحيوان العام، فانظر إلى الرحمة التي أجريت على يد الإنسان. الإنسان سخرت له الأنعام فركبها وأكل لحوم بعضها وقال حين ركبها «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» وسخرت له الأرض فهو يزرعها ويستثمر زرعها من نبات وشجر. وهذا هو الإنسان ولكن الله يقول له اليوم أنا وإن سخرت لك الإبل والبقر والغنم لتركبها ولتكون زينة لك فليس هذا آخر رحمتي لأن هذه الرحمة مصحوبة بألم. الحيوان سخرته لك وهو رضى بالتسخير لأننا ضعيف الإدراك يخاف منك ورجو برك له وأنت ذو عقل أيها العبد فلتخرج من هذا الحبس؛ وإذا كنت أنا قد نوعت في الرحمة فلم أقصرها على نوع واحد في الحيوان، فهكذا أنا سأريك أيها الناس شئنا أم أبيتم إن سفركم لا يتوقف على الدواب بل هكذا قضيت بإظهار آثار النار والكهرباء وحمالتكم بهما في البر والبحر وأن الزرع الذي تزرعونه ليس قاصرا على ما تصنعونه اليوم كما ظهر في الطبيعة. كلا. ثم كلا. أتم تسخرون الحيوان لزرعكم كما تسخرونه لسفركم. أنا سخرت الرحمة في نحو الجراد وفي نحو الغزال فجعلتها في الأول بلا ألم يصحبها وفي الثاني بألم يصحبها هكذا أنواع في الزرع فلا تجعله على وتيرة واحدة. فهذه الزراع التي اعتادها آباؤكم لها موازين محدودة وهذه الموازين والأصول متى عرفتموها ووضعتموها في المساء في أي أرض كانت ظهر لكم زرع خير من الزرع الطبيعي.

أيها الناس. هذا خلق الله. أنا الذي خلقت الإنسان، وأنا الذي خلقت النبات، وأنا الذي ألهمت علماء بقسم (الفسولوجيا النباتية) بجامعة (كلفورنيا) بأمريكا أن يتوصلوا بالتجارب إلى أن ينتجوا خضراوات وجبوبا وزهورا وفواكه بأقراص كيميائية مركبات من هذه الأجزاء السبع وهي (النيروجين والفوسفور والنتريسباوالحديد والبوتاساوالكبريت والسكاس والجير) وتلك الأقراص توضع في الماء في أحواض خشبية توضع في أي نقطة من الأرض في الرمل في الجبل فوق سقوف المنازل في أي مكان كان، وهذه الأقراص للمركبات للموضوعات في ذلك الماء تغذي النبات فيخرج كاملا صحيا نافعا للإنسان ليست تلحقه الآفات التي تلحق زرعكم الآن وبه يمكن زرع الأرض كلها ويكون المحصول أضعاف ما عندكم الآن.

أيها الناس . إن هذا العمل عظيم به تزرعون الصحراء حتى أن مصر التي يباغ مازرع من الأرض فيها جزء من ثلاثين فقط تصبح بهذا العمل جنة أكبر مما هي عليه الآن ٣٠ مرة والخمرات أضعاف أضعاف ذلك كله ، وبهذا تزرعون الأزهار والفواكه في غير أوانها والقمح والشعير يزيد محصولهما (٥٠) في المائة تقريبا وبهذا تزرعون الورد في المنازل في فصل الشتاء .

أنا ألهمت هؤلاء العلماء في أمريكا فجزبوا خمسة آلاف تجربة في خمسة أعوام وهذا الكشف وصفه الدكتور (جاريك) رئيس قسم تشريح النبات في جامعة (كلفورنيا) بأنه أعظم منحة وأفضل هبة لفن الزراعة منذ بدء تطبيق علم تسميد الزروع حتى الآن ، ويقول الدكتور (جاريك) المذكور (إن الحياض التي فيها الماء إذا وضع فوقها أغشية وفيها تقوب يخرج منها النبات وتتصل جذورها بالماء في داخلها وتلك الجذور تتغذى بالأقراص المذكورة ، وتلك الأقراص مقدره في كل نبات بحسبه لأن أغذية النبات مختلفة مقاديرها باختلاف أنواعه كما تقدم في (سورة البقرة) فإن محصول ستين اثنين يأتي بنفقة تلك الحياض وهي تعيش ٥٠ عاما وهذا يمكن زراعة جميع الأراضي القفرة في العالم كله) . ثم قال (والعمل الذي يتطلبه الزرع على هذه الطريقة الجديدة لا يبلغ عشر معشار ما يتطلبه خدمة الأرض) .

هذا ماخص للقال للشور في العالم وفي مصر يوم الخميس ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩ م بجريدة الأهرام ولعلك ستراه بنامه عند قوله تعالى في (سورة سبأ) «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول» الخ إذ تذكر هذه المقالة هناك ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن التقليد ووقوف العقل في أمور الحياة الدنيا جهل محض وأنا خالفت فينا العقول لنسير إلى الأمام ولا نقف عند حد ما عرفناه ، ولما وقتت عقولنا خلق الله في العالم قوما آخرين وقال لهم فسكروا وذلك إجابة لأمره تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذ يقول له «وقل رب زدني علما» (اقرأ تفسير هذه الآية في سورة طه) .

﴿المسلمون أولى بهذه العلوم من جميع الأمم﴾

اعلم أن هذه العلوم وورق الصناعة والزراعة وكشف مخبآت الطبيعة هي الخاصة التي سيختص بها المسلمون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، ألم تر أن المسلم قد أمر أن يتخلق بما يمكنه من صفات الجلال ليقرب من الحق قريبا بالصفة لا قريبا بالمكان فيأخذ من الاتصاف بها شيئا من الملائكة القربين عند الله تعالى ، ولن يتصور أن يمتلىء القلب باستعظام صفة واستشراقها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا للمستعظم فإن لم يكن بكاله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة ، وهذه نفسها عبارة الإمام الغزالي ، ولا جرم أن الزراعة التي ظهرت في أمريكا والتي هي نعمة عامة تعطى عمرا وجبا وفاكهة وأبا ونعما لأخصى في أرض الله الواسعة ولا نصب فيها ولا تعب إلا أقل من عشر ما ينصب الناس فيه الآن . أقول إن هذه الرحمة من رحمة الله الواسعة التي لاحد لها فهو كما لم يجعل لها حدا في تربية الأمهات لتدريتها في ذوات الأربع والطيور والحشرات وجعل من التدبير ما تربي بلائم في نفوس الآباء ولا الأمهات هكذا جعل هناك آلات وأدوات بها نسير من مكان إلى مكان ونسافر حول الكرة الأرضية بغير إجهاد الحيوان الذي سخر لنا بنص القرآن ، وهكذا جعل هناك زرا لا شقاء فيه ولا نصب ولا تعب ولا خوف من حر ولا برد ولا آفات زراعية ولا حرث ولا تقية حشيش وهكذا مما ابتلى به الإنسان وقال أيها الناس هذه نعمتي التي أنعمت عليكم بها وألقيتها إلى عقولكم فاقبلوها .

هذه إحدى رحمت الله وإذا قبلها المسلم وعمل بها فقد قرب من الملائكة الذين هم في قرب ربهم وهذا القرب بالصفة لا بالمكان ، وعلى ذلك يكون قول المسلم (بسم الله الرحمن الرحيم) إن لم يكن عنده ولوع بأمثال هذا الذي ذكرناه ولم يحث المسلمين عليه يكون سلوكه ناقصا .

ولما اطلع على ذلك صاحب العالم الذي يناقشني في أمثال هذا ، قال ما هذا الذي تقوله ؟ أيتصف المسلم بصفة الله ؟ أليس هذا كفرا ؟ وكيف يكون المسلم ناقصا كما تقول إذا لم يعمل كما تعمل أمريكا ، هذا أمر عجيب . فقلت حياك الله . هذه اعتراضات لفظية يتلى بها غيرك من صغار العلماء وجميع العامة الذين لا يعرفون من ديننا الحنيف إلا الألفاظ وأنا موقن أنك تقول ذلك لأجل تفهيم غيرك فقال: نعم فقلت اعلم أني لا أكتب مثل هذا إلا وقد أعددت له عدته . قال وما هي عدته ؟ قلت أقوال العلماء فإن الأمم الإسلامية اليوم كلها تتبع ما خطه سلفنا رضى الله عنهم فإذا أسمعنهم ذلك قلنا (قد قطعت جهيزة قول كل خطيب) فقال فاسمعني الآن . فقلت العلامة الإمام الغزالي في كتابه [اللقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى] قال مانسه :

﴿ فصل : في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلل بمعاني صفاته

وأسمائه بقدر ما تصور في حقه ﴾

اعلم أن من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه ويفهم في اللغة تفسيره ووضعها ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى فهو مبخوس الحظ نازل الدرجة ليس يحسن به أن ينتجج بما ناله فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسة السمع التي بها يدرك الأصوات وهذه رتبة يشارك البهيمة فيها وأما فهم وضعه في اللغة فلا يستدعي إلا معرفته العربية ، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوي بل الغبي البدوي ، وأما اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتصديق بها وهذه رتبة يشارك فيها العاوى بل الصبي فإنه بعد فهم الكلام إذا ألقى إليه هذه المعاني تلقاها وتلقنها واعتقدتها بقلبه وصمم عليها وهذه درجات أكثر العلماء فضلا عن غيرهم ولا ينكر فضل هؤلاء بالإضافة إلى من يشاركهم في هذه الدرجات الثلاث ، ولكنه نفس ظاهر إلى ذروة الكمال فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين بل حظوظ المقربين من معاني أسماء الله الحسنى (ثلاثة : الأول) معرفة هذه المعاني على سبيل المكشوفة والمشاهدة حتى يتضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ وينكشف لهم اتصاف الله تعالى بها انكشافا يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهر وكم بين هذا وبين الاعتقاد المأخوذ من الآباء والمعلمين تقليدا والتصميم عليه وإن كان مقرونا بأدلة جدلية كلامية . (الحظ الثاني) من حظوظهم استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقربوا بها من الحق قريبا بالصفة لا بالمكان فيأخذوا من الاتصاف بها شها من الملائكة المقربين عند الله تعالى ، ولن يتصور أن يعتلى القلب باستعظام صفة واستشراقها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لتلك الجلال والجمال وحرص على التحلى بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا للمستعظم بكاله فإن لم يكن بكاله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة ولا يخلو عن هذا الشوق أحد إلا لأحد أمرين إما لضعف المعرفة واليقين بكون الوصف المعلوم من أوصاف الجلال والكمال ، وإما لكون القلب بمنكنا يشوق آخر مستغرقا به . فالنبيذ إذا شاهد كمال أستاذه في العلم انبعث بشوقه إلى التشبه والاقتران به إلا إذا كان مملوءا بالجوع مثلا فإن استغرق باطنه بشوق القوت ربما يمنع انبعث شوق العلم ولهذا ينبغي أن يكون الناظر في صفات الله تعالى خاليا بقلبه عن إرادة ماسوى الله تعالى فإن للعرفه بذر الشوق واسكن مهما صادف قلبا خاليا عن مسكة الشهوات فإن لم يكن خاليا لم يكن البذر منجعا (الحظ الثالث) السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلل بمحاسنها وبه يصير العبد ربانيا أي قريبا من الرب تعالى فإنه يصير رفيقا للملا الأعلى من الملائكة فإنهم على بساط القرب ، فمن ضرب إلى شبه من صفاتهم نال شيئا من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم المقربة لهم إلى الحق تعالى .

ثم أورد هنا شبهة ترد على خواطر الناس في كل عصر وهذه الشبهة قد خطرت لبعض قراء هذا التفسير وكتب في بعض المجلات العلمية معترضا ماقلته في (سورة الفاتحة) وأجبتة إذ ذاك بنحو ما ستسمعه الآن أفلا تعجب من صنع الله أن أرى نفس ذلك الإشكال ذكره الإمام الغزالي وأبدع في الإجابة وبه استبان أن أكثر شبهات الناس لفظية سببها الجهل المطبق بمقائق العلوم والاكتفاء بالألفاظ والنوم على وساد الراحة الوثير فانظر مايقوله الإمام الغزالي وهذا نصه (فإن قلت طلب القرب من الله تعالى بالصفات أمر غامض تسكاد تشعتر القلوب عن قبوله والتصديق به فزده شرحا نسكسر به سورة إنكار المنكرين فإن هذا كالمسكر عند الأكرين إن لم تسكشف حقيقته).

هذا هو السؤال وههنا أجب بما بطول شرحه ولكن سأذكر نحوه وملخصه بعبارات تناسب ما نذكره في هذا التفسير بحيث يالفها ويفرح بها قراؤه فأقول:

اعلم أيديك الله أن الموجودات لا كامل فيها كالا مطلقا إلا الله فأما مساواه فهي إما مية وإما حية والأحياء [ثلاثة أقسام] قسم أعلى وهم الملائكة ، وقسم أوسط وهو الانسان ، وقسم أدنى وهو الحيوان . (وبيانه) أن الحي هو الدراك الفعال ، فالإحساس والحركة هما اللذان بهما يمتاز الأحياء . ولا جرم أن إدراك الحيوان محدود ناقص . ألا ترى رعاك الله أن الذوق والفن لا عمل لهما إلا فيهما مسهما واختلط بهما وأن الشم والسمع والبصر لا تدرك إلا ما قرب منها وهذا نقص ، فالسكال أن يدرك للمدرك ما لا حد بعده ويكون القرب والبعد سواء في إدراكه . هذا من جهة إدراك الحيوان أما فله فلا يتجاوز الشهوة والغضب ، فالحيوان آكل الحشائش والنبات لا حركة له إلا في طلب قوته وحفظ ولده وكل ذلك من فعل الشهوة وما يتبعها والأسد والنمر بالقوة الغضبية يقتنصان فريستهما وبالقوة الشهوية يزدردانها . إذن عمل الحيوان لا يتجاوز هاتين الحصلتين . أما الإنسان فلما كان أرضيا بحسمة سماويا بروحه صار مركبا من بهيمة وملك فهو في أول أمره بهيمة وفي حال رقيه يرتقى عن مرتبة البهائم بالإدراك فلا يقف عند الحس والخيال بل يدرك المعقولات والمعقولات لانهاية لها وما لا يقدر الانسان على إدراكه منها لا حد له وما يقدر على إدراكه منها أيضا لا حد له وإن كان ما يدخل في الوجود متناها وبهذه الصفة يقرب من الملائكة وأعماله إذن لا يقصد بهما إلا القرب من الله فهنا قرب من الملك بوجه آخر أما الملك فإدراكه لا يقتصر على الملامسة أو قرب منه بل القرب والبعد لآثار لهما إلا على الأجسام والأجسام أحسن الموجودات وعمل الملك لا يكون إلا تقريبا لله فلا شهوة هناك ولا غضب كما قدمنا . ارتقاء الانسان في المعقولات وعمله للمصالح العامة تقريبا إلى الله كلاهما يقربانه من الملك والملك قريب من الله ، وهذا القول يبر شبهة وهي أن العبد يشبه الله والله سبحانه وتعالى ليس كمثل شيء . وهنا أخذ يدحض هذه الشبهة فلا تسمك فخوى عبارته ومقصودها إذ أصوغها لك بالقالب العروف في هذا التفسير .

اعلم أيديك الله أن علم البلاغة (ثلاثة) وهي المعاني والبيان والبديع ، فلأخص الآن كلامي بعلم البيان وهو محصور في التشبيه والمجاز والسكنائية ، والتشبيه باب واسع لا آخر له وجميع اللغات تستعمله لتقريب المعاني ، والمجاز إما مرسل وإما استعارة مصرحة وإما استعارة مكنية ، وهاتان الاستعارتان مبنيتان على التشبيه إذن علم البيان أكثره يرجع للتشبيه ، فاذا قلت :

الحد ورد والوجوه دنا نير وأطراف الأكمف عنم

أو قلت : رأيت في الدار بدرا . أو قلت : الذي يحمي البلاد له لبد أظفاره لم تقلم

فإنك في هذا كله لم تخرج عن التشبيه في المثال الأول ، لأن الانسان مشبه بالبدر في المثال الثاني الذي هو

استعارة مصرحة ومشبه بالأسد تشبها مطويا في المثال الثالث وهو استعارة مكنية . إذن التشبيه أصل عظيم في علم البيان وفي كلام العرب والعجم وهذا أمر مستفيض بين العامة والخاصة ، ولكن الحجاب إذا أسدل على العقول ججها عن الأمور البديهة ، فانظر رعاك الله إلى قول النابغة يمدح النعمان لما وثى له به قال :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

وقوله أيضا :

كأنك شمس والسلوك كواكب إذا طلعت لم يسد منهن كوكب

فهل كان النابغة يعني بذلك أن النعمان شمس مضيئة في الثاني وليل مظلم في الأول ؟ كلا . فالبدهة تقضى خلاف ذلك . وهل الحد هو كالورد في أخص أوصافه ؟ كلا . ثم كلا . وإنما الحد أشبه الورد في صفة زائدة على الذات لا أنها هي الحقيقة . نعم إذا قال قائل لأهل أوروبا اليوم : أيها القوم كيف تظلمون الزنوج ؟ إن الزنوج آدميون مثلكم فالمثلية هنا رجعت إلى الحقيقة والحقيقة هنا هي الحيوانية والناطقية ، أما كون النعمان كالشمس أو كالليل أو كون الحد كالورد فليس التشبيه هنا راجعا لحقيقة الذات بل لصفات خارجة عنها . إذن التشبيه (قمان) قسم يكون المدار فيه على الحقيقة الذاتية وهو قليل جدا ، وقسم يكون وجه الشبه فيه راجعا لأمر عارضة على الذات وهو الأعم الأكثر . إذن فلنرجع إلى القصود فنقول : إن الله عز وجل مجهولة ذاته لجميع الناس فبحال أن يدركوها وهكذا صفاته . فالذات والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام كلها لا يعرفها الناس وإنما عرفوها بالقياس على أنفسهم . إن الله عرف بمخلوقاته وفي المخلوقات آثار عرف الناس بها أنه قادر وعالم ولاربي أن القدرة والعلم لا يعرفهما الناس إلا بالقياس على ما في أنفسهم ولم يعرفوا ذاته تعالى ولا صفاته على وجه الحقيقة . إن من يعرف الحقيقة يتصف بنظيرها وذواتها وصفاتها ليست كذات الله وصفاته ، فالصبي إذا أردنا أن نصف له لذة الجماع وجب أن نقول له اصبر حتى تكبر وأنت تعرف تلك اللذة على وجه الحقيقة أو نقول له إنها كالسكر والحلوى التي تأكلها ، والعرفة الأولى حقيقة والثانية ماهي إلاتشبيهه ، وفرق بين ضرب الأمثال وبين الحقائق ، فإذا قال الإنسان الله قادر فهذا اسم مشتق ومثي عرف المشتق منه عرف المشتق ، والمشتق منه هي القدرة وقدرة الله لانعرفها بالحقيقة كما قدمنا لأنه يستحيل أن ترتقي حتى تكون لنا قدرة مثلها كما يستحيل أن ترتقي نفوسنا حتى تساوي ذات الله . إذن لانعرف ذاته بالحقيقة لانعرف صفاته كذلك فلم يبق إلا التشبيه فنقول نحن لنا قدرة ولنا إرادة ولنا علم وكلام فنقيس كلام الله على كلامنا وعلمه وهكذا كما قلنا للطفل إن لذة الوقاع كذة السكر ولكن هذا الطفل سيرتقي حتى يصل إلى الحقيقة ، أما نحن فلا . هذا هو الفرق ، على أن النسبة بين الحلوى والسكر وبين لذة الوقاع أقرب جدا من النسبة بين قدرتنا وقدرة الله . وهنا نقول : هل من يقيس لذة الوقاع على لذة السكر للصبي ، أو من يشبه الورد بالحد ، أو من يقول إن هذا كالشمس أو هو كالليل ؟ أراد هؤلاء كلهم أن وجه الشبه راجع للحقيقة الذاتية . كلا . بل الإنسان يقول إن السواد كالبياض في كونه عرضا ومنظورا ولونا ولا يكون مخطئا وهما ضدان . إذن الضد يشابه الضد ولم يخرج عن كونها ضدتين ولم ينقص مقدار البياض ولم يترشح بسبب هذا التشبيه . هكذا في مقام الألوهية ، فالتشبيه الذي من هذا القبيل ليس محظورا ولو كان محظورا لسكان الناس جميعا مشبهة فانهم موجودون والله موجود ولنا سمع وله سمع ولنا قدرة وله قدرة وهكذا ، فقوله تعالى « ليس كمثل شيء » لا يشمل هذه المشابهة الوصفية التي هي أبعد مما بين لذة السكر ولذة الوقاع وإنما النبي منصب على الاتصاف بالحقائق الذاتية كمثل الزنجي مع الأوروبي فيما تقدم :

(بم يكون قرب العبد من ربه إذن؟)

فإذا أقفل على العبد باب معرفة ذاته تعالى وصفاته لأنه لا مطمح له في الوصول إلى ذلك فليس له إلا أن يعرف آثار الصنعة . وعلى مقدار ما يعرف من الجمال والبهاء والحسنة يكون اقترابه من ربه وبهذه تتفاوت أقدار الناس في معرفة ربهم عز وجل ، فأرفع الناس قدرا وهم الأنبياء والأولياء جميعا يتفاوتون في المعرفة من هذه الوجهة وهم درجات لا حصر لها وتفاوتهم في المعرفة أوسع نطاقا من تفاوت الأغبياء في الملك لأن الأجسام محصورة والمقولات لا حصر لها ، وهنا بيت القصيد . فالنظر في مصنوعات الله عز وجل كالتى في هذا التفسير وغيره تجعل العبد ربانيا مشرق النفس قريبا من ربه قريبا بالصفة لا بالمكان . إن المرأة لا تعرف من زوجها إلا ما وصل لها من المال ومن اللذات المحسوسة . فأما علمه فعلى في غفلة عنه وهكذا خادمه . فأما التلميذ فإنه على مقدار ما كسب من علم أستاذه يكون حبه . فإذا كان الأستاذ يعرف عشرين علما والتلميذ يعرف علما واحدا فمعرفة له جزئية على مقدار ما عرف . وكما ازداد علما بأن قرأ علوما أخرى عليه ازداد به معرفة وبمقدار المعرفة يكون الحب ، وهذه المعرفة بالنسبة لله كما قلنا ليس معناها معرفة الحقيقة بل معرفة آثار الصفات التى تعبر عنها الأسماء المشتقة منها لا معرفة نفس الصفات الإلهية كما أن الناس لا يعرفون حقيقة الموت إلا إذا ماتوا ولا يعرفون حقيقة الجنة ولذاتها وحورها وقصورها إلا إذا ماتوا ودخلوها لأن أوصاف الجنة ذكرت لنا على مقتضى ما ندرك نحن من اللذات؛ فصورت لنا تلك الصور بالألفاظ على مقدار ما نعرف نحن من لذاتنا في الدنيا كما وصفت لذة الوقاع للطفل بالسكر فإذا كانت الجنة التى هى من مخلوقات الله ومن الحوادث لا تعرف وصفها إلا بضرب أمثال بعيدة عن حقائقها التى يقرها حديث «في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» فكيف بمبدع الدنيا والآخرة فهو أرفع من أن يعرف إلا بضرب الأمثال ، والحمد لله رب العالمين .

(تذكرة)

مدح أحد الشعراء خليفة من خلفاء بني العباس فوصفه بأنه في الشجاعة كعمرو ، وفي السباحة كحاتم ، وفي الحلم كأحنف ، وفي الذكاء كإياس فقال :

إقدام عمرو في سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس
سم أحس بأن ذلك ربما يكاد ينتقد فقال :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا عجيبا فى الندى والباس
فإنه قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

فهذا الشاعر شعر بما يشعر به أكبر الحكماء من انتقاد صفات العلماء والعامه على مجرد الألفاظ بلا تحقيق ولا هدى ولا كتاب منير .

وبالجملة فمعرفة ذات الله وحقائق صفاته مستحيلة ، ولا اتساع لمعرفة الله إلا فى معرفة أسمائه وصفاته: أى آثارها من عجائب آياته فى ملكوت السموات والأرض وخالق الأرواح والأجساد وفى الاطلاع على بدائع الملكة وغرائب الصنعة ممعنا فى التفصيل ومستقصيا دقائق الحكمة ومستوفيا لطائف التدبير ومتصفا بجميع الصفات للملكية القربية من الله تعالى نائلا لتلك الصفات نيل اتصاف لها . هذا ولاأخص لك للتقام بما يأتى :

(أولا) إن رحمة الناس جعلت مثلا لرحمة الله مع ما بينهما من البون البعيد .

(ثانيا) إن العلماء ذكروا أنها فى حق الله مجازية لأنها راجعة إلى الغايات وهو الإنعام .

(ثالثاً) إن نظام الطبيعة وحسن الصنعة الإلهية في الإبداع قد جاءت بمقتضى أقوال العلماء إذ جاءت لرحمة في الحشرات ونحوها ولا ألم معها وهكذا الآلات التي بها الانتقال والسير لا ألم للحيوان فيها فهي رحمة اتقى معها تسخير الحيوان وهكذا اخترع علماء أمريكا لنظام الزراعة الجديد ليس فيه ألم للبهائم التي اعتاد أن يسخرها الإنسان .

(رابعاً) الكامل التام الكمال ، هو الله والملائكة مبرهون من حصر الإدراك ومن الأسباب للمورثات للنقص في الفعل كالغضب والشهوة والإنسان إذا أشبههم فقد قرب من ربه وذلك بالمقولات والنظر في عجائب الصنعة الإلهية وبكسر الشهوتين .

(خامساً) قرب العبد من الله قرب بالصفة لا بالمكان ، وليس معنى هذا أن العبد مماثل لله فهذا خطأ وإنما المائنة المتنوعة هي المائنة في حقيقة الذات والصفات ، فليس مشاركة العبد لربه في أنه رحيم وصبور وشكور ومميع وبصير وعالم وقادر وحى وفاعل موجبا للمائنة وإنما الذي يوجب المائنة أن يشارك العبد ربه فيما يختص به وهو أنه للوجود الواجب الوجود بذاته التي عنها يوجد كل ما في الإمكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال .

(سادساً) وما تقدم يعرفنا قول الجنيد (لا يعرف الله إلا الله تعالى) وقيل لدى النون وقد أشرف على الموت ماذا تشتهي ؟ فقال أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة ، قال الإمام الغزالي (وهذا يشوش على النفوس وإنما الذي يوضح المقام أن تقول إن من يقول لأعرف الله صادق ومن يقول لأعرف إلا الله صادق إذ لكل منهما معنى غير معنى الآخر) .

(سابعاً) كما لا يعرف الله وصفاته ألبتة لاستحالة الوصول إلى الألوهية فعلا وإنما يعرف بالآثار . هكذا لا يعرف الموت ولا الجنة ولا النار إلا بضرب الأمثال على مقدار عقولنا فإذا متنا عرفنا الموت وأدركنا الجنة وفهمناها ، فأما ضرب الأمثال فليست تفيد علما بل مجرد تخيل كما تتخيل صفات الله بالقياس على أنفسنا .

(ثامناً) نحن الآن في تفسير البسملة وقد عرفت أيها الذي معنى الرحمة في ضمن ما تقدم وأول الأسماء في البسملة (الله) وهذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسمين لأنه دال على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها . وسائر الأسماء تدل آحادها على آحاد المعاني من علم أو قدره أو فعل أو غيره ، وهذا الاسم لا يطلق على غير الله تعالى . فهذان السببان بهما يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء . ثم إن معاني سائر الأسماء يتصور أن يتصف بها العبد بثبوت منها حتى ينطلق عليه الاسم كالرحيم والعليم والحليم والصبور والشكور وغيره .

والرحمن مشتق من الرحمة وهو أخص من الرحيم ولذلك لا يسمى به غير الله . إذن الرحمن يكون في السعادة الآخروية لأن العباد لا قدرة لهم عليها ، وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم عباد الله تعالى الغافلين فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء وأن تكون كل معصية تجرى في العالم كمعصية له في نفسه فلا يألوا جهداً في إزالتها بقدر وسعة رحمة لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله تعالى ، وحظه من اسم الرحيم ألا يدع فاقة المحتاج إلا يسدها بقدر طاقته ، ولا يترك فقيراً في جواره وبلده إلا يقوم بتعمده ودفع فقره إما بماله أو جواجه أو يسمي في حقه بالشفاعة إلى غيره فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء وإظهار الحزن لسبب حاجته رقة عليه وعطفاً حتى كأنه مسامح له في ضره وحاجته ، وحظ العبد من لفظ الجلالة التأله . قال الإمام الغزالي (أعنى به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، وكيف لا يكون كذلك

وقد فهم من هذا الاسم الموجود الحقيقي الحق وكل ما سواه فان وهالك وباطل إلا به ، فيرى أولا نفسه أول هالك وباطل كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «أصدق بيت قاله العرب قول لبيد:

ألاكل شيء ما خلا الله باطل وكل نعم لا محالة زائل»

فإذا فهمت هذا فاعرف بقية أسماء الله تعالى على هذا النخط مثل أن تقول (الملك) هو الذي يستغنى في ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود. وهذا المعنى لا يتصور في العبد وأعظم من اقتدوا بالله في هذا الوصف بقدر طاقتهم (إذا ملكوا شهواتهم وأهواءهم وجميع جوارحهم، واحتاج إليهم الناس في الهداية ولم يحتاجواهم إليهم) هم الأنبياء ويلبهم الأولياء الذين تعلموا من الأنبياء . قال ولقد صدق بعض العارفين لما قال له بعض الأمراء سئني حاجتك؟ حيث قال أولى تقول ولي عبدان هما سيداك قال ومن هما؟ قال الحرص والهوى فقد غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكاك ، وقال بعضهم لبعض الشيوخ: أوصني قال ككن ملكا في الدنيا ملكا في الآخرة ، ومعنى هذا قطع طمعك وشهواتك عن الدنيا فإن الملك في الحرية والاستغناء .

هذا وليس يجوز لي ولا يصح أن أتوسع في هذا المقام أو أن أفسر بقية الأسماء فإنه خارج عن المقصود لأننا الآن في تفسير البسملة بطريق خاص غير تفسيرها في مواضع أخرى من هذا التفسير . ولكن أختم المقال بما وعدت به من أن الأسماء كلها ترجع إلى ذات وسبع صفات فقد جاء في الكتاب المذكور أن الاسم:

(١) إما أن يدل على الذات مثل (الله . الحق) .

(٢) وإما أن يدل على الذات مع سلب مثل (القدوس والسلام والغنى والأحد) ونظائرهما فإن القدوس هو المسلوب عنه كل ما يخطر بالبال ويدخل في الوهم، والسلام هو المسلوب عنه العيوب، والغنى هو المسلوب عنه الحاجة، والأحد هو المسلوب عنه النظير .

(٣) وإما أن يدل على الذات مع إضافة (كالعلى العظيم والأول والآخر والظاهر والباطن) فإن العلو والعظمة والأولية والآخرية وهكذا كلها بالإضافة إلى أمور أخرى . فالأول مثلا هو السابق على الوجودات والآخر هو الذي إليه مصير الوجودات وهكذا .

(٤) وإما أن يرجع إلى الذات مع سلب وإضافة (كالملك والعزير) فالملك لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء . والعزير هو الذي لا نظير له وهو بما يصعب نيله والوصول إليه .

(٥) وإما أن يرجع إلى صفة (كالعليم والقادر والحي والسميع والبصير) .

(٦) وإما أن يرجع إلى العلم مع إضافة (كالخبير والحكيم والشهيد والمحصي) فالخبير يدل على العلم مضافا للأموال الباطنية ، والشهيد يدل على العلم مضافا إلى ما يشاهد . والحكيم يدل على العلم مضافا إلى أشرف المعلومات . والمحصي يدل على العلم من حيث يحيط بمعلومات معدودة .

(٧) وإما أن يرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة (كالقهار والمقتدر والتمين) لأن الاقتدار تمام القدرة والتمانة شدتها والقهر تأثيرها في المقدور بالغبلة .

(٨) وإما أن يرجع إلى الإرادة مع إضافة أو مع فعل (كالرحمن والرحيم والرفوف والودود) فإن الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف . والرفقة شدة الرحمة وهي مبالغة في الرحمة والود يرجع إلى الإرادة مضافا إلى الإحسان والإنعام وفعل الرحيم يستدعي محتاجا وفعل الودود لا يستدعي ذلك بل الإنعام على سبيل الابتداء يرجع إلى الإرادة مضافا إلى الإحسان وقضاء حاجة الضعيف وقد عرفت وجه ذلك فيما تقدم .

(٩) وإما أن يرجع إلى صفات الفعل (كالخالق والبارئ والصور والوهاب والرزاق والفتاح والقابض

والباسط والحافض والرافع والمعز والمذل والعدل والمقيت والمجيب والواسع والباعث والبدى* والمعيد والمهيي والميت والمقدم والمؤخر والوالي والبر والنواب والمنتقم والقسط والجامع والممانع والغني والمهادي ونظائرهم) .

(١٠) وإما أن يرجع إلى الدلالة على الفعل مع زيادة (كالهيد والسكريم واللطيف) فإن الهيد يدل على سعة الأكرام مع شرف الذات والسكريم كذلك واللطيف يدل على الرفق في الفعل فلا تخرج هذه الأسماء وغيرها عن مجموع الأقسام العشرة فقس ما أوردناه بما لم نورده . فإن ذلك يدل على وجه خروج الأسماء عن الترادف مع رجوعها إلى هذه الصفات المحصورة المشهورة . انتهى باختصار من الكتاب المذكور .

يقول المؤلف . أنا أكتب هذه المقالة ليلة الخميس (١٧) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م ولعلك تقول أيها الذي لقد جاوزنا في تفسير القرآن ثلثيه . فلماذا لم يفسر (الله الرحمن الرحيم) على هذا الوجه والتطويل إلا في هذه السورة ، ولماذا أعقبنا ذلك بإجمال تفسير الأسماء كلها على وجه الاختصار ولم تختص هذه السورة بذلك مع أن هذا كانت الأولى به سورة الفاتحة . فإذا كانت الإجابة على ذلك بأن كل سورة تأخذ بعلمتها بعض العلوم فهذا لا يجدي لأن السؤال لم يختص هذه السورة بذلك ؟ والجواب عن ذلك أنني أنا لم أخطر بيالي هذا السؤال إلا بعد تمام ما تقدم . والذي ورد في خاطري في الجواب عن ذلك الآن أن ذلك لم يكن قصدا مني ولا أنا الذي خصت هذه السورة بذلك . وإنما الحكمة في ذلك أن هذه (سورة لقمان) والله فيها يقول «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله» الخ . ولا جرم أن الحكمة هي العلم بأشرف المعلومات كما تقدم وأشرف المعلومات معرفة الله عز وجل وصفاته وأفعاله . فله عز وجل هو الذي حرك قلبي وأجرى بذلك قلبي . وأنا لا أقصد هذه الفكرة وإنما عرفتها بعدما آتمت هذه المقالة ذلك ليتفكر قارى هذا التفسير في أسماء الله وفي صفاته وفي أفعاله ويرى مجمل ذلك في البسطة حتى لم بأشرف العلوم وهو الحكمة التي أعطاها الله لقمان . وهنا يدخل روضة العلوم الحكيمية . فإذا قرأت أيها الذي في أثناء هذه السورة حكم الحكيم . وعلم العلماء في معنى الحكمة فما أنت ذا قرأت أشرف علوم الحكمة . وباليت شعري إذا رأينا علماء اليونان قد جمعوا علوم الحكمة كلها في عتر كلمات سموها (المقولات) وهي (الجوهر والسكم والكيف والاضافة والزمان والسكان والملك والوضع والفعل والانفعال) وقد تقدم شرحها في أثناء هذا التفسير . فكيف جهل أكثر المسلمين أن أسماء الله الحسنى وهي عشرة في عشرة إلا واحدا قد جمعت العلوم كلها بطريقة ألطف وأعلى وأجمل فإن معاني هذه الأسماء ترجع إلى الذات والصفات الإلهية والله هو العلم للأتم والعالم كله آثار صفاته . فإذا قلنا في غير هذا المكان إن الفاتحة تشير إلى مجمل العلوم وهي أفضل من تلك المقولات لأنها سهلة جعلت لتعبد بخلاف المقولات فهي معقدة ولا تصلح للتعبد . فهكذا هنا تقول هذه الأسماء كذلك تصلح للتعبد كما أن فيها أصول العلوم . انتهى والحمد لله رب العالمين .

ملخص سورة لقمان

(الذي تضمنته الرحمة في بسم الله الرحمن الرحيم في أولها)

تقدم الكلام على الرحمة العامة في سور كثيرة لاسيما في أول (سورة الروم) وأول هذه السورة واستبان من جملة ذلك كله أن الآلام والمرض والسكر والجرح كل ذلك لم يقصد منه إلا الانذار . إذن الرحمة لا بد لها من جنود وهي تلك الآلام وقد تم شرح هذا في أول (سورة الروم) لأنه لوحظ هناك قتال الفرس والروم والمسلمين ، فهناك ويل وحرب وحوادث فهي مقيسة على آلام الأفراد . إذن آلام الأفراد والآلام

الأمم جميعها من الرحمة العامة ، فكما أننا نرى الجرح والسكر والاحساس بالحمى ونحو ذلك كلها منبثات منذرات بالهلاك إن لم يتلاف أمرها كما أن الجوع منذر بالهلاك أو المرض إن لم يتدارك الجسم بالغذاء هكذا أحوال الأمم فالعالم كله على قاعدة واحدة ووتيرة ثابتة يسير على منوال واحد من حيث إن كل ألم شرطي وجندي من جنود الرحمة .

هذا أصبح لمن قرأ هذا التفسير مما هو مبرهن عليه لاشك فيه وعليه فقس ما استراه من الرحمة في نفس هذه السورة التي ابتدئت بالبسملة المشعرة بالرحمة فيما يقرؤه الناس فيها . ويبانه أن تقول : يا سبحان الله . الله خلق الخلق ووجههم إلى مقاصدهم ، فلم كان إنزال الكتب السماوية والإنذار والتحذير ، فهلا كان توجههم كتوجه الحيوان بالفرائز فلا نسمع وعيدا ولا زواجر ولا أمورا مشككة ولا خلافا ولا تسكفيرا ولا شيئا مختلفا في كل أمة من الأمم قديما وحديثا . والجواب على ذلك أن تقول :

اعلم أهلك الله الحكمة أن للعقل الإنساني من السعة والجولان والحواطر ما ليس للحشرات والطيور فهي فيما يبدو لنا ليس لها من الحرية الفكرية ما لنا . فلهذا العقل من التحليق في جو الأفكار ما يجعله ذا طرق متباينة لا طريق واحد ، فهو إذن يعتربه الصحة والمرض في الآراء كما يعترى الجسم صحة ومرض جسميان ؛ فكما قدر لهذا الجسم أمراض من داخله وأخرى من خارجه وأحيط في الأول بالحيوانات السكسرة والأعداء والحشرات وتخلله في الثاني ميثاق من الجيوش الجرارة من الحيوانات الثدية تمتك به تارة وتحافظ عليه أخرى وكلها ذات حياة حقيقية ، هكذا قدر لعقله (جيشان) جيش من الحكمة والارشاد والأصحاب والعلم يهديه إلى الهدى . وجيش آخر من قرناء السوء ظاهرا وباطنا يسولون له ما يريده ويوقعه في هوة الهلاك . وكأنا أعوزنا في الجسم الأطباء والعقاقير لنصر الجيوش الجرارة من السكرات البيضاء المحافظة عليه المغانلة لجيوش الجندري والحمى والحصاء الخ . هكذا أعوزنا في طب العقل والروح كتب وعلوم وأساندة وأنبياء ينصرون جيوش النور التي تحيط بالمرء في بيته وخاصة جبلته على جيوش الرذيلة والدنوب التي تحيط به كل حين من أنصار السوء والآراء الخبيثة التي ملكت قياده . فإذا جاء في أول هذه السورة « بسم الله الرحمن الرحيم » فالرحمة فيها مذكرة بالحكمة ، وما هي الحكمة ؟ هي التي سترى تقسيمها قريبا إلى عملية وعملية والعلمية منها الرياضى والطبيعى والإلهى والعملية ترجع إلى الأخلاق ونظام المنزل ونظام الأمم وقد تفرغ على علوم الطبيعة جميع الصناعات إذن الحكمة المذكورة في هذه السورة هي جميع النعم الظاهرة والباطنة ولذلك أعقبها بقوله « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » إذن الرحمة في هذه السورة موجبة لاسبغ النعم علينا ظاهرة وباطنة وذلك بالحكمة فنعمها الظاهرة علوم الكائنات الطبيعية التي ستقرؤها هنا . ونعمها الباطنة منها علم الأخلاق . هذا هو السر الذي أنزله الله في هذه السورة . وهذه الحكمة بأقسامها هي الجيوش الجرارة المغانلة لجيوش الجهل والأدوية المزيلة لأمراض الجهل وخراب العمران . الله كما أنزل الأغذية والأدوية لنمو الأبدان وإرجاع صحتها أنزل الحكمة العامة لارتقاء النفوس وتهذيبها وتوحيدها . فالنفس والجسم في ذلك سبيلان كلاهما تعوزهما رحمة الرحمن الرحيم لاعتداله وبقائه . فيارب أنت أنعمت علينا بالعلم وبدأت السورة بالرحمة وأرقتنا أن الرحمة هنا ترجع للحكمة فإنك بدأتها بقولك (تلك آيات الكتاب الحكيم) فكان هذا براعة استهلال استهللت به السورة لتدل القارىء أن هذه الرحمة ذكرت هنا للحكمة التي ستفصلها وذكرت (فريقين) فريقا اهتدى وأحسن ، وفريقا يعيش باللهو والباطل فهو بعيد عن الحكمة ثم وصفت نفسك بالعزة والحكمة فكتابك حكيم وأنت العزيز الحكيم . هنالك استعدت نفوس قراء كتابك لتلقيها ، فبدأت بذكر خلق السموات والأرض بلا عمد وهذا عجيب لم نره في الأرض عادة ، ثم ذكرت الجبال وإنزال الماء من السماء وإخراج النبات ، كل هذا خلفته

بحكمة . هنا لك تصف حكمة لقمان وأنها ترجع إلى علوم وأعمال فهي من نور حكمتك التي ذكرتها وأتبعها بأن نعمك أنت أسبغتها على الناس ظاهرة وباطنة وأن علمك لا حصر له ، ثم ذكرت سير الشمس والقمر والفلك في البحر ووعدت وأوعدت وكل هذا يحويه علم الحكمة ويعقله الحكماء وكل هذا تتضمنه الرحمة في قولك (بسم الله الرحمن الرحيم) .

وبالجملة فإن أجسامنا في الدويان واللاشاة ونفوسنا دائماً في الاضطراب والوساوس والشكوك والأوهام فالروح والجسم متفقان إذن في الاضطراب ولا يمسك الجسم عن سيلانه وذوبانه إلا الأغذية والأدوية ولا يمسك النفس عن اضطرابها وأوهامها إلا علوم الكائنات الرياضية والطبيعية والإلهية وعلوم الأخلاق والسياسات العامة والخاصة كل هذا من رحمتك المذكورة في البسملة ؟ فعلوم الكائنات غذاؤها وعلوم الأخلاق دواؤها وهذه هي الحكمة التي أنزلت لها (سورة لقمان) . فهل من سبيل إلى سعادة هذا الإنسان إلا بالوصول إلى ما استقر من الحكمة في هذا اللقمان بحيث يصبح المكروه والمحبوب معا جندين من جنود الرحمت في «بسم الله الرحمن الرحيم» وأي سعادة في الدنيا والآخرة أعظم من أن تصبح النفس مطمئنة إلى أن اللقمان كلها رحمة وأن كل ما يصيبنا من مكروه هو مقدمات ضرورية للرحمة كما سبق تقريره ؟ أليس من أعظم بل أعظم سعادة لسكانب هذه السطور وإخوانه قراء هذا التفسير أن تصبح نفوسنا مستقرة على أن كل مافي هذا العالم ومافي نفوسنا من المكروهات أعمدة تقام عليها الرحمت . اللهم إني أحمدك على ما أنعمت به من العلم الآن وعلى ما أريتني في المنام منذ (٤٠) سنة .

ذلك أتى كنت إذا ذاك مجاوراً بالجامع الأزهر وتوجهت إلى قريبتنا (كفر عوض الله حجازي) أيام العطلة وبيننا أنا ذات ليلة مساء أمشي في بعض الحقول قريبا من القرية وأنا أفكر في شرور هذا العالم وكيف تخاف فيه ثم تحت تلك الليلة إذا قائل يقول لي اقرأ قوله تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبداً » وقوله تعالى « يا أباي إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » الخ فاستيقظت وأدركت أن المقصود أن العذاب رحمن وأن مافي قصة الإفك من الإيذاء ونحوه كلها رحمت لمن أودوا وأن التزكية والتطهير يكونان يحدث المصائب والآلام ، ولقد تبدت هذه العاني في علوم الأمم الحكمية وظهرت في هذا التفسير ، فالحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات . انتهى القسم الأول من السورة ليلة الاثنين (٤) نوفمبر سنة ١٩٢٩

﴿ القسم الثاني ﴾

(الكلام على معنى «الم»)

تقدم الكلام على هذه الحروف في أول (آل عمران) ولكن ربما كانت الإشارة هنا فوق ما تقدم هناك إلى قوله « ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السموات وما في الأرض وأسغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » وإذن تكون (الم) هنا وفي (الروم) وفي (العنكبوت) لفت نظر الأمة الإسلامية للمستقبل إلى دراسة كل العلوم الكونية في السماء والأرض فإنك رأيت أن (الم) جاءت في العنكبوت في قوله « ألم تروا كيف يبدى الله الخالق ثم يعيده » وفي (سورة الروم) قال « واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك آيات للعالمين » (وهنا قال) « ألم تروا أن الله سخر لكم » الخ فشكل هذه السور جاءت فيها الحروف الثلاثة مرتبة متصلة تارة ومنفصلة أخرى في موضوع واحد وهو النظر في العوالم المحيطة بنا ، فتارة تذكر على طريق كيف كان بدء الخلق وتارة ذكرت بطرق اختلاف الألسنة والألوان ، وتارة على سبيل أن النعم ظاهرة وباطنة

إن الله يذكرنا بهذه النعم من كل وجوهها بدءاً وإعادة وظاهرة وباطنة وكثيفة في مادة أولطيفة في صوت وهو أطف للمادة ورمز لذلك العلم بالنطق بالحروف إشارة إلى تحليل العوالم والوقوف على الحقائق الثابتة وهي مرتبة بحيث تكون اللغات مقدمة على العلوم لأنه ذكر الألوان بعد اللغات لتسقل العقول بالحقائق بعد الخيال في اللغات كما ذكر اليقظة بعد النوم فتظهر به الحقائق وتزول أضغاث الأحلام ولينأمل المفكرون في هذه السور :

(١) كيف ابتدأ السورتين بمثل ما ختمتهما فذكر في أول العنكبوت الجهاد وختمهما به فقال «والذين جاهدوا فينا» وابتدأ (سورة الروم) بالوعد بغلبة الروم الفرس أو المسلمين الروم وختمها بقوله «فاصبر إن وعد الله حق» .
(٢) وكيف كانت السورتان السابقتان كما قلنا لحوز العلم والحكمة وكيف قال في آخرها (ولا يستخفك الذين لا يوقنون) .

ذلك أن الإنسان إذا لم يكن ثابتاً في إيمانه بالحكمة استخفه كل ما يطرأ عليه من أقوال الذين لا يقين عندهم وهذا شأن أكثر المتعلمين اليوم يقرءون ولا يقين عندهم لأنهم ليسوا ثابتين في الحكمة ولا يعرفون نيس الحقائق التي يدرسون فتشورها وظواهرها كما قال سبحانه في (سورة الروم) « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » فلهذين السببين أي بهذه السورة ذكرا حكمة لقمان مشيراً إلى أن الإنسان لا يصد عن الحفة وعن الشك إلا تمام الحكمة باليقين فلذلك أتى بهذه السور فهي لتتمام الحكمة ودراسة حكمة الحكماء حتى يقف على سر هذا الوجود . هذا وأذكرك أيها اللذي بما تقدم في (سورة الروم) من بعض أسرار (الم) في هذه السورة . انتهى القسم الثاني من السورة .

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الم • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ • هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ • الَّذِينَ يَقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ • أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ • وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ • وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ
يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ • خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • خَلَقَ السَّمَوَاتِ
بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ • هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا

خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ
لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ
وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ
أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ * وَإِنْ
جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَنبِيئِي ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ فَأَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ
إِنهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ
يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ
فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ
مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَأَصْوَاتُ الْحَمِيرِ *

(التفسير اللفظي)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم تلك آيات الكتاب الحكيم) معناه ظاهره مما تقدم في نظيره (هدى ورحمة للمحسنين) أي هو
هدى الخ، ثم بين هؤلاء المحسنين فقال (الذين يقيمون الصلاة) صلة بينهم وبين ربهم (ويؤتون الزكاة)
صلة بينهم وبين الخلق مع مراعاة الإخلاص لله (وهم بالآخرة هم يوقنون) حتى ينالوا جزاءهم فيها (وأولئك
على هدى من ربهم وأولئك هم الفلاحون) بلجمعهم بين العلم والعمل (ومن الناس من يشتري لهو الحديث)
ما يلهي عن الحديث النافع كأن يأتي بالأحاديث التي لا أصل لها والأساطير والحرفات والمضاحيك وفضول
الكلام كالضربين الحارث كان يشتري كتب الأعاجم ويحدث بها الناس ويقول إن كان محمد يحدثكم بعاد
ونمود فأنا أحدثكم بحديث رسّم واسفندار والأكامرة، وربما اشترى الفتيات وأمرهن بمعاشرته من أسلم
ليحملنه على ترك الإسلام (ليضل عن سبيل الله بغير علم) أي ليضل عن قراءة كتاب الله وهو غير عالم بفضله
ومكانته العالية (ويتخذها هزوا) أي ويتخذ السبيل سخرية (وأولئك لهم عذاب مهين) لأنهم أهانوا الحق
باختيارهم الباطل (وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا) لا يعابها (كأن لم يسمعها) أي تشبه حاله في ذلك
حال من لم يسمعها وهو سامع (كأن في أذنيه وقرا) ثقلا ولا وقر فيها (فبشره بعذاب أليم) أي أعلمه بذلك
(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم، خالدون فيها وعد الله حقا وهو العزيز) الذي لا يغلبه شيء
فيمنعه (الحكيم) الذي لا يفعل إلا الحكمة (خلق السموات بغير عمد ترونها) قد تقدم تفسيرها في سورة

الرعد (وألقى في الأرض رواسي) جبلا شوامخ تقدم شرح هذا في سورة الأنبياء وغيرها وتبيان معنى الرواسي في علم طبقات الأرض حديثا وهو معجزة ظهرت في العصر الحاضر ، كراهة (أن تميد بكم) أي تميل (وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج) أي من كل صنف (كريم) حسن ، ومثل المطر والنبات قد تقدم في كثير من السور وهو في البقرة وغيرها (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) أي ألهتكم التي تزعمونها (بل الظالمون في ضلال مبين) وهذا إضراب عن التبيكيت إلى إثبات أنهم ضالون ضلالا ظاهرا . ولما كان القول للمقدم اشتمل على ذكر من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم أعقبه بذكر النعم الظاهرة في السموات والأرض والنعم الباطنة بالعلم والحكمة في قصة لقمان ثم أردفها بأنه أسبغ علينا النعم ظاهرة وباطنة على الترتيب الذي تراه وهذا مبدأ قصة لقمان (ولقد آتينا لقمان الحكمة) العلم والعمل به ولا يسمى الرجل حكيمًا حتى يجمعهما ، وسيأتي الكلام على ما قاله العلماء فيه ، وقوله (أن اشكر لله) أن بمعنى أي للفسرة ، ومعلوم أن الشكر ثناء باللسان على الله تعالى وإصابة الحق وحب الخير للناس بالقلب وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له ، فسرت الحكمة بالشكر لله ولا جرم أن الشاكر لله هو من جمع الحصول المذكورة في القلب واللسان والجوارح وجميع النعم فيكون حكيمًا في قوله وفعله ومعاشرته واعتقاده وصحته (ومن يشكر فأنا يشكر لنفسه) لأنه مرق لها (ومن كفر) النعمة (فإن الله غني) لا يحتاج إلى الشكر (حميد) حقيق بالحمد ومحمود من أهل السموات والأرض ثم ذكر بعض حكمه التي هي من جملة الشكر لله منه وهي نعمة اللسان العبر عن حكمة الجنان وهي نصيحته لابنه قال تعالى (و) اذكر (إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني) تصغير إشفاق (لا تشرك بالله) وقد كان كافرا فيقال إنه أسلم (إن الشرك لظلم عظيم) فانه تسوية بين من لانهمة له ومن له جميع النعم ؛ ثم ذكر الله جملة معترضة بين وصايا لقمان تذكيرا للناس بأن الوالدين اللذين يتلوان الله في التعظيم والإجلال لا يصح أن يطاعا في الإشراف بالله ، فانه يوصى عليهما ويوصى أن لا يعصى سبحانه بسببهما لأنه خالق الجميع وهذا قوله (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه) حال كونها تهن (وهنا على وهن) ضعفا على ضعف يزيد كلما ازداد الحمل ثقلا (وفسالة) وفطامه (في عامين) وقوله (أن اشكر لي ولوالديك) فيه مثل ماتقدم فهو تفسير للتوصية كما كان ماتقدم تفسيراً للحكمة ، وصى الله الإنسان بشكره وشكر والديه (إلى للصبر) فأجازيك على الشكر والكفر (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم) أي باستحقاق الإشراف تقليدا لهما (فلا تطعهما) في ذلك (وصاحبهما في الدنيا) صحابا (معروفا) يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم (واتبع) في الدين (سبيل من أناب إلى) بالتوحيد والإخلاص (ثم إلى مرجعكم) أي مرجعكم ومرجعهما (فأنبئكم بما كنتم تعملون) بأن أجازيك وأجازيهما على الإيمان والكفر (يا بني) إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أي أن الحصلة من الإساءة والإحسان إن تك في الصغر مثلا كحبة الخردل (فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض) أي في أخفى مكان أو أعلاه أو أسفله على الترتيب (يأت بها الله) يحضرها فيحاسب عليها (إن الله لطيف خبير) يصل علمه إلى كل خفي كما رأيت في وزن العناصر وانتظامها وجمال إتقان نسبا في [سورة العنكبوت] فهناك تبين سر هذه الآيات وأن الحبة من الخردل وأقل منها آلاف آلاف في الصغر قد وضعت بحساب ونظام كما عرفته وأن الله يأتي بها كما عرفت في [جدول مندلييف الروسي] فإن للذرات أوزانا في العناصر لا تندع صغيرا ولا كبيرا إلا أحاطت به والعنصر الذي لا يراه الناس وحيء به يضعونه في موضعه من الجدول لدقة الحساب الإلهي . فإذا كان هذا فعل العلماء من أهل الأرض وقد هداهم النظام الإلهي في الثرات فما بالك بمن حسب ذلك ونظمه قبل خلقهم ؟ فهذا تعرف « إن الله لطيف خبير » لأنه عالم بكنه كل شيء ، ولقد تقدم شرح هذا اللقمان في أول [سورة

آل عمران] وغيرها وذكرت هذه الآية نفسها هناك (يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن النكير)
 تكيلا لعريك بعد كمال نفسك (واصبر على ما أصابك) من الشدائد كلها لاسما في الأمر بالمعروف والنهي عن
 للنكير (إن ذلك) أي الصبر وما تقدمه (من عزم الأمور) أي معزومات الأمور أي مقطوعاتها أو خسير
 الأمور أو حزم الأمور (ولا تصعر خدك للناس) ولا تعرض عنهم تكبرا ، وقرىء تصاعرا أي أقبل على الناس
 بوجهك ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله التكبرون (ولا تنش في الأرض مرحا) ولا تنش لأجل الريح
 والبطر (إن الله لا يحب كل مختال فخور) والفخور راجع لقوله ولا تصعر خدك ومختار راجع المشى مرحا
 (واقصد في مشيك) توسط بين الديب والإسراع ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان عمر إذا مشى أسرع
 وقال صلى الله عليه وسلم « سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن » فاذن يكون إسراع عمر معناه أنه لا يدب ديب
 المباوتين كديب النصارى في ذلك الزمان ولا يسرع كخب اليهود (واغضض من صوتك) وانقص منه (إن
 أنكر الأصوات) أوحشها (لصوت الحجر) والحجر مثل في الدم وأرل صوته زفير وآخره شهيق . انتهى التفسير
 اللفظي للقسم الثالث من السورة .

ولذا كررنا (لطيفتين : الأولى) في معنى قوله تعالى « وإذ قال لقمان لابنه » الخ (والثانية) في الكلام
 على لقمان عليه السلام .

﴿ اللطيفة الأولى : في معنى آية « وإذ قال لقمان لابنه » الخ ﴾

ابتدا لقمان فنصح ابنه بنصائح مبتدئا بأهمها وهو التوحيد ، فأمره ألا يشرك به وعلل ذلك بأن الشرك
 خلاف العدل وأعقب ذلك بوصف الله بصفة العلم العام للعالم العلوي والسفلي وأنه لا يخفى عليه خافية في صخرة
 أو سماء أو في أرض فهو يعلم كل خافية ويقدر أن يأتي بأدق الأشياء أين كانت . ولما أتم ذلك أخذ يأمره
 بتكامل نفسه وذلك بالعبادات التي أهمها الصلاة لمن يعلم ما في قلبه ولا يخفى عليه خافية ، فلما عرف ربه وكل
 نفسه لم يبق بعد ذلك إلا إفاضة الخير على الناس وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن النكير ، فإن العظيم من يكون
 مثلا أعلى للناس ينفع نفسه وينفعهم فيكون كالسكواكب للشرق على الناس . ولا جرم أن الهداة معرضون
 لأذى الناس فلذلك أمره بالصبر على ما يصيبه منهم وما يتلى به في جسده أو ماله أو أهله فمن لا صبر له لا يكون
 كاملا ثم مدح الصبر مدحا كبيرا ، فإذا كمل الإنسان وكل غيره واعتصم بالصبر على أذاهم فإنه لا جرم يستهدف
 لتدنيب عظيمة وهي الخيلاء والكبرياء فأمره بعدم التكبر وعدم الخيلاء والاعجاب بالنفس فيقول من ذامني
 علم وعمل وهداية للناس وصبر تام ، فمن في الناس مثلي . ولما كان الإنسان قد يحمله طلب السكال على
 الإسراع في قضاء الحاجات فيمشى لها مسرعا وقد يحمله الإعجاب والكبرياء أن يدب ديبيا متعاطفا أمره أن
 يكون مشيه وسطا والوسط حسن في كل شيء وهو العدل . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

اضطربت أقوال علماء التفسير في لقمان من هو ؟ ومن أي الأمم هو ؟ تبعنا لعلم التاريخ وأقاصيص الأمم
 ودياناتها ، فبنوا إسرائيل عدوه من أنفسهم وقالوا إنه كان في زمن داود وأنه خير بين النبوة والحكمة فاختر
 الحكمة ، وقال قوم إنه كان عبدا حبشيا ، وقال قوم إنه كان خياطا ، وقال آخرون إنه نجار ولم يذكره من
 أي الأقوام هو ، وآخرون قالوا هو راعي غنم ، وقال قوم كان عبدا أسود عظيم الشفتين .

فهذه الأقوال منقولة عن الأمم التي قبلنا ولكن الجميع منفقون أن حكته ذاعت في الأمم كلها وذكرها
 بعضها . واعلم أن هذا الحكيم الذي ذاع ذكره في جميع الأمم قال عنه اليونان إنه منهم وهذا كتابه بين يدي
 فرأيت مشابهة بين الحكيم المنقولة عنه وبين ما ذكره المفسرون منها ، وكانوا يسمونه (ايثوب) من قرية

تسمى (امرتوم) وكانت ولادته بعد تأسيس [مدينة روما] بمائتي سنة ، ويقولون إنه كان من سقط المتاع في الجسم مشوه الحلقة والوجه معقود اللسان ، ولما اشتراه أحد الفلاحين أرسله إلى الحقل ليربح الناس من قبح وجهه ولكن الله لما خلط القبح في وجهه عوضه حكمة في عقله كما عوض العمى عن البصر ذكاء في الأفئدة ، ولقد بقي هذا العبد معقود اللسان أمدا طويلا ولا يتكلم إلا بالإشارة ، وبينما هو نائم ذات ليلة إذ رأى ملكا جاءه في صورة إنسان وحل العقدة من لسانه ووجهه علم الحكمة ، فلما استيقظ أحس بانطلاق لسانه وصار من فرحه يحدث نفسه فسمعه رئيس الخدم يتكلم مع نفسه بفصاحة فذهب إلى سيده وقال هذا العبد خبيث لأنه يدعى انعقاد لسانه وهو فصيح فأمره ببيعه ، فلما عرضه على تاجر ليشتريه أعرض عنه احتقارا لشأنه ، فقال له [ايثوب] اشترني وأنا أنفك ولا أضرك بشيء ، فان كان لك أولاد تخوفهم بي كأتى عفرت من العفاريث ، فاشترته بثمن بخس ، وأخيرا باعه هذا لرجل فيلسوف وله معه نوادر .

﴿ النادرة الأولى ﴾

سأل الفلاح في البستان الفيلسوف (سيد ايثوب) فقال له . لماذا أرى القطعة التي لا أخدمها من هذا البستان تنبت أكثر وأكبر من القطعة التي أخدمها ، فقال الفيلسوف سيد ايثوب (لعمان) هذا فعل الطبيعة فضحك (ايثوب) وأخذ سيده على جانب وقال له قل للفلاح إن هذه مسألة صغيرة لا قيمة لها وعبدى هو الذى يجيب عليها ففعل سيده فذهب (ايثوب) للفلاح وقال له إن الأرض تشبه امرأة ذات أولاد فتزوجت برجل آخر ذى أولاد من امرأة غيرها فهي تلتفت إلى أولادها ليكونوا أحسن من أولاد الزوج .

﴿ النادرة الثانية ﴾

إن امرأة سيده غضبت فاشترى أصنافا من الحساوى إرادة صلاحها وقال أعطها لحبيبتى فأعطاه لسكبة عند سيده وكان يحبها ، فلما رجع سأل زوجته عن الحساوى فقالت لم يأتني شيء فسأل لقمان فقال أنا أعطيتها لحبيبتك كما أمرت لأنها تتحمل الدل والإهانة وتضرب ثم ترجع لك ، فأما المرأة فانها غير حبيبة لأنها تطالب الطلاق لغير سبب .

﴿ النادرة الثالثة ﴾

إن زوجة سيده غضبت وأبت الرجوع من بيت أهلها ، فقال له اشتر أشياء لوليمة وادع لها من أحببت وأشع أنك تريد الدخول بامرأة غيرها فلا بد أنها ترجع عنادا أو غيره .

﴿ النادرة الرابعة وقد ذكرها المفسرون ﴾

جاء لسيده ضيوف أعزاء فقال له اشتر أحسن كل شيء فاشترى ألسنة الدواب كالثور والسكبش والجاموس وأمر الطباخ أن ينوع الطعام ، فلما أكل الضيوف سشموا لأنهم وجدوا أول الطعام وآخره اللسان ، فقال له ألم أقل لك اشتر أحسن كل شيء ؛ قال وأى شيء أحسن من اللسان ، هو رابطة العائلات ، ومفتاح العلوم وآلة الحق ، وبه تبقى المدن وتضبط ، وبه يحصل التعليم وإلزام الحجية ، والحكم في الأمم . فقال لك الحق . وفي اليوم الثانى دعاهم وقال اشتر أقبح كل شيء في السوق ، فأعد الطعام كالיום الأول . فلما سألوه قال إن اللسان أقبح كل شيء . هو أبو التناقضات ورأس المشاكل والدياوى ومنبع الشقاق والحروب وإن قيل عنه آلة الحق فهو آلة الغلط والخيمية ، وبه تخرب المدن ، وبه للسبة ، وبه العار . فقال بعض الضيوف إن هذا في إمكانه أن يتنع كل فيلسوف . ثم علا أمره وعظم شأنه حتى صار يحضر مجالس الأعيان ويشاورونه في أمر الحرب والصالح وله حيل في ذلك عظيمة جدا وكم أنقذ سيده من مشكلات حتى إنه أعتقه . وقد كان في أهل ساموس فتحرك يوما ملك (الديان) على أهل (ساموس) وأرسل لهم رسولا يخفيهم من بطشه فيدخلون تحت طاعته فمالوا إليه

وخافوا من الحرب فقال لقمان [إن الدهر فتح للناس طريقين : طريقا للحرية كثير الصعوبات والأهوال ولكنه هين العاقبة . وطريقا للاستعباد أوله سهل وآخره لا يطاق] فرجع السفير وأخبر الملك فطلبه فأرسل إليه مخفرا لما رآه وكان أراد قتله ولكن حكمه وحسن تخلصه جعله يعفوه عنه وبقي عند ذلك الملك المدة وألف حكايات على السنة الحيوانات ستأتي وتركها عند الملك . وأخذ يسبح في الأرض فقابل ملك بابل وغيره ونال شهرة عظيمة ونالت حكمه ذيوغا في الأرض ومن هذه الحكايات كتاب [العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ] وهي مائتا حكاية على السنة الحيوانات ترجمها المغفور له المرحوم محمد بك عثمان جلال وطبعت بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ سنة ١٩٠٦ م بمطبعة النيل بمصر أولها (الصرار والنملة) وآخرها (الرجل والحية) وفيها حكم بديعة ومنها (حكاية الغراب والثعلب) و (حكاية الضفدعة) و (حكاية بغلة الأتقال وبغلة المال) و (حكاية السكاب والذئب النح) وهاك الحكاية الأولى :

﴿ الصرار والنملة ﴾

(حكاية موضوعها صرار أودى به الجوع والاضطرار)
 وكان قضي الصيف في الغناء وما سعى في ذخيرة الشتاء
 وحين جاء زمن التليج ومنع القوم من الخروج
 شاهد بيته بلا مثونة فراح يوما يطلب المعونة
 وقال للنملة أنت جاري مالي سواك في قضاء حاجتي
 هل تصنعين معي المعروف لا ذقت من أيامنا صروفا
 وتقرضيني صواغا غله وطبقا ومتردا وحله
 فان أتى الصيف فقبل الصبح أردتها عليك قبل الريح
 قالت له النملة وهي تجرى عذرك يا مسكين مثل عذري
 ماذا فعلت في حصيد قدمضي قال لها كان زمان وانقضى
 قالت وما ادخرت فيه للشتا قال لها مستهزئا ميكتنا
 كنت أغنى للحمير القمص قالت له يا صاحبي الآن ارقص
 واعلم بأن السعي في الذخيرة يدفع كل غمة وحيرة
 والدرهم الأبيض وهو في يدي ينفعني في كل يوم أسود

﴿ الحكاية التي قبل الأخيرة ، وهي حكاية الرجل وزوجته واللس ﴾

حكاية عن رجل وزوجته إذا نسبتها فبنت عمته
 يحبها المسكين حبا جما ويحتمى منها الأسي والهنا
 فظالما سبته أو ذمته وقلما ناجته أو ضمته
 وزوجة عاشت بلا محبة فتلك كالنعجة أو كالدب
 قال فجاء اللص ذات ليلة وجر من بعد العشاء ذيله
 فألقت المرأة خوفا نعلها وأقبلت تجرى تضم بعلمها
 فضمها لصدره وقالوا باللس كل ليلة تعالي

قربت لي كثيرة النفار فاسرق جميع ما ترى في الدار
فسرق اللص جميع ما رأى وانقض عنهما مساء ونأى
وقسها الزوج على في القدر فقلت مامن عجب يا ولدي
ألا ترى أن امرأ قد عشقا غانية وبينها قد سرقا
وجاءها وقت الحريق والضرم فسلت له قيادها وضم
فالخوف قد يكون للوصل سبب وربما أخيف ظبي فانقلب

(ذكر الحكمة: في ذكر لقمان الحكيم مع أن أمره غير بين من حيث النسب)

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة . فالأولى بما في السموات والأرض . والثانية بالحكمة والعلم اختار للثانية رجلا لا يعرف نسبه على التحقيق تتنازعه الأمم ليرينا أن الحكمة ليس لها مكان وأن الله يأمرنا أن نأخذ الحكمة أنى وجدناها من عبد وحر ومعلوم الأصل ومجهول وقديم وحديث وبهذا نعلم أن النفوس الإنسانية كلها متعاونة قديمها وحديثها وأولها وآخرها وجميلها وقبيحها وسيدها ومسودها على العلم ونشره وأن نفوس الأولين مشوقة لتعلم نفوس الآخرين بالسكتب والتأليف والنقش على الأحجار وبالأخبار . كل ذلك ليعلمنا الله أن الأرواح جميعها متصلات من ملك ونبي وحكيم وعالم وأن ما رآه من اختلاف الناس وأن زيدا يكره دين عمرو لأنه ليس من معتقدي ذلك الدين وما أشبه ذلك . كل ذلك تقص في نوع الإنسان فليعلم جميعا أن يأخذوا الحكمة أنى وجدوها لأنهم لله راجعون وهو الحق ولا يقوم شيء إلا بالحق وأن عالم الأرواح أشبه بعالم الأجسام من حيث التعاون والارتباط . فاذا رأيت الشمس تضيء على الأرض بلاجزاء ولا شكور والأرض وما عليها كل يعين الباقي كما سترى إيضاحه فيما سيأتى وأن زيدا لا يعيش إلا بنظام دولته وأسرته وحكومته وأمم الأرض المساعداة لأمته والشمس والأرض ودورانها على الشمس وهكذا عوالم متلاحقة متعاونة «وأن إلى ربك المنهى» .

فالعلوم ترسل من العقول الكبيرة إلى الصغيرة ومن المتقدمة إلى المتأخرة لتلاحق الأرواح وتغاب النفوس وأن العظيم العلم حريص على سعادة الجاهلين . ولما كانت الأرواح بهذا الوصف أمرنا الله في الصلاة أن نسلم على عباد الله الصالحين وأن نصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وآله وأن نذكر إبراهيم وآله وأن نسلم في ختام الصلاة على كل روح يمينا وشمالا ذلك للعصلة بين الأرواح ، ويقول «اهدنا الصراط المستقيم» ويقول «الذين أنعمت عليهم» ويقول «اهدنا فيمن هديت» وذلك كله ليستأنس بالأرواح قبل مقابلتها بالموت . ثم الكلام على لطيف القسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

(القسم الرابع)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَآفِي السَّمَوَاتِ وَمَآفِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَى نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ
يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّمِيرِ * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

الْوَثْقِ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا
 عَمَلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نَعْتَمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَاتَّخَذَ
 سَائِغُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قَلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *
 اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ
 أَقْلَامٌ وَالْبَحْرِ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَمْجُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *
 مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ
 اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
 وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ
 اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ
 كَفُورٍ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمَ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ
 عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ *
 إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا
 تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ *

﴿التفسير اللفظي﴾

قال تعالى (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات) من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والطر
 (وما في الأرض) من الشجر والدواب (وأسبغ عليكم نعمه) وأعما عليكم (ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة
 وما تعرفونه وما لا تعرفونه (ومن الناس من يجادل في الله) في توحيده وصفاته (بغير علم) جاء من دليل
 (ولاهدى) من رسول (ولا كتاب منير) أنزله الله (وإنما ذلك بالتقليد) وإذ قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا
 بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا (تقليدا يتبعونهم) (أولو كان الشيطان يدعوهم) الضمير لآبائهم (إلى عذاب السعير)
 أي إلى الكفر والشرك وكل ما يجب به العذاب (ومن يسلم وجهه إلى الله) أي يخلص دينه لله بأن يفوض أمره
 إليه ويقبل عليه بكليته كما تقول أسلمت للتاع إلى الزبون (وهو محسن) في عمله (فقد استمسك بالعروة
 الوثقى) فهو كمن يتدلى من جبل فتمسك بأوثق عروة من عرى الجبل المتدلى منه (وإلى الله عاقبة الأمور)

فهى صائرة إليه فيجازى كل على ما فعل (ومن كفر) ولم يسلم وجهه إلى الله (فلا يحزنك كفره) فهو لا يضرك
 (إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور) أى يعلم ما فى صدور عباده فيفعل بهم على حسب
 (تنتعمهم) زمانا (قليل) فى الدنيا (ثم نضطرهم) نالجهم (إلى عذاب غليظ) شديد (ولئن سألتهم من خلق
 السموات والأرض ليقولن الله) لأن الدليل واضح (قل الحمد لله) على إزاهم الحجة وإلجأهم إلى الاعتراف
 (بل أكثرهم لا يعلمون) أن ذلك يلزمهم وإذا نهبوا إليه لم ينتهبوا (فإن ما فى السموات والأرض إن الله هو
 الغنى) عن حمد الحامدين (الحمد) المحمود بحمده من فى السموات والأرض وإن لم يحمده هؤلاء وهو مستحق
 للحمد ، قال المفسرون لما نزلت بمكة «ويستلونك عن الروح» الآية وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 إلى المدينة أتاه أجبارة اليهود وقالوا بلغنا أنك تقول «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» أتعيننا أم قومك؟ فقال صلى الله
 عليه وسلم : كلا عتيت قالوا ألسنت تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شىء فقال صلى الله عليه وسلم حى
 فى علم الله قليل وقد أناكم بما إن علمتم به انتفعتم به فقالوا كيف نزع هذا وأنت تقول «ومن يؤت الحكمة فقد
 أوتى خيرا كثيرا» فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير؟ فنزل قوله تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام
 تبرى أقلاما والبحر يمده) يعطيه المدد (من بعده سبعة أبحر) أى مدادا والخلائق يكتبون به كلام الله (ما تقدمت
 كلمات الله) لأنها لانهاية لها (إن الله عز رحكيم) لا يعجزه شىء ولا يخرج عن علمه وحكمته أمر بعد أن ذكر أنه
 أنه خلق نعم كثيرة ظاهرة وأنه أجرى الحكمة على لسان لقمان وأتبعها بأنه أسخ نعم ظاهرة وباطنة وأنه
 له ما فى السموات وما فى الأرض ، بعد ذلك كله ناسب أن يبين أن تلك النعم والخلوقات لا تعصى كقوله سبحانه
 « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» ولما كانت تلك النعم غير محصورة ربما ظن الإنسان أنها مبعثرة لا قانون
 لها وأنه يصعب على الله قيادتها فقال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أى إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغله
 شأن عن شأن (إن الله سميع بصير) يسمع كل مسموع ويصير كل مبصر (ألمر أن الله يولج الليل فى النهار
 ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل) من الثيرين (يجرى إلى أجل مسمى) إلى منتهى معلوم
 (وأن الله بما تعملون خبير) فهو يعلم سير الشمس والقمر والكواكب وحسابها وحساب عناصر الأرض والنتائج
 الحاصلة بينهما ومنها أنتم وأعمالكم (ذلك بأن الله هو الحق) المستحق للعبادة (وأن ما يدعون من دونه
 الباطل) أى لا يستحق العبادة (وأن الله هو العلى الكبير) المرتفع على كل شىء للتسلط عليه (ألمر أن
 القلك تجرى فى البحر بنعمة الله) بإحسانه فى تهيئة أسبابه (ليرىكم من آياته) دلالاته (إن فى ذلك لآيات لكل
 صبار) على الشاق فيتعب نفسه فى التفكير فى الآفاق والأنفس (شكور) يعرف النعم ومعطيها . وكل ما يرد
 على الإنسان فى الدنيا لا يد فيه من أحد أمرين : إما صبر إن كان مبغضا . وإما شكر إن كان محبوبا ،
 فأشرف النوع الإنسانى لا يخلون من صبر وشكر فى جميع الأوقات (وإذا غشيم موج) أى علام وغطام
 (كالظلل) كل ما يظل من جبل أو سحاب أو غيرها (دعوا لله مخلصين له الدين) لأن الفطرة إذ ذاك زال عنها
 ما يصادها من الهوى والتقليد (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) مقيم على طريق القصد الذى هو التوحيد
 (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار) غدار فإنه نقض عهد الفطرة (كفور) للنعم (يا أيها الناس اتقوا ربكم
 واخشوا يوما لا يجزى والدعن ولده) لا يقضى عنه ولا يعفى (ولا مولود هو جازعن والده شيئا) ومعنى هذا أن
 الشفقة والرحمة فى الوالد والولد أوفر من غيرها . فالوالد والولد كل منهما عادة يجزى عن الآخر فى الدنيا فأما
 يوم القيامة فكل يقول نفسى نفسى (إن وعد الله حق) لا يمكن خلفه (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم
 بالله الغرور) أى الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصى (إن الله عنده علم الساعة)
 علم وقت قيامها (وينزل الغيث) فى إبانة القدر له والمحل العين له فى علمه (ويعلم ما فى الأرحام) أذكر أم أنى

أمام أم ناقص (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) من خير أو شر ، وربما تعزم على أمر وتفعل خلافه (وما تدري نفس بأى أرض تموت) كما لا تدري في أى وقت تموت (إن الله عليم) يعلم الأشياء كلها (خير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها . انتهى التفسير اللفظي للقسم الرابع من السورة .
 روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » ١ هـ .

﴿ شذرات على هذه الآية ﴾

(الأولى) جاء فى الإسرائيليات التى كان يقصها بنو إسرائيل على شعبهم أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا ؟ قال له ملك الموت قال كأنه يريدنى وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه بيلاذ الهند ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان كان نظرى إليه ودوامه تعجبا لأنى أمرت بقبض روحه بيلاذ الهند وهو عندك فوصل إلى الهند فى الوقت المعلوم فم أمر الله .

(الثانية) أن النجم يحسب الحسوف والكسوف وغيرها فيكون حقا ، فهذا إنما يقول بالقياس والنظر وما يدرك بالدليل لا يكون غيبا ، ومنه ما يعرف ظنا والظن غير العلم .

(الثالثة) رأى المنصور فى منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمس فميرها المعبرون بخمس سنوات وبخمس أشهر وبخمس أيام فقال أبو حنيفة رضى الله عنه هو أشار إلى هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله .

(الشذرة الرابعة) قد جاء فى علم الأرواح الحديث أن الأرواح لا تعلم مستقبل الناس القريب ولا البعيد ولما سئلت عن ذلك قالت لأن الأمور فى العالم الأرضى مرتبطة بأمور أخرى أقرب إليها وهناك أمور بعيدة لا تدرك ، فالأرواح الجاهلة تخبر بالعلامات القريبة وهى تجهل البعيد فتخطئ . فى خبرها ولما سئلت قئيل لها إنا نعلم أن أناسا من أهل الأرض يخبرون بموعد الساعة واليوم الذى يموتون فيه ويقولون قد أخبرنا فى المنام به أجابت الأرواح قائلة أولئك قوم علم الله أنهم لا يحزنون للموت وقد زهدوا فى الدنيا فيخبرهم بذلك فيستبشرون بالموت وهؤلاء قليل فى النوع الإنسانى .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » وفى قوله « ما خلقكم ولا بشكم

إلا كنفس واحدة » وقوله « ولوأن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر عده من بعده

سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إن الله عزز حكيم » ﴿

لقد قدمت لك فى أول السورة أنها بدئت بحروف (الم) وقلت لك إن هذه إشارة منه تعالى إلى أمر عظيم فى هذه السورة مبدؤا بهذه الحروف وفيه إسباغ النعم ظاهرة وباطنة وقد تبعه أن خلقنا وبشما كنفس واحدة وأن كلمات الله لا تنفذ ونعمه لا تحدد . ولا جرم أن هذا أمر عظيم لا بد من التشمير والجد فى التفكير حتى يتضح فأريد الآن أن أسمحك قولاً يظهر منه أمران : النعم التى لا تنتهى وانتظامها كأنها نفس واحدة فأقول :

أنت تعلم أن النعم التى تحيط بنا كثيرة ولست أريد التطويل بذكرها فإنها يشرحها كل العلوم فلا ذكر لك أربع نعم فقط : وهى الغذاء والدواء والكساء والبناء ولست أتعرض إلا للغذاء وأترك البقية وأذكر منه قبضة من القمح تصنع رغيفا يجرب فناأكله فنجعل هذا الرغيف محل بحثنا فنقول إن هذا الرغيف له خازن وعاجن وناخل وطاحن ومغربل وخازن وبائع ومخلص التبن من القمح فى الجرين ودارس وحاصد وسائق

وزارع وحارث فهذه ثلاثة عشر صنعا إجمالا ، فلندع هؤلاء ، كلهم ولنفض الكلام على الآلات التي يعملون بها ولا نذكر منها إلا الحديد التي في المحراث (الصلاح) فنقول :

هذه الحديد لا بد لها من حداد سواها على مقدار الحرارة ونجار ركب الحشب المقوس عليها وتاجر جلب الحديد من أرض بعيدة وعامل حفر في المناجم فاستخرج منها الحديد . فلترك هؤلاء كلهم وتكلم على التاجر من بينهم فنقول إن هذا التاجر لا يمر بالطرق البرية والبحرية إلا إذا كانت مأمونة ولا أمان إلا إذا كانت الأمم التي على وجه الكرة الأرضية منتظمة الحكومات قائمة بحراسة الطرق ، ولولا ذلك ما أمن التجار الطرق ولم يجلبوا ذلك الحديد من أرضه ، فلولا حسن النظام والأمن في أكثر الأرض ما انتظم أمر التجارة ولم يصل الحديد للفلاح وهو في حقله ، ثم إن هذه الأمم على الأرض لا نظام لها ولا ثبات إلا إذا كانت الأرض جارية بنظام حول الشمس حتى يسكون الليل والنهار منتظمين فلو اختلفت المواعيد لم يكمل نظام أهل الأرض ولو وقفت الأرض فلم تدر حول نفسها لتقبل ضوء الشمس لمت كل من على الأرض إذ لا يكون إلا ليل في جهة ونهار في أخرى ولو أن الأرض لم تدر حول الشمس دورتها السنوية لم يكن صيف ولا شتاء ولا اختل أمر الحياة ولم تعرف السنون والحساب ، فهذا كله لا بد منه لانتظام أمم الأرض لتحفظ التاجر في طريقه بالحديد المذكور ، ثم إن الشمس تجرى حول كوكب آخر لا بد من ثباته وإلا لاختل أمرها هي وما حولها من الكواكب وهكذا إلى حد ينقطع الفكر دونه . كل ذلك لحفظ الأمم على الأرض . وأيضا لو لم تكن الكواكب السيارة في مداراتها الخاصة بهم لم تعرف الطرق البحرية لأن الربان يرصد تلك الكواكب فيبتدى برصدها إلى الطريق فانظر كيف اشتركت الدول والأرض والشمس والكواكب وانتظام أممها ومداراتها في حفظ التاجر الذي أحضر الحديد للمحراث الذي يحرق القمح لغذائك .

هذه نبذة يسيرة من سلسلة النعم التي جعلها الله للريغيف قبل أن يكون لديك . ولم نذكر الريح والمطر ولانظام الحكومة التي يكون فيها الحقل ، ولا هؤلاء العاملون الذين ذكرناهم ، ولا ما يلزم كلامهم من غذاء ودواء وحكومة حتى يعيش فيخدمك كل هؤلاء . ضربنا الذكر صفحا عنهم لأن هذا لا يتناهى الكلام فيه فلنبحث إذن في الريغيف بعد وجوده لديك .

إن الإنسان يأخذه بيده ويمضغه ولا بد من أسنان طواحن كما يطحن الحب بالحجارة وحادة كالسكين للقطع وهي القواطع ومحدوده كالرمح للتمزيق بحيث تكون كل طائفة لنوع من اللأ كقول وإلا تعطل الآكل ولم تكن الثمرة المطلوبة ، ثم يجري من تحت اللسان عينان تخرجان مادة لعابية تساعد على هضم الطعام ثم يكون اللسان مستعدا لتحريك الطعام من جانب إلى جانب ، ثم يمر الطعام فيجد أمامه الحلقوم المفتوح الذي يخرج منه النفس الوارد إلى الرئتين في الصدر فيمر عليه ولويقي مفتوحا لمات الإنسان حالا ولم يعيش فخلق له صمامة تسمى (صمامة الزمار) فتق أحست بالقمة أقبات إلى الزمار حالا فغطته فتمر اللقمة إلى المرى . ولذلك يجد الإنسان نفسه غاصا بالماء أو بالطعام إذا كان يتكلم وهو يأكل فإن الكلام يعوزة النفس والنفس يؤخر الصمامة فيندفع شيء من الطعام في الحلقوم فيتأذى الإنسان ، فإذا مر الطعام إلى المعدة قابلته هناك سوائل فيها كالتق في الفم يقال لها (العصير العدي) فتساعد على هضم الطعام ، فإذا استحال إلى الكيموس ونزل إلى الأمعاء وجدها تبلغ في الطول (٧) أمتار وبعض سقمترات منها (٦) للأمعاء الدقاق ومتر واحد وبعض سقمترات للأمعاء الغلاظ ، وفي أثناء ذلك يصير كيلوسا مستعدا لأن تحتذبه الشرايين ويستحيل دما شيئا فشيئا فيجري إلى السكبد ومنه إلى القلب وهناك أربعة تجاوبف أعليان يسميان (الأذينين) وأسفلان يسميان (البطينين) تصغير أذن وبطن والدم يجري في هذه الأربعة بنظام بصمامات بين كل أذين وبطين

وهناك يلاقى مع الهواء الجوى فى الرئتين فيأخذ منه الهواء المادة الفحمية أى التى احترقت فى النسيج الجسمى لأن الدم يجرى فى سائر الشرايين والأوردة وهى متفرعة فروعاً وراهها فروع تدق شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى مالا يدركه الطرف من الفروع الشعرية ، وهذه كلها تعطى الأنسجة دماً ينقلب إلى لحم وعظم ودهن وظفر وجلد وشعر وصفراء وسوداء وبانغم وكبد وطحال وحالب وقاب ورثة ومعدة ومخ وعصب وعظام وهسكذا ولا يتحول الدم إلى شئ من هذه إلا بعملية كيميائية بحيث يحصل الاحتراق والاحتراق يتبعه مادة محترقة ، ذلك هو الكربون الذى لو ترك توافى لمات الإنسان .

فمن الحكمة إدخال الهواء والهواء يلقى الدم فى الرئة فيعطيه مادة الحياة وهو الأكسوجين ويأخذ منه مادة الموت وهو الفحم أى (الكربون) وهذا الفحم متى تسلمه الهواء سار به فى الجو وأعطاه للنبات فكان منه الخشب والورق والعشب والقماكة والأب . ففساد أجسامنا صلاح نباتنا وصلاح نباتنا صلاح أجسامنا فما به فساد يصلح فيرجع لنا صلاحاً كره أخرى .

إنى لعل يقين أنك أيها الذكى الآن عرفت النعم الظاهرة بقسميها وهى التى خارج أجسامنا وهى التى داخل أجسامنا ولم أذكر لك منها إلا رغبياً واحداً وهذا الرغيف قد اشتركت فيه العوالم كلها الأرضية والسموية حتى وصل إليك وهكدا اشتركت فيه سائر أعضاء الجسم حتى صار لها دماً وعظماً ومخاً وطبقات العين من صلبة ومشيمية وشبكية وسائل زجاجى وجلدية وتسمى (عدسية) ورطوبة مائية وعنكبوتية وقزحية وقرنية شفافة وفوق ذلك كله للنتحمة . فهذه كلها نسيج من الدم والدم يجرى فى الجسم ويعطى كلاً ما يناسب من اللواد التى حملها من العناصر الأرضية ومركباتها . ألسنت بهذا عرفت كيف كانت النعم لانهائية لها . وإذا كان الرغيف الواحد حرناً فى أمره حتى اشتركت فيه العوالم العلوية والسفلية وجميع أعضاء الجسم وهكدا النبات من حيث إنه يأخذ الفحم . بهذا عرفت الأمرين : كون النعم لانهائية لها وكون العالم الذى نحن فيه كجسم واحد والله هو المدبر له ، فهو واحد ونحن فى ذلك الجسم العام وأرضنا وشمسنا أشبه بعضو صغير منه ونحن ودولنا عبارة عن ذرات فى ذلك العضو ولنا اتصال بالجميع . إن تكرار هذه اللعانى يعرفنا مركزنا فى الحياة ويفهمنا نظام الوجود ويعرفنا معنى قول الناس (وحدة الوجود) .

إن وحدة الوجود لا يفهمها أحد إلا الذين يقطعون العمر بالتفكير ، وإياك أن تقول إنى عرفت وحدة الوجود بمثال مثل هذا ، بل لا بد من عشقك أولاً للعلوم ثم البحث فيها والنظر وتكرار ذلك لأن مثلاً وأمثلة لا تكفى لإشراق هذا النور فى القلب . أليس من العجب أن النمل الذى ندوسه بأقدامنا خالق ليقتل الدود الذى ينخر أشجارنا فتحفظ تلك الأشجار من العطب ، فنحن فى مساكننا ودورنا نعيش تحت السقوف ولا ندري أن النمل هو الذى حفظ لنا بعض الخشب لأنه كان يقتل الدود كما تراه فى (سورة البقرة) هناك .

فظهر معنى إسباغ النعم ظاهراً وباطناً ، وظهر معنى كون خلقنا وبعثنا كنفس واحدة ومعنى كون نعم الله لا يحصها السكتيون ولو كان البحر يمد سبعة أبحر والأشجار كلها أقلام . ما أجمل العلم وما أبداع الحكمة « وفوق كل ذى علم عليم » .

وإنى أسأل الله تعالى أن يعنى بهذا القول قلوباً ويرقى به أئماً ويفتح به عيوننا . ولتعلم أيها الذكى أن المسلمين لم تدخل عليهم الأمم من كل جانب إلا بجهلهم المعلوم ، ولو علموها لحفظوا عقولهم وديارهم وأموالهم ونظموا مدنهم ، فان أمثال هذه الباحث إذا درست دراسة نظامية انفتحت لها العقول وذاكت بها البصائر وارتفت ونشطت من عقالها وطلبت المعالى وحفظت الثغور ورفقت نظام الجمهور .

وستقرأ النعم الباطنية عند الكلام على لقمان قريباً فى آخر الكلام على هذه السورة .

(ذكر العجائب في أسماء السور)

لقد سميت السور بأسماء تذكر للمسلمين بما تفيد ، فسميت سورة الأنبياء والحج ومنها المؤمنون والنور والفرقان والقصص والنمل والشعراء والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة الخ .
فالأنبيا قد تبين لك فيها أنها تجمع خصائص الأمم حتى يأخذ المسلمون بجميع فضائلهم كما قدمته وإذن تكون مدينة أرقى من كل مدينة لو فهمت ، والحج معلوم أمره لأنه يجمع الأمة ، وأما المؤمنون فالقصد من التسمية بها استكمال الايمان بخصال السكمال . وفي التسمية بالنور تشويق المؤمن لربه وأنه لا يمكن أن يعرف جل جلاله إلا بالطف وأجل الأشياء التي تراها وهو النور فقال سبحانه « الله نور السموات والأرض » والنبي صلى الله عليه وسلم قال في حق الله « إنه نوراني أراء » ورأى أنوار ليلة الإسراء عظيمة والفرقان لتبنيان الحقائق بالنور العلى . والقصص للاعتبار . والنمل ليكمل للمسلمين عجائب الحيوان فإنه في سورة النور قال « ومنهم من يمشى على أربع » فذكر لفظ النمل ليبين ما يمشى على ست وهي سائر الحشرات ومنها النمل ، والشعراء سمى بها ليلفت نظر المسلمين إلى الشعر وأنه وسيلة لا نتيجة وهو ظل غير ظليل من استظل به هلك . والعنكبوت تذكرة بالحيوانات العنكبوتية ذات الأرجل الثمانية ، والروم ليذكر المسلمين بهم فاتهم أعدائهم إلى يوم القيامة فليحترسوا منهم . ولقمان لإذاعة الحكمة بين الأمم بغض النظر عن أقدارهم وأناسيهم والجمدة لتعليم العبد كيف يقرب من ربه ، والأحزاب ليعرف الانسان أن الأحزاب إذا تألبوا على محاص نصره الله . وسورة سبأ تذكرة للأمة العربية بسابق مجد سبأ وأنهم كانت لهم دولة ولكنها رجعت القهقرى بإهمالها . فمن العار على أمة الإسلام أن لا يكون مجدها كأمة جاهلية هناك ، ولتذكير الناس بسد العرم والمدينة العظيمة لينبوا كما كانت تبني أوائلهم ، انتهى الكلام في أسماء بعض السور في الربيع الثالث من القرآن .

(الكلام على ذكر لقمان خاصة)

لقد تبين لك فوائد أسماء السور في العلم . ولما كانت السورة التي نحن بصددتها هي (لقمان) أحببت أن أخصها بالبحث فأقول :
لقد اطلعت على نعم الله التي أسبغها علينا ظاهرا فيما تقدم وقد وعدتكم أن أذكر شيئا من النعم الباطنة هنا وهأنذا منجز الوعد فأقول :

إذا كانت النعم الظاهرة قد انصلت من مبدأ الأجسام الإنسانية في داخلنا وأدهشنا كثيرها ثم إنها امتدت في الخارج إلى كل ما حولنا حتى وصلت إلى مالا تدركه أبصارنا وعقولنا من عوالم متتالية متتابعة متواصلة ممتدة إلى عالم أرقى وأرقى ، فهكذا النعم الباطنة فهي تبتدىء من داخل نفوسنا فتري عقولا مشرقة ونفوسا صافية وللعقول حواس ظاهرة وحواس باطنة والنوعان يستتج منهما علوم ومعارف تشمل العالم الذي تقدم ذكره في العجائب الظاهرة ، وليس المقام مقام الإطناب في العلوم ففي هذا التفسير ما يكفيك إذا رجعت إلى ماضى ولكن المقام مقام أن الآية ذكر فيها النعم الظاهرة وقد قرنت بالنعم الباطنة بعد أن ذكرت العجائب السماوية والأرضية وذكر لقمان ، فلقمان يشار به للنعم الباطنة وههنا بيت القصيد فلننظر في الأمر ونقول :

عرفت قصص لقمان وعرفت أنه قد فتح الله عليه بالأمثال على لسان الحيوان وقرأت بعد هذا وأنا الآن أزيدك فأقول : كم من قارىء للقرآن يمر على هذه السورة مر النسيم على المهشم . كم من قارىء يقرأ القرآن وهو غافل نائم جاهل . ذكر الله لقمان وذكر أنه آتاه الحكمة . فأى حكمة ؟ هي حكمة الأمثال على ألسنة الحيوان وإلام ترمى تلك الأمثال ؟ ترمى للأخلاق ، المعاشرة ، للسياسة لنظام الدولة ، للجد ، للاجتهاد

لطلب العلم ، للاحتراس من الساكرين ، وهكذا . ذلك ما رمى إليه تلك الأمثال . إذن القرآن يحضنا على
حكمة لقمان وهو كما عرفت مجهول الأصل ، مجهول الحال ، أني هو أم حكيم ؟ على خلاف بين الناس ،
وحكمته راجعة لحسن السلوك ولكن ليس هذا كل النعم الباطنة المذكورة في الآية بل هذه بعضها . إذن تقول :
لقد تقدم قبل هذا ذكر العنكبوت وذكر النمل تسمية ودراسة في نفس السورة . ذكر الله الحيوان
والنبات في أكثر السور السابقة تكررارا كما قدمناه وقدمنا أن ذلك لمعرفة علومها وللانتفاع بها . فالانتفاع .
كأفان الله تعالى « والحيل والبغال والحمير لتركبوها » وأمام معرفتها فواضحة من كثير من الآيات كقوله تعالى
« قل انظر ماذا في السموات » وكقوله « أولم يتفكروا » الخ وأمثال ذلك . فإذن الحيوان يعرف إما
للتفكير في علومه . وهذا من علم الطبيعة وإما لمنافعه . وهذا فيها أيضا مع مشاركة الجهال في بعض تلك
النافع . وإما بضرب الأمثال بها كما في أمثال لقمان . فسبحانك اللهم . أنزلت الحكمة على قلب لقمان وأهيمته
أمثال الحيوانات لتعلمنا السير في الحياة ونفس هذه الحيوانات متاع لأجسامنا ولأغذيتنا ولحلمنا وهي هي غذاء
لعقولنا ونمو لثروتنا وارتقاء لمدينتنا . فالحيوان :

(١) مثال تفقده عقول الحكماء لأخلاقنا .

(٢) ومنفعة للغذاء والحمل والمعاش .

(٣) ورقى للعقول بعلوم الطبيعة .

إذن في الحيوان (ثلاث خصال) اثنتان منها عرفت قبل سورة لقمان والثالثة بسورة لقمان . بهذه
يوصي الله الأمة الإسلامية قائلا [آتيت لقمان الحكمة والحكمة مستخرجة من الخلوقات التي أمامكم]
فالدينا كأنها لوح وصور الحيوانات حروف وكلمات ولا يقل ذلك إلا الحكماء . وهم هم الذين يشكرون الله فإن
شكر الله بمعرفة عمله وقبول صنعه .

هذا هو الذي تفيد قصة لقمان ولذلك سميت السورة باسم لقمان تنويرها إلى ما ذكرناه وتبيننا لما
الدهر طواه .

وعلى ذلك يكون المسلمون مقصرين في ترك العلوم وحكمة الحكماء ، إن هذا كلام الله وهو الذي يؤتى
الحكمة من يشاء وقد شوقنا إلى الحكمة وقال « ولقد آتينا لقمان الحكمة » إن الله لم يقل باب الحكمة
إنه فتحه على مصراعيه ، إنه هو الذي علم لقمان ويعلم السلم ويشوق السلم إلى قراءة الحكمة ، فكل
حكمة قرأها فتعلم أن الله شوقك إليها وهو الذي ألهم فائلها على شريطة أن تكون صادقة لاتتافى العذل
ولا الدين . وحسن بك إذا قرأت في أمثال (لقمان) حكاية الغراب والتعلب وأن التعلب أخذ يتماق للغراب
وأخذ منه غذاءه :

فاعتبر الغراب من ذى النوبه وتاب ولكن لات حين توبه

أو قرأت حكاية السكب والتذب وقول التذب للسكب الذي بذله صاحبه :

وبالغنى لم يك لي افتتان مادام فيه التدل والهوان

أو قرأت حكاية الجدى والنعجة والمجلة والسبع إذ اسقبد الجميع وأخذ الغزاة التي لم يصدها هو فكان
هذا التل :

فاجتنبوا السلطان عند الشركه فليس فيها للشريك بركة

أو حكاية التذب والحروف إذا ادعى الأول عليه دعاوى كاذبة ثم أكله بالقوة :

وقل لأهل العقل والفتوة أحسن ما احتج القى بالفتوة
 أو حكاية الذئب والبطة إذ أغاثته وطلبت الأجر فقال احمدى الله على السلامة :
 وأدرى كنت حقائق للعانى والشهد ليس من فم الثعبان
 أو حكاية السبع والجمار إذ نهق الجمار فخافت الحيوانات فافترسها السبع ثم قال للجمار محتقرا له :
 جنك معروف بغير قافية كثير صوت وقليل العافية
 أو حكاية الحصان والذئب وقد أراد الذئب أكل الحصان مدعيا علم الطب فرفسه الحصان وهو يعالج رجله
 وهكذا فى الناس كل من بدا بالحجث لا يخرج إلا نكدا
 أو حكاية (الثعلب والعنب) وأنه أراد أكله فلم يستطع لارتفاعه عنه فأخذ يذم العنب بعد اليأس منه
 فقال القطف :

طول لسان فى الهوى وقصر فى الذنب

أو حكاية الطاوس إذ أراد تقليد البليل فى صوته ، فقال صاحبه كفاك ما زينت به ولكل طير نعمة
 خاصة به ثم تنف ريشه وجرده لعدم غفته، وهكذا القى بحسد الفقير على أى نعمة .
 تلك عيون جفنها خراب فإعما بماؤها التراب
 أو حكاية الغراب القلبد للنسر إذ هجم على كبش فأخذه الراعى بيده هو وأولاده .
 وقصها على قلت سيدى ما أضيع البرهان للقلبد
 هذه بعض الحكايات التى نقلت عن لقمان عليه السلام .

﴿ جوهرة فى أن الكلام على ذى القرنين يشبه بعض المشابهة الكلام على لقمان ﴾

ارجع إلى ما تقدم فى (سورة الكهف) عند الكلام على ذى القرنين فقد ذكرت لك هناك أن الحضرة
 عليه السلام لما أقام جدار العلامين اليتيمين ولم يأخذ أجرا يشبه ذا القرنين لما أقام السد ولم يأخذ من الذين
 طلبوا بناءه خراجا وإنما قبل منهم الاعانة بالقوة وحدها بالمال وأبنت لك أن هاتين القصتين إنما نزلتا للأمم
 الاسلامية لتهتدى بهما فنساعد المحتاجين من الأمة ولا نأخذ أجرا منهم كما فعل الحضرة ونساعد الأمم بما لنا
 إذا كنا ملوكا ولا نأخذ من تلك الأمم أجرا . وملخص هاتين القصتين أن نكفل الأفراد ونكفل الأمم متى
 قدرنا وتتعفف عن المال ما استطعنا . هذا ما ترمى إليه القصتان . هذا ملخص ما ذكرته هناك .

وقد ذكرت فى غير ماموضع أن القرآن لا يجعل حقائق التاريخ هى المقصودة بسبل يعد إلى المقاصد
 والنتائج ويشير لذلك قوله تعالى «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب الخ»
 ونرى القرآن لم يبين العدد حرصا على المقصود من التنزيل وهى (الوعظة الحسنة) وما عدا ذلك فهو كالتفسير
 فلندعه ولنسل إلى اللب . هذا ما يؤخذ مما ذكرته هناك . وذكرت فى الكلام على ذى القرنين قولنا مطولا
 فى تعيين الأمة التى نسب إليها أمة اليونان أم أمة العجم ؟ وهناك حللت أسماء الأمتين بقدر الامكان فوجدت
 أن ذى القرنين واضح فى العجم وهناك (أذواء) كثيرون فى نظم ووضح هناك ثبت أن (ذا القرنين) من العجم
 ولكنه مبهم لم يعين ، وإنما لم يعين للحكمة المتقدمة إذ أننا لانهم بذاته نفسه وإنما بهم بعته الذى تشبهه
 به . ولا جرم أن صفته القرآنية هى الأخلاق العربية التى نزل القرآن موافقا لأفعالها ، منابذا لفسادها ، فالعرب
 فى البداية مغطورون على إعانة الضعيف والتجاوز عن الأجر فى مقابلة المعروف ، وهذه صفات شريفة أثنى بها
 القرآن وأبقاها . وهذه الصفات لا تتوقف على أن نعرف عين الذى انصف بها أهو يعنى أم هو يونانى ؟
 وإذا كان عنيا فأى الأذواء هو ؟ كل ذلك لا يهت به التنزيل كما علمت .

هذا ملخص ما تقدم وهو موافق لأمر لقمان سواء بسواء ، فلقد اذنته غير أمة والقرآن ترك الأمر ولم يبين من أى الأمم هو كما لم يبين ذا القرنين .

هذا ما كنت وصلت إليه في (سورة الكهف) وكتبته هناك . أفلا تسمع اليوم ما فتح الله به وأنتم علينا فلمعمرى لم يكن ليخيل لي إذ ذاك أن أطلع في موضوع ذى القرنين على بيان أبهى وكأجل وأجمل وحكمة أرفع وسعادة أتم وبهاء أوفى ونور باهر وعلم ساحر وزهر عاطر .

كيف لا وقد عثرت في كتاب (الأدب والدين عند قدماء المصريين) للمؤلف حديثاً في زماننا أن قدماء المصريين اتخذوا القرنين رمزا لهم في أعلامهم على شكل قرنى الكبش بلون لامع ووضعوا رسم القرنين على رأس المعبود (أمون رع) لأنهم رأوا أن الكبش كثير التناسل والبركة وقد لقبوا بهذا اللقب ملوكهم لأنهم من نسل ذلك المعبود في عرفهم وهاك نص ماجاء فيه :

(القرنان)

أخذ المصريون القدماء رمزا لهم في أعلامهم على شكل قرنى الكبش بلون لامع ووضعوا رسم القرنين على رأس المعبود (أمون رع) .

(استطراد)

بمناسبة ذكر القرن رأينا أن نستطرد هنا بذكر المعانى الكثيرة التى وضعها اللغة العربية للعظة (قرن) خصوصا أنها مستعملة الآن في معان عدة يحتاج إليها الإنسان أحيانا كثيرة نذكر منها ما هو متداول استعماله فنقول (القرن معناه في اللغة العربية العظم النابت في أعلى رؤوس كثيرة من الحيوانات الوحشية والسنائسة كالبقرة والعمز وجمعه قرون ، والحيوان المعروف بالكركدن (وحيد القرن) لأن له قرنا واحدا في مقدم رأسه ينطح به الفيل فيشقه . ومن العجيب أنه مخالف لسائر الحيوانات لأن له مع القرن حوافر مع أن القرن والحافر لا يجتمعان في غيره . والقرن أيضا ضفيرة شعر الرأس ومنه قولهم (له قرون طويلة) والقرن الحصلة من الشعر وإن لم تكن مضمورة . وقرن الجبل أعلاه . وقرن السيف حده . وقرن القوم سيدهم . وقرن الشمس حاجبها وقد قيل ما يبدو منها عند طلوعها . القرن مائة سنة ومنه قول المؤرخين القرن التاسع أو العاشر مثلا وكقولهم كان فلان في قرن فلان أى في عصره ومدته . القرن الليل (المرود) الذى يكنجل به وهو أيضا اسم جبل مشرف على عرفات . وقرن الثور طرفه . وقالوا قرنى الأرض أى مشرقها ومغربها . وعلل بعضهم تسمية (اسكندر بن فيلبس المقدونى) بذى القرنين أى صاحب قرنى الأرض بمعنى مشرقها ومغربها ؛ ولكن الصحيح أن السبب في تسميته بذلك أن قدماء المصريين كانوا قد وضعوا في رأس المعبود آمون قرنى كبش كما تقدم لأنهم رأوا الكبش كثير التناسل والبركة ، ولا تزال صورة هذا المعبود موجودة على هذا الشكل بالمتحف المصرى بالطبقة السفلى وسط الطرقة الشرقية ، ولما كان عصر الملك (نانوت أمن) من الأسرة الخامسة والعشرين لقب نفسه بالسيد ذى القرنين (نب أبوى) جريا على مبدئهم من أن الملوك من سلالة هذا المعبود وهم أحق بأن يتخذوا شعاره ، ثم لما استولى (إسكندر المقدونى) على مصر ورأى أنه قد آل إليه ملك هؤلاء الفراعنة أخذ هذا القلب عنهم ليحمل به نفسه أمامهم في عقائدهم وشعائرهم) ٥١ .

وأنا أحمد الله حمدا يوافق نعمه ويكافئ مزيده ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك اللهم إني أحمدك على نعمة العلم ونعمة التوفيق ، سبحانك اللهم وقتت وعلت فإني كتبت ما تقدم في (سورة الكهف)

بطريق الاستنتاج . فلما قرأت ما تلوته عليك الآن وجدت أن ذا القرنين مبدؤه مصر ، ومصر قريبة من اليمن وأهل اليمن سمو بالأذواء ، ومن الأذواء ذوا القرنين كما تقدم هناك ، ثم جاء إسكندر المقدوني فسمع بذى القرنين فسمى نفسه به . إذن أصبح (ذوا القرنين) لا يختص باليونان ولا باليمن ولا بمصر . فقوله تعالى (ويسألونك عن ذى القرنين) وإجابته تعالى بقوله (قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) يشير إلى ما قلنا فإنه قال (سأتلوا عليكم منه ذكرا) نأنا لأدون حوادث التاريخ التي تحوم حول كل من سمى بهذا الاسم بل أتلوا عليكم ما يكون ذكرا لكم وحكمة وعلما لأن القرآن لهذا أنزل أما التاريخ فغير مقصود لداته ولا فائدة في تحقيقه ولا غرض في تفصيله . وإنما أذكر لكم صفات السكّال والجمال التي اتصف بها (وذو القرنين) سواء أكان باليمن أم بمصر أم باليونان فتعيينه لا يغيث . وعلى هذا ربما كان (ذوا القرنين) المذكور في القرآن من قدماء المصريين وربما كان من أهل اليمن فأما كونه من اليونان فلا لأننا قدمنا أن تاريخ الإسكندر ليس فيه تلك العوائل التي ذكرها القرآن . وإنما كتبت هذا هنا لمناسبة ذى القرنين للقمان . وقد جاء ذكرها معا في كتب التوحيد كما قيل :

وذو القرنين لم يعرف نبيا كذا لقمان فأحذر من جدال

هذا ما أردته في هذا المقام والله أعلم . أقول إذا قرأت ذلك كله فقل سبحانك اللهم سبحانك ، أنت الذي خلقت المروج وخلق الطيور ، أنت يا الله خلقت القلوب وأنت الذي ألهمتها أن تصور الحكمة من صور الطيور ، إنك يا الله قد علمتنا في القرآن أن للقلوب لايبي وأكثر سور القرآن مشحونة بدم المقلدين . مشحونة بالمعاندين والجاهلين الذين يقلدون ولا يعقلون . وأنت يا الله الذي ألهمت عبادة هذه الصورة الحكيمية التي توافق كتابك وفيها إنعاش للنفوس وإحياء للقلوب أنت الذي أنزلت القرآن لتعلمنا الحكمة والقرآن أشار إلى ما صنعت له لقراء وتفهمه والقرآن فتح لنا الباب وقال ادخلوا فمن سمع القرآن وعقله دخل الباب واحتمل الحكمة ومن لم يعقل ولم يفهم وقف وقال كفاي الترم بألفاظ القرآن . لك يا الله الحقول والحيوان ولك الإنجيل والقرآن ولك قلوب نوع الإنسان وأنت دللتنا بالقرآن على المروج وعلى الحيوان وعلى ما أنتجته العقول فتحت لنا الطرق ولكن الجهال أوقفوها أمام المسلمين . أناموهم طويلا ، لا ، بل كفنوهم ودفنوهم في اللحد وأوقفوا أوروبا على مقابرهم ليحرسوها خيفة أن يرجع أحدهم لكونه دفن خطأ في لحده فعلوا ذلك وهم لا يشعرون وقد آن أوان مجدهم وأيام سعدهم وسيكون فيهم مرشدون صالحون وحكام محققون وعلماء نابغون .

ولما اطلع على هذا صاحب العالم الذي اعتاد أن يناقشني في الأمور الهامة في هذا التفسير قال لقد أحسنت فيما لحصت من حكم لقمان ومن أمر ذي القرنين وبهما تشابهوا ولكن الآن أريد أن تذكر عشر حكم أخرى منظومة من الكتاب المتقدم ذكره لتسكون تفكها للقارئ وموعظة للمؤمنين فقلت نعم سأذكر لك (عشر مواضع) كما قلت وهاك بيانها :

﴿ الحكمة الأولى في الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج ﴾

حمار بولاقي له حمير	وفي البلاد شغله كثير
حمل جحشا حمل ملح قاسي	وكان لا يرى ولا يواسي
وحمل الآخر بالسفنج	وقال سبحان الإله المنجي
حامل السفنج صار يسعي	وحامل الملح التهريق قطعاً
وحين أقبل على المعادي	ونزلا الماء يظن الوادي

امتلاء السفنج صار متفلا
فقطس الحامل للسفنج
ولفت الماء عليه بالكسا
وطلع الملاح وهو ينق
فاصبر على أهوالها ولاضجر
وربما جاءك بعد الياس

﴿ الحكمة الثانية في شجرة البلوط والسنبلة ﴾

حكاية عن شجر البلوط
قال إلى سنبلة من فول
ليتك لو غرست تحت رجلى
وكنت فى أمن من العواصف
إنى وإن كنت نحيف القامة
فإن ما عندى من اللدونه
وأنتى تهبنا على أمثالى
وبينا الاثنان فى تنازع
واغربت الآفاق والبطاح
وقد أصابت قامة البلوط
وسنبل الفول يميل تاره
ولهبسه من أذى ولاضرر

﴿ الحكمة الثالثة فى البغلة ﴾

حكاية وقعت فى سالف الأمم
وغرها المز والإقبال فارتفعت
باطلما ذكرت أن أمها فرس
وأنها ذكرت من قبل فى كتب
وبعد ما خدمت توما الحكيم رأت
وحين شابت وفى الطاحون قد دخلت

وأصبحت شجعا فى حيز العدم
والنذل أورثها ضعفا وألبسها
قد فكرت فى الحمار النحس والدها
وسلمت للبالى عند شدتها

﴿ الحكمة الرابعة فى الضفادع وزواج الشمس ﴾

سمعت عن لقمان أنه حكى
وقال إن الشمس يوما قالت
وبالذى رواه قد تمسكا
نفسى إلى حب الزواج مالت

فخرجت تشكوه الضمادع وهي تقول كيف بعدنصنع
 أما إذا ما زوجوك أهلك ثم دنا في الجو منك بعلك
 لا بد من أن تلدى شموسا وتحرقى الضفدع والجاموسا
 إنك في جو السما وحيدة وعن بحار أرضنا بعيدة
 ومع هذا فاللظى لا يخفى فكيف ذالو تلدن ألقا
 تنشمين البحر والأهرا وتحرقين الليل والنهارا
 أسألك اللهم لا تقدر وأنت يا لقمان لا تنفسر
 فالشمس كالظالم إن تزوجا أنتج ألقا مثله وأخرجا

(الحكمة الخامسة)

(حكاية الكلب الذى ترك الرغيف واتسع خياله)

كلب على النهر رأى رغيفا فجاءه من جوعه ملهوقا
 ونزل الماء وصار يسبح وفي الهوا على الكلاب ينبح
 ومذدنا منه رأى خياله فترك الرغيف جهلا ياله
 واتسع الخيال وهو الجانى ظنا بأنه رغيف ثانى
 فسكر النهر وثار اللوج ومن بدالكب ثلاثى الزوج
 واضطر للرجوع والنجاة محبة في طلب الحياة
 وازداد من غروره ضلالا لا حصل العين ولا الخيالا
 ومثله بين الورى كثير من شأنهم فى العيشة الغرور
 ما حصلوا الجهل فى أى زمن لاعتب الشام ولا كرم اليمن

(الحكمة السادسة فى الشيخ وحمارة)

شيخ له جحش ومر فى الخلا به على روض تجلى وأنجلى
 أطلقه فى الروض حتى يرعى من الحشيش ولقد يند المرعى
 فانتسرح الجحش به وقصا وفى المسوا برجله قد رقصا
 وبينما الجحش به يدب إذ جاء من بطن الفيافي دب
 عاينه الشيخ فراح يمشى وقال قم واجر بنا يا جحشى
 قال له الجحش ولم قال العدو من يلقيه فشمله مبيد
 فغضب الجحش بسلا تأنى وقال قم يا ابن الكرام عنى
 فالموت لا يكون إلا مره والموت خير من حياة مره

(الحكمة السابعة : حكاية الرجل والبرغوث)

خلق من الرجال يستغيث فى فرشه يأكله برغوث
 فهم يشكو بصباح على وهو ينادى سيد اللوالى
 يقول يا من خلق الربيه بعونك ارفع هذه البليه

وأنت يا أستاذ يا شيخ العرب خذ أسير في الحديد والحشب
ويا عفيفي من أذى البرغوث خذ عنى الكرب وكن مغيبى
قالت له زوجته ما نابك ومن أذى البرغوث ما أصابك
امسكه بين الأصبعين باليد واطفر به لا تستغث بأحد
عجائب عجائب عجائب إنك والله العظيم خائب
مثلك في الناس كثير العدد في كل حلة وكل بلد
من طبعمهم ودأبهم حب الكسل

أنبيك عن أخلاقهم إذا تسل
في أى عارض صغير زائل يرجون في تصرفه كل ولى
إن العظيم يدفع العظيما كما الجسم يحتمل الجسما

﴿ الحكمة الثامنة : حكاية الثعبان والبرد ﴾

حكاية الثعبان ذى حكاية قد بلغت من حسنها التهايه
أذكره إذ مر وهو آتى ببرد لرجل ساعى
وكان جوعانا فرام يقرضه فلا تعنفه فهذا غرضه
قال له المبرد يا ثعبان ما تبغى قال أنا جوعان
قال له كل إن يطعمك نابك والله قد شرفنى جنابك
فإننا تأخذ من سماطى ما يأخذ الريح من البلاط

﴿ الحكمة التاسعة : حكاية الديك الحصى والصقر ﴾

حكاية إن تستمعها ترقص

عما جرى للصقر والديك الحصى
الديك يوما فر فوق السطح خوفا من الطباخ وقت الصبح
ووقفت تطلبه الصغار وهو يخوف ماله قرار
حق لقد غروه بالصقير وأسمعه صيحة الطيور
ومع هذا لم يسلم أبدا ولم يقرب بل نأى وأبعدا
جاء الصقر وقال هل صمم في أذنيك أيها الديك الأصم
كم ذا يتادون وأنت غافل إنك يا حقل الدجاج جاهل
رإننا يا معشر الصقور أعقل ماجد في الطيور
نسطاد في البر وبعد نرجع وإن تناديننا الرجال نسجع
قال له الديك كذاك أسمع وبدل الأذنين عندي أربع
لكن تأمل وانظر للنادى فانه من أعظم الأعداى
هذا هو الطباخ يا ابن ودى يرغب في ذبى وأكل كدى
إنك لا تؤخذ مثلى للشوا دع عنك تعنقى وذق طعم الهوى

﴿ الحكمة العاشرة : في حكاية السكبين وجيفة الحمار ﴾

كلبان كانا عند شط النهر فاسمع حديثا لهما بالشعر
 قد نظرا رمة ججش عأمة بالمساء والطير عليها جائمه
 وأخذت تبعدها الرياح فقال كلب منهما نباح
 تعرف ماذا في اللياء نصنع نشرها والججش بعد يطلع
 قال له أخوه يا حبيبي صدقت ليس ذاك بالعجيب
 وإن شربناه بتلك الهمة ينشف هذا البحر تحت الرمة
 ونزلا في البحر شربا شربا طوراً بلعق ثم طوراً عبا
 حتى امتلاكها وانكبسا وفارقا الدنيا وعافا النفسا
 وقد رأيت في الرجال مثل ذا

من مسه الطيش فأورث الأذى
 يطلب نيل المجد والفخار ورأسه قدر من الفخار
 لا عقل فيها بل بها مأمول يطمع فيه وهو مستحيل
 فبئست العادة فأحذرها كثره وقس بما رأته مالم تره

فقال صاحبي . إن هذه الحكمة عجيبة . فهل من مزيد ؟ فقلت كفى من القلادة ما أحاط بالعنق ، ومن لم
 ينتفع بالقليل لم يفده الكثير . فقال ولكني أريد أن تبحث في حكم لقمان عن بعض الحكم التي مرت في
 (سورة الروم) وهي قوله تعالى «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس» الخ فإنك هناك ذكرت
 أن أعمال الناس وحرهم وظلمهم أنتج هذه المصائب في الأرض كالطاعون والحصباء الخ فهل في كلام لقمان
 ما يشير لذلك . فقلت نعم وذلك في الحكاية الآتية وهي :

﴿ حكاية الصياد والطائرة ﴾

قد نشب الصياد بالنبال طائرة كانت بسطح عالي
 فوقعت لوقتها وصاحت وسكبت دموعها وناحت
 ونظرت للسهم وهو فيها وأخذت تعضه بغيا
 وهي تقول كيف يا ابن آدم أكون عوناً لك في سفك دمي
 سهمك قد أرشت من جناحي

وكيف أنخت به جراحي
 ماذا فعلت يا غبي فيكا حتى أذوق الموت من يديكا
 لكن ربي ذو انتقام أبدا لم ينج قط من يديه أحدا
 أقامكم أعداء فوق الأرض

وبعضكم يسعى لقتل بعض
 وكل باغ شأنه التعمدي فهو إذا لواقع من بعدى

فالبعى داء ماله دواء ليس لملك معه بقاء
وليس من عقل الفقى وكرمه
إفساد شخص كامل لقرمه

فلما سمع هذه الحكاية قال إذن هذا محرم للحلال ، هل يحرم الصيد ؟ فقلت هذا ضرب مثل والأمثال
تراد غاياتها لامانطق به منها ؛ فقال لقد ازدادت دهشنى من هذه الأمثال . فقلت اقرأ قوله تعالى « فتلك
بيوتهم خاوية بما ظلموا » فهذا عين المثل وهذا هو قوله تعالى « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا
العلم » ولقد رأيت كثيرا من هذه الحكم فى كتب الأورويين . فقال حسن وكفى هذا . فقلت الحمد لله
رب العالمين .

(كتاب كلية ودمنة)

ومن هذا القبيل كتاب [كلية ودمنة] الذى ألفه الحكيم (بيدبا) الفيلسوف لملك الهند المسمى
(دبشليم) إنه ينحو منحى كتاب لقمان ، إنه يصوغ الحكمة على لسان الحيوان ، فإذا قال الله (ولقد آتينا
لقمان الحكمة) فليس معناه أنه لم يعط الحكمة لسواه . كلا ، ثم كلا ، إنه قال (يؤتى الحكمة من يشاء
ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) إن الله لم يختص لقمان بالحكمة ، بل إنه جعلها فى أناس اختارهم
هو من أمم شتى ومنهم (بيدبا) المذكور ، إن الله لم يعط الحكمة للأمم السابقة وللصدر الأول من أممتنا الإسلامية
ويحرم المسلمين اليوم منها . كلا . ثم . كلا . إن الله خلقنا وهو الذى خلق الحيوان والنبات والعقول وألهمها
الحكمة وعقولنا مستعدة لها ، فلنا أن نقرأ ما أجراه على قلوب الحكماء من الأمم والحكماء من الإسلام ليكون
فى الأمة حكماء فى مستقبل الزمان وهذا الذى سيكون . إنه لافرق بين حيوان فى القفر ونبات فى المرج وعقل
فى الإنسان ، إن الله شوقنا إلى دراسة كل هذا . لماذا ؟ ليكون فينا نابغون وهولا يعطى الحكمة إلا لمن هو
أهل لها ولا أهل لها إلا من قبلها واستعد لها والاستعداد من أهم اللؤهلات له قراءة الكتب ونظر العالم
ودراسة عقول السابقين واللاحقين . فإذا قرأ المسلم (باب الأسد والثور) من ذلك الكتاب عرف سر
السياسة وكيف يكون الغدر وكيف يخال للفتاب على الإفساد بين الأصحاب والايقاع بالشر بينهم وكيف أمكن
دمنة أن يوغر قلب الأسد من الثور ويهلكه وكيف ظهر الأمر بعد ذلك وشهد الشهود على (دمنة) أنه غدار
وأن الثور لم يذنب بحكم عليه القضاة بالقتل فقتله الأسد .

وإذا قرأت (الحمامة اللطوفة) عرفت كيف يتحد المختلفون فى الطباع والأخلاق والأحوال ، وكيف
يكون الاتحاد سبب نجاحهم ، وكيف أتحدت الحمامات النفقات النوع على النخاس من الهلاك فنجحن .
وإذا قرأت (باب البوم والغربان) عرفت كيف تكون حيلة المحتالين من أهل السياسة وأن تماق العدو
لا ينبغي أن يغتر به وإن أظهر تضربا وملقا ، وكيف مكر الغراب بجماعة البوم فهلكت .

وإذا قرأ الإنسان (باب القرد والغيلم) عرف مثل الرجل الذى يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها فإن
الغيلم طلب من القرد قلبه بإشارة زوجته فاحتال القرد عليه وخدعه ثم فر وتمت حيلته وندم الغيلم .
وإذا قرأ (باب الناسك وابن عرس) عرف مثل الرجل العجولان فى أمره من غير روية ولانظر فى العواقب
وكيف قتل الناسك ابن عرس الذى نبى ولده من الحية وهو مخضب الفم بالدم فظن أنه قتل ابنه ، فلما علم
أن ابنه حى وأن ابن عرس هو الذى نجاه بقتل الثعبان ندم .

وإذا قرأ (باب ابن الملك والطارئ فترزة) وأن ابن الملك قتل ابن الطائر المذكور لما زرق فى حجره فجاء
الطارئ (فترزة) ففقا عين ابن الملك ثم طلب الملك من الطائر المذكور أن يصاحبه ثانيا فأفهمه الطائر أن ذلك
مستحيل لأن الأعداء الذين بينهم (رات) يجب أن يتقى بعضهم بعضا .

وهكذا أبواب أخر كباب الأسد وابن أوى وباب اللبوة والأسيوار والشهر وباب الناسك والضيف وباب السائح والصائح وباب ابن الملك وأصحابه ، فهذه جملة أبواب الكتاب إذا قرأها المسلم فإنما قرأ حكمة الحكما . وليست هي حكمتهم بل هي حكمة آتاهمها الله كما أن النبات لله والحيوان لله وقال تعالى « وأنفقوا مما رزقناكم » فسما أن المال من عند الله فالحكمة من عند الله ونحن عباده ، والله تعالى يقول « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » فهل يبيح الله لنا الزينة والطيبات من الرزق ويحرم علينا العلم والحكمة أحل الله لنا الرزق والزينة ، بل أحل لنا غنائم الأمم إذا حاربناهم حربا شرعيا أن نأخذ ما لهم ، فهل يبيح لنا ذلك ويحرم علينا اجتناء علومهم وحكمتهم ؟ كلا كلا . بل الله سبحانه وتعالى عادة يزهدنا في متاع الدنيا ويرغبنا في زاد الآخرة ، وزاد الآخرة لا يكون إلا بالعلم والعمل تابع له .

فمن يعلم تعش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء
وقيمة للره ما قد كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

﴿ حكمة قدماء المصريين ﴾

وهل أذاك نبأ حكمة قدماء المصريين . إن هؤلاء قد ظهرت حكمتهم في هذه الأيام وقد فتحت كنوز وظهرت رموز وأثيرت من القبور عجائب وصناعات ، وكذلك ظهرت كتابات على الأحجار وفي ورق البردي ، قد قصدها الناس من كل فج عميق كما استبان في (سورة البقرة) عند قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض ، والكلام على قوله (يعونهم كعب الله) فترى اليوم أهل أوروبا وأمريكا يقصدون بلادنا من كل فج عميق ليشهدوا حكاما يقرؤونها وهناك منها (فصلين : أحدهما) ماجاء في جرائدنا المصرية يوم الجمعة (٩) فبراير سنة ١٩٢٣ م تحت العنوان التالي مانصه .

﴿ أقدم كتاب في العالم ﴾

منذ (٥٥٠٠) سنة عثر أحد الفلاحين على أوراق بردية وهو يحفر مقبرة بناحية (زراع أنى الجا بطية) فباعها للعالم الأثرى الفرنسى (بريش دافين) الذى أذاعها سنة (١٨٤٧) ثم قدمها هدية لدار السكتب الأهلية بباريس لذلك اشتهرت بورقة (بريس البردية) وهى أقدم كتاب فى العالم لأنها كتبت منذ (٥٥٠٠ سنة) وقد كانت كتب الأولين كلها من هذا النوع وهى تشتمل على ١٨ صحيفة مكتوبة بالحظ المرطابق بالحبر الأحمر والأسود متضمنة نصائح ومواعظ وحكايا وضعها (رجلان : الأول) يدعى (فاقمة) وهو وزير الملك حونى من الأسرة الثالثة (والثانى) يدعى فتاح حتب وهو وزير الملك أسى من الأسرة الخامسة ، كتبها وله من العمر (١١٠) سنوات ، اقتبسها من السلف وجعلها موعظة للخلف ، ولذا فال لابنه : إذا سمعت هذه الحكم السامية عمرت طويلا وبلغت أوج السكال وتدرجت إلى معالى العلا والمجد (ثم اعتنى بترجمتها من اللغة المصرية القديمة إلى الفرنسية العالمان شاباس دفيرى وباللاتينية العالم لوث وبالألمانية العلامة بروكش باشا وبالإنجليزية الأثرى (المسترجن) ومن هؤلاء نقلت إلى العربية) .

ولأهمية هذه النصائح الدرية اعتنى بها الإنكليز اعتناء عظيما حتى قرروها فى برنامج الدراسة للأطفال فأكتبها للبادى الشريفة التى أشربتها قلوبهم فى الصغر فسادوا العالم وقادوا الأمم وذلك بفضل اتباعهم مناهج أجدادنا العظام التى دونوها لنا وكنزوها لأجلنا فكان نفعها لغيرنا . وياحبذا لو اهتدينا إليها واقتدينا بها فنحن أحق بها وهذا بيانها :

(نصائح فقها الحكيم للمصرى القديم)

- (١) اسلك طريق الاستقامة لكلا ينزل عليك غضب الله .
 - (٢) احذر أن تكون عبدا في الخصام فتستوجب عقاب الله .
 - (٣) الابن الذى ينكر الجليل يحزن ولديه .
 - (٤) متى كان الإنسان خيرا بأحوال الدنيا سهل عليه قيادة ذريته .
 - (٥) إن قليل الأدب ليليد ومذموم .
 - (٦) إذا دعيت إلى وليمة وقدم لك من أطيب الطعام الذى تشبهه فلا تبادر إلى تناوله لكلا يعتبرك الناس شرها ، واعلم أن جرعة ماء تروى الظمأ ولقمة خبز تغذى الجيم .
 - (٧) احفظ هذه النصائح واعمل بها تكن سعيدا ومحودا بين الناس .
- (أمثال «فتاح حنب» الحكيم المصرى القديم)

- (١) إن التعرف بأعظم الناس نفعه من نفعات الله .
- (٢) لا توقع الفزع في قلوب البشر لكلا يضربك الرب بعصا انتقامه .
- (٣) إذا شئت أن تمشي من مال الظلم أو تتعنى منه نزع الرب نعمته منك وجعلك فقيرا .
- (٤) إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء لأن يده مقاليد الأمور فمن العيب التعرض لإرادته تعالى .
- (٥) إذا كنت عاقلا فرب ابنك حسبا يرضى الله تعالى ، وإذا شب على مثالك وجد في عمله فأحسن معاملته واعتن به ، أما إذا طاش وساء سلوكه فهذب أخلاقه وأبعده عن الأشرار لكلا يستخف بأمرك .
- (٦) إن تدبير الخلق بيد الله الذى يحب خلأقه .
- (٧) إذا نلت الرفعة بعد الضعة وحزت الثروة بعد الفاقة فلا تدخر الأموال بمنع الحقوق عن أهلها فإنك أمين على نعم الله والأمن يؤدي أماته ، واعلم أن جميع ما وصل إليك سينقل منك إلى غيرك ولا يبقى فيه لك إلا الذكر .
- (٨) ما أعظم الإنسان اتى بهتدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .
- (٩) من خالف الشرائع والقوانين نال شر الجزاء .
- (١٠) لا ينجوا الأئمة من النار في الحياة الآخرة .
- (١١) إن حدود العدالة ثابتة وغير قابلة للتغيير .
- (١٢) إذا دعاك كبير إلى الطعام فاقبل ما يقدمه لك ، ولا تطل نظرك إليه ، ولا تبادر بالحديث قبل أن يسألك لأنك تجهل ما يخالف مشربه بل تتكلم عند ما يسألك حينئذ يعجبه كلامك .
- (١٣) إذا كلفك كبير بحاجة فأجزها له حسب رغبته .
- (١٤) إذا تعرفت برجل رفيع في المقام فلا تتعاطف عليه ، بل احترمه لمركزه .
- (١٥) إذا جلست في مجلس رثيدك فاستحضر السكال والصمت فلا تتوقف في الكلام لكلا يعارضك من هو أكبر منك نفوذا وأكثر منك خبرة ، واعلم أن من الجهل أن تتكلم في مواضع شتى في آن واحد .
- (١٦) لا تنق كثيرا عن عمله متى رأيت مشغولا فإنه عدو لمن يعوق أعماله .
- (١٧) لا تخن من اتتمك لترداد شرفا ويعمر بيتك .

- (١٨) من الحق أن يقتاجر المرءوس مع رئيسه فإن الانسان لا يعيش عيشة راضية إلا إذا كان مهذبا لطيفا ظريفا .
- (١٩) إذا دخلت بيت غيرك فاحذر من الليل إلى نساته فسيك أناس تهاوتوا على هذه اللذة القصيرة التي تمر كالخلم فأودت بهم إلى المخاطر والمهلك ، واعلم أن بيت الزاني آيل للخراب والزاني نفسه أيضا فاقد الرشده وبعثت عند الله والناس ومخالف للشرائع والنواميس .
- (٢٠) إذا كنت عاقلا فدير منزلك وأحب زوجتك التي هي شريكك في حياتك وقم لها بالموثقة لتحسن لك المعونة وأحضر لها الطبيب وأدخل عليها السرور ، ولا تسكن شديدا معها ، إذ بالليل تملك قلبها وقم بمطالبتها الحنة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هياؤك .
- (٢١) لا تعجب بملك لأن العلم بحر لا يصل إلى آخره أى متبحر مهما خاض فيه وسبح ، واعلم أن الحكمة أعلى من الزمرد لأن الزمرد نجده العملة في الصخور بخلاف الحكمة فإنها نادرة الوجود .
- (٢٢) لا تترك التحلى بحيلة العلم ودائمة الأخلاق .
- (٢٣) إذا كنت زعيم قوم فنفذ سلطتك الموقولة لك وكن كاملا في جميع أعمالك ليذكرك الخلف ولا تسرف في المواهب والعم التي تفود إلى الكبرياء وتؤدي إلى السكسل .
- (٢٤) إذا كنت قاضيا فكن ابن الجانب مع المتقاضين ولا تجعل أحدهم يتردد في كلامه ولا تنهره ودعه يتكلم بحرية لكي يعبر عن مظلته بصراحة ، أما إذا لم تنصفه فيكون سببا لسوء سمعتك ، فحسن الإصغاء أفضل طريقة لكشف الحقيقة .
- (٢٥) ليكن أمرك ونهيك لحسن الإدارة لا لإظهار الرياسة والإدارة .
- (٢٦) لا تسبق لثلا تضل .
- (٢٧) لا تسكن بابسا فتكسر ولا لينا فتعصر .
- (٢٨) إذا شئت أن تطاع فسل ما يستطيع .
- (٢٩) إذا حكمت بين الناس فاسلك طريق العدل ولا تحيز لتريق دون آخر وإلا نسبوك للجور والتعسف .
- (٣٠) إذا عفوت عن أساء إليك فاجتنبه ولكن اجعله يذى إساءته إليك حتى لا يذكرها مرة ثانية .
- (٣١) بقدر السكد تكسب الثروة فمن جد في طلبها أبح الله مسعاه .
- (٣٢) اجهد دائما في عملك ولا تترك فرصة اليوم للغد فمن جد وجد .
- (٣٣) إذا كنت منتظما في حياتك صرت غنيا وحسنت سمعتك وتحسنت صحتك وطار صيتك وملكك حاجتك ، أما الذي يتفاد لشهوانه فإنه يصير ذميا سمجا وعدوا لنفسه .
- (٣٤) إذا وقت أمام الحاكم فاخفض جياحك واحن رأسك ولا تعارضه وجاوبه بوداعة لينجذب قلبه إليك .
- (٣٥) إذا فاه أخوك بالشر فزجره لتكون خيرا منه .
- (٣٦) اصغ لسكلام غيرك فإن السكوت من ذهب .
- (٣٧) لا تحتقر فقيرا وإذا زارك فلا تتركه سدى لئلا تغذله ولا تنفضه . ولا تحتقر رأيه فإن هذا ليس من شيم السكرام .
- (٣٨) احذر من تحريف الحقيقة بين الناس لئلا تزرع الشقاق بينهم .

- (٣٩) لا تخبر أحدا بما صرح به لك غيرك لئلا يبغضك الناس .
 (٤٠) من ساءت سيرته ضل الصراط المستقيم .
 (٤١) إذا كنت في مجتمع فاسلك دائما حسب قوانينه .
 (٤٢) إذا عاشرت قوما فاجذب قلوبهم إليك .
 (٤٣) ليكون كلامك دائما سديدا مفيدا .
 (٤٤) إذا شئت أن تسلك سبيل لرشاد فابتعد عن الشر واحذر الطمع فإنه داء دفين لادواء له والمتصف به قليل الحظ لأن الطمع محلبة الشحناء والشقاق بين الأهل والأقارب وهو سبب كل الشرور والرزائل ، أما القناعة فهي أساس النجاح والفلاح ومصدر الخير والبر .
 (٤٥) لا تتطرف في الكلام ولا تصغ إلى الوقاحة لأنها صادرة عن التهييج والغضب ، وإذا تطرف أحد أمامك في الكلام فأطرق رأسك إلى الأرض لترشده بذلك إلى طريق الحكمة .
 (٤٦) من بزج بنفسه في متاعب الدنيا ويستغرق فيها كل أوقاته لا يجد لذة في حياته .
 (٤٧) من يعكف طول نهاره على شهواته ضاعت مصالح بيته .
 (٤٨) إذا شئت أن تعرف طابع صديقك فلا تسأل أحدا عنه ، بل استنتج ذلك بانفرادك معه في المحادثة المرة بعد المرة ولا تغضبه ومتى أخبرك عن أصل ماضيه عرفت جميع أخلاقه ، وإذا فاتحك الحديث فسأره ولا تجعله يتحفظ في حديثه وإياك أن تقاطعه في الحديث أو تزدريه ، وبهذا يمكنك أن تستطاع جميع أحواله .
 (٤٩) كس بشوشا مادمت حيا .
 (٥٠) من زرع الشقاق بين الناس عاش حزينا ولا يصحبه أحد .
 (٥١) من طابت سريره حمدت سيرته .
 (٥٢) متى كبر الإنسان في السن عادت إليه حالة صغره ، فيعمش بصره ، وينقص سمعه ، وبصمت فمه ، ويستخف كلامه ويظلم عقله ، وتضعف ذاكرته ، وتخور قواه ، وتقف حركة قلبه ، وترق عظامه . ويهزل جسمه ، ويفقد ذوقه . وشبه حقا إن الشيخوخة آفة الإنسانية ، انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني

(أقدم كتاب في العالم أيضا)

نصائح الحكيم للصري القديم . (آنى) (١)

لمليحه خونسو هتب في عصر مصر الذهبي في عهد الملك العظيم (توت أنخ أمون) أي منذ ٣٣٠٠ سنة تقريبا :
 (١) أخلص لله تعالى في أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنال رحمة وتلحظك عنايته إليه بهل من تواني في خدمته .

(١) نقل عن ورقة بولاق البردية التي عثر عليها (مارييت باشا) مؤسس مصلحة الآثار المصرية في أحد مقابر الدير البحري ببطية بالأقصر سنة ١٨٧٠م المحفوظة بالمتحف المصري بالطبقة العليا بالقاعة حرفس وترجمها من (الحظ المبراطيق) إلى الفرنسية العالمان الأثريان شاباش ودي روجيه ، وللمانية العالم الأثري (أرمن) وللانكليزية الأستاذ ماسبرو ، وللمربية أخيرا أنطون أفندي زكري الأمين بالمتحف المصري ، وقد اشهرت بورقة بولاق البردية ، حفظت بالمتحف المصري وقت أن كان في بولاق وهي تشمل على ٩ صحائف .

- (٢) لا تتقرب إلى ربك بما يكرهه ولا تبحث أسرار ملكوته فهي فوق مدارك العقول واحفظ وصاياها وإرشاداته فإنه يرفع من يعجده .
- (٣) احترم الأعياد وأد شعارها وإلا قد خالفت أوامر الله .
- (٤) لا تستعمل الغوغاء والضجيج في بيت الله أيام أعيادك وادع ربك تضرعا وخفية بقلب محاص فذلك أقرب للإجابة .
- (٥) إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزلة .
- (٦) تهذب النفوس بالحسنات والترنيات والسجود .
- (٧) من أهم زورا فليرفع مظلمته إلى الله تعالى فإنه كفيل بإظهار الحق وإزهاق الباطل .
- (٨) اجعل لك مبدأ صالحا وضع نصب عينيك في جميع أحوالك غاية شريفة تسمى إليها لتصل إلى شيخوخة حميدة وهي لك مكانا في الآخرة فإن الأبرار لا تزعمهم سكرات الموت .
- (٩) صن لسانك عن مساوى الناس فإن اللسان سبب كل الشرور ، ونحر محاسن الكلام ، واجتنب قبائحه فإنه ستسأل يوم القيامة عن كل لفظة .
- (١٠) تزوج حديث السن لترى لك ولدا في ريعان شبابك يكون سببا في احترامك وإجلالك وبرهانا على صلاحك وتقواك .
- (١١) لاتهمل الترحم على والدك ونحر لهما من أعمال الخير والبر أكثرها نفعا وأرجاها قبولاً . ومتى قمت لهما بهذا الواجب قام به لك ولدك .
- (١٢) إن الله سخر لك أما كابدت كل مشقة حين حملتك وولدتك وأرضعتك ثلاث سنوات وربك ولم تأنف من فضلائك ولم تسأم معاناة تربيتك ولم تسكل أمرك لغيرها يوما ما وكانت تبر أسانفذك وتواسيهم كل يوم ليعتوا بتعليمك والآن صار لك أولاد فاعتن بهم كما اعتنت بك أمك ولا تنفضها لكلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك .
- (١٣) أترك لأخيك البيت المشترك بينكما متى رأيت ما ينقصك حرصا على الرابطة العائلية واستبقاء لمودته حتى يكون معاوناً لك في مصالحك الأخرى المشتركة معه .
- (١٤) إذا كانت زوجتك كاملة مدبرة فلا تعاملها بالخشونة والغلظة وراقب أطوارها لتكتشف أحوالها ولا تسرع معها في الغضب لكلا تزرع شجرة الشقاق والنزاع في بيتك فتكون ثمرتها التنغيص فإن كثيرا من الناس يضعون أساس الحراب في بيوتهم لجهلهم حقوق المرأة .
- (١٥) إذا كنت قوى الإرادة فلا تدع المرأة تتسلط على قلبك .
- (١٦) إذا وقعت عينك على جارنتك فإياك أن تنهذى أو تتعمد رؤيتها تابعا واحذر أن تخبر بذلك غيرك فتستوجب الهلاك .
- (١٧) إياك أن تميل إلى امرأة قلبك بدينك وشرfk ولا تحدث ضميرك بشأنها فإنها كالماء العميق الذي لا يعرف له قرار . وإذا كاتبك امرأة تعرف أن زوجها غائب عنها لتوقعك في شبابك فإياك أن تسبو إليها لكلا توقع نفسك في حبال الهلاك فإن الشهوات طريق للدوكلات .
- (١٨) لاتدخل بيت السكر ولو أفادك مجدوا شرفا .
- (١٩) لاتردد على محال الخمر احتراسا من عواقبها الوخيمة لأن لشارب الخمر فلتات يستفزع صدها

من نفسه متى أفاق . وهو دائما مبتدل محتفر عند الناس حتى بين إخوانه الذين يشاركونه في غروره وشروره .

- (٢٠) النظام في البيت يكسبه حياة حقيقية .
- (٢١) اسلك سبيل الاستقامة دائما تصل إلى الرتب العلية .
- (٢٢) كن شهعا شجاعا فإن الجبان لا يستفيد من الحياة غير ما وهب الله له .
- (٢٣) لا تجلس في حال وقوف من هو أكبر منك سنا ولو كنت أرق منه رتبة .
- (٢٤) الزم بيتك ولا تغادره إلا لموجب . وإذا لقيت في طريقك من يتجاهلك فغض طرفك عنه . وزر أصدقاءك وأحباءك .
- (٢٥) إذا فاتتك فرصة فترقب غيرها .
- (٢٦) لا تعاشر الأسافل كما تذهب هيبتك .
- (٢٧) لا تكثر الكلام ولا تتظاهر بالمصاحبة في التحقيق وتكلم بحجنتك بعد التروى والتفكر فذلك أدعى للخلاصك .
- (٢٨) لا تجرح بكلامك شعور الناس فيسئان بك .
- (٢٩) لا تنطق بالشر فتعود عاقبته عليك .
- (٣٠) إذا قاومت نفسك في مسرائها استطعت ردها عن شهواتها .
- (٣١) إنك لا تجني من الشوك العنب .
- (٣٢) ليسكن حديث كل إنسان في شئونه ولا يشتغل بشئون غيره .
- (٣٣) إذا تخلفت باللطف والسكينة صرت محبوبا عند الناس ووجدت منهم عضدا ونصيرا في جميع شئونك .
- (٣٤) ليست السعادة بالثروة وحياسة الأموال إنما هي في استنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا والكفاف .
- (٣٥) من تعود الجد والنشاط لا يحتاج إلى حث واستنهاض .
- (٣٦) إذا رأيت مالا ترصاه في مجتمع فاجتنبه ولا سيما إذا كنت لا تستطيع التغلب على عواطفك .
- (٣٧) إذا خاطبك رئيسك بحدة وانفعال فابتعد عنه حتى يسكن غضبه واستعمل اللين والرفق مع كل من يخاطبك بهييج . فهذا هو الدواء الوحيد لذهاب غيظه . وعلى العموم إن السلام اللين يجذب القلوب .
- (٣٨) لا تستسلم إلى اليأس والقنوط مهما قام في سبيلك من العقبات والشدائد .
- (٣٩) الزم الصمت إذا لم يكن داع للكلام .
- (٤٠) إذا اتخذت وكبلا فانتخبه أمينا عاقلا وثقي به مع مراقبته ، فإذا كان حازما نسب لك هذا الحزم .
- (٤١) لا تلق بالناس المجهولة مبادئهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالإخلاص فإنهم يجرونك إلى الحراب العاجل .
- (٤٢) تنبه إلى أعمالك ولا تنهون فيها فإن النهان عاقبته الحية والفقر .
- (٤٣) إذا كنت متبحرا في العلم فاقش علمك في صحيفة فؤادك .
- (٤٤) إذا وليت منصبا فأظهر براعتك فيه فتؤهل نفسك لأرقى منه .
- (٤٥) العالم ذو منزلة عند الكبراء وإن كان فقيرا ، فمز العلم ثروته ومجد العلم حمايته .

- (٤٦) إذا جاء ضيف فأزله منزله من التحية والإكرام وتلطّف معه لتعرف العرض من زيارته ، ثم حادثه ببشاشة ولا تسمح له بالنظر في الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام .
- (٤٧) إذا أكلت وحوالك من ينظر إلى طعامك فأطعمه منه ولوشيثا يسيرا ، فكم رجل كان في نعمة ورياسة فأصبح في بؤس وتعاسة ، والنعمة لا تدوم إلا مع المحسنين .
- (٤٨) لا تسكن شرها فإن الإنسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها طريقا للحياة الأبدية .
- (٤٩) كل شيء يأتي عليه الدهر لا بد أن يتغير وضعه حتى يفنى أثره ، ومن كان مطينه الليل والنهار فلا بد أن ينهار ، فكم تغيرت الأنهار بالجزر والدم من مبدأ خلقها ، وإذا كان التغير والتحول من لوازم الطبيعة فلا يوجد رجل واحد ذو إرادة ثابتة .
- (٥٠) الحب أعمى لأنه يصور قبيح المحبوب جميلا لشدة ميل النفس إليه ، فهذه وما قبلها ١٢٠ حكمة وقد جاء في كتاب [الأدب والدين عند قدماء المصريين] غير ما تقدم مانصه .
- ﴿ ورقة لندن البردية . أمثال وحكم مروية عن الأديب المصري القديم (أمنيت بن كاتمت) منذ (٣٠٠٠) سنة تقريبا ، وجدت على الورق البردي المحفوظ بالمتحف البريطاني وتاريخها يرجع إلى الأسرة الثانية والعشرين ﴾
- (١) احفظ هذه الوصايا واعمل بها تمش سعيًا ولا تهملها لئلا تحل بك النكبات والصلائب .
 - (٢) لا تسرق مال غيرك لئلا يقبض الله روحك في لحظة بصر ويبدد أموالك ويخرب بيتك وتصير عبدة لمواطنيك ومضغة في أفواههم في حياتك وبعد مماتك .
 - (٣) إذا أذل الغنى فقيرا أذله الله تعالى في هذه الدنيا وأذقه عذاب النار في الآخرة .
 - (٤) اجتنب سيء الخلق فإنه أحق بموت من الله والناس .
 - (٥) سب الله تعالى واعمس الشيطان .
 - (٦) لا تغالط شريكك أو زميلك في الحساب فيغضبك الله وتشتهر بالعدو والحيانة .
 - (٧) لا تظهر أمام الناس غير ما تبطن فتخدعهم واجعل باطنك كظاهرك فإن الله يبغض الكذوب الخادع .
 - (٨) قيراط تحرزه من حلال خير من ألف تملكه من حرام .
 - (٩) لا تضع أياك في محال الخمر لئلا تعجل حتفك .
 - (١٠) اعلم أن لقمة خبز تأكلها في بيتك في حرية واطمئنان خير من أفخر طعام تأكله في قصر غنى بذل وهوان .
 - (١١) لا تشغل قلبك بحب المال ولا تهلك قواك في تحصيله فإن الرزق مقسوم وميسر لصاحبه بالحظ والصيب .
 - (١٢) لا تفرح بمال الظلم فإنه سريع الزوال .
 - (١٣) لا تذكر أحدا بسوء واجعل كلامك دائما في الخير وابتعد عن الشر .
 - (١٤) كن دائما كريما مهذبا تسكن محبوبا ومحموذا عند الناس .
 - (١٥) لا تعتمد رؤية جارئك وإلا كنت كالذئب في خبثه .
 - (١٦) ولا تشته مال غيرك .
 - (١٧) لتسكن جميع أعمالك صالحة في هذه الدنيا .
 - (١٨) احترس من الأشرار واحذر عداوتهم .
 - (١٩) لا تعتمد على مزرعة جارك ، وإذا أدت الحال إلى النزاع فخير أن تتخلص منه بحسن التفاهم .

- (٢٠) كن ثابتا في أعمالك ثبات الصحرة في مكانها لا يزغزغك شيء في هذه الحياة الدنيا .
 (٢١) إذا أطعت رئيسك جذبت قلبه إليك ، واكتسبت ثناءه ، واكتفيت شر عنفه وشدته .
 (٢٢) لا تصادق على قول الكاذب لئلا يصدقه الناس بسببك فتكون شرا منه .
 (٢٣) إذا كنت محبوبا ومحموذا عند الناس وأنت فقير خيبرك من أن تكون بمقوتنا ومبذولا مع غناك .
 (٢٤) لا تستمر في مضجعتك حتى مطلع الفجر .

وجاء في صحيفة (٢٩) من هذا الكتاب أيضا ما نصه :

(ورقة ليد البردية منذ ٢٥٠٠ سنة)

- (١) لا تجعل كل همك في تحصيل المال فإن الله يعطيه لمن يشاء .
 (٢) إن الله يعطى القوة للعاقل لتدبير شئونه .
 (٣) يرضى العنى الله إذا أشبع الفقير لأنه ائتمنه على نعمه .
 (٤) من أعطى الفقير أَرْضَى اللهُ عَلَيْهِ .
 (٥) لا تخدع أحدا فيخدعك الناس .
 (٦) لا تكلم الشرير ولا تعامله .
 (٧) تعرف الأمين إذا أودعته مالا .
 (٨) تعرف العادل إذا قلده منصباً .
 (٩) تعرف الصاحب عند الشدة .
 (١٠) تعرف ابنك متى احتجت إليه .
 (١١) الكثير الكلام سهل معرفة باطنه .
 (١٢) لا تعامل الكذوب فذهب لنفسك إحنا .
 (١٣) لا تقلد حقيراً أو صغيراً على المناصب فيستخف بك الناس .
 (١٤) الرجل الصالح دائماً يتذكر آخرته .
 (١٥) أيام العاقلة كثر للعاقل .
 (١٦) أعدت الجنة لمن يضحي حياته للفقير .
 (١٧) ليست سعادة الإنسان في تغذية جسمه بل في تغذية روحه .
 (١٨) اللباقة تقضى ألا تفخر بغناك أمام الفقير وألا تظهر الفرح أمام الحزين .
 (١٩) لا تحرم الفقير من مالك في حياتك حتى ترحم به بعد مماتك .
 (٢٠) لا تغترب أحداً ولا ترفض نصيحة من حنكته التجارب .
 (٢١) لا ترفض كلام العاقل ولا كلام الرجل للنزه عن الغرض .
 (٢٢) لا تكن مكثراراً للكلام بل اصغ دائماً لمن يكلمك ولا تقاطعه .
 (٢٣) لا تنساحن مع من لا يعرف قدرك .
 (٢٤) لا تنطق بهجر القول في بيتك لئلا يقتدى بك أهلك .
 (٢٥) لا تعاق قلبك بالمرأة تذهب بحبانك .
 (٢٦) المرأة الجميلة توصف بالعقل إذا لم تمل إلى السكر .
 (٢٧) المرأة العاقلة تعد زوجها ، والمرأة الشريرة تجمله دائماً فقيراً .

- (٢٨) ابتعد عن كل طريق يهربك من الشيطان .
 (٢٩) قليل في حوزك خير من كثير يبعد تناوله .
 (٣٠) لا تطمع في ادخار المال لأنك تجهل هذه الحياة ، ستترك غدا مالك فيمتنع به غيرك .
 (٣١) لا تقدم على أذى ولو أدى لتخليك الدنيا وما فيها .
 (٣٢) لاتهم في ارتكاب المحرمات فإنها تضيع نصيبك في العالم الثاني .
 (٣٣) العاقل من ادخر المال لأيام البؤس .
 (٣٤) لاتمنف سيء الخلق أمام الناس لكلايهينك ، انتهى ماأردت ذكره من حكم قدماء المصريين .

﴿ بهجة الحكمة في قوله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) الخ ﴾

(مقدمة)

هذه الآية أفهمتنا سر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . أوتى لقمان الحكمة ويقول الله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » إذن الحكمة ليست خاصة بلقمان ، الحكمة نور من الله كنور الشمس والقمر والكواكب ولو حصرت في لقمان لسكان ذلك مخالفا لأموس الله في عوالمه فهو واسع الرحمة رءوف بالناس . إذن الحكمة يعطيها الله لمن يشاء ، يقول الله (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) فيها هو ذا سبحانه مدح الحكمة بأنها تنتج الخير الكثير . إذن أصبحت الحكمة من علوم الدين الإسلامي ، ومعنى هذا أن كل حكمة ألهمها الله لأى امرئ في الأرض من عربى وعجمى قديما وحديثا هي من علوم الإسلام وكفى بهذا حكمة وعلما . وإياك أن يصدك عن هذا أيها الذكي مايقال لك إنه لم يرد في كتاب الله ، أو يقال لك إذن إذا خالفت الحكمة كتاب الله فلانتهبها فهذا قول من لا يحصل عنده فأما ورودها في كتاب الله فهامى ذه الآية التي نحن بصددها ، وأما مخالفتها لكتاب الله فهو مستحيل لأننا قلنا إنها حكمة والحكمة لاتقبل النقض ولا الشك وما كان معقولا موافق لكتاب الله تعالى ، فأما ما لايقبله العقل فليس حكمة والقرآن حض على التعقل والتفكير (مثال ذلك) جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية والنفسية فهى حكمة والحكمة خير كثير ودين الإسلام يدعو إليه . إذن المسلمون يقبلون كل حكمة من أى أمة من أمم الأرض وتكون تلك الحكمة علما من علوم الدين . وهذا أصل بديع أورده الله في هذه السورة حتى إذا قرأنا حكم قدماء المصريين وآدابهم ورأيانها معقولة قلنا هذه الآراء ترديد لصدى صوت الإسلام وهى من ينالنا لأن ديننا جاء لتعليم العالم كله ورسولنا خاتم النبيين والله يقول « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - فالديانات والمعقولات كلها قد أتحدت في هذا الاسلام ، فالاسلام كما جمع الديانات جمع العلوم ، وليس معنى جمعه للعلوم أنه شرحها فهذا مستحيل ولو شرح الديانات في آلاف المجلدات لم يكن ديننا بل هو شئ آخر غير الدين نسعيه بحسب ما نراه ، وإنما معنى جمعه للعلوم أنه يدخلها في ضمن معتقداته وأعماله . إذن المسلم في المستقبل بعد هذا التفسير يقرأ كل حكمة وكل علم في الشرق والغرب . ويقرأ علوم الألمان والإنجليز وأهل سويسرا والرومان ويدرس علوم حكماهم ثم يصبح هو له رأى خاص في ذلك كله فيكون إذن ممن أوتى الحكمة وإذن له خير كثير . فإذن الله عز وجل لم يفتح على الناس كلها بالحكمة ويحرم المسلمين منها . كلا . إن الله يقول « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يمنك لها » والرحمة ليست خاصة بغير المسلم ولا الحكمة ، بل للمسلم أولى بها من كل الأمم لأنه يدعو الناس إلى سعادتهم وإلى رقيهم .

يا أمة الإسلام ، أنت بعد اليوم راعية الأمم ، مهدية الشعوب ، إن آباءنا بعد العصور الثلاثة التي هي خير العصور قد تفرقوا شيئا وذاق بعضهم بأس بعض فلم يتفرغوا لإسعاد الأمم تفرغا تاما « ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » وأنا أرجو أن يكون خلفنا خيرا من سلفنا الأفريين فيقرءون حكم الأمم وعلومها وسياساتها وصناعاتها وهم يعتقدون أن ذلك من الدين وبقراءون « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » وبقراءون « قل هو يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

إذن لا حاجة إلى أنبياء بعد نبينا ، لماذا ؟ لأن الأنبياء يأتون لتذكير الناس بما نسوا والله سبحانه أخبر أنه اختص أناسا بالحكمة يخلفهم حيث يشاء . والحكمة للقاء على الناس في الأزمان المختلفة قد أصبحت جزءا من علوم الإسلام . إذن كل حكمة صدرت من حكيم أبابكان هي إسلامية ، إذن إرسال الرسول بعد هذه الآية عبث ، فإذا قيل إن الأمم تختلف أطوارها باختلاف أزمانها قيل لنا وما فائدة الحكمة التي يلقها الله على قلوب عباده . ولا جرم أن هذا هو كمال الإنسانية لأنها إذا كان تعليمها بواسطة حكماؤها التبعين لوصية نبي كان ذلك ارتقي وأشرف من إرسال رسول لأن الرسول إنما يرسل لقوم ناقصين جهلوا الحكمة . أما هذه الأمم فإنها تعترف بالحكمة وتعمل بها وتقول هي من وصايا كتابنا وديننا وهذا معنى كونه ﷺ رحمة للعالمين . ألا ترى أننا إذا رأينا رجلا منا نظر إلى الغابات والحقول والمعادن فقال هذه لكم فتتفجروا بها وعدنا كيف يكون ذلك قلنا هذا الرجل رحمة لنا ، فإذا رأينا آخر حرم علينا ذلك الانتفاع أو منعنا منه فانتنا نقول ذلك الرجل نعمة لا رحمة . ولا جرم أن نتائج العقول كنتاج الأرض ، فإذا سمعنا الله يقول « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » وسمعنا يقول « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وصلى سورة باسم لقمان تشريفا للحكمة أيقنا أن هذا الدين يسوقنا إلى الحكمة جميعها برغبة وشوق وهذه الحلة الواحدة جعلت ديننا يتطلع كل علم في الأرض وكل حكمة . إذن تقول هذا النبي رحمة لأنه أشبه أفضل الرجلين في مثالنا إذ به أغتصمنا كل فرصة للانتفاع بالمنافع الأرضية ، فهكذا هنا في الحكمة فإنها قد أصبحت جزءا من ديننا وليس ينقصنا إلا المجالس العامة التي سأذكرها حتى ترقوا وتتفهمها .

هذا معنى كونه ﷺ رحمة للعالمين ونهى رحمة أعظم من الحكمة العامة . وبناء عليه تصيح الأمم الإسلامية في المستقبل خيرا من تلك الأمم الحالية رافعة للإنسانية خافضة للهمجية .

واملك تقول إذن كل مسلم له الحق أن يتبع أى حكمة وينسى القرآن . أقول لك أنسيت قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم وبما رزقناهم يفتقون » .

ليكن هناك مجالس عام في مكة وغيرها . وهذا المجلس لا يصح التثامه إلا بعد شيوع التعاليم العامة في بلاد الإسلام . وهذا المجلس ينظر في الأمور العامة لأمة الإسلام ولا يصاح لهذا المجلس إلا من قرأ فوق علوم الإسلام علوم الأمم والرياضيات والطبيعات لا غير لأن الدين لا يقرءون تلك العلوم مجهلون بنظام الله ونظام الأمم والجاهلون بذلك لا يصلحون للقيادة في هذه الشعوب ، وهؤلاء الأعضاء ينتخبون من المجالس العلمية الخاصة في كل إقليم من أقاليم الإسلام ، فهؤلاء هم الذين لهم الرأي الحق وهم هم الحكماء الذين قال الله فيهم « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » وهذا الخير الكثير يفيض منهم على الناس . إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك .

فقل لي رعاك الله ، أليس هؤلاء الذين سيكونون بعدنا خيرا من أولئك الذين ناموا على الوضوء والنجاسة والطهارة والحبض والنفاس والبيوع وتركوا بقرية كتاب الله وراء ظهرهم كأنهم لا يعلمون . اللهم إني أحمدك على العلم والحكمة . أنت اللهم النعم المنفضل الرؤوف الرحيم .

﴿ بهجة الحكمة أيضا في هذه الآيات ، وبيان أنها تشمل سائر علوم الحكمة وأنها مقسمة
« ستة أقسام » ثم أذكر نموذجا مما أنتجته عقول الفلاسفة قديما وحديثا وأنه تنصيل لهذه
الآيات (كما ذكرت سابقا آداب قدماء المصريين التي ظهرت حديثا) وأجمل ماجاء عند فلاسفة
اليونان والرومان وهكذا . ثم نتقى ببيان الطرق التي استعملها آباؤنا في التشويق للفلسفة
بالحكايات اللطيفة والروايات الظريفة ﴾

يقول الله « ولقد آتينا لقمان الحكمة » آتى فعل ماض وآتا فاعل والحكمة مفعول ، فهذه الحكمة
آتاها الله لقوم في الزمان الماضي ، ولا جرم أن النكاح على الماضي ما هو إلا تاريخ . إذن هذه الآيات بها
يقس علينا الله تاريخ الفلسفة لأن الحكمة بالعربية هي العلفة باليونانية . وحينئذ ننظر هل هذه الآية
فيها أقسام الحكمة التي عند الأمم . فنظرنا فوجدنا أن هذه الآيات فيها :

- (١) توحيد الله « يا بني لا تشرك بالله » الخ .
- (٢) وأنه عالم قادر « يا بني إنها إن تك » الخ .
- (٣) وأنه سخر لنا ما في السموات والأرض وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة وهذا في قوله تعالى « أم
تر أن الله سخر لكم » الخ .
- (٤) وأن يكون عبدا « يا بني أقم الصلاة » .
- (٥) ذا أخلاق حميدة « واصبر على ما أصابك » « ولا تصعر خدك للناس » الخ .
- (٦) عاما نفعه للناس « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » الخ .

إذن ملخص الآية أن يعتقد المرء أن ربه واحد . وأنه عام الفدره والعلم ، وأن نعمه سابعة . وأن جميع
السموات والأرضين مسخرات لنا ، وأن يكون المرء حسن الأخلاق كالسبر وعدم الكبر ، وأن يفيض على
الناس بما آتاه الله فأنه نعمه عامة فليكن العبد منعما بقدر توفيقه .

فهذه الأقسام التي عددنا ستة ، يجب أن نعرض عليها أجمل ما جاء في تاريخ الفلسفة الحديث فإن
واقفنا كان ذلك فتوحا جديدا في الاسلام وكان هذا دليلا جديدا على أن أمة الاسلام في القرون المتأخرة
كانت عاجزة عن دراسة هذا القرآن وأن الأجيال المقبلة ستعلم علم اليقين أن حكمة الأمم هي الحكمة القرآنية
وإليك البيان .

فيا الله أنت خلقت أمما قبلنا وأودعت في عقولهم حكما فأخذنا نقرأها اليوم ونظرنا في كتابك فدهشنا
ياربنا وأى دهش . وكيف لاندعش ونحن نسمع الناس قديما وحديثا يقولون : الدين يخالف العلم ، فإذا
كانت هذه الآيات منطبقه على آراء الأمم فما أكذب القائلين . وما أجهل أمما تقرأ القرآن وتجهل علوم الأمم
يقرءون سورة لقمان ويسمعونك تمدح الحكمة وكأنهم في واد والقرآن في واد . فها أنا ذا أجزى* بنبد من
تاريخ الفلسفة والسكى لأجهد أذكياء القراء بعوصات المسائل بل أصطفى اللب وأبند القشر وأبتدى* بالكلمة
التي اعتاد الناس أن يجعلوها مرادفة للحكمة وهي الفلسفة .

إن كلمة الفلسفة أصبحت اليوم تطلق عند الناس فيما كان من قبيل المناقشات التي لانفع فيها أو من قبيل
ما يخرج عن تناول العقول وهذا خطأ ، وإنما هي والحياة أمران متلازمان ، فإن الإنسان منذ خالق ورأى
شمسه وقمره ونجمه وسحابيا تنهت قواه وفكر في السكون ومبدئه ونهايته وظن للخلاوقات الكثيرة الهة كثيرة
ثم اهتدى ووجد أن الإله واحد . يقول الأستاذ (كنجهام) في كتابه (مسائل الفاسفة) ما نصه :

لكل إنسان (ولو لم يكن له نصيب وافر من التعليم) نوع من الفلسفة. فله رأيه في معنى الحياة وطبيعتها وغايتها. وفي الوجود والعدم. وفي النقل والجسم. وعلاقة كل واحد منهما بالآخر. وفيها قد يصيب الإنسان في هذا العالم من معاناة أو شقاء أو فقر أو غنى وصحة أو ضعف، وفي الحياة بعد الموت، وفي الخير والشر والطيب والحبيث من الأفعال، وفي الإله وصفاته وعلاقته بالطبيعة عامة من جماد ونبات وحيوان، ولا شك أن هذه فلسفة. غير أن عقله لم يتناولها بالتحليل والتحصيص ولم يعم الدليل على صحتها.

لقد جعل (فرانسيس بيكون) العلم ثلاثة أقسام: قسم يتعاق بالذاكرة، وآخر بالمفكرة، وثالث بالقوة الخيالية، والتي تتعلق بالقوة الخيالية هو الشعر والموسيقى والنفس والتصوير لأن هذه ترجع إلى الخيال والقسم المتعلق بالذاكرة هو التاريخ والتاريخ الأثرى وبشرى: فالبشرى هو التاريخ المعروف، والأثرى هو المذكور في الكتب السماوية، ومن التاريخ البشرى تاريخ العلوم الرياضية والطبيعية وهكذا، فجميع ما يدرس في مدارس العالم من الطبيعة والفلك والحساب وأمثالها كلها داخلات في قسم التاريخ مندرجة في ضمن أعمال الذاكرة، فأما العلم المتعاق بالمفكرة فهو نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس، وهذا القسم هو المسمى فلسفة، فإدراك ارتباط العوالم بعضها ببعض وتحقيق ذلك الارتباط ونسبة ذلك إلى الحقائق العقلية التي غابت عن الحس ومعرفة النفس وقواها والنطق وعلم الجمال وعلم الأخلاق والسياسة، كل ذلك داخل في علم الفلسفة.

هذا رأى (فرانسيس بيكون) فياسبجان الله، إذا كانت هذه هي أقسام الفلسفة عند (بيكون) وهذا هو الرأى الحديث فلننظر في القرآن وفي الأقسام الست المتقدمة في هذه الآيات. أليست هذه الأقسام هي عين القسم الثالث من المذكور في الآيات للمتقدمة. يقول الله « ألم نروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأصبح عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ولا جرم أن ما في السموات وما في الأرض السخر لنا لم يخرج عن الأقسام التي قالها (بيكون) أليست العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية التي جعلت علومها هي مقدمة للفلسفة مما في السموات والأرض ومن نعم التي أسبغها علينا ظاهرة وباطنة فهي نعم ظاهرة لأجسامنا ونعم باطنة لعقولنا بالحكمة. ألم تذكر هذه في حيز السلام على الحكمة، أليس نظام الطبيعة ونفس الإنسان مما في السموات والأرض الخ.

هذا ما نقوله من حيث الرأى الحديث لتقسيم العام، فإذا أردنا أن ننظر آثار العقول فماها كما:

(١) ﴿ شذرة من فلسفة الصين - رأى (كنفيوشس) هو فيلسوف صيني ﴾

وجد القوم معرضين عن إصلاح أنفسهم فقال لهم: إن في هذه الموجودات عالما روحيا لا يحيط به عقل الإنسان ولا يدركه فهمه، ألا أدلكم على عالم آخر أمام أعينكم وفي استطاعة كل واحد منكم مهما كان ضيق العقل قليل الله كما أن يبلغ بابه؟ ذلك هو عالم الواجب الذي يسلك بصاحبه سبيل السعادة والواجب هو ما يتطلبه منك يومك وساعتك.

(٢) ﴿ شذرة من فلسفة الهند ﴾

لقد تقدم في سورة (آل عمران) وغيرها ذلك كثيرا.

(٣) ﴿ شذرة من فلسفة اليونان ﴾

لقد تقدم كثير منها وسنشرحها شرحا وافيا عند قوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » ولأ كنف الآن منها بما قاله (أكستافنس ٥٧٠ - ٤٨٠ ق م. تقريبا).

ولد هذا الفيلسوف في (ابونيا) ولما احتلها الفرس هاجر منها مع من هاجر، وما زال يضرب في الأرض

ويرحل من مكان إلى مكان حتى ألقى عصا التسيار في (ألبا) بعد أن زار (صفلية) وبلاد اليونان ورأى فيها انحطاطا في الأخلاق وضلالا في العقائد الدينية ، وانبرى لهومر وهزيبود وأمحي عليهما باللائمة وسخر من شعرها واستخف بآرائهما لأنهما يصفان الآلهة بأوصاف شائنة كالسرقة والزنا والحداق ونحوها . وأعلن أن الله لا أول لوجوده ولا مثيل له وجميع العوالم في قبضة يده ، لا شريك له في ملكه ، فهو الواحد الذي يتصف بجميع صفات الكمال لا إله إلا هو تعالى عن شبه الحوادث ، فليس له يد ولا عين ولا أذن ولكنه يسمع ويرى ويبتسئ ويدبر شؤون العالم بحكته وعلمه ، وقد يقنادر إلى ذهن القارئ أن هذا الفيلسوف وصل إلى الإيمان الحقيقي بوحدة الله ، ولكن كلامه مضطرب يدل بعضه على أن الإله والعالم شيء واحد وعلى أنه أعظم الآلهة ، وقد يشعر بعض عباراته بالعدد اه .

أليس هذا القول الذي عرفه هذا الفيلسوف بعقله بلا وحى ولا نبي هو الذي جاء في هذه الآيات في قوله تعالى « ولقد آتينا لقمان الحكمة » إلى قوله « يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » .

يا سبحان الله ، هذا نبي عربي في جزيرة قمرأ أنزل الله عليه الوحي بما كدح فيه وجد ونصب فيلسوف نزه الله بعقله ، سبحانك اللهم أنزلت القرآن وتلطفت وقصصت لنا قصة التوحيد عن لسان فيلسوف حكيم ، ترشدنا أن نكون فلاسفة حكماء وتقول لنا أنا قلت لبيكم ولكم « فاعلم أنه لا إله إلا الله » وقد عرف هذه الحقيقة قبلكم حكماء رمزت لكل منهم بلقمان ، فهم وحدوني ولم أوح إليهم ، ففكروا بإعبادي واعرفوني بعقولكم كما عرفني هؤلاء لأن هذه حكمة وهي خير كثير ، فهذه الفلسفة التوحيدية التي نفت التعدد ونفت الأصنام هي نفس القسم الأول من الأقسام الستة في الآيات المتقدمة .

ومن عجب أن الفلاسفة الطبيعيين من الأمم السابقة الذين يقولون إن العوالم كلها ترجع إلى ذرات دقيقة جدا تتصادم وتتكون منها جميع هذه العوالم ، فهؤلاء اضطروا أخيرا أن يبحثوا عن الخير والشر وماهية السعادة وسبيل إدراكها فعرفوا الشر بأنه كل ما يصدم النفس ويسبب اضطرابا في ذراتها ذات الحركات الهادئة المؤتلفة ، ولهذا يجب على الإنسان أن يجتنب كل التجارب التي تثير فيه أنواع الشهوات المختلفة وضروب الانفعالات القوية ، وعندهم أن السعادة غاية الحياة وقد قالوا إنها ليست في امتلاك الماشية والضياع الواسعة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وإنما مقامها المقدس ومقرها الأمين تفكك التي بين جنبيك ووسيلتها الذكاء والحكمة ، وأجدر شيء بالإنسان أن يرغب في الجميل اللائق ويستمتع به ويتغالب على شهوات نفسه ويكتفي بالقليل من العيش ويكف عن فعل الشر وإرادة الشر .

أست ترى هذا المذهب داخلا في قوله تعالى في هذه الآيات السابقة « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك » الخ فإن هذه ترجع إلى الأخلاق وهذه الفلسفة شرحتها . إذن هذه في القسم الخامس التقدم من الأقسام الست .

وإذا تتبعنا الفلاسفة وجدنا سيدهم (سقراط) الذي وقف حياته على الفلسفة . وهاك شذرة من تاريخه

(سقراط — ٤٧٠ — ٣٩٩ ق م .)

هو زعيم الفلسفة اليونانية وشيخ المفكرين والمثل الأعلى للبطولة والنبوغ ، ولد في عصر كانت (أثينا) تروج فيه رجال الأدب وأساطين العلم وأبطال السياسة ومصافح الخطباء ، وتلقى التربية الأثينية حين كان غلاما ولم يمنعه نسبه أن يصل إلى منصب من أكبر المناصب في (أثينا) .

وقف يوما أمام القضاة وقد اتهمه أعداؤه بأنه مخالف لدينهم ، مفسد لشبابهم ، فقال « لو أنكم قلتم باسقراط إننا لن نسمع دعوى (أنتيس) هذه المرة ، وستدعك تغدو وتروح في ربوع (أثينا) ولكن على

شرط أن تترك تعاليجك وأبحاثك وفلسفتك ، فإن وجدناك بعد اليوم مشتغلا بمناقشة الشبان والبحث معهم في مسائل فلسفية ما كان لك من الموت منجى . لو أنكم قلتم هذا لقلت لكم أيها الأثنيون اني أحترمكم وأحبكم وأعرف لكم منزلتكم ولكي أؤثر طاعة الله على طاعتكم ، ولن أكف عن الفلسفة والاستماتة في الحق وإسداء النصيح إليكم ما دام في عرق ينبض ونفس يتردد بين أحشائي حتى إذا لقي الرجل أخاه قال له في صراحة ليس من العار أن تكون (أثينا) عظيمة عامرة ولا يعني أهلها إلا بالمال وحب الشهوة ويتركون الحكمة وسبيل الحق ولا يهتمون بهذيب أنفسهم .

وقد حكى لنا التاريخ أن واحدا من أصحاب (سقراط) المخلصين له وجه إلى كاهنة (دلفي) السؤال التالي [هل بين بني الإنسان أحد أعقل من سقراط ؟] وكان الجواب [حقا إن سقراط أكثر الناس عفا وحكمة] فلما بلغ (سقراط) الجواب دهش له وكان بين أمرين لا ثالث لهما ، فاما أن يكذب قول الإله وهذا ما لا يستطيع فعله وإما أن يعتقد في نفسه العلم والحكمة وهو لا يرضى ذلك لأنه يجهل كثيرا من الحقائق ولهذا أخذ يتقل من مكان إلى آخر ويقصد الذين اشتهروا بالعلم والحكمة ويناقشهم في المسائل المختلفة حتى يعرف مبلغ ما وصل من العلم . وتبين له في النهاية أن الجهل المطبق غلب على قلوب الناس وأعماهم عن إدراك الحقائق وخدمهم حتى اعتقدوا في أنفسهم العلم وهم عنه بعيدون . وعندئذ أدرك (سقراط) أن الناس مغرورون كاذبون في دعوى العلم . أما هو فجاهل معترف بجعله . ولعل هذا هو السبب الذي جعله عند الله الحكيم المفرد . لذلك لم يترك مسألة إلا حاور فيها . فقد تناول السياسة العامة والآراء الشائعة في زمنه ، واللبادى الخلقية ، ونظام الحكومة ، وأساليب التربية والغرض منها ، والموت وما بعده ، والنفس وما أعد لها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ولله في الحوار فيها كلها وتشعبت به الطرق حتى أن الانسان ليجد صعوبة في تحديد موضوع فلسفته .

وانظر إلى نوع محاوراته . فإليك ما دار بينه وبين أحد تلاميذه .

(محاوره بين سقراط وتلميذه سمياس)

(سقراط) وما رأيك يا سمياس فيما يأتي [هل تعتقد أن هناك شيئا اسمه العدل المطلق . والجمال المطلق والحير المطلق ؟] .

(سمياس) نعم إن لهذه الأشياء وجودا .

(سقراط) هل رأيت واحدا منها بعينك ؟

(سمياس) كلا .

(سقراط) هل تفهمهما بإحدى الحواس ؟ وهل ندرك للمعاني الذهنية ونأملها بحسونا ؟ أليس من الضروري أن نعص الطرف عن حاجات البدن وقت التفكير ؟ ألسنت تعتقد أن المعاني الذهنية وحقائق الأشياء إنما تنجلي للانسان إذا تجرد عن عالم الحس والشاهدة واعتمد على العقل الخالص .

(سمياس) لقد وقتت إلى الصواب فيما تقول .

(سقراط) إن هذا يحتم على الفلاسفة الذين يمشون بالحكمة أن يفكروا في السبل التي تصل بهم إلى غايتهم مسترشدين بهدى العقل الخالص . وليس في استطاعتنا أن نصل إلى الغاية مادامت الأجسام مقترنة بالنفوس فإن تحصيل حاجات الجسم يستغرق في الوقت كله ويعوقنا عن التفكير ومتابعة البحث وراء الحقيقة والآلات والعمال تمرينا بسببه . هذا إلى أنواع من البلاء والمحن

تدفعنا إليها الشهوات والطلب النادية . وإذا كان لنا أن نحصل العلم وندرك الحقائق فإن ذلك لا يكون إلا إذا تجردت النفس عن جميع المشاغل الدنيوية وتحصيل حاجات البدن اه .
هذه شذرات من فلسفة (سقراط) فإذا نظرنا إلى صبره وأناته وأمره ونهيه فهذا كله جاء في قوله تعالى « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك » .

أليست هذه فلسفة (سقراط) رجل يأمر وينهى ويصبر على الأذى حتى ذاق الموت في سبيل هداية الناس . إذن الآية أدخلت فلسفة سقراط فيها . وإذا فكرنا في أنه هو أول من حقق مسألة وحدانية الله وأنه محيط بالعوالم الكلية والجزئية . فهذا أيضا من القسم الأول والثاني من أقسام الآيات المتقدمة .
وإذ فرغنا من الكلام على فلسفة (سقراط) فلنتبعها بفلسفة تلميذه أفلاطون فنقول :

(أفلاطون ٤٢٧ - ٣٤٧ ق م)

ولد في (أثينا) وهو من نسل (سولون) الحكيم المشرع المشهور ، وفي أيامه نشأت الحرب (البلوبونيسية) قبل أن يولد هذا الفيلسوف بنحو أربعة أعوام ، دارت رحاها بين (أثينا) و (أسبرطة) ثم امتد لها حتى شملت بلاد اليونان جميعها واستمرت زمنا طويلا يقرب من ربع قرن وصحبها ما يصحب الحروب العامة من سفك الدماء وإزهاق الأرواح وتخريب الأبنية وتبديد الثروة وتغيير أنظمة الحكم ، وكان من جرأتها أن قعدت (أثينا) تلك المزلّة السامية التي كانت لها بين الولايات اليونانية .

شب أفلاطون في هذا العصر وجرب ويلات الحرب وشاهد كثيرا من النزعات السياسية وعرف ما يقاوم الناس من أنواع الحكومة . ولم يفته أن ينتفع بهذه التجارب ويسوقها للإيضاح في كتبه ، ولو أنك تأملت كتابه [الجمهورية] لتبين لك أن الأمثلة الكثيرة التي يؤيد بها دعواه مستمدة من تجاربه المتعددة النواحي وانقطع للتعليم مدة (٤٠) عاما كان في أثناءها بعيدا عن الأمور العملية ومشاغل السياسة ومستغرقا في تأملاته ونظرياته الفلسفية . ولعل هذا هو الذي جعل فلسفته منقطعة الصلة بالحياة وضاربة إلى الجانب الخيالي على العكس من فلسفة (سقراط) ابن الشعب وربيبه . ولما استكمل إحدى وعشرين سنة من عمره مات ودفن بابساتين في (أقاديميا) وتبع جنازته كل من كان بأثينس .

وقد كان يرى أفلاطون أن المجتمع الكامل يتكون من (ثلاث طبقات : الأولى) طبقة للتجنين وتشمل الزراعة والصناع ووظيفتها تحصيل الغذاء وموئن الجماعة (الثانية) طبقة الجند وعملها توسيع رقعة المملكة وحفظ كيانها ودفع الغارات عنها (الثالثة) طبقة الفلاسفة . ولها الزعامة العسكرية وولاية الحكم وعليها أن توفق بين العناصر المختلفة حتى ينقطع كل واحد لتأدية الواجب عليه . وإذا ذلك يسود العدل وتحتق السعادة . هذا هو العدل في المجتمع . أما في الفرد فهو اتلاف قوى النفس وتعاونها وقيام كل قوة بعملها . ولذس قوى ثلاث قياسا على المجتمع (أولها) القوة الشهوانية وعملها تحصيل حاجات الجسم من طعام وشراب وفيها سجاج وميل إلى الشر ومركزها البطن وفضيلتها العفة (وثانيها) القوة الغضبية ووظيفتها الدفاع عن الجسم وحفظه من الأذى ومقرها القلب وعدتها الشجاعة والصبر (وثالثها) القوة الفكرية وموطنها الرأس وهي التي تستجلى الحقائق وتدبر شؤون الإنسان العامة والخاصة وفضيلتها الحزم والحسكة . وإذا تأملنا الناس وجدناهم (ثلاثة أصناف) فصنف تغطى عليه القوة الشهوانية ويقضى حياته في تحصيل المال وما يتبعه من اللذات . وصنف تسوقه القوة الغضبية إلى محبة المحسومة واستكمال أسباب الشهرة وبعد الصيت . وصنف تدفعه القوة الفكرية إلى استجلاء الحقائق . ولكل صنف من هؤلاء نوع من السرور يستمتع به . ولو أنك سألت واحدا من كل صنف عن مساع ما باقى في حياته من سرور لوجدته يفضل حياته على غيرها . فجامع المال

يرى في انقطاعه إلى عمله سرورا لاحد له . ومحب الشهرة يرى أن المال عرس زائل وأن العلم تعب باطل إلا إذا كان من ورائه شهرة واسعة وذكر بعيد ، وطالب العلم يخترق المال والشهرة معا ويجد السعادة في استجلاء الحقائق والوقوف على أسرار الله في خلقه ، وإذا كان الأمر كذلك فمن أين لنا أن نتبين الرشد من الغي ونهتدى إلى مكان السعادة ؟ إن صحة الحكم تتوقف على سعة التجارب وورق المدارك والحكمة ، فطالب العلم هو الذي يستطيع أن يقضى في هذا الموضوع بالعدل ، فقد تملك الأشياء وجمع المال وهو صغير ، وجرب احترام الناس له وأفاده علمه الحكمة ، وعلى ذلك أحسن أنواع السرور ما ينبعث في النفس ويملا جوانبها إذا وجدت لذة العلم ، وحياة العالم مليئة بالسرور الذي لا يعقبه ألم . أما الذين لا يعرفون للحكمة طعما ، ولا يدفون للفضيلة حلوة ويقضون حياتهم في الاستكثار من ألوان الطعام والشراب وصنوف اللذات فإنهم كالأنعام يملكون بطونهم ويتسائلون ويشعرون بقوة في جسومهم فيعتمدون بعضهم على بعض ويقتتلون حتى لا يبقى منهم باقية .

هذا ما أردت ذكره في فلسفة (أفلاطون) فلا تبعه بذلك [المذهب الأبيقوري] وينسب إلى أبيقور (من ٣٤١ - ٢٧٠ ق. م) ويتأخص في أن الخير الأسمى نوع من السرور يملا النفس ، وفي أن السرور (فستان) جسمي مخلو بالاضطراب سريع الزوال ، وعقلي هادي دائم ، ولا يستطيع الثاني إلا من قللوا رغائبهم وجملوا مطالبهم محصورة في الضروري دون سواه وقد أساء فربق من الناس فهم هذا المذهب وظنوا أنه يدعوهم إلى الأخذ بأنواع السرور والتمتع باللذة العاجلة فاستباحوا لأنفسهم كل شيء وجرروا وراء شهواتهم البهيمية . وأختم القول بما جاء في حكمة ازمانيين على لسان حكيمهم (سنيكا) وهذا نصه :

سأقابل الموت بوجه باسم ، وأرى مشاهد الحياة ، وما يجلبه القدر ، خيره وشره ، مطمئن النفس ، هادي البال ، وسأقوم بنصيب من أعباء الحياة مهما كان ثقيلًا مستعينا بما لي من قوة عقلية إذا وهن الجسم وعز النصير ، وسأحترق الغنى واليسار سواء أكان لي منه نصيب أم لم يكن ، ولن يملا قلبي السرور إذا أقيمت الدنيا على بخيرها . وإن تفيض النفس أسا إذا أدبرت عنى وتوات بزيتها ، وسأعتبر جميع بقاع العالم وطني ووطني ملكا لبني الانسان جميعا . وسأذكر دائما أنني خلقت لغيري وأشكر الله على ذلك إذ ليست هناك غاية أشرف من هذه فقد وهبني للجماعة ووهبت الجماعة لي وسيدفوني إلى خير العمل ضميري وذمقي وسأصفي عن اللذات قبل أن يسأني الصفيح . ولن يغيب عنى أن الدنيا بأسرها مدينتي التي ولدت فيها . وسأجيب داعي الموت طائعا وأشهد الناس جميعا أنني أحب طهارة الضمير ونبل الغاية اه .

هذا ما اصطفته من فلسفة الأجيال الفاتنة وهي كلها في تهذيب الأخلاق ومعرفة العالم ونفع الأمم ، وتأمل كلام (سنيكا) فهو ينطق بقوله تعالى في هذه الآيات « واصبر على ما أصابك » وقوله « ولا تصعر خدك للناس » الخ . وههنا أقول لأمم الاسلام هذه عيون حكمة الأمم التي عرفوها بعقولهم ، فلما جاء الاسلام وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن أدرك هذه المعاني أصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم فنفعوا الأمم شرقا وغربا ثم نام المسلمون نوما عميقا ، نبي جاءه وحى لحص فلسفة الأمم التي لم يقرأ عنها حرفا ولم يدرس كتابا فهز الأرض هذا بعلمه وأصحابه بعده ، أليس هذا هو قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » فهؤلاء الفلاسفة عرفوا الصبر والثبات ومحاسن الأخلاق وحب الله ونفع الناس والخوف من ربهم بمجرد محنتهم بالعقل فلما جاء نبينا صلى الله عليه وسلم أوحى الله إليه هذا كله ، إذن هذه أكبر معجزة ولقد تبين لي حقا وصدقا أن الأجيال المقبلة بعد هذا التفسير هي التي تفهم معنى قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » وهم هم الذين يعقلون آية « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وهم المؤمنون الأعليون شرفا ، فياليت شعري ماذا حل بآبائنا الأولين بعد العصور الأولى ، كرهوا العلم وكرهوا الحكمة فانقطعت صلتها بينهم وفرت هاربة إلى أوروبا وبقى السوفية وعلماء ظواهر الدين و « سيجعل الله بعد عسر يسرا » .

وللنجم من بعد الرجوع استقامة وللشمس من بعد الغروب طلوع

ولما وصلت إلى هذا المقام اطلع على هذا أخى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير فقال لقد أحسنت صنعا وأجدت وضعاً وأبنت كيف كانت نتائج العقل الانسانى فى القرون الأولى هى هى نتائج الوحي المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم وكيف يفهم الناس « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وكيف يدركون مغزى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » وأنى ليدهشنى أن أرى أبا بكر وعمر وأمثالهما ساروا فى حياتهم وطرق أعمالهم على المنهج الذى رسمه القرآن وكانت النتائج أشبه بما يقوله هؤلاء الحكماء ، فها هو ذا عمر رضى الله عنه قد جاهد فى الله والحق حتى قتله أبو لؤلؤة غيلة ، ومثله سيدنا على لقيامه فى أعماله بالقسط والعدل قتل غيلة ، وهانحن أولاء نرى (سقراط) قام بالحق حتى حكم عليه بالقتل لا لشيء سوى أنه يعلم الناس الحكمة ، وهكذا نجد (سنيكا) الرومانى عاهد الله ألا يقول إلا الحق وألا يبالي بالمرض ولا الموت ولا الفقر ولا يفرح بالغنى وهكذا .

إن هذا والله هو العلم وهو الصدق إذا لم يكن فى دين الاسلام سوى (سورة لقمان) لكفت فى صدق النبوة أولاً وفى نظام الأمة ثانياً . فياغفلة الأمم الإسلامية للتأخرة ، وباحسرة على المسلمين ما يأتهم من عالم إلا كانوا به يستهزئون .

ثم قال : والآن خطر لى سؤال أحب أن أسألك ، فقلت جبا وكرامة ، فقال هذه هى الحكمة التى أنتجتها عقول الأولين وهذا هو دين خاتم المرسلين ، هما اتفقا أصولاً ، فلماذا رأينا أمثال أبى بكر وعمر قد شادادولة ونظما أعمارادارا دولابنحو نصفالسكره الأرضية ولم نر لسقراطولاً لأفلاطون ولالأرسطاطاليس مثل هذا العمل العظيم ، ولقد اطلعت على جمهورية أفلاطون وقد سبق فى هذا التفسير جمل منها كالتى جاءت فى (سورة النحل) عند قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » التى فيها علم غزير وبحث وتنقيب ولكن لم نجد لذلك ثمرات كالتى رأيناها فى أمم الإسلام ، فقلت ان هذا السؤال حسن وكثيراً ما يخطر لى ، وأجيبك عليه بعون الله ، إن دين الاسلام (قسان) إسلام وإيمان ، فالإيمان يرجع للبواطن كالصدق والإخلاص واليقين وما أشبه ذلك ، فإن الإنسان متى أيقن بأن له خالفاً وله أوامر جد فى التشهير عسى أن يلقاه ، فأما الإسلام فهو العبادات من الصلاة والصوم والزكاة والحج والنطق بالشهادتين ، فهذه الظواهر تجمع الناس فى عمل واحد فهم يصلون معاً وتكون الزكاة رابطة بين الغنى والفقير والحج يجمعهم ، فهذه الشرائع الظاهرة التى يكلف الناس بها نتائجها نظام الدولة والملك ، فأما إصلاح البواطن وحده الذى شاركت الفلسفة فيه الدين فهو لا يمدو إزالة الجهل ، فأما إصلاح الظواهر ونظام الأمم فهذا دواؤه : فإذا أرادت أمة إسلامية أن تلم شعبها وتقوم من رقبتها . فها هو ذا الباب مفتوح على مصراعيه ، وها هو ذا عبد العزيز بن السعود والنجدى يقوم بنشر شعائر الإسلام كأيام الصحابة ، فها هو ذا عزيرالجانب مرهوب مع أن الأمم كلها مدججة بالسلاح والسكرع والحمد لله رب العالمين ، كتب يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٩ .

﴿ زهرة من بساتين الحكمة ﴾

وهى فيما كان يلقبه آباؤنا الأولون على مسامع الشبان ليعشقوهم فى الحكمة ويحببهم فى جمال هذه الدنيا وبهائها وعجائب الله عز وجل أيام صولتهم فى إبان دولتهم وقيام عزهم وظهور مجدهم فى العالمين ، فهناك ماجاء فى (إخوان الصفاء) المؤلف فى القرون الأولى صفحة ١٩٦ فى المجلد الرابع فى الطبعة الهندية فلا تحسه لك حتى تأخذ زبدته ولبه وترسى بقشره « والله هو الولى الحميد » .

قال : ذكروا أن ملكا من ملوك الهند كان واسع المملكة عظيم السلطان وكان يعبد الأصنام ولا يعرف الأنبياء ولا اليوم الآخر ولا رب الأرباب ولم يرزق بولد إلا في كبره وأخبره النجمون بأنه يطول عمره وينال ملكا وسلطانا وساطانه لا يشبه ملك الأرضين ولا سلطان الجنانين ، بل ملك السماويين وسلطان الروحانيين فلما تربى ذلك الغلام وترعرع أفرد له أبوه منزلا وبني له قصرا أسكنه فيه ووكل به الحفظة وشحنه بالخدم ومنع أن يصل إليه أحد من العامة ، فلما نشأ الغلام وترعرع رزق من القهم والدكاه مالم يرزق أحد غيره من أهل بلده ، ثم علم آداب أبناء الملوك من القراءة والكتابة والشعر والفصاحة والنحو واللغة والحساب والنجوم والهندسة وما يليق بأولاد الملوك من العلوم والآداب ، وكان صافي النفس حى القلب ، كثير التفكير فى ملكوت السماء وأمر الصانع وكيفية المبدأ وأمر المعاد وأحوال القرون الذين مضوا وانقضوا ، أتى إلى ماذا صاروا وإلى أين ذهبوا حتى منعتة الفكرة عن الأكل والنوم والتمتع بلذات النعيم فى الدنيا وشهواتها فأشهر ليله وأطال نهاره ونمى أن يجد أحدا يسأله عما فى نفسه ويذاكره بما فى قلبه فلم يجد أحدا حتى فشا حديثه فى الناس وكثر الثناء الجميل عليه ، وانتشر ذكره فى الآفاق ، فسمع خبره حكيم من حكماء بلاد (سرنديب) فطمع فى رشده ورجا أن يكون هاديا رشيدا وفيلسوفًا حكيمًا فقصده نحو بلاده واحتال حتى دخل إليه ففرح به الفقى ، وكان مما جرى بينهما أن قال له [أخبرنى لم يذم الحكماء أمور الدنيا ويترهبون فى نعيمها وهى دارهم التى نشئوا فيها ومسكن آباؤهم الذين ربوهم] . فأجاب لأنها تصغر فى أعينهم إذا شاهدوا أمر ملكوت السماء ويستقلون نعيمها فى جنب ما يعرفون من نعيم أهل الآخرة كما صغر حال ذلك المسكين فى أعين الملك ووزيره قال كيف الفقى كان ذلك ؟ قال الحكيم ذكروا أنه كان ملك من ملوك الهند عظيم الشأن عزيز السلطان واسع المملكة حسن التدبير والسياسة عادل السيرة فى الرعية ، وكان مع ذلك يعبد الأصنام تقليدا . يقرب لها القربان ويعظم شأنها ويحسن إلى أهلها على عادة جارية قد اعتادها من الحدائث والصبان غير فسر وروية فى شأنها وكان له وزير خبير عارف بصير قد عرف ملكوت السماء وبناء الملائكة الأعلى وأمر المعاد والمبدأ وكيفية الوحي للأنبياء عليهم السلام وعلل سنن الديانات ومرامى رموزات النواميس وأسباب أحكام الشرائع وما الغرض الأقصى منها ؟ وما حقيقة معانيها وخفيات أسرارها ودقائق إشاراتنا وما قصد واضعها وما النفع العاجل منها ؟ وما المطلب والغزى فى الأجل منها . ثم إن ذلك الوزير مكث دهرًا طويلًا يطلب الفرصة لحطابه إلى أن انفق أن قال له الملك ذات ليلة بعد ما فرغ من النظر فى أمر الرعية وتدبير السياسة [هل لك أن تخرج الليلة متنكرين لتعرف حال المدينة وتنجس أحوال الرعية ، وتنظر إلى آثار المطر وكيفية حال البلاد ومصالح العباد فخرجا بطوفان حول المدينة متنكرين فبينما هما كذلك إذ هما بضوء من بعيد فامتد نحوه حتى دنيا منه فإذا هما بمنزلة شبه رابية عظيمة عليها جيف مرمية وسماد طرية منتنة الرائحة وإذا فى أسفله نفة شبه المغارة وإذا فى أقصى داخلها رجل قاعد مشوه الخلق على دكة قد أصلحها من بين سماد ورماد تلك المنزلة وقد فرش تحته من خرق تلك المنزلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقعة وفى رجليه تبيان (١) وعلى رأسه شملة مثل ذلك وإذا بخدائنه امرأة تشبهه فى الخلق والنشوة وعليها كسوات شبه درع وحمار ومقنعة مثل ما عليه من خرق تلك المنزلة وإذا بين يديها سراج من خرق فوق آجرة شبه منارة وبجانبه جرة مكسورة فيها دردى كالحل وقد مزجه بيسير من ماء وإلى جنبه سلة خوص فيها ناقت كرفس وكراث ويبد كل واحد منهما مشربة مكسورة يغترفان من تلك الجرة ويشربانها وإذا على عنقه قصبه قد مد عليها خيطا شبه قوس النذاف

(١) التبان كرمات سروال صغير يستر العورة .

وهو ينقر عليها بقضيب في يده ويغني بأبيات غير موزونة خارجة من الإيقاع وإذا به يذكر في تلك الأبيات حسن تلك المرأة ويصف جمالها وشدة عشقه لها وإفراط محبته إياها وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة قد مدت عليها قطعة جلد غير مدبوغ جانفة منقنة الرائحة شبه الدف وهي تنقر إذا غنى هو وترقص وتثنى بين يديه وإذا شرب كل واحد منهما سار صاحبه وحياء بشفقة من ذلك السكران وهو يسميها كديانوية سيدة النساء ويشرب ويسر كأنه يوسف الصديق وتسميه (شاهنشاه) ملك السلوك وهو يسميها كديانوية سيدة النساء ويشرب ويسر بها ويثنى عليها ويصفها بالحسن والجمال ما يقصر وصف الحور العين في جنب ذلك وإذا شربا سألا الله ألا يعدمهما ما هما فيه ولا يغير ما بهما من نعمة وأن يبقيهما على تلك الحال أبدا ما بقي الدهر . فلما أبصر الملك والوزير ما هما فيه من اللذة والسرور والفرح طال وقوفهما متعجبين من حال ذنبك المسكينين ثم قال عند ذلك الملك للوزير ما أظن أني في طول حياتي وعز سلطاني ونعيم ملكي وأيام شبابي ومجالس الهوى مع تمكني من شهوتي بلغ مني الفرح واللذة والسرور ما يصف هذان السكيتان الحقيران الوضران من حالهما ومع هذا كله أظن أنه لا يفوتهما هذه الحال كل ليلة إن أرادا لأنه لا يعرض لها شيء من العوائق التي تعرض لنا من الأشغال المانعة عن فراغ مجلس اللذة واللهو مثل خروج الخوارج في أطراف المملكة واضطراب النواحي وشغب الجند وطلبهم الأرزاق وما شاكل ذلك .

ولكني أظن أنه لو كان هذان السكيتان دخلا منازلنا وألبسا ثيابنا وأبصرا مجالسنا وذاقا من طعامنا وعانينا أحوال ملكنا وشاهدا عز سلطانتنا وعرفا لذة نعيمنا مرة واحدة بمقدار ساعة ثم ردا إلى حالهما لما تمنينا بالعيش بعد ذلك ولا وجدا لهذه الحال النكرة التي هما فيها لذة أبدا وصغر في أعينهما ما هما فيه من اللذة والفرح والسرور ، فلما فرغ الملك من هذا الخطاب وسمع الوزير قول الملك قال الوزير للملك أخاف أيها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عز سلطانتنا ونعيم ملكنا ولذبة شهواتنا وسرورنا بأحوالنا وفرحنا بما حولنا مغرورين كغرور هذين السكيتين بما هما فيه ونحن محقرين وجميع أحوالنا في أعين قوم آخرين كاحتقار هذين السكيتين بالنسبة لأحوالنا ، فلما سمع الملك قول الوزير استكبره واستعظمه ، فقال له وهل تعلم في الأرض اليوم مملكة أوسع من مملكتنا أو سلطاننا أعز من سلطاننا أو بلدنا أكثر نعمة من بلدنا أو مروءة أحسن من مروءتنا ، قال له الوزير لا ، قال الملك فمن هؤلاء القوم الذين زعمت أنه يصغر حالنا في أعينهم ويستحقرون أمرنا قال قوم يقال لهم النساك فقال الملك أين بلدهم ومن أي ناس هم قال من قبائل شتى متفرقين في المدن وفي الآفاق والبلاد يجمعهم دين واحد ومذهب واحد ورأي واحد قال صف لي مذهبهم وحالهم قال هم أمناء الله في خلقه وخلفاء أنبيائه وأئمة لعباده وليس في الناس منهم إلا نفر يسير لأنهم في الأنام كالملح في الطعام ، بسؤالهم ينزل الله القطر من السماء والبركات في الأرض وبدعائهم يرفع الله عن العباد القحط والغلاء والوباء ومنهم حفاظ كتب الله وعلماء تأويلها فقال الملك ومن أنبياء الله فقال الوزير هم طائفة من بني آدم اصطفاهم من عباده وقربهم وناجاهم وكشف لهم عن مكنون أسرار غيبه وجعلهم أمناء وحيه وسفراء بينه وبين خلقه أرسلهم من عالم الأرواح الذي في ملكوت السماء إلى عالم السكون والفساد في الأرض وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده إلى جواره في الجنة التي كان أبوهم آدم فيها ، فقال الملك وما آراء هؤلاء الأنبياء قال آراؤهم يعرفها أتباعهم وأفضل أتباعهم فتيان أذكياهم لهم نفوس صافية وقلوب واعية بريثون عن الآراء الفاسدة غير معتادين للعادات الرديئة أو مشايخ مهذبون في العلوم الرياضية ، مجربون الأمور السياسية ، محبون للعلوم الإلهية ، غير متعصبين في المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة ، أو نفوس ملكية لها هم عالية في طلب مراتب الملائكة والأمور السماوية والمعقولات الروحانية والوجود المحض والبقاء الدائم والدوام السرمدي . قال له أخبرني ماذا يصفون الحكماء من أصناف الخلائق هناك

قال يقولون لا يعلم عددهم إلا الله كما لا يحصى عدد الخلائق الذين هم في الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطيور والمهوام والحشرات والدواب وحيوان الماء والبحار أجمع وأصناف بني آدم من أجناس الأمم من: الترك والحبش والزيج والنوبة والعرب والعجم والفرس والروم والهند والسند والصين والنبط والزلطوالأكرادويأجوج ومأجوج والسيسان وأمم أخرى غير معروفة عند كثير من الناس وكل هؤلاء مختلفو الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب من أهل المدن والقرى والسودات والسواحل والجزائر والبراري نحو من سبعة عشر ألف مدينة تملكها نحو من ألف ملك . هذا في الربع المسكون من الأرض . على أن الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبراري والأنهار والعميران والحراب ما هي في فسحة سعة الهواء إلا كحلقة ملقاة في بركة صحراء وفضل سعة كل واحد من الأفلاك التسعة على الهواء كفضل البرية على تلك الحلقة ، أفترى أيها الملك أن الخالق تعالى ترك تلك الآفاق الواسعة مع شرف جوهرها وشرف جوهر تلك الأجرام وطيب نسيم تلك الأمكنة فارغة خالية لم يجعل فيها أهلا وسكانا وخلائق تليق بها وهكذا أنه لم يترك البحار الأجاج الأموات حتى خلق في قرارها الزخيرة أجناسا من الحيوانات وأنواعا من السمك والحيتان وهكذا جوهر الهواء الرقيق لم يترك فارغا حتى خلق فيه أجناسا من الطيور كما يسبح السمك في الماء وكذلك هذه البراري اليابسة الجافة لم يتركها خاوية حتى جعل فيها أجناسا من الوحوش والسباع والأنعام وكذلك الآجام والآكام ورءوس الجبال وبطون الأودية وشطوط الأنهار حتى خلق في لب النبات وفي ثمر الشجر وفي جوف الحب حيوانات مختلفة الصور والأشكال . انتهى ملخصا من كتاب « إخوان الصفاء » والحمد لله رب العالمين .

(آثار الحكمة في الأمم الحاضرة)

لقد تبنت لك أيها الذكي آثار الحكمة في الأمم القديمة ورأيت روضانضيرا وعلما غزيرا نبع من قلوب اصطفاه الله وقال لنا « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب » وقال « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » .

حيا الله الحكمة والعلم ، أسبغ الله النعم على الناس ظاهرة وباطنة وملا الأصفاع في زماننا بالحكمة فهل في شرعة الإنصاف أن يكون المسلمون أول أمة نبغت في أن تحصن من مهاجمة جنود الحكمة بلادها لتعمر أحياءها ونصرتها شياطين الإنس والجن على انهزام تلك الجيوش الجرارة التي أرسلها الله في كل مكان . المسلمون وحدهم هم الذين قهروا الحكمة وصدوها عنهم . نعم قبلوا أن يقرءوا ألقاظ حكمة لقمان ولكنهم امتنعوا امتناعا عن تناول معناها . أفلا ترى أيها الذكي والأسى بلاء الأئمة أن هذه الأمم الاسلامية فعلت ما تفعله حشرة (الأرضية) التي سيأتى شرحها في (سورة سبأ) إذ تذهب جنودها إلى الأشجار العظيمة الباسقة وسقوف المنازل وشبابيكها فتأكل ما في داخلها ولا يبقى إلا ظواهرها تدليسا على أهل المنازل والحقول حتى إذا جلس الإنسان إلى جانب تلك الأشجار مثلا رآها بمجرد اللامسة تنهار انهارا لأنها من داخلها خاوية .

هذا والله مثل أضره للأمم الإسلام من حيث الحكمة . البلاد جاهلة خالية من الحكمة ولكن الناس يقرءون القرآن وقرءون سورة لقمان أي يقرءون ألقاظها ولكنهم لا يعيرون معانيها التفاننا وبالمعاني والعمل تكون الحياة ولا آخرة إلا بدنيا وأين دنيانا ؟ ترك المسلمون علوم الحكمة كلها واكتفوا بالنغى بألقاظها في القرآن فأحكموا الظواهر وخلت البواطن . اللهم إليك المشتكى . أنا من الأمة المصرية التي تبلغ الآن ما ينوف عن (١٤) مليوناً كلهم لم يعملوا ولم يتعلم في بلادى إلا أمة القبط الذين لم يبلغوا مليوناً

ويكادون يكونون جميعا متعلمين رجالا ونساء ، فأما المسلمون فقد يمر الإنسان في بلاد كثيرة فلا يجد فيها من يحسن الكتابة والقراءة اللهم إلا قارى القرآن بلا عقل ولا فهم . لم يتعلم من المسلمين اليوم أكثر من بضعة أفراد في المائة والبقية جهلاء مع اشتهار مصر الآن بأن التعليم فيها راق . وهذه هي الحقيقة المؤلمة . فإذا كانت نسبة المتعلمين فيها اليوم عدالأصابع في المائة فهذه أكثرها أبناء الأقباط الذين هم الأقلون . أما الأكترون فإتهم جاهلون .

كل ذلك بسبب ما رسخ في العقول من آراء صغار الشيوخ الجهلاء وبعض رجال الصوفية الذين اتخذوا التصوف حرفة يعيشون بها . هذه هي الأمة الإسلامية الآن .

أيها التركي . لانعجب إذا أصمعتك ماجاء في جرائدنا المصرية عند كتابة هذا الموضوع في حوادث فلسطين فهل تصدق أن أمة من أمم أوروبا تأتي باليهود المشتتين في الأرض وتجعل لهم وطنا قوميا في فلسطين مسكن العرب إلا إذا كان أبناء العرب جهالا ، فهم في نجد والحجاز واليمن ومصر وشمال أفريقيا والسودان لارابطة تربطهم ببعضهم ولا بأمم الإسلام الأخرى . ذلك كله من عدم الحكمة التي قال الله إنها خير كثير ومن عدم العلم الذي لم يسو الله بين النصف به وغير النصف به بل أمرنيبه صلى الله عليه وسلم أن يقول لنا ذلك لنكون على بينة . حقا أسكن الإنجليز اليهود في بلاد فلسطين . لماذا ؟ لأن أمة العرب لاسلاح عندهم كسلاح أوروبا وأوروبا متحدة علينا . لماذا لأننا جهلاء . فاقرا ما سأكتبه هنا الآن ولا تعجب لأن الله يقول « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وإياك أن تظن أني أكتب هذا وأنا يائس كلا . والله لو تطرف اليأس لقلبي ما كتبت حرفا ولكني أقول إن هذا التفسير وأمثال هذا التفسير وأحوالا أخرى سترفع هذه الأمة إلى العلامة مرة أخرى ولكنها ستكون في المستقبل أعلى وأعلى وأدوم . فهالك ماجدا في جريدة الأهرام في يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

حوادث فلسطين

(التحقيق في حوادث فلسطين والحقائق التي ظهرت للآن)

أثبت التحقيق الذي تقوم به الحكومة في فلسطين إلى الآن ما يأتي ملخصا عن تقرير رفع إلى حكومة فلسطين:

(١) إن الذين قتلوا وجرحوا من العرب في القدس أصيبوا برصاص بنديقيات ومسدسات وشظايا قنابل يدوية .

(٢) إن اليهود وحدهم كانوا يستعملون القذائف اليدوية .

(٣) إن أول امرأة قتلت هي امرأة على مطاوى ، وأول طفل قتل هو طفلها ، وأول عائلة هوجمت منفردة هي هذه العائلة .

(٤) إن حوادث الخليل لم تبدأ إلا بعد قتل العائلة العربية المنفردة في القدس وذبوع خبر الفطائح التي اقترفت معها وأن تقرير الأطباء البريطانيين الرسمي أثبت أن قتلى اليهود في الخليل لم يمثل بهم .

(حول رجال التحقيق)

راجع الجمعية الإسلامية بحيفا جماعة من عربان الحمدون وأبلغوها أن البوليس في (زمارين) قد دام بيتي محمد المحمود وحسن السليم من عرب الحمدون أيضا للتفتيش عن الأسلحة ولما لم يجد شيئا ألقى القبض على الرجلين وزجهما في غياهب السجون وأخذ يسيهما كثيرا من أنواع العذاب ليدفعهما إلى الإقرار بأن

لديهما الأسلحة التي يزعم وجودها . وللحال أوفدت الجمعية الإسلامية من قبلها الدكتور رشدي افندي التميمي لمعاينة الرجلين فأبى بوليس زمارين السماح له بذلك لولا أن تصادف وجود قومندان البوليس تيودور عبود هناك فأذن له فأجرى معاينة الرجلين بحضوره فإذا به يكتشف آثار فظيعة من الضرب والتعذيب تقشع منها الأبدان فوضع بذلك تقريرين مفصلين ختمهما بقوله « إن الرجلين سبقيان معطلين مدة عشرة أيام يلزم بعدها معاينتهما ثانية لينظر في حالة العوارض المرضية المحتمل حدوثها » .

وكتب أحد سجناء الخليل الوطنيين يصف الآلام المبرحة التي يقاسمها ومن معه والعاملة السيئة التي يلاقونها من سجانهم قال « مضى لي ١٦ يوما وأنا موقوف لسبب لأدريه ، وإنما بلغني أن أحدهم قد وشى بي بأنني كنت أحض الأهلين على قتل (المستر كفرانا) ضابط البوليس في أثناء الاضطرابات ؛ وقد بقيت الثلاثة الأيام الأولى بدون طعام وشراب حتى كدت أهلك جوعا وعطشا لولا أن قدم لي مأمور السجن في اليوم الثالث قطعة من الخبز الجاف وبعد إلحاح شديد جاء إلى طبيب مع ضابط وطني لمعاينتي ، فبعد أن نظر آثار الضرب المبرح والتعذيب القاسي ظاهرة على جسدي لم يسعه إلا أن يحول وجهه عني متمتا قائلا « لا حول ولا قوة إلا بالله » وكذلك اقشع وجه الضابط من هول ما رأى » .

أما باقي السجناء ويبلغ عددهم المائتين فلا تسألوا عن حالتهم اللؤمة فقد حشروا في غرف ضيقة وهم ينامون أكداسا وكلهم جائع ويلاقون صنوفا من العذاب اله . ويقال إن حالة اللوقوفين العرب في السجون الأخرى لاتقل عن حالة مسجون الخليل وزمارين .

(عطف السلطة على اليهود)

طلب نخامة اللندوب السامى من وزارة المستعمرات أن تصادق على صرف عشرة آلاف جنيه لمنسكوبى اليهود ، وقد وافقت الوزارة على هذا الطلب وصرف منه بصورة مستعجلة مبلغ ألفي جنيه كما أن نخامة اللندوب السامى قد صادق على قرار إعفاء بلدية (تل أبيب) اليهودية من مبلغ (٧٥) ألف جنيه كان دينها عليها لخزينة البلاد كما أنه عمم على كافة دوائر الحكومة نشرة جاء فيها أنه يرغب في أن تساعد هذه الدوائر المؤسسات والسلطات اليهودية على عمل الإسعاف والبناء الجديد الذي أصبح ضروريا بعد الاضطرابات الأخيرة . هذا عدا أن هناك نحو (٩) آلاف يهودى في القدس وأكثر من ألف يهودى في حيفا من سكان للمستعمرات الذين تعتبرهم الحكومة لاجئين وهم في الحقيقة نجدة جاءت لمقاومة الوطنيين . وهناك أيضا مطالب بالتعويضات عن الخسائر قدمها اليهود وينظر فيها المستر ابرامسون الصهيونى القمح . وهناك دعاوى واتهامات من اليهود على العرب ينظر فيها المستر (بيتويش) رئيس النيابات العامة والشرع الفلسطينى الصهيونى .

هذا ومن حوادث عطف الحكومة على اليهود أن مفاوضات جرت بين الجمعية الصهيونية والحكومة قرر نخامة اللندوب السامى بعدها أن ترسل قوة إلى غزة مع منسكوبى غزة اليهود الذين لجئوا إلى (تل أبيب) في الاضطرابات الأخيرة ليتفقدوا بيوتهم ومحلاتهم ويحضر ما فيها إلى (تل أبيب) حيث قرروا أن تكون سكناتهم نهائيا . ولذلك روع الغزيون عند ما رأوا رجال البوليس يرابطون في بعض شوارع البلد يحملون العصى الطويلة ثم فهموا السر عند ما رأوا القطار يصل مقلا عددا من اليهود يحرسهم الجند الانجليز فيذهبون إلى بيوتهم ويأخذون ما فيها ويعودون من حيث أتوا .

(معاملة العرب في فلسطين واحتجاج اللجنة التنفيذية في القاهرة)

تلقت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى تقارير مطولة من جميع أنحاء (فلسطين) تثبت بالوثائق والأرقام أن السلطة تقبض على العرب زرافات زرافات مستندة على أقوال الصهيونيين حتى غصت السجون

بالأبرياء وأنها تعامل المعتقلين بقسوة لامثيل لها وتهاجم القرى الآمنة وتسوق سكانها إلى السجون بلا مبرر حتى استولى الرعب على أهالي البلاد وسادها حكم الإرهاب من أدناها إلى أقصاها مما اضطر كثيرين من سكان البلاد إلى اللجوء إلى الجبال . وعلى أثر ورود هذه التقارير أبرقت اللجنة التنفيذية إلى المندوب السامي في فلسطين الاحتجاج التالي .

« غرامة المندوب السامي بالقدس . كانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني تأمل في غفائتكم أن تظهروا من العدل في معاملة العرب ما يدعو التأثير السيء الذي أحدثته منشوركم الصادر على عجل في أول سبتمبر ، ولكن الأبناء التي ترد إلينا بلا انقطاع من جميع أنحاء فلسطين تدل على أن هذا الأمل لم يحقق لسوء الحظ . فاعتقال العرب زرافات لمجرد اقتراءات خصومهم وقبل كل تحقيق ، والقسوة التي يعامل بها المعتقلون في معتقلاتهم والظلم الواقع على قراهم الآمنة والرعب الذي استولى على نفوس الأبرياء من جراء سلوك البوليس وتوالي اعتداءات الصهيونيين . كل ذلك كنا نرجو من غفائتكم تلافيه مراعاة للعدل وحفظا لسمعة بريطانيا في الشرق ، فاللجنة التنفيذية تحتاج بشدة على هذه الأعمال المخالفة للعدل والقانون وتلفت نظركم بالحاح إليها آملة من عدالتكم الإسراع في وضع حد لها . »

السكرتير العام

ولما كتبت هذا حضر صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير فقال « هذا حادث يبكي ويحزن ويجعل في القلب بأسا . فقلت أين أنت من قوله تعالى « ولا تأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » هذه أمراض تنتاب الأمم ، ولولا هذه الأمراض لم تستيقظ الأمم ، نحن نجوع وجوعنا ضربة لازب لصحتنا ، الجوع ألم ولكن هذا الألم نعمة وعدم هذا الألم نعمة ، الأمة كلها جسم واحد وإصابة فرد أو أفراد منها إصابة لأعضائها وبهذه الإصابة يكون الألم وهو كالألم الجوع ، فلا سييل لرق الأمة واستيقاظها إلا بالألم تحس به الأمة في أفرادها كما يحس الإنسان بألم في أعضائه . إذن هذا الألم بالتعمد على فلسطين نعمة لانقمة ، ولن يكون نعمة إلا إذا أدرك المسلمون الخطر وأخذوا يتعلمون الحكمة والعلوم وإلا كان نعمة ، وهذا إن شاء الله لا يكون كما قدمناه . ولقد جعل الله الجوع لسان صدق يخبرنا بالحاجة إلى الطعام فنحن نأكل انقاء ألم الجوع واستلنا إذا بالطعام ومتى أخذنا حاجتنا سمعنا مناديا ينادينا من الداخل أن اتركوا الطعام وهو المسمى بالشبع ، هذا هو الجوع اللازم للإنسان ولكل حيوان عند افتقار الجسم لما يقويه ، وهناك ألم أعظم للمحافظة على الجسم كله وهو المرض الكثير الأنواع يظنه الناس نعمة ولكنه نعمة ، إنه كالجوع فنسبة آلام المرض إلى تعاطي الدواء كنسبة آلام الجوع إلى تعاطي الغذاء ، ولو أن الناس لم يجوعوا لم يأكلوا أو لم يتألموا من المرض لم يتداووا ، فالألمان نذيران وماعليهما إلا البلاغ ، ومن اطعم على طبقات اليد وهي (١٢) في (سورة المؤمنين) مرسومة وقرأ أن تحت طبقة الجلد طبقة الأعصاب (وما الأعصاب إلا جنود الجسم) أدرك السر المصون وعرف أنه لولا هؤلاء الجنود لمات أكثر الحيوان بالموارض ، فهذا النذير هو العاصم من تمام الالتلاف ، ثم إن الجوع كالشرطة لحفظ الجسم من داخله ، وألم الأمراض الذي تعمله الأعصاب وتوصله إلى محل الإدراك من الجسم أشبه بالجنود المحاربين ليدافعوا عن الدولة ، ثم إن الأمة كالجسم والأفراد كالأعضاء والأخبار المنشورة في الجرائد مثلا كالإحساس الساري في الأعصاب إلى مركز الإحساس في المخ ، فألم العرب وبقية المسلمين اليوم يألمون لما أصاب طائفة منهم بجهة فلسطين ، فإذا فعلوا ما فعل الجائع من الأكل والمريض من التداوي فقد أفلحوا وهم فائزون . ومثل الجوع والمرض والغيرة والحسد والقبطة وأمثالها كالعداوة فهذه كلها خلقت للمسايرة في الحياة .

فقال صاحبي أراك اليوم تلهج بالحكمة كثيرا فهل للحكمة دخل في مثل هذه الحوادث ؟ وأي مناسبة بين

استيطان اليهود ربوع (فلسطين) وبين الحكمة ؟ ققلت الحكمة تقدم لإصلاحها وبيان أنها نظام العلوم كما أن الشمس نظام المجموعة الشمسية ، فمن الشمس تستمد السيارات ومنها الأرض ومنها يكون الليل والنهار فهكذا الفلسفة أو الحكمة كما تقدم عن (بيكون) الفيلسوف إذ جعل العلوم الرياضية والطبيعية مسماة باسم التواريخ وجعل نظام الطبيعة وعلم النفس والأخلاق ونظام الملوك والسياسة وعلم الجمال كلها علم الحكمة وهكذا معرفة صانع العالم الخ فالحكمة تشرف على العلوم وتنظمها . إذن لا بد لها من العلوم والعلوم بها حفظ كيان الأمم . فلو عرف المسلمون العلوم كما عرفها اليهود المشتون النابغون في حوز المال والاقتصاد والعلم والحكمة ما حقرهم الانجليز وأزولوا اليهود بساحاتهم ، ولكن هو الجهل الخيم في ربوع الإسلام قد فتك بهذه الأمم وأطمع فيها الأمم الحكيمة التي سلطها الله علينا لإيقاظنا .

فقال صاحبي . إن اتصال الحكمة التي شرحتها هنا تفسيراً للآية بأحوال الأمم الإسلامية وغيرها ما هو إلا قول مجمل . فلو أنك ذكرت طرفاً مما أبدعت الحكمة في الأمم الآن لكان لها أثر وكان ذلك نورا وبهجة وجمالا . ققلت انظر ما يلي :

﴿ عجائب الضباب في العصر الحاضر . وقدرة الإنسان على الطواف حول الأرض في أقل من شهر

وعجائب « جراف زبلن » وغيرها ﴾

ها أنا ذا أحدثك عن بعض نتائج العلوم الطبيعية في رقي الأمم وغلبها وقد حرمها للمسلمون (انظر ماجاء في تلغراف من برلين في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٩ حين كتابة هذه الأسطر وهذا نصه :

(نتائج تجربة الضباب الصناعي)

[أجريت التجربة الثانية بنشر الضباب الاصطناعي في (ترافيموند) وقد حلت في الجو سبع طائرات لمراقبة فعل الضباب ، ولما بدأت التجربة أطلق ضباب كثيف ، فبعد اثني عشرة دقيقة غطى جوالاً ماكن التي أطلقت فيها حتى اضطرت السيارات إلى الوقوف عن السير لعدم تمسكها من رؤية الطريق ، وظهر للطائرات المراقبة أن هذا الضباب يستر وجه الأرض حتى لو كانت هناك طائرات مهاجمة لما استطاعت أن تصيب هدفاً] اهـ ولئن عجبت مما تقدم ليزيدنك عجباً ما يأتي فقد جاء في مجلة كل شيء مانصه :

﴿ تاريخ التطواف حول العالم ﴾

(من ماجلان إلى أكثر أول رحلة حول العالم تستغرق أكثر من ثلاث سنوات وآخر رحلة تم في بضعة أيام)

بمناسبة رحلة (جراف تسبلن) الأخيرة حول العالم)

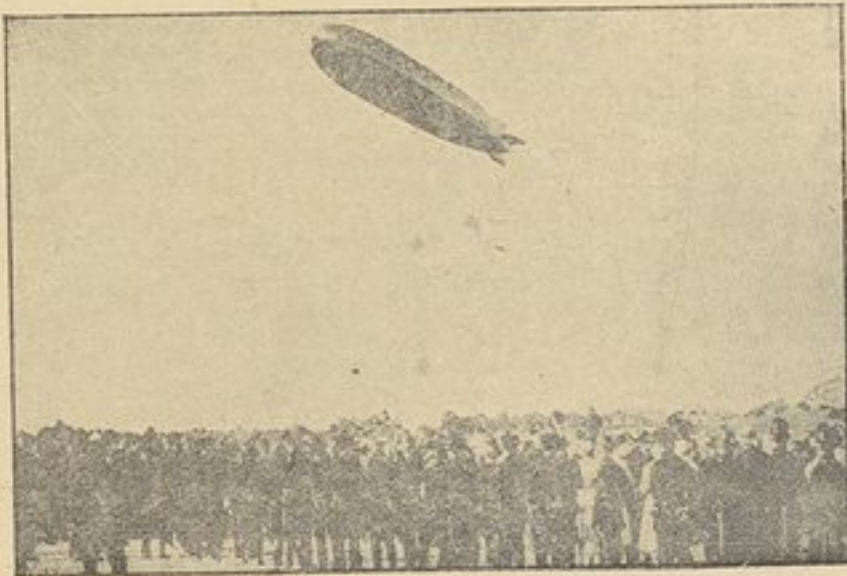
دار البلون الألماني (جراف تسبلن) حول العالم في بضعة أيام وكان يحمل المسافرين من قطر إلى قطر أو من قارة إلى قارة وما زال في مطافه حتى رجع إلى (فردر يكسهافن) البلدة التي خرج منها واتجه نحو الشرق ، وما زال في هذا الاتجاه حتى بلغها ثانياً ، ومثل هذه الرحلة تذكر الإنسان بتلك المحاولات النظرية والعملية التي حاولها كثيرون لإثبات كروية الأرض والدوران حولها بالاتجاه في ناحية واحدة ثم الارتقاء العظيم في السرعة وأول المحاولات العملية في الدوران حول الأرض كانت محاولة (ماجلان) الأسباني الذي خرج من أشبيلية (البناء الإسبانية) فقد غادر (ماجلان) هذه البناء في ١٠ أغسطس سنة ١٥١٩ ومعه خمس سفن بها ٢٣٧ رجلاً ، وما زالت السفن تتجه نحو الغرب حتى بلغت جنوب أمريكا وهناك درت حول الجزء الجنوبي من أمريكا حيث مضيق (ماجلان) الآن ثم اتجهت نحو الغرب حتى بلغت جزر (فيليبين) وهناك قتل (ماجلان) في شجار مع الأهليين ، وكانت الأمراض تفتك بالبجارة ولذلك لم يعد إلى (إشبيلية) سوى سفينة واحدة ولم يبق من البجارة سوى ١٨ رجلاً من (٢٣٧) ولما بلغوا البناء الإسبانية نُزلوا من السفينة

يحملون الشموع وساروا إلى الكنيسة حيث صلوا لله شكرا على نجاحهم . وقد احتاجوا لقضاء ثلاث سنوات وتسعة وعشرين يوما في الدوران حول العالم وبعد نصف قرن تقريبا خرج (السير فرانسيس دريك) الإنجليزي في خمس سفن أيضا وكان رجاله (١٦٨) فاتخذ طريق (ماجلان) الأسباني ودار حول جنوب أمريكا ثم سار في المحيط الهادى إلى أن بلغ (جاوة) ودار حول جنوب (إفريقية) حتى بلغ سيرا (ليون) ثم أتجه نحو الشمال حتى بلغ إنجلترا التي خرج منها وعاد معه من البحارة خمسة أشخاص فقط ، واحتاجت رحلته إلى أقل قليلا من ثلاث سنوات . وألف (جول فرن) قصته المسماة (حول العالم في ثمانين يوما) وفرض أن المسافر يستعمل كل أنواع المراكب من سفن إلى عربات إلى فيلة إلى زلاقات .

وجاء عصر (الطائرات والبالونات) فجعل الناس ينسون البواخر والقطرات وصاروا يعدون الأيام للتطواف حول العالم بدلا من السنين أو الأشهر ، وآخر من استعمل الطائرات والبواخر والقطرات هو (أدوارد ايفانز) ورفيق آخر له طافا حول العالم في (٢٨) يوما و(١٤) ساعة و(٣٦) دقيقة و(٥) ثوان ، وكان متوسط سرعتهما (٣٠) ميلا في الساعة وكان ذلك في سنة ١٩٢٦ ،

وفي سنة ١٩٢٨ طاف (هنرى ميرز) وهو أمريكي حول العالم في (٢٣) يوما و(١٥) ساعة و(٢١) دقيقة و(٣) ثوان ولم يحسب للآن عدد الأيام والساعات التي قطعها البالون تسبلن في تطوافه حول العالم وإنما المفروض الآن أن السبق في المستقبل سيكون للطيار الذي يستعمل البالون فوق المحيطات ويستعمل الطائرات فوق اليابسة ، فالطيارة أسرع من (البالون) ولكنها غير مأمونة مثله في الأسفار الطويلة فوق المحيط الهادى أو المحيط الأطلنطى .

وقد عاد النطاد الألماني (جراف زبلن) إلى (فريدريكسهافن) بعد أن طاف حول العالم وفتح فتحا مبينا في عالم الطيران ، وتراه في الصورة عند وصوله إلى المطار وقد وقفت الجنود صفوا لتمتع الجماهير للتحمسة على النطاد عند هبوطه (انظر شكل ٢١) .



(شكل ٢١) (جراف زبلن)

ثم انظر ما نشر يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٨ م وهذا نصه :

(أعجوبة البحار)

تحت هذا العنوان نشرت جريدة (الإيفن بوست) النيوركية برقية تلقىها من (برلين) ناخضا فيها بلى « ليتصور القارىء عمارات من البوارج الحديثة تتقدم مسرعة إلى الأمام نحو نغر للعدو ثم تنتشر على سطح الماء في صفوف منظمة تاهبا للقتال ولا تلبث أن تصوب نيران مدافعها إلى المدينة فتدمر العمارات بقنابلها تدميرا ثم تنقلب إلى الوراء متراجعة أمام حركة مضادة من بطاريات ساحلية وليتصور فوق هذا تحطم البعض وغرق البعض الآخر من تلكم البوارج ولكن دون أن يقتل أو يفرق إنسان ، ومع هذا فإن بارجة قائد الأسطول تقف على بعد مئات الأميال من البوارج المحاربة وتتلقى أخبار المعركة بواسطة الراديو من طائرات محلة فوق البوارج ثم تبعث إليها بتعليمات لإدارة حركتها بواسطة الراديو كذلك وبدون أن تغامر بحيات نوتى أو ضابط من القوى المهاجمة .

إن ما تقدم بسطه هو الحقيقة لما يمكن أن يحدث في الحروب البحرية المقبلة وهذا بناء على الاختراع المدهش الذى أسفرت التجربة عن نجاحه فإن الطراة (زهرنجن) الألمانية القديمة وحولها أحد عشر ألف طن قد ركبت فيها أجهزة كهربائية سيرتها بسرعة كبيرة فى طول البحر الشمالى وعرضه دون أن يكون فيها أى إنسان . وقد عادت هذه الطراة إلى الرفأ الذى غادرته فى الموعد المحدد لعودتها دون أن تضل الطريق ولم يطرأ عليها أى خلل أثناء رحلتها . ويؤكد الخبراء الفتيون أن الاختراع الألمانى الجديد سيؤدى إلى إحداث انقلاب عظيم فى نظام الحروب البحرية المقبلة . وقد أجمعوا على أن الطراة (زهرنجن) هى اليوم أعجوبة البحار لما تشتمل عليه من الآلات الكهربائية الحديثة التى تسيروها حيث تشاء وهذه الآلات والأجهزة مركبة فى غرف المواقد وهى بمثابة اليد التى تحركها والسواعد التى تديرها نحو الاتجاهات المطلوبة بواسطة التعليمات التى تتلقاها من سفينة أخرى أو من طائرة محلفة فوقها على مسافات فى الجوبعيدة ، وهكذا تكون الأساطين البحرية القديمة التى تشير إلى وجود سفن بدون (نوتية) وسيروها بدون قيادة قد تمثلت فعلا للعيان عندما قامت الطراة (زهرنجن) برحلتها الأولى فى البحر الشمالى وبمناورة حربية قبالة ساحل (هيلوجلندا) أما النفقات لتجهيز هذه الطراة بالآلات الحديثة فبلغت (٥٠٠) ألف دولار . وأذاعت حكومة ألمانيا أن الغرض من عملها هذا هو أن تكون (زهرنجن) هدفا لتجربينات الأسطول الألمانى . وفى بيان لوزارة البحرية الألمانية أن النتائج التى أظهرت من التجربة الأنفة الذكر تفوق كثيرا ما كانت تنتظره لأنها لم تدل على تسيير البوارج الحربية والبواخر التجارية بدون نوتية وقائد فقط . بل دلت على إمكان إطلاق المدافع من البوارج بمنتهى الدقة فى إصابة المرمى بواسطة الأجهزة الكهربائية . ويؤخذ من النشرة التى أذاعتها وزارة البحرية الألمانية بشأن التجربة للطراة (زهرنجن) أنه بعد أن ركبت فيها الأجهزة الكهربائية الحديثة ركب ظهرها جميع ضباطها ونوتيتها وعدد كبير من الضباط البحريين الذين حضروا لمشاهدة التجربة ثم أبحرت الطراة وبخانتها السفينة (بليتز) التى رافقتها على مسافة (٥٠) ميلا ، وعندما وصلت إلى عرض البحر انتقل من كان على ظهر الطراة (زهرنجن) إلى السفينة (بليتز) وإذ ذلك بدت (زهرنجن) للعيان كأنها سفينة مهجورة لا حياة فيها ثم بدأت التجربة بأن ضغط قائد السفينة (بليتز) على زر فى جهاز خاص داخل سفينته وسرعان ما تصاعد الدخان من مداخل (زهرنجن) وأخذت تتحرك ثم زادت سرعتها فى بضع دقائق إلى مسافة (١٠) أميال فى الساعة ثم ضغط القائد على زر آخر فتحولت (زهرنجن) عن وجهتها وأخذت تدور على محورها ثم وقفت وتراجعت إلى الوراء ثم تقدمت إلى الأمام فاليمين فالشمال حسب الاشارات التى

كانت تتلقاها من قائد السفينة (بليز) وحدث أثناء هذه الحركات المختلفة أن تصاعد من جوانبها جفأة دخان كثيف أخفاها عن الأبصار ثم تصاعد من ظهرها سهم نارى رمزاً إلى إطلاق مدافعها ، وبالإجمال أن التجربة استغرقت مدة ساعتين والطرادة (زهرنجن) قائمة بمناورات تشتمل على جميع الحركات الحربية البحرية بمنتهى الدقة والنظام . أما التفاصيل الفنية الخاصة بالأجهزة الكهربائية الحديثة فلم تزل سرّاً من الأسرار التي تحرس ألمانيا على كتابتها كل الحرص اه

وقد جاء في جريدة الأهرام يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٩ م ما نصه :

﴿ رحلة النطاد تسبلن إلى القطب الشمالى ﴾

لم يصل (النطاد تسبلن) من رحلته حول الكرة الأرضية حتى اتجهت الأنظار إلى الرحلة التي عزم على القيام بها إلى القطب الشمالى في شهر إبريل القادم ، وسيبدأ الدكتور (أ كتر) بعد عودته إلى برلين في التأهب لهذه الرحلة وإعداد معداتها ، ولا ينتظر أن يصبح فيها إلا عدد قليل من الذين يكون وجودهم في النطاد مفيداً .

أما شركة (هرست) التي تكفلت بالقسم الأكبر من نفقات النطاد فقد قررت انتداب اثنين من مراسليها ولا يكون للصحف الأخرى كلها غير مندوب واحد . وسيسافر النطاد من ترونسو (نروج) متجهاً نحو الجانب الأمريكى من القطب إلى أن يصل إلى الاسكا حيث يعد له مكاناً للنزول ، وستكون بلدة فريانكس في (الاسكا) القاعدة الحقيقية لرحلة النطاد فيقيم فيها بضعة أيام ثم يحلق فوق القطب فإذا وجد مكاناً يصلح لأن ينزل فيه على الجليد فعل ذلك لتتمكين العلماء من القيام بأبحاث مفيدة . ويعود للنطاد بعد طوافه حول القطب الشمالى إلى (فريانكس) ثم يتجه نحو الجانب الأسيوى . وسيقوم بحركة التفاف تنتهى في برديسو وتبلغ مسافة هذه الرحلة (١٨) ألف كيلو متراً وتستغرق من (٢٠) إلى (٢٥) يوماً . وسيقل النطاد معه علاوة على المؤن اللازمة وأدوات الراديو والملاحة أجهزة كاملة تمكن كلا من ركابه من الحياة في القطب كالمربيات الصغيرة والكلاب والأسلحة وأدوات نقالة للتغراف اللاسلكى وماشا كل ذلك مما يحتاج اليه الركاب إذا طرأ عطل على النطاد . وستكون الغاية من هذه الرحلة درس الحالة الجوية في الجهات النقطية نوطشة لإنشاء خط جوى يصل أمريكا بأوروبا وآسيا بطريق القطب الشمالى . وسيأسس البعثة التي تسمى بهذه الأبحاث الأستاذ نالث يساعده الأستاذ برسون والكابتن برونس . ويعتقد الدكتور (ا كتر) أن النزول على الأرض بجوار القطب ممكن بشرط ألا تكون الرياح شديدة اه .

هذا ماوصل إليه العلم الآن من استخدام الضباب وجعله حصوناً بدل الحصون الحجرية ومن الطواف حول الأرض والسير فوق القطب بالطيارات . أفليس لهؤلاء القوم الحق أن ينظروا للأمم الجاهلة نظراً إلى أمر ضئيل لا يؤيد له . للنحل حمة وللزنبور حمة أشد وللعمرز والغزال قرنان وللأسد صولة وأنياه المحسدة وأظفار لم تعلم والإنسان سلاحه يستنتجه من الحكمة التي حض الله عليها . طمع العلماء في أوروبا بعد ما تبينت لهم هذه العجائب ورأوا أن المستقبل غير الحاضر وأن العلم إذا سار على هذا النوال أخرج إنما لم تعلم بها الدهور . فانظر ماجاء في بعض المجالات العلمية التي تخرجها دائرة (مجلة الهلال) وهذا نصها :

﴿ قوى الطبيعة لا تنفذ ﴾

(القوى التي في أشعة الشمس ، وفي باطن الأرض ، وفي المياه المنحدرة)

كما انقضى عام شعر العالم بحاجته إلى قوى جديدة يستخدمها في إدارة آلاته وفي إيجاد الحرارة والنور ولقد ثبت أن الفحم والزيت لا يكفيان كثيرا ولا طاقة لهما على احتمال طلباتنا المتعددة . وقوى الطبيعة لا تقتصر على الفحم والزيت فقط إذ هناك أيضا المياه المنحدرة والرياح المتناوحة ، وقد عرف أجدادنا قيعتها فاستخدموها في إدارة الطواحين وتسيير السفن ، ولكن هناك قسوى أخرى في بعض عناصر لم تستثمر كما يجب فرض (الراديو) قوة إلا أن الناس يجهلون وقد يحلون لغزها بعد مضي عدة قرون . وأشعة الشمس قوة لا يستهان بها ، ونحن إذا وقفنا إلى تشخيرها ربمنا كثيرا واستغينا بها عن قوى أخرى مهددة بالزوال وباطن الأرض يضطرب بالقوى الهائلة ، فهل من سبيل إلى إخراجها والتمتع بخيراتها وبركاتها ، ولقد وقف بعض العلماء جهودهم على درس مسألة الحرارة الأرضية السكامة فتوصلوا إلى نتائج قد يظهر أثرها في المستقبل القريب ، ولا ريب أن مجال العمل في ذلك المضمار واسع أمام دولة إيطاليا ؛ فأرضها نارية وبراكينها أصدق برهان على ذلك . وفي الواقع أن إيطاليا استخدمت بعض القوى الطبيعية فظفرت بما لم تظفر به دولة سواها .

وفي مقاطعة (كوسكانيا) بين مدينتي (نيرا) و (سينا) في الإقليم الواقع حول (فولتيرا) تنبعث اليبون بالماء الحار الملتهب . وماء تلك اليبون خصائص عظيمة فاستعان الطليان بالبخار البركاني الذي استخرجوه من بعض تقويع عميقة مجاورة على تبخير الماء وبذلك أخرجوا منه حمض اليورسيك ، وكانوا فيما مضى يستخدمون البخار البركاني في إيجاد الحرارة فقط . أما الآن فحركوا به الدينامو واستخرجوا الكهرباء فكان البراكين وما يتصل بها تقوم الآن بمهمة الفحم أو الزيت وذلك تقدم عظيم في عالم الصناعة . ولعل الناس في الأزمان القادمة لا يفرقون كثيرا إذا نصب معين الفحم أو الزيت من بين أيديهم إذ سيجدون في الحرارة الأرضية أو في أشعة الشمس نعم العوض اه .

﴿ ماذا سيحدث في عام ٢٤٢٨ ؟ ﴾

(الكيمياء تخلق رجالا ونساء)

قال المستر (ه. ت. ف. رودز) السكرتير العمومي لجمعية الكيمائيين البريطانيين ما يأتي :

إن كيميائي عام ٢٤٢٨ سوف يصنعون رجالا في معاملهم لا تختلف عنا في شيء لأن علم الكيمياء كشف الآن عن خواص التحليل والتركييب واستطاع أن يبنى ويخلق أشياء ثمينة من مواد ضئيلة حقيرة ، وترى أثر ذلك في صناعة الصبغة والحرير .

وعلماء الكيمياء يعلمون الآن كيف تتكون (البروتو بلاسم) المادة التي هي أساس الحياة وملاكمها وهي كربون وهيدروجين وتروجين ، ولا يستبعد أن كيمائي الأجيال المقبلة يخلقونها ويصنعون منها حياة ، وعلى مر الأيام سوف يكتشفون طريقة يعالجون بها (البروتو بلاسم) لتخرج أناسا مثلنا ، فإذا تحقق ذلك الأمر واستطاع الإنسان أن يخلق أناسا دفعنا الأخير إلى عالم الصناعة والزراعة وما إلى ذلك واقتصرنا نحن على البحوث العلمية علنا نعثر على فتح جديد اه .

هذا ما يتخيله القوم ، وأشد الخيالات إغراقا في الوهم أن يكون هناك إنسان على يد إنسان . وهذا من الخيالات التي لا يمكن تعقلها ولو أمكن حصولها لم نزد على ما يفعله الزراع فإنهم يضعون البرزة في الأرض فينزل

المطر عليها فتجربا وتنمو بعمل خارج عن طاقتنا ، وليس هذا خلقا منا . كلا . ثم كلا . فهذا مع أنه خيال أو وهم أو فكرة خطرت ليس من عملنا بل هو من عمل الإله عز وجل كظهور النبات والحيوان لما نحن بخالق هذا الحيوان ولا هذا النبات مع إتنا نحن الذين نتعهدهما بل نحن نعلم التلاميذ وما نحن لهم بخالقين بل نحن نلد الأولاد وما نحن لهم بخالقين .

فقال صاحبي هذا البيان حسن ولو أنك تركته بلا بيان لظن الجهال أن ما كتبه القوم ونقلته قد أَرْضَاكَ وأنتك تؤمن بأن الإنسان الجهول الكفار المسكين الضعيف يخلق ويرزق ، فأنت بهذا ألجأت الأفواه التي يستخدمها الحقد والحسد فتعترض بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

هذا وإن هذه النبذ التي ذكرتها الآن حسنة جميلة تشوق المسلمين وتزيدهم حبا في العلم والحكمة فالأجمال لا تشويق فيه ، فها أنا ذا أطلب منك نبذة أخرى من هذا القليل وكفى ، فقلت انظر ما نشر في إحدى جرائدنا المصرية يوم ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

﴿ المكتب الدولي للصحة العامة بباريس ﴾

وجه رئيس اللجنة الدائمة للمكتب الدولي للصحة العامة بباريس الدعوة إلى وكيل وزارة الداخلية للشئون الصحية لحضور جلسات هذه اللجنة التي ستعقد بباريس في المدة (٢١) إلى (٣٠) أكتوبر سنة ١٩٢٩ مندوبا عن الحكومة المصرية في اللجنة المشار إليها ، وسيتناول البحث الموضوعات الآتية :

- (أولا) تطبيق معاهدة سنة ١٩٢٦ الصحية الدولية والمسائل المتعلقة بها وهي :
- (١) تقرير مجلس الصحة البحرية والكورتينات بمصر عن الحج إلى مكة المكرمة سنة ١٩٢٩ ومتابعة درس المسائل المختلفة المتعلقة بالحج كجواز سفر الحاج ومراقبة الحجاج المارين من بعض البلاد مراقبة صحية وغير ذلك .
- (ب) الشروط التي يسير بموجبها العمل فيما يخص بشهادة إبادة الجرذان أو الإغفاء من إبادةها (السادة ٢٨ من المعاهدة) وإبادة الجرذان في السفن الجديدة .
- (ج) إرسال البلاغات الصحية بواسطة التلغراف اللاسلكي (ووضع أورنيك موحده لهذا الغرض) .
- (د) الشروط الواجب توفرها في حواجز الجرذان لاعتبارها واقية بالغرض الذي أنشئت لأجله .
- (هـ) الاحتياطات التي يمكن اتخاذها لمنع ما قد يحدث من انتشار الأمراض الوبائية بواسطة الطيارات .
- (ثانيا) تقرير لجنة الأفيون عن المسائل المقدمة للمكتب الدولي للصحة العامة تنفيذا لأحكام معاهدة سنة ١٩٢٥ بشأن الأفيون .
- (ثالثا) (الحمى الصفراء) معلومات جديدة عن السم النوعي وطريقة انتقاله . وعن تأثير المرض من الوجهة الوبائية وطرق الوقاية منه .
- (رابعا) معلومات حديثة عن تأثير الكوليرا والطاعون من الوجهة الوبائية ومنشأ الإصابة بهما وعن مفعول اللقاح ضد الطاعون .
- (خامسا) الجدري واللقاح المستعمل ضده والإصابات التي تعقب التطعيم به .
- (سادسا) التدرن: نسبة الوفاة بالتدرن بين الأطفال المقيمين في وسط ملوث بهذا المرض وإكساب المناعة ضد التدرن . معلومات خاصة في الأوساط الصناعية .
- (سابعا) الحمى التيموجة وقوة باشيلس بايج فيما يتعلق بإحداث المرض في الإنسان والوقاية منه .

(ثامنا) التهاب مقدم مادة النخاع الشوكي السنجابية الحاد . تأثير المرض من الوجهة البوائية وسبب الإصابة به .

(تاسعا) الالتهاب السحائي الناشئ عن الميكروب النوعي لهذا المرض وتأثيره الحالى من الوجهة البوائية وطرق الوقاية به .

(عاشرا) المستشفى العصرى عدد المستشفيات وتوزيعها الجغرافى بالنسبة لعدد معين من السكان . (حادى عشر) استعمال اللونات والمواد الحافظة للأغذية .

(ثانى عشر) بحث مقارنة بين نسبة الوفيات فى لندن والريف بشأن الاحتياطات الواجب اتخاذها لتحسين الحالة فى الريف .

(ثالث عشر) الصحة الاجتماعية : التشريع الخاص بالتدخين وبالأمراض الزهرية والاسعاف الطبى للشعوب المتوطنة .

(رابع عشر) تعدد حدوث إصابات الزهرى الأولى فى الوقت الحاضر ونتائج الاحتياطات الوقائية التى اتخذت ضد الأمراض الزهرية .

(خامس عشر) الاحتياطات الواجب اتخاذها ضد التسمم بالكحول اه .

أفلا ترى أيها التذكى أن هؤلاء القوم كما نبغوا فى إحداث الآلات المهلكة هكذا هم نبغوا فى علم الطب وعلم الطب فرع من العلوم الخاصة بالجسم الإنسانى والجسم الإنسانى والنفس الإنسانية يذكرون فى العلوم الطبيعية عند القدماء ، فأما عند المحدثين فلقد أريتكم ما ذكره العلامة (بيكون) أن علم النفس من العلوم الفلسفية ، أما علم التشريح فمن العلوم السمييات بالتاريخ الطبيعى ، فأهل أوروبا بهذا المكتتب يبحثون عن الصحة العامة فى الأرض كلها وحكومتنا المصرية تشاركهم . أفليس من العار على أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشر العلم فى الأرض كلها أن تكون ذبلا للأمم وعالة على دول أوروبا ، أفلا يحق لهم إذا رأونا عالة عليهم أن يفعلوا معنا ما يشاءون ؟ هاهم أولاء يخافون أن تكون الطيارات من الناقلات للوباء كما تقدم ذكره فى هذا التفسير . إن البراغيث تتركب متون الفيران وهذه تنقلها من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية لتوزع الأمراض عيانا على الناس بلا تمييز بين صالح وطالح ، فهكذا هنا الطيارات يخافون أن تفعل هذا الفعل فهام أولاء منه يحترسون . ومن عجب أن هؤلاء يطلبون مشاركة الأمم . عمل والله عظيم . ولو أن دين الإسلام وجد أما بعد القرون الثلاثة الأولى تحمل هذا الدين وتفعل فعله صلى الله عليه وسلم إذ كان يود أن يجعل الناس أمة واحدة كما تقدم فى أول (سورة العنكبوت) عند قوله تعالى « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » وأنه أرسل إلى الملوك والأمراء شرقا وغربا يطلب أن يكونوا معه يدا واحدة . أقول لو أن الإسلام وجد أمة على هذا النمط لسكانت هى القائمة بالنفع العام (وبعبارة أخرى) لحففت العبد عن أهل أوروبا فى حفظ الإنسانية ولسكان لها مركز سام شريف يمنع الأمم من التدخل فى شئونها ولكن « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

فقال صاحبى العالم المتقدم ذكره . إن اتصال هذه الأعمال الصناعية من حرية وطبية بالعلوم والحكمة لا يزال محتاج إلى بيان . قلت حقا وهذا البيان سيأتى إن شاء الله فى (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » الخ إذ سأذكر هناك إن شاء الله (رسالة مرآة الفلسفة) التى أشرت لها سابقا فى هذا التفسير ، وقد كنت أريد كتابتها فى آخر (سورة النمل) أو فى آخر (سورة القصص) ولكنى وجدت أن ذلك يورث السامة هناك فأخترتها إلى تلك الصورة الآتية :

فقال صاحبي هذا حسن ولكن هي أليق بهذا المقام . قلت نعم ولكن هذا الوعد قد تقدم في (سورة النمل وغيرها) فلا أخله . فقال إني علمت منك أن تلك الرسالة تشتمل على مقدمة وباين والتقدمة مشتملة على قواعد تنفع في فهم هذا الوجود (الباب الأول) في ذكر مذاهب الفلاسفة إجمالاً . (الباب الثاني) في تقسيم العلوم ، وإني أرى أن تذكر الباب الثاني هنا لأنه أمس بهذا الموضوع لأنه جمع أقسام علوم الحكمة قديماً وحديثاً إجمالاً ، غاية الأمر أن القدماء جعلوها كلها حكمة ، والمحدثين سموها العلوم الجبرية (تواريخ) والعلوم السكالية سموها فلسفة ، ومتى ذكرت هذا التقسيم اتضح لنا كيف يكون الضباب الذي حجب السفن مفرعاً على العلوم وكيف تكون الصناعات كالطب والزراعة والحياكة والنجارة والحداثة مفرعة على العلوم ، فالأول تبع علم الانسان ، والثاني تبع علم النبات . والثالث تبع قسم من النبات . والرابع تبع قسم آخر من علم النبات . والخامس تبع قسم من علم المعادن . وهذه العلوم كلها طبيعية والعلوم الطبيعية من الحكمة على رأي القدماء أو من مقدماتها الجزئية على رأي (بيكون) الانكليزي كما تقدم الذي اتبعه جميع أهل العصر الحاضر . ومن هذه الصناعات الضباب التقدم وعلم الطيران بقسميه وهي (البالونات) التي ترتفع بالغازات الخفيفة كالهيدروجين والطائرات للارتفاعات بالمحركات . فالأولى ارتفاعها إلى أعلى بالحفة كسقوط الحجر إلى أسفل بالثقل . والثانية بآلات محرّكة كما يطير الطير . وهذا كله من علم الطبيعة والكيمياء لأن الغازات من الثاني والمحرّكات من الأول وهذا يكون السير إما على اليابسة أو في سائل أو في غاز .

ثم قال : إذا كتبت هذا هنا كان ذلك نعم النسخة لقراء هذا التفسير وتخصر لهم صورة واضحة للحكمة المذكورة في الآية وبها يفرح المسلمون بل هم بذلك سريعاً يرتقون . قلت أنا الآن انشرح صدري لأن أكتب تقسيم العلوم هنا وأدع آراء الفلاسفة ليدكر هناك في تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهناك يقال إن القسم الثاني قد ذكر في (سورة لقمان) وهذا القسم الذي ألقاه الآن من (رسالة مرآة الفلسفة) نقلتها فيها من كتابي بهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازينها بالعلوم الحديثة . وهذا نص ما جاء فيها ملخصاً :

الفلسفة العربية

(مقدمة)

(في قبول الفطرة الإنسانية للفلسفة وفي تاريخ علومها)

بسم الله الرحمن الرحيم

جبلت النفوس على حب الاستطلاع وشغفت بالبحث عما تشاهده من مناظر بهجة ومحاسن باهرة ، وشاقها ذلك السقف الرفوع ، المزين بالنجوم للتلائمة ، المختلفة الأشكال ، الجميلة الألوان ، السارة للناظرين ثم راعها ماعلى الأرض من زينة وجمال وحسن وبهاء واعتدال وكال من سحاب ماطر وبرق لامع ورعد قاصف وهواء لطيف ونور شريف وجبال شاهقات وأنهار جاريات وبحار واسعة ومعادن نافعات ونبات متسق الأوراق بديع الأزهار يانع الأتمار زين الأرض بمحاسنه وزوقها بأنيق بدائمه عاش به الانسان والحيوان فكان منه غذاؤها ودواؤها وبهجتهما . وأودع فيه من الغرام به والشهوة له ماساقها إلى السعي والبحث عنه كل حين .

الحيوان مكنت بما لديه من غذاء حاضر وجلد قوى ووبر وشعر وصوف وأنياب محددة ومخالب قانصة وقوة جثمان وعدو سريع وإلهام يهدي إلى سبل العاش .

أما الإنسان فإنه خلق غاريا ، كثير الحاجات ، يسعى لغذائه وملبسه ومسكنه وتعليمه وسفره فضعه ظاهر ووهنه حاضر . لذلك اقتضت الحكمة أن يمتاز بالعقل فيسعى به لمآربه من الغذاء والدواء واللباس والسكن والتعليم والتهديب والمعاشرة ونظام الجمعية الانسانية ، فما أ أكثر حاجة الإنسان ، وما أ حوجه إلى العلم والعرفة وما أقل حاجة الحيوان ، وما أحرأ بالحرمان من معارف الإنسان ، إن النتائج تتبع للقدمات والثمار على حسب النبات ، فمن كفاء غيره السعى والطلب عاش خاملا ومات جاهلا ومن قام بأمر نفسه وسعى لها سعيها أكسبها قوة وأناؤها حرية وكانت حرية بالإجلال والإعظام .

هذه هي المزية التي اختلفت بها الإنسان وبها سعاده ، ألا ترى أن كمال كل شيء فيها اختلف به ، فالفرس كاله في العدو السريع وأن يكون مكرا مفرا مقبلا مدبرا معا . وإذا عجز عن ذلك نزل إلى مرتبة الخير وعمول معاملتها في الحمل والأعمال الخاصة بها . هكذا السيف كاله أن يكون صارما سريع القطع فان تنزل عن هذه الدرجة الرفيعة استعمل استعمال السكين ونبذ الشجعان وخرج من الليدان . هكذا الإنسان لم يمتز إلا بالعقل والعلم فإذا ما كان غافلا نزل إلى رتبة أدنى من الحيوان ، أولئك كالأنعام بل هم أضل منها لأنها كاملة في ذاتها لقيامها بما يناسبها فاذا انحط إليها الإنسان وشاركها في منازلها فهو في خسران مبين .

إن الفطرة الإنسانية شاهدة بما قلنا فإنه وإن نال الإنسان ما يبتغيه من المال وما يحب من الجاه لا يفتأ يفرح بمحو الحديث وجمال العلم وتاريخ الفضلاء ويشتاق لذلك ويحرص عليه . ولقد نرى أكثر الناس جهلا وأبدهم عن العلم مجلسا إذا عبروا بالجهل عدوه إنما عظيما وناووا من عيرهم وشاكسوه وذلك لأن فطرهم شاهدة أن كالمهم بالمعرفة وتقسمهم بالجهل .

وترى الصبي يسأل أبويه عما حوله ليعرف أسباب الأشياء ومسبباتها ، كل ذلك شواهد ناطقة على ما قررناه وترى جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها من أي دين أو نحلة يجولون العظماء ويعظمون الحكماء وإن كانوا هم أنفسهم جاهلين لما ركز في طبائعهم ووقر في نفوسهم من شرف العلم وجماله واختصاصه بالإنسان . تطابقت فطرة الإنسان وحاجته ، فسكاله النفس بالعلم وسعاده في الحياة بالعلم ، نظر الإنسان فرأى في نفسه شهوات لازمة وحاجات قائمة وعادات متراكمة فاحتال في تهذيبها وجد في تكميلها فكان علم الأخلاق ثم رأى زوجة وولدا وخدما فكانت سياسة المنزل ثم كان اجتماع أهل المدينة وكان لابد لهم من نظام وقوانين وحكام فكان سياسة المدينة .

قرأت الأمم العلوم الرياضية لتعرف السنين والحساب والعاملات ثم الطبيعية لتستخرج بها مافي الأرض من منافع ، ونظرت في العوالم فأقرت بآله نظمها وحكيم أبداعها .

أهل المدينة كلما كانوا بالعلم مغرمين ، وعلى الفضيلة عاكفين ، كملت مدينتهم وازدادت سطوتهم ، وكما غفلوا عن ذلك ساءت حالهم وبئس المصير .

وأقدم أمة عرفها التاريخ في الحكمة قداماء المصريين وهكذا السريان يون وقي على آثارهم السكديانيون ثم الفرس واليونان . وقد حمل الحكمة من هؤلاء أساطينها مثل (سقراط) وتلميذه (أفلاطون) وتلميذه (أرسطو) ولقد كان هذا أرسخهم في العلوم ولتلك يسمى المعلم الأول .

ولما انقض أمر اليونانيين وصار الأمر للقياصرة نالوا من حكمة اليونان حظا عظيما ونبغ فيهم نابغون مثل (سنيكا) و (شيشرون) ولما تنصروا وهجروا تلك العلوم بقيت كتبهم في خزائهم . ثم جاء الاسلام وظهر أهله عليهم وامتد سلطانهم وعظمت شوكتهم ودانت لهم الأمم شرقا وغربا فاشترأبوا إلى ما نالته الأمم السالفة من روائع الحكمة وبدائع العلم والإحاطة بما في هذا الوجود على ما يقتضيه العمران ويتطلبه

الملك وتعظم به الدولة . وكان خالد بن يزيد بن معاوية ويسمى حكيم آل مروان رجلاً فاضلاً محباً للعلوم فأحضر جماعة من الفلاسفة وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة وغيرها من اليوناني إلى العربي وهذا أول نقل في الإسلام .

ولما نسخت الدولة العباسية الدولة الأموية ودانت لها البلاد واستتب للملك أرسل أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة فيبعث إليه بكتاب (أقليدس) وبعض كتب الطبيعيات وقرأها المسلمون وفهموها وزادوا حرصاً وشوقاً إلى علوم الحكمة كما روى « منومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » فلما كان أيام المأمون وقد كان أشرب قلبه حب العلم وأغرم بالحكمة أرسل إلى ملك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فأخذ منها واستوعب فترجموا منها الكثير وتلقاها النظار من أهل الإسلام بالقبول وعكفوا عليها ونبغوا في فنونها . ولقد خالفوا المعلم الأول في كثير من المسائل وردوا عليه ودوتوا في ذلك الدواوين وكثرت التأليف ، ثم إن العلماء الذين ترجموا الكتب للمأمون كحنين بن إسحاق وثابت بن قرة جاءت كتبهم مخالفة مخلوطة غير ملخصة ولا محررة ولم توافق ترجمة واحد منهم الآخر فبقيت تلك التراجم غير معمول بها ولا نافعة إلى زمن منصور بن نوح الساماني فالتمس من أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي للتوفي سنة ٣٣٩ هـ أن يجمع تلك التراجم ويجعل من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة مطابقة لما عليه الحكمة فأجاب الفارابي وقيل كما تقتضيه وسمى كتابه بالتعليم الثاني فلذلك لقب بالمعلم الثاني وبقي هذا في خزانة المنصور إلى زمن السلطان مسعود من أحفاد منصور بن نوح كما هو مسودا بخط الحكيم الفارابي إذ لم تكن له عناية بجمع مصنفاته وإنما يغلب عليه السياحة على هيئة الصوفية مع الزهد والقناعة . وكانت تلك الخزانة بأصفهان وتسمى « بصوان الحكمة » وكان الشيخ أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الطبيب الفيلسوف المولود (سنة ٣٧٥ هـ) للتوفي سنة ٤٢٨ هـ (سنة ١٠٣٦ م) وزير المسعود وتقرب إليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم إليه خزانة الكتب فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب ووجد فيها بينها التعليم الثاني ولخص منها [كتاب الشفا] ثم إن الخزانة أصابها آفة فاحترقت وقد اتهم بعض الناس الرئيس بأنه أحرق الكتب لئلا يطلع الناس على الحكمة التي نقل عنها وهذا باطل لما يرى في (كتاب الشفا) من تصريحه بأنه تلخيص التعليم الثاني . ومن الحكماء في هذه الأمة أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف من أمراء بني كندة ، وكان من الكرميين لدى الخلفاء من المأمون إلى المتوكل ، ولد سنة ٢٤٠ في البصرة ثم سكن بغداد واشتغل بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وتأليف كتب في الفلسفة والرياضات والطب والهيئة والموسيقى . وعدد مؤلفاته (٢٦٥) وأكثرها ضائع الآن .

ومن المترجمين ابن البطريق في أيام المنصور بن يحيى الذي نقل المجسطي وإقليدس للمأمون وحسين ابن بهريق فسر للمأمون عدة كتب وكثير غيرهم . هؤلاء في الشرق (١) أما في المغرب فكان القاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس ، فهؤلاء نشروا كتبهم فارتقت الدولة واستبحر العمران حتى إذا تغير الزمان وقلب ظهر المجن وذهبت الدولة نادى ابن خلدون في مقدمته بالويل والثبور وقال « أيها الناس لا تغفلوا عن الصنائع والعلوم فقد ركبت ربح مدنيتكم وخر عليكم السقف من فوقكم فأصبحتم من الخامدين » .

(١) انظر ملا كاتب جلبي وابن أبي أصيبعة والقفطي إن أردت الاستيعاب اهـ .

ولما فتح الترك (القسطنطينية) وقد نالوا حظاً وافراً من العلم حرم بعض علماء الدين كتب الحكمة على المسلمين فمالت شمس الحضارة هناك إلى الغروب ونادى عالمهم (ملاكاتب جلبي) للتوفى في القرن الحادى عشر الهجرى بالويل والثبور وقال ما ملخصه [كان شرف الرجل في الأعصار السالفة بمقدار تحصيله وإحاطته بالعلوم العقلية والنقلية] وكان في الدولة غول بمن جمع بين الحكمة والشريعة كالعلامة شمس الدين الفنارى والفاضل قاضى زاده الرومى والعلامة خواجه زاده والعلامة على قوشجى والفاضل بن المؤيد وميرجلبي والعلامة ابن السكّال والفاضل ابن الحنائى وهو آخرهم . ولما حل أوان الانحطاط ركبت ربح العلوم وتناقصت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والأكل فأندرت العلوم بأسرها إلا قليلاً من رسومه فكان للولى اللذ كورسبينا لانقرضت العلوم من الروم كما قال العلامة شهاب الدين الحفاجى في خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارات انحطاط الدولة اه .

فانظر كيف شكوا علماء العرب والترك قديما من الجهالة العمياء والداهية الدهماء الحالة بالأمة الاسلامية من ترك العلوم الفلاسفية . ولما كانت الأمة الاسلامية اليوم مستعدة للنهوض السارى فى أم الشرق وأخذت تجرد فى أسباب الرقى وأولها أمتنا المصرية فإنها قد استيقظت من رقدتها وقامت من نومتها من أيام المصالح الكبير المغفور له الحاج محمد على باشا رأيت أن أولف كتابا يجمع شتات العلوم الحكيمية الباقية فى الكتب الوروثة عن القدماء خالصا من الشوائب ، سهل العبارة ، حاويا خلاصة الفن لا هو بالطويل للمل ، ولا بالقصير المخل ، واصلا القديم بالحديث بحيث يعرف القارى إلى أين انتهى القدماء ، ومن أين ابتداء المحدثون ، ليستغنى به عن سواه فان بعض الكتب القديمة معتاصة الفهم بعيدة النور على المتوسطين فأقول ومن الله التوفيق :

﴿ تعريف الفلسفة ﴾

قد استبان فى المقدمة أن الإنسان محب للبحث والمعرفة ، مغرم بالاطلاع وكل له غرض يسعى ليدركه على مقتضى همته ومقصوده ودرجته فى الفهم ، وليس يعرف من هذه الصفة الشريفة إلا من غمرته اللذات وانغمس فى العداوات فاستعبده الشهواتان الهيمية والسبعية ، فينحطون إلى أسفل الدرجات فى البحث ويعكفون على معرفة عيوب الناس والحكايات المتبذلة ويتسلون بذلك عما تطالبهم به نفوسهم من المعرفة والعلم ويسرون بثلب أعراض الباحثين ليسكون ذلك تعزية لهم وليسدلوا أستاراً وحجبا على مطالب أنفسهم وهم لها ظالمون .

لا يفتأ الإنسان يسأل ؟ من أين وإلى أين ؟ ولم ذلك ؟ طلب دائم . قال أرسطاطاليس [إن الدهشة أول باعث على الفلاسفة] والسكلمة المستعملة عند الأمم وهى (فيلسوف) تدل على ما تقدم ، فان كلمة (فيلو) معناها محب و (سوفيا) معناها الحكمة ، فالفيلسوف محب الحكمة . وقد أطلق لفظ فيلسوف فى هذا العصر عند العامة ببلادنا على من برع فى علم أو نبيغ فى قوة الحججة والجدل أو أنكر الديانات أو أخذ يذم علماء زمانه ويقدم فى كفاءتهم فى المجالس فيقول الناس لولا أنه أعلم منهم ما سفه أحلامهم ولا رماهم بكل كرهية شنعاء . ويقابل لفظ الفلسفة عندنا الحكمة . ويقال [الفيلسوف الحكيم] .

الحكمة لا يتصف بها إلا من استكمل قوى العلم بالرياضيات والطبيعات والإلهيات والعمل بالأخلاق وتدير المنزل وتدير المدينة أو السياسة العامة . وباطل ما دار على ألسنة الناس فى زماننا من المعانى السابقة ولم ينل هذه اللزبة إلا قليل والتعريف المشهور لعلم الحكمة أنه علم يبحث عن حقائق الأشياء على ما هى عليه فى نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية والمعتبر فى تلك الطاقة أو اسط الناس الذين لا هم فى غاية العلو ولا فى نهاية السفلى .

وأنت ترى أن هذا التعريف لا يشمل إلا القوة العملية فمن كان عالماً بتلك العلوم فهو حكيم . وقد خرج منها العمل بالأخلاق وتدبير المنزل والسياسة . وقد جعل الرئيس (ابن سينا) ذلك العمل غاية للحكمة العملية . واعلم أن الحكمة لها (ثلاث درجات : الأولى) حب البحث . (الثانية) استكمال العلم (الثالثة) العمل به وهو الثمرة . والتعريف للتقدم شمل أهم هذه الدرجات وهو العلم . وقد جاء في [إخوان الصفاء] ما شمل الدرجات الثلاث وهو أن الفلاسفة أولها محبة العلوم . وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم . وليس المعنى أن يعرف الإنسان كل شيء وإنما يزاول المعارف ويحيط بالكليات في العلوم التي سندرناها ثم يختص بفن كالطب أو الهندسة مثلا . فأما أولئك الذين يقرءون بلا نظام مسائل شتى في المجالات والكتب فقط فهم عن الحكمة معرضون لأن العلوم الجزئية والمسائل الداخلة فيها لا نهاية لها . ولو أن أمراً قرأ علم الحيوان أو النبات وأضاع فيه عمره لم يحط به ولم يأت على آخره وإنما بقراءة العلوم الجامعة الآتية يصبح هذا العالم عنده حاضراً في عقله بصفة عامة حتى إذا صادفه شيء من مسائل العلوم الجزئية زادته علماً وعرف مكانتها من نفسه وضمها إلى أخوانها ، وليس يكون ذلك النظام إلا بالاطلاع على علم الفلسفة ودرس علومها ، ومماثل الحكماء مع العلماء والأمم إلا كمثل الملوك مع الوزراء والأمراء . وبقية الدولة أو كمثل رئيس الجيش بالنسبة للقواد .

﴿ أقسام العلوم الحكيمة ﴾

العلوم الحكيمة (أربعة أنواع) : الرياضيات والمنطقيات والطبيعات والإلهيات ، فالرياضيات (أربعة أنواع) : الارتماطيقى وهو علم العدد ، والجو مطربا وهو الهندسة ، والأسطرونوميا ، والموسيقى . فالإرتماطيقى هو علم العدد وماهيته وكيفيته وخواصه . وهذا العلم أصل الحكمة ومبدأ المعرفة ويبين فيه النسب العددية والهندسية والتأليفية وتمرحها التوصل إلى حقائق المعارف وتبيان أن هذه العوالم المختلفة الأشكال ، والصور والصفات إذا جمعت على النسبة للتعاقد انتظمت واتحدت وكان منها ثمرتها وتناجها المرضية أما إذا جمعت على النسبة التي لم تعتدل فإنها تتنافر وتتباعد ولا تتفق ، فاعتدال الأشياء بالنسبة الصحيحة واختلاها بالنسبة المنحرفة . وفيه ذكر الحساب الذي لا يهيم به إلا الفلاسفة وليس لكتاب الدواوين فيه من خلاف اه . ومنفعة هذا العلم أنه يعود الذهن على النظر في المجرىات عن المادة ولواحقها ولذلك كانت القدماء تقدمه في التعليم على سائر العلوم وأن الأعداد كما نشأت من الواحد وهو ليس بعدد هكذا نشأ العالم عن الله . ومن الكتب المختصرة فيه سقط الزند في علم العدد ومن للتوسطة الارتماطيقى الذي من كتاب الشفاء ومن للبسولة كتاب نفوماخس الجهراسيني . وهذا الفن يدخل فيه براهين الحساب وقد ألفت فيه المتقدمون وأدخلوه في التعاليم ولم يفرده بالتأليف كما فعل (ابن سينا) في الشفاء والنجاة وغيره . أما المتأخرون فهو عندهم مهجور وليس يمتدول لأنهم أخذوا ما يحتاجون إليه منه في الحساب للبرهنة غلب كما فعله (ابن البناء) في رفع الحجاب مثل التواليبة العددية والتواليبة الهندسية . وأما المهجور فمثل ما يأتي هنا . إن عدد (٥) دائر أي يحفظ الآحاد والعشرات وهي (٢٥) إذا ضرب في نفسه مرات بالغا ما بلغ ، وإن هذه الخاصة لا يشاركه فيها سواه .

﴿ الهندسة ﴾

وأما الجومطربيا فهو فن الهندسة وبيان ماهيتها وكيفية أنواعها وأحوال المقادير ولواحقها وأوضاع بعضها عند بعض وموضوعه الجسم التعليمي والسطح والخط ولواحقها من الزاوية والنقطة والشكل . وأول مترجم من اليوناني للعربي في هذا العلم (كتاب الأركان) لإقليدس أيام أبي جعفر النصور . واختلفت نسخته باختلاف المترجمين كحنين بن إسحاق وثابت بن قرة ويوسف بن الحجاج ويحتوي على خمسة عشر مقالة وقد

اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء ومثله (ابن الصلت) في كتاب الاقتصاد .
وكما أن فن خواص الأعداد المتقدم يرقى الدهن في فهم الأمور العالية والمجردات من المادة ويوقظ الذكر
هكذا الهندسة يشرق عقل المشتغل بها ويستقيم رأيه لما يرد عليه من البراهين البينة والأحوال المنتظمة والأشكال
المتقنة والعقل يعتاد ما عود ويكون مزاجه بحسب ما ارتسم فيه وهو هنا الدقة والنظام والصدق والحق كما أن
الجسم يصح ويستقيم إذا جاد غذاؤه وتباعدت عنه أسباب الفساد .

﴿ علم الفلك ﴾

وأما (الأسطر ونوميا) فهو علم النجوم وصفة البروج وسير الكواكب ويتبين فيه تاريخ آراء الفلاسفة
في العصور المختلفة في سير الشمس ويبين ما ذكره القدماء من الرأيين ، الرأي القائل بدوران الأرض حول الشمس
والرأي القائل بدوران الشمس حول الأرض وأدلة الفريقين المبسوطة في المواقف وبيان ترجيح الرأي الأول
وأن ذلك كان قبل ظهوره للأفرنج بنحو مائة وخمسين سنة ، ويبين فيه حساب الشمس والقمر والسنين
الشمسية والقمرية وسير الكواكب والفصول الأربعة ، ويذكر المذاهب الحديثة بطريق الإجمال من أن
في العالم شمس لكل لها سيارات ونحن في مجموعة من تلك المجموعات وبعضهم كان يلحق بهذا الفن علم
تخطيط البلدان .

﴿ الجغرافيا ﴾

وهو صورة الأرض والأقاليم السبعة والدرجة الأرضية التي تنتهي إليها ومعرفة الجبال والبراري والأنهار
والمدن والقرى ومسالكها وعلم الهيئة عند القدماء والمحدثين إنما يتم بالرصد وكلما اتقن ازداد العلم وكلما قل
كان العلم على حسبه ، وكتاب الجسطى الذي ألفه بطليموس جامع لمقصود هذا العلم وقد اختصره (ابن سينا)
في الشفاء وابن رشد وابن السمع وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقتصاد .

﴿ الموسيقى ﴾

وأما الموسيقى فهو علم يتبين فيه قوانين النغمات والألحان وتأثيرها في نفوس السامعين تأثيرا يينا يضارع
ما تفعله العقاقير الطبية في الأجسام الحيوانية ويبين فيه النسب العددية والتأليفية وتوحيدها التوصل إلى حقائق
المعارف وتبين أن هذه العوالم المختلفة الأشكال والصور والصفات إذا جمعت على النسبة المتعادلة أتحدت وكان
منها ثمرتها وتنتجها المرضية . أما إذا جمعت على النسبة التي لم تعدل فإنها تتنافر وتتباعد ولا تنفق . فاعتدال
الأشياء بالنسبة الصحيحة واختلافها بالنسبة المنحرفة . وفيه ذكر الحساب الذي لا يهتم به إلا الفلاسفة وليس
لكتاب الدواوين فيه من خلاق . وهذا الفن كفن الشعر تتركب أصولهما من (ثلاثة) : السبب والوحد
والفاصلة (الأول) مثل : (هل . بل) (والثاني) مثل : (نعم . بلى) (ومثل : (نحن . وكنت . وشئت) (والفاصلة)
مثل : (فهمت . ورضيت) . والذي تركب من الفناء في اللغة العربية ثمانية أنواع : التثنية الأولى وخفيفه
والتثنية الثانية وخفيفه . والرمل وخفيفه . والمهزج وخفيفه . وسنفضله . وهذا الفن محتاج إلى (ثلاثة علوم) : النحو
والحساب والشعر . وألف فيه أبو نصر الفارابي وابن سينا في جملة كتاب الشفاء وصفي الدين بن عبد المؤمن
وثابت بن قررة الصابي وأبو الوفا البورجاني .

ومنفعة هذا العلم بسط الأرواح وتعديلها وتقويتها تارة وقبضها تارة أخرى . أما الأول فيكون في الأفراح
والحروب وعلاج المرضى وبه يظهر الكرم والشجاعة ونحوها . وأما الثاني فيكون في المآتم وبيوت العبادات
فيقبض النفوس عن هذا العالم ويحركها إلى مبدئها فتفكر في العواقب وهذا آخر ما يحدث من الصناعات
في الدولة لأنه كالملى وأول ما ينقطع من العمران عند اختلالها .

(ملحقات الرياضيات)

قد تفرع عن الارتماطيق من العلوم: علم الحساب المفتوح. والتخت. والميل. وعلم الجبر. والمقابلة وعلم الدرهم والدينار وما شابه ذلك وتفرع عن الهندسة علم: البنكلمات (آلات قياس الزمن) وعلم جر الأنتقال. وعلم استنباط المياه. وعلم الآلات الحربية. وعلم المساحة. وعلم مراكز الأنتقال. وعلم المرايا المحرقة. وعلم عقود الأبنية لمعرفة أوضاع الأبنية وشق الأنهار. وتقنية القنا لعمارة المدن والقلاع. ويتفرع على علم الفلك: علم الزيجات والتقويم. (تنبيه) الفيلسوف إنما يدرس العلوم الأصلية. أما الفروع كعلم المساحة وعلم الآلات الحربية فإنما تدرس في مدارس خاصة للأعمال النافعة. انتهى فن الرياضيات.

﴿ المنطق ﴾

(وهو القسم الثاني من علوم الفلسفة الأربعة)

المنطق قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للعاهيات والحجج المفيدة للتصديقات والطرق الموصلة للتصور والتصديق، إما أن تكون صحيحة وإما أن تكون فاسدة وتميز أحدهما من الآخر إنما يكون بتلك القوانين، وقد كان المتقدمون يتكلمون به جملاً عاماً لم يهذب طريقه ولم ترتب أصوله حتى ظهر (أرسطو) فهذب مباحثه ورتب مسائله وجعله أول العلوم الحكمية والنظر في هذا العلم على (قسمين): نظر في صورة القياس، ونظر في مادته، فالنظر في صورة القياس يكون (أربعة أقسام: القسم الأول) السكيات ويسمى إيساغوجي وهي الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض العام. (القسم الثاني) الأجناس العالية وتسمى (قاطيفورياس) وهي المقولات العشرة مثل: الجوهر والكم والكيف وكل واحد منها إسم لجنس من الأجناس وجميع ما في العوالم من أجسام وعناصر وصفات وأحوال داخلية تحت هذه الألفاظ وبمعرفتها يتصرف عقلاء المنطق بالدليل في كل ما شاهدوه أو عقولوه وإليها ترجع جميع الأجناس وفصولها وأعراضها وخواصها. (القسم الثالث) القضايا التصديقية وتسمى (باريميانياس وأنواعها) وبيان النقيض والممكن والممتنع والعكس والإيجاب والسلب. (القسم الرابع) القياس ويسمى (أنولوطيقا الأولى) والنظر فيه على (قسمين: الأول) في صورته من أنه حلي وشرطي وصورة إنتاجه سواء أكان ظنياً أم يقينياً أم غيرهما وأنه ميزان الحكمة يزن به الحكماء حججهم في المناظرات والآراء والمذاهب، وضعه الفلاسفة إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل وهذا آخر النظر للمنطق في صورة القياس وهو ينتج إنتاجاً صحيحاً إذا استوفيت الشرائط ويكون على حسب المادة الذي صبغ منها فقد يفيد اليقين وقد يفيد الظن وقد يكون كاذب النتيجة وإن وقع في الوهم أنها صادقة. (القسم الثاني) النظر في مادة القياس وهو (خمسة أنواع: النوع الأول) البرهان ويسمى (أنولوطيقا الثانية) وسنذكر له شروطاً ككونه ذا مقدمات يقينية كالبدهييات والمشاهدات والمجربات، وبذكر في هذا المقام العرفات والحدود لأن المطلوب بالبرهان اليقين في التصديقيات وبالحدود اليقين في التصورات فجعلها القدماء في كتاب واحد. (النوع الثاني) الجدل وهو لا يقصد منه اليقين وإنما يراد منه قطع المشاغب وإفحام الخصم ويستعمل فيه السلطات والشهورات كالمناظرات الفقهية للذهبية، كل يرد على صاحبه باعتبار ما هو مسلم عنده. (النوع الثالث) الخطابة وهي القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم كجميع مقالات الوعاظ الحائفة على الصدق ونحوه إلخ. (النوع الرابع) السفسطة وهي القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به الناظر صاحبه وإنما يتعلم لأنه يعرف به قياس المغالطة فيحذر منه كقولك في صورة فرس هذا فرس وكل

فرس صاهل . (النوع الخامس) الشعر . وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للاقبال على الشيء والنفرة منه كأن تقول في العسل هذا في الزناير فينفر منه السامع .

(ضرب مثل لمادة القياس وصورته)

ولنضرب مثلا لمادة القياس وصورته بالدينار ونقشه . إن الدينار المصنوع من ذهب له مادة وصورة ، فالصورة هي الإستدارة والنقش وجمال الصنعة والمادة هي الذهب والفضة . والذهب إما أن يكون إبريزا لاغش فيه . وإما أن يكون قليل الغش وإما أن يكون ذهبيا كثيرا الغش وإما ألا يكون ذهبيا أصلا هكذا الاعتقاد وهو مادة القياس إن كان لا يخطر بقبضه بالبال فهو البرهان كقولك عدد (١٦) عدد مربع مجذور وكل عدد مربع مجذور إذا زيد عليه جذراه وواحد فهو مجذور وإذا نقص منه جذراه إلا وواحدا فالباقي عدد مجذور ينتج عدد (١٦) وإذا زيد عليه جذراه وواحد فالعدد المجتمع مجذور وإن نقص منه جذراه إلا واحد فالباقي مربع مجذور . فهذا قياس حملي مقدمته يقينتان ونتيجته كذلك . وإن كان الاعتقاد مقاربا لليقين مقبولا في الظاهر ولا يشعر بإمكان تقيضه إلا دقيق الفكر فهو الجدل . وإن كان ظنيا إقناعيا مع خطور تقيضه بالبال بسهولة فهو الخطابة . وإن كان مشبها لليقين أو المشهور في الظاهر وليس كذلك بالحقيقة فهو السفطة .

ثم إن الخامس وهو القياس الشعري ليس يدخل في إفادة يقين ولا ظن ولا مغالطة فالخطاب قد يعلم حقيقة وإنما يذكر لترغيب الجمهور أو لتنفيره أو تشجيعه كما ينفر من الحلو الأصفر بتشبيهه بالعدرة وكما ينفر من شرب العسل في المحجم التنظيف . ومن هذا القبيل الحض على الفتك بقول القائل :

ليت هندا أنجزتنا مانعد وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة إغا العاجز من لا يستبد

فهذا القول حمل سامعه على الإسراع بالفتك بأعدائه ، وكالحض على التهور وعدم الحزم في الحرب كقول المتنبي رحمه الله تعالى :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم

فإنه جعل الحزم جبنا كما ذكره الامام الغزالي ولذلك فتسكت بقائله يد النون واغتالته غوائل الموت وهو يناوي من هم أقوى منه بطشا وأكثر جمعا وأوفر عددا فطاح بهوره وووري في الرمس وذلك جزاء للتهورين انتهى القياس الشعري .

هذا ، ولقد ترجمت هذه كلها في المسئلة الاسلامية ، فترجم المقولات (حنين) وفسرها (فرفور يوس) والفارابي . وترجم حنين القضايا من اليوناني إلى السرياني . ونقل (مقي) نقل إسحاق إلى العربي وشرحه الفارابي وتداول المسلمون هذه الكتب بالشرح والتلخيص . وألف فيها الفارابي وابن سينا في كتاب الشفا وابن رشد .

ولقد تصرف التأخرون في المنطق فنقلوا الحدود من البرهان إلى الكلبيات الخمس وحذفوا المقولات العشرة ولم يعشوا بعلم المادة الخمس كما هو متداول الآن في الأنظار الاسلامية مع أن للمنطق بغير ذلك شجر بلا نمر وسراب بقية بحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ووجد الجهل عنده فأوقعه في الخيال ثم إن هذه الصورة المنقوصة من المنطق أطال التأخرون فيها الكلام كأنه علم مستقل بنفسه مع أنه آلة لغيره . وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده (أفضل الدين الخونجي) ويدرس في زماننا كتاب إيساغوجي لأثير الدين الأبهري النوفي في حدود المائة السابعة الهجرية وكتاب الشمسية في الفوائد المنطقية لعمر بن علي السكاكي القزويني من أهل القرن السابع للهجرة تلميذ (نصير الدين الطوسي) للطبوعة ولها شراح كثيرة ، وكتاب الحيصي وغيرها من الكتب فيجب العدول عن هذا النهج إلى ما هو آتم وأكمل . انتهى الكلام على العلوم المنطقية .

﴿ القسم الثالث العلوم الطبيعية من العلوم الفلسفية العلمية ﴾

العلم الطبيعي ما يبحث فيه عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون في العوالم العلوية والسفلية من السموات والعناصر وما يتولد عنها من نبات وحيوان وإنسان ومعادن وما في الأرض من زلازل وغيون وما في الجو من سحب وبخار ورعد وبرق . وقد ألف فيه (أرسطو) وقد ترجمت كتبه مع غيرها من العلوم أيام المأمون وحذا الناس حذوها كابن سينا في كتاب الشفا وفي النجاة والإشارة . ومخالف (أرسطو) في كثير من المسائل بخلاف (ابن رشد) فإنه ألخص كتبه تابعا له غير مخالف، وقد شرح كتاب الإشارات للإمام ابن الخطيب والآمدى ونصير الدين الطوسي .

﴿ أقسام العلوم الطبيعية ﴾

العلوم الطبيعية (ثمانية): سماع الكيان، السماء والعالم، السكون والفساد، الآثار العلوية، المعادن، النبات، الحيوان الانسان :

(١) سماع الكيان : يبين فيه الهيولى والصورة والحركة والزمان والسكان وما يخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة .

(٢) السماء والعالم : يبين فيه شكل العالم ونظامه العام في أفلاكه وكواكبه وطبقاته .

(٣) السكون والفساد : يبين فيه كيف يتكون المعدن والنبات والحيوان من العناصر ، ثم يبين الرأي الحديث القائل (إن المعادن السبعة غير مركبة من العناصر) ثم ينظر أي الرأيين أقرب للصدق .

(٤) الآثار العلوية : يبين فيه ما في الجو من حوادث الحر والبرد والسحاب والمطر والتلج والبرد . والرعد والبرق وقوس قزح والهالات ، وكيف كان منشأ السحب من البخار ثم يدفعها الهواء إلى الأودية فتصدعها الجبال فتعطر على اليابسة ، وغير ذلك من النور والظلمة وتصاريح الرياح من الأنهار والبحار ، وما يكون منها من الغيوم والسباب والظل والندى والشهب وذوات الأذنان وما شاكل ذلك .

(٥) تكوين المعادن : مما في التراب والطين والأرض السبخة كالسكباريت والأملاح والشبوب والزاجات أو في قعر البحار كالدر والمرجان ، أو في كهوف الجبال وجوف الأحجار وخلق الرمل كالذهب والفضة والنحاس .

(٦) علم النبات : يذكر فيه أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضاره ، وأن مرتبة النبات متصلة بالمعادن من أديانها مرتبطة بالحيوان من أعلاها ، ويبان أن منه ما ينبت في البراري والقفار ومنه ما ينبت على رؤس الجبال ، ومنه ما ينبت على شطوط الأنهار ، ومنه ما يكون في الآجام ، ومنه ما يفرسه الناس في القرى والبساتين ، ومنه ما يكون تحت الماء ، ومنه ما ينبت على وجه الماء ، ومنه ما ينسج على الشجر ، ومنه ما ينبت على وجه الصخور ، وهكذا من الأحوال والأوصاف والأشكال والأزهار والأوراق والقضبان وما أشبه ذلك ، ويبين فيه القوة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والنامية والغازية والولدة وما أشبه ذلك من الأوصاف الظاهرة والباطنة .

(٧) علم الحيوان وعجائبه وطبائعه . إنه متصل بالنبات من أديانها مرتبطة بالإنسان من أعلاه ويبان أن الحيوانات الناقصة الحلقة مقدمة بالوجود على الحيوانات النامة الحلقة، وأن حيوان الماء متقدم بالوجود على حيوان البر ، وأن الحيوان متقدم بالوجود على الإنسان ، ثم يبان أن التي تلد أعلى

من التي تبيض والتي تبيض أعلى من التي تتكون في العفونات ولا تعيش سنة كاملة لأنها يهلكها الحر والبرد . وكيف كان بعضها آكلا كالأساد وبعضها مأكولا كالأرانب والغزلان . وما حكمة ذلك ؟ وما فوائده ؟ ثم بيان تناسلها وتوالدها واختلافها في ذلك وتربيتها أولادها وأخذها أعشاشها وبيان سكان الماء والهواء والبر والتراب كالسمك والطيور والأنعام والهوام وبيان قوة الحس والحركة في سائر الحيوان .

(٨) الإنسان : وتركيب جسده ، وبيان حواسه الخمس من السمع والبصر والشم والتذوق واللمس وأن صور محساتها تصل إلى الحس المشترك في الدماغ وبيان أن تلك الحواس جسمانية من جهة الظاهر معنوية روحية من جهة الباطن لاتصالها بالأجسام أولا وبالحواس المشتركة آخرا . فأما الحس المشترك الذي هو كالمركز للحواس المؤدية إليه فهو معنى روحاني . ثم بيان أن معارف الإنسان من (ثلاث طرق) : الحواس والعقل والبرهان الذي يختص به العلماء والحكماء . وأن للدركات بطريق اللمس (عشرة أنواع) وبطريق التذوق (تسعة أنواع) وبطريق الشم (اثنان) وبطريق السمع (خمس) وبطريق البصر (عشرة أنواع) بجميع ما تدركه الحواس ست وثلاثون نوعا من المدركات وبيان أسباب خطأ الحواس وكيف احتاجت إلى العقل ليندال سبلها وتستبين السبل وتظهر الحقائق وغير ذلك من عجائب العلم وبدائع الحكمة . ثم الكلام على إجمال العلوم الطبيعية .

(القسم الرابع العلم الإلهي أو الكلي)

وهو علم يبحث في كل الموجودات من حيث تعيينها وتكوينها وتحقق حقائقها وما يعرض لها ونسب ما بينها وما يخصها من حيث هي موجودات وهو أنواع :

[النوع الأول] في الأمور العامة مثل الوجود والمهية والوحدة والسكرتة والوجوب والإمكان والامتناع والقدم والحدوث والأسباب والسيئات .

[النوع الثاني] النظر في مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدماتها .

[النوع الثالث] النظر في إثبات وجود الإله الحق والدلالة على وحدته وتفردة بالربوبية وإثبات صفاته وبيان أنها لا توجد كثرة في ذاته .

[النوع الرابع] النظر في إثبات الجواهر المجردة من العقول والنفوس والملائكة وما أشبه ذلك .

[النوع الخامس] أحوال النفس البشرية بعد الموت ومفارقتها الهياكل الإنسانية وحال البعاد وكيفية ارتباط الخلق بالأمر .

هذا آخر القسم العلمي ، وهذا العلم يسمى أيضا (علم ما وراء الطبيعة) ولخصه (ابن سينا) في كتاب الشفا والنجاة والإشارات وكذلك لخصه ابن رشد من علماء الأندلس . ولقد حدث في الأمة الإسلامية بدع ومقالات خالطت العقائد فأورثت شها أدت إلى انقسام الأمة شيعا وأحزابا كل يؤيد رأيه ويقوى مذهبه ، ومن أسباب ذلك انتشار الفلسفة اليونانية ، ألا ترى أن الإمام الغزالي ألف كتابا سماه (تهافت الفلاسفة) يدحض به بعض المسائل الفلسفية وهي قليلة جدا، ثم هو أيد أن باقها موافق للدين غير مخالف له ورد عليه ابن رشد بكتاب سماه (تهافت التهافت) ثم جاء آخر ووضع كتابا ليحكم بينهما ، فهذا وأمثاله أدى إلى تدخل مسائل العلم الإلهي في علم الكلام المسمى بعلم التوحيد أيضا الذي وضعه علماء الاسلام لرد الشبه والبدع التي استهوت الكثير من الأمة الإسلامية ، ولقد تجاوز الحد قوم من الذين لا تحقيق عندهم فظنوا كل ما نسب للفلسفة زورا وذلك منهم جهل وغرور ، ولقد صار علم الكلام فنا يحوى كثيرا من علوم الفلسفة كما ترى

في كتاب المواقف وأمثاله ، وترامم مزجوا العلم الطبيعي بالإلهي وأصبح من لاعلم عنده يظن أن علم الكلام والعلم الإلهي واحد وليس كذلك . إن علم الكلام أدلته شرعية جاءت عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، أما أدلة الإلهيات فإنها صادرة عن العقل البشري بعد قراءة الرياض والطبيعي . فأما تخلل مسائل الفلسفة من الطبيعي والإلهي في علم الكلام والاستدلال بأدلتها فذلك ليس مقصودا لذاته ، وإنما ذكر ليقوى ماورد بالدليل السمعي فتكون تلك الأدلة العقلية لتقوية العقلية وإلخام الحضم وإثبات العقائد عند من لا يصدق بالسمع وإنما دعا للتكلمين إلى ذلك مقالات الذين ادعوا الفلسفة وهم لم يستوعبوا معارضوهم بأدلة من القبيل الذي استهواهم ، وعلى ذلك كان إدخال الطبيعيات والالهيات في هذا العلم وتصحيح مسائلها وإبطالها ليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار للتكلمين ، وإنما الموضوع هو الرد على المعارضين والملاحدين ، ثم إن الصحابة والتابعين كانوا على سنن الحق وطريق الهدى والإعراض عن زخرف الدنيا . ولما كثر الإقبال على الدنيا اختص أولئك للتبتلون باسم الصوفية نسبة للبس الصوف كما قيل فكان لهم كلام في المجاهدات والأذواق والمقامات والكشف وعلم الغيب والتصرف والشطحات والقول بوحدة الوجود كما في كلام ابن دهمان والوحدة كما في كلام المهروري في كتاب (المقامات) وغيره ، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين ومن تبعهم كابن العيني وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكلامهم ككلام الإسماعيلية المتأخرين من الرافضة القائلين بالحلول ، وبأن الأئمة آلهة لأن سلف الطائفتين كانوا قد اختلطوا من قبل هؤلاء فتدخل المذهبان وتشابه الرأيان فهؤلاء الصوفية خلطوا كلام علماء الكلام الإسلامي بالعلم الإلهي الفلسفي من الوجدانيات الدوقية الخاصة بهم وليس عليها دليل سمعي ولا عقلي ، فثبت إذن أن العلم الإلهي مستمد من العقل وعلم الكلام مستمد من الشريعة وعلم التصوف مستمد من ذوق أربابه وليس للدليل العقلي ولا النقل في من سبيل ، فهذا تحقيق المقام ، فأذن هذه العلوم الثلاثة متباينة .

(العلوم العملية)

أما العلم العملي فهو (ثلاثة أقسام : الأول علم الأخلاق) في البحث عن (القوى الثلاث) الشهوية والغضبية والعاقلة ثم العفة للشهوة ، والشجاعة للغضب ؛ والحكمة للعقل ثم العدل وما يتفرع على ذلك كله من الرذائل والفضائل من البخل والتبذير والكرم والحلم وما أشبه ذلك . (الثاني) علم تدير المنزل في معرفة معايشة الأهل والخدم وسياستهم ونظامهم مثل أنه يجب على رب الأسرة أن يسير معهم على نمط واحد ووتيرة لا يغيرها حتى لا يندم إذا تغيرت أخلاقهم إلى غير ذلك . (الثالث) السياسة المدنية ، هو علم يبحث فيه عن أنواع الجامعة الانسانية كالجنس والدين والوطن واللغة والملك الجامع للأمة ، وكيف كانت هذه تنافى حال المدينة الفاضلة ثم النظر في أن سياسات الأمم مبنية على عقائدها ، ثم بيان المدينة الفاضلة والنحرقة والجاهلة مما أوضحه الفارابي في كتابه كتيبان أن نظام المدينة الفاضلة يرجع إلى نظام الجسم الإنساني مقبسا عليه في الأعضاء الخادمة والمخدومة للفصلة في علم التشريح ، وبيان أن نظام الأمة يرجع إلى الزراعة والتجارة والصناعة والإمارة وأن الإمارة على العامة للوعاظ وعلى الخاصة للحكام وعليهما معا للأنبيا وعلى الأجسام فقط للملوك والأمراء انتهى الكلام على العلوم العملية .

فهذه (سبعة عشر علما) أربعة في الرياضيات . فالمنطق فثانية في الطبيعيات والعلم الإلهي فالعلوم العملية الثلاثة وإلى هنا تم الكلام على (سورة لقمان) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة السجدة

هي مكية

إلا من قوله تعالى «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» إلى قوله تعالى «ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون» (مدنية)

(آياتها ثلاثون - نزلت بعد المؤمنون)

هذه السورة قسبان

﴿ القسم الأول في تفسير البسملة ﴾

قد تقدم في (سورة الفاتحة) الكلام على الرحمة العامة وفي (سورة هود) الكلام على رحمة الحيوان وتفسير بعض الأمم الإسلامية في رحمته بسبب الصيد بلا قيد وبلا شرط وهناك الأحاديث الواردة في تلك الرحمة ، وفي (سورة الروم) بيان أن ما يعترى الحيوان من الألم والمرض والجوع والعطش ، كل ذلك يقصد به نفعه فالجوع هو اللغة التي يخاطب بها الحيوان لياكل وللمرض إنذار لطلب الدواء وهكذا ، وفي (سورة لقمان) استبان الكلام على معاني (الله . الرحمن . الرحيم) وأن الله والرحمن اسمان خاصان بالله تعالى ، وبيان أن من عرف أسماء الله ولم يفهم معناها أو فهمه بلا بحث فهو جاهل ، بل هو لم ينفق في ذلك البدوي الفح في البادية وإنما معرفة أسماء الله تعالى يجب أن نلاحظ فيها معرفة الآثار التي تقتضيها تلك الأسماء . ومن اطلع على ماجاء في هذا التفسير أو أكثره حصل عنده علم لاشك فيه ووثق وثوقاً بالمشاهدة أن الرحمة عامة شاملة وأن هذا الوجود منظم نظاماً مدهشاً ، وأن هناك عناية تفوق كل وصف وتقدير ، فهذه وحدها تكون السعادة النفسية والحكمة العقلية العملية ويكون هذا الاعتقاد كالمحسوس للمشاهد ، بل كالتقاضي البديهية التي لا تقبل الشك . وهناك ترى كيف تؤثر تلك المشاهدة في الآثار رحمة في قلب المؤمن فإن من أعجب بصفة لامحالة يود الاتصاف بها ، وعلى ذلك تراه يعطف على الفقير والمسكين كأن ذلك غريزة فيه لأن الصفة التي شاهد آثارها قد أثرت فيه فهو لذلك رحيم ، وهذا هو التخلق المطلوب إذ يتخلق بأخلاق الملائكة فيقرب من ربه ، وهناك ترى للبحث الهام (كيف يتخلق العبد بأخلاق ربه والله ليس كمثل شيء ؟) وبيان أن هذه الشبهة إنما تحضر عند العامة وصغار العلماء وهي شبهة واهية داحضة لأن الله موجود والناس موجودون ، حتى ونحن أحياء . وهكذا نقول في الصبر والشكر والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام . كل ذلك لا يشكره مسلم في الأرض ، فهذه الصفات مشتركات بين العبد والرب ، فلو كان هذا الاشتراك يوجب المعاملة المتنوعة لكان جميع المسلمين مشبهة وهو باطل ، إذن المشاركة المتنوعة هي التي تكون في نفس مقومات الذات وذات الله وصفاته لا يعرفها إلا هو . وإذا كان الساحر لا يعرف سحره على وجه الحقيقة إلا ساحر مثله فما بالك بالنبي صلى الله عليه وسلم وما بالك بالله تعالى ، فإذا كان الناس جميعاً قد يتسوا من النبوة بعد الأنبياء فلا يمكن أن يدركوا معنى النبوة على وجه التحقيق ، وإذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم وجميع الناس في الأرض لا يمكن أن يتصفوا بصفة الله ولا يكونون آلهة فحال عليهم أن يعرفوا الذات الإلهية ولا حقيقة الصفات وإنما تتجلى لهم المعاني التي دلت عليها الأسماء الدالة على الصفات السبع وعلى الذات الواجب الوجود الخ . وعلى مقدار علمهم بتلك المصنوعات يكون إشراق نفوسهم كل بقدره . راجعه هناك فإنه واضح ولكن لا بد أن أوضح ما لم أكن

لأوضحه هناك فإن صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير قال لي إنه ليحسن بك أن تبين معنى كون النبي ﷺ رءوفاً رحيماً في قوله تعالى «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم» وهاهنا في البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) فالله رحيم والنبي رحيم والله سميع وبصير ونحن كذلك. فقلت إن الشمس سراج كما قال الله تعالى «وجعلنا سراجاً وهاجاً» والسراج أيضاً ما نوقده في منازلنا. قال نعم. قلت فالذي في منازلنا سراج يوقد إما من (البترول) وهو السائل المستخرج من الأرض، وإما من الغاز المستخرج من الفحم، وإما من شمع العسل، وإما من زيت الزيتون وغيره، وإما من شحم الحيوان، وإما من السكرباء. فسلك سراج في الأرض إما من معدن أو نبات أو حيوان وأنت تعلم أن الأرض قطعة من الشمس وأن كل نبات وحيوان مستعدت أنوارها وحرارتها المخزونة فيها من نور الشمس مع أننا نسمى ذلك سراجاً والشمس سراج. فإذا كانت الشمس الحادثة تسمى سراجاً باسم القنديل الذي نضعه في منازلنا وما القنديل إلا أثر من آثار الشمس وضوؤه بالنسبة لها كالعدم بالنسبة للوجود. أو كالحبال بالنسبة للحقائق. أفلا يسهل هذا المثال علينا كيف يكون الله رحيماً والنبي صلى الله عليه وسلم رحيم. وكيف يكون الله سميعاً بصيراً ونحن كذلك؟ وهنا ظهر المقام ظهور الشمس لأولئك الذين لا يفقهون العلم إلا بضرب الأمثال؛ وبهذا زالت الشبهة التي تعشى على عقول أكثر الناس وهذا قول الله تعالى «ليس كمثل شيء وهو السميع البصير» فعدم المماثلة في الحقائق الذاتية، وليس إثبات السمع والبصر له مقتضياً المماثلة بل ذلك مجرد مشاركة في أوصاف نسبة صفات العبد فيها إلى صفات الله تعالى كصفات سراجنا إلى الشمس. فسراجنا ثمرة من ثمرات الشمس وهو بالنسبة لها كالحبال بالنسبة للحقيقة هكذا قدرتنا وعلما وكلامنا وحياتنا فكلمها على هذا النمط مشاركة في الاسم وضرب مثل لاغير. وإنما ذكرت هذا للمخس هنا لتعلم أن ما أكتبه الآن غير ما تقدم كله. ولأقدم لك مقدمة فأقول أنا أكتب هذا المقال ليلة الاثنين ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٩ م أذكر فيه ما زاولته من العمل يوم الجمعة (١٨) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م وإنما أذكر ذلك لأنني كنت في نفس العمل أفكر في هذه المعاني ياسبحان الله اللهم إني أحمدك وأشكرك على نعمة العلم والحكمة. خرجت من القاهرة صباح ذلك اليوم ولست أقول إلا ما قلته من قبل وهو أنني إذا ركت قطار سكة الحديد الواصلة من القاهرة إلى محطة المريج أنهز فرصة الذهاب إلى مزرعتنا وأمشي على قدمي علماً مني بأن الله عز وجل هبأ لي هذه الفرصة لأنتهزها طلباً للصحة واستنشاقاً للهواء ونظراً للحقول ودرسا يقرؤه المسلمون. فهذا المشي تكون صحة البدن ودرس العلم. وبيانه أنني في ذلك اليوم لم أزد أن أسير في الطريق المسالك ولا أدري لم هذا الميل فإني كثيراً ما أميل إلى السير في وسط تلك الأرض تحت النخيل تارة وفوق الأعشاب تارة أخرى. إن هذه الأرض سبخة وكنت أشاهد فوقها مواد ملحية طافية فوقها تارة وتارة أجدها أسناً أشبه بالزيت في لونه وأكثر الأرض مغطاة بحشائش رعاها القمح والبقرة والجاموس. وهنا أخذت أنأمل في هذا الوجود وأقول هذه الأرض لاتصلح للزراع. لا يمكن زرع القطن ولا القمح ولا الأرز ولا برسيم البهايم. فهي أرض قال الله فيها (والذي حبت لا يخرج إلا نسكدا) ولكن ما أشد دهش العاقل إذ يرى أن الحشائش التي تنبت فيها تخرج قوية خضراء لا تبرح الأنعام تتردد عليها صباحاً ومساءً لاتضرها وكلما أكلت منها حشائش نبت غيرها على الأثر ولم يبق يذرها ولا حرثها ولا سقيها أحد ولا تضرها الحشرات ولا الحر ولا البرد ولا الآفات السماوية والأرضية ونظرت في تلك الحشائش التي تتخلل تلك الأرض المملوءة بالماء الأسن الذي جاء من سقي الأرض بالماء ويسمونه الرشاح، أي الذي جعل لاجتماع الماء الذي تغسل به هذه الأرض السبخة عسى أن تصلح للزراعة فيما بعد) نباتاً مرتفعاً قوياً متيناً أجمل وأبهى من مزارع الفلاحين في الأرض الطيبة وقد صمدوها بالسجاد وحافظوا على مواقيت سقيها. فهذا

النبات الذى يسمون بعضه (اللديس) وبعضه يسمونه (البردة) النابت فى ذلك الماء الآسن فى تلك الجارى لا يعتره اصفرار ولاضعف مثل مايعترى المزارع التى قام الناس بحفظه ، هاهنا تذكرت الرحمة التى وسعت كل شىء . وأن الله لا يندر شيئاً فى الوجود بلامنفعة . فإذا رأينا الزرع لايجود ولايشمر أحسن نمر إلا إذا سمد وخير السماد ما كان من جوف حيوان . فهذه القاذورات التى يألف الناس منها هى التى عليها مدار ثروتنا وحياتنا ، فإذا كان الأمر كذلك فيما ازدريناه مما خرج من الإنسان والحيوان ، فهكذا فعل فى الأرض السبخة فقال لنا الأرض الطيبة لكم فاعملوا فيها ، أما الأرض السبخة وهى الحبيثة فهى الحيوان والحيوان لاقدرة له على التسميد والسقى فأنا الذى زرعت الأرض له وجعلت هذه الحشائش ذات قوة لتحتمل ما تحمل من ظمأ ومن ماء ومن حر ومن برد ولايعوزها سماد ولايؤذيها دوس الحيوان صباحاومساء عليها فأنا المنتكفل برزقها ، فهكذا كانت حكمتى فحكمتى أن أجعل البرد على قدر العطاء ، وههنا تذكرون أنها الناس أن من النبات مالا يعيش إلا فى الماء وهو الأرز ، ومنه مايعيش فى الماء وغيره كنبات على شاطئ النيل ، ومنه ما لايعيش إلا فى البر ويسقى وقتنا بعد وقت ، فأنا لطيف أعطى لكل مقام مقالا .

أقول : خطرت فى نفسى هذه المعانى فحمدت الله عز وجل إذ جعل نظرى عبرة وصمق ففكرة ، فبينما أنا كذلك أفكر فى هذه الرحمة الواسعة التى شملت الإنسان والحيوان إذخطرلى أن فى كتاب [علوم للجميع] الذى ترجمت منه كثيرا فى هذا التفسير نباتات مرسومة نابتة تحت الماء على أعماق مختلفة ، فهنا أنا ذا الآن أراجعها والرسوم أمامى ، فأنا الساعة أشاهد العجب ، أشاهد فى المجلد الثالث مقالا عاما فى نبات البحر وحيوانه وإنه لاحد لوجود الحيوان فى البحر ، وقد وجدوا الإسفنج على بعد (١٠٠٠) قامة عند شواطئ البرتغال والبرازيل ، أما فى شمال المحيط الباسفيكى فإنه يكون على عمق (١٨٧٥) قامة وعلى بعد (٢٩٠٠) قامة بساق طوله ستة أقدام ، وترى عمق المحيط الاطلانطيق قد يبلغ (٣٨٧٥) قامة فأكثر ، وفى البحر الأبيض المتوسط يصل العمق إلى أربعة آلاف قامة فأكثر ، وترى فى صحيفة ١٦٥ من ذلك الكتاب فى الجزء الثالث صورة شجرة نوع من (الزئبق) نابتة فى قاع البحر ، وبعد ذلك ترى شجرة عجيبة يسمونها (بنت البحر) بهيئة غريبة بحيث تميل أعضائها إلى الجوانب وتظهر للناظر كأنها طبق يضاوى الشكل ، وهكذا من النباتات العجيبة النابتة فى قاع البحر وفوقها ألف قامة أو ثلاث آلاف وهكذا . كل تلك ماء فوقها وهى خضراء بديعة قوية متينة . كل ذلك أذكره لمناسبة هذه الناظر التى شاهدتها فى العراء وأنا ذاهب إلى مزرعتنا ، أشاهد رحمة الله فى تلك الأرض السبخة وأشاهدها فى حقولنا ونحن نصب وتعب وكأن الله يقول لنا : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء إنه بعباده خبير بصير » الله خبير وبصير وبهذه الخبرة والبصر أعطى كل شىء خلقه ثم هدى فقال أيها الفلاحون انصبوا واتعبوا فإن أجسامكم وعقولكم إذا لم أشغلها بذلك انحطت وسفلت وجعلت الحياة لا تطاق ، لذلك جعلت ما كلكم وملابكم كلها بنصب وتعب وهذه هى الرحمة ، أما أنت أيها البهائم ، وأنت أيها الطيور ، وأنت أيها الأسماك فى البحار فاعلمن جميعا أنى أنا الراحم لكن بنفسى فأثبت الحشائش فى الأرض السبخة وأثبت حشائش وأشجارا فى أعماق البحار التى تبلغ آلاف القامات ليكون ذلك منفعة مخلوقاتى الحيوانية فى الماء ، فهذه رحمتى ، وهنالك أخذت ألحظ أن كثيرا من أسماء الله الحسنى تطبق على تلك الناظر ، فأنت رحمن رحيم وهو ملك لأنه يحتاج إليه كل أحد وليس محتاجا هو إلى أحد فنجد حاجات الفلاح والبهائم والسمك كلها متجهة إليه ، وهو بها قائم وهى كلها آمنة فى سربها فرحة بحياتها وهو مؤمنها ، فأنت هو (المؤمن) الذى يعزى إليه الأمن والأمان فإنى أمر فى تلك الأرض السبخة الواسعة فأرى أسرابا من الحطاطيف تطير بفرح وسرور . وهكذا أنواع العصافير والغربان

والدواب ترعى وهي آمنة مطمئنة وهو (السلام) لأنه سلمت أفعاله من الشر وكل شر في الوجود لم يخلق إلا لخير كما من فيه ولا يعقل هذا إلا من درس أكثر هذا التفسير أو قرأ كتباً نظيره وهو (العزير) الذي يقل مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، ولا جرم أن جميع الخلق محتاجون إليه في كل لحظة وهو (الجبار) فهو الذي ينفذ مشيئته على سبيل الإيجاب في كل أحد ومن ذلك مخلوقات البر والبحر التي ذكرتها لك، وهو (الخالق البارئ المصور) فهو الذي قدر هذه النباتات وعلى مقتضى التقدير (بحيث يكون هذا في الأرض السبخة وهذا في الماء، وهذا في الأرض الطيبة وهذا في البحر) يوجد ذلك النبات وليس للإيجاد تمام إلا بالتصوير فهذه المعاني واضحة في هذه المشاهدات (الخالق البارئ المصور) وهكذا إلى آخر أسماء الله الحسنى وعلى ذلك أبداً فقس. ولما كان وقت المغرب نظرت وأنا في القطار إذا الشفق في الأفق بعد الغروب. فماذا رأيت؟ رأيت منظراً بديعاً بهجاً، شفق لونه الصفرة الهبجة التي بنظرها ابتهجت نفسي، ولكم من ناظر الشفق ويعوزه هو الإشفاق عليه، ذلك لأن ما اعتاده الناس غالباً لا يحسون بحمالة. وأكثر الناس مغمورون في الجمال ولا يشعرون به. هنالك أخذت أفكر في نفسي كيف أحست بالجمال في الشفق بعد الغروب، ما هو الشفق؟ إن هو إلا شعاع جرى من الشمس تحت الأفق وانتشر فوقه مختلطاً بالهواء الجوي، ثم ما هو الهواء وما هو الضياء؟ الهواء مادة مركبة من عناصر قليلة مثل (الأكسوجين) و (الأزوت) وهناك مادة الفحم وبخار الماء. ولا جرم أن ذلك كله إما عنصر أو راجع للعناصر والعناصر جميعها ضوء والضوء حركة. إذن كل هذا حركات، ونفس ضوء الشمس المذكور هنا ما هو إلا حركات فيما سماه الناس (الآثير) وهكذا الزرع والشجر والحيوان وأجسام الناس. كل هذه ما هي إلا عناصر (اقرأ ما تقدم في سورة النور عند آية النور واقرأ الكشف الحديث هناك موضعاً في قطرة ماء) إذن هذا السكون كله ضوء والضوء حركات والحركات في الآثير، والآثير (كما اتضح وضوحاً تاماً عند علماء الأمم عموماً) أمر فرضي فرضوه ولم يعرفوه، ولكن لنا الحق نحن (إذا عجز جميع العقلاء فعلاً) أن نقول فلنسم هذا الذي به كان الخلق (رحمة الله) لأننا لانعرف الآثير بل هو فرض فرضوه فقط ولنقرأ قوله تعالى: «ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه» الخ وهذه خير ما يقال في هذا الزمان.

فإذا كانت المادة لا وجود لها وما تحلوه فسموه (الآثير) أمر موهوم، إذن يكون أصل هذا العالم أمر يرجع إلى آثار الرحمة وإلا فنحن ننظر لهذه الصور الأرضية والسماوية بعيوننا فتراها ظاهرة ونلحسها ونشمها والحقيقة أنه لا شيء هناك (كما هي نظرية اينشتاين) التي تقدم في هذا التفسير وأن السكون سكون في سكون وما هي إلا حركات والحركات باختلافها وبتنوعها صارت أشكالاً. إذن الفضل كل الفضل لأرواحنا وحواسنا وعقولنا فهي التي ظهرت لها هذه المشاهدات وصارت فيها على هذا النمط.

الله أكبر. إذن درس النهار في الحشائش وتذكر الحقول وأشجار البحار العميقة ظهرت ثمرة بعد الغروب إذ كان الشفق هو الذي ذكرني أن كل ما رأيت في النهار ما هو إلا حركات لا ترى وبالذي شع منها حصل تنوع صار نباتاً وحيواناً وأرضاً وسماء. إذن المدار على إحساس حواسنا ولا عبرة بالخارج فلو أحست نفوسنا وحواسنا بأمر سار أو صارتم الأمر، وعليه أصبح أمر الموت أمراً سورياً لا غير، لأن الناس الآن ليسوا في مادة بإجماع علماء الطبيعة في عصرنا وبالموت قد تجردوا مما توهمونه مادة. إذن نحن بالموت نخرج من الوهم الذي غشى على عقولنا. إذن العلم الحديث أظهر لنا سر ما يروى «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» وبهذا نفهم ما تقدم في هذا التفسير عن أفلاطون إنه يرى [أنه إذا كانت المادة لا تثبت لها فهي لا يصبح أن تكون مناط العلم لأن العلم ثابت في نفوسنا وهي غير قارة وغير القار لا يكون مناط القار الثابت]

فلا مخلص عنده إلا بأن يقال إن المادة صورها صور مطابقة (مثل) معنوية جوهرية لطيفة سماها الناس (المثل الأفلاطونية).

ولقد طال الجدل فيها بين علماء الأمم . ولكن الذى يهمنى الآن أن أقول : إذا كانت المسألة يقول فيها أفلاطون إنها لا يصح أن تسمى موجودة فضلا عن أن تكون مناطا للعلم حتى اضطر إلى تلك التلبيح . أفليس من العجب أن علماء العصر الحاضر قد نفوها بتاتا . كأن الرجل كان ذا نظر ناقب حتى ظهر الآن ظهورا علميا كلامه .

فهذا بلا ريب يفسر قوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه » وإذن نقول . إذا كانت السموات والأرض وما فيها لا تصلح مناطا للعلم وليست موجودة موادها وإنما الوجود ماهو إلا ظواهر اخترعتها حواسنا : أى أن هذا وجود بالنسبة لحواسنا لا غير فهو وجود نسبي . إذن الوجود الحقيقي هو الذى ينبغى التويل عليه ، وللوجود الحقيقي هو الله والله لم نعرفه إلا بآثار صفاته ، وصفاته ظهرت بأسمائه التسعة والتسعين ومنها (الله الرحمن الرحيم) فى أول هذه السورة ، وهذا بعض السر فى تكرير البسملة فى أول كل سورة . فهذا التكرار عند الجاهل أشبه بما ينظره كل يوم فى الحقول والحدائق والقلوات من العجائب فلا يعقلها ، أما العالم فإنه يقول . كلا . ألم يظهر عند العلماء قاطبة فى عصرنا أن المادة لا وجود لها ، وهذه الظواهر موجودة عند حواسنا وحواسنا هذه الظواهر معها منسوبة إلى من نظمها ، وهو الثابت الدائم وصفاته التى رأينا آثارها . إذن بها نستغنى عن (المثل الأفلاطونية) وهذا هو سبب تكرار هذه الأسماء الثلاثة فى أول كل سورة . يقول : أيها الناس الخالق كلهم من رحمى أما الأثير فكلمة جوفاء . ألم تقرأوا « ورحمى وسعت كل شيء » ألم تقرأوا « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » فالرحمة لا بد معها من العلم حتى تتم نتائجها على الوجه الأكمل ، فقولى « رحمة وعلما » يغنيكم عن المثل الأفلاطونية وعن العالم الأثيرى ، فكل هذه فروض لا دليل عليها ويغنى عن هذا كله أن تقولوا « رحمى وعلما » .

أقول : يعجبني قول من قال فى عصرنا [إن العوالم ماضية إلا فسكر مجسم] أى أشبه بخيالنا إذا تجسم ماضيه أمام أعيننا لا غير « فتبارك الله أحسن الخالقين » وهو أرحم الراحمين .

اللهم إني أحمدك على العلم وعلى الحكمة ، أحمدك على أن ماتراه فى الزارع مفسر لمعنى الرحمة ، ويقول علماء التربية فى عصرنا [إن العلم والدراسة كما كانا أقرب إلى الأحوال للمشاهدة والأمور المحسوسة المحيطة بالناس كانت أقرب إلى رقى الأمم ، وكلما كانت العلوم متباعدة عما يزاوله الإنسان كانت أقل فائدة وأبعد عن رقى التعلين] وهذه الفكرة هى التى أوضحتها العالم فى علم فن التعليم (البيداجوجيا) الذى أوفدته حكومتنا المصرية فى هذا العام سنة ١٩٢٩م لدراسة أحوال الأمة المصرية من حيث التعليم فذكر أن التلاميذ إذا دخلوا المدرسة فقد انقطعت صلتهم بأحوالهم المعتادة الخ .

فهل تحب أيها الذكى أن أقص عليك ما خطر لى يوم الأربعاء ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩م وإنما أقصه عليك تبيانا لمعنى الرحمة وبعبارة أخرى تفسيرا للبسملة . هذا الحاضر خطر لى فى القاهرة لافى الحقل كالحاضر المتقدم . ذلك أنى كنت متوجها إلى محطة القاهرة ماشيا على قدمى كما كنت أمشى فى الحقل قبل ذلك فأخذت أفكر فى معنى الرحمة وأقول سبحانه ياربنا أنت القدوس السلام . أنت الرحيم . أنا الآن أمشى فى شوارع القاهرة الجميلة ولكنى أعتقد أن هواء هذه الشوارع ملوئ من اللواد الفحمية فهو ضار لصحتى . أنت خلقت ذلك الضرر فى أنفاسنا وجعلته سببا للأمراض والموت بحيث لو نام جماعة كثيرون فى حجرة ضيقة وأقفلوها ليالى فإن وجوههم تصفر ويضعفون كما هو معلوم فى كل أمة . إذن سيرى على القدمين فى الحقول صحى

وفي المدن قليل الفائدة لأن الفائدة من المثل هو كثرة التنفس ولا فائدة في التنفس إلا في الأكسوجين وهو المادة الحيوية التي تدخل في أجسامنا وتسرى في دماننا . أنت ياربنا لم ترد بهذا الضرر إلا الخير . ذلك أنك خلقت هذه الأرض وأوسعها وخلقتنا عليها ، وكان من سياستك في خلقنا أن جعلت ذكرا وجعلت أنثى جريا على نظامك في النبات والحيوان . فالإناث يلدن والآباء يربون ، وهناك تولى المنازل ووضعت في نفوس الأبوين رافة ورحمة بالذرية ولكنك وضعت الغبطة والحسد والحقد والضغائن بين بعض الذرية . فالشفقة في الأبوين للعناية بالذرية والبغضاء والشحناء والعداوات في الذرية والأقارب نعمة كبرى ، لأن هذه العداوة وهذه المنافسة وهذه الغيرة وهذه الغبطة ما هي إلا مسوقة إلى تدير العيش ونظام الأسرات . وبهذه المنافسة والمشاحنة والمقاطعة يتفرقون وتفرقهم هو عين الرحمة ليجد كل واحد لنفسه ولا يتكل على غيره . وأيضا ليتفرقوا في أرض الله فإذا بقوا في مكان واحد ، قل الغذاء وكثرت الأنفاس والمضار والأمراض . إذن الحكمة قضت بالهبة وقضت بالعداوة رحمة بالناس في الأمرين فيتفرقون ويستخرجون من الأرض النعم الجزيلة . سبحانك اللهم أودعت الرحمة في قلوب الأبوين لتسوقهما لتربية الذرية ، وألقت العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة في قلوب الذرية والأمم ليتفرقوا في الأرض ويستخرجوا منافعها وليتنافسوا كما يقول الشاعر :

عدائي لهم فضل علىّ ومنة فلا أبعد الرحمن عن الأعدايا
هم بمحوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاجتنت العاليا

وهذان البيتان مع غيرهما تقديما في هذا التفسير وقد حسنتهما ؛ العداوة اشتركت في ترقية النوع الإنساني غاية الأمر أن العداوة ليست مقصودة لذاتها بل لغيرها كما أن الجوع لم يقصد منه إضرارنا بل قصد منه الحث على ارتقائنا ، ولا عمل لعلم الأخلاق إلا تهذيب المحبة وتهذيب العداوة فلا إفراط في الأولى لئلا يكون الليل المحجف بحقوق غير المحبين وتهذيب العداوة بحيث تقف عند حدها فلا إفراط ولا تفريط . هذه وظيفة علم الأخلاق مهما طال الخطب فيها فهو مشذب لما فينا من الأحوال كما يشذب البستان شجر البستان .

ثم إن الأمم لما ارتفعت في عصرنا الحاضر ازدحمت المدن بالسكان وعرفوا مضار الازدحام . إذن هناك (زاجران) للناس عن الازدحام (الزاجر الأول) ماغرس في النفوس من العداوات والمنافسات وغيرها (الزاجر الثاني) ما طبع عليه الهواء الجوي من التعفن بسبب الازدحام وامتلائه بالحيوانات الذرية والمواد التحمية القاتلة للتنفسين من الأحياء للزدهمين .

وإن أردت إلا البيان فاسمع ماجاء في (الزاجر الأول) من كتاب « إخوان الصفاء » ثم اسمع بعد ذلك ماجاء في (الزاجر الثاني) من آراء علماء الإحصاء في العالم التمدنين الآن . أما ماجاء في (إخوان الصفاء) فهاهو ذا نصه :

﴿ فصل : في بيان كمية أنواع الحشرات والشرور في هذا العالم ﴾

اعلم أن الخير والشر على (أربعة أنواع) فمنها ما ينسب إلى سعود الفلك ونحوه ، ومنها ما ينسب إلى الأمور الطبيعية من الكون والفساد وما يلحق الحيوانات من الآلام والأوجاع ، ومنها ما ينسب إلى ما في جبلت الحيوانات من التآلف والتنافر والمودة والتباغض وما في طباعها من التنازع والتغالب ، ومنها ما ينسب إلى ما يلحق النفوس التي تحت الأمر والنهي في أحكام النفوس من السعادة والنحوسة في الدنيا والآخرة جميعا ، ثم اعلم أن لهذه الأنواع من الحشرات والشرور التي ذكرناها أسبابا وعلا بظول شرحها ، وقد ذكرنا طرفا في [رسالة العلل والمعلولات] ولكن نذكر في هذا الفصل منها ما لا بد منه فنقول :

إن الحيريات التي تنسب إلى صعود الفلك فهي بعناية من الله تعالى وقصد منه لاشك فيه . وأما الشرور التي تنسب إلى نحوس الفلك فهو عارض لا بالقصد ، مثال ذلك إشراق الشمس وطلوعها على بعض البقاع تارة وتسخينها الماء مدة ومغيها عنها تارة أخرى كما تبرد تلك البقاع مدة ما فهو بعناية من الله تعالى وواجب حكمته لما فيه من الصلاح والنفع للعموم كما قال تعالى « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون » وقال « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » وإنما ذكر الله تعالى إنعامه على عباده وإحسانه إليهم وأفضاله عليهم ، فأما الذي يعرض لبعض الحيوانات وبعض النبات من الحر للفرط والبرد للتلف في بعض الأوقات وفي بعض الأحيان وفي بعض البقاع فليس ذلك بالقصد الأول ، وهكذا أيضا حكم الأمطار وإنما أرسلها لكيما يحيي بها البلاد ويصلح بها شأن العباد فإن عرض من ذلك أذية لبعض الحيوانات أو تلف النبات أو تحزنت به العجائز فليس ذلك بالقصد الأول ، وعلى هذا القياس حكم جميع ما ينسب إلى نحوس الفلك من الأمور العارضة للحيوان والنبات والمعادن ومواليد الناس وما يحكم في تحاويل من السنين وأحكام القرابات وما شاكل ذلك وما ينسب إلى نحوس الفلك من الشرور والفساد جميعا عارضا لا بالقصد الأول . وأما الحيريات التي تنسب إلى الأمور الطبيعية فهي كون الحيوان والنبات والمعادن والأسباب المعينة لها على النشوء البالغة لها إلى أتم حالاتها وأكمل نهايتها فهي كلها بقصد من الله تعالى وعناية من تفضله وإنعامه . وأما الشرور التي هي الفساد والبلى التي يلحقها بعد السكون والفساد والأسباب التي تعوقها عن البلوغ إلى التمام والكمال فهي عارض لا بالقصد الأول ولكن بالقصد الثاني . وذلك أن هذه الكائنات التي دون فلك القمر لما لم يمكن أن تبقى أشخاصا في الهبولي دائما في هذا العالم تطلعت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن يكون بقاؤها بصورها وإن كانت الأشخاص في التدوير والسيلان دائما والمثال في ذلك صورة الإنسانية التي هي خليفة الله في أرضه فإنها باقية منذ خلق الله تعالى آدم أبا البشر إلى يوم القيامة وإن كانت الأشخاص في الذهاب والهبوط فكذلك حكم سائر الحيوانات والنبات والمعادن وأنواعها باقية بصورها وإن كانت الأشخاص في السيلان والتدوير . وإنما كان ذلك بواجب الحكمة لأن في القوة فضائل وخيرات بلا نهاية لا يمكن خروجها من القوة إلى الفعل والظهور دفعة واحدة في وقت واحد لأن الهبولي لا تتسع لقبولها إلا شيئا بعد شيء على التدرج وممر الأوقات والزمان دائما أبدا . والمثال في ذلك أنه لو خلق الله بني آدم كلهم من مضي منهم ومن هو موجود الآن ومن يحيا من بعد إلى يوم القيامة في وقت واحد لم يمكن أن تسهم الأرض برحبها فكيف حيوانهم ونبات غذائهم وأمتعتهم وما يحتاجون إليه في أيام حياتهم ؟ فمن أجل هذا خلقهم قرنا بعد قرن وأمة بعد أمة لأن الأرض لا تسهم والهبولي لا تحملهم دفعة واحدة ، فقد تبين بما ذكرنا أن النقصان ليس من قبل الله تعالى وعلة أخرى أيضا لأسباب الشرور . وذلك أنه لما كانت هذه الكائنات يبتدىء كونها من أتمس الوجود وأضعف القوى مترقية إلى أتم الحالات وأكمل الغايات بأسباب معينة لها على النشوء والنمو ومبلغة إلى أكل غاياتها بعناية من الله تعالى سميت تلك الأمهات خيرات ، وكذلك كل سبب عارض بلوغها عن ذلك يسمى شررا وهي عارضة لا بالقصد الأول والمثال في ذلك ما تقدم ذكره من أمر الشمس والمطر .

﴿ فصل : في بيان القصد الأول والقصد الثاني على قول الحكماء ﴾

أما الحيريات التي تنسب إلى جبهة الحيوان وما في طباعها وأخلاقها وأفعالها بقصد منها وإرادة فهي بالقصد الثاني لا بالقصد الأول . ثم اعلم أن معنى قول الحكماء القصد الأول والقصد الثاني ، فالفرق بينهما هو أن ما كان من قبل الباري تعالى من الإبداع والإيجاد والاختراع والبقاء والتمام والكمال والبلوغ وما شاكل ذلك

من الأوصاف يسمى القصد الأول . والقصد الثاني هو كل ما كان من قبل نقص الهوى أنه لم يحي منها إلا هذا ولم يقبل إلا هذا وما شاكل ذلك من الأوصاف .

وأما بيان أنواع الشرور المنسوب إلى بعض الحيوانات وإلى الجيلة المركوزة فيها فنقول : إن الشرور التي تنسب إلى جيلة الحيوانات وما في طباعها هي ثلاثة أنواع : فمنها الآلام التي تعرض لها دون سائر الموجودات ، ومنها العداوة التي في جبلتها ، ومنها أفعالها التي بقصد منها وإرادة . فأما آلامها فتكون من (ثلاثة أوجه : أحدها) ألم الجوع والعطش عند حاجة أجسادها إلى المادة والغذاء (والثاني) ألم الضرب والصدم والكسر المضر بأجسادها المتلف لها كلها (والثالث) ألم الأمراض والأسقام المفسدة لمزاج أجسادها وأخلط أبدانها إلى آخر ما تقدم (في سورة الروم) في تفسير البسمة ثم قال بعد كلام طويل مانصه :

﴿ فصل : في بيان الشرور التي في جيلة الحيوانات المختلفة الصور والأشكال التي هي بالقصد الثاني ﴾

أما الحيات التي في جيلة الحيوانات وأخلاقها التي هي الإلف والمحبة والهرب والشرور التي هي العداوة والغلبة والقهر فهي أيضا بالقصد الثاني . وذلك أنه لما كانت الحيوانات مختلفة الصور والأشكال والطباع والعادات والأخلاق والأفعال لأسباب يطول شرحها ، وقد بينا طرفا في [رسالة العلل والمعوليات] جعل بين بعضها وبعض ألفة ومحبة ومودة لسببها يكون سببا لاجتماعها واتفاقها لما في ذلك من صلاح الكل والنفع على العموم ، وجعل أيضا بين بعضها وبين بعض نفورا وعداوة ليكون سببا لتباعدها وتفرقها لما في ذلك أيضا من صلاح الجميع والنفع العام . مثال ذلك إلف بعض الحيوانات للإنسان واتقيادها للطاعة كالبحر والنعم والحيل والبيغال والحمر والجمال والفرس لما في ذلك من صلاح ونفع للناس مما هو معروف مشهور فلا حاجة إلى تفصيل كيفية ذلك . ولما لها أيضا من النفع في مراعاة الناس بالعلف والسقي والكن من الحر والبرد ومنع السباع عنها ومداوتها من الآفات العارضة لها وما شاكل ذلك . ومثال نفور بعض الحيوانات من الإنسان وتباعدها عن طاعته مثل السباع والحيات وجملة الحيوانات القليلة النفع الكثيرة الضرر لما فيه من صلاح الكل والنفع العام . وعلى هذا القياس حال سائر الحيوانات بعضها مع بعض فيما بينها من الإلف والمحبة والبغض والعداوة لما فيها من النفع والصلاح . وأما الشرور التي تنسب إلى بعض أفعال الحيوانات بالقصد منها والإرادة فمنها أيضا عارضة من أجل الهوى التي هي مادة لأجسادها وقوام لها كلها . وذلك أن المنافع لما كانت مشتركة بين الجميع وكانت في جبلتها طلب المنافع ودفع الضرر بالقصد الأول من الله تعالى كما تقدم ذكره وقعت بينها هذه المنازعة في طلب تلك المنافع ودفع تلك الضرر بالعرض لا بالقصد . وأما علة كون الحيوانات بعضها آكلة وبعضها مأكولة فقد بينا طرفا منها في [رسالة الحيوانات] والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت تلخيصه من [إخوان الصفاء] وأما ما أشار إليه من الكلام على أكل الحيوان بعضه بعضا فانظر ماجاء في [رسالة العلل والمعوليات] فهذا نص المقصود منه :

(١) إن الله تعالى لما خلق أجناس الحيوانات التي في الأرض، وعلم أنه لا تدوم بذاتها أبد الأبدين جعل لكل نوع منها عمرا طبيعيا أكثر مما يمكن منه ثم يحيته الموت الطبيعي إن شاء أو أبى، وقد علم الله تعالى بأنه يموت كل يوم منها في البر والبحر والسهل والجبل عدد لا يحصى إلا الله تعالى . ثم جعل بواجب الحكمة جثة جيف موتها غذاء لإحيائها ومادة لبقيائها لئلا يضيع شيء مما خلق الله تعالى بلا نفع ولا فائدة وكان في هذا منفعة لأجسادها ولم يكن فيه ضرر على الموتى .

(٢) « وخصلة أخرى » لو لم يكن الأحياء تأكل جيف الموتى منها لبقيت تلك الجيف واجتمع منها على مر الأيام والدهور كثير حتى تمتلئ منها الأرض وقمر البحار وتنتن ويفسد الهواء والماء من نتن روائحها فيصير ذلك سببا لكونها هلاكا للأحياء ، فأى حكمة أعظم من هذه ؟ إن البارئ تعالى جعل في أكل الحيوانات بعضها بعضا من المنفعة للأحياء ودفع الضرر عنها كلها وإن كانت تنال بعضها الآلام والأوجاع عند التذبح والقتل وليس تصد القايض والقائل من ذبحها وقبضها إدخال الألم والوجع عليها بل لينال المنفعة فيها لدفع مضرة بها .

(٣) ثم إن الله جعل الناقص منها علة للكامل وسببا لبقائه والأدون خادما للأشرف ومعينا ومسخرًا له ، ويبان ذلك من النبات الجزئي أنه لما كان أدون رتبة من الحيوان الجزئي وأنقص حالة منه جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه وجعل النفس النباتية في ذلك خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها وهكذا أيضا لما كان رتبة النفس الحيوانية أنقص وأدون من رتبة النفس الإنسانية جعلت خادمة ومسخرة للنفس الإنسانية الناطقة، وهذه الحكومة التي ذكرناها كلية بينة ظاهرة للعقول السليمة فنقول على هذا الحكم والقياس لما كان بعض الحيوانات أتم خلقه وأكمل صورة كما بينا قبل هذا جعلت النفس الناقصة منها خادمة ومسخرة للنامة منها الكاملة وجعلت أجسادها غذاء ومادة للأجساد النامة منها وسببا لبقائها لتبلغ إلى أتم غاياتها وأكمل نهاياتها كما جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه وسببا لكامله ، وكما أنه لما كانت النفس النباتية إذ هي أدون رتبة من النفس الحيوانية جعلت خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها في رتبها غذاء لها ومادة لأجسادها . فهكذا جعل حكم نفوس الحيوانات الناقصة خادمة لنفوس الحيوانات النامة الحلقة الكاملة ومسخرة لها لكيما تربي جسمها وتنميها وتسلمها إلى الحيوانات التي هي أكل منها وأشرف ليكون ذلك غذاء لأجسادها ومادة لأبدانها وسببا لبقاء أشخاصها زمانا ما أطول ما يمكن وعلة لتوالد نسلها وبقاء صورتها لأن هوى الأشخاص دائما في الدواب والسيلان فيحتاج إلى بدل ما يتحلل من الأشخاص فإذا قد تبين بما ذكرنا ما العلة في أكل الحيوانات بعضها بعضا . فالأسباب إذن ثلاثة : الأتني الرمم بلا فائدة ، وألا يفسد الجو ، وأن يكون الأدنى خادما للأعلى . انتهى من [إخوان الصفاء] والحمد لله رب العالمين .

وأما ماجاء عن علماء الإحصاء في عصرنا في (الزاجر الثاني) وهو تعفن الهواء بالازدحام وأن هذا السبب والذي قبله جعلهما الله مهمازين يسوق بهما الناس للفرق على وجه الأرض ليم العمران . فهناك ماجاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم الثلاثاء (٢٩) أكتوبر سنة ١٩٢٩م وهذا نصه :

﴿ من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ٢٥٠٠ ﴾

يقول الإحصائيون إن سكان العالم يزدادون ازديادا متواصلا وأنه سيأتي يوم تضيق عليهم الأرض برحبها . أجل إن هذا اليوم لا يزال بعيدا عنا ولا يبصر نوره إلا أحفاد أحفادنا . فسكان العالم يبلغ عددهم الآن مليارا وتسعمائة وستين مليونًا . وسيصبح في سنة (٢٠٠٠) ستة مليارات . ولا بد من القول إن هذا العدد هو أقصى ما تستطيع الأرض أن تعوله . ومن حسن حظنا أن مانتجها الأرض من الطعام والشرب يزيد على حاجتنا إليه . ويقول العارفون [إن أعقابنا يستطيعون بما سيكون لديهم من الوسائل العلمية في الزراعة أن ينتجوا غذاء لثمانية مليارات من البشر] وعليه لا خوف على الأجيال الآتية من الموت جوعا ولكنها لا تبقى على ما هي عليه الآن من السعة في العيش لأنه لا يبقى إلا كيلومتر واحد لكل مائة وأربعين نفسا . وإذا اعتبرنا الأراضي

العامرة رأينا أن متوسط عدد السكان في الكيلومتر الواحد من الأرض العامرة يبلغ (٢٣٧) أى أكثر مما في نيويورك فإن متوسط عدد السكان في هذه المدينة العظيمة (٢١٧) في الكيلومتر المربع . وقد أصبح الموقف حرجا في أوروبا، فإن مساحتها التي تبلغ (٣٧٥٠٠٠٠) ميل مربع لا تنتج من الغذاء إلا للحمائية وخمسين مليوناً من البشر وفيها الآن منهم (٤٨٠) مليوناً . أما أمريكا الجنوبية ففيها أراض واسعة مهجورة سيكون لها شأن كبير في المستقبل وسيتحول قسم كبير منها إلى أراض منتجة بقوة اليد العاملة .

وليس الخوف على الجنس البشرى من المجاعة بل من تكاثر عدد الناس وتزاحمهم على شواطئ البحار وعلى قمم الجبال وفي السهول والآجام والغابات . ومن الراجح أنه لا تبقى غابات ولا آجام في سنة (٢٠٠٠) فنزول جميعها وتشيد عليها مدن كبيرة تأوى إليها الملايين من البشر .

وقد تتخذ الأرض شكلا خاصا وتمتلي* من السكان بين سنة (٢٠٠٠) وسنة (٢٥٠٠) وهذا مجال للافتكار في حالة أصحاب البيوت في ذلك الحين فإن أزمة المساكن تبلغ معظمها فلايكثفون في المكاتب المخصصة للإبحار بالسؤال عن الحى الذى يطلبون فيه مسكنا بل يبحثون في المصور الجغرافى العالمى للاهتداء إلى ضالهم المشودة فىأتى أحدهم مثلا إلى أحد هذه المكاتب ويطلب أن يستأجر شقة في أوروبا فيجيبه أحد الموظفين في المكتب بعد أن يلقى نظرة على الجداول والدفاتر التي لديه [يشق علينا أن نعتذر عن تعذر إجابة سؤالك فلم يبق عندنا شقق للإبحار في أوروبا ولكن عندنا شقق تلائمك في الأناضول] .

وليس الغذاء شيئا مذكورا بالنسبة إلى الهواء الذى سينقص الناس حينئذ ، ولا أعنى بذلك الهواء الذى يستنشقونه في محال العمل وللسارح والشوارع ، بل أعنى الهواء الطليق الذى يخرجون إلى العراء لاستنشاقه في العزلة فإنهم أنى وأيان ساروا يلقون الناس أمامهم يملثون البقاع والبطاح والمضاب والأغوار والأنجاد وقد ضربنا عدد سكان العمورة في (٥) فنضرب أيضا الضابغة التي سيعلقونها حينئذ في (٥) ويكون سببها تكاثر عدد الناس .

يقول الآن سكان لندن [لأنحب أن ننتزه في الشوارع الكبيرة في أيام الآحاد لأن فيها عددا كبيرا من الناس ، وخير لنا أن نقصد إلى الضواحي والرياض حيث تروح النفس بالهواء العليل] .

ويقولون أيضا [لا نبتغى الذهاب إلى دور السينما في هذه الأيام لأنها مكتظة بالنظارة] ولكنهم بعد سنة (٢٠٠٠) يفوهون بمثل هذا الكلام في كل مكان يزلونه فأيان ذهب الإنسان يرى الناس يتزاحمون بالمناكب ويقولون [إن رجال المستقبل البعيد لا يكفهم ما عندنا الآن من الوسائل الطبيعية لدميشة فسيحتاج الواحد منهم إلى أعصاب أمين من أعصابنا ورتين أقوى من رثائنا وقدمين أشد من أقدامنا وذراعين أشد صلابة من أذرعنا] اهـ .

إن ما تقدم نظرية نشرها الأستاذ (البرخت بنك) وهى والحق يقال نظرية تدعو إلى إعمال الفكرة وإطالة الروية .

أقول . أنا الآن لم أكتب هذه المقالة إعجابا بها ولا اعتقادا فيها قيل فيها، ولكنى ذكرتها لتعلم أن النوع الإنسانى قديما وحديثا يعلم أن الازدحام يورث الأمراض بالموت وأن هذا السبب هو الدافع الأقوى لتفرق الناس حول الأرض . فإذا تفرق الناس على الأرض سيه أمران : أمر نفسى وهى العداوات والمشاجرات وأمر جسمى طبيعى وهو تعفن الهواء بالازدحام واستضرار الناس فيكون التفرق ثم الاستمتاع بالحيرات والنعم .

لعلك أيها الذي وقفت في تفسير البسطة هنا وفيما تقدم قريبا على شذرة من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ولعلك أيضا تعرف كيف أدرك آباؤنا الأولون منذ ألف سنة بعض هذه الحكم ودونوها في (إخوان الصفاء) وكيف وصلوا إلى الحقائق وسولا لم يظهر نظيره قبا جاء عن الفرنجة مما بيناه لك هنا، فالعبارتان أمامك وأنت تدرك بدهانتك وذوقك ومعرفتك الفرق بين الحكمتين وتوجب إذ ذاك من الأمم الإسلامية التي خلفت تلك الأمم في الألف سنة للماضية كيف ذهلوها عما في هذه الكتب ولم تنشر هذه الآراء في أمنا الإسلامية، وذلك بسبب بعض رجال الدين الجهال وبعض رجال الصوفية الذين وقفت عقولهم كما فهموا من شيوخهم فأوحوا إلى تلاميذهم الذين يخلفونهم أن العلم خاص بما لقنوه لهم . هنالك أخذ العلم يهرب من بلاد الشرق إلى بلاد الغرب ، ولكن ليستبشر المسلمون اليوم قراء أمثال هذا التفسير فهم يجمعون بين خلاصة القديم وخلاصة الحديث، وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » وإذا قرءوا « بسم الله الرحمن الرحيم » عرفوا معنى الرحمة كما أوردناه . انتهى القسم الأول من السورة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٩ .

(القِسْمُ الثَّانِي)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) .

الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ * وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا
 ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ
 عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ
 مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
 لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا
 وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ
 الْأَلَذِّ ذُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
 أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ * وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ
 فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
 لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا
 فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ
 فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا
 الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
 يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) قد تقدم بعض سر (الم) في [سورة الروم] والإشارة بها هنا للحض على النظر في أحوال
 الأمم السابقة وعجائب الطبيعة وذلك في قوله تعالى « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون
 في مساكينهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون . أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز » فاذن هذه
 السور متلاحقة موسى فيها على النظر في كل كائن طبيعي أو صناعي ، وقوله (تنزيل الكتاب لاريب فيه
 من رب العالمين) أي منزل الكتاب لاريب فيه حال كونه من رب العالمين (أم يقولون) أي بل يقولون

أى للشركون (افتراه) أى اختلقه محمد من تلقاء نفسه (بل هو الحق من ربك) وههنا ست مراتب :
 الإشارة إلى الإعجاز ولذلك هو منزل من الله ، ثم قرره بنى الرب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلى التعجب
 من قولهم فيه على خلاف ما تقدم ، ثم أثبت أنه الحق ، ثم ذكر المقصود وهو الانذار ، فالأول بذكر «الم»
 والثانى بذكر أنه منزل من رب العالمين ؛ والثالث بنى الرب ، والرابع بقوله « أم يقولون افتراه »
 والخامس بقوله (بل هو الحق من ربك) والسادس بقوله (لتندر قوما ما أتاهم من نذر من قبلك)
 لأنهم أهل فترة (لعلمهم يهتدون) بانذارك إياهم ، وقوله تعالى (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما
 فى ستة أيام ثم استوى على العرش) قد عرفت فى سورة الفرقان ما الحكمة فى ذكر ستة أيام ، وكيف كان
 العدد المذكور من عجائب الحكمة تخصيصه ، وفى سورة يونس وهود الاستواء على العرش ، وفى سورة
 العنكبوت والروم عجائب هذه الدنيا ونظام العناصر التى بلغت فوق الثمانين . وكيف كان بينها نسب عجيبة
 فوق مستوى الفكر إذ كان كل عنصر منسوباً لما فوقه فى الجدول وما تحته وما عن يمينه وشماله إلى آخر
 ماضى . وهذا سيدهش العقلاء عندما يرون أن بين العناصر نسبة عجيبة كالنسبة العددية والنسبة الهندسية
 والتشابه فى الصفات الكيماوية من جهة والصفات الطبيعية من أخرى . وإذن تعلم أن عالمنا مخلوق من الجمال
 والبهاء والحسن كعالم الكواكب (مالككم من دونه من ولى) ينصركم إذا جاوزتم رضاه (ولاشفيع) يشفع
 لكم (أفلا تتذكرون) اللواعظ (يدبر الأمر) يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر (من السماء إلى الأرض
 ثم يعرج) يصعد (إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة
 ثم يصير الأمر كله إليه ليحكم فيه فى يوم مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة . وقد جاء أن يوم القيامة خمسون
 ألف سنة فى سورة المعارج وتكون على بعض المختصين من عباده بقدر صلاة المكتوبة أو كما بين الظهور
 والعصر (ذلك عالم الغيب والشهادة) فيكون تديره على مقتضى الحكمة (العزيز) الغالب على أمره (الرحيم)
 للعباد فى تديره . ولما ذكر العلم والقدرة المصحوبة بالرحمة أردف ذلك بما نشأ عن تلك الصفات من الآثار
 الشريفة مفصلاً لما أجمل من التدير ، إذ بين تدير الإنسان ثم عروجه ليعرفنا نسخة من التدير العام فقال
 (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان) أى آدم (من طين . ثم جعل نسله) ذريته لأنها تنسل
 منه أى تنفصل (من سلالة) أى من نطفة تنسل من الإنسان (من ماء مهين) أى ضعيف (ثم سواه)
 سوى خلقه (ونفخ فيه من روحه) أضاف الروح إلى نفسه لتشريفها (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
 قليلاً ما تشكرون) أى تشكرون شكراً قليلاً . وهذا هو بعض تدير الأمر الخاص بالإنسان لأنه أهم لتذكره .
 وأما عروج الأمر إليه وعوده فى قوله (وقالوا أئذنا ضللتنا فى الأرض) أى صرنا رباباً مخلوطاً بتراب الأرض
 لا يتميز منه (أئنا لى خلق جديد) استفهام إنكارى . ثم أضرب عن ذلك إلى أنهم ليسوا بكافرين بالبعث فحسب بل
 كرههم شامل لجميع ما يكون يوم القيامة فقال (بل هم بلقاء ربهم) الذى هو أهم ما فى يوم القيامة (كافرون)
 وههنا ابتداء إيضاح عروج الأرواح فى قوله (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون)
 للحساب والجزاء . وهذا نهاية الكلام فى العروج والعود . ثم أعقبه بذكر الطائفتين المجرمين والمؤمنين
 فقال فى الأولى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم) من الحياء والحزى قائلين (ربنا أبصرنا)
 ما وعدتنا (وسمعنا) منك تصديق ما أمت به رسلك (فارجعنا) إلى الدنيا (نعمل صالحاً إنا موقنون) إذ لم
 يبق لنا شك بعد العاينة وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها)
 ما تهتدى به إلى الإيمان والعمل الصالح وإنما تديرى للخلق ونظامى لا تدير فيه ، وكيف يتغير وهو النظام التام
 فإنى أضع كل نفس فى مرتبتها على حسب استعدادها كما أضع فى جسم الإنسان العين فى موضع لا يصلح له الظفر

والأصعب ، وكذا المعدة في موضع لا يصلح له القلب ، هذا هو نظام الله . وهذا قوله تعالى (ولكن حق القول مني) ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو (لأملأن جهنم من الجنة) وهي النفوس التي لا أجسام لها وهي لا تزال ناقصة كهيئة الأشرار من بني آدم (والناس أجمعين) وإنما ملأها بهم لأنهم مستعدون لها ولا يصلحون لدخول الجنة كما لا يعيش الناموس ولا الذباب إلا في الأماكن القذرة لتخلص الجو من المفونات . ولو جعل الناموس والذباب في القصور النظيفة الموثقة النقية ما عاش فيها إذ لا يجد له فيها غذاء ولا فائدة . هكذا هؤلاء إذا رأوا العالم المضيء المشرق والأنوار للتلاثة والحياة الطيبة في الجنة لم يتبأ لهم دخولها وعجزوا عن ذلك فمثلهم كمثل السمك لا يعيش في البر وكمثل ذوات الأربع لا تعيش في البحر . هذا معنى قوله « العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه » فهذا هو حسن الخلق ، فالحسن في الجنة وفي جهنم وفي الحشرات في الأرض وفي الحدائق ، واعلم أنك لا توقن بما قلته إلا بدراسة العلوم ، ومن كان ذا فطنة كفاء هذا التفسير . ثم أبان بعض الأسباب الموجبة لدخولهم جهنم وهما [سببان : الأول] عدم التفكير [والثاني] الذنوب أي ظلمة الفكر علما وعملا بالجهل والذنوب ، فأشار إلى الأول بقوله (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) لأنكم تركتم مواهبكم العقلية فلم تناولوا الحكمة (إنا نسيناكم) جعلناكم كالنسي المتروك (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) السيئات كما تركتم المعقولات ، وإنما كرر الذوق لتعدد الذوق ولأن العذاب على الجهل وعلى الذنوب يتنوع كما تتنوع الآلام في الدنيا بتنوع المرض . وأشار إلى الفريق الثاني بقوله (إنا يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها (خروا سجدا) سجدوا لله تواضعا وخشوعا وشكرا على ما رزقهم من الإسلام (وسبحوا بحمد ربهم) وزهوه عما لا يليق به وأثنوا عليه حامدين له (وهم لا يستكبرون) عن الإيمان والسجود (تتجافى جنوبهم) ترتفع وتنحى (عن الضاحج) أي الواضع التي يضطجع فيها وهي الفراش . هؤلاء هم المنهجون بالليل حال كونهم (يدعون ربهم خوفا) من سخطه (وطمعا) في رحمته أي لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته (ومما رزقناهم ينفقون) في وجوه الخير (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) لأمك مقرب ولاني مرسل (من قرة أعين) مما تقر به عيونهم (جزاء بما كانوا يعملون) أي جزوا جزاء عدلا . ولما أخفى القوم أعمالهم أخفى الله لهم الجزاء بحيث لا يعلمه أحد كما كانوا يخفونه في الدنيا . ثم بين الفرق بين الطائفتين وأنها لا يستويان (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) أي كافرا (لا يستويان) حمل الأول على لفظ من والثاني على المعنى (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) يقال إنها الجنات التي يأوي إليها أرواح الشهداء ويقال إنها عن يمين العرش (نزلا بما كانوا يعملون) أي عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاما (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) أي ملجؤهم ومنزلهم (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم) أي تقول لهم خزنة النار (ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) ثم بين سبحانه أن عذاب الآخرة المذكور له مقدمات في الدنيا وفي القبر لأن الذنوب مستوجب لتأجيله عاجلا وأجلا فقال (ولنديقنهم من العذاب الأدنى) كما عذب أهل مكة بالجذب سبع سنين إذ دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعلها الله عليهم سنين كسني يوسف . وكما يعذب الناس في الدنيا بالهن والأهوال والأمراض وهم في ذلك غير موقنين بثواب ولا آخرة فيكون العذاب ألما لا يخفف له (دون العذاب الأكبر) أي عذاب الآخرة (لعالمهم يرجعون) يتوبون (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) فلم يتفكر فيها كالوليد بن عقبة فاخر عليا يوم بدر فزرت هذه الآيات (إنا من المجرمين منتقمون) ولا جرم أن من كان أظلم منهم أحق بالانتقام (ولقد آتينا موسى الكتاب) كما آتيناك (فلانك في مربة) في شك (من لقائه) من لقائك الكتاب فإنا آتيناك الكتاب كما آتينا فليس ذلك بيدع وهذا كقوله تعالى « قل ما كنت بدعا من الرسل » (وجعلناه) أي المنزل على

موسى (هدى لبني إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون) الناس (بأمرنا) بتوفيقنا (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) لأنهم نظروا وعقلوا (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة) أى يقضى ويحكم (فبما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين ، جهلوا وكفروا وعموا عن الحقائق (أولم يهد لهم) أى لم يبين الله لهم (كم أهلكتنا من قبلهم) أى من قبل أهل مكة (من القرون) للماضية (يمشون فى مساكنهم) أى يمر أهل مكة فى متاجرهم على ديارهم . وقوله (كم) مفعول أهلكتنا (إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) سماع تدبر (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) التى جرز نباتها أى قطع وأزيل وكل أرض يابسة غليظة لانيات بها جرز (فتخرج به زرعاً) أى بذلك الماء زرعاً (تأكل منه) من الزرع (أنعامهم وأنفسهم) كالنبت والورق والحل والفاكهة (أفلا يبصرون) فيعرفون كمال قدرته تعالى (ويقولون متى هذا الفتح) النصر كقوله تعالى «ربنا افتح بيننا» (إن كنتم صادقين) فى الوعد به (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) وذلك يوم القيامة يوم يفصل بين المؤمنين وغيرهم ويوم فتح مكة ويوم بدر وحقق ذلك فإن الذين قتلوا يوم بدر وغيره لم ينفعهم شيء بل ماتوا كفاراً (فأعرض عنهم) ولاتبال بتسكديهم (وانتظر) النصر عليهم (إنهم منتظرون) العلبة عليك . انتهى التفسير اللفظى .

﴿ لطائف هذه السورة ﴾

- (١) فى قوله تعالى «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يرجع إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة»
- (٢) فى قوله تعالى «الذى أحسن كل شيء خلقه» الخ .
- (٣) فى قوله تعالى «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» إلى قوله «جزاء بما كانوا يعملون» .
- (٤) فى قوله تعالى «أولم يهد لهم كم أهلكتنا من قبلهم من القرون» إلى قوله «أفلا يبصرون» .

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

إن هذه اللطيفة يراد منها (أولاً) معرفة نزل الأمر الإلهى من حضرة القدس الأعلى إلى غاية تمامه وكاله (ثانياً) رجوع الأمر إليه سبحانه وتعالى (ثالثاً) بيان جمال الأمر وحسنه ونظامه (رابعاً) ذكر المقصود من ذلك وهو نشأة الإنسان ثم عروجه إلى خالقه . وهذه للقاصد الأربعة فى الآية مرتبة على ما ذكرناه . فآله سبحانه هو الأول من حيث أنه خلق ونظم والآخر من حيث رجوع الأمر إليه أيضاً . ولأقدم مقدمة فى الكلام على الله من حيث تقديسه وتزيهه فأقول :

إن الأمم قديماً وحديثاً لا يرحون يفكرون فى الحق سبحانه وتعالى . ومعلوم أنه ليس بجسم ولا عرض فى جسم منزّه عن الحوادث . فهم إذا ذكروه حضر فى أذهانهم النور وذلك مشهور فى الديانات . ومعنى ذلك أن الله إذا ذكر يخطر ببالهم النور ، فالنور مضروب مثلاً لثباته . وكيف يكون النور هو الله والنور حركات فى الأثير وحركات الأثير تختلف فى السرعة ، والنور له مقادر خاصة متى وصل إليها ظهر النور فى العين ومتى قل عنها أو أكثر لم يكن نور فإذن النور مذكر بالله عند الأمم القديمة بل كان الصابئون يعبدون السكواكب . وترى ذلك فى لغة العائلة الآرية أو الهند الجرمانية العظمى فإن الله عندهم هو النور أو الشمس وتجد اللفظة الأصلية للنور (ديف) ومعناها النور أو اللامع ويشق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله . فى لغة السنسكريت (ديفاس) أو (ديواس) أو (ديوا) ويعبرون عن السماء بلفظة (ديوس) وعند اليونان (ذيوس) وعند اللاتين (دووس) إلى آخر ما تقدم فى (سورة النور) فأرجع إليه إن شئت . فانظر كيف رجعت الأمم القديمة وأهل علمائها ولو كانوا ضالين أن يعبروا عن الخالق جل وعلا باسم

النور وهذا اللقائم يناسب ما تقدم في (سورة النور) من قوله تعالى «الله نور السموات والأرض» وإنما ذكرناه هنا لأننا سنبحث في دائرة الوجود كما ستري .

ولما كان الله هو الأول والآخر حسن أن نذكر ما يناسب اللقائم من قدسه وقول العالم في جماله وكلامه . ولما كانت تلك الأمم قد سارت على الدرب ولكنها أخطأت المنهج جاء الاسلام فقال الله فيه «الله نور السموات والأرض» وأعقبه بقوله «مثل نوره» الخ فأدخل فيه المثل وقال في نهاية الآية «ويضرب الله الأمثال للناس» الخ ، وفي الحديث «قيل له عليه الصلاة والسلام هل رأيت ربك؟ قال نوراني أراه» وفي حديث الإسراء «لما قرب صلى الله عليه وسلم من سدرة المنتهى غشى السدرة من النور ما حجب بصره من النظر إليها» وفي كتاب مسلم «ان الله حجبا من نور لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وفي بعض روايات الحديث «سبعين حجبا من نور» قال ابن رشد إن هذا المثل شديد المناسبة لله سبحانه وتعالى لأنه يجتمع فيه أنه محسوس تعجز الأبصار عن إدراكه وكذلك الألفهام مع أنه ليس بجسم والوجود عند الجمهور إنما هو المحسوس والمعدوم عندهم هو غير المحسوس ، والنور لما كان أشرف المحسوسات وجب أن يمثل به أشرف الوجودات . وهاهنا أيضا (سبب آخر) وذلك أن حال وجوده من عقول العلماء والراسخين في العلم عند النظر إليه بالعقل هي حال الأبصار عند النظر إلى الشمس بل حال عيون الحفائش وكان هذا الوصف لا تقا عند الصنفين من الناس ، وأيضا إن الله تبارك وتعالى لما كان سبب الوجودات وسبب إدراكنا وكان النور مع الألوان هذه صفته أعنى أنه سبب وجود الألوان بالفعل وسبب إدراكنا ورؤيتنا لها فبالحق مسمى الله تبارك وتعالى نفسه نورا ، ولقد سكنت الشرع عما هو فوق ذلك فإن البحث العلمي يقضى أن الله ليس بجسم ولا عرضا في جسم ولكن لا يعقله إلا من أدركوا ذلك بالبراهين وعرفوا حقيقة النفس الإنسانية وأنها مجردة عن المادة ثم ينتقلون إلى ما هو أرقى من ذلك هذا ما خص مقاله رحمه الله تعالى . فشرعنا المطهرة ورد فيها التعبير عن القدرات العلية بالنور وذلك مقبول عند العوام بلا بحث وعند الحواسب على سبيل المثل ، وورد «إن المؤمنين يرون ربهم كما يرى القمر ليلة البدر» فالعامة لا يجوز للعالم أن يبحث معهم في أكثر من هذا ، فأما العالم فإنه يفهم أن العروج إلى الله إنما يكون بانكشاف الحقائق وإدراك الدقائق حتى يعرف الإنسان ربه ، فالنور أحسن مثال في كل مقام عند العامة وعند الخاصة ، فينتج من كل ما تقدم أن العلم وانكشاف الحقائق هي المارح لمعرفة الله تعالى ولقائه والحظوة بشرف الوصول إليه وإذن فلنبحث في المقام الأول من المقامات الأربعة في اللطيفة الأولى وهو مقام تنزل العالم من مقام القدس إلى تمام غايته فأقول :

يقول الله تعالى «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض» إن تنزيل الأمر من السماء إلى الأرض يقتضى البحث في [غرضين : الغرض الأول] النظر في منشأ هذا العالم من مبدئه فإن أصله الأثير وفيه تسكون المادة الأولى التي اضطرب العلماء في معرفتها وقر قرارهم أنها حركات في الأثير ، فشكل عنصر من العناصر المعروفة بخالف الآخر في نوع حركاته التي هي في تركيبه وباختلاف هذه الحركات اختلفت الخواص واختلفت المركبات ، إن هذه العناصر لم تظهر في بادئ الأمر ، إن الشمس كانت كرة نارية وبقيت هكذا ملايين من السنين وهي تدور بحركات دورية كما هو الموعول عليه الآن ثم انفصلت منها السيارات الدائرة حولها ومنها الأرض وذلك بالتبريد المستمر لتلك الحرارة ، وهذه الأرض خلق عليها المعدن والنبات والحيوان والإنسان بالتدريج فهذا الترتيب هو المقصود من الغرض الأول في هذا البيان [الغرض الثاني] أن هذه العوالم أثناء تنزلها من العالم الألفظ إلى العالم الأكثف جاءت صفا صفا ، ومعنى هذا أنها ليست في مرتبة واحدة فإن العناصر ومركبات العناصر ليست كلها في درجة واحدة في صفاتها بل اختلفت الصفات لاختلاف الأغراض .

فاذا عرفت تزييل الله للعوامل من حالها الأول حال البساطة والنور إلى حال السكثافة والتركييب طبقا عن طبق ودرجة بعد درجة حتى تصل إلى الحال الإنسانية والإنسان يصل إلى حال الموت فإن العالم أشبه بجربوش مختلفة وكل منها له تعاليم مخصوصة وحركات تناسبه ، أو كتلاميذ في مدرسة وكل منهم له استعداد خاص ودرجات في العلم تخالف إخوانه فيكون لهم ترتيب حسب درجات علمهم فاذا خرجوا من المدرسة كان اسكل منهم شأن على حسب تعليبه ، ولأوضح لك ذلك (بأربعة أمثلة) من علم الطبيعة حتى ترى جمال الله وحكمته وكيف جعل الأشياء مختلفة ليرحمنا بها ولو كانت متفقة في تزلها لنا لهلكنا . واعلم أن هذه المسائل الأربعة الآتية يدرسها علماء الطبيعة ولكنهم لا يفظنون إلى هذا الجمال والنور الذي سأذكره لك ، إن علماء الطبيعة لا يهتمهم منها إلا ما يهيم الطبيب من جسم المريض . يبحث فيه عن علة يداويها ولكن لا يخطر بباله النظام والجمال في تركيبه كما لا يخطر ببال الزارع بهجة النظام الداخلي في الزرع بل كل منهم مهتم بما فيه عمله . وإياك أن تظن أن ما ذكره من عويس مسائل الفن بل هو من تناول أكثر الأفهام فأقول :

انظر إلى الحديد في شبك منزلك . والنحاس في أوانيك ، والذهب والفضة في تقودك ، والرصاص في البنادق وفي أنابيب الماء الجاري في منزلك . إن هذه المعادن ينتفع بها الناس كما ينتفع الزارع بزراعته والطبيب بتشمريحه للجسم ولكنهم قط لا يفكرون في نظامها إلا قليلا ، وأما فكر الكيميائي فللدراية البحتة . إن هذه المعادن تختلف من حيث قوة التانة ومن حيث قابليتها للطرق أي لإحالتها إلى صفايح ومن حيث توصيلها للحرارة ومن حيث صهرها (انظر هذا الجدول) :

المعدن	التانة	توصيلها للحرارة	صهرها
الحديد	٢٥٠ كيلو جرام	١١٧٩	٢٥٠٠
النحاس	» ١٣٧	٧٩٢٥	
البلاتين	» ١٢٥	٨٢٤	
الفضة	» ٨٥	١٠٠	١٠٠٠
الذهب	» ٦٨	٥٣٢٢	٤١٢
الخارصين	» ٥٠	١٩٢٣	
الرصاص	» ٥٥	٨٢٥	٣٢٤
الصوديوم			٩٥
البوتاسيوم			٦٢٢٥
الزئبق			٤٠

وقابليتها للطرق على هذا الترتيب (ذهب . فضة . ألومينيوم . نحاس . رصاص . خارصين . بلاتين . حديد) لعلك تريد إيضاح هذه الجداول ، فاعلم أن التانة هي ما يكون في الفلز من المقاومة عند قطع سلك منه قطره اثنان من المليمتر، ويانزم لقطع كل فلز وزن مختلف مقدر بالكيلوجرام ، فلو أنك أتيت بسبعة أسلاك كل منها قطره مليمتران ، وهذه الأسلاك السبعة من المعادن المذكورة فانه يكفي (٥٥) كيلو جراما

لقطعه إذا كان رصاصا والحديد يلزم (٢٥٠) كيلوجراما لقطعه فيكون الحديد أمتن من الرصاص نحو (٤٥) مرة ، ومن الحارصين نحو (٥) مرات . ومن النحاس نحو مرتين ، ومن الفضة نحو ثلاث مرات . ومن الذهب نحو أربع مرات . فأما توصيل الحرارة فإن الفضة أكثرها توصيلا لها . فإذا جعلناها مائة أى جعلناها قوة توصيلا للحرارة مائة درجة فالنحاس نحو ثمانين من هذه المائة والذهب نحو النصف والحارصين نحو الخمس والحديد نحو العشر والرصاص قريب من العشر والبلائين كذلك .

وأما قابليتها للطرق بأن تجعل صفائح فالذهب أولها وهكذا ما بعده والحديد آخرها . وأما صهرها فإن الزئبق أسرعها صهرا والصوديوم ضعفه تقريبا والرصاص مقداره ثمان مرات والذهب . قدره نحو عشر مرات والفضة قدره (٢٥) مرة لأنها ألف درجة بميزان الحرارة المعتاد والزئبق (٤٠) به ، والحديد قدر الفضة مرتين ونصف ، والعبرة في الصهر وحده بميزان الحرارة المعلوم . وهاهنا أيضا أمر خامس وهو التنظير فالزئبق يطير على درجة (٣٦٠) والصوديوم على درجة (٨٠٠) والحارصين على درجة (١٠٠٠) بميزان الحرارة المعلوم . فإذا ميزان الحرارة معتبر في الصهر وفي التنظير ويعتبر في توصيل الحرارة وفي الطرق وفي المتانة النسبة بينها كما وضحناه .

فانظر أيها الذكي إلى الحديد مثلا . ألا ترى أنه أمتنها كلها . ألم تر أنه أمتن من الرصاص (٤٥) مرة كما قدمته لك ، ثم إنه هو نفسه لا يصهر إلا على درجة (٢٥٠٠) فهو أبعدا عن أن يسيل وأيضا توصيله للحرارة ضئيل فهو نحو عشر الفضة في التوصيل وهو آخرها في الترتيب لقابليته الطرق ليجمع صفائح . إذن الحديد هو أمتنها وأبعدها عن الصهر ومن أقلها توصيلا للحرارة وأقلها كلها للطرق . أفلا ترى أن هذه الزايا فيه جعلته عاما في كل الصناعات وعلى ذلك نراه كثيرا في الوجود ، ألسنت ترى أن الحكمة متقنة بحيث يكون ما منفعته أكثر والناس إليه أحوج في الأمور العامة كثر وجوده .

هذه هي العلوم وهذه هي الحكمة . انظر إلى الذهب . انظر إلى جماله ، إياك أن تقول إن جماله ما يفهمه العامة وبعض الخاصة من شكاه البهيج ولونه الظريف المفرح . كلا . ولا من غلوتنمه وارتفاعه . كلا . إن كل ذلك إلا متاع يشترك فيه الناس ولكن الجمال هنا ما نسمعه من صوته الرخيم ووجهه الجليل في العلم ، فلو أنه نطق لقال : أنا أقل متانة من الحديد نحو أربع مرات ، إن المتانة كالحديد في قوته لا منفعة لها عندي . وإنما متانتني على مقدار الحكمة ، ألسنت زينة للغايات ، وتقودا في المعاملات . فما عندي من المتانة يكفيني فهل أحمل أنفالا أو أجعل في سقف أو في محرات ؟ أو أى آلة من الآلات ؟ لذلك لم تسكن المتانة إلا على مقدار للنفعة والعمل ، ثم إنى أول قابل للطرق والفضة بعدى ليسهل على الناس جعلى تقودا وحليا ، فلو أنى عصيت عن ذلك ولم أقبل الطرق ولم أسهل على الناس كالحديد لتعطلت تقودهم وزيتهم . هكذا الفضة بعدى فأما توصيلي للحرارة وصهرى فانهما على قدر الحاجة ، لذلك ترانى في المعادن تحت الجبال وفي الرمال أقل وجودا ولو كثر وجودى لضاعت معاملات الناس ! ولم يجدوا حكما يحكم بينهم في معاملاتهم ، إنى وضعت على قدر الحاجة في الأرض ، فأنا القاضى في المعاملات والفضة عندي قليل على قدر الحاجة وحفظ النظام ، فأما الفضة فإنها في معدنها أوفر لشدة حاجة الناس إليها في المعاملة ولاضطراب الناس إليها في صغيرات الأمور ودقيقاتها . ويقول النحاس : أنا أقل متانة من الحديد ، وأنا من أسرع الفلزات كلها توصيلا للحرارة وإنما كان ذلك لأصلح لطبخ الطعام وغلى الماء ، فأنا سريع التوصيل لها ، وأنت سريع الصهر ، أما الماء فإنه يغلى ويبخر في الأمتعة التي تصنع منى ، فأنا سريع التوصيل لأحيل غيرى من لحم الحيوان والحضر والماء وجميع ما يصنع الناس في فهو يحول إلى صور أخرى ، أما صورى النحاسية فهي باقية ، فالتوصيل للحرارة سريع

وصهرى غير سريع ، لذلك كنت أناثا ومثاقا إلى حين ، وكثر وجودى ، فأنا أكثر من الفضة ومن الذهب لحاجة الناس إلى .

إن هذا هو الذى تنطق به للمادن إذا نطقت . إن هذه هى الحكمة التى يسمعها الحكما . إذا مروا فى هذه الأرض ليحملوا ذلك إلى عالم آخر ينظرون فيها ويفرجون على ما فيها من هذه النظم الشارحة للصدور للسعدة للعقول « إن ربك حكيم عليم » وبهذا تم الكلام على المقام الأول .

﴿ المقام الثانى : رجوع الأمر إلى الله تعالى ﴾

اعلم أن هذا العالم كله سائر من الكثافة إلى اللطافة كما أنه تنزل من اللطيف إلى الكثيف . فانظر كيف ترى الإنسان وهو بعض هذا العالم قد خالق من المواد المظلمة الأرضية ثم إنها تلتطف فيه حتى يرى منها مواد كالزجاج فى العين ومواد أخرى فى المخ . وهذه الوسائط قبل أن يتخيل ويعرف هذا العالم ويتصور السموات والأرض فيصبح عقله كأنه العالم كله . أليس العالم بعد أن كان كثيفا فى خارج الجواس أصبح عالما لطيفا داخل النفس بل هو أطف من الأثير بل هو أشبه به لما كان فى علم الغيب وكأنه رجع سيرته الأولى وإن كان هنا مختلفا باختلاف العقول لتقصها وهناك لانتغير لنظامه . فهذا هو المقام الثانى .

فالمقام الأول يشار إليه بقوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » وقد عرفت التدبير بالنشوء أولا وترتيب المدرجات ثانيا . والمقام الثانى « ثم يفرج إليه » وذلك بالرجوع إلى العالم اللطيف ومبدأ ذلك الرجوع تعقلنا وفهمنا فى الأرض وعملنا . وهناك بعد الموت مفاوز ومسالك يختلف الناس فيها اختلافا كثيرا وهم سائر ونسبأتى شرحه .

﴿ المقام الثالث هو الجمال ﴾

والجمال قد عرفت أنه فى حسن الوضع وإتقان الصنع وإيجاد النسب بين المخلوقات كما سمعته فى حديث الذهب والحديد والنحاس ، وأن الإنسان يسمع نطق تلك المعادن إن كان من أولى العلم العاقلين ، فهذا هو حسنها اه .

﴿ المقام الرابع . نشأة الإنسان وعروجه ﴾

وهذا هو قوله تعالى « وبدأ خلق الإنسان من طين » إلى آخره هذا المقام كأن الله عز وجل بعد أن ذكر العالم إجمالا من حيث تنزله من الألف إلى الألف بالتدبير وعروجه ثانيا أراد أن يبين لنا ما بهمنا نحن فى الأرض ويقول إن المهم للإنسان البحث فى حاله هو فإنه نموذج العالم كله . فلئن تنزلت العوالم من كونها أثيرا إلى أنها صارت سموات وأرضين إلى معدن إلى نبات إلى حيوان . فأنتم كنتم نطقا فصرتم أجنة فولودين فرضعا وأطفالا فراهقين ولكم سمع وأبصار وعقول فهذا النشوء فيكم كنشوء العالم الذى حولكم « ما خلقكم ولا بشئكم إلا كنفس واحدة » .

ثم إنكم بعد ذلك تعرجون إلى العالم الأعلى فان فيكم الروح وهى تنمو كما رأيتم الجسم ينمو . ألا ترون إلى الأطفال لا ينظرون إلا إلى شهواتهم . ألا ترون إلى الشيوخ والكبار فى السن . ألا ترون أنهم يهتمون بأبنائهم وبناتهم . أليس ذلك رقا فى العواطف وحبا وكالا ، ذلك نموذج لرق الأرواح فى الأرض ثم إنكم تسرون فى الأرض وأنتم مختلفون فى طبائعكم . فسكا أنكم ترون أن الزئبق أسرعها صهرا بحيث يذوب على درجة (٤٠) بميزان الحرارة المعتاد والرصاص مقداره ثمان مرات والذهب قدره نحو عشرين مرات والفضة قدره (٢٥) مرة والحديد قدره نحو (٦٢٥) بحيث يحتاج إلى حرارة الزئبق مضاعفة اثنتين وستين مرة ونصفا هكذا يكون الناس وهم سائر ونسبأتى شرحه .

يقولون كما يقل الذهب والناس في الأرض سائرون إلى السكّال ولكن درجاتهم كدرجات المعادن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «الناس معادن كعادن الذهب والفضة» وهذا هو سر الحديث وبه تفهم قوله تعالى «قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون» وهذا الرجوع مقدر بألف سنة وبخمسين ألف سنة وبأقل وبأكثر ، والعبرة في ذلك باستعداد الإنسان نفسه ، إن نفس الإنسان فيها ذلك وفيها استعدادها فهي إما كالذهب استعدادا وإما كالحديد وإما كالتراب في السهولة . وترى الصالحين للأتم أشبه بالراديوم الذي يحول المعدن إلى معدن آخر وهم قليل وترى الحكماء يقولون عن العلماء على ترتيب المعادن .

إن الناس اليوم يشاهدون نظام المعادن مغروسا في فطرم فيه يختلفون . وبعد الموت يرى الإنسان إلى أين وصل . بل لو آتاه الله ذكاه لعرف في الدنيا أن الوصول لله على مقدار العلم والحكمة والبعيد عنه على مقدار التمسك بالأرض وحبها . وهذا القياس هو الأصل والناس درجات فيه . فهذا هو الجهاد الذي يخص كل نفس . فإذا جاء يوم القيامة وقفوا هناك للحساب وكان طول الموقف لكل على مقدار ما كسبت كما يفيد الآيات والأخبار فمن مقدار صلاة ركعتين إلى ألف سنة إلى خمسين ألف سنة « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » ولتذكر هنا (شذرتين) .

﴿ الشذرة الأولى ﴾

اعلم أن الصلاة فيها ما يذكر الإنسان بالنشأة الأولى وبالنشأة الآخرة يقول المسلم « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا » وهذا هو قوله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ويقول المسلم أيضا « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لآشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » وهذا هو العروج إلى الله . ويقول المسلم « الحمد لله رب العالمين الخ » وهذا هو تدبير الأمر وتنزله ، ويقول « اهدنا الصراط المستقيم » ويذكر النعم عليهم والعضوب عليهم والضالين وهذا هو المثال للضروب فيما تقدم بالمعادن واختلافها وأن الأكثر للأعمال الجسمية كالحديد والنحاس والأقل العلم والحلوص من المادة كالذهب والراديوم ، ويقول المسلم « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة السبيخ الدجال » وهذا أشبه بتسليط الحرارة على المعدن حتى يذوب ، وهذه الأدعية تسلط على الأرواح عسى أن تصفوا فتخرج من المادة فلا موت ولا حياة جسمية ولا كذب ودجل كما هو حاصل الآن في الأرض بين الشرق والغرب من الأكاذيب والضلالات والجهالات والظلم وهكذا ما بعد الموت فيدعو المسلم أن يخلص من هذه الأرض بالعمل الصالح والسكّال .

﴿ الشذرة الثانية ﴾

(محاورة بيني وبين بعض أصدقائي من مفتشى وزارة المعارف)

قال لي إذا كان أكثر الناس فاسقين جهلاء فأين ارتقاؤهم؟ إن ذلك أمر درسته في أوروبا وفي الشرق « إن الناس جميعا لا يسرون إلا على حسب الصالح لا الأخلاق ، بل الصالحون فنش عنهم تجرد في قلوبهم خبثا وشهوة إلا قليلا ، فقلت هكذا يكون النظام . فقال إذن أين الرقي؟ فقلت الرقي بهذا يكون . قال وكيف ذلك قلت إن هذه النفوس المنحطة هي شياطين الإنس وهم كشياطين الجن قال وأي ذنب جنوه قلت المقام ليس مقام ذنب بل هو نظام . فقال بين ماتقول . فقلت ألسنت ترى للذباب فائدة وهكذا الناموس إنهما يلتقطان العفونات من الأرض والرطوبات إنهما خلقا ليطرفا بأنحاء البرك والرطوبات فيصفو الجو ثم ينقلان العدوى من زيد إلى عمر ولبيوت من لم يكن مستعدا للبقاء ومخيا من هو أهل للبقاء وهذا حسن في النظام ، وترى العين العذرة يضع فيها الذباب بيضه فيصير دودا إيقاظا للناس أن ينظفوا أما كنهم وأجسامهم

فكأنه يقول « أنا أكل القذى من أعينكم حرصا عليكم ولكن لا بد من الفائدة لي وهي أني أربي أبنائي في أعينكم ولو أضرها ذلك لأن الغم بالغرم ، وها أناذا عملت لي ولصم فلو نظفتم أجسامكم وثيابكم ما آذيتكم . فقال . هلا كانت العملية كعملية علم الجبر إن الزائد والناقص يتأحيان فلا قاذورات . ولا ذباب . ولماذا هذا فقلت له إذن يكون معنى كلامك أن الحياة لا يكون فيها هذه القاذورات قال نعم . قلت ولا يكون فيها نمل والنمل يأكل الدود والدود يأكل الحشوب وبسبب النمل تعيش أنت تحت هذا السقف فإن الحشوب إذا كان متينا كالسنتف فإن الفضل فيه إنما هو للنمل الذي يأكل الدود الذي يضره قال كان يكفي أن يخلق الخلق بلادود . قلت أنت تريد ألا يكون هذا الوجود . قال وكيف ذلك ؟ قلت لأنى الآن أرى في جسمي معامل تعمل صناعات تعد بالآلاف فكأنك تقول يجب ألا تكون عين ولا أذن ولا أسنان ولا ريق ولا معدة ولا أمعاء ولا كبد ولا طحال لأن أكثر هذه إنما هو للعمل في الطعام . ولماذا يكون الطعام ونحن نجد أن الصبار الذي يزرعه الناس على مقابرهم يعيش بالهواء وبالبخار فيه ولا يحتاج إلى الأرض ولا الماء . فكأن خيرا لنا أن نعيش كما يعيش ذلك النبات . وإذا قلت ذلك فإنك لا تريد أن أكون إنسانا بل أكون نباتا وأيضا لا تريد أن يكون هذا العالم الذي أعيش فيه عالما منظما بل تريد أن يرجع إلى السكون واللوت فإن هذه الأعمال معناها الحياة وماتقوله موت . والحياة تقتضى الماء والهواء والماء تبقى منه رطوبات وهذه الرطوبات لا بد لها من ناموس يلتقطها ودود في الأشجار فإذا منعت الرطوبات فمعناها أنك لا تريد أن يكون في الأرض ماء والماء من لوازمه أن تبقى له آثار في الأرض . وإذا كان الدباب ومثله ضروريا في عالمنا الناقص الأرضى فلنقل كذلك إنه يلزمه شياطين الإنس والجن وما يفعل الشياطين إلا أنهم معرضون العقول ويؤخرون ارتقاء الناس وهذا مقصود من العناية الإلهية فإن النفوس النحطة في أرضنا أشبه بالحديد أو النحاس لا بد منها . فتأخير هؤلاء عن الرقى من متممات العالم الأرضى ، وأن الدول القوية تؤخر الضعيفة وتمنع عنها العلم ، وهذا فعل شياطين الإنس والوجود يحويه كما يحوى شياطين الجن .

فلما سمع ذلك صاحي سر سرورا عظيما وقال هكذا يجب أن يكون يقين الإنسان ، يجب أن يكون يقينه مبينا على الحكمة كما سمعت . ثم قال وما نتيجة ذلك كله . قلت نتيجة الصعود إلى عالم أعلى فإن الناس يسرون في عوالم وراءها عوالم وأن الجنات درجات بعضها فوق بعض ، وقد قال علماؤنا في قوله تعالى « ولدينا مزيد » هو زيادة الانكشاف ولقاء الله وأهل الجنة يرون ربهم من وقت إلى وقت على مقدار ما كانوا يذكرونه في الدنيا ثم يرتقى منهم طائفة فيغادرون هذه الطبقات ويكونون أعلى منها في عالم كعالم اللائكة وهو عالم الله من عالم الجنة المعتاد عند العامة . قال وهل قال ذلك أحد من المفسرين . قلت نعم قال الفخر الرازى في قوله تعالى « والنازعات غرقا ، والناشطات نشطا ، والساجحات ساجحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا » فالروح إما أن تخرج بشدة ، وإما أن تخرج بسهولة ، وهي العبر عنها بالناشطات نشطا ، ثم إنها تسبح في تلك العوالم ثم تسبق ثم تسكون في عالم كعالم اللائكة بحيث يكون الإنسان في الدنيا يؤهل بعض أفراد منه إلى عالم على مقدار علمه وخلقه والباقي أقل من ذلك ولا يسمد الإنسان بقاء الله على الوجه الأكمل إلا إذا أحب نوع الإنسان كله وسعى له في الخير على مقدار مكانه وأحب العلوم وهو مغرم بها . فهذا الإنسان ربما يكون في مصاف تلك الأرواح « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ اللطيفة الثانية في قوله تعالى «الذى أحسن كل شئ خلقه» ﴾

اعلم أيها الذكي أن في هذا المقال (مقامين ، المقام الأول) في إحسان خلق النبات (المقام الثاني) في إحسان خلق أفضل الحيوان وهو الإنسان .

﴿المقام الأول في إحسان خلق النبات﴾

تباركت يا الله ، أحسنت كل شئ ومن أحسن وأبهر ما أحسنت من مصنوعاتك مناظر النبات الجميلة البهية الحسنة الأشكال التي إذا نظرها الحكيم المغمم بالجمال أنشد قول ابن الفارض رحمه الله :

تبارك الله ما أحلى شمائله	فكم أماتت وأحيت فيمن مهج
وأرحم البرق في مسراه منتسبا	لثغره وهو مستحي من الفلج
تراه إن غاب عنى كل جارحة	في كل معنى لطيف رائق بهج
في نعمة العود والنأى الرخيم إذا	تألفا بين ألحان من المهرج
وفي مسارج غزلان الخائل في	برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساقط أنداء النمام على	بساط نور من الأزهار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا	أهدى إلى سحيرا أطيب الأريج
لم أدر ما غرته الأوطان وهو معى	وخاطرى أين كنا غير منزعج
فالدردارى وحبي حاضر ومقى	بدا فنعرج الجرعاء منعرجى
ليهن ركب سروا ليلا وأنت بهم	بسيرهم في صباح منك منبلج
فليصنع الركب ماشاءوا بأنفسهم	هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

كأنى بابن الفارض وقد بهره البرق في مسراه والغزال في مرعاه والطر في مجراه والندى في مجلاه والزهر في بهاه ، قد رسمت هذه الناظر في لوح خياله فامتلا جمالا وابتهج إشراقا فنطق بما قرأته الآن .

وها أنا ذا أيها الذكي أرسم لك صورا بهجة جميلة حسنة الناظر بدبابة المحاسن لينشرح صدرك بعراها ،

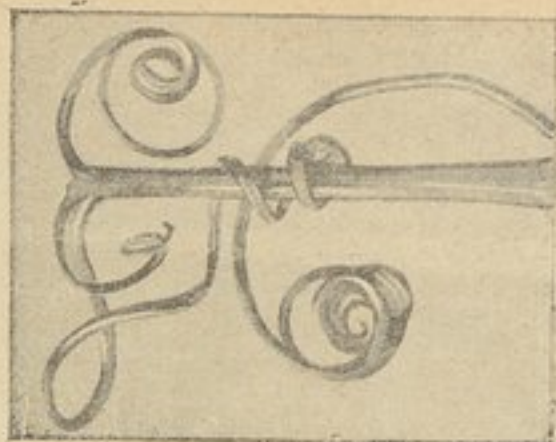
وتبتهج روحك بمنظر حلاها ، والناظر التي تراها الآن على (قسمين : القسم الأول) ما تسر العين بهجته (والقسم الثاني) ما يبتهج القلب بحكته ، فالقسم الذى تسر العين بهجته ما نظرتة في بعض المجالات العلمية وهي «مجلة الجديد» (انظر الأشكال الآتية) :



(شكل ٢٢ - ما أبداع أن تنقش هذه الخلية من الخشب أو الحجر أو الحديد
ولكنها ليست بحلية بل هي ورق شجرة سكسيفرانا وبلسكومانيانا)
وقد كبرها للصورة ثمانى مرات)



(شكل ٢٣ - نبات ال (فورسيثيا) وله شكل سنان الريح)



(شكل ٢٤ - هذه الحلية البديعة لم يصنعها فنان ماهر بل هي من صنع الله ، إنها
سيقان وجذور نبات القرع ، مكبرة أربع مرات)



(شكل ٢٥ - نبات أميركي يعرف بشعر العذراء ، واسمه العلمي (اديانم بيدانم) وقد كبره
للصور ثمانى مرات ، ألا ترى هذا النبات الغريب فتظنه قضبان الحديد التي كانت تموز
الحدائق والقصور في القرن الخامس عشر)



(شكل ٢٦ - نبات ال (دلفينيوم)
وشكاه يحاكي (التنجفات) التي
كانت تستعمل قديما

(شكل ٢٧ - هذه صورة ورق قد جف على عود، ولك أن
تتخيلها مقبض سيف أو حلية تنقش على الأسلحة ويعرف
باسم «حوض فينوس» مكبرة أربع مرات)



(شكل ٢٩ - ماذا ترى ؟ أحلية لإحدى نوافذ
القرن الثالث عشر، أم شعبة من شعاب الماء ؟ لاهذا
ولاذاك بل هي ورقة من شجرة «إرينجوبورقي»
قد كبرها للصورة خمس مرات)



(شكل ٢٨ - صورة سنان
رمح من صنع الله)



(شكل ٣٠ - نبات «اسبليدوم فيليكس ماس» مكبر أربع مرات
ألا تراه يشبه حلية صليب الأسقف وسواها)



(شكل ٣١ - صورة غصن من شجر «الزبيب الأسود» ولعمري إن حلية تصنع على طراز
هذا الغصن المزهر لتدل على ذوق سليم وجمال فن ظاهر ، مكبرة خمس مرات)



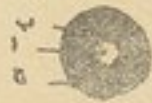
(شكل ٣٣ - نبات المرخس)

(شكل ٣٢ - روح الرقص وشكاه ،
نبات البيش «خانق الذئب»)

وبهذا انتهى الكلام على القسم الأول من المناظر التي تسر العين بهجتها .

(القسم الثاني ما بينهج القلب بعكته)

وذلك مثل ماجاء في كتاب الأستاذ (بول برت) في العلوم الطبيعية الذي كان أستاذا في (السوربون) بفرنسا ، وقد ترجمته إلى الإنجليزية زوجته (مدام بول برت) فالقسم الأول يعرفه الإنسان بمجرد النظر إليه أما هذا القسم فلا بد له من علم وحكمة ودرس وطول تجربة ، وفي هذا العصر قد قرب رسم الصور المعاني الدقيقة التي سترى بعضها هنا ، فانظر كيف يقول في (صفحة ٨٥) وما بعدها ما ترجمته من كلامه في علم النبات قال عند الكلام على ساق الشجرة وقد رسم هذا الرسم (شكل ٣٤) .



(شكل ٣٤ - (١) القلب)

(ب) الخشب (ج) الفشر)

لنتكلم أولا عن جنس الشجرة ونشقه ، فإننا نراه مقسما (ثلاثة أقسام) (١) و (ب) و (ج) فالقلب (١) وهو أبيض وناعم ، وبليه الخشب (ب) وهو صلب وبليه (ج) وهو القشر وهو أخضر ولطيف وفي الإمكان أن يشق فيجعل سيورا وهذا الامتحان في الشجرة الحديثة

العهد من أشجار (الكثري) التي نبتت في العام الماضي من جذور شجرة قديمة العهد أهلسكها برد الشتاء القارس وساقها بلا ريب لذن طرى ولكن إذا نظرنا إلى هذا الشكل الذي يمثل شجرة قديمة (انظر شكل ٣٥) في الصفحة التالية .

- (أ) قلبها الذي لا يزيد بازدياد العمر .
 (ب) الحشب للركب من دوائر ملتف بعضها على بعض وكل
 دائرة تقابل سنة من سنى الشجرة .
 (ج) القشر .



(شكل ٣٥ - رسم قطعة من ساق
شجرة الكثرى القديمة)

وإنما رسمناها هنا للموازنة بين الحديث والقديم من شجر
 الكثرى ويلحق به غيره ، فأول ما نلاحظه في هذا الشكل أن
 جذع الشجرة الكبيرة أكبر من جذع الشجرة الصغيرة فإن قطر
 الكبيرة يبلغ نحو ٤٠ بوصة ، ومن الدهش أن نقول إن قلب
 الشجرة الكبيرة لم يكن أكبر من قلب الشجرة الصغيرة ، وهذا وإن كان يدهشك هو الحقيقة عينها فليس للقلب
 نمو والشجرة دائمة النماء ، أما القشر فإنه لاهو أخضر ولا ناعم ولكنه خشن وأغلظ من السابقين هنالك
 سأل أحد تلاميذه قائلا . هاهو ذا قطع من جذع الشجرة القديمة هل تقدر أن تعد هذه الدوائر المنتظمة
 المنتمة أمامك كم فيها يا جورج ، فقال هذه نحو (٦٥) ياسيدي فقال الأستاذ ولماذا تقول إنها (٦٥) يا بني ؟
 فقال لأن الحلقات (وهي تعد بكل سهولة عند القلب) مندحمة مضغوطة أشد الضغط بالقرب من القشر بحيث
 لا يمكن من تمييزها إلا بصعوبة عظيمة . فقال الأستاذ ولماذا هذا ؟ فقال التلميذ إذا أصغيت إلى ما سأشرحه
 الآن ظهر لكم الجواب ، إن كل دائرة من هذه الدوائر تدل على سنة واحدة من حياة الشجرة ، وإذا
 كانت هذه الدوائر (٦٥) فهذا عدد سنى عمر هذه الشجرة ، ولا ريب أن ماتت هذه الشجرة في كل سنة لا بد
 أن يتخذ له مكانا وهذا المكان لا يخلو إما أن يكون بقرب القلب وهذا لا يمكن لأن هذه الدائرة إذا خلقت
 بين القلب وبين الدوائر الخشبية (وهي كلها صلبة لعدم مدتها) حصل هناك تشقق فيها وتلف وإما أن يكون
 بين الحشب وبين القشر . وهذا هو الحاصل فعلا . إذن الدائرة الجديدة تكون بعد آخر دائرة وتحت القشرة
 وههنا أفاد بعض الطلاب وهو ابن نجار أن هذه الدائرة الجديدة التي تتولد بين القشر وبين الحشب تكون
 لينة بخلاف القلب فإنه يابس جدا ذلك لأن الأخير قديم العهد والأول حديثه وعلى ذلك يكون إيقاد النار
 بالقلب أتم من إيقادها بالدائرة الجديدة لأن القلب كثير الاندماج غزير المادة بخلاف الثاني ، ثم انظر
 الأشكال الآتية :



إيضاح الأشكال السابقة إجمالاً

- (شكل ٣٦) (١) الحشب (ب) القلب .
 (شكل ٣٧) هو شجرة النخل وهي اسطوانية الشكل مستو أعلاها وأسفلها .
 (شكل ٣٨) جذع النخلة وهو مقطع الجريد .
 (شكل ٣٩) جذع النخلة المقطوع عرضاً ، فلا قلب لها ولادائرة خشبية يوافق أحدها الآخر ولاقشر لها .
 (شكل ٤٠) جذع النخلة المشقوق طولاً مظهراً المادة اللبغية القوية له .
 ولما كانت هذه الصور يعوزها الإيضاح وجب أن أذكر ما قاله المؤلف في شأنها فأقول :

هيكل شجرة النخل

ثم قال المؤلف «هانحن أولاء قد أعمنا الكلام على شجرة الكثرى وتاريخها الطبيعي وثمراتها فلا متحن معك شجرة أخرى تختلف كل الاختلاف عن جميع الشجر وهي (شجرة النخل) ، ومن سوء الحظ أن هذه الشجرة لا تنمو إلا في البلاد الحارة ، فإذا أردنا شجرة من هذا النوع فلانص لنا من استحضارها من البلاد الحارة وستسألون قائلين لماذا خصت شجرة النخل بالبحث ؟ ألم يكن لك في أشجارنا الكثيرة في بلادنا ما يكفي للدراسة ؟ حسن جداً أيها الأبناء ، ولكن مافصلته لكم في هيكل شجرة الكثرى ينطبق انطباقاً تاماً على جميع الأشجار التي تنبت في بلادنا .

- (١) فكلمها ذات جذع أغلظ عند قاعدتها منه عند قمته فهو جذع مخروطي الشكل كما يقوله علماء الهندسة .
- (٢) وأيضاً لكل منها قشر على ظاهرها .
- (٣) وخشب تحت القشر وهو في قلب الشجرة أصلب منه في اللب بين القشر والقلب وهذا الحشب حلقات متواقيات منتظمة .
- (٤) وقلب . ولسوق جميع هذه الأشجار .
- (٥) أغصان .
- (٦) أو فروع خارجات من .
- (٧) البراعم اللاتي يكن عند آباط الأوراق .
- (٨) وهكذا لمن جوب ذوات فلتتين .

(وصف النخل)

أما النخل فإنه يختلف كل الاختلاف عن ذلك كله وذلك لسبب يجب على أن أخبركم به ، ومن حسن الحظ أنني قد هيات لي الفرص أن أحوز صوراً له تساعدكم على أن تفهموا ما وصفته لكم . فانظروا إلى هيئة شجرة النخل (شكل ٣٧) ألسم ترونها تختلف عن أشجار غاباتنا اختلافاً مبيناً (أولاً) أنكم لاترون غصناً ما على جذعها وإنما ترون على أعلاها حرف (أ) فقط خصلة من الجريد والحوص الطويلات القويات اللينيات (ثانياً) إن الجذع حرف (ب) من قمته إلى قاعدته معتدل القدار متساوي الأجزاء فهو إذن اسطواني الشكل لا مخروطيه فهو كهية للداخن . ثم إنكم ترون تحت الجريد والورق عراجين مدلاة وهي ثمرات النخل النافعات . وإنكم إذا أردتم أن تعرفوا طول هذه النخلة فاحكموا عليها بموازنتها بهذا العربي الذي

ترونه على ظهر الجمل . إذن علوها (٤٥) قدما (ثالثا) إنها لنخلة طويلة ولكن بجانبها نخلة صغيرة جدا وهى حرف (ج) لا تزيد على تسعة أقدام ارتفاعا . ولكن جذعها فى غلظه كجذع أختها الكبيرة . ومن العجب العجيب أن النخلة تنمو طولا ولكنها لاتنمو عرضا ولا تزيد عن الحالة الراهنة ، وهذه فارقة أخرى بين شجرة النخل وما لدينا من الشجر مثل السنوبر وشجر الدرदार والتفاح وهكذا ، ثم انظروا إلى جذع النخلة فى (شكل ٣٨) إنكم لتجدون عليه سلاسل منتظمة تشبه السلام . فما هذه إلا آثار الجريد الذى أزيل عن الجذع فى سنين مختلفات ولم يبق من الجريد إلا ما فوق القمة ، فهذه هى الحصلة الحصبة البهجة التى تزدهى النخلة بحليتها وبجمالها . إن هذه الشجرة لا برعم لها إلا ما فى قمتها كما رأيت وهناك فقط يكون نموها وأغمارها . فهناك لا ترى عسلجا جانبيا . فلا يكون جريد ولا أغصان .

(الجذع)

فها بنا الآن نمتحن هذه القطعة الصغيرة من جذع النخلة المشقوقة عرضا (شكل ٣٩) للتقدم مآدق نسيج قوامها المحكم الصنع المتقن الأجزاء . هاهنا لاقب ، لاحتقات خشبية دائرات بعضها على بعض ، لاقتصر ولكن بدل الوضع المنتظم الذى اعتدنا أن نراه فى الأشجار نرى هنا كتلة ناعمة يبدو بها مالا يحصى من القطع السود الصلبة اللآتى وضمت وضما لانظام له . ولكن لننظر ماهذه القطع السود ؟ إننا لأجل أن نحققها وجب علينا أن نقطع الجذع فى الوسط (شكل ٤٠) طولا لا عرضا لنقف على حقيقتها . انظروا إلى هذه المادة اللبغية الصلبة السوداء التى ترونها ممتدة فى وسط المادة الناعمة التى تشبه قلب أشجارنا فيما قدمناه شها قليلا أو كثيرا . فهذه المادة هى التى تظهر هيأتها أشبه بنقط سود فى القطعة المقطوعة عرضا التى امتحناها قبل هذه (شكل ٣٩ للتقدم) إن هذه المادة اللبغية إذا نظرنا لها نظرا سطحيا تظهر كأن وضعها غير منتظم وأنها تضل فى وسط هذه الكتلة الناعمة اللآتى وضمت هى فيها وتخللتها ، ولكن إذا دققنا النظر فإننا نلاحظ أن هذه الخطوط اللبغية تأتى أولا من تحت قحف الجريد على ظهر النخلة وتمتد فى داخل الجذع ، ومن هناك ترجع ثانيا إلى سطح الجذع وهناك يكون انتهاؤها .

إن هذه العروق اللبغية ليست شيئا أكثر من خشب النخلة المرتب ترتيبا غريبا خاصا كما رأيت .

إن هذه العروق اللبغية الكثيرة العدد لتعطى جذع النخلة قوة المقاومة الكافية لأن تستعمل استعمال الخشب فى منافع الناس ، وعلى ذلك يكون هناك فرق كبير جدا بين النخلة وبين (شجرة الحور) مثلا فى (أمرين) مظاهرها وتركيبها . ثم إننا بينما نرى البذرة فى (الحور) وفى كل ما شاكلة فى التركيب لها فلقتان نرى أنها فى النخل لها فلق واحد ، وعلى ذلك يجعل النبات كله (قسمين) ذو الفلقة الواحدة وذو الفلقتين اه .

معجزة نبوية وعجيبة محمدية

(فى النخل وموازنته بالأشجار)

أيها المسلمون . هاهو ذا العالم الفرنسى نظر فى الأشجار وهو يدرس لتلاميذه كما نظر علماء النبات فى جميع السكره الأرضية . هؤلاء الذين حدثوا بعد آبائنا الأولين وتلقوا مبادئ العلم عنهم كيف نبغوا فى العلم ثم كيف كان هذا العالم هو المؤلف للكتاب بالفرنسية وزوجته هى المترجمة له باللغة الإنجليزية لغة قومها . فواعجبا الرجال والنساء معا يتعاونون على العلم ونحن قوم لم يتعلم أكثر رجالنا فى الشرق وجميع النساء فماذا

يقول؟ يقول إن شجرة النخل تخالف جميع الأشجار في هيئتها وفي جذعها وإنه أسطوانى الشكل وإنه لا أغصان له إلا في أعلاه . وفي أن الحشيش في جميع الأشجار قد جعل بدله هنا ألياف . وفي أن القلب في الأشجار حوى بدله هنا بمادة ناعمة . وفي أن الألياف القائمة مقام الحشيش لم تكن حلقات بعدد السنين كما في الحشيش كلا بل وضعت وضعا غريبا .

هذه هي آراء علماء النبات في كرتنا الأرضية ، فانظر إذن في حديث البخارى في كتاب العلم قال حدثنا قتيبة ، حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم خدثونى ماهى ؟ فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله ووقع في نفسى أنها النخلة فاستجيت ، ثم قالوا حدثنا ماهى يارسول الله . قال هي النخلة . ثم قال باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم . حدثنا خالد بن مخلد حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم خدثونى ماهى قال فوقع الناس في شجرة البوادي ، قال عبد الله فوقع في نفسى أنها النخلة ثم قالوا حدثنا ماهى يارسول الله ؟ قال هي النخلة» اه .

ها أنا ذا أيها القارى ذكرت نص ما في البخارى فقد ذكرها في كتاب العلم وكرر الحديث لاختلاف الرواة . فانظر كيف ذكره في باب العلم وكيف استدله على طرح الأستاذ الأسئلة على تلاميذه أو الملك أو الخليفة على رعيته .

عجب وألف عجب . نرى الأستاذ الفرنسى أظهر أن للنخلة ما ليس للشجر فهو مخالفه من الوجوه المذكورة سابقا فأفرد بها بالذكر .

فها هنا (بابان من العلم : الباب الأول) علم النبات وأن النخلة تخالف كل شجر في الأرض حتى أن هذا العالم الفرنسى لما لم يجد شجرة نخل في بلاده استحضرها من مصر عند الهرم موضع نباتها وعلم التلاميذ وهم يشاهدون صورتها (الباب الثانى) أن النبي صلى الله عليه وسلم في أسلوب تعليمه استعمل السؤال والجواب وهذا هو الأسلوب الذى يشهد أذهان التلاميذ في علم (البيداجوجيا) وهكذا فعل هذا الأستاذ الفرنسى في الفرق بين النخلة وبين جميع الأشجار ، أما أنا فأقول : إن الله لما علم أننا نحن المسلمين سنكون جهلاء بكل علم في الأرض ونذر العلوم تفر إلى أوروبا ، فعمنا ما أحرق أيام خراب الأندلس ومنها ما بقى عند الفرنجة فعملوا وارتقوا حتى إذا كانت هذه الأيام أحاطت بنا هذه الأمم من كل جانب فأخذنا نلم شعثا ونقرأ كتبهم وإننا أمثالى سنقرأ أمثال هذه المسألة في كتب الفرنجة ، أقول إنه تعالى لما علم ذلك ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحدث أصحابه في شجر البوادي وفي النخلة حتى إذا قرأنا كلام الفرنجة في علمهم الواسع الذى يطلبه القرآن في النبات وغيره واطلعنا على هذا الحديث تحسرتنا على مجد ذهب وأمم هلكت ولا نصيب لها من دينها فهل في خطة الإنصاف أيها الأمم الإسلامية أن يحرمكم صفار الشيوخ والجهلاء من الأمراء من أن تفتحوا أعينكم لأشجارهم في نفس بلادكم وأنتم أحق بدراستها ودراسة غيرها من النبات في الأرض من الفرنجة فتعمرون عليها معرضين وهي تنبت في جزيرة العرب وصاحب الشراع صلى الله عليه وسلم من نفس بلادكم وقد أنزل عليه «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون» وأنزل عليه أيضا «لم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة» الخ وأنزل عليه أيضا «الذى أحسن كل شئ خلقه» وهذه هي الحاسن الباطنية للأشجار ، ولم يكلف الله بذلك بل ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يهطى أصحابه - وهم لامدارس عندهم ولا قراءة ولا كتابة - درسا في النبات كله وفي النخل ، وهذا الدرس فكر القوم

في أشجار البوادي. إن هذه النبوة والله يشهد لم يتم حاملوها بما يجب لها وإلا فكيف يمر هذا الحديث على المسلمين قرونا وقرونا ولا يفتن أحد لدرس علم النبات ومن فطن له وللعلوم الأخرى كابن رشد كفروه وقالوا له أنت مارق من الدين. اللهم إن هذه النسكبة الإسلامية بهذا الجود العيب قد جعلتها سبحانه لنا عظة لنسكتب لأبنائنا هذا القول حتى لا يقعوا فيها وقع فيه الآباء بسبب جهل كثير من شيوخهم وانسكاهم على مشايخ طرقهم وأنا يارب قدايت ما على بقدر طاقتي وأنت لا تسكف نفسا إلا وسعها، فألمهم اللهم أناسا يهدون هذه الأمم ويعلمونها ويرشدونها إلى سواء الصراط، فلم يبق في القوس منزع، ولا عطر بعد عروس، وحم الأمر واشتد الحطب، وأنت تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء. وأنت على كل شيء قدير. انتهى يوم الاثنين ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م والحمد لله رب العالمين.

(بهجة العلم في هذا المقام)

هأنت ذا أيها التذكي شاهدت الرسوم الجميلة البديعة في القسم الأول والحكم المستخرجة بالدراسة من القسم الثاني. فيا سبحانه الله وبأسعدانه. إن المسلم في أقطار الأرض شرقا وغربا يمر بالأشجار في الحقول والحدائق والطرق ويراهم تمد له أيديها تارة بالأزهار وتارة بالفواكه والخمر وتارة بالروائح العطرية وتارة تعطيه خشبا لصنع أبوابه وشبابيكه وأسرته وكراسيه وسفنه وكثير من آلائه. ألاحيا الله العلم، فباليت شعري كيف يمر المسلمون على هذه العجائب وأكثرهم لا يشعرون أنها عجائب. كلا. وكيف يشعرون وهم لا يعلمون من الخمر إلا لذته ولا من الحطب إلا أن يكون سقوا لمنازلهم وسفنا لمسافرهم وعمدا لحيامهم وآلات لأعمالهم، أما الجمال وأما الإبداع فهم عنهما معرضون.

أيها الناس: إن الله قادر أن يعطينا ذلك بلا عمل ولا نصب كما أعطى (حشرة أبي دقيق) ورق قطننا عصر تأكله أكلانا، ونحن الزارعون «ولا يظلم ربك أحدا» فهو الزارع وهي الآكلة وعمل الخلق من آثار رحمة الله. فإذا لماذا جعلنا الله في وسط هذه العجائب. إنما فعل ذلك ليوقظنا إليها ونحسنا عليها؟ وإلا فما هذا الجمال؟ وما هذا الحسن. وما هذا الإبداع؟ أو، أهو رمية من غير رام حتى نكون عنها معرضين كلا والله فهذا مستحيل بعد ما ظهر ظهور النجم في هذا الكتاب بأجلى برهان وبالحس والعيان.

انظر أيها التذكي إلى مارسمته لك هنا آتفا من تلك الصور النباتية البديعة، فما هذه الزينة، وما هذا الزخرف؟ ثم تأمل قطع الحطب من الكثرى وكيف كانت الشمس وهي تجرى في السماء بحسب ظاهر النظر قد تركت في بواطن الأشجار آثارا وقد ارتسمت دوائر ورائها دوائر حافظات بأعدادها كروور السنين ومرور الشهور والأيام.

كم جلس بنو آدم في وارف الظلال تحت الأشجار والنباتات تتلاعب بالأغصان وتنثني على الأوراق والشجرات تتمايل ذات اليمين وذات الشمال وضوء الشمس قد ملأ الحقول والبقاع وكسا تلك الشجرات ملاء بيضاء مركبة من (سبع طبقات) ذات ألوان من الحمرة والصفرة إلى آخره كلهن منسوجات نسيجا عجيبا وبه صرن لونا واحدا وهو ذلك الجلباب البديع، كل هذا وابن آدم لا يعلم أن في باطن هذه الشجرة دفنرا يحصى فيه حركات الشمس وتسكتب فيه السنون سنة بعد سنة. وإذا أحصى الله كل شيء عددا فما هو ذا أرائنا الإحصاء واضحا في حقولنا وبساتيننا، وكل في الأرض من كتاب نسخ بيد القدر وأحصى السنين الشمسية في مشارق الأرض ومغاربها، فكل شجرة كتاب حساب كما أن كل طبقة من طبقات الأرض عند علماء (الجيولوجيا) سجل سجلت فيه القرون التي قطعها أرضنا في تاريخ حياتها البعيد المدى، إن هؤلاء العلماء يستتجون من هذه الطبقات وتركيبها مقدار عمر الأرض كما يقدر علماء النبات فيما رأيت مقدار عمر نفس

الشجرة بالسنين ، فعمر الأرض وعمر الشجرة تابعان لمسير الشمس الظاهري حول الأرض . وإذا سمعنا الله يقول « وكل شيء أحصيناه كتابا » فما هو ذا أبرز لنا من الإحصاء ما يوافق عقولنا ويكون كنموذج لما عنده في اللوح المحفوظ . أفلا يحق لي بعد هذا البيان أن أقرأ « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ظهر الجمال في ظواهر النبات بالإبداع والحسن والزينة ، وظهر الإبداع في بواطن النبات والأرض ، وهذه نعم تذكرنا بالنعم الباطنة في نفوسنا من الصحة والعلم والسرور والبهجة « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

﴿ فصل ﴾

ها أنا ذا أكتب صباح يوم الجمعة (٢٧) سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذه السورة وما معها مقدمات للطبع . فها هو ذا حضر صاحبي . قد حضر الآن وقرأ ما كتبتة فقال ياسبحان الله ما أجل هذه الصور وما أبداع هذه الأشكال . لقد سرت بها القلوب وانشرحت الصدور وحق لي أن أذكر أول قصيدة ابن الفارض التي تمثلت بأبياتها هنا وأنشد :

ما بين معترك الأحداق والهج أنا القليل بلا إثم ولا حرج
ودعت قبل الهوى روحى لما شهدت عيناى من حسن ذاك المنظر البهيج
فه أجفان عين فيك ساهرة شوقا إليك وقلب بالغرام شجى

ومنها :

أهفو إلى كل قلب بالغرام له شغل وكل لسان بالهوى لهج
وكل سمع عن اللاهى به صمم وكل جفن إلى الإغفاء لم يعج

ومنها :

عذب بما شئت غير البعد عنك تجد أدنى محب بما يرضيك متهيج

ومنها :

من مات فيه غراما مات مرتقيا ما بين أهل الهوى فى أرفع الدرج

ومنها :

أعوام إقباله كاليوم فى قصر ويوم إعراضه فى الطول كالخجج
فإن نأى سائرا يامهجق ارتحلى وإن دنا زائرا يامقلق ابتهجى

فلما فرغ صاحبي من إنشاد هذه الأبيات من نفس تلك القصيدة قلت له كأنك تحفظ هذه القصائد ؟ قال أكثرها وذلك من أيام صغرى . قلت له إن الأمم الإسلامية بعد العصور الأولى لما ذهبت دولة العرب وانتقل الملك من أمة إلى أمة وتحكم بعض صغار العقول من الفقهاء والصوفية فى عقول هذه الأمة المسكينة ومنعوا دراسة العلوم الحكيمية تحول أصحاب العقول الكبيرة إلى علم التصوف فظهر فيهم أمثال الأستاذ محيى الدين ابن عربى ومن نحا نحوه كابن الفارض ودرجت الأمة على ذلك واكتفوا بهذه الوجدانيات وناموا عن نفس العلوم وبدائع التكوين ومجالى النظر فى السموات والأرض واتبع الخلف السلف و« كل حزب بما لديهم فرحون » أذلك خير أم الابتداء أولا بالنظر فى عجائب النبات والسحاب والشمس والقمر إذ يقول الله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » ويقول « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » وهل زين الله أرضه وسماه للعيمان ؟ أم أبرزها للعافلين ؟ كلا ، فإنه يقول « وزيناها للناظرين » فإذا رأيت أيها الدكى ميلا إلى النظر وفرحا بالعلم فاعلم أنك أنت من المقصودين بهذه المناظر وبهذه الزينة ، وستكون أمم الإسلام بعد هذا التفسير أسبق الأمم إلى هذا الجمال البديع وإذن يكونون « خير أمة أخرجت للناس » .

الله أكبر لا تزف العروس لبعلمها إلا بعد إصلاح شأنها وتزيينها بالحلى والحلل وإلا فلا عرس ولا زفاف .
القاعدة واحدة جمال في المرأة فزفاف فوثام فذرية وحياء . وجمال في السموات والأرض وزينة بالنبات
والشجر فحب بالجمال فعلم بالنظام فغرام بصانع هذه المخلوقات . فلا غرام إلا بعلم ولا عشق إلا بعد النظر . فأما
عشق الحسان فما أيسره لكل إنسان وحيوان ، وأما عشق المعاني والبدائع فما أبعد عن عقول صغار
الأحلام ومرضى النفوس عباد الأوهام .

ثم قلت فليبدأ السلم بهذا الجمال الظاهري وليدرس تلك العلوم . وهنا لك عبق له أن يترنم بأبيات ابن
الفاارض التي ذكرناها . ولست الآن في مقام أناس اصطفاهم الله فلم يحتاجوا لهذه العلوم لأن نفوسهم صافية وقد
أفيض عليها العلم . فنحن لم نؤلف هذا التفسير لهذه الطبقة فإنها من طور آخر وإنما هذا التفسير لعموم الأمم
الإسلامية ، أما هؤلاء فليسوا في حاجة إلى كتب يقرءونها ولا مدارس يدخلونها بل كتابهم ليسوا من علمنا
ورسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كان يخاطب العموم .

فقال صاحبي والله لقد أجبته على ما اعترضت به عليك في سرى فما كاد ذلك يجيش بصدرى حتى
كأنك أحسست به فبادرت بالجواب ولكني أريد أن أسألك في الصور التي نقلتها في مظاهر النبات الآن . إنك
تقول إنك نقلت صورها من مجلة مصرية نقلت نعم . فقال وكيف رسم تفسير القرآن صوراً رسمها أناس
في مجلات ونشروها بين العام والخاص . أليس هذا داعية للازدراء والانتقاص . أليس الدين قرء وانك المجلات
ورأوا تلك الصور فيها يقولون إن هذا التفسير ليس بعيد المدى ولا هو عظيم الشأن . وكيف يضع المؤلف فيه
صوراً اطلع عليها الجهلة وصغار العقول . ولو كان التفسير ذا بال لم يرسم فيه إلا ما يفهمه الطغام ولا يعرفه إلا
أولوا الأبواب . إن كل مبذول مرغوب وكل ممنوع مقبول .

فقلت إن ما ظننته أيها الأخ مانعاً أراه أنا موجبا . ألا ترى رعاك الله أنه كلما كان الشيء أكرم للحياة وأقوم
لهذا الوجود كان أكثر انتشاراً وأكثر صوراً . وكلما كان أقل لزوماً للحياة كان أقل وجوداً فهناك الشهوات
الإنسانية والحيوانية والصور النباتية والحيوانية بذلت الشهوات لكل حيوان . فجوع وشبق لازمان لهذه
الحيوانات ولولاها لم يعيش حيوان ولا إنسان بل القوة الغضبية لم تندر حيواناً ولا إنساناً إلا لزمته قلة وكثرة
محافظة على الأبدان بل إن القوة الشهوية بنوع ما مركوزة في النبات بها امتص من الأرض ومن الماء والهواء
الغذاء بل إننا نرى له أثراً مامن القوة الغضبية وإن كانت غامضة علينا . ألم تره مدججاً بالسلاح كالشوك في
شجر السنط والقرطم وغيرها من الشجر والنبات ذلك ليدرأ عنه ما يهلكه ويصد ما يقصده بالأذى من الحيوان .

هذه حال القوة الشهوية والغضبية . إنهما عامتان وعمومهما لبقاء كل نبات وحيوان وإنسان فهما إذن
نعمة وحكمة كبرى لا يعقلها إلا الحكماء المفكرون وليس للوعاظ والخطباء فهما من نظر الإفايتجلى للناس
من سوء استعمالهما كالسرقة والقتل في الشهوة والغضب اللذين جعلنا نعمة أولاً وبالذات ، فأعجب للجمال
المهجوب عن الجهال في قوتى الشهوة والغضب العامين ، وأعم منهما الضوء والحرارة والهواء والماء والتراب ثم
الجير والحديد والنحاس . فهذه عامة على مقتضى الحاجة إليها . فلا غرو إذا رأينا القرآن يقرؤه الأطفال
في المسكن والجهلاء والعامة في سائر الأزمنة والأمكنة والجهلات لعموم الحياة عمت الشهوات والهواء والماء ،
ولعموم الحاجة إلى العلم والحكمة عمت قراءة القرآن وأكثر القراء في الأرض لا يعقلون . فلا بدع إذن إذاعم
الجمال في صورة النبات والحيوان وبرز ذلك الجمال للجهال والعلماء على حد سواء . فكأن عمت الشهوات سائر
الأحياء لينالوا نصيبهم من الحياة بلا استثناء هكذا نشرت صور الجمال في جميع الأصقاع برا وبحرا وسما وأرضا
ليقول الله للناس هذه هي صور الجمال أحبها لكم فلا يخل اليوم ولا تبذر ، أنا سويت بينكم أيها الأحياء في سوقكم

لحياتكم بمهاز الشهوات وسويت بينكم في سوقكم إلى بهجة العلم بنشر صور الجمال في النبات والحيوان والنجوم والشموس . عمت الشهوات وعم الهواء والماء فكانت الحياة وانتشرت صور الجمال فبرز في أرضكم رجال حكما علماء فلا حكيم إلا وهو مغرم بالجمال فإذا فقد الجمال انقرض من الأرض الحكماء .

يقرأ القرآن الجهلاء والعلماء كما ينظرون صور الجمال والإبداع ولكن القراءة شيء والفهم شيء آخر كأن نظر الجمال شيء والإعجاب به بعد الإحساس أمر آخر ، عموم الصور أمر اقتضته الحكمة كما أن عموم قراءة القرآن كذلك وإن لم يعقله القارئون فإذا رأينا بذور النباتات ملأت السهل والجبل وإن لم يرها الناس لشدة الدقة والصغر وليست تنمو وتثمر إلا في الأماكن الصالحة لها كالأرز لا ينمو إلا في الماء وكالقمح لا ينبت إلا في الحقول آسقى وقتا بعد وقت وكنوع من النبات في طرفه الأعلى ما يشبه الشعرات البيض أو الريش الأبيض يبلغ طول ذلك نحو قدمين وارتفاع النبات نحو ثلاثة أمتار وهذا نراه على شاطئ النيل بحمة مصر القديمة فهذا ينمو ويعيش في الماء وفي اليابسة ، فبذور هذا النبات وغيره من الحشائش في اليابسة تملأ السهول والقفار ولكنها لا تنبت إلا في أماكنها الصالحة لها وكثرة البذور تشبه الحيوانات كثرة النوية في ماء الرجل وكثرة حبوب الطلع في أعضاء التذكير في النبات فذلك الكثرة فيهما جعلت للاحتياط في إيجاد الحيوان والنبات ذلك لأن عالمنا الأرضي عالم متأخر فاحتيط له حتى لا يحرم من الحياة فكثرت أسباب الحياة في أرضنا وهذا هو العجب العجيب . أقول فإذا رأينا الأمر هكذا فهكذا فلنقل في حفاظ القرآن وفي العباد (بتشديد الباء) الذين يقرءون القرآن في الصلاة ، فكثرة هؤلاء ككثرة البذور وكثرة الحيوانات النوية . فما أكثر أولئك إلا لينتفع وجود بعض المفكرين والحكماء كما تحفت الحياة بكثرة أسبابها التي لا تحصى وهكذا عموم صور الجمال ونشرها في الكرة الأرضية والكرات السماوية لا يقصد بها إلا الأفلون الذين يعقلونها فهلاك آلاف الآلاف من الحيوانات النوية والبذور النباتية في سبيل خلق حيوان واحد ونبات واحد كهلاك آلاف آلاف الصور الجميلة في إيجاد حكيم واحد في أمة من أمم الأرض يملؤها جمالا وكالا ويحبوها عزا وإقبالا .

وهذا هو عين جوابي لك أيها الأخ ، فليس عموم الصور في المجالات المنشورة في الأقطار الإسلامية بمنع من رسمها في هذا التفسير بحجة الابتدال فلو كان هذا مانعا من النشر لسكانت قراءة القرآن في الطرقات وعموم قراءة الفاتحة بين رجال الطرق في كل مناسبة يقرءونها وأكثرهم لا يعقلون معناها مانعة من اعتباره كتابا مقدسا فهو مقدس وإن قرأه صغار العقول كما أن السماء جميلة والأرض مزينة بالنبات والحيوان وإن برزت للجاهلين .

عمت صور الجمال في أرضنا وعمت قراءة القرآن عند المسلمين لتقام الحجة على الأرواح عند مفارقة الأبدان إذ يرتفع أقوام بأجنحة العلم والأخلاق فوق العلا فيقول آخرون لماذا ساد هؤلاء علينا ؟ فيقال بالعلم والحكمة سادوا ، فيقال ولماذا حرماننا من ذلك فيقال لهم صور الجمال وعموم البيانات والعلوم لم تدع عنذرا لمعتذر ولا حجة يحتاج بها القصرون . فالجمال وإن عم والعلم وإن ملأ الأصقاع والدين وإن قرأه الخاص والعام يعوزها كلها الاستعداد ، فالاستعداد هو الذي جعل الناس في مراتبهم وأنزلهم منازلهم في الدين والدنيا ، فكيف من جمال يراه الناظرون بهجة تعمي عنه عقول القاصرين ، وكيف من قارى لسور القرآن غافل عن معانيها وقليل من يتعظ بها وهم شاكرون .

فكما أن قراءة القرآن في المقابر والطرقات وبأسنة الجهلاء ليست بمزربة بأمثال الغزالي والرازي وابن رشد في الشرق ولا بأمثال (توماس كارليل) و (عبد الله كويل) و (هنري الفرنسى) و (اللورد هيدلي)

في الغرب إذ قال هؤلاء (إنه فوق متناول الفلسفة والعلم وإنه هو مناط السكالم والجمال) هكذا ليس عموم الصور النباتية والحيوانية في الأصقاع والحقول والغابات ودوس الناس عليها وعلى ما جعل من الحشرات ، وهكذا عموم صورها التي صورت بالصور الشمسية المنتشرة في المجالات . بمزجية بما أرسمه منها في هذا التفسير فهنا لها مغزى أشرف من مغزاها عند الجهلاء كما أن للقرآن معنى عند الحكماء المتقدمين فوق ما يعرفه جهلة المسلمين أضعافا مضاعفة ، وكما أن الحشرات من النمل والنحل لها مزايا عند العلماء بها يفهمها جميع العامة من نوع الانسان .

إن الجاهل يضحك من العلماء ، ولو أنك قلت لعامى : إن لله حكمة في النمل وإن للنملة (٤٠٠) عين كما تقدم في سورة النمل لعددها منك خرافة وسخر واستهزاء وهو من المكذبين ، ولولا الاستهزاء والاحتقار لم يكن الناس طبقات .

فقال صاحب إن لعامى الحق كل الحق أن يسخر من قول العالم إن للنملة (٤٠٠) عين وإن للذباب أربعة آلاف عين كما تقدم في هذا التفسير لأنه لا دليل لها عنده ولم يجالس العلماء وله الحق في الإنكار بل إذا صدق كان مخدوعا . فقلت ليس كل ما لا يظهر برهانه بمكذوب . ولو أن الناس جميعا عولوا على ما قويت صحته وظهرت براهنه لهلك نوع الإنسان وأصبح في مرتبة الحيوان ، فليست نتائج الزراعة ولا التجارة ولا الصناعة ولا السياسة يقينية . لا يقين في هذا كله . ولو كانت النتائج يقينية لم نسمع بهلاك دولة بسبب واقعة حربية اكتسحتها ولا زراع هلك زرعه بأفة سماوية ولا بتاجر غرقت بضاعته في البحر بزوجة جوية ولا بصناعة أصبحت في السوق مزجاة فأفلس صانعيها ، فهذه النتائج لم يكن لأصحابها فيها إلا الظن فلو كان الناس لا يبعثون إلا باليقين لهلكوا .

ومن هذا الباب كثير الفقراء في نوع الانسان لأنهم أرادوا اليقين في المكاسب . فترام لا يخاطرون في متاجر عظيمة ولا مكاسب رفيعة حرصا منهم على الدرهم والدينار اللذين عندهم وطلبوا ليقين المكاسب ، فالحيطة مخاطرة لا أقل ولا أكثر ، وما نوع الناس وما ميزم مراتب إلا ما فهم من استعداد في الفطرة ضعفا وقوة . فلتن أحجم القاصرون من نوع الإنسان عن المخاطرة بالأتمس والأموال في سبيل المجد والشرف في الحياة وفرحوا بما عندهم من المال القليل المتيقن ضنا منهم بما لهم وأنفسهم ليحجمن الجهال عن البحث في عيون النملة وعيون الذبابة إذا سمعوا قائلا يصف لهم ذلك . وذلك لأنهم فرحوا بما عندهم من العلم واستغنوا عن سواه كما فرح ذلك الفقير بماله وقوته ولم يبدلها في المكاسب البعيدة طلبا لليقين ، فالمال الذي حازه ذلك الفقير متيقن عنده وجوده والمكاسب يعوزها سعي ومناظر الحشرات والخلوقات ظواهرها متيقنة عند الجاهل ولكن بواطنها التي يسمع عنها ليست متيقنة يعوزها البحث وهو لا همه له في ذلك ولا شوق . وليست تبعث للمكاسب ولا الحقائق العلم إلا نفوس اصطفها الله . فهؤلاء قواد الأمم في المال والعلم وهم يقولون فيها كما يقل الملوك ورؤساء الجمهوريات وقواد الجيوش «وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون» .

كل له عرض يسعى ليدركه والحري يجعل إدراك العلا غرضا

«وقليل من عبادى الشكور» وبهذا تم الكلام على (بهجة العلم) في القام الأول وهو إحسان خالق النبات والحمد لله رب العالمين .

﴿ المقام الثاني في إحسان خلق أفضل الحيوان وهو الإنسان ﴾

لقد تقدم في (سورة المؤمنين) رسم القطع العمودي لجسم الإنسان للشمول على عشرين عضواً وفيه مجاورة الأعضاء بعضها لبعض ثم جهاز الحركة للشمول على (٢٩) عضواً وهكذا صورة اليدين وطبقاتهما (١٢) وصورة العين والأذن والأولى فيها (١٩) جزءاً مشروحاً والثانية فيها (١٣) جزءاً كذلك وصورة الدورة الدموية . فاذا علمت هذا فانظر لما أقوله لك الآن واعجب من جمال الله تعالى وحكمته تميماً لما تقدم .

(١) واعجب من جهاز التنفس إذ ترى :

(١) الرئتين والشعب والقصبه الهوائية . (٢) والحويصلات الرئوية وأوعيتها الدموية الشعرية .

(٣) وتركيب الرئتين .

(ب) (١) ومن أعضاء الهضم . (٢) وهيئة الجلد .

(ج) والمجموع العصبي .

(د) وعضو الذوق وهو اللسان .

(هـ) وعضو الشم وهو الأنف .

(و) وعدد الأسنان وبعض صورها .

فها هنا (سنة فصول : الفصل الأول) في جهاز التنفس (الفصل الثاني) في أعضاء الهضم . (الفصل الثالث) في المجموع العصبي . (الفصل الرابع) في اللسان . (الفصل الخامس) في عضو الشم . (الفصل السادس) في الأسنان وعددها . كل ذلك ملخص من كتاب [قانون تدبير الصحة] تأليف الدكتور (جون سايكس) .

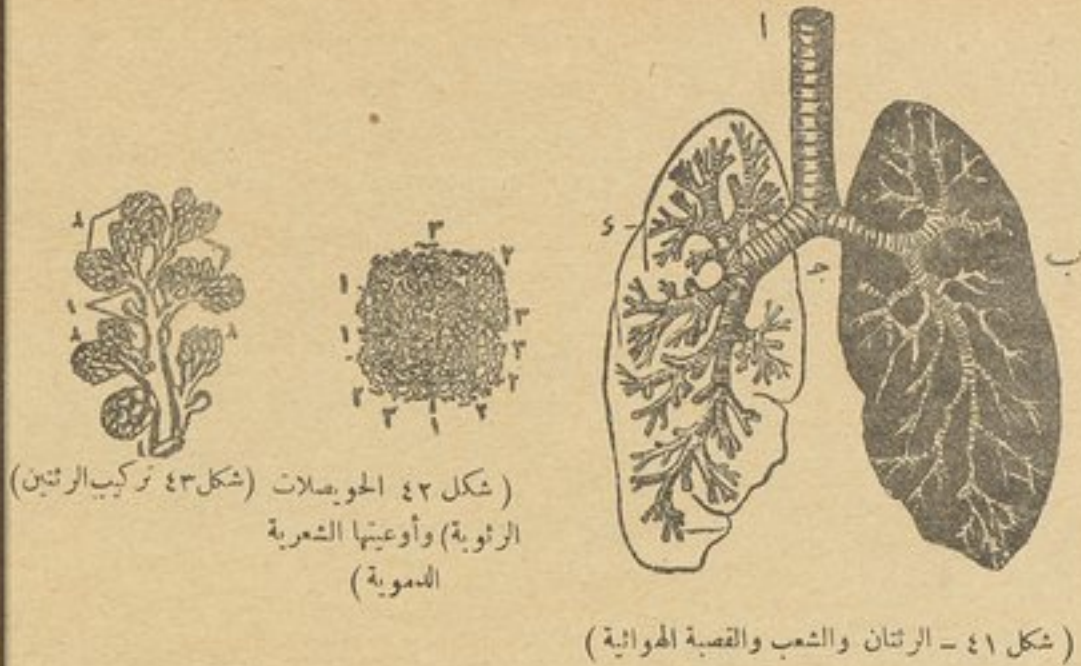
﴿ الفصل الأول : في جهاز التنفس ﴾

(أعضاء التنفس)

يدخل الهواء من الأنف أو الفم فيصل الحلق ويمر بالحنجرة ثم بالقصبه الهوائية ومنها إلى الشعب التي تنقسم إلى فروع صغيرة تنتهي في تجاويف صغيرة تسمى بالحويصلات الرئوية وهي تشبه العنبيات المحفوفة وتجري في جدرانها أوعية دموية وهي التي يحصل فيها التبادل بين غازات الدم والهواء ويدخل الهواء إلى الرئتين بحركة تسمى بالشهيق ويخرج منها بحركة أخرى تسمى بالزفير وذلك بانسساط وانقباض جميع جدران الصدر الحاجز من أسفل والأضلاع والعضلات التي تحركها والتي بينها من الجوانب والأمام . انظر أشكال (٤١) و (٤٢ و ٤٣) .

﴿ ميخانيكية التنفس ، أو كيفية التنفس ﴾

يدخل في تركيب الحنجرة والقصبه الهوائية والشعب ماعداً الدقيق منها حلقات أو قطع من حلقات غضروفية وبهذا لا ينطبق بعضها على بعض بل تبقى دائماً مفتوحة ومحتوية على هواء .



(شكل ٤٢ الحويصلات (شكل ٤٣ تركيب الرئتين)
الرئوية) وأوعيتها الشعرية
(الدموية)

(شكل ٤١ - الرئتان والشعب والقصبه الهوائية)

(١) القصبه الهوائية (ب) الشعبه اليسرى (ج) الشعبه اليمنى (د) الأنابيب الشعبيه الصغيره .

{ الفصل الثاني : الجهاز الهضمي }

(أعضاء الهضم)

تتكون هذه الأعضاء من الفم والأسنان وغدد اللعاب ، ومن البلعوم والمريء ، والمعدة والكبد والبنكرياس والأمعاء الدقيقة والغلاظ التي تنتهي بالمستقيم ، ويبطن الجهاز جميعه غشاء يفرز مخاطا ويندمج فيه أو تحتها عدد عديده تختلف في تركيبها بنسبه وظيفتها (انظر شكل ٤٤) .

الغذاء مركب من عناصر كيميائيه يحولها الهضم إلى مواد سهله الامتصاص بواسطه الأوعيه الشعريه للجهاز الهضمي فتصل إلى الدم وتمتص الأوعيه الشعريه اللينفاويه المواد الدسمه وتصبا في القناه الصدرية وهذه تصبا في الوريد تحت الترقوه اليسرى ، ويؤثر في الغذاء أثناء الهضم قبل استحالته نهائيا إلى ماده قابله للتمثيل جمله من أعصره هضمية وهي اللعاب وعصير المعدة والصفراء وعصير البنكرياس .

شكل ٤٢ (١) جدر الحويصلة الرئوية (٢) الأوعيه الشعريه الشريانيه .

(٣) الأوعيه الشعريه الوريدية .

شكل ٤٣ (١) الشعبه الصغيره (٢) حويصلات رئويه .



(شكل ٤٥ - رسم
قطاع من الجلد)



(شكل ٤٤ - رسم أعضاء الهضم)

(الكلام على الجلد)

كما أن السطح الباطن لأعضاء الجسم مبطن بغشاء مخاطي فظاهر الجسم مغطى بالجلد ، والجلد يحتوي على طبقة سطحية تسمى بالبشرة وأخرى تحتها تسمى بالجلد الحقيقي وتحتها طبقة من نسيج خلوي تعرف بالطبقة التي تحت الجلد ، والمادة الملونة للجلد توجد في أعمق جزء من الطبقة السطحية التي طبقاتها السطحية تنقلص دائما ويتكون منها أيضا الأظافر والشعر ، ويبرز سطح طبقة الجلد الحقيقية في البشرة على شكل زوائد تسمى بالحلمت وفيها توجد جسيمات الحس وفيها تنتهي أعصاب الإحساس للجلد ، وفي طبقة الجلد الحقيقي توجد شبكة من الأوعية الشعرية (انظر شكل ٤٥) .

ويخزن الشحم في الطبقة التي تحت الجلد ليقوم بوظيفة وقاية الجسم ، ويوجد بها أيضا غدد العرق التي تخرج إفرازها (العرق) بواسطة فتحات دقيقة على سطح الجلد ، وقد نشعر به أولا نشعر لقلته .

- شكل ٤٤ (١) القناة الهضمية المرئية . (٢) المعدة . (٣) الاثني عشرى .
(٤) الأمعاء الدقيقة . (٥) الأمعاء الغلاظ . (٦) الأعور .
(٧) الأمعاء الغلاظ . (٨) المستقيم . (٩) الكبد .
(١٠) المرارة . (١١) القناة الصفراوية .
(١٢) البنكرياس . (١٣) الطحال . (١٤) الكليتان .
(١٥) الحالبان . (١٦) المثانة .

- شكل ٤٥ (١) (البشرة) الطبقة السطحية للجلد . (٢) شبكة مليمي .
(٣) الجلد الحقيقي أو الأدمة . (٤) الطبقة تحت الجلد . (٥) خلايا دانية .
(٦) حلمت الجلد . (٧) الحلمت العصبية . (٨) الحبوط العصبية .
(٩ و ١٠ و ١١) غدد العرق وقنواتها وفتحاتها . (١٢) الشريان لبصلة الشعر .
(١٣) لبصلة الشعر . (١٤) ساق الشعر . (١٥) الشعر .
(١٦) الغدد الدهنية .

{ الفصل الثالث : المجموع العصبي }

يتكون المجموع العصبي من المخ والنخاع والنخاع المستطيل والنخاع الشوكي وهي الأعضاء المركزية وتمتد الأعصاب منها لجميع أجزاء الجسم وهي الأعضاء الدائرة والأعصاب إما حساسة أو محرّكة . (انظر شكل ٤٦) .



(شكل ٤٦ - المجموع العصبي)

فالحساسة هي التي تحمل التأثيرات الدائرية إلى الأعضاء المركزية ، والمحرّكة هي التي تحمل التأثيرات من المركز إلى أجزاء الجسم فتحرّكها أو توقفها ، وهناك أعصاب سمبائية تخرج من عقدة عصبية موجودة على جانبي العمود الفقري وتتصل بالنخاع

الشوكي بفروع دقيقة ، ووظيفتها تنبيه العضلات غير الإرادية للأعضاء وتنظيم الوظائف التي لا يشعر بها الإنسان .

{ الفصل الرابع : في عضو اللسان (حاسة الذوق) }

عضو الذوق هو اللسان ، ويحتوي على جسيمات الذوق في حلقاته ، والأشياء التي تذوق تكون حلوة أو مرّة أو حامضة أو مالحة مثلا ، وإذا أريد معرفة طعم الشيء جيدا يذاق ذائبا ولا يعرف طعمه إذا كان حارا جدا لأن الحرارة الشديدة تبيت حاسة الذوق (انظر شكل ٤٧) .

- شكل ٤٦ (١) الدماغ . (٢) الشق العظيم للمخ . (٣) المخ . (٤) الفص المؤخر للمخ . (٥) قاعدة للمخ . (٦) النخاع . (٧) البصلة الشوكية . (٨) النخاع الشوكي . (٩) أعصاب الجذع آتية من (١٠) أعصاب الذراع . (١١) العصب الزندي . (١٢) عصب الإبهام . (١٣) العصب القدم السفلي للساق (١٤) العصب الحلقى العلوي للساق . (١٥) العصب الحلقى العلوي للساق . (١٦) العصب العلوي للقدم للساق .



(شكل ٤٨ - رسم الأنف)



(شكل ٤٧ - رسم اللسان)

﴿ الفصل الخامس عضو الشم ﴾

عضو الشم هو الأنف وفيه الاتهامات العصبية الخاصة بذلك ، وتؤثر الأجسام الغازية أو الصلبة في حاسة الشم بذرات دقيقة جدا ، والسوائل لانتم جيدا مالم تسكن طيارة أو بها مواد طيارة كالروائح الذكية ولا تشم جيدا إذا كان الأنف رطبا ومصابا بزكام (انظر شكل ٤٨) .

﴿ الفصل السادس : في عدد الأسنان ﴾

عدد الأسنان عند الأطفال الذين دون السابعة من العمر عشرون سنا وتسمى بأسنان اللبن ، وتسقط هذه الأسنان في السنة السادسة أو السابعة ويخلفها تدريجا إلى الثامنة عشرة تقريبا من عمرهم اثنتان وثلاثون سنا (ست عشرة في كل فك) وتتركب أسنان كل فك من قواطع عددها أربعة، وهي لتقطيع الأغذية ، وأنياب عددها اثنتان وهي لتمزيق الأغذية وأضراس عشرة لطحنها وتسمى هذه الأسنان بالثابتة . فإذا لم تحفظ الأسنان في حالة مرضية اختلت عملية المضغ ، وينتج من ذلك عسر في الهضم ، وبعض الأطعمة الصلبة تضر الأسنان كتكسير البندق بها أولى الأسلاك أو اختبار المعادن ، لأن ذلك يفصل عنها طبقة المينا التي تعطيها وتجعلها في استعداد للتسويس بسهولة . انتهى ما أردته من (كتاب قانون الصحة) .

- شكل ٤٧ (١) قاعدة اللسان . (٢) اللوزتان . (٣) لسان الزمار .
 (٤) أسلة اللسان (قته) . (٥) الحلمات الحيطية . (٦) الحلمات الفطرية .
 (٧) الحلمات الكأسية .
 شكل ٤٨ (١) الحفر الأنفية . (٢) فروع من العصب الشمي . (٣) العصب الأنفي الحلقى .
 (٤) العصب الأنفي . (٥) قبوة الفم .
 (٦) العظام والخلايا العظمية للحفرة الأنفية .

روضات الجنات

في تفسير قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه » إلى قوله تعالى « ثم سواء ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون »

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة ، ولك الشكر على ما أولقنا من آلائك وحبوتنا من فضلك ، وأذعت الحكمة في ربوع بلاد الإسلام بعد ماجدت القرائح وماتت الهمم واندرست العلوم وعم الوجوم وصارت علوم الحكمة أشباحا بلا أرواح فعم الجهل وساءت الحال ؛ فهاهي ذه أيامها قد أقبلت وبشارتها تترى في بلاد الإسلام . فهي التي بها أدركنا بعض أسرار كتابنا في هذه الأيام على مقدار طاقتنا ، وأى حكمة أشرف وعلم أعلى من معرفة نفوسنا وجمالها ومناسبتها للعالم المحيطة بنا تفسيرا لقولك « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » وقولك « ثم سواء ونفخ فيه من روحه » . ذكرت ذلك تنميا لما ذكرته في السورة السابقة من حكمة لقمان . أنت جعلت تلك السورة باسم لقمان وقفيت على آثارها بسورة (السجدة) التي كلامنا فيها ولم تشأ أن ترهق العقول بجملها في سورة واحدة فأخذت تشير لنا هنا أن وضع العوالم الأرضية على طراز وضع السموات ، وهذا من أجل علوم الحكمة التي سنشرحها هنا .

أدب اللغة العربية : أدبيات اللغة

وموازنة هذين العليين بما قاله الحكماء أن الإنسان عالم صغير على مثال العالم الكبير مطابقة لهذه الآيات

لقد جاء في العلوم اللسانية في اللغة العربية علم يسمونه « أدب اللغة العربية » وهذا العلم يقرأ في كتاب الأمامي لأبي علي القالي ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الأغاني للأصمعي وكتاب العقد الفريد لابن عبدبريه ، وكتاب المثل السائر لابن الأثير ، وملخص هذا الفن يرجع إلى الأحاديث المستملحة والأشعار وسير الشعراء والخطباء ومجالس الملوك وطريف التاريخ .

أما علم أدبيات اللغة فهو علم مستحدث لم يعرفه أهل الشرق إلا في زماننا هذا نقلوه عن أهل أوروبا من الإنجليز والفرنسيين والألمان وأمثالهم ، وملخصه أن يدرس الشاعر ويعرف تاريخ حياته وأحواله وبيئته وما الذي أثر فيه حتى نطق بهذه الأشعار ، وما أثر حكومته فيه ، وهل كان هناك ضغط عليه أو ذل أم كان في غبطة وعدل ؟ وبهذا يكون درسا أخلاقيا سياسيا إجتماعيا وتكون نتيجته إصلاح المجتمع الإنساني بمعرفة آثار المتقدمين عزا أو ذلا ورفعة وانحطاطا حتى كانت نتائج تلك الأحوال أقوالا منظومة . فبهذه الآثار يزنون ذلك المجتمع البائد ويبحثون في إصلاح المجتمع اللاحق .

هذه هي أدبيات اللغة التي يدرسها الأوروبيون ، وليس في ذلك اهتمام بالحفظ كما يهتم علماء أدب اللغة عند أسلافنا بل المهمة منصرفة في هذا إلى التنقل والتفكير « ولكل وجهة هو موليها » فأدب اللغة العربية يعلم الفصاحة والبلاغة والخطابة والشعر وحفظ الحكم والأمثال ولكن صاحب هذا العالم كاف عليه لن يكون وزيرا خطيرا ولا أميرا عظيما وإنما يصلح أن يكون جليس الأمراء وسمير العظماء كما اتفق للأصمعي في الشرق وأمثاله ولن يصلح أن يكون أميرا يصلح أعمال الدولة . ولقد أصاب (كافور الإخشيدى) إذا أبي

أن يستعمل المتنبي في عمل من أعمال الأمة المصرية لأن الشاعر غير الحكيم فهذا خيالي وذاك مفكر . ونظام الدولة لا يصلحه الشاعر ، وإنما يقوم به الفكر ولذلك سقطت الأندلس لما تولى وزارتها أمثال (لسان الدين الخطيب) وابن جهور وأمثالهما (انظر هذا في سورة الشعراء عند آية « والشعراء يتبعهم الغاؤون » الخ) هذا هو الذي أريد أن أجعله تنظيرا لأجل ما في الحكمة وهو معرفة الإنسان نفسه وموازتها بالعوالم العلوية والسفلية . انظر إلى ما ذكرته لك في آخر السورة السابقة من أقسام الحكمة وتفصيل علومها ونعم الله التي أسبغها على عباده ظاهرا وباطنا . تأمله وانظره ، فهذه ملخصات علم الحكمة كما أن النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والخط والتاريخ وما أشبه ذلك كلها علوم اللسان العربي ، فسكها كان هناك علوم لما تنطق به من القول هكذا هناك علوم لما خلقنا فيه من الكائنات . وإذا وجدنا لعلوم اللغة أدبا وأدبيات هكذا وجدنا لعلوم الحكمة العامة ما يشبه ذلك وإن لم يسموه أدبا وأدبيات ، وهم قد فعلوا به ما فعلوا في آداب اللغة ولكن أدب اللغة الذي هو نمرات علوم اللغة عام يقرأ في المحافل والمجالس في العالم قاطبة ، أما نظيره من نمرات علم الحكمة فليس يعرفه إلا الفوقة الأكبر وأعظم الأمم وهم « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . قوم قلوبهم مشرقة والعالم كله يصبح لديهم كأنه نسخة صغيرة مختصرة . وما هي النسخة المختصرة ؟ هي أجسامهم التي فيها نفوسهم . فهذه الأجسام التي تنبأ بها المرآة وتزينها بأنواع الأصباغ والحلى والحلل ويتبارى أكثر الرجال في لذاتها وشهواتها ومل بطونها كسائر الحيوانات ويقتنون على اقتناء الأموال لأجلها هي هي أنفسها كتاب مكنون يقرأ فيه صاحبه علوم العوالم كلها . علم الله ضعف هذا الإنسان وقد جعل بين العوالم مناسبات ، وأودع في الأشكال الأتانس إلا بأشكالها وحرم على السوقة مجالس الملوك ، فمن باب أولى يمنع الجهال وصغار العقلاء من الأتانس به ومشاهدته ، وإذا كان الملوك الذين هم من ضعاف خلقه لن يجالسهم السوقة لعدم المناسبة والمقاربة فكيف رب العوالم كلها ؟ فليس يليق لمشاهدته إلا النفوس التي حازت وصفين معا ، صفاء الأخلاق وإشراق الحكمة ، وأجل الحكمة هذا الكتاب وهو الجسم الإنساني الذي هو صورة مصغرة للعوالم كلها .

واعلم أيها الذي أن هذا القول يسمعه العامة وأكثر المعلمين في ديار الإسلام وأنصاف المعلمين في المدارس الذين درسوا ظواهر العلوم فتنبوا نفوسهم عن سماعه وعسبونه أقوالا لا طائل تحتها ، ومعلوم أن من جهل شيئا عاداه ، وأقرب الناس إلى فهم ما أقول الآن من قرؤا علوم الحكمة سواء أكانت قديمة أم حديثة ، أما علماء الأدب أو أدبيات اللغة أو علماء الفقه والأصول المقتضون عليها فهؤلاء في معزل عن فهم هذه العقول ولكن أرجو أن أوفق إلى أن يكون ما أكتبه الآن قريبا من فهم سائر طوائف الأذكىاء في العالم الإنساني لا سيما المسلمين .

جاء في « إخوان الصفاء » وهو الكتاب المؤلف في القرن الرابع الهجري (٥١) رسالة في فنون الفلسفة وذلك أيام ازدهار العلوم وصوله الدولة العباسية وارتقاء الأمم العربية ، ولقد اخترت في هذا التفسير من كل شيء أحسنه قديما وحديثا ، فهامى ذه الرسالة التي عنوانها « قول الحكماء الإنسان عالم صغير » فهذه الرسالة وأمثالها قد جعلت كأنها أدبيات الحكمة ، فسترى أن القول فيها لا يقتصر على الملك ولا على المعدن ولا النبات ولا الحيوان كما أن علم أدب اللغة لا يقتصر على الشعر ولا على النثر ولا على الخط ولا على التاريخ بل تجرد هذه العلوم كلها قد استعان بها الأديب فيه ، هكذا هنا في هذه الرسالة التي سألخصها لك الآن بأسلوب هذا الكتاب ليأنس بها الأذكىاء . ويفرح بها العقلاء .

واعلم أنار الله قلبك بالحكمة أن الناس منهم الصبيان والعقلاء والعلماء والحكماء ، ولكل طائفة من

هذه الطوائف آراء تخالف الطائفة الأخرى . فالصبيان عقلاء بالقوة فإذا بلغوا صاروا عقلاء بالفعل والعقلاء بالفعل علماء بالقوة ومتى تعلموا صاروا علماء بالفعل والعلماء بالفعل حكماء بالقوة وفلاسفة فإذا قرءوا الحكمة صاروا حكماء بالفعل والحكماء هم مصاصيح الأمم ينبرونها بعد عروج أنبيائهم لربهم وتشرق أنوارهم على أهل الكرة الأرضية ، وأرجو أن تكون أيها الذكي منهم حتى تلتحق بالنبیین والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وأمثال هذه الرسالة وما تقدمها من فنون الحكمة والعلوم في هذا الكتاب تنقل العلماء إلى درجة الحكماء ، والتفاوت بينهم يكون بالتوفيق والإلهام والإشراق الإلهي والاستعداد النفسى وصدق العزيمة والتقوى ومحاسن الأخلاق .

لقد نظر الحكماء في هذا الجسد وفكروا في تركيبه وحسن هندامه وجندرته ونظامه وأخذوا يخاطبون الناس بما شعروا به ، فأولا أخذوا يضربون له الأمثال ليفهم أكثر الناس . وثانيا غاصوا على جواهر الحكمة وعلومها ونظموها في قلادة وجعلوها حلية لهيكل الانسان ، فالأول تعريف للمتوسطين ، والثاني تعليم لمن هم أرقى عقولا وأذكي أفهاما ، فهاتنا (فصلان) فصل الأمثال الضرورية للنفس مع الجسد ، وفصل قياس الجسد على نظام العوالم العلوية والسفلية وهي العلوم التي تقدم تفصيلها في السورة للتقدمة .
(الفصل الأول في الأمثال الضرورية للنفس مع الجسد وهي (١٢) مثلا)

(المثل الأول) قالوا لما كان الانسان جملة مجموعة من جسد ظلماتى ونفس روحانية صار إذا اعتبر حال جسده ومافيه من غرائب تركيب أعضائه وفنون تأليف مفاصله يشبه كأنه دار لساكنها .

(المثل الثانى) إذا اعتبر حال نفسه وعجائب تصرفاتها في بناء هيكل جسده وسريان قواه في مفاصل بدنه يشبه كأنها ساكن في منزله مع خدمه وأهله وولده .

(المثل الثالث) إذا اعتبر الإنسان ، وجد بنية جسده مع اختلاف أشكال أعضائه وافتتان تأليف مفاصله يشبه دكانا للصانع .

(المثل الرابع) هكذا إذا اعتبر نفسه من أجل سريان قواها في بنية هيكل جسده وعجائب أفعالها من اعضاء بدنه وفنون حركاتها في مفاصل جسده يشبه كأنها صانع في الدكان مع تلامذته وغلماينه .

(المثل الخامس) إذا اعتبر بنية جسده مع كثرة تأليفات طبقات بناء هيكله ، وغرائب تركيب مفاصل بدنه وكثرة اختلاف أعضائه وتشعب فروع عروقها وامتدادها إلى أطراف أعضائه ، وتباين أوعيته التي في عمق جسده ، وتصرف قوى النفس يشبه كأنه مدينة مملوءة أسواقها من الصنائع .

(المثل السادس) إذا اعتبر من أجل تحكم النفس على أحوال الجسد وحسن سياستها وسريان قواها وتصرفاتها في بنية هذا الجسد يشبه كأنها ملك في تلك المدينة بجنوده وخدمه وجاشيته .

(المثل السابع) إذا اعتبر حال الجسد وتكوينه وحال النفس ونشوتها مع الجسد يشبه الجسد الرحم والنفس كالجنين .

(المثل الثامن) إذا اعتبر الجسد من وجه آخر وجد أنه كالسفينة والنفس كالملاح والأعمال كالأمتهمة للتجار والدنيا كالبحار وللوت كالساحل والآخرة كمدينة التجار واقه تعالى الملك المجازى هناك .

(المثل التاسع) إن الجسد كاللداية والنفس كالراكب والدنيا كالمدان والعاملون كالسباق .

(المثل العاشر) إن النفس كالحارث والجسد كالمزرعة والأعمال كالحلب والتمر والموت كالحصاد والدار الآخرة كالبيدر .

(المثل الحادى عشر) إن النفس كالصبي والجسد كالسكتب فيدرس فيه عجائب الأعضاء وتشرعها وغرائب صنعها وبدائع أشكالها .

(المثل الثانى عشر) إننا إذا اعتبرنا تركيب الجسد وسريان قوى النفس وتصرف أحوال الإنسان فيه وجدنا أنه دفتر مملوء من العلوم ويقال إنه مختصر من اللوح المحفوظ . انتهى الفصل الأول فى الأمثال الضرورية للنفس مع الجسد .

﴿ الفصل الثانى : فى قياس الجسد على نظام العوالم ﴾

لقد ضربت الحكماء لذلك أمثالا كثيرة ، ونريد أن نذكر من ذلك طرفا مرموزا مختصرا حسب ما يليق بنا .

﴿ الإنسان مختصر اللوح المحفوظ ﴾

(حكى) أنه كان ملك من الملوك حكيم من الحكماء سيد من السادات ، وكان له أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم ليقومهم قبل إبعاله إلى مجلسه لأنه لا يليق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب والمرتاضون فى العلوم ، المتخلقون بالأخلاق الجميلة ، البرءون من العيوب فرأى من رأى الرصين أن يبنى لهم قصرا على أحكم ما يكون من البنيان فأفرد لكل واحد منهم مجلسا ، وكتب كل علم أراد أن يعلمهم إياه فى جوانب ذلك المجلس ، وصور فيه كل شئ أراد أن يهذبهم به ثم أجلسهم فى ذلك القصر وأفرد كل واحد منهم فى حصته للعدة له ووكل بهم الخدم والجوار والعلمان وقال لأولئك الأولاد : انظروا إلى ما صورت فى لكم بين أيديكم وافردوا ما كتبت فيه من أجلكم وتأملوا ما بينته لكم وتفكروا فيه لتعرفوا معانيه وتصيروا من ذلك حكماء أختيارا فضلا أبارا فأوصلكم إلى مجلسي فتكونوا من ندمائى مكرمين سعداء منعمين أبدا ما بقيت وبقيتم معى ، وكان مما كتبت لهم فى ذلك المجلس من العلوم أن صور فى أعلى قبة المجلس صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها وأبراج طلوعاتها وكذلك السكواكب وحركاتها وأوضح دلالتها وأحكامها وصور فى صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم وخطط الجبال والبحار والبرارى والأنهار ، وبين حدود البلدان والذدن والمسالك والممالك وكتب فى صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها وكتب فى الجانب الآخر علم الصنائع والحرف وبين كيفية الحرث والنسل وصور المدن والأسواق وبين أحكام البيع والشراء والربح والتجارات وكتب فى الجانب الآخر علم الدين والملل والشرائع والسنن وبين الحلال والحرام والحدود والأحكام وكتب فى الجانب الآخر السياسة وتدبير المملكة ، وبين كيفية جباية الخراج والسكناج والدواوين ، وبين أرزاق الجنود وحفظ الرعية والتغور بالجيوش والأعوان ، فهذه (ستة أجناس) من العلوم يراض بها أولاد الملوك وهذا مثل ضربه الحكماء ، وذلك أن الملك الحكيم هو الله تعالى والأولاد الصغار هى الانسانية والقصر البنى هو الفلك بأسره والمجالس التقنة هو صورة الإنسان والآداب للصورة هى عجيب تركيب جسده والعلوم المكتوبة فيه قوى النفس ومعارفها . ونحن نبين هذا فضلا فضلا فيما بعد بأوجز الوجوه .

وها هنا شرع بين الأنواع الستة من العلوم وسأشرحها لك شرحا مختصرا تبتهج به نفسك وينشرح صدرك ولكنه بدأ أولا بمقدمة ذكر فيها فضيلة جوهر النفس فأبان أن منزلها عند الله كبيرة لأن نسبة الأجسام إليه بعيدة ونسبة النفس إليه قريبة لأنها حية بذاتها وعلامة وفعالة والمادة بخلاف ذلك

ولما كان الله عز وجل لا يشبه له ولا نظير ولا مثيل ، ضرب لنا الأمثال فقال « مثل نوره كشكاة » فلننسخ على هذا المتوال ونضرب المثل لله بالشمس والضوء بالعقل والنفس بضوء القمر ، ومعنى هذا أن الله

الذي لا مثيل له ولا شبه كالشمس والعقل العام كضوئها والعقل العام خلقت منه النفوس الجزئية الأرضية وكما أن ضوء القمر من نور الشمس هكذا النفس فيض من العقل ، وكما كانت نفوسنا أعلم وأحكم وأعدل كانت أقرب إلى تلك العقول التي هي قريبة من ربها وبضدها تتميز الأشياء ، كما أن القمر إذا امتلأ من نور الشمس حاكي ضوءه وضوؤها وصارت هناك مناسبة . ولن تنال النفس الإنسانية تلك المرتبة وتحظى بتلك المزية فتتم فضائلها وتحاكي العقول العالية المجردة القريبة من الله للشبهات ضوء الشمس بالنسبة للشمس إلا إذا عرفت ذاتها وحقيقة جوهرها . ولن يتم للنفس الإنسانية حقيقة جوهرها إلا إذا عرفت أحوال عالمها وأحوال علمها كلها مصورة في الصورة الإنسانية لأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم وجعل صورته مرآة لنفسه ليرى فيها صورة العالم الكبير . قال وذلك أن الباري جل جلاله لما أراد أن يطلع النفس الإنسانية على خزائن علومه ويشهدها العالم بأسره علم أن العالم واسع كبير وليس في طاقة الإنسان أن يدور في العالم حتى يشاهده كله لقصر عمره وطول عمران العالم فرأى من الحكمة أن يخلق لها عالما صغيرا مختصرا من العالم الكبير وصور في العالم الصغير جميع ما في العالم الكبير وأشهدها إياه فقال عز وجل « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ » قالوا بجمعهم (بلى) فمن كان منهم شاهدا عالما عارفا بحقيقته كانت شهادته عليه حقا ومن كان جاهلا كانت شهادته مردودة لأنه قال عز وجل « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » ألا ترى أنه لا يقبل لإشهادة أهل العلم ثم اعلم أن افتتاح جميع العلوم في معرفة الإنسان نفسه ومعرفة الإنسان تكون من (ثلاثة أوجه : الأول) أن يعتبر أحوال جسده وتركيب بنيته وما يتعلق عليه من الصفات خلوا من النفس (والثاني اعتبار أحوال نفسه وما يوصف من الصفات خلوا من الجسد (والثالث) اعتبار أحوالهما مقترنين جميعا وما يتعلق على الجملة من الصفات . انتهت المقدمة .

وهاهنا أن أن أشرح لك أيها الذي اعتبار أحوال الإنسان بأحوال الفلك فأقول ناحيا منحي علم الفلك الحديث سبحانه اللهم وبمحمدك وتعالى جدك ولإله غيرك ، جسمي بإلهي على نعط المجموعة الشمسية وهل هذا الجسم الذي أشقى في تحصيل ما يحتاجه هو صاحب هذا السكال ؟ إذن كل ما بتلينا به من هموم الحياة والشقاوة والإستكثار من اللذات والمال والجاه والعداوات والحروب ما هي إلا حجب حجبتنا وسدود جعلتها أنت سبحانه بيننا وبين معرفة هذا الجسم المعتلى جمالا وحكمة . أنت يا الله الذي رحمتنا بجملنا بجمال هذا الجسم لأن هذا الجمال وهذا الإبداع الذي سأذكره فيه يجعلنا نعتقد أننا أعظماء وكبراء وإذن لانسى لسكال أنفسنا ولو أن كل امرئ في الأرض عرف ما سأذكره الآن في جسمه لأصبح مشغولا بجماله معجبا بهائه لا يطلب له كالا . فهناك يحتاج إلى من يذكره بأنك جئت لهذه الأرض لتكون أكمل من هذه الحال . فإياك أن تغتر بأنك قد أعد لك منزل لا ينزله إلا من هم مثل اللائكة السكرام لأن هذه المنزلة العالية صغيرة بالنسبة لعوالم أعلى منا فبدل أن يقال له هذا حكم عليه أن يسعى في تحصيل الرزق ومدافعة الأعداء هنالك ينسى هذا الجمال في جسمه ويحصل أخلاقا وأعمالا ترقى نفسه فوق منزلتها حين سكنت هذا الجسم . وأما جمال هذا الجسم المحكم فذلك لأن روحه قبسة من نور الله . والنسوب لله رب العالم لا يسكن إلا مكانا يناسب ذلك اللقار وإذا كان وزراء الملوك لا ينزلون إلا القصور المناسبة لهم فليكن للنسوب لإفاضة الأنوار الإلهية أولى بأن تكون مرتبته أشرف المراتب في سكناه هذا هو السبب في أحكام وبدائع الهيكل الجسمي بدون عمل من الناس بل هبة من رب العالمين . ولذلك نجد أكثر أهل الأرض يحفلون غرائب الجسم التي سأذكرها هنا ومن عرفها منهم كعلماء التشريح تكون معرفته أشبه بمعرفة الإنسان علم النحو أو الصرف . وكما أن معرفة النحو والصرف

لاتفيد جمال أدب اللغة وبهاؤها هكذا معرفة تشريح الجسم لاتفيد نظامه القيس على نظام الفلك وعوالمه .
والذي يحظى بهذا في العالم كله قليل جدا وهذا القليل وهم حكماء الأمم لا يعطون هذه المنحة إلا بعد أن أصبحت
العبادة والتفكير ديدنا لهم وصفة لازمة فلا يخاف عليهم من ترك الأعمال بناء على ما عرفوا في أنفسهم من
الجمال بل يعملون في خدمة الإنسانية وترقية العقول كما تفعل الأم مع ذريتها لا تطلب جزاء ولا شكورا .
فهذه الطائفة التي ارتقت عن هذا الإنسان وهم خواص الحكماء في أرضنا هذه وقد أدركوا جمال أجسادهم
وأن نظامها كنظام العالم كله يصبحون كالمفطورين على العلم والعمل فلا يفرحهم بالله الفرور ولا يكون للشيطان
عليهم سلطان .

(طبقات جسم الإنسان وطبقات المجموعة الشمسية)

إذا عرفت هذا أيها التدي فهناك نظام جسم الإنسان وقياسه على نظام المجموعة الشمسية اللهم إنك أنت
جعلت الشمس مركزا وأدرت حولها كواكب في تسع مدارات وهي عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري
وزحل . وهناك كوكب بين كوكبين من الكواكب للتقدمة في مدار خاص قد حطمت أجزاءه وتلك القطع
الطائرات منه لا تزال إلى الآن تدور في مداره وقد تقدم شرحه شرحا مسهبا في هذا التفسير ثم أورائوس وبنتون
فهذه الكواكب التسع تجرى حول الشمس في مدارات وتلك المدارات يحيط بها طبقات الأثير وتلك الطبقات
طبعا تسع طبقات عينتها تلك المدارات . فأنت ياربنا لما جعلت المجموعة الشمسية على هذا المنوال جعلت
جسمي على مقتضاها حدو القذة بالقذة .

ألا ترى أيها التدي أن جسمي وجسمك مركبان من نفس هذه الطبقات التسع وهي العظام والمخ واللحم
والعروق والدم والعصب والجلد والشعر والظفر . فجعل المخ في جوف العظام محزونا لوقت الحاجة ولف
العصب على الفاصل كما يمسكها فلا ينفصل ، وحشى خلل ذلك باللحم صيانة لها ومد في خلل اللحم العروق
والأوردة الضاربة لحفظها وصلاحها وكسا السكل بالجلد سترها وجمالها وأثبت الشعر والظفر من فضل
تلك المادة المار بها فصار مماثلا لتركيب الأفلاك بالكمية والكيفية جميعا لأنها تسع طبقات وهذه تسع جواهر
وتلك بعضها في جوف بعض وهذه مثال ذلك .

هذه أيها التدي طبقات جسمي وجسمك ، فإذا كانت الشمس أحيطت بهذه الطبقات فما هي ذه نفسي
أحيطت بهذه الطبقات المماثلة لها من حيث هذا الاعتبار .

(بروج السماء ونظيرها في جسم الإنسان)

ثم انظر معي إلى جسمي وجسمك باعتبار بروج السماء بعد اعتبار طبقاتها فإننا نجد الله يقول « ولقد جعلنا
في السماء بروجاً وزيناها للناس » ونجد الأمم كلها اعتبرت الفلك مقسما (١٣) قسما كل قسم يسمى برجا
تنزله الشمس في (٣٠) يوما . ولما نظر الحكماء في جسم الإنسان وجدوا فيه العينين والأذنين والمنخرين
والثديين والفم والسررة والسيلين فهذه (١٢) ثقبه ثم نظروا فوجدوا البروج ستة منها شمالية وستة منها
جنوبية فهكذا وجدوا تلك الثقب في الجسم ستة منها في الجانب الأيمن وستة في الجانب الأيسر تماثلها في
الكيفية والكمية جميعا والفم به الغذاء للناس في الحياة الدنيا والسررة كان بها غذاء الطفل في الرحم
هذا ما يقولونه ، ولكن الفم والسررة والسيلان ليسا في الجانبين ولعل الكلام باعتبار الأكثر وقد
ترك ذلك لحكم اقتضاها النظام ولا يعزب عنك أيها التدي أن هذا أشبه بالأدييات في اللغات لا ينبغي التعمق
فيه وإنما هو أشبه بضرب الأمثال وكفى فيه للقاربة .

(السكواكب السبعة وآثارها الجسمية والروحية وموازينها بقوى الإنسان الجسمية وقواه الروحية)

إن في القللك سبع كواكب سياره وهذه السكواكب أخرجت منها الأرض ، لأن هذا المقام يراد به ذكر العوالم التي تفيض بأنوارها على أهل الأرض التي تعيش عليها وليس منها أيضا الشمس لأنها ليست من السيارات ولأنها هنا أشبه بالنفس صاحبة هذه المملكة فالسيارات فوق الأرض وتحتها حول الشمس (٧) وهي للتقدمه بإخراج الأرض منها وإخراج ذلك السكوكب الذي خرب من آلاف آلاف السنين فهكذا في الجسد (سبع قوى) لآحداث آثار جسمية وسبع أخرى لآحداث الهداية كما أن السكواكب محدثات آثارا في الاجسام بأضوائها وآثارا في النفوس لهدايتها ففي مقابلة آثار أضواء السكواكب الجسمية لإصلاح العوالم الأرضية خلقت للانسان القوى السبعة الجسمية وهي الجاذبية التي تجذب الطعام كما يحس به الأكل عند إزدراد الطعام والماسكة التي تمسك الطعام في المعدة إلى حين وهناك تتولاه الهاضمة لهضم الطعام فإذا فرغت من عملها تولته القوة الدافعة فتدفعه من المعدة إلى الأمعاء وهناك تتولاه الهاضمة لهضم الطعام بعد دفع فضلاته معدا لتغذية الجسم فيسير مع الدورة الدموية للتغذية . وهذه هي القوة الغذائية . ومتى تغذى الجسم بخلصة الطعام فلايد من نموه . وهذه هي القوة النامية بها يمتد طولاً وعرضاً وعمقا بنظام بديع . ولما كانت الأجسام تفتى أعدت فيها مادة من خالص الدم وهو التي لتكون مياصورة حتى آخر ليقى النوع .

فهذه هي القوة للصورة ، فهذه هي القوى السبع الجسمية في مقابلة قوى السكواكب من حيث أفعالها في الأجسام . فأما السبع التي في مقابلة الهداية بأضواء السكواكب فهي (الباصرة والسماعة والذائقة والشامة واللامسة ثم القوة العاقلة والقوة الناطقة) ولكل حاسة من الحواس الخمس مجريان عن يمين وشمال في البدن فالباصرة في العينين والسماعة في الأذنين والشامة في اللخرين واللامسة في اليدين والذائقة الشهوية مجراها في القم والفرج ، والقم بالجانب الأيمن أشبه والفرج بالجانب الأيسر أنسب ، أقول لأن شهوة الطعام يحتاج إليها الضعيف والقوى والصغير والكبير بخلاف شهوة الفرج . ولعل أمثال هذا الجواب يناسب ما تقدم في البروج من حيث مقابلتها بثقب البدن ، وهاهنا ذكر لكل حاسة من الحواس الخمس للمملكة التي تعمل فيها تحت أمر النفس ، فالقوة الباصرة تولت إيصال أخبار الأصوات الحيوانية وغير الحيوانية كالطبل والرعد والحجر والحيوانية منطقية وغير منطقية كسهيل الحيل والمنطقية دالة وغير دالة . والقوة الباصرة تأتى بأخبار (عشر ممالك) وهي (الأنوار والظلمات والألوان والأشكال والسطوح والأحجام والقرب والبعد والحركات والسكنات) .

فهذه الممالك تولت أخبارها القوة الباصرة ، فهذه القوة أشبه بالديديان الواقف على باب قصر الملك أو صاحب البريد إلى الملك يأتي بالأخبار إليه كما أن القوة السامعة تولت إيصال أخبار الأصوات ، ومن عجب أن كلا منهما لا تشارك الأخرى في عملها ، فالباصرة تجهل الأصوات والسماعة لا علم عندها بالألوان والأنوار ولكن القوة التخيلية في مقدم الدماغ هي التي تتقبل أخبار هذه الممالك العشر ، كما تقبلت من القوى السامعة عالم الأصوات وهي التي توصلها إلى صاحب العرش وهي النفس ؛ ومثل هذا يقال في القوة الشاملة والذائقة واللامسة ، فلشامة الروائح الطيبة والمنتنة وما تحتهما مما لاحصره ولا أسماء للشعومات على كثرتها إلا بنسبتها إلى حاملها كرائحة لسك والورد وهكذا ، فهذه الممالك لاحصر لأفرادها كما لاحصر لأفراد الألوان في العالم والأشكال والسطوح وألغاز اللغات وأصوات الأحجار والأشجار وهكذا ، وللذائقة ومجراها اللسان الحلاوة والمرارة وأولهما ملائمة للطبع . وثانيتها منفرة أشد للنافرة ، وهناك وسائط وهي (٧) الحوضة والملوحة والدسومة والنفوسة والحرافة والقبوضة والعذوبة . والقوة اللامسة ومجراها اليدان لها عشرة أنواع (الحرارة

والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والحشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة . ولكل واحد من هذه أنواع وتحت الأنواع أصناف وهكذا مما لا يحصى .

أفلا يعجب الإنسان من أمر نفسه الجلاسة على عرش مملكته ، وقد فوضت أمرها إلى خمسة أمراء لكل أمير ممالك ونواح كثيرة وليس يعرف أمير ما عند غيره من الأمراء .

﴿ الكلام على القوى الخمس الباطنة ﴾

إن للنفس الإنسانية خمس قوى أخر نسبتين إلى النفس غير نسبة هذه الخمسة التي تقدم ذكرها وسريانهن في أعضاء الجسد خلاف سريان أولئك ، أفعالهن لا تشبه أفعالها . وذلك أن هذه الخمس هن كالشركاء المتعاونات في تناولهن صور للمعلومات بعضهن من بعض ، وثلاثة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الندماء من الملك الحاضرين مجلسه دائماً المطلقين على أسرارهم العينية له في خاصة أفعاله، وهي القوة التخيلية التي مجراها مقدم الدماغ والثانية القوة للمفكرة التي مجراها وسط الدماغ والثالثة القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الحاجب والترجمان عن الملك ، وهي القوة الناطقة المخبرة عن معاني ما في فكرها من العلوم والحاجات ومجراها في الحلقوم إلى اللسان . وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الوزير إلى الملك المعين له في تدبير مملكته وسياسة رعيته، وهي القوة التي بها تظهر النفس الكتابة والصنائع أجمع ومجراها في اليدين والأصابع . فهذه القوى الخمس هي كالتعاونات فيما يتناولن من صور المعلومات (بيان ذلك) أن القوة التخيلية إذا تناولت رسوم المحسوسات من القوى الحاسة إذ أدركت وأدت إليها فإنها تجمعها كلها وتؤديها إلى القوة للمفكرة التي مجراها وسط الدماغ حتى تميز بعضها من بعض وتعرف الحق من الباطل والصواب من الخطأ والمضار من المنافع ثم تؤديها إلى القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ لنحفظها إلى وقت الحاجة والتذكار ، ثم إن القوة الناطقة تناولت تلك الرسوم المحفوظة وتعبّر عنها عند البيان للقوة السامعة من الحاضرين في الوقت . ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ الأسماع حظها ثم تضمحل اقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية واحتالت الطبيعة بأن قيدت تلك الألفاظ بصناعة الكتابة . وذلك أن القوة الصناعية إذا أرادت تقييدها صاغت لها صوراً من الحطوط بالقلم وأودعتها وجوه الألواح وبطون الطوامير ليبقى العلم مفيداً فائدة من الماضين للغابرين ، وأترا من الأولين للآخرين ؛ وخطاباً من الغائبين للحاضرين ، وهذا من جسم نعم الله تعالى على الإنسان ، كما ذكر في كتابه فقال : « اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » وبهذا تم الكلام على الحواس الخمس الظاهرة ونظائرها الباطنة .

فأما القوة الناطقة لمجراها الحلقوم إلى اللسان ، والقوة العاقلة مجراها وسط الدماغ ، ونسبة القوة الناطقة إلى القوة العاقلة كنسبة القمر إلى الشمس ، وذلك أن القمر يأخذ نوره من الشمس في جريانه في منازل القمر الثمانية والعشرين والقوة الناطقة من العقل تأخذ معاني ألفاظه بجريانه في الحلقوم فيعبر منها بثمانية وعشرين ونسبة (٢٨) حرفاً للقوة الناطقة كنسبة (٢٨) منزلة للقمر . انتهى الكلام على موازنة أطباق الأفلاك والبروج والنوازل والسكواكب لنظائرها في جسم الإنسان وهو المقصد الأول من المقاصد الست .

﴿ المقصد الثاني ﴾

(الموازنة بين تركيب جسد الانسان ، وطبقات العوالم السفلية وهي الأرض والماء والهواء

وفوق الجميع الشرقات النيرات)

فسكما أن السكواكب والشموس والأقمار أعلى هكذا الرأس في أجسادنا أعلى موازية للشرقات النيرات لما فيها من الحواس والعقل ، والصدر يوازي الهواء الذي هو أسفل تلك الشرقات . وما النفس إلا جزء

من الهواء متصل به كما أن العين متصلة بشعاع السكواكب في الرأس ، والبطن لما فيه من الرطوبات يوازي الماء وهو تحت الهواء ، وما تحت البطن إلى القدم يوازي الأرض لأنه عليها استقر الثلاثة المتقدمة كما استقر الثلاثة الأخرى على الأرض . وكما أن من هذه الطبقات الأربع تتحلل البخارات وتتكون الرياح والسحاب والأمطار والحيوانات والنبات والمعادن ، كذلك بهذه الطبقات الأربع تحلل البخارات في بدن الانسان ، مثل ما يخرج المخاط من المنخرن والدموع من العينين والبصاق من الفم ، والرياح التي تتولد في الجوف والرطوبات التي تخرج مثل البول والغائط وغيرها . فبنية جسده كالأرض وعظامه كالجبال والمخ فيه كالمعادن وجوفه كالبحر وأما عروقها كالأنهار وعروقها كالجداول ولحمه كالتراب وشعره كالنبات ومنبته كالتربة الطيبة وحيث لا ينبت الشعر كالأرض السبخة ووجهه إلى القدم كالعمران وظهره كالخراب وقدم وجهه كالشرق وخلف ظهره كالغرب ويمينه كالجنوب ، ويساره كالشمال وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعد وأصواته كالصواعق ، وضججه كضوء النهار وبكاؤه كالطرر وبؤسه وحزنه كظلمة الليل ونومه كاللوت ويقظته كالحياة وأيام صباه كأيام الربيع وأيام شبابه كأيام الصيف وأيام كهولته كأيام الخريف وأيام شيخوخته كأيام الشتاء وحركاته وأفعاله كحركات السكواكب ودورانها وولادته وحضوره كالطوالع وموته وغيبوته كالغوارب . انتهى المقصد الثاني .

(المقصد الثالث)

في أن العناصر التي على هذه الأرض من خواصها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وهذه الصفات يشاركها فيها الإنسان .

(المقصد الرابع)

في أن المعادن يحصل لها كون وإفساد ، هكذا الإنسان .

(المقصد الخامس)

إن النبات يتغذى وينمو ويولد ويموت والإنسان شاركة فيها .

(المقصد السادس)

في أن الحيوان يحس ويتحرك والإنسان شاركة فيهما ، وزاد على ذلك بالعقل والنطق .

(زيادة شرح لبعض ما تقدم)

ذلك أن الحيوانات لها أنواع كثيرة ، ولكل نوع منها خاصية دون غيره . والإنسان يشاركها كلها في خواصها ، ولكن لها خاصيتان تتمها كلها وهي طلبها للنافع وفرارها من الضار ، ولكن منها ما يطلب للنافع بالقهر والغلبة كالسباع ، ومنها ما يطلب للنافع بالبصبة كالسكب والسنور ، ومنها ما يطلب بالحيلة كالعنكبوت وكل ذلك يوجد في الانسان ، وذلك أن الملوك والسلاطين يطلبون النافع بالغلبة والسكديون بالسؤال والتواضع والصناع والتجار بالحيلة والرفق . وكلها تهرب من الضار والعدو ولكن بعضها يدفع العدو عن أنفسها بالقتال والقهر والغلبة كالسباع ، وبعضها بالفرار كالآرانب والظباء والطير ، وبعضها يدفع بالسلح والجواشن كالقنفذ والسلحفاة . وبعضها يتحصن في الأرض كالقار والمهام والحيات ، وهذه كلها توجد في الإنسان . وذلك أنه يدفع عن نفسه العدو بالقهر والغلبة ، فإن خاف على نفسه لبس السلاح وإن لم يطقه فرمته فإن لم يقدر على الفرار تحصن بالحصون ، وربما يدفع الإنسان عدوه بالحيلة كما احتال الغراب على البوم في كتاب (كلية ودمنة) انتهى الكلام على مشاركة الإنسان للحيوانات كلها في الطلب والحرب .

فأما مشاركته لها جميعها فيما تختص به ومشاركته لسائر الكائنات في خواصها فاعلم أن لكل نوع من الحيوانات خاصية مطبوع عليها وكلها توجد في الإنسان . وذلك أنه يوجد شجاعا كالأسد وجبانا كالآرنب

وسخيا كالديك وبخيليا كالسكب وعفيفا كالسحك وغورا كالغراب ، وحشيا كالنمر إنسيا كالحمم محتالا كالشعب
سليا كالغتم سريرا كالغزال بطيئا كالذب عزيزا كالفيل ذليلا كاللجل لصا كالمتعق تائها كالطاوس هاديا كالقطاة
ضالا كالنعامة ماهرا كالنحل شديد كالنتين مهينا كالغنكبوت حلما كالجلل حقودا كالنجر كدودا كالثور شموسا
كالنعل أخرس كاللحوت منطقيا كالهزارداستان والبيغاء مستحلا كالذهب مباركا كالطييطوى مضرا كالقار جهولا
كالخزير مشوما كالبيوم نقانا كالنحل .

وبالجملة مامن حيوان ولا معادن ولا نبات ولا ركن ولا فلك ولا كوكب ولا برج ولا موجود من الموجودات
له خاصية إلا وهى توجد فى الإنسان أو مثالها كما يينا قبل من كل شىء طرفا ، وهذه الأشياء التى ذكرنا فى
أمر الإنسان لا توجد فى شىء من أنواع الموجودات التى فى هذا العالم إلا فى الانسان ، فمن أجل ذلك قال
الحكماء (إن الإنسان وحده بعد كل كثره كما أن البارى جل ثناؤه وحده قبل كل كثره) ومن أجل ما
عددنا من عجائب تركيب جسد الإنسان وغرائب تصاريف نفسه ، وما يظهر من جملة بنيته من الصنائع والعلوم
والأخلاق والآراء والطرائق والمذاهب والأعمال والأفعال والأقوال والتأثيرات الجسمانية والروحانية سموه
(عالما صغيرا) .

ولم يقتصر القدماء على موازنة جسم الإنسان بالأفلاك والكواكب والبروج والعناصر والمعادن والنبات
والحيوان بل تمدوا فى ذلك حتى قالوا إنه لا يموت كما أن الملك لا يموت فهو كما يشبه الهيمة والنخلة هكذا يشبه
الملك لأنه ملك بالقوة إذا كان حكما فإذا مات صار ملصكا بالفعل ، وهكذا استمر القوم فى درس أعضاء الجسد
الانسانى والعوامل العلوية وغيرها حتى إنهم غاصوا فى باطن الهيكل الإنسانى على (القلب والطحال والسكبد
والمرارة والمعدة والدماغ والرئة) ووازنوا هذه السبعة بالشمس وزحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد
والقمر . فشكل واحد من تلك الأعضاء عندهم فيه خواص نظيره من الكواكب ، فالقلب يجرى الدم منه
إلى أطراف الجسد فى الأوراد والشرايين فهو كالشمس الشرق نورها على جميع المجموعة الشمسية والطحال
فيه الخلط السوداء على حسب اعتماد المتقدمين وهو بارد يابس فيجرى مع الدم فيه يكون جمود رطوبة الدم
وتماسك أجزائه ، كما أن زحل فيه روحانية تنبت فى العوالم تورث حفظ الأجسام وتماسكها . وجرم السكبد
مناسب لجرم المشتري من حيث أن المشتري له روحانية يكون من آثارها النظام والترتيب والاعتدال .
وجرم المرارة كجرم المريخ الذى يشعاع روحانيته يظهر المهيم العالية والعزمات وبلوغ النهايات هكذا الصفرة
يخرج منها الخلط الصفراوى ويجرى مع الدم فيلطف الأخلاط لتصل إلى غاياتها ومنتهى نهاياتها . وهكذا
المعدة كالزهرة . فالمعدة فيها القوة الشهوية للطالبة دائما بالغذاء الذى هو مادة الجسد وبه تكون الحياة ولذة
العيش وقوام البدن والزهرة لها روحانية تنبت منها إلى عوالم كثيرة وبها زينة الموجودات ومحاسن الكائنات
وبها الفرح واللذة والمسررة فى العوالم الروحانية والجسمانية والدماغ فيه الشعور والحس والفسكر والروية
والدهن ومثله عطارد فشعاعه الروحانى ينبعث منه الحس والشعور فى جميع العالم الإنسانى والجنى والملائكة
وهكذا الرئة كالقمر وذلك أنه ينبعث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته وتسرى فى عالم الأركان تارة وفى
عالم الأفلاك تارة أخرى كما هو بين ظاهر ، وذلك أن جرم القمر نصفه أبدا ممتلىء نورا ونصفه الآخر مظلم
وهو تارة يقبل بوجهه الممتلىء من النور نحو عالم الأركان من أول الشهر وتارة نحو عالم الأفلاك من آخر
الشهر . ويعرف حقيقة ما قلناه وصحة ما بيناه الباحثون فى علم المجسطى والهيئة . فهكذا ينبت من جرم الرئة
قوة تجذب الهواء تارة من خارج الجسد وترسله إلى القلب ومن القلب تنفذه فى العروق الضوارب إلى سائر
أطراف الجسد ، وهو الذى يسمى النبض وبها يكون حياة الجسد وتارة ترد من ذلك الهواء من داخل وبها

يكون النفس والأصوات والكلام أجمع ، فانتبه أيها الذكي من نوم الغفلة ورقدة الجهلة وفقك الله وجميع المسلمين للسداد وهداك إلى سبيل الرشاد إنه رءوف بالعباد . اه .

هذا ما أردته من [إخوان الصفاء] مع الحذف والزيادة والشرح والإيضاح والتقديم والتأخير والإيجاز تارة والإطناب أخرى ليشاكل ما ذكر فيه أبحاث هذا الكتاب ليناسب الأمم التي تعيش معها وأسلوبها ، وقد بدلت أسلوب الفلك القديم بالأسلوب الحديث ولكن عند الكلام على موازنة السكب والطحال الخ بالكواكب لم أجد له نظيرا في علوم أهل زماننا في العوالم التي تحيط بنا فنقلته مختصرا على علته التي تحيط بنا .

وذلك لأن الطحال عند أطباء زماننا لم يجدوا له أولا وظيفة ، ثم قالوا إنه تربي فيه السكرات البيضاء المساعدة للسكرات الحمراء لتجارب الحيوانات الثرية المهاجرة . وهكذا علم أحكام النجوم اليوم غير شائع وهو علم ظني لا يقيني . فأمثال هذا نكتبه مع ما قبله ليطلع أهل العلم في بلاد الإسلام وغيرها على مبلغ ما وصل إليه القدماء من الحكمة والإبداع وكيف جعلوا الجسد الإنساني نموذجا للعالم كله من كوكب وفلك وبرج وعنصر و معدن وحيوان ونبات وملك .

فياليت شعري كيف يفهم المسلم قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » إلى قوله « ثم سواء ونفخ فيه من روحه » أو يفهم قوله تعالى « الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهما » أو قوله « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » إلا بأمثال هذه للباحث والعلوم العجيبة ، أو قول المسلم في الصلاة في الرفع والاعتدال « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » وقوله في الركوع « خشع لك سمعي وبصري وعمي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » وقوله في السجود « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » وقول الصلي في صلاة الفجر « فلك الحمد على ما قضيت ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت » اه .

اللهم إني أعجب من هذا الثناء في صلواتنا كيف كان هو ملخص علوم الحكمة وما يخص رسالة [الإنسان عالم صغير] فالسمع والبصر والخ هي المذكورات في الآية هنا وهو قوله تعالى « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » الخ فكأن المسلم وهو في الرفع والاعتدال يشرح أطباق السموات والأرض اللاتي توازي طبقات جسمه التسع المتقدمة من العظم والدم وهكذا إلى الظفر ، ومن الرأس والصدر والبطن وما تحت ذلك ، وهي الأربعة الموازية لطبقات الأرض والماء والهواء والأضواء ، وكأنه وهو في ركوعه وسجوده يشير إلى الحواس للوازيات إلى السيارات ، ويزيد طبقات الجسم إيضاحا فيذكر العظم والعصب وهكذا وكأنه وهو في قنوت الصبح يعبر عن ملخص معنى هذه الآية هنا إذ يقول الله تعالى « قليلا ما تشكرون » وهناك يقول « ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت » .

إن الصلي بوقوفه وركوعه وسجوده وجالوسه يوضح معنى كونه عالما صغيرا ، فإنه لما كان ثناؤه على الله باللسان مشيرا إلى قسمين من الأقسام الست في رسالة [الإنسان عالم صغير] وهما السموات مع كواكبها وإلى قسم ثالث وهو طبقات العالم السفلى أشار إلى عالم الحيوان بالركوع ، لأن الحيوان كالراعي وإلى عالم النبات بالسجود لأن النبات رأسه كالساجد ، وإلى عالم المعادن التي يقبل السكون والفساد كما يقبله الإنسان بمجموع الحركات الدالة على ذلك التغير المستمر ، فصلاة السلم نسخة مصغرة من العوالم تذكر المسلمين جميعا بدراسة أنفسهم حتى يسودوا في الدنيا ويلحقوا بالعالم الأعلى وهم في أعلى عليين .

هذا ولا بد قبل ختام هذا اللقاع من ذكر معجزة نبوية وحكمة إسلامية في تفسير هذه الآية « وجعل لكم

السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون» فقد جاء في (الرسالة الثالثة عشرة) من إخوان الصفاء تحت العنوان التالي مانصه:

كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية

اعلم أن من سنة الناموس والآداب الحسنة تناول الطعام الذي هو غذاء الجسد بثلاثة أصابع ، فهذه السنة كأنها إشارة من واضع الناموس للنفوس والتنبيه لها وحث على أنه واجب طلب العلوم من (ثلاث طرق) لأن العلم غذاء النفس كما أن الطعام غذاء الجسد وأحوال النفس مماثلة لأحوال الجسد لشدة اقتران ما بينهما ، فأحد الطرق التي تنال بها النفس العلوم قوة الفكر الذي تدرك به النفس الموجودات المعقولات ومن هذه الطرق أخذت الأنبياء عليهم السلام الوحي من الملائكة . والطريق الثاني السمع الذي به تقبل النفس معاني الآفات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة . والطريق الثالث النظر الذي به تشاهد النفس الموجودات الحاضرة فهذه الطرق الثلاث يجب أن يتناول العلوم بها كما نبهنا وكما نبهنا الله عز وجل إذ قال « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » وضم من لا يتنفع بالنعيم فقال « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل » وقال أيضا « صم بكم عمى » فهم عمى عن الحقائق بكم عن الدقائق ، عمى عن البصائر العنوية العقلية بعين القلب . وليس يريد بها الدم من حيث إنهم لا يسمعون الأصوات ولا يبصرون الألوان ولا يعرفون ولا يفقهون أمر المعاش بل إنما ذمهم من حيث إنهم لا يعقلون أمر للعاد كما قال تعالى « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ».

واعلم أن العلم قنية للنفس كما أن المال قنية للجسد لأن المال يراد لصلاح أمر الجسد ، والعلم يراد لصلاح أمر النفس . فمضى لم تنل النفس العلم من هذه الطرق الثلاثة وذلك تناولها بثلاثة أصابع إلا من طريقة واحدة أي بأصبع واحد ، فمثله كمثل المريض الذي ليس له حظ من ماله إلا الثلث لأن المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات ، وهذا مثل أهل التقليد الذين لا يعرفون أمر الدين إلا من طريق السمع فهم موقوفون بين الشك واليقين والشك مرض النفوس واليقين صحبها ، فهؤلاء ليس لهم من العلم إلا الثلث من أجل مرض نفوسهم . انتهى .

أقول هذا الكتاب ألف منذ نحو ألف سنة وفي أكثر هذه المدة كان المسلمون محصورة علومهم في المذاهب التقليدية .

فيا ليت شعري هل تعاهدوا جميعا على نبذ الحقائق حتى أصبحنا عالة على أمم الأرض الآن . نعم ظهر فيهم نابغون ولكنهم مقتومهم وكفروهم وحقروهم آراءهم ، ولكن الآن أنا أبشركم أيها المسلمون أن ذلك زمان مضى وانقضى .

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وطالع السعد في أفق العلا صعدا

والدليل على ذلك أنني أكتب الحكمة في هذا التفسير ولاأخذ التقية بإلباسها لباس التصوف بل الحكمة هنا واضحة والمسلمون قبلوها فبشرى ثم بشرى للمسلمين . انتهى صباح يوم السبت ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩

كشف واستبصار

(في معنى « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » الخ)

(كتب قبيل فجر يوم الأحد ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٩)

كثت أصلى العشاء في أواخر الليل وقرأت (سورة الملك) فلما وصلت إلى آية « قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » كررتها مرارا لأنها هي الآية التي وردت في المقالة السابقة ولا تزال عالقة بالذهن . هنالك عجيبة من تكرير القرآن لهذه الثلاثة في القرآن ، وكيف يتبعها بقوله « قليلا ما تشكرون » أو بقوله « لعلكم تشكرون » ثم كيف قدم السمع على البصر مع أننا بالبصر نرى الشمس والقمر وندرك كل ما على الأرض وتذكرت مقاله (طياوس الحكيم) فيما مضى من هذا التفسير : إن الله خلق البصر لتدرك به الليل والنهار وتفتح لنا أبواب الفلسفة والحكمة . وهذا وحده أجل نعمة في هذه الأرض ، إذن البصر مقدم على السمع ، فلم قدم الله السمع عليه في هذه الآية : ولماذا يكون هذه الحواس بلفظ واحد ، وترتيب واحد في الآيات المتقدمة ؟ والإجابة على هذا تستبين لك من وجهين : (الوجه الأول) لم قدم السمع على البصر والفؤاد ؟ مع أن البصر والفؤاد أهم من السمع (الوجه الثاني) لم تكرر هذه الآيات في سور كثيرة على هذا النمط .

(الوجه الأول : لم قدم السمع على أخويه)

اعلم أن الله عز وجل جعل العلم لنا في هذه الدنيا من (طرق ثلاثة) كما تقدم سابقا (١) طريق الألفاظ (٢) وطريق صور المعاني الواصلة من البصر (٣) وطريق البحث العقلي المستخرج للمعاني السكية من الصور الذهنية ، وهذا واضح مما تقدم . فالألفاظ أشبه بالنواب والوكلاء . فالمعاني في النفس سواء أكانت من طريق البصر أو من طريق العقل يعبر عنها بالألفاظ . فالألفاظ إذن عالم قائم مقام عالم البصريات والمشمومات والمذوقات والملموسات والمعقولات (وبعبارة أخرى) العالم عالمان : عالم طبيعي وعالم وضعي اصطلاحى . والعالم الطبيعي البصر والمذوق والمشموم الخ والمعقول والعالم الاصطلاحى هو عالم الألفاظ المعبر عن تلك المعلومات كلها . فالألفاظ في الهواء عوالم قامت مقام العوالم كلها قائمات بأذهاننا فإذا كانت الخيلة والفكرة والحافظة قد صورت فيها جميع العوالم الحسية والمعنوية فما هو ذا اللسان عبر عنها كلها وقذفها في الهواء وجرت فيه وحفظها بأمانته أى العلوم حتى وصلت إلى الأذان . وهذه الألفاظ ما هي إلا اصطلاح اصطلح عليه الناس ، فلفظ شجرة وحجر ونور كلها أصوات اصطلاحنا على دلالتها على المعاني القائمة بأذهاننا الصورة بصورتك الثلاثة فهنا لفظ دل على صورة في الذهن وهذه الصورة دلت على ما نراه بأعيننا أو عقلنا بأدلتنا . هذه هي وظيفة السمع . فوظيفة السمع متعلقة بوظيفة اللسان والرسول بينهما الهواء وهو أمين . والدلالة هنا وضعية السمع لا طبيعية فلو أن السمع زال من الوجود ولم يخلق الله الأصم لم يخلق إذن الألسنة . لأن اللسان خلق لسمع به ، فإذا فقد السمع فليفتقد نطق اللسان وليخصص هذا اللسان بحاسة الذوق لا غير ، أما الإفهام والتعليم فلا ، فإذن يكون الناس جميعا صما بكما ولكنهم مبصرون وإذن لا نبى يرسل ولا عالم ولا حكيم ولا خطيب ولا كتاب يؤلف ، فإذن تكون الإنسانية غير الإنسان بل تكون إلى الحيوانية أقرب . إذن خلقت الأذان وخلق اللسان لسمع هذه الأصوات الاصطلاحية ومتى سمعناها أخذنا ندرس هذا الوجود بأبصارنا (وبعبارة أخرى) إن المسلم يسمع القرآن يذكرنا بالآداب والعبادات والمخلوقات . هنالك يفتح لنا (أمران) الأبصار والبصائر . فبعد أن كان

المسلم يرى الأشياء ولا يفكر فيها ، فبعد سماع الآيات يجتهد في الإبصار اجتهادا أشد ويستبصر ويفهم ما أبصره فهذا وجه تقديم السمع على أخويه والله أعلم .

(الوجه الثاني)

(في تبيان حكمة تكرار هذه الثلاثة في القرآن وأن شكرنا عليها قليل)

علم الله قبل خلق العالم وقبل إنزال القرآن أن المسلمين سيعتبرهم ما اعتري الأمم السالفة من ظهور وشيوع في العالم الإسلامي يقولون لتلاميذهم : كرروا هذه الأوراد صباحا ومساء ، وإياكم والعلم ، فيعيش التلميذ على هذا ويعوت . أويقولون : متى قرأتم التوحيد والفقهاء فهذا كاف ، أويقولون : متى أخذتم شهادة العالمية فقد كنتم فالتصديروا في المجالس . وهذا هو المقصد الأسمى من الحياة ، أويقولون : إن الكتب المطبوع عليها بين أهل البلاد في الدين كافية .

أقول علم الله ذلك بل هو الذي رتب هذه العقول على ما علم « ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك » لذلك أنزل لهذا الداء العياء دواء وأخذ يذكرنا به في مواضع كثيرة « فذكر إن نفعت الذكرى » « إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر » « وذكر فإن الله كرمي تنفع المؤمنين » .

ولا جرم أن هذا الكتاب مؤلف للمؤمنين . فالتذكير بهذه النعم نافع لهم وأنا موقن بذلك . ذلك أن المسلمين متى قرءوا هذا القول هنا يقولون « لانكفينا قراءة الأوراد وحدها فهي لم تجعل إلا لحبس النفوس الشريرة عن أذى الناس بالغيبة والتجمة والإضرار بالناس وفرق بين حبس المحرم وبين تعليمه ، فهل للمسلم الذي جعله الله من « خير أمة أخرجت للناس » يحبس لنكتفي شره . إنه وضع في الأرض ليكون خيرا وأفضل من جاء إلى الناس فيها لا أنه شرير نجسه في قفص الأوراد صباحا ومساء ، ونقول له لا تتعد الورد أو هذا الحزب وكرره صباحا ومساء . نعم الذي لا يصلح لشيء في الإسلام تأمره بذلك ، فأما أكثر المسلمين فهم أقل ما فهم أنهم كعباد الله في الأرض خلقهم الله وخلق لهم الأسماع والأبصار والأفئدة ، فلماذا يقصر على مجرد اللفظ بالورد وعلى مجرد سماعه ويحجب بصره عن النظر وعقله عن الفسك .

فلما اطلع على هذا صديق العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير قال حياك الله . أما البيان فهو جميل ولكن عندي شبهة فقلت وما هي ؟ فقال الله يقول « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ولكنك في بيانك هذا قلت إنهم قد حبسوا في الألفاظ أو في علوم ضئيلة وأكثر كلامك في التفسير ينحو هذا النحو ، فالحق والحق أقول إن هذه الشبهة أنت الذي أترتها في نفسي وفي نفوس كثير من القراء . ليس وعد الله حقا . وعدنا الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس ولكنك أبنت أننا لسنا خير أمة أخرجت للناس بل نحن قوم أعظم مافينا أننا نسمع ولا نعقل كما قال الله تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » ثم شبههم بالأنعام فقال « أولئك كالأنعام بل هم أضل » غاية الأمر أنك أبنت أنهم يسمعون وحكمت بأن الأبصار والعقول غير مستيقظة . فقلت إن الخير في الأمة من أيام النبوة إلى الآن ولكن كلامي منصب على الأكثر ومع هذا كله نحن « خير أمة أخرجت للناس » فقال هذا هو التناقض بعينه ، وما أنت في هذا إلا مقلد والمقلد يعتقد للتناقضين . فقلت بل موقن . فقال « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » فقلت له حياك الله ، ليس الإسلام قد انتشر بالأمة العربية ، قال نعم ولكن ذلك زمان مضى وانقضى . قلت اصبر قليلا ولا تعجل . اعلم أن الأمة أشبه بجسم واحد ، فالأمة الإسلامية من العصور الأولى إلى الآن جسم واحد ، وهذه الأمة الآن في سنتها الرابعة عشرة فالقرن في حياة الأمة أشبه بسنة كما ستراه في [سورة سبأ] عند الكلام على التقليد في آية « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » الخ فهي في القرن الأول والثاني

كانت في الرضاع والرضاع حولان كاملان والرضاع كان من نفس الأنداء العلمية الإسلامية والعلم عبر عنه بالابن في حديث الإسراء لهذه النسكته فإنه صلى الله عليه وسلم اختار اللبن ونبذ الحجر في ذلك الحديث وأتمته شربت هذا اللبن ولبن الأم يغذي الطفل سنتين وبعدهما يتولاه المعلمون فالأمة في القرنين الأولين انتشرت الدين إلى قلب البلاد الفرنسية وإلى داخل بلاد الصين . ذلك لأنها قامت بنشر الدين . فلما انقضى القرنان وقفت الفتوحات وأخذت الأمة تقرأ العلوم وترجم الكتب من اليونانية وغيرها إلى العربية ، هكذا الطفل بعد مدة الرضاع يتعاطى الطعام مما يحيط به على حسب البيئة التي هو فيها ولكن هذه الأمة يتيمه لأن نبيها صلى الله عليه وسلم رفع إلى السماء والأمم كلها تتحفظ لها وتقاومها فقيض الله لها أئمة مجتهدين وحكام وعلماء فصارا يلقون إليها نبت من العلوم كما يعطى الطفل أنواع الطعام بعد الفطام . ومعلوم أن اليتيم تتقاذفه الحوادث فحصلت هذه الأمراض في جسم هذا الطفل ولكن أصله كريم . فأخذ يكبر وإن كان جسمه هزيبا . ولكن حدثت حوادث رجت الأرض رجا ، هي حوادث الحرب الكبرى في زماننا فاستيقظ هذا الطفل المراهق من القلاقل والإذلال والمدافع والغازات الخائفة فرفع عينه إلى خالقه فأجابه : أيها المراهق لا تخف إن وعدى حق ، والآن وإن كنت لم تبلغ بالسن فقد بلغت بالحلم والبلوغ بالحلم يرجع في الطفل لقوة الجسم ، أما هنا فهو للقوة العلمية العقلية التي حدثت في مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وبلاد السودان والشام والفرس والعراق والهند وبلاد جاوه فإن هذه الأمم كلها استيقظت مرة واحدة وأصبحت كلها تنطق بلسان واحد : العلوم العلوم . الفكر الفكر ، والدليل الذي ألمسه أنا بيدي هو هذا التفسير ، فلقد قبله المسلمون جميعا مع أن القرآن فيه قد ابتلع العلوم التي في الشرق والتي في الغرب فحكمت حكما لا أشك فيه أن هذا المراهق بلغ الحلم وأن هذا المراهق كان ضعيفا مريضا لأنه يتيم واليتيم إذا بلغ الحلم زال عنه وصف اليتيم . وأنا أرفع صوتي بهذا المسلمين فأقول : أيها الأمة أنت قد ارتقيت جنة وزال عنك الآن الوصمة السابقة والمرض والضعف فان هذا التفسير وأمثاله لم يصادفه ما صادف كتب الإمام الغزالي رحمه الله تعالى إذ أحرقت أيام علي بن تاشفين في بلاد المغرب كما سأوضحه في [سورة سبأ] ولا ما صادف كتب ابن رشد إذ ابتلى رحمه الله بالابناء وانتقل علمه من بلاد الإسلام إلى أوروبا فعاقبنا الله بجهلنا . أما الآن فهذه الأمة قد عقلت وفهمت . وإنما فعل الله ذلك انتهاجا لسنته وجريا على طريقته ، فهو هكذا خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، وهذا الضعف في الأمة الإسلامية بسبب الصغر قد انتهى اليوم . فنحن خير أمة أخرجت للناس غاية الأمر أنا كنا مرضى وصغارا جهالا فوفينا وأدركنا وبلغنا . ولا جرم أن المريض إذا شفي يعتبر بما آذاه من المرض بالتجارب فيحترس بما وقع فيه ، أفلا تتذكر أن الرجل الذي يأكل المأكول الدسمة إن عاش ولم يمرض مات جنة لأن جسمه لم يقدر أن يستخرج منه الفضلات بطريق الجروح ونحوها وأن الرجل الذي يأكلها ثم يمرض فإن حياته تطول لأنه هو القوي لأن من تخرج منه الفضلات خير ممن بقيت في جسمه تنهك قواه فيموت ، فرض الأمة الإسلامية السابقة ثم رجوعها إلى الصحة دليل على متانة تركيبها ، فهي إذن أشبه بخير الرجلين السابقين والأمة في أول أمرها أنعمتها الغنائم وتفرقت لنحكم الأمم شرقا وغربا ثم كانت هذه الحرب العالمية ، والأمة العربية على وجه الخصوص التي نزل القرآن بلسانها هي أول الأمم التي شرفها الله بأنها « خير أمة أخرجت للناس » لأنها تفرقت في الأرض لنشر الدين ثم غلبت على أمرها في زمن صغرها ، وهامى ذه الآن أخذت ترجع كرة أخرى لجدها وذلك بطريق السمع والأبصار والأفئدة والشكر ولهذا كررت الآية في سور كثيرة فقال تعالى مثلا في [سورة الملك] « وهو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » وسيأتي لهذا المقام إيضاح في [سورة سبأ] عند آية « ولوترى إذ الظالمون » الخ كما قلت لك [وفي سورة الزخرف] في أولها عند قوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .

فلما سمع صاحبي العالم ذلك قال لقد تلج صدري وانشرح لما ذكرته من أن الأمم الإسلامية اليوم قد أصبحت مشبهة لمن بلغ الحلم وأنها أخذت تعقل واستدللت بما عدت من أحوالها ولكني أقول إن هذا الدليل يعود دليلاً آخر ليسكونا شاهدين على هذه القضية ، يقول الله تعالى « وأشهدوا ذوى عدل » وهذا شاهد واحد ، وخير الشواهد ما كان من التاريخ في هذا المقام ، فلو أنك بحثت عن أمة ذات دين اعتبرها ما اعترى أمتنا من هذا الضعف ثم أخذت تعقل في القرن الرابع عشر بعد فراق نبينا لها بطريق أرقى من سابق أيامها كان ذلك شاهداً حسناً في هذا الموضوع . فقلت لقد طلبت منى مرتقى صعباً وأمرأ عسيراً فإن ديانة البوذية قديمة العهد وبنو إسرائيل مشتتون في الأرض مقطعون قطعاً فلا تهتدى لبحث تاريخهم ولم شعهم ، على أن دين موسى دين قومي لا عمومي لأنهم حصروه في بني إسرائيل فليس لدينا لإلادين المسيح الذى نسخ بعد نزوله بست قرون إذ نزل الدين الإسلامى فهؤلاء النصارى لما جاء الإسلام كان الباباوات يتحكمون فيهم وقدمر في هذا التفسير ، وأن بابا (روما) كان هو الذى يعزل ويولى ملوك أوروبا وأذلهم وقهرهم وقد ضرب (ملك جرمانيا) برجله وقد أوقفه ثلاثة أيام وهو يتزل فلا يفكر له وكم عذب وكم قتل . كل هذا تقدم في (سورة التوبة) ولا زالوا في هذا الذل حتى كانت الحروب الصليبية وحروب الأوربيين مع أهل الأندلس الذين حرقوا علم الحكمة وأهل أوروبا قد شعوا حكم رجال الدين فكان المسلمون أشبه بالطفل الذى بلغ سبع سنين أو ثمانيا وأهل أوروبا أشبه بطفل قد بلغ الرابعة عشرة فأخذوا علوم المسلمين وارتقوا بعد أن حرقها المسلمون كما يحرق الطفل كل ما لم يكن حلوى يأكلها أو كما يحرق الديك الجوهرة ويلتقط الحبة لا غير . وعليه نقول إن أوروبا المسيحية حوالى القرن الرابع عشر من تاريخ دينها أخذت ترتقى في حياتها والمسلمون اليوم أخذوا يقرءون علومهم وهم في قرنهاً الرابع عشر كما فعل أولئك سابقاً . فهذا هو دليل . إذن المسلمون اليوم أخذوا في الرقى لأنهم أشبه بمن بلغ الحلم في سن (١٤) كما فعلت أوروبا من قبل ، واللقام ليس مقام نسخ الدين وعدم نسخه وإنما اللقاه في أن التاريخ أخذ يعيد نفسه ويفعل المسلمون ما فعل المسيحيون من الرقى العظيم اه .

ثم إنه لما اطلع على المقال المتقدم في جسد الإنسان وموازنته بالعالم السماوى والأرضى قال لقد ظهر بهذا من العلم ما كان محبباً عن الكثيرين من أمم الإسلام فإن كون الإنسان نموذجاً للعالم يظنه من لا تحصيل عنده أمراخياليا « كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » ولكن ظهر الآن أنه حقيقة ثابتة وأن الله عز وجل رحمة منه بعباده جعل أجسامهم وأرواحهم عنواناً ونموذجاً للعالم كلها حتى تحضر في عقولهم بأقل نظرة فتسكون العوالم كأنها حاضرة عند الإنسان ، وهذا خير ما جاء في هذا التفسير بل خير ما يعرفه الناس من العوالم ولكني أريد منك درسا مختصراً الآن على هذا المقال بحيث نفهم به من جسم الإنسان وروحه قبل فوات الفرصة :

- (١) نظام علم التوحيد .
- (٢) ونظام الملوك والأمراء أورؤساء الجمهوريات مع ممالكهم وتتصور امتحانهم لها .
- (٣) ونظام الحكماء مع أممهم أيضاً وامتحانهم لها ودراستهم لنظمتها .
- (٤) وهل هذا الجسم الإنسانى يعطينا نموذجاً لاحتلال الدول القوية بلاد الأمم الضعيفة؟ وأى نموذج لذلك في جسم الإنسان .

هذه هي النظم الأربعة التي أردت أن أعرفها من نظام الجسم الإنسانى حتى تسكون العلوم بسبب النظام الأول حاضرة عند الإنسان ، وسياسة الدول كذلك بالثانى وسياسة الحكماء وسياسة الأمم الغالبة مع المغلوبة بالثالث والرابع وإذن نفهم قوله تعالى « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

﴿ النظام الأول ﴾

قلت: أما نظام التوحيد فهو يرجع إلى جميع العلوم ، أما التوحيد الجدلي فهو للعامة وسغار العلماء ، وقد مر كثير منه في هذا التفسير بل هذا التفسير أعان الله عليه لهذا وأمثاله ، ولكن أقول منه الآن قلا من كل إجابة عن سؤالك .

إن العاقل ينظر إلى نفسه فيجد له روحا لم يرها وعقلا مدبرا وحافظة وذائكة ومخيلة وحسا مشتركا ، كل هذه لم يرها ولكنها تتصرف في جميع أمورياته ، فروحه وهي رئيسة هؤلاء وهو لم يرها ضربها الله مثلا «وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» لسلطانه في العوالم ولم يره أحد ، وهذه القوى المتصرفة في جسمه ضربها الله مثلا للملائكة الذين أوجب علينا أن نؤمن بهم ليفتح لنا بهذا الإيمان هذه العلوم ، والحواس الخمس التي تتصرف على العوالم الخارجة للسخرات للعقل ولجنوده الباطنة لكل حاسة منها مملكة لا تعرفها الحاسة الأخرى ، فالبصر يجمل : الحلو والمر . والسمع يجمل : الأخضر والأصفر الخ . والدوق يجمل : النور والصوت والنعمة وهكذا ، إذن هذه ممالك متجاورات لكل مملكة أعمال لا يمكن حصرها كما مر شرحه في موضوع الجسم العلام وهي في حسابها ونظامها ترجع إلى الروح الدرة التي لم ترها . والروح وحدها لها الأمر فهي تخاطب البصر الذي مقره العين ظاهرا بخطاب في أمر الألوان كقوس قزح والأنوار السكوكبية بما لا تخاطب به الدوق الذي مقره اللسان بحسب الظاهر في أمر الحلاوة والحرارة : والحرافة والعذوبة والملوحة وأمثالها وبما لا تخاطب به السمع في أمر صوت الرعد وأصوات الرياح والأمواج وتستفهم الروح من العين عن البرق ومن الأذن عن الرعد ومن الدوق عن العسل ومن اللسان عن الحرارة في الجو أو البرودة فالحرارة وقوس قزح والرعد التي تظهر في الجو آيات مفصلات على الآيات البديعات في الأجسام من قوة المس في اليد والبصر في العين والسمع في الأذن .

هذه هي حال الروح مع عالمه وهذا هو إيضاح المثل الإنساني الذي ضربه الله لنظام عالمه ، فهو يعلم نظام السمك في البحر ونظام حيوان البر وكل منهما لا يعلم شيئا عن الآخر إلا قليلا . ولقد خلق ممالك في الأرض وكل منها ذات قوانين لا تسرى إلا في بلادها وهم بها راضون . وهكذا أرسل رسلا وكل له شرع وجميعهم يرجعون في حسابهم إلى ربهم على مقتضى شرائعهم التي لم تنسخ قبل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم كما رجعت عوالم الأبصار والسمع والأذواق إلى الروح والعقل وأدت حسابها وأخذت الروح تنظم عوالمها على مقتضى النتائج الواصلة إليها وهكذا خلق عالم الأرض وعالم الريح وعالم زحل وعالم الكواكب الثابتة وعالم السدم (جمع سديم) وعالم المجرات . وكل عالم يجمل ما عند الآخر ولكنها كلها متجهة إلى ربها كما توجهت الحواس الثلاث وكلها العقل والروح بالعوالم الخارجة إلى العقل والروح فأدت حسابها وامتحنها . وإعناقلنا إن كل عالم يجمل العالم الآخر ، لأن ذلك كأهل الأرض فإنهم يبحثون عن عالم الريح ويجدون في الوصول إلى مخاطبتهم ومع ذلك وجدوا الطريق وعرا فرجعوا بخي حنين كما أن العين لو كانت مستقلة لقاتل أنا أجهل علوم اللغات والأذن لو نظقت لقاتل وبلى ما أعظم جهلي بعلوم الناظر والألوان . انتهى الكلام على نظام التوحيد والمثل الذي ضربه الله بأجسامنا لنظامه في عوالمه .

﴿ النظام الثاني ﴾

(وهو أن الله جعل الجسم الإنساني مثلا للأمرء واللوكة ورؤساء الجمهوريات مع ممالكهم ورعايهم) انظر إلى القوى الباطنة الإنسانية والقوى الظاهرة والمعلومات الإنسانية تجدها هي بنصها وفصها منطبقة على الممالك ، فكأننا نجد الدولة فيها وزراء ومجالس نواب ورجال استشارة هكذا نجد بجانب العقل الحاكم

في الإنسان قوى باطنة من حافظه و متخيلة و مفكرة و ذاكرة مطابقة لما نراه في دواوين الحكومات من العقول الراجعة و النفوس المفكرة و الدفاتر المسجلة و النظم الثابتة و أن كل دائرة من دوائر الحكومات تبجل ما عند الدائرة الأخرى ، ألا ترى رعاك الله أن وزراء الزراعة و وزراء المالية و وزراء المعارف لا يعلم كل ما عند الآخر إلا قليلا ، ولكن الملك و الأمير أو رئيس الجمهورية أو مجالس نواب الأمة هؤلاء هم المحاسبون المطلعون على كل نظام على حدته و ليس لأحد من أرباب تلك النظم أن يتعدى حده . فلا يتدخل وزير الزراعة في أعمال وزير المعارف لئلا يحصل الاختلال في نظام الدولة كما لا يتدخل العين في علم الموسيقى و الألحان و في علوم اللغات

﴿الكلام على النظام الثالث وهو نظام حكام الأمم معها﴾

فكما رأيت نظام الأمراء مع الدول هكذا ترى نظام الحكام مع الأمم ، فحكما الأمم هم المشار إليهم بما روى « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجد لهذه الأمة أمر دينها » و لقد بعث الله في الإسلام رجالا معروفين و عنهم و من آثارهم تلقينا العلم فهو هؤلاء هم حكما الأمة الذين يدرسون نظمتها و يعطون لها تعاليم توافق عصرهم لأن كل عصر له مقام معلوم مع اتصال الأعصر كلها بالترقية للرسومة و الطريقة للمهودة ، فالحكيم الحقيقي للأمم الإسلام هو الذي يدرس جميع النظم بقدر إمكانه ، و متى ظهر أنه موافق للإصلاح أتى الله حبه في قلوب الناس فأخذوا برأيه و ساروا على سبيله و اتبعوا طريقته و فكروا بعقولهم في آرائه ثم انتهجوا سبلا بحسب عقولهم و اجتهادهم على مقتضى ما يرونه ، فإذا رأينا الأمم قبلت حكمة حكامها و نصائح فضلائها و أعظمهم كان ذلك دليلا على حياتها و إن هي غمطت حقهم و أنكرت فضلهم و خاصمتهم و أهانتهم دل ذلك على أنهم آخذون في الاضمحلال لأن الحكام منزلهم من الأمم بمنزلة الإبرار من الجسد ، فإذا نبذت الحكام فقد أصبحت عمياء و الأعمى لا يهتدى إلى السبيل فهو محتاج إلى الهداة ، و هذا بعينه مثل هذه الأمم الإسلامية المتأخرة لما غربت شمس حضارتها و ولت أيام شبابها و أدبرت سنين سعادتها و أقبلت أيام هرمها و دنت من موتها بالمرض المزمن الذي شل أعضائها و ذلك أيام الدولة العباسية لما قتل بعض ملوك بني عباس ابن السكيت مثلا و أيام دولة المرابطين إذ أحرق بعض (بنى تاشفين) في المغرب كتب الغزالي و أذل بعض ملوك الموحدون العلامة ابن رشد و حبسه و حقره في أعين الأمة و هكذا فعل ملوك بني عثمان مع هذه الأمة كلها بعد ذلك فإن السلطان سليم نقل الصناع للصريين الحاذقين في صناعاتهم لما فتح مصر و أخذهم إلى بلاده و لما توسطوا البحر غرقت المراكب بهم فماتت الصناعات من مصر علما منه بما للصناعات من آثار في قوة الأمم . و هكذا جمال الدين الأفغاني لما كان في الأستانة أتاه مرض السرطان هو و السكاتب المشهور (محمد نديم المصري) .

و لقد أشاع الناس أن ذلك بأمر الخليفة العثماني ، و الأمة متى ذهب بصرها و لم يبق إلا اسمها عاشت عمياء لا تبصر عليه تصبغ و ليس عندها من العلم إلا نلثه لأن قوة التفكير ضائعة لأنها محصورة ، و قوة البصر لا وجود لها لأن الحكمة هي البصائر للناس و هي التي أنزل الله لها (سورة لقمان) وهو القائل « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا و ما يذكر إلا أولو الأبواب » و الحكام إذا جهلهم أمم الإسلام كما حصل فعلا فقدت بصرها فأصبحت تتخبط في ديجور الظلام ، وإنما الذي عندها من العلم هو القرآن يحفظه الأطفال و يعيشون أطفالا و هم كبار ، أما الأبصار و أما العقول فهي المحتوم عليها ، و عليه نقول لننظر في النظام الرابع .

﴿النظام الرابع وهو نظام الأمم القوية المستعدة للأمم الضعيفة﴾

إن الأمم التي أصبحت عمياء بسبب احتقار حكامها و المفكرين من أبنائها كالأمم الإسلامية في القرون الأخيرة تصبغ لاعلم عندها إلا ما سمعته و العقول محبوبة ، و لا جرم أن اللسان إنما يعبر عما في العقل و العقل جاهل فتسكون كتبها غير معشقة للحكمة و خطباؤها لا يؤثرون في الشعوب إلا آثارا قليلة على مقدار بضاعتهم

اللزجة ، وهذه الأمم إما مريضة أمراضا تشبه أمراض السل والجدرى والحصباء وإما ميتة ، والمرضى يعوزهم أطباء يستفيدون منهم تقودا ويعطون لهم عقاقير وأدوية ، ولاجرم أن العقاقير والأدوية قد ثبت أن ضررها أكثر من نفعها إذا اعتمد الناس عليها وتمادوا فيها كما تقدم في سور كثيرة كسورة (طه والشعراء والبقرة والأعراف) بشهادة أعظم أطباء ألمانيا والنمسا وغيرهم ، والأموات يعوزهم من يدفونهم بعد موتهم إراحة للناس من رمهم الضارة بالهواء وقد اعتاد الناس أن يتخلصوا من رمم الموتى إما بأكل أجسامهم إن كانوا بوذيين أو بإلقائها وتحنيطها إن كانوا من قدماء المصريين وإما بدفنها في الأرض إن كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود ، والنتيجة لذلك كله أنهم تخلصوا من رمم أحبائهم الذين لم يكونوا ليحبوا مفارقهم في هذه الحياة هكذا الأمم القوية متى رأت أنما ضعيفة فلا مناص لها من (أحد أمرين) : إما أن تحتل بلادها إن كانت مريضة وتدعى أنها تداوبها وهذا هو البلاء اللين. وذلك ككثير من الدول المستعمرات لبلاد الإسلام . وإما أن تهلك حرتها ونسلها وهذا هو الحاصل الآن في بلاد أمريكا فقد انقرض الشعب الأصلي وهم سكان الأرض الأولون وهكذا أهل (استراليا) فهؤلاء وهؤلاء نعتبرهم ميتين أمام الفاتحين . ويقرب منهم أهل الأندلس الذين تفرقوا عشرين دولة كما تقدم إيضاحه في هذا التفسير عند آية « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » في (سورة النمل) فهؤلاء كانوا كجسم تمزق عشرين قطعة فلا بد من دفنه فبطشوا بهم بطش الجبارين . إن أكثر الأمم الإسلامية المستعبدة اليوم ليسوا بميتين وإنما هم مرضى وأدواؤهم (أحد أمرين) : إما عقاقير الفاتحين وأدويتهم وهذا يحدث في أجسامهم أمراضا جديدة كما قرره كبار الأطباء وشرحناه في هذا التفسير . وإما بالأدوية الطبيعية التي تشابه الاستشفاء بالهواء النقي والماء والأغذية والرياضيات المختلفة وهذا هو الدواء الوحيد الناجع في المرض وهذا هو الدواء الوحيد لأمة الإسلام المتأخرة . وما هو ذلك ؟ هو قراءة أمثال هذا التفسير من كل ما يرجع الأمة إلى حال فطرتها وإلى النظام الذي كان في عصر الصحابة والتابعين من دراسة هذه الدنيا والنظر فيها وفي القرآن . فهذا هو الدواء الذي جعله الله عز وجل لهذه الأمة في هذا الزمان « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هاهنا سألتى قائلا: هل تسمح لي أن أذكرك بأمر هام في هذا المقام ؟ فقلت حيا وكرامة ، فقال يؤخذ ما ذكرته فيما تقدم قريبا أن الإنسان لوح محفوظ . فذكر هذا في التفسير يجعل في النفوس انقباضا ويذكرها بهؤلاء الأقوام الذين يجلسون في حلقات القوم وينطقون بألفاظ لا هم يفهمون معناها ولا السامعون . اللوح المحفوظ هو لوح الله لالوح هذا الإنسان الذي هو جهول ظلوم . وهل ترى أنت أن اللوح المحفوظ نزل من عند الله إلى الأرض واختلط بهذا الطين وأصبح في هذه الظلمة ؟ وأيضا إذا كان اللوح المحفوظ عند الله واحدا فكيف أنزله إلى الأرض فصار آلاف آلاف بعدد الناس ؟ وإذا كانت هذه النفوس هي ألواح الله فأين الهبة والرواء والجمال والعظمة التي تذكرها الإنسان في ذلك اللوح . اللوح المحفوظ فيه علم ما كان وما يكون فهل أنا وأنت نعرف ما كان وما يكون ؟ هذا القول بعد هذا البيان يلقي إلى الجهلاء لا إلى العلماء وهذا التفسير يكتب للطبقة الراقية للعلماء والجهلاء . ثم سكت فقلت هل في نفسك شيء ؟ فقال وهل ما سمعته لا يكفي في الإعراب عما جاش بخاطري ، فقلت حياك الله وبياك .

اعلم أن هذا الإنسان أمره عجب . إن الناس يعيشون ويموتون وهم هم أنفسهم لا يدركون أنهم نور وبهجة وكال وحكمة . يجيش بنفسى أن هذه الأجسام الإنسانية والأرواح الحائلة فيها وكثرة عددها على الأرض أشبه بحبات اللقاح الكثيرة في النبات فإنها لا تفعل لها في اللقاح الإناث إلا آحادا منها ، وهكذا الحيوانات المنوية في ماء الرجل فإنها تعد بالآلاف ولكن واحد منها وحده هو الذي يتعد بالحلية المنوية التي أقيت من ماء الأنثى فيكون الحمل كما تقدم في (سورة طه) .

أعجب من هذا الإنسان ، هو يأكل ويشرب وينام ويتعلم ويعقل ويتذكر وينسى ، وهو نفسه نموذج الجمال والحكمة ثم يموت وهو لا يعلم من هذه الدنيا المحزنة إلا أنه قاسى الأهوال وأغرم بالأموال وعذب بالأبناء والبنين ودولته حاربت دولاً أخرى ثم مات ، هذا هو الإنسان .

خطاب لنوع الإنسان

أيها الناس : لو أن عقولاً كبيرة خلصت من أجسامها ثم نظرت هذا الإنسان يعيش ويأكل ويشرب ويكسب ويحارب وينصب ويشهى رأت أمراً عجيباً ، فماذا ترى ؟ ترى أن الأرض والسكواكب وما على الأرض من المخلوقات إن هي إلا حركات في الأثير ، وما هو الأثير؟ هو موجود أدهش العلماء ، وأول من تخيله (إسحاق نيوتن) وقد أجمع هو والعلماء بعده أنه ليس مادة، ولكنه هو اضطر أن يقول [إنه ذرات ضئيلة جداً] وقد جعل هذا مجازاً فقط ، ولقد عبر عنه (هو بجنس) بقوله (موجات) وهذا من أقوال الفلاسفة فيه وآخرهم (اينشتين) العالم الألماني في زماننا فإنه يقول [هو خيال من الفضاء ، والوقت يصعب على غير التعمق في الرياضيات فهمه] .

هذه أقوال ثلاثة من تسعة أقوال يقولها العلماء في الأثير الذي هو أصل للمادة التي منها هذا الإنسان . فآخرها أنه خيال يفهمه التعمقون في العلوم الرياضية . إذن الأثير أمر موجود وليس بمادة والتعبير عنه بعيد عن العقول ، وغاية الأمر أن العلماء وصفوه (بعشرة أوصاف) نذكرها هنا لتكون مبدأ منه نبحت في الإنسان وكيف صار لوحاً محفوظاً . وهذه العشرة هي :

- (١) إنه شفاف .
- (٢) عديم الاحتكاك بالمواد .
- (٣) عظيم الكثافة .
- (٤) تام اللزوجة .
- (٥) عديم الحرارة .
- (٦) عديم الصوت .
- (٧) موصل جيد للجاذبية والنور والأمواج الكهربية والمغناطيس .
- (٨) وهو وسيط لتلاصق دقائق المادة وتماسكها .
- (٩) وهو وسيط للألفة الكيميائية .
- (١٠) وهو يملأ كل فراغ .

هذه هي الصفات العشر التي يعرفها علماء زماننا للأثير الذي هو أصل للمادة التي خلق منها الإنسان الذي يقال إنه لوح محفوظ تتوقف معرفة لوحيته وحفظها على هذه القدمات في زماننا . ويقول العلماء : إن معنى كون الأثير عظيم الكثافة أنه لو فرض وتحول إلى مادة نراها ونلمسها لكانت كثافتها في المليمتر الواحد للكعب بمقدار (ألف طن) ومعلوم أن الطن الواحد وزنه نحو (٢٢) قنطاراً فيكون المليمتر للكعب وزنه (٢٢) ألف قنطار ، واللزوجة المذكورة تساوي ضرب هذه الكثافة في مربع سرعة النور ، هذا ما يقال في الأثير ، فهذا الأثير عجب كيف يكون غير مادة ثم تكون هذه حاله فيكون المليمتر للكعب بمقدار هذا الوزن .

أقول إنما قالوا هذا لأنهم رأوه يتحمل من الأثقال ما لا حمله . فهذه جاذبية الشمس للأرض فهي تأتي بواسطته وهكذا النور والكهرباء والمغناطيس . وهذه لها أفعال هائلة قوية فأى موجود يتحمل هذه كلها أمد الدهر إلا إذا كان بهذه المقادير وهذه المقادير ليس يحسبها إلا أرباب الفن . فهم هم الذين لهم هذا الحساب المتقدم .

هذا آخر ما عند العلماء في الأثير ، فهو موجود قوى متين عظيم يحمل مالا يحمله المعادن التي تراها فلتنقل للبحث الآن إلى المادة التي خلقت من هذا الأثير (إنهم يقولون ما للمادة إلا حركات في الأثير) أو هي كهرباء موجبة وسالبة يدور سالها حول موجبها (انظره في سورة النور عند آية « الله نور السموات والأرض ») وما هذا الذي نراه من جبل وشجر وشمس وقمر وماء وأرض لإحركات قد اختلفت كمياتها وكمياتها وباختلافها نظرنا مناظر مختلفات . ولما كانت كذلك لم نر لها استقرارا فهي سريعة التغير ، فالأرض والكواكب كلها متحركة لاتقف في مكان لحظة واحدة والإنسان والحيوان والنبات متحركة دائما إما في نموهن وإما في ذبولهن وذهابهن من الوجود ، فهذه العوالم التي يعيش الناس فيها كلها متغيرات وتقدم قول أفلاطون إن المادة لا تثبت لها فليست تستحق اسم الوجود وليست تصلح مناسبا للعلم لأن العلم ثابت والمادة لا تثبت لها فكيف يتعلق بها العلم ؟ فإذا كانت هذه الدنيا على هذا النمط ورأيتها روح عالية وهي تنظر لها من بعيد فإنها ترى أن هذه الأرض وما حولها أشبه بالنار بل إن باطن الأرض نار وسطحها نار قد دبرت واسكن بأذى عمل تنقد نارا فالأشجار والنبات والحيوان قابلة للاشتعال والحجارة تنقد نارا بالقدح لأنها جميعها نار تجمدت كباطن الأرض وكقرص الشمس بحسب ما يتجلى لنا منها والنار سريعة الحركة لاقرار لها وهذه الروح العظيمة ترى آثار الناس في أخلاق البهائم والحشرات والإنسان . الناس في حرب وضرب وعداوات وشهوات وفراق وحزن وموت وحسرات وخصومات . فكل هذه نيران محرقة بل نفس الحب والشوق نوع من الحرارة ، فهذه العوالم تحترق نارا إما ظاهرة وإما باطنة غاية الأمر أن الذين يعيشون فيها لا يعلمون أنهم يعيشون فيها يشبه النار وقد غفلوا عنها كما يغفلون عن أنهم يعيشون في وسط جسم هو الهواء فلا يفطن له إلا العلماء . وهاهنا وصلنا إلى المقصود فلننظر في هذا الإنسان . هل امتاز عن هذه المخلوقات بشيء ؟

ننظر فتراه - وإن كان متغيرا من صغره إلى كبره - ثابتا ثابت رضوى . يأكل ويشرب ، ويفرح ويحزن ويقتم ويسر ويولد ويولد ويجهل ويعلم ويمرض ويصح ويفتقر ويفتق ويغنى ويجمع ويفترق ويحب ويكره ويعز ويذل ولكن هذه الحوادث كلها تخزن عنده في خزانة لا هو يعرفها ولا أحد من الناس معه فإنه بعد أن تمر (٨٠) سنة على حادثة رآها في صغره يصفها وصفا دقيقا كأنه يشاهدها بل إن الكبير السن يكون أنبغ في الوصف والله كرمي حق وصف فقيل فيه (إنه كمنق) بضم الكاف وسكون النون أعنى أنه يقول كنت وهذه النسبة شاذة لأنها نسبة للفعل مع الفاعل . فهذا الشيخ والمهرم يقول كل منهما (كنت فعلت كذا وكذا في زمان كذا) فمن أين أتى بهذه الأوصاف إلا إذا كانت هذه الروح العجيبة لها خزانة معنوية لا يمكننا إدراكها قد رتبت فيها هذه الحوادث وكتبت وأخذ الإنسان ينقل عنها . الأرض والسموات وما على الأرض كلها ألواح ولكنها ليست محفوظة ، فالشجر والماء وظواهر الأرض كلها متغيرات لا تثبت لها . أما هذا الإنسان فإنه لوح محفوظ هو مسجل . هو كتاب يسجل الله فيه الحوادث الأرضية والسموية تسجيلا جزئيا لا كليا . فهذه ألواح صغيرة جعلت لهذه الأجسام الصغيرة وما هي إلا كسراج صغير من البقرول والشحم وضع العسل والزيت في أرضنا ، فال محفوظات والمعلومات المنزونات فيها لاتعدو أنها أشبه بالسراج الذي نوقده في منازلنا بالزيت أو بالشمع ولا جرم أن سرجنا نورها ضئيل كذلك المعلومات التي عندنا لأن علومنا غير نقية على حسب معدن

هذه النفوس . وهل ضوء البترول كضوء الكواكب والشموس . أفلا نقول على سبيل القياس في أمثال هذا المقام إن هناك نفوساً أرقى من نفوسنا عقولها وعلومها أشبه بضوء شمسنا مثلاً بالنسبة لضوء مصباح البترول في منازلنا . وبعبارة أخرى إن علومنا بالنسبة لعلوم تلك الأرواح تكون قليلة مختلطة على وزن مصباح البترول الذي هو ليس شيئاً إلا أنه من الأرض والأرض من الشمس فتكون أرواحنا مشرفة عليها أرواح أكبر منها عندها علوم أوسع والله فوق الجميع لا يعلم علمه أحد ولوحة المحفوظ فوق هذه الألواح كلها فلا هو كلوحنا الضعيف ولا كلوح الأرواح العالية لأنها ضئيلة بالنسبة له تعالى . ثم إن الأرواح العالية المحيطة بعالمنا لانعرفها إلا بالقياس على أنفسنا قياساً مع الفارق . ثم نقول : إذا كان الأثير الذي هو أصل المادة قويا متينا إلى هذا الحد أفليست أرواحنا والأرواح التي هي أعظم منها أمتن وأمن من الأثير فالأثير عظيم القوة مع أنه لا يثبت له أفلا تكون أرواحنا التي هي ألواح محفوظة أمتن منه وهي باقية بعد الموت ولها محفوظاتها ؟ أقول بعد هذا كله . إخواني سكان هذه العمورة من أبناء آدم . أليس لي الحق بعد هذا كله أن أقول إننا جميعاً نعيش ونموت وكأنا ألواح يقرؤها سوانا لأنحن ، فنحن مقرئون لآقارئون . نعم نحن نقرأ ألواحنا غير محفوظة وهي المخلوقات أماننا في كر العداة ومر العنى ، وهذه المخلوقات منع بقاءها تغلب الشمس وطلوعها من حيث لا نعى . فنحن نخزنها وبهذا الخزن نكون أرقى منها . فإذا خزنا هذه المحفوظات عندنا وعلمنا أن المخ والجسم يتغيران كل ثلاث سنين مرة حكماً وجزماً أن عندنا لوحاً محفوظاً حفظ العلوم عندنا والحوادث الجزئية وأن هذا الحفظ ليس يكون بلاعلة والعلة فيه أنه باق في سطور النفس للانتفاع به إما في الحياة وإما بعد الموت ثم إننا نلاحظ أن هذا الإنسان كله مقلد لعظمائه سائر على خطواتهم فهو أبداً مقلد للنابعين فيه أولئك لهم السيطرة العملية ، فالقانون أو الصناعة يبرزها واحد فتبعه أجيال . أفلا نقول إن أكثر الناس تابعون لاتبوعون وتقول ما هو أليق بمقامنا . إذا كان أكثر الناس لا يعلمون فإن قليلاً منهم من تظهر لهم حقائق نفوسهم ويدركون المقصود منها ويعرفون نسبة نفوسهم إلى العوالم وأنها باقية لبقاء معلوماتها . وإنما قل هؤلاء في الإنسان وقرءوا أنفسهم لأننا أسلفنا أن هذا الإنسان يقل فيه النابعون في الفنون فأجدر بالندرة من يدرك هذا السر المصون إذن ثبت بالدليل الإقناعي أو القياس التمثيلي أن النادر من نوع الإنسان من يدرس نفسه ويعرف بعض سرها ويعقل أن الإنسان عالم صغير هو ظل للعالم الكبير .

وبهذا وحده يفهم الناس قوله تعالى في هذه الآية « ثم سواء ونفخ فيه من روحه » فإضافة الروح إلى الله يفسرها ما ذكرناه في هذا المقام تفسيراً مقدرًا بمقدار تصور نفوسنا الأرضية « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم - وأن إلى ربك المنتهى » والحمد لله رب العالمين . كتب قبل وبعد فجر يوم الاثنين ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م

﴿ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الخ ﴾

ورد في البخارى ومسلم عن ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد ويسجدون حتى ما كان أحد يجد مكاناً لوضع جبهته في غير الصلاة » .
وفي البخارى ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوها ولو حبوا » ٥١ .

يقول بعض العلماء « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » نزلت في انتظار صلاة العتمة . ويقال كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوابين ، ويقول عطاء لا ينام الإنسان حتى يصل العشاء الأخيرة والفجر في جماعة .

وفي حديث مسلم « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله » .

هذه أقاويل ولكن أشهرها أن المراد بذلك صلاة الليل ولكل فضل ، ألا ترى إلى حديث مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » وإلى حديث البخاري ومسلم عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمت قدماء ، فقلت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا » اه .

ومعنى هذا أن الإنسان يجب أن تكون عبادته لله ليتقرب إليه أي تكون العبادة حبا لا خوفا والشاكر للنعمة صاحب مروءة وهذه هي المحبة فلا معنى لحياة تكون كلها خوفا فيكفي الإنسان من الخوف ما أوجبه الإيمان وليصعد إلى العلوم بالمحبة وأن صلاة الليل تحدث شعورا نورانيا وإشراقا خاصا به تستعد النفوس للعلم والعلم هو المقام الأعلى وبه لقاء الله اه .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي .
وجاء تفسير قوله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم » الخ من رواية البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . اقرءوا إن شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرآءة أعين » اه .

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

(في قوله تعالى « أو لم يهد لهم كم أهلكنا » الخ وقوله « أو لم يروا أنا نسوق الماء » الخ)
ولقد تقدم في أول السورة أن (الم) تشير إلى أمر مهم في السورة وهو النظر في آثار الأمم وآثار رحمة الله وعلى ذلك تصبح هذه السور للتلاصق المبدوءة بهذه الحروف (الم) تدعو حثيثا إلى علم الكائنات ونظام الأمم وهذا هو الأمر الذي نام عنه المسلمون وأضاعوا بلادهم وخرّبوا حصونهم ، فباعبجا لأمة الإسلام الساهية النائمة ، يوجها الله على ترك النظر في القرون الحالية وعلى ترك النظر في الحقول والمزارع والأمة ساهية لاهية نائمة . اللهم إني شرحت هذا المقام في السور السابقة . فتبين في هذا الكتاب نظام الحقول والزهر وعجائب الزرع ليفرح الشبان المسلمون وليحفظوا بلادهم وليرقوها ول يتمتعوا بنعمة العلم والحسنة . وكذلك جاء فيه ما يفيد النظر في آثار الأمم السابقة ونظام المدن في الشرق والغرب . فليعلموا أن أمريكا ذهب أهلها الأولون وأفنام الأوربيون لأنهم لم يقاوموا تيار المدنية بل المدنية أفنتهم وليس يبقى في الأرض بعد الآن إلا أمم قوية تعمر أرض الله وتستخرج كنوزها ، فإن لم يفعل المسلمون ذلك غضب عليهم غضبة فلا يرضى عليهم بعدها وينقل هذا الدين لقوم آخرين .

أيها المسلمون : كيف يتمتع أهل ألمانيا بجمال الطبيعة وأنتم محرومون ؟ وكيف علمهم الأساتذة في كتبهم أن يخرجوا صيفا للغابات البعيدة ليسكونوا في الهواء الطلق أياما وأياما ، وكيف يخرجون أيام الثلج المترام في الشتاء إلى الآكام والجبال والقفار المكسوة كسا غليظة من القطع الثلجية وبرون في هذا سرورا وحبورا وجمالا ، وذلك كله للرجال والنساء على حد سواء . أليس هذا قوله تعالى « قل سيروا في الأرض » وقوله « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا » وقوله « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز » فهذا وأمثاله

يشعر بإعاش النفوس وإخراجها من حضيض النوم والكسل إلى النشاط والجهد والعمل . انتهت اللطيفة الرابعة .

﴿ بهجة الحكمة : في قوله تعالى « وأما الذين فسقوا فإمام النار » الع »

اعلم أن هذه الأرض نار متجمدة ، وكما أن جهنم فيها أما كن باردة وأخرى حارة هكذا أرضنا فكأن أرضنا جهنم مصغرة ، ولقد تبين لي أن الناس في هذه الأرض معذبون عذابا معجلا وهم لا يعلمون أنهم معذبون ، وعذاب الناس في الدنيا نموذج ومقدمة لعذاب الآخرة ، ألا ترى أن أكثر آيات العذاب في القرآن جاءت لإهلاك الأمم في الدنيا بالصواعق والحسف تارة وبالإغريق بالماء وبالإهلاك بالحواسب تارة أخرى .

نسمع الله يقول لنا « أغرقوا فأدخلوا ناراً - لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » ويقول : « سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » .

إذن الأرض قطعة من النار متجمدة فعذابها مخفف ملطف ، فإذا مات الناس ظهرت لهم جهنم الحقيقية ألت ترى أن باطن الأرض ملتهب وما هي إلا كالبطيخة سواء بسواء ، فالقشرة التي نعيش عليها كانت ناراً فأصبحت جامدة لملاقتها للجو ، وهذا اللقام مستوفى في غير هذا المكان كسورة (آل عمران) وهذه القشرة تحتها نار متقدة . نعم إن علماء عصرنا قالوا [لكنها مع هذا متجمدة أيضا مع شدة التهاها لشدة ضغط القشرة عليها] مخالفين في ذلك علماء السابقين ، ولقد ذكرت لك هناك أنها وصلت في حرارتها بمقدار نار الدنيا نحو (٧٠) مرة كما ورد في الحديث وقلنا إن هذا من آيات النبوة . ولما كان هذا شأن أرضنا ألقينا ما عليها يلتهب متى قربنا منه اللهب كالأشجار والنبات والفحم ، بل الطين نوقد عليه النار فيصير محرقا وتبقى الحرارة كامنة فيه تتقد شررا عند القدح ، وفي الأحجار شرر يستخرج بالقدح . والله يقول « إن الله سريع الحساب » ومن سرعة الحساب ماجاء في قوله تعالى « سرايلهم من قطران » وستقرأ في أول (سورة النبأ) تفصيل الكلام على أن الفحم يستخرج منه القطران . وقد تقدم ذلك أيضا . وهذا القطران قد استخرجت منه أمة الألمان مئآت الألوان وهي التي تراها في اللابس والأزياء وبها تنفق الأموال جزافا في الأسواق شرقا وغربا للزينة وهذه الزينة هي التي بها استنزفت الثروة ، وبها وحدها استعبد الغربيون الشرقيين ، أولئك الذين جنهم كجنة المسيخ الدجال ، ظاهرها جنة وباطنها نار . فترى الرجال والنساء يلبسون أفخر الثياب بألوان زاهية من قطران الفحم كما ستراه موضعا في أول (سورة سبأ) كما قلنا ثم يتأديان في تبذير مالهما ومال الأمة والأفراد قهلا وتذلل بنفس هذه التجارة ، وهذا هو سر حديث الدجال الذي نهينا فيه عن دخول جنته وأمرنا بدخول ناره وأن جنته نار وناره جنة ، ألا ترى أن هذا من سرعة الحساب ؟ وترى أحدنا إذا أكثر من الكلام أو الأكل أو شهوة الفرج أحس بألم في النفس وهو لا يعلم أن ذلك عقاب سريع تفسيرا لقوله تعالى « إن ربك لسريع العقاب » وهذا العقاب السريع تذكرة بالعقاب الكبير وهو مخفف سبعين مرة ، فلئن عذب الناس بهذا العذاب الخفيف في الدنيا فهذا سينمو فيكون سبعين ضعفا أو نحوها كما في الحديث .

وأذكرك بما نقلته عن نابغة الهند (غاندى) الزعيم الشهير في آخر (آل عمران) وفي خلال (سورة النساء) من أن التجارة هي التي بها هلك أهل الشرق واستعبدوا وأن الاستقلال في السياسة مع الاستعداد بالتجارة لا يثبت له وفي استعباد التجارة الدل والهلاك ألا ترى أن هذه الآراء في زماننا تفسير لقول الله تعالى « إن ربك سريع العقاب » ولقوله « وللعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

ومما يخجلني أن أمتنا المصرية أكثر الأمم ولوجا لنار الفرنجة بالتعالى والتهافت على الزينة والتزلف ، وهام

أولاء أخذوا يمكروا في الخلاص من ذل التجارة وذل الاخلال اللذين هما العقاب السريع الذي يعقبه عذاب أشد «واقه غفور رحيم» .

عجب أن تكون النار والماء عليها حياتنا وسعادتنا، فلو لا الحرارة في أرضنا ولو لا الماء فيها ما عشنا طرفة عين في امتزاج الحرارة الشمسية والماء تنمو نحن وينمو نباتنا ولكن الماء إذا طغى علينا أهلكتنا والنار إذا طغت تحرقنا . فما به الحياة هو نفسه به الهلاك ، إذا لم يكن ماء كان القحط وإذا لم تكن حرارة معتدلة كان البرد المهلك فباعتماد الحرارة والماء نعيش وبالإفراط والتفريط فيهما نهلك عذاب الأمم في القرآن بالإغراق أو بالصواعق فهل من عجب إذا كانت أصباغ القطران وهي الألوان في التجارة اليوم من أنواع العذاب العجيلة لما فيها من الإفراط والإسراف الذي يزيد النفوس حسرة على مالا يتلون من تلك الملابس فيبدرون أموالهم فيدلون ثم يستعدون أفرادا وأما . انتهى ليلة الخميس قبل الفجر في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ م .

(خاتمة السورة)

(في مناسبة السورة لما قبلها ، وفي أن مانكتبه في هذا التفسير هو من مقصود القرآن وبعض

أسراره التي ظهر بعضها ، وسيظهر أكثر من هذا بعد مفارقتنا هذه الدار على أيدي قوم أبرار)

اعلم أيها النبي أن الله قد جعل سورة السجدة بعد لقمان تذكيرا لنا بأن سعادة الدنيا والآخرة لن تتم إلا بالعمل أولا والعمل ثانيا على ترتيب (سورة الفاتحة) فأولها ذكر العوالم وهو العلم وآخرها العبادة والهداية وهو العمل فلقمان كأول الفاتحة والسجدة كآخرها ، فالعلم أجله علم الحكمة ولقمان حكيم ، وقد شرحت بحمل الحكمة هناك ، فأما العمل فمن أعمه السجود الذي وردت فيه أحاديث كثيرة فانظر ماجاء في (الإحياء) تحت عنوان (فضيلة السجود) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما تقرب العبد من ربه إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة» وروى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مراقبتك في الجنة . فقال صلى الله عليه وسلم ، أعني بكثرة السجود» وقيل «أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا» وهو معنى قوله عز وجل «واسجد واقترب» وقال عز وجل «سبأهم في وجوههم من أثر السجود» وهو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر ، وقيل هي الفرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء ، وقال صلى الله عليه وسلم : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان بيكي ويقول باويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت في النار» .

ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد ، ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب ، وكان يوسف بن أسباط يقول : يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسنه إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود . وقال عتبة بن مسلم : ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل ، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث يحجر ساجدا .

هذا نس ماجاء في الإحياء ومعلوم أن في الإحياء أحاديث ضعيفة ولكن أجاز العلماء إيراد الضعيف في فضائل الأعمال ، انتهى واقه أعلم .

فلما اطلع على هذا صاحبي قال ياسبحان الله . نعم هذا حسن ولكنه حسن في ذاته . أما هذا التطويل في التفسير فليس تفسيرا بل هو علم وخير لك أن تقول هذا كتاب علوم لا كتاب لتفسير القرآن . فقلت بل هذا تفسير . فقال قل ماتشاء ولكني على رأيي . فقلت انظر أيها الأخ إلى نظام الطبيعة . أليس هذا النوع

الإنسان؟ كما تعمق فيه آني بمؤثر حائلة، نحن كما نسكتفي ركوب الدو سافتممنا في بحث المادة فاستخرجنا الكهرياء والمغناطيس فسكات أنفع كما الصاء وهكذا اللاقي من اللابغ الطبعية أشرف وأرقى من السابق وأعم نفعاً فقال أتريد بهذا أن تطويلك في التفسير وإدخالك عجائب الجسم الإنساني والروح فيه وانتظامها ومشابهاها للكواكب والفضائل والعلوم الأربعة وهي الأرضة وما فوقها. ولما خاق فوق الأرض من معدن ونبات الخ. أتريد بهذا أن تقول إن هذا التطويل وشرح العلوم كلها وقياسها على جسم لإنسان ثم المروج من ذلك كله إلى معرفة عظمة الله في ملكه التي شرحتها آنفاً. أقول أتريد أن هذا العمل منك خير من الاختصار على التفسير اللفظي للقرآن وفهم بلاغته وصرفه ونحوه ورد الاعتراضات الواردة في مصطلحات العلوم على الآيات، ثم إنك تجعل هذا كله تفسيراً لقوله تعالى «الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون».

فإذا كان هذا رأيك، وأن ما فعلته أنت أفضل من غيره مما ذكرته لك وأن نسبة هذا القول منك إلى نظام التفسير اللفظي وما يحيط به فيما تقدم كنسبة نور الكهرياء ومنافع الآلات الحديثة إلى آلائنا القديمة وأدواتنا الموروثية. أقول إذا كان هذا رأيك فلتعلم أي خالفتك وجميع المسلمين على خط مستقيم. يا عجايبك وألف عجب، عندي على رد قولك ألف دليل ودليل. ألم تسمع ما قيل: وخير ما فسرته بالوارد. أين أنت من تفسير الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين والعلماء والمجاهدين. ألم تعلم أن التفسير بالرأى ممنوع، أنت مفسر بالرأى لا غير والله شهيد على ما أقول. فوالله إذا أنا كتبت هذا فليظنن به كل الناطقين بالضاد ولتعلن نبأه قريباً وبعد حين والله هو الولي الحميد.

فقلت له: أولو جئت بشيء مبين، فقال وأى بيان بعد وأنى لك أن تدحض هذه الحجج الدامغة ولكن سأسمع ما تقول، فإن كانت لديك حجج فأنت بها إن كنت من الصادقين، فقلت سأخص لك ماجاء في (الإحياء) في [الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل] وإن كان قد تقدم بعضه في هذا التفسير، فقال لا بأس بإيراده، فقلت هذا نص مقاله:

لعلك تقول عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه فكيف يستحب ذلك؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر، فإن صح مقاله أهل التفسير فثامعني فهم القرآن سوى حفظ تفسيره، وإن لم يصح ذلك فثامعني قوله صلى الله عليه وسلم «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» فاعلم أن من زعم أن لافهم للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ولكنه مخطئ، في الحكم برد الخاق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن مقسماً لأرباب الفهم، قال على رضى الله عنه: إلا أن يؤتى الله عبداً فهما في القرآن، فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم؟ وقال صلى الله عليه وسلم «إن القرآن ظهرنا وبطنا وحدا ومطلعا» ويروى أيضاً عن ابن مسعود موقوفاً عليه وهو من علماء التفسير لما معنى الظاهر والباطن والحد والمطلع. وقال على كرم الله وجهه: لو شئت لأدقرت سبعين بعيراً من تفسير فائمة الكتاب. فما معناه؟ وتفسير ظاهرها في غاية الاختصار، وقال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً. وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر. وقال آخرون: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم، ثم بتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد مطلع. وترديد رسول الله صلى الله عليه وسلم «بسم الله الرحمن الرحيم» عشرين مرة لا يكون إلا لتدبره باطن

معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن ، وذلك لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر .

وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهذه العلوم لانهاية لها ، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك بل كل ما أشكل فيه على النظر واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها ، فكيف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اقرأوا القرآن والتوا غرائبها» وقال صلى الله عليه وسلم في حديث على كرم الله وجهه «والله يبعثني بالحق نبيا لتفترقن أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار ، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ ما يأتي بعدكم وحكم ما بينكم من خالفه من الجبارة قصمه الله عز وجل ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله عز وجل وهو جبل الله للتين ونوره اللبين وشفاؤه النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقض عجايبه ولا يخلفه كثرة التردد» الحديث .

وفي حديث حذيفة «لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال فقلت يا رسول الله فإذا تأمرني إن أدركت ذلك؟ فقال: تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك ، قال فأعدت عليه ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثا تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه فبئس النجاة» وقال على كرم الله وجهه: من فهم القرآن فسر به حمل العلم . أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا» يعني الفهم في القرآن . وقال عز وجل «فهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما» سمي ما آتاها علما وحكما وخصص ما انفرد به سليمان بالنطق له باسم الفهم وجعله مقدما على الحكم والعلم ، فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا وأن النقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه ، فأما قوله صلى الله عليه وسلم «من فسر القرآن برأيه» ونهيه عنه صلى الله عليه وسلم وقول أبي بكر رضي الله عنه: أي أرض تقاني وأي سماء تظاني إذ اقلت في القرآن برأيي ، إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم ، أو المراد به أمر آخر وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه (أحدها) أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسنداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا في بعض القرآن ، فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأي لأنهم لم يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم (الثاني) أن الصحابة والفرسين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها وسماح جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل إن (الراء) هي حروف من الرحمن ، وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك والجمع بين السكك غير ممكن فكيف يكون السكك مسموعاً (والثالث) أنه صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس رضي الله عنهما وقال «اللهم فهمه في الدين وعلمه التأويل» فإن كان التأويل مسموعاً كالتأويل ومحفوظاً مثله فما معنى تخصيصه بذلك (الرابع) أنه قال عز وجل «لعلهم الذين يستنبطون منهم» فأنبت لأهل العلم استنباطاً . ومعلوم أنه وراء السماع . وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الجبال ، فبطل أن يشترط السماع في التأويل وحاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن قدر فهمه وحد عقله .

وأما النهي فإنه ينزل على أحد (وجهين: أحدهما) أن يكون له في الشيء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتناول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ولولم يكن له ذلك الرأى والهوى لسكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى، وهذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه، وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة ففهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه فيكون قد فسر برأيه أى رأيه هو الذى حمل على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه، وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم «تسحروا فإن في السحور بركة» ويزعم أن المراد به التسخير بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل وكالذى يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل «أذهب إلى فرعون إنه طغى» ويشير إلى قلبه ويوصىء إلى أنه المراد بفرعون، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع وقد استعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغريب الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فيزولون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به، فهذه الفنون (أحد وجهي المنع) من التفسير بالرأى ويكون المراد بالرأى الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأى يتناول الصحيح والقاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأى (والوجه الثانى) أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماج والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن ومافيه من الألفاظ المبهمة واللبدلة ومافيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأى، فالنقل والسماج لا بد منه في ظاهر التفسير أولا ليتقى بمواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماج كثيرة [أهـ].

فلما سمع صاحبى ذلك قال والله لقد أجت بعلم وفهم. فقلت إذن أقول لك ما وقر في نفسى منذ أيام الصبا ذلك أنى رأيت هذه الأمم الإسلامية كثيرة الاختلاف، وقد ظنوا أن هذا الخلاف يفصل بينهم فقلت في نفسى إن التفسير على هذا النمط يكون أشبه بالقدر طبخت فيه جميع المذاهب، فهل يقدر الشافعى أو الحنفى أو الحنبلى أو الشيعى أو الزيدى بل واليهائى والأحمدى. أقول هل يقدر أحد من هؤلاء أن يقول إن عجائب صنع الله عز وجل وجمال حكمته تناقض مذهبه؟ كلا ثم كلا. ألسنت توافقنى وأنا منشرح الصدر مبهيج النفس موقن بما أقول إن أمثال هذا التفسير مما يكتبه العقلاء في الإسلام اليوم أشبه بما جاء في حديث حذيفة إذ يقول له صلى الله عليه وسلم «تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك» ولما أعاد عليه ثلاثا الحديث أعاد إليه الجواب ثلاثا وذلك في مقام المخرج من الاختلاف والفرقة، فإذا رأينا المسلمين اليوم مفترقين فإننا نقول هذا الاقتراق وهم. فهاهو ذا القرآن فوق مذاهبكم، فالحق والحق أقول: إننى واثق بما أقول موقن أن الله عز وجل أراد ارتقاء هذه الأمة ولم شعئها وستجتمع قلوب المسلمين على أمثال هذه المعانى في أمثال هذا التفسير، فقال هذا البيان قد شرح صدرى. فقلت الحمد لله رب العالمين. انتهى تفسير سورة السجدة.

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الخامس عشر من كتاب (الجواهر) في تفسير القرآن الكريم)

وبليسه

الجزء السادس عشر: وأوله تفسير سورة الأحزاب

فهرس

الجزء الخامس عشر

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صحيفة

- ٢ (مقدمة) في مناسبة السورة لما قبلها . آخر ما قبلها وأوله جهاد . هكذا أول هذه السورة .
- ٣ تقسم السورة إلى (أربعة أقسام : القسم الأول) في تفسير البسملة وابتدائه بمنظر الثريا وما معها من النجوم وهي أربع مجموعات . وبيان أن هذه الصفائف الدائرة حولنا مطويات يمين كاتبا وهو يديرها حولنا لنقرأها علما منه أننا لن نقدر على تحريكها كأنحرك صحائفنا السوداء التي كتبناها نحن ، وفيه فصلان : (الفصل الأول) في الكلام على الآلام التي تعرض لأبدان الحيوان .
- (الفصل الثاني) في الكلام على الضرب والكسر والصدم والجرح والحرق والبرد والأمراض والأسقام وكل ما يضر الجسد ويفسده .
- ١٢ (القسم الثاني) في تفسير المّ وبيان ملخص ماجاء في (سورة آل عمران) من معاني هذه الحروف وأنها ثلاثة أقسام .
- ١٤ اعتراض على المؤلف بتكرار الأقاويل في التفسير والجواب عليه بان قصص القرآن وكلام رجال السياسة وخطبهم وجرائدهم تكون في الموضوع الواحد سنين وسنين وهكذا .
- ١٧ (القسم الثالث) من الأقسام الأربعة لهذه السورة من أولها إلى « وهو العزيز الحكيم » وهو مشكل وتفسيرها تفسيراً مجملاً .
- ١٨ التفسير اللفظي من أول السورة إلى قوله تعالى «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .
- ٢٠ لطيفة في قوله تعالى «أولم يتفكروا في أنفسهم» وذكر تاريخ (علم الأرواح) . وبيان كيفية محادثة الأرواح .
- ٢١ الكلام على تحضير الأرواح .
- ٢٣ تفسير قوله تعالى «أولم يسيرا في الأرض» تفسيراً لفظياً إلى «وأما الذين كفروا وكذبوا» .
- ٢٤ التفسير اللفظي لقوله تعالى «فسبحان الله حين تمسون» الخ . وبيان أن (١٧) ركعة هي الواجبة بالليل والنهار .
- ٢٥ تفسير بقية الآيات والبحث في معنى عجائب قوله « وجعل بينكم مودة ورحمة » وأن الزوجين يتعاشقان لمجرد الشهوة أولاً وهذا الحب مقدمة لحب أعلى منه بتربية التربية والمشاركة في نظام المنزل .
- ٢٧ تفسير لفظي لآية «ومن آياته خلق السموات والأرض» إلى «وهو العزيز الحكيم» .
- ٢٨ (خمس لطائف : اللطيفة الأولى) في قوله تعالى «ومن آياته أن خلقكم من تراب» وبيان ما أعلنه (ستلانه) و (سبنسر) أن علماء أوروبا في فلسفة النفس ومبدأ العالم عالة على علماء اليونان ، وذكر محادثة (طباوس الحكيم) إذ ذكر خلق الماء والهواء الخ وأبان أن المادة متغيرة .
- ٣٠ نظرة في موازنة (طباوس وسقراط) مع ماورد في الصلاة في ديننا .
- ٣٢ الإنسان آلة ميكانيكية عجيبة . إحصاء حركة أجزاء الجسم .

- ٣٢ (اللطيفة الثانية) في قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض . واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» .
- ٣٤ الكلام على أنواع ثلاثة من (حشرة أبي دقيق) وأشكالها .
- ٣٦ رسم (شكل ١) وفيه حشرة لاسلاح لها وهي الوزر وحشرة لها سلاح هي الأمير وقد تشابها فنجا مالا سلاح له بمشابهته بما له سلاح عند (نهر تباجوس) .
- (شكل ٢) حشرة أبي دقيق التي تعيش في أعلى نهر الأمازون
- ٣٧ (شكل ٣) الحشرة أيضا التي تعيش في أمريكا .
- (شكل ٤) الحشرة التي تعيش في أفريقيا .
- (شكل ٥) الحشرة التي تعيش بقارة أفريقيا أيضا .
- ٣٨ (شكل ٦) الحشرة الشديدة السواد التي تعيش بأفريقيا أيضا .
- (شكل ٧) أيضا .
- (شكل ٨) أيضا والجمع عيشتهن في (ملقا) وفي (بورنيو) .
- ٣٩ (شكل ٩) أيضا وهي ذات سلاح .
- ٤٠ (شكل ١٠) ثعبان لاسم له أشبه ماله سم .
- ٤١ الكلام على الطيور القلادات لتتق الحظر وهي خاتمة الأقسام (شكل ١١) .
- خطاب للمسلمين
- ٤٥ (بهجة العلم في حشرة أبي دقيق) وفي أن الطوائف الثلاث من (حشرة أبي دقيق) متعاهدات على أن يحملن سلاحا واحدا في قارات الأرض .
- درجات العقول وبيان فهمها في هذه العجائب .
- ٤٦ الكلام على الحشرات الزهرية وأشكالها .
- ٤٧ (شكل ١٢) صورة الجنذب المصلي بشكل زهرة .
- (شكل ١٣) صورة الجنذب المصلي وفريسته في قبضته .
- ٤٨ خداع الحيوان . أمثلة غريبة .
- (شكل ١٤) دغموص حشرة واقف بين العنصين الكبيرين كأنه غصن آخر .
- (شكل ١٥) حشرات تبدو كأنها غصون شائكة .
- ٤٩ (شكل ١٦) حشرة تترامى كأنها ورقة وفراشة قد أنفنت محاكاة الورقة حتى في المروق .
- (شكل ١٧) حشرات تحاكي الزهر .
- ٥٠ نور على نور في آية «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» .
- بيان أن الذئب من عالم الحشرات .
- ٥١ الكلام على اللطيفة الثانية المناسبة للطفيفة الخامسة . وفيها ثلاثة مقاصد .
- ٥٢ المقصد الأول تنوع المادة .
- (كشف علمي جديد) استخراج البترول من الفحم .
- ٥٤ تحقيق شخصية المجرم .
- ٥٥ المقصد الثاني الكلام على الحروف .

- ٥٦ الاختلاف في اللسان .
- ٥٧ حكمتان في تقارب اللغات : الحكمة الأولى فيما يعم اللغات كلها .
- ٥٨ الحكمة الثانية فيما يختص ببعض اللغات وبعض الأمم .
- ٥٩ القصد الثالث : في نظام المدارس المفهوم من هذه الآية .
- ٦١ (اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » وفيها ثلاث عجائب العجيبة الأولى الانتقال العكسي .
- ٦٤ العجيبة الثانية اكتشاف جرمية بعد عشر سنين .
- العجيبة الثالثة تشبية الحيوانات وهل هي ممكنة للإنسان .
- ٦٥ (شكل ١٨) صورة الضب الأمريكي الذي قضى ٣١ سنة وهو حي لا يأكل ولا يشرب .
- ٦٦ (شكل ١٩) سمكة متجمدة في الثلج إذا ذاب عنها عادت إليها الحياة .
- ٦٩ الحياة حتى للحب . وبيان أن الحى السكأن يعيش ألف سنة .
- ٧٠ الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه . وأوقات النوم وعدد ساعاته .
- ٧١ الكلام على فراش النوم . وتجديد الهواء في قاعات النوم والعراس والريضة البدنية وفوائدها .
- ٧٢ أنواع الرياضة البدنية المختلفة ، العموم والتجديف ، ركوب الدراجات ، المشي . الجباز والتجربيات الحربية ركوب الخيل ، الصلاة .
- ٧٣ (القسم الرابع) من السورة أوله « ضرب لكم مثلا من أنفسكم » إلى آخر السورة .
- ٧٤ التفسير اللفظي .
- ٧٧ تفسير قوله تعالى « ظهر الفساد في البر والبحر » الخ .
- ٧٨ جوهرة : في قوله تعالى « فطرت الله التي فطر الناس عليها » وفي هذه الجوهرة أربع لطائف :
- اللطيفة الأولى : في البحث عن خالق العالم والإذعان للربوبية .
- ٨٢ اللطيفة الثانية : في العلوم الرياضية .
- ٨٨ اللطيفة الثالثة : في العلوم المنطقية .
- ٨٩ التفاحة واللبن .
- ٩٠ مقاييس العقول التي تقيس بها المعاني فتعرف صادقها وكاذبها .
- الجدل ، والخطابة ، والسفسطة ، والشعر .
- ٩١ مراتب الناس في الاستدلال .
- ٩٣ (اللطيفة الرابعة) بيان فطرة الإنسان في مظاهر مخلوقات .
- ٩٦ جوهرتان : الجوهرة الأولى في قوله تعالى « ظهر الفساد في البر والبحر » . وبيان نكبة العالم من ذوات الأسنان الدقيقة .
- ٩٧ الأمراض العديدة .
- ١٠٧ سورة لقمان وتقسيمها أربعة أقسام : القسم الأول في تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » التي فسرت في سورة الفاتحة وفي سورة هود .
- ١٠٨ القسم الثاني والثالث : بيان أن معاني أسماء الله الحسنى كلها ترجع إلى ذاته وصفاته والقرآن مفصل لمعاني الأسماء ، واختصاص الله الرحمن الرحيم بالقول في هذا المقام ، وذكر الأسماء التسعة والتسعين هنا .
- فصل : في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والنحل بمعاني صفاته الخ .
- ١١٧ بيان أن الله أعظم الأسماء .

- ١١٨ تلخيص المقام كله في ثمان مسائل .
- ١١٩ موازنة بين أسماء الله الدالة على صفاته التي لانفهم إلا بآثارها في الوجود ، وبين المقولات العشر عند اليونان وأن هذه الأسماء تتأخرها العلوم والمقولات كذلك .
- ملخص سورة لقمان .
- ١٢١ القسم الثاني . الكلام على معنى «الم» .
- ١٢٢ القسم الثالث من أول سورة لقمان إلى قوله تعالى « لصوت الجير » مشكلا .
- ١٢٣ التفسير اللفظي من أول السورة إلى قوله تعالى « لصوت الجير » .
- ١٢٥ لطيفتان : اللطيفة الأولى في معنى آية «وإذ قال لقمان لابنه» .
- اللطيفة الثانية في لقمان من هو ؟ ومن أي الأمم هو ؟ الخ .
- ١٢٦ (نوادير لقمان) وذكر النادرة الأولى والثانية والثالثة .
- (النادرة الرابعة) مسألة اللسان والضيوف ، ثم إيضاحه نتائج استبعاد الأمم .
- ١٢٧ حكاية الصرار والخلة .
- ١٢٨ الحكمة في ذكر لقمان الحكيم مع أن أمره غير بين من حيث النسب .
- (القسم الرابع) من السورة أوله « ألم تروا أن الله سخر لكم » إلى آخر السورة .
- ١٢٩ التفسير اللفظي .
- ١٣١ شذرات على آية « إن الله عنده علم الساعة » الخ .
- (لطيفة) في قوله تعالى « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » الخ .
- ١٣٤ ذكر العجائب في أسماء السور كالنمل والنحل والشعراء والعنكبوت ولقمان وهكذا .
- ١٣٥ إجمال حكاية : السكب والذهب ، الجدى والتعجة والسبع ، الذهب والحروف ، الذهب والبطة ، السبع والحمار ، الحصان والذهب ، الثعلب والعنب ، الطاوس ، الغراب المقلد .
- ١٣٦ ذو القرنين والمشابهة بينه وبين لقمان وأن جهل أمته كل منهما لعرف أن المدار على صفاتهما . وبيان أن اسم ذي القرنين جاء في آثار قدماء المصريين بالكشف الحديث يرجع لقرن السكبش كثير التناسل .
- ١٣٨ الحكاية الأولى في الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج .
- ١٣٩ حكاية شجرة البلوط والسنبلة .
- (حكاية البقلة) إذ افتخرت بأن صاحبها عظم المقام فلما كبرت دارت في الطاحون .
- الضفادع وزواج الشمس .
- حكاية كلب ترك الرغيف .
- حكاية الشيخ وحمارة وابنه .
- الرجل والبرغوث .
- ١٤١ حكاية الثعبان والمبرد .
- الديك الحصى والصقر .
- ١٤٢ حكاية السكبين وجيفة الحمار .
- الصيد والطائرة .
- ١٤٣ كتاب (كليلة ودمنة) والكلام على بيدبا الفيلسوف ودبشليم ملك الهند وباب الأسد والثور والحمامة الطوقة والبوم والغريبان والفرد والغيلم والناسك وابن عرس وابن الملك والطائر فزرة وهكذا .
- ١٤٤ (الفصل الأول) أقدم كتاب في العالم .
- حكمة قدماء المصريين .

- ١٤٥ ذكر نصاب (فاتنا الحكيم) المصري وهي سبع .
- ١٤٧ الفصل الثاني نصاب الحكيم المصري (آني) وهي (٥٠) حكمة أولها الإخلاص وآخرها بيان أن الحب أعمى .
- ١٥٠ حكم الحكيم المصري (أميت بن كاتحت) وجدت في (ورقة لندن البريدية) منذ ثلاثة آلاف سنة وهي أربع وعشرون حكمة .
- ١٥١ (ورقة ليد البريدية) منذ (٢٥٠٠) سنة وهي أربع وثلاثون حكمة .
- ١٥٢ بهجة الحكمة في قوله تعالى « ولقد آتينا لقمان الحكمة » .
- ١٥٤ بهجة الحكمة أيضا في هذه الآيات .
- ١٥٥ شذرة من فلسفة الصين .
- شذرة من فلسفة الهند .
- شذرة من فلسفة اليونان .
- ١٥٦ الكلام على الخير والشر . وذكر سقراط .
- ١٥٧ محاور بين سقراط وتلميذه (سمياس) .
- ١٥٨ بيان أن أفلاطون من أهل أثينا وقد انقطع للعلم (٤٨) سنة فأبرز الجمهورية : طبقات الشعب كطبقات الجسم : زراع ، جند ، فلاسفة ، كالبتن ، الصدر ، والدماغ .
- ١٥٩ ذكر (ايقور) و (سينكا الروماني) .
- ١٦٠ (زهرة من بساتين الحكمة) وهي حكاية ملك الهند مع وزيره .
- ١٦٣ آثار الحكمة والعلم في الأمم الحاضرة
- ١٦٤ حوادث فلسطين .
- ١٦٨ (شكل ٢١) رسم جراف زبلن .
- ١٦٩ أعجوبة البحار هي (زهريجن) الألمانية .
- ١٧٠ الكلام على رحلة المنطاد زبلن إلى القطب الشمالي .
- ١٧١ قوى الطبيعة لا تنفذ .
- بيان أن الكيمياء تخلق رجالا ونساء .
- ١٧٢ الكلام على المكتب الدولي للصحة العامة بباريس .
- ١٧٤ الفلسفة العربية .
- ١٧٧ تعريف الفلسفة وتفسير معناها .
- ١٧٨ أقسام العلوم الحكمة : القسم الأول الرياضيات .
- ١٨٠ القسم الثاني المنطق بقسميه .
- ١٨٢ القسم الثالث : العلوم الطبيعية من العلوم الفلسفية العلمية .
- ١٨٢ أقسام العلوم الطبيعية .
- ١٨٣ القسم الرابع : العلم الإلهي أو السكلي .
- ١٨٥ تفسير سورة السجدة وهي (قمان : القسم الأول) في تفسير البسملة .
- ١٩٠ فصل : في بيان كمية أنواع الحيرات والشرور في هذا العالم .

- ١٩١ فصل : في بيان القصد الأول والقصد الثاني على قول الحكماء .
- ١٩٥ القسم الثاني ، السورة بنامها وقد وضع مشكلا .
- ١٩٦ التفسير اللفظي .
- ١٩٩ لطائف هذه السورة أربع . (اللطيفة الأولى) فيها نزل الأمر الإلهي ورجوع الأمر إلى الله .
- ٢٠٦ (اللطيفة الثانية) في قوله تعالى «الذي أحسن كل شيء خلقه» الخ .
- ٢٠٧ شكل ٢٢ وهو ورق شجرة مكبر أربع مرات وهو هندسي بديع .
(شكل ٢٣) نبات فيه شكل سنان الرمح .
- ٢٠٨ (شكل ٢٤) سيقان وجذور القرع مكبرة أربع مرات .
- (شكل ٢٥) نبات يسمى شعر العذراء بأمریکا يشبه قضبان الحديد التي كانت تسور الحدائق والقصور في القرن الخامس عشر .
- ٢٠٩ (شكل ٢٦) نبات شكله يشبه النجف .
- (شكل ٢٧) ورق جف على عود كأنه مقبض سيف أو حلية تنقش على الأسلحة .
- (شكل ٢٨) صورة سنان رمح من صنع الله .
- (شكل ٢٩) نبات كأنه شعبة من شعاب الماء أو كأنه حلية للنوافذ .
- ٢١٠ (شكل ٣٠) نبات كأنه حلية صليب الأسقف .
- (شكل ٣١) شجر الزيبب الأسود وهي حلية بديعة .
- ٢١١ (شكل ٣٢) نبات هو روح الرقص واسمه خانق الذهب .
- (شكل ٣٣) نبات السرخس ، وهو بحث في جذع شجرة الكثرى وفي الشكل (٣٤) .
- ٢١٢ (شكل ٣٥) قطعة من ساق شجرة الكثرى وبيان وصفها ثم الأشكال من (٣٦) إلى (٤٠) وهي عبارة عن النخلة الصغيرة والكبيرة ووصف طولهما .
- ٢١٣ إيضاح الأشكال وهي (٥) من شكل ٣٦ إلى شكل ٤٠ .
وصف هيكل شجرة النخل .
- ٢١٤ معجزة نبوية .
- ٢٢١ (للقام الثاني) في إحسان خلق أفضل الحيوان وهو الإنسان ، وفيه أن الذي يذكر هنا (٦) فصول (الفصل الأول) في جهاز التنفس وفي كيفية دخول الهواء من الأنف إلى الرئتين .
كيفية التنفس وأن الهواء يدخل الحجر فالقصبه الهوائية فالشعب الخ .
- ٢٢٢ (شكل ٤١) الرئتان والشعب والقصبه الهوائية .
- (شكل ٤٢) الحويصلات الرئوية .
- ٢٢٢ (شكل ٤٣) تركيب الرئتين .
- الفصل الثاني الجهاز الهضمي .
- ٢٢٣ (شكل ٤٤) رسم أعضاء الهضم .
- الكلام على الجلد وبيان مخازن العرق .
- (شكل ٤٥) رسم قطاع من الجلد .
- ٢٢٤ الفصل الثالث المجموع العصبي وهو المخ والمخيخ والنخاع .

- ٢٢٤ (شكل ٤٦) المجموع العصبي .
 الفصل الرابع عضو اللسان .
 ٢٢٥ (شكل ٤٧) رسم اللسان .
 (شكل ٤٨) رسم الأنف .
 الفصل الخامس عضو الشم .
 الفصل السادس في عدد الأسنان .
 ٢٢٦ (روضات الجنات) وفيه بيان أدب اللغة وأدبيات اللغة والفرق بينهما الخ .
 ٢٢٨ بيان أن هذا المقام يرجع إلى فصلين :
 الفصل الأول : الأمثال الضرورية للنفس مع الجسد .
 ٢٢٩ في قياس الجسد على نظام العوالم .
 بيان أن الإنسان مختصر اللوح المحفوظ .
 ٢٣١ طبقات جسم الإنسان وطبقات المجموعة الشمسية .
 بروج السماء ونظائرها في الإنسان .
 ٢٣٣ الكلام على القوى الخمس الباطنة .
 المقصد الثاني في الموازنة بين تركيب جسد الإنسان وطبقات العوالم السفلية .
 ٢٣٥ صفات للمعادن والنبات والحيوان كلها في الإنسان .
 ٢٣٧ كيفية نشوء الأنفس في الأجساد البشرية الطبيعية .
 ٢٣٨ (كشف واستبصار) في معنى قوله تعالى «وجعل لكم السمع والأبصار» الخ ولم قدم السمع على أخويه مع أنهما أفضل ؟
 ٢٣٩ (حكمة) في تبيان تكرار هذه الثلاثة في القرآن وأن شكرنا عليها قليل .
 ٢٤٢ كيفية استنتاج نظام علم التوحيد، ونظام الملوك والممالك . ونظام الحكماء مع أهمهم ، واحتلال القوى أرض الضعيف .
 ٢٤٣ الكلام على النظام الثالث وهو نظام حكماء الأمم معها .
 بيان أن الأمم القوية تتبلغ الضعيفة قياسا على جسم الإنسان إذا خلصت منه الروح .
 ٢٤٥ خطاب لنوع الإنسان .
 ٢٤٧ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» الخ الآية .
 ٢٤٨ اللطيفة الرابعة في قوله تعالى «أولم يهد لهم كم أهلكنا» الخ الآية وقوله تعالى «أو لم يروا أنا نسوق الماء» والأحاديث الواردة في قيام الليل .
 ٢٤٩ (بهجة الحكمة) في قوله تعالى «وأما الذين فسقوا» الخ . وبيان أن الأرض نار متجمدة وقشرتها بردت وأهلها معذبون في الدنيا عذابا مخففا .
 ٢٥٠ خاتمة السورة في مناسبة السورة لما قبلها الخ .
 ٢٥١ اعتراض على المؤلف بأن هذا ليس تفسيراً بل هو علوم وكان يكفى التفسير اللفظي الخ .
 ٢٥٢ تفسير القرآن بالرأى على وجهين .

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

لشمس علي عجمي بفتح الميم وآخرها الألف الباءة

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوي جوهرى
للمدرسة الجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
مع الله المسلمين بحمده آمين

الجزء الثامن عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة

مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر

مباشرة بميدان عسيران

« وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »

« قرآن كريم »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأحزاب

(هي مدنية)

(وآياتها ثلاث وسبعون . نزلت بعد آل عمران)

وهي ثلاثة أقسام

[القسم الأول] في تفسير البسملة .

[القسم الثاني] في مقدمة السورة ، وفي مناسبتها لما قبلها ، وفي غزوة الأحزاب من أول السورة إلى قوله تعالى « وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا » .

[القسم الثالث] في أحكام أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما أشبه ذلك من قوله تعالى « يا أيها النبي قل لأزواجك » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

سأذكر هنا تفسيرها من وجهين : الوجه الأول بيان كيف كانت الرحمة فيها ملخص سورة السجدة السابقة على هذه لتوازن الرحمة فيها هناك بالرحمة في هذه السورة وأن ذكرها في أول كل منهما لمناسبة الرحمة التي جادت في أثناء آيات السورة وما قدمناه في أول سورة السجدة في تفسير البسملة لم نذكر فيه بيان هذا المعنى ، بل ذكرنا هناك أولا الفرق بين صفة العبد وصفة الرب وضرربنا مثلا باليتروول والشمس وأبنا الرحمة في الحقول والطيور والأنعام والأشجار في البر والبحر ومعاني أسماء الله الحسنى في نفس الحقول ، وأن الانسان يدهش من عجائب المادة ، وأن الشرور كلها مقدمات للرحمات ، وأن الشرور لم تكن إلا بالقصد الثاني لا الأول ، وأن العداوات وامتلاء الجو بالمواد الفاسدة إنما ذلك ليتفرق الناس على الأرض فتسكون الحياة والسعادة هذا هو الذي تقدم في تفسير البسملة في سورة السجدة . ولما تم الكلام على سورة السجدة وجب أن نبين

كيف كانت الرحمة في البسملة مثيرة لما فيها من الرحمت والنعم ، لذلك نقول :
تقدم في تفسير البسملة في أول سورة الروم ما يتبجح به النفوس ، وتشرح له الصدور ، وتطمئن له
الألباب من الحكمة العجيبة والآيات البديعة إذ استبان هناك أن آلام الكسر والضرب وآلام الجرح والجوع
وآلام سائر الأمراض إن هي إلا مذكرات ومنهات لما يجب عمله من الدواء والغذاء .

وأقول الآن : إن ذلك البيان هناك مناسب لاعتباره قتال الأمم في تلك السورة جراحا وأمراضا لها .
وتقدم في سورة لقمان في تفسير البسملة هناك أن للعقول آلاما وأمراضا كما للأجسام فكما أن الأجسام
في ذوبان وسيلان مستمر هكذا العقول مضطربات اضطراب الأجسام ، فالجسم والروح فرسارهان في الذوبان
والملاشاة والأغذية والأدوية للأجسام والعلوم الكونية أغذية الروح وعلوم الأخلاق وتهذيب النفوس أدويتها
وهذا هو الذي جاء في سورة لقمان ، أما في سورة السجدة المتقدمة فإني أقول ما يناسب ماجاء فيها من الرحمت .
ابتدأ سبحانه بذكر أن الكتاب لاريب فيه ، وبذكر خلق العوالم في أيام معدودات . ثم إنه أخذ يدبر تدبير
الملك للمستوى على عرشه ، لرعيته العظيم الجلال فلا يعوزه نصير وليس لشفيع عنده مقام إلا باذنه ، واسع العلم
وقد استوى عنده الباطن والظاهر والغائب والحاضر ، بخلاف ملوك الأرض فهم لا يعلمون الغيب ، وهو غالب قاهر
عزير الجانب . ذو رحمة واسعة ، لم يدع في ملكه مخلوقا إلا أحسن صورته وزوقه وجندره وسواه ، ومن
أعجب العجب أن هذا الإنسان البديع الصنع ، الجميل الوجه ، الواسع العقل ، الحسن الإلتقان ، لم يكن إلا
من طين وذلك الطين عجن بماء وامتزج به الهواء والنور وعناصر كثيرة ، وبإرسال أنوار الكواكب
الشرقات وأهمها الشمس ودورانها حالا بعد حال ، سويت خلقته ونظمت أعضاؤه ، فالسماوات والأرض
المدكورات في أول السورة ودوران الكواكب بتدبير من استوى على عرشها ، ذلك كله مقدمات وأسباب
جعلت لإبداع النظام وإظهار الحسن والجمال في صور الانسان ، ومن هذه الأجسام الانسانية أخذت خلاصة
مائة بها كان النسل أجيالا وأجيالا ، ومن أبداع ما في تلك الصورة الانسانية الحواس التي جعلت في هذه
الأجسام في مقابلة الكواكب في السماء ، فالسواكب تشرق بنورها فتضيء السبل والحواس بها يمتاز الظلام
من النور والحلو من المر والطيب من الخبيث . فتدبير الملك للمستوى على عرش هذه الأكوان قضى أن يكون
في جسم الإنسان نظير ما في الجسم العام . الجسم الكلى مشرق بالنور وبالأرواح العالية وهذا الجسم الحيواني
والانسانى له مشرقات مبيئات لما هو في حاجة اليه ومن أهمها الأسماع والأبصار .

ولا عجب في ذلك فإن الأصول تتبعها الفروع ، فكما كان في الكواكب أنوار هكذا في أرضنا أنوار : إما
من الأرض بالبتروال والغاز ، وإما من النبات كالزيت ، وإما من الحيوان كالشمع والشحم ، وإما من الكهرياء
وهكذا ، فهذه أنوار جزئية تحاكي الأنوار الكلية للشمس . فهنا شابه القرع وهي الأرض أصله
وهي الشمس بعض المشابهة ، وهكذا ما في الأرض من صناعة غالبا إلا وهي في حاجة إلى آلات بدورات
كما تدور الأرض حول الشمس . الأرض تدور حول الشمس كما تدور الشمس ، وتدور حول نفسها
لتقتبس الأنوار منها ليجبا ما عليها ؛ فهكذا ترى الإنسان يدبر نواعير وسواقي ومحلات القطر الجاريات في الطرق
الحديدية ومحلات أخرى في آلات الحرث والطحن والدرس والحياطة ، وهكذا جميع أحوال الحياة آلاتها
كلها دأورات دوران الأرض حول نفسها ، فالأرض تدور لأجل استمداد الحياة لما عليها والآلات تدور
لإكمال تلك الحياة بالصناعات المختلفة ، إذن لا عجب إذا قلنا إن في جسم الإنسان والحيوان حواس مشاكلة
لما في السماء ولكن المشاكلة هنا لحواس الملائكة . ومعنى هذا أن الأرض كما كان فيها أنوار كأنوار الشمس
تضيء بالليل كالسكهرباء هكذا فيها نفوس مدبرات لها حواس مشاكلة لما في تلك العوالم الكوكبية من ملائكة

مدبرات لها ، وكل هذه المعاني تؤخذ من قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » فهناك شمس ومدورات
دائرات تدبرها أرواح عالية أضواؤها منتشرة لإيجاد وإسعاد مخلوقات على أمثال أرضنا هكذا هنا مصابيح كما
تقدم ونفوس بني آدم مدبرات وآلات مدورات دائرات لإحداث صنائع ، فالتدبير الثاني يشبه التدبير الأول
فالتدبير إذن من السماء إلى الأرض .

ومن عرف الأنوار السكائية في السموات والأنوار الجزئية في الأرض وفي جسم الإنسان فهو حري أن
يشكر مبدعهما بالعلم والحكمة أولا ثم بالعمل بحيث يكون هو نفسه مشرق نور للناس نافعاً لهم وإلا لكانت
روحه أدنى مرتبة وأخس من حاسة من حواسه التي تبين له ماهي منوطة به من الفرق بين الحر والبرد والم
والخلو الخ .

ومما يدهش له اللب ونحار فيه العقول أن هذا النوع الانساني قليل الشكر لجهله بهذه النعم وغفاته التامة
عن هذا الابداع ، وقد ظن هذا الجهول أننا خلقناه وخلقنا السموات والأرض عبثا بلا فائدة . كلا .
فالمقدمات لها نتائجها فإذا أنكر البعث فذلك لضلاله ، وسيقف هذا السكين خاضعا ذليلا خاشعا أمام خالقه
وهو كليل الطرف حسير ، وهناك يقول : ها أنا ذا أبصرت وسمعت فأرجعني لأعمل صالحا ، ولكن ليعلم الناس
أنى وضعت كلا في مركزه وجعلت له سيلا يسلكها وطريقا يسير فيها ، فالمؤمن نفسه استعدت للإيمان والكافر
لا يخالف استعداده وأنا عدل أضع كل امرئ في ما استعد له ، ولو كان هذا ظلما لكانت العدة والأحشاء في
الحيوان مظلومة بالنسبة للحواس . كلا . فلكل رتبة وخاصة بها انتظم العالم ، وللمؤمنين علامات منها أنهم
يحبونني ولذلك يودون أن تراح الأستار بيني وبينهم فذلك يقومون بالليل ليناجونى وهناك أعطيهم في حال
التهجد أنوارا وأسرارا وجبا لا يعرفه سواهم ، وقد أخفيت لهم ما لا يعلمه أحد ، بخلاف أصحاب النار وهذا قانون
عام في الأمم . ويقول : ألم تر إلى بني اسرائيل وقد كان منهم هداة صبروا فنالوا إذ أيقنوا .

فلما اطلع على هذا صاحبي العالم قال حسن ما لحصت به أكثر هذه السورة ولكن أين أهم ما يدور البحث
عليه فيها . قلت : ثلاث مسائل : تسوية خلق الإنسان وموته وبعثه ، ولا جرم أن هذه الثلاث متلاحقات
متصلات آخذ بعضها برقاب بعض . فلا أحدثك عن التسوية أولا ثم عن أخواتها ، الله أكبر ، هاهو ذا جسمي
مم ركب ؟ أمم ماركب منه الفحم والأكسوجين والهيدروجين والنيروجين وهو الأوزوت ، هذه الأربع
أعمدة تقام عليها هياكل كل حيوان ونبات في الأرض وما هو الفحم (الكربون) ؟ إن هو إلا جسم إذا
عرضناه للنار انحدم مع الأكسوجين فأصبحا جسما غازيا يشبه الهواء في أنه غاز ولا يشبهه في طبعه فهو جسم
سام محرق ، وأما الأكسوجين فهو جسم غازي يشبه الهواء من حيث هيئته ولا يشبهه من حيث
طبعه ، فادخل أى معمل من معامل الطبيعة في الشرق والغرب وقل لهم أروني الأكسوجين حينئذ يرونك
زجاجات فيها غاز كالهواء تماما . فهناك إذا أوقدت شمعة وأدخلتها في زجاجة من تلك الزجاجات انقدت
حالا وأضاءت ضوءا مشرقا وإذا أدخلت هذه الشمعة المتقدة في قارورة لاشي فيها سوى الهواء فإنها يقل ضوءها
لا أنه يزدهى كما هي الحال في زجاجة الأكسوجين ، وأما الهيدروجين فهو شفاف كالأكسوجين ولكنه
أخف منه بل أخف من جميع العناصر المعروفة ومتى انحدم بالأكسوجين تكون الماء ، وأما النيروجين
فهو مثلها معا من حيث إنه غاز شفاف ولكن خواصه تختلفهما معا . وإذا انحدم بالأكسوجين تكون من
اتحادها حوامض شديدة الفعل ومن أهمها وأعظمها (الحامض النتريك) أى ماء الفضة أى الذى يذيب الفضة
ويذيب أكثر المعادن ويميت الأنسجة الحيوانية والنباتية ، هذا هو النيروجين فهو بأتحاده مع الأكسوجين
يكون متلفا مهلكا بخلاف الهيدروجين فإنه بأتحاده مع الأكسوجين يعطى الحياة وذلك هو الماء : الله أكبر

سبحانك اللهم خلقتنا وعلمتنا من أجل التعليم ، فإذا سمعنا في الآثار أن لك ملكا نصف جسمه من ثلج ونصفه من نار فلا الثلج يطفى النار ولا النار تذيب الثلج ، فهأى ذه أجسامنا معاشر أهل الأرض فيها عناصر منها ما يهلك ومنها ما يحيى وهى مجتمعات فى جسمى ، ولا جرم أن شرط الأحياء والاماتة موجود وهو الاتحاد ، فهذه العناصر الأربعة متحدة فى جسمى . فالأكسوجين متحد بالأيدروجين وبهما معا كان الماء فى جسمى والنتروجين متحد بالأكسوجين وبهما معا ماء الفضة ، وهذا هو الكنز الذى كشفه الألمان أيام الحرب العظمى فإنهم استعملوا هذا المركب وهو (حامض النتريك) فى الفرقعات والمهاسكات فى الحرب ثم حولوا ذلك كله بعد الحرب إلى سماد .

عجبا يارب ، جسمى فيه مابى الحياة وهو الماء من أكسوجين وأودروجين ، وجسمى فيه مابى الموت وهو الأكسوجين المتحد مع النتروجين فكان منهما ماء الفضة وهو (حامض النتريك) ذلك المهلك الميت مخرب الحسون والقلاع ثم إنه يحول إلى سماد فىكون مصالحا للزرع جالبا للرزق . وهالك ملخص تلك المركبات :

- (١) الأكسوجين مع الهيدروجين يكون منهما الماء .
- (٢) الأكسوجين مع النتروجين يكون منهما ماء الفضة .
- (٣) الأكسوجين مع الفحم يكون منهما غاز سام .
- (٤) الهيدروجين بالكربون يتكون منهما غاز قابل للاشتعال .

فليس فى هذه التحدات مابى حياة إلا حال واحدة وهى اتحاد الأكسوجين بالأودروجين والبقية مهلكة سامة محرقة ، فلما اجتمعت الأربعة حدث منها أمر عجب . حدثت حياة دائمة بالتناسل والنظام المدهش ، فباعجا تسوية وانتظام وإبداع وبهجة منظر وحسن اتساق نشأ كله من مواد سامة مهلكة : إذن الحياة مشتقة مما به الموت . فبالعجب غازات سامة تتحد وتتكاثر فتصير أشكالا منظمة فيها عقول منظمة لهذا العالم ، هذه تسوية الإنسان وهذا قوله تعالى «ثم سواه ونفخ فيه من روحه» وأنا أيها الذكى بعد هذا البيان لم أعطك سرا ما من أسرار التكوين لأن ذلك السر لم أطلع عليه ولو اطلعت عليه لمعت من إفشائه لك لأنه فوق متناول العقول . فما علاقة الروح الحية للشرقة النور للنبعثة من جانب ذى الجلال القدسى بهذه المواد السامة وأى شئ هو غاز الأكسوجين والأودروجين والأوزت والفحم حتى تطمئن النفس فيها وتسكن . سبحان من علمنا وأطلعنا على عجائب أجسامنا ، أنا أكتب هذه الساعة وأنا أعجب من جسمى المجموع من أجسام هوائية غازية لا تستقر على حال مهلكة ، فيا أيها الروح الساكنة فى جسمى هاأناذا أخاطبك وأنا القائل وأنا السامع لأن لى لسانا ولى أذنين ، فأنا القائل باللسان وأنا السامع بالأذن . فأقول لك أنت لست من هذا العالم ، انه عالم مضطرب قد استقررت فى هذا الجسم المضطربة للنتبية أجزاءه ، وهل هو إلا تلك العناصر المفرقة المهلكة جنديرتها ونظمها يد قاهرة غالبية إلى حين ثم ترجع هذه العناصر إلى حالها مع جنسها ، ثم إنك أنت ترجعين إلى عالمك تستقرين هناك فسمعك وبصرك اللذان جعلاك ماها إلا بصيص نور من نورك قد أضاء لك فى الأرض ونعام نورك يكون بعد الموت ، أم تسمعى قوله تعالى «وجعل لكم السمع والأبصار» الخ وقوله حكاية عن الأرواح إذ تقول «ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحا إنا موقنون» إذن سمعك وبصرك الآن ليسا كسمعك وبصرك هناك ، فالسمع والبصر هناك يورثان اليقين لأن السمع أمم والبصر أم لانزاعهما من هذه العناصر المتشاكسة المتحاربة المهلكة .

هذه باروحى أسرار ما تحسبن فىك من لذة وألم . والألم واللذة إحساسان ناربان . تألمين بالجوع وبالعطش

وبإيذاء الأعداء وبالأمراض وتستلذبن بالعشاء والماء والنصر المبين ، وما اللذة والألم إلا لغتان من اللغات التي أنزلت في هذه الأجسام ولها نطق وإفصاح أصرح وأبين من إفصاح اللسان ، اجتمعت هذه العناصر في جسمي وأسكنت فيها فأخذت هذه العناصر تنطق لك بتلق فصيح بعد أن كانت بكاء خرساء وهي ملقاة في الأرض . فقالت لك تارة احذري البرد وتارة أخرى احذري الحر ، فأحساسك بالبرد نطق أفصح من نطق اللسان وإحساسك بالحر كذلك ، وهكذا ذوقك الطعام والشراب واستلذاذك بهما إفصاح وتبيان لك .

فهذا استبان أن كل ذلك رحمت لأنها بيان وكلام ، فاللذة كلام والألم كلام وجميع النعم والنعم واللوت والحياة كلها كلمات مفصحات مبيئات مذكرات . وأي رحمة أجل من الذكرى والبيان إن حياتنا كلها رحمة استوى فيها الألم واللذة وموتنا رحمة لإخراجنا من هذه المواد للضطربة ، هذا هو بعض سر التسمية في أول هذه السورة ، فهذه العوالم في جسمك وفي خارجه ناطقات اليوم مفصحات مبيئات ، ألم تقرني « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » هذا نوع من النطق ، نطق جاء من الكائنات بلا حرف ولا صوت ونحن نسمعه لامن طريق الأذن بل نسمعه من سائر أجسامنا .

اللهم إنك علمتنا وأربتنا نطق المخلوقات ، وأفهمتنا نورا سيرا من كتابك وفهمنا ذلك السلام الصحيح الذي أودعته في أجسامنا وفي الطبيعة وأدركننا بعض سر ما نطقت به الجلود والأيدي والأرجل إذ يقال للجلود « لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » فهاهي ذه الأشياء تنطق للبار والفاجر منا وكل يسمع ذلك النطق ولكن لا يعقله إلا الأقولون . وهذا سر قولك « قليلا ما تشكرون » .

لا يحيط بما تنطق به هذه العناصر إلا أرواح أرقى من أرواحنا القاصرة لأنها أرواح جزئية فلذلك احتجنا لمن يذكرنا من الأنبياء ومن يعلمونا من الحكماء ومن يداوون أجسامنا من الأطباء وهكذا تختص كل طائفة بعمل عسى أن يقربوا من السكال وما هم بيالغيه في هذه الأرض فكان لابد عندنا من كل علم ولا بد من طوائف تخصص لها ، كما أنه لابد بعد الموت من نفوس أعلى منا تقرأ نفوسنا وأخلاقنا وتعاملنا على مقتضى ذلك في تلك الدار بأمر خالقها وعلمها بسبب ضعفنا عن الاستيعاب لأننا محبوسون في أقباص نارية سمية منعنا عن تمام الحرية والاستقلال ، ومنا في هذه الأرض من اختصوا بدرس الجلود والأيدي فعرفوا مسامهما وخطوطهما فشهدت على المجرمين في هذه الحياة الدنيا كما تقدم في هذا التفسير . وهذا أمر شائع في جميع حكومات العالم ومنها حكومتنا المصرية . شهدت جلودنا في حياتنا الدنيا ، وشهدت خطوط أيدينا وذلك من التسوية العجيبة . أليس أمر هذا القرآن عجا ؟ يذكر التسوية في خلق الإنسان هنا ويذكرها في (سورة القيامة) في قوله تعالى « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » ويقرأ هذه الآية أحد علماء الألمان في هذه السنين فيسأل لم أسلمت أيها العالم ؟ فيجيب قائلا قرأت في القرآن المنزل على ذلك النبي العربي الأُمي « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » وقد أصبحت جميع الحكومات لا يستقر قرار الأمن فيها إلا بدراسة نظام البنان ومسامه ، ولم يجد الناس رجلين في الكرة الأرضية تتشابه أناملهما في مسامها ونظامها ، فلم يختص البنان بالذكر وعلم البنان ، لم يكن ليعرفه الناس إذ ذاك ولم تدركه الحكومات السابقة ؟ بل لو عرفوا ذلك لم يعرفه أهل الحجاز ومنهم هذا النبي الأُمي ، فهذا القول إنما جاء من مصدر أعلى من عقولنا التي في الأرض فلذلك آمنت به وصدقت . انتهى كلامه .

وهذا الإفصاح والبيان من العناصر في أجسامنا يدخل فيه جميع خواص العقاقير في الأدوية ونواميس الوجود فإذا خرجنا من هذه المادة أشرقت عقولنا وظهرت لها الحقائق على ما هي عليه كل على قدر طاقته الفاجر والصالح

وهذا قوله « ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » أى أما فى الحياة فإننا كنا محجوبين ولم ندرك سر الوجود ولذلك يقال هناك أيضا « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ويقال « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

هذه شذرة من قصة هذا الإنسان ومبدأ خلقته وأحواله وموته وبعثه ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٦ من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٩ ميلادية . انتهى الكلام على البسملة مع تلخيص سورة السجدة .

فلننظر فى الكلام الآن على تفسير البسملة فى أول (الأحزاب) للموازنة بين السورتين من حيث الرحمة التى تضمنتها البسملة وتخللت آيات السورة .

لقد تكررت البسملة فى أول كل السورة ودرج المسلمون قديما وحديثا على التسمية فى طعامهم وشرابهم ثلثمائة وألف سنة ، فترى جهلاءهم وعلماهم كبارهم وصغارهم لا يعملون عملا إلا بالتسمية ، سنة محمدية وشريعة إسلامية طلبا لثواب الله وتقربا إليه وزلفى لديه ، فتلك سنة من خير السنن ، وخصلة من أجل الخصال .

لقد تقدم الكلام على البسملة فى القاعة وفى غيرها من السور مثل (الروم و لقمان والسجدة) ولكن بقى لها بقية لا بد من تداركها . وحكمة يجب إظهارها ، ونعمة حق على إبدائها لهذه الأمة للسكينة المضطهدة لفسو الجهالة وظهور الحطل فى آراء عامتها ، والغفلة فى نظام دراستها ، والنوم على التقليد الأعمى ، وتغيؤ ظل الكسل والجهل اللين الذى هو من محموم لبارد ولا كريم . أبت النبوة المحمدية الشريفة أن تفرنا نتخبط فى ديجور الظلام فعملتنا أن الأعمال لا تصح إلا بالنيات وأن لكل امرئ ما نوى ، وما هى النية ؟ هى رغبة العلم ووليدة الفهم فمن تعلم فهم ومن فهم أحب ومن أحب السكال ومحاسن الفضائل شاقته ومن اشتاق هم بالعمل ونواه وهناك تكون الأعمال على مقتضى تلك النيات والمعارف السابقة ، فليس فى مجرد التسمية بلا علم بمواطن الرحمت ومحاسن الجمال فى المخلوقات وبهجة العوالم الربانية والآيات الحكيمية والابديع وحسن التصوير والتنسيق ، منتهى مقاصد النبوة ولا مبلغ ما تريده من العلماء العاملين . لأن اكتفينا من العامى فى صلاته وصيامه ومأكله ومشربه بالتسمية والحمدلة اللفظيين لنقولن لعلماء الأمة وعقلائها ونابغها ليسكن المدرس وأعمال الفكر ومعرفة الجمال فى هذه العوالم حتى توقنوا بالرحمت إيقانا علميا تفصيلا كالذى فى هذا التفسير .

علم الله أن المسلمين سينامون نحو ألف سنة عن التفكير فى مخلوقاته وينسون جميل صنعه فأنزل البسملة فى أول كل سورة وكررها مائة وأربع عشرة مرة فى القرآن ويكررها المسلمون فى صلاتهم ققرأناها تعبدا وقلنا كفى . لاتفهم الأمم بمجرد الكلمات وإنما قيامها بما تضمنته من المعانى وماحوته من حكمة ومعنى جميل لما وقف أكثر المتقدمين من العامة وصغار العلماء على القشور وحجودوا على الألفاظ جمودا معينا نسي أكثر الناس فى العصور المتأخرة روح معنى التسمية واكتفى الخطباء على المنابر والوعاظ فى المساجد بذكر نعيم الجنة وعذاب جهنم حتى استقر لدى كثير منهم أن ربنا نجب العبادة له خوفا من ناره وخشية من سطوته فحسب لا جبا فيه ولا ابتهاجا برحمته الواسعة فأصبح المسلم إذ ذاك ما بين حاكم يسطو عليه لإخافته مثل ما حصل بمصر أيام المماليك البرية والبحرية وغيرهم من أبنائهم الذين فتكوا بأبناء البلاد أيام حكم الترك إلى أن أبادهم محمد على باشا ، وما بين خطيب لا يجد سيلا للوعظ غير جهنم فى الآخرة بحيث لا يرى ما أمامه من الرحمت ولا ما حوله من النعم التى أسبغها الله على الإنسان والحويوان ، وما بين المعلم والوؤدب الذى يضربه بالعصا أيام

التعليم . ياسبحان الله إن الأمة أيام تهقرها يكون أسلوبها في الدين وفي الحكومة وفي نظام التعليم على وتيرة واحدة ، فلقد صور الحكومات عن تمام النظام لا نجد لها مناصا من الاضطهاد ، ولجهل العلم لا يعرف غير العسا والسوء الملكة وقلة العلم يقتصر الوعاظ في أكثر أقوالهم على التحذير من عذاب جهنم وبئس القرار .

علم الله ذلك لأنه قدره قبل أن يخلق العالم فأنزل البسملة في أول كل سورة وعممها بالسنة الشريفة الحمديّة ليقول لنا اليوم :

[أيها المسلمون . لأن كنت أنا ذا رحمة وغضب في الآخرة بالجنة والنار لقد أسبغت النعم عليكم في الدنيا ظاهرا وباطنا وأحطتكم فيها بالمتنذرات والخواف والآخرة في نعيمها وجحيمها نتيجة حياتكم هذه فمن غفل عن رحمتي الواسعة في الدنيا وجهل ما أحطته به من الجمال والنعم فإني عدل حكيم أذله في الدنيا جزاء وفاقا ، وليس هذا الاذلال للانتقام . كلا . وإنما هو نتائج . ألم تقرأوا « ويعطى كل ذي فضل فضله » فكيف أهب رحمتي لمن لم يكن أهلا لها . بل كيف أسبغ نعمتي على من لم يطلبها ؟ ولا طلب إلا بنية ، ولا نية إلا بالعلم ، فالعلم بالخلوقات حولكم يجعلكم لها عاشقين والعشق تتبعه نية التحصيل والنية يتبعها العمل] .

هذا سر من أسرار تكرار البسملة في أول كل سورة ، وإنه ليخيل إلى الآن أن عقلا كبيرا من العقول العظيمة في البرزخ اطلع على هذه الأمة الإسلامية فقال عجبا أليس في هؤلاء رجل رشيد ، كرر الله البسملة وكررها عامتهم وخاصتهم ، ألم يتفكر منهم رجل في حكمة هذا التكرار ، أليس التكرار لعظم المقدار والحاجة إلى هذا المكرر ، تكرار القرآن ليس كتكرار كلام البشر . فأين الباحثون عن حكمته ؟ هنا كررت آية « ويل يومئذ للكافرين » في (سورة المراتل) . ذلك لأن جرم التكذيب عظيم . وكررت آية « فأبى آلاء ربكما تكذبان » في (سورة الرحمن) لأن أمر النعم عظيم وهو كتكرار البسملة في أول السور . تهويل العقاب على التكذيب ناسبه تكرار الآية للتقدمة وجمال النعم والرحمات عظمت العناية بها في (سورة الرحمن) وغيرها فتكررت آية الآلاء وجعلت البسملة في أول كل سورة من القرآن .

رتب الإمام الشافعي رضي الله عنه أعضاء الوضوء كما رتب في الآية وهذه دقة في الملاحظة واستمساك بالدين ، فهل في خطة الانصاف ومهيح العدل ونور العقل أن يعرض أوائلنا هذا الحرص على آية التنزيل حتى إهمهم بوجود فرائض لأمر معنوي وهو التقديم والتأخير . ثم إننا نحن للتأخير نرى آلاء الله قد عمدت السكرة الأرضية ونسمع البسملة وآية الآلاء تكرر تكرارا كثيرا ثم لا تفكر في الحكمة ولا تقول لماذا هذا التكرار ولم يقف مسلم عالم من أهل الاسلام يوما ويقول تقديم وتأخير في آية الوضوء أنتج وجوبا شرعيا ، وتقديم وتأخير في آية ذكر الله فيها المهاجرين والأنصار احتج بها أبو بكر الصديق يوم سقيفة بني ساعدة وقال « أسدنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فنحن المهاجرون وأتم الأنصار ، فنحن الأمراء وأتم الوزراء الخ » وبني على ذلك أمرا واقما وهو خلافة الخلفاء الأربعة والأمويين والعباسيين وبنو الحسن والحسين وغيرهم من آل البيت وبقية قريش . كل ذلك لتقديم وتأخير . يحصل هذا كله أيام آياتنا الأولين . ثم إننا اليوم نسمع البسملة تذكر فيها الرحمة مكررة مرتين وفيها كلمة الرحمن التي لا تطلق إلا على الله . ونسمع آية سورة الرحمن للسكرورة . ومن عجب أن آية الآلاء المسكرورة عشرات المرات لم تكن إلا من السورة المعنوية باسم (الرحمن) والرحمن المذكور في البسملة . إذن هذه النعم المذكورة في (سورة الرحمن) إيضاح لمعنى البسملة كأن الله يقول البسملة المسكرورة في غدوكم ورواحكم تفسيرها يكون بنعمي ، وابتدأها بأعظم نعمة وهي :

(١) تعليم القرآن ، فأعظم نعمة إذن هو العلم .

(٢) ثم خلق الإنسان والشمس والقمر والنجوم والشجر والسماء والأرض والفاكهة والنخل والحب والشارق والمغرب والبحار واللؤلؤ والمرجان والفلق في البحر .

يا عجباً . أيها المسلمون . أليست هذه النعم في [سورة الرحمن] والرحمن اسم من أسماء ثلاثة في البسملة فوا أسفاه على أمة ضاعت ودول هلكت ونعم ذهب . الرحمة التي في البسملة فصلت في [سورة الرحمن] ولقد ابتدأها الله بنعم الدنيا ثم أتبع ذلك بنعم الآخرة ، وتخلل ذلك التخويف بالعذاب في آيات قليلة ليدلنا أولاً أن نبتدىء بتعليم الناس هذه النعم الدنيوية مثل ما في هذا التفسير . أقول أنا بأعلى صوتي أيها المسلمون يجب وجوباً لا شبهة فيه أن أول تعليم الملم من الآن يكون في كتب يذكر فيها جمال هذه العلوم بحيث يلد الطالب منظرها وجمالها من شجر وحجر وكوكب ونهر . هذا واجب في الكتب وفي الحقول وعلى شطوط الأنهار كما أنزل الله في [سورة الرحمن] ففي سورة الرحمن ذكر الله نعم السموات والأرض والبحار وليس معنى هذا أن نكتفي بمعاني هذه الآيات . كلا . وإنما المقصد أن ندرس علوم السموات والأرض بهيئة جميلة لاسمها لأطفالنا الصغار ، لا أننا نقول لهم أيها الأطفال الساكنين احفظوا سورة الرحمن ونحوها بحسب بل نريهم صور ما ذكر الله من الجمال والبهاء والأزهار والأنهار ونفهمهم ذلك بعبارة رشيقة جميلة ثم نتبع ذلك بذكر الآية وإذن نكون أدينا ما وجب علينا . الله أكبر . أفليس تكرار البسملة في أول السور وتكرار آية الآلاء في [سورة الرحمن] وسرد نعم الدنيا أولاً ثم نعم الآخرة في نفس السورة التي ابتدئت بالرحمن . ثانياً أقول أليس ذلك كله يوجب علينا أن نفعل ما تقدم في تعليم الناشئين ويكون ذلك الوجوب أئزم وأئزم بحسب الدليل وبحسب النتيجة من وجوب ترتيب أعضاء الضوء ومن وجوب كون الأمراء من قريش اللذين استنتجنا من مجرد التقديم والتأخير وإذا وجب ذلك اليوم بهذا الدليل فليس لنا فضل في استنتاجه لأنه آيات واضحات لا يعوزها إعمال فكر . في آيات [سورة الرحمن] مسندت إلى ذلك الاسم الذي في البسملة يكرره المسلم صباحاً ومساءً في غدوه ورواحه . فأما أبو بكر رضي الله عنه والشافعي فقد أتيا بما يدق عن الأفهام لعظم منحة الله لهما ، والله ذو الفضل العظيم .

اللهم إنك أنت الذي صرفت عقول الأمم الإسلامية المتأخرة المتفرقة في الأرض بعد القرون الثلاثة التي هي خير القرون عن الحطة المثلثي في التعليم التي يقتضها القرآن لأنك عدل ، فانك أبحت الغنائم لهم ليصرفوها في منافع أهل الأرض ، وحاد الخلف عن طريق السالف الصالح فلم يفعلوا ما فعله أبو بكر وعمر وعثمان وعلى من التجافى عن المال والزهد فيه وصرفه في مصارفة الحقبة وهي إسعاد أهل الأرض ومهارتها لأنهم خلفاؤه فيها . وعكف الدين سوا أنفسهم خلفاء بعد تلك القرون وكذلك الأمراء التابعون لهم على الحر والفسوق وأشاعوا ذلك وأذاعوه في أواخر دولهم في الشرق وفي بلاد الأندلس في الغرب . لذلك صرفت عقول العلماء عن هذه البحوث العالية غالباً لأن الأمم التي تقرأ العلوم الأرضية والسموية تفتح لها أبواب الرحمة على مقدار ما يتعلمون ويعملون . فأعطينهم نعماً علية وعملية على مقدار أخلاقهم ولم تفتح الباب لهم على مصراعيه لئلا يستبدوا بعبادك فانطبق على كثير من متأخريهم آية « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » ، وعادوا في ذلك حتى أحرق (علي بن تاشفين) من المرابطين كتب الغزالي وآذى المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الرابع من خلفاء الموحديين ببلاد المغرب ابن رشد . ذلك الذي نادى بأعلى صوته بين المسلمين يقول [أيها المسلمون . علم التوحيد على هذا النمط ضار بكم أجمعين لماذا حدثم عن طريق القرآن الذي وصف هذه الأفلاك والأشجار ، وما هذه الطرق العقيمة في التوحيد ،

وهل من جادة الصواب أن يكون التعريف أخفى من العرف والله يدركه العاى بغيريته . وهذا التوحيد المزوج بالفلسفة الصعبة يشكك السلم فى دينه [ثم أخذ ينشر آيات من القرآن من [سورة النبأ] ليدلهم عن طريق التوحيد الحق . وقد نقلت ذلك بالتطويل فى كتابى [نظام العالم والأمم] فأقرأه هناك .

فهذا العالم المخلص للأمة الإسلامية هو وأمثاله اضهدم المسلمون ، فلما مات بعد أن أخرج من محبسه بسنة طلق المسلمون علوم الحكمة وصاروا غالباً صوفية ذوى وجدان منذ سبعة قرون . ذلك أن تلاميذ ذلك العالم حملوا علمه إلى أوروبا كما أوضحته فى غير هذا المقام من هذا التفسير حتى إننا نحن الآن قد حرماننا أكثر كتبه فإنا وإن عثرنا على خمسة كتب مطبوعة بالعربية مثل (التهافت) و(فصل القال) و(الكشف عن مناهج الأدلة) والقسم الرابع من كتاب (ما وراء الطبيعة) و(بداية المجتهد) فإنا حرماننا من كتبه التى باللاتينية أو العربية وهى (٢٨) كتاباً كلها فى الحكمة ذكرها الأستاذ (لطفى جمعه) المسمى فى كتابه (تاريخ فلسفة الإسلام فى الشرق والغرب) لا نطيل بذكرها . انتشرت كتبه فى أوروبا إذ ذلك وأخذ القوم يدرسونها ثم انتقلوا من هذه الكتب إلى أصولها وهى باللغة اليونانية ثم ارتقوا بعد ذلك فأخذوا يفكرون بقولهم ويستنتجون من نفس الطبيعة . الله أكبر هذا مقصود القرآن وهذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ترك متأخرو المسلمين النظر فى جمال الله ولم يسمعوا نصح حكماهم فهربت الحكمة إلى أوروبا ففعلوها وفهموها وانتقلوا إلى أصولها فى اليونان ثم إلى الأصل الحقيقى وهو هذا العالم الذى خلقه الله فرتبوا تعاليمهم على مقتضاه ودرسوا الصبيان فى مدارسهم على مناهج هى عينها التى ذكرها الله فى سورة الرحمن وهى الآلاء أى آلاء الله فى الأرض والسماء من شجر ونبات ونهر وحجر ونجم . فهذا هو الذى يدرسه الأمريكى والانجليزى والألماني والمجرى واليونانى والصينى الآن . لماذا هذا كله ؟ لأنهم فكروا فى الدنيا ، ولماذا لأنهم اطلعوا على أصول فلسفة اليونان التى بقى عليها فلسفته ابن رشد ، التى استثرت من مكانها بسبب ظهور خاتم الأنبياء الذى أرسل رحمة للعالمين . يا حيا . نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فهو رحمة لأنه علمنا وتعليمه آثار فلسفة أهل الأرض وامتدت الحركة العلمية إلى وقتنا الحاضر فقرأنا كتب أوروبا فوجدنا تعليمهم على مقتضى [سورة الرحمن] . فأقرأ أبها الذى كتبهم تجدها كسورة الرحمن التى هى فى الحقيقة كيان لاسم الله الرحمن الذى يتبرك بها المسلم كل صباح وكل مساء ، فهو صلى الله عليه وسلم رحمة من الله الرحمن الذى علم القرآن وشرح فى نفس هذه السورة عجائب السموات والأرض .

إنى وأنا وأنا أكتب هذا القول فى غاية العجب ، فوالله لم تسكن هذه المواقف وعجائب الحكمة القرآنية لتخطر لى عند ما أمسكت بالقلم ولكن الله عز وجل هو اللهم المتفضل ، بأمثال هذا عرفت أن فى القرآن من السر ما لم تعلم به الآن « إن ربي لطيف لما يشاء » .

ومن أطف ما فى القرآن والعبادات أن الفاتحة مبتدأة بالثناء على الله وذكر رحمته وهو كابتداء [سورة الرحمن] والرحمات المفصلة فيها ، وتجد السلم فى التشهد يصلى على نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى إبراهيم ليكون ذلك أولاً مزرعة للثواب الراجع للعباد من طريق العبادة للخاصة والعوام وتذكرة عند العلماء بأعجاز إبراهيم الذى فطر السموات والأرض بعد نظره فى الكواكب ، فهو على منهج [سورة الفاتحة] نظر أولاً وعبادة آخراً ، وبهذا كسر الأصنام وهذه اللثة ملة إبراهيم ولذلك درج على طريقه نبينا صلى الله عليه وسلم فكسر الأصنام ، فهذا تذكرة بأمرين : الابتداء بحاسن الطبيعة كالخليل ونبذ العادات الجامدة والارتقاء بالعقل كالخليل ومحمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ تلخيص ما تقدم ﴾

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحب العالم الذي اعتاد مناقشتي في التفسير فقال لقد أجدت فيما شرحت هنا فإني قد أثبت أن النظام عند متأخري المسلمين كان استبداديا غالبا، فظلم من حكمهم وجهل من خطابهم وغباوة من صغار العلماء، يضربون صغارهم بالعصى وأن هؤلاء لم يفتحوا لكثير منهم باب الرحمة على مصراعيه لأنهم حادوا عن طريق آباءهم لأنهم جعلوا أن حكم الأمم لشهوات أنفسهم، وأنهم نادوا في الجهل حتى أذلوا حكماءهم. وأن ابن رشد أفاد كيف يتعلم الأطفال في مدارسهم وأن تعليمه على نمط القرآن وأن عمله انتقل إلى أوروبا ولما قرءه فهموا وقرءوا أصله باليونانية ثم فكروا بأنفسهم، وهما هي ذمة تعاليمهم الآن أصبحت هي نفس ما طلبه (ابن رشد) من المسلمين بقرأة هذه العوالم المحيطة بأهل الأرض وهي نفس ما جاء في سور كثيرة ومنها سورة الرحمن، والله تعالى جعل النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وهذه هي الرحمة العامة إذ تتعلم أوروبا الآن وأمريكا واليابان بالطريقة الحديثة بسبب ابن رشد وغيره من المسلمين الذين لولاهم لم يرجع هؤلاء القوم إلى كتب اليونان ولا إلى العقل الإنساني والاجتهاد الفردي وهذه من أجل المعجزات في زماننا. وكل هذا تقتضيه البسمة ولماذا تكررت في سور القرآن وما فعلوه موافق لما فهمته أنت الآن من وجوب ابتداء التعليم شرعا في الإسلام في كتب جميلة فيها صور العوالم السماوية والأرضية تبيانا لمعنى سورة الرحمن وسورة النبأ وغيرها وهذه الكتب تكون فيها مواضيع مختلفة جميلة يفرح بها الشبان ثم يخرجهم الأساتذة فينظرون نفس هذه المناظر بأنفسهم في الخلوات وشطوط الأنهار والحقول. هذا يؤخذ من كلامك، ولقد جعلت لك في ذلك إمامين أبا بكر الصديق رضي الله عنه والشافعي بما استنتجا من تقديم وتأخير (مسألتين) سياسية وعملية وأثبتت أن ذلك أنت لا يعوزه طول تفكير لوضوحه. أما دليلاهما ففيهما دقة لا يعرفها إلا من على شاكلتهما.

أقول، والله إن هذا كله حسن ونعمة عظيمة لأن المسلمين اليوم هم الأمة الوحيدة في العالم التي تباعدت عن طريق كتاب الله تعالى في أساليب التعاليم، وأنا أقول والله ما من عالم أو أمير أو عاقل في أمة الإسلام يقرأ هذا إلا وهو يسارع حالا إلى هذا النظام لأن هذا القول حجته قائمة ونتائجه واضحة ولكني أسألك سؤالا: الأول أنك قلت إن الفرنجة لما قرءوا فلسفة [ابن رشد] رجعوا إلى أصلها باليونانية، والرجوع لليونانية جعلهم ينظرون بمقولههم. فهل الرجوع لمثل هذه الأحوال لا بد منه. الثاني: أنك قلت إن كتب الفرنجة في تعليم أطفالهم جميلة ترجع إلى سور القرآن بوجه عام وإلى [سورة الرحمن] بوجه خاص وهي مبتدأة بالرحمة المذكورة في البسمة التي كلامك الآن فيها، وأن من قرءوا على هذا النمط يفتح الله لهم أبواب رحمته في الدنيا على مقتضى ما وصلوا إليه، فأريد أن تذكر نموذجا من كتبهم، نعم إن المقام طال ولكن المقام يحتاج إيضاحه إلى إجابة على هذين السؤالين. فقلت أما رجوع الفرنجة إلى الفلسفة اليونانية فهو واجب على كل من قرءوا الفلسفة العربية. فقال ولماذا؟ قلت لأن كتبهم كثيرة وعلماءهم أكثر والترجمة يدخلها التحريف بل التخريف، فلذلك وجب الرجوع إلى أصل اليونانية على من درس الفلسفة بالعربية متى أمكن ذلك في ذلك الزمان. فقال هل تذكر مثلا واحدا مما جاء في العربية ضارا بالعقول مع أنه باليونانية كان نافعا. فقلت أظن أن هذا يخرجنا عن الموضوع. فقال ولكن هو حسن ومفيد الآن. فقلت أنت تعلم أن الفلسفة التي نقلت إلى العربية من اليونانية قد جاء فيها إن العالم قديم. فقال هذه محور فلسفتهم فقلت: هذا من مخزيات الدهر. فقال وكيف ذلك. قلت ألم تقرأ ما ذكرته سابقا عن طليباوس الحكيم مع سقراط فإنه برهن على أن العالم حادث مع أن الرجل قبل الميلاد بخمسة مائة سنة. ولو أن هذا القول نقل

إلى اللغة العربية لم يكن هذا الخلط في علم التوحيد والجدال ، ولم نسمع أبا العلاء يقول وهو لا يعلم برهان طيباوس ما معناه :

قالوا إله بلا مكان ولا زمان ألا تقولوا

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

فقال إبي والله هذان البيتان أسمعهما من جميع الشبان في الأندية ومحال شرب القهوة والخمر والمطاعم الفرنجية في مصر والشاب منهم معجب بملابسه ومأكله الفرنجية وفسوقه وخمره فهو فرح طرب لأنه عثر على كثر عيين وهو أن الديانات كلها خاطئة بسبب هذين البيتين . فقلت ولكن هذا القول الذي قاله علماء التوحيد هو نفسه الذي قاله طيباوس فيما تقدم وقد رأيتنا نحن في كلام الفرنجة الذين اطلعوا على الفلسفة باليونانية . ألم تر إلى طيباوس فيما تقدم كيف يقول [إن العالم حادث] والله لم يكن في زمان ولا في مكان لأن الزمان ماهو إلا بحركات الفلك فإن الليل والنهار نعرفهما بالشمس ولا شمس ولا قمر قبل خلق الأفلاك وهكذا لا مكان لأن المكان ماهو إلا سموات وأرضون ولا سموات هناك ولا أرضين . وهذه المسألة أصبحت اليوم معروفة لأن علماء العصر الحاضر كلهم أجمعوا على أن هذه العوالم كلها كانت غازا منتشرا ثم صارت سموات وأرضين . فرأى طيباوس هو رأى علماء العصر الحاضر . إذن كون الله لا يحكم عليه زمان وليس في مكان قضية واضحة ظاهرة لأنه لم يكن زمان قبل هذه الأفلاك ولا مكان . إذن هذان البيتان اللذان جعلنا للتسليم والسخرية خاطبان خياليان والعقل هو الذي يحكم على أرباب الخيال . فلولا اطلاع القوم على آراء اليونان باللغة اليونانية لم نعرف ماذا قالوه وبه أدركنا الحقيقة ودفننا تلك الآراء التيهية التي يتسلى بها صغار العقول من الشبان والشابات في بلاد الإسلام . هذا جواب سؤالك الأول .

وأما نموذج كتب المطالعة لأطفالهم تطبيقاً على ما تقدم وموافقة للقرآن ولسورة الرحمن وللبسملة ليكون نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . فإن ما تقدم في هذا التفسير فيه غنية لأولى الألباب . وسترى في [سورة يس] عند آية « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون » رسم ورقة شجرة وكيف كان فيها آلاف وآلاف آلاف من الفتيات ونحتها ما يشبه الحجرات . وأن الحيطان الشفافة والسقوف المرصوفة بما يشبه اللبنة في أبنيتنا المعتادة . وفي وسط تلك الحجرات مادة سائلة يعوم فيها مادة خضراء تلون تلك السقوف . فهناك ستشاهد تلك الحجرات البهجة التي تعد بمثابة الألوف في الورقة الواحدة وترى أن الورقة هي رثة النبات وإبداعها في غاية الاتقان والجمال والغرابة فكيف تكون عشرات الملايين منها في شجرة واحدة ؟ ثم كيف تكون هي معدة لتغذية الشجرة بالمواد الكربونية على شريطة أن يساعدها ضوء الشمس .

فلما سمع صاحبي ذلك قال هذا أمر عجيب جدا ولكني الآن أسألك في أمر غير هذا . أسألك في نفس كتب الأطفال ، وأما هذه فإنما هي تعاليم الكبار تناسب أمثال هذا التفسير فلنرجئها إلى أن نطلع عليها في [سورة يس] فقلت هاك نموذجاً وهو كتاب صغير يسمى (القراءة للوكية) كان يدرسه التلاميذ في بلادنا المصرية في عهد الاحتلال على أساليب تعاليمهم في بلادهم . ولست أذكره إلا على سبيل المثال فإني أريد أن توضع كتب الدراسة في بلاد الإسلام بعد الدرس والتحجيص من ذوى العقول الكبيرة الذين اصطفاهم الله من قراء أمثال هذا التفسير . فهناك مواضع ذلك الكتاب بحسب ترتيبها .

(١) العنكبوت (٢) الصي والعصفور (٣) الأرنب (٤) العنزان (٥) التسكير في الاستيقاظ من النوم (٦) النحل (٧) نظم في النحل (٨) الأوز (٩) قل الصدق (١٠) أنعم صباحاً أيها الطائر (١١) الذئب

(١٢) صدى الصوت (١٣) أنعم صباحاً أنعم مساء (١٤) القطوطاثر الكناري (١٥) الزنبار والنحلة (١٦) الحصان
 (١٧) السكب والمصباح (١٨) معلومات عامة نافعة في الحيوان (١٩) الجمل (٢٠) تاريخ كلب (٢١) القانون
 الذهبي (٢٢) الحمار (٢٣) قصة النعجة والحمل ولدها (٢٤) الدب الأحمر (٢٥) الأسد والفأر (٢٦) الحروف
 (٢٧) الغراب والابريق (٢٨) الجندي والحصان (٢٩) الدب الأبيض (٣٠) الثعلب والعنز (٣١) معارف نافعة
 (٣٢) الدب في المدرسة (٣٣) القيطس ، وهو حوت عظيم جدا (٣٤) الأرنب والسلحفاة (٣٥) السريع
 والبطيخ (٣٦) الصبي والحوخ « البرقوق » (٣٧) العصفور الدوري (٣٨) الأسد (٣٩) النمر (٤٠) الفهد
 (٤١) حمار الحبشة (٤٢) المعادن (٤٣) الأطفال (٤٤) الملك والملسكة (٤٥) طائر بحري (٤٦) نبات
 الشاي والقهوة .

هذه المواضيع هي مواضيع الكتاب الانجليزي المذكور ولم أترك منه إلا عدد الأصابع لعدم أهميته .
 فهذا أنها الأخ هو النهج الذي نهجه القوم في مدارسهم لأطفالهم بحيث يشرحون الحيوان أو النبات ثم
 يستخرجون بعض حكمه كأن يذكرهم بنشاط النحلة واتسكال الأرنب على سرعة جريه واجتهاد الساحفة
 وكأن يذكرها عند ذكر عوم صغار الطيران الله هو الذي علمهن بلا أساتذة وهكذا فلا يتنون كتابا صغيرا
 مثل هذا حتى يكونوا قد علموا مبادئ العلوم بحكايات ومناظر مشوقة وأحبوا الحيوان والبحث فيه وعكفوا
 عليه وتعلموا أخلاقا مما يذكرهم به المدرسون .

فلما سمع ذلك صاحبي قال لقد أحسنت بما إحصان وشرحت صدرى ، ولكنى أسألك آخر سؤال ، وهو لم
 اخترت هذا الموضوع في هذه السورة في تفسير بسملتها . فقلت إن في هذه السور آية « ما كان محمد أبا أحد
 من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وفيها آية « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا
 وداعيا إلى الله بأذنه ومراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » وفي سورة التوبة أنه صلى الله
 عليه وسلم « بالمؤمنين رؤوف رحيم » فهو ﷺ رحيم بالمؤمنين وسراج للناس منير ، وأول السورة بسم الله
 الرحمن الرحيم . فالله رحمن رحيم وهو ﷺ رؤوف رحيم بالمؤمنين ، بل هو خاتم الأنبياء مرسل للناس قاطبة
 وباب رسالته مفتوح لجميع الأمم فيكون لهم رحمة . فتفسير الرحمة في هذه السورة بإظهار العلوم الخزونة في
 خزائن الأمم الأوروبية منذ أيام اليونان ونشرها بين المسلمين وتعليم المسلمين للأوربيين ثم تنقيح هؤلاء لها بالبحث
 ثم رجوعها ثانيا لنا الآن لنستيقظ بعد نومنا العميق . كل ذلك رحمة بنا نحن للمؤمنين بل رحمة بالعالم قاطبة
 فهو آية أخرى يقول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فقال صاحبي : هذه رحمة للناس صلى الله عليه وسلم فأريد الساعة أن تذكر لي رحمة بالحيوان حتى يعلم
 المسلمون أن درس المسلمين على منهج يقرب من المنهج المتقدم خير وأعظم .
 فقلت جاء في كتاب [تيسير الوصول إلى جامع الأصول] مانصه :

كتاب الرحمة : وفيه ثلاثة فصول

(الفصل الأول : في الحث عليها)

عن ابن عمر بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الراحمون يرحمهم
 الله تعالى . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء . الرحم شجرة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن

قطعها قطعه الله تعالى» أخرجه أبو داود إلى قوله من في السماء والترمذي بنامه (الشجنة) بكسر الشين المعجمة
وفتحها بعدها جيم : القرابة المشتبكة كاشتباك العروق .

وعن جرير رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» أخرجه
الشيخان والترمذي . وفي أخرى لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم
«لا تزرع الرحمة إلا من شقي» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله عنهما
وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم قال من لا يرحم لا يرحم» أخرجه الحجة إلا النسائي . وزاد رزين «أو أملك إن كان
الله تزرع منكم الرحمة» .

﴿ الفصل الثاني : في ذكر رحمة الله تعالى ﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما قضى الله الخلق ، وعند مسلم :
لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي» أخرجه الشيخان
والترمذي . وعند البخاري رحمه الله في أخرى «إن رحمتي غلبت غضبي» وعند الشيخين في أخرى «سبقت
غضبي» .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده
تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن
ولدها خشية أن تصيبه» أخرجه الشيخان والترمذي .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله مائة رحمة ، فمنها
رحمة يتراحم بها الخلائق بينهم وتسعة وتسعون ليوم القيامة» أخرجه مسلم . وله في أخرى «إن الله تعالى خلق
يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة واحدة
ففيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكلها الله تعالى
بهذه الرحمة» .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسي فاذا امرأة من
السي تسعى قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا في السي فأخذته فأزفته يطنها فأرضته . فقال صلى الله عليه وسلم
أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه؟ قال فآله تعالى أرحم
بعباده من هذه بولدها» أخرجه الشيخان .

﴿ الفصل الثالث : فيما جاء من رحمة الحيوان ﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه
العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الترى من العطش . فقال الرجل لقد
بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب
فشكر الله تعالى له فغفر له ، قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال في كل كبد رطبة أجر» أخرجه
الثلاثة وأبو داود . وفي أخرى «إن امرأة بغيا رأته كلبا في يوم حار يطيف بيثر قد أدلع لسانه من العطش
فترعت له موقفا فغفر لها به» لثت الكلب وغيره : إذا أخرج لسانه من شدة العطش والحروك كذا أدلع لسانه ،

والثرى : التراب الندى والمراد هنا التراب مطلقا ، والسكيد الرطوبة : كل ذات روح ولا تكون رطبة إلا إذا كان صاحبها حيا ، والبغى : المرأة الزانية ، والموق : الحف .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه الشيخان ، (خشاش الأرض) هو امها وحشراتنا .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما ، قال « كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل ، فدخل حائطا لرجل من الأنصار فاذا فيه حمل ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت ، فقال من رب هذا الجمل ؟ فقال فق من الأنصار هو لى يارسول الله ، فقال أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ؟ فإنه شكى إلى أنك نجيعه وتدبته » أخرجه أبو داود ، الهدف : ما ارتفع من الأرض من بناء وغيره ، وحائش النخل : نخلات مجتمعات ، والحائط : البستان . وذفرى البعير : اللوضع الذى يعرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران وما ذفريان ، وتدابه : تتبعه بكثرة استعماله .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتتخذوا ظهور دوابكم منابر إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض فعليا فاقضوا حاجتكم » أخرجه أبو داود . (شق الأنفس) جهدها وشدة ما تلاقيه عند مقاساة الأمور الصعبة .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضى الله عنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأينا حمرة معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من نجح هذه بولسها ردوا ولدها إليها ، ورأى قرية عمل قد أحرقناها فقال من أحرق هذه ؟ قلنا نحن ، قال إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » أخرجه أبو داود .

(الحمرة) بضم الحاء المهملة وتشديد الميم : نوع من الطير فى شكل العصفور ، وقوله (تعرش) بالعين المهملة والشين المعجمة أى ترفرف وترخى جناحها وتدنو من الأرض لتقع عليها ولا تقع ، وروى تفرش بالقاء من فرش الجناح وبسطه .

وعن محمد بن إسحاق ، عن رجل من أهل الشام يقال له أبو منظور عن عمه عن عامر الرام أخى الحضرمي قال « إنا لبلادنا إذ رفعت لنا رايات وألوية فقلت ما هذا ؟ قالوا لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتبه وهو جالس تحت شجرة وقد اجتمع إليه أصحابه فجلست إليهم فذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأسقام والأمراض ، فقال إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله عز وجل منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل ، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه فقال رجل ممن حوله يارسول الله وما الأسقام والله ما مرضت قط ؟ فقال له قم فليست منا » أخرجه أبو داود ، والألوية جمع لواء : وهى الراية الكبيرة دون الأعلام ، وأعفاه وعافاه بمعنى واحد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فحرق فأوحى الله تعالى إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبيح » أخرجه الحمسة إلا الترمذى (وقرية النمل) مسكها . اه ماجاء فى الكتاب المذكور .

ثم قال صاحبي : لقد استوفيت هذا المقام وشرحت صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين :

كتب فى ليلة الخميس (٥) سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وبهذا تم السلام على القسم الأول فى تفسير البسطة .

(القسم الثاني)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا *
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا * مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ
الَّذِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ
بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ
فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا
أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ
مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ
مَسْطُورًا * وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
أَبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْتَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا *
هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ
لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ
إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أقطارها ثُمَّ سئلوا فَتَنَةً لَاتُوها

وَمَا تَلْبَثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْأَذْبَارَ
وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا
لَا تُمْتَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ
مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ
فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ
فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ
اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ
الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُونُ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ
مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا *
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ
غَفُورًا رَحِيمًا * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا *

(التفسير اللفظي)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها النبي اتق الله) أي يا أيها المخبر عنا المأمون على أمرارنا اثبت على تقوى الله ودم عليها (ولا تطع
الساكرين والناقين) ولا تساعد على شيء واحترس منهم . روى أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل

وأبا الأعور السلمي قدموا المدينة بعد قتال أحد فزلوا على عبد الله بن أبي وأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقالوا ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تنفع وتشفع وساعدتم المنافقون على ذلك فهم المسلمون بقتلهم فنزلت: أي اتق الله في نقض العهد ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمناققين من أهل المدينة فيما طلبوا ولذلك لما قال عمر ائذن لي يارسول الله في قتلهم قال إني أعطيتهم الأمان. قال عمر اخرجوا في لعنة الله وغضبه (إن الله كان عليا) بالمصالح والمفاسد (حكيا) لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة (واتبع ما يوحى إليك من ربك) في الثبات على التقوى (إن الله كان بما تعملون خبيرا) أي لم يزل عالما بأعمالهم وأعمالكم (وتوكل على الله) وكل أمرك إلى تدبيره (وكفى بالله وكيلًا) حافظا موكولا إليه الأمور كلها: أي اكتف بالله وكيلًا. وإذا كان الله لك وكيلًا فلا تخف من أحد فهو ناصرك فلست في حاجة إلى المنافقين والكافرين إذ لا يجمع بين المتضادين إطاعة غير الله وإطاعة الله إذ ليس للانسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر. وإذا كان للانسان قلب فحق أنجه لأحد الشقيين صد عن الآخر، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه وهو يقوم بأمر من توكل عليه، هكذا ليس تجتمع الزوجية والأمومة في امرأة والبنوة الحقيقية والتبني في إنسان واحد، فإذا ظاهر الرجل زوجته أي قال لها أنت علي كظهر أبي فلذلك حكم سيأتي في [سورة المجادلة] فلما أن تحرم عليه إلى أداء الكفارة وإما أن تطلق، فهذا القول ليس بحق إذ لا يجتمع كونه زوجها وكونها أما، فلما أن تكون زوجة وإما أن تكون أما. هكذا التبني لا يكون ابنا حقيقة. وذلك أن زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبي صغيرا فاشتراه حكيم بن حزام لعنته خديجة فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له فطلبه أبوه وعمه غير فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه، وكانوا يقولون زيد بن محمد فلما تزوج صلى الله عليه وسلم زينب وكانت تحت زيد قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه، فقال الله ليس يجتمع النفيضان بنوة ولا بنوة فزيد ليس ابنا بل هو دعوى جمعه أدياء وهو فعيل بمعنى مفعول وهو الذي يدعى ولدا وهذا الجمع شاذ لأن بابه ما كان بمعنى فاعل كشتى وتقى وأشقياء وأتقياء وهذا قوله تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن) في تظاهرون قرأت وفيها معنى التجنب فمدى بمن (أمهاتكم وما جعل أدياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم) لاحقيقة له في الأعيان كما يقول الهاذي (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) والله يقول ماله حقيقة مطابقة له وهو يهدي السبيل إلى الحق. وسيأتي بعد تمام السورة في الرسالة السابعة [السر العجيب] حكمة زواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب وحل زواجها وما يترتب على ذلك من نظام التشريع مع الحكمة في تعدد الزوجات في الاسلام وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم (ادعواهم لأبائهم) أي انسبواهم إليهم (هو أقسط عند الله) وهذا تعليل له (فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم أي فهم إخوانكم) (في الدين ومواليكم) أي فسموهم بأسماء إخوانكم في الدين وأولياكم فيه وقولوا هذا أخي ومولاي بهذا التأويل (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) ولا إنم عليكم فيما فعلتموه من ذلك محظين قبل النهي أو بعده نسيانا أو سبق لسان (ولكن ما تعمدت قلوبكم) أي ولكن فيما تعمدت قلوبكم الجناح (وكان الله غفورا رحيمًا) لعفوه عن الخطيئة. ولما كان المؤمن أخا المؤمن في الدين كما مر وكان صلى الله عليه وسلم ليس أبا لزيد بن حارثة أعقب ذلك بتبيان منزلة النبي صلى الله عليه وسلم من الأمة كلها. يقول الله ليس محمد أبا مختصا بواحد منكم بل أبوته عامة وأنتم إخوة في الدين وأزواجه أمهاتكم بل هو أولى بكم من أنفسكم لأن أهل الأرض خلقوا فيها وهم غافلون عن العالم العلوي الذي هو الحياة الحقيقية فأزل للملائكة بالوحي على الأنبياء فهم في الحقيقة آباء لكم ومحمد صلى الله عليه وسلم منهم وأبوة الأنبياء أشرف من أبوة الآباء إذ بها الحياة الحقيقية والأخرى بها الحياة الفانية، لذلك كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهي منزلة لم ينلها الآباء الجئانيون، فإذا حضهم على الجهاد فذلك

لارتقايمهم الروحي وهذا قوله تعالى (الذي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) لما تقدم بيانه، فإذا كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم لما أمرهم صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك وهو أشفق من الآباء بل هو أولى بالمؤمنين الخ (وأزواجه أمهاتهم) منزلات منزلتهن في التحريم واستحقاق التعظيم. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم - النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم - فأبما مؤمن ترك مالا فترته عصبته من كانوا ومن ترك ديناً أو ضياعاً بفتح الضاد أى عيالا فليأتني فأنا مولاه » ومعنى عصبه الميت من يرثه سوى من له فرض مقدر . وقد تقدم في [سورة النساء] وهذا قوله تعالى (وأولوا الأرحام) وذوو القربات (بعضهم أولى ببعض) في التوارث (في كتاب الله) أى فيما فرضه الله (من المؤمنين والمهاجرين) أى وأولوا الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين والمهاجرين بحق الهجرة وذلك نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالة في الدين فهذه الآيات فيها رجعت الأمور إلى نصابها فليس للانسان وجهتان معاً مع أن له قلباً واحداً ، وليس للمرأة أن تكون أما وزوجة ، وليس الدعوى ابناً ، وليس المهاجر والمؤمن أولى بالميراث من ذوى الأرحام (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً) لما نسخ الله الميراث بالحلف والمؤاخاة والهجرة وأصبحت الورثة بالقرابة أباح الوصية لهؤلاء كما أباحها لغيرهم بالثلث فقال ولكن أن توصوا لمن تتولونهم من المعاقدين أى ولكن توصيتكم لهؤلاء مشروعة أو جائزة (كان ذلك في الكتاب مسطوراً) أى كان ما ذكر في الآيتين ثابتاً في اللوح المحفوظ . ولما كان ما تقدم مفيداً أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم لأنه يرفعهم إلى عالم الأرواح أعقبه بذكر الأنبياء السابقين الذين هم آباء للأمم السابقين فقال (و) اذكر (إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) على الوفاء بما حملوا (ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) فهؤلاء أشهر أرباب الشرائع وآباء الأمم ، وقدم عليهم إيداناً بأن أمته ستكون أرقى الأمم أدباً وأخلاقاً لأن رقى الأمة تبع لنبيها (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) مؤكداً وإنما فعلنا ذلك (ليسأل الصادقين عن صدقهم) فيسأل الأمم كما يسأل الأنبياء ، فالأنبياء صادقون في التبليغ والأمم التابعة لهم صادقة في تصديق الأنبياء . فكل هؤلاء مسئول . فالأنبياء عما قالوه لقومهم والمصدقون لهم عن تصديقهم وهل قاموا بما وجب عليهم ؟ فأثاب المؤمنين (وأعد للكافرين عذاباً أليماً) واعلم أن سؤال الأمم عن صدقها يدعو إلى السؤال عن أعمالها لأن الإيمان وحده لا يكفي كما قال تعالى « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وعليه لا بد من الأعمال والجد ومن أهمها الجهاد والجهاد أمر عام يشمل فروع الحياة كلها . فالعلم جهاد والأعمال كلها جهاد وقتال العدو جهاد . لذلك أعقبه بذكر غزوة الخندق وهي الأحزاب . والكلام عليها منحصر في [ثلاثة فصول: الفصل الأول] في ملخص الكلام عليها [الفصل الثانى] في تفسير الألفاظ [الفصل الثالث] في ربط هذه الغزوة بما قبلها من الآيات وأنها أشبه بما كان في الأمم السابقة من امتحان الأمم وتذكيرها وقتها لما جاء في قصص الأنبياء في القرآن .

﴿ الفصل الأول ﴾

إن نقرأ من اليهود قدموا على قريش في شوال سنة أربع من الهجرة بمكة فدعواهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لهم إن دينكم خير من دينه ثم جاءوا غطفان وقيسا وعيلان وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان وغطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر والحارث بن عوف ومسر بن ربيعة بن نيرة بن طريف وغيرهم . فلما سمع رسول الله صلى الله

عليه وسلم بذلك خط الخندق حول المدينة بإشارة سلمان الفارسي وهو يومئذ حر ، إذ قال يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا ضربنا خندقا علينا فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وأحكموه وقد أقطع لكل عشرة أربعين ذراعا فخرجت لهم صخرة بيضاء من بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم . فلما علم بها صلى الله عليه وسلم أخذ المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبق منها برق أضاء ما بين لابتيها يعنى المدينة حتى كأنه مصباح في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضى . وكان التكبير . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت ضربتي الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فأضاء له منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها . ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها . ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها فأبشروا . فاستبشر المسلمون . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده . فقال المنافقون ألا تعجبون بئسكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فزل ما سيأتى : وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض - الخ : ونزل : قل اللهم مالك الملك الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب الذين حزمهم اليهود وأنوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها فقالوا والله هذه مكيده ما كانت العرب تكيدها . وهناك كانت مصادمات بين القوم كرا وفرا . فمن الشركيين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ويقتل . ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيصديه الموت وهكذا . ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك فقال صلى الله عليه وسلم إنما أنت فينا رجل واحد فذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة فأنى قريظة وقال لهم لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رهنا من أشرفهم يكونون بأيديكم تقيّة لكم على أن يقاتلوا معكم محمد الأنهم رجعوا وسئموا حربه فانكم لا تقدرون عليه . وذهب إلى قريش وإلى غطفان فقال لهم إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونه لمحمد فيضرب أعناقهم وهم يتحدون معه على قتالكم لأنهم ندموا على ما فعلوا معه من نقض العهد وتابوا وهذا هو المخرج الذى اتفقوا عليه . فهناك تحاذل اليهود والعرب وحصل الفشل بسبب ذلك . وفي ذلك الوقت بعث الله ريحا في ليال شاتية شديدة البرد جعلت تسكفا قدورهم وتطرح آبنهم وقد قام صلى الله عليه وسلم صلى هونا من الليل ثم يلتفت ويقول هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم فعل ذلك ثلاث مرات ولم يقم رجل واحد من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فدعا حذيفة بن اليمان فذهب إلى القوم فسمع أبا سفيان يقول يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والحف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ماترون فارتحلوا فاني مرتحل . فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل . انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثانى ﴾

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود) أى الأحزاب المتقدم ذكرها وهم نحو اثني عشر ألفا (فأرسلنا عليهم ريحا) هى ربيع الصبا (وجنود لم يروها) الملائكة وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فى ثلاثة آلاف والخندق بينهم ومضى على الفريقين شهر لا حرب بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة حتى أرسل الله عليهم الريح كما تقدم فأخصرتهم وسفت التراب فى وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت

خيامهم وماجت الحيل بعضها في بعض فقال طليحة الأسدي أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء كما تقدم
(وكان الله بما تعملون) من حفر الحندق (بصيرا) راثيا . وقوله (إذ جاءوكم) بدل من « إذ جاءتكم »
(من فوقكم) من أعلى الوادي من قبل المشرق وهم بنو غطفان (ومن أسفل منكم) من أسفل الوادي من
قبل المغرب وهم قريش (وإذ زاغت الأبصار) مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا (وبلغت القلوب
الحناجر) هذا إما تمثيل أو أن الرئة تنفتح من شدة الروع فتسكاد ترتفع إلى رأس الحنجرة ويرتفع القلب
بارتفاعها إليها . والحنجرة منتهى الحلقوم وهو مدخل النفس الذي وراء المريء وهو مدخل الطعام والشراب
(وتظنون بالله الظنونا) الأنواع من الظن . فالظن يعلم أنه امتحان فيخاف الزلل ، والنافق وضيف القلب
يقولان ما حكي الله عنهما . وألف الظنونا أثبتا بعضهم تشبيها للفواصل بالقوافي ولم يردّها بعضهم وهو القياس
(هنالك ابتلى المؤمنون) فظهر الخلق من المنافق والثابت من المزلزل (وزلزلوا زلزلا شديدا) من شدة الفزع
(وإذ يقول المنافقون) عطف على الأول (والذين في قلوبهم مرض) هم قوم لا بصيرة لهم في الدين كان
المنافقون يستميلونهم بإرخال الشبه عليهم (ما وعدنا الله ورسوله إلا غورا) كما تقدم (وإذ قالت طائفة منهم)
وهم عبد الله بن أبي وأصحابه (يا أهل يرب لا مقام لكم) أي يا أهل المدينة لاقرار لكم هنا (فارجعوا) من
عسكر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (ويستأذن فريق منهم النبي) وهم بنو حارثة (يقولون إن بيوتنا عورة)
أي ذات عورة أي خالية من الرجال تخاف عليها سرق السراق (وما هي بعورة) بل هي حصينة (إن يريدون
إلا فرارا) أي ما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال (ولو دخلت عليهم) المدينة أو بيوتهم (من أقطارها)
من جوانبها سواء أكان الداخل هم الأحزاب أم غيرهم (ثم سئلوا الفتنة) أي الردة ومقاتلة المسلمين
(لآتوها) لأعطوها (وما تلبثوا بها) أي وما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الفتنة (إلا قليلا حتى يهلكوا)
(ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديار) وهم بنو حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين
فشلوا ثم تابوا ألا يعودوا مثله أبدا (وكان عهد الله مسؤولا) عن الوفاء به مجازي عليه (قل إن ينفعكم الفرار
إن فررتم من الموت أو القتل) فإن لكل امرئ موته سبق بها القضاء فلا بد من نفاذه على حسب ما سبق به
القضاء من قتل أو غيره (وإذن لا تمتعون إلا قليلا) أي وبعد الفرار لا تمتعون إلا مدة آجالكم وهو قليل
(قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا) أي يصيكم بسوء (أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون
الله وليا) ينفعهم (ولا نصيرا) يدفع الضر عنهم (قد يعلم الله المعوقين منكم) المشبطين عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لأخوانهم) من ساكني المدينة (هلم إلينا) أي ارجعوا إلينا ودعوا محمدا
صلى الله عليه وسلم فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك والقائلون هذا القول هم اليهود أرسلوا إلى
المنافقين فقالوا لهم ما الذي يجعلكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه فأنهم إن قدروا عليكم هذه المرة
لم يبقوا منكم أحدا وإنا نخاف عليكم وأنتم إخواننا وجيراننا فهلوا إلينا فأقبل عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه
يشبطون الناس فلم يزد المؤمنون إلا ثباتا واحتسابا . وقوله (ولا يأتون البأس إلا قليلا) أي لا يأتي الحرب
المنافقون إلا إتيانا قليلا حال كونهم (أشعة عليكم) بخلاء عليكم بالمعاونة النفسية والمالية (فاذا جاء الخوف
رأيهم ينظرون إليك تدور أعينهم) في رهوسهم من الخوف والجبن (كالذي يفتنى عليه من الموت) أي كدوران
عين التي قرب من الموت وغشيتها أسبابه فإنه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يظرف (فاذا ذهب الخوف) أي
زال (سلفوكم) آذوكم ورموكم في حال الأمن (بالأسنة حداد) ذرية تعمل فعل الحديد إذ يطلبون الغنيمة ويقولون
إنا شهدنا معكم القتال فلستم أحق بالغنيمة منا . وقوله (أشعة على الخير) حال أي خاطبوكم حال كونهم أشعة على
المال كما هم أشعة بأنفسهم ومالهم فلا قتال لديهم ولا إنفاق وهم شديدا الحرص على الغنيمة (أولئك لم يؤمنوا)

حقيقة بل هم مسلمون بالظواهر (فأحبط الله أعمالهم) أى أبطلها باضمارهم الكفر (وكان ذلك) إحباط
أعمالهم (على الله يسيرا) هينا (عسيون الأحزاب) لجبنهم وجزعهم (لم يذهبوا) أى لم يهزموا ولم ينصرفوا مع
أنهم قد انصرفوا (وإن يأت الأحزاب) كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون في الأعراب) أى يتعنى المناقون لجبنهم
أنهم خارجون من المدينة إلى البادية عائشون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم ويعزلوا ما فيه الخوف من
القتال (يسألون) الركبان والقادمين إليهم من المدينة (عن أنبائكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) ولم
يرجعوا إلى المدينة وكان قتال (ماقاتلوا إلا قليلا) رياء وسمعة (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) الأسوة
القدوة وهو للفتدى به وللمؤتى فاقتدوا به اقتداء حسنا فانه كسرت رابعيته وجرح في وجهه وقتل عمه ،
وأوذى بضروب الأذى فصبر ، وقوله (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) متعلق بقوله « حسنة » أى حسنة
لمن يرجو ثواب الله ونعيم الآخرة (وذكر الله كثيرا) وقرن بالرجاء كثرة الله ذكر وهي تؤدي إلى ملازمة الطاعة
(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) إذ قال تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة
ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم » الخ ، وأيضا « أحسب الناس أن يتركوا » الخ ، وقال صلى الله عليه وسلم
« سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم » وقوله أيضا « إنهم سائررون إليكم بعد تسع
أو عشر » (وصدق الله ورسوله) وظهر صدق خبر الله ورسوله (وما زادهم) الخطب والبلاء (إلا إيمانا وتسلما)
أى إيمانا بمواعيد الله وتسلما لمقاديره (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول
والمقاتلة لتكون كلمة الله العليا (فمنهم من قضى نحبه) أى فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى
استشهد والنحب الذى هو بمعنى النذر استعير للموت لأنه كئذرا لزم في رقبة كل حيوان ، وذلك مثل حمزة
ومصعب بن عمير وأنس بن النضر (ومنهم من ينتظر) الشهادة كعثمان وطلحة (وما بدلوا) العهد (تبديلا)
شيئا من التبديل كما يدل المناقون . روى « أن طلحة ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى
أصابت يده فقال صلى الله عليه وسلم أوجب طلحة » فملخص ما تقدم أن قوما صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقوم
بدلوا بنقض العهد (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) فيهديهم إلى الإيمان
(إن الله كان عفورا رحما . ورد الله الذين كفروا بغيظهم) ولم يشف صدورهم فهم في حنق (لم ينالوا خيرا)
ظفرا (وكفى الله المؤمنين القتال) بالريح والملائكة (وكان الله قويا) في ملكه (عزيزا) في انتقامه (وأنزل
الذين ظاهروهم من أهل الكتاب) أى عاونوا الأحزاب من قريش وعطفان وهم بنو قريظة (من صياصيمهم)
من حصونهم جمع صيصية وهي ما يتحصن به ، ويقال أيضا لقرن الثور والظبي ولشوكه الديك لأن ذلك كله
للتحصن من العدو (وقذف في قلوبهم الرعب) الخوف (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) . روى « أن جبريل
أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب فقال يا محمد أنتزع لأمتك والملائكة لم
يضعوا السلاح ؟ إن الله يأمرك بالسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم فأذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا بيني
قريظة فحاصرهم إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمي فأبوا
فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم ، فكبر النبي صلى
الله عليه وسلم فقال حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة قتل منهم ستائة أو أكثر وأسروا منهم سبعائة » .
واعلم أن هذه الرواية ذكرها المفسرون ولم ترد في الصحاح كلها ثم قال تعالى (وأورثكم أرضهم) مزارعهم
(وديارهم) حصونهم (وأموالهم) نفودهم ومواشيهم وأنانهم (وأرضا لم تطئوها) بعد كخيبر ومكة وفارس والروم
والقسطنطينية وغيرها من كل أرض تفتح للمسلمين (وكان الله على كل شئ قديرا) فيقدر على ذلك .
روى البخارى عن سلمان بن صرد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين أجلى الأحزاب
« الآن تعزوهم ولا يفزوتنا ، نحن نسير إليهم » .

وروى البخارى ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شئ بعده » انتهى الفصل الثمانى فى تفسير الألفاظ .

﴿ الفصل الثالث : فى اتصال هذه القصة بما تقدمها فى أول السورة وفى سور القرآن كله ﴾

لقد ذكر الله فى القرآن قصص الأنبياء وأمرهم أن يذكروا قومهم بأيام الله ومنهم موسى عليه السلام وقصته ذكرت غير مرة فى القرآن وآخرها ذكرا ما جاء فى آخر ﴿ سورة السجدة ﴾ قبل هذه إذ قال تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه » الخ . ثم جاء فى أول هذه السورة ذكر موسى إذ قال « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » الخ . ثم سوى بين الأنبياء وتابعهم فى سؤالهم عن عهودهم التى عاهدوها ، فالأنبياء مسئولون لتوبيخ المكذبين والمؤمنون مسئولون عما عاهدوا الله عليه هل صدقوا وثبتوا فى إيمانهم جاهدوا وصبروا أم هم منافقون مذنبون ، ولقد جاء فى [سورة إبراهيم] « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله » فذكرهم بالشدائد التى لاقوها من فرعون ، وبالنعمة التى أنعم بها عليهم كخروجهم من ذل العبودية وأنهم ورتوا الأرض التى وعدوا بها ، هكذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر المسلمين بغزوة الأحزاب والإنعام عليهم بنجاتهم منهم كما أنعم على بنى إسرائيل بنجاتهم من فرعون ، فانظر كيف يقول لموسى « وذكرهم بأيام الله » ويقول الله للمسلمين فى القرآن « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم » ويقول موسى « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون » وهنا يقول الله سبحانه « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها » .

إن السورة قد ابتدئت بذكر الدوام على طاعة الله وعدم الميل مع المنافقين والكافرين أى اتحاد الوجهة النفسية والعملية فى الاعتقاد وفى الدعى وفى الزوجة ، فإن اعتبار الزوجة أما واعتبار الدعى ابنا جمع بين المتناقضين كاجتماع طاعة الله وطاعة غيره . إن الله تعالى أرسل الرسل وهم صادقون وأتباعهم مسئولون عن عهودهم فهل يوفون بعهودهم ، أم يكونون كالمنافقين الذين يجمعون بين المتناقضين ؟ قول مصدق وعمل مكذب كما يجعل الدعى ابنا والزوجة أما . إن هذه القاعدة عامة فى الرسل وأتباعهم وهكذا هذه الأمة . إن الله لا يترك الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . إن الله ابتلى المسلمين بالغزوات ومنها غزوة الأحزاب فمنهم من صدقوا ما عاهدوا الله عليه ومنهم من بدلوا ، فهذا الامتحان والابتلاء فى الاسلام تطبيق على القاعدة العامة فى قوله « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم » .

يقول الله . إن هذه القاعدة عامة فى الأرض فلا بد أن تنالوا حظكم منها فننظر أتصدقون ، وإذا كنا « آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » . هكذا يا محمد ستكون أنت وأتباعك من صبروا منهم يكونون أئمة . وقوله « فلا تكن فى مرية من لقائه » فيه إشارة إلى هذا المعنى من طرف خفى كأنه قال آتيناك الكتاب كما آتيناك وسيكون لك نصر وأتباع هداة كما نصرناه وأيدناه .

﴿ أمة الإسلام اليوم ﴾

فعلى المسلمين أن يتدبروا هذه الغزوة ويتفكروا فيها فانها لم تذكر فى القرآن مجرد التبرك . إن الله خلق الناس على هذه الأرض ليعدهم إلى الرقى إلى عالم أرقى من هذا العالم ولا رقى إلا بأمرين : تهذيب جسمى وتاديب عقلى ، فلا بد من نعم ونعم وخير وشر وعزّ وذل وصحة ومرضى ، والمرء بين ذلك يربى ولا علم

له بالتربية ويؤدب ولا علم له بالتأديب . إن كل عمل نعمله في الحياة يعدنا عن المادة ويقربنا من عالم الأرواح
فكل صناعة تتقنها وعلم ندرسه وعمل نتقنه يرقى نفوسنا فيجعلها صانعة ذات حكمة ما . ولقد جاء الاسلام
وأمرنا الله بالجهاد وأمر نبينا نفسه أن يجاهد فكانت حياته كلها جهادا . فعلينا أن نتقدي به . علينا أن
تكون حياتنا كلها جهادا محرم علينا التواني والكسل . الجهاد يستلزم جميع العلوم والصناعات . يستلزم
علم الرياضيات والطبيعات والإلهيات . يستلزم علم السياسات وعلم الاقتصاد وعلوم الحرب كلها واستخراج
المعادن من الأرض وعلم الزراعة وعلوم العالم قاطبة . إن العلوم كلها والصناعات أشبه بمخلقة مفرغة لا يدري أين
طرفها . فإذا اطلعت على ما كتبت في [سورة البقرة] عند قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وأن
العلوم كلها والصناعات لا ينفك بعضها عن بعض عرفت أن الجهاد يكون بها كلها وأن الأمم عليها أن تخص كل
امرى في الصناعة أو العلم الذي هو أليق به . فالجهاد في الإسلام يشمل جميع دوائر الحياة . ألا ترى إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم كيف قال لنعيم بن مسعود لما جاءه وقد أسلم سرا « إنما أنت فينا واحد فخذل عنا »
فخصه بما هو أقوى عليه وهو التحذيل وقد نفذ الأمر فذهب إلى بني قريظة وإلى قريش وعطفان وأوقع
بينهم الفشل . أليس هذا بعينه هو علم السياسة . أليس علم السياسة اليوم هو هذا بعينه . أليست الأمم تفتح
المدارس لتربية الشبان لأمثال هذا . أليس هذا من الجهاد ؟ لا لا بل هو سر الجهاد . أو ليس صانع المدفع
وسائق القطر وسفير الدولة وكاتب الجيش وأمثالهم مجاهدين . إن الجهاد يشمل سائر فروع الحياة ومتى بطل
فرع منها بطلت كلها . فإذا لم يكن قطرات تسير بالجنود لم يكن جهاد ولا قطرات إلا بالحديد ولا حديد إلا بالتجارة
ولا تجارة إلا بالزراعة ولا زراعة إلا بالأمن ولا أمن إلا بحكومة منظمة ولا حكومة منظمة إلا بعلاقتها مع
الأمم ولا علاقة لها مع الأمم إلا بحفظ كياناتها والذب عن حياضها .

اللهم إن هذا هو دينك . وإني قد أوضحت الأمر في هذا التفسير . وإني قد أدبت ماعلى ، فألهم اللهم
قراء هذا التفسير وأمثاله أن يجاهدوا فيك حق جهادك ورجعوا بهذه الأمة ويكونوا رحمة للعالمين ويعيدوا
الأمة لمستقبلها الزاهر وسعدها الباهر ومجدها الفاخر وليعلموا الأمة أنها خنقت لانارة البصائر وتطهير السرائر
وإقامة الشعائر وإسعاد الأمم وحفظ الدمم وأنهم خلقوا ليكونوا رحمة للعالمين وهذا نتيجة ظهوره على الدين
كله لأن الله لا يظهر دينا على الديانات إلا إذا كان رحمة عامة وهذا هو ديننا في مستقبل الزمان ، انتهى القسم
الثاني من السورة .

(القسم الثالث)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكِ إِنْ كُنْتُمْ تَرْضُنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنِ أُمْتَعِكُنَّ
 وَأَسْرَحِكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُمْ تَرْضُنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ
 لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ
 لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ
 صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ
 النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا *
 وَقُرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا *
 وَأَذْكُرَنَّ مَا يُنْتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ، إِنْ اللَّهُ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا *
 إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِمِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
 وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِعِينَ
 وَالصَّاعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ
 لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا * وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ
 يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا * وَإِذْ
 تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي
 فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
 زَوَّجْنَا كَهَا لِسْكَ لِيَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
 وَطَرًا، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ
 فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ
 وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ
 رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامِنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي
 عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا *
 تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا
 وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ
 اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَزْوَاجَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
 بِاللَّهِ وَكِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَرَاحُهُنَّ سَرَاحًا حَسِيلًا *
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ
 اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ
 مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ
 دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِنَّ فِي أَزْوَاجِهِنَّ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ لِكَيْلَا يَكُونَ
 عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * تُرْجَى مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ وَمَن
 أَبْتَغَيْتَ يَمِّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِنَّ وَلَا يَحْزَنُ وَيَرْضَيْنَ بِمَا
 ءَاتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا * لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ
 بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ
 اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى
 طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ
 لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا
 سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِمَّا فِي بَيْوتِهِنَّ وَلَا تُسْأَلُوهُنَّ بِمَا فِي بَيْوتِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ
 أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ
 اللَّهِ عَظِيمًا * إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ
 فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَاءِهِنَّ

وَلَا مَمْلَكَتٌ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا * إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ
يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
قُلْ لِأَزْوَاجِكِ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ
فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَازِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخَذُوا
وَقَتَلُوا قَتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا * يَسْئَلُكَ النَّاسُ
عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا * إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ
الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ لَا يُجِدُونَ لِيَا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تَقَلَّبُ
وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا
وَكَهْبَاءَنَا فَاصْلُواْنَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَهْبَاءَنَا فَاصْلُواْنَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ
وَجِيهًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا * إِنَّا عَرَضْنَا
الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ
إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ
اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *

إن القسم السابق قد مضى في جهاد الرجال وحفظ الثغور . فلما أتم الكلام عليه أخذ سبحانه يشرح
جهاد النساء كأن يتركن الفاحشة ، وأن يقنين لله ولرسوله ، وأن يفيض أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
على الأمة العلم الذي عرفته من النبوة ، وكان يأمرن جميع النساء بالحجاب الشرعي والآداب العامة وما أشبه
ذلك من كل حكم يختص بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بأزواجه أو بما يحوم حول ذلك من احترامه وحفظ حرمة
واجتناب آذاه ،

وفي هذا فتح باب للجهاد الأكبر بعد إتمام السلام على الجهاد الأصغر كما قال صلى الله عليه وسلم «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس» فان التدبير المنزل ونظام العائلات وإقامة الشعائر كل ذلك جهاد عظيم أكبر من جهاد العدو . ألا ترى إلى قول (أرسطاطاليس) للاسكندر (إن الناس يحتملون الشدة ولكنهم لا يحتملون الرخاء) يريد أن الناس يقدرون على مكافحة الحروب ولكنهم إذا أبطرتهم النعماء لا يحتملونها بل تفتر قواهم وتضيع نخوتهم ويذهب مجدهم ولذلك أكد عليه أن يراعيهم في أحوالهم ويشغلهم فان لم يشغلهم أيام الأمان هلكوا وضاعت دولهم ، فهكذا ههنا لما أتم الله السلام على الجهاد أخذ يشرح الآداب المنزلية والأحوال الاجتماعية ، فاذا لم تنظم فلا حياة للأمة .

ولقد مضى مثل هذا في (سورة البقرة) فانه بعد أن ذكر أحكام الطلاق والعدة والرضاع والحجر والميراث واليتامى وما أشبه ذلك من كل عمل للناس في أمنهم ، أعقبه بذكر القتال فقال «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف» الخ فهناك ذكر القتال بعد النظام الداخلي وههنا عكس الأمر إشارة إلى أن كلا منهما في نفسه مطلوب في وقته لافضل للآخر عليه ، فان لم يكن نظام داخلي فلا نظام للحرب ، ومن أهملوا الدفاع عن مدنتهم اختات أحوالهم وضاعت مدنتهم ، وفي هذا القسم فصول :

﴿ الفصل الأول في خطاب النبي ﷺ لأزواجه بالزهد في الدنيا ، والإخلاص لله وأن وزرهن وأجرهن ضعف غيرهن ، ووجوب ملازمةهن البيوت ، وعدم التبرج وإقامتهن الصلاة . وإيتائهن الزكاة ﴾

قوله تعالى (تردن الحياة الدنيا) أى السمة والتنعم فيها (وزينتها) زخارفها (أمتعكن) أعطىكن المتعة . ومعلوم أن المتعة تستحب لكل مطلقة إلا المفوضة قبيل الوطء (وأسرحكن سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار وبدعة (أجرا عظيما) أى تستحق دونه الدنيا وزينتها (فاحشة) كبيرة (مبينة) ظاهر قبجها (ضعفين) ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه لأن الذنب منهن أقبح فزيادة قبج الذنب تنبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعفى حد العبد ، وجعل ذنب العالم أشد من ذنب الجاهل ، وعوتب الأنبياء على ما لا يعاتب عليه غيرهم (وكان ذلك على الله يسيرا) لا ينعمه عن التضعيف كونهن نساء النبي (ومن يقنت منكن) ومن يدم على الطاعة (نؤتها أجرها مرتين) مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضا النبي صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة (وأعتدنا لها رزقا كريما) فى الجنة (لستين كأحد من النساء) أصل أحد واحد بمعنى الواحد ، وهو فى النفسى عام للمذكر والمؤنث والواحد والكثير ، أى لستين كجماعة واحدة من جماعات النساء (إن اتقيتن) مخالفة حكم الله ورضا رسوله (فلا تخضعن بالقول) فلا تجبن بقولكن خاضعا لنا مثل المريات (فيطمع الذى فى قلبه مرض) فجور (فولا معروف) حسنا بعيدا عن الريبة (وقرن فى بيوتكن) من وفر يقر وقارا أو من قر يقر مع تصرف بخذف الأولى من راءى اقررن ونقل كسرتها إلى القاف فتحذف همزة الوصل ، ويصح أن يكون من قار يقر إذا اجتمع (ولا تبرجن) ولا تخبطن فى مشيتكن وتتسكرن أو لا تظهرن زينتككن وتبرزن محاسنكن (تبرج الجاهلية الأولى) تبرج مثل تبرج النساء فى أيام الجاهلية القديمة وهى جاهلية الكفر قبل الاسلام ، أما الجاهلية الأخرى فهى جاهلية الفسوق فى الاسلام (وأطعن الله ورسوله) فى سائر ما أمركن به ونهاكن عنه (الرجس) الذنب المدنس لعرضكن (أهل البيت) نصب على النداء أو المدح (ويظهمكم) من المعاصى ، واعلم أن تخصيص أهل البيت بعلى وقاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين لم يقم عليه دليل ، وإذا ثبتت الأحاديث الواردة فى ذلك فهى لانتفيد التخصيص وقوله (من آيات الله والحكمة) أى من القرآن والسنة (إن الله كان لطيفا) عالما بغوامض الأشياء ، (خبيرا) عالما بحقائقها

أى هو عالم بأفعال السكّن وأقوال السكّن . انتهى تفسير ما يحتاج إليه من الألفاظ في هذا الفصل من قوله تعالى « يا أيها النبي قل لأزواجك » إلى قوله « إن الله كان لطيفا خبيرا » .

﴿ لطيفة ﴾

ورد أن سبب نزول آية التخيير أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأذن يوما لأحد بدخول منزله إلا أبا بكر وعمر فدخلا فوجداه جالسا وحوله نساؤه وهو واجم ساكت فأخذ عمر يضحك ويقول: يا رسول الله لقد رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقلت إلهيا فوجأت عنقها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال هن حولي كما ترى يسألني النفقة ، فقام كل من أبي بكر وعمر إلى عائشة وحفصة ويخاتهما ويضربانها ويقولان تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ثم اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه شهرا أو ٢٩ يوما حتى نزلت هذه الآية « يا أيها النبي قل لأزواجك » إلى قوله « للمحسنات منكن أجرا عظيما » قال فبدأ بعائشة ، فقال يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبيوك ، قالت وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية ، فقالت أفيك يا رسول الله أستشير أباي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختارها فشكر لمن الله فزل « لا يحل لك النساء من بعد » .

﴿ حكم الآية ﴾

إذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها

- (١) لا يقع شيء عند عمر وابن مسعود وابن عباس وأكثر الأئمة .
- (٢) ويقع طلاق واحدة عند زيد بن ثابت ، وفي رواية عن علي .
- (٣) وإن اختارت نفسها وقع طلاق واحدة رجعية عند عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان والشافعي رضي الله عنه .
- (٤) وطلاق بائنة عند أصحاب الرأي ، وفي رواية عن علي .
- (٥) وثلاث طلاقات عند زيد بن ثابت والحسن ومالك .

﴿ الفصل الثاني : في الصفات التي يجب على الرجال والنساء أن يكونوا عليها من المسلمين ، وفي قصة

زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم من قوله « إن المسلمين والمسلمات »

إلى قوله « وكفى بالله حسيبا » ﴿

ههنا ذكر الله عشر صفات للرجال والنساء ، وهي (الاسلام) وهو الاتقياء لحكم الله (الإيمان) أي التصديق بما يجب أن يصدق به (الفتنوت) أي للداومة على الطاعة (الصدق) في القول والعمل (الصبر) على الطاعات وعن المعاصي (الحشوع) أي التواضع لله بالقلوب والجوارح (التصدق) بما وجب على الإنسان من ماله وبما هو مستحب (الصيام) المفروض أو هو وغيره (حفظ الفرج) عملا يحل (كثرة الذكر لله) بالقلب واللسان ، فهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات العشر « أعد الله لهم مغفرة » لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات لها « وأجرها عظيما » على طاعتهم .

﴿ ذكر أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها وزواجها لزيد بن حارثة ثم طلاقها منه ﴾

﴿ وزواجها للنبي صلى الله عليه وسلم ﴾

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فأبى وأبى أخوها عبد الله ، ولقد كانت رضيت في أول الأمر إذ ظنت أنه صلى الله عليه وسلم خطبها لنفسه ، فلما علمت بالحقيقة أبى وهذا قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أى وما صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة (إذا قضى الله ورسوله) أى رسول الله (أمرا) من الأمور (أن تكون لهم الحيرة من أمرهم) أى أن يختاروا من أمرهم ماشاءوا بل عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه والحيرة ما يتخير (ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) بين الانحراف عن الصواب . واعلم أن الله عز وجل يعلم مستقبل الأمم الإسلامية وأن للنسب دخلاً عظيماً ، وأن الأمم يعترها الاضمحلال والحراب بسبب تفرق أهوائها ، وتفرق أهوائها إنما يكون بالدواعى المتشعبة وأنه لا مصيبة أنسكى ولا فتق أوسع ولا صدع أعظم من تصدع المسلمين وتفرق شملهم وتفرق كلمتهم باتباع ذوى الأنساب للتصليين بدوى الشرف والعلم لاسباب التصليين بصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم . علم الله ذلك فقطع الأمر قبل حصوله وبته قبل وجوده وأظهره بمظهر لا مدخل للشك فيه ، إذ أوحى إلى نبيه أنى مزوجك زينب ابنة جحش بعد أن يطلقها زيد ، ألا وإن الله يعلم أن ابناً سيكون لأسامة اسمه زيد وأنه سيكون له القدر المعلى في الغزوات أيام أبي بكر ، فلو أن الأمر بقى بلا إيضاح عملي وتشريع فعلي لجاز لأسامة أن يدعى الخلافة وسيأتى تفصيل هذا وأمثاله في (رسالة تعدد الزوجات) التى ستذكر في آخر هذه السورة .

أقول : لما أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون زوجته ألقى الكراهة في قلب زيد لما كما أنها كارهة له ، فلما جاء زيد وقال إنى أريد أن أطلقها قال له « أمسك عليك زوجك واتق الله » فعاتبه الله تعالى وقال له لم قلت « أمسك عليك زوجك » وقد أعلنتك أنها ستكون من أزواجك وهذا قوله تعالى (و) اذكر (إذ تقول للذى أنعم الله عليه) بالاسلام (وأنتعمت عليه) بالاعتاق والتبني وهو زيد بن حارثة حين قال لك إنى أريد أن أفارق صاحبتى ، وقلت له أربابك منها شئ ، فقال لا والله يارسول الله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها تتعظم على بشرتها وتؤذيني بلسانها (أمسك عليك زوجك) زينب ، وهو مقول لقوله تعالى (واتق الله) فى أمرها فلا تطلقها ضارراً وتعللاً بتكبرها (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) وهو أنك ستتكبرها وأن زيدا قبل ذلك سيطلقها (وتخفى الناس) تعبيرهم بإياك به (والله أحق أن تخشاه) إن كان فيه ما يخشى فترى من هذا أن الله عاتبه على إخفاء ما علمه الله وهو أنها ستكون زوجته ، وإنما أخفى ذلك استحياءً أن يخبر زيداً أن التى تحتك وفى نكاحك ستكون زوجتى وذلك مقدمة لذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس أباً أحد من الرجال .

روى مسلم عن أنس قال « لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد اذهب فاذا كرها على ، فانطلق زيد حتى أتاها وهى تحمر عجينها فأبغها ، فقالت ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربى فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن ، قال أنس فلقد رأيتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلعنا الحبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقى أناس يتحدثون فى البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل حجر نسائه واتبعته وهو يسلم عليهن فانطلق يدخل البيت وذهبت لأدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب » انتهى المقصود من الحديث ملخصاً .

ولقد كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إنى لأدلى عليك بثلاث ، مامن امرأة من نسائك تدل
 بهن : جدى وجدك واحد ، وإنى أنسكنيك الله فى السماء ، وإن السفير جبريل عليه السلام وهذا قوله تعالى
 (فلما قضى زيد منها وطرا) حاجة بحيث ملها ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها (زوجنا كها) أى
 جعلناها زوجة لك بلا واسطة عقد (لسكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أديانهم إذا قضوا منهن وطرا)
 لأن حكم النبي صلى الله عليه وسلم وحكم أمته واحد إلا فيما خصه الدليل (وكان أمر الله مفعولا) فضاؤه ماضيا وحكمه
 نافذا (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) قسم له وقدر كما تقول فرض له فى الديوان كذا ومنه فروض
 العسكر لأرزاقهم ، سن الله ذلك (سنة الله فى الدين خلوها من قبل) من الأنبياء وهو نفي الحرج عنهم فيما
 أباح لهم (وكان أمر الله قدرا مقدورا) قضاء مقضيا وحكما مبتوتا ، ثم وصف الذين خلوا بقوله (الذين
 يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) تعويض بعد التصريح (وكفى بالله حسيبا) كافيا
 للمخاوف أو محاسبا فينبغى أن لا يخشى إلا منه .

(لطيفة)

هذه الآية تفرض على الناس الشجاعة الأدبية ، وقول الحق ، وإعلان الأمة بالحقائق ، وإذا أمر النبي
 صلى الله عليه وسلم بأن لا يكتم أمرا لا بد من ظهوره ولا ضرر فى كتمانها ، فكيف يكتم الناس العلوم ولا يظهرونها
 للأمة وهانحن أولاء الآن فى زمان أحوج إلى إظهار الحقائق فى كل زمان .
 يا أمة الإسلام . نزلت هذه الآية وعتوب النبي صلى الله عليه وسلم فى أمر لا ضرر فى كتمانها . انظروا
 انظروا . كم مصيبة نزلت بالاسلام والعلماء يخافون أن يجهروا بالحقائق . إن الله جعلنا تابعين للنبي صلى الله
 عليه وسلم فأنه هو الذى يؤمننا من المخاوف . قولوا للمسلمين كفى خمولا وجهالة كفى نوما . فكروا فى هذه الدنيا
 ونظامها . اقرءوا العلوم التى عرفتها الأمم . إن القرآن طافح بها . قولوا للرؤساء كفى تعاطفا . كونوا أيها
 الرؤساء خادمين للأمة . كفى تحاذلا ونهاونا . لاتعمالوا بالأنساب لتجعلوا الناس عبيدكم حتى أصبحتم عبيد
 الفرنجة . قولوا لأبناء النبي صلى الله عليه وسلم الذين لهم ملك أن لا يناموا عن رقى الأمة فإن هذا الملك لن
 يدوم وستأخذنه الفرنجة لجهل الشعب . حرام أن يجعل الناس جهلاء لأجل أفراد من الأمة . الشعب كله يجب
 أن يتعلم . يجب التصريح بذلك وإذاعة الحقائق ، وإلا فالعلماء معاقبون أشد عقاب ولا سيما من قرأ مثل هذا
 التفسير فإنه مسئول عن إذاعته بين الناس .

(الفصل الثالث : فى فضل النبي صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته)

(من قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » إلى قوله « وكفى بالله كيلا »)

قال تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) على الحقيقة فإذن لا تثبت حرمة المساهرة كما فى زيد بن
 حارثة ، وهو وإن كان أبا للظاهر والطيب وإبراهيم والقاسم فهم لم يبلغوا الحلم (ولكن رسول الله) فهو
 إذن أبو أمته من حيث إنه شفيق ناصح لهم واجب التوقير والطاعة عليهم (وخاتم النبيين) فهو آخرهم الذى
 ختمهم أو ختموا به . قال ابن عباس يريد لو لم أختم به النبيين جعلت له ابنا فيكون بعده نبيا ، وعنه قال
 إن الله لما حكم أن لآلئى بعده لم يعطه ولدا ذكرا بصير رجلا (وكان الله بكل شئ عليما) فيعلم من يليق بأن
 يختم به النبوة ، وكيف ينبغى أن يكون شأنه . يقول مؤلف هذا التفسير إن تكرار القول فى عدم نبوة زيد
 وخلق السبب العملى للوجوب لذلك ذو شأن عظيم فى قضية النبوة لولا هذا التأكيد والتكرار والتقوية لادعى
 قوم أن زيدا نبى بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن الله احتاط لذلك أشد الاحتياط . ومن العجب
 أن أمة الإسلام مفرمة بالأنساب والأشخاص فى بعض الجهات وهذا من أضل الجهالات التى ابتلى بها

المسلمون . فكم دخل في آل بيت النبوة من دعوى . وكم ادعى قوم أنهم من السلالة الهاشمية وبنوا على ذلك
الرياسة على الناس وأضلوا كثيرا إذ لم يكونوا أهلا للرياسة بالعلم والعمل المؤهلين لها . إن فضل المؤمن بعمله
وباتباعه وصدقته وبعده ، والنسب أمر ثانوي . إن الله لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وقد أمرنا أن
نحمده على ذلك لأن الولد يشغل عن غيره فلا ولد ولا شريك ولا ناصر له بل هو رب العالمين ، فهو عدل
حكيم ، ولما أراد تكميل رسوله صلى الله عليه وسلم قال « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن
رسول الله » وإنما هو أب للجميع منه يستضيء كل مستعد للانضاء فأما الأبوة البشرية فليس فيها هذا النظام إذ
قد يلد الفاضل فاسقا ولذلك أعقبه بقوله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) . قال ابن عباس
« لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذي ذكر
فإنه لم يجعل له حدا ينتهي إليه ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله » وأمرهم به في الأحوال كلها فقال
تعالى « فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » وقال تعالى « واذكروا الله كثيرا » يعنى بالليل والنهار ،
في البر والبحر ، وفي الصحة والسقم ، وفي السر والعلانية . وقيل الذي ذكر الكثير الأينساء أبدا (وسبحوه بكرة
وأصيلا) أول النهار وآخره خصوصا ، والقصود من التسبيح أن يكون الذي ذكر على وجه التعظيم والتثنية عن
كل ما سواه ، والقصد من ذكر طرفي النهار المتداومة لأن ذكر الطرفين يفهم منه الوسط أيضا ، ويدخل
في ذلك صلاة الصبح والعصر ، ومن أدخل في الأصيل صلاة الظهر وما بعدها إلى العشاء فقد توسع في المعنى
ويدخل أيضا « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ويكون
من الكثير هنا أن الطاهر والجنب والحائض والمحدث يقولها (هو الذي يصلى عليكم وملائكته) الصلاة
من الله الرحمة ومن الملائكة استغفار للمؤمنين ، ومن رحمته تعالى إشاعة الذكر الجميل للعباد في عباده والثناء
عليه (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) يعنى أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة أخرجكم من ظلمة الكفر
إلى نور الإيمان (وكان بالمؤمنين رحيما) حتى اعتنى بصالح أمرهم واستعمل في ذلك ملائكته المقربين
(تحيتهم) أى تحية الله تعالى للمؤمنين (يوم يلقونه) يوم لقائه عند الموت وعند الخروج من القبر وعند دخول
الجنة (سلام) أى سلم الرب عليهم ويسلمهم من جميع الآفات . روى عن ابن مسعود قال « إذا جاء ملك
الموت لقبض روح المؤمن قال ربك بقرئك السلام » واعلم أن السلامة من الآفات في هذه الدنيا مستحيلة
ولذلك جعلوا مبدأها عند الموت اللهم إلا قوما أدركوا سر هذا الوجود ودرسوه وعرفوا أن الرحمة تغمر
ظاهره وباطنه وظاهر الآخرة وباطنها وفهموا ذلك وتحققوه حتى صار بمنزلة بنفوسهم ، فمثل هؤلاء يرون
الوجود كله سعادة ، وكل ما يحل بهم أو يغيرهم أو يسمعونه من أنواع الآلام فإنهم يفهمونه كله على وجه
يشرح صدورهم ، ويرون أنه حكمة تامة ونظام جميل ، ويوقنون أنه ليس في الإيمان أبعد من ذلك ،
وهؤلاء قد سمعوا السلام من الله في الحياة قبل الموت في هذه الدنيا وأنسوا بربهم ولكن هذا الوجدان
عزيز الوجود لأنه يعز على الناس أن يعقلوا شياطين وجنا وأبالسة ونيرانا جهنمية ويقولوا إن هذه رحمة ،
فأما أولئك الأفتاد فلهم دراسة أتم ومعرفة أعم وعلم أكمل وعرفان أعم ويصبح الوجود عندهم كأنه إنسان
واحد وحيوان واحد ، وهذه من لوازمه أو عمل من أعمال هيئته لا بد منه « والله يهدي من يشاء إلى
صراط مستقيم » وقوله (وأعد لهم أجرا كريما) هو الجنة (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا) على من
بعث إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم وهذه حال مقدرة (ومبشرا) لمن آمن بالجنة (ونذيرا)
لمن كذب بالنار (وداعيا إلى الله) أى إلى توحيد وطاعته (بأذنه) بأمره (وسراجا منيرا) يستضاء
به في ظلمات الجهالات ويقتبس من نوره أنوار البصائر ، فراقب أحوال أمك (وبشر المؤمنين بأن لهم من

الله فضلا كبيرا) على سائر الأمم فأنهم سيغيرون نظام النوع الإنساني من الظلم إلى العدل كما في نهضة الإسلام الأولى ، وسيصلحون شأن الأمم المنهكة في الضلالة في مستقبل الزمان بعد زماننا كما قال تعالى « ليظهره على الدين كله » وبهذا يكون نوابهم في الآخرة عظاما (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ودم على مخالفتهم (ودع أذاهم) بإذاهم إياك ولا تحننل به (وتوكل على الله) فإنه يكفيكمهم (وكفى بالله وكيلًا) حافظا وموكولا إليه الأمر في الأحوال كلها .

(لطيفة)

اعلم أن الله عز وجل لما قرر أمر النبوة وأن محمد صلى الله عليه وسلم ليس أبأ لأحد من الرجال ، وأن النبوة أبوة عامة ، وأكد ذلك بالقول وبالفعل لقطع أطماع الرجال في الاعتزاز بذلك أعقبه بذكر ما به يتفاضل الناس وتعظم أقدارهم ويشرفون في الدنيا والآخرة فأمر بذكر الله كثيرا وتسبيحه وأنه سبحانه يرحم المؤمنين رحمة خاصة بالهداية وأنه يهيئهم بالسلمة والأمان ويدخلهم نعيما مقبيا ، وأتبع ذلك بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه سراج والسراج يقتبس منه السراج ، فالأنبياء يستضاء بهم وتعرف بأنوارهم المشكلات في دياجي ظلمات الجهالات كما يستضاء بالسراج في الطرقات ويقتبس من أنوارهم كما يقتبس من السراج سراج أخرى ، ولذلك تبحر العلماء في كل أمة تابعين لأنبيائهم مقتبسين من أنوارهم مرشدين لأنهم وليس الأب الجسمي كذلك ، إن الأب الجسمي يلد ابنا وولادة مادية ، والأنبياء يلدون ولادة نورية ، هذا هو الذي يرشده له ذكر السراج في هذا المقام ، فالأنبياء يلدون بهذا المعنى وخلفاؤهم هم المقتبسون منهم وعليه فليس أحد أولى بالأنبياء ممن اقتبسوا من أنوارهم وإلا فإن نوحا قد كفر به ابنه وقال الله له « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » فرجعت ولادة الأنبياء إلى الاقتباس منهم وإلى الاهتداء بهديهم ، فمن اكتفى بالنسب الجسمي للأنبياء فهو ضال مضل كاذب على الله ، فإذا ادعى أحد إخواننا وأبناء أعمامنا الشرفاء أن النسب وحده يرفعه عند الله فإن هذه الآية تسكبه وإلا فلماذا هذا التأكيد والتذكير ، فلا شرف لامرئ إلا باقتباس من الأنوار العلية ، ذلك هو الشرف الحقيقي في الدين « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

إن العرب في جاهلية وأكثر الناس في هذه الحياة الدنيا شرقا وغربا لا يصدقون بعالم غير عالم الأجسام ولا يعقلون أن هناك أرواحا لطيفة تدبر أهل الأرض وتهديهم ، فانظر كيف ذكر الله هنا أنه هو يرحم المؤمنين ورحمته عامة لهم ولغيرهم من حيث الحياة الجسمية ، فأما رحمة الهداية فهي خاصة بهم ، فهكذا أرشدنا إلى أنه سبحانه لم يدع هذا العالم بلا أرواح شريفة تقوم بالتدبير والتعليم كما ترى أنفسنا على هذه الأرض تقوم بالأعمال الجسمية والعقلية ، إن جميع الأرواح لها عمل فلا شيء في الوجود معطل ، وإذا كانت أرواحنا اليوم قائمة بتدبير هذه الأجساد فإن لها بعد الموت أعمالا تناسب تربيتها في هذه الدنيا ، فالضالون هنا يضلون غيرهم إما طبعيا وإما قصدا لقصود الشر والابتداء ، وهكذا النفوس الطيبة هنا ترجع إلى عالم الأرواح وهي في مركزها الذي خلقت فيه في الدنيا من حيث الاصطلاح والتعليم بالالهام والتي قبلها بالسوسة .

ولعلك تقول ومالنا ولهذا المبحث ، إن الآية فيها ذكر الملائكة وإنهم يصلون على المؤمنين أي يستغفرون لهم ، فأى مناسبة لذلك ؟ أقول لك على رسلك . اعلم أن هذا القرآن نزل للناس بأمور غائبة عن العقول لا يصدقها الناس تصديقا حقا ولكنهم يؤمنون به إيمانا والإيمان شيء واليقين شيء آخر ، ولقد ظهر اليوم في العالم الغربي هذا العلم . وقد تقدم في هذا التفسير أني نقلت لك ما ذكره العلامة (أولفرلودج) الذي هو أشهر عالم طبيعي في أوروبا إذ قال [إنه أصبح موقنا بسبب تخضير الأرواح أننا نعيش في عوالم من الأرواح نسبتنا إليهم كنسبة النمل إلينا من حيث الإدراك والعقل ، وهم يهتمون بأمرنا ويسعون في مصالحنا ، وعلم

الأرواح اليوم شاع وذاع بأوروبا ، وقد اتضح فيه أن أرواحنا بعد الموت صائرة إلى نحو ذلك فهي إما ملهمة للخير أو ساعية للشر فكأنها ملهمة بعالم الملائكة وعالم الشياطين ، وتجد نظير هذا في تفسير الإمام الرازي في سورة إبراهيم وسورة النازعات إذ قال في الثانية [إن الروح الانسانية هي التي تصير من المدبرات أمرا] أي أنها قد تلحق بعالم الملائكة ، وقد قسم العلم الفيلسوف (الان كاردك) الأرواح إلى طبقات ثلاث وهي الأرواح السفلية والعلوية والنقية ، وقال إن السفلية هي التي في مؤخر الدرجات والمادة متسلطة عليها ، فهي في الحياة محبة للشر والفساد وفي الموت ملقية للشر والعداوات بالسوسة ، فقال في العلوية إنها متسلطة على المادة ومحبة للخير . ومنها الصالحة وهي تحب الصلاح العام وعمل البر وإلهام البشر أفكارا صالحة ومعارفها محدودة وأدبها أكثر من علمها . ومنها الأرواح الحكيمة وهي ذات أخلاق حسنة ولكن علومها أوسع . ومنها الأرواح الرفيعة وهي التي جمعت بين السكال العلمي والأدبي ، وهذه لاتعطي تعليمها إلا لمن يطلب الحق بخلوص نية وقال في النقية إنها هي التي بلغت ذروة السكال وتجردت من كل نقص ولم يعد للعادة أدنى تأثير فيها فأصبحت ناظرة لله معتبطة به ، ولن ينجبها الانسان إلا إذا كان ذا فضيلة سامية وقلب مجرد من كل أمر ذميم ونقص أرضي مادي ، واستنتج العلماء من ذلك أنه ليس كل إلهام نأخذ به لأن معارف الأرواح الملهمة ليست في درجة واحدة فكم من إلهام ناقص يضر العمل به اه .

هذا ما يدور في محافل العالم الأوروبي اليوم ، فانظر كيف يخبر الله أن الملائكة يصلون علينا أي لاجراجننا من الظلمات إلى النور ، وانظر كيف ترى أن علماءنا رحمهم الله قالوا [إن هناك وسوسة وإلهاما من الملائكة] وكيف يقول الإمام الرازي والغزالي ورجال إخوان الصفاء [إن أرواحنا ملهمة بعد الموت بعالم الشياطين والملائكة إلهاما ووسوسة] وكيف يقرر ذلك نفسه العلامة (الان كاردك) في أوروبا والسلمون لا يعلمون .

انظر كيف يظهر سر القرآن في أوروبا والسلمون في التثريب نائمون ، كيف يقول (كاردك) المذكور [إن الأرواح النقية التي لم يبق لها مأرب في المادة تعابن الله وهي به معتبطة] يقولها هذا الافرنجى من علم الأرواح وهو لم يسمع قول الله تعالى « وجوه يومئذ ناظرة . إلى ربها ناظرة » فعبّر الله سبحانه عن تقاوة الروح من كل رجس بنضارة الوجوه ، ومضى نضرت الوجوه نظرت الله فكأن أرواحنا ترتقي من عالم إلى عالم درجات وراء درجات وتتخطى في الجنان درجة بعد درجة حتى تصل إلى أعلى الدرجات وتكون إلى ربها ناظرة ، وفي أثناء مرورها على النيران تكون موسوسة شريفة ، وفي أثناء مرورها على الجنان تكون ملهمة للخير معلمة وتصعد إلى أن ترى ربها ، ولا معنى لرؤية الله والنظر إليه إلا بزيادة الكشف المعبر عنه في الحديث بأننا نراه كما نرى القمر ليلة البدر ، فالعامة يظنونهم نظر بصريا والخاصة برونه أرقى وأوسع من نظر البصر بل نظر البصر ضعيف ضئيل مادي ، أفليس السلمون أولى بهذه العلوم وبمعرفة الأرواح حتى يدركوا سر هذه الآية .

أما أنا فأقول : الحمد لله الذي جعل في قديمائنا من بحثوا ودققوا وذكروا مثل هذا القول ، ولولا أنهم ذكروه كما قلته لك لم يتجاسر أحد أن ينقل عن أوروبا مثل هذا اللابعد ذلك خروجا عن الدين ، والأمة اليوم في مبدأ نهضة جديدة ، فلن تقبل حديثا إلا إذا وصل بقدمها ثم تأتي أجيال يستقلون بالرأى ويكونون أوسع حرية إذ يرون الجوفسيجا والعلم منتشرا ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وصلى الله على نبينا وآله وصحبه وسلم .

﴿الفصل الرابع: في المطلق قبل الدخول، وفيما يحل للنبي صلى الله عليه وسلم من النساء . وفي بعض الأحكام المناسبة لذلك من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات » إلى قوله « واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا »

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) تجامعوهن (فمالك عليهن من عدة تعتدونها) تستوفون عددها . وليس تخصيص المؤمنات محصا للحكم بل هو عام وذكرهن بفائدة تحير النطف لا تخصيص الحكم (فتعوهن) أي أعطوهن ما يستمتعن به ، وقد تقدم إيضاحه في [سورة البقرة] وذلك التمتع إما فرضا إذا لم يكن سمى لها مهرا وإما ندبا إذا كان سمى لها المهر فيكون التنصيف وجوبا والتمتع سنة (وسرحوهن) أخرجوهن من منازلكن لأنهن ليس عليهن عدة (سراحا جميلا) من غير ضرار ولا منع حق .

﴿ لطيفة ﴾

إذا طلق الرجل امرأة قبل النكاح لا يقع الطلاق لظاهر الآية لأنه سبحانه قال « إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن » ولم يقل طلقتم ثم نكحتم ، فلو علق الطلاق قبل النكاح عليه سواء أكان لامرأة معينة أم لكل امرأة فإن الطلاق لا يقع ، وهذا رأى الأكثرين كابن عباس وعلي وجابر ومعاذ وعائشة والشافعي ، وقال ابن مسعود وأصحاب الرأى والنخعي يقع الطلاق ، وقال مالك وربيعة والأوزاعي : إن عين امرأة وقع وإلا فلا اه .

ثم قال تعالى (يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) مهورهن لأن المهر أجر على البضع ، وليس التقييد بآتياء المهر معجلا إلا لإيتاء الأفضل وإلا فالحل ليس متوقفا على ذلك التبريل كما لا يتقيد إحلال المملوكة بكونها مسبية في قوله (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) من السبي مثل صفية وجويرية ، وإنما كان القيد بذلك لأن الشترأة لا يعرف بدء أمرها وما جرى عليها ، وقوله (وبنات عمك وبنات عماتك) وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك) العية هنا ليست للقرآن بل لوجودها حسب كقوله تعالى حكاية عن بلقيس « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » فيحل له صلى الله عليه وسلم بنات العم والعمة من بنى عبد المطلب وبنات الخال والحالة من بنى عبد مناف بن زهرة بشرط أن يكن هاجرن من مكة إلى المدينة ، والتقييد بالهجرة إمالا للحل وإمالا لأفضل ، ويؤيد الأول قوم أم هانئ بنت أبي طالب « خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعدرتني ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأنني لم أهاجر معه » ثم عطف على ما سبق قوله (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) يقول الله أعدناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهرا كأم شريك بنت جابر العامرية أو ميمونة بنت الحارث أو زينب بنت خزيمه الأنصارية أو خولة بنت حكيم وذلك مشروط بأن يريد النبي نكاحها فإن لم يقبله فلا تحل ، وقوله « خالصة لك » أي بلا مهر وهي حال من الضمير في وهبت . وقوله « لك من دون المؤمنين » أي أنه يجب المهر على غيرك وإن لم يسمه أو نفاه .

﴿ حكم من تهب نفسها ﴾

إذا وهبت امرأة نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فالأمر ظاهر أنه يتعقد نكاحا بلا ولي ولا شهود ولا مهر لقوله تعالى « خالصة لك » وأيضا له الزيادة على الأربع ويجب عليه تحيير النساء وحده . وقال بعض العلماء بل لا يتعقد له إلا بلفظ النكاح والتزويج كما في حق سائر الأمة لأنه عبر بلفظ الاستنكاح ، فالاختصاص إنما هو

في ترك المهر، فأما من وهبت نفسها لغيره صلى الله عليه وسلم فإنه لا يتعد نكاحها بل لا بد من لفظ الإنكاح أو التزوج وهو قول سعيد بن المسيب والزهري وربيعة ومالك والشافعي . وقال النعمي وأهل الكوفة يتعد بلفظ التخليك والهبة، وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم) أي من شرائط العقد ووجوب القسم والمهر بالوطء، إذا لم يسم (وما ملكت أيمانهم) أي ما أوجبنا من الأحكام في ملك النجس . وهذه الجملة معترضة بين قوله تعالى «خالصة لك من دون المؤمنين» وقوله (لكن لا يكون عليك حرج) أي أحلنا لك أزواجك وما ملكت عينك والوهوبة، واختصاصك بذلك لكيلا يكون عليك ضيق والجملة الاعتراضية تفيد أن ذلك ليس للتوسيع عليه وحده والتضييق على المسلمين بل هناك معان تتمضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة وبالعكس أخرى وسترى إيضاحه في [رسالة تعدد الزوجات] للتحفة بهذه السورة . وقوله (وكان الله غفورا) أي لما يسر التحرز منه (رحميا) بالتوسعة في مظان الحرج (ترجي من تشاء منهن) أي تؤخرها وتترك مضاجعها (وتؤوى إليك من تشاء) وتضم إليك وتضاجعها (ومن ابتغيت طلبت بمن عزلت فلا جناح عليك) أي ومن دعوت إلى فراشك وطلبت صحبتها بمن عزلت عن نفسك بالأرجاء فلا ضيق عليك في ذلك (ذلك) التفويض إلى مشيئتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يعزن ويرضين بما آتيتن كلهن) أي أقرب إلى قرّة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعا لأنهن إذا علمن أن هذا التفويض من عند الله اطمأننت نفوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا وقرت العيون (والله يعلم ما في قلوبكم) وهذا وعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله في ذلك (وكان الله عليما) بما في القلوب (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فلي الناس أن يحذروه .

روى عن أبي رزين قال «لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقن قفلن يأنبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا فأرجأ منهن حمسا وآوى إليه أربعا» انتهى باختصار، وسنوضحه في رسالة [تعدد الزوجات] الآتية . وكذا ما بعده مفسلا هناك وهو قوله تعالى «لا يحل لك النساء من بعد» من بعد التسع (ولا أن تبدل بهن من أزواج) فتطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى (ولو أعجبك حسنهن) حسن الأزواج المستبدلة وهي أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب لما استشهد جعفر أراد صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهى عن ذلك (إلا ما ملكت عينك) وقد ملك بعد هؤلاء مارية القبطية (وكان الله على كل شيء رقيبا) أي حافظا وهذا يدل على جواز النظر إلى من يريد الإنسان نكاحها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل» أخرجه أبو داود . وعن المغيرة بن شعبة قال «خطبت امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم هل نظرت إليها؟ قلت لا قال انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» .

هذا، وقد تقدم حديث أنس بن مالك . وقوله في الحديث ما ملخصه «إن القوم طعموا في ولجة زينب بنت جحش وخرج قوم وبقي آخرون، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وخرج معه أنس حتى جاء حجرة عائشة ورجع فإذا هم جلوس فرجع حتى بلغ حجرة عائشة وظن أنهم خرجوا فرجع ورجع معه أنس فإذا هم قد خرجوا فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين أنس بالستر وأنزل الحجاب وسمع أنس النبي صلى الله عليه وسلم يقول (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) أي إلا وقت أن يؤذن لكم (إلى طعام) متعلق بيؤذن حال كونكم (غير ناظرين إناء) أي غير منتظرين نضجه ووقت إدراكه (ولكن إذا دعيت فادخلوا فإذا طعمتم فانتصروا) تفرقوا ولا تمكثوا، والآية لأولئك الذين يتجنبون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه ففيهم ولأمثالهم ولولا ذلك لمنع من يدخل بيته بالأذن لغير الطعام ومن يمكث بعد الطعام لهم ولا قائل به فافهم (ولا تمكثوا) مستأنسين لحديث (حديث

بعضكم بعضاً أو لحديث أهل البيت بالتسمع له (إن ذلكم) اللبث (كان يؤذى النبي) لتضييق المنزل عليه (فيستحي منكم) من إخراجكم (والله لا يستحي من الحق) يعني أن إخراجكم حق فينبغي أن لا يترك حياة كما لم يتركه الله ترك الحي فأمركم بالخروج (وإذا سألتوهن متاعاً) شيئاً ينتفع به (فاسألوهن) المتاع (من وراء حجاب) ستر . روى « أن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فزلت هذه الآية (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) وما صح لكم (أن تؤذوا رسول الله) أى تفعلوا معه ما يكرهه (ولا أن تتكفروا أزواجه من بعده أبداً) من بعد وفاته أو فراقه ، وخص القى لم يدخل بها لما روى أن أشعث بن قيس تزوج المستعينة فى أيام عمر رضى الله عنه فهم برجمها فأخبر بأنه صلى الله عليه وسلم فارقها قبل أن يمسه فترك من غير تكبير (إن ذلكم) أى إيذائه ونسكاح أزواجه (كان عند الله عظيماً) ذنباً عظيماً ، ثم بالغ فى الوعيد لحرمة صلى الله عليه وسلم فقال (إن تبدوا شيئاً) كنكاحهن على أنفسكم (أو تخفوه) فى صدوركم (فإن الله كان بكل شئ عليماً) فيعلم ذلك فيجازيكم به (لاجتراح عليهن فى آباتهن ولا أبناهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن) يعنى النساء المؤمنات (ولا ماملكت أيمانهن) من العبيد والإماء أو من الإماء خاصة . انظره فى [سورة النور] (واتقين الله) فيها أمرت به (إن الله كان على كل شئ شهيداً) لا يخفى عليه خافية . روى « أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب يا رسول الله أو نسكحهن من وراء حجاب فزلت » ولم يذكر العم والحال لأنهما بمنزلة الوالدين . انتهى الفصل الرابع .

﴿ الفصل الخامس : فى وجوب تعظيمه صلى الله عليه وسلم ومن تعظيمه أن يصلى عليه ، وأن لا يؤذى فى أهله ، وضرب مثل بالدين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وذكر التكليف الذى لم يكلف بها أحد إلا الانسان لشهوته وغضبه ونواذعه الكثيرة وهى الأمانة ، وهو من قوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبي » إلى آخر السورة ﴾

أعلم أن العالم للشاهد كله منتظم ، فالأعلى يسع النعمة على الأدنى ، والأدنى مطيع للأعلى . ومثال ذلك الملوك والوزراء والأمراء ومن دونهم . فكل من هؤلاء يستمد الأمر من هو فوقه ثم يصل الأمر إلى الزارع والتاجر والعامل . فهؤلاء جميعاً يعطون مالا للمحافظين عليهم ويعيشون فى أمن بتدييرهم . فالأمراء يتناولون أجورهم من الرعية والرعية محفوظة بتدييرهم . فالأمة كالجسم . فالعين تستحسن أزهار الربيع فيساعد القدم والساق على النقلة إلى هناك فى الحقول والبساتين . فالعين والرجل تشاركتا فى العمل . هكذا الأمة عليها وسافلها متشاركون وإن كانوا لا يعلمون بل الأمم كلها فوق الأرض مشتركة والسكن أكثر الناس لا يعلمون .

إذا عرفت هذا فى العالم للشاهد فانظر إلى ما نحن فيه وتأمل . ألم تقرأ فيما مر فى هذه السورة ان الله يصلى علينا وملائكته . أليس معنى ذلك أنه سبحانه يرحمنا وملائكته يستغفرون لنا . ورحمة الله العامة تشمل البهائم والكافر . وإنما القصد رحمة الهداية . فإله يهديننا ورسوله ، فأما الملائكة فهم الملمومون لنا بلا واسطة كالإلهامات التى يحس بها كل منا . وهذه الإلهامات لا بد لها من قانون ولا قانون إلا الدين والدين بالوحي والوحي من الملائكة إلى الأنبياء . فإذا قال الله إنه يرحمنا وملائكته وسائط فى إيصال رحمة الهداية لنا فذلك يدخل فيه الأنبياء ، ألا ترى إلى قوله تعالى « ليخرجكم من الظلمات إلى النور » فلم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم اكتفاء ، لوضوح التمام وإلا فمن المخرج لنا من الظلمات إلى النور المصرح بها غير مرة فى القرآن سوى الأنبياء فإذا نزل الله وملائكته ورسوله يصلون علينا . فالنور من الله والملائكة وسطاء والأنبياء مبلغون

وهكذا العلماء بعدهم إلى أن يصل إلى جميع المسلمين كما قال تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » . إذا علمت هذا فانظر في قوله تعالى هنا (إن الله وملائكته يصلون على النبي) كما صلوا عليكم وصلى هو عليكم أيضا ، وعلى من أنعم عليه بنعمة أن يشكرها وشكر النعمة أن تدعو له . فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، وخير الناس للنعمة الأنبياء . ولذلك قال (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) لأنه صلى عليكم : أي أعلمكم بوحى الملائكة ، والعلم يوجب مغفرة الذنب إذا عمل به ويخرج الناس من ظلمة المادة إلى نور عالم الأرواح فتكون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أي الدعاء له شكرا على نعمة العلم التي جاءت على يديه . فإذا أضيف إلى ذلك انقياد المسلم وتسليمه لما جاء على لسانه من الشرائع كان قائما بالشكر خير قيام ولذلك قال (وسلوا تسليما) أي اتقادوا لأوامره انقيادا كما قال تعالى « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » أي التقرب لله . ولا جرم أن امتثال أمر الله في شريعته وصلاة المسلم على نبيه قيام بالشكر لأن ذلك هو المطلوب . إن مقصود الأنبياء رقي أممهم بانقيادهم للأوامر والنواهي ، وتجاوز الصلاة على غيره تبعاله وتكبره استقلالاً لأن الصلاة في العادة شعار الرسل كما لا يقال « محمد عز وجل » ثم وجوب الصلاة إما في العمر مرة أو في كل صلاة في التشهد الأخير أو كلما ذكر ، والأول قول الأكثر والثاني قول الشافعي وإحدى الروايتين عن أحمد ، والثالث قول الطحاوي من الحنفية والجليمي من الشافعية وهو ضعيف . والجمهور أن هذا مستحب . والواجب « اللهم صل على محمد » وما زاد سنة . والمعنى الآخر في السلام التحية أي حيوة بتحية الاسلام . يقول الله ادعوا له بالرحمة وحيوة تحية الاسلام أي قولوا « السلام عليك أيها النبي » .

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والانقياد لأوامر الله والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم مما يرفع العبد درجات ، كيف لا وهو في حال الصلاة عليه قد ترك الغيبة ولا مست روحه ذكر نفس طاهرة في عالم الكمال ، إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عمل من الأعمال الحميدة له حسنات مذكورات مشهورات في الأحاديث ، إن الدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة التي هي معنى الصلاة يزيده رفعة وهو ومن تبعه متواصلون في عالم الأرواح ، وكلما زادت رفعة ازداد أتباعه لعلاقة الرابطة ، إن بين الأرواح عالها وسافلها لصلة متناسبة كالصلة بين السكواك والشموس وبين جميع ما حولها ، إن تذكر الأنبياء والسلام على الصالحين وعلى آل الأنبياء كل ذلك تذكرة لعلاقة النفوس الطاهرة بعد الموت في العالم الروحي ليؤهل نفوسنا إلى المقام معها هناك حتى لا تستوحش النفس عند مفارقة الدنيا ، إن كل هذا يطلب به الاستيحاش من هذه المادة والالتئاس بعالم الأرواح ، يقول المسلم « السلام عليك أيها النبي » ثم يسلم على نفسه وعلى الصالحين من جميع الأمم ويصلى على نبينا ويذكر إبراهيم وأمثال ذلك ، كل هذا ليأنس بتلك الأرواح ، إن عالم الأرواح عالم الحياة كما أن عالم المادة عالم الموت ، ولذلك يحتم المسلم الصلاة فيستعبد من عذاب القبر وعذاب النار وفتنة الحياة وفتنة المعات وفتنة الدجالين والكاذبين ، وهذه كلها من علائق الدنيا والمادة ، فأما عالم الأرواح فهو عالم الجمال والبهاء والكمال . ولما كان إعظام النبي صلى الله عليه وسلم يقضى بالأولى ألا يؤذى أعقبه بقوله (إن الذين يؤذون الله ورسوله) بأن يرتكبوا ما يكرهه من الكفر والمعاصي ومنهم من كسر رباعيته ، ومنهم من قال هو شاعر ومجنون (لعنهم الله) أبعدهم من رحمته (في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) بهمهم مع الايلام (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) بغير جنابة استحقوا بها (فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) ظاهرا وذلك كما حصل في مسألة عائشة وكابناء على رضى الله عنه ، وكما كان الزناة يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حاجتهن ولم يكونوا يعرفوا الحرة من الأمة . ولذلك نزل قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) جمع جلباب وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والحمار

أوهى كل ما يستر به من كساء وغيره . قال ابن عباس « أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ليعلم الناس أنهن حرائر » وذلك قوله تعالى (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أى لا يتعرض لمن أحد (وكان الله غفورا) لمسا سلف (رحما) بعباده إذ برأى مصالحهم في الجزئيات كما في السكيات (لئن لم ينته المنافقون) عن نفاقهم (والذين في قلوبهم مرض) ضعف إيمان (واللرجفون في المدينة) يرجفون أخبار السوء مثلا إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون في الناس أنهم قتلوا أو هزموا ، أو يقولون قد أتاكم العدو ونحو ذلك (لتعربنكم بهم) لتعربنكم بهم ولتسلطنك عليهم (ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) أى إلا زمانا قليلا حال كونهم (معاوين أينما تنفقوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) سن الله ذلك (سنة الله في الدين خلوا من قبل) من الأمم الماضية وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وأرجفوا أينما تنفقوا (وإن تجد لسنة الله تبديلا . يسألك الناس عن الساعة) تعنتا (قل إنما علمها عند الله) لم يطلع عليها ملكا ولا نبيا (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) شيئا قريبا (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا) نارا شديدة الانتقاد (خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا) يحفظهم (ولا نصيرا) يدفع العذاب عنهم (يوم تقلب وجوههم في النار) تصرف من جهة إلى جهة كاللحم يشوى على النار (يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول) في الدنيا (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) وهم رؤوس الكفر الذين زينوه لهم (فأضلونا السبيلا) أى عن سبيل الهدى (ربنا آتهم) أى السادة والكبراء (ضعفين من العذاب) أى ضعفى عذاب غيرهم (والعنهم لعنا كبيرا) لعنا متتابعاً (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) فظهره الله مما قالوه فيه (وكان عند الله وجيها) كرميا ذا جاه وقدر . أو حظيا عنده لا يسأل شيئا إلا أعطاه فهو مستجاب الدعوة . فقد آتهم قوم يقتل هارون لما خرج معه إلى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومرروا به عليهم حتى رأوه غير مقتول أو أحياء الله فقال لهم ذلك . وأيضاً قد مر في [سورة الشعراء] أن قارون حرض بغيا على قذفه بنفسها فعصمه الله من كذبها ، أو قذفه بعب في بدنه كبرص أو أذرة وكان كثير التستر حياء فأطلعهم الله عليه ، فبرأه الله مما قالوا ، وقوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) في ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله (وقولوا قولا سديدا) صوابا عدلا صدقا (يصلح لكم أعمالكم) يتقبل حسناتكم (ويغفر لكم ذنوبكم) ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) أى ظفر بالخير العظيم .

جاء في رواية البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال « لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا في القسمة كالأقرع بن حابس مائة من الإبل ومثله عيينة بن حصن ، وأعطى ناسا من أشرف العرب وآثرهم في القسمة فقال رجل والله إن هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم تغير وجهه كأنه الصرغ بكسر الصاد وهو صبغ أحمر يصبغ به الأديم ، ثم قال فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ ثم قال رحم الله أخى موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر » انتهى ملخصا ، ثم قال تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) خفن منها (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) اعلم أن المفسرين [رأين مشهورين] في هذه الآية [أولها] أن الله خلق في هذه الأجرام فيها وقال أنحملن هذه الأمانة بما فيها وذلك أنسكن إن أحسنن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن . قلن يارب نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثوابا ولا عقابا . وتلك الأمانة هى الوفاء بالعهود والودائع وجميع ما حمله المكلف من التكليف القولية والتعليلية وهذا القول يناسب قوما [الرأى الثانى] أن هذا القول من المجاز المركب ، يقول الله إن هذه السموات والأرض والأنهار والجبال والدواب والنبات كلها وكذلك الملائكة . كل هؤلاء مسخرون لأعمال على مقدار الاستعداد ، فالشمس والقمر والجبال والأنهار والأرض

كلها قائمات بما خلقت له لا تحيد عنه شعرة « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » والبهايم ليس عندها من العقل ما به يصح التكليف ، فهذه المخالقات كلها تأتي طباعتها أن تسكف بعمل ما ، وإنما عملها يكون على حسب جبلاتها ، والجبلات والفرارز غير عاصية ، فإن النحل والنمل والعنكبوت والطيور كل جماعة من هذه قائمات بأعمالهن بلا خلل في النظام كما ترى في مسدسات النمل وفي نسيج العنكبوت وفي تربية الطيور لأفراخها ، وفي أن كل طائر إذا خرج من البيضة اتبع أمه وسار معها كأنه تعلم ذلك قبل خلقه وهكذا تسير السكواكب كلها وكذا الأرض لا اختلاف لسيرها ولا اختلال لنظامها فليس شيء من ذلك كالإنسان « بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » ويخرج من بطن أمه ضعيفا ثم يتعلم شيئا فشيئا حتى يبلغ أشده وله اختيار في الأعمال يتصرف بعقله في الأمور ولذلك تختلف أفراده اختلافا كثيرا لتتوع تعاليمهم وقدرهم وتهذيبهم وأخلاقهم واجتهادهم وإنما كلفناه لأنه ابتلى بقوى الغضب والشهوة اللذين هما صفتا البهائم وهو بعقله يرقى عنها إلى ذروة السكال ، فالشهوة والغضب بصرفانه في أمور كثيرة ، وبوقفانه في الفجور والكبرياء وغيرهما وتتنازع الأهواء ، فاذن كلفناه بالشرائع لأنه كان ظلوما بأنواع الشهوات وفنون الغضب التي تنفذ به في المهاوى ، جهولا بما يجب عليه ، فهذه الأمانة وهي التكليف والأمانات والودائع كالحواص الحس والأعضاء والمواهب كلها حملها الإنسان لحاجته إليها في ردع ظلمه وجهله ، وتسكون نتيجة ذلك أمرين تعذيب المنافقين والكافرين والمنافقات والكافرات لأنهم لم يقوموا بحمل الأمانة حتى القيام وإثابة الله للمؤمنين والمؤمنات وأن يتوب عليهم وهذا قوله تعالى « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما » حيث عفا عن فرطاتهم وأتاب على طاعتهم . وههنا [سبع لطائف] :

(اللطيفة الأولى) في سر تعدد الأزواج وتعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي رسالة ألفها المؤلف وطبعت سنة ١٣٣٣ هجرية للرد على قوم اعترضوا على الإسلام .

(اللطيفة الثانية) في قوله « وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما » .

(اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا »

(اللطيفة الرابعة) في قوله تعالى « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه

وسراجا منيرا » .

(اللطيفة الخامسة) في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم »

(اللطيفة السادسة) في ملخص السورة كلها وفيها قبلها وما بعدها .

(اللطيفة السابعة) في معنى « وحملها الإنسان » .

﴿ اللطيفة الأولى : في سر تعدد الأزواج في الإسلام ، وتعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي رسالة ألهمها المؤلف للرد على قوم اعترضوا على الإسلام في هذا المقام وهذا نصها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأول

(محاورة دارت بيني وبين صديقي محمود أفندي طلعت أبو مسلم القاضي بالمحاكم الأهلية)

(الدره) أنها الأستاذ . كثر القيل والقال في أمر تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن معاشر المسلمين ولاسيما علماء القانون لا يزال بعضنا في شك مريب مما ذكر ويذكر في كل آن في المسألة ، ولقد تربصنا قولك فلم نحس لك من خبر ، ولم نسمع لك من ركز ، فأقبل بعضنا على بعض متخافتين بيننا فالتين : لولا أن الأمر عسير عليه ليس له فيه مقنع ، وعقبة كأداء ليس لديه لها مطلع ، ما أغمض الجفن على القننى ، ولا بقى في غطاء عن الأمر مع كثرة الطلب والإلحاح للتوالى عليه من الفرق المختلفة عزين .

(الأستاذ) لم أذر القول فيما مضى إلا لأعمال متراكمة ، ودروس مترادفة ، يتخللها سامة ، تتبعها كلاله . ولم أشأ أن أفق موقف الراد على فريق معين ، أو قائل متهور ، أو مدع يتبين جهله . فالقرين لقرينه منسوب والكى يذكر بصدده ، والمرء يتحدث مع نده . إنما تربصت هذه المدة حتى تبين الحقيقة واضحة ناصعة وتكون رسالتى قائمة بنفسها : ولأف على أكثر ما يجول في الحواطر حتى يكون الدواء على مقدار الدواء والجواب على مقدار السؤال .

(الدره) كيف تزوج النبي صلى الله عليه وسلم تسعا وقد حرمت الشريعة ما زاد على الأربع ، وأنت خير بأن من مرن على القانون يختلجه الشك والريب إذا رأى أن الشرع قد اختلف بما لم يبجعه لعيره ؟ وكيف يتزوج تسعا ويمنع غيره مما زاد على الأربع وسنن الأنبياء تأبى ذلك . ألم تر إلى ما حكى الله تعالى عن شعيب « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » وههنا المخالفة واضحة ؟

إنا معشر المعلمين يستصعب علينا أن نفهم جواز مخالفة القانون ولو بحجة الخصوصية التي كثيرا ما سمعناها من شيوخنا وقرأناها في الكتب فتبيننا صلى الله عليه وسلم يتبعه نحو خمس النوع الإنسانى وسيرته قدوة للأمم . (الأستاذ) لعل النبي صلى الله عليه وسلم تزوج هؤلاء السيدات قبل تحريم ما زاد على الأربع وهن عائشة وميمونة وصفية وحفصة وهند وزينب وجويرية ورملة وسودة .

(الدره) مامنه أن يفعل معين مثل ما أمر الحارث بن قيس ، قال « أسلمت وعندى ثمان نسوة فقد كرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اختر منهن أربعة » أخرج أبو داود . وهلا فعل هو كما أخبر غيلان بن سلمة الثقفى ؟ أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعة أخرج الزمردى ، وروى « أن نوفل بن معاوية أسلم وتحتة خمس نسوة فقال عليه الصلاة والسلام أمسك أربعة وفارق واحدة » والنبي صلى الله عليه وسلم كان عنده تسع فهو وسط بين ابن قيس وبين ابن سلمة . ألما كان الأجدر أن يفارق خمسا ويبقى أربعة ؟ .

(الاستاذ) قد أعددت ثلاث إجابات لك في كلهن (١) شاهد مقنع .

(المدرة) هات أولها .

(الاستاذ) لقد حرم الله عليه أن يتزوج غيرهن وأن يستبدل بهن من أزواج ، فكان للعالم بكل من الأربعة غيرها بحيث يتزوج غيرها ويطلقها والرسول محرم عليه ذلك ، قال الله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ماسكت يمينك » . قال البيضاوي لا يحل لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له نكاح أخرى « ولا أن تبدل بهن من أزواج » فتطلق واحدة وتتكح مكانها أخرى . وقال ابن عباس : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر لمن الله ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن ، فيتين منه أن القانون قد اشتدت وطأته عليه فجعل لمن أن يأمن الطلاق والاستبدال وسواهن لا يأمن طلاقا ولا استبدالا ، فكثر العدد له تقابل الحصر والمنع ، وقلة العدد عند المسلمين مقرونة بالتوسعة استبدالا وطلاقا ، فلئن ضيق على المسلمين في السلم فقد ضيق عليه في الكيف ، ولئن وسع عليه في السلم فقد وسع عليهم في الكيف . فالمساواة متعادلة ضيقا وسعة .

(المدرة) لقد قال هذا القول قبلك أحد الكتاب ولم يكن لدينا واقعا موقع الماء من ذي الغلة الصادي ، فالقانون لم يزل كالمحترم وهو عند الله والناس المحترم ، فليكن منهج المساواة أقرب من هذا وأدعى للطمأنينة ، فاننا قد أصبحنا في زمن لانعرف فيه للمحاباة معنى ولا نعد مثل هذا إلا تلمسا لجواب من أي باب . نعم هذا فيه مساواة في الحقيقة ولكن يصبح القانون نوعين لا قانونا واحدا .

(الاستاذ) لو طلق نساءه صلى الله عليه وسلم لكان ذلك خلافا في السياسة . وسوءا في التدبير ، وتفريفا للسكينة ، وبخلا بالجاء على مستحقه ، والأنياء أحق الناس بالكياسة والفضل والسماحة . من ذا ترى أحق بالطلاق من نسائه ، عائشة بنت أبي بكر . أم حفصة بنت عمر بن الخطاب ، أم زينب ابنة جحش الأسدية ، أم سلمة بنت أبي أمية المخزومي ، أم أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، أم صفية بنت حيي بن أخطب ، أم ميمونة بنت الحارث الهلالية ، أم سودة بنت زمعة بن الأسود ، أم جويرة بنت الحارث المصلقية ؟ فواؤه لئن طلق عائشة بنت أبي بكر لزلزلت القلوب ولكان ذلك أمرا إذا تكاد الأفئدة تنفطر منه وتنشق المرار ، أنى يكون ذلك وأبو بكر رفيقه في الفار ، وداعى أهل الضلال والكفر للإسلام ، وصاحبه الأول ، ومؤاسيه بنفسه وماله . لئن فعل ذلك لكان أسوة سيئة لنا ، ولكان الغدر بالأصحاب ، من خلال أولى الأبواب ، ولئن طلق حفصة بنت عمر بن الخطاب لكان ذلك نقطة سوداء في جبين الشرف . وسبة شعاع في وجه الأدب وكفرانا للنعيمين ، وطغيانا على الصحابة الصادقين . فيالها من فضيحة يخجل لها وجه الزمان ، ويسود لها الحدثنان ، ويندى لها جبين الفضيلة ، وينتصر بها جنود الرذيلة ، وبشمت لها جماعة الأعداء ، ويتمزق بها عن الصلح شمل الأخلاء . ألم تر إلى ما ورد في السيرة الحلبية ومثله في البخاري زيادة وحذف في مختلف الروايات عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ذكر أن بعض أصدقائه من الأنصار جاء إليه ليلا فمدق عليه بابه وناداه قال عمر فخرجت إليه ، فقال حدث أمر عظيم ، فقلت ماذا ؟ أجات غسان ، لأننا كنا حدثنا أن غسان تعمل الحيل لغزونا ، فقال لا بل أمر أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، فقلت خابت حفصة وخسرت ، كنت أظن هذا كائنا حتى إذا صليت الصبح شدت على ثيابي ودخلت على حفصة

(١) كلمة بضم الكاف وتشديد اللام للمؤنث في بعض اللغات .

وهي تبكي ، فقلت أطلقسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت لا أدري هو هذا معترلاً في هذه المشربة . وفيه أنه أستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وفي كل منهن يجيبه الغلام بقوله ذكرتك له فصمت ، قال فلما كانت المرة الرابعة وقال لي مثل ذلك وليت مدبراً . فإذا الغلام يدعوني ، فقال ادخل قد أذن لك فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو متسكى على رمل حصير قد أثر في جنبه صلى الله عليه وسلم ، فقلت أطلقت يارسول الله نساءك؟ قال فرفع رأسه إلى وقال لا . فقلت الله أكبر الحديث مطولاً . وفيه قال عمر فقلت أستأنس يارسول الله . قال نعم ، فجلست وقلت يارسول الله قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله فاستوى صلى الله عليه وسلم جالساً وقال : أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت : أستغفر الله يارسول الله (ولقد اقتطفنا من الحديث ما يليق بالمقام) فانظر كيف كان عمر وصاحبه يظنان أن طلاق نساءه أشد من غزوة الأعداء وحلول البلاء ، ثم يفرق ويدهش ويستأذن ، ثم يرد وهو يوجس في نفسه خيفة وكأنه ظن أن غضب الله ولعنته ، وجهنم وخزنتها ، والزبانية وسلطنها تحيط به وابنته لو طلقها النبي . وروى « أنه كانت جفوة بين حفصة والنبي صلى الله عليه وسلم فبلغ أباه عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم طلقها فحشا التراب على رأسه وقال ما يعأ الله بعمر وابنته بعدها . فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم من الغد وقال : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر » أي تصالحها . وقال عمار بن ياسر رضي الله عنه « أراد النبي أن يطلقها فقال له جبريل عليه السلام إنها صوامع قوامه وإنها زوجتك في الجنة » فهل ترى بعد هذا طلاق عائشة أم حفصة ؟ فقال أما هاتان فطلاقهما فتنه وعنة ومفسدة أي مفسدة .

(الأستاذ) فهل ترى طلاق أم سلمة للجماعة هنذا زوج أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عممة النبي صلى الله عليه وسلم وهي برة بنت عبد المطلب وكان زوجها أخاه من الرضاع ، مات أبو سلمة ومعها أربع بنات برة وسلمة وعمرة ودرة فأراها النبي صلى الله عليه وسلم إليه وتزوجها بعد أن اعتذرت إليه وقالت إني امرأة مسنة وإني أم أيتام ، وإني شديدة الغيرة فأجابها على لسان رسوله بقوله : الأيتام أضممهم إلي وأدعوا الله أن يذهب عن قلبك الغيرة ، ولم يعأ بالسن بل كانت تلك المزهدات والعقبات من أقوى الدواعي للاسراع في طلبها عطفاً عليها ، ورحمة بيناتها ، وصلة لرحمها ، ومعرفة بحق أخيه من الرضاع ، وإبواء لصغارها من بعده أقرام يطلق بعد ذلك ، ولو أنه فعل لكان أمراً نكراً ، واستضعافاً للأيتام ، واستخفافاً بصلة الأرحام ، واحتقار ، لشأن اللاجئات إليه اللاتي يستحقن معونته ؟ أم يطلق زينب ابنة جحش امرأة زيد الذي تبناه صلى الله عليه وسلم وتزوجها بعد طلاق زيد رمزا إلى ما يقع في بلاد المسلمين كل آن من بعده ، إذ يصطفي الدعوى بعد النسب ويقصى القريب ، فيكون الخلل في السياسة والخلل في الرياسة ، والاسلام وإن سوسى بين الناس وجعلهم أخوة في أعمالهم الدينية والدينية فقد نظر من وجه آخر إلى الكياسة في السياسة ، فلقد يصدق المولى ، ولقد يكذب ، نعم صدق زيد وصدق ابن زيد أسامة ، نعم هؤلاء ، وأضربهم كانوا من أجل الأنصار بل قواد الجيوش المدافعين عن حوزة الاسلام وبيضته بالقنا والسيوف ، كل ذلك مسلم ولكن نظر النبي نظراً أدق وعلمه الله بالوحى ما جهله الملوك العباسيون كالمعتصم والترك فجعلوا الموالى أولى بالمنصب ، وأحق بالكراسى ، وأجدر بحفظ السياسة ، والاستبداد بالرياسة ، حثق القول على أكثرهم فهم يعمهون . نظر ذلك كله النبي فأمره الله أن يتزوج زينب وألقى في روعها بغض زيد فلما شكها زيد أنفتها منه ، وجفوتها له ، وشمخها بأنفها خيلاء وكبرا ، إذ كانت من صميم قريش وهو مولاها قال له « أمسك عليك زوجك واتق الله » ولامه الله على ما كنتم

في نفسه من أنه أمر قبل ذلك وأحبر بأنه سيتزوجها فقال له « ونحفي في نفسك ما الله مبديه ونحشى الناس والله أحق أن تحشاه » .

ذلك لأن يصدع بالأمر ولا يخاف في الله لومة لائم فكيف يحجل من تغيير مآظمت عواقبه الوخيمة بعد ذلك واستبان ضرره ، فلقد كان للترك في دولة بني العباس من الفتك بالملوك ، وتسميل العيون ، وقطع الرقاب ما تشع منه الجلود ، ولكم شدخوا الرءوس واستزلوا قرابة النبي بعد عز من مراتبهم بشهوة عرضت ، وعمية بدت ، وضغينة كاذبة يبتدعونها وأعراض ذميمة يقبعونها ولآثام يفترونها . وكذلك أولئك الجنود المختلفون والفرق للنشاكسون المسمون الانكشارية علموا أنهم من وشيجة غير الترك ومن عنصر لا يتصل معهم ولا يلتئم فأخذوا للمنفعة ثم أتوا صفا وأهلكوا الحرث والنسل في أنحاء الدولة وقد استقام الترك لتلك العقارب والحيات كما استقام العرب قباهم لعلمان المعتصم الذين تناسلوا وتكاثروا وأوقفوا الدولة في حيص بيص ، ففترقت شذرمذير ، ومزقت كل ممزق ، وأصبحوا أحاديث للأمم الحاضرة والغابرة ، ذلك ما كان يرمز إليه زواج زينب ابنة جحش ، ذلك هو السر المصون ، والجوهر المسكون ذلك أصل سياسة الله في الاسلام جهالها الناس ، ولئن علموا فلقد غشى على أعينهم الطمع ، وذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

وها هنا قال المدره للأستاذ: آن أوان الانصراف ، فلنعد غدا صباحا ، وإن موعدنا الصبح ، « أليس الصبح بقريب » .

المجلس الثاني

جاء الأستاذ والمدره وقال الأستاذ هانحن أولاء فرغنا من الكلام على زينب ابنة جحش أم المؤمنين رضي الله عنها ، فنقول اليوم أترى أن يطلق أم حبيبة وهي رملة بنت أبي سفيان بن حرب وهي التي نبذت دين أمها هند وأبيها أبي سفيان خلف قريش زعيم القوم وكبير العشيرة أبي معاوية . هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فولدت له حبيبة وبها كانت تكنى فنصر زوجها هناك وتبنت هي على الاسلام ، فانظر كيف رزئت بهجر أبوها ثم بفراق أهلها وقومها وعاشت قوما سود الألوان مخالفتونها في العقيدة وهم الحبشان ثم تنصر زوجها فهل بعد ذلك من محن تصب وإحن وعذاب واصب ؟ فماذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم فكأنها؟ أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي رحمه الله ، فزوجه صلى الله عليه وسلم إباهما ، وأصدقها النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم أربع مائة دينار ، والذي تولى عقد النكاح عثمان بن عفان ، وجهرها النجاشي من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة فهل يكافئها بمثل هذا ويرفع عنها الضم الذي توالى عليها بسبب الاسلام ويشرفها ويرفع رأسها بين قومها ثم بعد ذلك يفارقها ؟ إن هذا لمار وأى عار ، بل إنهم كبير ، وزلة لا يغفرها الدهر ، ولا يرضاها الصموك الغر ، فما بالك بمن هو القدوة الأعظم ، والسيد الأكرم ؟ أم يطلق جوهرية بنت الحارث بن ضرار سيد بني الصطلق واسمها برة التي تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد أن اعتقها ، ولما رأى المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم تزوج جوهرية قالوا في حق بني الصطلق أصهار رسول الله فاعتقوا ما بأيديهم منهم ، قال في الإمتاع: ولما تزوجها صلى الله عليه وسلم خرج الخبر إلى الناس وقد اقتسموا رجال بني الصطلق وملكوهم ، ووطئوا نساءهم ، فقالوا أصهار رسول الله فاعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبي فهل يطبقها بعد أن شرفت قومها بزواجه فرفقوا رءوسهم بين القبائل ؟ أفيجوز في شرعة الفضيلة أن ينكسوا رءوسهم بين اللأصاغر بن ، ويعيروا بالحية والتماسة خاسئين ١ ؟ .

(المدرة) هذه العاذر التي ذكرتها إقناعية لا روي من غلة ولا تشفي من غلة ولسكها تقوم حجة وقتية ،
ويجزي بها أواسط الناس ، فأما الأذكياء ، فإنهم يبقون وعندهم بعض ريب وقلق واضطراب .
(الأستاذ) ولماذا ؟

(المدرة) إن ما جاز أن يكون شأنه مع نسائه يجوز أن يكون مع سراة العرب وأشرافهم ، فلقد يجتج
كل بما برزاً نساءه من المصائب ، وما يفتابهن من النوائب ، وما يعترى أحبابهن والحبائب : من تنكيس
الروس ، وحلول البؤوس ، وذل النفوس ، وشماتة الأعداء ، وحزن الأخلاء .

(الأستاذ) ليس شأن سراة العرب وصعاليكهم كشأن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا وقائعهم كوقائمه ،
فالطامة هنا كبرى وهي متوجهة للأمة ونظامها كما أوضحته لك فيما مضى ، وكيف تذبى عمر وما حثا من التراب
على رأسه وهو ركن مهم في الإسلام . وكيف قال هو وصاحبه إن طلاق نسائه أشد من احتدام وطيس الحرب
وضرب الهام ، وإعمال السيوف ، واقفنا يقرع القنا ، وأمواج الناياء تتلاطم .
نم قال الأستاذ لماذا كنت تفعل لو كنت مكان النبي صلى الله عليه وسلم ؟

(المدرة) أنتهج خطة الحيلة بحيث أسلط القانون على الناس ثم لا أمس شرف هؤلاء السيدات بسوء .
(الأستاذ) وكيف ذلك ؟

(المدرة) أملكهن زمام أنفسهن ، وأخيرهن . فأكون قد مهدت لنفسي العذر ، وقطعت لسان العذل ،
فلو طلقت إحداهن نفسها لم يسود وجهها بما يقول الناس إن النبي أبغضها فبئذها وليس مقام النبوة بمه سوء
من فراق سيدة لم تختره .

(الأستاذ) قد فعل النبي ذلك إذ قال الله له (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا
وزيبتها فتعالين أمتكئن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله
أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) . فبدأ بعائشة فقال يا عائشة إني أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه
حتى تستشيري أبويك ، قالت وما هو يا رسول الله ؟ فثلا عليها الآية ، قالت أفبك يا رسول الله أستشير أبوي ؟
بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألا تخبر امرأة من نساك بالذي قلت ، قال لا تسألني امرأة
منهن إلا أخبرتها . إن الله لم يعثني معنتا ولا متعتا ، ولكن بعثني معلما ومبشرا .

(المدرة) هذا كلام حسن ، فماذا كان بعد ذلك ؟

(الأستاذ) اختاره نساؤه كاهن ، وحرّم عليه استبداهن وطلاقهن كما تقدم ، وحمين أمهات المؤمنين ،
وأعطين هذه المنزلة السامية في التاريخ والأمم جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا .

(المدرة) هل كان نساء النبي يقدرن هذا المجد قدره . وهل رين أن المجد والشرف والاسم والصيت
فضلا عن الدار الآخرة أرقى وأرفع وأعز من المال والشهوات الحيوانية . وهل من حوادث تؤيد ذلك حتى
تقول إهن كن يردن الله والعزة والشرف والآخرة ؟ وحتى تضرب الذكرف صفا عما تعلمه من أنهن كن يطالبن
مه النفقة وأن ذلك كاث من أسباب هجره لمن شهرا كاملا لمغاضبتهن له ، فكان ذلك من أسباب نزول
آية التخيير .

(الأستاذ) نعم كن يقدرنه حق قدره ، ألم تر إلى أخت دحية التي ماتت من الفرح لما علمت أن النبي صلى الله
عليه وسلم تزوج بها . ولما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقن فقلن يا نبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت
ودعنا على حالنا . ألا إن للنساء نفوسا كالرجال : يحببن الشرف كما يحبون ، ويسعين للحياة والذكرف والأجر
وعلو الهمة كما يسعون . لقد برهنت النساء في كل زمان على أن فهن من تفضل الموت على العار بل إهن أرق

شعورا ، وألطف أفئدة ، وأشد قبولا لموعظة ، وأكثر تقديرا لفضيلة ، وأوفى ذماما إذا صدقن العشير . فانظر كيف قضت أخت دحية السكبي نحبها لما فاجأها من خبر زواجها بالنبي ، فقل لي رعاك الله . أكان ذلك لمال والنبي صلى الله عليه وسلم كان ينام على حصير ، ويأكل الشعير ، ولا يبالى بالحطام ، ونساؤه يطلبن منه النفقات ، ويقفن له كل يوم هات . أم لشهوة وعنده كثير من العقبيلات الفريديات وهو قائد حرب ، ومعلم تنفيذ وقائم ليل ، وصائم نهار ، وقاض بين خصوم ، ومفرج هموم . فماذا يكون حظ النساء منه . كلا ، وإنما ذلك الشرف والمزلة الرفيعة في الدين والدنيا . فلا عجب إذا قالت سودة بنت زمعة دعني حتى أموت تحت كنفك وقالت هي والباقيات لا تقتلنا بالفراق والطلاق ، رضينا بالقوت ورضينا بما تصنع معنا من ترك قسمة على أننا أمهات المؤمنين وأنا لا نتكبح بعدك حتى نزل قوله تعالى (رجى من تشاء منهمن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليا حليما) قال البيضاوي : رجى من تشاء منهمن وتؤخرها وتترك مضاجعها وتؤوى إليك من تشاء وتضم إليك وتضاجعها . وهناك أقوال أخرى غير هذا لاحاجة لها في موضوعنا . وقال مخاطبا للمؤمنين (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تتكبحوا أزواجه من بعده أبدا) فكان له بعد ذلك على ما ارتضين واشترطن معه أن يترك القسمة لمن يشاء ويرضين منه بما يرضاه فكانت الآية على وفق ما اشترطن وعلى ما رضين عليه لما نلن من شرف ، وما أحرزته من غر ، إلى أبد الدهر .

(المدرة) « لم حرمت أزواجه على المسلمين من بعده . وهلا أباح الله زواجهن أسوة بالناس ؟ (الأستاذ) إن من الحكمة التي أودعت ذلك أن في التحريم سدا لباب الفتنة وحفظا للسياسة وتوحيدا للكلمة . فلو أن إحداهن تزوجت رجل انتطاول للتدخل في السياسة ولتفعل بأدنى سبب ولأى وسيلة ما فعلته عائشة فقد أداها اجتهادها إلى محاربة عليّ مطالبة بدم عثمان يوم الجمل ، ولانافة لها في الخلافة ولا جمل ، ولكنها رضى الله عنها أداها اجتهادها إلى النهي عن النكر في نظرها واجتهادها . فلو أن إحداهن تزوجت رجل انتطاول للرياسة بحجة زوجية أم المؤمنين . ولكن له قدم صدق في الخلاف في مواطن السياسة . هذا فضلا عن إكرام النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه . فكان التحريم لحكمة بالغة وحجة نيرة وآية باهرة وبينه ، للباطل دافعة وللحق جامعة . فهل بقي في صدرك أيها المدرة حرج ؟ ألم يعذر الله والنبي وقد فعل مالا مطمع بعده إعتذار ولا بقيت سبيل لعالم نظامي وخرّبت لوذعي فيختار . بل قطعت الأسباب ، ولا ملجأ لعاقل بعد ذلك أن يلج من أي باب ؟

(المدرة) لم يبق لي إلا باب واحد الجبه ، وبحجة واحدة أسلكها . فهلا أخذ ذلك فرصة ونحى ممن جماعة للعبادة خاصة ولدراسة العلم والحكمة . واصطفي ممن أربعا ليكون حامعا للخصلتين مؤديا لغيرضين محيا للستين . فالمتروكات للدين والعبادات وذكر القرآن ومدارسته وفهم الأحاديث وحفظها على أن يقمن بهداية الخلق . وإرشاد الناس إلى الحق . والمصطفيات يكنّ على عدد الزوجات لسائر الناس ليكون ذلك قاطعا للألسنة للمحدثين ، وإرشادا للضالين . وحجة في هذا الزمان .

(الأستاذ) قد كان كل ذلك ، واختص النبي بأربع ولم يزد عليهن . وأبقى الباقيات يتسدا كرن القرآن والحكمة . ففي النسفي والحازن والسيرة الحلبية ما يفيد ذلك . قال في السيرة الحلبية مانصه [وقد كان أربعا النبي صلى الله عليه وسلم من نسائه خمساً سودة وصفية وجويرية وأم حبيبة وميمونة . وآوى إليه أربعا عائشة وزينب وأم سلمة وحفصة . ألا تعجب لم اختار أربعا ولم يزد عليهن ؟ فأما في ذكرهن الحكمة واحترامهن وعبادتهن فأقرأ ما قال الله « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة

وأطمئن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكركم مايتسلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا . إن المسلمين والسلمات والمؤمنين وللمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقات والصادقات والصابرين والصابرات والحاشعين والحاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما . أمرهن بالصلاة والزكاة وأن يعلن الحكمة ويذكرنها عسى أن يعلن الناس ويكن قدوة كما كانت أم سلمة وعائشة يعرفن كثيرا من الأحاديث وتروى عنهن . وكما كانت زينب بنت جحش صناع اليد ماهرة في الحرز وصنع الحفاف ، فكانت بعده صلى الله عليه وسلم تخرز وتدبغ الجلود وتدبغ وتنسج وتنسج بالثمن على الفقراء والمساكين فكانت قدوة [وباليت بنات المسلمين يعلن ذلك ، ليتهن يعلن أن بعض الصناعات كانت مما قام به زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كما تفعل الأمم للتمدنية الآن في أوروبا والشرق واليابان .

(الدره) عجب . إذن كانت تلك مدرسة ؟

(الأستاذ) نعم هما مدرستان ، فأول مؤسس لمدارس المعلمين والمعلمات في الإسلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهنا انقض الاجتماع وانصرفا على أن يعودا من الغد .

المجلس الثالث

(الأستاذ) ذكرنا أمس أن أول مؤسس في الإسلام لمدرسة المعلمين والمعلمات النبي صلى الله عليه وسلم وهذه مدرسة السيدات . أما مدرسة الرجال فهو المسجد والرجال هم الطلاب وهم أهل الصفة منهم أبوهريرة وصهيب وسلمان وعمار وأمثالهم ، ويقال إنهم يبلغون أربعمائة يأخذون الصدقات ويحفظون القرآن ويتعلمون الدين عسى أن يكونوا معلمين كما كانت أمهات المؤمنين معلمات فيما بعد : فهل بقي بعد ماتقدم قول لقائل ؟ أليس في إبعاد تلك السيدات عنه بحجة أو بغير حجة بعد ما ذكر قسوة وشدة لاجل لها . ألم يبين للشعب أن لا مطمع له في الاختصاص ولو كان جائزا له فساوهم في الأربيع وأرضى الباقيات أن يرجأن اختيارا منهن وقصرهن على العبادة والتعليم ، فالطلاق إذن طريق وعر ومسلك خبيث بل معرفة بأنف منها العاقل والجاهل فضلا عن الصالح والعالم ، والنبي صلى الله عليه وسلم لو أنه فاجأهن بالطلاق قسرا لكان ذلك أشبه بما صنع عمر من بعده إذ فاجأ جيلة بن الأبيهم آخر ملوك الفسانيين بالشام ، وقال له لتقتس منك لهذا الأعرابي الصعلوك فلنكسر سنك كما كسرت سنه ، ولم يتشد عمر في ذلك ولم يترقب حتى يجد له مخرجا من عفو أو قبول أورش ، ولم يطاوله فقر جيلة ومعه ستون ألفا من رجاله إلى بلاد الروم فتنصروا ، ذلك لصرامة عمر في القانون ولم يترص حتى تتيح له الفرص مخرجا . فما فعل النبي صلى الله عليه وسلم لا مفر منه ولا مخلص . فليس في الإمكان أبدع مما كان .

(الدره) واهالك ثم واهها واهها . لقد أتيت بالعجب . وعلمت منك مالم يكن ليخطر على بال . وإن في بيانك لسجرا . فما الجواب الثاني ؟

(الأستاذ) أما الجواب الثاني فقيل : إن أولئك النفر وهم غيلان ونوفل بن معاوية والحارث بن قيس أسلموا بعد نزول آية التحريم فيكونون قد اعتنقوا الدين بجميع نواحيه وأوامره ، فتحديد العدد واجب عليهم . فأما أولئك الذين أسلموا قبل التحريم وهم جموع وافرة وألوف مؤلفة وربيون كثير . فما قرأنا ولا

روينا أن أحدا منهم فارق مازاد على الأربع . ولو كان ذلك لنقل إلينا واتصل بنا . وأمر تعدد الزوجات ليس يسير وإنما هو أمر اجتماعي يؤثر في أحوال الأمة ونظام الأسرات . بل نظام الاجتماع ليس يصح إلا بعد نظام الأسرات . فلو أنه أمر بفراق مازاد على الأربع جميع من أسلموا قبل التحريم ماخفي علينا ولتعدد النقل وكثرت الشواهد والدلائل ، وعليه يكون صلى الله عليه وسلم واحدا من جم غفير من المسلمين أسلموا وعندهم جمع السكرة من النساء ولم يطلقوهن فليس يعقل أن تكون تلك الألوف المؤلفة والجموع المختلفة والفرق المتفرقة المنتشرة في جزيرة العرب يمتنعون عما زاد على الأربعة قبل التحريم من الفحطانيين والزرايين ويختص بذلك أربع النبي وأولئك الثلاثة ويكون كل أولئك الذين أسلموا قبل نزولها غير متجاوزين الأربع وفيهم السراة الثورون والشجعان الجحاجيح والقروم الفساقيم والسادة الصمام وذوو البأس والشدة الذين هم أقدر الناس على الشهوات وإحراز العقيلات الفائنات ، فهذا كاف وحده لمنع هذه الشهية .

ثم قال الأستاذ : أما الجواب الثالث فلنضرب الذكر صفحا عما تقدم ، وكأن الجوابين السابقين لم يكونا لاسبا أن الاجماع قام على أن ذلك خاصة له صلى الله عليه وسلم والاجماع حجة فيسقط الجواب الثاني بذلك ونقول : إنه مامن دين إلا وقد أحاطت بالقائم به شكوك في لفظه أو فعله أو نتائجه ، فانظر في سير الأنبياء السابقين واللاحقين تر أن لسلك واحد منهم ولسلك قائم بعمل من سائر الناس في أحواله وأعماله [وجهين] وجه يتلأأ نورا وتستبين فيه الحقائق واضحة جلية . وآخر تنعكس فيه الحقائق على طائفة من الناس وتسود وجوههم فيلج الشك . في قلوبهم ولا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم ، وهذا في المشاهدات معلوم . يرى الناس الأشجار على شواطئ البحار ذات ظل في الماء منعكس أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ولا حقيقة لهذا وإنما ظله مرتمس على سطح الماء فيخيل للناس أنه متدل إلى أسفل ويرون النار المتقدة من بعيد كبيرة وهي صغيرة ، ويرون الشبح فوق الجبل صغيرا وهو كبير ، ويرون الزجاج الصدوع أبيض ولا يبيض وإنما هو ضوء الشمس أو غيره ، وتبين الحقائق عند التدقيق ومثل هذا في السموع عن الأنبياء . ألا ترى إلى قصة الحضرة عليه السلام إذ اقتلع لوحا من السفينة فلامه موسى عليه السلام ، فلما أن تبينت الحقيقة أدرك أن «فوق كل ذي علم عليم» وأن الوجه الذي تراه له أسود ، وأن المقصد إغاثة اليتامى بيب السفينة لئلا يأخذها الملك غسبا .

وما كان ذلك إلا للأخذ بظواهر الأمور ، وانعكاس الحقائق في الرويات كما عكست في المراثيات . وفي قصة داود وسليمان معتبر فقد كان لأولهما (٩٩) امرأة وآخرها المئات من الحور الحسان «كأنهن الياقوت والمرجان» مما ماج به قصره . وازدانت بهن حجره ، وحكم سليمان ومزامير داود عمت أرجاء المعمورة ، وأنت تعلم أن اليهود والنصارى والمسلمين يعمرن الأرض نحو نصف النوع البشري نحو سبعمائة مليون ، يؤمنون بـداود وزبورهم ومزاميرهم ، وترى اليهود والنصارى يتلوها آنا ، الليل وأطراف النهار ، يتاجون ربهم بكرة وعشيا ، متضرعين بما في الزامير من الآيات ، ولا يجدون في صدورهم ما يجد الناس اليوم مما توج به بحار الأنفس ، وقواميس العقول ، وتغلى به مراجل التعصب اليوم لبضع من النساء كن عند آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، علمت الأنفس بفطرتها أن الديانات واللذات لاتصدع بمثل هذه التشبهات التي قد يعوزها الدليل والبحث فلا يعباون بمثل تلك الشكوك ، إذ هو مما يبدو لبعض النفوس وجها أسود بادي الرأي ، ولو حقق الأمر الأديب ، ودقق الأريب ، لوجدوا العالم كله ليس يخلو من الوجهين في ظواهر الأمر وعند التحقيق يشجلى لا عوج فيه ولا شبه «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» ولأضرب لك مثلا بالشمس ترسل أشعتها الذهبية فيكون منها حياة الحيوان ، وقوام النبات ، واستضاءة الطرق والمسالك ، وجرى الأنهار بحرارتها ، ومع ذلك لاتعدم زاريا عليها ، عائبا لها لوجهها السود في نظره الحكمة لم يفقهها ، وآية لم يدركها

لهاجرة لدغته ، أو ريح سموم آذته ، أو ضربة شمسية في رأسه أصمته ، أو زيادة حسرة في عينه أعمته .
لاستعداد في نفسه ، وضعف في جسمه ، وخلة في المزاج .

ومن يك ذاق مرّ مريض يجد مرّا به النساء الزلالا

فلا عيب على الشمس الضيئة ، إنما العيب على القوابل الرديئة ، فيعمى إذ ذاك عن فضائلها ، ويحكم بالجزئي
الوهوم على الكلي والعموم ، وقد دق ذلك الجزئي فلم يحط به علما ، فكان النظر جزئيا لا كليا ، بل وهميا
لاعقليا . فالأنبياء والمصلحون كالشموس ، وعلومهم كالأنوار ، والمحدون أصابهم حرها لضعف
عقولهم وإدراكهم .

ومن يتطلب جاهدا كل عثرة يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فلا ضرورة إذن لما صح من الجوابين السابقين إلا ردا لما يقال على السنة أولئك الثرثارين وإلا فيالله
قل لي كتاب الله بين أيدينا ومالنا ولهذا الأضاليل والسخافات . مضت الرسل وكانوا يتزوجون العدد الجم
من النساء ولا اعتراض عليهم حسب شرائعهم وأزمانهم وأنهم لا تعترض ولا نسخط . قتل الإنسان ما جهله .
قتل الإنسان ما أظلمه . قتل الإنسان ما أقل علمه ، وما أتمس نفسه ، يتركون مالهديهم ، ويأتون بخيلهم ورجلهم
وصفوفهم ليحاربوا ديننا في مسألة عرضية لاجوهرية ، وثانوية لأولية اللهم إن عبادك في الأرض يصلون
وأكثرهم فاسقون ؛ يتبعون الشهوات في لهجة . فوائه لا يريدون وجه الله ، إنما هو وجه الشيطان وخبت
النفوس ، وجهل العامة . اللهم إن أكثر الناس ظلموكم كفار . اللهم إنا خلقنا في أمم يسير سوادهم مع الأهواء
يساقون كما تساق الأنعام . ما حجبهم إلا الغالطات . كل يسعى لملء بطنه ، وسد نهمته ، وشهوة فرجه ،
وسلخ جلود الأمم الضعيفة وذبحها على أنصاب الأمم القوية ، فسلخ العلم أذكي سلاح وأمضاء ، وهو طليعة
جيش المدافع والسهام .

(المدرة) قد تجت الحقيفة ، وتلا لأ نورها ، ووضع الحق ، واستبان السبيل ، وإن أريد الكلام على
تعدد الزوجات وجعلها أربعة .

(الأستاذ) لها وقت آخر ، وانصرفا وهما فرحانان مستبشرين .

المجلس الرابع

(المدرة) قد اتفقنا في الاجتماع القائم أن نأخذ بأطراف الأحاديث بيننا في أمر تعدد الأزواج للمسلمين
ولكن اليوم تبدت لي شبهة فلا أقدمها بين يدي ذلك السؤال .

(الأستاذ) أنا لا أفهم أنت مؤمن أم كافر ؟ فإن كنت كافرا فلا شأن لي معك ، وإن كنت مؤمنا فلندع
المقال . ألا وإن نبوته ثابتة عقلا ، ألا ترى إلى ما قاله كارليل المؤرخ الإنجليزي في كتاب الشجاعة والشجعان
وكيف برهن كما برهن شرار العقائد النسفية بالتأنيج والتمترات . قال كارليل . [رجل بني بيتنا حسن البنيان
متين التركيب . قائم الجدران منتظم الأركان ، ثم بقي البيت ألفا ومائتي سنة لم ينهدم منه ركن ، ولم تسقط
من أعلاه شرفة ، وهو لا يزال يزداد جدة مهما تقدم عهده ، وبعد أمده ، فهل بينه دعي في البناء] الباني
محمد صلى الله عليه وسلم والبيت الاسلام ، فإذا ثبت لديك نبوته فاضرب بالشكوك عرض الحائط ، وهناك أدلة
التجربة تجرب قوله في الحديث وفيما أنزل عليه من القرآن وانظر هل تكون النتيجة كما أخبر الدين أو ماذا
تكون ؟ فإن صدقت النتائج فالقول حق ، فإذا قال «والدين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين»

فاعمل بها وانظر النتائج ، هذه أمور قد فرغ العلماء والكتاب منها ، وجربوها وصدقوها ، فكن على آثارهم
واقعد بأعمالهم تفرح كفوزهم .

(المدرة) أنا مؤمن ولكن أسألك ليطمئن قلبي ولأحاج الجاحدين .

(الأستاذ) الجاحدون إذا لم يؤمنوا فلترك الجدل معهم .

(المدرة) حقا ، ولكن بعض الشبان يحار فيها لعموم المضلين ، أذئاب الأوربيين في بلادنا . إذ قد أتوا
صفا ، وقالوا لقد أفلح اليوم من استعلى .

(الأستاذ) وغلامه ، ماذا يقول أذئاب الأوربيين .

(المدرة) يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم كان مغرما بشهوة النساء وقد استدلوا بحديث في طبقات
ابن سعد أنه جرى له بقدر فأكل منها فأعطى قوة أربعين رجلا في الجماع وهذا الكتاب يسمى كتاب الطبقات
الكبير تصنيف محمد بن سعد كاتب الواقدي رحمهما الله وطبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل وهو خمسة عشر
جزءا وصححه علماء ألمانياون بأمر من الجمعية الكبرى الأكاديمية اللوكية البروسانية سنة ١٣٣٢ فيه أن المؤلف
روى عن محمد بن عمر عن رجل يسمى موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال إن النبي صلى الله عليه وسلم
قال كنت من أقل الناس في الجماع حتى أنزل الله علي (الكفيت) تصغير الكفت لما أريده من ساعة إلا وجدته
وهو قدر فيها لحم . وفي رواية لقيني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت الكفت قوة أربعين في الجماع .

(الأستاذ) تبسم ضاحكا وقال : أهذا حديث النبي ؟

(المدرة) نعم . ضحك الأستاذ ثم استهزأ بالقول وسخر . وقال إما أن تصدق ما في القرآن من آيات :
وإما أن تصدق هذا الكلام . يقول الله « وإنك لعلى خاق عظيم » ويقول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ثم يأتي
أذئاب أوروبا . وصغار العقول وذبان العلماء . يقولون إنما جاء يعلم الناس قوة الجماع بأكل لحم في قدر . وفي
المثل العامي : إذا كان للتكلم مسلوب العقل فلا سامع فؤاد يعقل ونهى وارب . يميز الحق من الباطل . نبي
يقول الله على لسانه « أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون » ثم يقال كان
يعلم الناس علم الشهوات . هذا ضلال مبين .

(المدرة) ما قلت معقول ، فماذا تصنع في الحديث .

(الأستاذ) الحديث مزور مكذوب وقد أخطأ ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير .

(المدرة) إن هذا الكتاب أجمع وأحسن كتاب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين ، وإذا
لم تثق به فم تثق .

(الأستاذ) الحديث مكذوب موضوع .

(المدرة) غضب غضبا شديدا كيف تقول مكذوب وما برهانك ؟

(الأستاذ) تبسم ضاحكا ، هذا الحديث مروى عن عمي نصار بائع القول للدمس أمام باب الصعابدة بالأزهر

(المدرة) أخرج من الجد إلى الهزل .

(الأستاذ) ما قلته لك حق .

(المدرة) الحديث في طبقات ابن سعد . وهو في القرن الثالث وهذا الرجل في أوائل هذا القرن
الرابع عشر فليس ما تقول مقبولا .

(الأستاذ) اسمع أيها الصديق ، إذا أثبت لك أنه مروى عن رجل يشابهه في صنعه أراد أن يشتري

بيبع الهريسة ، القمح المدقوق للطبخ في القدور كالدمس فماذا تقول ؟

(المدرة) أقول : إن أذئاب الأوربيين جميعا قوم لاخلاق لهم ، وإنهم صعاليك الأمم يريدون بنا شرا

ولسنا نذم إلا الكذابين الضالين منهم . فأما حكاؤهم وعظماؤهم وأجلاؤهم فلمهم عندنا مقام عظيم .

(الأستاذ) أتعطيني عهدا ؟

(المدرة) قال نعم .

(الأستاذ) قال العقيلي : حدثنا معاذ بن المثني ، حدثنا سعيد بن العلي ، حدثنا محمد بن الحجاج عن عبد الملك بن عمير عن ربي بن خراش عن معاذ بن جبل قال : قلت يا رسول الله هل أوتيت من الجنة بطعام؟ قال نعم ، أوتيت بهريسة فأكلت فزادت في قوتي قوة أربعين وفي نكاحي نكاح أربعين . قال وكان معاذ لا يعمل طعاما إلا بدأ بالهريسة . قال العقيلي : هذا حديث وضعه محمد بن الحجاج اللخمي وكان صاحب هريسة وغالب طرقة تدور عليه وسرقه منه كذابون . أليس يا صديق هذا نصا على أن هذا الرجل هو المخترع وأخذه كثير عنه بأسانيد اخترعوها وألقاها غيرها . أو لم أكن صادقا في قولي لك إنه مثل عمي نصار بائع اللدس ، فهذا اشتهر بالدموس ، وذلك اشتهر في هريسة فكسب مالا عظيما بهذا الكذب . وذبان أوروبا يتبعون ذلك الفحش والحقارة والدناءة ليضحكوا على عقول الجهال . وقال ابن عدي : هذا الحديث روى عن سلام بن سليمان عن نهشل ونهشل وسلام متروك مرعى وأن أحدهما سرقه من محمد بن الحجاج وركب له إسنادا . وقال الأزدي : هذا حديث روى من طريق إبراهيم بن محمد وإبراهيم هذا ساقط . فترى أنه سرقه وركب له إسنادا .

(المدرة) الآن قد اكتفيت فلك الشكر والثناء على ما أوفيت . إذ قد حصص الحق . وانقضت غياهب الشك « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » وإني لأعجب كيف يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(الأستاذ) الموعد غدا في المجلس الخامس إن شاء الله تعالى .

المجلس الخامس

(انتظم المجلس وتناجى الأستاذ والمدرة)

(المدرة) وعدت أنها الأستاذ أن تفيض في الكلام على الأحاديث للوضوعة وكيف تسنى لامرئ أن يكذب على رسول الله ﷺ .

(الأستاذ) لا تعجب من قولي . فكم من عجب في هذا الإنسان ، فلقد طغى وبغى وكذب قديما وحديثا ، ولم يذر من شيء إلا أحاطه بشروره وألبسه من أثواب زوره ، ونسج بعناكب بهتانه على حقائقه ، ولكم أنبت في طيب أرض الحقائق من شوك قتاده وحسك عناده وعضاه اختلاقه . فإذا رأيت الأمم الحاضرة والجرائد السائرة تتخلق إفسا وتفترى إنما فهكذا كانت فرق من السابقين وعززون من الأولين يتقولون على النبي صلى الله عليه وسلم لأغراض يقصدونها وآثام يمترحونها ومقاصد يؤمونها ومناصب يرتقونها وممالك يحكمونها وظلمات يمترحونها . ألم تر إلى ماروي عن عبد الله بن يزيد القرقي قال :

(١) رجع رجل من أهل البدع عن بدعته فجعل يقول : انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه فإننا كنا إذا تراءينا رأيا جعلنا له حديثا .

(٢) وعن ابن لهيعة قال : سمعت شيخا من الخوارج تاب ورجع فجعل يقول : إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإننا كنا إذا هويينا أمرا صيرناه حديثا .

(٣) وعن حماد بن سلمة قال : حدثني شيخ من الرافضة . قال : كنا إذا استحسنا شيئا جعلناه حديثا

(٤) وعن أبي أنس الحراني قال : قال المختار لرجل من أصحاب الحديث : ضع لي حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كائن بعده خليفة مطالباً بتره ولده وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة ومركوب وخدام ، فقال له الرجل : أما عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا ، ولكن اختر من شئت من الصحابة وحط من الثمن ماشئت (للدره) إن شئت أن توضح هذا الأخير فإني لفي حاجة إليه .

(الأستاذ) إن المختار كان أميراً على الكوفة مطالباً بئثار الحسين رضي الله عنه ظاهراً طالباً للملك باطناً ، وفي المثل « أسر حسوا في ارتقاء » وفيه أيضاً « بعلة الورشان يأكل رطب المشان » وفي المثل أيضاً « فلان محز نبق لينباع » أي يطرق ليثب . ولقد كان من خدعته أنه يخلق إفسكا ويتظاهر بخوارق العادات . وكان من حديثه أنه يوماً ما كان محارباً فقال لقومه ستفرون من العدو بذنوبكم ، فإذا كانت الهزيمة فستأني للملائكة في صورة الحمام البيض دون السحاب فيها تنصرون ، ثم أعطى بعض خواصه تلك الحمام البيض التي رباها فلما كان الغد وقعت الواقعة وانشقت جموعهم وكانت واهية لكثرة العدو فأطلق أصحاب الحمام البيض فاجتمعوا وأتوا صفاً وغلبوا العدو ومزقوه شراً ممزقاً ، وكان من جملة احتياله ونصب شراكه ورصد غفاه ومبرم حبال أشراكه أن جعل لذلك العلامة في الحديث مالا وافرأ وهدايا ثمينة توافق مرامه وتوآني أن يقول إنه خليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم مطالب بئثار ولده (يعني سيدنا الحسين رضي الله عنه وأرضاه) فأبى الشيخ عليه ذلك حفظاً للدين ورضاه لله عز وجل .

(٥) ومن الوضاعين قوم وضعوا الأحاديث في الترغيب والترهيب ليحثوا الناس بزعمهم على الخير وبزجرهم عن الشر ومضمون هذا أن الشريعة ناقصة وتحتاج إلى تكملة بزعمهم . فعن عبد الله النهاوندي قال : قلت لعلام خليل ، هذه الأحاديث التي تحدث بها من الرقائق ، من أين أتيت بها ، فقال وضعناها لترقق بها قلوب العامة . قال ابن الجوزي : غلام خليل كان يترهد ويهجر الشهوات ويتقوت بالاقلاء صرفاً وغلفت أسواق بغداد يوم موته فحسن له الشيطان هذا الفعل القبيح . وسئل عبد الجبار بن داود النخعي فقال كان أطول الناس قياماً ببليل وأكثرهم صياماً بنهار وكان يضع الحديث وضعاً . وكان أبو بشر أحمد بن محمد الفقيه الروزي من أصلب أهل زمانه في السنة وأذهبهم عنها وأخفهم لمن خالفها ، وكان مع هذا يضع الحديث ويقبله . وعن أبي عمار الروزي قال : قيل لأبي عصمة بن أبي مريم المروزي من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ قال إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهاء أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة . وكان وهب بن حفص من الصالحين مكث عشرين سنة لا يكلم أحداً . قال أبو عروبة كان يكذب كذباً فاحشاً . وعن يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير . فإذا كان هذا حال الزاهدين والأتقياء فما بالك بالهجرة الأشرار ؟

ومن الوضاعين قوم كانوا يتقربون للسلوك والأمراء كغياث بن إبراهيم ، فإنه حين دخل على المهدي وكان المهدي يحب الحمام فقيل له حدث أمير المؤمنين ، فقال حدثنا فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا سبق إلا في خوف أو حافر أو جناح ، فأمر له المهدي ببكرة . فلما قام قال المهدي إنه كذاب وأنا سمعته على ذلك ثم أمر بذيخ الحمام ورفض ما كان فيه .

ومن الوضاعين من كان يضع الحديث في ذم من يريد أن يذمه كما حكى عن سعد بن طريف أنه رأى ابنه يبكي فقال مالك ؟ فقال ضربني المعلم فقال أما والله لأحدثهم حديثي عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : معلو صبيانكم شراركم وقيل لمأمون بن أحمد ألا ترى إلى الشافعي وإلى من تبعه نخراسان ؟

فقال حدثنا أحمد بن عبد الله بن معدان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في أمي رجل يقال له محمد بن إدريس أضر على أمي من إبليس . وقيل لمحمد بن عكاشة الكرماني : إن قوما يرفعون أيديهم في الركوع وبعد رفع الرأس من الركوع فقال أنبأنا السيب بن واضح حدثنا عبد الله بن المبارك عن يونس عن يزيد عن الزهري عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفع يديه في الركوع فلا صلاة له .

(أقسام الوضاعين)

إن الوضاعين ثمانية أقسام :

(١) الزنادقة قصدوا إفساد الشريعة وإيقاع الشك في قلوب العباد والتلاعب بالدين كعبد الكريم بن أبي العوجاء . قال ابن عدى لما أخذ ابن أبي العوجاء إلى محمد بن سليمان بن عامر فأمر بضرب عنقه قال : والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحللت فيها الحرام وأحرمت فيها الحلال . وعن جعفر بن سليمان قال سمعت المهدي يقول عندي رجل من الزنادقة وضع أربعائة حديث فهي تجول في أيدي الناس .

(٢) قوم كانوا يقصدون بوضع الحديث نصرة مذهبهم كما تقدم عن عبد الله بن يزيد المقرئ .

(٣) قوم وضعوا للتزيب والترهيب كما ذكرته لك إجمالاً فيما تقدم والثالث في ذلك ما يروى عن ابن عدى حدثنا أحمد بن حفص السعدي حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا خاقان السعدي حدثنا أبو مقاتل السمرقندي عن عبد الله بن نافع عن ابن عمر مرفوعاً من زار قبر أبيه أو أمه أو عمته أو خالته أو أحد من أقربائه كانت له كحجة مبرورة ومن كان زاراً لهم زارت الملائكة قبره ، قال ابن حبان ليس لهذا الحديث أصل وأبو مقاتل حفص بن سليم يأتي بالأشياء للنكرة . وقال ابن عدى حدثنا عبد الرحمن بن عبد المؤمن حدثنا أحمد بن صالح السكي حدثنا علي بن عباس الحمصي حدثنا سليمان بن أرقم عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أكفان موتاكم فانهم يترأرون في قبورهم قال بعض العلماء هو موضوع وصححه آخرون من طريق غيره . وقال عبد الوهاب بن المبارك الحافظ أنبأنا شهر بن حوشب بن عبد العزيز الجبلي أنبأنا أبو حامد محمد بن همام حدثنا محمد بن سليم حدثنا إبراهيم بن هذبة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيع جنازة فلما صلى عليها دعا بثوب فبسط على القبر وهو يقول : لا تطلعوا في القبر فانها أمانة فلعل وعسى نحل العقد فينجلي له وجه أسود ولعله يحل العقد فيرى فيه حية سوداء مطوية في عنقه فانها أمانة وعسى أن يقبله فيعود إليه دخان من تحتها فانها أمانة . هذا موضوع وأكثر رواه مجهولون وإبراهيم بن هذبة كذاب . وقال الخطيب أخبرني أبو الفرج الطنجيري أنبأنا عبد الله بن عثمان الصفار أنبأنا أبو محمد بن الحسن بن أبي الحسين بدر بن عبد الله مولى للعز بن الله حدثنا أبو القاسم أنس بن محمد بن علي الطحان حدثنا محمد بن بشر الأرمطاني حدثنا محمد بن معمر حدثنا حميد بن حماد عن مسعر بن كدام عن عبد الله عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دفن البنات من الكرمات . قال لا يصح ، وحديث يحدث عن الثقات بالمناكير وروى من طريق آخر وهو منكر قال الشيخ السيوطي سمعت شيخنا عبد الوهاب بن الأنماطي الحافظ يخلف بالله عز وجل إنه ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من هذا قط .

(٤) قوم استجازوا وضع الأسانيد لكل كلام حسن كما حكى عن محمد بن سعيد أنه قال : لا بأس إذا كان

كلام حسن أن نضع له إسناداً .

(٥) قوم كان يعرض لهم غرض فيضعون له الحديث كالتقرب للملوك كما تقدم عن غياث والمهدي .
 (٦) قوم وضعوا أحاديث قصدا للأغراب ليظنوا ويسمع منهم ، قال أبو عبد الله الحاكم منهم إبراهيم بن اليسع وهو ابن أبي ضبة كان يحدث عن جعفر الصادق وهشام بن عروة فيركب حديث هذا على حديث ذلك تستغرب تلك الأحاديث بتلك الأسانيد .
 (٧) قوم شق عليهم الحفظ أو رأوا أن المحفوظ معروف فأتوا بما لا يعرف مما يحصل مقصودهم وهؤلاء منهم القصاصون الذين لا ربح لهم إلا بالأحاديث الموضوعية .

(٨) الشحاذون وأغلبهم يحفظون الموضوع ، وروى الدارقطني عن أبي حنيفة البسقي دخلت تاجردان [مدينة بين الرقة وحران] حضرت الجامع فلما فرغنا من الصلاة قام بين أيدينا شاب فقال حدثنا أبو خليفة حدثنا الوليد حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قضى مسلم حاجة فعل الله به كذا وكذا فلما فرغ من دعوته قلت له رأيت أبا خليفة ؟ قال لا ، قلت له كيف تروى عنه ولم تره فقال إن المناقشة معنا من قلة الرواة أنا أحفظ هذا الاسناد الواحد وكما حفظت حديثا ضمته إلى هذا الاسناد .

﴿ فصل ﴾

قال ابن الجوزي والموضوع خلق كثير من كبارهم وهب بن وهب القاضي ومحمد بن السائب السكابي ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب وأبو داود النخعي وإسحاق بن نجیح اللطفي وعباس بن إبراهيم النخعي والغيرة ابن شعبة السكوفي وأحمد بن عبد الله الجويباري ومأمون بن أحمد الهروي ومحمد بن عكاشة الكرماني ومحمد بن القاسم الطائفي ومحمد بن زياد الديشكري .

وقال النسائي : الكذابون المعروفون بوضع الحديث أربعة : ابن أبي يحيى بالمدينة . والواقدي ببغداد . ومقاتل بن سليمان بخراسان . ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام . وقال الحافظ سهل بن البراء ، ثم وضع أحمد بن الجويباري ومحمد بن عكاشة الكرماني ومحمد بن تميم الداري على رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرة آلاف حديث .

﴿ اعتراف الكذابين ﴾

قد أقدم جماعة من الكذابين على كذبهم وتصلوا من ذلك . عن ابن أبي شيبه قال كنت أطوف بالبيت ورجل ورائي يقول : اللهم اغفر لي وما أراك تفعل . قلت يا هذا قنوطك أكثر من ذنبك ، فقال دعني فقلت له أخبرني فقال إني كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين حديثا فطارت في الناس وما أقدر أن أردّ منها شيئا . وقال ابن لهيعة دخلت على شيخ وهو يبكي فقلت وما يبكيك ؟ قال وضعت أربعائة حديث أدخلتها في الناس فلا أدري كيف أصنع فعند ذلك قال :

(المدره) : كفي قد شربنا من هذا النهر حتى ارتويينا فحسبنا ما علمنا .

﴿ الكلام على تعدد الزوجات بين المسلمين ﴾

وإني أرجو أن تفيض الكلام على تعدد الزوجات عند المسلمين فليس على الإسلام والمسلمين أشد انتقاداً ولا أمرّ مذاقاً ولا أعظم وقعاً من هذه ، فهي التي أطالت السنة القادحين وأطمعتهم في هذا الدين فأوضح القول فيه إضاحاً والنس في القول نهجاً وسطاً لا رمزا ولا شططاً بين ذلك متخذاً للساواة سيلاً ، وإن شئت فليكن الإيجاز أحسن تأويلاً .

(الأستاذ) لقد غصت المجالس بهذه الكلمة واستفاض بها الحديث من الشرقيين والغربيين ولن تجالس امرأة من بني التميمز أو السنين أو الطونة أو من الألمان أو الطليان وكان من المعرّمين بالديانات إلا فاجأك بهذا

الحديث، ولقد والله عجبت لهذا الإنسان كيف يتعالى حتى يصل مستوى الفضيلة والشرف وينحط حتى يستزل عن دركات البهائم والدواب والحشرات. هذا الإنسان أيها العزيز مخلوق غريب؛ ترى الأوروبي عالما بكثير من الشئون طائرا في الجو حاريا على الأرض بالصناعات عاتما في البحر ساعما فيه عمله حتى إذا دخل في مجادلات الدين هالك أمره فأيقنت أن هذا الإنسان المسمى بالمتعمدين مقلد يستتلي كما تستتلي الجنية.

عاب الإسلام بمسألة عمرانية من آلاف المسائل الصحيحة، وبألت شعري لو أنها كانت ثلثة في الدين لم تعن فتيلافي الاعتذار ولم تقم حجة على ضعفه ولم يكن ثمة سبيل لاعتقاد وهنه فكيف وهي كما سنوضح من مستلزمات الاجتماع ومقومات هذا النوع الإنساني. التعدد المعتدل على ماسترى من أعمدة المدينة المقبلة ومن عقاير الأمراض الاجتماعية المزمنة تعدل مزاج هذا النوع إيماء تعديل، وتقومه أحسن تقويم، فمزاج الإنسان اليوم منحرف من الضرر وإصابة الحمى من تعفن الأخلاط وتراكم أدرانه وتتابع آلامه ومسألة اجتماعه المنزلي من عويصات المسائل وكبرياتها، فلا فاض في القول ولتسمع ولتع ولأقدم المقدمة قبل ذلك فأقول:

(١) اعلم أن المقرر في الطبيعة كما هو المعلوم في سائر الدول والممالك أن عدد الذكور في الميلاد يساوي عدد الإناث تقريبا كما أوضحت في كتابنا [أبن الإنسان] وعليها بنينا نظام الأمم المقبلة إن صحت عزمة الإنسان وأراد التخلص من حطته والتخلص من شططه وخطيئته، فلوأنت استقصيت مواليد الأمم أمة وأمة والبلدان بلدة بلدة لرأيت هذه العجبية الغريبة وهي التساوي بين الجنسين محكمة مطردة صادقة، فلنقرأ مواليد بلدتك أو أى بلدة تجاورك أو أى مملكة أحصت ذكورها وإناثها نجد التساوي تماما إلا قليلا لحلل عرض، وضعف ومرض وأحوال استثنائية وأمور فجائية، هذا هو القانون العام وهذه أس بنينا عليه مالهذا الإنسان من نظام طبيعي في أخلاقه وسياسته وصناعاته وحكومته وكيف زادت الحكومات وضلت السياسات واضمحلت الجماعات واكفهرت الأجواء واختلفت الأنواء وتوالت الشبات وتقضت العهود والأمانات كل ذلك لجهل الإنسان بفطرته وزيفه عن جادته فأقرأه في كتاب «أبن الإنسان» تر العجب العجيب مما لا عمل له كره هنا وإنما يريد من ذلك أن هذا الإنسان تساوت ذكوره إناثه فلم تتطلب أمة من أخرى نساءها اضطرارا ولم يكن من زلة طبيعية واحدة من هذا السبيل بل كل ذلك بمقدار، فلم نسع أن أمة من الأمم القديمة أو الحديثة مهما طال عليها القدم كانت مواليدها يوما ما جميعا إناثا أو ذكورا بل العدل مستمر دائم فهذه أول مقدمة.

(٢) المقدمة الثانية إنى قرأت في إحدى صحائف (اللورد كرومر) الذى كان عاملا للانجليز في مصر في صحيفته السنوية أن تعداد الزوجات بين المسلمين لا يزيد عن خمس في المائة ثم نقل عن آخر من السائحين من بعده فقال إنهم لا يزيدون عن ثلاثة في المائة، هذان هما الأصلان اللذان أبى عليهما النتائج الآتية. فإذا تقر هذان الأصلان نقول: منذ سنين معدودة عدت أمة الإنكليز نساءهم فزاد مقدارهن خمس عشرة امرأة في كل ألف رجل وامرأة فتكون من هذه الزيادات آلاف ومن الآلاف مئآت الآلاف وصاحوا وولولوا وندبوا حظهم من الطبيعة وقسطهم من العدل وقالوا إن هذا الإلتباب، أين تضعين ومن يعولهن وماذا تصنع فيهن وزلزلت أرض نادى العموم زلزالها وأخرجت أرض المموم أمتقالها وقال سادات الانجليز مالها؟ فيومئذ حدثت الجرائد أخبارها أن عدد النساء ازداد وما تعنى المدافع والجنود. هذا ما كان من أمة الانكليز في التعداد العام، ولعمرك مامن أمة إلا أصابها موت الأبطال في ساحات الوغى وقد الرجال بما يقل تعداد رجالها عن نساها وهذه الحرب المستمرة الآن شاهد عدل فكم من نساء أيمات قد فقدن النصير وأعزهن العشير قفلت الرجال وكثرت النساء، وقد بلغنا عن التعايشي خليفة المهدي السوداني أنه ذبح الرجال واستجيا النساء فسكنت ترى في القرية الواحدة بضعة شيوخ وأطفال وآلاف من النساء وقد صح في الحديث عن سيد الرسل صلى الله عليه وسلم إذ

قال في أشراف الساعة: «وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد» عجب! أمر النبوة يذكر أيام المسيح الدجال، وإن أول أيامها يساوي سنة وثانها يساوي شهرا وثالثها يساوي أسبوعا الخ مشاركة لحال الكرة الأرضية حذو القذة بالقذة كما في رسالتنا على هلال رمضان فانظرها، وها هنا تذكر أشراف الساعة ويذكر أنه يكون للخمسين امرأة القيم الواحد مطابقا لحالنا الحاضرة في هذه الأيام السود، إذ يفنى الرجال ويبقى النساء ولا عائل لمن ولقد علا صراخ الانكباب وعويلهم من خمس عشرة امرأة زادت في كل ألف رجل وامرأة لعله عارضة في النسل وطارى من الضر على أرحام النساء وأصلاب الرجال ومناهج التربية وطرق الأغذية وماشاكل ذلك فما بالك بهذه الحروب الطاحنة والأضغان الظاهرة وقد جندل الأبطال وعم النكال واصطدم أعظم الأمم قوة وأشدهم بأسا في العراك والقتال فطاحت تلك القاقم الجحاحج وبدأت تلثم الصناديد القواتك والصماصيم الصوائل فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وحرهم القوان الحرار والبواثر العوانس .

(المدرة) لقد أطلت في هذا المقام وخرج القول إلى الإبهام، فإن حاصل الأمر يرجع إلى أن الرجال وإن سادوا النساء عددا فقد يتقصون عنهن بالطبع كما حصل نادرا باجلترا، وقد يكون بالمصائب في الحروب والأحوال العارضة العامة لسائر الناس وأنا لا أرى هنا عجزا لتعدد الزوجات فإن القانون العام لا يكون لمثل هذه الأحوال العارضة والأمور الطارئة على أنه لو أن ذلك يكفي في التشريع لعارضة تشتت الأسرات وتفرق الجماعات بتعدد الأمهات في الأسرة الواحدة. وهل أتاك حديث الأزواج وبؤسهم والزوجات ونكد عيشهن وأبناء الضرائر وضعفهم وسوء العيش والشجار والمراك والتقاضى في المحاكم وسوء العشرة، كل ذلك الشر لا يقاوم الخير الناجم من زواج تلثم الأيامى اللأى مات أزواجهن، وإذا اجتمعت علتان يتبع الأخف وهذه الشرور الكثيرة في الأسرات أنسكى من ضرر عدد من النساء فقدن العائل وعشن على غير طائل وهن أرامل .

(الأستاذ) لقد تعجبت ولم تتمهل حتى أتم القول فاصغ لما أقول موجزا: إن أكثر الرجال سارون على هذا النهج الطبيعي يتزوجون بامرأة واحدة والقليل انقسموا قسمين ففريق أصبح شديد الشهوة قوى البنية كثير المال مغرما بالنساء بالطبع. وفريق ترك النساء إما زاهدا دينيا كالرهبان، وإما ضعفا عارضا، وإما فقرا مدقعا، وإما غما وهما. وهذا صنف دائم ثابت في نوع الإنسان فضلا عن الحرب والنكاح في الأمم، فهذا يدحض ما أشرت إليه من أنه نادر أو عارض يزول فلا مناص من جواز التعدد لأن النساء اللأى لا عائل لمن يقابلن الفريق الأول من القسمين السابقين وهم الشهبان وهم الشهبان؛ فلو أنا حررنا التعدد لأصبحنا وجهنا لوجه أمام الخطر الدائم الذى طغى سبيله وطم وعم فساد من أوروبا فأغرق الشرق سبيله الجارف ألا وهو الزنا الرسمى كما هو في مصر الآن وسمى له سائر المعالك المتعدية لأن ذلك الفنى يطلب أكثر من امرأة وتلك النسوة البائسات الجميلات يتطلبن الرجال للقوت والشهوات، فلو حبرنا عليهم وعليهن وجب أن تخصص أما كن للفجور كما هو حاصل الآن فطاحت العفة وضاع الشرع وذهبت الروءة. أما الإسلام فتمتجب ولتنظر أباغ تعدد الزوجات فزال الخطر المهدق وكانت العفة والشرف والنسل الشريف. انظر أليس التعداد كان خمسة في المائة أو ثلاثة في المائة أى ثلاثين في كل ألف ومن عجب أن هذا العدد الاحصائى يواتى ما قدمناه فإن هذا المقدار في الألف يقابل للتقاعد في كل أمة من الأزواج وهو القدر الذى يجتمع فيه الحصال الثلاثة الشباب والقراغ والجدة وهى مفسدة للمرء أى مفسدة .

فانظر وتعجب كيف جعل الإسلام هذه المفسدة مصالحة واستبدل الزوجات بالبغايا وأبناء الرجال الأشرف التعلين العالمين بأبناء الزنا التردبن والمخنوقين والعفة بالحنا والأمانة بالحيانة والسيانة بالإهانة، أباغ الإسلام تعدد

الزوجات فماذا جرى ؟ تقدم أولئك الأقوياء أولئك الأغنياء السرفون فدوا أيديهم إلى من عندنا من النساء اللاتي لاقين لمن قترزوهن وأقفلوا بيوت الحنا ومحال العهر والفحش . شهد (اللورد كرومر) في تقريره أن هذا العدد لم يزد . جعل الله لكل رجل امرأة فضعف بعض الرجال أو مات فقام غيره فأخذ نظيره من النساء وعلهن ؟ وهل جل المسلمين يعددون أو كلهم وهل للمعدون استوعبوا النساء حتى فقد عددهم ؟ كلا ثم كلا . لسببين : الأول أنه لم يخلق الله إلا امرأة واحدة نظير كل رجل ، فالمتروكات نظير المهالكين والضعفاء . الثاني أننا لم نسمع أن رجلا ما أراد أن يتزوج فوق واحدة من النساء فلم يجدها ، لم نسمع هذا في تاريخ أمة من الأمم حتى التي أباحت العدد المطلق إلى ما لا يحصى فعلنا أن الحكمة الالهية حفظت نظام العالم .

أما ما يقال من سوء العشرة وفساد المنازل بين الإخوة فهذا كلام ناشئ من جهل القائلين به وعدم تبصرهم ، فليس كل أخوين من أمين متشاكسين ولا كل أخوين من أم واحدة متحابين . إن واحداً من ذوى قرابتي رأيت به يحب أخاه لأبيه ، وللمات ذلك الأخ بكى عليه قربي أكثر من أخى الليت الشقيق فعجبت لكذب القوم الصراح وجهلهم الفاضح ، على أن الحسد في الإخوة أمر طبعي وإنما يهذب العلم والتربية والأدب والدين ، ولو كانت المشاجرة والعداوة بين الأسرة علة لمنع التعدد لقلنا فليرز نوع الانسان من فوق سطح الكرة الأرضية فالأمم كلها في ضغائن والأفراد متشاكسون ، ولو سلمنا جدلاً أن العداوة كائنة فالأبناء خير والشر العارض لا يمنع الخير العظيم وهو ازدياد عدد الأمة وظهور الرجال فيهم ، على أن أكثر من نراهم في الأمة هم أبناء أولئك الأقوياء المترفين الأغنياء الذين يعيشون ليلداً ، كما أن آخرين يعيشون ليعلموا ويؤلفوا . قوم يلدون أجساماً وآخرون يلدون عقولاً ، كم من رجل في البلاد المصرية خلف ثلاثين ذكراً أو أربعين ومنهم من بلغ أبناؤه وأبناؤهم عدداً وافراً فاخطت عليه الأسماء . ما أسوأ الأمم الغبية الجاهلة التي تقول لأقويائها لا تتزوجوا علنا وتزوجوا سراً لتموت أبناؤكم في المراحيض ما أجهل تلك الأمم ، ما أقل علمهم ، ما أكثر جهلهم ، ما أوضح العلم وما أجهل أولئك في علم الاجتماع . فالحق والحق أقول إن العالم الانساني اليوم يعوزه الفلاسفة والحكماء يعرف كيف يعيش ، فان نظرياته ضئيلة ضعيفة يحيا ويموت على عادات موروثية ومناهج مرسومة يقلدها تقليد العميان ويتبعها اتباع الصبيان ويذم ما ليس من عادته ، وفي التنزيل « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » يقولون تعدد الزوجات أفسد المجتمع الاسلامي ويا للعجب لو أن التعدد إفساد لم يكن الثلاثون في الألف شيئاً مذكوراً حتى يفسد الألف ومن ذا الذي ضل عقله وزاغ بصره حكيم بفساد الألف إذا فسد منهم ثلاثون ، هذا قول من في قلبه مرض وعلى عينيه غشاوة فكيف وقد استحال الفساد صلاحاً وأضحى الثلاثون في الألف أو الخمسون منها إصلاحاً لباقيها يلدون لهم البنين والبنات ويخرجون القواد والعلماء والعقائل والفتيات وهم أقدر في الغالب على التربية والتعليم لما أحرزوا من ثروة وما أوتوا من مال فياليت شعري كيف تسنى للأمم أن يقولوا للمرأة افعلي الحنا إذا اخترته سبيلاً وكوني زانية إذا راق لديك وصفا وقتك وبأيتها الرجل أبعنا لك الزنا واخترنا لك الحنا وآتيناك منا قوة القانون على أن تغازل من تشاء من الفتيات فأى فتاة فضحتها وأفزعتها ، وأى امرأة أزلت صوتها ومددت يديك إلى سترها فمزقته وإلى بيت شرفها فهدمته وكان ذلك على اختيار منها ورضا فانا لكم معينون وإن أتمر ذلك وأد البنين والبنات وقلة النسل العام في الأمة وإن فاق أعداؤها عدداً فاعتلوا عليها عند الغلبة بكثرة عددهم وصفوف جيوشهم ثم تقول تلك الأمم أنفسها أيتها المرأة وبأيتها الرجل إياكما أن تجتمعا اجتماعاً شرعياً فلا يكن عندك أيها الرجل منهن ثلاث أو أربع احذروا ذلك فانها عادة التوحشين ولو صيغت الأعراض وأقفلت بيوت الحنا وقت أيها الرجل على امرأتك فأقتها وكسوتها ورحمتها ونحن نحرم عليك ذلك وعليك أيتها المرأة نحرمه

تحريراً باننا ولكنا في الوقت نفسه نبيحه على سبيل الفجور والحنا فاجمع يارجل من شئت من النساء ولو ألقا مادام ذلك سفاحاً وإياك أن تجتمعاً اجتماعاً شرعياً ولو أدى ذلك إلى حياة البنين والبنات وكثرة القواد والمؤلفين والعلماء وتكاثر النسل حتى يغلب العدو المفاجيء الداهم رضينا بالحنا رضينا بالزنا رضينا بقلة النسل وكثرة العقم رضينا أن يكون نسبتنا إلى عددنا العام كنسبة عدد الفرنسيين إلى الألمانين لما في الأولين من إهمال أمر الزواج وفي الآخرين من الحرص عليه وإنما علينا إذا حكمنا أمة من الأمم ورأيناها تتكاثر ولادة بقوانين بلادها علينا أن نحسدها وتنظير منها ونشفق ونسومهم سوء العذاب ونوجس شراً من كثرة نسلها ونرسل رسلنا وطلائع استعمارنا ونصطفى الحكام من صفار النفوس المتواضعين ونوحى إليهم أن يقبوا لهم هذه الشريعة البيضاء سودوها في وجوههم افعموا أفئدتهم بالسوء والجدل والناقشة وهوشوا عليهم لعلهم يرجعون عن التعدد بل لعلهم يزنون ولعله يقل نسلهم فتمتكن من حكمهم كما قال هنري الفرنسي في كتابه عن الجزائر إذ قال :

[قعدنا لهؤلاء المسلمين كل مرصد وسددنا عليهم السبل وأحطناهم بسرادق من نار لعلهم يقولون فلم تقدر حتى الحمر سلطناها عليهم وهي السلاح القذ مخاربه الشرقيين فمنعه الاسلام أن يشرب حبه في قلوبهم أو يفتت أكبادهم فهم يتناسلون والفرنسيون لا يتناسلون] حارت والله تلك الأمم . حارت في محاربة النسل في الأمم المستعمرة ، حسدوها على الفضيلة وعلى النسل وعلى السعادة ، ولقد أخبرني صديق أن إحدى الأمم لمسارت الزواج الأفريقيين والوثنيين يتزوج الرجل نساء كثيرات وليس عليه إلا أن يجلس في خيمته طول نهاره يتمتع بما تكسب النساء له من كدهن وعملهن وهو قوى البنية ولا يصرفها إلا في إجابهن وإيلادهن وإنجاب الذرية فكثرت النسل ولم يقدر الأوروبي أن يحاربه . ضربت الحكومة على المزوجين من هذا القبيل الحراج عسى أن يقل نسلهم فما أشأم هذا الإنسان « قتل الإنسان ما أكفره » إن الإنسان لظلوم كفار . ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لهم يرجعون .

(المدرة) والله لقد شفيت صدري وأزلت الغمة وكشفت النقاب عن وجه الحقيقة الجميل . تمت الرسالة في صباح يوم الأحد ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١٤ في ميدان القلعة بالقاهرة ، ولما أضيفت هذه الرسالة إلى السورة تمت في يوم السبت ٢٢ مارس سنة ١٩٣٠ م و ٢١ شوال سنة ١٣٤٨ هـ بقسم السيدة زينب .

الإسلام وتعدد الزوجات

جاء في [مجلة المرشد] مانصه :

إن قوانين الاقتصار على زوجة واحدة أكرت فرائس العزوبة في الغرب ، وزيادة عدد الإناث على الذكور أوقعت العقلاء في مشكلة ينادون منها بالويل والثبور ويطلبون الخلاص «ولات حين مناص» .

جاء في المجلد السابع من العرقان مانصه : إن عدد النساء في إيطاليا يزيد على عدد الرجال بمليون نسمة وفي ملازمة (٣٤) من [الهلال] في ضمن مقال بقلم (أميل زيدان) عن جريدة اللاتان الفرنسية عن الأستاذ (بيتار) الطبيب الكبير الذي هو اليوم عضو مجلس النواب في فرنسا إنه يقول [إن في فرنسا الآن ١٧٥٠٠٠٠ فتاة لن يجدن لمن أزواجهن على افتراض أن كل شاب فرنسي يتزوج بفتاة واحدة ، وإني أقول بصراحة ما أنا واثق من صحته أن المرأة لا تتمتع بصحة جيدة ما لم تصبح أما ، وفي اعتقادي أن القانون الذي يحكم على تلك الفرقة الكبيرة بأن تعيش على تقيض ناموس الطبيعة إنما هو قانون وحشي بل منافي لكل عدالة]

وفي م (٣٧) منه أيضا [يزيد عدد الإناث على الذكور في إنجلترا بمليون ونصف مليون ، أما زيادة الإناث على الذكور في ألمانيا فتبلغ مليونين ، ولكن هذا الفرق أقل من النسبة الحاضرة في عدد المتزوجين ، ففي إنجلترا نحو ثلاثة أو أربعة ملايين فتاة غير متزوجة مع أنهما في سن الزواج] وقال (شوبنهاور) الفيلسوف الألماني الشهير في رسالته [كلمة عن النساء] تعريب حسن رياض مانصه : [إن قوانين الزواج في أوروبا فاسدة المبنى بمساواتها للمرأة بالرجل فقد جعلتنا تقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا وضاعفت علينا واجباتنا ، على أنها مادامت أباحت للمرأة حقوقا مثل الرجل كان من اللازم أن تمنحها أيضا عقلا مثل عقله] إلى أن قال [ولا تعدم امرأة من الأمم التي تحيز تعدد الزوجات زوجها يتكفل بشؤونها ، والمتزوجات عندنا نقر قليل وغيرهن لا يحصين عدا تراهن بغير كفيل بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهي هائمة متحسرة ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن مشاق الأعمال وربما ابتذلن فيعشن تعيسات متلبسات بالحزى والعار ، ففي (مدينة لوندرة) وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبحه الزواج ضحية الاقتصار على زوجة واحدة ، ونتيجة تعنت السيدة الأوروبية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل ، أما أن لنا أن بعد ذلك تعدد الزوجات حقيقة لنوع النساء بأسره إلى أن قال] على أنه من العبث الجدال في أمر تعدد الزوجات مادام منتشرا بيننا لا ينقضه غير قانون ونظام [أمعن النظر في هذه الفقرة ، إلى أن اعترف بقوله] بل إننا لانسكرا أننا في بعض أيامنا أو معظمها كلنا أو جلنا نتخذ كثيرا من النساء ، ومادام الرجل محتاجا لزوجات كثيرة يجب أن يكفل شئون هذه النساء] .

وعن مؤلف كتاب [العشيقه الشرعية] الذي حاز سبق في مضمار الزواج في فرنسا وغيرها وطبع منه أكثر من (٥٠٠.٠٠٠) نسخة [أنه ذهب إلى أن يكون لكل رجل إلى جانب زوجته خلية تكون لها صفة قانونية فلا تختر ولا تمتهن في نظر الشريعة أو في نظر الرأي العام . قال : هذا هو الأمر الواقع اليوم في آدابنا الاجتماعية ، ولم يبق علينا إلا أن نعترف بهذه الحالة وندخلها رسميا في عرفنا] . قلت من هذا تعلم أن القوم لا يأتفون من تعدد الزوجات ويعترفون بإباحته الشرعية ولكنهم يطالبون بقانون يبيح لهم بعد أن ذاقوا مرارة الاقتصار على زوجة واحدة ورأوا الفساد الناشئة منه كالتعدد غير المشروع وأمثاله . هذا ولا يخفى أن التعدد الذي يعيه الجاهلون اليوم قد أباحه بالأمس المصلح الكبير في النصرانية (لوتر) فسمح لأمبرالمان (هس) بأن يتزوج ثانية لأن امرأته كانت شوها ، (وادوارد السابع) وهو من علمت أصدر في أواخر أيامه منشورا يبيح فيه تعدد الزوجات ، وكانت أمه من قبل معارضة لهذا الرأي أشد المعارضة ، وسيأتي يوم يدرك فيه الناس فوائد التعدد (١) فيميلون إليه مية واحدة ويعترفون بفضل القرآن الكريم . اه ما جاء في المجلة المذكورة .



في يوم الثلاثاء (١٤) يناير ١٩٣٠م سألتني أحد المدرسين بمدرسة عابدين الخيرية . فقال : قد حصل بيني وبين ناظر المدرسة جدال في أمر تعدد الزوجات ، وأن في الاسلام هذا ضد المدينة . قال وأنا أجبته بأن العدل

(١) من فوائد التعدد تكثير النسل وتقليل الزنا والتكفل بمن ليس لها كفيل والمحافظة على الأعراض عند ازدياد النساء وقلة الرجال ، وحفظ الزوجة الأولى لدى عقمها أو مرضها مثلا . وأما قول إن التعدد ينقص العائلة فهو غير مقبول لأن قلب الرجل يسع التعدد سيما مع استعمال العدل المطلوب .

إذا لم يتم فإنه يمنع التعدد بمقتضى الآية وهكذا . فقلت له أريد أن تسمع مني ما أقوله لك بعقلك وتتخلى عن كل مالك من الآراء المحفوظة وتخلي بيني وبين عقلك وحده . ثم لتكن حرا في أن تعترض بما تشاء والعقل هو الحكم . فقال أحب ذلك ، فقلت أولا إن هذا المقام مستوفى فيما تقدم قريبا ، فلندع هذا الآن ولأقل لك اعلم أن بني آدم على وجه هذه الأرض قد وضع لهم نظام لاختلال فيه وهو أن يكون الذكور والإناث متساويين وهكذا كل حيوان لأن اختلاف العدد خلل في النظام ، ولذلك تبحد الناس في كل بقعة من بقاع الأرض يكادون يتساوون في عدد الرجال والنساء والذي يمنع هذه المساواة عوارض تعرض للحياة فتختل هذه الموازنة اختلالا يسيرا . قال نعم . قلت إن المسلمين أطلق لهم العنان فيما مضى فزوجوا ما يشاءون . أتدرى ماذا حصل قال لا ، قلت لم يعدد من الرجال في الاسلام إلا (٣) في المائة أو (٥) في المائة ، وهذا القدر صغير جدا . قال نعم والله . قلت وهنا نسأل : إذا أراد رجل أن يتزوج امرأة في أي قطر من أقطار الاسلام فهل يبحد امرأة يتزوجها مع هذا التعدد ؟ قال نعم والله يبحد ، قلت فهل جاء في تاريخ الأمم أن الناس بحثوا عن النساء فلم يجدوا لأن الآخرين قد استحوذوا عليهن . قال كلا ورب السكبة . قلت إذن للسألة واضحة تساوى الرجال والنساء عددا ولكن قد يموت بعض الرجال في الحرب أو بالمرض أو لا يتزوج الآخر للفقر فيلهم الله بعض الأغنياء الأقوياء أن يتزوجوا بعض الباقيات ، فقال هذا والله عجب ، فقلت إذن النوع الانساني اليوم مقلد كالطفل ، فلولا اتباع الانسان للتقاليد الجاهلة لم تبق النساء البائسات بلا أزواج في أمة من الأمم ، فالسألة كلها مسألة القسيسين الذين ملأوا الأمم صياحا والأمم لانفكر بل تتبع آراءهم ولا يفكر إلا العقول الكبيرة عندهم (كما تقدم قريبا) فالنوع الإنساني اليوم لا يزال في حال المراهقة وسيأتي يوم يعرف الحقائق . فقال هذا والله حق وليس لي عليه رد . فقلت الحمد لله رب العالمين . تم الكلام على اللطيفة الأولى .

﴿ اللطيفة الثانية : في معنى قوله تعالى «وخاتم النبيين» ﴾

(الجواب الكافي)

وهو ما أجاب به (عبد الله كويليام) الانجليزي المهتدي للاسلام عن سؤال أحد علماء أوروبا في الشريعة المحمدية الغراء . وقد أتى في الجواب بالأدلة الفنية والبراهين العقلية على أن الديانة الاسلامية أكمل الأديان وأرجح الشرائع وناسخة لجميع ما سبقها وأنه لن ينسخها شيء بعدها أبدا مادامت الأكوان وبقى الإنسان .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(السؤال) ماهو البرهان العقلي والدليل الفنى على أن الشريعة المحمدية أفضل الشرائع وأكملها وأنها ناسخة لكل ما سلفها ولا ينسخها شيء بعدها أبدا ؟

(الجواب) لو أنعمنا النظر ذات ليلة (وكان الهواء صافيا والجو من الغيم خاليا) في الفضاء الذي لا يتناهى لرأينا لأول وهلة شموسا تدور حولها سيارات كثيرة كمنظومتنا الشمسية ، تظهر لأبصارنا من أبعاد المواقع في هذا الفضاء تسير متقاداة كل الاتقياد للقانون السنون لها لا تحيد عنه مادامت ، فإذا انقضت تلك الليلة نرى الشمس تطلع من المشرق . وما أسرع ماتنشر أشعتها على هذا العالم فيتمثل بين تلك الأشعة صور متتالية بدعية الجمال ، ولو لفتنا النظر إلى الكرة الأرضية التي نحن عليها، التي إذا نسبت إلى سائر الأجرام العلوية لانتكون إلا كذرة صغيرة ، تراها كتلة تألفت من البحار والأنهار ، من الأودية والبراكين والجبال ، من الصحارى

والفلوات ، من الأتربة والمعادن والرمال ، من الأشجار والأزهار والأثمار ، من النباتات والجمادات وذوى الحياة ، من الانسان والوحوش والحشرات .

وإن عقل البشر على ما بلغ من الارتقاء وما وصل من الدرجات العالية لعاجز عن اكتناه هذه الأجناس التي تألفت منها الكتلة الأرضية وما يتورها من الأشكال والهيئات وقاصر عن إدراك حقيقتها لما بين أشخاصها من الاختلاف وبين خواصها ونفعها وضررها من التباين والانحراف .

كثيراً ما يكون جو السماء صافياً ، والهواء راكداً ساكناً ، فيفاجئنا هبوب ريح شديدة تثير السحاب ثم تحيطنا بالأمطار حتى نظن أننا في وسط البحار ، وإذا غشنا في هذه الحادثة الجوية وخصناها بالنظر علة حصولها بمقتضى القواعد الفنية نرى أن حرارة الشمس قد مست وتدخلت برطوبة الأرض فتجعل تلك الرطوبات بخاراً ثم تتساعد تلك الأبخرة إلى الجو كما هو شأنها وتجتمع وتتكاثر حتى تصير سحابة ثم تتحلل فتصير ماء وتتساقط مطراً ، وأيضاً لما كان في بعض ذلك السحاب بالضرورة كهربائية سالبة وفي البعض الآخر كهربائية موجبة كما هو الحال في سائر الأجسام يحصل في الهواء من احتكاك تلك السحب بعضها ببعض صوت يقال له الرعد ، ولا ريب أن الحكمة في هذه التحولات والتركيبات الجوية هي حصول المطر ليزدان الأرض وتنفش الحيوانات وتروى النباتات وبالإجمال لتحيي الأرض بعد موتها . ولو أردنا أن نبين مافي هذا القضاء الذي لا نهاية له من العجائب والغرائب بيانا يشفي الصدور ونفصلها حق التفصيل لوجب علينا أن نملأ الأسفار . ولخرجنا عن بيان المقصد فيكفينا ما تقدم ذكره ، ولنرجع إلى ما نحن بصدده ، ماذا نخطر لنا عند مشاهدة هذه المصنوعات بما فيها من عجائب الترتيب وبدائع النظام ، لا ريب أن أول ما نبحده في نفوسنا هو الميل إلى البحث عن مظهرها من العدم إلى الوجود ، عمن جعلها منقاداً وخاضعة للقوانين والسنن الفطرية التي لا يعترها تغير ولا يشوبها خلل ولا تشويش ، عمن جعل كل فرد من أفراد هذه الكائنات محتصاً وممتازاً بخصوصية من الخواص وسر من الأسرار الطبيعية ، عمن يحفظ على هذه الكائنات تأثيراتها وتأثراتها في كل آن وزمان . فإذا سرنا وراء تلك الخواطر القلبية وتأمناها كل التأمل ، فلا يحصى لنا من أن نصدق بالقلب والوجدان ونقر ونتطق باللسان بأن ما نشاهده من العوالم وما لا نشاهده [وما لا نشاهده أكثر] ليست إلا آثاراً للذات المقدسة ، ألوهي ذات واجب الوجود جلت قدرته وعظم سلطانه وأن هذا التصديق ينادينا نداءً بليغاً ظاهراً وباطناً بقوله : إن ظهوري بين هذه الكائنات بين ما لا نهاية له من الآيات البينات لدليل واضح على أننا من آثار قدرة ذلك الفاطر العظيم ، وبراهين جلية على وجود الخلاق الذي يفعل ما يريد .

وبعد أن ندرك وجود ذات الواجب على هذه الصفة نجد بأنفسنا سائقاً وجدانياً يسوقنا لمعرفة كيفية تكون الكرة الأرضية التي نحن عليها ، وهنا نحس أنه يجب أن نرجع إلى الفن فقط إذ الفن إنما هو قوانين وقواعد مستنبطة بالعقل الموهوب للانسان من القوانين التي اندمجت في هذه الكائنات . فإذا رجعنا إليه رأينا أن ما يوجد فيه من النظريات الفنية في تكون العالم ترشدنا إلى أن الخلاق الأزلي والموجد الحقيقي أوجد هذه الأرض من البخار فجعلها مائعا نارياً واستمرت أزماناً كثيرة على حالها هذا تنتشر حرارتها وكانت حرارتها تنقص زمناً بعد زمان وكما تناقصت الحرارة تبردت الأرض وكلما تبردت تكاثفت حتى حصل عليها قشرة وصارت صلبة على كثر الأزمان ثم بدأ الخلق فيها فأول ما خلق النباتات ثم سائر المخلوقات وكان يعرض التبدل والتغير على النباتات والحيوانات على ممر العصور وتعاقب الأزمان ، فكأن أن ازدياد تصلب الأرض يوماً فيوماً سبب لتناقص الحرارة فكذلك تناقص الحرارة سبب لتغير القوة الانباتية . ولهذا التبدل والتغير تختلف أصول الخلق والقوانين الطبيعية دائماً . نعم إن هذه الدعوى صحيحة فانه كما أن حياة المخلوقات التي وجدت في بداية

تكون الأرض مستحيلة بعد مرور عصور وأزمان على تلك البداية فكذلك حياة ما وجد من المخلوقات في الأعصر البدائية خارجة عن حيز الامكان أيضاً بعد ذلك، فإن ما يعيش في الماء من المخلوقات لا يعيش في التراب وما يعيش في التراب لا يعيش في السماء إذ ليس لها إلا ذلك الاستعداد وتلك القابلية التي وهبت لها . وخلاصة القول أن أشكال طبائع المخلوقات ومهاياها كانت ولا تزال تتغير بتغير الأزمان والأحوال والأمكنة .

ومما لامرية فيه أن المخلوقات بقسميها النامي والجامد خاضعة لناموس طبيعي في تكونها ونشؤها ونموها وتكاملها وبقائها وفنائها ، فلا يخطر بالبال أن ما يشاهد في الحلقة من التكامل آتى . كلاً (١) إن ما يحصل جميعه ليس إلا تدريجياً وتابعا لناموس التكامل للسنون في هذا العالم ومع هذا فلا ريب في فوائده إذا بلغ الغاية في كماله لوجوب زوال كل شيء عند انتهائه . وفي هذا يقول الشاعر :

إذا تم أمر بدأ نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم

فالشرع يقول لهذا الزوال « القيامة » والحسب ما يعبرون عنه بالانقراض . ثم إن كل شيء إذا فنى وزال لا بد أن يتكون ثانياً إذ ليس هناك ما تنعدم أجزاؤه كلياً فما نظنه قد فنى وزال من المخلوقات إنما استحاله شكله الأول وماهيته الأولى فيظهر في شكل آخر وماهيته أخرى . وأيضاً فإنه كما أن الأحوال الطبيعية التدريجية كالتسكون والنمو والمرض والموت تعرض للحيوان والنبات ، فكذلك تعرض تلك الأحوال للأجرام السماوية وهذا الذي يقول له أرباب الفن ناموس التكامل وبالفرنسية « نه وولسيون » والانكليزية « نه وليش » . وإلى هنا أكتفى بما ذكرته من المقدمات لما للسائل الفاضل من التبهر وطول الباع فيها وما ذكرتها إلا لتوقف الجواب عليها فأرجع إلى المقصد وأقول :

إن ظهور الانسان في هذا العالم متأخر عن تكون سائر المخلوقات كما هو مشاهد لنا ومع هذا ينبغي أن لا يرتاب في أنه أشرفها وأفضلها خلقاً وطبعاً مادة ومعنى ، إذ أن قانون التكامل يقضى بأنه آتياً من حيث توجه الأشياء نحو الرقي إلى الكمال . فالانسان في الظاهر جرم صغير وفي الحقيقة عالم كبير . الانسان مهبط السجائب القدسية وقطب الحصال البهيمية ومركز الخير والشر وقرارة الأنا والوحشة ، فهو مجتمع الأضداد ومكمن الغرائب ، فمهما كان الانسان مدنياً بطبعه لا بد أن تقضى عليه حيوانيته باتباعه القانون الطبيعي ضرورة فلا يتسنى له أن يعرج بنفسه من حضيض التذلة والوحشية ودرك السفالة والجهالة إلى منصات العلم وذرى السعادة . على أن الانسان في بداية الحلقة كان كسائر الحيوانات والبهائم متوحشاً يضرب في الأرض عارى الجسم مكتسباً ثياب الغفلة . الجهل رفيقه والعمى قائده . يتجول صباح مساء في الصحارى والقفاز . لا يفقه من الحقائق شيئاً ، ولا يفرق بين القبيح والحسن وبين الغث والسمين . تتجاذبه شهواته حيث توجهت فهو مغلوب لها خاضع لقيادتها . لا يعرف الليل إلا بغروب الشمس ولا النهار إلا بطلوعها ولا يدرك ما هو الأكل والشرب والنوم والقيام والقيوم . كان يتجول في مواقع كثيرة وأمكنة متعددة من الأرض وهو لا يدرك أين يتجول وأين يوجد وما هي ذاته . نعم إنه كان يشاهد مالا يتناهى ولا يحده بالبصر من الصحارى والقفاز والبحار وسائر الحيوانات والطيور لكنه لا يفرق بين الحيوان والنبات وبين النبات والجماد وبين الانسان . ترى هل كان الانسان إذ ذاك يتخيل شيئاً عند ما يرى ما يمثله الأجرام السماوية كل ليلة من المناظر العجيبة والأشكال البديعة أو كان يلفت نظره ما يراه من صور القمر حيناً يظهر هلالاً ثم يكون بدرًا ثم يتناقص حتى يحق ثم رجوعه إلى منواله السابق أو كان يعمن نظره فيفكر في كسوف الشمس وخسوف القمر ؟ كلا . إنه لم يكن

(١) هذا هو مذهب النشوء وقد أبطله علماء القرن العشرين (انظره في أول سورة المؤمنون) .

يدور في خياله أو يخطر بباله شيء من ذلك . إذن ماذا كان يتصور الانسان ، وحول أي شيء كان يحول فكره ؟ إنه كان لا يفكر في شيء سوى أن يفترس كل ما يصادفه من الحيوانات الضعيفة ليدفع بها بلية جوعه وأن يهرب مما هو أقوى منه من الحيوانات لئلا يكون غذاء لها فيلتجئ إلى الكهوف والغارات ومقعرات الأشجار لينجو بنفسه منها ، ومع هذا لم يكن همه وفكره منحصرًا في ذلك بل كان لا ينسى أيضاً التعارف عن يلاقيه ليسكن شهوته إذا ثارت عليه . وخلاصة القول أنه كان لا يتوانى في التوسل بما يفضى إلى قضاء حاجاته الحيوانية والشهوانية فكان لا يحجم عن قتل أخيه الشقيق في هذا السبيل . ليتحتم إذن احتياج الانسان لقانون آخر غير القانون الطبيعي ليهتدى به إلى الصراط المستقيم في معاشه وحصون من الحلل نظام حياته ويسلك أعدل السبل في واجباته وكل شئونه ويعلم علو شرفه على سائر الحيوانات ومكانة فضله فإن الانسان من حيث هو حيوان ميال بالضرورة لاتباع الهوى وترتيب المكائد والحيل والكذب والظلم والعدوان وغير ذلك من الأخلاق المذمومة ، فلو ترك الانسان وشأنه لبقى حليف التوحش أليف الجهل أبلد الآبدن ودهر الناهرين لكنه إذا وجد من يرشده إلى النافع والصواب في أمره ، لا ريب أنه يصعد إلى ذرى درجات المدنية لغلبة السجايا القدسية فيه على الطبايع البهيمية . إن كل ذى عقل سليم وفكر مستقيم يدرك مما سبق حتماً أن ما نشاهده في عصرنا من الترقيات العظيمة وما نراه يوماً من الاكتشافات الجديدة ، وما نحمار فيه العقول من الاختراعات العجيبة ، وما امتاز به الانسان على غيره من إدراك آثار الصانع المختار البديعة لهو بقانون وراء القانون الطبيعي وبسائق غيره وهو الذى يقول له الحكماء [القانون المدنى] ويسميه أهل الشرع (الدين) .

وقد اختار الحق تعالى أناساً [متصفين بوفرة العقل وجودة الفكر يفوقون معاصريهم بسلامة الفكر والتصور والعواطف الوجدانية واتباع الحق والتزام الحقيقة] ليؤسسوا هذا القانون المدنى وينشروه بين البشر لحفظ سلامته وإقامة سعاداته . هؤلاء الرجال هم الذين أرشدوا البشر إلى ما يوجب الزمان والمكان وتقتضيه المصلحة والحاجة ، هم الذين بلغوا بالبشر تدريجاً إلى ما نشاهده من الأحوال المستحسنة والأخلاق الفاضلة ، هم الذين أخرجوه من الوحشة إلى التمدن بقدر ما اختصوا به من الحس الصادق والتناسب باستعدادهم وما امتازوا به من القدرة . وبعبارة أخرى بقدر ما أوتوه من الوحي الإلهى والنور القدسى .

فهؤلاء الرجال هم الذين يقال لكل واحد منهم « مؤسس المدينة » عند الحكماء ، ونبي لدى الشرائع والأديان ، ومن هذا يتضح أن الفن والشرع متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالشرعية مجموع فنون كثيرة لا تخالف الفن بل الفن شعبة منها .

إن أول نبي أو مؤسس للمدينة أتى ليسوق البشر إلى نهج الهداية قد جعل فائحة أعماله وباكورة إرشاداته الأمر بستر الجسم والنهي عما كان عليه الانسان من كشف البشرة وأكل كل ما يصادفه كسائر الحيوانات ، وقد جد في سبيله حتى تمكن أن يسن عادة التستر بين البشر ولو بأوراق الأشجار ويحصر الغناء عليها فإن المجتمع البشرى كان محروماً إذ ذلك من كل حاجات المدينة ولوازم الإنسانية ، فالمعامل مفقودة والصناعة والتجارة مجهولة ، فلم تكن الأقمشة والأصواف ولا شيء من المنسوجات ، ثم اتسعت الأفكار بمرور الزمان فوجد في الإنسان قابلية التعلم والتعليم واستعداد لمعرفة الأمور الحسنة ومنافعها ، فأتى النبي الثانى والعالم في حاجة شديدة إلى ظهوره فيوسع ما وضعه سلفه المحترم من القانون ويعلم البشر ما عجز عن إدراكه بعبارة أوسع من سابقها فتوسع ساحة الإدراك حتى تصير أمة النبي الثانى تهرأ من الأمة السالفة كلما تذكرت وحشيتها وضيق إدراكها ، وهذا من أحكام التكميلات الأرضية والترقيات الزمانية فإنها تولد في الأفكار اتباعها يعين النبي

الثاني على تبليغ كثير من الأحكام وتلقين كثير من الحقائق التي لم يتسن تبليغها للسابق لعدم الاستعداد ، فإذا زاد توسع الأفكار على مرور الأزمان ينتظر ظهور نبي آخر ، فإذا أتى ذلك النبي سهل عليه تبليغ الأحكام التي لم يبلغها النبي السابق أيضا لضعف إدراك البشر حينئذ ، ومع هذا لم يكن مفقودا من له قابلية الأخذ واستعداد القبول لما أتى به النبي إلا أن هذا الفريق كان لا يجيب دعوة النبي لعناده وتمرده حبا في البقاء على التوحش والهمجية وهؤلاء هم الذين أطلقت عليهم الكتب المقدمة اسم الكفار ، ثم بفيض العالم نورا بظهور النبي الرابع فيقسم الحيوانات لما يركب وما يؤكل ويأمر بقتل للضرر منها ويترك غيرها على حالها ، وعلى هذا النوال قد جاءت أنبياء كثيرة ساروا بالبشر تدريجا إلى ما وراء من الترقيات العظيمة وقطع المراحل في سبيل المدينة الفاضلة ، ولما جاء موسى عليه السلام اتسع نطاق المدينة بالنسبة للأزمان العابرة وتكاثرت أفراد الجمعية للتمدنة ووجدت الصناعة والتجارة . وفي زمن عيسى عليه السلام تقدمت الجمعية تقدما يفوق ما قبله بالضرورة ، ويمكن أن يقال إن زمن هذين النبيين العظيمين كان متفوقا على أزمان سابقة لهم ، وهذا التفوق لا يحط من قدر الأنبياء السابقين ولا من شرفهم لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا يبلغون في زمن رسالتهم إلا ما كان ملائما لعقول المرسل إليهم ، فإذا أهمل أحدهم الأمر بشيء أو النهى عنه ثم جاء نبي آخر وقرر فيه حكما فليس من الصواب أن يقال أن النبي الأول حرم ذلك الشيء أو حله . فإن قال قائل لماذا إذن ترك ذلك النبي ولم يشرع فيه حكما وإعلام تحمل ذلك أجنبناه بأن عدم تكلم النبي الأول في أمثال ذلك الشيء لاشتغاله إذ ذاك بالأهم منه والأعظم نفعاً [مثاله] أن عدم تحريم الخمر في زمان نبي وعدم النهى عن نكاح الأخت في زمان آخر لا يدلان على أن الخمر حسنة مباحة ، وأن نكاح الأخت جائز عندهما ، وإنما لم يرد النهى في ذلك لعدم استعداد القوى العقلية لادراج مضرات تلك الأشياء ، فلو حرم شيء منها قبل وقته لنجم عنه فتن عظيمة ومنازعات طويلة ومقاتلات شديدة ولذلك لم تحرم ولم تمنع حينئذ ، فلا يفهم من هذا الكلام أنا نعتقد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متساوون فضيلة وعرفانا ، فإن من الحقائق التي لا تنسك أن بعضهم مفضل على بعض حيث كان تجدد الزمان من العوامل في نمو وازدياد القوى المدركة ، فالنبي المتأخر أعظم تكاملا من السابق وهذا قطعي لا سبيل للارتياب فيه ، وقد يقول بعض من استولى عليهم الوهم واستسلموا له [إن الحق والسذاجة التي عند البعض في عصرنا لم هي أعظم وأشد منها في بعض من كان في العصور الأولى] فيقال لهم [إن هذا صحيح ولكنه لا ينقض مدعانا فإن الحكم دائما يكون على الأغلب ، فاستيلاء التوحش على مدينة لا يقتضي عدم التمدن في إقليم آخر ، وارتقاء المدينة وعدم خلوت إقليم منها في يومنا هذا هو ارتقاؤها من حيث العموم وإلا فليس المراد أن المدينة نعمت كل مكان ولم يبق للتوحش أثر في كل الجهات ، فإنه لا يستبعد وجود من هو أغش توحشا ممن سبق في الأعصر الحالية] .

ولما تشرف العالم بظهور سيد البشر [الذي هو الوسيلة العظمى ، والواسطة الكبرى ، لارتقاء الإنسان إلى أعلى درجات المدينة] محمد صلى الله عليه وسلم أكل للإنسان حاجاته الضرورية على نهج مشروع ، وما أسرع ما وصل به إلى أرفع مراتب السعادة ، إذ كل من ينعم نظره وبحكم وجدانه فيما كان عليه الإنسان قبل بعثته صلى الله عليه وسلم من الضلالة والغواية والسفاهة والجهالة ، ثم يتأمل في حال الإنسان وترقياته منذ البعثة لاشك أنه يرى ما بين الحاليين من البون العظيم والفرق الذي لا يتأتى معه القياس والتقريب .

نعم نعم ، إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عرف الناس بخالفهم وزجرهم عن عبادة الأوثان والشمس والنجوم والنار وما أشبه ذلك وهداهم إلى سبيل النجاة والفلاح ، وكانت دعوته باللطف واللين تارة والعنف والشدة أخرى حسب ما يقتضيه الحال حيث كان بعض الناس المعاندين يستعمل أنواع التهديد مرة ويحاربه أخرى ليثني

عزمه ورجعه عن دعوته ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعامل بعضهم بالترغيب وبعضهم بالإرهاب والتخويف كما توجه المصلحة ويقضيه الحال . فما لبثت أنوار المدنية الاسلامية أن سطعت في جميع أنحاء العالم وأزاحت ظلمات التوحش عن كل ما وصلت إليه ، ولعمري إن انتشار تلك الأنوار بسرعة برقية وتكاثر أتباعها في أزمان قصيرة لما أدهش أولى الألباب ، وإذا بحثنا عن سر ذلك التقدم السريع والنجاح العاجل لانرى له سببا إلا كون أوامر الاسلامية ونواهيها موافقة للعقل ومطابقة للحكمة ، فها هو القرآن المبين الذي كل كلمة منه عين الحكمة ، من ينعم نظره في إعجازه وأسلوبه وبدائعه وأحكامه يرى نفسه مضطرا للحكم بأنه قد أنزل في يومنا هذا رغما عن نزوله قبل ثلاثة عشر عصرا فإنه بليغ معجز مع سهولته ومفيد لجميع ما يرى إليه من المقاصد مع إعجازه ، وموافق لأسلوب كل زمان ، ومهما ارتفعت الكتابة وارتفع شأنها لا يزال في أعلى مراتبها ، يعلم ذلك كل من له دراية بالمزايا القرآنية ، وإنه كما أعجز البلغاء وتركهم يتبهون في مهامه الحيرة فكذلك قد جمع أسباب سعادة الدارين ، سعادة الدنيا والآخرة ، ولو بحثنا في الأحكام التي جاء بها وأدركتنا ما فيها من المنافع والحكم لوجدناه جامعا لكل ما يحتاج إليه البشر في بقاء حياته وتهذيب أخلاقه وبلوغه الكمال ، فهو يأمر بالاخلاق الحسنة والحصول العالية وبكل ما يكفل للبشر سعادته في الدنيا والآخرة ، وللبيان أذكر نبذة من أوامره :

يأمر بالعدل والتواضع وحسن العاشرة والتعاون وحسن الخلق وترك المرء مالا يعنيه وقدر النعمة حق قدرها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين والاحسان بالوالدين والترغيب في طلب العلم والسعي وراء المعيشة وعبادة المريض وقبول النصيحة والاعتراف بالجهل واحترام أهل العلم واتباع الحق والتأني في الأمور وملاطفة الأيتام ومجانبتهم وإعانة المحتاجين وحب الخير والشجاعة والعفو والاحسان والاعتناء بالطهارة والنظافة وإطاعة أولى الأمر وعدم المبالاة بالحياة الشخصية لأجل الحياة العمومية ، والحلم والصبر وعدم الغش وعدم الغدر والسخاء ومعرفة الحقوق والنيات عند مشكلات الأمور ، والقناعة وحفظ الأمانة والتعلم والتعمير والاستقامة والعفة والصدق والمروءة وصفاء النية وعلو الهمة والاعتراف بالتقصير والاذعان للحق والانصاف والرفقة وصيانة العرض والشرف والدلالة على الخير وفصل الدعوى ومجانبة المهزل والسعي لتهديب النفس وصله الرحم وحفظ الهبة والوفاء بالوعد وإيفاء الدين والشورى والتزام الحقيقة وتوقير الكبير والرفقة بالصغير وغير ذلك من الأمور المستحسنة التي كل واحد منها ركن عظيم من أركان سعادة البشر .

وأما ما نهى عنه فهي الأفعال القبيحة والأخلاق السيئة التي قد ثبت بالتجارب العديدة أنها مفسدة بالانسان ومفسدة لمعاشه ومعاده . ومن تلك النهيات الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا والظلم والغدر والكبر والحسد والبغض والحقد والحرص والكذب والغيبة والغيبة والرشوة وسوء النية وقتل النفس والعناد وعقوق الوالدين وإكثار الكلام فيما لا فائدة فيه والبليل للقبائح والرياء والجبن وإعانة الظالم والحيلة والغرور والغصب وكنتم شهادة الحق وشهادة الزور والتجسس وسوء الظن والميسر (لعب القمار) والتفاخر وتطيف السكيل والميزان واحتسار الطعام وعدم إعانة المحتاجين وقطع المودة والتعادي والقذف في عرض الناس وتفض العهد وخلف الوعد .

وفي القرآن أحكام أخرى جليلة لا يمكن إنكار فوائدها : منها ما يتعلق بسياسة الملك والدولة وعمران البلاد ورقبها . ومنها ما يحفظ أمن الرعايا واستراحتها ، ومنها ما يتعلق بتقسيم الموارث وإيتاء كل ذي حق حقه ، وفيه أحكام غير هذه لم تكن في غيره من الكتب السماوية ، وأن كل ذي عقل وإذعان يعلم أن أحكام الشريعة المحمدية واسعة بقدر سعة العقل وامتداد الفكر متكفلة بصيانة كل حقوق متبعيها أحياء وأمواتا .

وكم في القرآن من أحكام غامضة ومعان دقيقة ولما يكشف الفن تقابها رغما عما بلغه من الرقي ، ولم تستلفت تلك الأحكام أنظارنا فضلا عن إدراكنا، وسبب ذلك أن عقول البشر لم تزل غير كافية لفهمها حتى إذا ارتقت الأفكار وبافت كالمها واتسعت العلوم والفنون ووصلت غايتها لا يرب أنها تنجلي أيضا [مثال ذلك] حركة الكرة الأرضية لم يتسن لنا إدراكها وثبوتها إلا لزمان قريب من زماننا . والقرآن المبين قد رفع حجاب هذه المسألة قبل ألف وثلاثمائة سنة ولكننا معشر الانسان لم نكن لنندرك تلك الحقيقة حتى كشفت بعد ما مضت عليها العصور وتعاقبت القرون .

وفي القرآن من أحكام حفظ الصحة ورعاية أسبابه، ومن أحوال الأمم الماضية وأخبارها ما يخول لنا الحكم عليه بأنه قانون طبي وكتاب تاريخي أيضا . فاذا قرأنا ما فيه من القصص والحكايات نشاهد أنه ذكرها بأبدع أسلوب وأعلاه بلاغة وإعجازا وأنه يؤثر على نفوس البشر تأثيرا لا نجد في الكتب الأخلاقية والتاريخية والروايات الأدبية سواء كتبت بالعربية أو التركية أو الافرنسية أو غيرها . وإنه يصور الحقائق بكلام موجز كأن تلك الحقيقة مشاهدة وملوسة وغير ذلك مما يعلن أن هذا الكلام المعجز منزل من لدن حكيم عليم .

ثم إن جلّ الباحث القرآنية لم توجد في غيره من الكتب المقدسة وهذا أمر ضروري فإن الانسان في تلك الأزمنة السابقة كان محتاجا لما هو أهم من هذه الأحكام بداهة ولم يكن من هم المرشد حينئذ أن يشتغل بتبليغ غير ذلك الأهم حتى إنه لو بلغ الأحكام المتأخرة لم يكن ليفهمها أحد فتبليغها إذن عبث وأن كثيرا من المطالب الرفيعة والفنون العالية ذكرت في القرآن ولما تدركها العقول وستدركها مع ما حوتها من الأسرار على مرور العصور والأزمان . وقد ذكرت آتفا قاعدة تنفيذ أن قانون التكميل تدريجي ليس آتيا فيعلم بالضرورة أن القانون المذكور مفتقر إلى كتاب سماوي كالقرآن الحكيم إذ شريعة النبي الأول أتمت بشريعة الثاني وشريعة الثاني بشريعة الثالث وهكذا حتى جاءت شريعة موسى فأتمت بشريعة عيسى عليهم الصلاة والسلام ثم أتمت الشرائع السابقة كلها بشريعة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وقد ظهر أن شريعة موسى عليه السلام أتمت وأرجح مما سبقها وشريعة عيسى أتمت من شريعة موسى عليهما السلام ، فلم يبق مجال للشك في أن الشريعة المحمدية أتمت الشرائع السابقة وأنها ناسخة لها . فقد أتى الانجيل بأحكام حجة لم تكن في التوراة حيث كان بعدها ولهذا كان الانجيل أرجح من التوراة، والسبب عينه كان القرآن أرجح من الانجيل . فلو عكسنا القضية وزعمنا أن التوراة أرجح من الانجيل والانجيل أرجح من القرآن لملنا أنفسنا كلفة القول بأن عقل البشر قد أصيب برجعة قهربية . وبهذا القول الذي لا يتفق مع المنطق ترتكب خطيئة لا تغفر ونظّم النوع البشري رغما عما يدهش أبصارنا وعقولنا من الترقيات الجديدة والاختراعات الحديثة . ولهذا الأسباب كلها كان للتأخر ناسخا للتقدم . وبموجب هذه القاعدة كانت الشريعة المحمدية ناسخة لكل ما تقدمها من الشرائع ولن تنسخ بشريعة أخرى فهي باقية إلى الأبد . فان نسخ الشريعة بأخرى لم يكن إلا لأن أحكام الشريعة الأولى غير كافية لسد عوز البشر واحتياجاته التي يولدها الزمان وتزداد يوما فيوما . ومهما تكثرت حاجات الانسان وازدادت لوازمه فلا يحتاج إلى شريعة أوسع من الشريعة المحمدية .

فقد ذكرت لك قسما من الأحكام القرآنية . ولو أنعمت فيها نظرك قليلا لرأيت أن حاجات الانسان ولوازمه الدنية مهما كثرت لا تخرج عن دائرة الأحكام القرآنية . فالقرآن كافل لكل احتياجات البشر في كل عصر . وأن العقل البشري مهما ارتقى وتكامل لا يمكنه أن يخرج عن حدود الأحكام التي اشتمل عليها القرآن فأصبح من الضروريات اللازمة التي لا يحصى للعقل عنها أن يتبع البشر الشريعة المحمدية الغراء في كل زمان ومكان .

وظهر مما قرناه آنفا ظهورا لا غبار عليه أن القرآن المبين قانون إلهي ونظام سماوي ومحكم أنزلى لن ينسخ أبدا ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن اتباعه في كل زمان والعمل به في كل مكان لهو السعادة والنجاة والفوز والفلاح ومخالفته لهي الذلة والمسكنة والحسران العظيم وأن من أتى به لهو خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . انتهى بالحرف الواحد من [رسالة الجواب الكافي] لعبد الله كويلم التي ترجمها إلى العربية الأستاذ (زهدي الخماش) أستاذ علوم الدين بالمدرسة السلطانية في (بيروت) .

ويحسن بنا أن نلمّ بما كتبه المترجم الفاضل ترجمة حياة المؤلف . قال :

* نبذة من ترجمة المؤلف *

هو عبد الله ويليم كويليام الانكليزي الهامى بالمسكة العليا (بمدينة ليفربول) يبلغ من العمر نحواً من الخمس والخمسين (حينئذ) نحيف الجسم ربة وله ولدان اسم أحدهما بلال والآخر أحمد . نشأ الرجل بين التمدنيين بمذهب (الويليان) وكان من رؤسائه وواعظا لشيئته ، كان يعتنى بالعلوم الرياضية ، وله الباع الطويل فيها ، وفي سنة ١٨٨٣ ميلادية الموافقة لسنة ١٣٠٠ هجرية أصيب بمرض عضال جعله طريح الفراش نحو سنة ، فأوصاه الأطباء بالسفر إلى (أسبانيا الجنوبية) لتبديل الهواء فتوجه إلى (جبل طارق) ثم إلى (طنجة) وأقام حيناً من الزمان يشاهد محاسن الدين الاسلامي وصفاء المسلمين وإخلاصهم ويتعلم العقائد الاسلامية فكان يزداد بالاسلامية حبا وشغفا كلما ازداد علما . ولما رجع إلى بلاده أخذ نسخة من القرآن مترجمة للانكليزية فكان يقرؤها بتدبر وإمعان ويقرأ كل ما يصل إليه من الكتب الاسلامية ، فعلم علم اليقين أن الاسلامية هي الشريعة الحقة التي لا شك فيها ولا ارتياب ، ولم يجعل في اعتناقها بل أخذ يبحث في الشرائع الأخرى وذلك مما زاده إيمانا و يقينا ، فصمم على اعتناق الاسلامية إلا أنه كان يحول بينه وبين ذلك كثرة العيال وما أهمه من الأشغال ، ولما تمكنت تلك العقيدة من نفسه وخالطت حلاوة الايمان مجامع قلبه فاتح أحد أصدقائه بما عزم عليه ، فأجابه ذلك الصديق [إن كنت تأنف أن تعتقد بالثالوث وأزمنت على تركه فادخل في مذهب الموحدين من النصارى] فقال له . كلا ! إنه يتعذر على الوقوف بمنصف طريق التوحيد ولا بد لي من ترك النصرانية بتاتا ، فاعتنق الاسلامية وأقر بالشهادتين ، وأثنى إسلامه بين أقربائه وذويه فسخروا منه وزعموا أنه مجنون ، ثم جعل ينظم أحوال معيشته على القواعد الإسلامية ، ولم يأل جهدا في دعوة بني جلدته إلى طريق الهداية والسعادة إلى الفوز الأبدى والفلاح السرمدي فهدى الله بدعوته من ألهمه الاجابة ؛ ولم يزل يشتغل بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولما اجتمعت كلته مع من تبعه اتخذوا لهم مسجدا لاقامة الصلوات الخمس والجمعة والعيدين وهو الآن شيخهم ومرشدهم ، ولما اتصل نبؤه بالحليفة الأعظم دعاه إليه وأناله من التفاته ماقرت به عينه وثلج صدره وقد اجتمع بمشاهير العلماء والأفاضل بدار السعادة ، فكل هنأ بما ناله من السعادة والمجد باهتدائه لهذا الدين المبين ، ثم رجع إلى بلده (ليفربول) ولم يزل عاكفا على الواجبات الدينية والشعائر الإسلامية . وقد ترجم محمود أسعد أفندي زيد فضله كتاب [دين الإسلام] للموسى إليه . فقال بعد ما ذكرنا من ترجمة حاله [وقد شاد المسلمون هناك مدرستين إسلاميتين إحداها للذكور والأخرى للإناث يقبل فيهما كل من يأتي من أطفال المسلمين من الخارج بأجرته ، ولهم مجتمع منتظم فيه رئيس وأعضاء ولهم أئمة وخطباء ومؤذنون ، ويحتمون

في كل سنة اجتماعا عموميا ينتخبون فيه من يستخدمونه في مصالحهم ، وقهم الله أجمعين لما فيه الخير والصلاح ،
إنه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير .

من آثار كونه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين (١) أن دين الإسلام لا يبسح أن يفضل أحد أحدًا إلا
بالتقوى ، أما الأنساب فلا . (٢) وأن أهل الديانات شربوا من منهل الإسلام فارتقوا ، وسترى مثل ذلك
في [سيرة موسى بن ميمون] و [اعترافات جاسوس] أو [ثلاثون عاما في الإسلام] .
الإنسانية الآن جاهلة متعصبة لكل شيء حتى للون . ألم تر إلى ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم
الثلاثاء ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه :

معاملة الزوج في لندن

عاد المستر (ابوت) صاحب الجريدة اليومية في (شيكاغو) وهو زنجي واسع الثروة إلى الشكوى من معاملة
الإنكليز لغير البيض فأبرق إلى المستر (مرلي) العضو البرلماني يشتكى أنه منع هو وزوجته من حضور حفلة
على ظهر إحدى البواخر البريطانية في دعوتها إلى أمريكا . وقال المستر (مرلي) إن عددا معلوما من غير
البيض كلفوا أخيرا أن يخرجوا من حفلة راقصة في لندن فرفعوا شكواهم إلى (اللورد باسفيلد) وقد صمم المستر
(مرلي) أن يثير هذه المسألة في مجلس العموم . وقال إنه ورد عليه كتاب من (المستر مكدونلد) عن مسألة تحريم
الفنادق على المستر (ابوت) الصحفي الزنجي قال فيه مانصه : [إن هذا من الأمور اللزجة جدا ولا تتفق مع
العادات المرعية في الفنادق البريطانية ، ولكني لأرى أية مصلحة من مصالح الحكومة مشتولة عن هذا الأمر
ولست قادرا أن أجد أية طريقة تحول الحكومة حق التدخل] اه .

فأين النوع الإنساني الجاهل من قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل لنعرفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد أذن بلال في السكبة بمحضر قريش عند فتوح مكة بل
أين هذا النوع الإنساني الكافر بالنعمة من النعجات والسكبات والثيران والخيول فأنها تعيش معا ولا تبالى
باختلاف الألوان ، فأننا نرى الهرة والسكبة والنعجة والحمار والبقرة ذوات اللون الأبيض تصاحب القط
والسكب والحمار والحروف والثور ذا اللون الأسود أو الأحمر فلا ملازمة بين الألوان والأخلاق ، إذن هذا
الإنسان جهول كفار ، نسي الفطرة فذكره الله بالإسلام وأصبح المسلم في مصر لا يفرق بين لون ولون
في صلته ومجالسه ، إذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رحمة للعالمين والإنسان جهول كفار ، وأما كون أهل
الديانات شربوا من منهل الإسلام وارتقوا فهناك منه مثلا وهو ماجاء في جريدة المقطم تحت العنوان التالي
وها هو ذا .

موسى بن ميمون

(رسالة الخاخام الأكبر)

إنني معتبط بأن أوفق الآن إلى تحقيق الرغبة التي أبدتها أحد الأفاضل في المقطم في الاطلاع على نبذة من
حياة موسى بن ميمون وسيرته وها أنا أبر بوعدي السابق موجزا مقالي على قدر الاستطاعة ذلك لأن الشروع
في بحث أصله ونسبه يؤدي حتما إلى بحث حياته الشخصية وعلو أخلاقه ومكنونات صدره وحدة ذهنه وعلومه

وآدابه ثم تأليفه وتأثير كل ذلك في الهيئة الاجتماعية وهذه كلها من الأمور التي يتعذر شرحها في مقال واحد مهما روعي الإيجاز والاختصار، فقد كتب عنه أكثر من مائة وخمسين عالما من إسرائيليين وغير إسرائيليين ولو جمعت كل الكتب التي أتى ذكره فيها لتألفت منها مكتبة كبيرة، ولذلك أترك جانباً كل ما يختص بالوجهة الإسرائيلية من تعاليمه ومؤلفاته، وهذا ليس بالكثير القليل بالنسبة لما في علومه الدينية والفقهية من الأهمية، وأقتصر على الكلام عن المسألة العليا التي بلغ ذروتها في تاريخ الفلسفة ولاسيما تأثير الآداب الإسلامية فيه بانصافه بعلاء الإسلام المعاصرين له مكتفياً بذكر الدور العظيم الذي مثله هذا العالم الجليل في القاهرة مدة (٣٧) سنة بصفته حجة دينية ورئيساً روحياً للإسرائيليين وطبيباً في البلاط الأيوبي والمجتمع البشري.

﴿ أصله ونسبه ﴾

ولد أبو عمران موسى بن ميمون بن عبد الله يوم (٣٠) مارس (١١٣٥) م. في مدينة قرطبة عاصمة الأندلس باسبانيا وتوفاه الله يوم (٢٠) ديسمبر ١٢٠٤ في مدينة القاهرة. وبعد أيام من وفاته نقل جثمانه إلى مدينة طبريا بفلسطين حيث دفن. وقد حفظت التقاليد الإسرائيلية أسماء أجداده حتى السابع منهم وأسماء ذريته حتى النسل السابع فيهم. وبين محفوظات الإسرائيليين الأثرية في القاهرة مخطوط على جانب عظيم من الأهمية كتب بالعبرية والعربية، وفيه ذكر لأحد أفراد ذريته من الجيل السابع يدعى داود ميموني كان كجده صاحب الترجمة رئيساً روحياً للطائفة الإسرائيلية في القاهرة سنة (١٤٠٤) م ويغلب على الظن أنه هو الذي قصد في أواخر حياته إلى دمشق الشام ليستوطنها مع عائلته.

وبعد ذلك تشتت تلك الذرية في أنحاء مختلفة. وقد ورد في التاريخ ذكر اسمين أحدهما عالم يدعى ميمون القاسي نسبة إلى قاس وذلك في سنة (١٤٣٨) والآخر في سنة (١٥٦٨) كان عائشاً في بلدة مورانو بإيطاليا ويكنى بالباز، وفي أيامنا هذه ترى عائلات إسرائيلية كثيرة من أصل إسباني تحمل هذا الاسم إلا أن كلمة لليعموني لم تكن في الأصل اسماً لعائلة بل لشخص. فوالد صاحب الترجمة كان يدعى ميمون بن عباديا أي عبد الله وكثيرون من إسرائيليين المغرب والجزائر يدعون بهذا الاسم كميمون الدهان وميمون البريلي. والثابت عن أسلاف لليعموني أنهم كانوا قد رحلوا من مراکش إلى قرطبة مع غيرهم من الإسرائيليين، وكان ذلك في عصر الخليفة عبد الرحمن الثالث.

﴿ صباه ودروسه الابتدائية وأسفاره ﴾

تولى والده تربيته وتثقيفه وكان منذ حداثة يبيت في نفسه حبة العلم، ثم سلم زمامه إلى أشهر الأساتذة في قرطبة. فكان يدرس أصول الدين الإسرائيلي على أساتذة إسرائيليين والعلوم على أساتذة مسلمين وكانت العربية والعبرية لسانه القومي. وعدا تضلعه من العلوم العبرية يدرس العلوم اليونانية والعربية والرياضيات والطبيعات والطب والفلسفة. على أنه لأسباب سياسية اضطر والده للهجرة مع أسرته فغادروا قرطبة أيام كان صاحب الترجمة في الثالثة عشرة من سنه. وبعد أن تجولوا مدة اثني عشر عاماً في مدن الأندلس عقدوا النية على التوطن في مدينة فاس سنة (١١٦٠) فقصدوا إليها وإذا لم يجدوا فيها راحتهم شذوا رحالهم إلى فلسطين ومنها إلى الإسكندرية حيث أقاموا شهوراً ثم جاءوا إلى القاهرة واستقروا فيها. وكان صاحبنا قد بلغ الثلاثين من سنه، على أن كل هذه الأسفار وما كان يتخللها من مشاق وأخطار فضلا عن العذاب للآدى والأدبى الذي كانوا عرضة له في كل آن. كل ذلك لم يوقف صاحب الترجمة عن متابعة سيره نحو الغاية العلية التي كان يسعى لها، فخيانته من هذه الوجهة يجدر تشبيهها بحياة ابن سينا، كما أنها من حيث الجهود والتأليف والشهرة

في كل سنة اجتناعا عموما ينتخبون فيه من يستخدمونه في مصالحهم، وقهم الله أجمعين لما فيه الخير والصلاح،
إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

من آثار كونه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين (١) أن دين الإسلام لا يبيح أن يفضل أحد أحدا إلا
بالتقوى ، أما الأنساب فلا . (٢) وأن أهل الديانات شربوا من منهل الإسلام فارتقوا ، وسترى مثل ذلك
في [سيرة موسى بن ميمون] و [اعترافات جاسوس] أو [ثلاثون عاما في الإسلام] .
الإنسانية الآن جاهلة متعصبة لكل شيء حتى للون . ألم تر إلى ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم
الثلاثاء ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه :

معاملة الزوج في لندن

عاد المستر (ابوت) صاحب الجريدة اليومية في (شيكاغو) وهو زنجي واسع الثروة إلى الشكوى من معاملة
الإنسكيز لغير البيض فأبرق إلى المستر (مرلي) العضو البرلماني يشتكى أنه منع هو وزوجته من حضور حفلة
على ظهر إحدى البواخر البريطانية في دعوتها إلى أمريكا . وقال المستر (مرلي) إن عددا معلوما من غير
البيض كلفوا أخيرا أن يخرجوا من حفلة راقصة في لندن فرفعوا شكواهم إلى (اللورد باسفيلد) وقد صمم المستر
(مرلي) أن يثير هذه المسألة في مجلس العموم . وقال إنه ورد عليه كتاب من (المستر مكدونلد) عن مسألة تحريم
الفنادق على المستر (ابوت) الصحفي الزنجي قال فيه مانصه : [إن هذا من الأمور المزعجة جدا ولا تتفق مع
العادات المرعية في الفنادق البريطانية ، ولكني لأرى أية مصلحة من مصالح الحكومة مستولة عن هذا الأمر
ولست قادرا أن أجد أية طريقة تحول الحكومة حق التدخل] اه .

فأين النوع الإنساني الجاهل من قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد أذن بلال في السكبة بمحضر قريش عند فتوح مكة بل
أين هذا النوع الإنساني الكافر بالنعمة من النعجات والسكبات والثيران والحجير فانها تعيش معا ولا تبالى
باختلاف الألوان ، فاننا نرى الهرة والسكبة والنعجة والحمار والبقرة ذوات اللون الأبيض تصاحب القط
والسكاب والحمار والحروف والثور ذا اللون الأسود أو الأحمر فلا ملازمة بين الألوان والأخلاق ، إذن هذا
الإنسان جهول كفار ، نرى الفطرة فدكره الله بالإسلام وأصبح المسلم في مصر لا يفرق بين لون ولون
في صلاته ومجالسه ، إذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رحمة للعالمين والإنسان جهول كفار ، وأما كون أهل
الديانات شربوا من منهل الإسلام وارتقوا فهالك منه مثلا وهو ما جاء في جريدة القطم تحت العنوان التالي
وها هو ذا .

موسى بن ميمون

(رسالة الحاخام الأكبر)

إني معتبط بأن أوفق الآن إلى تحقيق الرغبة التي أبدتها أحد الأفاضل في المقطم في الاطلاع على نبذة من
حياة موسى بن ميمون وسيرته وها أنا أبر بوعدي السابق موجزا مقالي على قدر الاستطاعة ذلك لأن الشروع
في بحث أصله ونسبه يؤدي حتما إلى بحث حياته الشخصية وعلو أخلاقه ومكونات صدره وحدة ذهنه وعلومه

وآدابه ثم تأليفه وتأثير كل ذلك في الهيئة الاجتماعية وهذه كلها من الأمور التي يتعذر شرحها في مقال واحد مهما روعى الإيجاز والاختصار، فقد كتب عنه أكثر من مائة وخمسين عالما من إسرائيليين وغير إسرائيليين ولو جمعت كل الكتب التي أتى ذكره فيها لتألفت منها مكتبة كبيرة، ولذلك أترك جانبا كل ما يختص بالوجهة الاسرائيلية من تعالجه ومؤلفاته، وهذا ليس بالكثير القليل بالنسبة لما في علومه الدينية والفقهية من الأهمية، وأقتصر على الكلام عن المسألة العليا التي بلغ ذروتها في تاريخ الفلسفة ولاسيما تأثير الآداب الاسلامية فيه بانصاله بعلماء الإسلام المعاصرين له مكنتها بذكر الدور العظيم الذي مثله هذا العالم الجليل في القاهرة مدة (٣٧) سنة بصفته حجة دينية ورئيسا روحيا للاسرائيليين وطبيبا في البلاط الأيوبي والمجتمع البشري.

﴿ أصله ونسبه ﴾

ولد أبو عمران موسى بن ميمون بن عبد الله يوم (٣٠) مارس (١١٣٥) م. في مدينة قرطبة عاصمة الأمويين بإسبانيا وتوفاه الله يوم (٢٠) ديسمبر ١٢٠٤ في مدينة القاهرة. وبعد أيام من وفاته نقل جثمانه إلى مدينة طبريا بفلسطين حيث دفن. وقد حفظت التقاليد الاسرائيلية أسماء أجداده حتى السابع منهم وأسماء ذريته حتى النسل السابع فيهم. وبين محفوظات الاسرائيليين الأثرية في القاهرة مخطوط على جانب عظيم من الأهمية كتب بالعبرية والعربية، وفيه ذكر لأحد أفراد ذريته من الجيل السابع يدعى داود ميموني كان كجدده صاحب الترجمة رئيسا روحيا للطائفة الاسرائيلية في القاهرة سنة (١٤٠٤) م ويغلب على الظن أنه هو الذي قصد في أواخر حياته إلى دمشق الشام ليستوطنها مع عائلته.

وبعد ذلك تشتت تلك الذرية في أنحاء مختلفة. فقد ورد في التاريخ ذكر اسمين أحدهما عالم يدعى ميمون القاسي نسبة إلى فاس وذلك في سنة (١٤٣٨) والآخر في سنة (١٥٦٨) كان عائشا في بلدة مورانو بإيطاليا ويكنى بالباز، وفي أيامنا هذه ترى عائلات اسرائيلية كثيرة من أصل اسباني تحمل هذا الاسم إلا أن كلمة اليموني لم تسكن في الأصل اسما لعائلة بل لشخص. فوالد صاحب الترجمة كان يدعى ميمون بن عباديا أمي عبد الله وكثيرون من اسرائيلي المغرب والجزائر يدعون بهذا الاسم كميمون الدهان وميمون البريلي. والثابت عن أسلاف اليموني أنهم كانوا قد رحلوا من مراكش إلى قرطبة مع غيرهم من الاسرائيليين، وكان ذلك في عصر الخليفة عبد الرحمن الثالث.

﴿ سببه ودروسه الابتدائية وأسفاره ﴾

تولى والده تربيته وتثقيفه وكان منذ حداثة يبت في نفسه محبة العلم، ثم سلم زمامه إلى أشهر الأساتذة في قرطبة. فكان يدرس أصول الدين الاسرائيلي على أساتذة إسرائيليين والعلوم على أساتذة مسلمين وكانت العربية والعبرية لسانه القوي. وعدا تزلعه من العلوم العبرية يدرس العلوم اليونانية والعربية والرياضيات والطبيعات والطب والفلسفة. على أنه لأسباب سياسية اضطر والده للهجرة مع أسرته فغادروا قرطبة أيام كان صاحب الترجمة في الثالثة عشرة من سنه. وبعد أن تجولوا مدة اثني عشر عاما في مدن الأندلس عقدوا النية على التوطن في مدينة فاس سنة (١١٦٠) فقصدوا إليها وإذ لم يجدوا فيها راحتهم شدوا رحالهم إلى فلسطين ومنها إلى الاسكندرية حيث أقاموا شهورا ثم جاءوا إلى القاهرة واستقروا فيها. وكان صاحبنا قد بلغ الثلاثين من سنه، على أن كل هذه الأسفار وما كان يتخللها من مشاق وأخطار فضلا عن العذاب اللامادي والأدبي الذي كانوا عرضة له في كل آن. كل ذلك لم يوقف صاحب الترجمة عن متابعة سيره نحو الغاية العلمية التي كان يسعى لها، خيانه من هذه الوجهة يجدر تشبيهها بحياة ابن سينا، كما أنها من حيث الجهود والتأليف والشهرة

أشبه شيء بحياة الغزالي . وبالفعل أنه لم يبلغ العشرين من سنه إلا وكان قد ألف كتابا في التقويم الفلكي وكتابا آخر دعاه مقالة في صناعة المنطق .

أما مؤلفاته العلمية فيمكن حصرها في ستة أقسام وهي :

- (١) علم التفسير . (٢) علم الفقه . (٣) علم الكلام .
(٤) الفلسفة وعلم ما فوق الطبيعة . (٥) علم التصوف أو الأخلاق . (٦) الفتاوى والرسائل .

﴿ علم التفسير وعلم الفقه ﴾

لا تعرض لبحث مذهبه في علم التفسير العبري لأن ذلك من الموضوعات التي تهم رجال التفسير الاسرائيليين دون سواهم ، إلا إنه لامندوحة من القول إنه ألزم في كل تأليفه خطة الوضوح والدقة في التعبير وهي الخطة التي ينبغي أن تتوافر شروطها في علم العقليات . أما فيما يختص بعلم الفقه فبوسعنا أن نقول إنه كان أول مهندس شرعي فسكر في ترتيب وتبويب جميع أقسام التشريع الاسرائيلي وقد كانت حينذاك مهمة ومختلطة بموضوعات أخرى لاعلاقة لها بالتشريع وواردة في التلمود ، وهو سفر مؤلف من ستين جزءا عدا التفسيرات الكثيرة ، فقد كان كالمهندس يبدأ بوضع رسم البناء ثم يقسمه إلى طبقات ومساكن وغرف بحيث يتيسر للزائر الدخول والخروج من غير صعوبة . وكانت هذه خطته في تأليف كتابه الشهير المعروف باسم [اليد القوية] وهو مؤلف من ١٤ جزءا ويقسم إلى فصول وبنود وأبواب ، ولغزارة مادته وتضلعه في جميع العلوم واكتسابه شهرة عظمى لقب بالمنور العربي والنسر الأكبر كما لقب الغزالي بحجة الإسلام . والآن نشرح للقارىء المسلم الكبير مكانة هذا العالم الكبير فيما يختص بعلمه الدينية والفلسفية والأخلاقية .

﴿ علومه الدينية وفلسفته ﴾

إن هذه العلوم مع شدة اتصالها بعلم التفسير مرتبطة به كل الارتباط لأنها ترجع في أحكامها وأدلتها إلى النصوص المقدسة . فانك تجد في كتاب [أنوار التنزيل في أسرار التأويل] للبيضاوي المبادئ الدينية كما تجد مبادئ الزمخشري في كتاب الكشف فيما يختص بالعلوم الدينية والفلسفية والعقلية ، وتعلم أيضا من أبحاثه في كتابه [دلائل الحائرين] أنه وقف على أسرار فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس وعلى علوم الصوفية وإخوان الصفا وأصحاب العدل والتوحيد ، وأنه لم يخف عليه شيء من مبادئ هذه الفرق . وإذا تراءى يذكر الزمخشري فلا بد من الاعتراف بأنه كان مطلعاً على الاطلاع على كتاب [للل والنجل] كذلك في كتبه التي بحث فيها عن العزلة ومؤسسها واصل بن عطاء . ومن الأمور التي تستوقف الأنظار وجود شبهة كبرى بين مؤلفاته ومؤلفات الغزالي من حيث الأسماء واللوضوعات . ففي كتابه [مقالة في التوحيد] نجد شبهة بينه وبين كتاب [العقيدة] وكتاب [دلالة الحائرين] كثير الشبه بكتاب [النقذ من الضلال] وكذا مقالاته في الأخلاق . انتهى الكلام على موسى بن ميمون .

أما ماجاء في مجلة [المرشد] فهذا نصه :

اعترافات جاسوس

أو

(ثلاثون عاما في الإسلام)

ندبت الحكومة الفرنسية في القرن الماضي المسمى (ليون روش) ليكون جاسوسا على الأمير عبد القادر الجزائري وأوعزت إليه أن يتظاهر عنده بالاسلام وأن يتوصل إلى أن يكون موضع ثقته ومحل أمانته، ففعل ذلك ونجح وأقام في ديار المسلمين ثلاثين عاما تعلم في أثنائها اللغة العربية وفنونها والإسلام وعلومه ، واختبر الأوطان الإسلامية المهمة (الجزائر وتونس ومصر والحجاز والقسطنطينية) ثم ألف كتابا اسمه (ثلاثون عاما في الإسلام) قال فيه مانصه :

اعتنقت دين الإسلام زمننا طويلا لأدخل عند الأمير عبد القادر دسيسة من قبل فرنسا وقد نجحت في الحيلة فوثق بي الأمير وثوقا تاما وأخذني سكرتيرا له ، فوجدت هذا الدين (الذي يعييه الكثيرون منا) أفضل دين عرفته ، فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعا فيه ، بل إنني عدت إلى الشريعة التي يسميها (جون سيمون) الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت عن الشريعة الإسلامية أخذًا ، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به من الفلاسفة من نفوس الحير والرحمة والعروف في عالم لا يعرف الشر واللعو والكذب ، فالمسلم بسيط لا يظن بأحد سوا ، ثم هو لا يستحل محرما في طلب الرزق ، ولذلك كان أقل مالا من الاسرائيليين ومن بعض المسيحيين ، ولقد وجدت في الاسلام حل للمسألين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا : الأولى في قول القرآن « إنما المؤمنون إخوة » فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية . والثانية في فرض الزكاة على كل ذى مال ونحويل الفقراء حق أخذها غصبا إن امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا وهذا دواء الفوضوية .

إن الاسلام دين المحامد والفضائل ، ولو أنه وجد رجالا يعلمونه الناس حق التعليم ويفسرونه تمام التفسير لسكان المسلمون اليوم أرقى العالمين وأسبقهم في كل الميادين ، ولكن وجد بينهم شيوخ يحرفون كله ويمسخون جماله ويدخلون عليه ما ليس منه . وإني تمسكت من استغواء بعض هؤلاء الشيوخ في القيروان والاسكندرية ومكة فكتبوا إلى المسلمين في الجزائر يفتونهم بوجوب الطاعة للفرنسيين وبأن لا ينزعوا إلى الثورة وبأن فرنسا خير دولة أخرجت للناس . وكل ذلك لم يكافئ غير الآنية الذهبية اه .

﴿ جوهرة في قوله تعالى «ولكن رسول الله وخاتم النبيين» مع قوله فيما سياتي «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا» ﴾

أقول : ومن شأن السراج المنير وهو الشمس أن تم أشعتها ، ويضم إلى ذلك آية « يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك » الخ وإنما جعلنا هذه الجوهرة مشتركة في هذين الموضوعين موضوع عموم شريعته

وجواز تعدد زوجاته فوق الأربعة لأن ذلك كله جاء في المقال الذي عنوانه بهذه الجوهرة من كتاب العلامة (الكونت هنري دي كاستري) المسمى [الاسلام . خراطير وسوانح] قال تحت عنوان الفصل السادس مانصه :

(انتشار الإسلام أيام الفتوحات العربية)

تخطيط ممالك الاسلام . انتشاره في أفريقيا الوسطى . تجار المسلمين ومستكشفو الأوروبانيين .
الاسلام في مبدئه وبعد ذلك . أسباب الانتشار . لرسولون المسلمون . الغولبوسيون والحواصة
أسباب انتشار الاسلام الإلهية

قد كشفنا الغطاء عن العلة التي انتحلوها سببا في انتشار الاسلام انتشارا عظيما وبيننا فسادها ووعدنا ببيان الأسباب الحقيقية عند البحث عن تقدمه في هذه الأزمان لأننا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين في العصر الحاضر لا يبقى أثرًا لما زعموه من أنه إنما انتشر بحمد الحسام كما قندناه من قبل، ولو كان دين محمد صلى الله عليه وسلم انتشر بالعنف والإجبار لزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة وهذه الحركة المستمرة في هذه الأيام تحمل على الاعتقاد بأن الاسلام هو الدين الذي جاء موافقا لطبيعة البشر . وظن آخرون بأن الاسلام كان تابعا لتمدن العرب وحضارة الخلفاء التي كانت تأخذ بالنفوس في دمشق وقرطبة وبغداد وأنه انقضى بانقضاء ذلك قال (بارتلى سانت هيلير) ما عاد أحد من الناس يعتقد الاسلام . والواقع أنهم أخطأوا في معرفة حقيقة الأمرين : انتشار الاسلام وتمدن العرب ، فأما التمدن فهو أمر يعتبر لعوا في الاسلام أو هو تقيض له وعلى كل حال فهو عارض فيه وساعدت الظروف على نموه بجانب القرآن ولو أنه استمر لأطفأ نور دين النبي العربي بسقوط الأمراء في مهواة عدم التصديق وقلة الايمان وانحياز الأمة إلى عالم التخيل والأوهام . وبينما كان هذا حال مدن الخلفاء الآهله بالعمران فلا تحصى شعراؤها ولا تعد الأدباء ، وفيها الفلاسفة يتناظرون والعلماء في المعارف يتناقشون كانت صحارى العرب وليبيا وأفريقيا محتفظة على الدين الاسلامي في كاله الأصلي ولم تمسه فيها يد أجنبي عن تعالجه أو خارج عن شرائعه ، هنالك كان منبع رسل ذلك الدين الذين انتشروا في الأصقاع كما تدل عليه قبورهم البيضاء التي نشاهدها الآن في أفريقيا الشمالية .

وسنحصر كلامنا في انتشار القرآن على قارة أفريقيا وإنما نذكر على سبيل العرض أن له في الصين عشرين مليوناً^(١) من النفوس وأن المسلمين يقال لهم عندهم (هوى هوى) منزلة عليا في المملكة الوسطى قال موسيو (أزبيلف) وهو من الذين اشتغلوا بالاسلام في تلك النواحي أن مصيره القيام مقام مذهب (ساكياموني)^(٢) وأن لمسلمي المملكة السماوية اعتقادا جازما بأن الاسلام لا بد أن يسود حتى يزول به تلك الديانة القديمة البودية وهي مشكلة من أهم المسائل إذ الصين آهله بثلاث العالم أو تزيد ، فلو صاروا كلهم

(١) كلا . بل هم ٧٠ مليوناً الآن (طنطاوى جوهرى) .

(٢) هو أحد ملوك الصين ، تخلى عن الناس في التاسعة والعشرين من عمره وعكف على العلوم حتى برع فيها وصمى نفسه (بودا) ومعناه العالم أوللتور، ووضع المذهب الذي اتخذته الصين والهند دينا وكان ظهوره في القرن الحادى عشر قبل المسيح ، وقبل في القرن السابع وهو الأرجح .

مسلمين لأوجب ذلك تعبيراً عظيماً في حالة تلك البلاد بأجمعها فيمتد شرع محمد من جبل طارق إلى المحيط الأكبر الهادي ويغشى على الدين المسيحي مرة أخرى ، ومعلوم أن أمة الصين عاملة وإن هدأت أخلاقها وجميع الأمم تستفيد الآن من عملها فلو جاءها التعصب الإسلامي ذو البأس القوي لحشيت بقية الأمم من السقوط تحت سلاطنها (١) وقال موسيو (مونظيط) لقد صار من المحقق أن الإسلام ظافر لا محالة على غيره من الأديان التي تتنازع البلاد الصينية (٢) والإسلام قليل في أوروبا ومع ذلك نراه في شمال تركيا ليطونية وهو أيضاً في أمريكا حيث أدخله الزنوج وغيرهم إلا أن أفريقيا لا تزال بلده المصطفاة فهو فيها كالديانة المسيحية في أوروبا قال موسيو (بولنيك) يسكن المسلمون جميع الشواطئ من (سياراليون) إلى موزنبيق البرتغالية مارا بمراكش ولايات البربر (الغارية) وقنال السويس ، وأما في الوسط فيمتد الإسلام من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطي ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط إلى الدرجة السادسة من العرض الشمالي وتقدم أنه في الساحل يمتد إلى موزنبيق البرتغالية ، أعني أنه يقرب من الدرجة العاشرة من العرض الجنوبي وفي (مدغسكر) كثير من المسلمين حتى إن بعض المستشرقين ذهبوا إلى أن اسم الجزيرة (مدغسكر) أصله مأخوذ عن العرب قال موسيو (مونظيط) وأكثر انتشار الإسلام في أفريقيا فهو يتقدم فيها تقدماً سريعاً وينجح نجاحاً كلياً لأن أزر المسلمين فيها مشدود بما لهم من المسكنة في الجهة الشمالية وهم آمنون على سلطتهم الدينية في تلك البقاع التي تغيب في الصحراء حتى تبلغ بلاد السودان الواسعة فلا ينازع الدين الإسلامي دين غيره لذلك يكثر عددهم وينمو الدين على الدوام .

وقد نخطى سيره السودان واشتراب نحو أرجاء خط الاستواء وكان له مقر يقرب من أملاك فرنسا في بلاد النيجر لذلك عرفه ضباط الطلائع وإن كانت معرفة سطحية ولكننا لم نقف على سيره تماماً إلا عندما استولينا على الكوتغو وشاهدنا القوافل الإسلامية تهرب أمامنا كمن يريد أن يخفي سرّاً عن أجنبي ، والمسلمون اليوم محصورون بين أملاكنا في شمال أفريقيا ومراكزنا في الكوتغو وسنغال حتى كأنهم في قراصة نشدها أو نفسح فيها حسب ما تقتضيه سياستنا .

ولا تنتشر الإسلام في وسط أفريقيا منبعان الأول في الغرب وهو قديم امتد أثره إلى الشاطئ الأطلنطي حيث دخل القرآن واعتقده سكان تلك الجهات ولكنه انتهى أمام تقدم الفرنسيين من ناحية سنغال إلى بلاد النيجر ولم يزل ينثني آناً فآناً حتى خرج من (تنبكتو) وهي منبعه الأصلي إلى (سقطو) ومنها إلى (كانو) ثم إلى (كوكا) والظاهر أنه استقر فيها ، وأما النبع الثاني ففي الشرق وهو حديث العهد ويصل أثره بين (وادي) ودارفور بمحركين هما المهدي ورئيس الطائفة السنوسية ويفصل بين هذين المنبعين أنهار (شاد) و (إشاري) و (لوعوني) الجنوبية وأهل الشرق أهل حروب متعصبون أمام قوم الغرب فيميلون إلى التجارة والسلمة ، وكان الفريقان يتقدمان بالإسلام بين الوثنيين المجاورين لهم على امتداد اثني عشر ألف كيلومتر حتى تلاقوا بالفرنسيين قبيل الكوتغو نواحي نهر شاد فلم تقر أعينهم لهذه اللقيا لأنهم كانوا هجروا البلاد التي هاجمها الكفار وظنوا أنهم يأمنون لقاءهم في الجنود فلا يجدون غير الوثنيين ممن لم يعرفوا للأوروبيين خبراً ،

(١) راجع كتاب موسيو دابري المسمى الديانة المحمدية في الصين وتركستان الشرقية المطبوع في باريس

سنة ١٨٧٨ .

(٢) راجع مجلة تاريخ الديانات في شهر مايو ويونيو سنة ١٨٨٣

ويقال إن الأوروبين الذين التقوا معهم أتوا من أقطار بعيدة في الجنوب حيث تمت لهم فيها السيادة ولهم فيها مراكز ومدركات تروح وتغدو في أنهار واسعة تجري من الشرق إلى الغرب .

ومن الأمور ذات الأهمية الكبرى بالنظر إلى انتشار الاسلام توسط الأوروبين في أفريقيا وحلولهم في نهر الكونغو، لأنهم بذلك قسموا القارة الأفريقية من طرف إلى طرف وربما يخشى على حركة الاسلام التي كان يمتد رويداً رويداً مطمئناً من الشمال إلى الجنوب كما يخشى على التجارة التي كانت تروح وتغدو مع القوافل الاسلامية فيعكس مجراها فتتميل إلى الغرب نحو نهر الكونغو لذلك اشتغل رؤساء المسلمين بهذا الأمر اشتغالا لا مزيد عليه حذراً من انقلاب الحال في تلك البلاد ، ولقد يفيد التأمل أن يعرف كيف كانت نتائج مقابلة الأوروبين القادمين من جهة الكونغو مع المسلمين النازلين من السودان لولا أن هذا البحث يبعثنا عن مقصدنا فلنقتصر على البحث عن العلة في حياة الدين الاسلامي تلك الحياة القوية وما السبب في انتشاره هذا الانتشار العجيب .

وهنا يجب البحث فيما إذا كان الاسلام ديناً عمومياً بطبيعته أو هو دين خاص بأمة من الأمم وهو بحث طرق بابه من قبل (موسيو كينان) والجواب عليه صريح لا شك فيه من الجهة العلمية فالاسلام دين عام بغير شبهة لأننا نشاهد المسلمين في كل أمة على اختلاف الأجناس والبلدان، فمنهم الشرقي والتمري والعربي والمهندي والزنجي ، بقي علينا أن نعرف مع (موسيو كينان) إن كانت هذه الحالة العمومية ناشئة من طبيعة الدين أو متولدة من أسباب أخرى وهو يرى أن الأمة العربية ليست مهده الطبيعي وإنما هو ينتهي إليها وليس في طبيعة هذا الدين أنه دين عمومي وهو قيد ناشئ عن نظر في الموضوع من إحدى جهاته فقط لأن الدين الإسلامي الذي منشؤه القرآن والسنة هو الذي تولد عنه ذلك الإسلام الذي يعترف المؤلف المشار إليه بأنه دين عام، لاحتالة انتقاله من حالته الأولى إلى الثانية حصل تدريجاً بطريقة يتعذر ضبطها وذلك بتأثير الزمان والأمم المختلفة التي اعتنقته بحيث يتعسر التفريق بين تقدير تأثيره من حيث هو في أصله وتأثيره بعد أن صار كما نراه في هذه الأيام فلا يغضب (موسيو كينان) إذا حذف تقسيمه الاسلام إلى أولى ولاحق وقلت فيه كله كما قال في كتابه إنه دين عمومي على أن الانتقال من حالة أولية إلى غيرها ليس عرضاً خاصاً بالدين المهدى بل تشترك فيه جميع الأديان .

فما يرمي إلى حالة الاسلام الحالية انتشار مذهب الزهد والاعتقاد بالأولياء وبعض الأموات وكثير من التبعيدات الأخرى ، وسببه أن المرء طماع في الدين بأصل الحلقة ولكل أمل خاص ومن هنا تولدت تلك المذاهب والأفكار إرضاء لشهوات تشتد ظهوراً كلما تقدم العهد عليها ولم ينسج الاسلام من لوازم هذه الضرورة بل خضع إليها وأداها حقها وهذا من أكبر أسباب تقدمه ولكنه أيضاً سبب من أسباب تناقضه لأن تلك المذاهب تخالف مبداءه، ولقد نجد النفوس التي رفعت أعينها إلى السماء ومالت إلى التجرد عن الحواس ورغبت في مشاهدة الحضرة الربانية طريقاً مسلوكة في مذهب التصوف يسهل عليها الذسك والتعبد ولما يلومهم بعض المتشددين من العلماء وإن كان الزهد بهذه الصفة أي الاعتقاد بالوصلة بين العبد والله مما يخالف مذهب التوحيد ومن الناس من يرى نفسه بعيداً عن ربه فلا يستطيع أن يرفع دعاءه إليه وهو في بعض الأحيان غريب كقوله إلهي ارزقني من الأبناء ذكورا ولا تجعل ماشيق ندي إلا إنانا ومثل تلك الأفهام وجد في الاسلام مذهب الواسلين والذين صار يدهم توزيع كثير من المبرات في اعتقاد العامة وإلهم صار يرسل الجمع العديد من القوم الذين ضلوا سواء السبيل فيجتمع إليهم قطاع الطريق والشحاذون والنسوة العاقرات وشبان يريدون الثروة أو الجاه وشيوخ نضب عود قواهم مع أننا لو رجعنا إلى القرآن لرأينا التصديق بالأولياء غير

شرعى ولو وجدنا أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم الاعتقاد بهم « والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقتربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون » والواقع أن الاسلام في مبدأ ظهوره ما كان يقبل غير الاعتقاد بالله الواحد الأحد، وقد بقي هذا المذهب كما بدا فهو اليوم جامعة تلك المذاهب وإليه ينتهى كل اعتقاد .

ومن مزايا الاسلام أنه دين رحيم، فهو يعد الجنة والنعيم لكل مؤمن من دون تمييز على التقريب، فالهارب يموت شهيدا والعالم يكتبى بتلاوة القرآن والاثنان مقبولان عند الله وللفقير مكان على وللغنى درجة رفيعة . ولقد كان فكر النبي في الألوهية من أرفع الأفكار وأسمها ولكنها تساهل كثيرا في تقدير الإنسانية لذلك تسامح الناس كثيرا في رغباتهم وما كانوا إليه يميلون . نعم يحب على الرجل أن يعتقد ويعبد الله ولكن لا يجب عليه أن يحارب نفسه ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها إذ لا ينبغي له أن يطلب لنفسه السكال ولن يصل إليه لأن من أراد السكال فسكاته أراد أن يساوى الإله في جلاله وهو أسوأ الأعمال وأخبت الرغبات وكان رسول الله يميل إلى بعض ما يميل الناس إليه من المشبهات فكان يقول على أسلوب بسيط « حبب إلى من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة » ولقد عسر الجمع بين هذا التفضيل وبين الميل إلى النساء حتى يكاد العقل أن يزي في الأمر فهكا ، ولكن هذه الجملة لا تحتوى في الحقيقة على معنى خفى بل ما يفهم من لفظها هو الذى قصد منها، ومن وعابها فقد عرف الاسلام كما ينبغي وقد ورث المسلمون عن نبيهم ميلاهم إلى ما كان يميل إليه فللصلاة في قلوبهم منزلة سامية وليس التعبد بها عندهم خاصا بالنساء والأطفال كما هو عند المسيحيين بل هي مزية من مزايا الرجال وإحدى جهات فضاهم على النساء ولا يواظب عليها الصبي أو المرأة إلا نادرا لاعتبارها عند المسلمين من أعظم الأمور التي تلزم فيها صفات الرجل التام^(١)

ومع ذلك فمن الشهوات ما نهى النبي عنه وأمر بمجاهدة النفس فيه، فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله ، وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهى فكان من وراء ذلك أن نجت الأمم الاسلامية من مرض السكرات وهي الداعية التي تفجع اليوم إنما كثيرة من المسيحيين وكانت إحدى الأسباب في اضطراب المجتمع الانسانى وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الأمم الاسلامية .

هكذا جذب الاسلام قسما عظيما من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس صلوات في كل يوم وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئا مما يشتهون، وأعظم عامل في انتشار الاسلام خصوصا عند الأمم الزنجية (السود) بساطة مذهبه وسذاجة تعاليمه وهو سبب موجود في القرآن نفسه، فهو بذلك يلائم طباع الهمج كثيرا الذين لم يعرفوا ديننا من قبل ذلك . ديننا لأسرار فيه وكلنه أى كلمة الشهادة يعترض عنها عند الاحتضار بإشارة تدل عليها كرفع السبابة إلى السماء إشارة إلى وحدانية الله تعالى، فكلاما وجد الرجل الجاهلى أمامه دينين متحدين في حقيقتين وحدانية الله وخلود الروح وهما الاسلام ودين عيسى تراه يختار الدين الذى لا يزيد شيئا عن تينك الحقيقتين ويعتق الاسلام بلا محالة وهى قوة يفضل بها القرآن الديانة المسيحية في الانتشار وكانت معروفة عند القرن السابع عشر لذلك نقرأ في كتاب القس (مارانى) الذى سماه (ارد على القرآن) [ولا يغيب عن ذهن القارىء أن تلك الطائفة الشريرة أو المخرفة أو ماتشاء من الأسماء لا تزال حافظة لكل ما في الدين المسيحى من الأمور الظاهرة الواضحة القريبة التصديق مضافا إليه ما يوافق نظام السكون وقانون النشأة الدنيوية ، فقد أبعد عنه

(١) كلا . فالصلاة واجبة على كل بالغ رجلا وامرأة .

أحاجي الإنجيل التي نخلها في أول الأمر غير صحيحة لاتدركها العقول؛ كما أنه جرد تعاليمه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر مما جاء في ذلك الكتاب وبهذه الوساطة تمكن من رفع العقبتين اللتين يحس كل واحد منا بأنهما الحاجز بينه وبين الدين الحق الصحيح وهما عقبة الروح وعقبة الجسم وهذا هو السبب في أن الوثنيين الذين يريدون ترك دينهم في أيامنا هذه يعارضون عنه بالاسلام دون الديانة المسيحية].

بقي علينا أن نستقصي الأسباب والوسائل المستعملة الآن لانتشار الإسلام، وهنا أيضا نجد سببا عظيما من أسباب انتشار القرآن فرافقوا راية الإسلام هم في العادة تجار بلد واحد تضافروا على جلب الرزق من بلاد قاصية فالبشر الاسلامي [وليلاحظ أن هذا الاسم غير صحيح عند المسلمين إذ ليس لديهم مبشرون منقطعون لهذا الأمر كالمسيحيين] لا يوجب عند الأمم الجاهلية خوفا منه ولا فرقا لمقدمه كما يحصل لهم ذلك من البشريين للمسيحيين وهم كما قال موسيو (مونتيل) يعتقدون دينه لأنه لم يعرضه عليهم، فما أشبه الأمم بالأطفال ترغب عما يقدم إليها وترغب فيما تحسبه ممنوعا عليها، أما الطرق المستعملة في انتشاره فكثيرة متنوعة وأحسن موقع يبحث فيه عنها جهات أفريقيا بجانب الأملاك الفرنسية قرب خط الاستواء، فليس من جهة يشاهد المرء فيها تقدم الاسلام أحسن منها.

والقائمون بهذا العمل هم (الفولبوسيون) وهم الجنس الأبيض في السودان وله الأولوية على غيره. وهو أعرق في الاسلام وإليهم أشرفنا عندما قلنا بأن أحد منبغى الاسلام أقاليم نهرشادو وقد شاهدتم المكتشفون الفرنسيون في (شاري) و (لوغونه) والفولبوسيون يقصدون نشر الإسلام وتوسيع مناجرتهم ثم هم يرمون إلى غرض آخر هو اتساع نطاق سلطتهم فلم يخططوا سياسيا في الاستعمال مثل أوروبا يعملون لأجلها في أفريقيا قال موسيو (مستران) إن الذي لفت ذهننا كثيرا لما قدمنا إلى جهات شاري هو النظام السياسي الذي تمكنت ملوك الإسلام في أواسط أفريقيا من إيجاده بين الأمم التي دانت لسكنتهم، وللفولبوسيين مساعد كبير من عشاري يقال لها الحواصة وهم من الجنس الأبيض وأقرب عهد بالاسلام وأقل منهم منزلة فنسبتهم إليهم كنسبة اليهودي للعربي، ولقد شبهنا باليهودي لأنه تشببه قال به جميع الرواد والمكتشفين من الأوروبيين فالحواصة أمة لازمة لسكنها مخففة كما هو شأن اليهودي يحب المال ويتكهن طرق اكتسابه ولا يخاطر بمتجره فيسير خلف (الفولبوس) وهو رجل الحرب والفتوح ولا يستقر به القرار إلا إذا آمن وتمكن والحواصة هم أهل المعارف والعلوم في السودان حتى كأنهم احتكروها إلا أن علمهم قاصر على شيء يسير كالفراءة والكتابة في اللغة العربية وهو كاف لنفوذهم في الوثنيين لأن هؤلاء يعظمون الكتاب والقاري إلى درجة العبادة تقريبا ومع ذلك فلا يزال الحواص وضع الدرجة في عين متبوعه الفولبوس، فالفولبوسيون هم أنصار الاسلام في الحقيقة والحواصة منهم بمنزلة الوعاظ والفقهاء، ويعزى امتداد سطوة الفولبوس ديننا وسياسيا إلى تدخلهم في الحصومات التي تتكرر بين القبائل الوثنية المجاورة إليهم فما تخاصم الأهالي إلا وتدخل الفولبوسيون، أما الجهات التي اجتمعت فيها قلوب الوثنيين وخفت وطأة الشقاق لديهم فلا يدخلون بينهم ودينتهم وسياستهم إلا بالعناء ويتوصلون إلى غرضهم في الغالب عند ما ترتكب جريمة قتل أو سلب حيث يوجد قوم من المسلمين لأنهم يرسلون إليهم السكتائب لقتلهم وبذلك ينتشر دينهم وتعلو كلمتهم، ومهما تنوعت أسباب تدخلهم فإن طريقة سياستهم تدل على حذق واقتدار فيها ومرجعها إلى مبدأ الحماية الذي توصلوا إلى وضعه بين الأمم المميج كما رواه موسيو (مستر) فمن احتسب بهم فقد أمن ومن خرج عن طاعتهم أصبح مهدداً، وقد احتسبت بهم قبيلة ذهب رؤساؤها إلى ملوك الاسلام في السودان فيولونهم المناصب ويلبسونهم الخلع ويردونهم إلى أوطانهم يحكمون فيها باسم سلاطين المسلمين وتحت رعايتهم، فإن كانت القبيلة أو القرية عظيمة أرسل السلطان إليها

رسولا من قبله ليلاحظ حكومتها بالنيابة عنه والسفراء كلهم من الخواسة يكونون بجانب الحكام مستشارين ذوى كلة ونفوذ ومعارفهم وما تعلموه من الأحكام بالقرآن تؤهلهم إلى القضاء لمنفعة اللاجئين إليهم وهم كالعالم يجتمع حوله التجار الوافدون من السودان ، وقد يتفق أن بعض القبائل الوثنية لا تخضع من أول ظهور الفولبوسيين بينهم هنالك تسطو عليهم قبائلهم فتسلب منهم وتأخذ أبناء الرؤساء فتبعث بهم إلى السودان حيث يتربون على مبادئهم ومبادئ الخواسة ، وبعد زمن يرجعونهم إلى بلادهم فيقومون فيها ككنواب عنهم مثل الحكام الذين ترسلهم للمالك الأوروباوية في مستعمراتها ، وفي تلك الأثناء ينتشر الاسلام بمجرد الاختلاط والمعايشة وحب التقليد بدون أدنى إكراه ولا تعيين رسل أو مبشرين ، إذ بمجرد أن يشتري الوثني خرقة القطن من أحد الخواسة ويستربها عورته يأخذ في تقليد البائع في الصلاة كالقردة ويتعسر بيان اللحظة التي يصير فيها مسلما حقيقيا لأن إسلامه يأتيه تدريجيا ، ومتى كثر عدد المسلمين في بلد أقام فيها الفولبوسيون مدارس يتولى الخواسة التعليم فيها ولكنهم لا يتدخلون في نشر الاسلام مباشرة بين البقية بل يتركون ذلك للخواسة أول الأهل أنفسهم .

ونذكر من الوسائل الناجحة في يد الفولبوسيين لانتشار الاسلام الزواج ، فإن سلاطين السودان يتزوجون من العائلات الوثنية لهذه الغاية ولا تمسكت النساء وأولادهن حتى يصير الشكل من أقوى الأسباب على انتشار الدين الاسلامي ، وقد أشار موسيو (رونان) إلى ذلك في بعض كتبه حيث يقول [من الصعب أن يهزم المرء أذنه إذا تقدمت إليه النساء والأطفال ومدرك يديه إليه وطلب منه أن اعتقد بمن نعتقد] .

على أن الزواج هو السبب في وجود أنصار الاسلام الأولين ، وكثيرا ما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم لخدمة دينه لالشهوة في نفسه ، فقد صرح بأن الله أباح له الجمع بين عشرة نساء خلافا لما فرضه لجميع المسلمين وهو اختصاص تدرك غايته لمن تأمل في الأمور لأنه كان معصوما عن النساء حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره وتزوج بالسيدة خديجة بعد وفاة زوجها الأول وقضى خمسة وعشرين سنة بعد ذلك مع هذه الزوجة وكانت تلده ولم يعل إلى ما أباحته العرب قبل الإسلام وأباحه القرآن بعد ذلك من تعدد الزوجات ولم يتسر ثم توفيت خديجة سنة ٦١٩ م وعاش بعدها اثنتي عشرة سنة تزوج خلالها بعشر نساء ليس بينهم إلا اثنتين كانتا بكرًا والباقيات مطلقات أو مترملات . قال (رولان) إن كثرة زواج النبي كانت ليزيد في نشر أوامره وهو قول يقصد به قائله القدح ولكنه حجة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في تعدد الزوجات شهويا .

هذه هي أهم الأسباب في انتشار الاسلام ولست أدري أكانت تسكني لادراك سر هذا الدين في انتشاره أو أنه يجب البحث معها عن أسباب سماوية ؟ غير أن الاسلام خرج من ذرية إسماعيل وسرى في الأرض كما خرجت المسيحية من ذرية إسحاق ، وقد بارك الله في أبناء الخادمة كما بارك في أبناء السيدة ، ونحن نعلم أن يهوذا قال لإبراهيم عن إسماعيل إنه سيبارك فيه ويكثر من نسله كثيرا وكرره ذلك بقوله إنه سيبارك له في ابن الخادمة فتخرج من صلبه أمة كبرى لسكونه من أولادك ، وأعاد يهوذا هذه البشرية مرة ثالثة لوالدة ذلك الطفل الذي نجا في الصحراء حيث رمى ليموت عطشا ، وقصة ظهور الملك إلى هاجر من أجمل الروايات ووصف بادية الظمأ ولطف الأم على ولدها من أطف ما يقال [نصب الماء في الرق ورمته هاجر الطفل تحت شجرة وابتعدت قليلا ثم جلست أمامه على مسافة مرمى النبل وقالت لست أصبر أن أرى ابني يموت ثم رفعت صوتها بالبكاء وقد كان بكاء الطفل قد سبقها إلى السماء فناجها الملك من قبل الله : مالك يا هاجر ، لا تخافي فقد سمع الرب صوت الطفل من المكان الذي وضعت فيه فقومي وساعديه على القيام وليشتد ساعدك على حمله فسيكون من ذريته أمة كبرى] .

ولقد ارتعت يدى عندما مددتها لأزبل الغطاء عن الكتاب المقدس كي أنقل الآيات التى سطرتها ولولا ما قاله الأب بروغلى من أن تقدم الإسلام أمر مندرج تحت ما بشر به أبو المؤمنين لما تجرأت أن أطبق تلك الآيات على الإسلام ولا ذهبت إلى أن فى انتشار هذا الدين سرا من الأسرار الربانية . انتهت اللطيفة الثانية

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا » إلى

قوله تعالى « وأعد لهم أجرا كريما »

فى هذه اللطيفة أربعة فصول :

- (١) فى الذكر الكثير . (٢) والتسبيح .
(٣) وصلاة الله وملائكته على المؤمنين . (٤) وفى النجوة والسلام .

﴿ الفصل الأول : فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » ﴾

إنى لأعجب كيف أقرأ نفس هذا المعنى فى كتاب [راجايوقا] ومعناه الحكمة النامة المترجم سنة ١٨٩٦ فى أمريكا وقد ألقاه المترجم عدة محاضرات فى تلك الأقطار بعد أن ترجمه من اللغة الهندية القديمة وقد أشرت إلى هذا الكتاب فيما مضى من التفسير مرارا وتقلت عنه ما يناسب الآيات . إن فى الكتاب مسألة لذكر الكثير وقد أوضحها الهنود فيه إيضاحا عجيبا ، يقولون منذ آلاف من السنين قبل النبوة المحمدية ماملخصه [إن الإنسان لا يعيش إلا بالتنفس ، والدورة التنفسية لها الحكم على الدورة الدموية ، وعلى مقدار الآثار فى الدورة التنفسية تكون الآثار فى الدورة الدموية والدورة الدموية تؤثر فى الأعصاب والأعصاب توصل الآثار إلى العقل ، ولو أن أمرا حكيم أمر تنفسه فأخذ يدخل الهواء ويخرجه بالتدرج شيئا فشيئا ثم يحفظه فى الرئة قليلا قليلا بقدر إمكانه ، ثم يخرجه بالتدرج عدة مرات ويكرر ذلك فى اليوم والليلة عدة دفعات بشروط خاصة فإن ذلك يعطيه قوة فى العزيمة والارادة ، ومعنى ذلك أن زمام العقل والتفكير والارادة فى يد أعصابنا وأعصابنا فى يد الدم والدم فى يد التنفس ، فإذا أحكمتنا التنفس وذلناه لنا ذل ما بعده وخضع لنا ، وهنالك تكون الارادة والعزيمة طوع تفكيرنا]

ولست أقول لك إن هذا القول يمكن العمل به بمجرد هذا البيان ، ولكنى أقول يمكنك أن تتنفس كل يوم عدة مرات فى الحلاء بحيث تدخل النفس بالتدرج وتحبسه وتتا ما على قدر طاقتك ثم تخرجه وتغفل القم بقدر طاقتك ثم تتنفس مرة أخرى ، فهذا نافع جدا فى الصحة والقوة الجسمية ، وهذا يمنع الزكام وكثيرا من الأمراض ، وليس هذا مقام الأفاضة فى هذا التنفس فإن علم التنفس نقله الفرنجة عن علماء الهند وقد قصدوا به الندوى ونجحوا واستغنوا به عن كثير من الأدوية ، وإنما هذا المقام مقام ذكر الله كثيرا وذكر الله كثيرا إنما يكون بالكلام والكلام بالتنفس والتنفس يصل حكمه إلى الأعصاب الواصلة إلى النخاع الشوكى الآتى بيانه فى [سورة فاطر] عند قوله تعالى « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » الخ . والأعصاب هناك ﴿ قسمان ﴾ أعصاب حس وأعصاب حركة خارجات كلها من الحبل الشوكى المتصل بالمنخ والحبل الشوكى والمنخ هما المركز الأسمى للاحساس والحركة ، وقد وزعت أعصاب الحس وأعصاب الحركة على جانبي الفقرات توزيعا عادلا وهى (٣١) زوجا والزوج عصبان عصب للحس وعصب للحركة ، وهذه الأعصاب تتجه إلى أطراف الجسم كاليدن والرجلين وظواهر الجلد ،

ومنى أحست تلك الأعصاب بطارىء ما وصلت خبره إلى النخاع الشوكي والنخاع الشوكي يطير خبره إلى المخ والمخ حالا يأمر الأمر فيه أعصاب الحركة بالعمل لما يناسب ذلك الطارىء جلبا أو دفعا . أما المخ فيه (١٢) زوجا من الأعصاب كلها موصلات للحواس التي في الرأس كالعينين والأذنين والمنخرين ، وكل هذا ستره في [سورة فاطر] كما قلته لك الآن مرسوما مشروحا وهو الذي أجمله علماء الهند في ذلك الكتاب الذي قرأته بالإنجليزية مترجما عن اللغة الهندية لشرح ذكر الله كثيرا . قالوا إن الأعصاب المذكورة هي الموصلات للأخبار الدوافع للحركات ، وليس لهذا الإنسان ولا الحيوان إلا أمران حس وحركة وبعبارة أخرى علم وعمل ، وهذان النوعان قد تجليا في أعصابنا وأعصابنا خارجات من النخاع الشوكي والنخاع الشوكي متصل بالمخ وهو مقر الملك وهو العقل المدبر فالمرجع كله لهذا الرئيس المدبر المستوى على عرش مملكتنا ، ولكن هذا الرئيس يتأثر بهذه الأعصاب سلبا وإيجابا ، فإذا أكثرنا من ذكر الله وكررنا مرارا فإن الكلام حركات في النفس والنفس يؤثر في الدورة فيصل الأثر إلى هذه الأعصاب وينقل بحكم المجاورة إلى الأعصاب فيحصل الحب ويكون الوصول لله . إذن الله ذكر الكثير لله يقرب إليه .

وهذا ما أوضحه القوم في ذلك الكتاب ولكنهم يقولون [إن حب الله ربما يفيد الإنسان ، ولكن مادام محبا للدنيا فإنه يكون ناقص النفس فليس كل من أحب الله ووصل إليه وصولا ما يكون كاملا ، فحب هذه الحياة نقص عظيم] .

أنا است الآن أقول إن هذا القول كله حق ، ولكني أقول : العجب أن العرب في جزيرتهم لا يعرفون ما هو ذكر الله والقرآن جاء فيه « واذكروا الله كثيرا لعلمكم تفلحون » والعقل ليس عنده براهين تدل على أن الإنسان إذا ذكر الله مرارا يكون له الفلاح وهذا إنما جاء بالوحي وظهور أم قبلنا كانت عندها هذه للباحث وعلوها وفكروا فيها أمر عجيب ، وهذا معنى قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » . فهؤلاء القوم سبقونا ، وقد تقدم أن كتاب الفيدا الهندي الذي سبق الإسلام بعشرات آلاف السنين بل جاء في آثار الهند كتاب لعالم منهم ألف منذ نحو (٦٠) ألف سنة يقول : إن كتاب الفيدا لا يعلم متى وجد فهو مجهول التاريخ والمبدأ . إذن هذه معجزة لدين الإسلام ، وكل في الإسلام من معجزات ، وهنا في هذا المقام معجزة ثانية ، ذلك أنهم يقولون [إن في الفقرات أمرين النخاع الشوكي (الحبل الشوكي) الموصل للحس والحركة وفراغ لامادة فيه وذلك الفراغ تمتد من العصص للنتجم الذي لافراغ فيه إلى المخ] قالوا وهذا الفراغ الاستطيل الواصل بين هاتين الهاتين معنى لا عمل له عند أكثر الناس ولكن هناك أناس قد قويت عزائمهم وعظمت مواهبهم بالأعمال العظيمة وممارسة الذكر والفسكر أو التنفس المتقدم أو ذكر الله فهؤلاء بهذه الأعمال القويات لعزائمهم تجعل جميع قوى العقل تحت إرادتهم ، ويقولون إن كل عمل من أعمال الناس أعموه يفتح لهم فتحا جديدا في تلك العظمت الثالثة التي في آخر تلك العظمت وتسمى (اللواتس) وهذه يقولون إن فيها سر الانسان وعلمه وحكمته ، وللانسان (في نظرهم) حالان الحال المعتادة وهي مأخوذ عليه من وصول الآثار من الخارج إلى نفوسنا بطريق هذه الأعصاب كما هو حاصل للحيوان فلنا وله حس وحركة بهذه الأعصاب الواصلات للنخاع الشوكي الموصل للدماغ . والحال الحارقة للعادة بأن يفتح ذلك الثالث وهو (اللواتس) الذي فيه عجب الذنب . ومنى فتح اتصلت العلوم الخزونة فيه بالمخ والموصل بينهما الفراغ الذي في فقرات الظهر . وهناك يعرف الإنسان علم كل شيء فلا يحتاج إلى تلك الأعصاب حتى يعرف العلوم العلية . فكيف هذا وقد أصبح محيطا بالعلوم التي يقدر عليها الإنسان بحسب روجه هو لا بحسب ما توصله إليه الحواس كما في الحيوان .

هذا ملخص ما قرأته في ذلك الكتاب أوضحته بإسحاها تاما ولم أدر منه شيئا . فهذا هو المشار إليه بعجب
الدين في الشريعة الإسلامية ، فإن في الآثار والأخبار ما يدل أن الروح باقية وعجب الدين باق فما معنى هذا
ولماذا يجيء ذلك في الأخبار ؟ ولماذا ينزل الله ذلك على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم ونفس هذا المعنى
جاء في كتب الهنود بطريق آخر وهو أن هذا هو سر الإنسان وعلمه . فإذا ورد أن عجب الدين باق
كبقاء الروح ووجدنا أن علماء الهند قبل عشرات الألوف من السنين يقولون [إن عجب الدين متى اتصل
بالمخ من طريق هذا الفراغ فإن العلوم المخزونة هناك يعرفها العقل] فمعناه أن ذلك للسكان في نظرهم
مستودع العلوم .

ومستودع العلم عند العقل فكأنه غدة العلم كما أن البنكرياس غدة للمادة الهاضمة والغدد الست في الفم
جعلت لهضم المواد النشوية والصفراء وغدد المعدة والأمعاء كلها لهضم المواد الكربونية والدهنية وهكذا
وكالغدة النخاعية والنخاعية في الدماغ فإن لها تأثيرا على نظام الأعضاء الجسمية ، وسيأتي
أيضا في [سورة فاطر] .

ولست أقول إن ما قاله الهنود مبرهن عليه في هذا أيضا ، ولكن أقول العجب أن يتكلم الهنود في عجب
الدين وأنه غدة العلم فيما كان وما يكون ويجيء في ديننا أمثال قول علماء التوحيد .

عجب الدين كالروح لكن حققوا وصوله إلى البلى ودققوا

فالعلماء قولان : قول إنه باق كالروح ، وقول إنه فان كما يفنى الجسد وليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود
أن يرد هذا في ديننا ويوازن بالروح تارة وبالجسد تارة أخرى ، فبالأول يحكم ببقائه وبالتالي يحكم ببقائه ،
وعلمناؤنا رحمهم الله معذرون في هذا ولهم الحق أن يرجحوا فناءه لأنه من نوع الأجسام ولكن كلام أهل
الهند أرجحه إلى العلم المخزون ، وهذه أمور فوق عقولنا لإبرهان عليها ولكن المهم أن هذا معجزة ثانية والله
يقول « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » فهذه علوم عند أمم خلت وربما كانت لها أسرار
لانتقلها الآن ووردت في الإسلام ليعقلها قوم بعدنا ويشرحوها « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل »
وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » .

(الفصل الثاني : في قوله تعالى « وسبحوه بكرة وأصيلا »)

اعلم أن الإنسان إذا ذكر الله كثيراً فتحت بصيرته ، وقد علمت أن أهل الهند سبقوا الإسلام بذلك في
الفصل الأول ، وهذا هو معنى قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا
به إبراهيم وموسى وعيسى » الآية ، وقوله تعالى « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن
اتقوا الله » وقد تبين لك أن هذا معجزة إسلامية من حيث تلاؤم الديانات في الأصول وإن كانت مهجورة
بعيدة لدى ، ومن اطلع على طرق الصوفية في العالم الإسلامي وجد بينها وبين طرق أهل الهند ملامة ترجع
كلها إلى ذكر الله تعالى ولكن بصيغة الإسلام لا بصيغة كتاب (الفيدا) الهندي .

ولقد حقق علماء الإسلام أن هؤلاء التذاكيرين لربهم لا يصل إلى المعرفة التي يقول بها علماء الصوفية إلا
النادر جدا بل كثير منهم يمسخ الجنون فلا تنفع بهم الأمة وهذه إحدى نكبات الأمم الإسلامية . كثرت
فيهم طرق الصوفية وعاشوا عيشة روحية كأهل الهند ولكنهم في الوقت نفسه لم يصل جميعهم إلى العلوم التي
بشرهم بها أشياخهم ، بل ران على قلوبهم التقليد ، وهناك يحصل لهم شكوك وأوهام فيقول الأذكيا . فيهم
[كيف يكون الله أرحم الراحمين وهو يرضنا ويميتنا وأهل الشرق والغرب في نضال وقتال مستمرين وأصحاب
الأسلحة النارية من أوروبا يهجمون على الشرق فيذلون الأمم . ثم ما هذه النظم الأرضية . وما هذه الحرارة

والبرودة والمتناقضات في الأرض . وكيف يكون زيد الصالح فقيرا وعمرو الطالح غنيا . إن هذا شيء عجاب !
 فيقال لهم في القرآن « وسبحوه بكرة وأصيلا » والتسبيح تنزيه عما يظن فيه سبحانه من أنه ترك العوالم تتخبط
 كأنه لم يعن هو بصغيرها وكبيرها بل هي دائرة بلا نظام ، ولو كان صانع العالم مطالعا على جلائل الأمور
 ودقائقها لم نجد ناسكا أحرق ثوبه وعجوزا هدم البيت عليها وطفلا ولد مشوها وامرأة مات طفلها فاحترق
 فؤادها، ولا طغت أمة على أمة ولا طغى طوفان الأنهار وحريق النار على فريق من الناس فأهلك الحرث
 والنسل وهكذا مما لا حصر له . فذكر التسبيح في الآية بعد ذكر الله كثيرا ليكون في الأمم الإسلامية [فريقان :
 الفريق الأول] فريق العباد (بتشديد الباء) الذين يسبحون الله بكرة وأصيلا إذ يسمعون قوله تعالى
 « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آتاء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى »
 وقوله تعالى أيضا « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين
 آمنوا » وقوله « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ويسمعون « وسبح بحمد ربك
 حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وقوله « وتسبحوه بكرة وأصيلا » وقوله « سبح اسم ربك
 الأعلى » وقوله « فسبح باسم ربك العظيم » .

فهذا الفريق السبح يكون تكرار التسبيح منها لما يعلق بنفسه من تلك الشبهات ، فكما أن الذكر
 يفرحه بربه ويقربه له ، فإن التسبيح بتكراره بكرة وأصيلا يبرن النفس على أن تتباعد عن تلك الشبهات
 وتوطن الضمير على أن يعتقد أن الله منزه عن الشرور أو الغفلة ، وأن ما نشاهده من تلك اللصائب في هذا
 العالم هو يعلم نتائجها وله فيها حكم عجزنا عنها ، فالتسبيح إذن أشبه بالحارس الذي يحرس العقل من التعرض
 لهذه الشبه . فهنا (أمران عجيبان) : الذكر بقوله « اذكروا الله ذكرا كثيرا » وذلك لاستحضار المذكور
 وتكون النتيجة حبه ، ولكن الحبيب الذي يفسد الواشى حبه معرض حبه للذهاب فتكون القطيعة فجأة
 بعد ذكر التسبيح وتكراره يحصل ما يشبه التوبم المغناطيسى فتذهب تلك الوسوس فيبقى الحب على حاله
 حتى إذا فارق الانسان هذا العالم فهناك يدخل في عوالم يفهم فيها ما جهله هنا . فالذكر تخلية والتسبيح
 تخلية ولذلك نسمع الله يقول « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم » فالحمد نوع من الذكر
 والتسبيح تخلية عن تلك الشبهات . ويقول « دعواهم فيها سبحانه اللهم » فجعل التسبيح مع الحمد . وبعبارة
 أخرى التخلية مع التخلية . هذا هو الفريق الأول وهم العباد (بتشديد الباء) .

﴿ الفريق الثاني في الأمم الإسلامية ﴾

الفريق الثاني في الأمم الإسلامية هم الذين يسبحون الله بكرة وأصيلا كالقريب الأول ولكنهم لهم عقول
 راجعة فلا يقفون عند الشبهات التي ترد عليهم بتكرار التسبيح لأن العابد درجته محدودة ولكن العارف
 بالله أرقى من العابد . فيقول هذا الفريق . نحن قرأنا في (سورة آل عمران) « الذين يذكرون الله قياما
 وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب
 النار » فيقولون ههنا سمعنا ذكر النار وعذاب النار بعد الذكر والفكر . وههنا يقولون الذكر للعباد ولكن
 العارفين بالله لا يقفون عند الذكر فهذه مرتبة ضعيفة بل يفكرون في جمال ربهم وصنعتة .

وهذا معنى قوله « ويتفكرون في خلق السموات والأرض » . نعم نحن نسبح في الركوع والسجود
 وبعد الصلوات . ففي الأولين (١١) مرة وفي الثالث (٣٣) وعند النوم كما في الحديث (٣٣) أيضا ، ونسبح
 بكرة وأصيلا ، ولكننا لا نقف مكتوفي اليدين أمام عظمة ربنا وجلاله . وهذه الطائفة هي التي ستظهر بعد
 انتشار هذا التفسير . وسيكون في الأمم الإسلامية فطاحل الحكماء الذين لم يخلق في أمة مثلهم وهؤلاء هم

عماد هذه الأمة بل هم عماد الأمم . فهؤلاء يعيشون عبيد لرهبهم ولخلفه ويجعلون حياتهم كلها في درس نظام الطبيعة وجمالها ولا معنى لهذا كله عندهم إلا أنهم أحبوا وعشقوا مبدع الكائنات وأجابه لما نقش وزوق وأبدع وأحكم ونوع وصنف . وهذا الفريق فقط هو الذي يفهم لم كان المرض والموت والفقر والظوفان والحرب واحتلال الأقوياء أرض الضعفاء في هذه الأرض : ومستحيل أن ينال هذا الانسان في الأرض إلا بدراسة مجمل العلوم الرياضية والطبيعية لأنها آثار الصانع الحكيم فان لم ندرس آثاره واكتفينا بقرائة كلامه كنا أشبه بمن قرأ كتاب الملك الذي نشره في رعيته ولم يعمل به . وغاية الأمر أنه يكرر الكلمات التي أرسلها في ذلك الكتاب للنشور . وهذه وإن كانت سخافة وقلة عقل وجهل في كتب المخلوقين فهي ليست كذلك في كتاب الخالق لأن كتاب الخالق عز وجل له مزية خاصة . فانظر رعاك الله إلى أجسامنا وأجسام حيواننا وإلى نباتنا فانك ترى أكثر نوع الانسان يعيش ويموت وهو لم يدرس هذا الجسم ولا عقل من عجائبه شيئا . وهكذا يأكل من الحب والفاكهة وهو لم يدرس ولم يعرف عجائب النبات كما لم يعرف عجائب جسمه ومع ذلك ينتفع بالفاكهة والحب ويجسمه المجهولات عنده جهلا تاما . أكثر هذا الانسان هكذا حاله ، لجسمه المعالوم من الجمال في نظام ، وكل ما حوله من مطعموم ومشروب مجهول جماله عنده ، وهذا الجهل لم يمنعه أن يعيش بجسمه عمرا طويلا ولا أن ينتفع بالنبات والحيوان ، وأقل هذا النوع الانساني هم الذين أدركوا جمال أجسامهم وجمال طعامهم وشرابهم من حيث النظام والابداع . فاذا صح هذا في أجسامنا وفي كل ما حولنا وكله من حسن الابداع وسعة الرحمة من المبدع الحكيم . فهكذا صح في تسيبنا . فالمسيح بقوله « سبحان الله » وهو من العابدين قد نال أثر ذلك التسيب في نفسه فتباعدت عنها تلك الشبهات كما انتفع الانسان بجسمه أمد الحياة وبما حوله من طعام وشراب وهو جاهل بذلك كله . فأجسامنا وتسيبنا وذكرنا أشبه بما قيل في كتاب كليله ودمنة « وثقه المثل الأعلى » فهو للجهل حكايات تفرحهم وهو للخواص حكمة وعلم وسياسة . هكذا أجسامنا وما حولنا للجاهلين حياة في الدنيا وللحكاه دراسة بهجة جميلة . فهكذا التسيب هو للجاهل عبادة تشرح الصدر وللحكيم حث على العلم والحكمة [مثال ذلك] أن ينظر في جسم الانسان مثل ما تقدم في سور كثيرة ، ومثل ما ستراه في (سورة فاطر) كما أنباتك في أول هذا المقال إذ قلت لك إني سأفصل عجائب الجسم الداخلية هناك .

فسترى هناك الدورة التنفسية مرسومة ، ومثلها الدورة الدموية . ثم أعصاب الحس والحركة . وتعجب جد العجب من (غدده) جمع غدة موضوعة في الفم وهي ست وأخرى في المعدة وغيرها في الأمعاء وتدهش أيها الذكي من هذه الجنود المجندة التي تقف في طريق الغذاء معدة لاصلاحه مخرجات من خزائنها تلك السوائل الموزعات على أنواع الطعام ، فمنها ما أعد لإذابة المواد الدهنية أو المواد الأوزوتية كالتى في الفم ، ومنها ما أعد لإذابة المواد الفحمية أو المواد الدهنية أو المواد الأوزوتية كالتى في المعدة والأمعاء ، وسترى إيضاحه هناك مع هذه المادة التي يسمونها (الكيموس) أولا ثم تصير كيلوسا بعد ذلك وهي مادة أرق وألطف من الأولى ، فتراها تنتقل من حال إلى حال وتجدها هناك نوعين من العروق . فالنوع الأول عروق تأخذ السائل الدموي أى الذى استحال من الحمال الأخيرة وهي الكيلوس إلى الحمال الجديدة وهي الدم ، فترى هذه العروق هناك تحت الغشاء المخاطي في الأمعاء فتجذب تلك المادة اللطيفة المستخرجة من الطعام ، وتأتي عروق أخرى فتجذب السائل المستخلص من الدهن فيكون هناك دورتان : دورة دموية ، ودورة ليغفاوية والثانية تشابه الأولى بعض المشابهة من حيث تفرغ عروقها في الجسم . ولا أشبه الدورة لليغفاوية إلا بقلع الجنود وثكنات العساكر ، والسادة التي فيها ليست حمراء ولا فرق بينها وبين الدم إلا أن هذه

ليست فيها كرات حمراء بل تخلق فيها الكرات البيضاء التي تدخل مع السائل الليمفاوي إلى الدورة الدموية، وهذه الكرات البيضاء هي الجنود التي أعدت لمساعدة الكرات الحمراء في الدم التي لونت باللون الأحمر باجتماعهما معا يغاربان الجيوش الجرارة الداخلة على جسم الإنسان والحيوان من الخارج لإحداث الجدرى والحصاء والطاعون وأنواع الحميات المختلفة، إذن دهن السموم وزيت الزيتون وزيت بزر القطن والسكتان والقرطم وشحم الحيوان . كل هذه أعدت لخلق هذه الكرات البيضاء المحاربات لأعدائنا الداخلة في أجسامنا فإذا كنت منذ أيام قد توجهت إلى بلدة (الحانكا) من أعمال مديرية القليوبية وشاهدت الآلة الطاحنة للسموم وهي آلة بخارية وبها يعصر الزيت وهكذا أمثالها في غيره . فهذا معناه أن هذه الآلات البخارية الفاصلات بين العجينة السامة (السكب) والمواد الزيتية التي يأكلها الناس مساعدات لنا على حفظ حياتنا من حيث إن هذا الزيت وأمثاله هو المساعد على خلق الكرات البيضاء في الدم للمهاجمات للجيوش القاتلات لنا بالأمراض المختلفة . فيا سبحان الله . شمس تشرق على الأرض ، وحب يسذر فيها ، وماء ينزل عليها . وذلك الحب ينبت فيصير حيا مثل الأول وهو السموم . ثم تتلف تلك الآلات العاصرة فيكون زيتنا . لم هذا كله ؟ ليكون لنا حافظا إذ تأكله الكرات البيضاء التي جعل لها في أجسامنا عروق ليمفاوية سيأتي شرحها وما هي إلا شكنات عسكرية . يا سبحان الله : أليكون في أجسامنا شكنات كشكنات الجنود التي تحمل البنادق والمدافع والغازات الحارقة لتقتل الأعداء . أهذا الزيت المستخرج من السموم أمامي معدة لشكنات العسكر في جسمي .

الله أكبر . هذا معنى « وسبحوه بكرة وأصيلا » انتهى الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثالث: في قوله تعالى « هو الذي يصلي عليكم وملائكته » إلى قوله :

« وكان بالمؤمنين رحيما »

ولا جرم أن هذا الفصل مرتب على ما قبله . إن صلاة الله رحمة . وصلاة الملائكة استغفار . وقد أبان الرحمة بقوله « ليخرجكم من الظلمات إلى النور » وصرح بها بقوله « وكان بالمؤمنين رحيما » . ذكر السلم ربه كثيرا فأجبه بذكره الكثير كما نرى بني آدم يجعلون نظام الجند بتسليم رجالهم على صباطهم وتبلييتهم نداءهم واصطفافهم وقوفهم أمامهم وتمرينهم على ذلك وعلى كثرة التعظيم لهم من موجبات انتظام الجيش وحسن تدريبه لما يحصل من الآثار بهذه الأقوال والأفعال في الأنفس . ونرى الملوك يزور بعضهم بعضا فترفع أعلام الدولتين متجاورات كما اتفق لملك البلجيك أيام طبع هذه السورة في شهر مارس سنة ١٩٣٠ م فيحدث ذلك في نفوس الأمتين مودة .

فهذا ضرب مثل دنيوي لذكر الله عز وجل وآثاره في النفوس . وهذا الذكر كما تقدم له حارس وهو التسبيح لتزنيه المذكور عن خلق العالم عبثا لعدم قدرتنا على إدراك جميع الحقائق . وهذا وذلك لايتان إلا برحمة الله ولذلك قال « هو الذي يصلي عليكم » الخ . فرحمة الله هنا جلبت لنا نفعه الذي كروصرفت عنا الشكوك والأوهام المهوشات على ذلك . انتهى الفصل الثالث .

﴿ الفصل: الرابع في النجاة والسلام ﴾

وهل بقي بعد ذلك إلا النجاة والسلام ؟ وبيانه أن الإنسان لا سعادة له حقيقة إلا بأمر واحد كما اتضح سابقا في مواضع وهو الثقة الحقة بنظام هذه الدنيا وبأن كل ما يصنع في هذا العالم إنما هو خير أو آيل للخير وهذا لن يتم ويشق به الإنسان يقينا إلا بالاطلاع على العجائب دواما كالتى ذكرنا في الفصل الثاني من عجائب جسم الإنسان ، وهناك يحس الإنسان بالأمان والسلام في نفسه في الدنيا والآخرة ، ذلك لأنه إذا عقل

ما ذكرناه في الفصل الثاني وزاد على ذلك أن ينظر في الدائرة العصبية فإنه يرى أمرا عجبا؟ يرى مثلا أن هناك غدتين في الدماغ وغدتين بجانب العينين . فالأولان لتنظم أحوال الجسم والآخران لإفراز الماء الملح الذي يحفظ العين ثلاثا وتلف ويرى غدة في الرقبة وأخرى تسمى (التيموسية) وأخرين فوق السكتيتين ، ويرى الأنثيين في الرجل والبيضين في الأنثى ، وهناك يعجب جدا من أن بعض هذه الغدد لو أزيل لم يتميز الذكر من الأنثى في المظاهر كشعر اللحية في الرجل وانسجام عظام الصدر في المرأة وكحفظ اللون، فإن بعض الغدد لو أزيل لصار لونا كلون البرنز أو النحاس ، وبعض الغدد بازالتة تكبر العظام جدا فتصير كأنخلة والعين كالبطيخة ، وبعضها لو أزيل لحصل للانسان تشنج واختلال عقل ، وبعضها لو أزيل لحصل للانسان البول السكري أو غيره من الأمراض كما سيأتي تفصيله في [سورة فاطر] .

هذا هو العلم اللوجب لليقين الذي يعرفنا تنزيه الله وتسبيحه ، وهو الذي يعرفنا تناهيه في الرحمة والعناية بنا وبغيرنا وهناك نحس بالسلامة في الدنيا والآخرة . هذا هو قول المسلم « التجيات لله » فهو يحيي الله أولا ثم يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له مناديا : يا أيها النبي إن الله آمنك فأنت عليم برحمته الواسعة وأيقنت بذلك، ومن أيقن بالرحمة فلن يصاب بعذاب . ثم يقول السلام علينا ويجمع عباد الله الصالحين في الأرض وفي السماء . وفي الحقيقة إن الوجود منحصر في الموجودات المدركة فأما هذه العوالم فهي كلها كما ظهر في هذا التفسير أضواء متحركات تبدت لحواسنا على هذا النهج المشاهد .

المسلمون يسلم بعضهم على بعض . ويسلمون في الصلاة على كل صالح . ويسلمون في آخر كل صلاة فإن كانوا دارسين لعجائب الحكم الإلهية كما في هذا التفسير الذي تكفي دراسته كل عاقل في الأرض فإنهم فعلا يكونون قد أمنوا العذاب من الآن على سبيل الرجاء وإن كانوا مؤمنين ليسوا من المطلعين على العجائب أو اطلعوا عليها وهم لا يعقلون جمالها كععض علماء التشريع وعلماء الطب إذا كان معلومهم غافلين عن الابداع في التركيب مثلا، فالسلام لم يعط إلا بمجرد العبادة ولهم عليها ثواب مؤجل .

ومن هذا القبيل أنك تسمع الناس يقولون عند التعزية : لأراك الله سوءا ، فهذا مستحيل في الظاهر ولكن في الحقيقة لا سوء لأن مصائب الناس سبب في إعادتهم بل هي سلام ارتقائهم والموت من منازل ارتقائهم . فهم يقولون في العيد : أبناك الله لسكل عيد ، أو : جعل الله جميع أعيادك سعادة ، وكل هذه أدعية مطابقة للحقيقة لأن الناس لا يفنون بالموت بل هم أحياء . إذن السلام والأمان موجودان وإن حجب عنهما الناس . والأولون ثوابهم معجل لأنهم شاهدوا جمال الصانع بمجرد مشاهدة جمال الصنعة وعقلوا حكمة الحكيم في مظاهر حكمته وذكره عند مشاهدة بدائعه وصار ذلك سجية لهم . فهو لاء في الدنيا سعادة فما بالك بهم بعد الموت ؟ هذه أقصى سعادة لأهل الجنة . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة . كتب صباح يوم الأحد (٢٣) مارس سنة ١٩٣٠ م .

اللطيفة الرابعة

(سر من أسرار التنزيل قد أظهره الله في أيامنا هذه بالعلوم الطبيعية مع موازنتها بحوادث التاريخ في تفسير قوله تعالى « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا »)

جاء في آية أخرى « وجعل الشمس سراجا » وهنا يشبهه صلى الله عليه وسلم بالسراج . إذن هو شمس وهذا كلام الله عز وجل . فإذا سمعنا النابغة يقول للنعمان :

كأنك شمس واللوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فانا نقول هذا تشبيه لم يكن له أثر في الوجود . ولا جرم أن أعذب الشعر أ كذبه وهذا مستفيض فان الأدب في جميع اللغات إنما تكون نتائج الانقباض والانبساط ، وعلى مقدار تباعد القول عن الحقيقة بالبأسه لباس الخيال يكون أوقع في النفس . إن نفوسنا المحبوسة في هذه الأجسام تريد أن تنال الحرية ولو في خيالها فتفرح بأنواع التشبيه والمجاز والكناية . تفرح أن تسمع قول القائل :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فهذا خفض قوم بعد الرفعة بمجرد هذا التخيل . وقول القائل في بني أنف الناقة :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الدنيا

وتفرح بقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها

فبجرد هذا التخيل من بشار رفعه على امرئ القيس القائل يصف عقابا :

كأن قلوب الطير رطبا وبابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

هذه صورة آثار التشبيه عند العرب . فهل قول الله عز وجل « وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا » كقول النابغة : كأنك شمس الخ ؟ ننظر في آثار النعمان فلا نجد له أثرا يشبه آثار الشمس . إن للشمس آثارا تراها وهي معروفة عند أهل الشرق والغرب . فهل هكذا آثار النعمان . كلا . ثم كلا . إن التشبيه والاستعارة والمجاز والكنائيات كلها ترجع إلى أمر خيالي . وكما كان الخيال أ كذب كان أعذب . هذا هو اصطلاح علماء اللغة العربية ولذلك تبحر الشاعر أيام مجد الأمة العربية كالمتنبي وأبي تمام والبحري وأضرابهم لا يبتدئون القصيدة إلا بالغزل ويصفون فتاة بالجمل والحسن وأنهم هاموا صباة ووجدا وغراما والسامع يعلم أن كل ما يقوله مكذوب ورواة القصائد جميعا يعلمون ذلك . إذن التشبيه وجميع أنواع التخيل التي فصلت في علم المعاني ليست تراد بها الحقائق وقد جعل هذا في علم المنطق ركنا من أركان مادة البرهان الخمسة وجعل هذا الخامس مقصودا لإحداث الاشمزاز أو السرة والقائل والسامع شريكان في العلم بكذبه . إذن لتنتظر في هذه الآية . ما آثارها في الوجود ؟ وما مناسبة النبوة لآثار الشمس ؟ لندرس الشمس من علم الطبيعة وآثارها في الأرض . لتمثل هذا المقام برجل ماهر في اللعب أراد إظهار براعته فوقف في مكان متسع وقسمه (١٨٠) قسما وعلم الأقسام بعلامات وذلك في أرض العباسية بمصر ثم وقف في وسطها بحيث يكون (٩٠) عن اليمين و (٩٠) عن الشمال وكل (٩٠) قسما ثلاثة أقسام بحيث يكون القسم الذي يليه من كل منهما يبعد بنحو (٢٥) درجة عن موقفه والقسم الذي عند النياتين قريب من هذا في اتساعه فيكون مكان اللعب من ناحيتين (٦) أقسام ثلاثة عشرة يمينه وثلاثة عشرة شماله ، فلما رتب هذه الأقسام قال مخاطبا الواقفين [أيها الناس أنا سألعب لعبة تدهشكم ولا تقدرون أن تأتوا بمثلها فقالوا وما هي ؟ قال أرمي بكرتين من يدي اليمى واليسرى [أولا] تذهب إحداهما إلى الشمال وثانيتها إلى الجنوب ولا تقعان إلا عند نهاية القسم الأول من كل ناحية بحيث لا يحصل خطأ متى مدة حياتي [ثانيا] متى وصلت الكرتان في الجهتين تنقسم كل منهما إلى قطعتين قطعة ترجع إلى أسفل وقطعة تذهب إلى القسم الثالث من الجهتين ، ومتى وصلت هاتان القطعتان إلى القسم الثالث يرسل رجلان واقفان على آخر اللعب من الجهتين كرتين أخريين فيرميان بهما فيجلان محل هاتين القطعتين المرتفعتين في القسمين المذكورين وهذه الحركات متصلات منتظمة . فاذا رأينا لاعبا فعل هذا فإنه لا محالة يدهشنا لأننا نرى كثيرا من الناس يلعبون لعبة (البلياردو) والمدار فيها على أن الكرة المضروبة بالعصا تصيب كرة أخرى بشروط خاصة ، فهناك يحكم للاعب أو عليه ، أما هذا اللاعب فان حركانه متى صدق فيها تكون من أدهش اللعب الذي لا يأتي الزمان بمثله .

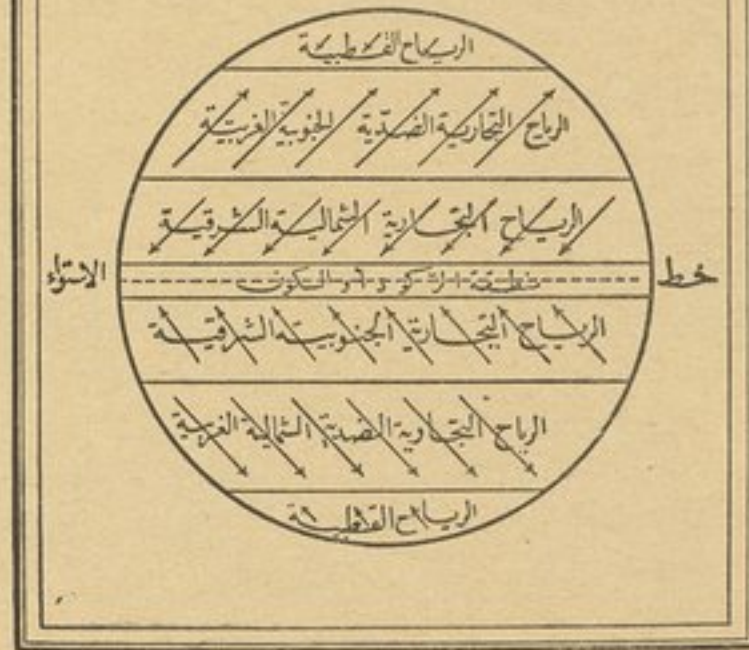
هذا الثل الذي ضربته تقريب لما ستراه ، فالملعب القسم (١٨٠) قسما هو نصف الكرة الذي نحن فيه ووسطه خط الاستواء ، فالشمس مثلنا لها باللاعب وحرارتها مسلطة على خط الاستواء والرياح تخف هناك فترتفع كما يرتفع الهواء في منازلنا بسبب الحرارة في تانيرنا ، ومق خف هواء منازلنا هبت رياح شديدة من أبواب تلك المنازل داخلة على ساحاتها مع أن الجو في جميع القرية وما حولها ساكن هادى ولا رياح إلا هنا لأجل الحرارة .

فهذا المثال الصغير هو الذى يحصل بسبب الشمس ، فعلى جعل الريح عند خط الاستواء يخف فيرتفع فيذهب إلى الجنوب والشمال وهو الذى مثلنا له بالكرتين ، ومق وصل هذان التياران إلى نحو نصف و ٢٠ درجة من الجانبين ، قلت الحرارة الرافعة للهواء فأرادا النزول إلى الأرض كما تنزل الطيارة إذا قل ما فيها من (البزنج) هناك ينزلان في تلك المسافة فيقابلان سطح الأرض فتقابلهما حرارتها فيرتفع كل منهما كرة أخرى إلى أعلى ثانيا وهو قسمان ، كما أن الكرة المتقدمة ارتفعت وهى مقسمة قسمين فيرجع قسم منه إلى خط الاستواء ليحل محل ما ارتفع هناك من الهواء بخفته وقسم يذهب إلى الدائرة القطبية من الجانبين ، ومق وصل هناك وقابل وجه الأرض خف ثانيا بسبب الحرارة فيرتفع وهناك يحل محله رياح تآنى من القطبين وهو الذى عبر عنه باللاعب في آخر الملعب من الناحيتين والرياح التى من جهة القطبين إنما أتت لتحل محل الرياح الصاعدة في الدائرتين المتقدمتين .

هذه حال الشمس والهواء والبرد والحرارة ، اللهم إن الحرارة والبرودة جنديان ساتقان لهذه العوالم وكرة الهواء حولنا هى ميدان العمل ، فماهى حياتنا ياربنا ؟ حياتنا راجعة لتدبير محكم لو كشف لنا لاحترقت قلوبنا من الحب والدهش ، أمور بديمة ، ماهذه الأعاجيب ؟ شمس وحرارة منها سلطت على خط الاستواء فجرت الرياح فقابلت الأرض حوالى دائرتى الجدى والسرطان فقابلتها الحرارة فارتفعت ثانيا ثم وقعت عند الدائرتين القطبيتين وحات محلها رياح أخرى ، ثم إن هذه الحركات لامقطوعة ولا ممنوعة .

إن الهواء ساعة وسلكها الذى هو (الزمبلك) هى الشمس . وهذه الساعة لا تفتأ تدور ليلا ونهارا والناس غافلون تانهون . الناس جميعا يأثقه يعيشون ودواليب هذه الساعة تجرى فوقهم وتحتهم وهم يعيشون فيها وغاية الأمر أنك أنت علمتهم صناعات ليعيشوا بها وما هى إلا ضرب مثل لهذه العجائب المحيطة بهم ومن أجلها حرارة الشمس وتأثيرها فى الهواء الذى لولاه لم تسكن هذه الحركات فيه ولم يكن سحاب ولا مطر ولا أنهار ولا حيوان ولا إنسان ولا علماء ، فلو أن هذا اللاعب فى المثال المتقدم زاد على مقاله فقال إن هذه الحركات يستتج منها مخلوقات حية وغير حية لكان هذا من أعجب العجب (انظر شكل ١ فى الصفحة التالية) .

اتجاهات الرياح



(شكل ١ - قلا من الأطلس الحديث)

إنما رسمت هذا الشكل لك أيها الذكي ليزيد فهمك بهذا الموضوع وما هو؟ هو الشبه به في الآية لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم سراج بنفس الآية والسراج يطلق على الشمس، فريد أن نبين آثار الشمس العامة ثم نتبعه بآثار الإسلام والقرآن في الأرض، ثم نبين آثار أعظم الفلاسفة فعلا في أرضنا، وهناك فقط نفهم أن قول الله هنا «سراجا منيرا» ليس كقول شعراء العرب في الجزيرة وفي البوادي للنعمان بن النضر:

﴿ كأنك شمس والملوك كواكب ﴾

إن حرارة الشمس تقع على خط الاستواء فيرتفع الهواء نحو (٢٠) ميلا، ومعلوم أن الحرارة تمدد الأجسام فتخف كما قدمت لك، ومق ارتفع الهواء بسبب الخفة تحل محله رياح من الشمال والجنوب ثم هو يتأثر بالحرارة ثانيا ويرتفع وهكذا، فترى الرياح المرتفعت عند خط الاستواء تجرى إلى الجهتين ورياح أخرى تجرى من تحتها من الناحيتين إلى خط الاستواء فهي دائرة دائما أبدا. وهذه أشبه شيء بالدولاب يجرى ليلا ونهارا وكالنجوم والشمس والقمر، والتي تهب إلى خط الاستواء من الناحيتين تسمى الرياح المنتظمة أو الرياح التجارية، والرياح المرتفعة إلى الشمال والجنوب تسمى الرياح التجارية الضدية، والرياح الآتية من القطبين

تسمى بالرياح القطبية . فهنا رياح تجرى من القطبين ورياح تجرى من خط الاستواء ورياح تجرى من بعد مخصوص إلى خط الاستواء وإلى الدائرتين القطبيتين . هذا هو التدبير والنظام البديع .

يقول الله هنا «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا» .

ها أنت ذا أيها الذكي عرفت للشبه به وهو الشمس وعرفت آثارها وأنها بحرارتها حركت هواءنا فارتفع ثم انخفض ثم ارتفع ثم انخفض ثم ارتفع وهو في ذلك دولا بيجرى والمحرك للدولاب هي الشمس . الله أكبر . ماذا كانت نتيجة هذه الحركات والدوايب الدائرات نتائجها بديعة وجميلة ، نتائجها سحب يجرى بجري الرياح والسحاب أتى بآثار الحرارة في الماء ، فالحرارة أثارته الرياح من البحار والحرارة أثارته الهواء . فهذان الأثران يلتقيان ويتعاقبان وهما أخوان البخار والهواء الجارى كلاهما بسبب الحرارة فترامهما يتعاقبان ويحمل أحدهما وهو الهواء أخاه وهو البخار ويجرى به ، لماذا يجرى به ؟ ليسقى الأرض فيكون الزرع وكل حي ، عجيب جدا ، حرارة تنبعث منها حركتان . حركة لتباريؤخذ من الهواء وحركة البخار من الماء ، فيجري هذان الطائران يلتقيان ويحمل أقوامهما وهو الهواء أخاه وهو البخار الذي صار سحبا فيمطر على الأرض فتكون الأنهار والزرع والخار والحيوان ، للشبه به جميل جدا هي حسن . فإذا تقول في المشبه وهو النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ الكلام على آثار النبوة وهي المشبهة بالشمس ﴾

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي فقرأ ما كتبتة الآن فقال : إن ما كتبتة الآن قد تقدم في هذا التفسير . أفلا يكون هذا تكرارا ؟ مسألة الرياح القطبية . والرياح التجارية المنتظمة ، والرياح التجارية الضدية . كل هذا قد تقدم في هذا التفسير وأزيد على ما ذكرت هنا الرياح الموسمية ، ذلك أن الأرض تتأثر بالحرارة أكثر من الماء فيصعد الهواء من فوقها إلى الجو والماء طبعا يحيط بالقارة فيجىء الهواء الذي فوق البحار ليحل محل الهواء المرتفع فيحمل البخار فيكون المطر على السواحل فتكون إذن حرارة الصيف في القارة سبباً لارتفاع الهواء وحلول هواء البحار محل الهواء المرتفع وقد حمل معه البخار فكانت الحياة فيحصل المطر صيفا على الشواطىء كالتى يحصل في جنوب آسيا وجنوبها الشرقى وبهذه تعيش أمم وأمم . وهذه هي الرياح الموسمية ، أما في الشتاء فإن الهواء يخرج من وسط القارة إلى البحار لأنها إذ ذاك تكون أدفاً من الأرض ، وهذه الرياح تهب ستة أشهر إلى جهة تهب بالعكس ستة أشهر أخرى وهي في ذلك كنسيم البر والبحر فإن النسيم عند شواطىء البحار بالليل يهب من البحر إلى البر ويسمونه نسيم البر . لماذا ؟ لأن الأرض أسرع برودة من الماء وفي النهار يهب الهواء من البحر إلى البر ويسمى نسيم البحر لأن الأرض أسرع حرارة فيرتفع هواؤها ويحل محله الهواء الذي فوق الماء فتم هناك دائرة كالدوائر الحاصلة من الرياح الموسمية والرياح التجارية ونحوها . ثم قال : هذا القول منك تكرار لما تقدم . قلت . كلا بل يجب إيضاحها (لسببين : السبب الأول) إن كثيرا من الأذكياء لم يتصوروا ما كتبتة سابقا حتى تصوره لذلك رسمت هذا الرسم حتى يعرفوا الحقيقة العلمية التي تعيش بنظامها ، فأعادة القول هنا ليعلمها من صعبت عليه هناك ، والرسم هنا لم يكن له نظير فيما تقدم ، وأيضا هذا لزيادة التثبيت وتذكير بحمالة الله وإبداعه وحسن صنعته وجماله وإن لم يكن التذكير تدوم الفعلة ، ومعلوم أن الله يكرر القصة على أنحاء شتى في القرآن ليكون ذلك أدعى للاعتبار والحكمة إذ في كل مرة تظهر حكم ليست في غيرها ، فهنا لا بد من ذلك (السبب الثاني) في أننا هنا نريد أن نفهم الحكمة في جملة سراجا منيرا ، ولسنا نعرف المشبه إلا بعد إدراك المشبه به فإذا لم تفصل الكلام

فيه لم ندرك المشبه بقدر طاقتنا ، فإذا فصلنا الكلام في المشبه به هنالك نذكر المشبه ، ولا جرم أن هذا من التشبيه المركب ، وأعظم التشبيه المركب ما قاله بشار وغيره وهو :

كأن مثار النفع فوق رؤوسنا الخ

فالتشبيه المركب الذي قاله محصله أن غبار الحرب المحيط بالشجعان تتخلله السيوف اللوامع ذاهبات آيات مرتفعات منخفضة . مشبه هذا كله بليل داج حالك تساقطت فيه الشهب من السماء . تتخلل أكنافه لامعات متقابلات كثيرة الحركات .

هذا أعظم تشبيه عند العرب كما يقول علماء البيان . فلوم نعرف المشبه به هنا لم يمكننا إدراك المشبه . فقال : حسن هذا ولكن المقام هنا صعب كيف نصل إلى أن يكون النبي ﷺ كالشمس في هذه الحركات . فقلت إن الله شبه القرآن بالصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق . فهذا التشبيه المركب أرقى من تشبيه بشار المتقدم ألا ترى أن القرآن شبه بالمطر وهو الصيب . والوعيد في القرآن شبه بالرعد . والبرق شبه بالحجج . ومن يعرض عن سماع الوعيد يشبه بمن يضع أصبعه في أذنه خوفاً من الرعد ، ومن يسمع الحجج في القرآن ثم يعرض عنها كمن يمشي في البرق وإذا أظلم وقف ولم يتحرك . فهذا التشبيه المركب أوسع نطاقاً من تشبيه بشار . وقد تقدم هذا في (سورة البقرة) .

هنالك قال صاحبي : « أسمع جمجمة ولا أرى طحنا » . ماذا أفدتنا بهذا التشبيه ؟ أنا أعترض عليك من (وجهين : الأول) إن الآية هنا أنه ﷺ سراج منير . ولكن أنت تذكر أن القرآن مشبه بالمطر ورجعت في قولك إلى ما ذكرته أنت في أول البقرة (الوجه الثاني) إن أول كلامك أفهمنا أنك ستظهر لنا سرا مصوناً من تاريخ النبوة يشبه ذلك السر المصون الذي ظهر في الشمس لأنها بحرارتها وحدها كانت منها الرياح الموسمية ونسيم البر والبحر والرياح الاستوائية والرياح التجارية المنتظمة والرياح الضدية والرياح القطبية . وكل هذه حاملات سحبا وسفنا ونعما . فانت لم تأت لنا بهيئة في النبوة تناسب المشبه به ، وغاية الأمر أنك رجعت إلى علم التشبيه الذي أنت نهيت عن الوقوف عنده لأنه أمر لفظي . والأهم الإسلامية الآن قد عرفت من آثار النبوة ما لم يكن فيما مضى في الزمان الأول . وقد تقات أنت عن العلامة السيوطي في كتابه « الاتقان في علوم القرآن » في (سورة العنكبوت) أن الأنبياء كانت معجزاتهم كلها حسية . أما معجزته ﷺ فهي راجعة إلى ما سيظهر في القرآن للأمم والأجيال من المعاني التي تتجدد بتجدد الأمم والأجيال . وملخص اعتراضى (أمران) أنك لم تذكر النبي ﷺ في التشبيه بل ذكرت القرآن . وأنت لم تأت بما كنا نترقبه . فقلت له : أليس عندك اعتراض بعد هذا ؟ فقال لا . فقلت من عجب أنك في هذا الاعتراض أشبه بهؤلاء الذين يقال إنهم يقرءون الأفسكار . إن كل ما قلته هو الذي ستسمعه وغاية الأمر أني أثبت بهذا التشبيه مقدمة فقط للجواب الشافي ، فلو أنك صبرت على لوجدت الجواب على النحو الذي ترضاه فقال :

أنتم برد جواب ما أنا سائل عنه فنار العلم ذات أشعشع

فقلت إن النبي صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب وهناك أرسل الجيوش هو وأبو بكر وعمر وبقية الخلفاء إلى أطراف جزيرة العرب والفرس ومصر وبلاد المغرب والأندلس والسودان وهكذا في جهة الشرق إلى بلاد الهند والصين ، فهذه الجيوش كالرياح والقرآن معها كالسحاب ، فإذا كانت الشمس أرسلت بحرارتها رياحاً في الهواء عند خط الاستواء وكانت لها فروع وفروع وكانت الرياح الموسمية ونسيم البر ونسيم البحر وهكذا وحملت تلك الرياح السحب فأمرت الأرض ، هكذا هذه الجيوش الحرارة المجاهدة والعلماء والفقهاء والحكام الإسلاميون فهؤلاء كلهم هم رياح مختلفة الأشكال يسمون بأسماء مختلفة ، وهؤلاء يحملون السحاب ، فالقرآن منزل عليه

صلى الله عليه وسلم والجهاد بتعاليمه . ثم إن الدين انتشر بالدعاية ، فلننظر إلى رياح الجهاد الواصلة إلى الأندلس لنجعلها مثالا لنا لنستدل على الباقي ، أليس الاسلام بقي في الأندلس (٨٠٠) سنة ؟ أليس هو كالرياح التي وصلت إلى أحد المدارين (الجدى والسرطان) وقد قلنا إن الرياح هنالك انقسمت قسمين قسم رجع إلى خط الاستواء ، وقسم ذهب إلى الدائرة القطبية ، فانظر الشكل السابق ، هكذا السحب الاسلامية التي وصلت مع رياح الجهاد إلى الأندلس قابلها القوم أيام (ابن رشد) بحرارة التعصب ضد العلم لأن العلم عند هؤلاء قد اعتقدوا أنه يتنافى الدين فارتفع عنهم إلى أهل أوروبا وأخذ يرقى القوم وقد نام المسلمون إذ ذاك نوما عميقا . ولأذ كرك عسالة وهي أن القرب العالمين لارب المسلمين وخدمهم ، وإذا خلق الشمس فلم يخلقها للمسلمين وخدمهم بل خلقها لأمة ولكواكب كثيرة إذ نبينا صلى الله عليه وسلم جاء لإيقاظ أهل الأرض مهما كانت نخلهم وأديانهم كما أن الشمس لأهل الأرض جميعا لأن الله رحيم ورسوله رحمة للعالمين .

إذا فهمت هذا عرفت السر في أن أوروبا لما أخذت علم (ابن رشد) كما عرفت في غير هذا للسكان قامت من رقدتها وهنالك حصلت هناك شعبتان شعبة توجهت إلى أمريكا في أيام اضطهاد المسلمين للعلم ففتحت أمريكا وشعبة رجعت إلى الشرق بالحروب الأوروبية ، فها نحن أولاء نرى أهل أوروبا لما أيقظتهم الحروب الصليبية التي تشبه من كل وجه الرياح التي تأتي من المدارين إلى خط الاستواء رجعوا إلى بلادهم ووجهوا مهمهم إلى أمريكا من جهة وإلى أمم الإسلام والشرق من جهة أخرى . فهم فتحوا أمريكا فارتقت وهم جاءوا بلادنا بخار بوننا ومعهم تلك العلوم التي تصرفوا فيها ورقوها بعد أن أخذوها من آبائنا . أليس هذا بعينه هو الحاصل من الشمس ؟ الشمس تشرق على خط الاستواء فتثير الرياح فتصل إلى مدارى (الجدى والسرطان) فتكون هناك ريحان : إحداها تتجه إلى خط الاستواء . والأخرى تتجه إلى جهة ضدها . فهنا كذلك أتجه الإسلام إلى بلاد الأندلس ، ولما استقر هناك العلم مدة كره المسلمون العلم فحمله اليهود إلى أوروبا فدهشت من هذه التعاليم فأخذت ترتقى ، وتوجه منها قوم إلى أمريكا وطردهوا المسلمين من بلادهم لأنهم جهلوا العلم والدين ، وهامم أولاء يجررون وراءهم في شمال أفريقيا وفي آسيا . فهذا نفسه هو الذي حصل في الرياح بحرارة الشمس إذ توجه منها تياران مختلفان لما وصلت الرياح إلى المدارين . فهكذا هنا تياران مختلفان . فأما أمريكا فقد ارتقت وبقى أمر أمم الإسلام فهذا دورهم ولا عيب علينا في ذلك فإن الرياح الجارية من خط الاستواء تحمل معها الرياح الآتية من المدارين . وإذا كان هذا طبيعة ملك الله فلنسر على نظامه ولنعلم أن هذا هو وقتنا وأيام رقينا ، ومماثل هذه الأمم الإسلامية مع دينها إلا كمثل أرض نزل عليها الغيث فأنبثت نباتا حسنا ولكن تركت بركا ومستنقعات هنا وهناك لعدم المصلحين للأرض وهذه البرك أخذت تتكثر وتزداد على مدى الأيام فبعد أن كانت الأرض أخذت زخرفها وازينت أصبحت كلها حشائش ومياها مرة قذرة . وأرضا مستوخمة كثرت فيها الأمراض والجدري والحصباء بجمل أصحابها .

هذه حال المسلمين لما نسوا الشمس المحمدية وناموا على كلام شيوخهم المتفرقين وظن كل شيخ طريقة أو عالم مذهب من مذاهب الإسلام أن الدين هو ما يعرفه وما عداه لا يجب عليه ولا على الناس صار الناس كأنهم في مستنقعات وبرك ، ولذلك ترى المبتدعين والخارجين وأصحاب المذاهب السقيمة كثروا في الإسلام فهؤلاء كالماء الراكد أضروا بتلاميذهم وحجوبهم عن العلم فذلوا ، وكما أن الشمس تطهر الأرض هكذا النور المحمدي بالرجوع إليه يستيقظ المسلمون .

فلما سمع صاحبي ذلك قال هذا حسن ، ولكن من المسلمين من منع عنهم المستعمرون العلم . فقلت ولكن لا يمنعون القرآن ولا هذا التفسير ، وهذا التفسير وأمثاله في أمم الإسلام كثير منه يفهمه كثير من العتلاء وإن لم يكونوا متعلمين العلوم الحديثة ، وهل للمسلمين عذر بعد الآن ؟ .

فأرأ أيها التركي مذهبك الذي تعلمته في الصبا ، فليس يناقض هذا التفسير لأن للذاهب كلها في أمور عملية جزئية وهذا في الأمور العامة ، ومنه تظهر لك بعض أنوار الشمس المحمدية التي بها تعرف أن وقوف المسلمين في هذه البرك والمستنقعات المملوءة من الحيوانات النذرية الفكرية الضارة بالمسلمين هلاك لهم وهم أجدر بالسعادة والرفق من جميع أمم الأرض .

فقال صاحبي : الآن فهمت ولكن أين موازنة نبينا صلى الله عليه وسلم بأعظم الفلاسفة . فقلت إن أفلاطون ألف جمهوريته وهي أعظم كتاب ألفه عالم في الأرض كلها ، وهذا الكتاب علم عرف الأمم كيف تنظم الحكومات والجند والعامة وما الذي يرقبها ، وما الذي يخفضها ، وتقدم تلخيصها في هذا التفسير ومع ذلك لم نجد لهذا الفيلسوف دولة ، بل إنه مع شهرة كتابه الآن وانتفاع الأمم به لم يحدث جزء مما أحدثه هذا النبي العربي الذي استحق بمقتضى التاريخ ونتائج أعماله أن يسمى « سراجا منيرا » لأنه حرك الكرة الأرضية كلها حتى إن الحركة وصلت إلى اليابان والصين ، فاليابان ماحركها إلا تعاليم أوروبا والصين كذلك ، فحركات الإصلاح تتجه شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بسبب الحركة الإسلامية . إذن هو صلى الله عليه وسلم شمس منير حقاً وبه ارتقت أوروبا وأمريكا واليابان والصين والمسلمون الحاليون الذين جنى عليهم جهل آباؤهم المتأخرين سيأخذون دورهم في الرقي وتهب رياح سعدهم إلى الأمم كرة أخرى تحمل لهم علما غزيرا .

فقال صاحبي : إن هذا البيان عجيب وأنا أحمد الله عليه . فقلت الحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الأحد ٨ ديسمبر سنة ١٩٢٦ م

﴿ زيادة إيضاح في بعض أسرار قوله تعالى « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » ﴾

لقد تم الكلام على تفسير هذه الآية وإيضاحها ولكن لا بد من إيفاء المقام حقه من حيث العمل بعد العلم في بلاد الإسلام . لاجرم أن ضوء الشمس له منافع جمّة في علم الطب . ولقد أكثر الأطباء من تعداد منافع التعرض للهواء والشمس نابذين تعاطى الأدوية من الصيدليات في أنحاء العالم . ومعنى هذا أن الأطباء في العالم اليوم رجعوا فعلا إلى منافع ضوء الشمس والهواء والتداوى بما هو طبيعي وهام أولاً ، ينكرون كل الإنكار ما يزاله الأطباء غالبا من المداواة بالعقاقير المشهورة ويقولون إنها تحدث أمراضا وأمراضا . وهذا القول نقلته في (سورة البقرة) عند قوله تعالى « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » وهكذا ترى كثيرا منه (سورة الأعراف) عند آية « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وفي (سورة الحجر) في أوائلها عند الإشارة إلى قصة آدم وفي (سورة طه) عند قصة آدم أيضا وفي (سورة الشعراء) عند آية « وإذا مرضت فهو يشفين » .

فترى في هذه المواضع ما يغنيك في علم الطب ويرجعك إلى المعالجة الطبيعية ومن أهمها ضوء الشمس . هذا في شمس السماء وهي المشبه بها ، أما المشبه في الآية وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم فإنا نريد أن نعرف لماذا كان هذا التشبيه وما فائدته لنا معاشر المسلمين الآن بطريق أجلى بحيث نعرف من هذا التشبيه ما عرفه الأطباء في علمهم ، فإذا كان الأطباء رجعوا إلى ضوء الشمس ونحوه في طبهم وهم مصيبون فهل أمراض المسلمين الاجتماعية يكون الشفاء منها بنفس هذا التشبيه بقوله تعالى « وسراجا منيرا » هذا ما أريد بحسه اليوم فأقول : اللهم إني أحمدك حمدا كثيرا على نعمة العلم وبهجة الحكمة . اللهم إنك أنت الذي أعنت ووقفت

وشرحت الصدر ودبرت الأمر ووعدت ونصرت وأوفيت العهد، فأنا أسألك اللهم أن تجعلنا وافين بمهدك حتى نستحق منك هذا الوفاء وهذا الجليل وهذه النعم العلية التي نحن نقرّ بها ونحمدك عليها .

أيها الذكي : أكتب هذا صبيحة يوم الخميس ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م ذاكرا مااتفق لي أمس الأربعاء (١٨) منه ، ذلك أني أحسست بألم من البرد في كفتي اليسرى ولقد اعتدت أن أتعرض لضوء الشمس متى أحسست بهذا الألم منذ سنين طويلة فيذهب ذلك المرض ، ومن أعجب العجب أني قبل أن أعرف بالضوء الشمس من الفوائد ولم أقرأه في كتب الأطباء وبعد ماجربته صح عندي .

أقول : إذ ذاك قابلت طبيبا مصريا فسألته : لم لم يظهر الأطباء فضل حرارة الشمس مع أني أنا عرفت منفعتها في شفاء جسمي ؟ فكان جوابه : لقد وضعوا الأدوية الحارة وهي من نوع حرارة الشمس فسكت ورضيت بهذا الجواب ، ثم بعد ذلك اطلمت على فوائد الضوء الذي تقدم في هذا التفسير مشروحا شرحا مستفيضا من أقوال نفس الأطباء فدل ذلك على أن ذلك الطبيب الذي سألته قبل ذلك كان مقصرا أشد المقصر في جهله الأمور العامة وحصر فكره في العقاير الطبية فثله كمثل كثير من علماء الإسلام في القرون المتأخرة الذين حصروا عقولهم وأضاعوا مهجهم ووضعوا نبوغهم في السائل الجزئية من الطلاق والبيوع والحيض والنفاس ولم يرفعوا رؤسهم إلى الشمس الشرقية المحمدية فيدرسوا نفس القرآن ونفس السيرة المحمدية وسير الصحابة والتابعين ليستخلصوا من ذلك رقي الأمم الإسلامية المسكينة . إن نسبة هؤلاء في علومهم المحصورة كنسبة الأطباء في حصر عملهم في العقاير المشهورة ونسبتهم في رجوعهم إلى القرآن وتفسيره بالهيئة الحديثة التي رأيتها كنسبة رجوع الأطباء إلى التداوي بالماء وبضوء الشمس والهواء النقي .

أقول : لما أحسست بذلك البرد توجهت إلى الخلوات خارج القاهرة وجلست في مكان قصي نحو ساعتين متعرضا للشمس على عادتي ، وبينما أنا كذلك إذ صاحبي قد تتبع خطواتي فسمعت نبأه خلفي فسلم وحييا وجلس وقال فم تفكر الآن ؟ فقلت وإذا عرفت أني أفكر فلماذا قصدت قطع التفكير ؟ فقال قصدتك بعد مدة كافية لتأم الفكر ، فقلت أنا أنظر إلى الشمس وإلى السحاب وأعجب من مهرجان وعرس وأفراح في هذا الجو . أنظر : ألت ترى السحاب يحيط بالآفاق شرقا وغربا . ها أنا ذا جالس على هذا الرمل وأرفع طرفي فأرى قبة زرقاء تحيط بي مهندسة الشكل بدعة الوضع حواشها موشاة بالسحب المجلجلة لآفاقها ، وها هي ذه تمايل ذات اليمين وذات الشمال وتتقارب وتتباعد . أفلمت ترى أن هذه هي عين مايفعله الناس في أعراسهم وأفراحهم وولائمهم في عقود زواجهم ، الناس شرقا وغربا قديما وحديثا يصنعون الولائم فيضربون الطبول ويطلقون الرصاص من البنادق بل القنابل من مدافعهم . ولهم أغان ينشدونها ومجالس ابتهاج بمجموعهم وأنعام يذبجونها وصدقات يوزعونها وأعلام يرفعونها . لم هذا كله ؟ لاقران قى بفتاة أو ولادة ولد . والمظاهر عادة تتبع في ضعفها وقوتها العسر واليسر والغنى والفقر وكل امرئ بقدره .

فاذا كانت هذه طبيعة الإنسان فهي مجمع عليها وإجماع الإنسان على عمل واحد يكون له شأن الفطرة والفطرة صادقة . فلم هذا كله ؟ نظرنا فوجدنا هذا الاقتران نتيجته الولادة والولادة ترجع إلى وجود حي على الأرض .

إذن هذا الانسان إنما يكون فرحه بالوجود ، فلا فرح إلا بوجود ولا حزن إلا على مفقود ، ثم ننظر فترى أن التربية التي فرح بها الإنسان ربما تموت وربما يموت الأب قبل كبر الابن ، فدلنا ذلك على أن هذا الفرح فرح جزئي لا كافي لأنه ليس بدائم ، وماليس بدائم لاقيمة له ، إذن عواطف هذا الانسان وهذا الحيوان عواطف جزئية جعلت غرائز لأعمال جزئية لادوام لها ، فلننظر إذن في العوالم التي منها خلق هذا

الإنسان قترى هذه الأفراح والأعراس تقام في السماء دائماً في يوم أن خلقت السموات والأرض ، وإن تقام تلك الأعراس إلا ابتهاجاً بالوجود العام كما أقامها الإنسان للوجود الخاص ، وعظمة أفراح السماء مناسبة لعظمة الموجودات التي أقيمت الأفراح لها .

انظر أيها الذي : ألسنت ترى هذه الشمس تحتفي تارة وراء هذه السحابة وتارة تظهر كأنها تفعل فعل الناس في أعراسهم يظهرون أفانين اللعب ، وبعد الاختفاء يظهر وجهها كرة أخرى وقد رفعت تقامها تخيفي أنا وتخيبك بالسلام ، وهي بسامة ، ثم إن أفراح السماء عامة ، فها هي ذه أمامك في جميع جوانب السماء لأن هذا الفصل فصل المطر وقد جعل المطر للحياة . فأفراح السماء ترى :

(١) السحاب (٢) والرعد والبرق .

(٣) وأصوات الرياح المغنيات بأعواد الأشجار .

(٤) والأعشاب والزروع الراقصات على تلك الغمامات وفيها الطيور الفردات بأنواع الغمامات .

(٥) وهل فعل الإنسان غير ذلك في أعراسه .

مدعوون كالسحاب كثرة وقلة وإطلاق الرصاص من البنادق والمدافع يحدث صوتاً مشاكلة للرعد وضواً مشاكلة للبرق وضرب الدفوف والطبل مشاكلة لأصوات الرياح والرقص والغناء كرقص الأشجار وغنائها وغناء الأطيوار .

ولكن الفرق بين العرس الذي أقامه الله وأعراس الناس أن عرسه دائم بدوام السموات والأرض يراه الآباء والأبناء وعرسنا ذاهب جزئي مقدر بمقدار عواطفنا وأحوالنا . ثم إنعما مثل المسلمين السابقين بعد العصور الأولى الذين هم خير العصور المقتصرين على دراسة القشور من دين الإسلام في اقتصارهم على كتب خاصة في المذاهب المعروفة كمثل أهل الأرض في إقامة التزيينات وإعداد الولائم في أعراسهم الجزئية وحال المسلمين الذين يقرءون اليوم أمثال هذا التفسير وينظرون في القرآن ويفهمون هذا الوجود فهما حقاً ، إنهم يرون ما أراه أنا وأنت اليوم أيها الذي فقال وما هو ذلك ؟ قلت إنني أنظر فأرى أن هذه الأعراس والتزيينات اللقائات في هذه الآفاق مقصودة لدعوتنا أهل الأرض أن نشاهد العرس الأعلى والأوسع نطاقاً . فهمة العاقل تتجه إلى التمثل الأعلى والتثل الأعلى هنا أن تعرف لم دامت هذه التزيينة السماوية دائماً ؟ فقال لدوام الوجود من حيث الكليات كالسكواكب ومن حيث الجزئيات كاللوايد على الأرض . قلت إذن سيتجه نظر المسلمين بعدنا إلى هذه الأعراس العامة ولا ينحصر نظرهم في الأعراس الخاصة . قال إن شاء الله فيدرسون الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والهواء . وهناك يفرحون ويقرءون « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » وهناك يفهمون لمماذا قال الله هنا في الآية « وسراجاً منيراً » .

ومنى برزت الشمس قتل ضوءها كل المكروبات (الحيوانات الدرية) وأزال العفونات من الأرض . فهكذا متى درس المسلمون أمثال ما نكتبه في هذا التفسير زالت تلك العفونات العلمية والأخلاق الوراثة التي خلفها أناس من قبلنا لم يرفع شيوخهم أعينهم إلى معرفة نفس القرآن ونصوصه ولا إلى جمال الله وإبداع تركيبه . وهناك سيتجه الجميع وجهة واحدة فيعرفون الجمال الأسمى والحكمة في هذا الوجود . وهناك يفرحون بالوجود الأعلى وهو الوجود الدائم ، وجود رافع هذه التزيينات ومرسل الرياح في الآفاق ومعلم الطيور أنواع الغناء . ومطلق في الجو أصوات الرعود ولألاء البروق والجمال فبدل ، أن يفرح الناس بمولود يموت وبزوجات ستفارق وينعم سزول . يفرحون بوجود هو الحاضر الدائم الذي لا يفارقهم ،

وهناك يعلمون أن تلك الأعراس وتلك الزينات الجزئية ماهي إلا مدرسة صغرى ومقدمات لفهم الأعراس الكبرى، ومتى عرفوا أن هذه الأعراس والأبناء كلها فانية توجهوا للعرس الأكبر ولمن أقام زينته ونصب خيمته وهو الموجود الذى لا ابتداء له ولا غاية . هناك يرتقى المسلمون ارتقاء لاحد له وتضمحل تلك الخزازات الحقيرة الصغيرة التى ولدها قصر النظر الذى طال أمده إذ يرون دراسة الوجود كله دراسة القرآن وما الخلاف فى الإسلام إلا كاختلاف الأشجار ورقا وطعما وجمالا لاغير .

وهذه العقول الاسلامية بعدنا التى يكون فرحها وعلومها كلها متجهة إلى نظام هذه الدنيا يسعدون فى الدنيا وفى الآخرة لأنهم يعرفون الرحمة التى تقدم تفسيرها فى أول (سورة الروم) وما بعدها للبسطة ويوقنون بأن من جعل هذه العوالم خادعات لكل إنسان ليس يرسل آلاما مخلوق إلا لفائدة ذلك المخلوق وهو لا يدرك حكمتها، ولأنهم يوقنون بعد دراسة ماتقدم بذلك كل الإيقان . وهناك فقط يعرفون معنى قوله تعالى « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون » فلا إيقان باللقاء ولا فرح بذلك اللقاء إلا بعد تفصيل الآيات التى جاء بعضها فى هذا التفسير وبدون ذلك لا إيقان بل هو إيمان . فإله أخذ يفصل الآيات اليوم فى الكرة الأرضية . وها نحن أولاء ذكرنا بعضها وسيقوم بياقها من بعدنا . وها هي ذه أيام اليقين قد أقبلت ، ويدرس المسلمون نظام الدنيا ويرفعون شأنها ويرجعون إلى ربهم فرحين به مستبشرين .

فقال صاحبي: فاذا كنا كلثنين فيما رأيت اليوم من الأفراح كلك عامة وأخرى خاصة حتى يكون ذلك نموذجاً لتفكيرك اليوم . فقلت أما الكلمة العامة فإني أقول لك إنك بحق لك أن تقول إن هذه القبة السماوية والأرضية وما بينهما . وهذه الأعراس الطبيعية القائمة الآن هي لك أنت . قال وهل الوجود ليس فيه غيري ، قلت إنها لك أنت . فقال ما البرهان ، فقلت أنت من الأمة المصرية البالغة ١٤ مليوناً وارتقاؤها ينفعك وضعفها يضرك . قال حقا هذا . إذن كلهم نافعون لك إجمالا . قال هذا حق . فقلت والأمة المصرية بينها وبين الأمم علاقات التجارة والبريد والطرق الجوية للطائرات والبريد الجوى والبحرى وهكذا ، قال حقا . قلت فكل الأمم نافعات لها . قال نعم . قلت ولك ؟ قال ولى . قلت الشمس والهواء والدجاج كلها نافعات لك ولأمتك وللأمة والحياة والنبات الخ . إذن هذه الشمس وهذا الهواء مسخرات لك لأنها نفعت الأمم النافعات لأمتك النافعة لك . إذن العوالم كلها تخدمك ولا ينافي هذا أنها تخدم غيرك لأن هذا نظام إلهي يحار فيه العقل . فكما خدمت الأمم كلها والعوالم نفسك هكذا أنت تعتبر خادما لأمتك ولأمة غيرها بطريق غير مباشر . هذه هي الكلمة الكلية العامة .

أما كلتي الخاصة فإني أقول إن هذا الإنسان لن ينال السعادة التامة إلا بعد معرفة الحقائق معرفة تامة والمعرفة التامة فى هذه الدنيا مستحيلة لأنه محبوس فى جسده بل هو محبوس فى سجن مظلم ولم ينل من العلم إلا قليلا لأنه محبوس بالأم داخلية وأخرى خارجة كالمسجونين فى سجون المجرمين فى عالم الأرض ولكنه وهو هنا قد يتلصق ببعض الجمال من خلال نوافذ السجن كما سأوضحه هنا فأقول :

إني اليوم لما توجهت تلقاء العراء وفسيح الحلاء لم أجد هاديا يهدينى إلى الطريق إلا ضوء الشمس ، هذا الضوء لولاه لم أعرض الطريق . وهذا الضوء هو نفسه الذى بسببه امتص الورق فى الأشجار مواد الكربون (الفحم) البالغ جزء من ألف جزء من الهواء كما ستراه موضحا مشروحا فى (سورة يس) عند قوله تعالى « سبحان الذى خلق الأزواج كلها » الخ . فالضوء به كان هذا الورق فى الأشجار المحيطة بنهر النيل حولى

وسترى هناك فتحات الورقات مصورة بالمصور الشمسي وقد شرحها العلماء فقالوا : إن كل فتحة توصل إلى حجرة ذات حوائط شفافة مغطاة بسقف بديع وفي داخلها مادة سائلة يعوم فيها مادة خضراء بها تكون خضرة النبات ، وفي الورقة الواحدة قد يكون نحو مائة حجرة أو مائتين وقد يكون فيها ألوف بل ألوف الألوف في نفس الورقة الواحدة وكلها بهذا الصنع المثقن ، فإذا أيقن المسلم بذلك وهو لاشك يوقن لأنه سي شاهد بعينه تلك الحجرات ويقرأ شرح العلماء لها .

فهذا الإيقان الذي منحه الله لقراء هذا الكتاب ستخرج به طبقات ممتازات في بلاد الاسلام يرفعون أمهم إلى أعلى درجة في السكال ، وهل يفكر الجاهل في ضوء الشمس ؟ وأنه نعمة ؟ . كلا إن أكبر هذا الإنسان لا يرى نعمة إلا ما احتسب به أو كان ممنوعا عنه فينزل له كالغنى بعد الفقر .

إن من عرف ربه بهذه الرحمة أيقن أن الآلام والمصائب المحيطة بالانسان لم تخرج عما تفعله الحكومات الأرضية في الناقصين من بني آدم إذا سجنوهم ، واستنتج من ذلك أن هذا الحكيم لن يفعل ذلك فينا إلا للتحق بعالم أعلى من هذا العالم الناقص كما تفعل حكوماتنا في الناقصين منا حتى يصلحوا لأن يعيشوا معنا غير مفسدين لأننا ، وهناك تعرض هذه الطبقات الممتازة أمم الإسلام على الاغتراف من الحكمة والعلم . وهذه الطبقات الممتازة في بلاد الإسلام المؤمنة بهذه الرحمة الواسعة تكون صفاتهم الممتازة أنهم يحبون أمهم بل كل أهل الأرض ويسعون لرقيهم ويفرحون ببقاء ربهم .

فهم إن عاشوا عاشوا سعداء مسعدين ، وإن ماتوا ماتوا فرحين ببقاء ذلك الحبيب الذي أسعدهم بالحجرات وهذبهم بالنعم ، فالنعم والنعم سيان عند قراء هذا التفسير وأمثاله .

واعلم أيديك الله أيها اللدكي أن كل ماورد من صفات هذه الأمة وفضلها وأنها خير أمة أخرجت للناس قد تم بعضه أيام النبوة وفي عصر الراشدين ومن نحا نحوهم . وسيتيم باقيه بعد نشر أمثال هذا التفسير إذ يتبوأ المسلمون متبوأ العلم والحكمة وحب الله للبنى على الإيقان وإدراك الجمال والحسن والبهاء والاشراق وإسعاد العالم الإنساني . وسيكون نبراسهم «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا» إلى قوله «وسراجا منيرا» فهذا تفسير هذه الآية وسيظهر أثره للعالم الانساني « والله هو الولي الحميد » اه .

آثار النبوة وانتشارها في أوروبا

(وكيف نرى العلماء فيها هم الدين يعتقدون هذا الدين وذلك من آثار كونه

صلى الله عليه وسلم «سراجا منيرا»)

ذكرنا فيما تقدم قريبا رسالة عبد الله كويليام الانجليزى الذى أسلم مع نبذة من ترجمة حياته وعهى الرسالة المسماة [الجواب السكافي] وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ زهدى الحماش ، ونزيد على ذلك الآن ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ (١٠) يناير سنة ١٩٣٠ م ، وهذا نصه :

المستشرق الفرنسي الميسو ايتان دينيه

(السيد ناصر الدين دينيه)

المسلم الفرنسي والمصور الشهير

مات هذا المستشرق النابه وقد احتشد حوله لتوديعه الوداع الأخير العدد العديد من كبار قومه الرسميين ومن أصدقائه وعارفي فضله من أهله ومن غير أهله من ممثلي الشعوب الشرقية التي أحبا وخدمها، وقد وجب علينا وإن كنا لم ننف هنالك في باريس مع الواقفين خاشعين أن نبعث إلى روحه الطيبة تحيات السلام والاعتراف بالجميل .

أحب الميسو دينيه حياة العرب وهو ذلك الفنان الكبير فأخذ له بينهم مقاما محمودا في بلاد الجزائر في تلك الواحة السعيدة الهادئة الجميلة (بوسعادة) ينتقل إليه يسكنه نصف العام كاملا . يرتاح للعرب وجيرتهم وروح عن نفسه بينهم وينعم بما في حياتهم من جلال تلك المناقب الماثورة عنهم وتلك المسكارم المعروفة بهم والتي لا يميل إليها إلا عشاق الحيال السامى ولا ينشدها إلا أهل الفضائل العالية ، وقد وضع في حياة العرب كتابا جميلا جليلا ملاءم باللوحات البديعة من ريشته القادرة ذات البلاغة في تصويرها والبيان في صمها .

والميسو دينيه يبلغ من العمر سبعين عاما . وهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير ، وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة ، تزدان بها جدران المعارض الفنية وتحتفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم ، وله في متحف لوكمبرج (وهو متحف كبار المصورين العصريين بباريس) عدة صور منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم (غداة رمضان) وكذلك له صور في متحف (بو) وكذلك في متحف (سدني) باستراليا وغير ذلك كثير .

وجميع صورء تدل على القدرة الفنية الكبيرة في رسم الصحراء وتصوير حياة الصحراء ، كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة . وهو ذو مركز خاص مشهود به بين إخوانه المصورين وامتاز عنهم بتخصصه في تصوير الحياة الاسلامية وبالأخص ما كان منها في بلاد الجزائر .

وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح حتى قيل عنه إنه المصور الفريد بين إخوانه الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل وهم يقولون عنه إنه المصور (العربي) .

وقد جاءت ترجمة للميسو (دينيه) وأعماله في معجم (لاروس) الكبير وفي معلمه (هاشيت) للفنون الجميلة وله عدة مؤلفات منها كتاب حياة العرب الذي ذكرناه ومنها كتاب السراب، وكتاب حياة الصحراء، وكتاب ربيع القلوب، وكتاب الشرق كما يراه الغرب . وكلها تشير إلى ما في طبيعته من الخلق الطيب وما يحمل في قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين .

ومن أهم كتبه ما جعله تاريخا لحياة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو السيرة النبوية في مجلد كبير جليل وضعه باللغة الفرنسية وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة ، من ريشته الخاصة يمثل فيها المناظر الاسلامية ومشاهد الدين ومعامله . وطبعه طبعا غاية في الاتقان والعناية حتى إنه بعد تحفة من تحف الطباعة كل ذلك تقديرا منه لموضوعه . ثم إنه قدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى وهي تحارب في صفوف الفرنسيين . ونشره كذلك باللغة الإنجليزية بنفس الحجم الكبير والاتقان التام :

والكتاب في طبعته قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية غاية في الدقة ، والإبداع ، وهي اللوحات التي قام بعملها خاصة لهذا الكتاب السيد محمد راسم الجزائري أشهر رجال الزخرفة العربية ، والذي أشار إليه المسيو الأزار الأستاذ بجامعة الجزائر ومدير متحفها وذلك في المحاضرة التي ألقاها في النادي الفرنسي بالقاهرة في شهر مارس سنة ١٩٢٩ ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية .

وما نظن أن العالم العربي قد قرأ للمسيو (دينيه) شيئا بالعربية قبل تلك الرسالة التي عربناها له (أشعة خاصة بنور الاسلام) والتي نشرت بمصر في هذا العام ، وهي التي جعلها بحثنا عصريا في مبادئ الدين الاسلامي وأراد إظهار هذه المبادئ واضحة جلية وأنها تفضل مبادئ المدنيات الحاضرة ، ولعل هذه الرسالة هي آخر ما كتب اللهم إلا إذا كان قد فرغ من (رحلة الحج) التي كان قد ذكر لنا أنه يشتغل بتدوينها بهمة ونشاط وذلك عقب عودته من بلاد الحجاز هذا العام بعد أن أدى فريضة الحج ، وإذا سمحت لنا الحقيقة أن نقرر شيئا فإنه ذكر لنا في كتابه إلينا أنه لاقى من التعب والمشاق الشيء الكثير رغم ملاقاه من التكريم والعناية الخاصة ورغم نسيانه المشقة في سبيل الله وهو يدعو إلى إصلاح وسائل النقل والصحة وتنظيم الحياة لأولئك الألوف من الحجاج الذين يأتون رجالا (وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) .

والسيو دينيه كاتب رقيق العبارة واسع الاطلاع لذلك هو صحيح الحججة ناهض البرهان ثم هو شديد الهجوم شديد الدفاع ، ذلك لأنه غيور على مبادئه الذي لم يتخذة إلا بعد بحث وتفكير . وقد أعلن إسلامه رسميا بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل عام ١٩٢٧ وطاب أن يدفن في قبره مسدا حنيفيا . وهو القبر الذي شيده لنفسه في بلدة (بوسعادة) بالجزائر وقد ذكرت الأهرام في تفرقاتها الخصوصية أمس أنه سينقل إليها من فرنسا وفق وصيته ، ويقول إنه لم يسلم لمطمع أو مغتم (والرجل غنى موثر الحال) وإنما أسلم إرضاء ليقينه وضميره وأنه ناقش الناصرين والظاعنين فخرج من (دينيه) إلى (ناصر الدين) .

وله في بيان فضائل الشرقيين عامة والدفاع عنهم جولات قلمية ولوحات تصويرية تشهد له باخلاصه في حب الشرق وتقوم دليلا على حبه للعدل والإنصاف . وقد استفتاه بعضهم عن أمر الشرق والغرب فكتب يقول إن الغرب يخطئ النظر إلى الشرق مع أن للشرق على الغرب أفضالا متواصلة في مدينته متفاعلة في حياته ذلك من أثر الدينيات التي هو مدين فيها للشرق ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التي منشؤها اليهودية الشرقية . ومن أثر الحياة الشريفة والهمة القعاء التي منشؤها أنظمة القروسية العربية . ومن أثر علم البحار وعلم السماء وعلم الأبدان وعلم الكيمياء التي ابتدعت أصولها العقول الشرقية .

ويقول إن الشرق لم يضر للغرب الإساءة ، وإن الغرب يخطئ إذ يظن أن الشرق لا يستحق العناية مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وأنه مع ذلك لا يحمل له إلا السلامة .

وهكذا يقوم السيد ناصر الدين دينيه رسولا للسلام بين الشرق والغرب ، وهو المثل الطيب لكل فرنسي يحب بلاده الأصيلة ويحب الشرق الجميل النبيل . ومع أنه قد اعتنق الإسلام وعاش مسلما ومات مسلما فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون مقما على العهد والإخلاص لبلاده المحبوبة وأن يجتمع حول نعشه رجال فرنسا الرسميون من الوزراء يذكرون حسناته ويؤنبونه أحسن التأنيب . ذلك لنبالة قصده ومثانة إنسانيته .

(راشد رسم)

هذه هي المقالة التي كتبها الأستاذ المذكور ، وإنما كتبنا تاريخ (السيو ايتان) لأنه توفي أثناء تقديم هذه السورة للطبع فكتبناه هنا تذكرا لقراء هذا التفسير ، ومحسن بنا أن نذكر شذرات من رسالته السماة [أشعة خاصة بنور الإسلام] وهي التي ترجمها الأستاذ المذكور . وإليك بيانها :

﴿ الشذرة الأولى ﴾

بما لا نزاع فيه أن التربة والسكان والواقع لها الأثر الكبير الفعال في نشأة الأمور وحياتها . وأن الشجرة الطيبة التي تزرع في أرض خبيثة تخرج ثمرا أضعف مما تخرج الشجرة الحبيثة التي تنبت في أرض طيبة ، كذلك كان الشأن مع المسيحية : فهي وإن ظهرت أنها تحكم العالم في وقتنا الحاضر فليس ذلك مرجعه إلى تعاليمها دون غيرها ، بل إن مرجع ذلك هو إلى ما تستفده من القوة المادية التي أوجدتها المستكشفات التي قام بها العلماء « الغرييون » ومن الغريب أن أغاب هؤلاء في ذلك هم من اليهود ، أو من اللاحدة والعطلين أو المشركين . بل إن منهم من حاربتهم المسيحية واضطهدتهم . خذ مثلا (جاليلة) الفيلسوف الإيطالي و(أيتين دولية) الكاتب الناشر الفرنسي وغيرها كثيرون ممن ذهبوا ضحية التعصب الدميم . وأمر غريب آخر . ألم نجد الأمم الأوربية التي تأصت بها المسيحية أن الضرورة قضت عليها بالتباعد عن روح مسيحيتها في سبيل المحافظة على مملكتها ومستعمراتها . انتهت الشذرة الأولى .

﴿ الشذرة الثانية . المعجزات ﴾

إن نبي الإسلام هو الوحيد من أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إنعام رسالته على المعجزات ، وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم . وفي ذلك يقول تعالى « وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » .

وقد نرى رينان أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع عدم اعتماده على مثل هذه المعجزات التي ينسكرها قد جاء بأكبر المعجزات مما هو شاذ في تاريخ الديانات كلها ، جاء بذلك الدين الحنيف الذي لم ينفك يزداد أنصاره كل يوم منذ ثلاثة عشر قرنا حتى بلغوا اليوم ثلاثمائة مليون من النفوس دون أن يكون له دعاة أو مبشرون .

على أن المعجزات التي تنسب إلى محمد ليست من نصوص القرآن ، وإنما قد نسبها إليه مؤرخو العصور المتأخرة تقليدا للمعجزات التي تنسب إلى المسيح ، فهي ليست من الدين في شيء .

وأما تلك الحرافات والمعتقدات الغريبة التي نشاهدها في بلدان الإسلام المختلفة فهي غريبة عن القرآن ودخيلة على الدين ولا تتفق مع شيء مما عرف عن رسول الله ذاته ﷺ . فقد جاء في الأثر أنه لما مات إبراهيم حزن عليه محمد حزنا عظيما . وحدث أنه ساعة دفنه كسفت الشمس فقال الدين من حوله إنها لمعجزة يا محمد فقد شاركتك الشمس في حزنك على ولدك . ومع أن النبي كان مأخوذا بالحزن الشديد فقد أنب القائل وقال « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته » .

ومن ذلك يتضح لنا أن الإسلام منذ البداية في أيامه الأولى قد أخذ في محاربة الحرافات والبدع . وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم إلى يومنا هذا . انتهت الشذرة الثانية .

﴿ الشذرة الثالثة — التسامح والرفق في الدين ﴾

إن القرآن ، دون الكتب المقدسة الأخرى ، هو الكتاب الوحيد الذي يأمر بالرفق والإحسان في الدين . جاء إلى الرسول أحد بنى سالم بن عوف واسمه الحسين ، وقال له يا رسول الله إن

لى ولدين مسيحين يأتين الدخول فى دين الله وإنى لجهرها على ذلك ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم
« لا إكراه فى الدين » .

وفى هذا الباب ماجاء فى سورة الكافرون : « لکم دینکم ولى دین » كذلك ماجاء فى سورة العنکبوت
« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالى هى أحسن » .

ومن الحقائق التاريخية أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى (أهل نجران المسيحين نصف مسجده
ليقيموا فيه شعائرهم الدينية) .

وها نحن أولا نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيون فى الدعوة إلى
دينهم ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التى لا تتحملها النفس والى يمجها الذوق السليم .

وقد أنصف (القس ميشون) الحقيقة فى كتابه (سياحة دينية فى الشرق) حيث يقول : إنه لمن المحزن
أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدم قواعد الرحمة والإحسان
عند الشعوب والأمم (١) .

زد على ذلك أن المسلمين يعمدون لعدى فى نفوسهم التبجيل والتعظيم ، فى حين أن أنصار المسيح يمتطرون
محمدًا وإبلا من اللعنات والسخطات ، الأمر الذى يدعونا إلى الدهشة والغرابة ، ذلك لأنهم أتباع يسوع
صاحب عظة الجبل والقائل بالمعفو والإحسان .

بل كيف يكون موقف المسيحية أمام هذا التسامح الإسلامى الشريف إذا ما ذكرنا رسالة القديس (أغسطين)
إلى الحاكم (بوتيفاس) وهو يبرر له فيها اضطهاد المخالفين وقتلهم متذرعًا لذلك بأن الديانات الأخرى تفعل مثل
ذلك قائلاً إنه لخير أن تقوم الكنيسة نفسها بذلك « لأن الكنيسة إن هى اضطهدت أحداً ، فإنما هى لا تقدم على
ذلك إلا مدفوعة بعاطفة المحبة » فما أعظم محبة الكنيسة ! وما أكرمها لأولئك الملايين الذين راحوا ضحية
« القديسة » محاكم التفتيش . وضحية القديس بارتلمى وغيرها من « القديسين والقديسات » الذين يستبيحون
المذابح والمجازر البثرية . انتهت الشذرة الثالثة .

﴿ الشذرة الرابعة — العلم ﴾

رفع النبى محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب وجعله من أول واجبات السلم . وفى ذلك يقول
« اطلبوا العلم ولو بالصين » يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء . شرار العلماء الذين يأتون الأمراء
وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء . فضل العلم خير من فضل العبادة (٢) .

وقد نظر المسيو (كاز أنوفا) أحد كبار أساتذة كولييج دى فرانس بباريس فى هذه الكلمات الغاليات
كيف يقولها أحد أصحاب الديانات فعلق على ذلك يقول : « يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون
تمثل آرائنا وهضم أفكارنا . يعتقدون ذلك وينسون أن نبى الاسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل
العبادة . فأى رئيس دينى كبير ، وأى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوى
الفاصل للتين ؟ هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة .

نعم إن هذا هو مبدؤنا اليوم ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت السكافة عندنا من أهل العقول تنظر
إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشار .

(١) نقلًا عن السكونت دى كاسترى فى إبعائه عن الاسلام (٢) الجزء الأول من كتاب الإحياء للغزالي .

كما أنه سوف يقال إن أرضح مبادئ الحرية الفكرية قد كشفت أمثال (لوثير) و (كالفين) وعادالفضل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع . ذلك هو صاحب شريعة الإسلام . انتهت الشذرة الرابعة .

﴿ الشذرة الخامسة — الحجر ﴾

ذلك هو الداء الفتاك وهو أحد الأمراض الاجتماعية الويلة في عصرنا الحاضر ، على أن محمدا هو الشخص الوحيد الذي أحس بالأثر السيء الشديد للخمر في النفوس ففاز به حق حرمة تحريمها تماما وقد فاز في ذلك فوزا كبيرا (١) .

« يا أيها الذين آمنوا إنما الحجر واليسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الحجر واليسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » سورة المائدة .

نعم إن من المسلمين من لم يعمل بذلك فهو يخالف الدين في تحريم الحجر تحريما قاطعا . غير أن الكثيرين من هؤلاء قد تركوها ثم تابوا وأتابوا وهم لم يفعلوا ذلك إلا بتأثير الدين نفسه وبما جاء فيه من النهي عن الحجر والأمر بالتحريم في حين أننا لم نسمع أن أحدا من المسيحيين الذين يدمنون الحجر قد تركوها أو عادوا عنها . ولا يخفى أن الأناجيل المسيحية ذكرت أن المسيح في أفراس (قانا) مלא من النبيذ ستا من قدر الماء تسع كل واحدة منها ما يقرب من سبعين إلى تسعين لترا بمكيالنا الحاضر .

كما أن الكنيسة قد جعلت (مونيكا) الأفريقية في عداد القديسات ، مع أنها كانت من مدمنات الحجر كما ذكر عنها ذلك ولدها نفسه القديس (أغسطين) في اعترافاته (٢) انتهت الشذرة الخامسة .

﴿ الشذرة السادسة — الوسيلة ﴾

الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الإسلام جميع الأديان ، إذ ليس بين الله وعبده وسيط ، وليس في الإسلام قساوسة ولا رهبان .

إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلائ على الأديان ، وإنهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم .

وقد أدرك المسيح نفسه ذلك . ألم يطرد [بائمي الهيكل] غير أن أتباعه لم يفعلوا مثل ما فعل ، واليوم إذا عاد عيسى فكم يطرد من أمثال بائمي الهيكل ؟

كذلك ما أكثر البلائ والمصائب بل ما أكثر المذامع والمجازر التي يكون سببها هؤلاء الوسطاء سواء كانت بين العائلات وبعضها أو بين الشعوب والشعوب . وهم في ذلك كله يصيحون : باسم مجد الله .

ثم إنهم قد عكسوا الآيات وبدلوا النيات ، وغيروا الأوامر والنواهي ، ولم يدركوا قصد عيسى ولا مرماه النبيل العالی ولا فهموا معناه الحقيقي حين يقول : [جئت لألقي نارا على الأرض . فإذا أريد لو اضطرمت ؟ أتظنون أني جئت لأعطي سلاما على الأرض . كلا أقول لكم : بل انقساما ، لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين ، واثنان على ثلاثة . ينقسم الأب على الابن والابن على الأب . والأم على

(١) وأما تجربة الولايات المتحدة في أمريكا في تحريم الحجر فلم تظهر نتائجها بعد ، إذ لم يمض على ذلك إلا بضع سنين .

(٢) عن الدكتور بينه سنجليه ، في كتابه [جنون يسوع] .

البنات والبنات على الأم^(١) .

وقد حرم الإسلام نظام هذه القداسة ومحا الولاية، ففي ذلك تلك الحرافات الضارة والمعتقدات الفاسدة وأزال آثارها وتأتجها .

وليس للمسلم أن يدعو الرسول ويتضرع إليه، وإنما له أن يدعو الله وحده لاشريك له . وقد يكون للمسلم أن يدعو الله للرسول ، ولكن لا يدعو الرسول لله ولا لداته .

كذلك يحرم القرآن الشفاعة وينكر الشفعاء . ويوم القيامة لا تسأل نفس إلا عن نفسها .
وأما ما نراه من الزوايا وأضرحة الأولياء فان ذلك لم يبق إلا بعد الهجرة بنحو قرنين من الزمان تقليدا للمسيحية . على أن ذلك لم يقبله العبيديون كما ألقاه الوهابيون أخيرا من مكة والمدينة وما إليهما . انتهت الشذرة السادسة .

﴿ الشذرة السابعة — الإله ﴾

الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلا بشريا، أو ما إلى ذلك من الأشكال . أما في المسيحية فان لفظ (الله) تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والأعلال [فمن تجاعيد بالوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسله مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والقناء] .

ونسمع القوم يصيحون (ليحيي الله) فلا نرى للفرابة محلا ، ولا نعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر . فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والقناء وكيف لا يطلبون له الحياة ؟

كذلك (ياهو) ^(٢) الذي يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر التهاكئة وكذلك تراه في متحف القاتيكان وفي نسخ الأنجيل المصورة القديمة .

أما (الله) في دين الاسلام الذي حدث عنه القرآن فلم يجرؤ مصور أو نحّات أن تجرى به ريشته أو ينحته إزميل . ذلك لأن (الله) لم يخلق الخلق على صورته ، وتعالى سبحانه فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ولم يكن له كفوا أحد .

وقد يقال لنا إن تلك الصورة التي وصفناها ، والتي يمثل بها المسيحيون الإله عندهم هي مما لا يرضى عنه أهل الدين السليم منهم . على أننا لو سلمنا بهذا الاعتراض جدلا فماذا هم قائلون؟ وليس في الكنيسة كلها إلا صلاة واحدة وقصيرة يخشون بها الإله (الأب الأزلي الدائم) . وأما الابن والأم وزوج الأم والصلب وقلب يسوع المقدس فلها كل الصلوات ولها آلاف الصور والتماثيل ذات الاحترام والإجلال . وكلها مقدسة عندهم مثل تقديس الوثنيين لأصنامهم التي تمثل معبوداتهم . انتهت الشذرة السابعة .

﴿ الشذرة الثامنة — علو الهمة ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علو الهمة من الإيمان » وذلك أنه لما كانت الشريعة الغراء قد ساوت بين الناس ، ولما كان لا بد للناس من مراتب ودرجات ، لم تجعل لأحد منهم فضلا على أحد إلا بعلو

(١) انجيل لوقا . الاصحاح الثاني عشر . ٣٩ - ٥٣ .

(٢) (ياهو) أي الله . وهي الأصل العبري .

الهمة في مكارم الأخلاق والتبيل والذكاء . وفي هذا فليتنافس للتنافسون . وأما ماجاء في الإنجيل من قوله : [من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا] فذلك ضرب من ضروب الحطة بالنفس والنزول بها والذهاب بكرامتها ، كما أنه تشجيع ضمني لأهل السوء . والحجبانة في أن يظهرها ويسودوا . وفكرة التسليم هذه والتساهل في شأن النفس وعدم الأخذ لها بالشدة ترجع إلى أصل هندي . ولذلك تسكن في طياتها تلك الأسباب المتأصلة التي أخضعت الهند الكبيرة لخير إنجلترا الصغيرة ، وليس عجيبا بعد ذلك أن نرى الانجليز يخرجون على تعاليم الكنيسة ولا يعملون بأوامر المسيح في عظة الجبل من السكون وعدم التعدي . انتهت الشذرة الثامنة .

﴿ الشذرة التاسعة - المساواة ﴾

لقد حقق الإسلام نظرية المساواة هذه بين القبائل والشعوب ، وهي النظرية التي لم تأت أخيرا إلا على يد الثورة الفرنسية . وهذا بلال الحبشي أقامه الرسول مؤذنا للمسلمين فكان العرب ، وهم من الشعوب التي تفخر بالأجداد والأنساب ، تسمع له وتسمى إلى الصلاة إذا ما أذن فبهم هذا العبد الحبشي . انتهت الشذرة التاسعة .

﴿ الشذرة العاشرة - مسايرة الطبيعة ﴾

لا يتمرد الإسلام على الطبيعة ، التي لا تقاب ، وإنما هو يسير قوانينها وزامل أزماتها ، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شؤون الحياة : مثل ذلك الغرض الذي تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة ، فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون أعزبا . على أن الإسلام لا يكفيه أن يسير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقا في إصلاح ونظام ورضاميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك (بالهدى) لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير والأمثلة العديدة لا تتوزننا ، ولكننا للتقصد نأخذ بأشهرها ، وهو التساهل في سبيل تعدد الزوجات وهو الموضوع الذي صادف النقد الواسع ، والذي جلب للإسلام في نظر أهل الغرب مثالب جمّة . ومطاعن كثيرة ومما لاشك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ، بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه . لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع ، وهو دين اليسر ، إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا . والذي فعله الإسلام أول كل شيء . أنه أخص عدد الزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد في الزوجة في قوله تعالى « وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » وأي رجل في الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات ! ولذلك كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وضعا هو غاية في الرقة والدقة واللفظ مع الحكمة . ثم انظر هل حقيق أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه ، وإلا فهؤلاء ، مثلا ملوك فرنسا (دع عنك الأفراد) الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام . إن تعدد الزوجات قانون طبيعي ، وسيبقى مابق العالم . ولذلك فإن ما فاعته المسيحية لم يأت بالعرض الذي أرادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الاغراء بجميع أنواعه . وكان مثلها في ذلك مثل الشجرة للعونة التي حرمت ثمراتها فكان التحريم إغراء . على أن نظرية التوحيد في الزوجة وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تتطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء .

تلك هي الدعارة ، والعوانس من النساء ، والأبناء غير الشرعيين . وأن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق . وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدينة الغربية . ومن الأمثلة القائمة على ذلك ما كان من أمر وادي (ميزاب) حيث تسكن القبيلة التي بهذا الاسم في بلاد الجزائر إذ لم تدخلها الدعارة إلا بعد ضمها إلى فرنسا عام ١٨٨٣ وقد وصل بها الحل اليوم أن أربع بلدان من مجموع كله سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الويل . وبما تزويه من هذا القبيل ماجاء في كتاب « الإسلام » تأليف (شمزدومولان) [إنه عند مغادر الدكتور مافروكوردانو الأستانة سنة ١٨٢٧ إلى برلين لدراسة الطب لم يكن لعاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة . كما لم يعرف فيها داء الزهري (وهو السفليس المعروف في الشرق بالمرض الأفرنكي) فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين أي سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال] . وفي ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا في حاضرة موحدة [إننا نرسل أبناءنا إلى أوروبا ليتعلموا المدينة الأفرنكية فيعودون إلينا مرضى بالداء الأفرنكي] على أنه من جهة أخرى نرى أن الطلاق قد يخفف بعض الشيء من أضرار هذا التعتن في القصر على زوجة واحدة . ولكن من جهة ثانية نرى أن الطلاق سبب من السيئات . إذن ماذا ؟ إذن أي الأدوية قد خلا تماما من بعض السميات ، على أن الكنيسة قد أساءت كذلك في مسألة الطلاق بمثل ما أساءت في أمر التوحيد في الزوجة . وذلك بمخالفتها أيضا لقوانين الطبيعة . انظر هل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا عن بعضهما صبورا ، وقد خاب ظنهما في الزواج ولم يدركا السعادة التي طلباها من وراء ذلك ، هل أشد من الحكم عليهما بأن يخلدا يقضيان بقية أيامهما في عذاب ونكد وشقاء ، كذلك إذا كان أحدهما عاقرا أو كان غير كفت . لزميله ، هل يحرم الآخر من أن يبني لنفسه بآخر وأن يقيم له عائلة من جديد ، وأتانا ونحن في صدد الطلاق لانفوتنا حكمة التشريع الإسلامي وهو يرى سوء في فوضى الطلاق فيسمع النبي الكريم يقول « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . انتهت الشذرة العاشرة .

﴿ الشذرة الحادية عشر - بساطة الصلاة والنظافة ﴾

إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات بساطة واطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها في صلاة غيرها . كما أنها لاتدعو الوجوه بالتظاهر والتكاف ، ولا العيون بالشخوص إلى السماء واستئزال الدموع التي تذكرنا بالدموع الجليسيرينية التي يصطنعها ممثلو السيدنا في عصرنا الحاضر . حقا إن الصلاة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة التي خصها المسيحيون بالصور المسيحية مما جعلها في غير جمال ولا جلال ولا وقار حقا إن الأقوال والحركات التي في الصلاة الإسلامية هي ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان ، وهي خالية من مبالغات الورع وتكافات الخضوع والتظاهر بذلك مما هو غريب في العبادات ، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما في الصدور وهو الغني العزيز . ثم إن من الأمور الغريبة تخصيص وجود الإله في السماء عند دعوته . وهذه الحال تحمل في طياتها إلحادا ، إذ تجعل السماء . منفاه ، وتنفي بذلك عنه صفة الوجود في كل مكان وحركات الصلاة الإسلامية ، فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو الولي الكريم . تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية . فهي مفروضة الأداء خمس مرات في اليوم الواحد . وكمن شيخ كبير وبدن سمين يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ، ولا مشقة مما لا يستطيعه مسيحي في مثل هذه السن أو في مثل هذه الحال مالم يكن قد استراض على ذلك من قبل . انتهت الشذرة الحادية عشر .

﴿ الشذرة الثانية عشر — الأذان ﴾

يتميز الاسلام في الدعوة إلى الصلاة بأن الإنسان هو الذي يدعو إخوانه إلى تأدية هذه الفريضة . وأن صوت الإنسان صوت طبيعي وهو أدهى إلى حمل العاطفة الإنسانية الصادرة من قلب المؤمن إلى إخوانه المؤمنين للقيام بأهم أركان الاسلام من أى آلة صناعية ومن القلب إلى القلب رسول الله .
هذا ماأردته من رسالة (السيو ايتان دينيه) المسلم الفرنسي والمصور الشهير . ثم انظر إلى ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم السبت أول فبراير سنة ١٩٣٠ م وهذا نصه :

المؤتمر الديني الدولي

(لخدمة السلام في العالم)

منذ نحو سنتين قام جماعة من رجال الأديان في (أمريكا) يسعون لانشاء مؤتمر ديني دولي يمثل مختلف الأديان والمذاهب في العلم بقصد خدمة السلام العام بواسطة الدين وعقدوا اجتماعهم الأول في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ م في جنيف تحت رئاسة الدكتور (شابلمانيو) رئيس الكلية الدينية في جامعة (شيكاغو) في الولايات المتحدة ، وكان الحاضرون ١٩١ مندوبا من بلدان مختلفة وأديان شتى ، وقد قرر المجتمعون إذ ذاك انتداب لجنة مؤقتة لتنظيم أعمال المؤتمر برئاسة الدكتور (مانيو) المشار إليه وألفت تلك اللجنة من خمسة وعشرين عضوا وجعل سكرتيرها الدكتور (اتكسون) من نيويورك ، وكان (١٢) من أعضائها يمثلون المسيحية وعضو واحد يمثل الإسلام ، وعضو يمثل الهندوس ، واثنان يمثلان دين (كونفوشيوس) واثنان لليهودية، وعضو يمثل البهائية، وعضو يمثل الشنتوا في اليابان . وعضو للبوذيين في سيلان . وعضو للثيوسوفية بهولاندا . وعضو للنجوس في الهند .

وقد تقرر إذ ذاك عقد مؤتمر عالمي للمسلم يبنى عمله ومساعدته على مبادئ الأديان التي ينتمى إليها أعضاؤه بدون أن يجر ذلك إلى المفاضلة بين مزايا هذا الدين على ذلك على أن يكون غرض الجميع واحدا . وأن يبنى هذا الغرض على المبادئ الآتية :

(١) أن يذكر كل ممثل لدين من الأديان تعاليم ذلك الدين فيما يتعلق باستقرار السلام ووجوب إحلاله محل الحُصام في العالم .

(٢) ذكر مجهودات الهيئات الدينية في سبيل نشر لواء السلام في العالم .

(٣) وضع القواعد التي يمكن السير عليها بصفة عامة لإزالة العقبات الحائلة دون استتباب السلام وانتصار الحق وضمان العدل بين الدول وازدياد محبة الخير العام .

(٤) انتهاز كل فرصة لاستثارة الشعور الديني في كل طائفة ضد روح العدوان والحُصام وكل ما يؤدي إلى الشجاء بين الأمم .

وقد عقدت بعد الاجتماع المتقدم اجتماعات متعددة في أنحاء مختلفة ولاسيما في أمريكا إذ يظهر أن فكرة المؤتمر الديني العالمي نشأت من هناك .

وآخر اجتماع للجماعة عقد في شهر أغسطس الماضي في مدينة مانسكفورت في ألمانيا تحت رئاسة الدكتور (شابلمانيو) حامل لواء المؤتمر . وقد حضره (٦١) عضوا يمثلون جميع الأديان الحية في بلدان العالم .

وفي هذا الاجتماع ذكر السكرتير الأمريكي أنه ساه في بلدان الشرق الأقصى وقابل فيها زعماء الأديان والمذاهب المختلفة وباحثهم في مسألة اتحاد المؤتمر الديني العام لمقاومة الحسام وإحلال السلام محله بين البلدان فأبدوا المشروع وجذوه .

وقد تقرر في اجتماع (فرانكفورت) انتخاب لجنة لتنظيم المؤتمر القادم وعقدته على أن يكون له ستة رؤساء وثلاثة عشر وكيلا اتدبت للتنفيذ ، وأنشئت للمؤتمر سكرتيرية رئيسية مركزها في (نيويورك) وأنشئت لها ثلاثة فروع في لندن وباريس وبرلين . وتقرر تعيين سكرتير في اليابان وسكرتير في الصين وواحد في الهند وواحد في الشرق الأدنى وواحد في البلقان وسكرتير لأوروبا الجنوبية ، ثم أصدرت الهيئة القرار الآتي :

قررت أن يعهد إلى اللجنة اتخاذ التدابير اللازمة لعقد المؤتمر الديني الدولي في سنة ١٩٣١ في إحدى بلدان الشرق وأن يدعى لحضوره ممثلو الأديان الحية في العالم .

وقد انتهى إلى حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا الذي أصبح علما من أعلام الشرق وقطبا من أقطابه كتاب من للستر عبد الله يوسف على الهندي الذي كان وزيرا للعالية في حكومة نظام حيدر آباد يلتمس فيه من سموه باسم لجنة المؤتمر أن يقبل رئاسة المؤتمر فيكون في مقدمة الرؤساء الستة الذين تقرر اختيارهم من كبار الرجال لرئاسته ويكون ممثلا للإسلام في الرئاسة ، وتلقى سمو الأمير أيضا كتابا من سكرتير المؤتمر الدكتور (نكتسون) الأمريكي ييسط فيه لسموه الأغراض النبيلة التي يسعى إليها القائمون بأمر هذا المؤتمر الديني الجديد ويقول إن البارون (ساكيتاني) الياباني والدكتور طاغور الشاعر الهندي الشهير سيكونان من الرؤساء الستة ، وإن الكنيسة الكاثوليكية ستختار عظيما من عظمتها ليكون من الرؤساء وأن الأستاذ (اينشتين) الألماني العالم المشهور سيكون رئيسا ممثلا لليهود ، والمفهوم أن الأمير الجليل لم يقرر حتى الآن شيئا بهذا الشأن اه .

ومما يناسب قوله تعالى أيضا «وسراجا منيرا» ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٨ يناير . ١٩٣٠ م وهذا نصه :

حالة العميان في مصر

وجهت جمعية العناية بالعميان في سان فرانسيسكو إلى وزارة الخارجية المصرية أسئلة طالبة الجواب عليها وأنها أحالتها إلى الجهات المختصة ، وفيما يلي نص الأسئلة وإجابة وزارة المعارف على كل منها :

(س) هل يأخذ العميان إعانة ؟ وما مقدارها ؟ وما وجه استحقاقها ؟ .

(ج) تدفع الحكومة الاعانات المختلفة لبعض معاهد العميان حسب درجة تقدم كل منها كما يأتي :

٧٠٠ جنيه لمدرسة العميان بالزيتون و ٢٥٠٠ جنيه لمدرسة العميان بالاسكندرية التابعة (لكونتس ميث) و ١٥٠٠ جنيه لمدرسة العميان الأهلية بالطيارين و ١٥٠٠ جنيه لمدرسة الكفيفات بالزيتون ، ويدفع بعض أعضاء الجالية البريطانية إعانات لسد نفقات ثمانية تلاميذ بمدرسة الزيتون بمعدل ١٢٠ قرشا في الشهر لكل تلميذ ، وتدفع سيدتان مصريتان إعانات لسد نفقات تلميذين آخرين بهذه المدرسة .

(س) كم عدد العميان تحت إشراف الحكومة ؟

(ج) يوجد (٨٠٠) طالب تحت إشراف الحكومة منهم (٢٠٠) بمعهد الأزهر بالقاهرة و ١٠٠ بمعهد أسيوط و ١٠٠ بمعهد الاسكندرية و ١٠٠ بمعهد طنطا و ١٠٠ بمعهدى دسوق والزقازيق و ٥٠ بمدرسة الزيتون للعميان و ٥٠ بالاسكندرية . أما الإناث فيوجد منهن ١١ تلميذة بقسم العميان السكائن بمدرسة تمرين معلقات بولاق التابعة لوزارة المعارف و ٣ بمدرسة الكيفيات بالزيتون . أما العميان الذين ليسوا تحت إشراف الحكومة فهم ٢٠٠ طالب بمدرستين في القاهرة إحدهما ببولاق والأخرى بشارع البيطار بالأزهر تحت إشراف لجنة إنكليزية برئاسة (الطران جون) و ٩ طالبات بكلية البنات الانكليزية ببولاق تحت إشراف اللجنة المذكورة و ٥ طالبات بمدرسة الأمريكان بالزقازيق و ٥ طالبات بمدرسة الأمريكان في المنصورة و ٤ طالبات بمدرسة الأمريكان بدمهور و ٩ طالبات بمدرسة الأمريكان بأسيوط و ٨ طالبات بمدرسة الأمريكان بالأقصر وكلهن تحت إشراف كلية الأمريكان ، ويبلغ مجموع العميان بالقطر المصري ١٥٥٠٠٠ منهم ١٠٥٠٠٠ ذكور و ٥٠٠٠٠ إناث منهم نحو ١٠٠٠ تحت إشراف الحكومة وجماعات مختلفة والباقي يحترف قراءة القرآن في المنازل والحيوانات إذا كانوا مسلمين ومرتلين في الكنائس إذا كانوا مسيحيين .

(س) هل بذلت الحكومة مجهودا لتعليم العميان صناعة ، فإن كان كذلك فما درجة نجاحهم ؟

(ج) ابتدئ في تعليم العميان الصناعات سنة ١٨٩٦ ولكن نجاحهم فيها متوسط بالنسبة إلى قلة الإعانات .

(س) هل توجد مصانع يقدم فيها العميان على غيرهم ؟

(ج) لا توجد صناعات مشتركة بين الأعمى والبصير بل توجد مصانع خاصة بالعميان فقط وهذه المصانع هي مصنع للسلال والكراسي بالمدرسة الاكليريكية القبطية بمهشة ، ومصنع السلال والكراسي والسجاد بمدرسة العميان بالزيتون ، ومصنع للسلال والكراسي والفرش بالاسكندرية تحت رعاية (السكوتس ميث) ومصنع للسلال فقط بالاسكندرية تابع لجمعية أهلية ، ومصنع للشيلان والجوارب والسلال التي تصنع من الحرز والسلال بكلية البنات الانكليزية ببولاق وهو خاص بالبنات فقط ومصنع للسجاد والكراسي والسلال بقسم العميان بمدرسة معلقات بولاق التابعة لوزارة المعارف .

(س) ما نوع الأشياء التي ينتجونها ؟

(ج) الأصناف المنتجة هي السلال ، وهي تصنع من الغاب الهندي والصفصاف والكراسي الخيزران المصنوعة من الغاب الهندي والصفصاف والكراسي التي تصنع من قلب الخيزران وقش الباسم وقش الأرز

(س) أي الأصناف من أعمالهم وجدت رواجاً في الأسواق ؟

(ج) الأصناف الرائجة هي السلال بجميع أنواعها والكراسي وأطقم القش والفرش .

(س) ما هي الطرق التي تتبع في عرض منتجات العميان في السوق ؟

(ج) تعضد الحكومة هذه المصانع بشراء ما يلزم لها من السلال وغيرها لمصالحها وتعرض هذه المصنوعات في المعرض الدائم لمصلحة التجارة والصناعة .

(س) أي النسبتين أكثر في العميان نسبة الذكور أم نسبة الإناث ؟

(ج) تزيد نسبة الذكور على نسبة الإناث كما هو مبين في الإجابة عن السؤال الخاص بعدد العميان :

(س) أي الجنسين أكثر استعداداً لتحصيل التكسب ؟

(ج) الذكور أكثر استعداداً للتكسب بما يبذل من المجهودات لتعليمهم ، وعند الحكومة مشروع

لتوسيع نطاق العميان بالقطر المصري ، وقد أنشأت الوزارة فعلاً كما لتخرج معلقات لهذا النوع بمدرسة

المعلمات الأولية الراقية بيولاق في سنة ١٩٢٧ م وأتم الدراسة في هذا القسم (١٣) طالبة سيتخرجن في نهاية هذا العام وألحقت بهذا القسم فرقة من الضريرات ليكن بمثابة أداة تمرين للطالبات وعلى ذلك أرسلت الحكومة إلى إنجلترا بعثة للتخصص في فن تعليم العميان مؤلفة من طالب وطالبة .

(س) مامقدار متوسط ما يكسبه أحدهما في الأسبوع أو الشهر .

(ج) يبلغ متوسط كسب الذكور في الشهر أربعة جنيهات والإناث جنيتين .

(س) هل تمدون العميان بالإعانة ، وإن كان كذلك فما هي الطريقة التي تتبعونها ؟

(ج) توزع الحكومة إعانات حسب مقدار نجاح كل مدرسة من مدارس العميان .

(س) هل توجد ملاجئ للعميان وأى الجهات تنفق عليها ؟

(ج) لا يوجد للعميان سوى ملجأين أنشأتهما الحكومة للأيتام أحدهما بطره ، والآخر بالعربية يقبل

فيهما العميان ، وملجأ للعجائز بشرا تابع للحكومة الإيطالية يقبل فيه العميان أيضا وملجأين للناث تابعين لسلكية الأمريكان أحدهما في فم الخليج والآخر بأسبوط يقبل فيهما العميان .

(س) أى الصناعات وجدت أكثر فائدة على العميان الذين دربوا تدريبا راقيا ؟

(ج) صناعة الفرس والسلال والكراسي .

هاتان الرسالتان رسالة المؤتمر الديني ورسالة جمعية العناية بالعميان توجبان دقة النظر والملاحظة (أولا)

إن خدمة السلام العام لم تقرأها في التاريخ قبل النبوة المحمدية ، فإن الإسلام هو الذي أيقظ الأمم شرقا وغربا وبشباط حركته حرك الأمم في اختراع الآلات والقطارات والطائرات فتقاربت الأمم ، وهذا من أسرار كونه صلى الله عليه وسلم سراجا منيرا ، وأيضا يذكرنا هذا بآية - حتى تضع الحرب أوزارها - وإن علماء الإسلام يقولون « إن الحرب سيفضى عليها » (ثانيا) إن إرسال جماعة من أميركا رسالة للمحافظة على العميان في مصر المسلفة يدل دلالة واضحة أن إشراق النور النبوي قد أثر بطريق غير مباشر في أمم غير مسلمة والأمم المسلمة نائمة وهذا عار فكان الأحرى بهذه الأمم الاسلامية أن تكون هي آباء للأمم كلها لا أن يكونوا أذنانا . وسيكون في أمم الاسلام بعد الآن نهضة فكرية يرقى بها نوع الانسان . تم الكلام على اللطيفة الرابعة .

(اللطيفة الخامسة)

(في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم »)

اعلم أن بين القول والعمل مناسبة وصلة تظهران في هذه الآية ، إن الإنسان يعقل الأشياء وتصدر عنه تلك الأشياء من منفذين : منفذ اللسان ، ومنفذ الأعمال ، فهما فرعان لأصل واحد ، ونظام أحدهما يؤثر في الآخر ، فما من قول نقوله إلا وله آثار في أعمالنا ، وكما كان القول أحكم كانت الأعمال إلى الصواب أقرب ، لأن الدربة على الفضائل تكون في النفس ملكة تكون مصدرا لها من بعد ، فكل فضيلة في اللسان أو في الأعمال تحدث في القلب أثرا ويتوالى الآثار تتأسس الملكات ، ومن الملكات الفاضلة تكون الأعمال الشريفة وملكة اللسان في الصدق وفي حسن القول تؤثر في النفس آثارها فيتعدى ذلك الأثر إلى الأفعال فتنتظم ، إن الأعمال والأقوال فرعان للنفس والقول أسهل ونزعته أشد وجراحاته أنكى وسهامه أنفذ وخطره عظيم . وفي الحديث « وهل يكب الناس في النار على وجوههم يوم القيامة إلا حسانهم » انتهت اللطيفة الخامسة .

﴿ اللطيفة السادسة ﴾

(في معنى قوله تعالى « وحملها الإنسان »)

جاء في الفيروز ابادى ما نصه : قوله تعالى « فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان » أى أن يحنّها وخانها الإنسان . قال : والإنسان هنا هو الكافر والمنافق هـ .
وهذا المعنى واضح والحمد لله رب العالمين . انتهت اللطيفة السادسة .

﴿ اللطيفة السابعة ﴾

(هذه اللطيفة عامة في السورة كلها وفيها قبلها وبعدها)

ذلك أن الله تعالى يقول فيها « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود » الخ . ذكر الله المؤمنين بنعمة الله عليهم إذ نصرهم في غزوة الأحزاب ، كما ذكر قوم موسى بنجاتهم من فرعون وهذا تذكّر جزئى وإلا فكيف من نعم ؟ إن الناس يتقلبون فيها صباحا ومساء ، فأجسامهم مثلت حكمة وهم مغمورون في ضياء الشمس ونور القمر والكواكب والهواء وعندهم نبات وحيوان وما لا يعدّ ولا يحصى وإنما هذه يعرفها العامة والخاصة لأن أكثر الناس لا يشكرون الله إلا على النعم الخاصة كالنصر في هذه الغزوة وإلا فالنعم لانهاية لها ولذلك أردف هذه السورة بسورة سبأ البدوءة بالحمد لله ، وعلل الحمد بأن له ما فى السموات وما فى الأرض وأنه محمد فى الآخرة وحده ، ومقتضى هذا أن نعم الدنيا والآخرة له وهو يحمد عليها لأنها كلها واصلة إلينا ، فليس الحمد لله خاصا بالنصر فى الأحزاب (انظر هذا المقام فى أول السورة الآتية) ثم تفسير سورة الأحزاب يوم الثلاثاء ٢٤ مارس سنة ١٩٢٥ م ٢٨ شعبان سنة ١٣٤٣ هـ والحمد لله رب العالمين .

﴿ تفسير سورة سبأ ﴾

(هي مكية)

(إلا قوله تعالى « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبشكم إذا مزقتم كل ممزق

إنكم لفي خلق جديد » الآية)

آياتها ٥٤ — نزلت بعد لقمان

(هذه السورة قسمان)

[القسم الأول] في تفسير البسملة .

[القسم الثاني] في تفسير السورة كلها .

﴿ القسم الأول : في تفسير البسملة ﴾

لك الحمد اللهم على ما أوليت من نعمة العلم وأوفدت من آثار العرفان ، وهديتنا إلى ما نحن بصدده من تفسير آيات كتابك ، وألهمتنا أن نذكر أنفسنا والأمم الإسلامية برحمتك الواسعة التي كررتها في أول كل سورة من كتابك تفتح بصائرنا إلى عجائب حكمتك وبدائع صنعتك وبواهر خالقك وجواهر نظمك ، فحمدناك على ما في سمواتك وأرضك ، وعلى ما فتحت من بصائر هذه الأمة الإسلامية الحاضرة والمستقبل بما أنزلت في هذه السورة من غرائب ما تخرج من أرضك في زماننا من أنواع المعادن وأصناف الحزائن التي أودعتها أم قبلنا كأهل سبأ ذوى الجذ والشمير وأصحاب الجنتين اللتين عن يمين وشمال وأهم لما حفظوا نعمتك وحافظوا على هبتك أقيمتهم ، ولما كسلوا عن ذلك الحفظ وتقاطعوا أدينتهم في حفرة الهلاك وأذقهم سوء النكال والذي يدلنا على ذلك تلك الرسوم للصورة التي أخرجت من أرض سبأ في زماننا تذكيرا للملوك الجبن وعلماء الجبن وعظماؤه أن في بلادكم نعا إن استخرجتموها أقيمت بلادى بأيديكم وإلا فأرضي أعطيها لمن يستخرجون منافعها ويحفظون نعمها ويسعدون بها عبادى ، فليس من العدل أن يكون أتباع خاتم الأنبياء أقل شكرا للنعم من أولئك الذين كانوا يعبدون الشمس من دون الله ، كل ذلك الإيقاظ والتحذير من رحمتك الواسعة التي صاحبها العلم بكل جليل ودقيق .

ومن رحمتك الواسعة المذكورة في البسملة أنك أفدتنا في قصة داود وسلمان أن شكر نعمتك والقيام بخدمتك ليس قاصرا على العبادة ولو كانت الجبال مؤوبات مع العابدين ، مرددات لتلك الصلوات ، مرتلات لتلك التسبيحات ، فمن حق الشاكر أن يقوم بما يقدر عليه من الصناعات ويتقنها كإذابة الحديد وصناعة الدروع واستخدام الريح ، ومن أجل الرحمت على المسلمين اليوم أن يعلموا أن ماتلقية الأرواح من الأقوال لأهل الأرض أثناء تحضيرها ليس حجة قاطعة فهم لا يعلمون الغيب وليس يدعيه منهم إلا أرواح صغيرة ضيقة العطن قليلة الفطن ، ومن الرحمة التي ظهرت آثارها في الأرض بعد النبوة أنك أعلنت في هذه السورة أن نبينا صلى الله عليه وسلم مرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا وان أكثر الناس لا يعلمون وأنت المختص بعلم ذلك ولقد ظهرت تلك الآثار لنا عيانا وصدق وعد الله . ومن اطلع على مؤلفات الفرنجة في انتشار الاسلام في أفريقيا عند خط الاستواء وفي شماله وجنوبه يدهش إذ يسمعون يبرهنون على أن هذا الدين لا ينتشر بالسيف بل بالهبة

والمودة والاخلاص وأن اتهام قومهم في أوروبا بأن انتشر الإسلام إنما كان بالسيف ضلال مبين، ولقد وجدوا في أفريقيا ملوكا عظاما وأعظمهم قبائل بيض الوجوه لهم السلطان والسيطرة وهم في احتلالهم أرض غيرهم وحماتهم لهم سياسة أشبه بسياسة الأوروبيين ، فعلم الأمم الإسلامية بهذه المزايا وبما انطلوت عليه آيات السورة في زماننا من أجل النعم التي سنثير العزائم وترفع الأمم الحالية إلى أوج العلا ويخرج جيل إسلامي جديد أعز نفوسا وأرقى عزائم وأعلم بما أبدع الله في أرضه وما خلق في سمائه ، هنالك تصلح الأمم الإسلامية لعارة الأرض ولحب ربهم والهيام به والغرام بعمله ، هنالك يشكرونه فلا يكفرونه ويذكرونه ولا ينسونه ويصبح خاصتهم بما يرون من العجائب في هذه الطبيعة الأرضية والسموات ناطقين في قلوبهم بمنزل ما ذكره (السكونت هنري دي كاستري) عن بعض علماء الإسلام [رب إن الجنة لا ترجى إلا لرؤيتك فيها ، ولولا نور ذاتك البهية لعفاها] وما نقله هو أيضا عما يؤثر عن (الشيخ القشيري) في القرن الرابع الهجري [إلهي إنك تهديني بفراق يحرمني على الدوام من تجلياتك البهية ، فيارب اصنع بي ما تشاء ولا تحرمني من مشاهدتك العلية ، فليس سم أمر مذاقا وأشد قتلا من ألم هذا الفراق ، وما حيلة النفس بغير ربها إلا أن تعيش في فزع وتبقى في حيرة واضطراب . رب إن النفس لترضى بأن تذوق الموت مائة ألف مرة ولا تذوق حرقة فرقتك مرة واحدة . رب إن مصائب الدهر وجميع الأمراض القتالة لو اجتمعت على لاحتمائها غير متوجع من موقعها ولكن لا طاقة لي على احتمال بعدك عني ، رب لو احتجبت عنا برهة أقفلت أرضنا وغاضت أنهارنا فماذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب ؟ لولاه لما أحرقت نار الجحيم واشتد لهبها ، رب إن في تجليك حياتنا وكال سعدنا ونعيمنا وفي احتجابك عذابنا وجحيمنا] اه الكلام على تفسير البسملة وهو القسم الأول .

﴿ القسم الثاني في تفسير السورة ﴾

(مقدمة)

اعلم أن في مبادئ السور حكما غالية وإشارات عالية ورموزا شريفة ، ألم تر إلى (سورة الفاتحة) كيف ابتدأها بعد البسملة بالحمد لله على تربيته للعالمين وقد شرحت الترية هناك ونظامها وتناسقها وعمومها في العوالم كلها ، فهناك تربية العوالم إجمالا ، وأما (البقرة) ونحوها فهناك نكتة لطيفة وهو ابتداء السورة بحروف (الم) ولها فضلا عما ذكر أول آل عمران [إشارتان بديعتان : الأولى] أن الحروف الهجائية هي العناصر الأولى لكل كلام نظم أو نثر ، ولن يفهم الكلام حق فهمه إلا بالرجوع لحروفه وتحليله وتقطيعه حرفا حرفا ، فلن تكون علوم البلاغة ولا الصرف ولا النحو ولا سائر العلوم العربية إلا بارجاع الكلمات لأصلها وبمغنها وتقاييها على جميع وجوهها بالتصريف وغيره . وإذا كان ذلك كذلك في علوم اللغة فأحرى أن يكون في علوم السكون من الطبيعيات والرياضيات فلا هندسة إلا بتحليل البراهين والرجوع لأصولها . ولا حساب ولا جبر ولا فلك إلا بتحليل الأعداد ومعرفة الأولية وغير الأولية فيقال عدد (٥) أولى و (٤) زوجي و (٧) أولى وهكذا تعرف جميع الأعداد وبمعرفة ما تركب منها وهكذا في الكيمياء والطبيعة فهل تعرف المركبات من الحيوان والنبات إلا بتحليلها . وهل يعرف الناس مركبا صناعيا إلا بارجاعه إلى عناصره الأولى .

هذا هو الذي يشير له ذكر الحروف في أول السورة كسورة البقرة وآل عمران والرعد والروم والعنكبوت وغيرها وهذه النكتة عامة . وهناك لطائف خاصة كأن يقال في البقرة مثلا (الم) هذه حروف جاءت في قوله تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » الخ ، وقوله « ألم تر إلى اللأ من بني إسرائيل من بعد موسى » وقوله « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه » .

فانظر كيف أتى بقوله « ألم » للاستفهام الاقراى في مسألة الحرب والدفاع عن البلاد وفي مسألة النظر في العوالم ونظامها وتحليلها كما حال إبراهيم الطير وركبه وذلك هو العلوم الطبيعية فكأن (الم) تنبيه على ذلك ، فكأن الله يحث المسلمين بهذه الحروف على معرفة الكائنات بحثاً وتدقيقاً وتفكيراً وتحليلاً وتركيباً .

هذا ما ذكره لك في البقرة وفي كل سورة مبدوءة بالحروف المقطعة كما تقدم بعضه في الروم وما قبلها وما بعدها . فانظر إلى الابتداء بالحمد . قد رأيت الابتداء بالحمد لله في سورة الفاتحة ثم في سورة الأنعام ، ففي الفاتحة يحمد الناس ربهم على التربة الاجمالية لأن السورة افتتاح للقرآن ولكن في الأنعام الحمد لله على نعمة السموات والأرض والظلمات والنور ففيها بعض التفصيل وإظهار الجمال وبدائع النور البهيج البديع المشرق في العالم كله والحمد في أول (الكهف) على نور العلم كما كان في الأنعام على نور السكواكب وإشراقها . وههنا ابتداء السورة بالحمد على أن لله مافي السموات وما في الأرض وليس الحمد خاصا على النجاة من الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وللمؤمنين ونصر الله المسلمين عليهم . يقول الله : إن لي مافي السموات وما في الأرض وأنا محمود عليهما . إن كل عبده انتفاع بجميع العوالم . فالنعم المشتركة ينتفع بها الجميع . إن إدراك نعم الله وعمومها أعظم سعادة للمدرس لأنه يرى مالا يراه غيره . ولذلك يكون سعادة أهل الجنة باصطلاحهم على خزائن إبداعه ويدركون الحقائق ثمانية وهو قوله « وله الحمد في الآخرة » الخ ، وأما قوله « يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » فاعلم أنه كما يشير في أول سورة الروم والعنكبوت والبقرة بالحروف الهجائية إلى أمور هامة في السورة كعجائب التحليل المذكورة في قصة إبراهيم في سورة البقرة وكيف بدأ الله الخلق في سورة العنكبوت ونحوها . هكذا هنا قال الله « يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها » يشير بذلك إلى ما سيذكر في هذه السورة من الكشف الحديث . يريد الله أن يقول للمسلمين أنا لم أهتم عبادة أيام مجد الأوائل من سبأ وقحطان والتابعة أن يكتبوا على الأحجار ويصنعوا لها إلا لعلى أنها ستخرج لعبادي في هذا الزمان . إني أهتم الأوائل أن يدخلوا في الأرض مصنوعاتهم يكتبوا أخبارهم على أحجارهم لأخرجها لعبادي للتأخرين فيعرف الآخرون ما ترك الأولون عظمة واعتبارا وحكمة .

ستقرأ أيها القاري ما كشفه العلماء الألمان والنمساويون والانجليز وغيرهم في أصقاع (سبأ) والمسدون لا يشعرون . دفن الله ذلك هناك ليرينا آثارهم فقال « يعلم ما يبلغ في الأرض » كذلك الآثار التي أولها في أرض (سبأ) وما يخرج منها كما تخرج تلك الآثار اليوم كما سترها في هذه السورة . فانظر لماذا ابتداء هنا بذلك . انظر أنه لم يذكر كذلك في أول سورة إلهة . انظر كيف بدأ بالحمد على أن له مافي السموات وما في الأرض ليدلنا على أنه ليس النصر على الأحزاب هو النعمة وحدها . إن النعم كثيرة فاحمدوا الله عليها . ثم ذكر الولوج والخروج في الأرض ومنها ليدلنا على ما سيأتي ذكره في السورة من علوم تلك الأمم في أرض اليمن . وأما قوله « وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » فإنه يشير به إلى نكتة أدق وحكمة أشرف ونور أصفى وعلم أعلى وبهاء أجلى وجمال بهيج .

ذلك أنه قد ذكر في (سورة النور) أن من الحيوانات ما يمشي على رجلين . ومنه ما يمشي على أربع وذكر النمل بعد ذلك وهو يمشي على ست ، وذكر العنكبوت بعد ذلك وهو يمشي على ثمانية أرجل ولم يذكر العدد لأن أكثر الناس لا يفتنون لذلك ولكن جعل ذلك خزائن محزونة في القرآن حتى يأتي هذا الجيل الاسلامي الجديد القبل فيتغلغل في الحكمة والعلم ويدرس الوجود ويقول انظر يا أخى . انظر كيف خبا لنا ربنا

العجائب في القرآن . انظر كيف جعل (٢) و (٤) من أرجل الحيوان في سورة النور و (٦) في سورة النمل و (٨) في سورة العنكبوت بالترتيب ولم يعلن ذلك لعلهم جهل الناس وخبأه لنا لنعرفه . ثم انظر كيف جاء في هذه السورة وقال « يعلم ما يلبج في الأرض وما يخرج منها » وقد عرفت رمزه . ثم قال « وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » وما ينزل من السماء ويعرج فيها الملائكة . وسيأتي في (سورة فاطر) بعد هذه أنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ثم قال « يزيد في الخلق ما يشاء » .

لم يذكر الله فوق الرباع في القرآن لأن الناس لم يعرفوا من الأجنحة فوق الأربع ولا من الأرجل فوق الأربع لأنهم لم يدرسوا ولم يفطنوا إلا قليلا فذكر أنه « يزيد في الخلق ما يشاء » كأنه يقول إن للملائكة أجنحة فوق الأربع لاعدد لها والزيادة في الخلق لا تختص بأجنحة الملائكة فهكذا في أرجل الحيوان التي ذكر منها أربع يزيد فيها ما يشاء .

ومعلوم لك أن هناك من الحيوان ماله أربعون رجلا فأكثر فهذا من زيادة الخلق كما يشاء الله تعالى . انتهى الكلام على المقدمة .

﴿ تفسير السورة ﴾

فلاشروع في تفسير السورة ولأجعله فصولا ثلاثة [الفصل الأول] في تفسير الألفاظ بطريق الإيجاز . [الفصل الثاني] في جعل السورة ستة مقاصد وتفسيرها تفسيرا عاما كنت كتبت منذ عشر سنين في بعض المجالات العلمية [الفصل الثالث] في معجزات القرآن التي أظهرها العلم الحديث في مسألة الجن وأنهم لا يعلمون الغيب ، ثم كيف كان سد العرم لا تزال آثاره باقية للآن وكيف أظهر أسرار تلك البلاد علماء أوروبا والمسلمون نائمون هائمون ، إن ذلك كله معجزات للقرآن ، وكيف ظهرت مسألة الجن في علم الأرواح ولا علم للمسلمين بذلك ، ولعلك تعجب حين ترى خريطة السد المذكور في القرآن كشفها الأورويون (مع أن القرآن كتبهم والبلاد ملكهم) وهم لا يعلمون بذلك ولا يشعرون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الفصل الأول في تفسير ألفاظ السورة كلها

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلْبِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ يَا رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ
عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ
وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ

أَيْمٌ * وَيَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ
 الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُوكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُدْبِكُمْ إِذَا مِزَقْتُمْ كُلَّ
 مِزْقٍ إِنَّكُمْ لِنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشَأَ نُحُفٍ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ
 وَالنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ أَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *
 وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوْاحها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ
 بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْنُ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ
 مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا
 وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
 تَأْكُلُ مِنْ عَسَاكِهِ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجُنُودُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا ابْتِشَوْا فِي الْعَذَابِ
 الْمُهِينِ * لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ
 رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
 وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ
 بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
 فَرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ
 بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا
 فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ *

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ
 قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ
 وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَنَلِيُّ مَدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا
 نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ * قُلْ
 أَرُونِي الَّذِينَ أَخْلَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الذَّزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
 لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ
 إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ *
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ
 الظَّالِمُونَ مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا
 لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا
 أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا
 لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا
 وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ
 إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
 كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ
 الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا
 أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ
 الضَّعْفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ
 فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا
 أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ
 لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا

يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * وَإِذَا تُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا يَتَّبِعْتُمْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ آبَائِكُمْ وَقَالُوا
مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ *
وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * قُلْ
إِنَّمَا أَعْطَكُم بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ
إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمَ الْغُيُوبِ *
قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنْ
أَهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا
مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَٰوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ
مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ *

(التفسير اللفظي)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) أي إن كل نعمة من الله فهو الحقيق بأن يحمده ويثني عليه من أجلها (وله الحمد في الآخرة) كما هو له في الدنيا لأن النعم في الدارين كلها منه ، وحمد أهل الآخرة راحع لانكشاف الحقائق لهم فيكون الحمد على مقدار العلم وهو عزيز ، ويرمز إليه ما ورد « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والحمد كما تلهمون النفس » (وهو الحكيم) الذي أحكم أمور الدارين فاستحق الحمد لذلك (الخبير) بيواطن الأشياء (يعلم ما يبيع في الأرض) كالغيث ينفذ في موضع وينبع في آخر وكالكنوز والدفائن والأموات (وما يخرج منها) كالحيوان والنبات والغازات وماء العيون وما استخرجه علماء أوروبا من بلاد [سبأ] الآتي ذكرها ، وذلك ما أشار به العالم الألماني ميخائيلس التوفي سنة ١٧٩١ على ملك الدانمارك أن يرسل بعثة إلى بلاد اليمن ففعل سنة ١٧٥٦ وأرسلها فعمرت بعض النقوش وقال إن اليهود والعرب لا يتقنون على قراءتها ، وأول من فكر في ذلك الألمان فالانكليز فالفرنساويون ومنهم العلامة أرنو كان في اليمن سنة ١٨٤٣ وعاد معه ٥٦ نقشا نقلها عن آثار صنعاء والحربية ومأرب وحرمة بلقيس ، وأيضا أحضر خريطة سد مأرب وهو أول من تمكن من مشاهدة آثار ذلك السد ، فلهذا ذكر الله هنا ما يبيع في الأرض وما

يخرج منها لعله بما سيحصل في بلاد الاسلام وأن الأمة الاسلامية سيدولها الانحطاط وتصبح غيبة جاهلة
ويأتى الفرنجة يبحثون عن أسرارها وأهلها ناعون عابثون جاهلون جامدون كما حصل في هذه القرون إذ
يكون تفسير هذه السورة ومعجزاتها وسد ما رُب المذكور فيها والجنان كل ذلك مطعور مخزون في الأرض ،
ومن المسلمين من يقرأ القرآن وهو جاهل « كالخمار يحمل أسفارا » والفرنجة يأتون فقراءون ويتعلمون
تاريخ أسلافنا ويرون أنهم كانت لهم مدينة عظيمة ويرون أبناءهم التابعين لأعظم نبي أصحوا جاهلين بكل
شئ ، بتاريخ أسلافهم ، بمعاني كتابهم ، علم الله ذلك كله قبل وقوعه فقال « يعلم ما يبلغ في الأرض وما
يخرج منها » مشيرا إلى ما سيأتى في هذه السورة ، يقول الله إنهم ما أولجوا آثارهم في الأرض إلا ملئوا
أخرجها الفرنجة إلا بعلى لأى لا أفعل إلا الحكمة ، انظروا الفهم كيف خزنته في الأرض قبل أيك آدم
وأخرجته لكم الآن . هكذا خزنت عجائب سبأ وقوشهم وأمرت أهل أوروبا فاستخرجوه ووضعته هذه
الآية في أول هذه السورة لأبنة المسلمين أن يستيقظوا ويتعلموا علوم الأمم ويبحثوا على ما خبأته في الأرض
إني خبأت في الأرض عجائب طبيعية وصناعية ، فلئن لم يفتن لها المسلمون ويستخرجوها فوعزتي وجلالي
لأخرجنهن منها ولأملكنها لغيرهم ، إني لا أعطى العمة إلا لمن يستحقها فان تام المسلمون فلأمنعن عنهم نسيم
الحياة وأسلط عليهم الأمم ، أنا كترت هذه السكوز كما كترت للقيمين في المدينة كثرنا ولما بلغنا أشدها أخرجته
لها ، هكذا المسلمون كانوا أيتاما جهالا فاذا بلغوا الرشد في هذا الزمان سلمتهم الأمانة المخزونة في الأرض
حتى يعرفوا مجد القديما ، ويستفيدوا من علومهم ويزيدوا عليها وتكون لهم مدينة أرقى من مدينة أولئك
الأمم ، وإلا أسكنت الأرض غيرهم ويكونون خيرا منهم . إني عدل رءوف رحيم حكيم عليم ، ما خلقت خلقا
عبثا ، أنا الحكم العدل لا أحميد ولا أميل وأعطى النعمة لمن يفهمها وأطرد عنها من لا يعقلها .

يقول مؤلف الكتاب : إن هذا التفسير وأمثاله جعل تنبيها للمسلمين حتى يفتنوا وهو أشبه بمنبه عام ،
فعلى كل ذكى أن يسير على هذا النور ويوقظ الأمة فان كل من قرأ هذا القول مسئول عن أمته فليتواصوا
بالحق وليتواصوا بالصبر ، وإني لعلى رجاء عظيم أن يهدى الله بهذا التفسير أئمة وعبي قلوبا ويشرح صدورنا
ويسعد دولا إنه هو الغنى الحميد وقوله تعالى (وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والمقادير والأرزاق
والطرر والأنوار والصواعق ، وبالجملة أكثر ماجاء في علم الآثار العلوية من علوم الفلاسفة الطبيعية وعددها
ثمانية مذكورة في كتاب الفلاسفة الذي جماعته مختصرا للناشئين (وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأبغرة
والأدخنة والطيارات والمناطيد الجوية (وهو الرحيم الغفور) للمفترطين في شكر نعمه مع كثرتها (وقال الذين
كفروا لا تأتينا الساعة) إنكارا لها واستبطاء واستهزاء (قل بلى) رد لسكلامهم (وربى لتأتينكم عالم الغيب)
لا يفوت علمه شئ من الحفريات (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا
أكبر إلا في كتاب مبين) التذرة أصغر نملة ، والكتاب اللبين اللوح المحفوظ ، وقد تقدم تفصيل الكلام على
هذه المعاني في أول [آل عمران] وفي سورة [يونس] وغيرها فارجع إليها . وقوله (ليحزى الذين آمنوا
وعملوا الصالحات) متعلق بقوله « لتأتينكم » وقوله (أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أى لا تعب فيه ولا من عليه
(والذين سعوا في آياتنا) بالإبطال وتزهيد الناس فيها (معاجزين) مسابقين كي يفوتونا (أولئك لهم عذاب من
رجز) سبب العذاب (ألم) مؤلم (ويرى الذين أوتوا العلم) أى ويعلم أولو العلم من مسلمي أهل الكتاب
(الذى أنزل إليك من ربك) القرآن (هو الحق) بالرفع والنصب (ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) وهو دين
الله (وقال الذين كفروا) أى قال بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل يبشكم) يحدثكم بأعجب الأعاجيب (إذا
مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) إنكم تنشئون خلقا جديدا بعد أن تمزق أجسادكم كل تمزيق وتفريق

بحيث يصير ترابا (أقرى على الله كذبا أم به جنة ؟) جنون يوحه ذلك وبقية على لسانه (بل الذين لا يؤمنون
 بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) أي عن الحق في الدنيا (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من
 السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أي أعموا فلم ينظروا إلى
 السماء والأرض وإنما حينما كانوا وأينا ساروا أمامهم وخلفهم محيطان بهم لا يتقدرون أن ينفذوا من أقطارهما
 ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفا لتكذيبهم لآيات الله (إن في ذلك) النظر إلى السماء
 والأرض والتفكير فيهما ودلائلها (لآية) لدلالة (لكل عبد منيب) راجع إلى ربه مطيع له إذ النبي
 هو الذي ينظر لآيات الله ويعرف أنه قادر على البعث (ولقد آتينا داود منا فضلا) وقلنا (يا جبال أوبي معه)
 من التأييد أي رجمي معه المسيح : إما بخلق صوت مثل صوته ، وإما بأنها تحمله على التسبيح إذا تأمل
 عجايبها فهي له مذكرات كما يذكر المسيح مسبحا آخر ، وقوله (والطيور) معطوف على محل الجبال وكان
 الأصل « ولقد آتينا داود منا فضلا » تأويب الجبال والطيور فيدل به هذا النظم لفخامته (وألنا له الحديد)
 وجعلناه في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء (أن) بمعنى أي (اعمل سابقات) أي دروعا كوامل واسعات
 تسحب في الأرض (وقدر في السرد) ضيق في نسج الدروع ، أو اجعل النسج على القصد وقدر الحاجة
 (واعملوا) يادادود وآل داود (ساحا إني بما تعملون بصير ، و) سخرنا (لسليمان الریح غدوها شهر ورواحها
 شهر) جربها بالعداء مسيرة شهر وبالغنى كذلك (وأسأنا له عين القطر) النحاس المذاب إسالة من
 معدنه فتبع منه نبوع الماء من ينبوع فذلك سماه عينا (ومن الجن من يعمل بين يديه) من يعمل
 معطوف على الریح ، وقوله « من الجن » حال منقذمة (باذن ربه) بأمره (ومن يزغ منهم عن أمرنا)
 ومن يعدل منهم عما أمرناه من طاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) عذاب الآخرة (يعملون له
 ما يشاء من محاريب) قصور حصينة ومساكن شريفة ، سميت بذلك لأنه يحارب عنها (وتمثيل) وصورا
 أو تمثيل للعلائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراهم الناس فيعبدون على عاداتهم . يقال إنه كان
 له أسدان في أسفل كرسيه ونسران فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعهما ، وإذا قعد أظله
 النسران بأجنحتهما (وجفان) قصاع (كالجواب) كالحياض السكبارة جمع جاية من الجاية وهذه من الصفات
 الغالبة كالدابة (وقدر راسيات) ثابتات على أناقيا لا تحرك ولا تنزل عن أماكنها لعظمتها وكان يصعد إليها
 بالسالم وقلنا (اعملوا) يا (آل داود شكرا) أي اعملوا بطاعة الله شكرا على نعمه والمراد بآل داود إما هو
 وحده أو هو وسليمان وأهل بيته وليس بهمنا تحقيقه (وقليل من عبادي الشكور) أي قليل العامل بطاعة
 شكرا لنعمتي (فلما قضينا عليه الموت) أي على سليمان (ما دلهم على موته) ما دل الجن أو آله (إلا دابة
 الأرض) أي الأرضة ، أضيفت إلى فعلها ، والأرض بسكون الراء أو فتحها ، يقال أرضت الأرضة الحشبة أرضا
 فأرضت أرضا فالعمل الأول كضرب والثاني كفرح (تأكل منسأته) عصاه ، تقول نساء البعير إذا طردته
 وهي يطرد بها (فلما خرت) وقع سليمان (تبينت الجن) علمت الجن كلهم علما بينا بعد التباس الأمر على
 عاينهم وضعفتهم (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا) بعد موت سليمان (في العذاب للهين) أي لو كانوا
 يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته حينما وقع فلم يلبثوا بعد موته حولا في تسخيره . روى أن داود أسس
 بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات داود قبل تمامه فوصى به إلى سليمان فاستعمل الجن
 فلم يتم ودنا أجله فأعلم به فأراد أن يعصى عليهم موته ليتنوه فدعاهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس فيه
 باب فقام يصلى متسكنا على عصاه فقبض روحه وهو متسكى عليها ، فبقي كذلك حتى أكلتها الأرضة فخر ثم
 بحثوا عنه فوجدوا بحسب مقادير أكل الأرضة أنه قد مات منذ سنة وكان عمره ٥٣ سنة وملك وهو ابن ثلاث
 عشرة سنة ، وابتدأ عمارة بيت القدس لأربع مضي من ملكه .

هذا ماجاء في كتب المفسرين رحمهم الله وسيأتي في الفصل الثالث مقصود هذه القصة وأنها من المعجزات النبوية لأن هذا المقصود هو نفسه الذي شرحته الأرواح في الوقت الحاضر وهو عجيب وهذا داخل في قوله تعالى - يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها .

ثم قال تعالى (لقد كان لسبأ) لأولاد سبأ من نسل قحطان (في مسكنهم) أو مساكنهم قراءتان أى في مواضع سكنهم وهي اليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة فراسخ (آية) علامة دالة على وجود الصانع الختار ، والآية المذكورة (جنتان) جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) جماعة من يمين بدم وجماعة عن شماله كل واحدة منها في تقاربها وتضيقها كأنها جنة واحدة أو لسكل رجل بستانان بستان عن يمين مسكنه وبستان عن شماله ، وقد أظهر الكشف الحديث الآتى الرأى الأول فقال لهم الله على السنة أنبيائهم : هذه البلدة التي فيها رزقكم (بلدة طيبة) وربكم الذي رزقكم (رب غفور) لمن شكره . قال ابن عباس وكانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء ، يقال انها كانت أخصب البلاد ، وأما طيبها فليس بها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وسترى تحقيق أهم هذه الأمور (فأعرضوا) عن الشكر (فأرسلنا عليهم سيل العرم) أى السد وهو جمع عرمة وهي الحجارة المركومة كالخزان في وادى النيل عند اصوان بحجر الماء وكان ذلك بين زمن عيسى ومحمد عليه السلام ، وهذا السد له ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض والمطر يجتمع أمام ذلك السد فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل (وبدلناهم بجنبتهم) المذكورتين (جنتين) سميتا جنتين للمشاكلة (ذواتى أكل حط) الأكل الثمر ، والحط كل نبت أخذ طعما من الحرارة وشجر الأراك وكل شجر ذى شوك (وأثل) هو العبل وهو أكبر من الطرفاء وأعظم منه (وشئ من سدر قليل) وهو شجر معروف ينتفع بورقه فى الغسل وغمره النبق وهما معطوفان على أكل لاعلى حطه ، ألا ترى أن الطرفاء لثمر لها فلا تكون فى حيز المأكول وفى أكل حط قراءتان الإضافة والتتوين وعلى الثانى يكون بدلا أو عطف بيان (ذلك جزيناكم بما كفروا) أى بكفرهم (وهل نجازى إلا الكفور) وفى قراءة « وهل يجازى » (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) بالتوسعة على أهلها وهي قرى الشام (قرى ظاهرة) متواصلة يظهر بعضها لبعض أوراكبة متن الطريق ظاهرة لأبناء السبيل (وقدرنا فيها السير) بحيث يقبل الغادى فى قرية ويبيت الراح فى قرية إلى أن يبلغ الشام وقيل لهم بلسان الحال (سيروا فيها ليلى وأياما) متى شئتم من ليل أو نهار (آمنين) لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) أى انهم بطروا النعمة وملوا العافية كنى اسرائيل فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وتزود الأزواد فأجابهم الله بتخريب القرى المتوسطة (وظلموا أنفسهم) حيث بطروا النعمة ولم يعتدوا بها (فجعلناهم أحاديث) يتحدث الناس بها تعجبا وضرب مثل فيقولون تفرقوا أيادى سبأ أى كما تفرق أبناء سبأ فى البلاد كما سيأتى تفصيله (ومزقناهم كل ممزق) وفرقناهم غاية التفريق (إن فى ذلك) فيها ذكر (آيات لكل صبار) عن المعاصى (شكور) على النعم (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) بالتشديد أى حقق ظنه أو وجد صدقا ، وبالتخفيف أى صدق فى ظنه (فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) أى إلا فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه (وما كان له عليهم) على التبعين (من سلطان) تسلط واستيلاء بالسوسة والإغواء (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) أى لنتمىز المؤمن من الشاك (وربك على كل شئ حفيظ) محافظ رقيب . واعلم أن هذه الآيات من قوله « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه » جرى بها كما هي عادة القرآن بعد ذكر القصص لاستنتاج العلم من أحوال الأمم لأن المراد تعلم المسلمين لا مجرد القصص وسردها . يقول الله إن ابليس لا سلطان له على قلوب الناس وإنى أسلطه عليهم كما أسلط التباب على

العيون القذرة والوباء على البلاد التي تستحقه لتعفن جوهها، فلست أفعل إلا الحكمة فمن سمع وسوسة الموسوس فهو المذنب وحده، فإذا حلّ الوباء بأرض مات من لا قدرة له على الحياة لاستعداده للموت وبقي من له استعداد للحياة هكذا في الوسوسة يفرق الله بها بين الثابت العقيدة ومترزلهها وهكذا جميع حوادث الدنيا من اللذات والنسك منها والحوادث المؤلمة وحلولها ليثبت القادر ويسقط الضعيف وهكذا الأمم الأوروبية جعلها الله محكا لأهل الشرق فمن صادمهم وصبر على مكابحتهم فاز بالاستقلال، ومن جزع منهم وخاف وهلع وخضع أصبح أسيرا لهم وأذاقوه سوء النكال. هذا ما تفيدته الآية إذ يقول تعالى « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم » الخ ثم قال تعالى (قل) يا محمد للمشركين (ادعوا الذين زعمتم) أي زعمتوهم آلهة (من دون الله) ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سنى الجوع. ثم أفاد عجز الآلهة فقال (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) يعنى من خير وشر وتقع وضر (وما لهم) أي للآلهة (فيهما) في السموات والأرض (من شرك) من شركة (وماله) لله (منهم) من الآلهة (من ظهبر) معين يعينه على تدبير أمرها (ولا تنفع الشفاعة عنده) أي لا تنفعهم شفاعتهم أيضا عنده تعالى فلا شفاعة عند الله (إلا لمن أذن له) أي إلا لمن أذن الله له أن يشفع والله لا يأذن أحدا أن يشفع لهؤلاء الكافرين فيخرون صعقون عند الموت (حتى إذا فرغ) كشف وجلى (عن قلوبهم) الخوف والفرع (قالوا ماذا قال ربك) أي قالت الملائكة لهم : ماذا قال ربك في الدنيا لإقامة الحق (قالوا الحق) أي قال المشركون الحق فأقروا به حين لم ينفعهم الإقرار (وهو العلى الكبير) أي ذوالعلو والسكبرياء ، وللآية وجه آخر في التفسير وهو أن الله تعالى لما قال « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » ذكر حالا من أحوال الذين يؤذن لهم بالشفاعة وهم الملائكة لا الأصنام لأن الملائكة وسائط الوحي ، وقد تقدم في [سورة البقرة] أن التعليم بذر الشفاعة فقال إن الملائكة ينتظرون الإذن خائفين فزعين حتى إذا فرغ عن قلوبهم بالإذن قال بعضهم لبعض ماذا قال ربك في الشفاعة ؟ قالوا : قال القول الحق وهو الإذن بها لمن ارتضى وهم المستعدون لها ، وهذا المعنى فصله حديث الترمذى « إن الله إذا تكلم بالوحي سمع أهل السموات صلصلة بجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فإذا جاء فرغ عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول الحق ، فيقولون الحق »

واعلم أن حال العلماء والحكماء في الأرض فيها بعض الشبه بذلك . ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم عند الوحي كان كأنه مغشى عليه ويتنابه العرق ثم يكشف عنه ذلك فينطق بما أوحى به إليه . ألا ترى أن الانسان لا يعرف علما إلا إذا صرف كل قواه العقلية إلى الفكر وحصر كل همه في الفهم حتى يعقل ما هو بصدده . إن هذا الذى ذكر في الآية والحديث يشير إلى أن العلوم والحكمة من عالم مغاير لعالمنا فلا يزال ملك ولا نبي ولا عالم شيئا منه إلا بأن تكون كل قواه محصورة في العالم الروحي ، وأقل الناس في ذلك العلماء وأعظم منهم الحكماء وأرق منهم الأنبياء والملائكة فاستغراق هاتين الطائفتين أشد والله أعلم .

﴿ الكلام في محاجة الكافرين والمعاندين والمترفين والمرءوسين وما هو من هذا النحو ﴾

لما تقدم قوله تعالى « لا يملكون مثقال ذرة » الخ أتى هنا بتقريره فقال (قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل : الله) فلا جواب سواه (وإنما أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) أي ما نحن وأتم على أمر واحد ، بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال وذلك على طريق الإلزام والانصاف في الحجاج ، إذ يقول القائل أحدنا كاذب وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب فكذبهم من غير تصريح بالتكذيب (قل لا تسألون عما أجرنا ولا نسأل عما تعملون) وهذا أدخل في الانصاف إذ أسند الإجرام لأنفسهم والعمل للمخاطبين (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة (ثم يفتح بيننا بالحق) يحكم ويفصل بأن يدخل المحقين الجنة والباطلين النار

(وهو الفتح) الحاكم القيص (العليم) بما ينبغي أن يقضى به (قل : أروني الدين الحقم به شركاء) لأرى
بأى صفة الحقتموهم بالله في استحقاق العبادة ، استفسر عن شبهتهم بعد إزام الحجة عليهم في تسكينهم (كلا)
ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايضة أي ارتدعوا (بل هو الله العزيز الحكيم) الموصوف بالغلبة وكمال القدرة
والحكمة ، فأما من الحقوهم به فلا قبول للعلم عندهم ولا للقدرة (وما أرسلناك إلا كافة للناس) إلا إرساله
عامه لهم فهي كفتهم أي منعهم أن يخرج منها أحد منهم أو إلا حال كونك جامعاً لهم في الإبلاغ والتناء للبالغة
(بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فيحملهم جهلهم على مخالفتك (ويقولون) من فرط جهلهم
(متى هذا الوعد) يعنون للبشر به والنذر عنه (إن كنتم صادقين) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين (قل لكم ميعاد يوم) أي وعد يوم (لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) إذا فاجأكم وهو
جواب معطوف على التهديد مطابق لما قصدوه من التعنت والإنكار (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن
ولا بالذي بين يديه) ولا بما تقدمه من الكتب ، وذلك أن أهل مكة سألوا أهل الكتاب عنه صلى الله عليه
وسلم فأخبروهم أنهم يجدون نعتهم في كتبهم فغضبوا وقالوا ذلك (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم)
في موضع الحساب (يرجع بعضهم إلى بعض القول) يتحاورون ويتراجعون القول (يقول الذين استضعفوا)
يقول الأتباع (للذين استكبروا) للرؤساء (لولا أنتم لكننا مؤمنين) فأتهم الذين منعتمونا عن الإيمان (قال
الذين استكبروا) أحاب النبيوعون في الكفر (للذين استضعفوا : نحن صدقناكم) منعناكم (عن الهدى) عن
الإيمان (بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) بترك الإيمان (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل
والنهار) أي مكركم بنا في الليل والنهار أي لم يكن إجرامنا الذي صدنا بل مكركم لنا دائماً ليلاً ونهاراً حتى
غيرم علينا رأينا (إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) وذلك أن القادة يقولون للاتباع إن ديننا الحق
وإن محمداً كذاب ساحر فإذن طاعة الكفار بعضهم لبعض تكون سبباً لعداوتهم في الآخرة كما هو مشاهد
في قطاع الطرق والفسقة إذا وقعوا في أيدي الحكام والقضاة فانهم يتعادون (وأسرروا الندامة لما رأوا العذاب)
أي وأضمر القربان الندامة على الضلال والإضلال (وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) أي في أعناقهم
(هل يحجزون إلا ما كانوا يعملون) أي لا يفعل بهم ذلك إلا جزاء على أعمالهم (وما أرسلنا في قرية من نذير
إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) ذلك تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن التمتعين المنغمسين
في الشهوات هم الذين يحلمهم التكبر والفاخرة بزخارف الدنيا على النفور من الكمال والحكمة والعلم والإيمان
لأن الضدين لا يجتمعان فمن هو مغس في الشهوات واللذات كيف يخلص عقله للكمال ، ثم أخذوا يربطون
الكمال النفسى بالكمال المادى (وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً) ولم يكن ذلك إلا لرضاء الله علينا ولو كان
ديننا باطلاً ما منحنا هذه النعم فتحن مكرمون (وما نحن بمعذبين) قل (ردوا زعمهم) إن ربى ييسر الرزق
لمن يشاء ويقدر (يوسع ويضيق امتحاناً وابتلاء) فلا علاقة للكمال الروحى بالكمال الجسمى (ولكن أكثر
الناس لا يعلمون) أنها كذلك فيخلطون في أحكامهم ويعلقون أحد الأمرين على الآخر (وما أموالكم ولا
أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى) أي بالتي تقرّبكم عندنا تقريباً (إلا) لكن (من آمن وعمل صالحاً) أي إيمانه
وعمله يقربه منى ، فالأموال والأولاد لا تقرب أحداً إلا للمؤمن الصالح الذى ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده
الحير ويريه على الصلاح (فأولئك لهم جزاء الضعف) أي أن يجازوا الضعف إلى عشر إلى سبعائة فأكثر (بما
عملوا وهم في الغرقات آمنون) من المكابرة (والذين يسعون في آياتنا) بالرد والطعن فيها (معاجزين) مسابقين
لأنبيائنا أو ظانين أنهم يفوتوننا (أولئك في العذاب محضرون) قل إن ربى ييسر الرزق لمن يشاء من عباده
ويقدر له (هذا في الانسان الواحد في وقتين مختلفين وما تقدم في شخصين مختلفين) وما أنفقتم من شئ فهو

يخلفه) عوضا إما عاجلا أو آجلا (وهو خير الرازقين) ولا رزق من غيره إلا أن يكون واسطة في ذلك فالرازق حقيقة هو الله (ويوم يحشرهم جميعا) المستكبرين والمستضعفين (ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) تقريرا للشركيين وتبكييتا لهم وإقناطاً لهم من توقع شفاعتهم (قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) أى الذى تواليه من دونهم لا موالاتة بيننا وبينهم (بل كانوا يعبدون الجن) أى الشياطين إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم أو يعبدونهم هم أنفسهم، إذ يفهمونهم أنهم هم للملائكة تضليلا فيستغيثون بهم في قضاء حوائجهم كما هو مشهور عند أرباب العزائم والسحرة، فأما نحن فإنا ندعوا الناس إلى الخير والفضل، فجواهر نفوسنا وتتأججها مخالفات لجواهر الجن وتتأججها (أكثرهم بهم مؤمنون) أى مصدقون للشياطين إما باستحضارهم بطرق التحضير، وإما بالوسوسة (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) بالشفاعة والعذاب أى إنهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضرر لأن الأمر في ذلك اليوم لله الواحد القهار، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد (وتقول للذين ظلموا) بوضع العبادة في غير موضعها (ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) فى الدنيا (وإذا تلى عليهم آياتنا) أى قرىء القرآن عليهم (بينات) واضحات (قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا) أى القرآن (إلا إفك مفرى وقال الذين كفروا) إظهار في موضع الإضمار للانكار عليهم أى قالوا (للحق) للقرآن أو لأمر النبوة (لما جاءهم) وعجزوا عن الاتيان بمثله (إن هذا) أى الحق (إلا سحر مبين) أى بين ظاهر فنكل عاقل يتأمله يسميه سحرا (وما آتيناكم من كتب يدرسونها) تدلهم على صحة الاشراك (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) يدعوهم إلى الشرك وينذرهم على تركه فمن أين هذه الشبهة؟ ثم أخذ يهددهم فقال (وكذب الذين من قبلهم) كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناكم) أى وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال (فكذبوا رسلنا فكيف كان نكير) أى حين كذبوا رسلنا جاءهم إنكارى بالتدمير فكيف كان نكيرى لهم، فليحذر هؤلاء مثلهم (قل إنما أعظكم بواحدة) أى أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هى ما دل عليه قوله (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) أى هو القيام والانتصاب فى الأمر والنهوض بالهمة فتقوموا لوجه الله خالصا ثم تتفكروا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم اثنين اثنين أو فرادى، فأما الاثنان فيعرض كل واحد منهما رأيه على الآخر، وأما الفرد فيفكر فى نفسه أيضا بعدل ومنصفة هل رأينا فى هذا الرجل جنونا. وهذا قوله تعالى (ما بصاحبك من جنه) أى فتفكروا هل بصاحبك من جنون أو ما بصاحبك من جنون؟ (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) قدلمه لأنه مبعوث قبيل الساعة (قل ما سألتكم من أجر) أى أى شئ سألتكم من أجر على الرسالة (فهو لكم) وهذا وما قبله يرجعان إلى أن دعوى النبوة بلا حقيقة لها إما أن يكون لجنون أولتوقع نفع دنيوى، فأما الجنون فينظر فيه بالفكر مثنى وفرادى، وأما النفع الدنيوى وهو الأجر فهو منتف أيضا (إن أجرى إلا على الله وهو على كل شئ شهيد) مطلع يعلم صدق وخلص نيق (قل إن ربي يقذف بالحق) يقول بعد نفي كل من الجنون وتوقع الأجر فى الدنيا قل لهم إن ربي يأتي بالوحى من السماء فيقذفه إلى الأنبياء (علام الغيوب) خفيات الأمور (قل جاء الحق) أى القرآن والاسلام (وما يبدى الباطل وما يعبد) أى ذهب الباطل وزهق فلم يبق منه بقية تبدي شيئا أو تعيده (قل إن ضللت) عن الحق (فإنما أضل على نفسي) فوبال ضلالى عليها (وإن اهتديت فبأوحى إلى ربي) فان الاهتداء بهدايته (إنه سميع قريب) يدرك قول كل ضال ومهتد (ولوترى إذ فرغوا) عند الحوادث العظام من هلاك فى الدنيا كما حصل فى حرب بدر وغيرها أو عند الموت أو يوم البعث لرأيت أمرا فظيما (فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من الموقف إلى النار، أو من صحراء بدر إلى القلب هناك (وقالوا آمنا به) بمحمد حين عاينوا العذاب

عند اليأس (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أى كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الإيمان والتوبة وقد كان قريبا منهم فى الدنيا فضيعوه ، فإذا سألوا الرد إلى الدنيا يقال : وأنى لهم الرد إلى الدنيا ؟ (وقد كفروا به) بمحمد صلى الله عليه وسلم (من قبل) من قبل ذلك أوان التكليف (ويقذفون بالغيب) ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم من الرسول صلى الله عليه وسلم (من مكان بعيد) من جانب بعيد عن الصدق والحق والصواب كقولهم هو شاعر وساحر الخ فهذا منهم تكلم بالغيب والذي لم يشاهدوه فهو من جهة بعيدة عن حاله الشريفة صلى الله عليه وسلم (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من نفع الإيمان والنجاة به من النار بعدما فانت فرصته فى الحياة الدنيا وهم كافرون وقاذفون بالقول بلا روية ولا فكر فى أمر النبوة (كما فعل بأشباعهم من قبل) أى بأشباعهم من كفره الأمم الدارجة (إنهم كانوا فى شك حريب) موقع فى الرية والتهمة وهو وصف للمشكك وصف به الشك مبالغة . انتهى الفصل الأول وهو تفسير ألفاظ السورة كلها .

(الفصل الثانى)

نذكر فى هذا الفصل ما كنت كتبتة ملخصا لتفسير هذه السورة منذ أكثر من عشر سنين ليجتمع المعنى بسهولة عند الأذكياء .

اعلم أن هذه السورة تشتمل على [ستة مقاصد : الأول] إثبات الوجدانية [الثانى] إثبات علم الله . [الثالث] إثبات يوم البعث بما يشاهد من المعجائب [الرابع] آراء العلماء فى القرآن وآراء الجهلاء [الخامس] ذكر أمتين عظيمتين غنيتين إحداهما أطعها الفنى فكفرت وهى سبأ وأخرى شكرت وهى آل داود وسليمان وجوزى كل بما فعل [السادس] تعليم الناس الاستقلال فى الرأى ونبذ الأوهام حتى لا تخدعهم صورة ممثلة ولا رئيس ضليل ولا يفرغهم مال ولا يطعمهم ترف ولا يعبدون ملكا ولا جنا ولكن يكونون أحرارا خالصين مخلصين فينالون السعادة فى الدنيا والآخرة كداود وسليمان عليهما السلام وكالنبى صلى الله عليه وسلم كما ذكر فى سورة الأحزاب .

(المقصد الأول والثانى والثالث)

من أول السورة إلى قوله « من رجز ألم »

ابتدأ السورة بمحمد الله عز وجل وبيان اختصاصه بملك العالم العلوى والسفلى وليس فى الآخرة من نعمة إلا من قبض فضله وتعام نعمته فهو المحمود فى الدارين المشكور على نعمتهين توطئة لما سيذكر فى السورة من ملك داود وسليمان إذ عرفا الله حق النعمة واعترفا أنها من الله وشكرا عايبا وإلماعا إلى سبأ كفرهم بالنعمة وإعراضهم عن الحمد وتقطيعهم الأرحام وتزويقهم شمل الأمة « جزاء وفاقا » بما عملوا ومزقوا كل مزق لما أعرضوا ، وإيدانا بأن من خدعوا بالأصنام أو اغتروا بالرؤساء الذين استكبروا أو عبدوا لللائكة أو هلوا للضعفاء نحن أكثر أموالا وأولادا فان أولئك غافلون وجزاؤهم المقت والغضب والارتظام فى أحوال الشبهات والفرق فى غمرة الجهل واستعباد الرؤساء لهم وتعذيبهم لما غفلوا عن مسبب النعمة ومسببها . ثم أفاد أنه يعلم أجزاء المسادة وإن دقت وصغرت وصفاتها من حركة وسكون وولوج وخروج وتزول وصعود ويعلم ما فوق ذلك من ملك .

كيف لا ونحن نشاهد عجائب الكيمياء فتعجب كيف وزن الذرات وزنا بديعا حتى إنك ترى الأوكسجين والأدروجين في الماء مثلا لا تزيد ذرة منهما أو من أحدها عما رسم لها في تركيب الماء وتلك الذرات دقيقة لا ترى بالمنظار المعظم . وهكذا العناصر الداخلة في تركيب الأشجار والزرع ، فلقد وضع أن تألف منها النبات بمقدار معلوم ترى الجير مثلا في القطن وفي القمح وله مقام معلوم في كليهما لا يتعداه . وهذا هو السر المصون العجيب المعبر عنه بقوله « ولا أصغر من ذلك » .

فإن ذرات الكيمياء أصغر من ذرات الهباء صفرا لا حذ له . ولا جرم أن الذي يعلم دقائق الأشياء كما نشاهده لا يغفل عن أفعال العباد . فاذا وزن الذرات في تركيب النبات فما أحراه أن وزن أفعال العباد ليوم الميعاد فذكرنا الله بقوله « وربى لتأتينكم » وهذا قسم للتأكيد على نهج البلاغة ، ثم أتبعه بالبرهان العلمي والدليل الطبيعي والكيمياء للحكماء على سبيل الارتقاء فقال « ولا يعزب عنه مثقال ذرة » . الخ فتعجب وتأمل وادرس العلم واقرا الحكمة حتى تفهم السر المصون وذلك قوله تعالى « يعلم مايلج في الأرض إلى قوله من رجز ألم » .

(المقصد الرابع)

إن عقلاء الأمم وعلماء الديانات يرون أن هذا القرآن يوافق ماأوتوا وأنه هدى . وأما الجهال فانهم تاهون في أودية الضلال لا حجة لهم إلا الاستبعاد . ولا دليل لهم إلا الاستهزاء والايذاء بما يهرفون من جنة يدعونها وكذبة يفترونها . ذلك لقصر نظرهم عما أبدع في الأرض والسماء وما وزن في المركبات من الذرات مما لا يفهمه إلا علماء دارسون لهذا النظام . فما أحرى السماء أن تنزل عليهم كسفا وما أجدر الأرض أن تخسف بهم خسفا فانهم يعيشون عليها وهم لا يعقلون وبأكلون خيرها وهم لا يدرسون قال تعالى « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » إلى قوله تعالى « إن في ذلك لآية لكل عبد منيب » .

(المقصد الخامس)

فيه غرضان الأول : من أوتى مالا وعلمًا وحكمة فعرف وشكر وآمن بالبعث وهدى الناس .
والثاني : من أوتوا النعمة ففرحوا وأعجبوا واستكبروا وطفخوا فهلكوا إما أمتان ذكرها الله عز وجل كانتا في جزيرة العرب فبنوا إسرائيل بالشام ومنهم داود وسليمان عليهما السلام وسبأ كانوا في اليمن وما أنسب ذكرها بسورة الأحزاب وما أعجب قصص القرآن ! ألم تركيب أنعم على النبي بنعمة النصر والفتح والهدى . وهل أنسب لذلك من أمر داود وسليمان عليهما السلام وبلاد سبأ وبلاد الشام علاقة متينة قوية .
ألم ترى قصة بلقيس وسليمان عليه السلام أيام شباب الدولة الاسرائيلية فإن بني إسرائيل كان لهم أدوار ثلاثة . (الدور الأول) ذلهم في مصر نحو أربعمئة سنة وعشرات (الثاني) ملكهم تحت حكم الشيوخ السبعين نحو من ذلك بالشام . (الدور الثالث) دور الملك والعظمة وذلك في زمن داود وسليمان عليهما السلام . وذلك أيام بلقيس . ولذلك الإشارة بقصة طالوت وجالوت وداود في البقرة وقصة بلقيس في النمل . وأما قصص فرعون معهم فما أوضح ما ذكر في أول الشعراء في ذلك . ولقد كانت دولة الجيريين والتبابعة قوية ذات مجد

وسلطان وعظمة فما أشبهها بدولة بني إسرائيل في زمن سليمان وداود . [ولشكل من الدولتين قدم راسحة في صناعة التماثيل وبناء المحاريب والأبهاء والجلال والعظمة] ولقد أصبح القطران في حوزة الأمم الإسلامية الآن ، فالبحر معروفة أخبارها مشهورة آثارها خاوية من الصناعة فارغة من العلم إلا قليلا ، وكذلك أرض الشام . ملك الله المسلمين القطريين منذ أيام العصر الأول وقص عليهم قصص الأمم التي سكنتها والأجيال التي قطنتها والملوك التي دبرتها ليدرك المسلمون ويعتبروا وليعلموا أن التقاطع سفير العذاب ونذير الحراب وأن هذه البلاد سيمسكونها ، فإياكم أن تكونوا كسبأ إذ أغدقنا عليهم النعم وملسناهم الجن وجعلنا بلادهم من الماء والحصب كأنهما جنتان بحيث يراها الذاهب إليها جنتين عن يمينه وشماله أو لكل مسكن جنتان هو قائم بينهما على النظام الأوروبي العصري الذي حرم منه المثلون عندنا وتمتع به صغار العملة هناك ، وهل كان ذلك النظام البديع إلا باتقان علم الزراعة والابداع في فن الصناعة ودرس علم الصحة وكيف تنظم المساكن وكيف تحاط بالبياتين إلا بالهندسة المدروسة وتقويم الصحة ، وكيف بنى السد المسمى بالعمرم أو السكر أو الجف أو السنة ليحجر الماء إلا باتقان فن الهندسة والبناء وعلم الري ونظام الجسور . وهل تلك الطبقات الثلاث في السنة أو العمرم التي تنزل الماء بقدر معلوم فالمنفذ الأعلى يليه الأوسط فالأسفل إلا بحكمة وعلم . وهل تستطيع الأمم الوحشية ذلك ؟ كلا .

لقد كان العمران متواصلا مارا في تلك الصحارى المقفرة الآن . والآثار الدارسة حتى يصل بلاد الشام التي بارك الله لأهلها من بني إسرائيل وغيرهم . ألا تتعجب . كيف دمر ملكهم وهل ينزل البلاد ويستعصى الداء . ويعوز الدواء إلا إذا جهلوا ما به الحياة وانصرفوا عن الحكمة للورثة وتقاطعوا وتميزوا طرائق ، وتباينوا خرائق ، فجهلوا الهندسة وتركوها ، وأغفلوا الصناعة ونذوها وصلوا عن الزراعة فلم يتعهدوها ، وأعرضوا عن علوم الري فلم يدرسوها ، وانصرفوا عن نعم الله فلم يشكروها ، واتبعوا ما يقول الجاهلون ، ويبتدعه لهم الدجالون فيقولون [سيفتح العمرم فأرة فاربطوا هرة تحفظه وترعاه كما فعل المصريون أيام قنبر إذ أحجموا عن ضرب الفارسيين خوف المهر أن تصاب] « قتل الإنسان ما أكفره » . فلما أن أمهلوا سدم ، وتركوا أرضهم ، سال الوادي بالماء وبدلوا بالجنتين ما لا ينفع الإنسان من أنثى لا ثمر له وشجر مرّ النمر ونبق قليل ، وتباعدت أسفارهم ، وتناهدت ديارهم ، وخربت القرى المتواصلة للنظمة في طريقهم إلى الشام ، فأصبحوا مثلا في الغابرين فقبلت فرقوا أيدي سبا : أبناء سبا عشرة تشاهم منهم أربعة ، لحم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة : وتيا من ستة : الأسديون والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومدحج ، وأنمار ، ولما تفرقوا لحقت غسان بالشام والأزد إلى عمان ، وخزاعة إلى تهامة ، وممر الأوس والخزرج إلى يثرب ولحق آل خزيمة بالعراق .

﴿ موازنة ملك سليمان بملك سبا بن يعرب بن يشجب بن قحطان ﴾

فوازن رعاك الله هذا الملك العظيم بملك بني إسرائيل وكيف زال الأول بسبل العمرم بعد الأبهاء والجلال . والعز واللمعة . والشرف . والفضل العظيم وكيف عظم بنو إسرائيل فبنى داود وسليمان عليهما السلام بيت القدس إذ رفع على أعمدة بلورية وبنى بالرخام الأصفر والأبيض والأخضر . وسقف بأنواع الجواهر وفضض سقفه وحيطانه باللآلئ ، واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضه بأنواع الفيروز وسخر العملة . فبنوا المحاريب وصنعوا التماثيل لكل صنف من الحيوان الممثل للقوة كالأسد والصقر أمام كرسيه وفوق رأسه . واللطيف الشكل كالغزال وغيره . ألم تركيف زال هذا الملك إذ طفوا وبغوا وسلط عليهم بمختصر من أرض بابل فأخدمهم ووضعهم بأرض فارس وما والاها كما في أول سورة الاسراء . إن ذلك لعة للمسلمين كما في قصص

هود وعاد ونمود وقوم لوط وأصحاب مدين . فما كن هؤلاء جميعا إسلامية اليوم . وقد أعطها الله المسلمين فتمت وغفوا أيام شباب دينهم فلما أدبروا وأعرضوا أصبحت البلاد عرضة للدمار آيلة للخراب إن لم يتم فيها مصلحون ويسعدوا المرشدون وذلك قوله تعالى « ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي » إلى قوله « لسكل صبار شكور » .

المقصد السادس

(الاستقلال والحرية في الآراء)

خراب الأمم وذهاب الدول وخراب بلدانها لا يدعوا إليه إلا الجهل ولا يحدثه إلا ترك العلم باتباع أخس الآراء وتصديق الترهات كما يحدث في بلادنا من أكاذيب الجهلاء وأضاليل بعض السفهاء من المعلمين الغاوين ، وكما حدث في سبأ من نبد علوم أسلافهم واتباعهم أهواءهم وربط المهرربحانج سدهم كأنهن مهندسات ومنظمات ، ويتبع الجهل خلة الظلم والتقاطع والتدابير وذلك هو العبر عنه في القرآن بالكفران . وشعب الأوهام كثيرة وأوديتها شاسعة وخروق غجاجها واسعة ولكن ترجع إلى ثلاثة أصول ضعف في بصيرة . اغترار برئاسة . وضلال يبطر الغنى . فأما ضعف البصيرة فذلك ما ذكره الله عقب قصص سبأ من الأصنام المنصوبة والأشباح الخالية من الأرواح وكيف صور الوهم للناس عبادتها وكيف يعدونها شفعاء ومن يشفع إلا بعض المصطفين الأخيار فيخرجون فزعين ويغشى عليهم صعقين ، فإذا زال الفرع تساءلوا فيما بينهم ماذا أنزل ربكم قالوا إنه قال الحق (وهذه الأصنام لا حياة لها فضلا عن الشفاعة) وليس عباد الملائكة بأحسن حالا من عباد الأصنام فسلكهم مخلوق وكلهم مربوب . بل يقف الملائكة يوم القيامة ويتبرءون ممن يعبدون ويقولون إن عبدوا إلا الأوهام ، وما اتبعوا إلا الجان لضعف بصائرهم . وذلك قوله تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه » إلى قوله عذاب النار التي كنتم بها تكذبون » .

(الاغترار بالرؤساء)

وأما الاغترار بالرؤساء ، والخضوع للكبراء فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى وداهية الشرق . وداهية اتساع الحرق . وغرور الجهال . وضياع الأموال ودمار البلدان . ولقد قطع الله الحجة وأعذر . وقرر الذنب على المرءوسين كالرؤساء والمحكومين كالحاكمين . وتأمل كيف يقول الضعفاء للمتكبرين أنتم أضلنا متوننا فهل تنفوننا ؟ فقال المتكبرون كلا فانكم مجرمون ولم تفكرون أفلا تعقلون ؟ فقال الضعفاء كم من حيلة نصبتوها . ومكيدة درتموها بأذاعة الأخبار ونشر الآثار بالليل والنهار فقال الله : لسكل ضعف من العذاب ذلك كما نشاهده اليوم في الأمم التي ذهب مجدها وغاب سعدا وحضر جهدها إذ يقولون على الرؤساء تبعنا ونحن لا مال بأيدينا ولا سلاح ولا جند فقطع الله الحجة وأوضح الحجة وأناط بكل عمله وأوجب عليهم أن ينظروا مفكرين ولا يعترفوا بالمتكبرين فكيف يسمع المرء جمعجة ولا يرى طحنا ، فالصعلوك كالمملك في الإسلام على كل التكبير « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومصداق ذلك ما تراه الآن في بلاد الإسلام من قولهم : ظلم الحكام فباد الأنام وتقول كلنا والله مسئولون وعلينا أن نفكر للمجموع وإلا حقت كلمة العذاب وذلك قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون » إلى قوله « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » .

(الضلال بالغنى)

وأما الضلال بالغنى والبطر بالمال فما أشبهه إلا عبادة الأصنام ولن يجادل الأنبياء ويقاوم الرسل والمصلحين إلا الأغنياء لثلاث نفوت رباستهم ويعلمهم غيرهم ذلك شأن الإنسان في كل زمان إلا أن عابد الصنم متبع خياله

وخباله والمغتر بالمال أعظم شهوته وخضع للذات كالعجاوات وذلك قوله تعالى « وما أرسلنا في قرية من نذير - إلى قوله آمنون » فالمال كالصحة والسلطان والولد وسائر النعم لادلالة لوجودها على الشرف ولا لعدمها على الضعة فهي تكون للبار كما تكون للفاجر فليست تقرب بعيدا ولا تبعد قريبا ، ولا ترفع وضيعا ولا تضع رفعا لذاتها ولكن هذه الأعراض أشبه بالسيف ، ينفع إن أمسكه العاقل الشجاع ويضر إن تناوله المجنون . هذه أهم مقاصد السورة الشريفة وما عدا ذلك فتثبيت لحجة أو تأييد لحكمة كقوله تعالى « قل من يرزقكم من السموات والأرض - إلى قوله لا استقدمون » .
هذا وقيل أن ندخل في مباحث الفصل الثالث لا بد أن نوضح المقام في قوله تعالى « يعلم ما يابح في الأرض وما يخرج منها » إلى آخره وهو ما يأتي .

(جوهرتان)

(الجوهرة الأولى) في قوله تعالى « الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير » .

(الثانية) في قوله تعالى « يعلم ما يابح في الأرض » الخ .

(الجوهرة الأولى في قوله تعالى « الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض » الخ)

(كتب في ليلة الأربعاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٤٨ هـ)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اللهم لك الحمد على أنك أسعدتني بالحكمة وجوتني العلم ، إنك أنت الحكيم الخبير ، فها أنا ذا الآن أصبحت على يقين أن من عبادك في أرضنا أناسا أشهدتهم هذه الأرض وهذه السموات في حياتهم الدنيا فراديس وجنات النعيم ، إن هذه العوالم في ظواهرها تمثل الشر ، ففيها الموت والحياة والمرض والظلم والقسوة والفجور والفسوق والحسران والحب والغرام والندامة والحروب والمدافع والبارود والديناميت والاهلاك والتدمير ، فهذه تشبه أن تكون ركنًا من أركان جهنم ، اللهم إنك أنت حكيم ، هذا قصرك المشيد أرض وسماء ومشاهد بينهما تمثل فيها الفظائع والألام والأرزاق والحياة والسرور والغرور ولكنك أنت مع هذا كله جعلت نفس هذه للمشاهد روضة من رياض الجنة للحكماء والفكرين ، أفليس من العجب أن تكون مبادئ النار والحجيم هي بعينها فراديس الجنان ؟ كلا . بل هي مشاهد الحق ومظاهر الجلال والجمال ومبادئ مشاهدة الحق تبارك وتعالى . في الأرض أقوام معذبون بهذه الحياة وإن كانوا لا يعلمون أنهم معذبون ، مسخرن وإن كانوا لا يعلمون ، أشقياء وإن كانوا لا يفقهون ، وهؤلاء هم أكثر هذا النوع الإنساني ، هم في داخل أنفسهم في شقاء آلام الأمراض والعواطف والنم ومواجع الأعداء والحساد والحكام والوحوش والحشرات ورذائل الأصدقاء والأقارب والحزن على مصائبهم الحائلة بهم والنكسة التعديعية منهم ، الحق أن الناس جميعا في الأرض مسوقون بعصا من حديد ، هم مسوقون كما تساق الأنعام ، فترية الولد وكسب العيش وتناول الطعام كلها بيوعات وزواجر يحس بها الناس وما هي إلا عصي من حديد تسوقهم وهم مرغمون .

التم إن هذا حال أكثر نوع الإنسان ، ولكن النادر منهم ينظرون هذه المشاهد وهم يسمعون كلاما ليس بحرف ولا صوت بل يقرءونه في نفس المشاهد ويفقهونه والناس من أمرهم متعجبون هازئون وهم في أنفسهم للناس راحمون ، العالم يرحم الجاهل والجهال هم أكثر نوع الإنسان . فهذه الجموع تستمد من الحكماء والحكماء هم الراحمون لأن الآباء يشفقون على الأبناء ، فالحكيم أب لأُمَّته لأنه أقرب إلى نبيها فإذا استمد منه الناس فهو بهم رحيم ، فماذا يسمع حكماء الأمة من خطاب الله الذي ليس بحرف ولا صوت ؟

يسمعونه يقول : أرى عبادي أنا رحمن رحيم ، رحمتي سبقت غضبي ، ألم تسمعوا أني أبتدى كل سورة باسمي الرحمن الرحيم ، أنا لم أنزل مزار في الأرض إلا لسعادة ونعمة ، وغاية الأمر أن أكثر الناس لا يعلمون ، هذا العالم الأرضي عالم يسير إلى السكالم ولا كمال إلا بالعلم ولا يتم علم إلا بمقدمتين مقدمة المحبوب ومقدمة المكروه ، فكما أن المناطق منكم يقولون لا نتيجة إلا بمقدمتين هكذا حكمتي قضت أن لا علم لكم إلا بسابقتين مقدمتين ولكن المقدمتان عندي هما المحبوب والمكروه ، أنتم يا أهل الأرض عبيدي وأنا أرحمكم أكثر من رحمة أبويكم آلاف آلاف المرات ، ولن تستطيعوا أن تعقلوا هذه الرحمات إلا بدراسة جميع العلوم ودون ذلك خرط القتاد .

فهاكم أمثلة مما تشاهدون [الأول] حب الصور الجميلة طلبا للنسل ، أنتم جميعا تحبون الحكمة والأشكال الجميلة . فأول ما يصادفكم في حياتكم حب الوجوه الجميلة فيرى الرجل أو المرأة أن سعادة كل منهما في الاقتران بالآخر والاجتماع به وغير ذلك لأن صورة خاصة مقبولة في نظره ، ولا معنى لقبولها إلا بأن يكون الحدان واليمين والأنف والفم على مناسبة مقبولة عند هذا الحب .

• إن الطيور على أشكالها تقع •

فهذا التناسب هو الذي يولج به الذكور والإناث فتكون الذرية . إذن الحكمة والنظام وحسن الابداع هنا جعلت للشهوة البيهية وبقاء الذرية وكان المقصد في ذلك كله هو إتقان تلك الصورة في نظر ذلك العاشق . [الثاني] حب الأعمال الصالحة . فإذا جاوز الناس الدرجة الأولى وهي الخضوع للشهوة البيهية التي تنتج بقاء الذرية اعتلوا إلى درجة أرقى وهي مزاوله الحكمة العملية فهناك يكون التعاون في الأعمال المنزلية والقيام بما يوجب الدين والعرف والعادة من المحافظة ماديا وأدبيا على إراحة أهل المنزل من الزوجين والصغار وبلى ذلك نظام القرية ونظام سياسة الجمعية الإنسانية كلها بالنظام العام ، ولا نعام لذلك إلا بالصناعات والأعمال العظيمة فهذا تمرين لكم أيها الناس على أن تكونوا خلفائي في أرضي [المثال الثالث] في الشوق إلى فهم الصناعات الإنسانية المتقنة وهو أعلى مما قبله ، إن نفوسكم تشرب للحكمة العملية لأن الحكمة العملية بالسياسة المنزلية والأخلاق الإنسانية والنظم السياسية العامة مقدمات ومدرجات لعقولكم حتى تشتاق إلى أن ترقى إلى فهم حكمتي في خلقي ولكن حكمتي فوق حكمة المهندسين ومهرة الصناع في أرضكم ، فأول ما يصادف العقول الشريفة من الشوق العلمي أن تهرع إلى مشاهدات الصنائع الغريبة المتقنة إتقاناً ثم فوق ما تصنعون لغرابتها بالنسبة لما نقص من صناعاتكم ، إن أجسامكم هي الحاملات لأرواحكم وأنواع النبات والحيوان كل هذه متقنات الصنع حولكم ، وهذه الشمس وهذه النجوم كلهن باهرات الصنع ولكن لما كانت نفوسكم أرضية [وقد عجزت عن أن تعقل جمال تركيب النبات وإن كانت من علمائه ، وبهجة تركيب أصفر الحشرات وإن كانت من دارسيه ودقة صنع أجسامكم وإن كانت هي الحاملة له] أخذت تسعى إلى صنعة الإنسان لأنها إليه أقرب وعقولكم إلى حكمة أمثالكم أميل ، ألم تروا كيف أقبل علماء أمريكا وأوروبا « من كل حدب يصسلون » على البلاد المصرية لما فتح الباب المحتوم بنجم الملك (توت عنخ أمون) يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣ وشاع الخبر في الكرة الأرضية أن العرقة الثالثة قد وجد فيها صندوق بديع داخله جثة الملك المذكور وجواهره الثمينة وهو مذهب ومزخرف ومرصع بالأحجار الكريمة ويبلغ طوله نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار تقريبا ، وبعد ذلك وجدت العرقة الرابعة وهي مملوءة بأثاث من أغنى المفاخر مرتبة ترتيبا حسنا يفوق منظرها في بهائها وعظمتها مارأوه في الغرفتين الخارجيتين ، وحضر لمشاهدة ذلك بعض ملوك أوروبا كملك البلجيكي والملكة لمشاهدة صنعة المخلوق لأن صناعاتهم أقرب إلى عقول أهل الأرض وأخذت الوفود تترى على مصروعي عشرات الألوف بل أخذ الناس في دور الصناعات بأوروبا وأمريكا يتقدمون

الصناعات التي ظهرت في القطر المصري ، وبطابون نماذج للأزياء المصرية الأثرية كالملابس وأثاث المنازل والأواني ليصنعوا نظيرها وهم يصرفون الألوف ومئات الألوف من الجنيهات ، وابتدأت النساء الأمريكيات والأوريات يلبسن ملابس كالتى ظهرت في عهد (نوت عنخ أمون) فإنه في صباح (٨) مارس سنة ١٩٢٣ ظهر في شارع (فث أفنيو) وهو أعظم شوارع نيويورك ثلاث سيدات يسنن معا وقد لبسن من قمة الرأس إلى أخمص القدم ثيابا مصنوعة على مثال ثياب ملكات مصر القديمة واحتذين أحذية على شكل (الصندل) فكان بثيابهن هذه موضع إعجاب وقبلة أنظار الجميع ومثلهن في إنجلترا . وأخذ الناس في أوروبا وأمريكا يقرءون تاريخ قدماء المصريين . فلقد هالهم تلك الصناعات العظيمة من :

- (١) سرير بديع لتلك الملك من الذهب المطروق .
- (٢) وآنية من المرمر منحوتة من قطعة واحدة للروائع العظيمة لتلك الملك .
- (٣) وآنية أخرى من المرمر أيضا .
- (٤) ونوع من الحلوى الذى يزين الصدور من الذهب الخالص ، هيئته تشبه هيئة السفينة .
- (٥) وتمثالين داخل العرفة الخارجية بحرسان باب العرفة الثالثة المنحوتة التى بها جثة الملك .
- (٦) وصندوق للملابس وعليه صورتان تمثالان شكل (أبى الهول) يبطأ أعداء الميت تحت قدميه وعليه نقوش غاية فى الإبداع والدقة تفوق سائر ما فى المدفن من الإتيقان والدقة والجمال .
- (٧) وكرسى (عرش الملك) وهو مصنوع من الأبنوس والعاج ومجلى بنقوش جميلة قوامه على شكل أسد من الذهب .

- (٨) ومراة من الفضة منقوش عليها اسم الملك .
- (٩) ولوحة قد كتب عليها تاريخ انتصارات القائد (هوس) النائب عن ملك مصر .
- (١٠) وصورة الملك وهو يتلقى أخبار انتصارات القائد المذكور .
- (١١) وصور الهدايا والأسرى من بلاد الحبشة .
- (١٢) وحذاء الملك المصنوع من الذهب وهو مزين بشكل زهرة (اللوتس) الجميلة .
- (١٣) وبرنس من نسيج كتان مصر اللين مع ملابسه ، وقفاز كتانى النسيج وهو أول قفاز مصرى قديم كشف ، صنع منذ (٣٠٠٠) سنة .

هذا نموذج من مصنوعات العباد وهى التى يفرح بها الناس ويرغمون على السفر وترك الأهل والوطن وصرف الدرهم والدينار ، كل هذا لحب الصنعة والحكمة الإنسانية التى هى أقل إتقاناً وبهجة من الحكمة فى السموات والأرض . ذلك لأن عقل الإنسان إلى عقل الإنسان أقرب ولهم صناعته أسرع مع أنه هو نفسه فى جسم أبداع صنما وأتقن وضما وأبداع حكمة وأبهج نقوشا وأتم نظاما من ملابس وصنادل وعروش وتمائيل (نوت عنخ أمون) « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » إذن هؤلاء العلماء السائحون من أقطار العالم لم يتعجبوا إلا بما يناسب عقول الإنسان من صناعته لا من صناعات الخالق جل وعلا فإن تمثالا يعقل ويصبر وينطق ويسمع أتم وأكل من تمثال جاهل أعمى أخرس أصم ، فهذا التمثال الأتم وهو الإنسان لا يفرح بحسمه ولا بما فيه من النقوش ولا بما فى الحشرات والحيوانات والنباتات حوله لأنه متقلب فيها صباحا ومساء فسقط وقعها من قلبه وهرع إلى مشاهدة ما لم يره من قبل ففرح به لغرابته لأنه مما يناسب عقله من حيث إنه متتهى ما يصل إليه الإنسان (المثال الرابع) وهو أعلى من سابقه . هنالك أقوام فى هذا النوع الإنسانى وهم أعلى من تقدمهم لهم إدراك أتم وعقول أكل ، فهؤلاء يقولون هذه الدرجات الثلاث اثنتان منها إنسانية وواحد منها حيوانى إنسانى وهو الأول وللسكانحن

تريد مثلاً أعلى وهو مثل الملائكة فيمكن نظراً نظرنا لكل نوع هذا الإنسان فنكون آباء للدرجات الثلاث فهؤلاء يلدون ويعيشون في المنازل والمدن ويدرسون الصناعات ويدركون الجمال وكل منهم في أثناء بعثته يعتبره النحس والسعد والفرح والحزن . ففي المنازل وفي المدن وفي الأسفار لمشاهدة الآثار أفراس وأتراس ، فقد يعيش العاشقان في هناء وقد يفترقان فيحوت أحدهما كذا ، وقد يعثر الإنسان الدهش من هذه المصنوعات (المباحات في دين قدماء المصريين المحرم بعضها على الرجال في دين الإسلام) فيغره جمالها فيقلدها فيبيع الطارف والتليد من مقتنياته ويصبح خاوي الوفاض بادي الافاض ، لا يملك شروى تقير ولا يكون في العير ولا النفير قد مسه الضر وملسه القفر ، إذن هذه الدرجات الثلاث أبنائنا فلنبحث نحن عن حكمة هذا الوجود ولن تظهر حكمته إلا في دراسة السموات والأرضين ، فننظر حولنا في الحشرات والدواب والنبات وفوقنا في السموات والأرضين . هل هذه الآلام ، وهذه اللذات التي تعترينا لها نتائج صادقة ، أم هي مصادفات كالتى رأيناها في الأمثلة الثلاث ، فهؤلاء يحسون بخطاب نفسى بلا حرف ولا صوت وكأن الله يقول لهم : أى عبادى ها أنا ذا أخاطبكم وقد تأهلتهم للفهم عنى وبذم السابقين من بنى آدم أرباب الأمثلة الثلاثة ، انظروا : ألم تعلموا أن اللذات والآلام مقدمات للمعروف فلو كانت اللذات وحدها والآلام وحدها لم تقم للعالم قاعة ، وهل يحس الإنسان على رجل واحدة ؟ أم تخاق له يد واحدة أم عين واحدة وأذن واحدة وطاقة أنف واحدة ؟ فكل واحد من هذين الزوجين مكمل للآخر ، فهكذا هنا الآلام واللذات زوجان يكفلان القيام بتعليقكم وإرشادكم ولكن ليس كل إنسان أهلاً للفهم عنى . كلا . وإنما الذين يعقلون هم الذين ارتقوا عن الطوائف الثلاث السابقين ، وهذه الطائفة الرابعة لا أجسمها مشاق السفر ولا يعوزها اتعال الحجر ولا تؤسد المدر ولا بندل البدر وإن كان شعارها (لسكل مبتدأ خبر) و (لسكل نبأ مستقر) بل هؤلاء ينظرون في منازلهم وفي قرانهم فيجدون أنواع الحيوان كالحشرات وهي تطوف عليهم صباحاً ومساءً فماذا يرون ؟ يرون مثلاً أن هذه الحشرات ونحوها ما هي إلا أساندة ومعلمون يطوفون على الناس ويقولون : أيها الناس نحن فريقان فريق يؤذيكم كالجراد والزناير ، وفريق يغذيكم ويشفيكم وينفعكم كالنحل ، فأكثر بنى آدم ينظرون للنساء وس والجراد نظر الخوف من نقص الأنفس والأموال ، وينظرون للنحل ودود القز نظر الرجاء أن يشتاروا العسل وينسجوا الحرير ، وهذه هي المرتبة الدنيا الحيوانية ولكن حكماكم أيها الناس وهم في ذروة المراتب يتشبهون بالملائكة في مباحثهم ، فهؤلاء يقولون عجبا عجبا ، نظام النحل كنظام الزناير كنظام الجراد كنظام الأرضة التي سترى رسمها قريبا ، فملكسة النحل وملكسة الأرضة هما تان ذا تراهما مرسومتين أمامك وحولهما جنودهما وخدمتهما وحشمهما . وهذا نظام عجيب . وإحدى للسكتين مؤذية والأخرى نافعة لنا ، فإذا لم يعقل الإنسان النافع ولم يفكر عند أكل العسل في حسن نظامه ودقة صنعه ليدرس الوجود فعسى أن يفكر إذا لدغه زنبور فينظر في قرصه ويفكر في مدينته ونظامها وإذا ذلك يفهم « ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تدكرون . فعروا إلى الله » فهنا زوجان مؤذ ونافع وأحدهما ضد للآخر كالليل والنهار ولولا الليل لم تعرف قيمة النهار ولولا النهار لم تعرف قيمة الليل ، ففهم الضدين يدرك الإنسان الفرق بينهما وهناك تكون السوانع العقلية وإدراك المعجائب الحكيمية .

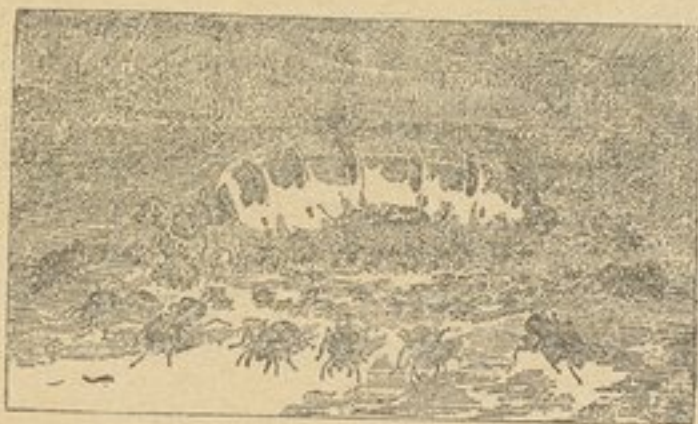
فإذا شاهد أمثال النحل والنمل والأرضة والجراد وعرف نظامها ألقاها كلها على قاعدة واحدة وإن اختلفت فروعها ، وإذن يفهم معنى « له ما في السموات وما في الأرض » لأن هذه الجملة تقتضى الاختصاص بالخالق لأن تقديم الخبر يفيد ذلك ولكن تقديم الخبر يفيد إفادة لفظية . أما هنا فإن قارىء هذه النظمات يقول إن القاعدة واحدة لافرق بين ما يضرنا وما ينفعنا . كلها بمالك مؤسسات على نظام واحد . فملكسة النحل وملكسة النمل وملكسة الأرضة كلهن ذوات أوامر لا ترد وما نظامها إلا كنظام أجسامنا وإن كنا إلى

فهم هذه الحشرات أقرب منا إلى فهم أجسامنا وكان البوابين والضباط والجنود والمراضع في جنود ملكات النمل أشبه بما فينا من قلب وكبد وطحال ومعدة وأمعاء وأعضاء حركة وأعضاء حس النمل كل له عمل يخصه .

ولما كان هذا المقام يستلزم إعادة رسم صور تقدمت في هذا التفسير وهي صورة ملكة النمل وصورة ملكة الأرضة وصورة جسم الانسان رأينا أن نرسمها إنعاماً للفائدة انظر شكل (٢ و ٣ و ٤)

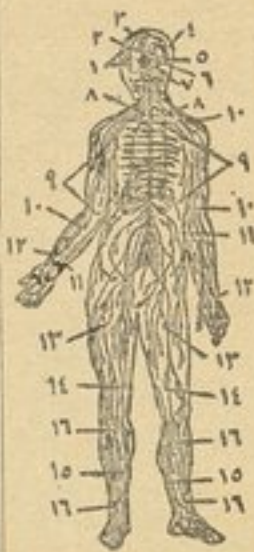


(شكل ٢ - ملكة النمل)



(شكل ٣ - الأرضة للملكة وأبناءها)

رسمها العلامة الألماني أزدريك كما لحها . الكتلة البيضاء الضخمة هي الملكة وإلى جانبها الملك ، ومن حولها العمال يقبلونها ويلحسونها ؛ فالقائمون بتغذيتها يتألبون عند فمها ويبقى في الطرف الآخر من وكل إليهم النشاط البيض . وبين العمال جند من البوليس صغير الحجم وفي الصف الأول في شكل نصف دائرة الجند الكبير القائم بحراسنها ضد هجمات عدو مفاجيء .



ثم يرفع هؤلاء طرفهم إلى السماء بعد أن يعرفوا أن العالم السفلي على وتيرة واحدة فإذا يرون في يرون شمسا يحيطها نبتون وأورانوس وزحل والشترى والمريخ والأرض والزهرة وعطارد وأكثر هذه حولها أقمار . كل هذه دوائر حول الشمس فيدهش هذا الفريق إذ يرى أن ملكة النحل وملكة النمل وملكة الأرضة كلهن سواء في النظام وهن متشابهات تمام التشابهة للشمس مع سياراتها وأقارها وهكذا مع (النيازك) التي لا حصر لعددها وبعضها صغير جدا كالبلاطة في منازلنا وبعضها أكبر وأكبر وهي التي تراها في الليالي المظلمة تنزل كسهام مضيئة نسميها (شهب) جمع شهاب وهكذا ذوات الأذنان كلهن دوائر حول الشمس كما تدور الشهب (النيازك) وكما تدور السيارات . وهالك يرون أن الشهب والسيارات إن هي إلا أعضاء الجسم الإنساني أو كأفراد من ممالك النحل وممالك النمل . لنا نحن بنى آدم أوامر

نلقها على أعضائنا وأعضائنا تمثل تلك الأوامر . والموصل لتلك الأوامر (شكل ٤ - جسم الانسان) من عقولنا إلى أعضائنا هي الأعصاب فبن قانات مقام البريد البرقي (التلغراف) وسرعة الفكر في العصب ميل في المثابة وبعض العلماء يقول [إن القوة الحاكمة تشعر باللمس على الوجه وتجب عليه بتحريك اليد في سبع ثانية من الزمان . وتشعر بالسموعات وتجب عليها في سدس ثانية . وبالمرئيات وتجب عليها في خمس ثانية] فبالامتنعان ظهر أن للموسمات أسرع حركة من السموعات وهذه أسرع من المرئيات . ولقد حار الناس فلم يعرفوا كم من الزمن يمر حتى تصدر القوة الحاكمة حكمها . وقد عرف هذا أحد العلماء بآلات دقيقة جدا فقال [إن حركة الفكر تستغرق في الاحساس والحكم ثم الاجابة خمساً وسبعين جزءاً من (١٠٠٠) جزء من الثانية الواحدة وتستغرق الارادة في إصدار حكمها (٤٠) جزءاً من ذلك ولقد جربوا ذلك في رجل كهل والشاب أسرع في ذلك من الكهول] .

إذن في الإنسان قوة حاكمة ، وأوامر تلقى ، وأعضاء تأمر ، وهذه الأعضاء كثيرة جداً كأنها دولة أو كأنها مملكة النحل أو مملكة النمل أو مملكة الجراد أو الأرضة . فهناك تشابه وتماثل بين أعضائنا مع نفوسنا وبين ممالك النحل والنمل والشمس مع سياراتها وتوابع سياراتها . أفليس هناك اتصال ما بين الشمس وما حولها من السيارات والنيازك وذوات الأذنان كالاتصال اللقمة بين النفس وأعضائها وبين ملكة النحل مثلاً وأفراد مملكتها ، إذ هناك صلة وثيقة بين الملكة والأفراد لا علم لنا بها . ولنا الحق أن نتصور الصلة بين الشمس وسياراتها الخ كالصلة التي بين نفوسنا وأعضائنا ويكون عالم الأثير قائماً مقام أعصابنا . ذلك العالم الذي يقرب من العالم الخيالي أو الروحي الذي قد ثبت أنه وإن يكن غير مادي فيه ثقل لا يحسب بجانبه الحديد ولا الذهب شيئاً مذكوراً فهو أمتن من كل مادة ولولا هذا لم يتحمل قوة الجاذبية التي تقوم به بين الكواكب .

تبين بهذا أن مافي السموات ومافي الأرض من الممالك على وتيرة واحدة . فإذا رأينا ممالك الحشرات لها نظام سياسي عجيب : ملكة أمرة ورعية مطيعة . وإذا رأينا أعضاءنا هكذا مع نفوسنا . وإذا رأينا السيارات وما معها هكذا مع الشمس . فلنهم إذن الآية هنا فإن اختصاص الملك بالله الفهوم من تقدم الخبر يعرفه العقلاء بالبحث . فإنك ترى الخبير بفن الشعر أو الموسيقى أو النقش أو التصوير أو علم النبات أو صناعة التجارة أو الحدادة إذا رأى نموذجاً منها عرف أن هذه من صنع فلان . فترى من يسمع شعر شاعر أو ثر ناثر وهو من علماء أدب اللغة يحكم حلالحكماً لاشك فيه أن هذا من شعر العصر الأول أو الخامس وهو من قول

فلان كما أخبرني مرة الأستاذ (ادوارد براون) العالم الإنجليزي المستشرق المدرس في (كلية كمبرج) إذ قال [لما أرسلت الحكومة الإنجليزية ثياب رؤساء العشار القبولين أيام حرب السودان وكانوا نحو ثمانين أسيرا أخذت أفرا خطوطهم وعاذج إنشائهم فوجدت منهم من تزحوا إلى السودان في العصر الأموي ومنهم من تزحوا في العصر العباسي ، واستدللت على ذلك بمشابهة الخطوط للخطوط والإنشاء للإنشاء] .

هذا ما قاله وهكذا كل أصحاب صناعة يدركون لأول وهلة متى رأوا أي نموذج في أي عصر هو ولأي أمة وهكذا ، إن من ينظر إلى نظام الدجاجة وأفراخها والمرأة وأولادها والحكومة وأفراد شعبها وملكته النحل ونظام أفرادها والشمس وما حولها يحزم بأن الصانع لم يتغير لأن الطراز واحد لم يتغير وأسلوب الصنعة هو هو بعينه ، وإلا فبأنه أي فرق بين هذه الممالك كلها . فهذا يعرف الحكماء اختصاص مافي السموات والأرض به ، وإذا عرفوا ذلك الاختصاص بهذا البرهان العقلي العملي اشترحت نفوسهم وفرحوا بالصانع بعد فهم صنعته واشتاقوا إليه وأحبوه ، إذ لا حب إلا بعد العرفة كما أن أهل أمريكا وأوروبا منذ يوم (١٦) فبراير سنة ١٩٢٣ إلى الآن يقدون زرافات ووحيدانا على بلادنا المصرية إذ عرفوا قيمة الحكمة التي كشفت في الصنوعات الأثرية ، فهؤلاء يفارقون الأهل والوطن ويصرفون المال ويتجشمون المشاق غراما بالجمال ولا جمال إلا تبع الحكمة أي النظام التقني في الصنعة . إذن هذا النوع الانساني متى عرف الجمال والنظام والحكمة سارع ليرى ذلك ، ويشاهد ذلك الحكيم كما يشاهد أولئك الزائرون تلك الصناعات ويشاهدون من عملت في زمانه وهو الملك (توت عنخ أمون) ويكتفون بمشاهدة جثته الهامدة وإن لم يروه هو لأنه هو وعلمائه وصناعه ليسوا هذه الأجسام بل هم أرواح كانت في هذه الأجسام ، فهؤلاء العلماء اكتفوا بما أمكن لهم وهو مشاهدة الجسم وإن خرجت الروح ، فهذا مثال ضربه الله مثلا للناس في الأرض فهو يقول [يا أهل الشرق ويا أهل الغرب إن نظامي جميل في الأرض وفي السماء ومتى فهمتموه فهموا يؤدي إلى شوقكم لي كما اشتاق علماء الأمم عندكم إلى مشاهدة آثاركم والذين عملت في زمانهم فإن ذلك يجعلكم على حبي والشوق إلى مشاهدتي ، فالمعرفة تبع الشوق والشوق يبعث على السعي للمشاهدة ، وهناك لا تكفهون الموت في حبه] وهذا هو معنى الحديث « من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » .

أقول : وليس معنى هذا أن السبيل لحب لقاء الله وعدم كراهة الموت محصور فيما قلناه . كلا . بل هذه إحدى السبل التي نحن بصدددها وهذا الحب الذي كانت المعرفة بسببه هو الحامل للحامد على حمده ، فإن متقن الصنعة محبوب والحب يوجب انقياد الأعضاء للعمل وانطلاق اللسان بالثناء . هذا هو السر في قوله بعد ذلك « وله الحمد في الآخرة » وإنما خص الحمد لله بالآخرة لأن النفس تكون مجردة عن الجسم فيكون إدراكها أتم لتعقل الحقائق فتريد حبا . أما في الدنيا فهي تحمد الخالق والمخلوق وتشاهد أعمال الناس وتمدهم . ولما كان ذلك كله راجعا للحكمة ختم الآية بقوله « وهو الحكيم الخبير » فالحكمة بها النظام والنظام والاتقان كان الحب والحب انطلق اللسان بالحمد . هذا هو تفسير الآية بالعلوم المعروفة اليوم .

فلما اطلع بعض العلماء على ذلك وهو من قراء هذا التفسير قال لي : لقد أحسنت في شرح نظام هذه الكائنات العلوية والسفلية وفي ترتيب الحمد على معرفتها ثم في تبيان أن الحكمة هي الأصل الذي بنى عليه هذا النظام ولكن العقل لا يكاد يفقه المناسبة بين مملكة النحل مثلا والمجموعة الشمسية فهي عظمة المقدر جدا حتى إن الشهب وذوات الأذنان الجاربات حولها لا تنكاد تحصى . يقول علماء العصر الحاضر إنها كمدد

السمك في الماء . ثم إن المجردة التي منها مجموعتنا الشمسية قد علم أن فيها (٢٢٤) ألف ألف نجم وكل نجمة منها شمس كشمسنا ولها مجموعة شمسية أكبر أو أقل من مجموعتنا الشمسية . فهذه كلها تكون مجرة واحدة وشمسنا منها ، وفوق ذلك المجرة لها أخوات كثيرات كلهن مجرات مثلها فيهن شمس تعد بمئات الملايين ، وفوق ذلك أيضا قد كشف الناس اليوم مجرات أخرى تسمى بالسدوم جمع سديم ووجدوها أنواعا : فمنها السدم اللولبية ، ومنها السدم الحلفية ، ومنها السدم المستديرة ، ومنها التي هي غير منتظمة . وإذا كانت هذه السدم مجرات كمجراتنا المحتوية على شمس تعد بمئات الملايين كشمسنا التي لها مجموعة لاحصر لعددها وإذا كان الذي عرف الآن من السدم اللولبية وحدها بالمنظار العظيم (١٢٠) ألف وأوصلها الأستاذ (بيرن) إلى خمسمائة ألف ، ومن رأيه أنه قد يرى منها أكثر من مليون سديم إذا زادت آلات التصوير إتقاناً ، فإذا كان هذا المقدار في السدم اللولبية وقد رنا السدم الأخرى بهذا المقدار كانت مجاميع المجرات اللولبية أربعة ملايين مجرة غير المجرات العروفة ، وكل مجرة من تلك المجرات لها أبعاد ولا يكاد يصدقها العقل ، مثلاً مجرتنا التي منها شمسنا تمتد إلى نحو مائتي ألف سنة نورية من جهة ومن جهة أخرى أقل من ذلك فكيف يباقي المجرات وكيف عظمت سعتها فهل بعد ذلك تقاس هذه بمملكة النحل أو بجسم الإنسان ؟

قلت له : إن ما هنالك من هذه العوالم السماوية يرجع كله إلى ما يشبه جسم الإنسان . فالمجموعات الشمسية التي تعد بآلاف الآلاف في كل مجرة من المجرات التي تعد بآلاف الآلاف أيضاً أشبه بجسم إنسان واحد أو بمملكة من ممالك النحل ، وكل كوكب سيار في كل مجموعة شمسية أشبه بعضو من أعضاء الإنسان وسكان الكواكب أشبه بما في جسم الإنسان من الحويصلات الحية التي كل حويصلة منها لها حياة مستقلة ، ومن لطف الله أنه جعل النظام واحداً متشابهاً لتسهيل دراسته ، ومتى درس الإنسان جسمه فكأنه درس العوالم كلها وعرف نفسه ومتى عرف نفسه عرف ربه فاشتاق إليه . ومن عاش في الدنيا وهو غافل لم يشق الحكيم المدبر للعوالم ومات فإنه يسكن في عوالم على مقدار درجته ولا يلاقى ربه إلا من أحبه ولن يحبه إلا الدارس لصنعه وغيرهم يتكلمون في عوالم لا تؤهل لفقائه إلا قليلاً على مقدار ما اكتسبوا من الحب .

إن الحيا . لاسعادة فيها إلا بالحب ولا حب إلا بالعلم ولا علم إلا بالبحث في نظام الأرض والسماوات المدبرات بتدبير الحكيم الخبير .

انتهت الجوهرة الأولى والحمد لله رب العالمين .

جمال هذا الموضوع

(كتب قبيل فجر يوم الخميس ٢٧ مارس سنة ١٩٣٠)

يا الله . ما أجمل ما صنعت ! وما أبدع ما أنعمت ! بهرتنا بمجلائل أعمالك . وسحرت عقولنا في دقائق وضئك . وغشيت على هذا الجمال بحجاب من حوادث الأيام ودخان الآلام والمصائب . ولولا ما نصاب به من فواجع الأيام رحمة منك وفضلاً لتفطرت قلوبنا وتمزقت أجسامنا واحترقت بأشراق أنوارك الجليلة . هذه هي الشمس وهذه سياراتها .

فهذا عطارد الجاثم حول الشمس تجذبه إليها وتعطف عليه حتى لا يتبدد في أطراف هذا الجو الواسع ولا يقيه في فسيحات الجاهل . ها هو ذا يجري حولها جرياً حثيثاً فلا يخل نظامه . جرياً متواصلاً جذبه إليها

جذبا رقيقا بحيث لا يلتصق بها كلابهلك سكانه من شدة حرها ولا يظلم وجهه من شدة بعدضوتها « إناكل شيء .
خلقناه بقدر » بحيث كانت سنته مقدرة بمدة (٨٧٩٦٩) يوما . فهذه الأيام وأجزاؤها هي القدرات بمدة
الدورة الكاملة حول الشمس منذ خلقت السموات العلا إلى الآن وإلى الأبد . وهذه الزهرة سنتها الكاملة
(٢٢٤٧٠١) يوما والأرض سنتها الكاملة (٣٦٥٢٥٦) يوما والمريخ (٦٨٦.٩٨٠) والمشتري (٤٣٣٢٥٨٥)
وزحل (١٠٧٥٩) وأورانوس (٣٠٦١٦٨٣١) ونبتون (٦٠١٢٦٧٢٠) .

هذه هي المدد التي تسير فيها هذه السيارات حول الشمس وهي لها جاذبية ، إنهن لمطبات صادقات في
مواعيدهن ، وإن أمهن الشمس لها لمن القمطر ورأفها تجذبهن جذبا لطيفا كالأبصار ويتبددن في باحات
الفراغ الواسع كما تفعل البطة والجملة بأبناهما « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » والله إن رأفتك يا الله
بهذه الخلوقات وحكمتك لا حد لهما . فهذا حساب سير السيارات لو اختلفت ثانية واحدة لأضر ضررا بليغا
فهذه الأرض الجارية حول الشمس لو أنها اختلفت نظام سيرها وقد علق عليه جرى قطراتنا براوسفتنا بحرا
لأورث ذلك خلافا في أعمالنا فجرى القمطر في غير حينه ، وفتحت اليناء بحرا في غير وقتها فتحطمت السفن
بحرا وهشمت وطاحت العربات والركاب برا « تبارك الله رب العالمين » .

ويعجبني يا حكيم يا رحيم يا بديع دقة صنعك ، وبهجة المجال ، وعجائب الاتقان ، وبدائع التصوير في
الجملة والأرض المرسومتين هنا وفي جسم الإنسان ، فهذا هو ذا الخلق الشوكي هو ومنبعه الرئيسي وهو الخلق
في الدماغ قد جعلها أساسا لهذا الجسم الحي بحيث تكون الأعضاء الفصلة حولها العلامات بما يصل لهما من
أوامرهما جائمات حولهما جنوم الأرضات والسموات والنلات والسيارات حول ملكات الأرضات والسموات
والنملات والشمس . إنما مثل السيارات مع شمسهما كمثل الأعضاء مع الجسم في الحيوان والإنسان ومثل النحل
والنمل ونحوهما مع ملكاتها ، ألا وإن عنايتك بالأعضاء يا الله لقوية متينة إذ كيف تخلق للنملة في العين الواحدة
من عينها المركبتين للموضوعتين في مقدم الرأس (٢٠٠) عين كما تقدم في (رسالة عين النملة) في سورة النمل
وتخلق للذبابة الواحدة (٤٠٠) عين بسيطة في عينها المركبتين ؟ .

إن حكمتك ورحمتك لانهاية لهما فيكون حيكما لك لانهاية له ، ولكن رحمتك الواسعة وإتقانك البديع
وحبك الخلق قد عمدت الوجود كله ومنها نوع الإنسان ، فسترت عن عقله هذا الجمال بأنواع المصائب
والحوادث والأمراض والموت والحياة والقمر والغنى والعز والذل فغنى على عقله فلم يدرك فأخذ يتلصه من
المعدين ومن الكتب كما تفعل الآن في هذا التفسير ، ولو أن هذه الرحمت ظهرت للناس فوعتها عقولهم
لمعرفت الأحشاء من إدراك ذلك الجمال فتقطعت القلوب ، ولكن الرحمة عامة والحكمة شاملة باهرة وأكثر
الناس لا يعلمون ، ومن الغرابة بمكان ما تراه من الاتقان في جماعات الحيوان المجتمعات اللاتي تكون أمة
واحدة وجماعات الكواكب اللواتي تكون في مجموعة واحدة ، فإن النحل إذا اجتمعن في بيت واحد
وحملت الملكة من ذكر من غير مملكتها أفينا النحل التي في مملكتها قام قومة واحدة وانقض على ذكران
تلك للملكة فأهلكها لأنها لا تعمل لها ، فلا هي تجمع العسل ولا هي تفيد في أن تكون سببا في حمل
الملكية ، هكذا ترى جموع الأرضة الآتي الكلام عليها في هذه السورة والتقدم بعضه في سورة النحل أيضا
فإن الملكة لها جنود يعمونها ، وهؤلاء الجنود لهم عدد مخصوص ، فإذا زاد القدر رأينا الجماعات اللاتي
تقدم لجميع الملكة الطعام تمتنع عن تقديم الطعام لما زاد عن العدد المحدد حتى يموت . هذا في عالم الأرض .
أما في عالم السماء فاننا ترى نفس الاتقان في تقابل الأرض والشمس والقمر . ذلك أننا نرى القمر الذي يدور
٢٧ يوما و٧ ساعات و٤٣ دقيقة و١١ ثانية ونصف ثانية وذلك في دورته النجمية أي التي تغشى بين رجوعين
متتاليين للقمر إلى نجمة واحدة بحيث إننا إذا لاحظناه يوما وقت الغروب في دقيقة معينة موجودا بجانب نجمة
خاصة من النجوم الثابتة فإننا بعد مضي (٢٧) يوما و(٧) ساعات و(٤٣) دقيقة و(١١) ثانية ونصف ثانية نراه

موجودا في ذلك السكام عينه بجانب تلك النجمة . فهذا القمر المنتظم السير البديع الصنع والنظام إذا قابل الأرض والشمس فيما يظهر للرأى في نقطة واحدة فإنه يحصل هناك خسوف تارة وكسوف تارة أخرى فإن كان القمر بين الأرض والشمس حصل كسوف، وإن كانت الأرض بين القمر والشمس حصل خسوف ، وللهم في هذا المقام أن نقول إن الخسوف والكسوف في مدة (١٨) سنة و (١١) يوما يكون مجموع مرات الكسوف (٤١) ومجموع مرات الخسوف (٢٩) والمجموع (٧٠) ما بين كسوف وخسوف ، وهذه المدد لن تغير ولم تنغير ، فهذا هو الإبداع في الحساب ، فحساب الحشرات على وجه الأرض لن يعطله حساب الكواكب في السماء ، فلم تعطل يا الله أعمال النحل أى إنك لا تمنع إلهامك لها أن تقتل الذكور لأنها لا عمل لها متى حملت للذكاة ولا أعمال الأروسة ، فلم تمنع إلهامك لحاملات الطعام منها أن تقتل ما زاد من الجود بحرمان الزائدات طعامهن ، فإلهامك للطائفتين وأغبرهما مستمر منظم كتنظام الخسوف والكسوف في العوالم العلوية بحيث لا تختل أوقات الخسوف بوقوع الأرض بين القمر والشمس ، ولا أوقات الكسوف بوقوع القمر بين الأرض والشمس بل النظام هناك لا يختل ، والنظام في أصغر الحيوان لا يزول ، فأنت تحسب الدورات الفلكية بالثانية ونصف الثانية ولا تنغيره ، وهكذا تفعل في الحشرات فتحسب لها حسابها وتلهمها .

هذا هو الذى تفهم به معنى قولك « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يبلغ فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور » .

فهذه هى الحكمة ، وهذا هو العلم ، وهذه هى الرحمة ، وهذا هو الغفران ، نأى حكمة بعد هذه الحكمة فى الإلتقان والخبرة فى الحساب . وأنى رحمة ورأفة بهذه المخلوقات أعظم من هذه ثم إذا كان هذا الإنسان يعيش فى الأرض وأكثره جاهل هذا النظام البديع وهو غافل عنه بل أكثره كافر أى غير شاكر لأن الشكر مبدؤ العلم بالنظام وأكثر الناس لا يعلمون هذا النظام البديع فلولا تجاوزه عن غباوته التى هى مقتضى جبلته الأرضية الطينية لهام من الأرض ومنعه الوجود فيها غباوته ولكنه غفور ستر ذلك الذنب الطبيعى وعفا عنه، وأحيا الإنسان فى الأرض لأنه يعلم أن له مستقبلا فى عوالم أخرى وهناك يفهم هذا الجمال من استعداد له .

﴿ تذكرة ﴾

إن هذا الإبداع نراه لا يزول وهو محبط بنا ونجد أنفسنا فى هذه الأرض معمورين فى أنواع الحروب الدولية والمطامع الشخصية والأحقاد القلبية والأمراض الجسمية فنسكون مبعدين عن السعادة فى الدنيا ، ولكن متى لحنا الجمال من خلال تلك السحب القائمة علينا مصائبنا وأدركنا جمالا فى ضوء الشمس ونور القمر وبهجة النجوم وهناك نفسى مصائبنا الوقتية ونفرح بهذا النعيم وهو العلم والحكمة والالتقان الذى نراه دائما لا يتغير ويرى قلوبنا به فرحة ، هنالك نسعد فى نفس الحياة الدنيا ونرى أنفسنا أشبه بالمراهقين الذين لم يبلغوا السن وقد فرحوا بأنهم قريبا سيبلغون السن القانونية والرشد وتسلم لهم أموالهم . هذا ما خطر لى فى تفسير هذه الآية والحمد لله رب العالمين . تم الكلام على الجوهرة الأولى .

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى « يعلم ما يبلغ فى الأرض وما يخرج منها » الخ ﴾

اعلم أن هذه الآية لم تسكن فى أول هذه السورة وفى أول سورة الحديد إلا للحكمة ، فهذا كلام الله وهو موزون كما وزن كل نبات وكل حيوان وكل كوكب ، يقول الله « يعلم ما يبلغ فى الأرض وما يخرج منها » وقد علم سبحانه ما يبلغ فى الأرض من الآثار التى تركها الأولون كما ستعرف شرحه فى (قصة سبأ) وترى

ما فعله علماء أوروبا في بلاد اليمن وأهم استخرجوا منها صوراً وعرفوا بها علومها ، فهذا بعض ما وُجِدَ في الأرض قديماً وما أُخْرِجَ منها حديثاً ، وهكذا يقول تعالى « يعملون له ما يشاء من محارِبٍ ونَسَائِلٍ » والنسائِلُ قد تكون من المعادن ، فهذه مما يُخْرِجُ من الأرض ، وهكذا في [سورة الحديد] ذكر الله الحديد وابتدأ السورة بما يفيد هذا المعنى ، إذا عرفت هذا السر العجيب فاسمع الآن لما في هذه الدنيا من العجائب المناسبة لهذه الآية .

(تفصيل الكلام على الأرض)

لأجل الكلام في « مقامين : المقام الأول » وصف نفس الأرض « المقام الثاني » ما يقوله علماء الاقتصاد في مباحث المعادن والفحم وما أشبه ذلك .

(المقام الأول . وصف الأرض)

لقد جاء الحمد في أول الفاتحة والأنعام والسكف وهذه السورة ، أو ليس من العجب أن يكون مقروناً بالترية للعالمين تارة ، وبذكر الأنوار والظلمات تارة أخرى ، وبنزول القرآن آونة ، وبظهور نتائج الأرض والسموات في حال أخرى ؟

فقال صاحبي : هذا كلام غامض ! فقلت : اعلم أن الحمد متى ذكر في أول سور القرآن نجد ذكر العوالم بعده ، فالحمد لله رب العالمين في الفاتحة ابتدئ بذكر الله في البسملة وأنه موصوف بالرحمة وأن الرحمة تستوجب الثناء بالجميل وأنه مربب للعالم كله ، فهنا ذكر مبدأ الوجود وصفته وتربيته وكل ما ربابه ، وفي الأنعام ذكر الثلاثة الأول وأبان كيفية الترية بجعل الظلمات والنور ، وبعبارة أخرى دوران الأفلاك ؛ فدوران الأفلاك سبب في الترية المذكورة في أول الفاتحة ، فهنا إيضاح للترية ، وفي السكف نجد الحمد على العلم الذي رمز له بالقرآن . إذن هنا نور ظاهر لترية الأجسام ونور باطن لترية العقول : الأول في الأنعام والثاني في السكف فلم يبق إلا نتائج تلك الترية الجسمية والعقلية للعوالم . وهذا هو قوله « يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور » ولا شك أن ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها لا يختص بالأجسام ولا بالعقول بل هو عام . فنور السكواكب ونور العلم يصلان للأجسام كما في سورة الأنعام وللعقول كما في سورة السكف . ومن الأرض يخرج الزرع ونحوه وهو جسمي وترفع الأعمال وهي عقلية . وملخص هذا كله أن هذه السور الأربعة جاء الحمد فيها مرتباً ترتيباً جعلنا نعتقد أنه يفتح لنا باباً لدراسة تواريخ العلوم .

فاذا رأينا الله أول ما يبدأ بذكرنا أوائل الموجودات ثم توابعها وهو مرتب لها . فنقل هذا هو آخر طرز في نظام التعليم وهو أن العلم الذي يدرس كالفقه والنحو والأصول والتفسير ولا يدرس الناس تاريخه إجمالاً ولا يعرفون سلسلة التأليف في ذلك العلم يكون طلابه فاقدي للقرايع كاسدي الأفهام . ألا ترى أن الفلاسفة اليونانية المنتشرة في بلاد الإسلام قديماً قد أحدثت آراء وشبهها وبدعا وكل ذلك للجهل بتاريخها ، فلقد ذكرت لك فيما مضى أن الأوربيين لما ترجموا فلسفة اليونان رأوا طابعا وسكفاً يحزم بأن العالم حادث كما هو الرأي الحديث في أوروبا مع أن من قرأ الفلسفة القديمة المنقولة عن اليونان لا يجد فيها غير القدم مذهباً وهذا من الجهل بتاريخ الفلسفة ومن عدم الاطلاع على جميع آراء الفلاسفة هناك . وقد قام كتاب [كشف الظنون] للسكانب القدير (ملاجلبي) بما ينفع في هذا الصدد .

إذا صح هذا أفلا يجب على أن أقدم للأذكياء صورة الأرض وما قاله العلماء فيها حق لا تكون تراوهم جامدة جمود من قرءوا العلوم ولم يدرسوا تاريخها ؟

لقد أطلعني أحد الفضلاء على موضوع بديع في وصف الأرض والأقوال التي قيلت في هيئتها منذ القدم أدرج في « مجلة الجديد » فأجبت أن أذكره هنا ليكون ذلك تاريخاً لمعرفة هيئة الأرض ولتقف على ما يقوله الناس فيها ، فإظالمًا خطر لي خواطر فكنت أقول : ياليت شعري . ما فائدة باطن الأرض إذا لم تكن فيه نفوس حية ؟ فوجدت هذه الهواجس والخواطر والظنون هجست لقوم في أمريكا كما ستراه وهذا هو الموضوع :

في زوايا التاريخ

(ليست الأرض كروية)

كان أول تصور للانسان في شكل الأرض أنها بساط عظيم هائل لانهاية لعمقه ، يعتمد عليه قبو السماء كالسقف المرفوع ، ولما تقدم في الملاحه وقطع البخار الواسعة أخذ يتصور أن الأرض سابعة في أوقيانوس من الماء لانهاية له كما في (شكل ٥) وكان ذلك خطوة لتصور أن الأرض محوطة بدائرة وترتكز على جذور طويلة مثل الشجرة كما في (شكل ٦) .



(شكل ٦)



(شكل ٥)

وساد كذلك اعتقاد قديم بأن الأرض بساط مستدير يقوم على اثني عشر عموداً كما في (شكل ٧) ولكن على أي شيء تقوم هذه العمود ؟ فيجب قساوسة أوروبا في القرون الوسطى بأنها تقوم على الضحايا البريئة من أهل الفضيلة والتقوى الذين لولا وجودهم هنالك لدكت الأرض وذهبت هباء في الفضاء ، وقد كان (أنا كسبا ندر) الإغريقي في القرن السادس قبل الميلاد يرى أن الأرض كالاسطوانة كما في (شكل ٨) وأن قطرها يساوي ثلاثة أمثال ارتفاعها ، وأنها سابعة في مركز القبو السماوي . وأنه لم يكن منها إلا وجهها الأعلى . وتوجد أوروبا في النصف الشمالي وليبيا أو أفريقيا وآسيا في النصف الجنوبي .



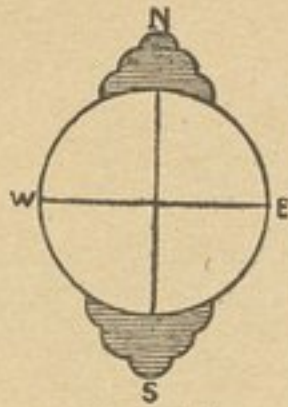
(شكل ٨)



(شكل ٧)

ثم جاء من بعده بقليل الفيلسوف أفلاطون وقال [إن الأرض مكعبة] (انظر شكل ٩) لأنه كان يعتقد أن المكعب أكمل الأشكال الهندسية فيجب أن يكون موطناً لأفضل الكائنات وهو الإنسان . وأنه قبل أن يقول علماء الغرب بكروية الأرض سبقهم إلى ذلك من عهد بعيد علماء الشرق حيث تخيلوا أن الأرض

كروية وتنهى شمالا وجنوبا بجبال عظيمة الارتفاع كما في (شكل ١٠) ونرى كذلك في هذا الشكل إدراكهم
لعمود عظيم تعتمد عليه الأرض وهو الذي تطور فيما بعد إلى ما يسمى الآن (المحور) .



(شكل ١٠)



(شكل ٩)

وذهبوا إلى أن جبال النصف الشمالي تخرج من أوقيانوس عظيم وترتفع حتى تبلغ مقر الآلهة في السماء
بينما تتدلى جبال النصف الجنوبي حتى تبلغ الجحيم ومقر الشياطين . ونجد مثل هذه النظرية في علم الفلك في
الهند مع اختلاف في السميات حيث يذكر أن جبل العالم يرتفع في القطب الشمالي للأرض ليصل ما بينها وبين
السماء وهو مثل محور تدور حوله الأجرام السماوية (انظر شكل ١١) . ووجدت أيضا نظرية في بلاد (الهند
والكلدان) تقول : [إن الأرض مثل محارة كبيرة مستديرة (انظر شكل ١٢) تقوم على أربعة أفيال]
ويرمزون لذلك بالعناصر الأربعة أو الرياح . وتقوم الفيالة على ظهر ساحفة كبيرة . ويرمزون بها للقوة والبقاء
والصبر والجلد والحلوة .



(شكل ١٢)



(شكل ١١)

وانتقل إلى الغرب منذ (١٥٠٠) سنة نظرية تقول . [إن الأرض بيضاوية وأنها سابحة في الأثير]
انظر (شكل ١٣) وقال الإدريسي وهو أحد الجغرافيين من العرب في القرن الحادي عشر للميلاد [إن نصف
هذه الأرض البيضاوية مغمور في الماء] وذلك ليحل مشكلة النصف المجهول ، وكان (بطليموس) في
القرن الثاني للميلاد وهو من أشهر الفلكيين يرى أن الأرض مثل كرة مفرطحة من جانبيها كجبة القوطة
انظر (شكل ١٤) .

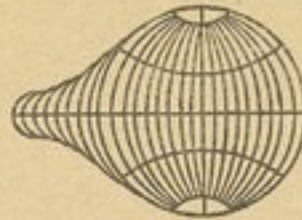


(شكل ١٤)



(شكل ١٣)

وجاء (أينانوس) في سنة (١٥٢٠) ميلادية فقال [إنها تشبه القلب] انظر (شكل ١٥) وصادفت نظريته ميلا في قلوب قساوسة الدين في أوروبا فأيدوه قائلين [إنها قلب الله] وإن هذه الكرة القلبية تشبه أرض السكتشف العظيم (كولمبوس) حيث صورها مثل الكثرى ، فالنصف الكروي هو الشرق والنصف المستطيل هو الغربي ، والتمدد الذي أوجده فيه هو (العلم الجديد) الذي اكتشفه ، وأما (دانتي) فقد صورها قبل ذلك بقرن في مثل هذا الشكل جاء هذا التمدد لحجمه الذي صوره فكانت جبال المطهر تحت خط الاستواء بثلاثين درجة انظر (شكل ١٦) بينما جعل (أورشليم) أو (ريون) في الجهة المقابلة ليحفظ التوازن .



(شكل ١٦)



(شكل ١٥)

وظهر في سنة ١٨١٩ في (سنت لوز) بالولايات المتحدة القبطان (جون كليفسيس) بنظرية عجيبة تعرف باسمه أو بنظرية السكرات المتداخلة ، وهي أن الأرض أو أي كوكب يتكون من عدة من السكرات التالسة والمشاركة في مركز واحد كما في (شكل ١٧) و (شكل ١٨) وبين كل كرة والتي تليها فاصل مملوء بالهواء ، وعند القطبين فتحة كبيرة في جميع هذه السكرات . ويرى أن الأرض تتركب من خمس طبقات أو سكرات متداخلة وأن فيها فتحتين كبيرتين عند القطبين يبلغ قطر الشمالية أربعة آلاف ميل وقطر الجنوبية ستة آلاف ميل . وأن سطح كل كرة أو طبقة مسكونان فتوجد سكان في الأرض على السطوح المحدودة والسطوح المقعرة . وطلب إلى المجلس النيابي بالولايات المتحدة أن يجيزه بسفيتين ليسافر إلى أحد القطبين ويدخل من الفتحة الموجودة هنالك ليدخل إلى سكان السطح المقعر الذي نعيش فوقه .



(شكل ١٨)



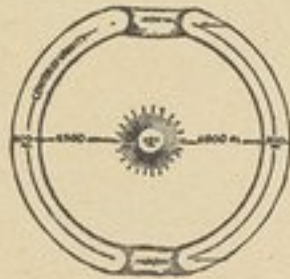
(شكل ١٧)

وطبع المارشال (جاردنر) في سنة ١٩١٣ م في الولايات المتحدة كتابا عنوانه [سياحة إلى داخل الأرض] ذهب فيه إلى أن الأرض مجوفة ويبلغ سمك طبقتها التي نعيش عليها ثمانمائة ميل ، وأنها مفتوحة عند القطبين . ويوجد في داخلها شمس انظر (شكل ١٩) ويبلغ قطر كل فتحة قطبية ألفا وأربعمائة ميل .

وقال (موريه) في كتابه [علم الفلك اليوم] إن الأرض على شكل هرم انظر (شكل ٢٠) وهو يرى أن نظريته تبين اختلاف أنصاف أقطارها ونحل كثيرا من النقط المعضلة في هذا الصدد التي لا يمكن أن تفسرها أية نظرية أخرى .



(شكل ٢٠)



(شكل ١٩)

وهذه النظرية التي نشرها (تيوفيل موريه) العالم الطبيعي الفرنسي إن هي إلا شرح وتأييد لنظرية (لوثيان جرين) العالم الإنكليزي التي كانت مثارا لجدال كبير في سنة ١٨٧٥ م وهو يذهب إلى أن الأرض هرمية الشكل وأن البحار تشغل بطوننا في سطوحه الأربعة بينما أركان هذا الهرم عبارة عن القارات الخمس وقد بعث (موريه) هذه النظرية الهرمية للوجود بعد رفضها في ذلك العهد ليجلبها العلماء من جديد في نور ما استكشف من العلم الحديث . والجدال قائم الآن في كل مكان على قدم وساق . ويقال إنها أحسن نظرية في بيان حقيقة شكل الأرض . وأن مالا شك فيه أن نظريات كروية الأرض لا يؤيدها أحد اليوم من علماء الجيولوجيا والفلك . انتهى المقام الأول في وصف الأرض .

(المقام الثاني)

(فيما يقوله علماء الاقتصاد في مباحث المعادن والفحم الخ)

اعلم أن علماء الاقتصاد استقصوا مباحث المعادن والفحم وتربة الأرض ، فلا ذكر خلاصة مايقولون في هذا المقام إقظا للمسلمين وتعلما للجاهلين .

اللهم إنا نحمدك حمدا يوافي نعمك ، أنت الذى علمت وألهمت ، وأنت الذى جعلت الأمم كلها يخدم بعضها بعضا وكل يساعد كلا وإن كانوا لا يقصدون ، فها نحن أولاء ننتفع بعلم الأمم ، فالعالم كله مرتبط بعضه ببعض بطريق الجاذبية التى بين الكواكب والسيارات ، وهكذا الناس مرتبطون بالمصالح والعلوم شاءوا أم أبوا « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها - ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها » .

(التربة)

إن التربة قد تكون سوداء وهى التى جلبها (الغرين) أى ما يسمى فى مصر بالطمي ، وقد تكون نباتية ، وقد تكون بركانية كأراضى الدلتا . فالسوداء هى التى جلبها الأنهار كنهرا النيل بمصر وهذه لا تحتاج إلى سقى كثير والرملية تحتاج إلى سقى كثير ، وزرع فى الأولى أمثال الأرز والقصب وفى الثانية الشعير والقول السودانى والبطيخ . ومن أحسن الأراضى السوداء الهندية فى مقاطعة بنجاب فقد زرعت آلاف السنين بغير سماد . وأما التربة الثانية فهى التى امزجت تربتها بما تحلل من النباتات قديما فصار ذلك غذاء للزراع التى تزرع فيها . قالوا ومن أحسن أنواع التربة الحصبة فى العالم التربة البركانية وتقع عادة فى جوار البراكين الحية أو الخاملة وتتكون من بعض الصخور أو الرماد الذى ينبعث من جوف البركان فتحمله الريح وتشره على مسافات واسعة حول البركان فيكسبها الخصوبة الكثيرة . ومن أمثلة ذلك الأراضى البركانية القديمة الواسعة فى مقاطعات (الولايات المتحدة) و (شجنون) و (أريغون) انتهى .

أقول : فإذا كان أحسن أنواع التربة هى التربة البركانية . فهنا ظهر بعض معنى قول الله تعالى هنا « وما يخرج منها » فهو الذى قدر الزلازل والبراكين ليستخرج لأهل الأرض تربة أصلح وأنفع من التربة التى يعيشون بها . إذن المصائب التى يأتى بها البركان والزلازل أقل جدا من المنافع . هذا من معنى قوله « يعلم ما يلج » الخ . وقد آن أن أبين لك الكلام على الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة من كتاب [الجغرافيا الرشيدة] لحمد حمدى بك ، فقد جاء فيه ما يأتى :

(الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة)

الاهتزازات فى القشرة الأرضية كثيرة حتى يكاد يقع منها نحو ٣٠٠٠٠ هزة فى السنة ، ولكن هذه الاهتزازات النافهة لا يلتفت إليها ، ولا يكاد يدونها السيسموغراف الذى يقضى الشهور الطويلة أبيض الصحيفة لا يعيد فيها عن الخط المستقيم ، ثم تأتى المفاجأة الهائلة فيهب القلم ويرتجف على الورقة ارتجاف الطائر الخائر حتى يتقضى المقدر وينتهى السطور . ويظهر أنه على قدر مدة السكون تكون شدة الزلازل المقبل ، إذ أن أشد الزلازل خطورة كانت تعقب أطول الفترات سكونا .

(التغيرات المترتبة على الزلازل العنيفة)

إن حركات القشرة الأرضية الهادئة المستمرة أبعد مدى فى تغيير معالم وجه الأرض من التغيرات الفجائية التى تحدثها الزلازل ، وأهم ما ينشأ عن الزلازل ارتفاع أراض كانت واطئة فجأة ، وانخفاض أراض أخرى وتغير مجارى المياه تبعاً لذلك ، وتحطيم القشرة الأرضية وتمزيقها بالشقوق والفتوق الطويلة العريضة فى أقرب وقت .

غير أن الزلازل وإن كانت بمفاجأتها وأهوالها تلفت النظر إليها وإلى آثارها هى من الحوادث الصغيرة فى تاريخ القشرة الأرضية ، وليست شيئا بجانب بنيان الجبال وتغيير صورة وجه الأرض شيئا

بهدهوء واستمرار . وسرعان ما تتسلط عوامل التعرية على ما تخلفه الزلازل من الآثار فتحوها وتصيرها كأن لم تكن .

﴿ نشأة البركان ﴾

قد علمت أن جوف الأرض مكون من مواد شديدة الحرارة جدا درجة يبوسها محفوظة بضغط القشرة الأرضية عليها . وفي أثناء تقلص الأرض والتواء قشرتها يحدث أحيانا أن يخف الضغط فجأة على تلك المواد فتصهر لوقتها وتتحول ، وهي وجود فتق أو شق بعيد الغور فرصة لخروج المواد المنصهرة الجائشة فينشأ عن ذلك البركان . وهو جبل مخروطي الشكل ، في قلبه قبة مجوفة ، على رأسها فوهة وعائية الشكل تخرج منها الأبخرة والصخور والمنصهرات . ويشيد البركان من الأنقاض التي تخرج من فوهته سواء أسالت على جوانبه أم تساقطت من الجو بعد الارتفاع مخروطا بركانيا .

﴿ اللحم البركاني ﴾

تسمى الصخور المنصهرة التي تخرج من فوهة البركان حمما . وقد تبرد أحيانا فتسكون سدادا يد القصة فتخرج الحمم من الشقوق النافذة إلى أحد جوانب البركان وتعمل لها فوهة صغيرة يشيد حولها مخروط صغير على جانب المخروط البركاني . وتسيل الحمم على جانب البركان في كل ناحية فتشيد فيه وتزيد في بنيانه . وعند ما تبرد الحمم تتشقق كما تتشقق الأرض الشراقي فتكون منها أشكال منتظمة كاترى في أعمدة البازلت . ويحدث أن يتحات المخروط البركاني تاركا سدادا القصة وحشو الفوهة فبقي صخرة منعزلة .

﴿ الثوران البركاني ﴾

يخرج من فوهة البركان سحب من بخار الماء المتولد من المياه التي تتسرب إلى جوف الأرض وتختلط بالصخور المنصهرة ، فيطرد البخار الصخور المتخلفة في قبة البركان بعد أن يمزقها كل ممزق ، ثم تخرج سخائب من التراب البركاني الذي يحمل الجو مظلما وينتشر في الآفاق إلى مسافات هائلة ، وتخرج من بعده الحمم والمواد المنصهرة ، فتسيل على الجوانب . ولذلك تجد المخروط البركاني مشيدا من طبقات من الحمم ، وأخرى من الرماد البركاني الذي تنزل به الأمطار للموحلة على البركان . وكما تكرر ثوران البركان تكرر تكوين الطبقات وتشيد الجبل . ومن أعظم الثورات البركانية ثوران بركان كركتوا في سنة ١٨٨٣ . وجزيرة كركتوا هذه في أرخبيل الملايو بين سومطري وجاوى ، تكرر فيها حدوث الزلازل ، وفي صباح ٢٧ أغسطس سنة ١٨٨٣ بدأ الثوران البركاني العظيم ، فسمعت أصوات فرقة الغازات في جنوب استراليا ، وحسف ثلثا الجزيرة غل محل الجبال العالية بحر عمقه ألف قدم ، وهاجت الأمواج الهائلة فطقت على سواحل الجزائر القربية ، وهلك ٣٦٠٠٠ نسمة وخربت نحو ٣٠٠ قرية ، وصار الجو مظلما كالليل في الجهات المجاورة من كثرة التراب البركاني الذي كان يرتفع إلى علو ٢٠ ميلا من الفوهة . وقد انتشر هذا التراب في أجواء العالم فجعل للشفق منظرا شديد الاحمرار حتى في غرب أوروبا . وقد علمت أن في قرار المحيطات طينة حمراء مشتملة على بقايا الحيوانات البحرية ، فهذه الطينة مكوونة في الغالب من الرماد البركاني . انتهى ما أردته في هذا المقام من كتاب الجغرافيا الرشيدة .

فانظر وتعجب ! إن علم الله بما في السموات والأرض لا يحتاج إلى بيان فكل متدين يعلم ذلك ولكن الله كرره في القرآن كثيرا في كل مناسبة وهو إذا علم كل شيء فهو يعلم ما يليق في الأرض وما يخرج منها الخ ولكن لما قرأنا علوم أهل زماننا وجدنا أن ذلك التخصيص بالنص لحكم ظهر بعضها وسيظهر باقيا . علم الله أن المسلمين سيقروءون القرآن ويتامون عن العمل ويتركون الأرض لغيرهم فقال لهم [أيها المسلمون :

أنا أعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج من الأرض ولولا نفعه لكم ما أخرجه منها . هذه البراكين مهلكة ولكنها نعمة لأن وجه الأرض كلما ضعفت الزراعة فيه فلم تأت بالعرض المطلوب . سلطت عوامل سرية على تربة قوية فأظهرت السكتون في باطن الأرض فظهر على وجهها بالبركان ثم أمرت الرياح بحفر به وفرشته وفرقته على الجهات المجاورة . إذن هذا الخروج بعلم وحكمة وتقدير . هكذا الفحم والبتروال والحديد ونحوها] .

(الفحم)

خزن الله الفحم في الأرض أجيالا وأجيالا . وما الفحم إلا مواد نباتية احتجبت في طبقات الأرض عن الهواء دهورا طويلة جرت عليها سلسلة من التغيرات الكيميائية أدت إلى فقد مقدار عظيم من الأيدروجين والأكسجين وبقاء مقدار من الكربون . والكربون يكون في الحشب المعتاد بمقدار نصف ما يكون في الفحم العادي ، ولقد يكون منه في الفحم بنسبة (٨٥) أو (٨٨) في المائة .

هذا كلام علماء الاقتصاد ، ومعنى هذه العبارة أن الحشب يحتوي على ماء (الأكسجين والادروجين) المتقدم ذكره ويحتوى على مادة خموية وهى السكرين ، فبقاء المواد النباتية مئات القرون تحت الأرض يذهب منها أكثر الماء ونحو نصف المادة السكرونية (الفحم الخالص) والباقي من ذلك كثير في الفحم ، وقالوا من أنواع الفحم :

(١) اثراسيت ، وهو لماع صعب الاشعال لانسخ منه اليد ، لهبه قليل أو عديم اللهب ، شديد الحرارة عند الاشتعال .

(٢) الفحم البخارى ، وهو قليل الدخان كثير الحرارة يحفظ للأساطيل .

(٣) غم الغاز .

(٤) غم الكوك ، نافع في المعامل والسكك الحديدية والبواخر ، وفي التنانير لاستخلاص المعادن وصهرها ومعامل الغاز .

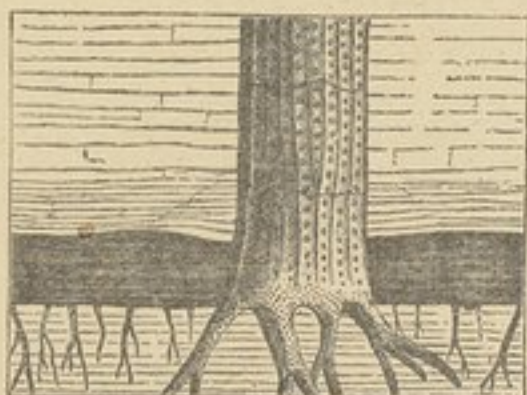
(٥) الفحم على وجه العموم هو المادة الأولية لمئات من الصناعات مثل الكوك المتقدم ، ومنه القار الفحمى ، ومنه زيت القار وهو وقود جيد ، ويعمل من الأول مستخرجات تستعمل في الصباغة وعمل النفتالين والتطهير ، ومنه البترول وغاز النشادر ، وتصنع منه الأسمدة ، ويستخرج من الفحم أيضا بعض الكيمياويات الداخلة في صناعة الطب مثل (السكرين) وهى العطريات والمفرقات وهلم جرا .

فاعجب أيها الذكى لفحم أسود اللون متبوز يكون وقودا وسامادا وعطرا وأداة حرية تهد الحصون ونحرب البلدان وصباغة للثياب وتطهيرا ودواء ، فلئن داوى المريض فقد نما به الزرع وإن صنع الثوب فقد أهلك المدن « إن الله لطيف خبير » .

فهاك أربع صور للفحم انظر (شكل ٣١ و ٣٢ في الصفحة التالية) و (شكل ٢٣ في صفحة ١٤٥) و (شكل ٢٤ في صفحة ١٤٦) .



(شكل ٢١ - منظر رسم هندسي للفحم منظور من معدنه أثناء العمل)



(ج)

(ب)

(أ)

(شكل ٢٢ رسم هندسي بديع)

(أ) هذا هو الجزء الذي تحت الطين مع الجذور الممتدة فيه .

(ب) فرش الفحم وهو أسفل طبقة .

(ج) سقف الفحم مختلطا بالرمل وبنوع من لوح .

هذا هو الفحم الذي خزنه الله في الأرض وأبقاه مئاة الألوف من السنين ثم أبرزه اليوم للناس بعد ما أنضجه وجعله مدار رقى الأمم في الزراعة والصناعة والعلم والحكمة ، ألا ترى أن العقول تزداد بصيرة بمزاولة هذه العجائب ، أبرزه للناس فعرفوه بقولهم واستخرجوه من الأرض ، ولما علم أن المسلمين سينامون طويلا كما نام الذين من قبلهم من الأمم قال سبحانه « يعلم ما يلج في الأرض » (كالأشجار والنباتات في قديم الزمان) « وما يخرج منها » (فهي قد استخرجت اليوم وانتفع بها الناس) لالمسلمين ، فهو يقول إنها بعلى دفنت في الأرض بالزلازل والحوادث السكيرة وبعلى تستخرج الآن ، فعلى متعلق بها في الحالين وهي التي خزنت فيها ضوء الشمس الذي أشرق عليها أيام نوحها ، ثم أنا الآن أظهره لكم لتجنوا نمره وتعرفوا خبره ومثل الفحم البترول .

(زيت البترول)

(أنواعه ومستخرجاته ومنافعه : أشهر جهات العالم به - القوقاز . الولايات المتحدة . وغيرها)
(مصر وزيت البترول فيها)

سبحانك يا الله ! أدهشنا صنعك ، وهبرنا وضعك . جعلت في الأرض ماء ، سلكته ينابيع فيها ومنها
الينابيع الحارة التي رسمت في [سورة الكهف] في أولها عند قوله تعالى « إنا جعلنا ماء على الأرض زينة
لها » فهناك من زينة الأرض قد رسم نوعان من العيون الحارة المرتفع ماؤها عن الأرض : نوع ينبع وسط
الثلج . ونوع ينبع وسط الحجارة الصفراء . وهكذا تراك جعلت في الأرض أيضا المعادن والفحم المتقدم ذكره .
وهكذا تراك أجريت منها سائلا ننتفع به في أعمالنا . فلم يقتصر عملك على الفحم الذي هو جامد بل خلقت لنا
جسما سائلا وخزنته في الأرض . أليس هذا من العجب ! تخالق الزيت في الزيتون وفي السمسم وفي برة القطن
وفي غيرها وتجعله نافعا لنا مضيئا لمنازلنا وهكذا شحم الحيوان . كل ذلك فوق الأرض مشاكلة لما أبدعته من
الأنوار التي أرسلتها من علياء سمواتك .



(شكل ٢٣ - رسم الأعشاب في مدة الفحم الحجري)



(شكل ٢٤)

يا الله . سموات مشرقا بكواكبها ، وحيوان فيه دهن يعطينا نورا مشرقا بدهنه ونبات كذلك ، وغم في باطن الأرض ثم ما نحن فيه وهو البترول ، نعم لا عجب في ذلك ، لماذا ؟ لأنك نور السموات والأرض ، وهكذا أرت بصائرنا بالعلم والحواس وبالعقل ، نورك في كل مكان ، وجمالك في كل مكان . هذا البترول نراه يفيض على سطح الأرض كما نرى الماء ينبع من بعض العيون . وما هذا البترول النابع الظاهر على وجه الأرض . ولا هذا الماء النابع إلا درس لنا . تقول لنا : أيها الناس ، إن في الأرض الماء فاطلبوه بحكم ولا تتسكوا على ما ظهر منه ، وهو هذا النابع .

سبحانك اللهم . أنت فعلت هذا وفعلت نظيره إرسال الأنبياء . أرسلت أنبياء وأعطيتهم العلم وحياء ، وكأنك تخاطبنا قائلا : أيها النوام ، وبحكم . ها هوذا علمي فاض على بعض عبادي كما يفيض الماء من باطن الأرض بلا عمل . ومعنى هذا أن عندي علوما وقد أظهرت بعضها فالتمسوا علومي بحكم كما التمس الماء من باطن الأرض بعملكم وقد رأيتم ماء نابعاً منها . وها هو ذا البترول فاض على سطح الأرض أظهرت بعضه بهذا الفيضان . لماذا ؟ لأريكم أن عندي منه كثيرا فالتمسوه . نعم التمس الناس البترول من باطن الأرض فخرج :

(١) زيت طبيعي أسود قائم ثقيل فأجروا عليه عمليات كثيرة وصفوه بها ، فخرج منه أنواع وأصناف تختلف وزنا وسيلانا وغيرهما من الخواص ، وباختلاف الخواص تختلف الأعمال وللناس أسماء . فمنها :

(٢) صنف خفيف يسمى (كيروسين) وهذا مستعمل للاضاءة .

(٣) وصنف آخر ثقيل يستعمل للوقود .

(٤) وصنف آخر يستعمل للصقل لأثقل منهما . وتسمى الزيوت المستخرجة من الولايات المتحدة باسم

(٥) زيوت البرافين .

(٦) ومن عجب أن هذا الاسم لا يطلق في إنكلترا إلا على نوع الزيوت التي يستخرجونها بالتقطير .

وبينا أنا أكتب هذا إذ حضر بعض الأصدقاء فقال : كيف يكون التقطير هنا ؟ أيقطر من نبات ؟ قلت :

كلا . قال أيقطر من باطن الأرض . قلت . كلا . قال إذن مم يقطر ؟ قلت يقطر من صخور قال وكيف ذلك

قلت قد كشفه رجل إنجليزي يسمى (المستر جيمس بانج) عثر عليه وهو يبحث عن الزيت الطبيعي المتقدم .

ذلك أنه رأى ذلك الزيت يسيل من سقف أحد المناجم بمقاطعة (در بشير) بإنكلترا فلاحته له فكرة أن

يستخرج هذا من الفحم الخالص فاستقطره فنجح وأحرز رخصة بمزاولة هذا العمل سنة ١٨٥٠ فاستخرج

زيت البرافين المذكور ثم استخرج مادة البرافين المشهورة . ثم إن هذه الصخور الفحمية تكون بإنكلترا

وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا والهند وأستراليا ، وزيتها كما عرفت يشبه البترول ويستعمل مثل استعماله . وليست

طريقة استحضاره بالآلات الماصة كما في الزيت الآخر . كلا . بل الطريقة هنا أنهم يصهرون الصخور في أوعية

حتى يتبخر زيتها فيستقبلونه ويكثفونه فيكون زيتا خالصا . ومن العجب أن زيوت البترول والبرافين

أصبحت ذات شهرة واسعة بل إنها أغنت عن الزيت النباتي والحيواني . لماذا ؟ لأن الله نور السموات والأرض

ولأنه واسع علم ولأنه لطيف لما يشاء . هو الذي خزن ذلك في الأرض ووضع على (نمطين) نمط هو

سائل وهو البترول . ونمط هو جامد وهو زيت البرافين . فيستنبط الناس الأول من الأرض ويستنبطون

الثاني من الحجارة والنتيجة واحدة . وقد أصبحت تلك الزيوت المستنبطة من الأرض أو من حجارة الفحم

تغني عن زيت الزيتون الذي كانت تفخر به إيطاليا ومعظم ممالك البحر الأبيض الشهيرة من قديم لكثرة أشجاره

فيها ، فترى الناس يختارون زيت البترول للصقل لأنه يبقى مدة طويلة بلا تجمد أو لزوجة كما يحصل للزيوت

النباتية والحيوانية فإنها بهذا السبب تلتصق بالمواد التي يراد صقلها ولا يتم الانتفاع بها الآن على الوجه الأكمل

الأحسن إلا إذا مزجت بمقدار من زيت البترول . إذن الله يقول لنا « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها »

والإخراج قد يكون بالآلات الماصة وقد يكون بالاستقطار من الأحجار ، فهو يعلم أن مثل هذا النوع للمستنبط

يساعد في الأحوال العملية كالصقل المذكور إذ الزيت الذي خلقته على ظهر الأرض فيه نقص فاحتاج إلى الكمال

فأخرجت لكم زيت البترول من باطن الأرض لأدلكم على ما وراء ذلك وكذلك أنزل قطرات من الفحم الحجري

ليدلكم على ما فيه وأنتم لا تستكملون ذلك بعملكم . إذن هذه مخازن الله خزنها في أرضه وصخوره ودلنا عليها

وعلم منفعتها ثم قال للمسلمين استخراجوها كما استخراجتها الأمم قبلكم لأن هذا من فروض الكفايات وفروض

الكفايات لها مقام عال في الإسلام ، وأيضا أنا سخرت لكم ما في السموات والأرض وهذا مما في الأرض أفلا

تشكرون نعمتي أيها المسلمون ؟ وشكر النعمة بفهمها أولا وقبولها ثانيا ، أما الفهم فما هو ذا وأما القبول

فبالعمل وبالعمل قد استخرج الناس من زيت البترول ما يأتي :

(٧) زيت الفازلين : وهو زيت خفيف جدا يتولد منه غاز سريع الاحتراق يسمونه (بترول) فقط

وهو المستعمل في تسيير السيارات وما شاكلها .

(٨) والبنزين يحتاج إليه كثيرا في صناعة اللطاط (والفوطايرشا) لما فيه من خاصية إذابتهما .

(٩) والفازلين ويستعمل دهانا ومنافعه شتى في الشؤون الطبية .

(١٠) والريغولين وهو أكثر زيوت البترول تطايراً ، ويستعمل أحياناً في الطب للتخدير المحلى الذى يحدث في العضو من البرودة الشديدة التى تعقب تطايره .

(١١) والنفثالين (النفط) وغير ذلك من المواد النافعة .

ثم إن أشهر جهات العالم في استخراج زيت البترول إنما هي بلاد القوقاز لدى شطوط البحر الأسود وعلى جوانب بلاد القوقاز على حدود فارس عند (مرو) وأشهر مراكزه [الوردان : للورد الأول] على جانب القوقاز الجنوبي وميناؤه (باطوم) على البحر الأسود (المورد الثاني) على بحر قزوين وميناؤه (باكو) . وآبار هذه الجهة معروفة من قديم الزمان وكان الفرس يزورونها ليعبدوا النار في غازاتها الملهبة للندامة من جوف الأرض ، ولقد تقدم في (سورة طه) عند قوله تعالى « وقال رب زدنى علماً » الكلام على اندلاع النار في تلك الأقطار فارجع إليه واقراً صور ذلك هناك واعجب من حكم تجلّت في هذه الدنيا . ثم إن هذا المورد لم ينفع الناس منفعة تامة إلا حين خرج من قبضة الفرس إلى الروس في أوائل القرن التاسع عشر ، وليس في الأرض مكان فيه من كثرة الزيت ما في هذه الأمكنة إذ يتدفق الزيت هناك على جوانب الآبار من غير حاجة إلى استنباطه بالآلات ، وتنبت البئر في اليوم الواحد (مليون غالون) وقد يتدفق الزيت بشدة فينتزع الأجهزة المركبة على فوهات الآبار ويقذف بها في الجو مسافات .

وبلى هذه الجهات في استخراجه (الولايات المتحدة) وفيها الآن (٢٠٠٠٠) بئر وفيها نحو (٤٠٠٠٠) برميل من الأنايب لنقل الزيت إلى المصافي في بلاد مركزية . ومن هذه يوزع في طول البلاد وعرضها أو ينقل إلى الموانئ للتصدير ، ثم إن صناعة الحديد والصلب والزجاج وغيرها تقوم بجوار تلك الينابيع . هذه أشهر البلاد التي يستخرج منها الزيت ، ومن البلاد التي يستخرج منها الزيت المذكور مصر والسكنة قليل ، ففيها (شركة زيت إنجليزية مصرية) جنوب السويس عند البحر الأحمر وانتظم العمل بها سنة ١٩١١ وتحت إمرتها (آبار حمسة) و (آبار هر غادة) . ويستخرجون منه بترول السيارات وبترول الإضاءة ومائل الحريق وزيوت الصقل وغير ذلك اه .

﴿ عبرة ﴾

اعلم أيها الذكي أن بلاد المسلمين قد خزن الله فيها للناس خيرات . فهل الله عز وجل يمنع النعم عن خاقه لأن المسلمين يحولونها « إن الله لطيف لما يشاء » حكيم الصنع جزيل الإحسان . هذه دولة روسيا لما ملكت منابع البترول استخرجته ، ولما كانت ملك بلاد الفرس كانت محجوبة عن الأمم .

أيها المسلمون : اعلموا أن الأرض خالق الله وأنا عبيد الله والله عز وجل الذى خلقنا وخلق الأمم حولنا لا يمكن أن يرضى بتعطيل منافع ملكه لأجل جهل بعض عباده ، فهل يظن المسلمون أنهم إذا عطوا نعم الله يرضى هو بذلك . كلا . بل هو ينزع الأرض منهم ويعطيها لغيرهم ، وهل خلق الفحم وزيت البترول مثلاً وهكذا العادن ؟ هل هذه كلها خلقها الله ليحببها عن الناس . كلا . فأنه خلق المنافع وبها في الأرض ومتى خلق من يستحقها لا يمنعها عنه كما لم يمنع الله كور عن زواج الإناث لما في ذلك من المنافع ، فإذا جهل المسلمون منافع أرضهم سلط غيرهم عليها فأخذوها وانتفعوا بها وهو القائل « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعين » . لو خلق الله هذه المنافع ثم هو يمنعها إلى الأبد لسكان ذلك عبثاً والله يجل عن العبث وهو الحكيم ، هو الذى يقول « يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها » أى ويعلم من يمنع منافعها فيذله ومن يستخرجها فيساعد له أنه حكيم عليم ، والحكيم لا يخلق إلا الحكمة ، ولا يعطى النعمة إلا لمن يستحقها ، فليعلم المسلمون مركزهم من الإنسانية حتى ينطبق عليهم قوله تعالى « خير أمة أخرجت للناس » انتهى .

جمال العلم

في قوله تعالى « وما يخرج منها »

جاء في كتاب « الجغرافيا الرشيدة » تحت العنوان التالي مانصه :

الينابيع المحجرة

كثيرا ما يجري الماء مذابا فيه الجير فيسكوا كل ما يصادفه من الأشياء بطيقة قد تغير الآثار الحية فتجعلها متحجرة ، ولا شك في أن الغابة المتحجرة في هليوبوليس تكونت بتأثير ينابيع حارة مذابا فيها الرمل .

﴿ الصخور الرسوبية الكيميائية ﴾

فالجبس الذي رأيناه في الأعمدة من الصخور الرسوبية للتكونة بتأثير كيميائي ناتج من ذوبان الصخور الجيرية . ومثله صخور الملح . وفي فكاكزة بالقرب من كراكو في تشيكوسلوفاكيا أعظم مناجم الملح في العالم ، فهناك مدينة بنامها منحوتة تحت الأرض في صخور الملح .

﴿ أنواع الصخور الرسوبية ﴾

فن أنواع الصخور الرسوبية الطين والحجر الرملي وهما من الرواسب العادية ، والجير والرجان من البقايا الحيوانية ، والفحم من البقايا النباتية ، والجبس والملح من الصخور التي تكونت بعوامل كيميائية .

﴿ الصخور الرسوبية المتحولة ﴾

وقد يطرأ على بعض صنف هذه الصخور تحوّل بسبب الضغط أو الحرارة أو حركات القشرة الأرضية ، فيغير شكل الصخر ومميزاته ويزداد صلابته ولعنا ، فمثلا الاردواز أصله الطين والرخام أصله الطباشير .

﴿ الصخور غير الرسوبية والصخور النارية ﴾

هاك نوعا آخر من الصخور مختلفا عن كل ما وصفنا لك إلى الآن . هذا حجر الجرانيت الذي سمعت عنه كثيرا في الآثار المصرية كالمسلات والتمائيل . خذ قطعة منه واخصها تجد أنه ليست له حبات مستديرة ، بل يتكون من ثلاثة أنواع من الصخور البلورية المختلفة الشكل : فمنها الفلسيار بلون اللحم الأحمر ، والليكا ذات اللون الأسود اللامع المنضض ، والكوارتز الذي تكونت منه حبات الرمل . وليس لوضع أجزائه أي نظام ، وليس له طبقات ولا فيه حوز بل هو من صنع الطبيعة ذاتها . وبريق أجزائه بذلك في الحال على تكونه بالحرارة فهذا الصخر ناري من الصخور الأصلية التي تكونت منها قشرة الأرض قبل الصخور الرسوبية . والصخور الرسوبية كلها مشتقة في الأصل من هذه الصخور النارية . وهاك نوعا آخر من الصخور النارية وهو الطفح الذي يخرج من البراكين وترى فيه فقائيع غازية ويسمى صخرا بركانيا ، تميزا له عن مثل الجرانيت الذي تكون بهدوء تحت سطح الأرض . وهذا جدول يلخص لك تقسيم الصخور على أكمل وجه :

﴿ الصخور ﴾

(١) متحولة (ب) ومائية (ج) ونارية

(١) الصخور للمتحوّلة (١) مائية الأصل كالاردواز من الطين (٢) ونارية الأصل كالجبس من الجرانيت

(ب) الصخور للمائية (١) تكون عضوية كالجبس والفحم (٢) وكيميائية كالمحجج والجير (هكذا بالأصل)

(٣) ورسوبية كالطين والحجر الرملي .

(ج) الصخور النارية (١) البركانية كالبازلت (٢) والباطنية كالجرانيت هـ .

نموذج التمارين التي اعتاد المدرسون أن يسألوا التلاميذ فيها

- (١) صف مجموعة من الحفريات التي تجدها في جبال المقطم . ما الذي تستنبطه من وجود هذه الأصداف عالية في الجبال ؟
- (٢) أغلب الآثار المصرية مطمورة بالطين إلى علو أربعة أمتار ، فإذا كان عمر الآثار أربعة آلاف سنة ، فما سمك طبقة الغرين التي ترسب على أرض مصر سنويا من الفيضان ؟
- (٣) من أي أنواع الصخور البازلت والرخام ؟ علل وجود الرخام في جهة أبي زعبل تحت طبقات البازلت .
- (٤) في شرق هليوبوليس غابة متحجرة . ماذا تظن السبب في وجودها ؟
- (٥) بمجوار ساحل البحر الأبيض المتوسط في مصر ملاحات عظيمة . وضح كيف يحصلون على الملح منها وبأي كيفية تكونت صخور الملح العظيمة في فسلكسكرة ؟
- (٦) ما الذي تعرفه عن أصل الفحم الحجري ؟ وماذا في هيئة الفحم يؤيد نظريتك ؟
- (٧) ما الأدلة على حرارة جوف الأرض وماذا تعتقد بشأن أصل هذه الحرارة ؟
- (٨) أي أنواع البحار يلائم النمو المرجاني ، كيف تعلق وجود الجزائر والحواجز المرجانية في البحار العميقة ؟
- (٩) ما سبب تكوين المغارات في الصخور الجيرية ، أي نوع من أشكال التضاريس يخلف المغارة الطويلة إذا سقط سقفها على أرضها ؟
- (١٠) كيف تكونت عمق الجبس في المغارات الجيرية ؟
- (١١) اذكر أمثلة من الصخور النارية الباطنية والبركانية والمتحولة .

حركات القشرة الأرضية

﴿ الزلازل والبراكين والنافورات ﴾

قد اتضح لك أن الصخور الرسوبية تكونت في قرار الماء ، وأن وجودها فوق ظهر الأرض مثير للعجب ومشوق لمعرفة السبب ، وبالأخص لوجود هذه الصخور في أغلب بقاع اليابس . فالسبب لا يمكن أن يكون إلا أحد أمرين : فإما أن ماء المحيط كان في العصور الحالية فوق جميع اليابس ، وإما أن قشرة الأرض هي التي تتلوى وتنتفي في مختلف الاتجاهات . وسنبين لك حالا أن السبب الأخير هو الصحيح .

﴿ السواحل الطالعة والسواحل النازلة ﴾

لمحيط الأطلسي ساحلان : ساحل شرقي وهو المجاور لأوروبا وأفريقية ، وساحل غربي وهو المجاور لأمريكا ، فإذا زرت الأقاليم الشرقية في الولايات المتحدة تجد السهل المجاور للمحيط الأطلسي مكونا من الصخور الرسوبية الحديثة العهد ، حتى إذا وصلت إلى شرق جبال اليجني وجدتها محززة بمحزوز أفقية متوازية تشبه الحزوز التي تعملها الأمواج في صخور الشواطئ البحرية في أيامنا هذه ، وتجد في الجبال كهوفا ومغارات لا يشبهها إلا الكهوف والمغارات التي تنحتها أمواج البحار . ولا يغيب عنك وجود الحفريات من أشكال القواقع والأصداف والسمك التي تعيش في المحيط الأطلسي حتى الآن . فلا يمكن أن يبقى في نفسك أي شك في أن هذا السهل الساحلي قد برز من أعماق البحر . فهل انحسر عنه الماء ، إذا كان ذلك كذلك فينبغي أن يكون الماء قد انحسر أيضا عن شواطئ أوروبا الغربية فترداد علوا عن سطح الماء ، ويكون انحسار الماء عن السواحل عاما مآله انتهاء الماء من هذه الدنيا . ولكن هذا غير صحيح ، والواقع يكذبه ، لأن سواحل أوروبا الغربية

آخذة في المهبوط التدريجي تحت سطح الماء، فقد كان للرومان مبان في غرب إيرلندة، وكانت هذه المباني مشرفة على ساحل المحيط الأطلسي ولم يكن الماء يغطي عليها طبعاً، وقد أصبحت الآن غائرة تحت مستوى ماء المحيط، فلا تظهر إلا وقت جزر البحر، وتعمرها المياه وقت المد. فبتبين لك من ذلك أن البحر لا ينقص ماؤه وأن قشرة الأرض هي التي تلتوى وتثنى، وليس ذلك في جهات قليلة من وجه الأرض بل هي حركات آثارها ظاهرة في كل موضع على اليابس وتحت الماء.

﴿ الجبال الحديثة والجبال القديمة ﴾

نأمل في خريطة الدنيا تر أعظم سلاسل الجبال الحالية موجودة في اتجاهات معينة : فهي في الغالب على حافة المحيطات الكبرى، أو عند مجمع القارات (كما هو الحال في حوض البحر الأبيض المتوسط). وفي هذا الوضع المنتظم دلالة على العوامل التي أوجدتها. فالقشرة الأرضية تلتوى وتثنى فيظهر أثر هذا الالتواء في أضعف جهاتها. فأعظم جبال الدنيا مثل روكي وأندس والألب وهمالية من الجبال الحديثة التي برزت من قرار البحر في أزمنة قريبة. والأزمنة الجيولوجية لا تقاس بالسنين ولا بالقرون، ولكنها أحقاب طويلة بكل عن إدراكها الحاسب.

﴿ عامل الوجود وعامل الفناء وعملية التوازن ﴾

لا يمكن أن تبرز الجبال والسهول من البحر فتريد مسطح اليابس وحجمه بلامقابل، فإن من المسلم به في كل معاملة الموازنة بين الوارد والمنصرف وإلا انتهى الأمر بالفلاس أحد الطرفين المتعاملين، فما الذي يكسبه البحر عوض ما يخرج منه من الأراضي الجديدة والجبال الحديثة؟ إن الذي يستفيدة في مقابل ذلك ما تجلبه له الأنهار، يساعدها في ذلك عوامل الفناء الأخرى المعروفة بعوامل التعرية التي تتسلط على الجبال من وقت ظهورها بمعاول الفناء فتحتها وتجرفها ولا يهدأ لها بال حتى تكشطها من على وجه الأرض وتبعث بأبقاضها مع الماء الجاري إلى المحيط، تدفع بذلك ثمن الأراضي الجديدة التي تبرز منه.

﴿ أسباب حركات القشرة الأرضية ﴾

(١) علمت أن الأرض تدور على محورها باستمرار، وهذا الدوران من شأنه أن يغير شكل الأرض كما تتغير أوضاع جبوب القمح وقت هز الكيلة، وأن هذا الدوران هو الذي أعطى الأرض شكلها الخاص بها والذي جعل القطر الاستوائى أطول من المحور، ففي القديم الغابر لما كانت الأرض كلها سائلة أولينة كان هذا التغير سهلاً ولكنه قد صعب الآن بعد أن جمدت الأرض وتصلبت قشرتها فلا يتم بدون طي الصخور المرنة وكسر الصخور الشديدة الصلابة.

(٢) كانت الأرض قبل أن تفقد شيئاً من حرارتها أعظم حجماً وكلما نقصت الحرارة بتقلص قلب الأرض فنضطر صخور القشرة أن تثنى وتنكسر لكي تنطبق عليه كما تثنى ملابس الرجل البدين إذا هزل جسمه بسبب المرض، ويدفعها لذلك (أمران : الأول) جذب مركز الأرض لها من تحت (والثاني) ضغط الطبقات الهوائية عليها من فوق.

(٣) إن متوسط الثقل النوعي لصخور الكرة الأرضية أكثر من خمسة أضعاف الثقل النوعي للماء على حين أن الثقل النوعي لصخور القشرة لا يزيد على الضعفين إلا قليلاً، ومعنى ذلك أن الصخور الخفيفة هي الموجودة على وجه الأرض في حين أن الصخور الثقيلة موجودة في قلبها وذلك بدسهي، إذ أن الخفيف من طبعه أن يطفو فوق الثقيل، وقد حصل هذا الترتيب أيام كانت الأرض في حالة سائلة والصخور مرتبة على وجه الأرض بشكل يحفظ التوازن بمعنى أن الصخور التي في قرار المحيط ثقيلة النوع وصخور الجبال المجاورة له

خفيفة ، وبذلك أمكن قيام الأخيرة محمولة بضغط الأولى ، لكن عوامل التعرية التي أشرنا إليها آتفا دائبة في إفناء الجبال والأنهار تحمل الأتقاض إلى البحر أول فأول ، فيزيد الضغط في قرار البحر ويغف على جبال اليابس باستمرار ويختل التوازن لولا حركات القشرة الأرضية التي تعيده إلى حاله كما ترزعع .

﴿ نتائج حركات القشرة الأرضية ﴾

ينتج من حركات القشرة الأرضية ببيان السلاسل الجبلية الحديثة وطغيان البحر التدريجي على جهات بارزة كما ينتج منها كسر الصخور الصلبة وتشققها وانزلاق طبقاتها بعضها على بعض فتنشأ عنها تضاريس جديدة وتغير اتجاهات المياه الجارية وقد تنشأ كسور متقاربة فيترب عليها وجود أخاديد غائرة أو هضبات مدفوعة .

﴿ ببيان الجبال ﴾

قد رأيت أن أهم السلاسل الجبلية في الدنيا واقعة في اتجاهات معلومة فهي من جبال الطى . ومن جبال الطى أيضا سلاسل أصغر منها في القارات . فاذا لحصت طبقات تلك الجبال رأينا منحنية تدل على التواء . ثم تنشأ ثلاث طبقات من الصخور الرسوبية مرتكزة على طبقة من الصخور النارية في وضعها الطبيعي قبل الالتواء ، ومفهوم طبعا أن الصخور العليا هي الحديثة وأن التي تحميها هي القديمة . فالطبقة الثالثة أحدث من الطبقة الثانية وهذه أحدث من الطبقة الأولى والطبقة التي تحت الجميع من الصخور النارية الأصلية . ولكن عوامل التعرية لا تلبث أن تعبت بهذه الجبال فتكشط سطحها ونحتها وتجرف منها .

فاذا رغبت في ارتفاع الجبل تصادف أولا الطبقة الثالثة ثم الطبقة الثانية ثم الطبقة الأولى حتى إذا ارتقيت إلى أعلى الجبل وصلت إلى الصخور القديمة النارية . ومن ذلك تعرف كيف أن الصخور التي كانت بعيدة عن وجه الأرض قد ارتفعت بحركات القشرة الأرضية ثم انكشف عنها غطاؤها بفعل التعرية فأصبحت ظاهرة قريبة للإنسان لينتفع بها في أغراضه .

﴿ كسر الصخور الصلبة ﴾

يصادف المعدنون أحيانا وهم يتعقبون عرقا من فلزات المعادن أو طبقة من طبقات الفحم عينا في الطبقات: أى كسرا ، إذ ينتهي العرق أو الطبقة فجأة فيوجد بدلها صخور أخرى كان ينبغي وجودها فوق العرق أو تحتها .

﴿ الأخاديد الغائرة ﴾

في الصخور التي تصاب بعيوب متعددة قد يحصل أن تنزلق قطعة من القشرة الأرضية فتهدم إلى عمق كبير وينشأ عن ذلك أخدود غائر ، وفي شمال أفريقيا أخدودان غائران يقع البحر الأحمر بأكله ضمن واحد منهما .

﴿ الهضبات الرفوعة ﴾

وقد يحدث أن تنور الأرض من جوانب جزء من القشرة الأرضية وتنزلق عليه نازلة على حين أنها تدفعه صاعدا فيظل قائما بنفسه على شكل هضبة مدفوعة ، وهضبة (مزينة) المتكون منها أرض إسبانيا والبرتغال من هذا الطراز .

﴿ الجبال المختلفة ﴾

والهضبة إذا شققها الأنهار والوديان يتخلف منها سلاسل جبلية تفصل أحواض الأنهار ، فهذه السلاسل الجبلية متخلفة من صخور الهضبة ، وسلاسل جبال شبه جزيرة إيبيريا من هذا الطراز .

﴿ الزلازل ﴾

﴿ الزلازل ﴾

قلما يمر العام من غير أن نسمع بوقوع زلزال في جهة من جهات الدنيا؛ فمرة نسمع عنه في غرب أمريكا أو جزائر الهند الشرقية . ومرة نسمع عنه في اليابان أو في إيطاليا . ولا يمر خبر الزلزال بهدوء كباقي الأخبار لما يقترب به من الحسائر الفادحة والأهوال السكبارة وهلاك الأتفس والأموال . وقد وقع زلزال في ليلة (٢٦) يونيه سنة ١٩٢٦ م شعر به أهل القطر المصري في الساعة التاسعة والدقيقة ٤٨ مساءً ومكث نحو (٤) دقائق هلمت له قلوب الأهالي وحدثت بعض إصابات من سقوط المنازل القديمة . ووردت التلغرافات في الأيام التالية منبثة عن مركز الزلزلة الكبرى في (بحر الأرخيل) وهي التي انتشرت هزاتها إلى مصر . وكان من الآثار الهامة لذلك الزلزال انفجار ينبوع كبرى جديد في مدينة حلوان على بعد (٩) أمطار من ينبوع القديم . ومن الزلازل التاريخية العظيمة ما يأتي بيانه :

(١) زلزال (سان فرنسكو) في سنة ١٩٠٦ م وفيه وقعت من هول الرجفة الأولى العمارات والمنازل فأصبحت بعد النضارة وال عمران خرائب وأطلالا . وما زالت روادف هذه الرجفة تهر القشرة الأرضية طول ذلك اليوم العصيب حتى بلغت أدوار الارتجاج اثنين وثلاثين دورا . وهاجت أمواج البحر ثم فطرت الأرض فاهما لتبلغ آثار العمران . واشتعلت النيران في الحطام وهلكت ألف نفس بشرية وبات مائتا ألف بلا مأوى .

(٢) زلزال (لشبونة) في سنة ١٧٥٥ وفيه نشأت أمواج عالية طفت على الشاطئ من ارتفاع عشرين قدما فطاحت بالسفن الراسية في البناء إلى جهات داخلية بعيدة وبعثرتها كما يبذر الزارع الحب على الأرض وأهلكت ستين ألف نسمة غرقا .

(٣) زلزال (مسينا) في سنة ١٩٠٨ م وفيه تخربت المدينتان (مسينا) و (رجبو) والقرى المجاورة لهما وهلك ثمانون ألف نسمة .

(٤) زلزال (اليابان) في سنة ١٩٢٣ م وفيه تخربت المدن الكبرى وقامت الحرائق في (يوقوغاما) و (طوكيو) فأكلت المؤن والأقوات وبات الناس بلا مأوى ولا طعام، وهلك فيه مائتا ألف نسمة . وتبارت الدول العظمى في مواساة (اليابان) فأرسلت إليها الهدايا من الأقوات والملابس . انتهى ما أردته من الكتاب المذكور ، والله أعلم .

(جمال هذا المبحث العام)

(في قوله تعالى « يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها » الخ)

لا تختم هذا المقال بالكلام على الفحم الخزون في القطب الشمالي ، وعلى الكهروباة الخزون الآن في شمالي ألمانيا فأقول :

سبحانك اللهم ، أنت أدرت الأرض وجعلت لها قوانين وحكمت على خط الاستواء قديما أن يصير قطبا كما حكمت على القطب أن يصير خطا استواء ، إن جميع أهل الأرض الآن يعلمون أن القطبين لا يصلحان لظهور النبات ولكن العلم والكشف أثبتا أن القطبين قد خفي الفحم في باطنهما ، ولكن كيف خفي ذلك الفحم ، لا وسيلة لظهور الفحم إلا بالشجر ولا ظهور للشجر إلا بحرارة الشمس الكثيرة ، والقطبان لحرارة فيهما بل الثلج هو الذي يغطي تلك الأقطار ، فإذن نحلى خط الاستواء بالأشجار والزارع النضرة لتحلين القطبان بالثلج ، تشع حوله الأنوار البديعة المتقدم ذكرها ورممها في أول (سورة الكهف) أنك ما شاع وذاع من أن باطن الأرض عند القطبين مملوء فخما ، أفلا تعجب من ذلك وكيف خزنه الله قيل مئات الألوف من السنين ؟ ثم هو الآن قد أخذ يدل الناس عليه ويلمهم إلهاما ، يقول لهم : أيها الناس ، إن في القطبين فخما فهلا ذهبتم إلى القطب الشمالي وانتمتعتم به ، وهلا جعلتم لكم هناك محطة للطائرات والباليونات

في القطب الشمالي تكون ملتقى الخطوط الهوائية بين أفريقيا وآسيا وأوروبا ، وإذا كنت في شك من ذلك فاسمع ما كتبه بعضهم ناقلا عن المجلات الافرنجية وهذا نصه :

(حلم علمي)

(القطب الشمالي ملتقى الخطوط الهوائية)

القطب الشمالي هو قمة الأرض ، وكان يجب أن يكون ملتقى المواصلات لولا أنه لا يصلح للملاحة أو للسكك الحديدية فإنه مغمور بالثلج الذي لا يذوب طول السنة ، وقد خطر ببال أحد المهندسين أن يجعل القطب الشمالي ملتقى الخطوط الهوائية بين القارات الثلاث أفريقيا وأوروبا وآسيا ، وبذلك تختصر المسافة اختصارا كبيرا ، فالذي يريد الذهاب إلى اليابان يحتاج الآن إلى أن يقطع نحو نصف الأرض حتى يبلغها ، ولكنه إذا ركب طائرة وصعد إلى القطب الشمالي واحذر منه إلى اليابان قصرت مسافة السفر ، وفي القطب الشمالي مناجم كبيرة للفحم يمكن منها استنباط الكهرباء لتدفئة والإضاءة فيناج القطب وتبني فيه العنابر الكبيرة لا يواء الطائرات وتزويدها بالبنزين وتشيد الفنادق الكبيرة للمسافرين . وهناك يلتقي المسافرون فيبدلون طياراتهم ويذهب كل منهم في طريقه ، فهل يحقق العلم هذا الحلم ، ولطالما حقق ما هو أشد منه غرابة . انتهى .

هذا بعض سر قوله تعالى « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها » فما هو ذا الفحم قد أدخله الله في الأرض ، وما هو ذا يخرج منها وينتفع الناس به .

ومن عجائب الخزونات في الأرض [الكهرباء . الكهرمان] لقد كنت أيام الصبا أرى الناس يدخلون في الأعواد بحيث يضعون ورق التبغ في حق صغير متصل بعود مجوف ينتهي بفم من (الكهرمان) وهذا الفحم هو الذي يمتصون به الدخان للستمد من ذلك التبغ المحترق في ذلك الحق الصغير ، فكنت أتأمله فلا أعرف من أين جاء هذا الكهرمان ، ولا كنت أدري أن الله خزنه في الأرض قديما كما خزن الفحم في الأقطاب الشمالية ، أفلا يجب على أن أحمد الله على العلم بذلك ، فهناك ما رأيته من المقالات العلمية تحت العنوان التالي :

(الكهرباء . الكهرمان)

الكهرباء هو ما يسميه العامة عندنا بالكهرمان وهو ذلك الحجر الأصفر اللامع الذي يصنع منه خرز المساج ويترين به النساء ، وقد كان الإغريق يعرفون الكهرباء وكانوا يعرفون منه أيضا (الكهربائية) وهي تلك القوة الخفية التي نستعملها الآن في دفع الترام والتلفون والتليفون ، ولم يكن الإغريق يعرفون كيف ينتفعون بالكهربائية كما نتفع ولكنهم كانوا يعرفونها وقد أطلقوا عليها هذا الاسم لأن من خواص حجر الكهرباء إذا حكت به شيء أن يجذب إليه الأجسام الصغيرة ، فالقارى يرى الآن أن هنالك فرقا بين الكهرباء الذي يصنع منه الخرز وبين الكهربائية إذ هي القوة الخفية التي يسير بها الترام ولكن يوجد لسوء الحظ من يخلط اللفظتين .

وقد قلنا إن الكهرباء حجر ولكن الحقيقة أنه صمغ . أو نقول بعبارة أدق إنه لثي ، واللثي هو ما ينزل من الشجر إذا جرحت قشرته كالمادة اللبنة التي تخرج من (شجرة الجوز) عند ما تقطع إحدى أوراقها ، ولكن هناك أشجار الآن يستخرج منها الكهرباء ، وإنما الكهرباء يوجد الآن مدفونا في الرمال تحت طبقات الأرض فقد عاشت منذ آلاف السنين أشجار ثم طمرتها الرمال فصارت حفا . وهناك أشجار أخرى أيضا كانت تنزل الكهرباء فيقع منها طريا ثم يجف وبعضه كانت تطمره الرمال وبعضه لا يزال قريبا من سطح الأرض

كثيرا ما تكتسحه الأمطار وتخرجه إلى السطح ، أما أشجار الكهرباء فقد انقرضت من العالم كما انقرضت من قبلها بآلاف القرون الأشجار التي استحالت إلى فحم . ومعظم بل كل ما يوجد تقريبا من الكهرباء الآن يرسل من شمال ألمانيا على شواطئ بحر البلطيق ، ففي كل عام يصدر من هذه الشواطئ إلى أسواق العالم نحو مائتي ألف رطل . وقد كان المصريون والإغريق والفينيقيون يستوردون الكهرباء من شمال ألمانيا وكانت طرق الكهرباء معروفة في أوروبا محروسة من القبائل . وكان القدماء يغالون به حتى قال (بليني) الكاتب الروماني الذي عاش في القرن الأول للميلاد [إن تمثالا صغيرا من الكهرباء يزيد ثمنه على ثمن عبد ضخم قوي] وكان شعراء الإغريق يستسلمون للخيال في كلامهم عن الكهرباء . ومن أجمل ما قاله بعضهم عنه إنه الدموع المتجمدة للطيور . وقد بلغ من شغف الامبراطور الروماني (نيرون) بالكهرباء أنه أرسل بعثة إلى شاطئ بحر البلطيق لجلب معها (١٣٠٠٠) رطل من الكهرباء . انتهى وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني .

الفصل الثالث

(في مبحثين عظيمين)

(الأول) مبحث الجن وهل يعلمون الغيب ؟

(المبحث الثاني) في سيل العرم وسبأ ، وما جاء في العلم الحديث مصداقا لهذا كله .

(المبحث الأول : في مقامين)

(المقام الأول) في قوله تعالى « ما لهم على موته إلا دابة الأرض » الخ .

(المقام الثاني) في المبحث الأول في قوله تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا

في العذاب للمهين » .

(المقام الأول في قوله تعالى « ما لهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته »)

(الكلام على الأرضة)

اعلم أن هذه الآية قد أعطينا في ثلاث فوائد : الأولى) أنها آيات أن الجن لا يعلمون الغيب (الفائدة الثانية) أن أهل الأرض خاضعون للنواميس سواء أ كانوا أنبياء أم غيرهم (الفائدة الثالثة) أن من أصغر الحشرات ماله سلطان في هذه الأرض عظيم . يقول الله تعالى « وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » فتحن لولا تدبير الله لانطبق أن تركب الدواب بل لانطبق هذه الحشرات التي أكلت عصا نبي عظيم من الأنبياء ، فإذا كانت هذه الحشرة هذا شأنها فذلك فتح باب لمعرفة لنتحس منها . اللهم إن القصص في القرآن لم يكن إلا لتعليمنا لا غير ، وإلا فإذا يفهم الناس في قصة بلقيس ؟ إذ تقول لقومها « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » وفي قصة فرعون إذ يقول له الملائم من قومه في موسى وأخيه هرون حين استشارهم في أمرهما « أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين » .

أقول : فهل يفهم الناس من ذلك إلا الإشارة إلى الحكومة الشورية وأن الأمة لها القول الفصل ، وما للوك إذا كانوا فيها إلا منفذين كما يقول « وأمرهم شورى بينهم » فهكذا هنا يقول « ما لهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن » الخ . وتقول أيضا فلما خر تبيننا أيضا أن للأرضة سرا عجيبا فلا بد من البحث عن أمرها واستقصاء خبرها ، فأكل الأرضة لعصا سليمان أفهم الجن أنهم لا يعلمون

الغيب فيقلوا من كبريائهم ويرجعوا عن غيهم ويتزلوا عن عتوهم ويخلموا عنهم لباس الكبرياء والعظمة والتباهي والافتخار ، هكذا يعرفنا أن للأرض عملا منكرا إن لم نخترس منه خررنا صمقين في هذه الحياة الدنيا بتدميرها وإهلاكها ، وأيضا هي من آيات الله تعالى وعجائب صنعه ، فوجب إذن البحث في أمرها واستقصاء سرها على قدر الإمكان ، وقد تقدم الكلام عليها في [سورة النحل] ورسمت الملكة من هذه الحشرة والملك بجانبها وحولهما جنود الملكة والضباط والعساكر . وتقدم أيضا رسمها هنا (وكذا ملكة النحل) شكل ٢ و ٣ وهي مأخوذة من كتاب (مملكة الظلام) أو (حياة الأرض) تأليف (مترنك) تعريب الدكتور (نقولا فياض) وهناك شذرات من الكتاب لنقف على سر ما أشار له القرآن في هذه الآيات . قال :

﴿ الأرضة أو النمل الأعمى ﴾

الأرضة ^(١) أو النمل الأعمى . ويقال له الأبيض وما هو بالأبيض يرجع تاريخه إلى مائة مليون سنة قبل الانسان على زعم علماء الحشرات والجيولوجيا أي طبقات الأرض . غير أنه من الصعب تحقيق هذا الزعم والإنسان بأدلة ناصعة على صحته . على كل حال هذه الحضارة التي تعد أرقى من حضارة النمل والنحل هي بلا ريب قديمة العهد جدا أي أتت عليها بضعة ملايين من السنين . ولو تفحصنا للكتوب عنها لما وجدناه شيئا بالنسبة إلى ما قيل وكتب عن النحلة والنملة مع أنك لا ترى على هذه البسيطة كأننا أقرب إلينا وأبعد عنا في آن واحد من هذه الحشرات التي تتمتع بأنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية كأنها عالم إنساني يؤاخينا في آلامنا وشقائنا . وهنا مجال واسع للشعراء الذين يحملون شكلا جديدا للاجتماع البشري ويسمو بهم الخيال والتصور إلى خلق مثال خاص للأجيال الآتية في نظامها وأحكامها فما عليهم إلا أن يقتربوا من هذه الملكة الهائلة فيجدوا من الغرابة مثل ما في أحلامهم وأغرب مما تصوره في عطارده والريخ والزهرة .

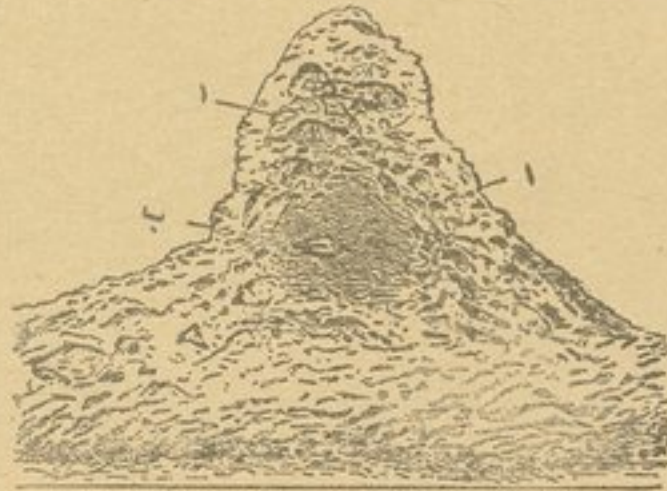
يقال إنه يوجد على الأرض ألف وخمسمائة نوع من الأرض والشهور منها لا يتجاوز الأربعين وكل نوع يمتاز عن سواه بصفات خاصة به ؛ ففته البناء الذي يقيم هضبا فوق الأرض ، ومنه ما يعيش مكشوقا ويحتاز السباب في خطوط طويلة بين صفيين من الجنود تحتمى بها العمال ، ومنه ما تسليح الطبيعة جنوده بما يشبه الحقنة ومنه ما يفتك بالأشجار الحية وينقبها وجنده كالسكواسر أو الضواري على جانب عظيم من المساواة ومنه ما تشبه مشافره ^(٢) قرون التيس فتتمدد كالزبرك وتنفذ به إلى مسافة عشرين سنتيمترا إلى آخر ما هنا لك .

ثم قال بعد كلام طويل مانصه [بعض هذه الحشرات يعيش في جذوع الأشجار التي يختفها ويمد فيها مسالك وأسرابا تذهب كل مذهب وتخرقها من كل ناحية حتى الجذور وبعضها يبني عشه في الأغصان ويوطده حتى يقوى على مقاومة الأعصار وحتى يتمتع على الإنسان الاستيلاء عليه فيضطر إلى نشره بالمنشار إلا أن الغالب فيه أن يتخذ مسنه تحت الأرض ، وبناء هذا المسكن من أغرب ما عرف وهو يتغير حسب

(١) الأرضة دودة بيضاء تبني على نفسها بيتا مستطيلا ولها مشفران تنفر بهما الحشب والآجر والحجارة جمعها أرض وهي هنا ترجمة كلمة (ترميت) بالفرنسية لا كلمة (ميت) أي السوسة أو العثة التي تلحس الصوف والثياب .

(٢) المشافر جمع مشفر: وهي من البعير كالشفة من الانسان وقد تستعمل للناس فاستعملناها هنا على المجاز وترجمنا بها كلمة (منديبول) ويمكن أن تسمى أيضا الأحنك .

البلدان والسلاسل والأحوال الموضعية والأدوات التي يتاح للحشرة استعمالها بما ركب في طبيعة الأرض من التوسع في الاستنباط والقدرة على ملاءمة الأحوال والاصطباغ بصيغة البيئة التي توجد فيها . وأهم هذه المساكن يعزى إلى الأرض الأسترالية فيكون تارة شبه نبكة (١) تعلو عن الأرض نحو ٤ أمتار ومحيط قاعدتها ٣٠ قدما كأنها قالب ضخيم من السكر وطورا كما كام من الوحل أو سلسال في حال الغليان هبت عليه ريح الجليد فجعدته فجأة وجينا كرهط من الخلايا التي يخزن فيها النحل الحوثنى غسله وقد كبرت مائة ألف مرة وآونة كطبقات من الفطر أو الاسفنج أو كما كداس من التبن الذي طال عليه سقوط المطر إلى ماشا كل ذلك . وأعظم هذه البنى التي لا تراها إلا في أستراليا تختص به الأرض المغناطيسية وقد سميت كذلك نسبة إلى الأبرة المغناطيسية فإن ماتبنيه يتجه أبدا من الشمال إلى الجنوب فيتسع في أوله ويضيق في الآخر . وقد تعدد الافتراض في تعليل هذا الاتجاه دون الوصول إلى حل صحيح شاف « انظر شكل ٢٥]



(شكل ٢٥ - قرية الأرض)

(١) غرفة الفطر .

(ب) خلية الملكة .

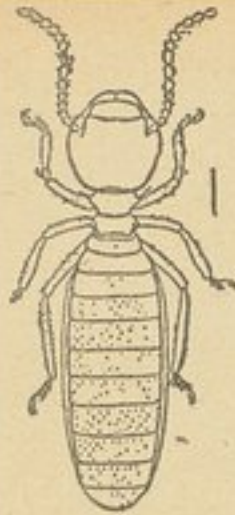
« وأعظم ما شوهد من هذه المساكن هو في أفريقيا الوسطى ولا سيما في كوتغو البلجيك حيث يبلغ العلو من ستة إلى ثمانية أمتار . وفي « مونيونو » قبر أقيم على أحد هذه البيوت كأنه على رابية فيشرف على ما حوله من الجهات ، وفي أحد الشوارع الكبيرة في مدينة البرازيل من أعمال « كاتانجا » العليا قرية عالية شطرها الشارع إلى شطرين . وقد اضطر عمال سكة حديد سكانيا أن يفسفوا بالديناميت بعضا من هذه الأبنية فكانت أبقاضها تجاوز في ارتفاعها مدخنة القطار . ومن هذه المساكن التي خربت ما صار أشبه بالبيوت ذات الطبقتين ولا يتعدى على الإنسان أن يقعد فيها . وقد بلغ من متانة هذه النباتات أن سقوط الأشجار الكبيرة وهو أمر كثير الوقوع في تلك النواحي لا يقلقلها ولا يضعف من جانبها وإن قطع الغنم يتساقطها ليرعى العشب النامي فوقها دون أن يؤثر فيها . ونمو العشب فوقها راجع إلى خصائص الطين الداخلة في تركيبها فهو يخزن الرطوبة فضلا عن أنه كثير الحصب زكي النبات لأنه مكون من براز الحشرة وفضلاتها . وقد ينمو مع العشب الشجر . والعريب أن الأرض التي تهدم كل شيء في طريقها تحترم هذا الشجر كأنه مقدس .

(١) النبكة : أكمة محددة الرأس جمعها نباك .

وبعض أنواع الأرضة يستعمل قسما من الطبقات العليا في الوكر لزراع واستنبات الفطر الحصوصى الذى يقوم مقام الطفيليات (وسياقى الكلام عنها فى الفصل التالى) وله وظيفتها من تحويل الحشيب القديم أو العشب اليابس إلى كتلة صالحة للهضم والتمثيل . وبعض الأنواع الأخرى تقيم مقابر حقيقية فى أعلى العمارة ووجود هذه المقابر يدعو إلى العجب لما نعلمه من أن الأرض يأكل موتاه ويتغذى بها إلا إذا افترضنا أنه فى أيام الوباء (أو طارىء آخر) قد يقصر عن مجاراة الموت لأكل كل ما يعده له من الرمم فيجمعها ويكدسها لحين الحاجة على سطح المنزل حتى إذا جففتها الشمس أحلها إلى مسحوق وجعلها مئونة يتغذى بها شباب القرية . ومن هذه الأنواع من يذهب إلى أبعد من ذلك فيتخذ مئونة حية . وذلك أن القوة الخفية تدبر أمور هذه المملوكة قد ترى لسبب لا نعلمه أن عدد الرعية قد جاوز الحد المطلوب فنفرز الزائد منها فى غرف خصوصية بعد أن تقطع قوائمها حتى لا تهزل بالحركة ثم تؤكل بالتدرج تبعا لحاجة المجتمع . وهذا النوع له عناية خاصة بالنظام الصحى فإن فضلات الدودة وبرازها يجمع فى موضع على حدة ويترك إلى أن ينشف ويتسوس ويصير ألد طعاما . هذا هو نظام الوكر كما يبدو لعين الباحث على أنه قابل للتغير لأنك لا تجد فى الكائنات حيوانا مثل هذا يكره التقليد ويعرف أن يكون كالإنسان فى لينه وخضوعه للأحوال ومجاراته لها وسيحتاج لنا غير مرة فى عرض هذا الحديث أن نتحقق ذلك » .

ثم قال وهذا النفق العظيم الممتد تحت الأرض والمرتفع فوقها يتشعب منه أسراب لانهاية لها تنتهى إلى حيث الأشجار والأدغال والعشب ومنازل الناس فتجد الدودة ما تحتاج إليه من الخلاووز وهى للمادة الحويصلية الجامدة التى تتركب منها خلايا النبات واليافها . وعلى هذا الوجه تغزو أحياء بأسرها كما ترى فى أستراليا وبعض أنحاء جزيرة سيلان فتعد مسالكها إلى كل صوب وتجعل تلك الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان . وقد عملاً البلد من جانب إلى جانب كما فى الترسفال وناتال حيث بلغ عدد القرى نحو من ١٦ فى مسافة لا تزيد على ١٣٥ مترا وفى كاتاشكا العالية نعتز فى كل هكتار من الأرض على قرية يبلغ علوها ستة أمتار . والأرضة بخلاف الخملة التى تعيش على سطح الأرض وهى حرة طليقة لاتعادر ظلمات قبورها الرطبة الحارة ولا تسير إلا فى الحفاء فتعيش وتموت دون أن ترى ضوء النهار فهى دودة الظلام الأبدى ، وإذا مست الحاجة أن تجتاز للتموين حواجز لاقدرة لها على خرقها فأنها تقوم بتعبئة الجنود والمهندسين وهؤلاء يبنون ممراتنا مركبا من بقايا الحشيب المضغوطة ومن البراز ويجعلونه على شكل الأنبوبة ولا يدعون فرصة نفوت دون الاستفادة منها اقتصادا فى الوقت والعمل والنفقات فاذا أصابوا شقوقا فيها فائدة أصلحوها وملسوها وجمعوا بينها ، وإذا فتحوا ممرهم على جدار جعلوا شكله كنصف أنبوبة بالاستفادة من الجدار أو على زاوية مؤلفة من جدارين اكتفوا بعموها (١) غف عليهم ثلثا العمل . وهذا الممر الذى يفتح فيكون على مقياس الحشرة بالضبط يتسع من حين إلى حين ليتسنى لحامله المؤونة إذ ما تلاقوا أن يفسحوا المجال بعضهم لبعض بدون عائق وإذا كانت الحركة شديدة والازدحام عظيما فإن للممر يكون أوسع ويجعل منه مدب للذهاب وآخر للإياب . وليسمح لنا القارىء قبل الخروج من هذا النفق أن نلفت نظره إلى خاصة من أغرب وأخفى ما فى هذا العالم الكثير الغرائب والأسرار ، فقد أشرنا فيما سبق إلى الرطوبة التى لاتغير فى الوكر على الرغم من جفاف الهواء والأرض المحروقة وعلى الرغم من حرارة الصيف الطويل فى تلك الأقاليم التى تفيض فيها الينابيع ويؤكل الزرع وينشف كل

(١) غما البيت يعموها غموا : غطاه بالطين والحشيب .



(شكل ٢٦ رسم أوضة عاملة)



(شكل ٢٧ - جنديان من الأرض)

فوق : جندي يقاثل بكفيه - تحت :

جندي يقاثل بمحفنته

ذو حياة حتى جذور الأشجار الكبيرة . والحق أن بقاء هذه الرطوبة في الأحوال التي ذكرناها لما يدعش له العقل ويقف دونه للفكر وقد أسقط في يديه حيرة وذهولا حتى إن لوانستون العالم الرحالة تساءل هل هناك طرق مجهولة تتمكن بها الأرض من أخذ أو كسجين الهواء . وجمعه إلى الهيدروجين الموجود في غذائها النباتي ليتكون بهما الماء الذي يحتاج إليه؟ ذلك افتراض لم يشتهه العلم بعد ولكنه غير بعيد الإمكان وسرى فيما يلي أن للأرض من العلم بالكيمياء والبيولوجيا مكانا يحسدنا عليه « (انظر شكل ٢٧) و (شكل ٢٨) .

ثم قال [النملة عدو الأرض الألد ، وهي عداوة قديمة يرجع عهدها إلى ثلاثة ملايين سنة ولولاها لكانت الأرض قد اجتاحت القسم الجنوبي من الكرة الأرضية إلا إذا صح الرأي القائل إن ماامتازت به من نقب الأرض وحفر الأنفاق هو ابن الحاجة والضرورة دفاعا عن نفسها وهربا من النملة . ومن الأرض ما لا يعرف البناء فيجعل سكنه في الأشجار وهو من النوع البسيط في تركيبه وارتفاعه ولا فرق في وظائفه أو تمييز بين أعماله فيكتفي بسد الثغرة ببقايا الخشب والطين على أن منه ما خلق لنفسه جندا خاصا وهذا الجنود يمتاز برأس كبير يستعمله لسد الفتحة كأنه صمامة من الفلين . وتزود النملة قرية الأرض دائرة حولها ليل نهار باحثة عن صدع أو شق تنسل منه إليها ولهذا كانت الحيطه لها بالغة أقصى المستطاع وكانت مراقبة الشقوق شديدة ولا سيما الشقوق المصنوعة لتجديد الهواء فإن هذه المنازل تحتاج إلى الهواء للتجدد وقد لذلك هندسة ونظام ليس من أقيم ورائهما لعلماء الصحة اليوم مأخذ لعائب أو معلق لطاعن . وإذا أتبع للعدو أن يصيب أحد هذه الشقوق فإن أول ما يرى هو رأس أحد الجنود للدفاعيين وقد أخذ يضرب الأرض بمشفره إنذارا وتنبها فيسرع الحرس ثم الفرقة بأسرها وتسد بجماعها الفتحة وهي تحرك في الهواء أحناءها الهائلة كأنها أدغال من الشوك أو تهجم على غير هدى هجوم السكلاب الضارية حتى تصيب العدو فتعض عليه عضا شديدا ولا تتخلي عنه إلا حاملة قطعة منه] .

وجنود الأرض تبقى بعد تفهقر العدو حينما أمام الثغرة ثم تعود إلى قشلائتها وترجع العمال الهاربة طبقا لناموس توزيع العمل الذي يضع البطولة في جانب والخدمة في جانب شارعة في ترميم ماخرب بسرعة هائلة

مقدما كل منها كتلة برازه، وقد حسب أن ساعة من هذا العمل السريع تكفي لسد ثلثة بحجم الكف فتأمل .
وقد روى سافاج أنه دمر منزلا للأرض في المساء ولما عاد عند الصباح وجده قد أصلح وتم ترميمه وعلى طبقة
جديدة من الطين، ولا عجب فإن السرعة في مسأله حياة أو موت وأقل إهمال في ذلك هو دعوة لأعداء كشار
وخاعة ذلك الاستعمار .

إن هناك قوة خفية تخضع لها جمهورية الأرض فإذا زاد عددها مثلا عن الطبيعي وهو خمس عدد سكان
القرية فإن تلك القوة المحبوبة التي لا تحمل قواعد الحساب على ما يظهر تتكفل حالابازالة العدد الزائد وإرجاع
النسبة إلى ما كانت عليه من قبل ولا تحتاج في ذلك إلى مذبحه كما يجري في ذكور النحل فإن مائة عامل
لا تقوى على جندي واحد من هذه الضواري التي لا تتال إلا من القسم الخلفي الضعيف ، بل تفعل ما هو أبسط
وأسهل وذلك بامتناع العمال من إطعام الجنود قهلك هذه جوعا . أما الطريقة التي يتم بها تعداد الجنود
المحكوم عليها بالموت وفرزها ووضعها في مكان منفرد فلا تزال غامضة كالكثيرة من أمور هذه الأحياء
العجيبة . وقبل أن نختم هذا الفصل عن جنديه مملكة الظلام نذكر للقارى بعض حالات لها غريبة من
الاستعداد أو الليل للموسيقى ، فهناك أصوات خاصة تكون تارة إنذارا وطورا استنجادا أو تحييا أو غير ذلك
وكلها ذات إيقاع موزون يجيب عليه جماعة الأرض بزجل خاص (١) مما حمل بعض العلماء على القول بأنها
تتخاطب لبالقرون فقط نظير النمل بل بلغة نطق خاصة .

وبديه أن مثل هذا النظام الواسع الدقيق ومافيه من توازن في القوى وتضامن في الأعمال لا يمكن أن
يكون غير تقام بين أبنائه ، وحسبنا دليلا على وجود هذا التقام انتشار المستعمرة الواحدة في جذوع كثيرة
قد تكون متباعدة بعضها عن بعض ولكنها ملتفة حول عرش واحد أي ليس لها إلا زوج ملكي فإذا زالت
في أحد الجذوع فرقة الاحتياطي التي يحفظها الأرض للتعويض من الملكة في حال الموت أو العجز تسرع سكان
الجذوع المجاور إلى إعداد فرقة جديدة بدلانها . وسنعود إلى الكلام عن هذا الابدال أو التغيير الذي هو من
أغرب وأبداع أشكال السياسة الأرضية .

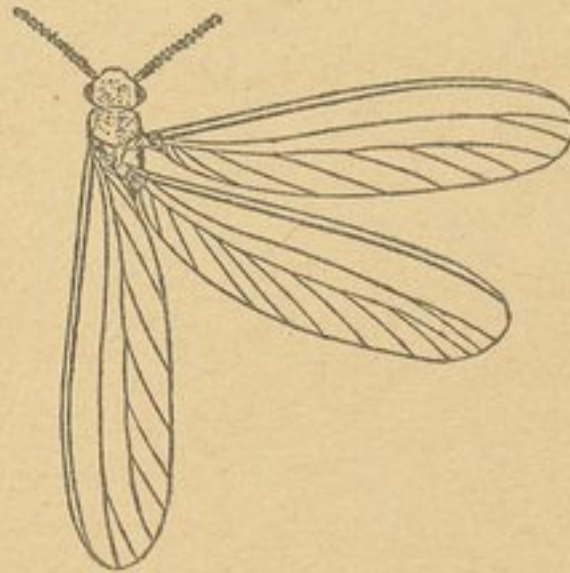
وليست هذه الأصوات من غيبية واحتكاك أو صفير وإنذار وإيقاع يتم على إحساس موسيقى كل ما عند
الأرضية . فإن لها أيضا حركات موزونة يشترك بها الجمهور ما خلا المولود الجديد كأنها صادرة عن جوقة رقص
وأغنام مما وقف عنده العلماء موقف الدهش والعجز وهي نوع من الرقص الاختلاجي تثبت فيه القدم ويتهدى
الجسم متايلا من الورا إلى الأمام وعلى الجانبين . ويدوم هذا الاختلاج ساعات مع فترات من الراحة قصيرة .
وأكثر ما يكون قبيل طيران العرس كأنه حفلة صلاة أو تقديس تفتح الباب لأعظم ضحية تقوم بها الأمة .
ومن السهل مرأى هذه الحركات إذا خضضت أو أترت فجأة أنابيب الزجاج التي تحبس فيها الأرض في
المختبرات على أن ذلك شاق صعب لندورة بقائها طويلا في الأنابيب فانها تحرق الصمامة من فلين أو معدن
وتصل كأحسن الكميئين إلى خرط الزجاج .

الملك والملكة في حجرة مستطيلة الشكل ملساء الأرض منخفضة السقف منيعة الجوانب يعيش هذا الزوج
الحزين للنقول إليه حفظ النوع دون أن يستطيع من موضعه حراكا . أما الملك فهو ملك بالاسم لأنه زوج
الملكة ، ضعيف حقير صغير جبان لا ينفك محتبنا تحت بطن زوجته . وأما الملكة فهي من أغرب ما يرى
في هذا العالم الكثير العرايب لأن لها بطنا ضخما هائلا منتفخا بما فيه من البيض يكاد يتفزر لفرط تمدده ،

(١) الزجل : اختلاط الأصوات .

وقد يبلغ طولها به نحو ١٠٠ ملليمتر حالة كون العامل لا يتجاوز ٧ ملليمترات طولاً . وهي عاجزة عن الحركة لأنها لا تملك غير قوائم صغيرة في صدر غارق في الدهن ، ومتوسط ما تضعه من البيض هو واحدة في الثانية أى ٨٦ ألفاً في اليوم وثلاثين مليوناً في العام . ولا ينقطع وضعها ليل نهار مدة الأربع أو الخمس السنوات من حياتها كإدراك الاختبار والمشاهدة .

(فصل) إذا ولي الحريف ودنا موعد المطر دقت ساعة الحرية فإذا بالقلعة الحصينة المحكمة السدود المنفصلة عن العالم الخارجي كل الانفصال والتي لا منافذ لها إلا ما كان تحت الأرض أو ما هو لتجديد الهواء قد أصابها نوع من الجنون فافتحت في جوانبها فجأة تخاريب (١) لا تحصى ومن وراء هذه التخاريب وقفت الجنود تحمي برؤوسها الدخول والخروج . هذه التخاريب تتصل بأسراب وأنفاق قد ازدحمت فيها المنجنات وهي تنتظر بزوغ صبر إفلاتها من الأسر . حتى إذا صدرت الإشارة الحفية وأمرت القوة الحاكمة المجهولة انسحبت الجنود من مواقعها فأنكشفت الثغور وشق للعرائس طريق الفضاء . وحينذاك يبدو للعين مشهد يفوق مشهد النحل روعة وجمالاً فإن البناية العظيمة نيكة كانت أو هرماً أو قلعة تصير كالمرجل العالي يكاد يتفجر . ومن شقوقها العديدة يرتفع ضباب كثيف مؤلف من ملايين الأجنحة الشفافة المضطربة في الهواء ساعية وراء الحب سعياً يساوره الريب وتصفعه الحية . منظر جميل غير أنه قصير العمر ككل ما هو حلم أو دخان فلا يلبث الضباب أن يهبط بأجمعه إلى الأرض جاعلاً لها غطاءً من تلك الأشلاء وهكذا ينتهي العيد وقد نكث الحب بعبوده وحل الموت محله . ولا يكاد يسدل الستار على هذا المشهد حتى تعقبه مأساة أخرى أشد هولاً فإن الاستعدادات السابقة وإلهام السليقة التي لا يندخ يدعون كل مشتاق إلى تلك اللأبة السنوية التي تقيمها عرائس الأرض فتحتشد العاصفير والحيات والمهررة والكلاب وسائر الحشرات ولأسيب النمل وتهجم على هذه العرائس المحرومة من الدفاع والتي تغطي أحياناً ألوفاً من الأمتار وتبتدى* المجررة الهائلة كل على قدر جسعه وشهوته ، بل ربما أفرط بعضها في الأكل



كالعاصفير فخرجت من الوليمة وهي لا تستطيع إقتال منافقها والإنسان نفسه يشترك في اقتسام الغنيمة فيجمع بالمجرفة ويأكله بعد التحميص أو يعجنه بالسكر فيصير كاللوز ويبيعه في السوق كما في جزيرة جافا . وبعد الطيران وخروج آخر مجنح من القرية تقفل هذه بأمر القوة المحجوبة للمدبرة وتسد التخاريب في وجه الخارجين كأنما حكم عليهم بالنفي المؤبد انظر (شكل ٢٨) .

(شكل ٢٨) أوضة بالغة وقد بسط جناحها اللذان باليمين (تخريب الأرض)

إن قرى الأرض بانتشارها وتعددتها وشرعها القاسية البالغة منتهى النظام ومحورتها وتناسلها الهائل قد تكون

(١) جمع نخروب: وهو الشق في الحجر، أو الثقب في كل شيء .

خطرا عظيما على البشر وربما غطت وجه البسيطة لولا معاندة الأقدار لها وجعلها سريعة العطب شديدة التأثير من البرد ، فهي لا تحتل من الحرارة إلا ما كان تحت درجة ٣٦ سنتغرادو وفوق ٢٠ وهذا ما جعل بقية المناطق في مأمن منها . على أنها حيث أقامت كانت عاملا للهدم والتخريب وما أقلت الأرض في البلاد الحارة حشرة مثلها في حرب دائمة مع الإنسان فتأكل بيوتها من أساساتها وتنفى ما عنده من فراش وكساء وورق ومثونة وخشب ونعال ونبات ولا ينجو شيء من موجوداته من هذا التخريب الفظيع الذي يتم في الحفاء فعنده من خوارق الوجود . وإنك لتجد أشجارا كبيرة سليمة في الظاهر فلانسكاد تمد إليها يدك حتى تنهار لتأكلها من الباطن .

تلك هي عادة أعمال الأرضة في التخريب النزلى وقد يتسع نطاقها فيشمل مدينة بأسرها . ففي عام ١٨٤٠ أسرت إحدى السفن المعدة لتجارة الرقيق فأدخلت إلى عاصمة سنت إلى (جامستون) نوعا من الأرض البرازيلي الصغير ذى الجنود المسلحة بالمحاقن فهدم قسما من المدينة وفعل بها فعل الزلازل . وعام ١٨٧٩ نشب الأرض بسفينة حربية اسبانية في ميناء (فرول) فلم يبق ولم يذر . وزعم الجنرال لسكرك أن جزر الأنتيل الفرنسية لم تقو في سنة ١٨٠٩ على رد الإنجليز لأن الحشرة الهدامة كانت قد خربت المنازل وتركت المدافع والذخيرة في حالة لا تصلح للعمل . ويطول بنا السرح لو أردنا أن نعدد الجرائم التي يرتكبها هذا العدو الشديد الحول على ضعفه ، وقد سبق قتلنا إنه غلب الإنسان على أمره في بعض نواحي أستراليا وجزيرة سيلان فأمسك عن الزراعة . وفي جزيرة فورموزا أرضة تخرط حتى الهاون وتلك الجدران إذا لم تمسك بالطين إمساكا شديدا .

وقال أيضا : لو أعطى للنحل أن يتصور الجحيم لمساكن في نظره أشد هولاً من هذا لأنه يجوز لنا أن نعتقد أن النحلة لا تشعر بنفاسة حياتها ولا تعدم لذة الجبور عندما تنوي من ندى الفجر وتعود تملة من الزهر فتستقبل باكرام في قصرها العسلي العاطر . أما الأرضة اللاصقة بالتراب تدب ديبيا في ظلمة خباياها القدر فمن أين لها الراحة أو السرور؟ وأية مكافأة تنتظرها أو ابتسامة تنسبها عملها الشاق؟ وهل عاشت هذه الأحقاب الطوال فقط لتبقى كما هي أو بالأحرى كي لا تموت فتسكائر بدون لذة وتخلد بلا أمل صورة من أحقر صور الوجود وأشقاها . من يدري الأسرار الروحانية أو الحيوية أو الأثرية أو الكهربائية التي تختبئ في هذه القرى ولا تصل إلى حل طلاسمها؟ والحق يقال إن الإنسان كلما تقدم في إدراكه أدرك أنه من أجهل المخلوقات وأضيقها علما .

إن اللبدي التي تدبرها هي أسمى وأمتن نظاما من أحسن اجتماع بشري ولا يمكن التلاعب بالألفاظ للقول بأن حركات الأرض ليست حرة وأنه لا يستطيع الخروج على نظامه الأعمى ، فإن العامل الذي يرفض العمل أو الجندي الذي يهرب من القتال يجازى بالظرد أو على الأظهر يقتل ويؤكل ، أفليست هذه الحرية نظير حريتنا؟

ثم هل كان الذكاء البشري القالب الوحيد الذي تفرغ فيه قوى الوجود الروحية والعقلية ، وهل كانت أعظم وأغرب وأعمل وأدق هذه القوى لا تظهر فينا إلا بواسطة الذكاء الذي نعتبره تاج الأرض والعلم . إن أهم شيء في حياتنا أي سرها العميق هو غريب عن الذكاء معادله ، وما الذكاء إلا اسم نعطيه لإحدى القوى الروحانية التي لا نفقهها . وفي المعنى :

إنما نحن في اختلاف عقول مثلما نحن في اختلاف وجوه

فربما كان للذكاء كما للحياة صور متعددة ، وليس لنا ما يدل على أفضلية بعضها على بعض ، وما الإنسان

إلا فتاعة عدم يريد أن يقيس بها العالم . وبعد هذا كله فإننا لاندرک کل ما اخترع الأرض لأنه يقطع النظر عما ذكرنا من عمرانه ونظامه في الاقتصاد والاجتماع وتوزيع العمل والتموين والكيفياء والصناعة وتوليد الماء وتحويل الصور والأشكال فان هناك أشياء لم يحط عنها اللثام . لقد تقدمنا الأرض في هذا الوجود بلايين من السنين فليس يبيد أن يكون اعترضه في طريقه من العقبات ماسيعترضنا يوما فنحتاج مثله إلى تذليله كذلك أن تكون تقلبات الجو والإقليم في الأعصار الحيولوجية أيام كان يقطن شمال أوروبا كما دلت آثاره المكتشفة في إنجلترا وألمانيا وسويسرا قد اضطرته إلى العيشة تحت الأرض فأفضى به ذلك إلى تضائل بصره وكفه عند السواد الأعظم منه . من يدري إذا كانت هذه الرزايا لانتظرنا في المستقبل البعيد عند ما يجبرنا البرد على الانتجاع إلى الكهوف والغيران في بطن الأرض أو إذا كنا نقوى عليها مثله . ثم إننا نجهد طريقة العاملة عند هذه الحشرات ولا نعرف كم اقتضى لها من الوقت والتجربة قبل الوصول إلى هضم السليوز . أما تحولها العجيب الذي نستطيع به أن نخلق هذا الشكل أو ذاك فهو فضلا عن غموضه يعد خطوة واسعة في طريق الابتكار والابداع ، لم يتسن بعد للانسان أن يخطوها . ألا ترى أننا لانستطيع تحديد الجنس وتكوين الجنين كما نشأ بل نجهد حتى ساعة الولادة أكان ذكرا أو أنثى . فلو كان لنا علم الأرضة لاستطعنا أن نوجد عند الحاجة والضرورة أبطالاً وعمالا ومفكرين لا يكون من عندنا اليوم من أهل البطولة والعمل والتفكير بالقياس إليهم شيئا مذكورا . ما الذي يمنعنا من الوصول يوما إلى تضخيم الدماغ آلتنا الوحيدة للدفاع في هذا العالم كما وصل الأرض إلى تضخيم مشافر جنوده ومبيض ملكاته ؟ وهل يشتمل للخاطر ما يستطاع عمله يومئذ فان رجلا يبلغ من الذكاء أضعاف أضعاف ما يلقه (نيوتن) و (باسكال) مثلا فهو يقطع من مسافة العلم في ساعات ما يحتاج نحن إلى عصور لاجتيازه . ولعله يصل إلى كشف الحجاب عن أسرار هذا السكون فنفهم لماذا كل هذا الشقاء الذي يحيط بنا وهذه الآلام اللازمة لبلوغ الموت .

هذا الإنسان الجديد قد يصل إلى اكتشاف حياة أخرى ، تلك الحياة التي يجذبنا سراها منذ القدم وقد وعدت بها كل الأديان دون أن تؤيد بالبرهان وجودها ، ومهما يكن دماغنا اليوم ضئيلا فاننا نشعر أحيانا أننا على صفة هاوية العلم بعيدة الغور وأن دفعة صغيرة قد تسكني لتلقينا في عباها ، ولعل هذا التضخم الدماغى يكون خشبة الخلاص في الأعصار الجليدية التي تهدد البشر ، على أنه يحق لنا أن نفترض أن هذا الإنسان وجد في سالف الأدهار وأنه كان أوفر ذكاء من إنسان اليوم بما لا يقدر ، غير أننا نبحث عنه فلا نجد له أثرا .

لنعد إلى الأرضة ، من يحسر على القول أن الحاسة التي تتكلم عنها لم تتلها إياها الطبيعة . فالتبيعة هي الهادى الوحيد لكل مخلوق قال (أرست كاب) [كل مخترعاتنا وأدواتنا هي تقليد لعمل الطبيعة من غير أن نشعر ، فمخترعاتنا منقولة عن مضخة القلب ، وآله التصوير هي غرفة العين المظلمة ، والتلغراف هو جهازنا العصبى ، والأشعة المجهولة رؤية الأجسام من خلال الحجب كقراءة الكتاب دون أن يفيض عنه الغلاف ، واللاسلكى مناجاة الأرواح بواسطة موجات غير منظورة ، وفي تحريك الأجسام بدون أن تمس (وهذا غير محقق) دلالة على ما يمكن عمله من تغيير شرائع الجاذبية والثقل والانتصار عليها] .

ثم قال [يجوز لنا أن ننسب غريزة الحشرات ولاسيما النمل والأرض والنحل إلى الروح المشتركة الخالدة ، فقد قلت فيما مر إن هذه الشعوب هي كذات واحدة أو كأنهن حتى مستقبل أعضاؤه مؤلفة من خلايا كثيرة متفرقة في الظاهر مجتمعة في الواقع حول السرعة المركزية . وهذا الخلود المشترك هو السبب الذي من أجله يموت اللثام والألوف من الأرض دون أن يؤثر في المذات أو الجسم الواحد المستقل لأن غيرها يقوم مقامها ؛

كما أن اندثار ألوف الخلايا فينا لا يغير حالة ما نعرعنه بكلمة «أنا» ولهذا تظل الأرض عائشة كما هي منذ القدم دون أن يضيع لها اختبار أو ينفصل لها وجود ولا تنشقت تذكاراتها لأن هناك ذاكرة واحدة للجميع . وهذا ما يفسر لك كيف أن ملكات النحل لاتنك تبيض منذ ملايين من السنين ومن دون أن تزور زهرة أو تجمع لقاحا أو تمتص عسلا تستطيع أن تخرج عاملات تعرف ما جهلته أمهاتها كل هذه العصور، وللدقيقة الأولى من طيرانها تفهم كل أسرار الطريق وجمع العسل وتربية العذارى وكيمياء القفير . تعرف ذلك لأن الجسم الذي هي إحدى خلياته يعرف ذلك قراها منبعثة في الفضاء وهي متفرقة الشمل في الظاهر ولكنها مربوطة بالوحدة المركزية . فهي تكلايا جسمنا تعوم في سائل إلا أن هذا السائل أوسع مدى من سائل الجسم البشرى وأكثر ليونة وخفة وروحانية .

هل يمثل الأرض لنا نموذجا للنظام الاجتماعي الآتي ؟ من يدري ما نجيبه لنا الغيب بما لا يمر له خيال في تصوراتنا ، فقد يكفي أحيانا شيء لا يذكر ليقب نظام الأدب ومقدرات الشعوب . إن غاية ما نصبو إليه اليوم هو حياة جمال ورخاء وسلام وعين ، وقد آتى على الإنسان ساعات من الدهر قارب بها هذه الغاية في أثينا أو الهند أو بعض أدوار المسيحية . فمن يؤكد لنا اليوم إذا كانت الإنسانية تتمشى حقيقة في هذه الطريق لافي الطريق العاكسة لها .

إن ما لا ريب فيه أن السعادة الكاملة الثابتة لانجدها إلا في حياة روحية بحثة فهل هذه الحياة ممكنة ؟ نظريا نعم ، أما عملا فمن المستحيل ذلك لأننا لانرى من حولنا إلا المادة وبسوى المادة لا نشعر . ودماغنا نفسه مادة فكيف نرجو أن نفهم به غير السادة ؟ كلما جرب الواحد منا أن يفلت من قيود هذه المادة أصابه الدواخ وهبط إلى الحضيض . إن المادة عدو الإنسان الوحيد ، وقد انفقت الأديان على ذلك سواء سمى هذا العدو شرا أم خطيئة ولهذا كانت حاة البشر محزنة على الأرض لأنه لا سبيل إلى الخلاص من المادة . وكيف الخلاص وكل ما في العالم هو منها والقوة نفسها والحياة إن هما إلا صورة من صور المادة وشكل من أشكالها ، بل الجسم الجامد الذي لا حراك به أو المادة الضخمة الميتة فيها حياة أكثر روحانية من أفكارنا . تلك الحياة الهائلة الخالدة ، حياة الكهارب التي لاتعب متحركة كالسيارات حول نواتها المركزية . كيفما أجلنا الفكر نرى شيئا وهذا الشيء هو غير العدم ، فاما أن يصير «أنا» عظيما إلى حد أن يندى معه ذلك الحيوان الصغير الذي كان يقال له الإنسان أو يبقى حقيرا خاملا على مدى العصور وهي لعنة لا يوازها أكبر عذاب من جحيم المسيحيين . على كل حال يقول ابسكتت الفيلسوف : لا ينبغي أن نحاول تغيير طبيعة الأشياء فليس هذا بمستطاع ولا بمجد . ولكن على قبولنا بها لتعلم أن نطبق تصرفاتنا على نواميسها عشرون قرنا مررت على الإنسان منذ رنت في أذنه هذه الكلمات ولم تصل به بعد إلى نتيجة ترضيه . انتهى (يقول المؤلف عمل الطبيعة يريد عمل خالق الطبيعة) هـ .

(خطاب للمسلمين)

أيها المسلمون : هذا اخترته من كتاب [مملكة الظلام] أو [حياة الأرض] الذي عربيه الدكتور (نقولا فياض) نعم أنا أفضت في الكلام على (الأرض) ومعيشتها وسياستها ونظامها ، وإنما حركني لذلك قوله تعالى « ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » ياسبحان الله : مالنا وللأرض ، وما لنا ولبنساء سليمان ، وما لنا ولأكل الأرض لها ، وما لنا ولكون سليمان لم يعلم اليهود موته إلا بعمل الأرض ، عجيب والله هذا القرآن ! عجيب والله أن تكون هذه الكلمات باعثة لي على تعقب أحوال الأرض ، فماذا عرفنا منها ؟

عرفنا أن لله جنودا وجنودا وتلك الجنود لها ملوك ولها سياسات ونظم اجتماعية محيية ، وعرفنا أن في أمم أوروبا من يدرسون هذه الحشرات ليستخرجوا منها علما عسى أن يرتقى به الإنسان في مستقبل الزمان ، ولقد ظنوا أن هذه الحشرة الحقيرة قدرت أن نستخرج الماء من المواد التي حولها . يا الله : أنا أتوجه إليك وأسألك أن تبث في نفوس قراء هذا التفسير حبا للعمل وحبا للعلم والحكمة حتى يكون للمسلمين نظام مع الأمم حولهم به يعيشون في حبور وحياة منظممة ، فأنت الولي الخيد .

أيها المسلمون : إن الناس تمنوا الطيران فطاروا ، وهامم أولاء يتمنون عقولا أرقى من هذه العقول ويسعون لكسبها فسيروا مع الناس بل أنتم أولى فإن إشارات القرآن تبث المسلم على العمل ، أولا ترون أيها المسلمون الصادقون كيف كان سليمان في هذه السورة هو سليمان في سورة النمل ، ويا عجبا يا الله وألف عجب ! اللهم إنك أنت المعلم ، أنت الملهم ، أنت الحكيم ، كيف كان سليمان في [سورة النمل] يتبسم ضاحكا من النملة ، ونفس سليمان في هذه السورة تدل على موته دابة الأرض .

يا عجبا إكأن الله يقول لكم : أيها المسلمون إن بين النمل والأرض علاقة فلتدرسوها ، فعلاقتها في القرآن قصة سليمان وعلاقتها في العلم اشتراكهما في المدنية والسياسة وأن بينهما عداوة فالدرس المدرس .

الله أكبر : قصة سليمان في هذه السورة وفي سورة النمل يفهمها العامة والخاصة ، شارحة للصدر وهي باب لدراسة النمل ولدراسة الأرض ، فلئن عجب العامة والخاصة من قصة سليمان مع النمل وقصته مع الأرض فوالله ليكون عجبهم أكثر وأكثر حين يدرسون العجائب التي أبدعها الله فيهما « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » انتهى المقام الأول في البحث الأول .

المقام الثاني في البحث الأول

(في قوله تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين »)
اعلم أن طائفة من الناس يقروون عزائم ودعوات كفرية أو دينية أو غيرها ويزعمون أنها تقضى حاجاتهم بها وينادون أسماء شيطانية ويبتهلون إليها ، وهذا في الحقيقة نوع من العبادة ، وما الفرق بينهما وبين الأصنام ؟ فالأصنام شعفاء وهؤلاء شعفاء فليحذر المسلمون من هذا ، إن الإيمان بالله يعلى المهتم ويرفع النفوس إلى المستوى الرفيع الشريف كما كان الصحابة رضوان الله عليهم . فعلموا المهمة هو الذي يرفع الإنسان عن العوالم كلها إلى بارئها فينال ما يريد إذا كان ذا عزيمة صادقة . ثم إن الدين يحضرون الأرواح في هذا العصر يعلقون آمالا عليها في أمورهم الدنيوية أو في معرفة الغيب وهذا كله خروج عن القضايا الدينية ثم لا يفيد فاعله ويكون ذلك أشبه بالعبادة ومحجب الإنسان عن ربه . ومن ذلك ما تقدم في هذا التفسير من الأوافق التي كان يستعملها قدماء المصريين كالثلاث والرابع والخميس إلى التسع للكواكب السبعة . والمسلمون اليوم هكذا يستعملها بعضهم وهولا يدري أنها كالشرك بالله تعالى . ولأورد لك أسئلة من كتاب الأرواح ألقاها العلماء على الأرواح في أوروبا لما استحضروها . وهالك بيانها :

(س) هل من أسئلة تكبرها الأرواح الناقصة ؟

(ج) لا تكبره إلا الأسئلة التي تزيج النجاب عن جهلها وخداعها .

(س) ما قولك فيمن يتخذون المخابرة الروحانية بابا للهو والمزول أولا استنباء أمورهم صوالجهم الزمنية ؟

(ج) هؤلاء تسر بهم جدا الأرواح الناقصة لمداعبتهم وخداعهم .

(س) هل تستطيع الأرواح أن تكشف لنا أمر المستقبل ؟

(ج) كلا : إذ لو عرف الإنسان المستقبل لأهمل الحاضر .

(س) ما هي أحص دلائل النبوات الكاذبة ؟

(ج) هي التي لاتأني بفائدة عامة أو يكون مرجعها النفع الخاص .

(س) لماذا تكون الأرواح الرصينة عند تنبئها عن أمر لاتعين زمن حدوثه ؟

(ج) يكون هذا إما عن عمد منها أو عدم معرفة ، إن الروح يستشعر أحيانا وقوع أمر إنعما زمن وقوعه يكون في الغالب متعلقا بحدوث لم تتم بعد ولا يعلمها إلا الله ، أما الأرواح الطائشة فلا يهملها أمر الحقيقة وتحدد الأيام والساعات من دون التفات إلى صحة النبوة وعدمها ، ومن الواجب ههنا أن أكرر عليكم القول أن غاية رسالتنا إنارة بصيرتكم وترقيكم الروحي لا العرافة وفتح القال ، فمن أحب هذا تألفه الأرواح الماكرة ويصبح العوبة بين أيديها . انتهى المقصود من كتاب الأرواح .

وهذا يكفيك من ذلك فإن الأسئلة توضح الآية هنا إضاحا كافيا ، إن هذا من أعظم معجزات القرآن كيف لا ونحن نجد أن أوروبا التي لم تسمع أن في القرآن هذه القصة لعدم إيمانها به تكون نتيجة حديثها مع الأرواح أن الجن لاتعرف خبر الغيب ، ولامعنى للجن إلا النفوس الناقصة ، كالامعنى للملائكة إلا الأرواح الكاملة وكل منهما درجات ، إن هذا معجزة وأي معجزة ، إن السلم يمر على مثل هذا مرارا ويكتفي بالإيمان أما اليوم فإنه يرى اليقين في العلم ، فإن كذبت أيها الفطن القرنيحة فدونك العلم فاستعمل الطرق التي أوضحتها في كتابي [الأرواح] واجعل نصب عينيك الحقائق لا الأمور الدنيوية وهناك تعرف بنفسك لا بأوروبا لكن مع الصبر والجد ، وإن أردت إلا الزيادة فعليك بكتاب الأرواح ، وإن شككت فاستقل بالعلم . واعلم أن الله جعل هذا الزمن هو الزمان الذي فيه يظهر سر القرآن « وقل الحمد لله سيريم آياته فتعرفونها » .

فالمسلمون إن لم يدرسوا فليرحلوا من العالم ويأتي الله بأمر أخرى لهذا الدين أرقى من هذه الأمم النائمة فأما الكسل والتكذيب والاستهزاء فليس يجدي في زمن العرفان والعلم والحكمة والارتقاء . وبهذا تم الكلام على البحث الأول بمقاميه معا .

﴿ لطيفة في قوله تعالى « فلما خر تبينت الجن » الخ ﴾

(تذكرة في ليلة الخميس ١٣ يناير سنة ١٩٣٠)

في هذا اليوم حضر عندي رجل عظيم ذكي عالم وقال لي : ألم تطلع على « مجلة الدنيا الصورة » في هذا الأسبوع : ققلت ماذا فيها ؟ فقال إن فيها أمرا عجبا ، وقص على ما يأتي :

﴿ يد خفية تكتب من وراء المجهول ﴾

(يعمر البرلمان للصري عاما واحدا ، وتعقد المعاهدة في خلال ستة أشهر)

بين النجمين وقراء الطوالع الذين هبطوا مصر رجل هندي له طريقة مدهشة في الإجابة عن المستقبل بحار العقل في تحليلها ، وهل هي سحر ساحر عليم ، أم شعوة مشعوذ ماهر في خداع العقول والأبصار ، ونحن نسردها فيما يلي بعض أعمال هذا الرجل الحارقة للعادة كما شاهدها مندوبنا وترك للقارى تحليلها .

في شقة بسيطة الرياش يقم رجل هندي لا ينيشك مظهره عن خبره ، وكانت زيارتي لهذا الرجل حافلة بالمدهشات ، ولو أنني حاولت أن أدرك خفي أمره وأستطلع وسيلته التي يتوسل بها لتأدية أعماله فلم أوفق في محاولتي مع يقيني بأن الأمر مهارة خارقة لاعلاقة لها بالأرواح . لآتري في شقته مظاهر التأثير والروعة التي تصحب عادة منازل النجمين وعلماء الروحانيات بل هي ذات فراش بسيط أشبه بمكتب وكيل أعمال أو محام مبتدئ

ورأيت في صغير السن هادي النظرات حايق الوجه يتحدث في ابتسامة صغيرة وبسيطة . سألتني بالإنجليزية :
 أتريد أن تعرف شيئاً عن مستقبلك ؟ أجبت : نعم . ودخلت حجرة مكتبه وليس فيها إلا مكتب واحد عليه
 أوراق متناثرة وأقلام ودفاتر عادية وقد طليت جدران الحجرة باللون الأسود ، ولما رأني أنظر لهذا الظلام
 الأسود القائم مستغرباً قال لي في هدوء : إنني أهبط الحجرة لاستحضار الأرواح فإنها لا تظهر إلا
 في الظلام وسألته : وفي أي ثوب تظهر الأرواح . فأجاب : تظهر متشكلة بشكلها الأرضي فتراها كما عهدتها
 على سطح الأرض في الجسم نفسه والملابس نفسها ، ثم طلب مني أن أكتب أربعة أسئلة على أربع ورقات
 صغيرة عما أود معرفته من شئون المستقبل ، وتناولت ورقة صغيرة قطعها على أربع أقسام وبينما أنا أقطعها
 بتأن وببطء استأذن مني ليغيب دقيقتين وترك الحجرة وانصرف ، ومضيت أنظر حولي فلم أجد في الحجرة
 ما يريب ، وتناولت قلبي فسكتت على كل ورقة سؤالاً ثم طويت الورق وأودعته يدي ، وعاد الرجل بعد قليل
 وجلس إلى مكتبه وسألني : هل كتبت الأسئلة ؟ فأجبت : نعم . وجلس يسطر جداول ورموزاً والورق
 في يدي اليسرى مطوى طيات عديدة وقد أطبقت كفي عليه ، ثم طلب مني أن أكتب فسكتت بيدي اليمنى
 على ورق أممي وأغمض عيني ثم أملأت السؤال الأول فالثاني فالثالث فالرابع كلمة كلمة وما زالت الأوراق
 مطوية في يدي ، وكان يعلو على السككيات وكان نظره اللعوض يحترق كفي ويحترق الأوراق للمطوية ويثبو ما فيها .
 وكان بين الأسئلة سؤال كتبت فيه كلمة ومحوها وكتبت كلمة محلها ، فلما أملأت هذا السؤال ذكر الكلمة
 الأولى ثم طلب مني أن أمحوها بالقلم وأكتب بدلها الكلمة الثانية . كتبت الأسئلة وأنا أتسم وأغالب دهشتي
 ثم ناولني القلم من يده وطلب مني أن أضعه فوق الورق في كفي فوضعت ثم استعاده مني وقال لي ، افتح الوراق
 فإن الأجوبة مكتوبة فيه . ففتحت الورق فرأيت في أسفل كل سؤال الجواب عليه مكتوباً بالقلم الرصاص وكانت
 الأوراق لم تخرج من كفي وهي مطوية فيه طياً محكماً . وكانت حقاً مفاجأة لطيفة مدهشة . وقلت له : لتحدث
 كما يتحدث الأصدقاء . ما سر هذه المقدرة العجيبة ، أجايبني بهدوء : سرها بسيط فإني متصل بالأرواح أسخرها
 لحديثي وأستطلع أنبائها ، فهي توحى إلي ما ينبغي أمره على الناس . ولكني لم أشاركه القول بأن هذا السر
 أمر بسيط وإنما أعدت سؤالاً : ومن أين لك هذه القدرة ؟ وصمت طويلاً وكأما يستعيد ذكريات قديمة
 ثم قال : سأحدثك بما لم أحدث به أحداً . كنت وأنا في التاسعة عشرة من عمري طالباً في (لاهور) بلاد
 البنجاب في الهند وكنت أقيم وحدي في شقة استأجرتها فأقضى نهارى في الجامعة وليلى في منزلي أراجع
 دروسى . وفي هذه الأيام تعارفت بفتاة هندية حسناء كانت طفلة صغيرة ولكنها جمعت كل معاني الأنوثة الفاتنة
 وأسرار الجمال الآخذ . همت بحبها وطنفى غرامها على كل حواسى حتى أصبحت ولا تشغلنى إلا فكرة واحدة
 مستولية على كل مشاعرى ومائلة كل رأسى وهي هذه الفتاة . ولكن الحجاب القاسى كان يحرمنى من لقائها
 ورؤيتها . وكانت تمرّ بي الأيام دون أن أراها فأذوب وجداً وتضطرب أفكارى وتختل أعصابى . وفي
 ذات ليلة جلست في منزلى وحيداً وأنا أفكر فيها بكل قواى ، أفكر فيها وأرغب في رؤيتها وأحصر كل
 أفكارى وحواسى في هذه الرغبة القوية وخيل لي أن كل قوى العالم اجتمعت في ذهنى ثم تمركزت في هذه
 الرغبة القوية وإذ ذاك خيل إلي أن قوة تفكيرى وشدة الرغبة الصادرة من روحى تحترق الحوائط والجدران
 والحوائط وتصل إلى هذه الفتاة في خدرها وتستدعها وأنها تجي مليية دعوتى الحارة وأنها تقترب من منزلى
 وأنها تسير تحت نوافذى وأطلت من النافذة فرأيتها تسير في الطريق وهي تنظر إلى نوافذ حجرتى . وحدث ذلك
 مراراً فكنت كما فكرت فيها رأيتها أممى . ولا ريب أن في تلك إحدى معجزات الغرام والرغبة القوية . ولكنى
 لم أهنأ بحبيبتى فقد اختطفها الموت وهى في زهرة صباها وحزنت عليها حزناً شديداً فهجرت الجامعة والدروس
 وأهملت نفسى ورحلت كالمجنون لا أريد من حياتى إلا أن أراها بعد موتها . وكنت أعلم أن بين جبال الهند

وغاباتها يعيش جماعة الفقراء والدرأويش الذين يقال عنهم إنهم من طائفة قضت أيامها في التنسك والعبادة حتى أزيلت عنها الحجب واتصلت بعوالم الأرواح وتجردت من شوائب المادة الدنيوية فبلغت نفوسها درجة فائقة من القداسة . ودعاني شفقي بحبيبي الميتة وحنوني ورغبتي في رؤيتها إلى الهيام في الغابات والجبال وإلى غشيان مجامع الدرأويش الفقراء في العراء أملا بأن أستطيع أن أرى روح حبيبي وأخذت عهدا على بعض شيوخهم وكان لابد لي من قضاء مدة التجربة بينهم . ولا أزال أذكر تلك الليالي الطويلة والمحن التي قاسيتها فيها حيث كنا نجلس حلقة كبيرة في وسط الغابة تحت ضوء النجوم تتلو آيات معينة من القرآن الكريم ونكرر تلاوتها آلاف وآلاف من المرات حتى تتجرد أرواحنا عن أجسامنا ونسبح في عالم كله هدوء وسكينة وكنت أرى بعض وحوش الغابة تتسلل نحونا، فهذا فهد ضار يقف عن بعد محمق إلينا وكأن عينيه شعلتان تتقدان في ظلام الليل، وهذا أفعوان ضخم يزحف بين الحشائش ويدور حولنا ، وكان الفزع يتولاني في أول الأمر ، ولكني أرى الدرأويش في ذكركم وتلاوتهم لا يشعرون بتلك الضواري ولا يقيمون لها وزنا فأجمع قواي وأشد على قلبي وأستمر في القراءة والذكر . وفي صباح اليوم التالي أسأل أحد رفاقي عن هذه السكواسر فيجيبني إنها الأرواح مشككة في أشكال مخيفة تحاول قطع قراءتنا حتى لا تتسلط عليها وتسمى لايقاع الرعب في قلوبنا ولهمزمتنا قبل أن نهزمها ، وقضيت أربعين يوما على هذه الحالة وأنا لاأتناول طعاما ولا أرتدى ثيابا ولا أقطع وقتي إلا بالتلاوة والذكر ، وفي ختام اليوم الأربعين شعرت بأنني بلغت ما بلغ أساتذتي الدرأويش وأنتى أصبحت سيدا على الأرواح أناديها فتلني ندائي . وسألته : ومن كانت أول روح استحضرتها؟ قال بهدوء : روح حبيبي طبعاً وقد لبث ندائي وحادثتها وحادثتي .

ومما يذكر عن نبوات رجل الأسرار واسمه الحقيقي (مير عبد الحميد) أن أحد النواب الوفديين ذهب إليه ليسأله في أمور سياسية وكتب الأسئلة وطواها وكان بينها هذان السؤالان :

(١) - كم يعمر البرلمان ؟

(٢) - هل تعقد بين مصر وإنجلترا معاهدة في بحر ستة أشهر قادمة ؟

فكان الجواب على السؤال الأول « يعمر سنة واحدة » والجواب على السؤال الثاني « نعم » ولم يجد النائب في هذين الجوابين ما يشفي غليله فان حل البرلمان لا يمكن أن يحدث إذا أبرمت المعاهدة .

وسأل سؤالا ثانيا : إذا كان البرلمان سوف يعمر عاما واحدا فما هو نظام الحكم الذي يتلوه ؟ وكان الجواب « يكون الحكم في يد حزب الأغلبية ويتق في يده طويلا » وكان هذا الجواب يدل على أن الحكومة الوفدية سوف تحل البرلمان بعد سنة واحدة ثم تعود الانتخابات فيخرج حزب الأغلبية وهو الوفد فأزاد ويتولى الحكم مدة طويلة ، والله أعلم اه .

فما قال صاحبي ذلك وقد قرأه في المجلة بنصه . قلت له : وهل لهذا علاقة بالتفسير . قال نعم : أذكرك بما تقدم في (سورة النور) ألم تذكر هناك الأسئلة التي وجهها الناس إلى الشيخ أحمد بن المبارك تلميذ الشيخ الدباغ في أمر السحاب والمطر والبرق والجبال التي في السماء ، ولما رأى الشيخ ابن المبارك أن علماء الإسلام قبله لم يعرفوا أغلب تلك العجائب هرع إلى الشيخ الدباغ فأجابه وشرح مسائل لم يظهرها إلا العلم الحديث فكان ذلك معجزة إذ ظهر أن في الجو جبلا من ثلج ينزل منها برد وقد رسمتها أنت هناك ، وأنت قلت إن طبيعة دين الإسلام أن يسأل الناس علماء عن كل شيء لأن القرآن يذكر أمورا كثيرة ، فإذا قال الله لنا إن

الجن لا يعلمون الغيب لما بالننا نرى رجلا هنديا في هذه القصة يخبرنا نحن المصريين بأن المعاهدة ستكون بعد ستة أشهر وأن البرلمان يغير برلمان آخر بعد سنة، وكيف قدرت روحه أن تخضر محبوبته إلى منزله من وراء الجدران والحيطان، وكيف يخاطبها بعد الموت؟ وإذا لم يكن تفسير القرآن هو الذى يوضح ذلك فمن أين نعرفه، ثم هذا الفقه الهندي يتمتع الآن بهذه اللزبة. فهل من الصلحة أن نسعى لنظيرها؟ لأن الناس جميعا عندهم استعداد لأمثال هذا وإن كانوا فيها مختلفين، فقلت له إن قولك يتضمن ما يأتي:

(١) كيف قويت روح الهندي على أن ينظر الفتاة من وراء حجاب؟

(٢) كيف قدر أن يحدث الأرواح؟

(٣) كيف يعلم الغيب والله يقول إن الجن لا يعلمون الغيب وهو يقول إن الأرواح تعلمه ذلك الغيب؟

(١) أما قوته على رؤية الفتاة من وراء حجاب فذلك يرجع إلى قوة في نفوس جميع الناس وهذه القوة لا تتجلى إلا نادرا جدا لأن قوانا في الأرض موزعة على أعمالنا، ألا ترى أن أرواحنا موزعة قواها على الحواس الخمس الظاهرة والحواس الخمس الباطنة وعلى ما فيها من قوى شهوية وقوى غضبية وعواطف وعادات وأحوال لا حصر لها، وكل هذه مفرعات عن النفوس، فإذا حصر المرء فكره في أمر ما نال منه على مقدار ما قسم له وهذا الفقه حصر فكره في الفتاة وجميع السحرة في العالم من هذا الباب دخلوا، فنفسهم حصرها في أمور خاصة بطريق خاص بهم تلقوه عن غيرهم وقد قللوا الشهوات فأثر على مقدار عزيمتهم، وهذا الفقه ما حصر فكره إلا الحب الذى استحوذ على جميع قواه، فصار هذا الجسم وحواسه الظاهرة والباطنة كأنها ملغاة لا عمل لها، وهذا تقدم تقريره في مواطن من هذا التفسير.

(٢) وأما محادثته للأرواح فهو مفرع على ما قبله، وقد تقدم تقريره في هذا التفسير كثيرا وهو مشروح شرحا تاما في كتابي [الأرواح] الذى ألفته لذلك. إن النفس متى انصرفت عن أحوال هذا العالم اطلعت على عوالم أخرى.

(٣) وأما جواب السؤال الثالث وهو المذكور سابقا وهو أن الأرواح لا تعلم الغيب سواء أكانت في أجسامها أم كانت مجردة منها بعد الموت، وهذا الفقه الهندي إما أن يكون إخباره بالغيب في أمر البرلمان من قوة نفسية فيه، وإما أن يكون بإخبار الأرواح، وكلاهما ينبغي البحث فيه.

نحن الآن لا نعلم هل يصدق ذلك التنبؤ أم يكذب؟ ولم تمض الستة أشهر ولم تمض السنة حتى نجح بصدقه أو كذبه، والذى ثبت في علم الأرواح أنها لا تقدر أن تعرف الأحوال المهمة في الأرض، وإذا أخبرت وقع الصدق والكذب فيها إلا إذا كانت أرواحا عالية تسخر بأمر لعرض شريف فهذه يباح لها ذلك الإخبار، فأما الأرواح الصغيرة فإنها طائشة تخبر بما لاحظ له من الصدق استهزاء بالسائل لأنها تحب المزح والسخرية. هذا، ثم إن منزلة هذا الفقه الهندي في النوع الإنساني وأمثاله من أولئك المتبتلين ليست هي المنزلة السامية. نحن خلقنا هنا في الأرض ولنا أعضاء وقوى وعقول فلا بد أن نعطيها حقها من العمل وحولنا عوالم أرضية وسماوية فلا بد أن نعطيها حقها من الدرس وحولنا نوع الإنسان فلا بد من أن نكون ناصقين له بقدر طاقتنا، أما تعطيل قوانا واتكالنا على الأرواح فهذا نقص فينا كما هو مفسر في [كتاب الأرواح] وليس للإخبار بالغيب في عالمنا مزبة شريفة إذا صدق، ولذلك قل الصدق في الإخبار بالغيب لأن الإنسان إذا علم المستقبل أهمل الحاضر فنام وكسل، وهذه هي سنة العوالم الأرضية، الأرواح الصغيرة تخبر صدقا وكذبا، والأرواح العالية لا تخبر إلا بالأمور العالية للمنافع العامة وذلك قليل ونادر، إن علمنا يضر به العلم بالمستقبل فالجهل به هو السنة الصالحة في أرضنا، وهذا الفقه الهندي هو وأمثاله اليوم لا يفيدون الإنسانية أموراً عملية.

نعم ربما كانت حياتهم مذكرة للناس بعوالم الأرواح ، فهم من هذه الوجهة قد أدوا خدمة وإن لم يقصدوها ، ولكن المعرفة والإخبار بالغيب أكثرها كذب لا يصح التعويل عليه ، ولو صح ذلك لكان وبالا على الناس إذ يعلمهم الكسل والانتكال على المستقبل ، ومن عجب أن يقول [إن الأرواح تظهر للنسك في أشكال مخيفة خشية التسلط عليها لهذه العبادات] وهذا دلالة على أنها أرواح من عوالم منحطة ليست راقية ، فإذا سخرت لهؤلاء النسك فهي أشبه بالاستعمار في الأرض . فالأمم التي عندها أسلحة تغزوا إلى أسلحة لها وهؤلاء ضعاف . إذن ظهورهم وإخافتهم لهؤلاء النسك وقت القراءة أشبه بمحاربة لإحباط أعمالهم ؛ فإذا تغلب النسك على تلك الأرواح استخدموها . إذن هذه الأرواح صغيرة ضعيفة يسخرها كل من قدر عليها وهذه هي الأرواح التي تكذب تارة وتصدق أخرى وإخبارها بالغيب مشكوك فيه لأنها محجوبة عن المستقبل ، إذ العلم بالمستقبل لا يعطى إلا لأرواح عالية إلى حد مخصوص ليساعدها فيما تزاوله من إصلاح العوالم الأرضية . هذا ما يعطيه علم الأرواح . فأما هذه الوهبة التي أعطيها الشاب الهندي فليست مزية شريفة في الإنسانية .

وإذا قرأت ما تقدم في [سورة الحج] في (صحيفة ٤٧) وما بعدها من الجزء الحادي عشر واطلعت على كلام الشيخ الدباغ والشيخ الحوّاص والشيخ الشعرائي وجدت هذا المقام موضحا كل الإيضاح ، وأن أهل الصلاح الذين اطلعوا على الأمور الغائبة ليس لهم حظ في الآخرة لأنها شهوة نفسية ، وربما يموت الصالح مفلسا لأنه أخذ حظه في الدنيا . ولذلك ترى الشيخ الحوّاص يقول : [إياك أن تقبل الفتوح والاطلاع على المقبيات بل استعذ بالله من ذلك] وترى الشيخ الدباغ يفسر لنا آيات وأحاديث بما لم يقله غيره من العلم والحكمة العالية وهو نفسه يقول [إن الذين يعبدون الله ويقصدون بالعبادة هذه الأمور يصبحون أحسن نوع الانسان] فاقرا هذا المقام هناك وفي سورة الكهف عند قوله تعالى « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وفي موضع آخر قبله في نفس السورة . وإذا كان العباد والصالحون إذا قرءوا القرآن وعبدوا الله لهذه المقاصد مذمومين ، فما بالك بهذا الفتى الذي قصد من التجرد أن يخاطب محبوبته . ثم إن القرآن لم ينزل لمثل هذا . كلا ثم كلا . على أن حصر النفس وإحضار الأرواح لا يتوقف على القرآن ولا على كتاب سماوي بل حصر النفس يحصل بأمور كثيرة ومنها اتصاله بذلك الشيخ ومنها تلك العزائم التي تشتغل على ألفاظ لا يفهمها القارىء وهو مشغول بقراءتها ، فليس المقصود من قراءة القرآن أمثال هذا بل هو نزل لتهديب النفوس وإصلاح الأمم لإخراجنا من الجسمية إلى حال الروحية مرة واحدة . هذا ما أعلم في هذا المقام « وفوق كل ذي علم عليم » فقلت الحمد لله رب العالمين .

كتب نصف الليل يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٣٠ م

فلما أتممت هذا المقال جاء إلى أحد الإخوان وقال انظر انظر إلى ما جاء في مجلة « الدنيا المصورة » بتاريخ يوم الأحد ١٣ إبريل سنة ١٩٣٠ م وقرأ ما نصه :

(قوة الإرادة تنتج أعمالا خارقة)

(كيف يسلط المشعوذون قوى إرادتهم فيأتون بالعرائب والمدهشات)

ذلك أن في الانسان من القوى المعنوية المجهولة ما لم يستطع العلم بعد الوقوف على سرها أو كشف حقائقها ، ففي الناس من سمعنا عنهم أن نافورة من المياه المتدفقة تخرج من بين أصابعهم ساعات وأياما بلا انقطاع ، إلى أن يبلغ حجمها أضعاف حجم الجسم الذي تخرج منه لو فرضنا أنه استحال كله ماء . ومنهم من يضع نفسه

في صندوق محكم الغلق ويبقى فيه مسدود الأنف والنفاس عدة أيام وليال ، ثم يخرج منه كأن لم يكن في الأمر شيء ، ومنذ آلاف السنين عرفت قوة الادارة واستعملت ولكن في دوائر محدودة وبين أفراد قلائل جدا ، على النحو الذي يمارسه فقراء الهنود إذ ينامون على السامير والحراب دون أن يشعروا بالألم ويعزقون جلودهم بالمدى والأسنة دون توجع أو آني .

﴿ عملية جراحية بدون مخدر ﴾

ويقول علماء هذا العصر : إن كل إنسان يملك هذه القوة التي نرى أنها خارقة ، وكل ما يعوزه هو تميمتها وتدريبها . فقد حدث أخيرا في أحد المستشفيات أن مريضا رفض أن يتعاطى مخدرا قبل إجراء عملية جراحية خطيرة ، وطلب إلى الطبيب أن يقوم بعمله رأسا ، بعد أن تمكن بقوة إرادته من أن ينام نوما لم يشعر في غضون بضعة الجراح ، وقد فحص الأطباء بعض ذوي قوة الارادة فقررروا أنهم استطاعوا أن يزيدوا عدد النبض العادي أو يقللوه كما يريدون ، بل تمكن بعضهم من أن يوقف دقات القلب زمنا ما .

﴿ طهرا بك في لندن ﴾

لقد كان الناس يعدون فقراء الهنود إلى عهد قريب دجاجلة يعشون ويخدعون ويكذبون فيما يظهرونه من الخوارق ، ولكن العلم الحديث يعترف بأنهم ليسوا كذلك ، إنما هم قوم ذوو قوة إرادة نافذة وسيطرة عقلية على الجسم جميعه . ولعل القراء يذكرون ما عرضه « طهرا بك » في مصر من مدة قريبة ، وقد عرض هذا الرجل كثيرا من أعماله الخارقة في لندن فلم ير الأطباء أن فيها شبهة الكذب والخديعة . ذلك أنه دنا أربعين طبيبا إنجليزيا وأجلسهم معه على المسرح الذي كان يشتغل فيه ، ثم غرز سكيننا حادة في أجزاء من جسمه كان يسيل الدم منها وينحبس تبعاً لإرادته . ثم استلقى أمام الأطباء على لوحة من السامير اللدنية ، وأوقف رجلا ضخما على صدره دون أن يشعر بأى ألم ، ولما نزل الرجل جىء بحجر كبير وضع مكانه ووقف رجلان يتناوبان ضرب هذا الحجر بفأس حتى تكسر على صدر « طهرا بك » الذي قام بعد ذلك سليما معافى . وقد فحص الأطباء ظهره فوجدوا به آثار دخول السامير فيه ، ولكنهم لم يروا أثرا لقطرة دم ماهرة . وقد ظهر في برلين في العام الماضي رجل قام بأمثال هذه الأعمال جميعا ، وزاد عليها أنه كان يظهر للجمهور صليبا داميا على أديم ظهره ، ثم يخفيه ويعود إلى إظهاره حسب إرادته . وقد قال هذا الرجل إنه رسم بموسى حلقة صليبا على ظهره بحيث لا يمكن أن تراه العين . حينئذ كان يريد إظهاره للناس يتسلط بقوة إرادته على الدورة الدموية فتدفع الدم إلى خطوط ذلك الصليب ، فيظهر للناس داميا رهيبا ، ثم يأمر الدورة الدموية بقوة إرادته فتمتص الدم من الصليب فتتمحى آثاره .

﴿ يشق نائم ﴾

وقد أمكن تحليل مكان عدم الشعور بالألم باستعمال قوة السيطرة العقلية على الجسم ، بما تراه في التنويم المغناطيسى حيث لا يشعر النائم بأى ألم تحدثه به أو توجع لما يصاب به أثناء نومه . وأغرب من هذا ما حدث في مدينة شيكاغو ، إذ شق شاب اسمه هارفي شيرش وهو نائم ، فقد حوكم هذا الشاب من أجل حادثي قتل فظيعتين ثبتت إدانته فيهما وقضى عليه بالاعدام شنقا . وقد غلب الخوف والفرع ذلك السفاح ، فعمد إلى السيطرة على نفسه ببطء إلى أن غدا لا يشعر بشيء مطلقا مما حوله ، ولبث نائما في سبات عميق عدة أيام قبل تنفيذ الحكم ، وأخفقت كافة المحاولات لايقاظه ، وحمل يوم التنفيذ غائب الوعي إلى المشنقة حيث شق وهو في غيبوبة وعدم شعور تامين . وهذا مما يعزز صدق الأفعال التي يقوم بها فقراء الهنود وغيرهم ، إذ أن السيطرة على الجسم بقوة الارادة ، وتركيز القوى

المنوية الخفية ضد الشعور بالألم ، كل هذا يزعم اعتقادنا بأن هناك قوة غير طبيعية ، وخوارق شاذة ليس في مقدور البشر حل مبهماتها .

(نخونه إرادته)

وقد حضرت لجنة طبية في بومباي « الهند » فقيرا استطاع أن يوقف النبض في أحد ذراعيه دون الآخر ويمكن من أن يوقف دقات قلبه لمدة ستة ثوان حينما أمر قلبه بذلك . وقد استطاع أيضا أن يوقف حركة التنفس بضع دقائق وبقي بعد ذلك حيا . على أن قوة الإرادة التي تمهد لهؤلاء الناس التغلب على هذه الأشياء الخطيرة قد نخونهم في أخرج للوائف فلا يكون نصيبهم منها أقل من الموت ، كما حدث للفقيه « بلاكان » . فقد مارس هذا الرجل لعبة للسكرتير مدفونا تحت الرمل في أحد المسارح دون تنفس بضع ساعات ، وأجرى هذه اللعبة عشرات ومئات اللرات كان يقوم بعدها دون أن يصاب بشيء . ولكن حدث مرة وهي الأخيرة أن أخرجه بعد المدة المقررة وقد فارق الحياة . فقد خانت الرجل قوة إرادته في أرهب موقف ، وأخطر ساعة .

(الموت والحياة بالارادة)

ومن الممكن أن تتأثر الحياة والموت بالارادة ، ويعزز هذا القول ما رواه أخيرا الماجور سميت حكمدار بوليس مستعمرة الساحل الذهبي في أفريقيا ، ذلك أن أحد كبار الوطنيين للتعليمين ، تأثر من مشادة وشجار حدثا بينه وبين أحد مواطنيه فأعمل إرادته في نفسه ومات في اليوم التالي ، دون أن يكتشف الأطباء أى سبب لوفاته أو أى أثر لمرض فيه . انتهى .

قلقت له : إنك لن تفعل شيئا . ما هو إلا تكرار لما كتبناه هنا وهو ملخص ما كتبناه في نفس هذا الموضوع في [سورة الإسراء] وشرحنا نفس هذا الشرح في (طهرا بك) المذكور وفي الرجل الألماني . فقال : حقا أنت قلت نفس هذه المعاني . قلقت . فاحمد الله على العلم والحكمة . اللهم إنا نحمدك على الحكمة والعلم وإنارة أمم الإسلام في هذا الزمان .

(المبحث الثاني)

(من الفصل الثالث)

(في سبأ وسيل العرم ومجائب العلم والكشف الحديث)

قد ذكرت لك في أول السورة أن قوله تعالى « يعلم ما يليح في الأرض وما يخرج منها » واختصاص ذلك بهذه السورة إيدان بما حدث في هذا العصر من العلم والحكمة وظهور آثار عربية في البلاد السبئية فبعده نزلت في أرض سبأ وخبثت في أرضها وبعده سبحانه استخرجت من أرضها وأظهرت النقوش في أحجارها . سبحانه ربنا ، قد كنت كتبت الفصل الثاني من تفسير هذه السورة منذ سنين وهو موجز السورة ولم أكن إذ ذاك لأطلع على ما عرفه الأوروبيون عن بلاد سبأ فكان القول إجماليا والعلم استنتاجيا . ثم إن العوائق وقفت في طريق إتمام التفسير ونشره نحو عشر سنين فاطلمت في أثناءها على الكشف الحديث المصدق للقرآن العجيب البيان . فلما أن أذن الله بالتفسير الآن أخذت أكتب ما رأيته وألخص ما علمته .

علم الله بخزائن الأقدمين من أممنا العربية وطمرها في الأرض أجيالا وأجيالا فعاملنا معاملة الأيتام مات عائلهم والجهال غاب سائسهم وكثر اليقيم لايسلم له إلا عند بلوغه . لقد مضى على المسلمين زمن كانوا فيه غير راشدين

بعد الخلفاء الراشدين بأجيال فعميت عليهم آثار آباؤهم وناموا في كهفهم لاثنتائة سنين وازدادوا تسعا بل سئائة سنين وازدادوا ثمانية عشر .

نام المسلمون واستيقظ الغرييون وأخذوا يحلون الرموز ويكشفون الكنوز وقرءوا التوراة، قرءوا فيها آثار الجن فهاموا بالآثار والمسلمون قرءوها في سبأ فلم يلقوا لها بالا ، فهم كالغلامين في المدينة والكفر تحت الحائط ، فأمر الحضرة عليه السلام أن يظهر الكفر وهو مال مخزون وعلم منقوش ، هكذا المسلمون اليوم يتامى وقد خزن في بقاعهم العلم والمال فلم يسلمه الله لهم، ولكنه اليوم أراد سبحانه أن يسلم إليهم الأمانة فأرسل أولا علماء الفرنجة فجلسوا خلال البلاد الخفية واطلعوا على الخزائن الخفية والنقوش الحميرية والكتابة السامرية فرجعوا لبلادهم ناشرين ولصور أعمال أجدادنا مظهرين وها هو ذا سبحانه أراد ولاراد لقضاه أن يظهر القرآن بالمظهر العلمى للعالم الإسلامى ويعلم أبناء المسلمين أن كتابنا الكريم يحضنا على بحث أعمال الأقدمين وأن من لم يشكر النعمة بتقبلها وحفظها يسلبها الله منه ، بل أقول فوق ذلك إن ذكر هذا المقال في التفسير الآن من علامات إقبال الدهر على أمة الإسلام ، سيقرا هذا الشبان المسلمون والشيوخ الشرقيون فتحدثهم نفوسهم أن يرجعوا بمجدهم ويحفظوا كثرهم ويدرسوا ما كمن في أرضهم ، سيكون ذلك في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي اليمن . وسيتولى الحث على هذا علماء الدين ، كيف لا . ألم تسم السورة باسم سبأ . ألم يذكر الله قصتها هنا ، نعم فبعلم الله وضعت الكنوز ورسمت النقوش ، وبعلم الله أخرجت وستخرج وبالوحى على رسول الله أنزل القرآن وفيه هذا السر للصون ، وبعلم الله جاء أمثال هذا التفسير ، فليشر المسلمون باقبال الأيام وظهور الحكمة والعلم في الإسلام ، فلا شرع في القصد في هذا المقال ولأجعله ثلاثة مقاصد : (الأول) في الكاشفين لآثار سبأ (الثانى) في الكلام على مدينة مأرب (الثالث) في الكلام على سد العرم .

(المقصد الأول : في الكاشفين لآثار سبأ)

قد ذكرت لك في أول السورة أن أول من خطرله ذلك العالم الألماني (ميخائيلس) وهو عالم بالفلسفة واللاهوت ومات سنة ١٧٩١ م وكان يميل إلى نبذ التقليد ويحب أهل النظر وهو المقترح على ملك الدنمارك إرسال البعثة إلى اليمن سنة ١٧٥٦ ليحقق ما في التوراة من المسائل المتعلقة بجغرافية الشرق وعادات الشرقيين يا عجبا : انظر كيف ألهم الله الأمم أن تحفظ التوراة التي هي مجموع حوادث وقصص وكم فيها من خلط ، ولكن الله لا يبق شيئا إلا للحكمة . فانظر كيف كانت التوراة سببا في حب هذا العالم لكشف آثار اليمن . انظر كيف أحب القوم دينهم ولو دخل قصصه التحريف . ومن حب الدين والمطالعة أحب كشف بلاد آباؤنا . فإذا يقول المسلم بعد هذا ؟ المسلم الذي يقرأ سورة سبأ والعربى للسلم ربما كان من نسل سبأ . بل العرب في مصر والشام والعراق وشمال أفريقيا والحجاز يمتون بالنسب والجوار واللغة إلى سبأ إذ الجميع عرب فهذه الأمم كلها لم تفكر في آياتها ولا في بلادها ولا في آثار دينها . يحيى (ميخائيلس) فيقول (لفرديريك الخامس) ملك الدنمارك : [شكل لجنة وبحث عن آثار سبأ] فأجابه الملك وأرسل خمسة علماء رئيسهم عالم اسمه (كارستن نيوهر) لماذا ؟ لتحقيق ما في التوراة عن اليمن . فإذا تم لهذه اللجنة ؟ سافرت في سنة ١٧٦١ إلى الاستانة ومرت بمصر ووصلت اليمن سنة ١٧٦٢ م . فإذا حصل ! ماتوا بالتدرج من المشاق والعطب إلا الرئيس فرجع وألف كتابا ونشر في أوروبا وقال إنه عثر على (مدينة ظفار) و (حدافة) وفيها نقوش يجهل اليهود والعرب حلها . ثم سافر (زتسن) الألماني إلى اليمن سنة ١٨١٠ فعثر في ظفار

على ثلاثة نقوش وفي (مخا) على خمسة وهو في كل ذلك معرض للموت من عرب اليمن . ثم سافر صابط
انجليزى اسمه (ولستد) سنة ١٨٣٨ م فعثر على نقوش حميرية في قلعة يقال لها (حصن غراب) ووجد هو
ومن معه نقوشا من نفس مدينة مأرب التي كان فيها السد المشهور . ثم ذهب العالم (ارنو) الفرنسى سنة
١٨٤٣ وعاد معه (٥٦) نقشا كما تقدم من صنعاء والحربية ومأرب وحرم بلقيس ، وكان (ارنو) هذا
صيدليا لإمام صنعاء فأشار عليه أحد أصحابه أن يحتمل للوقوف على آثار مأرب التي يتحدث الناس عنها
في أوروبا والمسلمون لا يعلمون عنها شيئا مع أنهم في أرضها ، فاحتال بحيلة : وذلك أنه أظهر الفقر والسكنة
للبدو واصطحب مع قافلة فقاسى في تلك الرحلة العذاب والشدائد من الحوف والتعب ، وذلك أنه مع غناه
وثروته الطائلة قد تواضع لهؤلاء وهم يجهلون أمره فكانوا يسكفونه ما لا يطبق من الأعمال والمشايق ، ولم
يتروا له فرصة ينسخ فيها النقوش أو يطبعها فكان يفعل ذلك سرا تحت خطر القتل حتى أصيب برمد فعاد
إلى صنعاء أعمى فأرسل ما كان نسخه إلى صديقه (فرسنل) فنصل فرنسا بحمد الذى أشار عليه بذلك ، وقد
نشرت أخبار تلك الرحلة بالجملة الأسبوية ، وفي بعض الأجزاء خريطة سد مأرب ، وهو أول من تمكن
من مشاهدة تلك الآثار وقد حل العلماء نقوش (ارنو) سنة ١٨٤٥ م .

ثم شككت [جمعية الآثار السامية] واهتم بذلك ناظر المعارف يباريس فأرسل للمستشرق (هاليني)
سنة ١٨٦٩ مهتديا بمن قبله فرجع معه (٦٨٠) نقشا وهو في ذلك خائف وجل من العرب ، وكان يتظاهر
وهو ينقل النقش بأنه راقد أو بأنه يصلى صلاة الإسلام . كل ذلك خوفا أن يقتله العرب . واطلع (هاليني)
على بلاد الجوف مع أن علماء الجغرافيا يجهلونها وأهل صنعاء لا يعرفونها مع قربها منهم . ثم اطلع على بلاد
(معين) عاصمة دولة المعينيين ولم يأت ذكرها إلا في كتب اليونانيين .

ثم سافر العالم الألماني (ادوفارد غلازر) ونقل ألف نقش من مأرب وغيرها وفي بعضها تاريخ سد مأرب
وإصلاحه . ثم سافر إلى اليمن غير هؤلاء علماء فأتوا من فرنسا والنمسا . وبالجملة فإن متاحف أوروبا الآن
عددا كبيرا من آثار اليمن منها ما هو منقوش على البرونز والألواح والأحجار تزيد على ألفين قد نشر منها
كثير في المجلات الألمانية والفرنسية والانجليزية .

هذه صورة ما كشفه الأوروبيون من آثار اليمن ذكرتها ليفطن المسلمون وليقوم فيهم النخوة والحمية
وليكونوا أمة عالية الشأن وليغاروا على مجدهم ودينهم . انتهى المقصد الأول .

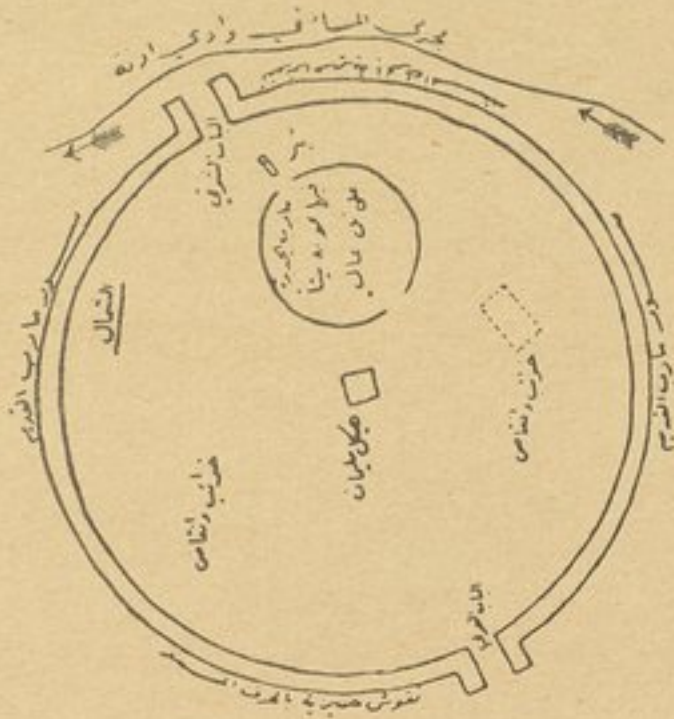
(المقصد الثاني في الكلام على مدينة مأرب)

اعلم أن اليعقوبى في القرن الثالث الهجرى ذكر مخاليف اليمن التي كانت في عصره . وجاء الهمداني
في كتابه « وصف جزيرة العرب » فصل تلك المخاليف وقرأها وأوديتها وجبالها وهذا الكتاب أوثق مصادر
الكتب العربية وأوقاها ، ولعلك تريد فهم المخاليف فأقول لك :

إن الخلاف وجمعه مخاليف أشبه بما يقال له (مديرية) بالقطر المصرى كالكورة عند قدمائنا أو الرستاق
ويعلمه ملك صغير يسمى (قيل) جمعه أقيال . والخلاف يشتمل على محافد جمع محفد أشبه بالمركز في بلادنا
المصرية ، فكل محلاف مقسم إلى تلك المحافد والمحفد الواحد عبارة عن قصور والقصر الواحد كالقلعة أو الحصن
ويعرف صاحب المحفد بلفظها (ذو) فيقال ذو عمدان وذو معين وهؤلاء الحكام يسمون الأذواء أو الذوين
كاللوردات في أوروبا ، وقد يتغلب رجل منهم فيسمى نفسه ملكا عليهم جميعا ويتوارث الملك بنوه والذى عرف
الآن ثلاثة الدولة العينية والسبئية والحيمرية وهى الدول الكبرى . أما الدولة للعينية فلا شأن لنا فيها .

وأما دولة سبأ فهي الدولة التي نحن بصددتها الآن. واعلم أن التاريخ الذي وصل لنا عن تلك الدول غير موثوق به وهو مبعض وغير منظم. وإنما يقال إن قحطان أبو اليمن كلها وقد آتى من جهة بابل وتعلم اللغة العربية من العرب البائدة. ولعل القحطانيين لما جاءوا من بلاد ما بين النهرين وهم لم تدنسهم المدينة والترف اختلطوا بالعرب البائدة وتعلموا منهم على طول القرون والسنين ثم عدوا عربا. وقد ثبت الآن أن أهل سبأ أنشؤا دولة عظيمة وبلغ عدد ملوكها الذين قرءوهم على آثار مأرب ومرواح وغيرها بضعة وثلاثين ملكا. وقد حقق بعض العلماء أن دولة سبأ تبتدى سنة ٥٥٨ ق. م وتنتهى سنة ١١٥ ق. م. ثم ظهرت دولة حمير. أما دولة حمير فقد كانت من سنة ١١٥ ق. م. إلى سنة ٥٢٥ ب. م. وآخرها ذونواس وحكمها ٦٤ سنة ثم دخل الحبشة.

ودولة سبأ التي كلامنا فيها كانت عاصمتها لما اتسع ملكهم (مأرب) التي كشفت حديثا بعد نقلها من (مرواح) وقد وجد في نقشها رسم ملك اسمه (يشعمر) وهناك رسم خريطة مدينة مأرب (انظر شكل ٢٩)



(شكل ٢٩)

رسم خريطة مدينة مأرب بعد خرابها

هذه خريطة مدينة مأرب القديمة وتسمى (عاصمة سبأ) وقد عرفت أن لها باين أحدها شرقي والثاني غربي. قال الشاعر:

ومأرب قد نطقت بالر خام وفي سقفها الذهب الأحمر

وهناك أشعار كثيرة قيلت فيها أعرضنا عن ذكرها. وهناك على مسافة نصف ساعة من مأرب نحو

الشرق الشمالى أنقاض بناء عظيم يقال له (حرم بلقيس) وهو غير قصر بلقيس.

ها أنت ذا رأيت خريطة مدينة مأرب عاصمة سبأ التي ذكرها الله في القرآن ، ثم انظر في كتب التاريخ العربية هل تجد لدولة سبأ ذكراً ؟ هل هناك دولة اسمها سبأ . كلا . انظر كيف يقولون [إن عرب اليمن ينسبون إلى يعرب بن قحطان] ويعرفون بالعرب المتعربة لأنهم تعربوا أي اقتبسوا اللغة العربية من العرب العاربة وهي البائدة ، ويقولون : إن بنى قحطان لما نزلوا اليمن كان فيها بقية من العرب العاربة والملك والقحطانيون كانوا لا يعرفون الملك والترف ثم كثروا وزاحموا العرب العاربة فأبادوهم وأنشؤا الدولة القحطانية على أنقاض البائدة ، ويقولون إن أول ملوكهم يعرب بن قحطان غلب على قوم عاد في اليمن والعاقلة في الحجاز وولى إخوته على جميع أعماله ، فولى جرها على الحجاز وعاد بن قحطان على الشحر وحضرموت ابن قحطان على جبال الشحر وعمان بن قحطان على عمان (انظر ابن خلدون) وبعده ابنه يشجب بن يعرب ثم عبد شمس وهو سبأ لأنه كان كثير السبي ، وهو الذي بنى السد المشهور في أرض مأرب ، وخلف سبأ المذكور أولاداً منهم حمير وكهلان ، ولما مات سبأ خلفه ابنه حمير مؤسس دولة حمير ودولة حمير [طبقاً] السلوك والتبابعة ، وملوك حمير آخرهم (الحارث الرائي) وهو أول التبابعة ، ويقول بعضهم إن بين حمير والحارث الرائي (١٥٠) أباً ، وفي القصيدة الحميرية عددهم جميعاً (١٦) فقط وجعلها أبو القداء (١١) وابن خلدون (٨) والمسعودي (٥) .

وأما التبابعة عند مؤرخي العرب قدمائنا فأولهم الحارث الرائي وآخرهم (ذوجدن) وعددهم (٢٦) تبعاً حكوا (١٧٠٠) سنة .

وهناك خلط وخبط في هذه السنين والأعداد كما قاله نفس المؤرخين . ولعلك تقول مالنا ولهذا التحقيق والتدقيق وما لتفسير القرآن وأمثال هذه الجداول . أقول على رسلك : ففكر في أسماء الدول ، رأيت هناك دولة تسمى (دولة سبأ) . كلا . وإنما هي دولة حمير التي أبوه سبأ ودولة حمير بعد قرون انقلبت إلى التبابعة ، فالمدة كلها تقرب من أربعة آلاف سنة ما بين حميريين وتبابعة . والتبع هو الملك الذي تبعه ملوك كالأباطور الآن ، وليس هناك في تاريخ أسلافنا دولة سبأ التبعة ، انظر كيف ذكر القرآن (سبأ) ولم يذكر حمير ؟ خالف القرآن قول المؤرخين ، خالفهم كل المخالفة وجاءنا بدولة (سبأ) إظهاراً للحقيقة ، ولقد ظهرت الآن وتبين أن دولة سبأ هي التي أغارت على أمة يقال لها (معين) لم تذكر في التاريخ وهذه الدولة عمرت طويلاً كما رأيت وانتقلت العاصمة من مأرب إلى ريدان وهي ظفار بتغلب الحميريين على الملك . من هنا تبين لك أن القرآن يوافق الكشف الحديث ، وقد كان ذلك مجمولا (١٣) قرناً وظهر الآن فهو من العجرات للقرآن . انتهى المقصد الثاني .

المقصد الثالث في الكلام على سد العرم

قد عرفت مدينة مأرب وأنها كانت عاصمة دولة عظيمة وهي دولة سبأ ، وترى في الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال متشعبة من جبل السراة تمتد مئات الأميال نحو الشرق الشمالي ، وبين هذه الجبال متسع عظيم يتجه إلى واد كبير يقال له (الميزاب الشرق) فإذا أمطرت السماء على تلك الأفطار انتهت أخيراً إلى وادي (أدنه) وهو يعلو (١٦١٠٠) متراً عن سطح البحر فتسير فيه المياه إلى مكان قبيل مأرب بثلاث ساعات وهو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق : أحدهما الأيمن والآخر الأيسر كما عبر القرآن ، وأخذها عنه المرحوم (جورجى زيدان) والمسافة (٦٠٠) خطوة بينهما ، والسيل يجري بينهما من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي في واد هو (وادي أدنه) .

ولما كان هذا الماء يجري من الجنوب إلى الشمال بلا فائدة فكر السبيون في ذلك فبنوا (سد العرم) في الضيق بين جبلي (بلق) وبين الضيق والمدينة (٣٠٠) ميل مربع فأصبحت جنات بسبب هذا السد ، وهذا السد طوله من الشرق إلى الغرب ثمانمائة ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعاً وعرضه (١٥٠) ذراعاً .

وثلثه العري وهو الأيمن لا يزال باقياً للآن معجزة للقرآن (انظره في الحريطة) والثلاثان الباقيان فاض للماء منهما وعجزوا عن ترميمهما . وترى النقط في الحريطة لحديهما . وما مثل العرم إلا كمثل الحزانات التي تصنع اليوم في مكوار على النيل الأزرق وجبل الأولياء على النيل الأبيض وخزان (أسوان) فيعلو للماء فيسقي الأرض . وإذا ترك ذهب إلى البحر الأبيض المتوسط كما يجري الماء بين الجبلين هناك وبذهب في الشمال والرمال بلا فائدة .

هذا ، وقد عثر الباحثون على نقشين : أحدهما على الصدف الأيمن ، وهو [أن يشعر بين بن سمهلي بنوف مكرب سبأ خرق جبل بلق وبني مصره رحب لتسهيل الري] والنقش الثاني على الصدف وهو [إن سمهلي بنوف بن ذمر على مكرب سبأ اخترق بلق وبني رحب لتسهيل الري] فأحدهما ابن الآخر وكانا في القرن الثامن قبل الميلاد وهكذا بتوالي ملوك سبأ تم بناؤه . ولما أعيام حفظ السد تفرقوا في البلاد كما ذكره القرآن .

قال الأصفهاني [إن السد تهدم قبل الاسلام بأربعمائة سنة] وقال ياقوت [إنه هدم في نحو القرن السادس للميلاد] أي قبيل الاسلام ، ويؤخذ من كلام ابن خلدون أنه تهدم في القرن الخامس للميلاد ولاطائل في هذا النقل إلا معرفة ما قاله المؤرخون .

﴿ الهمداني وسد مأرب ﴾

إن وصف الهمداني لسد مأرب مطابق للكشف الحديث وربما كان يقرأ السند . قد ذكر الآية « لقد كان لسبأ » إلى قوله « ورب غفور » . قال : إن سبأ كثيرة العجائب والجنات عن يمين السد ويساره وهما اليوم غامرتان أي لا زرع فيها . وإنما عفنا لما اندحق السد فارتفع عن أيدي السيول . وذكر أنه وجد جنح نخلة أسود فقال من معه له إنه بقي من مزارع الجنتين . فأما هو فقال لا أظن ذلك . قال ورأيت مقاسم المساء من مداخل السد فيما بين الضياع قائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء أحد الصدفين وهو الذي يخرج منه المساء قائماً بحاله على أوثق ما يكون ولا يتغير إلا إن شاء الله . قال وقد بقي من العرم شيء مما يلي الجنة اليسرى يكون عرض أسفله (١٥) ذراعاً .

وقال تبارك وتعالى « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل » قيل الخمط الأراك ، والأثل الطرفاء ، والسدر المعروف وهو العلب وبها من الأراك ما ليس يلد . ومن الحمام اللطوق في الأراك ما يحل عن الصفة . وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع حمة باليمن [من عروش وجوانب ردمان وشرعة وذمار وجهران وكومان واسيل وكثير من مخاليف خولان] والوادي اسمه (أذنة) وفي هذا السد يقول الأعشى :

كنى ذاك للمؤتى أسوة ومأرب فنى عليها العرم
رخام بناء له حمير إذا جاء مأؤم لم يرم
فأروى الحروث وأعتابهم على ساعة مأؤم يتقسم

فعاشوا بذلك في غبطة فجار بهم جارف منهزم
فطار القبول وقيلها بيهما فيها سراب يطم

وكان العرم مسندا إلى حائط ما بين عضاد بالمذخر بمعاذيب من الصخر عظام ماجمة لمس الأساس بالقطر .
انتهى كلام الهمداني .

وظل الناس مع ذلك في شك من أمر هذا السد حتى تمكن المستشرق الفرنسي أورنو من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له خريطة نشرت في المجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٨٧٤ وزار مأرب بعده هاليفي وغلازر وواقفاه في قوله وصادق على وصفه وهو يطابق ما قاله الهمداني من أكثر الوجوه ، وعثروا في أثناء ذلك على نقوش كتابية في خرائب السد وغيره تحققوا بها خبره وأكثروا اشتغالا في هذا السيل غلازر ، وبين الأساطير التي وقف عليها اثنان جاء فيهما خبر ترميم السد في زمن الأجداد بالقرن السادس للميلاد فيدل ذلك على أنه ظل قائما إلى قرب ظهور الإسلام . ولعل السبب في نسبة بنائه وتهدمه إلى عصور مختلفة وأشخاص مختلفين كثرة تصدعه وترميمه فكانوا يعدون كل تصدع تهدما وكل ترميم بناء .
وبعد ما قدمناه من أقوال المؤرخين والنقابين بشأنه يحسن بنا الاتيان على أصل وضعه وما هو عليه الآن ويوضح ذلك (شكل ٣٠ و شكل ٣١) الآتيان في صحيفة ١٨١ .

﴿ أصل وضع سد مأرب ﴾

في الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير تمتد مئات من الأميال نحو الشرق الشمالي . وبين هذه الجبال أودية تصب في واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرق وهو أعظم أودية الشرق تميزا له عن ميزاب مور أعظم أودية الغرب المتشعبة من جبل السراة المذكور . وشعاب الميزاب الشرق كثيرة تتجه في مصابها ومنحدراتها نحو الشرق الشمالي . وأشهر جبالها ومواضعها في ناحية رداع العرش وردمان وقرن والجبال المشرفة على سوق وفي ناحية ذمار بلد عنس جميعا وهو مخلاف واسع وبه بينون وهكر وفيها الحافد العنسية وبلد كومان وبلد الحدا وجبل أسيل ورجمة وجبال بني وابش من مراد وغيرها ومخلاف ذي جرة وجهران وهرال ومساقط بلد خولان من جنوبية وما تيامن من القحف^(١)
فشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول وانحدرت حتى تنتهي أخيرا إلى وادي أذنة وهو يعلو نحو (١٠١٠٠) متر عن سطح البحر فتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالي حتى تنتهي إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق عبرنا عن أحدهما بالأيمن وعن الآخر بالأيسر والمسافة بينهما ستمائة خطوة (أو ذراع) ويسميهما الهمداني مأزى مأرب يجري السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي في واد هو وادي أذنة .

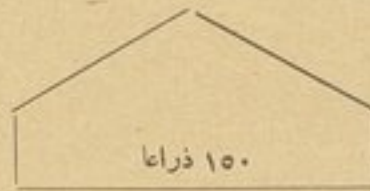
والجبن مثل سائر بلاد العرب ليس فيها أنهر وإنما يستقي أهلها من السيول التي تجتمع من مياه المطر . فإذا أمطرت السماء فاضت السيول وزادت مياهها عن حاجة الناس فيذهب معظمها ضياعا في الرمال . فإذا انقضى فصل المطر ظمى القوم وجفت أغراسهم فكانوا إما في غريق أو في حريق فلما ينتفعون حتى في أيام السيل من استنثار البقاع العالية على منحدرات الجبال . وقد يفرض السيل حتى يسطوي على المدن والقرى فينالهم من أذاه أكثر مما ينالون من نفعه . فساقتهم الحاجة إلى استنباط الحيلة في اختزان الماء ورفعها إلى سفوح الجبال

وتوزعه على قدر الحاجة . فاختار السبثيون المضيقي بين جبلي بلق وبنوا في عرضه سورا عظيما عرف بسد مأرب أو سد العرم الذي نحن في صده لرى مايجاور مدينتهم (مأرب) من السهول أو سفوح الجبال .

والجبلان المذكوران بعد أن يتقاربا عند بلق ينفرجان ويتسع الوادى بينهما . وعلى ثلاث ساعات منهما نحو الشمال الشرقى مدينة (مأرب أو سبأ) في الجانب الغربى أو الأيسر من وادى أذنة . فإذا جرى السيل حاذى بابها الشرقى (راجع الخريطة شكل ٣١) وبين المضيقي والمدينة متسع من الأرض تبلغ مساحة مايحيط به من سفوح الجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع (١) كانت جرداء قاحلة فأصبحت بعد تدبير المياه بالسد غياضا وبساتين على سفحى الجبلين وهى المعبر عنها بالجنتين بالشمال واليمين أو بالجنتة اليمنى والجنتة اليسرى .

﴿ رسمه وكيف ينصرف الماء منه ﴾

والسد المشار إليه عبارة عن حائط ضخم أقاموه في عرض الوادى على نحو ١٥٠ ذراعا (أو خطوة) نحو الشمال الشرقى من المضيقي وسموه [العرم] وهو سد أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا . لا يزال نحو ثلثه الغربى أو الأيمن باقيا إلى الآن كما ترى في الخريطة شكل ٣١ (ج د هـ) وأما الثلثان الباقيان فهما اللذان تفجرا وفاض الماء منهما وعجزت الدولة عن ترميمهما وجرفت السيول أنقاضهما . وقد تقطنا حديهما بالحارطة ليظهر امتداد السد على طوله كما كان في أصله بعرض الوادى ويظهر مما شاهدوه في جزئه الباقى أنه مبنى بالتراب والحجارة ينتهى أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى كالرصيف يمنع انجراف التراب عند تدفق المياه ولو قطعت ذلك الحائط أو السور قطعاً عرضياً لكان شكل مقطوعه على هذه الصورة .



فالعرم يقف في طريق السيل كالجبل المستعرض ويصده عن الجرى فتجتمع مياهه وترتفع مثل ارتفاعها في خزان أسوان بأعلى النيل . وينتهى العرم في طريقه بمصارف للماء يختلف شكلها وأسلوبها عن مصارف خزان أسوان . وذلك أن الذين هندسوه جعلوا طرفيه عند الجبلين أبنية من حجارة ضخمة متينة فيها منافذ ينصرف منها الماء إلى إحدى الجنتين اليمنى أو اليسرى .

فأنشأوا عند قاعدة الجبل الأيمن (الشرقى الجنوبي) وهو جبل بلق الأيمن بناهين بشكل المخروط المقطوع (١ و ٢) علو كل منهما بضعة عشر ذراعا سموها الصدفين أحدهما (١) قائم على الجبل نفسه والآخر (٢) إلى يساره وبينهما فرجة عرضها خمس أقدام . وقاعدة الأيمن منهما تعلو قاعدة الأيسر ثلاث أقدام (انظر رسمهما في طرف الخريطة إلى اليسار) والأيسر مبنى من حجارة منحوتة يمتد منه نحو الشمال والشرق جدار طوله ٤٠ ذراعا ينتهى في العرم نفسه ويندغم فيه ، وعلو الجدار المذكور مثل علو الصدف ومثل علو العرم .

(٢) هذا من كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام ناقلا عما رمز له بحروف (أم أ) صفحة ١٢٧ .

وفي جانب كل من الصدفين المذكورين عند وجههما للتقابلين ميزاب يقابل ميزابا في الصدف الآخر .
والميزابان مدرجان أى في قاع كل منهما درجات من حجارة كالسلم الدرجة فوق الأخرى . ونظرا لشكل
الصدفين المخروطى ولما يقتضيه شكل الميزاب السلى أصبحت المسافة بينهما عند القاعدة أقصر منها عند القمة
وقد مثلنا الميزاب في الحارطة بشكل (ع غ) كأنك تنظر اليه بجانب الصدف .

ويظهر من وضع المخروطين أو الصدفين على هذه الصورة أن أصحاب ذلك السد كانوا يستخدمون المسافة
بينهما مصرفا يسيل منه إلى سفح جبل بلق الأيمن فيسقى الجنة اليمنى . وإنهم كانوا يفتلون للمصرف بعوارض
ضخمة من الخشب أو الحديد تنزل في الميزابين عرضا كل عارضة في درجة فتكون العارضة السفلى أقصرها جميعا
فوقها عارضة أطول منها فأطول إلى العليا وهى أطولها جميعا . والظاهر أن تلك العوارض كانت مصنوعة على
شكل تراكب فيه أو تتداخل حتى يتألف منها باب متين يسد المصرف سدا محكما يمنع الماء من الانصراف إلا
عند الحاجة . فاذا بلغ الماء في علوه إلى قمة الصدفين رفعوا العارضة العليا فيجرى الماء على ذلك العلو إلى سفح
الجبل في أقبية معدة لذلك ونقر أو أحواض لحزن الماء أو توزيعها في سفح ذلك الجبل ، فلا يزال الماء ينصرف
حتى يهبط سطحه إلى مساواة العارضة الثانية فيقف حتى أرادوا ربا آخر نزعوا عارضة أخرى . وهكذا
بالترجيح وعلى قدر الحاجة .

وفي الطرف الأيسر من العرم وهو الغربى الذى ينتهى بالجنة اليسرى بناء كالحائط (س ط م) دعواته
السد الأيسر عرضه عند قاعدته ١٥ ذراعا وطوله نحو ٢٠٠ ذراع وبجانبه من اليمنى مخروطان أو صدقان
أيمنان (٣ و ٤) أحدهما (٣) متصل بالعرم نفسه والآخر (٤) بينه وبين السد الأيسر فيتكون من ذلك مصرفان
(٦ و ٧) مثل للمصرف الأيمن لسكل منهما ميزابان مدرجان متقابلان تنزل فيهما العوارض وتنزع حسب الحاجة
لصرف الماء إلى الجنة اليسرى . وينتهى العرم من حده الغربى بمحائط منجلى الشكل (د ف) مبنى بحجارة
منحوتة صلبة لعله الذى يسميه الهمداني (العضاد) .

فكان السيل إذا جرى في وادى أذنة حتى تجاوز المضييق بين جبلى بلق صده العرم عن الجرى فيتعالى
ويتحول جانب منه نحو اليسار إلى السد الأيسر . فاذا أرادوا رى الجنة اليمنى رفعوا من العوارض بين
الصدفين الأيمنين على قدر الحاجة ، وإذا أرادوا رى الجنة اليسرى صرفوا الماء من المصرفين (٧ و ٨)
بنفس الطريقة فيجرى الماء في أقبية وأحواض في سفح الجبل الأيسر حتى يأتى مأرب لأنها واقعة إلى
اليسار كما تقدم .

وسترى في (صحيفة ١٨١) وهى الصفحة التالية رسم (خريطة بلاد العرب) في أيام دول اليمن من القرن
الرابع عشر قبل الميلاد إلى السادس بعده ، وسترى أيضا في الصحيفة المذكورة رسم خريطة سد مأرب أو سيل
العرم (انظر شكل ٣٠) و (شكل ٣١) .

ها أنت ذا أيها الذي اطلعت على سد مأرب وهو سد العرم وعرفت مدينة مأرب وعرفت أن دولة سبأ لم تكن معروفة في تاريخ أسلافنا، فانظر كيف جاء الكشف الحديث كما في القرآن، وانظر في كتب التفسير التي وصلت إلينا كالتفسير والرازي والبيضاوي وأمثالها التي ألفها الفحول من العلماء، كيف مروا عليها رحمة الله ولم يذكروا غير تفسير يرجع أكثره إلى لفظ القرآن.

أفلا ترى أننا جئنا في عصر نسميه بحق عصر القرآن، هذا العصر الذي يظهر فيه بأجلى بيان هذا السد كما رأيت. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وانظر كيف يقول علماء التاريخ إن اليونان لم يعرفوا اسم حمير قبل السنة العشرين قبل الميلاد ولم يكونوا يعرفون إلا سبأ لشهرتهم. وانظر كيف كان أسلافنا لا يعرفون إلا الحميريين والتبابعة وجاء القرآن بما هو حق في التاريخ.

عجائب القرآن في العصر العشرين

يقص الله علينا قصص طوفان نوح. ويقص علينا قصص سد العرم. ويقول إن سبأ أعرضوا وتارة يقول كفروا. فماذا جازام؟ جازام بخراب الديار. لماذا هذا الجزاء؟ لتفريطهم في السد. سبحانك اللهم أنت الرب الممود، فماذا هذا في دين الإسلام؟ هذا هو المسمى فرض كفاية وما هو فرض الكفاية؟ هو أن يقوم في الأمة أناس لكل عمل من أعمال الحياة فيحسنونه وإلا عوقب الجميع. ويقول إمام الحرمين [فرض الكفاية أفضل من فرض العين] وأي منفعة للأمة أكثر من الماء والأنهار. فانظر ماذا كتبت بعض مجلات مصر لما طغى النيل سنة طبع هذه السورة؟ إذ ذكرت أن نهر للسيسي كاد يهلك الأمة فاجتمعوا لدرء خطره. أليس هذا هو الذي أئذره نوح قومه. وهذا هو الذي أهلك سبأ، إذن القرآن يجعل إهمال أعمال الدولة تارة كفرا وتارة إعراضا ويجازى بالهلاك. والمراد بالسكفر كفر النعمة وجزاؤه في الدنيا الهلاك وفي الآخرة العذاب. إذن في القرآن أسرار تظهر اليوم بالعلم، فانظر المقال التالي وهالك نصه:

عبرة لمصر والمصريين

(كارثة فيضان نهر السيبي - بمناسبة ارتفاع مياه النيل في نحو سنة ١٩٢٩)

مضت أسابيع والأنباء تترى بارتفاع مياه النيل ارتفاعا لم تألفه مصر من قبل وقد بات يهدد اللدائن والقرى والأرواح والأموال. ولقد اتخذت الحكومة لهذا الأمر الخطير أهبتها بقدر ما تستطيع حكومة أن تفعل وأنا لنسرت إذ تراها تعمد إلى بحث قانون (العونة) لحراسة الجسور وإلى إنشاء خط دفاع ثان يقي البلاد غوائل الفيضان، ولكننا إلى جانب ذلك نحزن إذ نرى الأهالي يتبرمون بهذين الاحتياطين ورون في الأول تسخيرا للناس فيما لا يليق بكرامتهم أن يسخروا فيه ورون في الثاني تبديدا لأموال طائلة في سبيل اتقاء خطر مزعوم ولاشك أن أولئك التبرمين لا يدركون ما قد يصيبهم من الرزايا في أموالهم وأرواحهم لو فاض النيل وتقطعت جسوره وتدفقت مياهه تعمر الأرض وتكسح الزرع والضرع ولا تبقى ولا تندر، ويجهلون أن جسور النيل الرخوة قد تكون أوهى جسور الأنهار الكبيرة في العالم وأن أراضى مصر سهل إذا جرى فيه الفيض لا يجد جلا يصد أو تلاجمى وراهه قرية أو مدينة. والواقع أنه أصبح من أوجب الأمور على الحكومة أن تنظم من الآن طرق وقاية البلاد بتدعيم الجسور تدعما يضمن دفع ذلك الخطر كما أصبح من أوجب الأمور على سكان وادى النيل أن يلبوا دعوة الحكومة متى دعتم ليعاونوها بكافة ما يستطيعون لتقوية الشاطئين. ولكي يدرك الناس

أهمية ما ندعو الحكومة وندعوهم إليه نصف لهم كيف حلت بالولايات المتحدة الأمريكية منذ عامين تلك الكارثة الهائلة التي ترتبت على فيضان نهر المسيسيبي حتى إذا ما أدركوا مدى الأخطار التي تنجم من إهمال الجسور هرعوا إلى القيام بما عليه عليهم تلك الأخطار من الاحتياطات .

نهر المسيسيبي أكبر أنهار الدنيا طولاً وعرضاً . يبلغ طوله خمسة آلاف كيلو متر . ويبلغ عرضه من ألف إلى ألف وخمسمائة متر ولكنه يتسع في بعض الأماكن حتى يبلغ خمسة وثلاثين كيلومتراً . وآسیر مياهه سيرا ويبدأ من الشمال إلى الجنوب فتشطر الولايات المتحدة شطرين متساويين وتقطع الموجة المسالمة بين المنبع والمصب في ستة أسابيع وتتجمع هذه الكميات الهائلة من المياه عند المصب الضيق الذي لا يتجاوز عرضه سبعمائة وخمسين متراً ثم تنصب في خليج المكسيك بمعدل ثمانين ألف متر مكعب في الثانية الواحدة . أما الخطر الذي يهدد الولايات المتحدة كل عام فنأشئ عن غزارة مياه النهر واتساع مساحة حوضه مع ضيق مضيه ضيقاً يجعل تلك الكميات العظيمة من الماء تتجمع بوفرة مخيفة عند هذا المصب فتصب ماوراءها فترتفع المياه وتفيض على الجانبين أحياناً وأحياناً لا تقوى الجسور على تحمل ضغطها فتقطع وعندئذ تندفق المياه بقوة تجرف كل مانصادفه في طريقها . ولقد حدث في عام ١٩١٣ أن فاض المسيسيبي فبلغت الخسائر في (مقاطعة الاوهيو) وحدها أربعة وعشرين مليوناً من الجنيهات وهلك من الأُنس البشرية خمسمائة ، وهذه الكارثة مع فداحتها لاتعد شيئاً يذكر إذا قيست إلى الكارثة التي حلت بأمريكا عام ١٩٢٧ م والتي نحن بصدها في هذا المقال :

لاحظ السكان في ربيع سنة ١٩٢٧ م أن الأمطار تهطل بغزارة لم يروا مثلها من قبل وأن الثلوج تنهار من أعلى الجبال وتذوب بسرعة غير مألوفة ثم نهوى إلى نهر المسيسيبي فزيد مياهه ارتفاعاً ، ولاحظوا أيضاً أن فروع النهر قد علت مياهها بنسبة لم يعهدوا لها مثيلاً ولكنهم ظلوا رغم هذه العلامات الخطرة آمنين مطمئنين معتمدين على متانة الجسور وقوتها . والحقيقة أن جسور المسيسيبي من أضخم وأقوى للشروعات التي حققها يد الإنسان في العصور الحديثة . فهي تمتد على طول النهر وترتفع إلى عشرة أمتار فوق سطح الماء في الأوقات العادية وتتسع حتى يبلغ عرضها خمسين متراً . ويسهر على رعايتها ومراقبتها بضعة آلاف من العمال . وقد نصبت بين كل مسافة وأخرى آلات التلغراف والتليفون وأقيمت محطة رئيسية تتصل بجميع المحطات الأخرى في وقت واحد لتنهبها إلى الخطر في الوقت المناسب ، ولا يمر أسبوع إلا ويطوف المهندسون يرتادون الجسور لفحصها . وقد خصصت الحكومة عدة ملايين من الجنيهات لتقطعها كل عام من ميزانيتها كحساب تلك الجسور ظل السكان آمنين مدة أربعة وعشرين عاماً حتى كانت سنة ١٩٢٧ نخاب اعتمادهم على قوة منشآتهم وأيقنوا أن قوة الطبيعة أكبر من أن تغالبها قوة الإنسان ، ففي السادس عشر من شهر إبريل نقل البرق إلى واشنطن وأن النهر قد خرج من مجراه فظن أولوا الأمر أن الخطب يسير وأملوا أن يتداركوه ، ولكن الفيضان كان يزداد من ساعة إلى أخرى حتى أضحت الوسائل للقامة لصيانة الجسور عديمة الجدوى لانفید ، وتحول الفيضان إلى كارثة لم يسمع بمثلها بنو الانسان ، لم يمض يومان حتى غمرت المياه سبع ولايات وحتى بانث مساحات كبيرة من الليشوري والاركنساس وكنتوكي وتينيسى ولوريزانا وتكساس تحت الماء ، ثم انحدرت مياه النهر على الأراضي الزراعية فغطتها وكونت فوقها طبقة مائية ذات ارتفاع يبلغ ثمانية أمتار ، وقد انجلى السكان عن ثلاثين مدينة وتركوا ماثت من القرى نهبا للماء الذي ظل يرتفع ويغذى فروع النهر حتى انهارت جسورها هي الأخرى وعند ذلك جل الخطب وعظم المصاب (انظر شكل ٣٢) و (شكل ٣٣ في الصفحة التالية) .



(شكل ٣٢ - مياه نهر السيسى ترتفع على الجانبين بالقرب من [نيو أورليانز] وقد ارتفعت على المنازل وأغرقت القرى)



(شكل ٣٣ - نسف أحد جوانب السيسى حتى تتدفق المياه من الفتحة التي يحدثها النسف إلى سهل مجاور للنهر فيخف الضغط عن [نيو أورليانز] وتتجو من الفرق)

وكأنما أبت عناصر الطبيعة إلا أن تتعاون في التخريب والتدمير فقامت زوابع وهبت عواصف قطعت أسلاك التليفون والتلغراف وعطلت وسائل المواصلات بين الولايات المنسكوبة وجاراتها فقضت على كل محاولة للإلتقاذ، أفرغت الحكومة قصارى جهدها لحصر الكارثة وتخفيف آثارها فسيرت القطارات السريعة تحمل

فيالق كاملة من الجيش تحفظ النظام بين النكويين وتعاون السكان والعمال فيما يحتاجون إلى المعاونة فيه . وسيرت أسراب الطائرات تحمل الأطباء والعقاقير والمؤن لإسعاف الضحايا والصائين . ولكن الحالة تفاقمت باطراد ارتفاع الماء حتى أبلغ المهندسون حكومتهم [أنها إذا لم تبذل أكبر الجهود وأضخم النفقات لتحاصر الفيضان فستبلغ الخسائر في الأرواح والأموال مبلغا لا تحصى الأرقام] .

وقد كان ما خاف المهندسون أن يكون وبلغ الفيضان أشده وتدقت سيول النهر تمكثح في طريقها المدائن والقري والسكبارى والعمائر والجسور حتى بات أكثر من مائتي ألف نفس من سكان مناطق المسيسي بلا مأوى ولا مأكل وطففت الجثث البشرية تغطى سطح الماء .

رأت الحكومة الأمريكية نفسها عندئذ عاجزة عن مقاومة هذه الكارثة إذا هي اقتصرت على ما لديها من الوسائل فأصدر الرئيس (كوليديج) نداء ناشد فيه الشعب الأمريكى أن يهب بأسره ليشارك في عملية الانقاذ فتقاطر المهندسون والبناءون والعمال والأطباء والمرضون من كل صوب وأقبلوا جميعا يلبون نداء الحكومة ويسعفون إخوانهم النكويين وأشرف رئيس الجمهورية ووزراؤها على إجراءات المقاومة والاعانة وظن الناس أن هذا الجهد العظيم لا محالة منتج خير النتائج ، ولكن ما الذى تستطيعه حيل الانسان إذا تألبت عليه عناصر الطبيعة العمياء ؟

أخذت الأمطار تهطل طوفانا في المناطق الشمالية فزيد مياه النهر ارتفاعا ، والريح الصرصر العاتية تهب بعنف فتعدم كل وسائل اللواصلات بين المناطق للنكوبة وسائر بلاد الدولة ، فاشتدت وطأة الفيضان على الأرض ، واشتدت أيضا وطأة المجاعة على الناس وارتدت أسراب الطائرات على أعقابها بما حملت من أقوات وملابس وعقاقير وهى لا تقوى على مقاومة العواصف والأعاصير الهوجاء ، وهكذا بقيت مئات الألوف من الناس لا يجدون كهفا ينجثون إليه ولا لقمة يتبلغون بها ، وكأما أبت عناصر الطبيعة إلا أن تمنع في التنكيل بهم فأرسلت عليهم موجة من البرد أودت بحياة الكثيرين . ولقد كان السكان يفرّون أمام الماء والماء يتعقبهم حتى التجأ ستة آلاف شخص إلى لسان من الأرض ظنوه يصمهم من الطوفان الذى يطلبهم ولكن سرعان ما أحاط بهم الماء وكاد يتلعهم لولا أن تداركتهم همه الحكومة بفيلقين من الجيش أنقذاهم من بين براثن الموت ، ولكي يدرك القارى ضخامة الوسائل التى عمد إليها الشعب لمعاونة الحكومة تقول : إن جمعية الصليب الأحمر وحدها استخدمت أربعين ألف سيارة وخمسين ألف سفينة ما بين تجارية وذات شراع ، وإن الأهالى قدموا للحكومة كل ما يملكون من سيارات وعربات وخيول وزوارق وسفن حتى أصحاب اليخوت الجميلة لم يرضوا بها ووضعوها تحت تصرف النقذين ، ولقد كان المنقذون يخاطرون بأرواحهم كلما زجوا بأنفسهم في المناطق الغمورة بالمياه حتى إن سفينة كبيرة غرقت بربائها وتجاريتها وهى تحاول إزال كمية من الأسمت لحاصرة الفيضان ، وإلى هنا قدرت الخسائر للمادية بمائتي مليون من الجنيهات ، ولو وقف الحطب عندهذا الحد لهسان ، ولكن ما وافى اليوم السابع والعشرون من شهر إبريل حتى بدأ الفيضان يهدد المدن الكبرى فانتقل رئيس الجمهورية ووزراؤه إلى مكان الفاجعة وهناك ألفوا مدينة أركنساس غارقة لا يبدو منها غير سطوح المنازل والقباب ألفوا المياه تنذر مدينة (نيو أورليانس) بنفس هذا الصير ، عندئذ استولى الدعر على النفوس ووجدت الحكومة نفسها بين [أمرين] إما أن تترك المدينة العظيمة فريسة لطغيان النهر ، وإما أن تحول جريان السيل إلى الأراضى الزراعية فتضحي بروة لا تحصى وبمحاصيل إذا ضاعت آذنت البلاد بنقص فى الأقوات لا يقدر ، وكان الفيضان يقترب والآفة تآزف ، وقد عجز مائة وخمسون ألف عامل عن تحويل مجرى الماء وبدأت المنازل تهدم مئات مئات ، وارتفع الماء فوق سطح الأرض خمسة أمتار ، ورفرف الموت

بمناحيه على (نيو أورليانس) الزاهرة الغنية بما تحويه من الثروات وكنوز الفنون ، عندئذ لم تتردد الحكومة في اختيار أخف المصيبتين فأصدرت الأوامر بنفس الجسور بالديناميت حتى تتدفق منها المياه إلى المزارع والحقول ولكن الحكومة إذ أصدرت تلك الأوامر لم تفكر فيما ستلقاه من مقاومة أصحاب هذه المزارع والحقول . لما اتصل بالزارعين والملاك نبأ اعتزام الحكومة نفس الجسور في سبيل المحافظة على مدينة لا زرع لهم فيها ولا ضرع حتى هبوا صافوا مساحه يندرون حكومتهم بالحرب إذا هي لم تعدل عن عزمها الخطير . ولكن الحكومة بادرت فأخذت لهذا الطارئ الجديد عدته فأرسلت الجنرال (باركر) على رأس جيش كبير . وأعلنت الأحكام العرفية ونصبت قائداً لجيشها حاكماً بأمره يحكم بما يقتضيه الموقف من الحزم والصرامة وصرحت أنها ستحل النظام محل الفوضى مهما كلفها الأمر وأمهلت الثوار نصف يوم ليلقوا السلاح . ولكن ذهبت كل هذه الاجراءات سدى وهب المزارعون يدافعون عن أموالهم فنشبت بين الفريقين معارك حامية استعمل فيها الفلاحون القنابل والمتراليوزات وانتهى الأمر بانتصار جيش الحكومة ونسفت الجسور في ثمانية وأربعين مكاناً وعلى طول بضعة كيلو مترات وقد استخدم في هذه العملية وحدها عشرة آلاف من العمال . وهكذا استطاع أولو الأمر أن يبقوا مدينة (نيو أورليانس) بتضحية مائة وخمسة وسبعين ألف كيلو متر مربع من الأرض ملائى بالمحاصيل والخيرات وبخرمان خمسمائة ألف من الأقوات والأرزاق وبمحو عشرات من المدن ومئات من القرى من فوق سطح المعمورة وبتحويل هذه المساحات الشاسعة العامرة الآهلة إلى بحر ما كان نوح ليجراً أن يجرى عليه بسفينته ، وها قد مرت على القاجعة سنتان وقد أفلعت السماء وبلعت الأرض ماءها وعاد الناس يستوون على هذه الأرض التي كانت بالأمس غمراً فعدت قفراً يحاولون أن يصلحوا ما أفسد الدهر ولكن كم يمضي من السنين حتى تسترد هذه الخرائب عزها البائد وزهوها الزائل وكم تنفق أمريكا من المال لتحيي بيد الانسان ما أودت به عناصر الطبيعة العمياء . انتهى ماجاء في المجلة المذكورة والله أعلم .

فلما اطلع على ذلك صاحي الذي اعتاد أن يسألني في هذا التفسير . قال لقد جعلت طوفان أمريكا كطوفان سد العرم، وأبنت أن أهل أمريكا قوم ذوو جد ونشاط وأن الحكومة قوية ومتمينة وأن حكومة سبأ كانت ضعيفة جاهلة فتهدم سدها. وإني والله لفي عجب أن تكون الحكومات الاسلامية في بلاد اليمن وغير اليمن لم تفكر كما فكر أهل سبأ فضلاً عن أن تكون كأهل أمريكا . فهل لك أن تفيض القول في أمر سد العرم فتبين لي [أمرين : الأول] هل هناك أسدود غير سد العرم ببلاد اليمن [الثاني] من هذا الذي بنى سد العرم بطريق أوضح مما تقدم ؟ .

إذا ذكرت لي ذلك فأنك تكون خدمت أمم العرب المسلمين إذ يعلمون أن الكافرين قبلهم كانوا أعمر لبلاد الله منهم فيفكرون إذن ويجهتدون في ذلك . أما الأسدود فاسمع مقالته مؤلف كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » وهالك .

﴿ الأسدود ﴾

ومن أدلة العارة في (بلاد اليمن) الأسدود وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الأودية لحجز السيول ورفع المياه لرى الأراضي المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث في بناء الخزانات ، وإنما عمد العرب إلى بناء الأسدود لقللة المياه في بلادهم مع رغبتهم في إحياء زراعتها، فلم يدعوا واديا يمكن استثمار جانبية بالماء إلا حجزوا سيله بسد، فتكاثر الأسدود بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات ، وذكر الهمداني في محصب العلو

من مخاليف اليمن وحده ثمانين سدا وإلى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وبالبيعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به أو بالإضافة إلى بلده ، فمن كبار هذه الأسداد قسعان وربوان وهو سد قناب وشحران وطمجان وسد عباد وسد لحج وهو سد (عرايس) وسد سحر وسد ذى شبال وسد ذى رعين وسد تقاطة عند قرية ذى ربيع وسد نضار وهران وسد الشعباني وسد المليكى وسد النواصي وسد المهباد وياقها لطاف .

وأشهر أسداد اليمن (العرم) وهو سد مأرب الشهير الذى تقدم الكلام عليه ، وسد الحانق بصعدة بناء نوال بن عتيك مولى سيف بن ذى يزن فى القرن السادس للميلاد ومظهره فى الحنفرين من رحبان . وقد خرّبه إبراهيم بن موسى العالوى بعد هدم صعدة ، وسد ريعان لابن ذى مأذن وسد سيان . وأسداد بلاد عفس منها سد خيرة وسد بيت كلاب فى ظاهر عمدان وآخر فى ظاهر دعان وسد شبام قرب صنعاء على ثمانية فراسخ منها ، ولم يقتصر بناء العرب للأسداد على ما بنوه فى جزيرة العرب . ففي مكران وبلوتستان فى عدوة خليج فارس الشرقية آثار أسداد كثيرة لا يعرف عنها أهل تلك الناحية شيئا ففعل بعض العرب نزحوا إلى تلك البقاع قديما وابتنوا فيها تلك الأسداد .

وأما الذى بنى سد العرم بطريق أوضح مما تقدم فاسمع ما جاء فى الكتاب المذكور وهالك نصه : وقد عثر القابون فى أنقاض سد مأرب على نقوش كتابية بالحرف السند استدلوا منها على بانيه أهمها نقشان أحدهما على الصدف الأيمن الملاصق للجنة اليمنى تفسيره إن يشعمر بين بن سمهلى بنوف مكرب سبا خرق جبل بلق وبنى مصرف رحب لتسهيل الرى والآخ على الصدف الآخر تفسيره « ان سمهلى بنوف بن ذمر على مكرب سبا خرق بلق وبنى رحب لتسهيل الرى » وسمهلى هذا هو والد يشعمر المذكور وكل منهما بنى صدفا أو حائطا وكلاهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد . فهما مؤسساه ولم يتمكننا من إتمامه فأعمه خلفاؤها وبنى كل منهم جزءا نقش اسمه عليه . فعلى المخروط أو الصدف فى اليسار نقش قرءوا منه « كرب أيل بين بن يشعمر مكرب سبا بنى » وعلى جزء آخر من السد اسم « ذمر على ذرح ملك سبا » وفى محل آخر اسم « يدع ايل وتار » وعلى السد الأيسر مما يلي الجنة اليسرى عدة نقوش يمثل هذا المعنى مما يدل على أن هذا السد لم يستأثر ببنائه ملك واحد تلك هى العادة فى تشييد الأبنية الكبيرة بكل زمان .

أما تهديمه ، فالعرب يقولون إنه حدث فجأة فتفرقت قبائل الأزدي وغيرها فى جزيرة العرب بسبب ذلك . ويؤخذ من سجل أقوالهم أن ذلك وقع حوالى تاريخ الميلاد أى نحو ظهور دولة حمير (ملوك سبا وريدان) وانتقال عاصمة السبائيين إلى ظفار . فالظاهر أن السد تصدع حينئذ للمرة الأولى فرمموه وظلوا خائفين منه فتحولت عنايتهم إلى تعمیر ظفار وقل تمسكهم بالبقاء فى مأرب فصاروا ينزحون بطونا وأنفاذا لأسباب مختلفة ومنها القحط وغيره ، وأخذت مأرب بالتقهقر وكلما انفتق العرم من ناحية ريموه إلى قبيل الإسلام قهيم وأهملوه .

ووفق غلاز فى أثناء زيارته أنقاض ذلك السد إلى اكتشاف أثرين عليهما كتابة مطولة تتعلق بتهدم السد بعد دخول اليمن فى حوزة الأحباش أحدهما مؤرخ سنة ٥٣٩ م والآخر سنة ٥٦٥ م وهما من أهم ما وقفوا عليه من آثار تلك الدولة لما فيها من الإشارات التاريخية والاجتماعية والعلائق السياسية أحدهما كتبه أبرهة الحبشى وهذه خلاصة : « بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس ان أبرهة عزيز الأحباش الاكسوميين ملك أراحميس زيبان ملك سبا وذوريدان وحضرموت وبنت وأعرابهم فى نجد وتهامة قد نقش هذا الأثر

تذكارا لتغلبه على يزيد بن كعبة عامله الذي كان قد ولاء كندة ودي، وعينه قائدا ومعه أقبال سبا الصحاريين وهم مرة وثمامة وحنش ومرثد وصنف ذو خليل واليزنيون أقبال معدى كرب بن السميع وهفان وإخوته أبناء الأسلم فأخذ الملك إليه الجراح دازنبور فقتله يزيد وهدم قصر كدار وحشد من أطاعه من كندة وحرب وحضرموت وفر هجان التمارى إلى عبران . وبلغ الملك الاستصراخ قهض بجنده الأبحاش والحميريين الوفا في شهر ذو القياض ٦٥٧ (من تاريخ الخين) فزلاء أودية سبا . وجاء يزيد وبايع وخضع للملك بين يدي القواد . وهم في ذلك جاءهم النبا بتهدم السد والحائط والحوض والمصرف في شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فأمر بالعبو . وبعث إلى القبائل باقاز الحجارة للأساس والحجر الحام والأخشاب ورصاص الصب لترميم السد في مأرب فتوجه أولا إلى مأرب صلى في كنيسها ثم عمد إلى الترميم فنبشوا الانقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه ، وعلم وهو في ذلك أن القبائل تضايقت من العمل ورأى إعدامهم يعود بالضرر فعفا عنهم أبحاشهم وحميرهم وأذن بانصرافهم . ورجع الملك إلى مأرب بعد أن عقد تحالفا مع الأقبال الآتى ذكرهم : اكسوم ذو معاهر ابن للملك ومرجرف ذو ذرناح وعادل ذو فائس وأذواء شولمان وشعبان ورعين ومحمدان والسكلاع الخ . وجاء إليه وفد النجاشى ووفد ملك الروم ورسول من النذر وآخر من الحارث بن جبلة وآخرون جاءوا بعون الرحمن يخطبون مودته . في أواخر شهر داوان وبعثوا إليه من غلة أراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمموه ووسعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعا وارتفاعه ٣٥ ذراعا (ثم ذكر ما أشقى فيه من الحجارة والأطعمة للعملة والحيوانات للعمل واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوما و١١ شهرا وكان الفراغ منه في شهر ذو معان سنة ٦٥٨ » .

وهذه السنة في حساب الحميريين تعدل سنة ٥٤٣ للميلاد لأنهم كانوا يبدءون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد ولغلازر كلام في هذا الشأن سنأتى عليه في الكلام عن التوقيت عند العرب ونكتفى هنا بالإشارة إلى تاريخ الفتح من نقش حصن غراب . فقد رأيت أنه سنة ٦٤٠ حميرية أو حبشية ، والعبول عليه أنه كان سنة ٢٢٥ ميلادية والفرق بينهما ١١٥ سنة . انتهى من كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام .

﴿ تذكرة ﴾

أما آن للمسلمين أن يستيقظوا . إيه يا أمة الإسلام . إيه يا أمة الإسلام . أهكذا يكون المسلمون . هاأنتم أولاء رأيتم أعمال الأمم العابرة والدول الفاتكة وشاهدتم سد العرم صنع الجاهلية الأولى ، صنع أهل سبا قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون ، هل بهذا أمر القرآن ؛ يجعل في دين اللروة والنجدة والشرف أن يكون الجاهليون يعمرون أرض الله أكثر من المسلمين ، هل لهذا جاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ أم يجي نبينا رحمة للعالمين وكيف يحفظ الجاهلية الماء بين البلقين ويسقون به الأرض والجنجان هناك عن يمين وشمال قائمتان ثم يجي الإسلام فلا يساوى أهله في العمران الجاهلية مع أنهم كانوا الأولى بحفظ نعم الله ، هم الأولى بشكر النعمة ، وشكرها بحفظها والقيام بها لا لا ، إن أمة الإسلام ستأخذ دورها عن قريب ، أمة الإسلام الناعمة قد انقضت دورها . وستأتى أمة الإسلام اليقظة التي تحفظ نعمة الله فلا تضيع الماء يذهب في الرمال .

أيها المسلمون : إن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لم تقف رسالته عند هذا الحد . كلا . إن لرسالته شأنا بعد أيامنا هذه ، ومن دلائلها ما تزونه في هذا التفسير من عجائب القرآن ، وإنه يعلم المسلم شكر النعم وحفظها .

يا ليت شعري : لم ذكرت سورة سبا ، ألقصة تذكر . كلا . والله ذكرت لنا الآن ، ذكرت لمن

يتعظون دفن الله المال والعلم في الصخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن كأنه يقول للمسلمين :
هاكم اقرءوا كتابيه ، انظروا في علوم آباءكم ، هل تقومون بالأمر ، هل تحفظون النعمة ، هل تقومون
بالشكر هل تبشون عن نعمي فوق الأرض وفي باطنها ، إن لم تفعلوا بعد هذا كله فهام أولاء الفرنجة
أحاطوا بكم من كل جانب ، فإنت لم تقوموا من غفلتكم وتعمموا التعليم لآخذن منكم أرضكم
وأسلمها لهم كما فعلت مع بني إسرائيل ، إذ سلطت عليهم بختنصر فأخذهم إلى فارس ودولة الرومان فأسروهم
في بلاد الروم .

أتظنون يا أهل اليمن أني سلط لكم الأرض لتمتعوا نعمي فيها عن عبادي انظروا حولكم في شمس
وقمرى وكواكبى وهوائى ومائى . ألم أجعل العوالم كلها متجاذبة بحيث تجرى الأرض حول الشمس وهكذا
كواكب أخرى وهكذا العوالم تتجاذب ، فهكذا فليكن نوع الإنسان . لتسكن كل أمة مستخرجة
من أرضها كنوزها وزراعة أرضها ليعيشوا بذلك وليرسلوا ما فضل بالتجارة لغيرهم وهكذا غيرهم
يفعلون ، فان غفلت أمة عمالديها أو عزت إلى غيرهم فسلطتهم عليهم لأنى عدل ولأنى رحيم ومن
رحمى أن الناس يخدم بعضهم بعضا ، وهذا المطر النازل في بلادكم إذا لم تحفظوه فقد ضيعتم نعمى فأعاقبكم
على ذلك الضياع .

هذا ، وإن آية سد العرم تدل على أن الأمة كلها معذبة إذا فرطت فيما لديها من النعم . والآية الآتية وهى
وهى « ولو ترى إذ الظالمون » الخ مثلها فى أن الرؤساء لا ينفعون للرؤسيتين إذا تركوا مواهبهم لا فى
الدنيا ولا فى الآخرة ، قصة سبأ وآيات التقليد متقاربتان من حيث إن كلا منهما منذر بالوبال والمهلك
لمن تواكوا .

هذا ما أفهمه من ذكر هذه السورة التى ظهر أثرها فى هذا الزمان ، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة
والدين ، والحمد لله رب العالمين .

(جوهرة يتيمة)

(فى آية — ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم — الخ)

(بيان خطر التقليد والاعتزاز به)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة ، وأسألك جبر الحلل واجتناب الزلل وإجادة الدليل وفهم التأويل
وصدق القول وحسن العمل .

اللهم إني أرى اليوم فى بلاد الإسلام حالاً أحسن ، ورجالا أكمل ، وعقولا أبهى وأبهر ، نام
المسلمون قرونا وقرونا بعد الصدر الأول والقرون الثلاثة الأولى خير القرون ، ثم جاء هذا الزمان الذى اشتدت
فيه الإحن وكثرت المحن وظهر الحطير والحطل وزالت الخلافة اللفظية من البلاد التركية وقد أنامت الأمم
العربية نحو أربعة قرون فلم تقم لهم فيها قائمة ولا سمعت لهم فيها كلمة ، ولكن ها أنا ذا الآن فى هذا اليوم
٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٩ أسمع أن بلاد العراق رفعت الصوت جهارا نهارا إلى الأمم العربية قائلة : أيتها الأمم
اسمعى . إياكم أن تهينوا إخوانى فى فلسطين وتقدموا عليهم اليهود الذين وعدتمهم بالوطن القومى ، وهام
سكان شرق الأردن وبلاد سوريا وجميع المسلمون فى الشرق والغرب يطلبون بلسان واحد إزاحة الكابوس

والظلم عن أهل فلسطين . سبحانهك اللهم ومحمدك ، أنت الذي أخذت تغير حال المسلمين من ضعف إلى قوة ومن ذلة إلى عز ومن جهل إلى علم ، أليس هذا مصداق قولك في التزييل « وزريد أن نمن على الدين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » وقولك « ليظهره على الدين كله » إن هذا زمانه وهذه أيامه ، وكما تجلت أنوارك في قلوب الأمم الاسلامية برباطة الجأش وقوة البأس وعزة النجدة وعلو الشمم ورفي الهمم ، هكذا أخذت التأليف تتغير أساليبها وتتجدد أصولها وتختط خططها جديدة وأحوالاً سديدة وأقوالاً مفيدة وانتشرت الصحافة وقامت الخطابة وظهرت بوادر جيل جديد وقد تقدمه أمثال هذا التفسير ليكون فيه لقطه عجلائن وبقطة وسمان وبهجة ندمان وحديث خلان ، ومجالسة علماء وأنس حكماء وسمير فضلاء وهدى وبشرى للمؤمنين ولقد بسطت لي فيه القول وشرحت لي الصدر وبسرت لي الأمر ، لأن الأمم الاسلامية اليوم أجدر بالفهم وأقبل للعلم وأحق بالإقبال ، فأسألك اللهم أن أكون لك من الشاكرين .

أما بعد : فاني أريد إفاضة القول في التقليد ، ذلك الذي خيم على عقول كثير من الأمم الإسلامية في الأحقاب الغابرة والأيام الحالية وأضل سعيهم وأحبط كثيرًا من أعمالهم .

كانت الأمم الاسلامية في القرون الأولى طفلاً ترعرع وتغذى بألبان النبوة المحمدية ، إذ القرن في حياة الأمم سنة واحدة في حياة الفرد . وعلى هذا الحساب صارت هذه الأمة الآن في سن الرابعة عشرة كما أشرت إليه في السور السابقة فهي كإنسان مراهق شارف البلوغ ، ومتى بلغ بالسن أو بالقوة أخذ يظهر على الأمم الأخرى .

كان المسلمون في القرنين الأولين يتغذون بلبان النبوة فرضعوا أفوايق أيام الصحابة والتابعين فنفعوا عباد الله من بلاد الصين إلى جنوب بلاد فرنسا ، فدانت لهم أمم من آسيا وأوروبا وأفريقيا . ذلك أنهم كانوا محمديين . ثم لما كان القطام بعد الحولين (هما قرنان) تحولت الحال شيئاً فشيئاً وخذت جذوة الحماسة وأخذوا يفكرون بأنفسهم فعل الصبي بعد سنى الرضاع يلتمس الطعام بنفسه . هنالك يحضر له المؤدبون والعلمون والمربون ، وفي هذه الأجيال التي اعتبرناها سنين لم تسكن هذه الأمم إلا عالة على الملوك والعلماء ورجال الدين وشيوخ الطرق . فهم كانوا كأيامهم إن أحسن الوصي القيام عليهم استقاموا وإن أساء التصرف ولم يقم بالأمانة ناموا ، فقامت دول فارسية وأخرى تركية وثلاثة إمارات عربية . ولا زالوا يتدهورون للمرة بعد المرة . ولقد مضى في هذا التفسير نبأ من بعض أماراتهم وممالكهم ، وكيف اختلت الحكومات وبارت النظم وضاعت الأمم . لماذا هذا ؟ لأنهم كانوا بعد سنى القطام قبل سنى المراهقة والبلوغ . ولا جرم أن الطفل في تلك الأيام يعمله المربون بالآمال ويوارون عنه الحقائق ويحيلون له مستقبلاً سعيداً وعمراً مديداً ويعطونه الحلوى والمضرب والكرة ويقولون له أقوالاً لذيذة ويغرونه بكل ما لذ وطاب فيسكنهم لأقوال المرين وتستهبويه أكاذيب المواعيد وتخدعه خرافات الأسانيد وهذه السن خليقة بذلك . لذلك كثرت الفرق وتباينت الطرق وظهرت الحوارج ، وادعى المهدوية كل من أحس من نفسه بقوة السن وسعة العقل ورجاحة القطن . ومن قرأ كتاب (الفرق بين الفرق) عرف تلك الأضاليل أو قرأ ما تقدم في (سورة الشعراء) من أكاذيب الدجالين في الاسلام واستوائهم على عرش الإمارة ، عرف كيف تخدع كواذب الأفاويل واحتيال المتألمين . ذلك كله لأن الأمة كانت لاهي في سن الرضاعة من أفوايق النبوة المحمدية . ولا هي بلغت السن التي تؤهلها لتسلم زمام أمرها والقيام بشئونها . فلا يحص لها من التقليد ولا مفر لها من اتباع من تتوسم فيه مخايل النجابة فتسلم زمامها أقوام منهم الصادقون ومنهم الخادعون وكل يعاملهم معاملة ذلك الطفل الصغير .

لذلك كثرت فيها الخرافات وشاعت الضلالات واتكوا على الشيوخ فغطت العقول وسادت النقول فجاء
جيلنا الذي نحن فيه فماذا أقول؟ أقول: أحدثكم أيها المسلمون بحديث أحد المهديين في الإسلام أجعله
مثلا من أمثال أسلافنا السابقين أريد بذلك استتارة الشبهة الإسلامية، ومتى عرفت الشر أقلعت عنه أو الحخير
اجتلبته فأقول:

لقد كان يوسف بن تاشفين أمير المرابطين قد استوثق له الأمر في الأندلس بعد القبض على أبي القاسم
ابن عباد المعتمد على الله بعد أن تولى الملك ٢٠ سنة وذلك سنة (٤٨٤) هجرية. ولقد قام بالأمر خير قيام
إذ آثر الجهاد والغزو وقمع ملوك الروم والحرص على المصلحة في جزيرة الأندلس إلى أن توفي سنة ٤٩٣، وقام
بالأمر بعده ابنه علي بن يوسف بن تاشفين وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين وسمى أصحابه المرابطين فجري على
سنن أبيه في إثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد. وكان حسن السيرة. جيد الطوية. نزيه النفس.
بعيدا عن الظلم حتى كان إلى الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك المتغلبين. وأخذ يكرم الفقهاء
والعلماء ولا يفعل أمرا إلا بمشاورتهم ولكنه عمادى في الغفلة واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمائة اختلالا
شديدا فظهرت في بلاده مناكير كثيرة. وأخذ أكابر المرابطين يدعى كل منهم صريحا أنه أحق بالإمارة منه
واستولى النساء على الأحوال وصارت كل امرأة من أكابر (لمتونة) تحمى شريرا وقاطع طريق وصاحب
سحر وماخور وأمير المؤمنين بزاد غفلة، واكتفى بامرة المسلمين وبصيام النهار وقيام الليل. فماذا فعل الله للمسلمين
إذ ذلك؟ قوم لا قوام لأمرهم إلا بالأمراء، فإن صلحوا صالحت الأمة وإن فسدوا فسدت. فهم على حسب
من يديروهم. ألم أقل لك أيها الذكي إنهم قطعوا من الرضاعة أولا فهم الآن في السنة الحامسة وهي سن الطفولة
وهذه سن الغفلة واليتم ولم يصلوا لسن الرشد. لما طغى أمراء الأندلس وشربوا الخمر وأولعوا باللهو والزهو
أرسل الله لهم يوسف بن تاشفين فأدخل ملكهم تحت إمرته، ولما قام ابنه أضاع الأمة من طريق الاشتغال
بالعبادة كما أضاعها أولئك من طريق الفسوق والخمر والجهالة. هنالك قبض الله لهم رجلا آخر يامر بالمعروف
وينهى عن المنكر. فبينما عمال الأمير علي بن يوسف بن تاشفين يعثون في الأرض فسادا ويهتكون أعراض
الرعية علنا بلا احتشام جهارا بعد الخمائة إذ ألهم الله رجلا يقال له (محمد بن تومرت) ينتسب إلى الحسن
ابن الحسن بن علي بن أبي طالب من أهل (سوس) من قبيلة تسمى (هزعة) من أقوام شرفاء هناك أحب العلم
فرحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ أي في السنة التي ابتدأ فيها فساد الدولة وانتهى إلى بغداد أي كما ينتهى المسلمون
اليوم إلى أوروبا، ولقي أبا بكر الشاشي فدرس عليه الفقه والأصول وسمع الحديث على أكابر الشيوخ، ويقال
إنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزدهد وذكر له ما فعله أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها
وإفسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال الغزالي [ليذهبن عن قريب ملكه] وأشار إلى أن ذلك
يتم على يد حاضر بالمجلس أي ابن تومرت، وهذه الحكاية سواء صحت أم لم تصح لا حرج في روايتها، ويقال
إن هذه الإشارة قوت طمعه في ذلك فرجع إلى الإسكندرية ثم إلى بلاد المغرب. وبينما محمد بن تومرت كذلك
إذا رجل آخر هناك يسمى عبد المؤمن يعلم الصبيان في موضع اسمه (فزارة) من بلاد (متيجة) وانفق
أنه رأى في النوم كأنه يأكل مع أمير المسلمين (علي بن يوسف بن تاشفين) في صحفة واحدة ثم زاد أكله
على أكل أمير المؤمنين ثم زاد فيه الشره فاخنتظف الصحفة وانفرد بها وحده، وفسرها له الفسر بأن هذه
تكون لرجل غيرك يكون أهلا لأن يشارك في الملك ثم ينفرد به. فهذه الأحاديث والرؤى قد أعدت الرجلين
لعمل عظيم فتلقيا، فيقال إن محمد بن تومرت عرف عبد المؤمن بعلامات رسمها في نفسه وعرفها من كتب
المتقدمين. وقد كان عبد المؤمن عند المقابلة متوجها إلى المشرق في طلب العلم فاستصعبه محمد بن تومرت

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأقاما بمدينة (ملالة) أشهراً ، ورحلا ورحل معهما رجل آخر اسمه عبد الواحد ، وقد كان محمد بن تومرت شديد الصمت كثير الانقباض لا ينطق إلا في مجلس العلم . وحل مع صاحبيه في (تلمسان) وقضى بها مدة ثم توجه إلى (فاس) فأظهر عقيدة الأشعرية في التوحيد وأخذ يعظ الناس فاجتمع الفقهاء عليه فوجدوه رجلاً قوياً العارضة فأشاروا على الوالي بإخراجه لئلا يفسد عقائد العوام فأخرجوه . وإنما فعلوا ذلك لأنهم كانوا جميعاً صائمين عن جميع العلوم ما عدا الفقه فتوجه إلى مراکش وكتب إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين . ولما دخل عليه أحضر له الفقهاء فناظروه فغلبهم ومنهم رجل يقال له (مالك بن وهيب) له معرفة بعلوم كثيرة حتى الفلسفة فأشار على الملك بقتله لأنه فسيح حسن العبارة وهو مفسد لا تؤمن غائلته فلم يقتله الملك خوفاً من الله فقال له اسجنه حتى يموت فقال الملك لا ذنب له . هنالك نفاه عن أمر مراکش وهناك كانت الطامة الكبرى فتوجه إلى (سوس) فشرع في تدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأخذ يذكر المهدي ويسوق إليه (كما فعل المهدي السوداني محمد أحمد في زماننا سواء بسواء) فكلاهما ابتداء أمره بالتشويق للمهدي من غير أن يذكر نفسه وجعل له أنصاراً يستميلون له رؤساء القبائل . هنالك تقرر في نفوسهم فضل المهدي ونسبه ونعته . فلما تم ذلك قال أنا محمد ابن عبد الله ورفع نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرح بأنه معصوم وأنه المهدي المنتظر . فلما استقر لهم ذلك بايعوه على أنه المهدي وألف لهم كتباً في العلم وعلمهم فكان يبطن التشيع . وأول درجة من أصحابه كانوا عشرة وهم المهاجرون الأولون مما هم الجماعة وهم أول من صدقوه والطبقة الثانية مما هم الحسين . ثم قال لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن بيمانكم وأنتم العصاة المعينون بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم . ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة . ويقال إنه كان يخبر ببعض الحوادث فتقع . وكان يقول [لو شئت لعددت خلفاءكم خليفة خليفة] ولقد جاء هذا القول في نظر رجل من أهل الجزائر من مدينة من أعمال (بجاية) وقد وفد على أمير المؤمنين أبي يعقوب وهو (ببنمعل) فقام على قبر محمد بن تومرت بمحضر من أتباعه الموحدين وأشد قصيدة بليغة وهالك نصها :

سلام على قبر الإمام المعجد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه	وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحي علوم الدين بعد مماتها	ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أنتنابه البشري بأن عملاً الدنا	يقسط وعدل في الأنام مخلد
ويفتح الأمصار شرقاً ومغرباً	ويملك عرباً من مغرب ومنجد
فمن وصفه أفتى وأجلى وأنه	علاماته خمس تبين لمهتدي
زمان اسم والمكان ونسبه	وفعل له في عصمة وتأبد
ويلبث سبعا أو تسعاً يعيشها	كذا جاء في نص من النقل مسدد
فقد عاش تسعاً مثل قول نبينا	فذلك المهدي بالله يهتدي
وتتبعه للنصر طائفة المهدي	فأكرم بهم إخوان ذى الصدق أحمد
هي التلة المذكور في الذكر أمرها	وطائفة المهدي بالحق تهتدي
ويقدمها النصور والناصر الذي	له النصر حزب إذ يروح ويقتدي

هو للنتقى من قيس عيلان مفخرا
 خليفة مهدي الإله وسيفه
 بهم يفتح الله الجبابرة الأولى
 ويقطع أيام الجبابرة التي
 فيغزون أعراب الجزيرة عنوة
 ويفتتحون الروم فتح غنيمة
 ويغدون للدجال يغزونه ضحى
 ويقتله في باب لدّ وتنجلى
 وينزل عيسى فيهم وأميرهم
 يصلى بهم ذلك الأمير صلاتهم
 فيمسح بالكفين منه وجوههم
 وما أن يزال الأمر فيه وفيهم
 فابلق أمير المؤمنين تحية
 عليه سلام الله ما ذرّ شارق

ومن مرة أهل الجلال الموطن
 ومن قد غدا بالعلم والحلم مرتدى
 يصدون عن حكم من الحق مرشد
 أبادت من الإسلام كل مشيد
 ويغزون منها فارسا وكأن قد
 ويفتسمون للمال بالترس عن يد
 يذيقونه حدّ الحسام المهتد
 شكوك أمالت قلب من يوحد
 إمام فيدعوهم لمحراب مسجد
 بتقديم عيسى للصطفى عن تعمد
 ونخبرهم حقا بعز مجد
 إلى آخر الدهر الطويل المسمد
 على النأي من والوداد المؤكد
 وما صدر الورد عن ورد مورد

فهذه حال (محمد بن تومرت) الذي هو المهدي المنتظر وأصبح القوم مفتونين به حتى لو قال لرجل اقتل أباك أو أخاك لقتله . وكان إظهاره المهديوية سنة ٥١٥ هـ وفي سنة ٥١٧ هـ جهز جيشا عظيما من المصامدة جلهم من أهل (تيممل) ومعهم قوم من أهل (سوس) وأميرهم بحرب المرابطين وأن يدعوهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع المهدي المعصوم ، فإن أجابوا فهم إخوانكم وإلا فقاتلوهم ، وأمر عليهم عبد المؤمن وقال أتم المؤمنون وهذا أميركم ، وقاتلوا المرابطين قريبا من مراكش بموضع يسمى (البحيرة) وأمير المرابطين الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين ، فدعا الموحدون المرابطين لما التقى الجيشان إلى ما أمروا به فردوا عليهم أسوأ رد ، وهكذا كتب عبد المؤمن إلى علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت فرد عليه ردا يحذره فيه من سفك الدماء . ولما التقى الجمعان قتل من المصامدة خلق كثير ، وانهمز الجيش ولكن نجح عبد المؤمن . ولما رجعوا إلى ابن تومرت هوّن عليهم أمر الهزيمة وبشرهم بالشهادة والجنة ، ومن ذلك الوقت أخذ المصامدة يشنون الغارات على نواحي مراكش وهو يزداد تقى وصلاحا وتشددا في دينه وإقامة للحدود كلها حتى مات سنة ٥٣٤^(١) وقام بالأمر بعده عبد المؤمن فبايعه المصامدة ، ولد بضبعة من بلاد تلمسان ، وقد ولد سنة ٤٨٧ هـ وتوفي سنة ٥٥٨ هـ وقد ملك بلاد المغرب وأكثرت بلاد الأندلس . وقد خلفه في الملك ابنه أبو يعقوب يوسف ومات سنة ٥٨٠ هـ . وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ الذي أهان الفيلسوف ابن رشد وحبسه ثم عفا عنه ، ولم تقم للحكمة بعد ذلك قائمة في الإسلام . وبعده ابنه محمد بن أبي يوسف أمير المؤمنين وتوفي سنة ٦١٠ هـ ، وتولى بعده ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد .

(١) هذا التاريخ لا يوافق ما جاء في القصيدة التي أنشئت على قبره أنه عاش (٩) سنين مع أنه أظهر المهديية سنة (٥١٥) ومن عجب أن المؤلف أهدى إليه كتابا فيه تاريخ (ابن تومرت) وأن وفاته كانت سنة (٥٢٢) وهذه أقرب إلى الصواب فلعله مات سنة (٥٢٣) هـ ، والله أعلم .

هذا ملخص كتاب تاريخ الأندلس المسمى [بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب] تأليف الشيخ محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي .

أقول : إن هذا العالم كان في زمان تلك الدولة ، فلم تطل مدته إلى انقضائها حتى يعرف ما آل إليه أمر هذه الدولة ، وأيضا أنه كان تحت حكم ملوكها فلم تكن له الحرية التامة في إبانة الحقائق الناصعة عن المهدي (ابن تومرت) ووظيفة هذا التفسير امتحان الحوادث العامة وعرض نتائج الامتحان على أمم الاسلام بعدنا، أما مجرد سرد التاريخ فقيمه زهيدة ضئيلة ونحن الآن في تفسير آيات قرآنية تنبذ التقليد وهذا التاريخ الذي سردته هنا مسوق لثبيان أن الوقوف على التقليد بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير هو الشؤم الأكبر والخطب الجلل والموت الزؤام .

فلأذكر إذن في هذا الصدد ما عثرت عليه في الكتب الأخرى وما ذكره أيضا العالم الفرنسي (سدبو) ليحق الحق ويبطل الباطل . وإذن يفرح المؤمنون والعلماء المخلصون والأمم المحمديون بنصر الله بالهداية العلمية ، والله هو الولي الحميد .

جاء في كتاب [خلاصة تاريخ العرب] للعلامة سدبو ماملخصه :

إن العرب بإسبانيا انشقوا على المرابطين أيام علي بن يوسف الذي ظهر مجزه كما تقدم القول عنه ، وأنه كان مشغولا بالصلاة والصيام وكلا أمر الرعية للنساء مع إكرامه للعلماء . وقد كان هؤلاء العرب لا يفكرون إلا في محاربة أمرتهم المرابطين ولم يعرفوا كيف يتحدون ويتخذون لهم مركزا عاما حربيا لصد النصارى المحيطين بهم من أسائر الجهات ، وغاية الأمر أن الفرص قد سنحت لأناس منهم استقلوا بالامارة من سنة ١١٤٤ في مرسية والنسة وقرطبة وأشبيلية وقرطبة وغيرها فادعى كل هذا المنصب بالحق وانفصل عن الآخر فذهب المرابطون من إسبانيا سنة ١١٤٦ وغاية الأمر أن عبد الله بن غانية بقي تحت يده جيش ضعيف وقد اضطر إلى مساعدة النصارى له فساعدوه حتى أخذ قرطبة وأشبيلية حتى إذا ماجء جيش عبد المؤمن قتل ابن غانية وذهب أمر المرابطين . ثم إن الأميرين يوسف ويعقوب التقدّم ذكرهما أبليا بلاء حسنا في منع غارات النصارى عن مدن الاسلام ثم بعد ذلك أغاروا على من جاورهم من النصارى ، وهناك تجدد الرونق والعز في بلاد الأندلس . وقد زاد ذلك النصارى وعز المسلمين بما فعله الأمير يعقوب حتى مات وخلفه ابنه محمد الناصر سنة ١١٩٩ م .

هذا ، وقد هزمه النصارى في واقعة (طولوسة) سنة ١٢١٦ م وهناك ضعف أمر الموحدين فانقطعوا عن محاربة النصارى ، ولما مات الأمير محمد خلفه أبو يعقوب وقد عصته الأقاليم بالمغرب وإسبانيا لأنه غير كفء . ثم إن أرباب الشورتين الذين أنشأهم المهدي كما تقدم (وهم العشرة الذين سماهم المهاجرين الأولين والخمسين الذين سماهم الجماعة) كانوا متشوقين إلى الاختصاص بالحكم لما رأوا فساد الأمر في البلاد فهددهم المأمون ، وقد قام بشد أزره حزب ذو قوة وبطش وجعلوه أميرا عليهم ، فنصب أرباب للشورة المذكورون يحيى بن ناصر فتغلب عليه وعليهم المأمون وعلق رءوس هؤلاء الشيوخ على أسوار مراكش وألقى للشورتين ونسخ سياسة المهدي ومنع ذكره في الخطب وعامل أهل المغرب بقسوة لم يقدرُوا بعدها على العصيان سنة ١٢٢٨ ثم إن محمد بن هود من ذرية قدماء ملوك سرقسطة أوقع البغضاء بين مغاربة إسبانيا ومغاربة أفريقيا وأخذ منهم جيشا جرارا هزم به المأمون سنة ١٢٢٩ قرب (مدينة طاريف) وأزم المأمون الإقامة بمراكش . هنالك اضمحلت دولة الموحدين شيئا فشيئا ، فانهم لما انزعجت منهم الأندلس أخذت بلاد المغرب تتسلخ منهم شيئا فشيئا ، فقد عصى الموحدون في أيام خلفاء المأمون وإلى تونس سنة ١٢٤٢ م وعائلته هم بنو حفص

وفي سنة ١٢٤٨ أسس بنوزيان في تلمسان والجزائر سلطنتهم الممتدة إلى نواحي فاس ، وكذلك بنومرين في جهات كثيرة و« لله الأمر من قبل ومن بعد » .

هذا ملخص ماجاء في كتاب سديو ، وأزيد عليه ماقرأته سابقا في المطولات من أخبار ابن تومرت ثم أتبعه بالنتائج العلمية التي هي المقصودة بالذات في تفسير هذه الآيات فأقول :

إن محمد بن تومرت كما قات جعله الله لهذه الأمم أشبه بمرابي الأطفال ، ولقد جاء في كلام علماء الفقه أن الكذب جائز في سياسة الأطفال ، وقد قلنا إن الأمم الإسلامية في القرون الأولى كانت في أيام الرضاة فكل قرن سنة واحدة في عمر الأمة. ولما كان الفطام أخذ الناس ينظرون شئونهم بأنفسهم ولكنهم لقللة العلم سخر الله لهم أناسا يفعلون معهم فعل المرابي مع الطفل . فماذا فعل محمد بن تومرت ؟ لزم الخلوقة كما تقدم ، وإني أقول أنا معتقد في الرجل حسن مقصده وأنه يريد للمسلمين في تلك الأصقاع خيرا ، ولقد رأى أن يسوسهم بالدعوة المشهورة وهي للمهدوية . فماذا يفعل ؟ نصب له دعاة وأعلن العصمة كما أعلنها غيره من الفاطميين بمصر وأعلنها أيضا (أغا منون) بالهند في زماننا وغيره ، ولقد كان من أمر (محمد بن تومرت) أن بث الأرصاد والعيون والجواسيس ليستطلعوا أسرار القلوب ومن الصدق للمهدي ومن الكذب ؛ وأخذ يوازن بين الشهادات الواردة إليه عن عظماء أتباعه ، فمن ذكائه وفطنته لم يحكم على أحد بالكفر بمهدويته إلا إذا توافرت الشهادات المختلفة بذلك من بطائنه الذين جعلهم عيونا عليهم . أما الذي اختلف فيه الشهود ومعلوم أن أحدهم لا يعلم مايقوله الآخر فإنه لا يحكم بكفره به . فهناك اجتمع له من أسماء أتباعه جدول حفظه عنده لوقت الحاجة .

وبينا هو يبيت الأرصاد والعيون والجواسيس لمعرفة أسرار أتباعه كان قد أسر لرجل من أتباعه يدعى علي ماأذكر (الونشيري) فهذا الرجل كان عالما فأظهر الجذب وأخذ يهيم على وجهه ويمر في المجالس فلا يأبه له أحد لأنه مجذوب لايعي . وكان إذا مر على (محمد بن تومرت) يقول إن في هذا الرجل لسرا . وبقي الأمر هكذا إلى أن كان ذات يوم محمد بن تومرت يصلي الفجر نظر فرأى رجلا وراءه يصلي وعليه ثياب بيض بهيئة جميلة فأظهر الدهش إذ سأله من أنت ؟ فقال أنا الونشيري . إني في هذه الليلة أتاني النبي ﷺ بقظة وعلني كذا وكذا وعرفني العواقب وأهل الجنة وأهل النار . ولا جرم أن هذه هي الحيلة التي تسكرت كما تقدم في هذا التفسير إذ ذكرت نظيرها في [سورة الشعراء] عند آية السحر فليستفطن المسلمون وليستيقظوا ، فقال ابن تومرت له بدهشة ولهفة : سبحان الله . أخبرنا بأمرنا من أنا ؟ فقال أنت المهدي ومن كذب بك في النار [ولا جرم أن الجدول الذي فيه الأسماء قد سلم إليه سرا حتى عرف جميع الكفار بأشخاصهم] فهناك قال له المهدي : أخبرنا بأهل النار وأهل الجنة . فأمر المهدي فاجتمع القوم وصفهم الونشيري صفين صفا أمام صف فنظر إلى صف اليمين فقال هؤلاء أهل الجنة وصف جهة اليسار فقال هؤلاء أهل النار . ثم قال ليقتل أهل الجنة أهل النار فضرب صف اليمين صف اليسار حالا بالسيوف واستولوا على ماعليكون ، ولكن هؤلاء المقتولون وإن كان أمر قتلهم سماويا على حسب الاعتقاد بقي له أثر سيء في النفوس فتغلهم المهدي بالحروب التقدم ذكرها ضد الرابطين أيام (علي بن تاشفين) كما عرفت وصار يعدم ويمتدحهم بملك فارس والروم وأنهم هم الذين يقولون حتى أيام نزول المسيح إلى آخر ما تقدم . هذا هو الذي وعته التذكرة بماقرأته من الكتب ، والله أعلم .

﴿ امتحان هذه السير والأحوال ﴾

سبحانك اللهم وبمحمدك . أنت ناظم الأمم والجماعات ومعط كل ذي حق حقه . أنت الذي علمت أن هؤلاء قوم جهال مشقتون فهيات لهم محمد بن تومرت ليمنع الظلم عنهم فقام وادعى المهديوية . اللهم إن المهديوية قد تقدم السلام عليها في أول (سورة الحج) وقد ذكرنا هناك أمر المهدي وأن الأحاديث كلها مطعون فيها . سبحانك اللهم وبمحمدك . إن أحاديث المهدي قد سرت إلى نفوس أكابر الأمة ، وإن محي الدين بن عربي قد وقع فيها وقع فيه غيره وسرت عقيدة المهدي في الأمم الإسلامية وقتت هناك إنها لا تزال باقية لم ينقص منها شيء حتى ظهور المهدي السوداني . فما نتيجة ذلك كله ؟ نتيجته ضعف العقول والانتكال على الشيوخ ونوم القوى العاقلة ، نام المسلمون آمادا وآمادا ، تركوا مواهبهم ، تركوا عقولهم ، كما تركت الحيوانات المنزلية تدبير أنفسها للانسان بخلاف الحيوانات البرية الوحشية كالغزلان . إذن المسلمون المتكلمون على المهديين أو على الشيوخ والذين استناموا لمن ملكوا قيادهم من الظالمين مسلمين وغير مسلمين أصبحوا كالعنز والبقرة اللتين ضعفتا عن تدبير أنفسهما وفاقمتهما الغزاة والبقرة الوحشية ، فصارت الأمة ذليلة والعضو الذي لا عمل له يضرع ويضعف ، وليس الأمر قاصرا على محمد بن تومرت ، فهو رجل نفع القوم بأسلوبه ومنهجه واستعان بالسكتان والصبر وعلوم السيمياء وبإيهامهم أنهم خير أمة أخرجت للناس وأنهم هم الذين يقفون إلى نزول عيسى عليه السلام وقد فعل ذلك معهم ولكن في الوقت نفسه علمهم الصدق والاخلاص والشجاعة والعلم على حسب زمانه ، الرجل مزج الحق بالباطل وقد أفاد القوم . ولا يزال بعض شيوخ الطرق الآن في أمم الاسلام يرفعون نفوسهم إلى مقام العظمة ويجعلون أنفسهم وسائط بين الله وبين خلقه . وقد أنام كثير منهم المسلمين ، إذ أفهمهم أنهم يتعاملهم مع جهلهم الفاضح يتنجون من العذاب يوم القيامة .

تعليم ابن تومرت وغير ابن تومرت نافع وضار . النفع مؤقت على مقدار همته . انظر الفرق بين هؤلاء الصالحين وبين الأنبياء . انظر إلى الأنبياء كيف دامت دياتهم آمادا وآمادا . كثير المهديون في الاسلام ولكل مدى أيام تنقضي ولكن الاسلام باق لم ينقص منه شيء وما يفعله هؤلاء الشيوخ نحو كرور الأيام لأنه لا ثبات له وهل لغير العلم ثبات ؟ الأمم الإسلامية يجب تعليمها وترقية عقولها ونشر التعليم والثقافة العامة فيها ليكن التعليم إجباريا في جميع الأقاليم ليتعلم الرجال والنساء .

هذا هو الهدي . فأما إني أو من بفلان أنه المهدي ومتى ذهب ذهب الإيمان (كما فعل المأمون فأبطل اسم الهدي ونسخ تعاليمه وقتل الشيوخ) فان الدولة تضمحل وتذهب كما رأيت في دولة الموحدين .

لا لا ، أيها المسلمون : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا — قال موسى ماجئتم به السحر إن الله سيظهره إن الله لا يصلح عمل الفاسدين) .

تذكر أيها الذكي ما جاء [في سورة طه] وأن بني إسرائيل لما رأوا العصا قلبت حية آمنوا وهم في مصر ، ثم لما خرجوا منها ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم « قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » ولما رأوا عجل السامري المصنوع من الذهب « قالوا هذا إلهكم وإله موسى » فهذا الإيمان المشثوم الذي لا يرجع إلى تمام العلم يكون عرضة للتقلب فإن من رأى عساقل قلبت حية لحري أن يكفر إذا رأى عجلا له خوار مصنوعا من ذهب فإنه أجمل وأبهى وأعظم هيئة من الحية .

وهل وردت تلك القصص في القرآن إلا لهذه النتائج . ألم يقل الله تعالى « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك

الكتاب يتلى عليهم» وهو القائل « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا
 نمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » والآيات المذكورة هي خوارق العادات .
 إذن القرآن في ناحية وجمهور المسلمين في ناحية . القرآن يدعو إلى التعقل والعلم وتعليم الناس . وإذا
 كنت قد خلقت في الرمم الميتة دودا وسلطت على الأحياء منها الأسود والنمور الخ رحمة منى وعدلا وحكمة
 أفلا أخلق في رمم الأحياء بالهند وبلاد الاسلام ما يشبه هذا الدود ويشبه الأسود والفهود والنمور من
 رجال الدين ومن الأمم المستعمرين؟ أولا ترون أنى أخلق العنكبوت تنصب الحيام لاصطياد الدباب .
 أفلا أفعل كذلك في الانسان الذى أشبه الدباب . فأسلط عليه عنكبوت الشيوخ والبراهمة والدجالين . هذا فعلى
 وأنا الحكم العدل . أتم أيها الناس جميعا اليوم في حال تشبه حال الأطفال من حيث مجموعكم والأطفال
 لا يستعدون غالبا لما يعقله البالغون . ملأت أرضكم بالأصنام والحرفات لأنكم لا تعقلون سواها .
 ثم أرسلت رسلا وآخروهم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم فسرت دعوته في الأرض ووصلت الهند وفيها نحو
 خمسين مليوناً من المسلمين وهم أرقى الجميع . وهذا العدد لم يسلم إلا بعد حروب دامت قرونا وقرونا .
 ثم مضت قرة ولم يقدر المسلمون على إزالة الأذى عن عباد البقر والأصنام هناك فأرسلت دول أوروبا فأخذوا
 ينعون بعض تلك العادات تنميا لما فعل المسلمون قبلهم . وكل ذلك اليوم تمهيد للزمان المقبل القريب
 إذ يظهر الجيل الجديد من المسلمين لاسيما قراء هذا التفسير . وهؤلاء هم الذين يرون أن الناس جميعا
 إخوانهم وأنهم خلفاء الله في أرضه . فهؤلاء هم الذين يرقون الانسانية كلها بعلمهم وحكمتهم وامتراجهم
 بالأمم وهناك يزيلون الحرفات أولا من بلاد الاسلام وثانيا من بلاد غير المسلمين من أهل الهند وغيرهم .
 هنالك يفهم المسلمون معنى قولى في القرآن « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقولى « وكذلك جعلناكم
 أمة وسطا » وقولى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .
 هنالك يفهم الناس لماذا ذم الله التقليد في هذه الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها ، وما فوائد الهدى
 والعلم والاستبصار .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : والله لقد شفيت ما فى نفسى . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب يوم
 الأربعاء ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

جمال العلم وبهجة الحكمة

في ذم التقليد

أيها المسلمون: إننى بينا أنا أكتب هذا الموضوع يوم الاثنين (١١) نوفمبر سنة ١٩٢٩ وقد اختمرت
 هذه الفكرة في نفسى طلع « الأهرام » وفى صدره هذه المقالة الآتية من بلاد الهند ، فأدهشنى صدور
 هذا القول اليوم وفكرت في أمر الإسلام وأمة الإسلام وقلت إن هذه من الصادقات العجيبة . كيف
 يظهر اليوم هذا المقال وقد ظهرت فيه أحوال الهند المقسمين إلى أربع طبقات وأن البراهمة أو هموم أنهم
 نواب الله الأرض وعاشوا عالة على الشعب ، وأن هذا هو أكبر سبب فى خضوع الهند التى تعد بمئات الملايين
 إلى عشرة آلاف من الأنجليز . اللهم إن هذه المقالة سيتجلى بها هذا المقام حقا وصدقا كيف لا والبراهمة قد نبغوا
 فى احتقار الشعب وإدخال الغفلة عليه ، وبعض النصارى والمسلمين قد قلدوهم فى ذلك الاحتقار ،
 فبالعلم ، وباللشأن .

أبليق بخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأتباع النبي العربي صلى الله عليه وسلم (ذلك الذي قال «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» والذي أمر بلالا أن يؤذن على السكبية بمحضر من قريش والذي نزل عليه «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ذلك النبي الذي منع الاستتار ونبذ كل خوارق العادات وحكم عليها بأنها كهانة ، وجاء بالانصاف والعدل ، وأتى بمدينة تحترق بجانبها مدينة بعض الأوروبيين ، أولئك الذين يحقرون أن يكونوا مع السودانيين في مكان واحد كقطم أو ملعب ، ذلك هو الذي سمعناه اليوم عن بلاد الانجليز أن يكونوا كالبراهمة فيفسدوا عقول الشعوب الاسلامية بمهدويتهم أو بمشيختهم . كلا والله لا يليق .

فهذا هو اللقال الذي به نعرف معنى قوله تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» ووصفه صلى الله عليه وسلم بأنه سراج منير وأنه خاتم الأنبياء ، فقد ضرب اللدنيات القديمة ضربة زلزلة الأرض ولكن لا تزال الأمم في حاجة إلى إرشاد المسلمين الذين سيظهرون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، فالاسلام لا تزال أمامه مشاق وأعمال ملقاة على عاتق الأجيال المقبلة قراء أمثال هذا التفسير .

إن أكثر المسلمين يهوتش على عقولهم قوم بظواهر أحوال أو بأخبار بالغيب صدقا أو كذبا أو بالتكشف والزهد ، كل ذلك أمره قد مضى في حال طفولية الأمم الإسلامية ، ولقد قلت لك أيها الذكي إن الأمم الاسلامية اليوم في القرن الرابع عشر قد أزف زمان بلوغها بالسن وقد صارت كمن بلغ بالحلم ولعلها ترى الحقائق في زماننا هذا وتخرج من حضانة أولئك الذين لا يرون لها سياسة إلا بالابهام وحجهم عن الحقائق وإبعادهم عن سواء السبيل .

أيها المسلمون : لا عطر بعد عروس . ولا عجا بعد بوس . هذا كتاب التفسير (الجواهر) هاهوذا بين أيديكم فتفكروا فيه وقلبوا صحائفه وسيظهر جيل جديد سائر على منواله . فويل لمن تركوا مواهبهم وعقولهم واتكأوا على شيخ من غير تعليم ، وويل ثم ويل لمن نسوا نعم الله عليهم بالعقل والحواس والنعم الجليلة ثم انتظروا مجيء المهدي ليهدي أبناء أبنائهم وهم لا يهتدون كأن الله عز وجل ليس هاديا للناس الآن مع أن من أسمائه تعالى (الهادي) وكأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس من أسمائه الهادي . الله جعل الهدي في الأرض في كل زمان ومكان ولا يحجبه إلا التقليد الذي ذمه الله في هذه الآيات إذ يقف للمستضعفون أمام المستكبرين ويقولون لهم أنتم سبب جهلنا فيقول المستكبرون . كلا . بل أنتم قوم مجرمون أي لأنكم لو كانت لكم عقول ما أطعتمونها ، وكيف تركتم مواهبكم وعقولكم ؟ .

اللهم إنا نحمدك على ظهور حقائق القرآن في التاريخ الذي جعل نبراسا ونورا لمن بعدنا . فانظر أيها الذكي إلى أهل الأندلس كيف قصرت أنظارهم أيام علي بن يوسف بن تاشفين ، إذ أنهم بعد أن عصوا عمال المرابطين لم يتفطنوا أن الفرنجة من خلفهم بل استقل كل بمملكته . لمساذا هذا ؟ لأن العقول خدمت بسبب الجهل . ثم انظر إليهم بعد أن طردوا الموحدين من بلادهم كما تقدم فانهم تفرقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض وذلك من نقص العلم والغفلة إما بالفسوق والاكتماء بالشعر كما تقدم ، في (سورة الشعراء) . وإما بمجمود القرائح بتعليم شيوخ يجعلونهم بالأمانى قانعين وعلى الرؤساء متكئين « والله لا يهدي القوم الظالمين » .

إن الله قد أذن في هذا الزمان بظهور الحقائق ونشر المجلات والصحف فسهلت على مؤلف هذا التفسير الأمر واستبان حقائق كثيرة كانت مطوية التفصيل عن أنظار الجمهور . فهذا اللقال الذي سأذكره هنا عن الهنود يريكم أيها المسلمون مضار التقليد بأوضح سبيل وهذا عار على أم الاسلام الذين بعدنا الدارسين العارفين أما أكثر الأمم الاسلامية المتأخرة فان شيوخهم فعلوا معهم بعض فعل البراهمة مع الهنود وكان من حقهم

أن يكونوا مرشدى جميع الأمم لا أنهم هم يتبعون الشهوات كأولئك البراهمة القدماء والحاليين . فهاك نص
المقال المذكور .

حديث الهند

(من عرف العلة في جسم غيره دفع شرها عن جسمه)

مصرع العالم تنظر إلى الهند وتصغى بأسماعها لشكواها . ومصر دون العالم تهتم بأمر الهند لأن شأن تلك
البلاد شأنها ولأنها تشاركنا بآلامنا كما نشاركها بآلامها . وتتمنى خلاصها كما هي تتمنى خلاصنا وإذا قلنا الهند
فقد أردنا الهند الفكرة العالمة الناهضة ، ولكن ماهى الهند ؟ أمى كصر أمة واحدة بلغة واحدة وعنصر
واحد بنحو واحد وتقاليد واحدة وآداب واحدة ؟ وهل هي تحيا حياة ديموقراطية كصر لا يفضل فيها المصرى
المصرى إلا بعمله وبما يقدمه لوطنه ؟ لا . إنها ليست مثلنا ولا نحن مثلها فما هى الهند إذن ؟ وماهى أدواؤها
لندفع شر تلك الأدواء عن أنفسنا إذا نحن أحسننا بها . إن أصدق الجواب على هذا السؤال هو بالأرقام .
فالهند التى أسماها الإغريق باسم أحد آلهتها ليندرا كعادتهم فى التسمية إذا كانت شطرا من القارة الآسيوية
فهى تكاد تكون ييبسا منفصلا عن العالم بالماء من جهات البحار وبالجيال الشائعة جدا حتى لا تجاز من جهات
البر . مساحتها ٤٩٢٤٥٥٩ كيلو مترا مربعا يسكنها ٣١٩ مليوناً منهم ٢٤٧ مليوناً هم المستعمرة الانكليزية
والآخرون ١٢ إمارة خاضعة للانكليز ، وهذا المجموع من الأهالى مؤلف من ٢٠ عنصرا وهم يتكلمون
ب ٢٢٢ لغة أو لهجة وليس لهذا المجموع لغة عامة وللغاتهم ٥٠ نوعا من الكتابة ولكل كتابة من ٢٠٠ حرف
إلى ٢٥٠ حرفا كذلك تعدد أديانها . وجو بلادهم يختلف باختلاف المناطق فعلى مقربة من السواحل يهبط
مستوى الأرض ٢٠٩ متر فوق سطح البحر فيكون الجو محرقا بدرجة ٤٧ بميزان سنتغراد وفى أعلى القمم
على ارتفاع ٨٨٩٠ مترا يجمد البرد الدم بالعروق ، جميع الفاتحين الكبار غزوا تلك البلاد وملكوها ، من
سزوستريس الفرعون المصرى إلى الأسكندر المقدونى إلى غزاة التبت الآريين الذين ملكوا ناصية تلك البلاد
وأسموا أهلها بالبارسيين التجسين ثم تفرقوا بعد ذلك قبائل وصلت إلى أوروبا وملكها وإلى العرب إلى
المولنديين والبرتغاليين الذين فتح قائدهم البحرى فاسكودى غاما طريقها سنة ١٤٩٨ إلى فرنساويين إلى
الانكليز الذين ملكوها ناصيتها من فرنساويين واتخذوها مزرعة لشركة من شركائهم إلى أن ابتاعها حكومتهم
من تلك الشركة فى سنة ١٨٣٣ وأخذت بتوسيع حدودها . وظلت حتى الآن لتلك الدول التى تقدمت انكلترا
أملاك وجزر فى جوانها .

والانكليز يستعمرونها للرزق والتجارة ، لأن مبادلاتها التجارية من الصادروالوارد لا تنقل فى السنة عن
٥٠٠ مليون جنيه وكل استعمار للرزق ولرخاء العيش . وأقدر الدول على الاستعمار من قل رزقها فى وطنها
ولا يتعب الانكليز كثيرا فى حكمها وجيشهم باحصاء ١٩٢٦ لا يزيد فيها على ستين ألفا . وكبار الموظفين على
٣٤٣٣ موظفا ورجال البوليس منهم على أربعة آلاف ، كما أن عدد الأوروبيين وأكثرهم من الانكليز لا يزيد
على ٢٠ ألف . فهل من المعقول أن يحكم هذا العدد القليل مثل ذلك العالم الضخم ؟ إن الجواب على ذلك يجده
الباحث فى حياتهم الاجتماعية والأدبية : فالمسلمون وهم أرقى العناصر كانوا عضد الدولة الحاكمة وهم خمسون
مليوناً ، لأن حكم التفريق كان سائدا بينهم ثم الجهل الذى ترك فيه الأهالى ولا يزيد الآن عدد الذين يعرفون
القراءة على ٨ بالمئة . ولأنهم يقسمون الأمة إلى طبقات يحكم شرائعهم القديمة ، فالطبقة العليا هى طبقة البراهمة
نواب (الإله الأرضى) فى خلقه ، وهم فوق الجميع . ثم طبقة الكشاثرياس أى المجاهدين والمقاتلة ثم طبقة

الغاشياس أى الفلاحين والزراع . ثم الطبقة الأخيرة الحقيمة النجسة وهى السودرا التى خلقها الله لخدمة الآخرين . وعند البراهمة نص فى شريعة (باها كافلا) بأن من قتل برهانا حوله الله إلى حشرة من حشرات الأقدار إلى أن يولد ثانية بعد موته فىأتى من عنصر باريا أى السودرا ويظل أعمى عدد شعر البقرة من السنين ولا يغفر له ذنبه إلا إذا أطمع ٤٠٠ ألف برهاني، أما إذا قتل أحد البراهمة واحدا من السودرا فيكفى للغفران أن يرتل الغويالى وهى من أناشيدهم المقدسة ليظهر . فانظر إلى قيمة هذا وذاك فى شريعهم المقدسة ثم اسأل أين المساواة ؟ البرهمة من آفة الهنود منذ عهد بعيد لا يقل عن ستة آلاف سنة . كان العلم محصورا بهم دون سواهم قبل دخول الغزاة بلادهم ، لذلك زادوا على الكتب المقدسة ما يعزز نفوذهم وبوصفهم وكلاء (إله الأرض) وجد البغاء المقدس فى الهياكل لأجلهم . وحكم على الناس أن يقدموا لهم جميع حاجاتهم دون أن يقوموا بعمل ، فاذا ولد الطفل الهندي أعطوا الجعل وإذا بلغ اليوم السادس عشر من عمره أعطوا الأتاوة ليظهره من رجس الولادة ، وإذا بلغ الشهر الثالث أعطوا الأجر لقص شعره . وإذا بلغ الطفل الشهر السادس أعطى البرهانا الأجر عن فطامه . كذلك إذا أتم السنة . ومن السنة الواحدة الى السنة السادسة عشرة وهى سن الزواج يعقد البرهانا الزواج مقابل الأجر وكذلك فى حالة الموت واحتراق الجثة ووضع الرماد بالحق وفى كل شهر من السنة الأولى بعد الوفاة يقدم للبرهانة كل ما هو عزيز على الميت على اعتقاد أنه يتمتع به فى آخرته وفى كل حفلة من هذه الحفلات يغسلون أقدام البرهانة ويشربون ماء الغسل . تلك طبقة ليست عاطلة فقط بل كالعلى تمتص دم الأمة وتمتلئ هممها ونفوسها لما ابتدئته من الأحكام والشرايع . كذلك تقديس البقر حتى إنه لا يموت منهم ميت إلا إذا هو أمسك بذيل بقرة من تلك الأبقار المقدسة . وهم فى الصحة والمرض يلتقطون روثها وبولها ويمزجونها بلبنها ويضعونه فى أحقاق ليؤكل ويشرب فيشفى من كل داء ويدخل الأكل والشارب إلى الجنة وقد بلغ عدد البقر فى سنة ١٩٣٠ مليوناً ١٤٦ ألف بقرة ، وبلغت النفقة عليها ١١٧٦.٠٠٠ (١)

جنيه أى أربعة أضعاف غلة الأرض ، ومن هذه الأبقار ٧٠ ألف بقرة لا يجوز الانتفاع بلحمها وعظمها وجلدها ، وفى كل سنة تقوم العارك بين المسلمين والهندوسيين من أجل ذبح البقر والذين يزورون الهند قد يشاهدون تلك الأبقار المحترمة المقدسة والناس يتراكسون لالتقاط بولها بأوعيتهم . بلى ذلك فى زعزعة رقى تلك الأمة ما يؤخذ أيضا من إحصاء ١٩٢٠ أن عدد الشحاذين والدجالين خمسة ملايين و ٨٠٠ ألف وعدد الدراويش والأولياء ٤٥٢١٧٤ شخصا فأى جسم يتحمل مثل هذا العلق ويظل قويا ؟ الهنود يقصدون الزواج والأطفال يصلحون له عندهم من سن الواحدة فصاعدا فإذا أتم الطفلان فعل الزواج قبل البلوغ قدمت الهدايا لوكلاء «الإله الأرضى» أى البرهانا وإلهمهم «سيفا» يصورونه فى كل مكان بصورة أحد أعضاء التناسل وإلهمهم «فيشو» بصورة فعل الزواج . فلما قرر مؤتمر جنيف فى سنة ١٩٢٣ أن تحرم الدول نشر الصور المغايرة للأداب وأن تنص قوانينها بالعقاب الشديد قابل مسلمو الهند هذا القرار بالارتياح بل بالفرح والسرور ، وقابله الهنود بالسخط والغضب ، فنص فى القانون الذى يحرم نشر الصور القذرة على اشتراط مخالفة الدين وسن قانون الزواج بعد ذلك على أن يكون سن الشابين بين العاشرة والثانية عشرة ونادى غاندى بهذا الإصلاح ولم يكتف به وأعلن تاغور شاعرهم حربا على هذا القانون الذى عدّه فوزا للمادة على الروح وأصر على تزويج الأثني قبل أن

(١) هذه العبارة نقلتها من الأصل وهذا الأصل خطأ لأن غلة الأرض أضعاف هذا بعكس ما جاء فى هذه

العبارة انتهى .

تصير بالغة بحجة أن الأثني في هذه الحالة لا تعرف أنها أثنى إلا وهي متزوجة . أما حجة غاندى فكثرة الوفيات وضعف النسل وشيخوخة الرجال وهم في الخامسة والعشرين ووهن النساء في سن الشباب وكانت حربا شعواء وانتهت بأن اقترح مجلسهم في سنة ٢٥ رفع سن الزواج إلى ١٤ سنة ودل الإحصاء على أن البنات اللاتي يمتن في سن الطفولة بسبب الزواج يبلغ متوسط عددهن في السنة ثلاثة ملايين و ٢٠٠ ألف وقد عرف الناس أنهم رفعوا السن في تشريع هذا العام إلى ١٦ سنة ، أما الأرامل وعددهن في الهند ثلاثون مليوناً فلا يمكن أن يتصور الإنسان على ما وصف داس وغاندى ، والس مايو الأميركية حالاً أسوأ من حالهن مرضاً وسقماً وضعفاً . فالمرأة إذا مات زوجها كانت تحرق نفسها على قبره أو تمحرقونها إلى أن أبطل الإنجليز ذلك بعد جهد جهيد . أما اليوم فإنها تحلق شعر رأسها ولا تطعم إلا العيش اليابس مرة في اليوم ولا تخاطب إلا عبارات التخفير والازدراء ولا تقابل أحداً ، وقد نادى غاندى بالهنديات الرقيات لينشرن الدعوة لزواج الأرامل وإكرامهن وكانت فكرة هذه الجمعية موجودة منذ سنة ١٨٩١ ولكنهم لم يفعلوا حتى الآن ، كما أنهم لم يفعلوا بإبطال البغاء للقدس ، وهو أن يقدم الرجل بنته وهي طفلة للاله فيقوم وكيل الإله الأرضي مقامه وهكذا تصير الفتاة بغياً مقدسة لمن يدخلون الهيكل . وفي معبد كالي إلهة الدم الهامة كالسكونا باسمها ألوف منهن . ومن أسباب انحطاط الهند طبقة السودرا أي الطبقة النجسة وعددها ٦٠ مليوناً فهم في نظر الطبقات الأخرى الثلاث دون الناس فلا يجوز لهم دخول المدارس ولا دخول الهياكل ولا المحاكم ولا المخازن ولا المستشفيات ، حتى إنه لا يجوز لهم امتياز المياه من الآبار العمومية ، وفي بعض الجهات لا يجوز لهم السير بالطرقات العمومية ، وإذا وقع ظل واحد منهم على شيء أو على إنسان نجسه ، وإذا وقع على مأكلاً أو مشرب حرم أكله وشربه . وإذا رأى أحدهم برهانا مقبلاً وجب عليه الابتعاد عن طريقه نحو مثنى متر على الأقل . كما أنه يجب عليه الابتعاد عن الطبقات الأخرى نحو ٣٠ متراً ولم يتعرض الإنكليز لهذه الحالة احتراماً لأمر ملكتهم في ٢ ديسمبر سنة ١٨٥٨ . بالأ يترض أي الإنكليز لأحكام الدين والعقائد ، وهؤلاء النساء يعتقدون أن ذلك حكم الله عليهم . ولكن غاندى هب للدفاع عنهم بحجة أن الدين لم يحرم رفع هذه الطبقة إلى مصاف الطبقات الأخرى ، فمن الواجب أن ترفع إليها فقدوا في بمباي مؤتمراً ضخماً لمحاربة هذا المبدأ ، ولما صدر القرار في مارس بأن يكون تعليم الهنود جميعاً إجبارياً خصصوا ٦٩ مكتباً لآولاد هؤلاء النجسين وعينوا ٨١٥٧ مكتباً للآخرين وفي سنة ١٩٢٦ أصدر مجلس الشورى يومباي قراراً يقبول أطفالهم بالمدارس وبالسمح لهم بتناول الماء من الآبار العمومية ، ولما أوفدت انكلترا المستر مونتاغو إلى الهند في سنة ٩١٧ ليسأل الهنود عما يريدون بلادهم جاءه أناس من هذه الطبقة وقد تنورت أذهانهم من الاحتكاك بالأجانب وقالوا إنهم يرفضون الحكم الذاتي لأنه لا يكون إلا أداة لتسليم الضفدع للثعبان ، ولما نزل ولي عهد إنجلترا في يومباي سنة ١٩٢١ وأذاع غاندى رسالة قال فيها إن هذه الزيارة إهانة للهنود واحتقار أضرب الناس عن مقابلة الأمير وسادت الاضطرابات في شوارع تلك المدينة مدة أربعة أيام قتل ٥٠ وجرح ٤٠٠ ولكن لما أراد الأمير السفر من يومباي إلى دلهي ركب من القصر إلى المحطة وهي تبعد ثلاثة كيلومترات فاجتمع ألوف الألوف على طريقه يحيونه وسبقه ألوف إلى دلهي للغرض ذاته وكان هؤلاء جميعاً من طبقة السودرا لأنهم يحبون رجلاً قويا وكل قوى إله وهكذا حملهم جماعة منهم على تحية ذلك الأمير فهل رأى القاري ما هي الأمراض الاجتماعية التي تجعل ٣١٩ مليون إنسان خاضعين خائفين لستين ألفاً وهم هم الدين كان من أبنائهم ٩٨٥ ألفاً في ميادين القتال للدفاع عن الامبراطورية فظهروا في ذلك الدفاع أبطالاً أشداء ، تلك أمراضهم ومن عرف مرض سواه وفي نفسه . وإذا أردنا وصفاً للهند جامعا وجدنا هذا الوصف الجامع

بين شقي قلم غوستاف ليون القائل : إن المهند حلفات أولها مع أول عهد الإنسانية وآخرها مع آخر مرحلة وصلت إليها المدينة . فهي سجل صادق لتاريخ الإنسانية وأديانها . وتقاليدها وأطوارها وضعفها وقوتها وتدينها ورقبها اه .

هذه صورة أهل الهند قد وضحت الآن في هذه المقالة وظهرت حقائق يتوق لمعرفة العقلاء في الإسلام . ولقد تقدم في هذا التفسير ما فعله (ابن الصباح) في قلعة الموت وكيف تعلم تلاميذه شرب الحشيش فصاروا حشاشين وخيل لهم أن الجنة تحت أقدام رؤسائهم . وهكذا ما فعله كثير من رؤساء الصوفية . وكيف كان التدليس في أمم الإسلام . ألا إنما مثل هذه الأمم كمثل نوع من الطير يعيش في بعض الفصول في بحيرات مصر بالوجه البحري وسياسته هكذا : ينام الطير ليلا ويحرسه أربعة طيور من الجهات الأربع والقدم هو الرئيس ، وهذه الطيور النائمة لا تطير إلا بأمر ذلك الرئيس إذا صرخ عليهن . وقد اعتاد الصيادون أن يقتلوا ذلك الرئيس بطريقة ، وهي أن يلبس الرجل على رأسه ما يشبه وجه هذا الطائر ومنقاره وهو مخفف وراء تلك الصورة وتعم هذه الصورة على وجه الماء فيظن الطير أن هذا من جنسه حتى إذا وصل إلى ذلك الرئيس جره من رجليه تحت الماء قتلته ، فإذا أحس بذلك أحد القواد في اليمين واليسار والحلف من الحراس الأربعة أسرع وصار رئيسا بدله ، وعليه يأتي الصيادون أربعة رجال فيقتلون هؤلاء الأربعة مرة واحدة وتبقى تلك الطيور بلا قائد ، ثم يأتون إلى أرجل تلك الطيور النائمة فيكسرونها تحت الماء حتى لا تطير .

هذا فعل الصيادين في بحيراتنا كبحيرة المنزلة مع ذلك الطائر ، وهذا العمل عينه هو الذي حصل في تلك الأمم الإسلامية المحكومة برجال أناموا عيونهم وأقفلوا قلوبهم .
 ألم تر إلى ما فعله الرابطون؟ إذ أحرقوا كتب الغزالي واقتص له محمد بن تومرت . ألم تر إلى الموحدين في آخر دولتهم لما حرموا الفلسفة وأهانوا ابن رشد كما تقدم في غضون هذا التفسير وبعد ذلك لم تقم للعلم قائمة حتى أوائل هذا الزمان .

ولقد أذن الله عز وجل بالاقبال والعز والنصر المبين . لقد نصر الله أمم الإسلام ، والدليل على ذلك نشر هذا التفسير ، فأننا والحمد لله نكتب فيه آراء الأمم قديما وحديثا ولم ندع حكمة قلت أو جللت مما تفتخر به الأمم قديما وحديثا إلا أدرجناه فيه ومع ذلك قبله المسلمون جميعا في أقطار الأرض إلا طوائف ضئيلة لا يعتد بهم ، وإني أقول بأعلى صوتي : إن المسلمين في هذا القرن الرابع عشر قد صاروا أشبه بغلام بلغ بالحلم . ذلك لأن الحروب والحوادث المرعبة في الشرق والغرب أيقظتهم وإن لم يناعوا القرن الخامس عشر الذي اعتبرناه السنة الخامسة عشرة ، لجدير بأن تسمى هذه الأمة قد بلغت الحلم والله أذن لها بالارتقاء والسعادة ، والحمد لله رب العالمين . كتب مساء يوم الثلاثاء ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

نور على نور

﴿ الكلام على البراهمة ﴾

تفسيرا لقوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » الخ
التي تحض على التفكير ونبذ التقليد

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حضر صاحبي اليوم (الأربعاء) بعد الظهر (١٣) نوفمبر سنة ١٩٢٩ واطلع على ما كتبت وأخذ يقرأ طوائف البراهمة والظلم والحيف والحرافات . فقال : إن هذا التفسير قد عودنا أن يبحث في الشبه التي تعرض لنا في أثناء الباحث العلمية ، وهامى ذه الشبه تترى عند قراءة مقال البراهمة ، ذلك المقال المتع فأقول :

إن قراءتي لأكثر هذا التفسير قد جعلتني لأرى طائرا ولا حشرة ولا غزالة ولا كوكبا ولا شمسا ولا قرأ إلا تمثل أمامي كأنه حكمة مجسمة وقبة نورية وبهجة للأبصار، ينظر الانسان فيرى الحشرات الطائرات مملوءة حكمة مزدانة بالانقان . أليس من أعجب العجب أن يمر في هذا التفسير تقلا عن علماء الأمم في الأرض بلانسكر أن للذباب أربعة آلاف عين كل عين منها مستقلة . ألم يتقدم في (سورة النمل) أن للنملة خمسة أعين منها عينان مركبتان كل عين منهما مركبة من نحو مائتي عين . فيأبى شعري ما هي النملة ، وما هي عينها ؟ وما هي الذبابة ؟ وما هي عينها ؟ وما هذه الحكم البديعة الجميلة الكثيرة التي لاحصر لها في مخلوقات منبذات قنرات محقورات ؟ وما هذه العناية بها حتى سمعنا الله في القرآن يقول : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » ثم أعقب ذلك بما يفيد أن الناس [قيمان] قسم يعلم أن هذا حق ، وقسم جاهل مستهزئ . وأيضا سمعناه سبحانه وتعالى يسمى سورا بأسماء الحشرات من نمل ونحل وعنكبوت .

هذه عناية الحكمة الإلهية بأقدر المخلوقات وأحقها الحشرات ، فكيف عمت رحمته هذه المخلوقات كلها ثم هو نفسه سبحانه يدع أمما من نوع الانسان في الضلال والوبال والخسار والجهالة العمياء ، وإذا منح الذبابة أربعة آلاف عين باصرة قد ثبتت فعلا ورؤيت بالمنظار العظيم بشهادة جميع العلماء في الأرض ، أفليس من رحمته أن يمنح أمثال هؤلاء المنود قوى عقلية ترفعهم عن هذه الجهالة والذل والحرمان وضلال العقول التي أورثهم ذل الأبد وضياح البلد والحزى المبين .

قلت : حياك الله . لقد أجدت في إيراد هذا السؤال وحسن منك أنك أوردته لأنك فتحت لي بابا واسعا من الحكمة لولا سؤالك لم يخطر بنفسى معناه . إن الله فعل مع هؤلاء المنود من الرحمة أكثر مما منح تلك الحشرات وأعطى كل ذى فضل فضله . فقال أريد الايضاح . قلت : إن الله بهذه الأحوال الهندية كأنه يخاطب الناس قاطبة يقول : أى عبادى ، أنا حكم عدل في الدنيا والآخرة ، فهل أخرت الشمس ثانية واحدة عن موعدتها ؟ أم سيرت القمر في غير طريقه ؟ أم أخللت بأى جسم من الأجسام السماوية ؟ هل نسبت حقيرا لحقارته ، أم حابيت عظيما في نظرك لعظمته ؟ أما ماتظنون مما يشبه الجور منى في هذه الأمم الإنسانية فذلك ليس جورا منى وإنما هي الحجب أسدلت على عقول أكثركم فلم تفهموها ، وظلمات الذنوب غشت على أفئدة أكثركم فلم تعقلوا ما نحن بأهل الهند وبغيرهم صانعون .

« أيها الناس : أنا لا أعطى ولا أمنع إلا بحق : فلست أعطى الأطفال علم العلماء ولا أمنع مستحق الحكمة علم الحكماء ، والناس في الأرض ليسوا على شاكلة واحدة بل هم طوائف وفرق وأصناف لكل طائفة شأن يغنيها وحال تواتبها . إن هذه المادة قد قبلت الصلابة والسيولة والحال الغازية كالحديد والماء والهواء فلم أبخل عليها بجميع هذه الأحوال ، هكذا الحيوان اختلفت أجناسه وأنواعه وأصنافه . فمنه بقية ومنه فيل ومنه حيوان ذرى لا ترونه بأعينكم ومنه جمل كبير . أنا واسع . أنا حكيم ، وكل طائفة من هذه الحيوانات سعيدة بمجالها فرحة بحياتها شاكرة لخالقها فتكون مخلوقات كلها خوادم لي ، فهل من العدل أن أوسع نطاق الحيوان والمعادن والنبات والجوامد ثم أعمد إلى أرقى حيوان وهو الإنسان فأجعله في دوائر ضيقة . كلا . أنا واسع . أنا حكيم . تتعجبون أيها الناس من قوم عبدوا البقر وهذا البقر يطوف عليهم آتاء الليل وأطراف النهار . تتعجبون أنهم تركوها في سبلهم وحقولهم ترتع وتأكل ما تريد . تتعجبون من ذلك كله وتقولون أيضا إن البراعمة استحوذوا على عقول القوم وغشوا على أبصارهم واستبدوا (٦٠) مليوناً وحقروهم وعدوهم في الأدلين وهم الفريق الرابع . كلا . لا ظلم اليوم ولا ظلم في المخلوقات كلها من حيث النظام العام ، هؤلاء أناس استعدادهم ببيتهم وأخلاقهم وتركيب عقولهم لا يسع أكثر من هذا . نظرت إلى تركيب عقولهم وإلى نظام أمورهم فوجدتهم لم يتجاوزوا المحسوسات وهذا لا عيب فيه ولا ظلم ، ألم أخلق في البراري والقفار مالا يحصى من الحيوان ؟ ألم أخلق في الغابات في خط الاستواء طوائف من الحيوانات والطيور ولكل منها مكان خاص : إما في أسفل الشجرات وإما في أواسطها وإما في أعلاها ، وكل سعيد في مكانه ، مقيم في بيته ، راض عن ربه . فهكذا من نوع الإنسان طوائف ارتقوا عن الحيوان ولكنهم لم يصلوا منتهى السكال وأحبوا القرب مني ، ولكني أنا لست كمخلوقاتي . وإذا كنتم أتم لاترون الهواء ولا الكهرباء فكيف تروني فمن رحمتي إذن أن أقبض لهم أناسا يضربون لهم الأمثال المهيمة إما بالأصنام وإما بالحيوان ومنه هذا البقر . فإذا رأيتم البقر يطوف عليهم ليلا ونهارا وهم يعظمونه فما هذه إلا أصنام متحركة ، بمنظرها يخضعون لما يتوهمون فيها من القوة القدسية فيعيشون معا بسلام وأمان لأنهم يتذكرون الحلال والحرام في نظرهم بالأصنام في المدن والقرى في الحقول والسبل . أصنام متحركة اخترعوها ومجول سائبة عظموها . فهؤلاء ليس في طاقتهم ولا في إمكانهم أن يفكروا في جمال شمسى وقمرى وكواكبى ولا في تركيب نفوسهم تفكيرا جديا ويعرفوا بذلك مقدار عظمى فأعطاهم رؤساؤهم تلك الصور والأشكال لتكون تذكرة لهم كما قلت لكم في القرآن حاكيا عن الكفار « ما تعبدتم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وإذا كنت أنا قد سلطت التباب على قدرى العيون ومنتسخى الأجسام وأرسلت طوائف المكروبات (الحيوانات الدرية) على ضيعتى الأجسام ليفارقوا الحياة في هذه الأرض رحمة بهم ، وخالقت الدود وسلطته على أجسام الناس في قبورهم فذلك لأنى حكيم أضع الأشياء مواضعها ولا أعطل موجودا ، وكيف أعطل الأجسام اللينة وهي جذيرة أن تكون قوتا لأمة من أمم الحيوان ، وتعطيل النافع إخلال بحكمة الوجود ، فهكذا إذا ضلت أمة من أمم الإنسان على مقتضى سنن الكون وأخذت تقترب من أخلاق الحيوان فأنا أعطيها ما يشبه العلم رحمة بها ويكون ذلك أشبه بالهواء القاسد يعيش فيه الناس والحيوان إذا لم يكن سواه ، وهواء فاسد خير من الاختناق والموت السريع بعدم الهواء ، وبعض الشر أهون من بعض . وليس في طاقة أرضكم وعواملها بحسب النظام أن تكون على غير هذا النظام . ألم تروا يا معشر المسلمين أنكم في حال جهالتكم (كان ذلك منذ خمسين سنة وأنا مجاور بالجامع الأزهر وحصل في قريقتنا كفر عوض الله حجازى شرقية وشاهدته بنفسى) إذا قل العلم وكثر الجهل تفعلون فعل الهنود مع أنكم مسلمون وأنتم بذلك

فرحون ، ألم تعينوا عجولا من البقر ومن الجاموس وتطلقوها في الحقول والغيطان باسم ولي من أوليائي
عندكم ذلك كان فعلا في بلادنا فيقولون هذا العجل للسيد البدوي وهذا للعزب وهكذا ، فما كان الناس ليقدروا
على طرد تلك الدواب من حقولهم خوفا من السيد ومن العزب بل اللصوص كذلك لا يحسرون على
سرقة تلك العجول لا خوفا مني بل خوفا من عبادي اللتين (وقد تنورت بلادنا اليوم بالعلم وألغيت
تلك الأحوال) .

« تقولون أيها المسلمون إن البراهمة غشوا على عقول الهند ، أو لستم ترون شيوخ الطرق وللتشبهين
بهم يغدون ويروحون في طول بلاد الاسلام وعرضها لشدة جهالة المسلمين وقلة العلم عندهم ، وهؤلاء الشيوخ
أنتم تغدقون النعم عليهم وتطلبون منهم الدعاء كأنى أنا أطلب منكم وسطاء بيني وبينكم مع أن النمل والنحل
والذباب أنعمت عليهما بلا واسطة بيني وبينهن ، ألم تروا بأعينكم في جميع أقطار الاسلام في جهالتها (ذلك رأيته
بنفسي في قريقتنا أيضاً منذ خمسين سنة) شيوخا معممين يطوفون على منازلكم ويتصبون حلقات الذكر
ويغني مغنيهم وأنتم تعطونهم (العادة) من أموالكم (وهذا اليوم قد ألقى ، إذ تنور أهل بلادى الآن) وإنما
طاف عليكم هؤلاء لأنكم لما حرمت من العلم سخرت لكم قوما يعطونكم ما يشبه العلم من القصص الخرافية
وجعلت هياتهم تدل على الصلاح لتعيشوا في بلادكم بسلام على قدر الإمكان ، فإذا كان جهالة الشيوخ عندهم .
أيها المسلمون يأكلون من أموالكم ولا عمل لهم إلا هذا ، وإذا كان البراهمة يحقرن الشعب وينيمون عقوله
وليس لهم عمل إلا هذا ويعيشون من أموال مريديهم فذلك أن هؤلاء الشيوخ وهؤلاء البراهمة أشبه بالحكام
الظالمين الذين أسلطهم على الأمم المجرمة فيكون نفعهم أكثر من ضررهم في الحياة الدنيا لئلا يقتل بعضهم
بعضا إذا لم يكن لهم حاكمون ، قوم جهلاء لم يستعدوا للعلم فلتسكن لهم صورة الصلاح يرونها بأعينهم وليأخذ
أولئك الشيوخ من أموالهم ليرزؤهم عسى أن يفكر مفكر فيخرجهم من الجهالة إلى مرتبة العلماء ، هذا هو
نظامكم في الدنيا أيها الناس .

أما نظام الأرواح ومراتبها بعد اللوت فأمره عنكم مستور ، ولكنى أقول : أيها الناس إن الأعمى هنا
أعمى هناك ، إني خلقت (حشرة الأرضة) ذات الملكة الواسعة وهي عمياء ، أفلا أخلق إنسانا أرقى منها بما
لا حذله وأضعه في مرتبته بعد اللوت لا يستحق سواها ، فان كان أعمى البصيرة هنا أعمى لها هناك ، وإن
كان مفكرا هنا جعلته مفكرا هناك . إذن لا ظلم اليوم . أنا خلقت النمل و خلقت الأرضة وما قالت إحداها
لماذا لم تخلفني كالأخرى بل كل يعمل على شاكلته . هكذا أهل الهند الذين ضلوا بيقرهم وأصنامهم و جهال
المسلمين الذين اتكوا على شيوخهم وأتباع (أغا ممنون) في الهند من الاساعيلية الذين قدسوا رئيسهم .
وكذلك رجال البهائية اليوم الذين انتشروا في القرس وفي غيرها وأمريكا وأوروبا . وكذلك أتباع (غلام
أحمد) بالهند وغيرها . فهؤلاء وأمثالهم يقولون إن رئيس مذهبهم هو المسيح . وعزى وجلالى لئن لم ينته
للمسلمون عن التواني والكسل لأسلطن عليهم أقل الرؤساء الحاكين عدلا وأجهل الوعاظ علما ، وهذا
في الحقيقة عذاب الدنيا ولعذاب الآخرة أخصى وهم لا ينصرون . أهل الهند معذبون بشيوخهم . معذبون
بيقرهم وهم لا يعلمون أنهم معذبون . والمسلمون معذبون بجهالة شيوخهم وبأساطيرهم وهم لا يعلمون
أنهم معذبون » .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : لقد وفيت المقام حقه وأزاح الله عز وجل بقولك خرافات أسدلت على العقول
عجبا ، ولكن أرجو أن تبين هذا المقام (أولا) أن تفيض القول في أمر الهندو الذين خضعوا للبراهمة فتضرب
مثلا لما أضرم من التقليد (ثانيا) أن تبين لى نموذجاً من كتب أكابر المسلمين تدعو إلى ما يشبه بعض

الشبه ما فعله البراهمة حتى يظهر لنا بامتجانها أنها لا تصلح لهذا الزمان ، ومتى فعلت ذلك انصرف المسلمون عن هذه الأحوال (وثالثاً) أرجو أن تضرب مثلاً ما تفعله بعض الأمم التي لم يقتلها التقليد في زماننا حتى يوازن المسلمون بين من قتلهم التقليد الجاهل وبين من أحيام العلم . فقلت : إذن ذلك (ثلاثة فصول : الفصل الأول) في بيان الضرر الفعلي في بلاد الهند من سوء التقليد (الفصل الثاني) في نموذج من كتب منسوبة لبعض عظماء الاسلام تدل على الطريقة التي كانت متوارثة فيما بين الملوك ورجال الدين (الفصل الثالث) في ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا . وهالك بيانها .

الفصل الأول

(في بيان المضار الحاصلة في بلاد الهند في هذه الأيام بسبب سوء التقليد تفسيراً لهذه الآيات)
جاء في جريدة « الأهرام » بعنوان (رسالة الهند بالبريد الجوي) من مدراس بتاريخ (١٧) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م ما نصه :

كانت الجمعية الهندية التشريعية في خلال الأسبوع منهمكة بمشروع إصلاح اجتماعي نال الشيء الكثير من اهتمام أعضاء الحكومة والزملاء الوطنيين وهذا المشروع هو من اقتراح رامي (هريلاس سردا) أحد الأعضاء الخصوصيين وهو عبارة عن مشروع قانون عقوبات على زواج الذكور قبل سن الثامنة عشرة والإناث قبل الرابعة عشرة وقد اجتاز هذا المشروع للمصاعب الأولية بفوز ونجاح . وذهبت جميع مساعي المدافعين عن تقاليد المذهب الهندي وبعض المسلمين أدراج الرياح ، وتقرر النظر في المشروع مادة مادة . ولا ريب أن ما لقيه هذا الموضوع من التأكد العظيم سيقنع العالم الخارجي أن الرأي العام في الهند قد بدأ يشور على العادات القديمة وهذه علامة تبعث على الرجاء . إن الزواج في الهنديكيون عاماً للنساء والرجال . فالهنديكيون يكرهون في الزواج أما عنصر البارسي فلا يتزوجون إلا كباراً وهناك شعبة من الهنديكيين تميز تعدد الزوجات وطائفة السكوليين من مذهب البراهمة يتزوجون أكثر من زوجة واحدة والمسلمون وإن كانت ديانتهم تبيح زواج أربع نساء فانهم لا يتزوجون عادة أكثر من زوجة واحدة . ولا تزال عادة الزواج بالأسير شائعة في طائفة الخول في أواسط الهند . والهنديكيون يعتبرون الزواج سرا مقدساً والزوجة الهنديكية تعتبر شريكة مساوية لزوجها . ولا تزال سينا زوجة رامما بطل لا ما يانا لدى الهنديكيين المثل الأعلى للزوجة ، وحسبنا أن نقبس هنا ما وصف به جنكا والدسينا ذلك الملك الحكيم ابنته عندما زفها إلى عروسها البطل (السرراما) فجاء وصفه مطابقاً لما يمد به الهنديكيون المثل الأعلى للزوجة في كل عصر ، وقد قال مخاطباً (السيرراما) شعراً مؤداه : (هذه هي سينا ابنة جنكا التي هي أعز عليه من الحياة . وستكون من الآن فساعدنا شريكة فضيلتك أيها الأمير وزوجك الأمين . وستشاركك في السراء والضراء في كل بلاد . فأكرم مشاها وتلطف بها في البهجة وفي الأحزان وضع يدك في يدها . إن الزوجة الأمينة يجب أن تكون كالظل لزوجها لا تنفارقه . وبنق سينا خير النساء ستبئك في الموت والحياة .

إن مراسم الزواج في الهند بديعة يعقبها الشيء من الأفراح والسرور ، والطلاق نادر عند الهنديكيين ولكنه شرعي جائز عند المسلمين . أما البارسيون سواء من المسيحيين أو البوذيين فنسبة للتزوجين منهم إلى غير المتزوجين هي ٤٣٨ في الألف من الذكور و ٤٦٧ في الألف من الإناث . وتكاد تكون هذه النسبة ذاتها في الطوائف الأخرى . والزواج المبكر شائع لدى بعض طوائف الهنديكيين والاقتران قبل سن العاشرة أكثر شيوعاً في باهار وأوريسا وبنجاب وأواسط الهند وحيدرآباد ، وهو نادر جداً في عسام وبورما وولايات الحدود الشمالية الغربية والسند ، ولكنه على كل حال قاصر على الطبقات الدنيا غير الثقفة . فكثيراً ما يتفق أن يقترن شيخ فان بفتاة في ربيع العمر وهذا بنوع خاص عند الهنديكيين . فالوالد الذي يهب بنته لقاء قبضة من الذهب لشيخ بقية أيام حياته معدودة يكون عبارة أخرى قد ابتاع لها الترميل الأبدي وهو نوع من قتل الأطفال ،

ولسوء الحظ لا ينهى عنه القانون إلا في ولاية ميسور الراقية حيث لا يجوز قانونا أن يقترن رجل في الخمسين من العمر بفتاة دون الرابعة عشرة من عمرها وفي بارودا قانون يمنع زواج البنت دون الثانية عشرة من العمر والفلام دون السادسة عشرة. وهذه الأعمار ليست طبعاً آخر ما يقال ولكن بقية الولايات الهندية حتى الهند البريطانية لم تقتد بهاتين الولايتين الراقيتين اللتين يحكمهما أمراء متتورون أحرار للبادي من الهندوكيين ولم ينسج على منوالها العدة أسباب ، والذي زاد هذا النظام ضرراً هو ما يتبعه الهندوكيون في مسألة الأرامل لأن مذهبهم لا يحيز زواج الأرملة وإن كانت في زهرة صباه حتى ولو كان الزواج لم يعد عقد الخطبة . ويبلغ عدد النساء الأرامل في الهند ثلاثين مليوناً ، ومعنى ذلك أن بين كل مائة امرأة ١٩ أرملة مع أن نسبة الأرامل في أوروبا لا تزيد على ٩ في المئة ، ولكن بينما لا يوجد بين أرامل أوروبا سوى ٧ في المئة دون سن الأربعين من العمر يوجد بين أرامل الهند ٢٨ في المئة دون هذه السن ، وبما يدعش قراءكم أن هناك ١٦٠٠٠ أرملة في الهند لا تتجاوز سنهن خمس سنوات ، وهناك نحو ألف أرملة لا تزيد سنهن على سنة واحدة . فالقضاء على هذه المخلوقات البريئة أن تقضى العمر في الترمل مع ما فيه من الحرمان عند الهندوكيين سخافة جنائية .

وقد اهتمت الطبقة المتعلمة أخيراً وبذلت كل ما في وسعها لالغاء هذا النظام المتعلق بالأرامل . وتبذل الآن مساع عظيمة من عدة مصادر لتشجيع مشروع زواج الأرامل الذي أيسح قبل الآن بفضل جهود المصلحين ومن مجموع أرامل الهند عشرون مليون أرملة من الهندوكيين فهذه المسألة وغيرها من المسائل الاجتماعية كزواج الأطفال والأمومة المبكرة قد انتقدت أشد انتقاد ولا سيما من الكتاب الغربيين ، وأخص بالذكر منهم (المس مايو) السكينة الأمريكية الشهيرة التي صورت هذه المسائل تصويراً مجسماً وأفاضت في وصف هولها وشناعتها ، وقد ذكرت في رسائلها الماضية الجهود التي يبذلها زعماء الهند لتحسين حالة المرأة الهندية . والحقيقة ترغمني على القول أنه حتى نهار أمس كانت حكومة الهند أكبر حليف للرجعيين الذين يأبون إصلاح النظام الاجتماعي من جميع الطوائف . وبالرغم من هذا كله فإن الحوادث سائرة سيرا سريعاً وشعرت الحكومة بأنها مرغمة لأن تعين لجنة تمثل الهندوكيين والمسلمين للنظر في مشروع تحديد سن الزواج . وقد كان العضوان المسلمان في هذه اللجنة كلاهما من معارضي المشروع ولكن أحدهما وهو منان شاو وأخان رأى نفسه أخيراً مرغماً بالأدلة الساطعة التي قدمت إلى اللجنة على أن يغير اعتقاده فاعترف في الساعة الأخيرة أن زواج الأطفال التبع حتى الآن يجب أن يحرم وتفرض على مرتكبيه العقوبات وأن معارضة المتمسكين بحرفية أصول اللذاهب يجب ألا يأبه بها بتاتا . وكانت سيدة هندية ضمن أعضاء هذه اللجنة . وقد أصدرت هذه اللجنة قرارها قبل انعقاد جلسة الجمعية التشريعية الحالية . وبما استوقف الأنظار في أثناء التحقيق الذي كانت تقوم به اللجنة هو ازدياد الرأي العام الذي يؤيد فكرة وجوب تغيير مشروع قانون عقوبات زواج الأطفال واعتبار البغاء الخارج عن دائرة الزواج جريمة خطيرة قبل سن الثامنة عشرة وهي السن التي يمكن اعتبار المرأة فيها راشدة وأن ما ارتكبه يكون رضائهما . وفوق ذلك فإن البعض طلبوا بالحلف أن يعتبر البغاء جنائية بصرف النظر عن سن المرأة . وقد أوصت اللجنة بوضع قانون يحدد النهاية الصغرى لسن زواج البنات ١٤ سنة ، وأوصت بأن يكون سن الرضا بدخول الزوج على عروسه ١٥ سنة . وأن يكون سن الرضا لصيانة البنت من إغواء شخص غير زوجها الشرعي ١٨ وأن يعتبر دخول الزوج على عروسه قبلما تبلغ سن الخامسة عشرة جريمة تدعى سوء استعمال حقوق الزواج . وأنه لما كان كل شيء يتوقف على سن البنت أوصت اللجنة بوجوب اتخاذ تدابير فعالة لتسجيل المواليد وتسجيل عقود الاقتران وإصدار شهادات بالولادة والزواج . في جو مثل هذا عقدت الجمعية التشريعية جلستها أمس للنظر في مشروع قانون زواج الأطفال المعروف بمشروع سردا . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني

﴿ في ذكر نموذج من نماذج الكتب الإسلامية التي تدعو إلى ما يشبه بعض الشبه
مافعله البراهمة في الهند ﴾

ها هو ذا أممي كتاب [سر العالمين] لأستاذي وأستاذ المسلمين جميعا (الإمام الغزالي) وهذا الكتاب يخالجي في نسبه إليه شكوك بل ججود لأن فيه ما يخالف طريقته ، ولكن الكتاب فيه آراء هي هي التي ظهرت في كل زمان ومكان بأمثال المهديين كآين تومرت المتقدم ذكره وشيوخ الطرق ، الكتاب صفحة واضحة بها يتجلى للشبان بعدنا كيف كان رجال الصوفية ، وكيف كان الملوك يوهمون الشعب ويخضعونه ، ويفعلون بعض ما يفعله البراهمة أيام أن كان آباؤنا في أزمان طفولية الأمم الإسلامية فحببوا عن العلم ، الكتاب كله يرجع إلى جملة واحدة ذكرها العلامة (ابن القفيع) في كتاب [كلىة ودمنة] الذي ترجمه من الفارسية إلى العربية وهي : يجب أن تكون أحد رجلين ملكا عظيما أو ناسكا عابدا ، وهذه الآراء بانتشارها في الاسلام أضلت الأمة ، فكل متعلم يتعالى على الشعب إما بالعظمة العلية وإما بالعظمة الروحية والزهد . وهذه العظمة يأبأها الاسلام . فالأمة كلها متعاونة . وعلى كل أن يكون له عمل يوائى قدرته فتكون الأمة كجسم واحد هذا ، ولأسمعك شذرات من الكتاب تبين مقاصده . وهاك نصها :

قال السيد الامام زين الدين حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور ضريحه : لما رأيت أهل الزمان همهم قاصرة على نيل القاصد الباطنة والظاهرة وسألني جماعة من ملوك الأرض أن أصنع لهم كتابا معدوم المثل لنيل مقاصدهم واقتناص الماليك وما يهينهم على ذلك استخرت الله فوضعت لهم كتابا ، وسميته بكتاب [سر العالمين] ، وكشف ما في الدارين [وبوته أبوابا] ، ومقالات وأحزابا . وذكرت فيه مراتب صوابا . وجعلته دالا على طلب الملكة وحائا عليها ، وواضعا لتحصيلها أساسا جامعا لمعانها . وذكرت كيفية ترتيبها وتديرها . فهو يصلح للعالم الزاهد ، وللعالم المالك بتطبيب قلوب الجند وجذبهم إليه بالمواعظ . فأول من استحسنته وقرأه على بالمدسة النظامية سرا من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعى من السفر رجل من أرض المغرب ، يقال له محمد بن تومرت من أهل سلمية ، وتوصت منه الملك ، وهو كتاب عزيز لا يجوز بدله لأن تحته أسرار افتقر إلى كشف إذ طباع العالم نافرة عنها وتحته علوم عزيزة وإشارات كثيرة دالة على غوامض أسرار لا يعرفها إلا خول الحكماء ، فأنه يوفقك للعمل به فانه دال على كل ما تريد إن شاء الله تعالى .

وقال أيضا [فاركب بسر علو الهمة وحصل الانتهاء ليم لك كماؤها وصير عندك نديما كأنما مطالعا على كتبها أعنى بها كتب سر العالمين] ، ثم حصل أرباب صناعة التقليب الذين هم علماء تغلب الكيمياء قادرين على صبغ الأحمر والأبيض ، فان كنت قليل الرجال ضعيف العضد وقليل المال ، فسكن كثير الفضل والعلم واتخذ لنفسك زاوية على طريق الزهد واجذب إليك تلاميذ وكثر عددهم واتخذ طريق الكرامات لينصبوا إليك واسموا الكبار واسلك طريق الصلاح وزنها لنفسك واختر . فاذا هب نسيم سعادتك فاكشف لتلاميذك ما الناس عليه من الفسق والفجور وارتابك ما لا يجوز من كل أمر منكسر ، وأمر أصحابك تستهوى وتجذب كل طائفة منهم قوما آخرين] .

وقال أيضا : وقد شاهدت محمد بن الصباح إذ تزهد تحت حصن الموت . وكان أهل الحصون يشتهون

أن يطلع إليهم فلم يفعل وهو يحصل المرادين ويعلم طريق الإرادة والتلمذة وشيئا من الجدل . ثم جعل يمهدر بكلام على قدر عقولهم . ثم جذب الناس وجعل يقول للمرادين : أما ترون الناس قد تركوا الشريعة ، فلما كبر الأمر خرج إليهم بطريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فصبا إليه خلق كثير . وخرج صاحب القلعة إلى الصيد والتلازمة أكثرهم أهل القلعة ففتحوا الحصن ودخله وقتل الملك في الصيد وفشا أمره ومذهبه حتى صفت في الرد عليهم كتابا سميته [قواصم الباطنية] ومنتظرهم فلا بد في آخر الزمان أن يهجرُوا الشرائع ويبيحوا المحرمات .

وقال أيضا « ولما مات هارون استخلف الأمين وفرّ المأمون إلى مدينة أصفهان ومعه الحسن بن سهل وكان المأمون ذا فنون وعلوم وآداب فقعد المأمون في المسجد الجامع وقد فرشه باللبد زهدا والناس يهرعون إليه لتعلم العلوم ، وابن سهل يومئذ إلى الطوائف ويقول لهم أليس هذا هو الخليفة حقا فباعوه ويقول لهم سنة هذا سنة الأولين الظاهرين . فلم يزل يستدرك الناس حتى حوى عسكره ثمانين ألفا ، وكانت الأعاجم تسمع بطريق الأمين الفاسد فقروا وطلبوا المأمون حتى عقد الجيوش لظاهر بن الحسين فدخل على الأمين فقتله واستولى المأمون . فكم من هذه السير للنقولة وإنما نسمعك بعضها تقوية وإعانة لهمتك » .

ها هو ذا بعض ما في الكتاب . وقد ذكر إظهار الكرامات وذكر حسن بن الصباح . وأنت إذا قرأت الجزء الأول من الكتاب أيقنت أن ما فيه هو ما فعله محمد بن تومرت . وأذكرك بما مر في : (سورة الشعراء) من أن كثيرا من الأمراء كانوا مشعوذين والأمم تتبعهم بالتقليد . وانظر نبذة مما جاء في الجزء الثاني من كتاب (سر العالمين) للذكور وهالك نصها :

[واعلم أن الزمان جيب أهله وطائفة تخترع لها مذهباً في الناموس بطريق الزهد كالسبح والرقعات وجلود الغنم والبرانس وأذان الليل والاتقطاع في الكهفان وكبر الأمور بحيث أن يقول لصاحبه اذهب في موضع القلاني كذا وكذا . وطائفة تظهر النور وأخرى تقعد بين القبور وإظهار الخزعبلات والنيرونجيات بمرض الكرامات ودهن الأقدام والخوض في النار وإظهار الحرق من سمندل الصين التي يذهب وسخها النار ومد الشعبة وضرب طلسم على النعل فيعبر الماء ووقوف السجادة في الهواء وشعلة القناديل وإشعال السراج بالماء دون الدهن وكثير من ذلك لا عدد لها . والفرق بين المعجزة والسحر والكرامة هو دوام الشيء وإظهاره للناس كالقرآن المجيد فهو المعجز الأكبر والناموس الأعظم] هـ .

إن هذا الكتاب أكثره أو كله مدخول على الامام الغزالي . وقد قلت لك إنه صفحة من تاريخ المهديين وكثير من الأمراء والرؤساء الروحانيين وغيرهم .

فقال صاحبي : يا سبحان الله . إنك إذن تنسك كرامات الأولياء (وبعبارة أخرى) إن كتابك هذا إنكار لأعز شيء عند المسلمين وهي الولاية . فقلت حاشا لله أن أنكر الولاية والله سبحانه وتعالى يقول « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . فقال نعم ولكنك وازنتهم بالبراهمة وقلت إن هؤلاء الأكبر يسيطرون على الشعوب بأحوالهم وبأعمالهم . فقلت : أنا أقول لك إن هذه الحياة غير ثابتة ونحن على الأرض أياما معدودات ولا بد لنا من السفر منها وتوديع أهلها والحياة بدون حب حياة محمولة ، والمحبة للجمال والجمال وللولد وللصيت وللذكر الحسن لا تدوم ، لأن الجمال وما بعده في الأرض كلها زائلات سريعات العطب ، والعلماء لما فكروا لم يجدوا محبوبا أجلا من كل محبوب إلا من هو منبع للجمال والجمال وللصيت ، وليس يعطى الجمال ولا الملك إلا من يملكه فلولا أن صانع العالم أجمل من كل جميل ، وأحكم من كل حكيم ، وأعظم من كل عظيم

ما خلق الجمال ولا الحكمة الخ لأن فاقد الشيء لا يعطيه . هنالك جعلوا حياتهم كلها وقفا على [أمرين] العلم بذلك الجليل المحبوب بدرس مصنوعاته ، والعمل لاسعاد أشرف من على الأرض وهو نوع الانسان . فالولي هو الذي انصف بهاتين الصفتين وهما العلم بهذه العوالم حتى يحب الصانع والسعي في إسعاد الأمم ، إن ذلك الولي يرى أن محبوبه الذي عرفه بمصنوعاته له عناية تامة بكل مخلوق على الأرض ، فهو إذن يحب ما أحبه ويسعى في إسعاد عباده وأقربهم إليه بنو آدم ، فأنه عليم وحكيم في صنعه ، فهذا أيضا يعلم وتمكون له أعمال صالحة متقنة إتقاننا تماما بنظام بديع . وكل صانع متقن صنعه سواء أكانت الصنعة تأليفا أو آلة نافعة للناس كان قربه على مقدار إتقان صنعه بمقتضى درجته .

فقال صاحبي : هذا حسن ، ولكن ما تقول في الكرامات ؟ فقلت : هذا هو بيت القصيد . لقد تقدم في هذا التفسير ما نقلته عن الشيخ الخواص والشعراني والديباغ من كبار الأولياء في الإسلام إذ أجمعوا أن الكرامات ليست مقصودة لذاتها . وأن الصالح إذا ظهرت على يده خوارق العادات إن فرح بها واطمأن كانت سببا في حرمانه وإذلاله وطرده ، لأنه لا فرق بين المال وبين تلك الكرامات حتى قال الشيخ الديباغ : [إن من كشف له عن العوالم العلوية يكون في خطر شديد ، وهذا الفتوح أكثره عذاب واستدراج وبعد عن الله فالحجاب خير من هذا لأن هذا الفتوح يغر النفس فتقف عن الرقي فيكون استدراجا قال الله تعالى « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » فهذا القول إجماع من القوم] .

فقال صاحبي : ولكن النفوس الإنسانية يدهشها أن ترى إخبارا بالغيب أو أمورا خارقة للعادة ، فمن حقها أن تتبع أولئك الذين ظهرت على أيديهم تلك الخوارق : فقلت : هذا هو الذي جاء الرسل لمنعه وإنكاره . إن خوارق العادات المنقولة عن الشيوخ أكثرها كاذب ، والذي صدق منها ليس يدل على الفضيلة لأن الفضيلة كما قدمت في العلم والعمل ، وأما هذه الخوارق فليست من خواص دين الإسلام بل هي أمر عام عن اليهود والنصارى وعباد الأوثان . فكم في البراهمة من مخبرين بالغيب . وكم في الأمم الوثنية من لهم أعمال خارقة للعادة . وهؤلاء يموتون ولا فضل لهم إلا أن الناس يهدونهم الهدايا ويقدمون لهم القرابين . جزاؤهم قد أخذوه في الدنيا . وقد قدمت لك قول الشيخ الخواص للشعراني [إن الولي يحب عليه أن لا يأخذ من الناس شيئا] وأنه إذا أقبل الناس عليه كان هذا الأقبال جزاء معجلا في الدنيا فيموت مفلسا لا له ولا عليه ، وربما مات مدينا ولا ثواب له بعد الموت .

وإنما ذكرت لك كلامهم (وأيضا أحيلك على كتبهم) لأني أعلم أن الأمم الإسلامية توقن اليوم بإقانا تماما بما يقوله نفس هؤلاء الأولياء رحمهم الله ولن يقدر أحد أن يقول . كلا . وأعظم الكرامات العلم وإحساس النفس بحب صانع العالم ثم الشوق إلى لقائه . ومن لم ينل هذه الرتبة وهي الشوق إلى لقاء ربه وجه والغرام به وانتظار الموت للاقائه فهذا ليس وليا . ومن تعدت به همته عند إعظام الناس له بسبب كراماته فهذا رجل جاهل مسكين أحب الدنيا وانقطع لها بقلبه والناس من غفلتهم يقبلون يده . فقال : وما دليلك ؟ فقلت قوله تعالى « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون » .

فقال صاحبي : إن هذا القول منك حسن وأنا نظرت ما نقلته أنت في هذا التفسير عن هؤلاء الأولياء ، ولكن لماذا لم يقل القرآن ولا النبي ﷺ هذا ؟ القرآن مملوء بخوارق العادات غسبنا ذلك فيها وفيمن ظهرت على أيديهم . فقلت القرآن هو الذي نزل لإقفال هذا الباب ، ألم تر إلى عجل السامري إذ عبده بنو إسرائيل إذ رأوه أفضل من عسا قلبت حية وإلى سحرة فرعون كيف آمنوا لأنهم علماء ، إذن المدار على العلم

لا على هذه الخوارق والله يقول «أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» الخ وأذكرك بحديث الدجال ذلك الذي تظهر على يديه خوارق العادات ، فانظر حديثه الذي رواه البخاري بسنده عن الغيرة بن شعبة «أن الغيرة قال له يارسول الله إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله من ذلك» ويقول الشيخ محي الدين النووي عن القاضي عياض [إنه شخص ابتلى الله به عباده فأقدره على أشياء من القدورات من إحياء الميت الذي يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والحصب معه وجنته وناره واتباع كنوز الأرض له] . إلى آخر مقاله انظره فيما نقله الحازن في تفسير آية «خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون» في تفسير (سورة المؤمن) وهي سورة طافر .

وأنا أقول : إنما جاءت مسألة عجل السامري في القرآن وجاء أمر الدجال في الحديث وحذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين منه وأفادهم أن الأنبياء حذروا قومهم منه . أقول إنما جاء ذلك كله ليعرف قراء هذا التفسير وأمثاله أننا نحن الآن قد خدعنا الدجالون في داخل الاسلام وفي خارجه ، وقد يكون الرجل دجالا ولا علم له بحاله . وكل من صد الناس عن الحكمة والعلم وأرجعهم إلى طريقته وحده فهو دجال علم أو لم يعلم . فإذا يصنع الله للمسلمين بعد هذا . ذكر لهم في القرآن أن المدار على التعقل والفهم . إن عجل السامري عبده الجهال وأما العلماء فلا . وأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن الدجال تسكون على يديه خوارق العادات ، وأن جنته يجب الاحتراس منها ، وأن ناره تصير بردا وسلاما على داخلها .

وأنا أقول كما قلت في مواضع كثيرة من هذا التفسير [العلم والعمل صعبان على الناس والجهل والحلوة والتذكر مع إهمال أعمال الحياة سهلة على الناس] فليزج المسلم بنفسه في العلم والعمل وإن كانا شاقين عليه فهما سعادة له في الدنيا والآخرة . أما الكسل فانه معطل للمواهب وهو جنة ظاهرا وجهنم حقيقة . وإذا وجدنا أن عيسى قتل الدجال فلنقتل نحن الدجالين في [أمم الاسلام قتلأ أدبيا بأن نعم التعليم في ديار الاسلام ، فالعلم وحده يقضى على الحرافات ويحيى النفوس . فالمسيح رمز للعلم والدجال رمز لأولئك الذين أضلوا الأمم وهم جاهلون . لادجل أكثر من الجهل . انظر إلى الأمير عبدالقادر الجزائري . ذلك الرجل الحكيم كيف حارب الفرنسيين سنين وسنين . ولكن لما عم الجهل بلاده جاء عالم فرنسي وصار مطلقا على أسراره . ومن هنا غلب المسلمون على أمرهم لأنهم لم يقرأوا توارخ الأمم فقلل احتراسهم . ثم انظر إلى محمد أحمد المهدي السوداني ظهر للناس بالكرامات ولكن لنقص العلم بأحوال هذه الدنيا لما أسلم رجل نمساوي كان في الجيش الانجليزي (اتمنه) وبه وحده فتح السودان ، ولقد كان بنام علي باب المهدي ويبيت به يقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله الله محمد أحمد المهدي ولي الله) وهكذا .

فقال صاحبي : أنا الآن اكتفيت أن تلك الخوارق لا تقيم أمة وأن المدار على العقل . فهل لك أن تحدثني عما رأيته أنت منها ؟ فقلت انظر كتاب الأرواح تأليني . فلقد مر في هذا التفسير منه كثير وهو مملوء بعجائب الخوارق العجيبة على يد الأرواح المحضرة من إحضار القاكية في غير أوانها ومن الإخبار بالغيب الخ .

وإني أحدثك حديثا حصل في مصر . وذلك أني يوما كنت جالسا مع المرحوم صديق حسن باشا جلال في منزله بالاسكندرية فحضر صدفة مستشار كبير في محكمة الاستئناف وقال أنا أريد أن أحدثك حديثا عجيبا أنا كنت قاضيا في قنا بصعيد مصر فحضرت عند عمدة البلدة وكان هناك رجل يسمى الشيخ سليم فقالوا له أظهر شيء (للك) أي القاضي فرفض وأبي فألحوا عليه ثم قالوا للك اطلب شيئا فقال أطلب منك أن تحضر لي زجاجة (فيها روائح عطرية) قال وهذه لا تسكون إلا بالاسكندرية ، فقال له : حالا أعطني (٢٥) قرشا فأعطيتها له فرماها في الجو وصار يضرب على عجب ذنبه في مؤخر ظهره ثلاث دقائق . ثم قال ضع يدك

في جيبك قال فوضعت يدي في جيبى فوجدت الزجاجاة فدهشت وقرأتها وهي باللغة الفرنسية وعجبت أشد العجب ، فقال المرحوم حسن باشا جلال ديني يمنع ذلك وكنت لم أطلع على علم الأرواح الحديث اطلاقا تاما ولم أؤلف كتاب الأرواح . فقلت إن كتاب الاشارات لابن سينا فيه أن بعض النفوس الانسانية تقدر على أعمال عظيمة وعلى إخبار بالغيب ، وضرب مثلا لذلك بأن الترك يأتون برجل يعرفونه ويربطون جبلا في رقبتهم ويذهبون به ويجيئون فيغشى عليه فيخبر بالغيب . وهكذا يقول : إن قوما يضعون قطرة حبر في زجاجة فيها ماء وبأمرون شخصا مخصوصا فينظر إلى تلك النقطة نظرا طويلا فيخبر بالغيب [وانتهى المجلس على ذلك . ثم إن الشيخ سليما المذكور سمعت بعد ذلك عنه من كثير من القضاة والمستشارين والمحامين والعلماء والمدرسين غرائب تفوق التصور ومع ذلك كان رجلا جاهلا . ثم إنني لى أصحاب من شيوخ الطرق أخبرني غير واحد منهم أنهم يتظاهرون بالإخبار بالغيب إماما للامة واستحوذا على عقولهم .

فقال صاحبي : أنت الآن علمتني علما إقناعيا أن هذه الخوارق ليست مقصودة ولا نافعة بل قد تكون ضارة فهل يوافقك علماء الاسلام على ذلك ؟ فقلت إنهم يقولون [إن خوارق العادات كما تكون على أيدي الأنبياء تكون على أيدي العامة وعلى أيدي السكاذبين والفاستق وتسمى على يد ولي كرامة وعلى يد النبي معجزة وعلى يد الجاهل معونة وعلى يد الفاسق استدراجا] فقال والله هذا عجب فأرجو الآن أن تختم هذا القول بمحادثة تكون مدونة في الكتب موثوقة بما عند الأمم التي تعيش معنا حتى تكون مقوية لما ذكرته أنت لأن ما ذكرته أنت يسمى خيرا لإنسان واحد ولكن ما تذكره عن أهل العصر يكون قد اطلعت عليه الأمم وأقرته . فقلت : أحدثك عما جاء في [مجلة الجديد] تحت العنوان التالي وهذا نصه :

أشعوذة أم علم ؟

اعلم أن (هوديني) رجل ساحر أمريكي كان يعيش في عصرنا هذا واشتهر بأفعاله الغريبة التي برز بها كل ساحر سبقه حتى إذا مات منذ سنوات دفن معه سر كثير من أعماله التي لم يجد لها الناس تعليلا ، فمن ذلك أنه يأتي بكرة ضخمة يدخل فيها رجلا ثم يربط شرائط الكرة إلى بعضها ويطلب من الرجل أن يخرج من الكرة دون أن يمزقها ودون أن يفك الشرائط ، وهذا العمل مستحيل كما هو ظاهر ، ولكن هوديني استطاع أن يفعله بكل بساطة وسهولة ، وبحبس (هوديني) نفسه في تابوت من الرصاص أحكم إغلاقه ثم يدفن على عمق ستة أقدام من سطح الأرض فإذا بك تراه أمامك بعد لحظة ، وقد يدخل أيضا إلى الخزائن الحديدية الهائلة التي تستعملها البنوك الكبيرة وتوصد الأبواب الضخمة عليه ولكنه لا يلبث أن يبدو لك كأنما هبط من السماء ، وهزأ (هوديني) بجميع سجون أمريكا وأوروبا كما أن الأغلال لا تستمر في يديه إلا ريثما يمضي ثوان معدودة فإذا يدها طليقتان وإذا هو حر يرح ، والآن بعد أن مات يتساءل الناس : كيف تسنى له أن يمارس كل هذه العجائب ؟ ويقول (السر ارثر كونان دويل) إنه يعلل هذه الظواهر الغريبة بأن لهوديني القدرة على التحلل من الحالة المادية ، ولكن هوديني نفسه سحر من هذا الرأي الذي يريد أن يقرره (السر ارثر كونان دويل) فقد كتب هوديني يقول :

[لست أتحلل أو أتجسد ، وكل مافي الأمر أنني أحكم في إرادتي وأسيطر على الأشياء المادية على طريقة أفهمها وحدي ولا يستطيع أن يفهمها سواي بمن قد أبوح لهم بأسراري ، على أنني أرجو أن أدفن بأسراري معي لأنها لا تفيد الإنسانية ، وإذا عرفها بعض عديمي الذمة تسنى لهم بواسطتها أن يسيثوا إخوانهم] .
ولقد بلغ من ركون (هوديني) إلى كفايته وقدرته الشاذة أنه سجن نفسه في سجن (سيبيريا) الشهير

الذى يفخر به البوليس الروسى باستحالة الهرب منه على أى سجين، ولكن (هودينى) استطاع أن يرى الضوء بلا مشقة، ولقد قيد (هودينى) بالسلاسل الضخمة وربط إلى فوهة مدفع تنطلق منه قنبلة بعد ربع ساعة ولكن هودينى تخلص من قيوده فى ست دقائق .

وجملة القول أن (هودينى) أتى بعجائب يحار فيها العقل وما زلنا حتى الساعة نجهد شأنها . انتهى ماجاء فى المجلة المذكورة ، والله أعلم .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : لقد وضع الأمر وعرفنا لماذا ذم الله التقليد ؟ والله لقد كنت فى حيرة وشك فى أمر أمة الإسلام ، فبينما أنا أقرأ تاريخ النبى ﷺ وأصحابه فأجدهم قد تفتنوا فى خدمة النوع الإنسانى وهدايته فمات عمر مقتولا وعثمان كذلك وعلى كل هؤلاء كانوا صادقين صالحين لم يحبوا الدنيا، ومع ذلك لم تنقل عنهم هذه الحوادث الدهشة . أقول : فبينما هؤلاء كذلك إذ أنا أجد جميع مشايخ الطرق لإقليلا وكذلك المهديين كابن تومرت وغيره ، كل هؤلاء تنقل عنهم أحوال لم ترد عن الصحابة والتابعين فيحار الإنسان . أيرجع إلى الصدر الأول وإلى فعل رسول الله ﷺ فيكون بلا كرامة ولا يقبل عليه الناس إقبالا روحيا ، أم يترك الدنيا ويزهدها عسى أن يتبعه الناس ويقبلوا عليه ويكونوا له أعوانا وأصحابا ؟ فان لم يصل لهذا فقد أراح نفسه من الناس واستراح فى منزله وتعبد لربه وصار وليا وانتهى الأمر . قال : فأقول الآن إن هذا كله أصبح فى نظرى جهالة، وأنا أقول أنا الآن مطمئن لقولك وسأرفع صوتى بين المسلمين قائلا لهم بالبرهان لا بالتقليد .

« أيها المسلمون جميعا : نحن اليوم مغرورون فكونوا جميعا عاملين علماء مفكرين ، وإياكم أن يخذعكم قوم عن طريق النبى ﷺ وأصحابه وصلوا بالليل لتقربوا من ربكم ، ولا تشغلوا أنفسكم بما لا يفيد دنيا ولا أخرى . فقلت له : لقد فتح الله عليك وأرشدك يقينا بأن هذه الطرق القديمة ضارة بالمسلمين قاتلة لهم وإنها طرق دجل وخداع وإن كان بعض أصحابها مخلصين على مقتضى تعليم شيوخهم كحسن بن الصباح وأمثاله . أذكرك بأمبراطور اليابان وهو جد الأمبراطور الحالى فإنه كان من أسرار ديانتهم أن جدته التى مضى عليها أربعة آلاف سنة كانت امرأة نازلة من السماء فكان يعتبره اليابانيون نصف إله باعتبار أمه وهى إلهة وعلى ذلك كان لا يراه أحد لأن من رآه احترق بالنار . فماذا فعل ؟ نظر الرجل فوجد أن أوروبا أكلت الشرق (أكلامسا) . فماذا يصنع ؟ نزل إلى الشعب وسار فى الشوارع وقال للناس أنا الأمبراطور انظرونى لا تخافوا فأزال هذه الحرافة . ثم إنه أمر بالتعليم العام وقرأ الشعب علوم أوروبا كلها وحاربوا الروس فاتصروا فعضموا هم وعظم الشرق فى أعين أهل أوروبا . فهل يليق لعطاء الإسلام وشيوخ الطرق أن يبقوا على هذه التقاليد العتيقة التى أهلكت المسلمين والتى هى فعل المسيح الدجال . فليعلموا أن من الجهالة أن ينتظر المسلمون ذلك الدجال والمسيح الذى يقتله وإن كان هذا لا مانع منه ولكن لهم لنا الآن أن تقتل الدجل والكذب بالعلم كما فعل الصحابة والتابعون، أولئك الذين رأوا القروس والروم حولهم وهم أولو حول وطول فأنصاعوا الدولتين ليرجعوا العالم إلى الصلاح .

فليعلم المسلمون قاطبة الآن أن الدجل والكذب الحالىين فى بلاد الإسلام يجب محوهما وذلك بالروح العلمية العامة وبغير ذلك لا سبيل لإسعادهم . لهذا جاء ذكر الدجال، ولهذا جاء ذكر عيسى قاتله، بل لهذا جاء رسول الله ﷺ ولهذا ألف هذا التفسير فى الزمان الملائم و(لله الأمر من قبل ومن بعد) .

(تذكرة)

﴿ المهديون وبعض شيوخ الطرق . وماذا يفعل المسلمون بعدنا إذا لقوهم ؟ ﴾
 لقد ذكرت فيما تقدم في هذا التفسير في (سورة مريم) ما سطره صديقنا (اللورد هيدلي) الإنجليزي
 الذي يقول في كتابه [إيقاظ العرب للإسلام] ما يأتي :
 « إن جماعة من الألمان عثروا على كتابة في بلاد آشور تاريخها قبل المسيح بنحو (٩) قرون
 مسطورة في الألواح، ملخصها : أن ابن الله البكر قد صاب، وهذا الصاب يشبه صاب المسيح من كل وجه .
 فقال لأهل العرب: بأي أبناء الله أقتدى؟ أبابن الله الذي كتب تاريخ صلبه قبل المسيح بتسعة قرون متقولا
 عما كتب عنه قبل ذلك بأكثر من ألفي سنة ، أم بابن الله الذي حدث بعد ذلك وهو المسيح ابن مريم ؟
 فأنا لا أتبع هذا ولا ذلك بل أقول إن عيسى نبي الله وروحه وأتبع دين الاسلام لاغير . هذا هو أول الأمر
 وآخره » اه .

هذا يخفى ما تقدم في (سورة مريم) وأقول الآن : يظهر لي أن العالم الانساني عالم كله مقلد جاهل
 إلا قليلا « وقليل من عبادى الشكور - وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون
 إلا الظن وإن هم إلا يخرصون - قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن
 عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون » تبين لي من أحوال هذا الانسان أنه يشبه :

كرة طرحت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

فإنه قبل الاسلام أدخلت عليه الغفلة في جميع أنحاء الكرة الأرضية فقال له الأخبار والرهبان وأمثالهم
 « إن الله ابنا فاتبعه » وكلما تقدم العهد جددوا له ابنا آخر . وفي الاسلام حوروها وقالوا هذا هو المهدي ، فمن
 السفاح وهو أول خليفة عباسى أزال الدولة الأموية وأخذ بثأر الحسين رضى الله عنه واستمر ملكهم عدة
 قرون إلى المهدي الفاطمى الذى ظهر في بلاد العرب وجاء مصر . والمهدي بن تومرت . والمهدي السودانى .
 والمهدي الفارسى وهو بهاء الله . والمهدي الهندى وهو غلام أحمد وغير هؤلاء كثير .

ويقول الأستاذ (هنرى دى كاسترى) الفرنسى قريبا في هذا الكتاب : « إنه مثل هذه الأفهام وجد
 في الاسلام (مذهب الواصلين) والذين يبدم توزيع كثير من الميراث في اعتقاد العامة وإلهم صار يرحل
 الجمع العديد من القوم الذين ضلوا سواء السبيل الخ » انظره في (سورة الأحزاب) عند الكلام على أنه
 صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه سراج منير .

أقول : فإذا رأينا هؤلاء الأورويين يفرّ علماءهم ويهرب حكاؤهم من دين اخترعته عقول للأمم إذ
 كانوا أطفالا . فهكذا سيقول المسلمون بعد قراءة هذا التفسير « بأي المهديين تقتدى ؟ أبا المهدي السودانى
 أم بالمهدي الفاطمى ؟ أم بالمهدي (محمد بن تومرت) ؟ أم المهدي العيسوى البهائى ؟ أم المهدي الذى انتهى
 أمره من ولد العباس ، أم المهدي الهندى ؟ لاهؤلاء ولا هؤلاء بل أقرأ القرآن وأعاقق بأخلاقه وأهتدى بهديه .
 هذه هى الأمة الاسلامية المستقبلية . أما تلك الفرق المتشاكسة والأقوال المتضاربة فأنا هى من أتباع أمة
 الاسلام الأمم كما فى الحديث « لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب
 لدخلتموه » وما يحزننى وآسف له أنك إذا قرأت القصيدة للتقدمة التى قرئت على قبر (محمد بن تومرت)
 وأنه هو المهدي المنتظر وأن أتباعه يبقون إلى زمان عيسى بن مريم وأن الحديث الوارد فى المهدي أنه يبقى
 سيعا أو تسعا وأنه هو بقى تسعا محمول عليه .

أقول: إذا قرأت ذلك فإنك تجد هذا بعينه هو الذي يكرره الإمام «عبي الدين بن عربي» في الفتوحات بعد موت (محمد بن تومرت) بعشرات السنين. ولا يعتبر رحمه الله بما تم له وأن ملكه زال وأتباعه انفضوا من حوله وبشر هو بمهدي آخر وعين زمانه وظهر اليوم عدم صحته «كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون».

واعلم أيها التلميذ أني أكتب هذا وأنا أعلم أن كثيرا تحدثهم أنفسهم بأنهم المهدي المنتظر ومنهم واحد كان صديقي في مدرسة (دار العلوم) ولكنه عاقل فإنه بعد أن أراد إظهار أنه المهدي ترك ذلك. إن هذه الأمة الإسلامية بعد اليوم ستقرأ التاريخ والعلوم الرياضية والطبيعية وسياسة الأمم وأحوالها. وهناك سيظهر فيهم مصلحون مجددون حقا. وهؤلاء هم الذين سيزيلون الحرافات والدعاوى من بلاد الإسلام وسيكون ظهورهم عقب تمام نشر هذا التفسير. وهؤلاء هم الذين يظهر الإسلام ظهورا أنم على أيديهم فبش لهم من لا يعرف دين الإسلام وبش لهم من يتبعه ولكنه متحير في أمره فيجد البلاد قد ملأها الشيوخ:

« وكل له غرض يسعى ليدركه »

هذا آخر ما خطر لي في تفسير آية «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم» الخ حوالي فجر يوم الأربعاء (٢٣) إبريل سنة ١٩٣١ م. والحمد لله رب العالمين.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد اتضحت آية «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا» الخ. هذا هو أم سرها ومقصودها في زماننا وكل من قرأ هذا من المسلمين يصبح وقد صار موقفا بهذه الفكرة عاشقا للعلم مكبا على العمل والله هو الولي الخ. فقلت الحمد لله رب العالمين.

فقال هذا قد أفهمني أمر خوارق العادات وأن التقليد ليس مفيدا، فهل تذكر لي شيئا من التقليد في أمور أخرى كالطب ولو حادثة واحدة. فقلت له: أذكرك بما مضى في (سورة الشعراء) عند قوله تعالى: «وإذا مرضت فهو يشفين». انظره هناك فانك تجدني نقلت من كتاب فيه تراجم الأطباء لابن أبي أصيبعة: أن الهرة كانت تقاقل أفعى وكلما لدغتها رجعت إلى نبات فتمرغت فيه فيزول ألمها فترجع كرة أخرى وتقاقل قال في الكتاب للذكور (وهو الذي نقلته هناك) إن ذلك الذي رأى هذا قلع هذه الشجرة، فلما رجعت الهرة لم تجد تلك الشجرة فماتت. أقول لك: لما ظهر ذلك (في الجزء الثالث عشر من هذا التفسير) كتب كاتب في [جريدة الأهرام] يقص هذا القصة بنفسه ويدعي أنه رأى ذلك رأى العين وهو كاذب، لأنه قرأه في هذا الكتاب وطلب من الأطباء بحث هذا الموضوع فبحثوا وردوا عليه وقالوا إن هذا النبات هو السمى في مصر (رعراع أبوب) وليس فيه هذه الخاصية مع أنه هو يقص نفس ما كتبت في هذا الكتاب بطريق النقل، فهذا القول عن الأقدمين غير صحيح وليس هناك بحسب ما عرف الناس نباتا على هذه الشاكلة، فهنا كذبان بحسب ما ظهر، كذب القدماء في ذكر هذه الحكاية، وكذب هذا الشاب الذي ادعى أنه رأى وهو مارأى إلا ما كتبتنا هنا. وبعد أن كتبت هذا عثرت على نفس المقالة المكتوبة في الأهرام فهناك نصها:

حول ترياق سم الأفعى (ولعاب القظ)

سيدى الفاضل رئيس تحرير جريدة الأهرام الغراء :

تبعث بامعان وشغف ما كتبتموه تحت هذا العنوان سواء ما كان منه بقلم محرركم أو بما وصل إليكم من حضرات قرائكم الأفاضل وأنا لايسعنى إزاء سعة صدركم فى متابعة هذه الحركة العلمية ومناهضتها على صفحة جريدة كبيرة كجريدة الأهرام الواسعة الانتشار . أقول لايسعنى إلا إبداء شكرى لكم بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن كثيرين غيرى ممن يهمهم أمر هذا البحث المفيد . وبهمنى بصفة خاصة ككاتبى خبير فى هذا النوع من الأبحاث أن ألفت النظر بأنى قت بالتجربة التى نوهتم بها فى هذا الصدد للثبوت من لعاب القظ وهل فى الحلايا اللسانية أو اللعاب الذى يفرزه عند المقاومة مايصح أن يكون ترياقا لسم الأفعى يتقى به غائلته . الواقع ينكر ذلك بتاتا والتجربة تنفيه، إذ للفروض فى اللدغة أن يتسرب السم إلى الدم ويسير معه فى دورته المعتادة، فلا مقاومة والحالة هذه إلا من دفاع السكريات البيضاء وعلى قدر هذه السكريات البيضاء ونشاطها يكون التأخر أو التقدم فى التسمم، فإذا كان للعاب القظ والحالة هذه من فائدة (وهو ما لم يؤيده البحث بعد) فمهمته فى هذه الحالة أن يكون وسيطا ليس إلا ليشير فى السكريات البيضاء حركة النشاط المطلوبة للمقاومة . هذا تعليل . وثم تعليل آخر أن لعق القظ لمكان اللدغ ماهى إلا حركة فسيولوجية بحتة يقصد بها امتصاص الدم الذى عساه أن يكون قد تلوث بالسم قبل سريانته وهذه هى نفس الاسعافات الأولى التى يتبعها العامة عادة من عمل تربيط لاستنزاف الدم الملوث أو المصّ فى مكان اللدغ على شرط خلوص الفم من أى جرح يتسرب إليه السم وهذا التعليل الأخير هو الذى أراه أقرب إلى الصواب فى مسألة لعاب القظ . ثم مسألة التمرغ فى نبات الغبيرة أو الرعراع (رعراع أيوب كما يسميه العامة) للتمسح به كواقى من تسرب السم فهذا مدفوع من جملة وجوه فليس لنبات الغبيرة أى ذكر فى المادة الطبية ولا فى النباتات الافريازيدية ولم نسمع باستعماله فى عقاقير ما كعلاج لأى داء وما هو إلا نبات طفيلى كالحشائش التى تنبت فى وسط البقول عادة دون التماس ولو أنه تدور حوله أساطير خرافية غريبة والمادة الفعالة فيه لزجة حريفة قلووية ذات رائحة خصوصية وقد أجرينا على هذا الرعراع المذكور الصفة التحليلية فوجدناه خاليا من الجواهر السامة والمخدرة وبالبحث فى تأثير كعلاج لما ذكر له كأن يفيد فى حالات التسمم وذلك بأحداث اللدغ فى خنازير غينا (كوباي) ومعالجتها بالمادة المستخلصة منه فكانت النتيجة سلبية بحتة . فالقول بأن نبات الغبيرة أو الرعراع له أى فائدة كترياق فى سم الأفعى والعقرب قول مردود لأساس له من الصحة، وإذا كان حقا مارواه شاهد عيان على صفحات [الأهرام] من أنه رأى القظ يلعق مكان اللدغ ويتمرغ فى نبات الغبيرة فهو كما ذكرت آنفا حركة فسيولوجية بحتة يقصد بها امتصاص الدم الفاسد وما تمرغه فى نبات الغبيرة . على فرض صحة وجوده مصادفة وقت اللدغ إلا من قبيل تخفيف الألم كما لو كنا نفرك محل الألم عندما يشكنا دبوس أو ترتطم بشىء صلب . هذا ما عنى لى أن أسطره بخصوص ترياق الأفعى والعقرب ولعلنى قت ببعض الواجب المفروض على نحو قراء [الأهرام] الغراء ممن يهمهم أمر هذا البحث . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

هذا ماجاء فى [الأهرام] أفلا نحمد الله إذ جعل فى أمة الاسلام فى مصر من نراه يبحث هذا البحث ولا يشكل على آراء القدماء، وإذا رأينا علماءنا يقولون لسلك من قلده فى التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد فكندا

تقول فيمن قلد في الطب أو في السياسة أو غيره بل يجب البحث حتى تستبين الحقيقة . فبحث الفتي السكياوى
المصرى (أمير براده) في هذه المسألة قد أظهر لنا الحقيقة فيما قرأناه في كتاب (ابن أبى أصيدعة) فهكذا نفعل
في كل علم . اه والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبي : وهل تذكر لي مسألة واحدة أيضا في نظام الأمم قلد الناس فيها وهم محضون كالمسألة الطيبة
فقلت : قلد أمان الله خان مصطفي كمال باشا منذ سنة واحدة في أنه قتل علماء الدين الذين عارضوا في الإصلاح
فقام الشعب عليه فزل عن الملك إذ اغتصبه رجل كان ابن سقا بحجة المحافظة على الدين ثم قام عليه الشعب
فأنزلوه عنه وقتلوه ، وتولى الإمارة (نادرخان) الذي كان قائد الجيش أيام أمان الله خان ، فأمان الله قلد
مصطفي كمال في إدخال الإصلاح بدون تدريج ولكن التقليد خطأ لأنه هناك فرقا بين الأمتين ونفس مصطفي
كمال انتقده المنتقدون في تسرعه وتغييره نظام تركيا سريعا ، فانه بينما هو يترك الحروف العربية ويكتب الشعب
كله باللاتينية ترى أوروبا تترجم من الحروف اللاتينية وهذا عجب أن يقلد الناس بلا برهان . وهاك ماجاء
في إحدى المجلات العلمية وهي [مجلة الجديد] فقد جاء فيها مانصه :

الحياة الاجتماعية

(ترم أوروبا من حروفها الكتابية)

ظهرت في الشرق من هذا العهد نزعة إلى مجازاة الغربيين في حروفهم الكتابية، ويعرف القراء أن تركيا
بأجمعها قد دخلت المدرسة من جديد لتتعلم الحروف الأوروبية كما أمر الغازي مصطفي كمال ولا فرق بين العجوز
والفتاة والمهرم والغلام. فان العقوبة الزاجرة تترقب من يتوانى في تنفيذ هذا الأمر المشدد ويذكرون أيضا ما تعترضه
فارس من تركها للحروف العربية واعتناق الحروف الأوروبية وما كان ينويه جلالة الملك الخالوع أمان الله خان
في بلاد الأفغان، ولو نظر مقتبسوا الإصلاحات الأوروبية إلى الجوهر دون المظهر لرأوا أن نقل المظاهر الشكلية
لا يفيد شيئا في تقدم الأمم وفي وسعهم أن يخذلوا مثال اليابان التي أبتت تراثها القديم وأدخلت في بلادها
الإصلاحات الجوهرية كالتعليم والصناعات والفنون والزراعة والتجارة وإعداد الجيوش البرية والبحرية . ولقد
كان من رأينا من زمن أن الحروف العربية تفضل الحروب الأوروبية من عدة وجوه لأنها في الحقيقة نوع
من الخط المختزل الذي يدل على الكلمات بأقل رسم وأوجز حروف . وقد كان الأوروبيون يندشون مثل
هذا الخط لكتابة كلماتهم فأوجدوا الخط المختزل ولكن طريقة ابتكاره لم تسكن ناضجة ولم يتيسر استعماله
للدلالة على الكلمات بالضبط ولذلك قل من يكتب به على كثرة ما يعانیه متعلمه من آلام دراستها ومشاقها ،
ولذلك لا يزال الأوروبيون يندشون نوعا مختصرا من الخط لأنهم يرون أن استعمالهم على الكتابة بحروفهم
القديمة ضياع للوقت الثمين وعبء ثقيل يتأى دونه كاهل المعلمين . ونسوق للقراء قرة مما كتبه رئيس تحرير
مجلة (النيشن) الانكليزية في هذا الصدد .

وإني أتساءل لماذا يستمر أبناء هذا العصر في حمل هذا العبء الثقيل وهو الكتابة بالحروف المطولة ؟
يقال إن الكتابة من أعظم الاختراعات التي توفق إليها الإنسان . ولكن هل يلزم من هذا أن نلبث إلى الأبد
عنا كفيين على ما اخترعه الإنسان الأول في عصور التأخر ثم نزع منا شعوب الثقافة في المدنية ؟ ألا بعد ذلك من
أكبر وأشنع سقطات مدينتنا الحاضرة التي لا يقوم مظهر حضارتها وجوهرها إلا بالكلمات المكتوبة فهناك
جيوش لا يمكن أن نخصي من الرجال أو النساء لا تكتسب أوقاتها إلا بالأعمال الكتابية ولا يمكن أن نجد

أحدا في دوائر الأعمال تخلو يده من قلم الحبر أو الرصاص ليدون ماهو منوط به من الأشغال . وربما كانت مدة الكتابة تستغرق على الأقل نصف الوقت . ويرى المستر اسبندر أن مايكتبه السحفي في اليوم لا يقل عن ٢٠٠٠ كلمة .

هذا مايقوله الناس في التقليد في أمور النظام العام . ولو شئنا لشرحنا التقليد في العلوم كدوران الشمس حول الأرض الذي كان يقوله الناس قديما وكيف دحضه العلماء بعد ذلك وكمسألة الكواكب السيارة وأنها سبعة فظهر بعد ذلك أورانوس ونبتون ولم يكن يعرف الناس إلا شمسا واحدة حتى عبدها فعرف الناس اليوم آلاف آلاف الشمس وشمسنا بالنسبة لها كأنها برتقالة أو أصغر فان كوكب الجوزاء أكبر من الشمس (٢٥) ألف ألف مرة . إذن التقليد جرعة ولهذا نزلت هذه الآيات «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم» الخ انتهى الكلام على الفصل الثاني .

الفصل الثالث

(في ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا)

أذكر في هذا الفصل [حادتين : الحادثة الأولى] الحرية السياسية . فانظر ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم الاثنين (١٨) فبراير سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

﴿ رجل إنجليزي يفعل في السياسة ما فعله مؤمن آل فرعون في سورة غافر ﴾

(مظاهرات ضد الكولونيل لورنس في إنجلترا)

نظم المستر (سكلافالا) العضو الشيوعي في مجلس العموم البريطاني مظاهرة كبيرة في لندن ضد (الكولونيل لورنس) المعروف على أثر الاشاعات التي راجت بأنه أضرم نار الثورة في قبائل الأفغان ضد الملك (أمان الله) فسارت المظاهرة مسافة طويلة تحمل صورة (لورنس) وأخيرا أضرموا النار فيها على صوت الخطباء الذين وصفوه بأقبح الأوصاف ، انتهت الحادثة الأولى .

الحادثة الثانية نبذ التقليد في الزراعة

(البحث عن السعادة الزراعية بطريق خارج عن التقليد الذي ذمه الله في القرآن)

اعلم أيها الحكيم أن هذا قد أشرنا إليه سابقا في هذا التفسير ، وتزيد عليه الآن ماجاء في جريدة الأهرام يوم الخميس (١٣) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

الزراعات في الماء

(طريقة جديدة لانماها)

ظهر في الولايات المتحدة اقتراح عظيم الشأن ينتظر أن يخلص الفلاحين وزراعي الفاكهة والأزهار من متاعب الزراعة وخدمة الأرض ومن قيود المواسم والأحوال الجوية وأجور الأطنان ، ويحدث انقلابا عظيما في فن الزراعة . فقد أعلن قسم فسيولوجية النبات في جامعة كلفورنيا أنهم توصلوا إلى إنتاج غلال وخضروات من مزروعات زرعوها في حياض رقراقة الماء ، وتعمدها بأقراص كهائية أسموها (أقراص النبات) في جو جاف خال من الرطوبة أشبه بجو الصحراء وتسمى لهم إنتاج الفاكهة والخضروات الشبيهة بالفاكهة قبل أوانها المعتاد . كذلك زرع أنواع مختلفة من الأزهار التي لا تنبع إلا في أواسط الصيف فازدهرت وقطفت أزهارها

في غرة فصل الشتاء . وتبين أن القمح والشعير والأرز إذا زرعت على هذا النمط يزيد محصولها من ٢٥ في المئة إلى ٥٠ في المئة ، أما البنجر والجزر والسكرن وغيرها من الخضروات التي من فصائلها فقد نمت نموا أسرع من نموها المعتاد بمدة تتراوح بين عشرين وثلاثين يوما . وقد زاد متوسط حجمها العادي ٦٠ في المئة بغير أن تفقد شيئا من رسمها ونضارتها . وزرعت (الطاطم) بهذه الطريقة الجديدة فزاد محصولها ٤٠ في المئة وتبني زرع الورد في جو المنازل في فصل الشتاء القارس فبما وازدهر في مدة لا تزيد على الستين يوما . وزرعت (البازلة) في فصل الشتاء داخل المنزل ودرجة الحرارة في الحارج دون الصفر فتمت وبلغ طول أصولها خمسة أقدام وازدهرت وأنت ثمارها في مدة تتراوح بين الستين والسبعين يوما . وقد بلغ عدد التجارب التي أجريت نحو خمسة آلاف تجربة في خلال خمسة أعوام أسفرت عن هذا الاكتشاف العجيب الذي وصفه الدكتور جاريك رئيس قسم تشريح النبات في جامعة كلفورنيا بأنه أعظم منحة وأفضل هبة لقن الزراعة منذ بدء تطبيق علم تسميد المزروعات حتى الآن ، وتؤيده في هذا الرأي كلية الزراعة في تلك الجامعة وعدد كبير من الخبراء في الزراعة وخريجي كلية الزراعة وتجار الأزهار الذين ساعدوه في تجاربه ، وخلاصة السر في هذا الاكتشاف اللؤدى إلى سرعة الانماء وزيادة المحصول هي إعطاء النبات مقادير مركبة تحوى العناصر السبعة التي يتألف منهاغذاء النبات وإعطاء كل نوع مايلزمه من الغذاء بالدقة والضبط، وهذه العناصر مركبة في أقراص اسطوانية الشكل تذاب في الماء أو في التربة التي ينمو فيها النبات ، وهي تجمع معا في أنبوبة قصيرة أو اسطوانة بمادة كلسية تشبه الحوصين، وتحتوى هذه الأقراص على أجزاء معلومة من النتروجين والفوسفور والغزيا والحديد والبولتاس والسكرت والكلس (الجير) . وقد وجد في أثناء إجراء هذه التجارب والاختبارات أن كل نوع من الشجر والحبوب والخضراوات والأزهار يتطلب تركيبا مخالفا من حيث الكمية من العناصر السبعة كلها أو بعضها .

فالتركيب الذي يغذى (الباذلة) ويعجل نموها ويزيد إنتاجها مثلا لايفيد الورد وفصيلة البنفسج . وقد دلت التجارب على أن عدد التراكيب اللازمة يمكن حصره في عشرين نوعا . ومع أن أقراص النبات استعملت بنجاح للمزروعات في التربة ، فقد أسفرت التجارب أن خير وسيلة للانماء هي الماء بمقدار لتر لكل نباتة . فقد جرى بشتلة ورد زرعت حديثا في الأرض ولم تسكد جنورها تمتد ، ووضعت في الكمية اللازمة من الماء بعد أن أذيب فيه المقدار اللازم من أقراص النبات المختصة بفصيلة الورد، فتمت وترعرعت وفتحت أحكامها عن ورد نضير كبير الحجم في خلال ثمانين يوما . وأجريت مئات من التجارب من هذا القبيل في الحبوب والخضروات وشجيرات الفاكهة وأشجارها فكان النجاح في زراعة الحبوب والخضروات عظميا جدا ، فبين أن حجم المليون (أسبارجوس) قد تضاعف تقريبا من غير أن يطرأ أى تغير في غضاضته أو عدد فروخه ، وكذلك البطاطس زاد حجم محصولها خمسين في المئة بغير أن يزيد نمو شجيراتها . وتبين أيضا أنه إذا زرعت النباتات الغذائية في الماء بدلا من زرعها في التراب يزداد معدل نموها نحو مئة في المئة ويزداد حجمها ويتسنى زرع عدد كبير منها في مساحة واحدة . وأسفرت التجارب في زرع القمح وافية . وختم الدكتور جاريك حديثه قائلا « إن أهم ما في اكتشافه هذا أنه يمكن ملايين من الناس أن يعيشوا على محاصيل تنتجها المياه في أراض كانت لا تنتج سوى الشوك » والقطن والتبغ لهما نتائج باهرة . فقد نما القطن من البذور حتى طرح اللوز في مدة تسعين يوما . وظهر أن القمح إذا زرع في الماء المذابة فيه أقراص النبات يزيد نموه خمسين في المئة أكثر منه إذا زرع في التراب المغذى بأقراص النبات . وحملت نتائج هذه التجارب الدكتور جاريك ومساعديه على الشروع في إجراء تجارب زراعة النباتات الغذائية في الماء لمعرفة نفعاتها إذا زرعت على قياس تجارى فوجد

أن الحياض التي عمقها من ثمت إلى ثمان بوصات هي أصح ما يكون لزراعة الحبوب والخضروات ، وقد استعملت حياض طول كل منها عشرون قدما وعرضها خمسة أقدام مصنوعة من الخشب ومبطنة بورق مدهون بالقار وترك الورق زائدا من كل جهة ليصلح غطاء للحوض وجعل في هذا الغطاء ثقب صغيرة قريبة بعضها من بعض وأدخل في كل ثقب منها شتلة من النباتات بحيث تصل جذورها إلى الماء الذي وضع فيه عدد من أفراس النبات ، وقد تبين أنه يتسنى بهذه الطريقة زرع ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما يزرع في المساحة ذاتها من الأرض مع سرعة النمو وزيادة المحصول كما ذكرنا آنفا . وقد أدت مواصلة هذه التجارب الاقتصادية إلى أن هذه الحياض الخشبية المسقوفة بالورق المدهون بالقار أو بالأسلاك الوثيقة هي خير الوسائل وأقلها نفقة لزراعة الحبوب والخضروات في الماء ، وقد رأى الدكتور جارنيك ومساعدوه أن نفقة حياض من هذا النوع تغطي مساحة فدان مع ترك طرق بينها تبلغ على الأكثر ٢٥٠ ريالا في أية ناحية من أنحاء الولايات المتحدة حيث المواد غالية الثمن وأجرة العمل باهظة . أما في الأنحاء الأخرى من العالم فالمعتقد أن النفقة لا تزيد على ١٥٠ ريالا وإذا زادت المساحة إلى خمسة أفدنة أو أكثر فإن نفقة الحياض اللازمة لتغطيتها لا يمكن أن تزيد على مئتي ريال في الولايات المتحدة ، وهكذا تبلغ نفقة حياض خمسة أفدنة ألف ريال أو ثلاثة أضعاف ما يلزم لتصلح الأرض للزراعة كل عام ، ولكن متى أنشئت هذه الحياض فإنها تعمر على الأقل خمسين عاما ولا تحتاج إلى حرث أو ري ولا عرق أو تنظيف من العشب وكل ما هناك أن الحياض تملأ ماء وتوضع الأفراس الكباشية فيها مع سرعة النمو وزيادة المحصول ، والتخلص من آفات الزراعة التي تنشأ من الأرض .

وعلى هذا المنوال يتسنى للزارع أن يربح نفقة صنع الحياض في عامين . ثم إن مسألة المناخ ورطوبة الهواء أو جفافه وخصب الأرض أو عدم خصبها كل هذه العوامل الهامة في زراعة الأرض يظهر أن لآثارها لها في التجارب التي قام بها الدكتور (جارنيك) ومع أن طريقة الزراعة في الماء لا يمكن بها زرع نباتات في غير إقليمها فإنها تعجل نمو النباتات وتزيد محصولها في منطقتها الخاصة بها . فقد قام الدكتور (جارنيك) ومساعدوه بتجارب اكتشافه في جو درجة حرارته ورطوبته مضارعة لدرجة حرارة ورطوبة جو صحراء الأريزونا والمكسيك الجديدة والجنوب الشرقي من كاليفورنيا فزرعوا القمح واللفت والبنجر والخس والسبانخ والطماطم والباذنجان وغيرها من النباتات الغذائية فبين أنه في الامكان زرع ٢٠٠٠٠ شجرة من شجيرات الطماطم في حياض مساحتها تعادل فدانا بمحصول يزيد على محصول عدد مثلها في الأرض من خمسة وعشرين في المئة إلى ستين في المئة . ويرى الدكتور (جارنيك) أن أهمية اكتشافه الحقيقية هي استخدام طريقة زراعة الحياض في المناطق القاحلة القفرة في جميع أنحاء العالم إذ يمكن أن يزرع فيها الكثير من النباتات الغذائية . ويقول الدكتور (جارنيك) إنه يعلم أن رمال الصحراء يمكن جعلها صالحة للزراعة إذا تسنى ربيها بالماء العذب ربا وافيا ، ولكن يوجد ملايين وألوف الملايين من الأفدنة التي لا يمكن أن تصل إليها المياه العذبة لربها وزرعها ، على أن كمية ضئيلة من الماء تكفي لاستعمال طريقته وزرع النباتات الغذائية في صميم أجذب الصحاري وأقربها فأى نبع صغير أو بئر ارتوازية أو صهريج يجمع فيه ماء المطر ويكفي لتغطية قاع حوض طوله عشرون قدما وعرضه عشرة أقدام يكفي مئة قدم مكعبة من الماء وهذا الحوض يمكن أن يزرع ١٧٠ شجيرة من الطماطم ، وإذا فرضنا أن نصف هذه الكمية تلزم لتعويض ما تنصه الشجيرات في أثناء النمو وما يتبخر منه ويتسرب منافذ الحوض كان مجموع كمية الماء اللازم لهذا الحوض طول موسم الزراعة ٣٠٠ جالون أو ثلثائة صفيحة من حجم صفيح البترول مع أن هذه الكمية من الماء لا تكاد تكفي لرى نصف هذه المساحة من الأرض موسما واحدا مع العلم أن مساحة من الأرض معادلة لهذه المساحة إذا عهدت بالرى الوافي لاتسع لزراع أكثر

من خمس مايزرع في الحوض وكل نباتة تزرع الأرض لا تنتج من المحصول إلا ستين في المئة مما تنتجه النباتة التي تزرع في الحوض وينظر الدكتور (جاريك) إلى مستقبل اكتشافه لهذا فيرى أن كل بيع ضئيل أوبتر أو صهريج في الصحراء والأراضي القفرة القاحلة سيكون محوطا بجياض فيها ماء رقرق يغطي قيعانها إلى ارتفاعها ثلاث بوصات أو أربع وكل منها مزروع نباتا ذا محصول غذائي وماتنتج زراعة هذه الجياض كاف لمعيشة عدد كبير من السكان . ويرى سطوح المنازل المرتفعة بدلا من أن تترك بلا نفع ولافائدة حدائق غناء بالرياحين والأزهار أو بسابن تزرع فيها الفاكهة والخضراوات ، ويرى كل صاحب منزل في المدينة يستعمل جزءا من فناء داره أو حديقته لانتاج مايلزمه من الخضراوات والأزهار بريح وافر وأنه يصبح في وسع أي إنسان مقيم في أقصى بقعة من بقاع الأرض القاحلة أن يزرع كل مايلزمه ومن معه من الخضراوات والنباتات والأشجار المثمرة التي يلائمها الإقليم . والعمل الذي يتطلبه الزرع على هذه الطريقة الجديدة لا يبلغ عشر معشار ماتطلبه خدمة الأرض اه .

{ تذكرتان }

[الأولى] تذكرة في سورة الأحزاب في قوله تعالى «والصائمين والصائمات» [والثانية] تذكرة في سورة سبأ في قوله تعالى «يعلم مايلج في الأرض» الخ وسر من أسرار الفهم المستخرج من الأرض .

[التذكرة الأولى] في قوله تعالى «والصائمين والصائمات» وهي سر من أسرار الطب في الصيام المذكور في الآية فوق ماتقدم في (سورة البقرة) من المسائل الطبية والصحية في آية «أستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير» وفي سورة الأعراف عند آية «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» وفي سورة الحجر عند التليج إلى قصة آدم ، وفي سورة طه عند قصة آدم أيضا ، وفي سورة الشعراء عند آية «وإذا مرضت فهو يشفين» .

فهم هذه المواضيع من التفسير أهم مافي علم حفظ الصحة من التجاني عن الأدوية المشهورة والاكتفاء بالمداواة الطبيعية ، وكذلك مر في سورة القصص عند قوله تعالى «ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار» الخ بيان كيف يكون الهواء الطلق وضوء الشمس جورا وسعادة وصحة ، وهكذا في أول (سورة العنكبوت) عند ذكر الجهاد كيف كان الصوم أصبح نافعا في العلاج بايضاح تام ، أما هنا فإني أقول : جاء في سورة الأحزاب في هذا المجلد أنه صلى الله عليه وسلم سراج منير بنص الآية وأن ضوء الشمس هو الذي يفتك بالحيوانات الترية للمهلكة الحادثة من العفونات للسلطات على أهل الأرض ، فهكذا آي القرآن التي هي أشعة من نور الله أشرفت على أهل الأرض يجب أن يرجع إليها المسلمون اليوم مع أمثال هذا التفسير لتزول من بلاد الإسلام تلك الغفلة التي استحكمت بالآراء المنحرفة عن إدراك جمال هذا الوجود الذي حرمة المسلمون أجيالا وأجيالا ولا جرم أن ماذكرته هناك في القرآن على هذا النحو يمثل له في الحياة المادية الدنيوية بما يفعله أهل أمريكا اليوم من التعرض للشمس والصوم أي ترك الطعام مع شرب الماء أمد أربعين يوما فيزول من أبدانهم فقر الدم ، فإذا كان الصيام الطبي (الذي له شبه ما بالصيام الشرعي وليس من كل الوجوه) قد أخذ مع ضوء الشمس والهواء النقي على إعادة الصحة وإزالة فقر الدم والمرض الناشئ عن المداومة بأكل اللحم في ذلك المرض هكذا أم الإسلام باعراضها عن الخرافات والبدع وتمسكها بنفس كتاب الله الذي يحرضهم على معرفة مافي هذه الدنيا من الجمال والابداع يرجع لها مجدها وشرفها القديم العظيم ، فهناك ماجاء في إحدى المجلات العلمية وهي (المصور) بتاريخ (٢٨) مارس سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالي وهذا نصه :

فقر الدم ومعالجته بالصوم

جاء في بعض الصحف الأمريكية أنه طرأ تحول في الطب عند كثيرين من الأطباء ، فإنهم بعد ما كانوا يصفون اللحم الدامي للمصابين بفقر الدم أصبحوا يصفون لهم الصوم الآن ، وفي الولايات المتحدة مستوصفات ومستشفيات يعالج فيها من يصف لهم الأطباء الصوم . ومن أوصافها وقوعها في مكان تطلق الهواء نقيه ، تعرض غرفها وسطوحها للشمس وإحاطتها بخدائق تعطر الهواء بأريجها الطيب ، ولا يتغذى في المستشفى إلا بالماء ومع ذلك لا يكون ما يطلب منه في مقابل إقامته في المستشفى مبلغا يستهان به ، وتتفاوت مدة المعالجة بين (٤٠) يوما و ٥٠ يكون للمستشفى في خلالها تحت مراقبة الطبيب ، أما نتيجة هذا الصوم فتكون جلاء بصر من يشكو ضعف البصر وزوال ما يسببه من فقر الدم ، وشفاؤه من مرض البول السكري واندمال قروح معدته وعودة القوة إلى الذين هجرتهم من جراء الإفراط في العمل ، ويكفي الإنسان مدة ثلاثة أيام ليتعود الصوم ويتخلص الجسم من السموم العائشة به بعد ستة أسابيع أو سبعة ، ويقول العارفون (إنه إذا لاحظ الإنسان الحيوانات وجد أنها حين تكون مريضة تمتنع عن تناول الطعام ، وعند الانسان نفسه يكون فقدان الشهية للطعام دليلا على اضطراب صحته ، وعلى كل حال ينبغي المرء ألا يعتمد على الصوم بدون أن يستشير الطبيب انتهى .

هذا ماجاء في مجلة [المصور] وبه تم الكلام على التذكرة الأولى والحمد لله رب العالمين .

﴿ التذكرة الثانية ﴾

(خواطر في صلاة العصر في قوله تعالى « يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها »)

(كتب يوم ٩ رمضان سنة ١٣٤٨ هـ)

لقد علمت فيما ذكرناه مشروحا ومرسوما موضعنا أن أكثر الألوان التي تصبغ ثياب الناس في الشرق والغرب اليوم إنما تكون من القطران ، وذلك القطران من الفحم والفحم مما يخرج من الأرض . ومن عجب أن هذا الفحم مكث مئات الآلاف من السنين وهو يتلظى ويتقلب ويحترق في النار الحامية في جوف الأرض ، فهناك حرارة عظيمة جعلت الحطب حنما ، فلما أن أخرجه الناس اليوم كشفوا أمره فوجدوا فيه مئات الألوان فصبغوا بها الثياب فأكب عليها الناس في الشرق والغرب وكان هذا التهلك سببا في هلاكهم في الدنيا وعذابهم « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

ولذلك نجد جميع الأمم التي استعمرها الفرنجة مكبين على الزخارف والزينة التي تبهرهم ويريقها ولعانها فنزول ثروتهم وتضييع بلادهم . مثال ذلك بلادنا المصرية أيام الغفور له إسماعيل باشا ، فإنه استدان واستدان البلاد فكثرت دين الأمة وكثرت دين الحكومة . فقد ضلت الأمة ودخل الانجليز البلاد بحجة المحافظة على الدين وهل هذا كله إلا بتلك الثياب التي صبغت بالقطران المستخرج في تلك الدول العظيمة من الفحم الحجري ؟ أو ليس هذا هو ما تشير له قصة السيخ الدجال إذ يأتي بجنة ونار وقد أمرنا أن نترك جنته وندخل ناره فتكون جنته نارا وناره جنة ، فهذه الأمم للتأخرة الاسلامية لما بهرها بهرج الفرنجة استحلته فوهمت في الدل وساءت الحال ، ومتى ذلت الأمة ذهبت منها الأمانة والشرف والشجاعة والعفة فصاروا عبيد الفاتحين وصعيدا جرزا تندروه الرياح فاذا ماتوا كانت أرواحهم ناقصة ، وهل للناقص إلا جهنم لأن جهنم للناقصين

والسلم الناقص يكون في جهنم يتم مدة عذابه ، أليس هذا هو سر قوله تعالى « سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » . أو ليس هذا هو سر القرآن ظهر الآن ؟ وإن كنت في شك مما قررت له لك الآن وقلت هذا القول غامض بعيد عن الصدق . أقول : أفلا أذكرك بما نقلته لك في آخر (سورة آل عمران) عن الزعيم الهندي (غاندى) عن مجلة الجامعة الهندية ، إذ يقول فيها في الفقرة الثانية مانصه : (إن الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وما هو أفصح من هذا ألا وهو العار على كثير من العائلات) اه .

فها هو ذا (الزعيم غاندى) من المعاصرين لنا يقول : إن المنسوجات الأجنبية تجلب العبادية وماتبها ، (وبعبارة أخرى) أنها تكون ماثرا لأنواع الدل والشقاء ويتبع ذلك الحسة وهذه تجمع أنواع المعاصي أفليس هذا من أسرار القرآن ؟ إذ ذكر أن سرايل أهل النار من قطران ؟ وها هي ذه السرايل ملونات بألوان من القطران الفحشى قهافت الناس عليها كما يتهافون على جنة السيخ الدجال وهذا التهافت أورث ضياع البلاد والاسراف والله لا يحب للسرفين قتهلك الأمم وتضيع البلاد ، فهذه النفوس الناقصة تعذب (عذابين) عذابا في الدنيا وعذابا في الآخرة لأن ذلك هو استعدادها ، وذلك كله سر آية « سرايلهم من قطران » وهو مستخرج من الفحم الحجري وهذا الفحم مما يخرج من الأرض في قوله هنا « يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها » الخ . تم الكلام على التذكرة الثانية والحمد لله رب العالمين .

خاتمة السورة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أيها المسلمون : انظروا معى نظرة عامة إلى هذه السورة ، هي مبتدأة بنعم الله الجزيلة وبأنه مستحق للحمد عليها وبأنها من السماء ومن الأرض والجنة خارجة نازلة صاعدة وهي مع ذلك لا تعزب عن علمه ، وأن هذه الحياة لاتقف عند حد الموت فهي ممتدة لتسكون أوآخرها نتائج أوائلها ونهاياتها مبنية على بداياتها ، وأن علم العلماء في جميع القرون وكشف الكاشفين للمعلومات في الأرض يبين لهم أن هذا القرآن حق وهاد إلى صراط العزيز الحميد .

هذا مبدأ السورة ، ثم إنه أخذ يبين لنا حال أمتين شريقتين أمة اليهود وأمة العرب ، فهما أمتان متجاورتان . فأما أمة اليهود فإنها ازدهرت بالعلوم والعرفان وال عمران أيام داود وسليمان عليهما السلام وكان ذلك الازدهار والعز موجبين لشكر الله على من أعطوا هذه النعم ، فأما أمة العرب وسبأ فإنهم بطروا النعمة وكفروها فلم يشكروها فحق بهم العذاب وساعدوا إبليس على تليسه عليهم وإضلاله فكفروا فحق عليهم الوعيد . لذلك أرسل الله النبي صلى الله عليه وسلم لجميع الناس من عرب ويهود وعجم فانتشر دينه في أقطار المعمورة وازدهر العمران .

ثم أخذ يقص علينا نبا النوع الإنسانى من حيث التقليد واستقلال الرأى وأن المقلدين الحاملين لا يتفهم عند الله الاحتجاج بأنهم غرهم الرؤساء ، فسكل عن عمله مستول وأن الرؤساء الضالين أشبه بالذباب يطوف على الوجوه والعيون فيبيض في القدرة منها فيخرج فيها بيضه دودا فيحصل الرمى للعين . فالعيب على من أصابه الرمى لأنه مستعد لوقوع الذباب على عينه وهذا هو قوله تعالى « ولئن ينفعكم اليوم إذ ظنتم أنكم في العذاب مشتركون » وقوله هنا « وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أن نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ

جاءكم بل كنتم مجرمين» ردا على قولهم «لولا أنتم لسكننا مؤمنين» كما تقول العين الرمداء للذباب لولا أنت
 لسكنت سليمة من المرض ، فنقول الذباب : إن استعدادك لوقوعي عليك أغراني بذلك فأصبحت بالرمد بسبب
 بفضي الذي وضعته فيك ، فأنا وقعت عليك لأضع البيض فيك وهذا طبعي الموافق لطبعك ، فنحن معانشتك
 في خلق واحد ، بيننا جامعة تجمعنا ، فأنت مرتعى الحصيد ، وأنا الراثة فيه ، فأى فرق أيتها العين بيننا
 وبين الأنعام ، ترعى في الرياض النظرة والحقول الحاضرة ذات الأزهار الهبة ، ألسنت أنت روضتي وجنتي
 ونعيمي لأن القدارة محبوبة لي وأنا بها قريرة العين سعيدة .

فهذه المحاورات بين الذباب و عين الأرمد أشبه بالمحاوره بين الرؤساء والمرءوسين إذ يقلد الآخر الأولين
 كما اتفق في أم الإسلام للتأخرة إذ استسلم المجموع الإسلامي لبعض من قلّ علمهم وضعف يقينهم فاستنزلوهم
 بعد عز من مراتبهم حتى عموا عن آيات القرآن كالذي جاء في هذه السورة ، وغاية أجدم أنه ربما يقرأ في
 أمثال هذا التفسير فيفرح بمعجزاته صلى الله عليه وسلم التي ظهرت في هذا الزمان كما تار سد العرم للرسمية
 فيها تقدم وأن ذلك يوجب تصديق أهل العلم ، فإن من يقرأ هذا ويعلم أن المؤرخين كانوا يشكون فيه فظهر
 لهم الحق بكشف أولى العلم فإنه لا محالة يصدق بالقرآن وبمن أنزل عليه ، ولكن أيها المسلمون ليس التصديق
 بأن القرآن حق هو كل ما يطلب منا ، فهذه مرتبة الرجس المبخوس المنزلة الضئيل المعرفة ، فبلاغه القرآن
 ومعجزات العلم كل منهما يرشد قوما إلى صدق القرآن ، ولكن التصديق بالقرآن بعد هذا الجدل يشاركنا
 فيه العامى والصبى فهما مؤمنان والایمان شيء والتشهير لمقتضى الإيمان شيء آخر ، يقول الإمام الغزالي رحمه
 الله تعالى : (إن من لم يكن له حظ من القرآن إلا لفظه وتفسيره واعتقاده بالقلب فهو مبخوس الحظ نازل
 الدرجة فإن ادراك اللفظ يسلمة حاسة السمع وفهم المعنى يكون بمعرفة اللغة العربية التي يشارك العارف بها
 الأديب اللغوى بل النغبى البدوى ، وأما التصديق بأن كلام الله حق فهذه مرتبة يشاركنا فيها العامى الجاهل
 بل الصبى . قال : وهذه درجات كثير من العلماء فضلا عن غيرهم) اه .

إذن فلتعرفي أذنك أيها التكي ولتجلس معي دقائق أحدثك فيها حديثي عن أم الإسلام التي أعيش معها
 مدة ما تم أترك الأرض ومن عليها وأتوجه إلى لقاء ربي . فأقول :

يارب أنت أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة وقلت لنا « كنتم خير أمة أخرجت للناس »
 وأسكنتنا في مساكن الدين ظلموا أنفسهم وتبين لنا في آناهم كيف فعلت بهم وضربت لنا الأمثال ، ومن
 الأمم المذكورة أهل سبأ وقد ملكتنا أرضهم . فإذا فعل المسلمون لما ملكوا ؟ هاهم أولاء تركوا مواهبهم
 العقلية والجسمية وتركوا نعمك التي أنعمت بها عليهم ولم يبالوا بنعم المظر النازلة عليهم من السماء . فهاؤه
 يجرى بلا سد بصد ولا عزم يحفظه فعطوا نعمك . نعم إن جمهورهم اليوم لا يعلمون إلا ماورثوه عن
 آباؤهم من العلم وهذا تقليد والتقليد مذموم . وها هم أولاء يا الله يقرءون في سورة سبأ في التي أنزلتها باسم
 بلادهم التي أهمها (مدينة مأرب) التي تقدم رسمها والتي تسمى باسم سبأ أيضا . وقد قلت فيها لا في صنعاء كما
 يقول الجمهور من القسرين « بلدة طيبة ورب غفور » وقرءوا أن هؤلاء الوثنيين لما أعرضوا عن حفظ
 السد وترميمه أنزلت عليهم عقابك في الدنيا ففرقهم فهم لم يشكروا النعمة ولم يحفظوها كما حفظها داود وسليمان
 عليهما السلام . فهم قوم غير شاكرين . والذي لا يشكر النعمة يحفظها تزول عنه . ثم أقول يا الله : قرأ
 المسلمون هذا في القرآن ولكنهم وقفوا على القشور وجمدوا على الألفاظ ولم يفتنوا أكثرهم لما نزل من هذه
 الحكم وهي أن يعمروا أرضك ليكونوا « خير أمة أخرجت للناس » كما كان سلفهم الصالح أيام الصحابة
 والتابعين لا أن يعكفوا على جمع المال وادخاره وعلى الملك والاكتفاء بالمجد الكاذب الذي هو كسراب يقيعة

بحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا « ووجد الأمم المحيطة بنا تتعاب على أطراف البلدان الاسلامية لجهل أهلها وقلة تبصرهم وعدم تعقلهم أمثال هذه الحكيم في القصص القرآنية حتى إنك ألهمت محمد بن تومرت في بلاد المغرب فظهر لهم بهيئة المهدي الذي يتبعون قوله أمدا ما ثم دالت دولتهم بعد مائة سنة وكانت هذه سنة تلك الأمم إذ اقتعدوا غارب التقليد الأعمى بمن سيطروا عليهم من الرؤساء الذين سخرهم الله لهم لما عميت البصائر عن القرآن الهادي إلى طرق الحقائق وأخذوا يتخبطون في ديجور الظلام الخالك حتى جاء زماننا فوجدنا بلادك التي سلمتها لنا خاوية على عروشها، فها هي ذه بلاد شمال أفريقيا في القرون للتأخرة نصب معين الحضارة منها فأرسلت لها أم أوروبا أمة بعد أمة، وها هي ذه بلاد العرب التي كانت منبع حضارة الأمم شرقا وغربا قد حل بها البوار ولحقها النكال، وها هي ذه بلاد اليمن وحضرموت وما والاها من البلدان لم نجد فيها ملكا اليوم يعادل ولا يقارب ملك السبئيين الوثنيين الذين عبرتهم بأنهم أعرضوا عن نعمك وضربت لهم مثلا بإهمال سد العرم الذي هو واحد من مئات الأسداد في تلك البلاد، فلم يفظن عالم من علمائهم إلى هذه العبر وقد أحاطت بهم النذر من كل جانب، وها هي ذه أوروبا واقفة لهم بالمرصاد، أنت يا الله خاطبت المسلمين بكلامك القديم اليوم منذرا ومحدرا . فكلارك القديم لا يتسنى لنا أن نعرفه إلا بأحد طريقين إما بألفاظ ترد على لسان نبي كالتى جاء في هذه السورة، وإما بفعلك أنت لأن المعاني تظهر بالقول تارة وبالفعل أخرى، فأما القول في القرآن، وأما الفعل فهو مآظير اليوم في العالم قاطبة . فكم يا الله من نعم بلاد العراق ونجد والحجاز واليمن وحضرموت محبوة فيها . وكم من سحاب مطرات مطرا يحيى الأرض بعد موتها ثم ترك ذلك كله وشأنه فلم يحفظ في زمن الإسلام بالاستخراج وبالأسداد كما حفظ أيام الجاهلية فانتفع الناس به] .

هذه حال المسلمين اليوم يا الله . وها هو ذا التفسير قد كتبتهم وهم يقرءونه وهو آخر إنذار للمسلمين، فان فكروا فهموا وانتفعوا وإن أغمضوا أعينهم عن الحق أهلكتهم الأمم .

أيها المسلمون : ها أناذا أنذرتكم وحذرتكم . ويا أبناء العرب إخواني وأصدقائي فكروا في قصص هذه السورة ، فكروا في قول ربكم « فأعرضوا » ولما أعرضوا أرسل عليهم سد العرم أليس هذا إصلاحا دينويا . ألم يكن خراب سبأ أو (مدينة مأرب) من نتائج الجهل الذي وقعنا فيه الآن . أنتم يا أبناء العرب إخواني قد أزيل الغطاء عن أعينكم فأخذتم تفكرون وهذا كتابي بين يديكم وأنا أعلم أنكم تقرءونه ومستحيل أن يمر هذا القول بلا نتائج، بل أقول فوق ذلك إنكم سترجعون المجد القديم الذي يجعلكم « خير أمة أخرجت للناس » كما كان آباؤكم الأولون ، وإنما خصصت الخطاب لكم الآن لأن مدينة مأرب وهي سبأ لا تزال في حوزتكم . فالفرصة سانحة لكم جميعا في العراق والحجاز ونجد وغيرها من البلدان . أنا أذكركم بقول الله تعالى في (سورة الأعراف) « لتندربه وذكرى للمؤمنين » فالقرآن إنذار لقوم وتذكير لآخرين . وجاء في نفس السورة « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيانا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحي وهم يلبون » إلى قوله « أو لم يهد للذين يرتنون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

فما من أمة من أمم الإسلام إلا حلت محل أم بائدة . وأهل اليمن حلوا محل أهل سبأ وأولئك أهملوا الماء فلم يحفظوا السدود وكفروا . وهؤلاء المسلمون أذنبوا وأعرضوا عن حفظ هذه النعم أفلا يحق لي وأنا أكتب هذا أن أخاف عليهم . فأنا أنذرهم وأقول لهم إن الذنوب على [قسامين] ذنوب ترجع إلى إهمال

النظام في الدولة وهذه جزاؤها الهلاك في الدنيا أو الدل . وذنوب جزاؤها في الآخرة غالبا وهي الأمور الاعتقادية . ويانه أن أكثر الأمم التي هلكت قرأه في القرآن كانوا غير منتظمين في أمور الحياة . ونسمع الله يقول «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» فإذا أصلحوا نظام بلادهم وهم كفرون فلاهلاك يلحقهم ، فالكفرون المعمرون لبلاد الله العادلون يكون عذابهم في الآخرة غالبا . انظر إلى أمة الصين وأمة اليابان . فهؤلاء ذاقوا عذاب الحزى في الحياة الدنيا لما كانوا غير مفكرين في أمر نظام مدنهم العام ، فلما أن عرفوا ذلك ونظموا البلاد خرجت أوروبا من بلادهم هاربة .

فيا أبناء العرب ، ويا أهل اليمن ، هذا كتاب الله وهذا فعله . يعذب الأمم في الدنيا بجهاها وإهمالها كما جهت وأهملت سبأ وأتم ورتم الأرض من بعدهم ، فوعيد الله لكم ظاهر واضح . ولا سبيل لكم من النجاة إلا بصرف آخر درهم من أموالكم في تعليم الشبان تعليما عاليا وهم هم الذين يقومون بنظام البلاد . والله لقد أنذرت وحذرت وأنت بالله تشهد «وكفى بالله شهيدا» . فهل لكم أن تسمعوا ماجاء في كتاب [التجارة الاقتصادية والجغرافية البشرية] فقد جاء فيه مايتى :

الانسان ونهضة الاستعمار

(هذه نقت الموضوع)

- (١) معنى الاستعمار .
- (٢) أقسام العالم الطبيعية طبقا لنظرية هيررتسن ممثلة بخريطة .
- (٣) الهجرة .
- (٤) موقف المستعمرين . الأمم المستعمرة وميزاتها .
- (٥) أنواع المستعمرات .
- (٦) ما يجب على المستعمر معرفته .
- (٧) أوروبا بعد الحرب الكبرى .

يدل معنى لفظ الاستعمار على عمران الأقطار وسكنى البوادي بعد إصلاحها واستيطان القفار بعد استنباتها واستثمارها ، فيتبدل وحشها أنسا ويستحيل جدها خصبا فينعم أهلها ببسطة في الرزق ووافر من الخيرات والثمرات، ثم يرق المجموع الانساني تباعا باستكمال أسباب الراحة المعيشية وهي كل مراميه في حياته الدنيوية .

قام الإنسان في عصور الكشف الجغرافي بنهضة جلي كان غرضه منها تعرف جهات العالم جميعها فزج نفسه في المحيطات واخترق ظلمات القارات واستهدف للخطر وركب الغرر فهلك من هلك ولكن نال بغيته وأصبحت الأرض جميعا قبضته فانقسمت إلى أقسام سياسية ترجع إلى مختلف المجهودات وما احتدم من قتال وما سجر من خلاف ، ثم تريت وأمعن فأنكشف العالم أمامه أقساما طبيعية لا تحول ولا تحور .

عمد إلى كل جهة جديدة وأقبل عليها بخيله ورجله يحدث فيها من الحرف والأعمال بما دلته عليه تجاربه في الجهات القديمة الماثلة لها والتي أقام عمرائها من قبل ، فأثبت القمع في أمريكا في الجهات الصالحة لزراعة وفي الأرجنتينة وأستراليا وزيلنده، وأوجد القطن بالنيجر والسكر بالبرازيل ونانال وأستراليا والبن والكافور والنبغ والفاكهة أشكالا وألوانا . غرس كلا في الثبت اللائم له . ثم استعمر الغابات والأحراج الجديدة على نمط القرعة ، وسبرغور الأراضي وانتزع من معادنها، وغاص أعماق البحار وانتفع من لآلئها فعمت هذه الخيرات العالم وأترى المستعمر وأترف فزعت النفوس إلى العوالم الجديدة الفائضة لبناوعسلا وخفت إليها الرجال وأتجهت إليها الآمال فأنتم بالاستعمار ؟ هاجر الناس من مواطنهم على حبها وشدة تعلقهم بها فاتبعوا هذه الأفاصي طمعا في المال أو فرارا من شدة التراحم ووطيس النضال وأقبلوا يرفون على مزارع عذراء ومناجم لم تطمت

وأرض لم توطأ فسالوا وجالوا وطبق صيهم الحاققين وأصبحوا قدوة ليني جلدتهم فأهتروا جميعا بحب الهجرة وأشربوها في نفوسهم وجرت منهم مجرى الدم حتى لهدى بها الصغير في غضاضة الإهاب ويصبو إليها العضل القوى في زمن الشباب ويحن إليها شيخهم إذا هرم وشاب .

إلى أن قال : فإذا لم يكن في الاستعمار غير تدمير أجزاء الأرض قاصبها ودانها والأخذ بيد الشعوب المتأخرة للهوض بها إلى مستوى الحضارة لسكنى لأن كثيرا من المستعمرات قد بلغ من الثروة الطبيعية أفصاها ولكن أهله الوطنيين للأسف غير قادرين عليه وعلى الانتفاع به لتأخر حالهم العلمية والكثير منهم همج وحشيون يعيشون على الفطرة ، فموقف المستعمرين في ذلك حرج . فلامم بمنصفين إذا تركوا هذه السكوز الثمينة طلام في يد من لا يعرف أن يرعاها ، ولاهم بمنصفين إذا تدخلوا فلا يسلون من الثاب والقديح ورميمهم بالتامع والجشع والتصدى لعير شأنهم والتدخل فيما لا يعنهم . وإذن فليدخل المستعمرون لا للامتلاك بل لغرض الإصلاح وإرشاد الوطنيين حتى يبلغوا بهم من المستوى العلمى والأدنى ما يؤهلهم إلى الانتفاع بمالمهم وبلادهم ، فإذا تم ذلك كان الاستعمار نعمة ، والمستعمرون ملائكة الرحمة ، ولكن الإنسان وما فطر عليه من حب الذات والسعى لها كثيرا ما يحيد عن المبادئ القومية العالية ويغفو عن واجبات الانسانية السامية فتشوهت صبغة الاستعمار وخرج عن معناه إلى معنى الاستعباد والاذلال .

امتازت الأمم المستعمرة : (أولا) بشدة البأس والسطوة والجبروت . فهي تعد الجيوش وتبني الأساطيل لتحمي ذمارها وتحفظ حقوقها ولتضرب بها العصاة الوطنيين إذا جنحوا إلى العداة ورفضوا منهج الاستعمار الذى وضعته . وامتازت (ثانيا) بكثرة المال تنفقه فيما تشاء وعلى من تشاء فتفتح به المناجم والصانع وزهو به الزرع ، وتشق القنوات . وتذل الطرق . بل تدلل كل صعب . وامتازت (ثالثا) بأنها الأمم العاملة المتحررة المتفنتة فى أساليب الرقى والحضارة . فمنها المهندسون والزراع والصناع والكيميائيون والأطباء ولقيف العالم الرافى جميعا . فأى قطر يحمله هذا النوع من الانسان وما وهب من المزاي ثم لا يرقى إلى معارج الفلاح والنجاح أو لا يفيض على المستعمر والمستعمرة أرضه بالحيرات والبركات .

والمستعمرات (رسان) نزلية واستغلالية . فأما الأولى فينزل فيها الأجنبي لغرض الاستيطان إذا كان جوها بما يلائم مزاجه وطبيعته لوجه الشبه بينه وبين بلاده الأصلية فيتمنى له إذا استوطنها أن يقوم بالعمل الجسمانى فيها ويرتقى من هذا الطريق إن شاء . ويقع عادة مثل هذه للمستعمرات فى الأصقاع المعتدلة . فمنها كندا واستراليا وزيلاندا وأمئالها . وأما الثانية فهي التى يفد عليها الأوروبيون للاستيطان بل لغرض الاستغلال والاستفادة من طيب أرضها وصيب خيرها حتى إذا جمع ما يكفيه قفل إلى وطنه الأول وعاش فيه بقية حياته منعا بما كسبت يدها ، فهو لا يستطيع القيام بالعمل الجسمانى فى ذلك الوطن الثانى لعدم صلاح جوه له ولذا يضطر إلى استخدام أهله الوطنيين فى ضرور الاستغلال والاستثمار على أجر معلوم بينما تكون له الزعامة العليا بفضل مامتاز به من العدة والمال والعلم . انتهى ما أردته من كتاب (الجغرافيا التجارية الاقتصادية) والحمد لله رب العالمين .

أيها المسلمون : أليس هذا فعل ربكم سبحانه وتعالى . جاء نبينا صلى الله عليه وسلم فقام معه العرب ونشروا العلم والأمن فى الأرض ثم حمد المسلمون إلا قليلا وناموا فلم يتركهم بلا مندرين .

فها هو ذا القرآن يدرسونه . ولما غفلوا وقلدوا آثار الله أهل أوروبا وحركهم لاستخراج ثمرات أرضه التى جهلها المسلمون فأحاطوا بكم من كل جانب . إنهم من مخلوقات الله تعالى وهو الذى أوعد إليهم أن يجعلوا

المتعمرات (قسعين) نزلية واستغلالية ، ولا جرم أن بلادكم أيها المسلمون بلاد استغلالية ، فهم ينزلونها للاستغلال لا للاستيطان . فدونكم كلام الله ودونكم فعله . فان لم تفهموا القول أفلا تعقلون الفعل ؟ فإياكم أيها المسلمون أن تذرروا النعم في بلادكم لئلا يستعمرها قوم غيركم . وإياكم يا أهل اليمن أن تتركوا الغابات والأشجار كأشجار الحروع الكثيرة في بلادكم فلا تنفضوا بها . وكذلك السكنوز والآثار المظمورة ، فقد حذرت وأندرت وبيئت « والله عاقبة الأمور » .

كتب في صباح يوم الاثنين الموافق (٢١) إبريل سنة ١٩٣٠ م ، وبهذا تم الكلام على (سورة سبأ)
والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السادس عشر من كتاب (الجواهر)

في تفسير القرآن الكريم

وبليه

الجزء السابع عشر : وأوله تفسير سورة فاطر

فهرس

الجزء السادس عشر

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صحيفة

- ٢ تفسير سورة الأحزاب وتقسيمها إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول في تفسير البسملة وأن ماتقدم في معنى البسملة في أول السجدة يرجع إلى الفرق بين صفة الرب وصفة العبد مع ضرب مثل بالبرق والشمس ، وبيان الرحمة في الطيور والأشجار الخ وأن الشر لا يكون بالقصد الأول وأن العداوات والمواد الفاسدة وجدت ليتفرق الناس فيسعدوا بالمنافع .
- أهم ما يدور البحث عليه في سورة لقمان (ثلاث مسائل : الأولى) خلق الانسان (الثانية) موته (الثالثة) بعثه .
- ٧ بيان أن الكلام على البسملة في (سورة الأحزاب) قد بدى بذكر السبب في تكرارها في أول كل سورة ، وكيف نام المسلمون في تلك القرون وجهلوا الحكمة في تكرارها فجمدوا على اللفظ ونسوا رحمة الله عليهم .
- بيان أن رحمة الله تعطى للعبد على مقدار ما يدرك منها ويطلبه ولا طلب الا بعد العلم .
- ١٣ (كتاب الرحمة) وفيه ثلاثة فصول ، (الفصل الأول) في الحث عليها .
- ١٤ (الفصل الثاني) في ذكر رحمة الله .
- ١٤ (الفصل الثالث) فيما جاء من رحمة الحيوان وأن رجلا سقى كلبا فغفر له وهكذا البعوضة فغفر لها لما سقت الكلب ، وذكر الجمل الذي شكا بلسان حاله من التعب للنبي صلى الله عليه وسلم ودمعت عينه ، والتهى عن اتخاذ ظهور الدواب مجالس . والكلام على رحمة النمل .
- ١٦ (القسم الثاني) من السورة وأولها « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين » إلى قوله « قديرا » ثم تفسير هذا القسم اللفظي .
- ١٩ تفسير قوله تعالى « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم » وبيان أن غزوة الخندق ذات ثلاثة فصول :
- ٢٣ (الفصل الأول) في ملخص الكلام عليها .
- (الفصل الثاني) في تفسير قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم » إلى قوله « وكان الله على كل شيء قديرا »
- (الفصل الثالث) في اتصال هذه القصة بما تقدمها في أول السورة الخ .
- ٢٥ (القسم الثالث) من السورة من قوله : « يا أيها النبي قل لأزواجك » إلى آخر السورة .

- ٢٨ بيان أن هذا القسم فيه فصول : (الفصل الأول) في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه بازهد في الدنيا وتفسير قوله تعالى « إن كنتن تردن » إلى قوله « إن الله كان لطيفاً خبيراً » .
- ٢٩ لطيفة : في ذكر سبب نزول آية النخير . وحكم الآية ، وأن المرأة إذا خبرت فاختارت زوجها لا يقع شيء عند بعضهم وتقع طلقة واحدة عند الآخر . وإن اختارت نفسها تقع طلقة رجعية أو بائنة أو ثلاث طلقات على الخلاف .
- (الفصل الثاني) في أحسن الأخلاق التي يكون عليها الرجال والنساء في الإسلام وهي عشر : الإسلام والإيمان الخ .
- ٣٠ ذكر أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها الخ . وتفسير « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » إلى قوله « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .
- ٢٩ بيان أن عتاب الله على نبيه في مسألة زيد وزوجه وأن المسلمين أحق بالعتاب في عدم إظهار الحقائق التي يعرفونها .
- ٣١ (الفصل الثالث) في فضل النبي صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته وتفسير ذلك من قوله تعالى « ما كان محمد » إلى قوله « وكفى بالله وكيلاً » .
- ٣٣ لطيفة : في أن السراج تفتس منه السرج . فهذه كالأبوة النبوية فهي ولادة نورية .
- ٣٥ (الفصل الرابع) في المطلقة قبل الدخول . وتفسير الآيات من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات » إلى قوله « إن الله كان على كل شيء شهيداً » . ذكر حكم من تهب نفسها .
- ٣٧ (الفصل الخامس) في وجوب تعظيمه صلى الله عليه وسلم ومن تعظيمه أن يصلى عليه الخ .
- ٣٩ بيان معنى آية « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض » الخ وههنا سبع لطائف :
- ٣٨ اللطيفة الأولى : في سر تعدد الأزواج وتعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف تزوج النبي صلى الله عليه وسلم تسعاً مع أن غيره يتزوج أربعاً .
- ٤١ المجلس الأول : في محاورة دارت بين الأستاذ وصديق له .
- ٤٢ بيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطلق ما زاد على الأربع لأنه حرم عليه أن يستبدل بهن من أزواج وأن يتزوج غيرهن ، فهذا الحجر عليه في مقابلة إباحة الطلاق والاستبدال ، فهذه الخصوصية إذن ظاهرة .
- ٤٣ بيان أنه لو طلق عائشة لكان ذلك خلافاً في سياسة الأمة وهكذا حفصة الخ .
- ٤٤ (المجلس الثاني) في طلاق هند بنت أبي سفيان إذ أصيبت بتنصر زوجها في غربتها وبعد أبوها فلا يحبس من زواجه صلى الله عليه وسلم بها ، وجورية من بنى المصطلق أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بنت سيد قومها ، ثم بيان أن رؤساء القبائل ليس لهم ماله من هذه السياسة الزوجية وأن النساء يقدرن نعمة الزوجية الشريفة حق قدرها جبا في الشرف .
- ٤٦ بيان أن تحريم أزواجه على المؤمنين بعده لسد باب الفتنة وحسم الأمور السياسية لتلا تطاول زوج أم المؤمنين بذلك إلى التدخل في السياسة . وبيان أنه اختص صلى الله عليه وسلم بأربع وترك باقيهن

لمذاكرة الحكمة والقرآن وأن هذه أول مدرسة نسائية في بلاد الاسلام ومدرسة الرجال كان تلاميذها أهل الصفة .

٤٧ (المجلس الثالث) في بيان رجال الصفة ، وأنهم أربعائة يحفظون القرآن ويتعلمون . وبيان أنه صلى الله عليه وسلم لو فاجأ نساءه الباقيات بعد الأربع بالطلاق لقامت فتنة كالفتن التي قامت في زمن عمر إذ تنصر (جيلة) ومعه ستون ألفاً لأجل مفاجأته بالقصاص لأجل الأعرابي . وبيان أن غيلان ومن معه إنما اعتنقوا الإسلام بعد التحريم فوجب عليهم ألا يزيدوا عن الأربع .

٤٨ بيان أن هذا النوع الانساني يعكس الحقائق عكسا وإلا لما بالنا نرى داود وسليمان عليهما السلام كان عندهما زوجات كثيرات ويعظمهما جميع المسلمين والنصارى واليهود . فكيف إذن يعترض المسكبرون على نبينا صلى الله عليه وسلم إذ تزوج تسعا .

٤٩ (المجلس الرابع) في ذكر مقاله (كارليل) الانجليزي . وتبيان أن البناء الجاهل لا يدوم بناءه وهذا الدين دام (١٢) قرنا فكيف يدوم بناء بانية دعوى في البناء . وأتمام الكلام في أن الأحاديث التي أُلصقت به الغرام بالنساء كلها أحاديث كاذبة كحديث ابن سعد أنه صلى الله عليه وسلم جرى له بقدر فأكل منها فأعطى قوة أربعين رجلا في الجماع وتبيان كذبه بالدليل .

٥١ (المجلس الخامس) وفيه استطراد في كيفية الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥٣ أقسام الوضاعين .

٥٤ الكلام على تعدد الزوجات في الاسلام . وبيان أن أهل أوروبا وان برعوا في العلوم الصناعية لم يزالوا مقلدين في أمور كثيرة ومنها هذه المسألة وهو تعدد الزوجات عند المسلمين . وبيان أن كتاب (أين الإنسان) الذي ألفته لنظام الأمم العام قد أثبت فيه أن تعداد الذكور والإناث في الأمم كلها متقارب وأننا لم نسمع أن أمة قل نساؤها فأخذت تطلب نساء من غيرها وبالعكس .

٥٨ بيان ماجاء في (مجلة المرشد) من أن عدد النساء في ايطاليا يزيد على عدد الرجال مليونين . وفي جريدة الساتان الفرنسية أن عضو مجلس البرلمان الفرنسي قال : إن في فرنسا مليوناً ونصف مليوناً فتاة غير متزوجات . وقال ان الفتاة لاصحة لها بغير الزواج . وأثبت أن هذا مغاير لقانون الطبيعة .

٦٠ (اللطيفة الثانية) في معنى قوله تعالى « وخاتم النبيين » وذكر جواب عبد الله كويليام الانكليزي للمسلم القصد من الرقي إنما هو في العموم والافق كل عصر أناس متوحشون حتى في عصرنا هذا .

٦٤ بيان أنه لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أصبح الانسان أرقى من الانسان الذي كان قبل مبعثه بمراحل وهو في تعليمه يدعو للترغيب والترهيب . وذكر جميع محاسن الإسلام كالعدل والتواضع الخ . وهي تقرب من الثمانين عدا .

ذكر النهيات وهي تقرب من الأربعين . وكل هذه المباحث لم توجد في الكتب السماوية . وهناك أمور ستعلم في المستقبل وهذا الدين لم يكن هكذا طفرة فهو آخر الأديان وهو ناسخ لما قبله من الشرائع لأنه أكلها ولا ينسخه غيره .

٦٢ نبذة من ترجمة عبد الله كويليام المذكور وسبب إسلامه .

٦٨ من آثار نبوته صلى الله عليه وسلم أن أتباعه لا يهتمون باختلاف اللون . ومن تلك الآثار الإسلامية أيضا أن اليهود دخل في دينهم بعض الاصلاح في التوحيد على يد موسى بن ميمون وأدخل في كتب

- اليهود خلاصات من علوم كتاب الملل والنحل وإخوان الصفاء ، وتحقيقات الغزالي وغيره من علماء الإسلام .
- ٧١ من الدلائل الساطعة على أنه صلى الله عليه وسلم سراج منير ما شهد به الجاسوس الفرنسي الذي أرسلته فرنسا لعبد القادر الجزائري وقد صار من خواصه وقرأ الإسلام فأفاد أن دين الإسلام حق ولكن العلماء لا يصلحون لبثه بين الناس .
- ٧٤ بيان أن الإسلام دين عمومي .
- ٧٥ من مزايا الإسلام أنه دين رحيم ، فهو يعدد بالجنة أصحاب الأعمال الصالحة المختلفي الأشكال والألوان لافرق بين عابد وعالم وتال للقرآن الخ . وقد حرم المسكرات لحفظ المسلمين من غوائلها التي منها طوائف الفوضوية وأعلى شأن النفس الانسانية بالصلوات الخمس . وهو دين ذو بساطة يلائم كل نفس حتى أبسطها وعم الزوج .
- ٧٨ (اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله» الخ . وفيها أربعة فصول :
(الفصل الأول) في الذكر وبيان أن فضائل الذكر عرفها المهتود قبل آلاف السنين وهذا من المعجزات والقرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم .
- ٨٠ (الفصل الثاني) في قوله تعالى «وسبحوه بكرة وأصيلا» .
- ٧٨ (الفصل الثالث) في قوله تعالى «هو الذي يصلي عليكم» الخ . ولا جرم أن الصلاة من الله الرحمة فولوا الرحمة ما كان نظام تلك الدورات بانواعها وهكذا .
- (الفصل الرابع) في التوبة والسلام .
- ٨٤ (اللطيفة الرابعة) في قوله تعالى «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا» إلى قوله «وسراجا منيرا» وبيان أن تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم بالشمس ليس كتشبيه النابغة النعمان بالشمس . تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم بالشمس والشمس بها حياة كل شيء . ولكن في المخلوقات ما حجب عنه الشمس خلقت فيه حيوانات ضارة ولا يقتلها إلا الترض للشمس كما هو الطب الحديث .
- ٩٥ آثار النبوة وانتشارها في أوروبا .
- ٩٦ الكلام على السيد ناصر الدين (دينه) المسلم الفرنسي والصور الشهير الذي مات وهو يبلغ من العمر ٧٠ سنة .
- ٩٨ بيان أن الإسلام لا يبالي إلا بالعقل وينبذ خوارق العادات فهو بهذا خالف جميع الأديان . والمسلمون أشد الناس تسامحا والمسيحيون اليوم يتعلمون التسامح من المسلمين .
- إن المسلم يعظم عيسى والمسيحي يذم محمدا ، إن أصل حريقنا العلمية فضاها للنبي العربي . ومن فضائل الإسلام منع الحجر وأنه لا واسطة بين الله وعباده ولا يسأل الانسان إلا عن نفسه .
- ١٠٤ المؤتمر الديني الدولي لخدمة السلام العام .
- ١٠٥ الكلام على حالة العميان في مصر وسؤال تلك الجمعية للحكومة المصرية في أمر العميان وهل لهم اغانة ؟ وكم عددهم ؟ وبكم ساعدتهم الحكومة ؟ وما أنواع مصنوعاتهم ؟ وما الرائج في السوق منها ؟ وهكذا .

- ١٠٧ اللطيفة الخامسة : في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا » الخ .
معنى « وحملها الانسان » من القاموس . لطيفة عامة للسورة كلها .
- ١٠٨ اللطيفة السادسة : في معنى قوله تعالى « وحملها الإنسان »
اللطيفة السابعة : وهى لطيفة عامة فى السورة كلها وفيها قبلها وما بعدها .
- ١٠٩ تفسير سورة سبأ . القسم الأول فى تفسير البسملة ، وبيان أن رحمة الله فى هذه السورة موجهة إلى
السليين من حيث إنه يذكرهم بأمر خلت فى بلاد اليمن كانوا ذوى علم وجدّ وتشعير .
- ١١٠ (القسم الثانى) فى تفسير السورة كلها . وبيان حكم فوائغ السور كالمجدلة وكالحروف الهجائية (الم)
وهكذا ، وأن الحمد فى الفائحة والأنعام والكهف وهذه السورة ، كل لحكمة خاصة ، والكلام على
أرجل الحيوان وعددها بمناسبة السور .
- ١١٢ (فصول ثلاثة : الفصل الأول) ذكر السورة كلها مشكاة .
- ١١٥ التفسير اللفظى .
- ١١٩ الكلام فى محاجة الكافرين والمعاندين الخ من قوله تعالى « قل من يرزقكم من السماء » إلى
آخر السورة .
- ١٢٢ (الفصل الثانى) فى أن هذه السورة ستة مقاصد .
- المقصد الأول والثانى والثالث من أول السورة إلى قوله « رجز أليم » وبيان أن السورة ابتدئت
بالحمد توطئة لما سيذكر فى السورة من ملك داود وسليمان عليهما السلام الذى استوجب شكر
النعمة عليهما .
- ١٢٣ (المقصد الرابع) فى التهديد والوعيد للمستهزئين .
- (المقصد الخامس) فى بيان أدوار ملك بنى إسرائيل الثلاثة بمصر وفى حكم الشيوخ ودور عظمة الملك
أيام داود وسليمان .
- ١٢٤ موازنة ملك سليمان بملك سبأ بن يعرب بن يشجب بن قحطان .
- ١٢٥ (المقصد السادس) الاستقلال والحرية فى الآراء . الاعتراض بالرؤساء الضلال بالحق .
- ١٢٦ (جوهرتان) الأولى : فى قوله تعالى « الحمد لله » وبيان أن الناس ثلاث درجات . منهم من
يعشقون الصور الجميلة ، ومنهم من يعشقون الصناعات الانسانية ، ومنهم من يعشقون الصناعات
الكونية .
- ١٣٠ صورة ملكة النحل والأرضة وجسم الإنسان من حيث إن هذه الممالك قد أنعمت فى أن لكل مركز
رياسة وأتباع بطبيعتها من النحل والأرضات والسيارات وأعضاء الانسان .
- ١٣٢ بيان أن كل من حنق فى صناعة وشاهد شيئا منها أدرك سرها وعرف فاعلمها .

- ١٣٥ ﴿الجوهرة الثانية﴾ في قوله تعالى «يعلم ما يبلغ في الأرض» الخ . البحث في الأرض وبيان الصور التي رسمها بعض العلماء في أدوار فهمها المختلفة .
- ١٣٦ المقام الأول : وصف الأرض .
- ١٤٠ (المقام الثاني) فيما يقوله علماء الاقتصاد في مباحث المعادن والفحم الخ .
- ١٤١ بيان أن التربة إما سوداء جلها الغرين (الطمي) وإما نباتية وإما بركانية، فالسوداء كأرض بلاد النيل جلها الطمي لا تحتاج إلى سقي كثير بخلاف الرملية وضدها البركانية في الولايات المتحدة .
- الكلام على الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة التي تبلغ (٣٠) ألف في السنة لا يشعر الناس بها تحدث ارتفاعا وانخفاضاً .
- ١٤٢ نشأة البركان التي هو جبل مخروطي تخرج منه مواد مصهورة وحمم بركانية .
- ١٤٣ بيان أن الفحم مخزون قديم في الأرض ومنه يكون اثراسيت، والفحم البخاري، وغم الكوك وهكذا، وهاك صورته في الأرض (انظر شكل ٢١) و (شكل ٢٢) .
- ١٤٥ وجود زيت البترول في بلاد القوقاز والولايات المتحدة وغيرها (شكل ٢٣) فيه صورة الأعشاب في مدة الفحم الحجري .
- ١٤٦ (شكل ٢٤) فيه ما تفرغ عن الفحم من الكوك والقطران والقار وزيت القار والنفط وغاز النشادر والأصباغ وهكذا ، وهذه في الرسم نحو (٦٠) نوعاً تقريباً .
- تفصيل بعض ما في هذا الشكل مثل الزيت الطبيعي والكبروسين والبرانين والغازولين .
- ١٤٧ الكلام على البزير والزيولين .
- ١٤٩ جمال العلم في قوله تعالى «وما يخرج منها» مثل الينابيع المحجرة بسبب ما فيها من الجير الذائب في الماء كغابة هليوبوليس المكونة من ينابيع حارة فيها أذيب الرمل ومثل الصخور الروسية الكيميائية من ذوبان صخور جيرية أو من صخور الملح التي ترى في (تشكوسلوفاكيا) الخ .
- ١٥٠ الكلام على حركات القشرة الأرضية . الزلازل والبراكين والنافورات . السواحل الطالعة كساحل المحيط الأطلسي الغربي وهو المجاور لأمريكا السكون من صخور رسوبية حديثة العهد الخ .
- بيان أن الجبال تكون غالباً على حافة المحيطات الكبرى وعند مجمع القارات وتخرج بسبب التواء الأرض من أضعف الجهات . الأنهار تجلب للبحار مواد تكون بها جبالاً جديدة في باطن الأرض بدل الجبال التي تبرز بالسلاسل أو بحركة القشرة الأرضية .
- ١٥٢ الأخاديد الغائرة . الهضبات المرفوعة . الجبال المختلفة . الزلازل .
- ١٥٤ بيان أن باطن الأرض عند القطبين مملوء فخماً به يكون القطب الشمالي ملتقى الخطوط الهوائية .
- (الفصل الثالث) في مبحث الجن وسيل العرم .
- ١٥٦ تعريف الأرض وأنها عمياء غبشاء الخ .
- ١٥٧ بيان أن الأرض تطرد الانسان وتبني مساكن في أرضه كما بنت في استراليا (١٦) قرية في مساحة (١٣٥) متراً ولها مهندسون وجنود يصنعون لها كل ما تريد (انظر شكل ٢٦) وهو رسم الأرض العاملة (شكل ٢٧) الجنود وعدو الأرض هي الخلة الخ .
- ١٦١ بيان أنه متى آن فصل الشتاء تفتح المنافذ المحرم فتحها طول السنة في ساعة خاصة ، وتخرج حشرات

- من هذه الملكة ذات أجنحة تعد بالملايين وتنشئ في الجو ما يشبه السحاب بمنظر جميل قصير المدى .
(شكل ٢٨) وهو رسم أرضة بالغة بسطت جناحها .
- ١٦١ الكلام على تخريب حشرة الأرض للأرض .
- ١٦٣ بيان أن حشرة الأرض تقدمتنا بملايين السنين .
- ١٦٤ خطاب المسلمين ، وكيف درس القوم حشرة الأرض وأنتم لم تدرسوها وهي في القرآن .
- ١٦٥ (المقام الثاني) «فلما خر تبينت الجن» الخ . وبيان أن العزائم والدعوات الكفرية وغيرها تذكر فيها أسماء الشياطين فيها نوع من العبادة . وبيان أن الأرواح الصغيرة تكذب وأن الروحانية لا يصح أن تكون بابا للرزق ولا علم للأرواح بالمستقبل في الكشف الحديث .
- ١٦٦ لطيفة في الكلام على آية «فلما خر تبينت الجن» الخ . وتبيان ما قاله الرجل الهندي بمصر الخ . بيان أن هذه الأرواح ناقصة وأن هذا العمل لم يخلق الإنسان لأجله في الدنيا وأنه لا يرقى هذا الهندي ولا كل من فعل مثله الخ ، وأن هذه الأحكام قالها الشيخ الدباغ والشعراني والخواص في الجزء الحادي عشر من هذا التفسير صفحة ٤٨ .
- ١٧٠ بيان أن قوة الإرادة تنتج أعمالا خارقة للعادة . مثل الهنود الذين اشتهر عنهم أنهم ينامون على المسامير ولا يألمون .
- ١٧٢ (البحث الثاني من الفصل الثالث) في سبأ وسيل العرم الخ ، وبيان أن المسلمين اليوم أشبه باليتيمين الذين حفظ الله لهم كثيرها باقامة الحائط عليه .
- ١٧٤ مخالف الجن التي يحكمها الأقبال أي الملوك الصغار . وبيان أن الخسلاف يشتمل على محافد أي قصور حولها مساكن يحكمها أذواء (جمع ذو) وأنه إذا تغلب رجل على مخالف سمى ملكا فهو ملك على هؤلاء الأقبال الحاكمين لهؤلاء الأذواء ، وملك الملوك هو التبعية أي ملك يحكم ملوكا . إذن هنا أربع درجات : أذواء أقبال ، ملوك ، تبابعة .
- ١٧٥ (خريطة مدينة مأرب بعد خرابها) وهي عاصمة (سبأ) وهي نفسها تسمى (سبأ) وهي المعنية بالبلدة الطيبة في الآية .
- ١٧٦ الخلط والخطب في تاريخ تلك البلاد . وبيان أن المؤرخين ليس عندهم دولة اسمها سبأ ولكن الكشف الحديث كشف ذلك موافقا للقرآن مخالفا للتاريخ المشهور ، وهكذا سد العرم كان الناس يشكون في أمره وفيما كتبه عنه الهمداني حتى ظهر اليوم بالكشف ورسمت خريطة كما رسمت هنا في هذا التفسير وهذا من أجل المعجزات النبوية .
- ١٧٧ بيان أن الناس يشكون في وجود سد العرم حتى تمكن المستشرق (ارنو) من معرفته ونشره في المجلة الآسيوية سنة ١٨٧٤ وزاره هاليفي وغلازر ، ووجدوا صدق وصف الهمداني له في كتابه (وصف جزيرة العرب) و (الأكليل) . وههنا بيان الميزاب الشرقي والأودية التي تصب فيه وجبل السراة وغيرها وهكذا ميزاب مور ووادي أذنه الذي تسير منه المياه إلى ما بين الجبلين وهما البلق الأيمن والأيسر .

١٧٩ رسم سد العرم وكيف ينصرف الماء منه ، والسد عرضه (١٥٠) ذراعاً، وطوله ثمانمائة ذراع ، وثلاثة
العربي وهو الأيمن باق والثلاثان الباقيان تهدما ، والأيسر عرضه عند القاعدة (١٥) ذراعاً وطوله
(٢٠٠) ذراعاً .

١٨١ خريطة بلاد العرب .

خريطة سد مأرب أو سد العرم .

١٨٢ عجائب القرآن في القرن العشرين، ويان أن ذكر سد العرم يذكرنا بطوفان نوح عليه السلام وبما
حصل في مصر سنة ١٩٢٩ وماحصل في أمريكا سنة ١٩٢٧ م وبأن منعه فرض كفاية وأن ذلك الفرض
عند بعض العلماء أفضل من فرض العين لاتساع فوائده . ويان أن نهر السيبي أغار على الجسور
فقطعها وأن هذا النهر سنة ١٩١٣ م قاض على مقاطعة (الاهيو) تخربت البلاد (٢٤) مليوناً من
الجنهات ، فأما في سنة ١٩٢٧ م فقد خرج البحر عن مجراه وأغرق سبع ولايات وارتفع على الأرض
(٨) أمتار .

١٨٤ (شكل ٢٢) مياه السيبي ترتفع على الجانبين وشكل (٢٣) نصف أحد جوانب للسيبي .

١٨٥ بيان اشتراك الشعب كله في درء الخطر ، وأن مئات ألوف من الناس باتوا بلا مأوى ، وأن الحكومة
أغاثتهم بفيلقين من الجيش وبلغت الخسائر مائتي مليون .
تتمة الكلام على أسداده اليمن وإيضاح من بنوا سد العرم .

١٨٦ الأسداد وأنها تبلغ في العدد مئات . ويان أن الذي بنى سد العرم أولاً سمعيلي ، ثم ابنه يشعمر ،
ثم ابنه كرب ايل ، ثم ذمر على ذرح ملك سبأ ، ثم يدع ايل دنار ، وقد تهدم مرارا وأصلح ،
ولما ملك الأحباش اليمن ظهرت لهم كتابة عليه سنة ٥٣٩ م وسنة ٥٦٥ م ونص إحدى الكتاتيبين
التي كتبها أمير الحبش (بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه الخ) وفيه تاريخ تغلب ذلك الملك على
الحارجين عليه .

١٨٨ (تذكرة) فيها يحافظ المسلمين إلى هذه النعم المحبوبة في أرضهم ، وكيف عرف قيمتها الوثنيون ولم
يبدأ بها المسلمون ، وهذا في الحقيقة انتكاس ، فأين شكر النعم إذن وقد أهملناها .

١٨٩ (جوهرة يتيمة) في آية « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » وأن أم الإسلام اليوم استيقظوا
وأحس العرب والعجم بما يصيبهم من الخطر ، وأن المسلمين كانوا في القرنين الأولين يرضعون من
أفابيق النبوة ثم في القرون التي بعدها صاروا أيتاماً وأوصياؤهم أمراء وشيوخ إن صلحوا صلحت الأمة
والعكس بالعكس .

١٩٢ القصيدة التي قيلت في ابن تامرته أنه المهدي المنتظر وأولها :

سلام على قبر الإمام المجدد سلالة خير العالمين محمد

والذكور هنا ٢٤ بيتاً

١٩٣ الكلام على أبي يعقوب يوسف وعلى ابنه يعقوب الذي أهان ابن رشد وعلى ابنه محمد وابنه يوسف
واللأمون من هؤلاء .

- ١٩٥ بيان أن ابن تومرت استعمل رجلا من أصحابه في طريقة الجذب وإظهار الكرامات وادعاء أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه العلوم وأطلق لسانه قسم الأمة إلى قسمين : أصحاب الجنة وأصحاب النار بمقتضى قائمة سرية يعرف بها الصدقون بالمهدى المعصوم والكذبيون ، ثم أمر أصحاب الجنة بقتل أصحاب النار وأخذ نسايتهم وأموالهم ، وبعد ذلك شغلهم للمهدى بالحروب حتى لا يحقدوا عليه بقتل رجالهم .
- ١٩٦ امتحان هذه السير والأحوال ، وأن الكلام على المهدوية تقدم في أول سورة الحج ، وأن أكثر أمة الإسلام تركوا مواهبهم واتسكوا على شيوخ جهلاء كما اتسكت العز على إطعامنا إياها فكان نقصها عظيما بالنسبة لنظيرتها الغزاة في البادية .
- ١٩٧ جمال العلم وبهجة الحكمة في ذم التقليد .
- ١٩٩ حديث الهند ، وبيان أنها أمة بلغ الرقي فيها أعلاه في بعض الأفراد وفي مؤخرتها أناس لا يزالون في أخريات الأمم كعهد القطرة الأولى .
- ٢٠٣ (نور على نور) الكلام على البراهمة في آية « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » . وأن الله الذي نظم عيون النمل والتباب لم يغفل عن أهل الهند .
- ٢٠٦ (الفصل الأول) في بيان المضار الحاصلة في بلاد الهند بسبب سوء التقليد ، وشرح أمر الزواج وتخفيف ضرره . وبيان نسبة الأرامل إلى غيرهن ونبذ العادات القديمة من قتل من مات زوجها .
- ٢٠٨ (الفصل الثاني) في نماذج من الكتب الإسلامية التي تغرى الملوك بالخداع وحبائل النصب ليهيمنوا على الشعب ، وهو كتاب (سر العالمين) للنسوب للغزالي كذبا ، وأن هذا الكتاب يأمر باظهار الزهد والكرامات . ثم يظهر الداعى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضرب مثلا بابن الصباح وبالمأمون أخى الأمين بن هارون الرشيد . وبيان أن الولي هو الذي لانهم الحياة الدنيا ويحب لقاء الله . أما الكرامات وخوارق العادات فما هي إلا امتحانات للناس . وتبيان حديث المسيح الدجال . وأن خوارق العادات على يديه امتحان للناس .
- ٢١١ بيان أن العلم والعمل صعبان على الناس وما أسهل الراحة والنوم والكسل والجهل والاكتماء بالكرامات وتقبيل الأيدي وما أشبه ذلك .
- ٢١٢ (أشعوذة أم علم ؟) (هوديني) رجل أوروبي في زماننا يدفن نفسه في الأرض على عمق بعيد ثم يخرج وفعل ذلك في كل دولة وأخذ يهزأ بالسجون جميعها وخزائن الحديد التي تقفل عليه فيخرج حالا بحضور وزراء الأمم وعظماؤها وهو القائل : هذا سر لو عرفه غيري لأضر بالناس إذا لم يكن أمينا وهذا يؤيد قول علماء الاسلام : إن خوارق العادات لا تختص بالأولياء بل هي عامة .
- ٢١٥ ذكر حادثة دالة على ذم التقليد في الطب وهي المذكورة في سورة الشعراء .
- ٢١٦ حول تزيق سم الأفعى ولعاب القط .
- ٢١٧ الحياة الاجتماعية وتبرم أوروبا من حروفها الكتابية .
- ٢١٨ (الفصل الثالث) في ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا ؟ .
- الحادثة الثالثة نبذ التقليد في الزراعة أن الأشجار والزرع تنمو في نفس الماء في حياض وتوضع في الماء أقراص محتوية على العناصر السبعة التي يتغذى منها النبات .

٢٢٠ بيان أن أى نبيع أو بر في أرض قفراء يكفي ماؤه لغذاء أناس في أرض قفراء اليوم .

٢٢١ تذكرتان : الأولى في قوله تعالى « والصائمين والصائمات » .

٢٢٢ قفر الدم ومعالجته بالصوم .

(التذكرة الثانية) في أن قوله تعالى « يعلم مايلج في الأرض » الخ يدخل فيه القطران الذى يستخرج منه مئات الألوان الزاهية التى بها اغتر بعض الأمم الإسلامية فحق عليهم آثار قوله تعالى « سرايلهم من قطران » وهذه أشبه بجنة المسيح الدجال التى تكون لنا جهنم ، وهذا عجيب القرآن ، والاستدلال على ذلك بقول بعض العقلاء إن التهاقت على الملابس الأجنبية يورث العبودية فى هذه الدنيا .

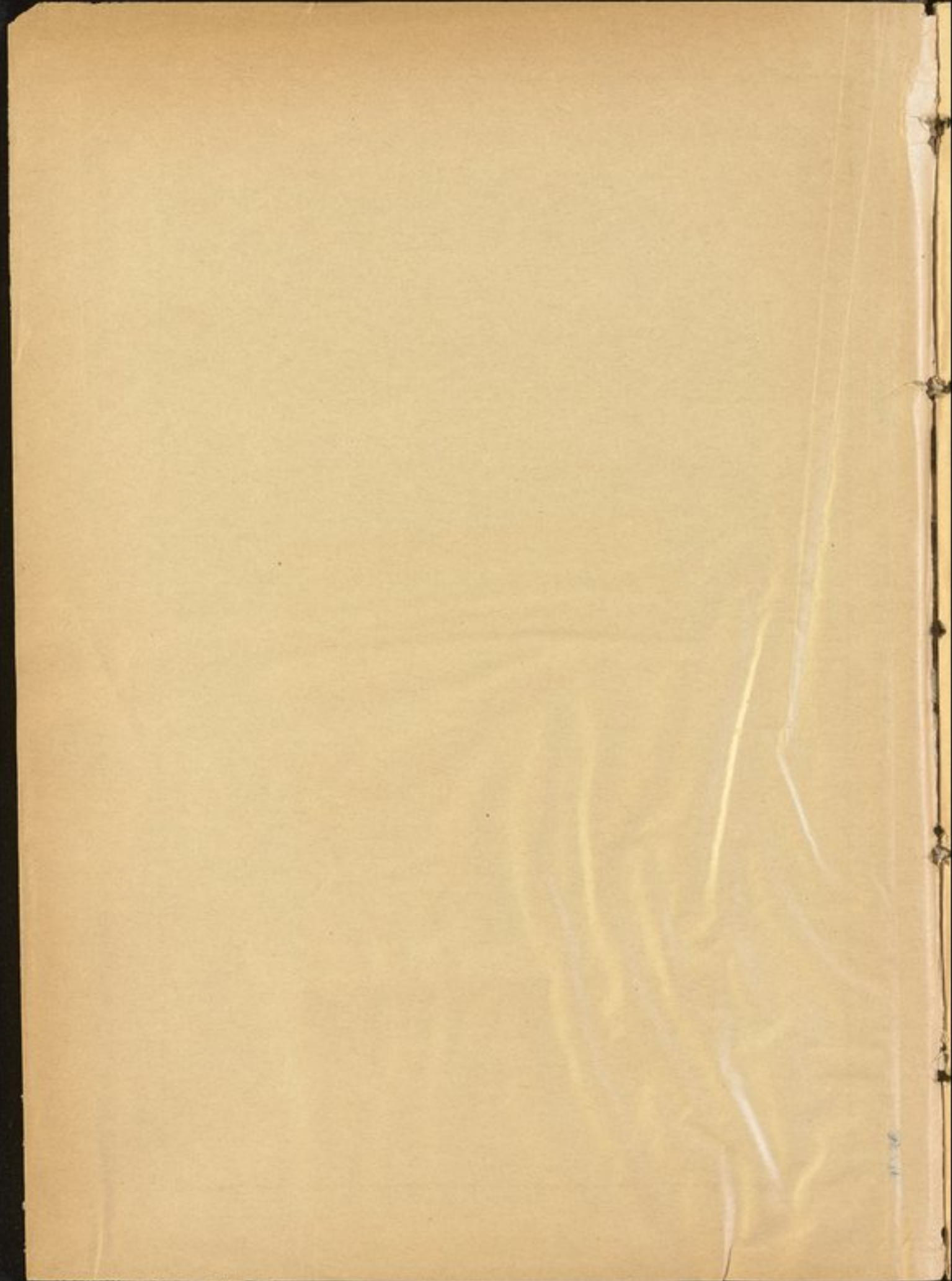
٢٢٣ (خاتمة السورة) وأنها مبتدأة بالتم الجزيلة وأن هنا أمتين شريقتين أمة اليهود وأمة العرب .

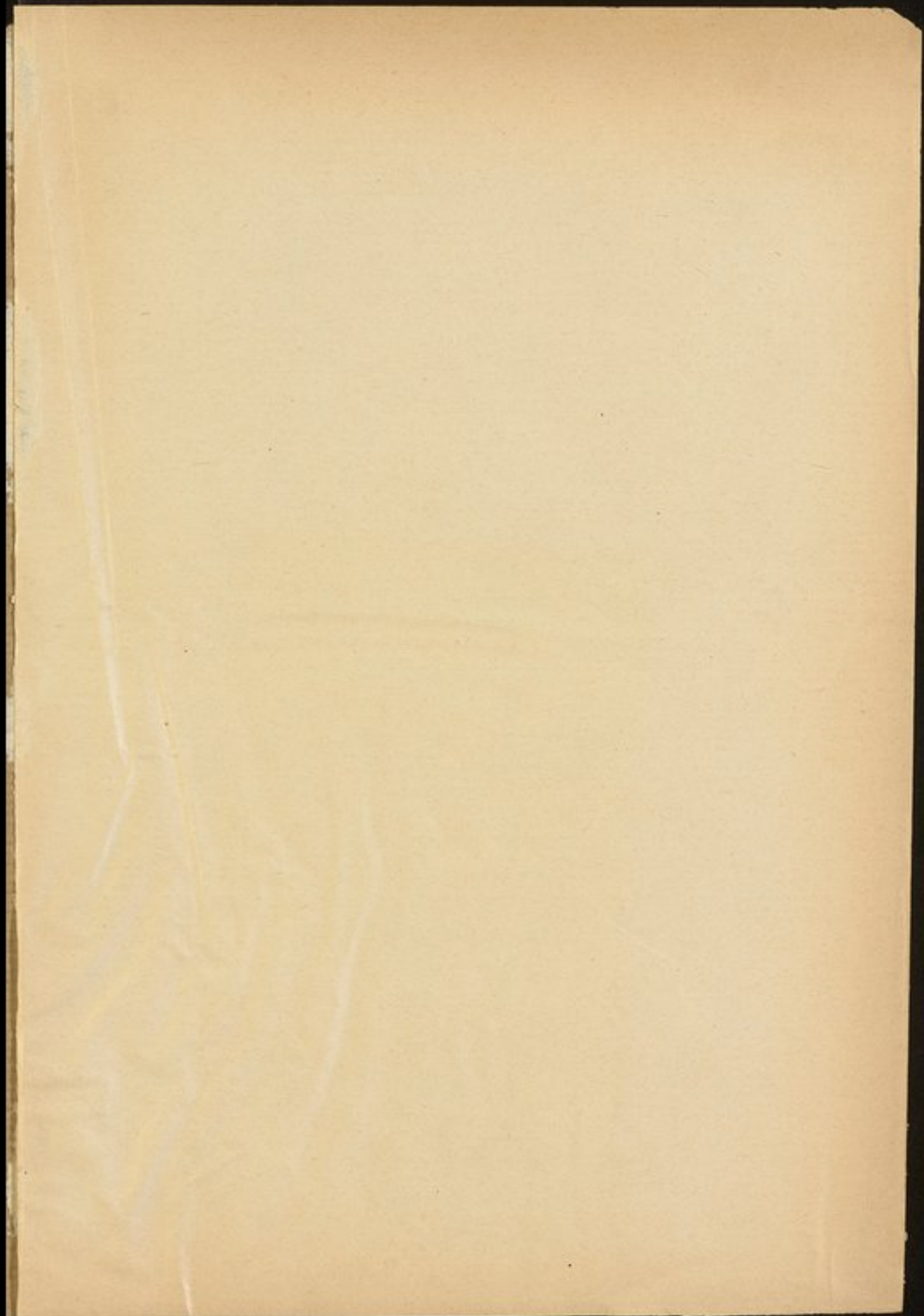
٢٢٤ الانسان ونهضة الاستعمار . وبيان أن الأمة العاملة تبحث عن الأرض التى نام أهلها عن إتقان العمل

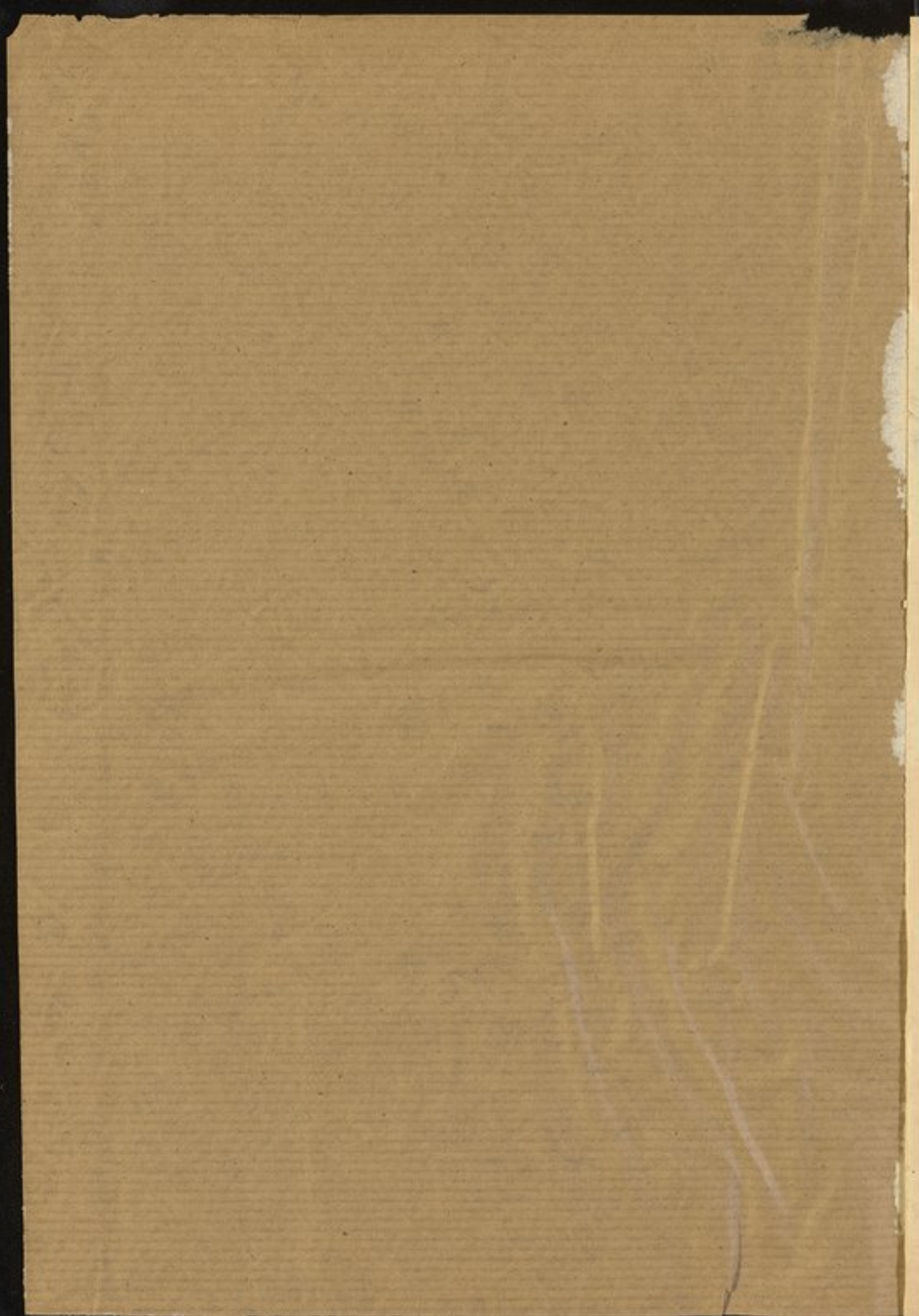
فها فتسخر أهلها لمصلحتها وتارة يستوطنونها . وبيان أن هذا التفسير آخر إنذار للمسلمين .

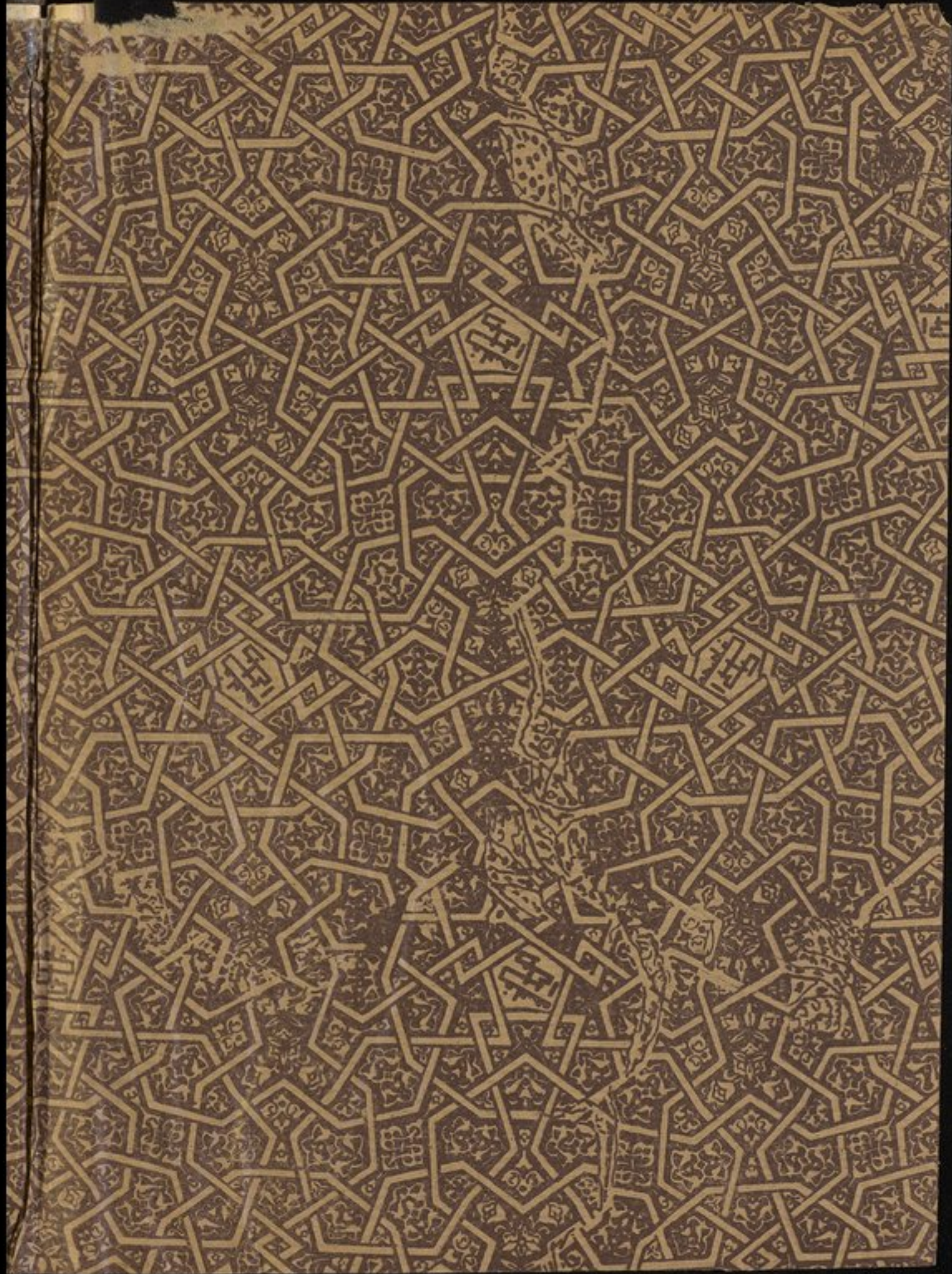
(تمت)

فهرست تفسير الجزء السادس عشر من كتاب الجواهر









COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758442

BP
130.4
.J27
v. 15-16

NOV 20 1973

6

04
7